

رواية
مكتبة
هنري شاريير
بابيون 1
الفراشة
ترجمة: حسين عمر

إهداء لـ.. أزرق





Author: **Henri Charrière**

اسم المؤلف: هنري شاريير

Title: **Papillon**

عنوان الكتاب: الفراشة

Translated by: **Hussein Omar**

ترجمة: حسين عمر

Cover Designed by: **Majed Al–Majedy**

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

P.C.: **Al–Mada**

الناشر: دار المدى

First Edition: **2021**

الطبعة الأولى: **2021**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد، حي ابو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

☎ +964 (0) 770 2799 999 ☎ +964 (0) 780 808 0800

☎ +964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

☎ +961 175 2617 ☎ +961 706 15017

☎ +961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjeh Haddad Street - from 29 Ayar Street

☎ +963 11 232 2276 ☎ +963 11 232 2275

☎ +963 11 232 2289 ص.ب: 8272



هنري شاريير

الفراشة

أو

بابيون

ترجمة : حسين عمر



إلى شعب فنزويلا،

إلى صيّاديها البسطاء في خليج باريا،

إلى الجميع، من مثقّفين وعسكريين وآخرين

منحوني فرصتي لكي أحيا،

إلى ريتا، زوجتي وصديقتي الأعزّ.




تليجرام
هنا
سور الأزبكية

مقدّمة

من دون شكّ، ما كان لهذا الكتاب أن يظهر لو لم يسمع رجلٌ في الستّين من عمره، في يوليو / تموز من عام 1967، في صحف كاراكاس، بعد عامٍ من الزلزال الذي دمّر المدينة، الناسَ يتحدّثون عن ألبيرتين سارازان. كانتْ هذه الجوهرة السوداء النابضة بالألق والفرح والشجاعة قد ماتت حديثاً. وهي التي اشتهرت في العالم أجمع بنشرها، خلال أكثر من عامٍ بقليل، ثلاثة كتب تروي في اثنين منها حكاية هروبها من السجون وإعادتها إليها.

هذا الرجل يُدعى هنري شاريير، وكان يعود من بعيد. يعود بالتحديد من سجن كايين للأشغال الشاقّة، الذي كان قد «صعد» إليه في عام 1933، خارجاً على القانون نعم، ومُداناً، ولكن بتهمة جريمة قتل لم يرتكبها، ومحكوماً بالسجن المؤبّد، أي حتى لحظة وفاته. هنري شاريير، الذي كان يُدعى بابيون – سابقاً – في الوسط الإجرامي، وُلِد فرنسياً في كنف عائلة من المعلّمين في بلدة آرديش، ولكنّه أصبح فيما بعد فنزويلياً، لأنّ الشعب الفنزويلي فضّل أسلوبه في حبّ الحياة على سجلّه الجنائي ولأنّ ثلاثة عشر عاماً من الفرار والكفاح من أجل النجاة من جحيم سجن الأشغال الشاقّة كفيلة بأن ترسم مستقبلاً لا ماضياً.

إذاً، في يوليو / تموز 1967، ذهب شاريير إلى المكتبة الفرنسية في كاراكاس واشترى رواية «الكاحل». كان يوجد على شريط الكتاب رقمٌ: 123000. قرأ الرقم وقال في نفسه، بكلّ بساطة: «هذا جميل، ولكن إذا كانت الفتاة، بعظمها المكسور، المتنقّلة من مخبأ إلى آخر، قد باعت مئة

وثلاثة وعشرين ألف كتابٍ، فأنا، بفضل سنواتي الثلاثين من المغامرات، سأبيع ثلاثة أضعافها».

إنّه استنتاجٌ منطقي ولكن لا يعود المرء خطيراً، منذ نجاح ألبيرتين من بين آخرين، وهو يَملأُ طاولات الناشرين بعشرات المخطوطات من دون أمل. لأنّ المغامرة والبؤس والظلم مهما بلغت شدّتها لا تصنع بالضرورة كتاباً. بل ينبغي أن يجيد المرء كتابتها، أي أن يمتلك هذه الموهبة التي تجعل القارئ يرى ويشعر ويعيش، في داخله، كلّ ما رآه وشعر به وعاشه مَنْ كتب العمل.

وهاهُنا، كان لشاريير حظٌّ كبير. فهو لم يفكّر لمرّة واحدة أن يكتب سطراً واحداً عن مغامراته: إنّه رجل أفعالٍ وحياةٍ ودفءٍ، وفي عينِه الماكرة عاصفةٌ عاتية، وذو صوتٍ جنوبيّ دافئ وخشن بعض الشيء والذي يمكننا الإصغاء إليه لساعات طويلة لأنّه يروي مثل أيّ شخصٍ، أي مثل كلّ الرواة العظام. وتحدث المعجزة: ما يكتبه خالٍ من أيّ اتّصال ومن أيّ طموحٍ أدبيَّين (لقد كتب لي: أُرسلُ إليك مغامراتي، دعْ محترفاً يكتبها)، ما يكتبه هو «مثلما يرويه لك»، نراه ونشعر به ونعيشه. وإذا ما أراد القارئ، لا سمح اللّه، أن يتوقّف عند أسفل صفحة في حين هو يروي أنّه في طريقه للذهاب إلى المراحيض (المكان الذي يؤدّي دوراً متعدداً ومهمّاً في سجن الأشغال الشاقّة)، يضطرّ القارئ لأن يقلب الصفحة لأنّه لا يعود هو من يذهب إلى المراحيض وإنّما القارئ بنفسه.

بعد ثلاثة أيام من قراءة رواية «الكاحل»، كتب أوّل دفترين دفعة واحدة، وهي دفاتر على شكل كراريس مدرسية، لها نوابض حلزونية. وفي الوقت اللازم لجمع رأي أو رأيين حول هذه المغامرة الجديدة، والتي ربّما هي أكثر دهشةً له مِن كلّ ما عداها، انكبّ على ما تبقّى في بداية عام 1968. وخلال شهرين أنهى الدفاتر الثلاثة عشر.

ومثلما وصلت إلى ألبيرتين، وصلت مخطوطته إليّ بوساطة البريد في شهر سبتمبر / أيلول. بعد مضي ثلاثة أسابيع، كان شاريير في باريس. مع جان جاك بوفيه، كنّا قد أطلقنا كتاب ألبيرتين: وسلّمني شاريير كتابه.

هذا الكتاب، المكتوب على وقع ذكريات ما زالت متّقدة، والمنسوخ على الآلة الكاتبة من قبل سيّدات متحمّسات ومتقلبات ولسن فرنسيّات دائماً، لم أعبث به إن جاز التعبير. لم أفعل سوى إعادة وضع علامات الترقيم، وتبديل بعض الاصطلاحات الإسبانية الغامضة جدّاً وتصحيح بعض الالتباسات في المعنى وبعض الانعكاسات العائدة إلى الممارسة اليومية، في كاراكاس، لثلاث أو أربع لغات تعلّمها السكان شفوياً.

أمّا بالنسبة إلى صحّة الكتاب وأصالته، فأنا أضمنه فيما يخصّ جوهره. جاء شاريير إلى باريس مرّتين، وتحدّثنا مطوّلاً. تحدّثنا لأيامٍ وبعض الليالي أيضاً. من الواضح أنّ بعض التفاصيل، بعد مضي ثلاثين عاماً، قد تلاشت، أو عُدِّلَت من خلال الذاكرة. ولا يمكن إهمال هذه التفاصيل. أمّا بالنسبة إلى الجوهر، فليس علينا سوى الرجوع إلى عمل البروفيسور ديفيز، «كايين» (منشورات جوليار، 1965) للتأكّد مباشرةً من أنّ شاريير لم يتناول عادات السجن، ولا أهواله. بل على العكس تماماً.

من حيث المبدأ، غيّرنا أسماء كلّ السجناء والحرّاس وقادة إدارة السجون، فهذا الكتاب لا يقصد النيل من أشخاصٍ، وإنّما يهدف إلى وصف نماذج معيّنة في مجتمعٍ معيّن. وكذلك هي الحال بالنسبة إلى التواريخ: فبعضها دقيق، في حين أنّ بعضها الآخر تقريبي. وهذا كافٍ لتحقيق الغرض، لأنّ شاريير لم يشأ أن يكتب تاريخاً، وإنّما أراد أن يروي حكايةً، بقسوة وإيمانٍ بنفسه، تشبه الملحمة الخارقة لرجلٍ لا يوافق على أن يكون هناك تفاوتٌ مفرط بين الحاجة المفهومة لمجتمعٍ إلى حماية نفسه من أشراره ونظام قمعٍ غير لائقٍ بأمّة متحضّرة.

أودّ أن أشكر جان فرانسوا ريفيل المحبّ لهذا النصّ، وأحد أوائل قرائه، والذي أراد فعلاً أن يطرح استفهاماً حول العلاقة التي بدت أنّها تربطه بالأدب القديم والمعاصر.

جان بيير كاستيلنو

الدفتر الأوّل
طريق العفن

جلسات المحاكمة

كانت الصفعة قويّة للغاية بحيث أنني لم أصحُ من تأثيرها إلّا بعد مضي ثلاثة عشر عاماً. في الحقيقة، لم تكن ضربة عادية، وقد تكالب كثيرون لتسديدها إليّ.

نحن في اليوم السادس والعشرين من شهر أكتوبر / تشرين الأوّل من عام 1931. منذ الساعة الثامنة صباحاً، أخرجوني من زنزانة مركز المراقبة الأمنية التي أنزل فيها منذ عامٍ كاملٍ. كنتُ قد حلقتُ ذقني للتوّ وارتديتُ أفضل ما لديّ من بزّة مصنوعةٍ بمهارة فائقة تُضفي عليّ مظهراً أنيقاً، وقميصٍ أبيض اللون مع عقدة فراشة زرقاء اللون باهتة تُضفي اللمسة الأخيرة على هذا الزيّ البهيّ.

كنتُ في الخامسة والعشرين من عمري، سوى أنني بدوتُ كما لو أنني في العشرين منه. عاملني رجال الدرك الذين صدمهم مظهري «الأنيق» بلباقة فائقة، بل ونزعوا عن يديّ الأصفاد. جلسنا نحن الستّة، خمسة رجال شرطة وأنا، على مقعدين في قاعة خالية. كان الجوّ في الخارج مكفهرّاً، وأمامنا بابٌ لا بدّ أنّه يتّصل مع قاعة جلسات المحاكمة، لأننا كنّا في القصر العدلي في سين، في باريس.

بعد لحظات، سأُحاكَم بتهمة ارتكاب جريمة قتل. جاء الأستاذ ريمون

هوبير، المحامي المكلّف بالدفاع عنّي، وألقى عليّ التحية، ثمّ قال: «ليس هناك أيّ دليلٍ جدّي ضدّك، وأنا على ثقة بأننا سنُبرّأُ من هذه التهمة». ابتسمتُ لاستخدامه عبارة «أننا سنُبرّأُ» كما لو أنّه هو أيضاً، الأستاذ هوبير، سوف يحضر جلسات المحاكمة كمذنبٍ وأنّه إذا ما صدر حكمٌ سوف يخضع هو أيضاً له.

فتح حاجبٌ الباب ودعانا للدخول إلى القاعة. دخلتُ إلى قاعة واسعة عبر المصراعين الكبيرين المفتوحين، يُحيط بي أربعة رجالٍ من الدرك، يقف المُساعد بجانبهم. ولكي يكيلوا لي الصفعة، كان اللون الأحمر الدموي يطغى على كلّ شيء من السجاد وستائر النوافذ الكبيرة، بل وحتى أردية القضاة الذين سيحكمون عليّ بعد قليل.

صاح الحاجب:

- أيّها السادة، محكمة!

فظهر من بابٍ يقع إلى اليمين ستّةُ رجالٍ، يسير أحدهم خلف الآخر. حضر الرئيس أوّلاً، ومن ثَمَّ خمسة قضاة يعتمرون القلنسوة. وقف رئيس المحكمة أمام الكرسي الذي يقع في الوسط، فيما أخذ مساعدوه أماكنهم إلى يمينه ويساره.

ساد صمتٌ مطبق في القاعة التي بقي جميع من فيها واقفين، بما فيهم أنا. جلست هيئة المحكمة، فجلس الجميع.

حدّق فيّ رئيس المحكمة، وهو رجلٌ سمينٌ ومتورّدُ الخدَّين الممتلئَين، بادي الصرامة، دون أن يفسح المجال لأن تظهر على وجهه أيّة تعابير. علمتُ أنّه يُدعى بيفان. وسيدير، فيما بعد، المداولات بلا انحيازٍ، وسوف يُفهِم الجميع، من خلال تصرّفه، بأنّه كقاضٍ محترفٍ ومتمرّسٍ ليس مقتنعاً كثيراً بصدق الشهود ورجال الشرطة. وأنّه، شخصياً، لا يتحمّل أيّ مسؤولية عن هذه الصفعة، إذ إنّه لن يفعل سوى توجيهها إليّ.

أمّا النائب العام، فكان القاضي براديل، وهو مرهوب الجانب بالنسبة

إلى جميع المحامين المنتسبين إلى النقابة، وقد ذاع صيته السيِّئ، بكونه المزوّد الأوّل للمقصلة بالمحكومين في فرنسا ومقاطعات ما وراء البحار.

ويُمثّل براديل هذا سلطة معاقبة المجرم باسم الجماعة، وهو الموجّه الرسمي للاتّهام، المجرّد من الإنسانية. إنّه يمثّل القانون وميزان العدالة، وهو منْ يُمسكُ بهذا الميزان وسيفعل كلّ ما بوسعه لتكون كفّته راجحة لصالحه. له عينان كعيني صقر، فيخفض جفنيه قليلاً وينظر إليّ بحدّة، من أعالي عليائه. ينظر إليّ أوّلاً من علوّ منبره الذي يجعله أعلى منّي، ومن ثَمّ من علوّ هيكله الضخم وقامته الطويلة التي لا تقلّ عن مترٍ وثمانين سنتيمتراً، الأمر الذي يزيد من عجرفته. لم يكن يتخلّى عن معطفه الأحمر، بينما يضع قلنسوته أمامه، مستنداً على يديه الكبيرتين الشبيهتينِ بمخباطين، وفي إصبعه خاتمٌ من الذهب يشير إلى أنّه متزوّج، بينما في خنصره خاتمٌ آخر فيه فصٌّ على شكل مسمار حدوة حصان يلمع بشدّة.

انحنى نحوي قليلاً لكي يكون أكثر هيمنةً عليّ. بدا وكأنّه يريد أن يقول لي: «إذا كنت تظنّ أيّها الجسور أنّك تستطيع الإفلات منّي، فأنت واهم، فلا أحد يرى أنّ يديّ هاتين هي مخالب، ولكنّ براثنهما التي سوف تمزّقك متجذّرة بقوّة في نفسي. وإذا كنتُ مرهوب الجانب من قبل كلّ المحامين، وأُعتبَرُ في سلك القضاء مدّعياً عاماً خطيراً، فهذا لأنني لا أدع أبداً فريستي تفلتُ من بين يدي. لا ينبغي عليّ أن أعرف إن كنتَ مذنباً أو بريئاً، عليّ فقط أن أستخدم كلّ ما هو موجود من حجج ضدّك: من قبيل حياتك البوهيمية في مونتمارتر، والشهادات الصادرة عن دوائر الشرطة، وحتى التصريحات الصادرة من رجال الشرطة أنفسهم. باستخدام هذه الأمور التافهة المتفرّقة التي جمعها قاضي التحقيق، عليّ أن أنجح في أن أجعل منك إنساناً مكروهاً بما يكفي لأن يُخفيك القضاة المحلّفون من وسط المجتمع».

تُرى هل كان بالفعل يحدّثني وأنا أسمع صوته، أم كنتُ أحلم؟ لأنني كنتُ بالفعل منبهراً بـ «آكل البشر» هذا.

«أيّها المتّهم، تصرّفْ ولكن لا تحاول أن تدافع عن نفسك وإلّا سوف أقودك إلى طريق العفن. كما أنني آمل ألّا تثق بهؤلاء المحلّفين، اتّفقنا؟ ولا تخدع نفسك بالأوهام، فهؤلاء الرجال الاثنا عشر لا يفقهون شيئاً من أمور الحياة. انظرْ إليهم وهم يصطفّون أمامك. أنت تراهم جيّداً. إنّهم اثنا عشر وغداً، جُلبوا إلى باريس من بلدة بعيدة في الإقليم. إنّهم عبارة عن برجوازيين صغار، ومتقاعدين وتجّار. لا حاجة إلى أن أصفهم لك. على أيّ حال، أنت لا تزعم أنّهم يفهمون سنواتك الخمس والعشرين وحياتك التي أمضيتها في مونتمارتر، أليس كذلك؟ بالنسبة إليهم، ساحة بيكال والساحة البيضاء، عبارة عن جحيم. وكلّ الذين يعيشون حياة الليل هم عبارة عن أعداء للمجتمع. جميعهم فخورون للغاية بكونهم محلّفين في جلسات المحاكمة في محكمة السين. وأؤكّد لك أنّهم علاوة على ذلك يعانون من حقيقة وضعهم كبورجوازيين صغار من ذوي عقول صغيرة. وأنت وصلتَ إلى هنا شابّاً وسيماً، وتعتقد جازماً أنني لن أكلّف نفسي عناء وصفك على أنّك دونجوان ليالي مونتمانتر. وبذلك سوف أجعل من هؤلاء المحلّفين أعداء لك منذ البداية. لقد تأنّقتَ على نحوٍ مبالغٍ فيه في ملبسك، في حين كان عليك القدوم إلى هنا في ثيابٍ متواضعة. وبهذا ارتكبت خطأً فاضحاً في التكتيك. ألا ترى أنّهم يحسدونك على ثيابك الأنيقة؟ فهم يرتدون ثيابهم الجاهزة من متاجر ساماريتين، ولا يحلمون حتى مجرّد حلم أن يرتدوا ثياباً يتمّ تفصيلها خصيصاً لهم».

بلغت الساعة العاشرة صباحاً، وأصبحنا جاهزين للمداولات. كان يقف أمامي ستّة قضاة، من بينهم نائبٌ عامّ عدواني سوف يضع كلّ سلطته الميكافيلية وكلّ ذكائه في خدمة إقناع المحلّفين الاثني عشر المساكين، أوّلاً، بأنني مذنب، وأنّ السجنَ المؤبّد أو الإعدام باستخدام المقصلة هو الحكم الوحيد الذي أستحقّه.

سوف يحكمون عليّ بتهمة قتل قوّادٍ وواشٍ من الوسط الإجرامي في مونتمانتر. ليس هناك أيّ دليلٍ يُثبتُ عليّ التهمة، ولكن رجال الشرطة –

الذين يتولّون زمام الأمور كلّما اكتشفوا مرتكب جناية - سوف يدعمون الحكم القاضي بأنني أنا المذنب في هذه الجريمة. ولانعدام الأدلّة على ذلك، سوف يزعمون أنّ هناك معلومات «سرّية» بحوزتهم لا تدع مجالاً للشكّ، وسوف يكونون قد أعدّوا بأنفسهم شاهداً، يُدعى بولان، وهو عبارة عن أسطوانة حقيقية مسجّلة في مقر الشرطة القضائية في «36 كي دي أورفيفر» وسوف يكون ذلك بمثابة التمثيلية الأجدى لتثبيت التهمة عليّ. ولأنني ألححتُ على أنني لا أعرف هذا الشاهد، سألني رئيس المحكمة في لحظة محدّدة بمنتهى التجرّد: «أنت تقول أنّ هذا الشاهد يكذب، حسناً، ولكن لماذا سيكذب؟».

- سيّدي الرئيس، إذا كنتُ أُمضي لياليَ مؤرّقةً منذ توقيفي، فهذا ليس بسبب الإحساس بالندم لمقتل لو بوتي، إذ لستُ أنا قاتلَه. وهذا السؤال هو بالضبط ما أسعى إلى معرفة جوابه، أي ما هو الدافع الذي يدفع هذا الشاهد إلى أن يتحامل عليّ إلى هذه الدرجة، ويسوقَ، في كلّ مرّةٍ يَضعفُ اتهامي بالجريمة، عناصرَ جديدةً لكيّ يعزّزها ضدّي من جديد. وقد توصّلت، سيّدي الرئيس، إلى الاستنتاج بأنّ رجال الشرطة قد ضبطوا هذا الشاهد وهو يرتكب جنايةً خطيرة، وأنّهم قد عقدوا معه صفقةً ضدّي، بحيث يغضُّون الطرف عن جريمته تلك شريطة أن يشهد ضدّي ويوقع بي.

ولم يخبْ تخميني، فالشاهد بولان، الذي جرى تقديمه في جلسات المحاكمة على أنّه رجلٌ شريف وليست لديه سوابق، اعتُقِلَ بعد ذلك ببضع سنوات وحُكِمَ عليه بتهمة الإتجار بالكوكايين.

حاول المحامي هوبير أن يدافع عنّي، ولكنّه لم يكن بمقدوره أن يجاري النائب العام. وحده المحامي بوفاي نجح بغضبه وحنقه العارم أن يضع، للحظاتٍ، النائبَ العام في موقفٍ حرج. ولكن للأسف، لم يستمرّ ذلك طويلاً، وسرعان ما تغلّبت عليه مهارة براديل في هذه المبارزة. وعلاوة على ذلك، أطرى على المحلّفين، الذين تنافخوا غروراً لمعاملتهم على قدم المساواة مع هذه الشخصية المؤثّرة واعتبارهم معاونين لها.

في تمام الساعة الحادية عشرة ليلاً، انتهت لعبة الشطرنج، بعد أن قيل للمحامين المدافعين عنّي: «كش ملك ومات!» وتمّ الحكم عليّ وأنا بريء من التهمة.

وقد أقصى المجتمع الفرنسي، المتمثّل بالنائب العامّ براديل، من الحياة شاباً في الخامسة والعشرين من عمره. هكذا قدّم لي رئيسُ المحكمة هذا الطبقَ الدسم بصوتٍ لا طابعَ مميَّزاً له.

خاطبني، آمراً:

– قف أيّها المتّهم.

نهضتُ واقفاً، وساد صمتٌ مطبق في القاعة، وحُبِسَت الأنفاس، وتسارع نبض قلبي على نحوٍ خفيف. نظر إليّ المحلّفون أو أخفضوا رؤوسهم، يبدو عليهم الإحساس بالخجل.

– أيّها المتّهم، أمّا وقد أجاب المحلّفون على جميع الأسئلة، باستثناء سؤالٍ واحدٍ وهو سؤالُ سَبْقِ الإصرار والترصّد، فقد حكمنا عليك بالأشغال الشاقّة المؤبّدة. هل لديكَ ما تقوله؟ لم أحرّك ساكناً، وتصرّفتُ على نحوٍ طبيعي، فقط شدّدت أكثر قليلاً قبضَتي على القضيب الحديدي الذي كنتُ أمسك به في قفص الاتهام. ثمّ أجبت:

– نعم سيّدي الرئيس لدي، أقول بأنني بالفعل بريء. وأنا ضحية مؤامرة حيكت من جانب الشرطة.

بلغني همسٌ من زاوية النساء الأنيقات، المدعوات إلى جلسات المحاكمة، واللواتي كنّ يجلسن خلف القضاة. خاطبتهنّ من دون أن أرفع صوتي:

– اصمتن أيّتها السيّدات المتزّينات باللآلئ والجواهر، القادمات إلى هنا للاستمتاع بانفعالات وأحاسيس ضارّة. لقد انتهى كلّ شيء. لقدْ تمّ لحسن الحظّ حلّ قضية جريمة قتل من جانب شرطتكنّ وعدالتكنّ، فعليكنّ إذاً أن تكنّ سعيدات راضيات!

قال رئيس المحكمة:

- أيها الحرّاس، خذوا المحكوم.

وقبل أن أغيب عن أنظار الحضور، سمعتُ صوتاً يصرخ: «لا تبالِ يا زوجي، سوف ألحق بكَ إلى هناك». كانت تلك زوجتي الجريئة والنبيلة التي صرخت معبّرةً عن حبّها. صفّق لها رجال الوسط الإجرامي من الذين كانوا حاضرين في القاعة. فقد كانوا على بيّنة بحيثيات جريمة القتل هذه، وأظهروا لي بذلك بأنّهم فخورون بأنني لم أعترف بشيءٍ ولم أَشِ بأحدٍ.

ولدى العودة إلى القاعة الصغيرة التي كنّا فيها قبل الذهاب إلى مداولات المحاكمة، وضع رجال الدرك الأغلال في يديّ، وربط أحدهم يده بيدي بوساطة سلسلة حديدية قصيرة، وذلك بربط معصمي الأيمن بمعصمه الأيسر. ظلّ صامتاً، لا يتفوّه بكلمة واحدة. طلبتُ منه سيجارة، فناولني المساعد سيجارة وأشعلها لي. وكلّما كنتُ أنزلها من فمي أو أضعها بين شفتي، كان الشرطي المقيّد إليّ يضطرّ لأن ينزل يده أو يرفعها لكي يواكب حركة يدي التي تمسك بالسيجارة.

دخّنت ما يقارب ثلاثة أرباع السيجارة واقفاً، ولم يتفوّه خلال ذلك أحدٌ بكلمة واحدة. أنا مَن بادرتُ، ناظراً إلى المساعد، بالقول: «هيّا بنا».

بعد أن نزلنا الدرج، محاطاً بما يقارب اثني عشر دركيّاً، وصلتُ إلى الباحة الداخلية لقصر العدل. كانت عربة السجن التي تنتظرنا جاهزة. لم تكن على شكل زنزانة انفرادية، فجلسنا فيها على مقاعد طويلة، وكان عددنا عشرة أشخاص. قال المساعد: «إلى سجن التوقيف».

سجن التوقيف

حينما وصلنا إلى آخر قصرٍ وهو قصر ماري أنطوانيت، سلّمني رجال الدرك إلى رئيس الحرّاس الذي وقّع على ورقة استلام، وانصرفوا دون أن يقولوا شيئاً، ولكن قبل ذلك، ضغطَ المساعد على نحوٍ مباغت على يديّ المكبّلتين بالأصفاد.

سألني رئيس الحرس:

- بكم سنة حكموا عليك؟
- بالسجن المؤبّد.
- حقّاً؟

ثمّ نظر إلى رجال الدرك وأدرك أنّ هذه هي الحقيقة. امتعض هذا السجّان البالغ خمسين عاماً من العمر والذي شاهد الكثير من الأمور ويعرف الكثير عن قضيّتي، ثمّ قال بما يشبه الدفاع عنّي:

- آه، يا لهم من أنذال! إنّهم بالفعل مجانين!

نزع الأغلال عن يديّ بهدوء، وتلطّف بأن رافقني بنفسه إلى زنزانة معزولة، معدّة خصيصاً للمحكومين بالإعدام أو المجانين أو الخطيرين جدّاً أو المحكومين بالأشغال الشاقّة المؤبّدة.

قال لي وهو يُغلق عليّ الباب:

- تشجّع، يا بابيون[1] وسوف نرسل لك بعض حوائجك، والطعام الذي كان لديك في زنزانتك السابقة، تشجّع!

- شكراً، يا سيّدي، وصدّقني أنني أمتلك الشجاعة الكافية، وأتمنى أن يبقى هذا الحكم المؤبّد شوكةً في حلوقهم.

بعد بضع دقائق، دُقَّ الباب، فسألت:

- ماذا هناك؟

أجابني صوتٌ:

- لا شيء، هذا أنا، أقوم بتعليق لوحة من الورق المقوّى.

- لماذا؟ ماذا يوجد على اللوحة؟

- «محكومٌ بالأشغال الشاقّة المؤبّدة. يجب أن يُراقب عن كثب».

قلتُ في نفسي: إنّهم بالفعل مجانين. هل يعتقدون مجرّد اعتقاد أنّ الصدمة القويّة التي نزلت على رأسي يمكنها أن تودي بي إلى اضطرابٍ قد يصل بي إلى حدّ التفكير بالانتحار؟ أنا شجاعٌ وسأبقى كذلك. سوف أكافح في وجه كلّ شيء وضدّ كلّ شيء. منذ الغد سوف أبدأ بالتصرّف.

1- بابيون: تعني فراشة، وهو لقب أُطلِق على بطل الرواية - المترجم.

في الصباح، وبينما كنتُ أشرب قهوتي، تساءلتُ في نفسي: هل أقوم باستئناف قرار الحكم؟ لماذا؟ هل سيكون لي حظٌّ أوفر أمام محكمة أخرى؟ وكم من الوقت سوف يُهدَر في سبيل ذلك؟ عامٌ كامل، أو ربّما ثمانية عشر شهراً... ولماذا: لكي أحصل على حكمٍ بالسجن لمدّة عشرين سنة بدل المؤبّد؟

ولأنني كنتُ قد عقدتُ العزم على الفرار من السجن، فمدّة الحكم ليست مهمّة بالنسبة إليّ وخطرت في ذهني جملة أحد المحكومين وهو يُخاطب رئيس جلسات المحاكمة: «سيّدي القاضي، كم تستغرق الأشغال الشاقّة المؤبّدة في فرنسا؟».

جلتُ حول نفسي في زنزانتي، وأرسلتُ رسالةً إلى زوجتي لكي أواسيها، وأخرى إلى شقيقتي التي ظلّت تواجه الجميع لوحدها دفاعاً عن شقيقها.

لقد انتهى الأمر، وأُسدِلَت الستائر على القضية. لا بدّ أن أهلي كانوا يتألّمون أكثر منّي، ولا بدّ أنّ والدي المسكين يعاني كثيراً، هناك في منطقته النائية، وهو يحمل صليباً ثقيلاً للغاية في رقبته.

قفزتُ من مكاني منتفضاً، وأنا أقول: ولكنني بريء! أنا بريءٌ بالفعل، ولكن بالنسبة لِمَنْ؟ نعم، بالنسبة لِمَنْ أنا بريء؟ ثمّ قلتُ في نفسي: لا تَتَلَهَّ بزعمِ أنّك بريءٌ، فإنّهم سيسخرون منك كثيراً. أن يُحكَم عليك مؤبّداً من أجل قوّادٍ، وفوق كلّ هذا تزعم أنّ شخصاً آخر قد ارتكب هذه الجريمة، لا شكّ أنّ هذا سيكون مدعاةً للسخرية. الأفضل هو أن تسدّ فمك وتلتزم الصمت.

ولأنني لم أفكّر أبداً، لا أثناء فترة التحقيق، ولا في سجن التوقيف، باحتمالية أن يكون الحكم قاسياً عليّ، لم أنشغل قط بنفسي، قبل أن أعرف ما يمكن أن يكون عليه «طريق العفن».

حسناً. إنّ أوّل شيءٍ ينبغي فعله هو التواصل مع رجالٍ سبق لهم وأن حُكِمَ عليهم، والذين يمكن لهم أن يكونوا في المستقبل رفاقاً محتملين في محاولة الفرار.

اخترتُ رجلاً من مرسيليا يُدعى ديغا. سوف أراه بكلّ تأكيد عند الحلّاق، فهو يذهب كلّ يوم إليه لكي يحلق ذقنه. فطلبتُ أن أذهب بدوري إلى الحلّاق. وبالفعل حينما وصلت، رأيته وقد أدار وجهه نحو الجدار. أدركتُه في اللحظة نفسها التي تحايل فيها لكي يُمرّر شخصاً آخر قبله لكي ينتظر هو لوقتٍ أطول دوره في الحلاقة.

جلستُ إلى جانبه مباشرةً، بعد أن أبعدتُ رجلاً آخر عنه. توجّهتُ إليه بسرعة:

– كيف حالك يا ديغا؟

– أنا بخير يا بابي. أنا محكومٌ بخمس عشرة سنة، وأنت؟ لقد قيل لي بأنّهم قد أثقلوا عليك ودفعوك ثمناً غالياً.

– نعم، لقد حُكِم عليّ بالسجن المؤبّد.

– هل ستقدّم استئنافاً للحكم؟

– كلا. ما ينبغي القيام به هو أن نأكل بشكلٍ جيّد وأن نقوم بالتمارين البدنية. ابقَ قويّاً يا ديغا، لأننا سوف نحتاج بكلّ تأكيد إلى عضلات قويّة. هل لديك نقود؟

– نعم، لديّ ما يُعادل عشرة آلاف فرنك من الطبعة القديمة بالجنيه الإسترليني. وأنت؟

– كلا.

– أنصحك نصيحة مفيدة: تزوّد بالنقود بسرعة. هل محاميك هو السيّد هوبير؟ إنّه مغفّل ولن يستطيع أبداً أن يوصل الماسورة[1] إليك في السجن. أرسل زوجتك مع الماسورة المذخّرة بالمال إلى دانتي، وأخبرها بأن تودعها لدى دومينيك لو ريش، وأنا أضمن لك بأنّه سوف يوصلها إليك.

– اصمتْ. الحارس ينظر إلينا.

قال الحارس ممتعضاً:

1- ماسورة: ماسورة معدنية يضع فيها السجين ما يملكه من نقود ويُخفيها في أحشائه عبر مؤخرته خوفاً عليها من السرقة – المترجم.

– إذاً، هل نستغلّ الوقت من أجل الثرثرة؟

أجاب ديغا:

– أوه! ليس هناك ما هو خطير. قال لي بأنّه مريض.

– ما به؟ هل يعاني من عسر هضمٍ في جلسات المحاكمة؟

وانفجر الحارس البدين بالضحك.

هذه هي الحياة. إنّها طريق العفن وها أنا أسلكه. يقهقهون ضحكاً وهم يسخرون من فتى في الخامسة والعشرين من عمره محكومٍ بالسجن مدى الحياة.

وقد حصلتُ على الماسورة. كانت عبارة عن أنبوبٍ من الألمنيوم، مصقولٍ على نحوٍ مدهش، وينفتح منقسماً من المنتصف تماماً في قطعتين تتراكبان، وكانت الماسورة تحتوي على خمسة آلاف وستمئة فرنك من الأوراق النقدية الجديدة. حينما سُلِّمت إليّ، قبّلت قطعة الأنبوب هذه التي يبلغ طولها ستة سنتيمترات وبثخن الإبهام؛ نعم لقد قبّلتها قبل أن أدسّها في الشرج وأتنفّس عميقاً لأسحبها إلى القولون. إنّها خزنتي. يمكنهم أن يجرّدوني من ثيابي وأن يُرغموني على المباعدة بين ساقيّ، وإجباري على أن أسعل، وأن يجعلوني أنثني، لكنّهم لن ينجحوا أبداً في معرفة ما إذا كان هناك شيءٌ ما معي. لقد صعدت عالياً جدّاً في المعي الغليظ، وأصبحت جزءاً منّي. كنتُ أحمل في داخلي حياتي وحريّتي... إنّه طريق الانتقام. هذا لأنني كنتُ أفكّر جدّياً في الانتقام لنفسي! لم أكن أفكّر بشيء سوى بهذا الانتقام.

حلّ الظلام في الخارج. وأنا وحيدٌ في هذه الزنزانة. كان مصباحٌ ضوئيٌّ كبير، معلّقاً في السقف، يُتيح للحارس أن يراني من خلال ثقبٍ صغير محفورٍ في الباب. كان هذا الضوء القوي يبهر بصري. ولذلك وضعتُ منديلي المطوي على عينيّ، لأنّه كان يجرح بالفعل عيني. تمدّدتُ على حشيّة ممدّدة على سريرٍ حديدي، من دون وسادة، واسترجعتُ في ذهني كلّ تفاصيل هذه الدعوى الرهيبة.

وهنا، وحتى نستطيع أن نفهم تتمّة هذه الحكاية الطويلة، ولكي نفهم بعمق الأسس التي سوف تفيد في مساندتي في كفاحي، ربّما ينبغي أن أطيل في سرد التفاصيل، ولكن أيضاً أن أروي كلّ ما راودني وعشته بالفعل في ذهني في الأيام الأولى التي دُفنتُ فيها حيّاً: كيف سأتصرّف حينما أفرّ من هنا وأصبحُ طليقاً؟ لأنني الآن وقد حصلتُ على الماسورة المحشوّة بالمال، لم أعد أشكّ للحظة واحدة بأنني سوف أهرب من السجن.

في البداية، سوف أعود بأسرع ما يمكن إلى باريس. وأوّلُ منْ سوف أقتله سيكون شاهد الزور هذا، المدعو بولان. ومن ثَمّ سأقتل رجلَي الشرطة الغبيَّين المكلَّفَين بالقضية. ولكن لا يكفي أن أقتل شرطيَّين اثنين، وإنّما عليّ أن أقتل جميع رجال الشرطة. على الأقل، العدد الأكبر الذي يمكنني النيل منهم. آه! أنا أعلم. ما إنْ أصبحَ طليقاً، سوف أعود إلى باريس. وسوف أضع أكبر قدرٍ من المتفجرات في صندوقٍ. لا أعرف بدقّة وزن المتفجرات التي سوف أضعها: ربّما عشرة كيلوغرامات، أو خمسة عشر كيلوغراماً، أو عشرون كيلوغراماً. وسوف أحاول أن أحسب مقدار المتفجّرات الضرورية لإيقاع الكثير من الضحايا.

هل أضع الديناميت؟ كلا، من الأفضل أن أضع مادة الشيديت. ولِمَ لا أستخدم موادَّ متفجّرة مصنوعة من النيتروغليسرين؟ حسناً، سوف أسأل هناك مَن هم أكثر درايةً منّي بالأمر وأستشيرهم. أمّا رجال الشرطة، فليثقوا بي، فسوف أحسبُ حسابهم وسوف ينالون ما يستحقّون.

كانت لا تزال عيناي مغمضتين والمنديل فوق جفوني، وأنا مستغرقٌ في التخيّل. كنتُ أرى الصندوق بوضوحٍ شديد، وهو على شفافية غير مؤذية، ومليءٌ بالمتفجّرات، وقد تمّ ضبط الموقّت الذي سوف يعمل صاعقاً مفجّراً. كان عليّ أن أنتبه جيّداً، إذ يجب أن ينفجر الصندوق في تمام الساعة العاشرة صباحاً في قاعة إعطاء الأوامر وتقديم التقارير في مبنى الشرطة القضائية في «36 كي دي أورفيفر»، في الطابق الأوّل. في تلك الساعة، يكون هناك على الأقلّ مئة وخمسون شرطياً يجتمعون من

أجل تلقّي الأوامر والإصغاء إلى التقارير. كم درجاً عليّ أن أصعد لبلوغ القاعة، لا ينبغي عليّ أن أُخطئ في ذلك.

سوف يكون عليّ أن أقدّر بدقّة متناهية الوقت اللازم لكي يصل الصندوق من الشارع إلى مقصده في الثانية نفسها التي ينبغي له أن ينفجر فيها. ومنْ سوف يحمل الصندوق إلى هناك؟ حسناً، أنا سأتجرأ على الإقدام على هذه المغامرة. سوف أصل بسيارة أجرة، وأنزل أمام باب مبنى الشرطة القضائية بالضبط، وسوف أقول للشرطيين الغبيين المناوبين على الباب بنبرةٍ آمرة: «احملا لي هذا الصندوق وأوصلاه إلى قاعة إعطاء الأوامر وتقديم التقارير، وسوف ألحق بكما. أخبرا المفوّض ديبون أنّ رئيس المفتّشين ديبوا قد أرسل هذا الصندوق وأنني سأصل حالاً».

ولكن هل سيطيعان أوامري؟ وماذا لو أنني وبمحض الصدفة، صادفتُ بين هذا الجمع من الحمقى، الذكيَّين الوحيدَين بين هذه الجماعة؟ في هذه الحالة، سوف تفشل خطّتي. سيكون عليّ أن أجد طريقة أخرى. وانهمكت في البحث طويلاً، مصرّاً على أن أنجح في إيجاد وسيلة مضمونة مئة بالمئة.

نهضتُ من مكاني لأشرب قليلاً من الماء. ولشدّة ما فكّرتُ بالأمر، ألمّ بي صداعٌ.

عدتُ إلى التمدّد على سريري دون أن أضع المنديل على عينيّ هذه المرّة، وأحسستُ أنّ الدقائق تمضي بطيئة. ولكن هذا النور، هذا النور المبهر، تبّاً! بلّلتُ المنديل وأعدتُ وضعه على عيني. أحسّني الماء البارد بالانتعاش والتحسّن، وبفضل ثقل الماء، التصق المنديل على نحوٍ أفضل بجفوني. من الآن وصاعداً، سوف أستخدم على الدوام هذه الطريقة.

كانت هذه الساعات الطويلة التي خطّطتُ فيها لانتقامي القادم حرجة وعصيبة إلى درجة أنني تصرّفتُ فيها كما لو أنّ مشروعي قيد التنفيذ. كلّ مساء وحتى بعض أوقات النهار، كنتُ أسافر إلى باريس كما لو أنّ هروبي من السجن أمرٌ قد حصل بالفعل. من المؤكّد سوف أهرب من السجن، وسوف

أعود إلى باريس. وبالطبع، سيكون أوّل شيءٍ أفعله هو أن أجعل بولان يدفع الثمن أوّلاً، ومن ثَمّ رجال الشرطة. وماذا بشأن المحلّفين؟ هل سيواصل هؤلاء الأغبياء حياتهم بهدوءٍ وسلام؟ لا بدّ أنّ هؤلاء العجائز قد عادوا إلى بيوتهم وهم راضون ومبتهجون بأداء وظيفتهم مع قاضٍ كبيرٍ، وممتلئون بالإحساس بأهميتهم، يتنافخون غروراً وغطرسةً أمام جيرانهم وأبناء طبقتهم البرجوازية الذين ينتظرونهم، بشعرٍ أشعث، ليلتهموا الحساء معاً.

حسناً، ما الذي عليّ أن أفعله مع المحلّفين؟ لا شيء. إنّهم حمقى مساكين. لم يتم إعدادهم ليكونوا قضاة. ولو أنّ أحدهم كان دركياً متقاعداً، أو جمركيّاً، سيتصرّف مثل دركيٍّ أو جمركي. ولو أنّه بائع حليبٍ، سيتصرّف مثل أيّ بائع فحم وحطب. لقد اتّبعوا فرضية المدعي العامّ الذي لم يجد صعوبة في تطويعهم وكسب تأييدهم المطلق. لم يكونوا مسؤولين بالفعل عن الحكم. لقد اتّخذ القرار ونُطِق بالحكم وتمّت تسوية الأمر من دونهم، ولذلك لن أُلحق أيّ أذى بهم.

وأنا أكتب كلّ هذه الأفكار التي هي أفكاري في الحقيقة منذ سنوات كثيرة والتي راودت ذهني بغزارة، قلتُ في نفسي: إلى أيّ مدى يمكن للصمت المطبق والعزلة التامّة والكلّية، المفروضة على رجلٍ شابٍّ محبوسٍ في زنزانة، أن يخلق حياةً حقيقية وواسعة الخيال قبل أن ينعطف نحو الجنون؟ حياةً في غاية الكثافة، وفي غاية الحيوية، بحيث يعيش المرء حالة من الانفصام بالمعنى الحرفي للكلمة. يحلّق ويجول حقّاً حيث يطيب له التحليق والتجوال. في بيته أو مع والده ووالدته، وسط عائلته، وأماكن طفولته، وعند مختلف مراحل حياته. ومن ثَمّ، وعلى نحوٍ خاصّ، في قصور إسبانيا التي ابتدعها خياله الخصب، التي ابتدعها بخيالٍ نشطٍ جدّاً على نحوٍ لا يُصدّق بحيث يصل في حالة الانفصام هذه إلى القناعة بأنّه يعيش بالفعل كلّ ما يحلم به.

مرّت ستّ وثلاثون سنة ومع ذلك، لا تزال ريشتي، دون أدنى عناءٍ في التذكّر، تسيل حبراً لكي تقتفي أثر ما فكّرتُ به في تلك اللحظة من حياتي.

كلا، لن ألحق أيّ أذى بالمحلّفين. ولكن ماذا بشأن المحامي العامّ؟ آه، هذا هو الذي لا ينبغي أن ينجو من العقاب، وله عندي وصفة جاهزة، وصفة سبق إليها ألكسندر دوما، وهي التصرّف تماماً كما في رواية الكونت دي مونت كريستو، مع الرجل الذي وضِعَ في الكهف وتُرِكَ ينفق جوعاً.

نعم هذا القاضي يتحمّل المسؤولية. وهذا الرجل المتعجرف الذي كان يتكابر كنسرٍ، مرتدياً رداءً أحمر اللون يستحقّ تماماً أن أنفّذ فيه العقاب الأكثر فظاعةً. نعم، بعد بولان ورجال الشرطة، سوف أتكفّل على نحوٍ خاصّ بأمر هذا الطير الجارح النهم. سوف أستأجر فيلا سكنية، ولا بدّ أن يكون فيها كهفٌ عميقٌ جدّاً بجدرانٍ سميكة وبابٍ ثقيل جدّاً. إذا لم يكن الباب سميكاً بما فيه الكفاية، سوف أقوم بنفسي بسدّه باستخدام حشوة سميكة وخشب. حينما أحصل على الفيلا، سوف أحدّد مكانه، وسوف أختطفه. ولأنني سأكون قد ثبّتُ على الجدار حلقات معدنية، سوف أقيّده بها حالما أوصله إلى المكان، وحينها، سيأتي دوري لأتلذّذ بتعذيبه!

سأجلس قبالته، وأنا أراه بتعبيرٍ غريبٍ من تحت جَفنَيَّ المغمَضين. أجل، سوف أنظر إليه بالطريقة نفسها التي كان ينظر بها إليّ أثناء جلسات المحاكمة. المشهد واضحٌ وجليٌّ للغاية إلى درجة أنّني أشعر بحرارة أنفاسه على وجهي، لأنني قريبٌ جدّاً منه، وجهاً لوجه، ونكاد نتلامس.

تنبهر عيناه الشبيهتان بعيني بازٍ، وتُذعران بضوءِ مصباحٍ قويٍّ جدّاً، سلّطته عليه، ويتصبّب عرقاً غزيراً بقطراتٍ ضخمةٍ تسيلُ على وجهه المحتقن بالدم. نعم، أسمع أسئلتي المطروحة عليه، وأسمع إجاباته، وأعيش تلك اللحظة بدقّة وتركيز.

– أيّها القذر، هل تذكّرتني؟ أنا بابيون الذي أرسلته بكلّ راحة ضمير إلى سجن الأشغال الشاقّة المؤبّدة. هل تعتقد أنّ الأمر يستحقّ عناء أن تجهد نفسك لسنواتٍ طويلة لكي تنجح في أن تصبح رجلاً مثقّفاً من الطراز الرفيع، وأن تمضي لياليكَ عاكفاً على القوانين الرومانية وسواها؛ وأن تتعلّم اللغة اللاتينية واللغة اليونانية، وتضحّي بسنواتٍ من شبابك،

لكي تصبح خطيباً عظيماً؟ كلّ ذلك من أجل الوصول إلى ماذا، أيّها الغبيّ؟ هل هو من أجل وضع قانونٍ اجتماعي جديد ومناسب؟ هل هو من أجل إقناع جموع الناس بأنّ السلام هو أفضل الأشياء في العالم؟ هل هو من أجل اكتساب فلسفة من دينٍ مذهل؟ أم هو فقط من أجل التأثير في الآخرين، من خلال تفوّق تحصيلك الجامعي، لكي يكونوا الأفضل أو يكفّوا عن أن يكونوا أشراراً؟ أخبرني، هل استخدمت علمك في إنقاذ البشر أم في إغراقهم؟

«لم تحقّق أيّ شيءٍ من هذه الأمور، وإنّما حرّكك طموحٌ واحد فقط! وهو الصعود، ومن ثَمّ الصعود. صعود سلالم عملك الوظيفي المقرف. المجد بالنسبة لك هو أن تكون أفضل مزوّد للسجون بالمحكومين، أن تكون السادن المندفع بلا توقّف للجلّاد والمقصلة.

«لو كان ديبلر[1] حافظاً للجميل، لوجب عليه في نهاية كلّ سنة أن يرسل إليك صندوقاً من أفخر أنواع الشامبانيا. أليس بفضلك، أيّها الخنزير، استطاع أن يقطع خمسة أو ستّة رؤوس إضافية خلال هذه السنة؟ على أيّة حال، أنا من أحتجزك الآن، مقيّداً إلى هذا الجدار، بإحكامٍ تامٍّ لا فكاك لك منه. أستعيد في ذاكرتي الآن ابتسامتك، نعم، أستعيدها وهي تشي بالانتصار المرتسم على محيّاك حينما سمعتَ القاضي يتلو الحكم عليّ بعد الاستماع إلى تحقيقاتك. يبدو لي أنّ ذلك كان في الأمس فقط، على الرغم من مرور سنوات عديدة. كم من السنوات مرّت؟ عشر سنوات؟ عشرون سنة؟»

ولكن ما الذي جرى لي؟ لماذا عشر سنوات؟ لماذا عشرون سنة؟ تحسّس نفسك يا بابيون، فأنت ما زلت قويّاً وشابّاً، وتمتلك في جوفك خمسة آلاف وستمئة فرنكٍ. سوف أقضي سنتين فقط، نعم سوف أقضي سنتين فقط لا أكثر من حكمي المؤبّد، أُقسِمُ لنفسي على ذلك.

1- أناتول ديبلر: جلّاد فرنسي شهير نفّذ حكم الإعدام بالمقصلة في قرابة 400 محكوم عليهم. توفي متأثراً بأزمة قلبية على أحد أرصفة مترو الأنفاق في العام 1939 وهو في طريقه لتنفيذ حكم إعدامٍ – المترجم.

هيّا! سوف تغدو أبلهَ، يا بابيون! هذه الزنزانة الموحشة، وهذا الصمت المطبق سيوديان بك إلى الجنون. لم تعد لديّ سجائر، إذ أتيتُ على آخرها يوم أمس. سوف أتمشّى في الزنزانة، ففي النهاية، لا أحتاج إلى أن أغمض عينَيَّ، ولا أن أضع المنديل فوقهما لكي أواصل رؤية ما سيحدث. ولذلك نهضتُ من مكاني في الزنزانة التي تبلغ أربعة أمتار طولاً، أي أنّها تكفي للسير لخمس خطوات صغيرة من الباب إلى الجدار. بدأت بالمشي فيها وأنا أعقد يديّ خلف ظهري، واستأنفت استنطاقي للنائب العامّ:

– حسناً. كما أسلفتُ وقلت لك، تتراءى لي ابتسامتك الدالّة على الانتصار بكلّ وضوح. وأنا سأحوّلها لك الآن إلى عبوسٍ وذعر! أنت تتمتّع بميزة لا أمتلكها، إذ لم يكن بوسعي أن أصرخ في حين كنتَ تستطيع فعل ذلك. والآن اصرخ، ثمّ اصرخ قدر ما تشاء، وقدر ما تستطيع. ما الذي سأفعله بك؟ هل سأطبّق وصفة الكاتب دوماً؟ أن أدعك تَنفق جوعاً؟ كلا، هذا لا يكفي. أوّلاً سوف أفقأُ عينَيك. فهمت؟ لا تزال تبدو منتصراً، إذ إنَّك تعتقد بأنني لو فقأتُ عينيك، سوف تحظى على الأقل بميزة ألّا تعود تراني، ومن جهة أخرى، سوف أُحرَمُ من متعة قراءة ردود أفعالك في حدقتي عينيك. نعم أنت محقٌّ فعلاً، لا ينبغي عليّ أن أفقأ عينيك، على الأقلّ ليس في الحال. سوف أفعل ذلك فيما بعد.

«سوف أقطع لسانك، هذا اللسان الفظيع للغاية، والبتّار مثل نصل سكين – كلّا، أكثر حدّة من نصل سكين، مثل موسى حلاقة! هذا اللسان السليط الفاجر في مهنتك المجيدة. اللسان نفسه الذي يتفوّه بكلمات لطيفة ورقيقة لزوجتك وأطفالك وعشيقتك. هل لديك عشيقة؟ بالأحرى، أنت معشوقٌ. لا يمكنك أن تكون سوى لوطيٍّ مفعولٍ به وجبان. عليّ بكلّ تأكيد أن أبدأ بإزالة لسانك، لأنّه، بعد دماغك، هو من ينفّذ رغباتك، وبفضله هو، لكونك تجيد تحريكه إجادة تامّة، أقنعتَ هيئة المحلّفين بأن يُجيبوا بكلمة «نعم» على الأسئلة المطروحة.

«بفضله هو، أظهرتَ رجال الشرطة على أنّهم قدّيسون، يكرّسون

أنفسهم من أجل واجبهم ويضحّون في سبيله؛ وبفضله هو، كانت الحكاية التافهة للشاهد تأخذ مكانها وتترسّخ. بفضله هو، استطعتَ أن تُظهرني للمحلفين الأوغاد الاثني عشر كأخطر رجل في باريس. لو لم يكن في فمكَ هذا اللسانُ الذَّرِبُ جدّاً والماهرُ جدّاً، والبارعُ في الإقناع، والمتمرّسُ في تشويه سمعة الناس وتزييف الحقائق والوقائع، لكنتُ ما زلتُ جالساً على رصيف مقهى «كران كافيه» الواقع في ساحة «بلانش»، الذي ما كنتُ لأتزحزح عنه أبداً. إذاً هذا مفهوم، ينبغي عليّ أن أنتزع هذا اللسان من فمك، ولكن أيُّ أداةٍ سأستخدمها في انتزاعه؟».

واصلتُ المشي في الزنزانة حتى شعرتُ بالدوخة، ولكنني كنتُ ما زلتُ وجهاً لوجه معه... حينما انطفأ النور فجأةً وانسلّ شعاعٌ خافتٌ جدّاً إلى الزنزانة عبر درفة النافذة.

كيف ذلك؟ هل حلّ الصباح؟ تُرى هل أمضيتُ الليلة في الانتقام لنفسي؟ يا لها من أوقات سعيدة أمضيتها في ذلك؟ هذه الليلة الطويلة جدّاً، كم كانت قصيرة!

أصختُ السمع جالساً على سريري. لم أسمع شيئاً. كان الصمت مطبقاً، أسمع فقط من حينٍ إلى آخر «نقراً» خفيفاً على باب زنزانتي. يصدر ذلك الصوت بفعل الحارس الذي ينتعل خفّاً خفيفاً لكي لا يثير ضجّةً أثناء اقترابه من باب الزنزانة، وكان يأتي ليرفع المغلاق المعدني الصغير لكي يُلصق عينه على الثقب الصغير المفتوح في الباب والذي يتيح له أن يراني ويُراقبني من دون أن ألمحه.

الآلة التي صمّمتها الجمهورية الفرنسية هي الآن في مرحلتها الثانية. وهي تعمل على نحوٍ مذهل، لكونها، في المرحلة الأولى، قد أزالت رجلاً كان بوسعه أن يخلق لها متاعب. ولكن هذا لا يكفي. لا ينبغي أن يموت هذا الرجل سريعاً جدّاً، ولا ينبغي أن يفلت منها بعملية انتحارٍ. ثمّة حاجة إليه. فما العمل الذي سوف يؤدّى في إدارة السجون، ما لم يكن هناك سجناء؟ من المستحسن أن نقوم بمراقبته، وأن نرسله إلى سجن

الأشغال الشاقّة حيث سيفيد في تشغيل موظّفين آخرين. عاد «النقر» إلى باب زنزانتي، الأمر الذي جعلني أبتسم.

لا تقلق بشأني، ولا تشغل بالك أبداً، لن أهرب منك. على الأقلّ ليس بالطريقة التي تخشاها: الانتحار.

لا أطلب إلّا شيئاً واحداً، وهو أن أستمرّ في العيش بأفضل صحّة ممكنة، وأن أغادر بأقصى سرعة إلى إقليم غويانا الفرنسي، الذي، والحمد لله، ارتكبوا حماقة إرسالي إليه.

أنا أعلم، يا حارس سجني العجوز، الذي لا تكفّ عن النقر على بابي أنّ زملاءك ليسوا فتيان مذبح الكنيسة. أنت والدٌ طيّبٌ إلى جانب حرّاسٍ آخرين هناك. أعرف ذلك منذ زمنٍ طويل. لأنّه حينما بنى نابليون السجن وطُرِحَ عليه السؤال: «بمن سوف تحرس قطّاع الطرق هؤلاء؟»، أجاب: «بقاطع الطريق الأكثر شراسةً من بينهم». وفيما بعد، استطعتُ أن أتأكّد بأنّ مؤسّس سجن الأشغال الشاقّة لم يكن يكذب.

سمعتُ قرقعةً، وانفتحت كوّة صغيرة مربّعة الشكل، طول كلّ ضلع فيه عشرون سنتيمتراً، وسط باب زنزانتي. مدّ إليّ الحارس من خلالها كوباً من القهوة، وقطعة من الخبز تزن سبعمئة غرام. ولأنني محكومٌ، لم يعد لي الحقّ في الذهاب إلى المطعم لتناول طعامي، ولكن لا يزال بوسعي أن أشتري من حسابي الخاصّ بعض السجائر والمأكولات الخفيفة من حانوتٍ متواضع. ويمكنني فعل ذلك لبضعة أيام، ثمّ لا يعود بوسعي الحصول على أيّ شيء. فسجن التوقيف عبارة عن مدخل إلى السجن الانفرادي. دخّنتُ بشراهة وتلذّذٍ سيجارةً من علبة لاكي سترايك التي تُباع مقابل ستّة فرنكات وستّين سنتيماً. اشتريتُ علبتين منها. كنتُ أدّخر المبلغ الذي بحوزتي، لأنّهم سوف يأخذونه مني من أجل تسديد نفقات الدعوى.

أبلغني ديغا عبر ورقة كان قد دسّها في قطعة الخبز، أن أذهب إلى قسم التعقيم: «في علبة لأعواد الثقاب، هناك ثلاث قملات». أخرجت

أعواد الثقاب من العلبة وعثرتُ على القملات الثلاث، التي كانت ضخمة وسمينة. أعرف ما يعنيه بهذا الأمر. إذ سوف أحملها معي إلى المفتّش، وسوف يرسلني، غداً، مع كلّ حوائجي، بما فيها حشيّتي، إلى قاعة للبخار لقتل كلّ الجراثيم والبكتيريات - باستثنائنا نحن، بالطبع. في الواقع، قابلتُ ديغا هناك في اليوم التالي. لم يكن هناك مراقبٌ في قاعة البخار الخاصّة بالتعقيم. كنّا لوحدنا.

- شكراً لك يا ديغا، بفضلك حصلتُ على الماسورة.

- ألا تُضايقك؟

- كلّا.

- في كلّ مرّة تذهب فيها إلى المرحاض، اغسلها جيّداً قبل أن تُعيدها إلى أحشائك.

- نعم. إنّها محكمة العزل على ما أعتقد، لأنّ الأوراق النقدية المطوية في داخلها سليمة وفي حالة ممتازة، على الرغم من أنّني أحملها في جوفي منذ سبعة أيام.

- الحال على ما يُرام إذاً.

- ماذا تنوي أن تفعل، يا ديغا؟

- سوف أتظاهر بالجنون. لا أريد أن أعود إلى سجن الأشغال المؤبّدة. هنا، في فرنسا، سأقضي ربّما ثماني أو عشر سنوات. لديّ علاقات جيّدة مع بعض المسؤولين وسيكون بوسعي أن أحظى بخَمس سنوات من العفو على الأقلّ.

- كم عمرك؟

- اثنان وأربعون عاماً.

- أنت مجنون! إذا ما قضيتَ عشر سنوات من أصل خمس عشرة سنة، ستخرج من هنا عجوزاً. هل تخشى الذهاب إلى سجن الأشغال الشاقّة؟

- أجل. أخشى من سجن الأشغال الشاقّة، ولا أخجل من أن أبوح لك بذلك، يا بابيون. سوف ترى أنّ الأمر رهيبٌ في سجن غويانا. في كل

سنة، يفقد السجن نسبة 24 بالمائة من نزلائه. تحلُّ قافلة من السجناء محلّ قافلةٍ أخرى. وتتكوّن القافلة الواحدة من ألف وثمانمئة إلى ألفَي سجين. فإن لم تُصَب بالجذام، سوف تُصاب بالحمّى الصفراء، أو الزحار الذي لا يرحم ولا يمهل، أو داء السلّ، أو الحمّى المستنقعية، أو الملاريا، وإذا ما نجوت من كلّ هذه الأوبئة، فستكون هناك فرصٌ عديدة لقتلك بدافع الاستيلاء على ما معك في الماسورة، أو تموتُ أثناء محاولة فرار.

صدّقني، يا بابيون، لا أقصد أن أُصيبك بالإحباط واليأس حينما أخبرك بهذا، ولكنني أعرف العديد من السجناء الذين عادوا إلى فرنسا بعد أن أمضوا مُدَداً قصيرة من الأحكام، تتراوح بين خمسة وسبعة أعوام، وأنا أعرف ما الذي حلّ بهم. كانوا قد تحوّلوا إلى بقايا بشرية حقيقية. يمضون تسعة أشهر من السنة في المشافي بسبب ما ألمّ بهم من أمراض، وبالنسبة إلى الهروب، فإنّهم يقولون إنّ الأمر ليس سهلاً كما يعتقد الكثير من الناس.

– أصدّقك يا ديغا، ولكنني أثق بنفسي، ولن يطول مكوثي هناك، كن متأكّداً من ذلك. فأنا بحّارٌ وأعرف البحر جيّداً ويمكنك أن تثق بأنني سأحاول بأسرع ما يمكن أن أشرع في الفرار من السجن. وأنت، هل تتصوّر نفسك وأنت تمضي عشر سنوات في سجنٍ انفرادي؟ حتى وإن خفّضوا مدّة حكمك خمس سنوات، وهو أمرٌ غير مؤكّد، هل تعتقد أنّك سوف تستطيع تحمّل ذلك، ولن تغدو مجنوناً، من جرّاء العزلة التامّة؟ أمّا أنا، في الوقت الراهن، في هذه الزنزانة التي أعيش فيها وحيداً، من دون كتب، ومن دون خروج، ومن دون إمكانية التحدّث إلى أحدٍ، فإنّ الساعات الأربع والعشرين التي أمضيها في كلّ يوم، لا تُحسَب على أنّ كلّ ساعة تتكوّن من ستّين دقيقة، وإنّما من ستمئة دقيقة، ومع ذلك، سوف تبقى بعيداً عن الحقيقة.

– هذا ممكن، ولكنّك شابٌّ وأنا في الثانية والأربعين من العمر.

– اسمع، يا ديغا، أخبرني بكلّ صراحة. ما هو أكثر ما تخشاه؟ ألستَ تخشى السجناء الآخرين؟

- نعم، بكلّ صراحة، يا بابيون. يعرف الجميع أنّي مليونير. ولهذا السبب، فإنّ احتمال الإقدام على قتلي لمجرد الاعتقاد بأنني أحمل معي خمسين ألفاً، أو مئة ألف فرنكٍ، ليس بعيداً.

- اسمع، هل تُريد أن نتعاهد؟ أنت تعدني بألّا تذهب إلى قسم المجانين، وأنا أعدك بأن أكون دائماً بجانبك. نتكاتف ونساند بعضنا بعضاً. أنا قويّ وسريع، وقد تعلّمت فنون القتال والدفاع عن النفس منذ يفاعتي، وأجيد استخدام السكين ببراعة. وبالتالي، كن مطمئناً من جهة السجناء الآخرين، فهم سوف يحترموننا أكثر ويهابوننا أكثر. بالنسبة إلى الفرار من السجن، لا نحتاج إلى المساعدة من أيّ شخص. أنت تملك المال، وأنا أملك المال، وأنا أجيد استخدام بوصلة وقيادة مركبٍ. ماذا تريد أكثر من هذا؟

نظر إليّ محدّقاً في عينيّ... ثمّ تعانقنا. لقد تمّ التوقيع على المعاهدة.

بعد مضي لحظات، انفتح باب المهجع علينا، فغادر هو من جهته مع أمتعته، وأنا غادرتُ من جهتي مع أمتعتي. لم تكن زنزانتانا بعيدتين عن بعضهما، وسوف يكون بوسعنا أن نلتقي من حينٍ إلى آخر عند الحلّاق أو الطبيب أو في الكنيسة الصغيرة في أيام الأحد.

كان ديغا قد أُدين في قضية تزوير عملات، اتّهمه بها الدفاع الوطني. كان أحد المزوّرين قد أتقن عملية التزوير بمنتهى البراعة. إذ كان يزيل الأرقام عن العملات الورقية من فئة 500 فرنك ويُعيد طباعة الرقم 10000 فرنك عليها بمنتهى الدقّة والاتقان. ولأنّ الأوراق النقدية هي نفسها للفئتين، فإنّ المصارف والتجّار كانوا يقبلون التعامل بها ويتقاضونها بكلّ ثقة ومن دون الارتياب فيها. وقد استمرّت عمليات تزوير العملة هذه لسنوات عديدة، وضاق قسم الشؤون المالية في النيابة العامّة ذرعاً أمام العجز عن كشفها، إلى اليوم الذي تمّ فيه ضبط رجلٍ يُدعى بريوليه بالجرم المشهود وتوقيفه. كان لويس ديغا يمارس عمله بكلّ هدوء في حانته في مرسيليا، والتي كانت نخبة الوسط الاجتماعي تجتمع فيها

كلّ ليلة، ويلتقي فيه، كما لو أنّه موعدٌ عالمي، كبارُ المسافرين الأشرار في العالم.

كان مليونيراً في عام 1929. وذات ليلة، حضرت إلى الحانة امرأة أنيقة الملبس، جميلة شابّة. وطلبت مقابلة السيّد لويس ديغا. قال لها ديغا:

- أنا هو، يا سيّدتي، ماذا تودّين؟ تفضّلي من فضلك إلى القاعة التالية.

- حسناً، أنا زوجة بريوليه، وهو في السجن في باريس، بتهمة بيع عملات مزوّرة، وقد قابلته في غرفة استقبال الزوّار في قسم الصحّة، وأعطاني عنوان الحانة، وأخبرني أن آتي وأطلب منك عشرين ألف فرنك لكي ندفعها للمحامي.

وفي تلك اللحظة، لم يجد ديغا، وهو أحد أكبر الأشرار في فرنسا، في مواجهة خطر امرأة مطّلعة على دوره في قضية تزوير العملات، سوى جوابٍ واحدٍ ما كان عليه أن يتفوّه به:

- سيّدتي، أنا لا أعرف زوجَكِ على الإطلاق، وإذا كنتِ في حاجةٍ إلى أموال، اذهبي ومارسي الدعارة، وسوف تكسبين من المال أكثر ممّا تحتاجين، خاصّة وأنتِ على هذا القدر من الجمال.

غادرت المرأة المسكينة راكضةً وباكيةً، وهي تشعر بالغضب والاستياء الشديدَين. وراحت تروي ما جرى معها لزوجها. وفي اليوم التالي، روى بريوليه، الحانق، كلّ ما يعرفه لقاضي التحقيق، متّهماً بشكلٍ رسمي ديغا بأنّه الرجل الذي كان يقدّم العملات المزوّرة. وانهمك فريقٌ من أمهر رجال الشرطة في فرنسا في تعقّب ديغا. وبعد مضي شهرٍ، تم إلقاء القبض على ديغا المزوّر والنقّاش، وأحد عشر رجلاً آخر متورّطين في القضية، في التوقيت نفسه، وفي أماكن مختلفة، وتمّ احتجازهم مكبّلين بالأصفاد. حضروا جلسات المحاكمة في محكمة سين وامتدّت الدعوى لأربعة عشر يوماً. دافع عن كلّ متّهم أحد كبار المحامين. وأصرّ بريوليه على أقواله ولم يتراجع عنها أبداً. وفي المحصّلة، وبسبب عشرين ألف فرنكٍ بائسٍ، وكلمات نابية حمقاء، قضى الرجل الأكثر شرّاً في فرنسا

خمسة عشر عاماً من الأشغال الشاقّة المؤبّدة التي أفنت من عمره حتى الآن عشر سنوات وأنهكته. هذا الرجل هو الذي وقّعتُ معه على معاهدة حياة وموت.

جاء المحامي ريمون هوبير لمقابلتي. لم يكن متحمّساً كثيراً، لكنني لم أعاتبه على أيّ شيء.

... واحد، اثنان، ثلاث، أربع، خمس، نصف استدارة... واحد، اثنان، ثلاث، أربع، خمس، نصف استدارة. مرّت بضع ساعات وأنا أقوم بهذه الجولة جيئةً وذهاباً بين نافذة زنزانتي وبابها. دخّنتُ سيجارةً، وشعرتُ بأنني صاحٍ ومتوازنٌ وقادرٌ على تحمّل أيّ شيءٍ كان. عاهدتُ نفسي على ألّا أفكّر في الوقت الراهن بالانتقام.

فلندعْ النائب العام حيثُ تركته، مقيّداً إلى حلقات الجدار، واقفاً أمامي، من دون أن أحسم قراري نهائياً بشأن الطريقة التي سأقتله بها.

فجأةً، نجحت صرخةٌ في أن تعبر باب زنزانتي، صرخةُ يأس حادّة، تعبّر عن قلقٍ فظيع. ما هذا؟ كانت أشبه بصرخة رجلٍ يخضع للتعذيب. مع أنّنا لم نكن هنا في قسم الشرطة القضائية. لم تكن هناك مِن وسيلةٍ لمعرفة ما يحدث. أقلقتني تلك الصرخات وسط عتمة الليل. وأيّ قوّة لتلك الصرخات حتى تستطيع عبور هذا الباب المبطّن بالعوازل؟ ربّما كان رجلٌ مجنونٌ يُطلق هذه الصرخة. ومن السهل جدّاً أن يُصاب المرءُ بالجنون في هذه الزنزانات التي تعزلك عن كلّ شيء. تحدّثت مع نفسي، بصوتٍ عالٍ، وتساءلت: «ما الذي قد يعنيك في هذا الأمر؟ فكّر في نفسكَ، لا تفكّر بأيّ شيءٍ سوى نفسك، وبشريكك الجديد ديغا». كنتُ أهبط وأعلو، ومن ثَمّ ضربتُ بقبضة يدي على صدري. تألمتُ كثيراً، وكان هذا يعني أنّ كلّ الأمور على ما يُرام: كانت عضلاتُ ساعديّ تعمل بطريقة ممتازة إذاً. وماذا بشأن ساقيّ؟ هنيئاً لي بهما، فها أنا أمشي عليهما منذ أكثر من ثلاث عشرة ساعة، من دون أن أشعر حتى بالتعب.

لقد اخترع الصينيون تساقط قطرات الماء على الرأس كوسيلة

للتعذيب، في حين اخترع الفرنسيون الصمت. لقد ألغوا كل وسيلة للتسلية والترفيه، إذ لا كتب، ولا قلم، ولا نافذة ذات قضبان ضخمة، مسدودة تماماً بألواح، تسمح بعض الثقوب الصغيرة فيها بترشّح القليل من الضوء الشاحب جدّاً.

متأثراً للغاية بتلك الصرخة التي تمزّق القلب، كنتُ أدور من حولي مثل حيوانٍ محجوزٍ في قفص. أحسستُ بالفعل أنّ الجميع قد تخلّى عني، ووجدتُ نفسي مدفوناً وأنا حَيٌّ بالمعنى الحرفي للكلمة. نعم، شعرتُ بالوحدة والعزلة القاسية، وكلّ ما يصلني ليس سوى صرخة.

فُتِح باب الزنزانة، وظهر خوريٌّ عجوز. إذاً، لستُ وحيداً، إذ يقف أمامي الآن خوري هنا.

ألقى الخوري التحية عليّ:

- عمتَ مساءً، يا بُنيّ. اعذرني على أنني لم آتِ لمقابلتك قبل الآن، ولكنني كنتُ في عطلة. كيف حالك؟

ودخل الخوري العجوز الطيب دون تكلّف وجلس ببساطة تامّة على فراشي المتواضع.

- من أين أنت؟

- من أرديش.

- وماذا عن والديك؟

- توفّيت والدتي حينما كنتُ في الحادية عشرة من عمري. ووالدي أحبّني كثيراً ورعاني.

- ماذا كان يعمل؟

- كان مدرّساً.

- وهل هو على قيد الحياة؟

- نعم.

- لماذا تتحدّث عنه بصيغة الماضي طالما هو حي؟

– لأنّه إذا كان هو حيّاً، فأنا ميّت.

– أوه! لا تقل هذا. ماذا فعلتَ؟

وفي لمح البصر، خطر لي بأنّه من المثير للضحك أن أخبره بأنني بريء، فأجبته سريعاً:

– تقول الشرطة بأنني قتلتُ رجلاً، وإذا كانت الشرطة تقول هذا، فلا بدّ أنّه صحيح.

– هل كان القتيل تاجراً؟

– كلا، إنّه قوّاد.

– وهل حكموا عليك بالأشغال الشاقّة المؤبّدة بسبب قضية تتعلّق بالبغاء؟ لا أفهم الحكاية. هل كانت عملية اغتيال؟

– كلا، جريمة قتل.

– هذا أمرٌ لا يُصدّق، يا ولدي المسكين. ما الذي بوسعي أن أفعله من أجلك؟ هل تريد أن تصلّي معي؟

– سيّدي الخوري، اعذرني، أنا ما تلقَّيتُ أي تعليم ديني، ولذا لا أعرف أن أصلّي.

– لا بأس في ذلك، يا ولدي، سوف أصلّي من أجلك. إنّ الإله الطيّب يحبّ كلّ أبنائه، مَن تعمَّدَ منهم، ومن لم يتعمّد. سوف تردّد كلَّ ما أتفوّه به من كلمات. هل تريد ذلك؟

كانت عيناه تفيضان عذوبةً، ويشعّ وجهه الواسع بالطيبة، بحيث خجلت أن أرفض طلبه، ولأنّه كان راكعاً، فعلتُ مثله. «أبانا الذي في السماوات...»

فاضت الدموع في عيني، فمسح الأب اللطيف دمعة عن خدّي بإصبعه المفتولة ورفعها إلى شفتيه وشربها. ثمّ قال:

– دموعك، يا ولدي، هي بالنسبة إلي أكبر مكافأة يمكن أن يقدّمها الربّ بوساطتك. شكراً.

ثمّ وهو ينهض، قبّلني على جبيني.

أصبحنا من جديد على السرير، نجلس إلى جانب بعضنا.

- كم من الوقت مرّ عليك دون أن تبكي؟

- أربعة عشر عاماً.

- لماذا أربعة عشر عاماً؟

- منذ يوم وفاة والدتي.

أمسك بيدي وضمّها بين يديه وقال لي: «اصفحْ عن أولئك الذين آذوك وتسبّبوا لك بالألم».

سحبتُ يدي من يده، وبوثبة واحدة وجدتُ نفسي في وسط الزنزانة. قلتُ محتدّاً:

- آه، كلّا، إلا هذا! لن أسامح أبداً. وهل تريدني أن أخبرك بأمرٍ، يا أبانا؟ حسناً، كلّ يوم، وكلّ ليلة، وكلّ ساعة، وكلّ دقيقة، أفكّر متى وكيف وبأيّ طريقة سوف أستطيع أن أقتل كلّ الذين أرسلوني إلى هنا.

- أنت تقول وتصدّق هذا، يا بني. ما زلت صغيراً في السن، ما زلت صغيراً جدّاً في السنّ. حينما يتقدّم بك العمر، سوف تتخلّى عن فكرة العقاب والانتقام.

بعد مضي أربعة وثلاثين عاماً، أصبحتُ أفكّر مثله.

كرّر الخوري عليّ:

- ما الذي يمكنني فعله من أجلك؟

- أن تسدي لي خدمة، يا أبانا.

- وما هي؟

- أن تذهب إلى الزنزانة رقم 37 وتخبر ديغا أن يقوم بتقديم طلب عن طريق محاميه لكي يتمّ إرساله إلى مركز كاين، وأن تُعلمه بأنني قد فعلتُ الأمر ذاته اليوم. ينبغي أن نغادر على وجه السرعة سجن التوقيف إلى أحد المراكز التي يتمّ فيها إعداد قوافل للانتقال إلى غويانا. لأنّه إذا ما تخلّفنا

عن السفينة الأولى، سيكون علينا أن ننتظر سنتين إضافيتين في السجن الانفرادي قبل أن نتمكّن من الحصول على فرصة أخرى. بعد أن تقابله، يا سيّدي الخوري، ينبغي أن تعود إلى هنا.

– وبأيّ ذريعة أعود إلى هنا؟

– على سبيل المثال، بذريعة أنّك قد نسيت كتابك الخاصّ بالأدعية. أنتظر جوابك.

– ولماذا أنت في عجلةٍ من أمرك إلى هذا الحدّ لكي تذهب إلى سجن الأشغال الشاقّة الرهيب؟

نظرتُ إلى الخوري، الرسول الحقيقي للإله الطيّب، وأنا متأكّد من أنّه لن يخونني. قلت:

– لكي أهرب من السجن بأسرع ما يمكن، يا أبانا.

– سوف يكون اللّه في عونك، يا بني، أنا متأكّدٌ من ذلك، وسوف تبدأ حياتك من جديد، يراودني الإحساس بذلك. كما ترى، لك عينا صبيٍّ طيّب وروحك تبدو نبيلة. سوف أذهب إلى الزنزانة رقم 37. انتظر منّي الجواب.

عاد سريعاً جدّاً. لقد وافق ديغا على طلبي. وترك الخوري كتابه الخاصّ بالأدعية حتى اليوم التالي.

يا لها من أشعّة شمسٍ أتنعّم بها اليوم، تُضيء كلّ زنزانتي. بفضل هذا القدّيس.

إذا كان الربّ موجوداً، لماذا يسمح بأن تكون على الأرض كائناتٌ بشرية على هذه الدرجة الكبيرة من الاختلاف؟ النائب العام، ورجال الشرطة، أمثال بولان، ومن ثَمّ الخوري، خوري سجن التوقيف؟

لقد أراحتني زيارة هذا القدّيس، كما أنّها خدمتني كثيراً.

لم تتأخّر نتائج الطلبات. بعد مضي أسبوعٍ، وجد سبعة رجالٍ، في الساعة الرابعة صباحاً، أنفسهم مترادفين في ممرّ سجن التوقيف. وكان الحراس حاضرين، وهم على أهبة الاستعداد. جاء الأمر:

- تعرّوا تماماً!

خلعنا جميعاً ثيابنا ببطء، وتعرّينا. كان الطقس بارداً، فارتعشتُ برداً.

- دعوا حوائجكم أمامكم. استديروا نصف استدارة، وارجعوا خطوةً إلى الوراء!

وجد كلّ واحدٍ منّا نفسه أمام صرّة.

- هيّا ارتدوا الثياب!

استُبدِل القميص الناعم الذي كنتُ أرتديه قبل لحظات بقميصٍ فضفاضٍ منسوجٍ من الكتّان الخامّ الخشن، واستُبدلَت بذلتي الجميلة ببلوزة وسروالٍ من الصوف الخشن. اختفى حذائي وبدلاً منه دسستُ قدماي في زوجٍ من الصنادل. حتى ذلك اليوم، كان منظرنا كمنظر أيّ إنسانٍ عاديّ. نظرتُ إلى الرجال الستّة الآخرين: يا للهول! لقد انتهت شخصيّة كلّ منّا، وفي غضون دقيقتين فقط، تحوّلنا إلى سجناء.

«إلى اليمين در، ترادف! إلى الأمام، سر!».

وصلنا مخفورين بحوالي عشرين حارساً إلى الباحة، حيث أُدخل كلٌّ منّا، أحدنا بعد آخر، في صندوقٍ ضيّق لسيارة انفرادية. سارت بنا السيارة سالكة الطريق إلى بوليو، وهو اسم مركز كاين.

في سجن كاين المركزي

ما كدنا أن نصل حتى أُدخلنا إلى مكتب المدير. كان يجلس وراء أثاثٍ إمبراطوري فوق مصطبة بارتفاع مترٍ واحدٍ.

- انتبهوا، فالمدير سيتحدّث إليكم.

خاطبنا المدير، قائلاً:

- أيّها المحكومون، أنتم هنا برسم الإيداع، ريثما يتمّ ترحيلكم إلى سجن الأشغال الشاقّة. أنتم هنا في مركزٍ للإصلاح، الصمتُ فيه إلزامي دائماً وأبداً، ولا تنتظروا زيارة أحدٍ لكم، ولن تتلقّوا رسالةً من أحد. إمّا أن

تكونوا مرنين، أو تُحَطَّموا. هناك بابان أمامكم: بابٌ يقودكم إلى سجن الأشغال الشاقّة، إذا ما أحسنتم السلوك؛ أمّا الآخر، فيقودكم إلى المقبرة. إذا ما أسأتم التصرّف والسلوك، ستكون النتيجة واضحة: إنّ أدنى خطأ ترتكبونه، سوف يكون عقابه ستين يوماً من الحبس في منفردة معتمة لا تحصلون خلالها سوى على الخبز. لم يقاوم أيّ سجينٍ عقوبتين متتاليتين في الزنزانة المنفردة المعتمة. مرحى لمن أحسن الاستماع!

توجّه بكلامه إلى بييرو لوفو، القادم من إسبانيا:

– ماذا كانت مهنتك في حياتك العادية؟

– مصارع ثيران، سيّدي المدير.

صرخ فيه المدير، وقد استشاط غضباً من جوابه: «أبعدوا هذا الرجل عنّي، بأمرٍ عسكري!».

وفي أقلّ من دقيقتين، انهال أربعة أو خمسة حرّاسٍ ضرباً وتعنيفاً على مصارع الثيران، وأبعدوه بسرعة عنّا. سمعناه يصرخ: «أيّها الـ... تجتمعون خمسة ضدّ واحدٍ وتستخدمون الهراوات أيضاً، أيّها الأوغاد!». سمعنا أنيناً حادّاً أشبه بأنين حيوانٍ مثخن بالجراح، ثم لم نعد نسمع شيئاً سوى صوت الاحتكاك بالإسمنت لشيءٍ ما يُجرُّ على الأرض.

إن لم نفهم الأمر بعد هذا المشهد، لن نفهم أبداً. كان ديغا قريباً منّي. حرّك إصبعاً وحيدة من أصابعه لكي يلامس سروالي. فهمتُ ما يريد قوله لي: «اصمد وتمالك نفسك جيّداً، إن أردتَ أن تصل حيّاً إلى سجن الأشغال الشاقّة». بعد انقضاء عشر دقائق، وجد كلّ واحدٍ منّا نفسه (عدا بييرو لوفو، الذي أُنزِلَ إلى القبو في زنزانة منفردة معتمة سيّئة الصيت) في زنزانة من القسم التأديبي في المركز.

شاءت الصدفة أن يكون ديغا في زنزانة بجانب زنزانتي. كان قد تمّ تسليمنا إلى رجلٍ أشبه بوحشٍ، يبلغ طوله متراً وتسعين سنتيمتراً، وهو أصهبٌ وأعور. إنّه ناظر السجن، وهو سجينٌ مكلَّفٌ من إدارة السجن

بأن يؤدّي وظيفة الجلّاد بناءً على أوامر السجّانين، ويُمسك بيده سوطاً باستمرار. إنّه الرعب المسلّط على المحكومين. كان السجّانون يحظون من خلاله بميزة القدرة على ضرب وجلد الرجال من دون أن يُتعبوا أنفسهم في ذلك، من جهة، ومن جهة أخرى دون أن تتحمّل الإدارة أيّ مسؤولية إذا ما تسبّب التعذيب في موت بعض المحكومين.

عرفتُ فيما بعد، خلال دورة تدريبية قصيرة في التمريض، حكاية هذا الوحش البشري. هنيئاً لمدير السجن بحسن اختيار جلّاده. كانت مهنة هذا الرجل الذي نتحدّث عنه قلع الحجارة، وقد قرّر صباح أحد الأيام، في القرية الشمالية الصغيرة التي كان يعيش فيها، أن ينتحر ويقتل في الوقت ذاته زوجته. وقد استخدم لهذا الغرض عبوة ضخمة محشوّة بمادة الديناميت. وقد تمدّد بجانب زوجته التي كانت ترتاح في الطابق الثاني من مبنى مؤلّف من ستّة طوابق. نامت زوجته، في حين أشعل سيجارة واستخدمها لكي يوقد النار في فتيل عبوة الديناميت التي كان يمسك بها بيده اليسرى بين رأسه ورأس زوجته. وحدث انفجارٌ هائل، أدّى إلى تناثر أشلاء زوجته في المكان لأنّ جسدها تمزّق إرباً إرباً، كما أدّى إلى انهيارٍ جزئي في المبنى، ومقتل ثلاثة أطفال تحت الأنقاض، وكذلك امرأة مسنّة في السبعين من عمرها، فيما أُصيب الآخرون بجراحٍ متفاوتة بين خفيفة وبليغة.

أمّا هو، المدعو تريبويارد، فقد خسر جزءاً من يده اليسرى، بحيث لم يتبقّ منها سوى الخنصر ونصف الإبهام، كما فقد عينه اليسرى وكذلك أذنه اليسرى. كما أُصيب بجروحٍ بليغة في رأسه استدعت إحداث فتحة في جمجمته. ومنذ أن تمّ الحكم عليه، أصبح ناظراً للزنزانات الواقعة في الجناح التأديبي من المركز. واستطاع هذا الرجل، شبه المجنون، أن يتحكّم كما يحلو له برقاب التعساء الذين يضعُهُم حظّهم العاثر بين يديه...

بدأتُ أعدّ خطواتي، واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع، خمس، نصف استدارة... واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع، خمس، نصف استدارة...

وبدأتُ أسير في الزنزانة جيئة وذهاباً في حركة لا نهاية لها بين الجدار وباب الزنزانة.

لم يكن لنا الحقّ في أن نتمدّد أو نستلقي في الزنزانة أثناء فترة النهار. في تمام الساعة الخامسة صباحاً، كان صفيرٌ حادٌّ يوقظ جميع السجناء. يجب على السجين أن يستيقظ ويرتّب سريره ويغتسل، ومن ثَمّ يمشي في الزنزانة، أو يجلس على مقعد بلا مسند، مثبّت على الجدار. لم يكن لنا الحقّ في أن نتمدّد أو نستلقي في الزنزانة أثناء فترة النهار. والأنكى في نظام السجون الإصلاحية، هو أنّ السرير يرتفع مع الجدار ويبقى معلّقاً، وبذلك لا يستطيع السجين أن يتمدّد، ويصبح بوسع السجّانين والحرّاس أن يراقبوه على نحوٍ أفضل.

... واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة... أربع عشرة ساعة من المشي داخل الزنزانة. ولإجادة الآلية التلقائية لهذه الحركة الدائبة، على السجين أن يعتاد على خفض رأسه، ووضع يديه خلف ظهره، وألّا يسير لا بسرعة كبيرة ولا ببطءٍ شديد، وأن يخطو بخطوات متناسبة الأبعاد، وأن يستدير تلقائياً على القدم اليسرى في طرفٍ من الزنزانة، وعلى القدم اليمنى في الطرفِ الآخر منها.

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة... كانت الزنازين هنا أفضل إنارة ممّا كانت عليه في سجن التوقيف، وكنّا نسمع الضجيج الصادر من الخارج، ضجيج القسم التأديبي، وكذلك بعض الضجيج الصادر من الريف، وخاصّة أثناء الليل إذْ تصل إلى مسامعنا أصواتُ صفيرٍ وغناءِ العمال في الريف، الذين يعودون إلى بيوتهم سعداء بعد أن شربوا كأساً من عصير التفّاح.

تلقيتُ هديّتي بمناسبة عيد الميلاد، إذ شاهدتُ عبر شقٍّ في الألواح التي تسدّ النافذة، منظر الريف وقد كساه الثلج الناصع البياض بالكامل، وبعض الأشجار السوداء السامقة، يُنيرها ضياء البدر. بدا المنظر أشبه بما نراه على البطاقات البريديّة النموذجية التي يتراسل بها الناس بمناسبة عيد

الميلاد. هبّت الرياح وهزّت الأشجار التي خلعت عن نفسها معطفها الثلجي، وبفضل ذلك رأيتُ بوضوح أغصانها المتعرية من الثلج. وبدت مثل بقعٍ ضخمة قاتمة اللون منتشرة على سواها من البياض الممتدّ في الأفق. إنّه عيد الميلاد للجميع، حتى لقسمٍ من السجن. وقد بذلت إدارة السجن جهداً من أجل السجناء المودعين برسم الأمانة، إذ منحتنا الحقّ في شراء قطعتي شوكولا. أقول قطعتين من الشوكولا وليس لوحين. وكانت هاتان القطعتان من ماركة إيغبيل، بمثابة وجبتين في ليلة الميلاد للعام 1931.

... واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة... لقد حوّلني قمع وعسف العدالة إلى رقّاص ساعة جدارية. أصبح السير جيئة وذهاباً في الزنزانة كلّ عالمي. وباتت خطواتي تُحسَب بشكلٍ تلقائيّ. كانت الأوامر تفرض ألّا يُترك أيّ شيء، أيّ شيءٍ على الإطلاق، في الزنزانة، وعلى نحوٍ خاصّ ألّا يُترَك أيّ شيءٍ يمكن للمحكوم أن يتسلّى به. لو أنّهم ضبطوني فجأةً وأنا أنظر من خلال ذلك الشقّ في ألواح النافذة، لتعرّضتُ لعقابٍ قاسٍ. ولكن، ألم يكونوا محقّين في ذلك؟ فطالما أنّني، بالنسبة إليهم، لستُ سوى ميّتٍ على قيد الحياة، فبأيّ حقٍّ سأسمح لنفسي بأن أستمتع برؤية الطبيعة؟

رأيتُ عبر شقّ النافذة فراشةً تطير، لونها أزرقُ كاشفٌ فيه عرقٌ أسود، ونحلةً تطنّ ليس بعيداً عنها، بالقرب من النافذة. تُرى عن ماذا تبحث هاتان الحشرتان في هذا المكان؟ بدتا كما لو أنّ شمس الشتاء قد جنّنتهما، إلّا إذا كانتا قد شعرتا بالبرد الشديد ورغبتا في الدخول إلى السجن واللوذ بدفئه. إنّ وجود فراشة في الشتاء هو بمثابة بعثٍ، إذ كيف لم تمت؟ وهذه النحلة، لماذا غادرت خليّتها؟ يا لها من وقاحةٍ وطيشٍ أنْ تقتربا من هذا المكان. لحسن الحظّ، ليس لناظر السجن جناحان، وإلّا لما عاشت هاتان الحشرتان طويلاً.

تريبويارد هذا ساديٌّ فظيع. ينتابني إحساسٌ بالحدس أنّ شيئاً ما

سيصيبني منه، ومن سوء الحظ، لم يخب حدسي. في اليوم التالي لزيارة هاتين الحشرتين اللطيفتين، تظاهرتُ بالمرض. فقد عيل صبري ولم أعد قادراً على التحمّل، وأحسستُ بالاختناق من الوحدة، كنتُ أحتاج إلى أن أرى وجهاً، وأسمع صوتاً، حتى ولو كان مزعجاً، المهمّ أن يكون صوتاً، أن أسمع أيّ شيءٍ كان.

عارياً تماماً وسط البرد القارس للممرّ، ووجهي إلى الجدار بحيث لا يتعد أنفي سوى لمسافة أربع أصابع فقط منه، كان ترتيبي قبل الأخير في رتلٍ من ثمانية أشخاص، منتظراً دوري لأمرّ من أمام الطبيب الذي سوف يفحصني. أردتُ أن أرى أناساً، وها قد نجحتُ في ذلك! فاجأنا الناظر في اللحظة التي كنتُ فيها أهمسُ ببضع كلمات في أذن جولو، الذي يُلقَّبُ بالرجل ذي المطرقة، فكانت ردّة فعل هذا الوحش الأصهب عنيفةً للغاية، إذ وجّه لكمةً إلى قفا رأسي جعلتني أتلوّى على نفسي، ولأنني لم أره وهو يتهيّأ لتوجيه الضربة، دُفِعْتُ إلى الأمام وارتطم أنفي بالجدار، وانبجس الدم غزيراً. وبعد أن نهضتُ، لأنني كنتُ قد سقطتُ أرضاً، ترنّحت وحاولتُ أن أتحقّق ممّا أصابني. ولأنني أبديتُ حركة احتجاج، وجّه العملاق، الذي لم يكن ينتظر سوى هذا الاعتراض، ركلةً لي طرحتني أرضاً من جديد، وانهال عليّ بسوطه. لم يستطع جولو أن يتحمّل هذا الذي يجري. وثب منقضّاً عليه، وحدث شجارٌ عنيف، ولأنّ جولو كان قد وقع وأصبح تحت الناظر، تفرّج الحرّاس على المعركة دون التدخّل فيها. لم ينشغل أحدٌ بي وقد نهضتُ واقفاً على قدمي. نظرتُ من حولي إن كان هناك ما يمكنني استخدامه كسلاح، فلمحتُ فجأةً الطبيب منحنياً على أريكته، محاولاً أن يرى من قاعة الزيارات ما يجري في الممرّ، وفي الوقت نفسه، لمحتُ غطاء قدرٍ كان يرتفع بقوّة دفع البخار. كان القدر الضخم المطلي بالمينا موضوعاً على موقدٍ يعمل على الفحم ويدفّئ غرفة الطبيب. بكلّ تأكيد كان بخار القدر يُستخدَم في تعقيم الهواء.

وبردّة فعل سريعة، أمسكت بالقدر من مقبضيه، ومع أنّه أحرق يديّ،

إلّا أنني لم أفلته، وسكبتُ الماء المغلي دفعة واحدة على وجه الناظر، الذي لم يرني لانشغاله بالعراك مع جولو. انطلقت صرخة فظيعة من حنجرة الجلّاد، وأُصيب إصابة بليغة، وتدحرج على الأرض. ولأنّه كان يرتدي ثلاث كنزات صوفية، شرع يخلعها واحدة تلوى الأخرى بصعوبة. وحينما وصل إلى الكنزة الثالثة وبدأ بخلعها، انسلخ جلده معها. ولأنّ ياقة الكنزة كانت ضيّقة، وفي محاولته نزعها، انسلخ معها جلد صدره، وجزءاً من جلد رقبته، وكامل جلد خدّه، ملتصقاً بالكنزة. وقد احترقت أيضاً عينه الوحيدة السليمة وبات أعمى بالكامل. أخيراً، نهض بشكله البشع، غارقاً في الدماء، وقد ظهر لحمه الطري، فاستغلّ جولو الفرصة وسدّد ركلةً قويّة مباشرةً على خصيتيه، فانهار العملاق على الأرض، وهو يتقيأ ويسيل اللعاب من فمه. لقد نال نصيبه. أمّا نحن، فلم يعد لدينا ما نخسره.

لم يكن الحارسان اللذان شهدا هذا المشهد على الجرأة بما فيه الكفاية لكي ينقضّا علينا. فأطلقا صفّارة الإنذار طلباً للمؤازرة. وقد هرعت القوات من كلّ حدبٍ وصوب، وانهمرت علينا المطارق مثل حبّات البرد. حظيتُ بفرصة الانهيار والإغماء سريعاً، الأمر الذي منعني من الإحساس بالضربات.

حينما استعدتُ وعيي، ألفيتُ نفسي على عمق طابقين في الأسفل، عارياً تماماً، في زنزانة طافحة بالمياه. استعدتُ وعيي تدريجيّاً، وتحسّستُ بيدي جسمي المرضوض، فوجدتُ أنّ هناك من اثنتي عشرة إلى خمس عشرة حدبة. تُرى كم الساعة؟ لا أدري. إذ لا ليل ولا نهار ولا ضوء ينير الزنزانة. سمعتُ صوت طرقات على الجدار كان يأتي من بعيد.

تتالت الطرقات بإيقاعٍ رتيب. وهي عبارة عن رنين «الهاتف»، وكان عليّ أن أضرب بدوري ضربتين على الجدار لكي أتلقّى الاتصال. عليّ أن أضرب على الجدار، ولكن بماذا أضربه؟ ففي وسط العتمة، لم يكن بوسعي أن أميّز أيّ شيءٍ أستخدمه لهذا الغرض. كان من المستحيل عليّ أن أضرب الجدار بقبضة يدي، لأنّ صوت ضرباتها لن يفي بالغرض. اقتربتُ

من الجهة التي افترضتُ أنّ الباب يوجد فيها، لأنّ العتمة كانت أخفّ قليلاً، فارتطمتُ بالقضبان الحديدية التي لم أرها. ومن خلال تحسّسي باليدين، أدركتُ أنّ الزنزانة مغلقة بباب يبعد عنّي لأكثر من متر، يمنعني من الوصول إليه الشبك المعدني الذي لامستُ قضبانه. وبهذه الطريقة، حينما يدخل أحدٌ ما إلى زنزانة سجينٍ خطيرٍ، لا يستطيع هذا الأخير أن يلمسه لأنّه يكون داخل قفصٍ. يمكن للحارس أن يتحدّث إليه، ويرشّه بالماء، ويرمي إليه ما يأكله، ويهينه، من دون أن يتعرّض لأيّ خطر. ولكن الميزة التي يحظى بها السجين، هي أنّ لا أحد يستطيع أن يضربه من دون أن يعرّض نفسه للخطر، لأنّه لكي يتمكّن من ضربه، عليه أن يفتح باب القفص.

تكرّرت الدقّات على الجدار من حينٍ إلى آخر. مَن عساه أنْ يتّصل بي؟ يستحقّ هذا الرجل أن أردّ على اتّصاله، لأنّه سيتعرّض إلى خطرٍ جسيم لو تمّ ضبطه. وأنا أمشي، كدتُ أن أقع أرضاً ويتحطّم وجهي، فقد وقعتْ قدمي على شيءٍ صلبٍ ومستدير. لمسته، فإذا به ملعقة خشبية. أمسكتُ بها وتهيّأتُ لأن أنقر بها على الجدار، ردّاً على من يتّصل بي. ألصقتُ أذني على الجدار، فسمعتُ الدقات: بان، بان، بان، بان، بان – توقّف، بان، بان. أجبتُ عليه بالنقر: بان، بان. كانت هاتان الدقتان تعنيان للمنادي: حوّل، لقد تلقيّتُ اتصالك. بدأت الدقّات: بان، بان، بان... تتالت الأحرف الأبجدية سريعاً... *abcdefghijklmnop*، توقّف. توقّف عند الحرف p. نقرتُ على الجدار نقرة قوية: بان. وقد عرف بذلك أنني سجّلت الحرف p، ثمّ جاء الحرف، a وحرف p، وحرف i، إلخ... يقول لي: «بابي، كيف حالك؟ هل تأذّيتَ كثيراً؟ أنا كُسِرَت ذراعي». كان جولو هو المتّصل.

بقينا نتحادث طيلة ساعتين كاملتين غير آبهَين بأن يتمّ ضبطنا، بل كنّا متلهّفَين ومتحمّسَين لتبادل العبارات. أخبرتُه بأنني لم أتعرّض لأيّ كسرٍ، وأنّ رأسي مليءٌ بالحدبات، ولكن ليست في جسمي جروح.

أخبرني بأنه رآني وهم يجرّونني من قدمَيَّ على درجٍ، وعند كلّ درجة كان رأسي يرتطم بالدرجة السابقة. أمّا هو، فلم يفقد وعيه. اعتقدَ

أنّ تريبويارد قد أُصيب بحروقٍ شديدة، وأنّ الكنزات الصوفية التي كان يرتديها قد ساعدت في تعميق جراحه.

بثلاث نقرات سريعة جدّاً ومتتالية، نبَّهَني إلى أنّ هناك ضجّة، فتوقّفتُ عن النقر. وبالفعل، بعد مضي خمس ثوانٍ، فُتِحَ بابُ الزنزانة. صرخ بي أحدهم:

- إلى القاع، أيّها القذر! ارجعْ إلى قاع الزنزانة، وقفْ باستعدادٍ!

كان الآمر الجديد للسجن هو من يتحدّث. قال: «أُدعى باتون، وهذا الاسم يجدر بي. كما ترى، أحمل اسم الوظيفة». وباستخدام مصباحٍ بحريٍّ كبير، أضاء الزنزانة وكشف عن جسمي العاري.

- خذ، إليك ما تلبسه. لا تتحرّك من مكانك. ها هو الماء والخبز. الكميّة محدودة، وهي عبارة عن أربعمئةٍ وخمسين غراماً من الخبز ولترٍ واحدٍ من الماء. لا تتناولْ كلَّ ما أعطيتُك في الحال، لأنك لن تتلقى أيَّ شيءٍ سواه قبل مرور أربعٍ وعشرين ساعة صرخ مثل وحشٍ، ثمّ رفع المصباح إلى وجهه. رأيتُه يبتسم، ابتسامةً غير شريرة. وضع إصبعاً على فمه وأشار لي بإصبعٍ أخرى إلى الحوائج التي تركها لي. لا بدّ أنّ هناك في الممرّ حارساً، وأراد أن يُفهمني بهذه الطريقة بأنّه ليس عدوّاً.

وبالفعل، عثرتُ في قطعة الخبز على قطعة كبيرة من اللحم المطبوخ، وفي جيب السروال على ثروةٍ! وهي عبارة عن علبة سجائر وولاعة وقطعة صغيرة من فتيل الصوفان القابل للاشتعال. في هذا المكان، تساوي هذه الهدايا مليون فرنكٍ. بالإضافة إلى قميصين بدلاً من قميصٍ واحد، وسروالٍ صوفيٍّ طويل يصل إلى الكعبين. وسوف أذكر دائماً باتون هذا. إنّ كلّ ما قدّمه لي يدلّ على أنّه جاء يكافئني على إزاحة تريبويارد من دربه. قبل حادثة العراك وحرق تريبويارد، لم يكن سوى مساعد ناظر. أما الآن، وبفضلي أنا، فقد أصبح كبير الناظرين، وهذا اللقب ليس بالأمر القليل. في المحصّلة، هو يدين لي بهذه الترقية، وقد أظهر لي عرفانه بالجميل.

ولأنّ تحديد مكان صدور دقّات (الهاتف) يحتاج إلى صبر أيّوب،

ولأنّ لا أحد يمكنه أن يفعل ذلك سوى الناظر، لكون الحرّاس خاملين جدّاً، مطمئنين للناظر باتون، أخذنا، جولو وأنا، راحتنا التامّة في التخابر. وظللنا طيلة النهار نتبادل الإشارات اللاسلكية. وقد علمتُ منه أنّ ترحيلنا إلى سجن الأشغال الشاقّة سيكون وشيكاً، وسيحدث في غضون ثلاثة أو أربعة أشهر.

بعد انقضاء يومين، أُخرجنا من الزنزانة، واقتادونا، وقد أحاط حارسان بكلٍّ واحدٍ منّا، إلى مكتب المدير. كان ثلاثة أشخاص يجلسون خلف المنصّة قبالة المدخل. بدا أنّنا أمام هيئة المحكمة، التي يقوم فيها المدير بمهمّة الرئيس، بينما يقوم نائب المدير وكبير الناظرين بمهمّة المساعدين.

- ها أنتما إذاً أيّها الجسوران! ماذا في جعبتكما لتقولاه؟

كان جولو شديد الشحوب، متورّم العينين، لا بدّ أنّه كان يعاني من الحمّى. ولا شكّ أنّه يعاني آلاماً شديدة بسبب يده المكسورة منذ ثلاثة أيام. أجاب جولو بهدوء: «يدي مكسورة».

- حسناً، أنت مَنْ شئتَ أن نكسر لك هذه اليد. حتى تتعلّم كيف تهاجم الناس. سوف يعاينك الطبيب حينما يحضر. آمل أن يكون ذلك في غضون أسبوع. وستكون مدّةُ الانتظار هذه صحيّةً ومفيدة، لأنّ الألم ربّما ينفعك في شيءٍ ما. أعتقد أنّك لا تتأمّل منّي أن أجلب طبيباً على نحوٍ خاصّ من أجل شخص مثلك، أليس كذلك؟ انتظر إذاً إلى حين أن تتاح الفرصة لطبيب المركز أن يأتي إلى هنا، وسوف يعالجك. وهذا، بطبيعة الحال، لا يمنعني من أن أحكم عليكما بالمكوث في الزنزانة إلى حين صدور أوامر جديدة.

نظر إليّ جولو، محدّقاً مباشرةً في عيني، وبدا كما لو أنّه يقول لي: «هذا الرجل المتأنّق في هندامه يتعامل باستهانة مع حياة البشر».

أدرتُ رأسي من جديد نحو المدير ونظرتُ إليه. اعتقد بأنني أريد التحدّث إليه، فقال لي بازدراء: «وأنت، ألم يعجبك هذا القرار؟ بماذا تودّ أن تعقّب عليه؟».

أجبت: «لا شيء على الإطلاق، سيّدي المدير. أشعر فقط بالحاجة إلى أن أبصق عليك، ولكنني لا أفعل ذلك لأنني أخشى أن ألوّث لعابي».

لقد ذُهل لردّي أشدّ الذهول إلى درجة أنّ وجهه احمرّ محتقناً بالدم، ولم يستوعب الموقف في الحال. أمّا كبير الحرّاس، فقد تصرّف. صرخ في الحرّاس، قائلاً:

- أبعدوه من هنا، وأحسنوا العناية به! آمل أن أراه بعد ساعة من الآن وهو يقدّم الاعتذار، زاحفاً. سوف نؤدّبه، وسوف أجعله ينظّف حذائي وجهاً وقفا، لعقاً بلسانه. أنا أفوّض أمره لكم، أوسعوه ضرباً ولا ترأفوا به. لوى اثنان من الحرّاس ذراعي اليمنى، ولوى اثنان آخران ذراعي اليُسرى، فانطرحتُ أرضاً، وقد ارتفعت ذراعاي نحو الأعلى على مستوى كتفي، وكبّلوني بقيدٍ له سلاسل ربطت سبابة يدي اليسرى إلى إبهام اليد اليمنى، ثمّ رفعني رئيس الحرّاس مثل دابّة وهو يجرّني من شعري. لا داعي لأن أسرد ما فعلوه بي. يكفي أن أقول إنّ الأغلال بقيت خلف ظهري لمدّة أحد عشر يوماً. وأدين بحياتي للناظر باتون. كانوا يرمون إليّ كلّ يوم بقطعة الخبز المخصّصة لي، ولكنني لم أكن أستطيع تناولها لأنّ يديّ كانتا مقيّدتين. بل لم أستطع حتى أن أقضم منها، وإن كنتُ أحصرها برأسي عند الجدار. ولكنّ باتون كان يرمي إليّ أيضاً بقطع صغيرة من الخبز، تشكّل كلّ قطعة لقمةً واحدة، وذلك بكمياتٍ كافية لأبقى على قيد الحياة. كنتُ أشكّل بقدميّ ما يشبه فنجاناً، ومن ثَمّ أتمدّد على بطني وأتناول قطع الخبز بطريقة الكلاب. أمضغ جيّداً كلّ قطعةٍ لكي لا أفقد أيّ شيءٍ منها.

في اليوم الثاني عشر، حينما نزعوا الأغلال عن يديّ، كان الفولاذ قد انغرس في اللحم، وكان الحديد مغطّى، في بعض الأماكن، باللحم المتورّم. استبدّ الخوف برئيس الحرس، ولا سيّما أنّه قد أُغمي عليّ من شدّة الألم. بعد أن استعدتُ وعيي، اقتادوني إلى قسم التمريض حيث تمّ تنظيفي بماء الأكسجين. وطلب الممرّض أن أُحقن بحقنة مضادّة للكزاز. كانت ذراعاي قد تخشّبتا ولم أستطع أن أُعيدهما إلى الوضعية

الطبيعية. بعد أكثر من نصف ساعة من تدليكهما بزيت الكافور، استطعتُ أن أنزلهما على طول جسمي.

تمّ إنزالي إلى الزنزانة من جديد، وحينما رأى رئيس الحرس قطع الخبز الإحدى عشرة، قال لي: «سوف تدفع ثمن وليمة! والغريب أنّك لست على درجة كبيرة من النحول بعد قضاء أحد عشر يوماً من الحرمان من الطعام...».

– لقد شربتُ الكثير من الماء، يا حضرة الرئيس.

– آه، هذا هو السبب، لقد فهمت. والآن، تناول الكثير من الطعام لكي تستعيد صحّتك.

ثمّ انصرف من الزنزانة.

يا له من أبلهٍ مسكين! قال لي هذا وهو مقتنع بأنني لم أذق زاداً منذ أحد عشر يوماً، وبأنّني إن تناولت الكثير من الطعام دفعةً واحدة، سوف أموت من التخمة. ولكن سوف يخيب أمله. مع اقتراب المساء، مرّر باتون إليّ تبغاً وورق لفّ السجائر. فدخّنتُ أوّل سيجارة وثانية، وأنا أنفث الدخان في ثقبٍ في جهاز التدفئة الذي كان، بالطبع، معطّلاً. ولكن كانت له على الأقل هذه الفائدة بالنسبة لي.

تواصلتُ فيما بعد مع جولو من خلال النقر على الجدار. اعتقد أنني لم أتناول طعاماً منذ أحد عشر يوماً، ونصحني أن أعتدل في الطعام. خشيتُ أن أخبره بالحقيقة، مخافة أن يستطيع أحد الأوغاد أن يفكّ شيفرة إشاراتنا اللاسلكية. بعد أنْ وضِعَتْ يدُه في الجبس، باتت معنوياته عالية، وهنّأني على ثباتي.

حسبما أخبرني، اقترب موعد قافلة الترحيل. فقد أخبره الممرّض أنّ اللقاحات المخصّصة للمحكومين بالأشغال الشاقّة قبل ترحيلهم قد وصلت. وكانت اللقاحات تصل إلى السجن المركزي بشكلٍ عام قبل شهرٍ من موعد الترحيل. لم يكن جولو حذراً، فقد سألني أيضاً إن كنتُ قد أنقذت ماسورتي.

نعم لقد أنقذتها، لكنّني عاجزٌ عن وصف ما فعلته من أجل الحفاظ على هذه الثروة. أعاني من قروحٍ دامية في الشرج بسبب ذلك.

بعد مضي ثلاثة أسابيع، أخرجونا من الزنازين المنفردة. ما الذي يحدث؟ لقد جعلونا نستحمّ استحماماً منعشاً باستخدام الصابون والماء الساخن. أحسستُ باستعادة الروح. ضحك جولو كطفلٍ مبتهج، وشعّ وجه بييرو لوفو بمهجة الحياة.

وبما أننا خرجنا من الزنازين، لم نعرف أيّ شيء عما يحدث. لم يشأ الحلّاق أن يجيب على سؤالي المختصر الذي همستُ به بأطراف شفتي في أذنه: «ماذا يحدث؟».

أجابني رجلٌ متّسخ الوجه: «أظنّ أنّهم قد أعفوا عنّا، نحن من كنّا في الزنازين الانفرادية المعتمة. ربّما لأنّهم خافوا من مفتّشٍ قد يمرّ على السجن المركزي. الأمر المهمّ هو أنّنا ما زلنا على قيد الحياة». اقتيد كلّ واحدٍ منّا إلى زنزانة عادية. عند الظهيرة، وجدتُ في أوّل طبقٍ من الحساء الساخن يُقدّم لي، منذ ثلاثة وأربعين يوماً، قطعة من الخشب، وقد قرأتُ عليها: «الترحيل بعد ثمانية أيام. غداً سيكون التلقيح».

تساءلتُ في نفسي: تُرى من أرسل إليّ هذه الرسالة؟

لم أعرفه أبداً. لا شكّ أنّ سجيناً في الحبس الانفرادي قد تلطّف بإخبارنا، وهو يعلم بأنّه إذا ما علم أحدنا بالأمر، فسوف يُعلِم الجميع. ولا شكّ أنّ الرسالة قد وصلت إليّ أنا، وهذا ليس بمحض الصدفة.

أسرعتُ في الحال إلى الاتصال مع جولو لأخبره بالأمر: «حوّل».

بقيتُ طيلة الليل أسمع أصوات إشارات التواصل اللاسلكي. أمّا أنا، فقد توقّفت عن ذلك حالما أوصلتُ رسالتي.

كنتُ على أحسن ما يُرام في سريري، ولم أكن أعاني من أيّ قلق. لم تكن العودة إلى الزنزانة الانفرادية المعتمة تعني بالنسبة لي شيئاً اليوم أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

الدفتر الثاني
في الطريق إلى سجن الأشغال الشاقة

سان مارتن دو ري

في المساء، أرسل لي باتون ثلاث سجائر من ماركة غلواز وورقة، قرأتُ فيها: «بابيون، أعلم أنّك سوف تغادر وأنت تحمل عنّي ذكرى طيّبة. أنا آمر السجن، ولكنني أحاول أن أخفّف العقاب والأذى عن المحكومين المعاقبين. لقد تقلّدتُ هذا المنصب لأنّني أبٌ لتسعة أطفال، وأنا أتلهّف لنيل العفو، سوف أسعى إلى أن أحصل على العفو من دون أن أُلحق الكثير من الأذى بالمحكومين. وداعاً. أتمنّى لك حظّاً سعيداً. سوف تنطلق القافلة بعد غد».

وبالفعل، في اليوم التالي، قاموا بتوزيعنا على مجموعات، تضمّ كلّ مجموعة ثلاثين شخصاً في ممرّ القسم التأديبي، وجاء ممرّضون من كاين لتلقيحنا بلقاحات مضّادة للأمراض الاستوائية. لكلّ واحدٍ منّا ثلاثة لقاحات، وليتران من الحليب. كان ديغا بالقرب منّي، مشغول البال مطرقاً في التفكير. لم نعد نلتزم بأيّ قانونٍ للصمت، لأننا كنّا نعلم بأنّهم لن يستطيعوا أن يضعونا في الزنزانات الانفرادية المعتمة بعد تلقيحنا مباشرةً. فبدأنا نثرثر بصوتٍ منخفض تحت أنظار الحرّاس الذين لم يجرؤوا على أن يتفوّهوا بكلمة بسبب الممرّضين القادمين من المدينة.

قال لي ديغا:

- هل سيكون لديهم ما يكفي من السيارات ذات العربات المنفردة لكي يرحّلوننا جميعاً في دفعةٍ واحدة؟

- لا أعتقد ذلك.

- سان مارتن دو ري بعيدة من هنا، وإذا ما نقلوا كلّ يوم ستين محكوماً، فسوف تستغرق عملية الترحيل عشرة أيام، لأنّ عددنا يبلغ ستمئة.

- المهمّ هو أنّنا لُقّحنا. هذا يعني أنّنا على قائمة الترحيل، وأننا سنكون قريباً في سجن الأشغال الشاقّة. تشجّع، يا ديغا، سوف تبدأ مرحلة جديدة. اعتمد عليّ كما أعتمدُ عليك.

نظر إليّ بعينيه اللتين لمعتا بالرضا، ووضع يده على ذراعي وكرّر عليّ القول: «على الحياة والموت، يا بابي».

أثناء الرحلة، لم يكن هناك الكثير من الأحداث التي تستحقّ الذكر، سوى أنّنا كنّا نكاد نختنق، وكلٌّ منّا في الخزانة الضيّقة للعربة الانفرادية. رفض الحرّاس أن يسمحوا لنا بالحصول على الهواء، حتى ولو كان ذلك بفتح الأبواب قليلاً. لدى وصولنا إلى روسيل، وجد الحرّاس أنّ اثنين من رفاقنا قد قضوا، اختناقاً.

شهد الفضوليون السُذّج، المجتمعون على الرصيف البحري لجزيرة سان مارتن دو ري التي وصلنا إليها بمركبٍ عبر المضيق، اكتشاف موت الرجلين المسكينين، دون أن يبدوا أيّ ردّ فعلٍ حيال وصولنا سوى الانشغال بذلك الاكتشاف ولأنّ رجال الدرك كانوا مضطرّين لأن يودعونا في القلعة، أمواتاً أو أحياء، حمّلوا جثّتي زميلينا اللذين ماتا اختناقاً معنا على متن المركب.

لم يستغرق عبور المضيق وقتاً طويلاً، لكننا استطعنا أن نتنفّس نسمة من هواء البحر. التفتُّ إلى ديغا وقلتُ له: «لهذا الهواء رائحة الهروب». ابتسم لي. وقال لنا جولو، الذي كان إلى جانبنا:

- نعم. لهذا الهواء رائحة الهروب. أنا سأرجع إلى المكان الذي هربتُ إليه قبل خمسة أعوام، ثم أوقعتُ نفسي بين أيدي الشرطة كمغفّل،

في الوقت الذي كنتُ أحاول قتل الرجل الذي كنتُ مختبئاً عنده وسلّمني للشرطة أثناء إقامة الدعوى ضدّي، قبل عشرة أعوام. دعونا نبقى بجانب بعضنا بعضاً، لأنّه حينما نصل إلى سان مارتن سوف يضعوننا بشكلٍ اعتباطي في مجموعات، تتكوّن كلّ مجموعة من عشرة أشخاص يوضعون في كلّ زنزانة.

أخطأ جولو في تقديره، إذ ما إنْ وصلنا إلى هناك، حتى نودي عليه هو مع اثنين آخرين، وتمّ عزلهم عنّا. كانوا ثلاثة هاربين سابقين من سجن الأشغال الشاقّة، وقد أُعيد إلقاء القبض عليهم في فرنسا، وكانوا يعودون إلى المكان للمرّة الثانية.

في الزنازين التي تضمّ كلّ زنزانة منها مجموعة من عشرة سجناء، بدأت بالنسبة لنا حياةٌ جديدة سمتها الانتظار. مُنحْنا الحقّ في التحدّث والتدخين، وتمّت تغذيتنا بأحسن ما يكون. ولم تكن هذه المرحلة خطيرةً سوى بالنسبة إلى الماسورة المحشوّة بالنقود، التي أخفيها في أحشائي. فمن دون أن ندري لماذا، كان يتمّ استدعاؤنا على نحوٍ مفاجئ وتتمّ تعريتنا تماماً، ومن ثَمّ يقوم المفتّشون بتفتيشنا تفتيشاً دقيقاً، بدءاً من كلّ أنحاء وثنايا الجسم وحتى أخمص القدمين وانتهاءً بالأمتعة. ثمّ يأمرنا الآمر: «ارتدِ ثيابك». ونعود من حيث جيء بنا.

كانت الزنزانة وقاعة الطعام والباحة هي الأماكن التي نتمشّى فيها جيئةً وذهاباً لساعاتٍ طويلة في رتلٍ مترادفٍ. واحد، اثنان! واحد اثنان! واحد، اثنان!... نسير في مجموعات تتكوّن من مئة وخمسين سجيناً. كان الرتل الشبيه بسلسة من النقانق طويلاً، والقباقيب تنقر على الأرض مصدرةً دويّاً رتيباً. ثمّ يتوقّف الرتل ويسود صمتٌ مطبقٌ إلزامي، قبل أن يأتي الإيعاز الآمر: «اقطعوا الصفوف!» فيجلس كلٌّ منّا على الأرض، فتتشكّل مجموعات، حسب الفئات الاجتماعية، بدءاً من رجال الوسط الإجرامي، الذين لا يولون أهمية كبيرة للأصل: الكورسيكيون والمرسيليون والتولوزيون والبريتانيون والباريسيون، إلخ. بل وهناك أرديشيٌّ أيضاً،

وهو أنا. وعليّ أن أقول بشأن أرديش أنّه لم يكن هناك سوى أرديشيَّين اثنين في القافلة المؤلّفة من ألف وتسعمئة رجل: حارس حقولٍ كان قد قتل زوجته، وأنا. خلاصة القول هي أنّ الأرديشيِّين أناسٌ شجعان. أمّا بقية المجموعات، فقد تشكّلت كيفما كان، لأنّ البلهاء الذين يصلون إلى سجن الأشغال الشاقّة، كانوا أكثر عدداً من الذين يُطلَق سراحهم منه. أيام الانتظار هذه تسمى أيام المراقبة. وبالفعل، كانوا يراقبوننا بدقّة من كلّ ركنٍ من أركان السجن.

بعد ظهيرة أحد الأيام، كنتُ جالساً تحت أشعّة الشمس عندما اقترب منّي رجلٌ يضع نظّارات، وهو قصير القامة ونحيل. حاولت أن أميّزه ولكن كان ذلك صعباً بسبب الزيّ الموحدّ الخاصّ بالسجن الذي نرتديه.

قال لي بلهجة كورسيكية واضحة:

- أهذا أنت، يا بابيون؟

- نعم، هذا أنا. ماذا تريد منّي؟

قال لي:

- تعالَ إلى المراحيض.

ثمّ انصرف.

قال لي ديغا:

- هذا أبلهٌ كورسيكي. من المؤكّد أنّه أحد قطّاع الطرق في الجبال. ولكن ما عساه أن يبتغي منك؟

- سوف أعرف ذلك.

توجّهتُ صوب المراحيض التي تقع وسط الباحة، وتظاهرتُ هناك بأنني أتبوّل. وقف الرجل بجانبي، متّخذاً وضعيتي نفسها. قال لي من دون أن ينظر إليّ:

- أنا صهر باسكال ماترا، وقد أخبرني في قاعة الاستقبال بأن ألتجئ إليك في حال احتجتُ للمساعدة.

- نعم، باسكال صديقي. وبماذا تريدني أن أساعدك؟

- لم يعد بوسعي أن أحمل الماسورة في جوفي لأنني أعاني من الزحار. ولا أدري بمن أثق وأخشى أن تُسرَق منّي أو يعثر الحرّاس عليها. أتوسّل إليك، يا بابيون، أن تحملها معك لبضعة أيام.

وأبرز لي ماسورةً أضخم بكثير من ماسورتي. خشيتُ أنّه ينصب لي فخّاً ويطلب منّي هذا الطلب لكي يعرف إن كنتُ أحمل معي ماسورةً. قلتُ في نفسي: لو أنني قلتُ له بأنني لستُ متأكّداً من قدرتي على حمل ماسورتين معي، سوف يكتشف أمري. فسألتُه ببرود:

- كم بداخلها؟

- خمسةٌ وعشرون ألف فرنك.

دون أن أضيف أيّ شيء، أخذتُ منه الماسورة، التي كانت نظيفة للغاية، ودسستها، أمام أنظاره، في شرجي وأنا أتساءل إن كان بوسع المرء أن يتحمّل ماسورتين في أحشائه. لستُ أدري. نهضت وارتديت سروالي... كان كلّ شيء على ما يُرام، ولم أتضايق من الماسورتين.

قبل أن ينصرف، قال لي:

- اسمي إينياس غالغاني. شكراً، يا بابيون.

عدتُ إلى ديغا ورويتُ له الحكاية على انفراد.

- أليست ثقيلة جدّاً؟

- كلا.

- إذاً، فلنتوقّف عن الحديث في الأمر.

سعينا إلى التواصل مع السجناء العائدين بعد الفرار من السجن، وخاصّة مع جولو ولوغيتو إذا أمكن ذلك، لأننا كنّا متعطّشين للحصول على معلومات من قبيل كيف هو الوضع هناك، وكيف يتمّ التعامل مع السجناء، وما الذي ينبغي فعله للبقاء مثنى مثنى مع صديق، وسواها من المعلومات. شاءت الصدفة أن نقابل رجلاً فضولياً، في حالة عجيبة. إنّه رجلٌ كورسيكي وُلِدَ في سجن الأشغال الشاقّة، كان والدُه حارساً في

السجن ويعيش مع والدته في جزر الخلاص قبالة ساحل غويانا الفرنسية. كان قد وُلِدَ في جزيرة رويال، وهي واحدة من الجزر الثلاث، إلى جانب جزيرة سان جوزيف وجزيرة الشيطان. يا لسخرية الأقدار! لقد عاد إلى السجن ليس بصفة ابن الحارس، وإنّما بصفته سجيناً.

كان قد حُكِمَ عليه بالأشغال الشاقّة لمدّة اثني عشر عاماً بسبب ارتكابه جريمة السرقة مع السطو المسلّح. إنّه فتى في التاسعة عشرة من عمره، طلق المحيا، ذو عينين كاشفتين وصافيتين. أدركْنا في الحال، ديغا وأنا، أنّه طارئٌ على عالم الجريمة وليس لديه إلمامٌ واسعٌ به، ولكنّه سيكون نافعاً لنا من خلال تزويدنا بكلّ المعلومات الممكنة حول ما ينتظرنا. تحدّث لنا عن الحياة في الجزر، التي عاش فيها لأربعة عشر عاماً. فقد أخبرنا على سبيل المثال أنّ مربّيه في الجزر كان سجيناً شهيراً محكوماً بالأشغال الشاقّة، سُجِنَ بسبب قضية مشاجرة بالسكين من أجل العينين الساحرتين لبطلة الفيلم الفرنسي كاسك دور (الخوذة الذهبية).

وقد أسدى لنا نصائح ثمينة: ينبغي الفرار من البر الرئيسي[1] وليس من الجزر، لأنّ الفرار من الجزر مستحيل؛ ثم يجب ألّا يكون السجين مصنّفاً على أنّه خطير، لأنّه بوضع هذه السمة على السجين، ما إنْ يصل إلى سان لوران دو ماروني، وهو المرسى الذي يحطّ فيه السجناء، حتى يتمّ الحجر عليه لمدّة مؤقّتة أو إلى الأبد، وذلك حسب درجة تصنيفه على قائمة الخطورة. وبشكلٍ عام، يتمّ الحجر على أقلّ من خمسة بالمئة من السجناء الذين يتمّ نقلهم في الجزر، في حين يتمّ احتجاز الآخرين على البر الرئيس. وحسبما روى لي ديغا، فإنّ الجزر صحيّة وسليمة، في حين أنّ البر الرئيس موبوء بالقذارة ويمتصّ عمر السجين تدريجياً بكلّ صنوف الأمراض والموت لأسبابٍ مختلفة، وحالات القتل، وسواها من العوامل.

1- البرّ الرئيسي: يطلق اسم البر الرئيسي على مساحة كبيرة من الأرض في منطقة ما (في مقابل الجزيرة أو الجزر القريبة)، أو على مجموعة أكبر من الجزر في أرخبيل ما. ويطلق على سكانها اسم «سكان اليابسة الرئيسية» – المترجم.

تمنّينا، ديغا وأنا، ألّا يتمّ الحجر علينا في الجزر، لكنّ غصّةً تشكّلت في حلقي: وماذا لو تمّ تصنيفي كسجينٍ خطير؟ بسبب حكمي المؤبّد مع الأشغال الشاقّة، وحادثة المشاجرة مع تريبويارد وكذلك المشادة الكلامية مع المدير وإهانته. لم أكن في حالة جيّدة!

ذات يوم، سرت شائعة تقول بألّا نذهب إلى قسم التمريض تحت أيّ ذريعة، لأنّ الكادر الطبي فيه يسمّم أولئك الأكثر ضعفاً أو الأشدّ مرضاً الذين لا يتحمّلون مشقّة السفر. لا بدّ أنّ تلك كانت مجرّد إشاعة ملفّقة لا أساس لها من الصحّة، وقد أكّد لنا بالفعل أحد الباريسيين، ويُدعى فرانسيس لاباس، بأنّ هذا مجرّد هراء. روى لنا أنّ رجلاً قد تسمّم فعلاً في المستوصف، ولكنّ أخاه، وهو موظّف في المستوصف، شرح له ملابسات الحادثة، وأكّد أنّ الشخص المنتحِر مختصٌّ بسرقة الخزائن الحديدية، وقد سطا على السفارة الألمانية في جنيف أو لوزان إبّان الحرب لصالح أجهزة الاستخبارات الفرنسية، وحصل منها على وثائق مهمّة للغاية، وسلّمها لرجال الاستخبارات الفرنسيين. وبسبب هذه العملية، أخرجه رجال الشرطة من السجن حيث كان يمضي فيه عقوبةً مدّتها خمس سنوات. ومنذ عام 1920، كان يعيش بهدوء بسبب عملية أو عمليتين كلّ عام. وكلّما يقع في قبضة الشرطة، يلجأ إلى الابتزاز لدى المكتب الثاني الذي يهرع إلى التدخّل لإنقاذه. ولكنْ في عمليته الأخيرة، لم تنفع محاولاته مع المكتب الثاني، فحُكِمَ عليه بالسجن لمدّة عشرين سنة، وكان عليه أن يُغادر معنا. ولكي يتخلّف عن القافلة، تمارض وأُدخِل إلى المستوصف، فتكفّلتْ حبّةُ سيانور بوضع حدٍّ للمسألة، حسب رواية شقيق فرانسيس لاباس، وبات بإمكان الخزائن الحديدية وكذلك المكتب الثاني أن يكونوا في مأمنٍ من شرّه.

تعجّ باحة السجن هذه بالحكايات والأخبار، بعضها صحيح، وبعضها الآخر زائف. وفي كلّ الأحوال، نسمعها، ففي ذلك تزجيةٌ للوقت.

حينما أذهب إلى المراحيض، سواءً في الباحة أو في الزنزانة، ينبغي أن

يرافقني ديغا بسبب الماسورتين اللتين أخفيهما في أحشائي. يقف قبالتي بينما أقوم بالتغوّط، ويخفيني عن أعين الفضوليين. إنّ إخفاء ماسورة واحدة في الأحشاء مسألة صعبة للغاية، فما بالكم وأنا أحمل باستمرار اثنتين في جوفي، فقد اشتدّ المرض بالسجين غالغاني الذي أودع ماسورتَه لديّ. وكان هناك سرٌّ غريب: فالماسورة التي كنتُ أُدخلها أخيراً، كانت تخرج دائماً أخيراً، والماسورة التي كنتُ أُدخلها أوّلاً، كانت تخرج دائماً أوّلاً. كيف كانت تبدّل مكانها داخل جوفي؟ لا أدري، ولكن هذا ما كان يحدث بالفعل.

البارحة، في صالون الحلاقة، تمّت محاولة قتل كلوزيو، بينما كان الحلّاق يحلق ذقنه. طُعِن بطعنتَي سكّين حول قلبه، وقد نجا بأعجوبة من الموت. عرفتُ الحكاية من أحد أصدقائه. إنّها حكاية غريبة، وسوف أرويها ذات يوم. كانت محاولة الاغتيال هذه عبارة عن تصفية حسابات. وقد مات الرجل الذي أخفق في عملية الاغتيال بعد ستّة أعوام من الواقعة، في كايين، بعد أن ابتلع كميّةً من بيكرومات البوتاسيوم مدسوسة في حساء العدس. مات وهو يعاني من آلام شديدة. جلب لنا الممرّض، الذي ساعد الطبيبَ في تشريح جثّتِه، قطعةً من أمعائه طولها حوالي عشرة سنتيمترات، وجدنا فيها سبعة عشر ثقباً. وبعد شهرين من موته، وُجِد قاتلُه ميْتاً خنقاً في سرير مرضه، ولم يُعرَف الجاني أبداً.

ها قد مرّ اثنا عشر يوماً على وجودنا في سان مارتن دو ري؛ يغصّ السجن الشبيه بحصنٍ بالسجناء، ويصعد العسسُ ليلاً ونهاراً على المَراقِب المنصوبة على الطريق الدائري.

وقع شجارٌ بين شقيقين في حمّامات الاغتسال، وتقاتلا مثل كلبين، ثمّ أودِعَ أحدهما في زنزانتنا. كان اسمه أندريه بايار. قيل لي بأنّه لا يمكن معاقبته لأنّ الإدارة هي المخطئة؛ فالحرّاس لديهم أوامر بألّا يدعوا الأخوين يلتقيان تحت أيّ ذريعة كانت. وحينما نعرف حكايتهما، نفهم سبب هذا القرار.

كان أندريه قد قتل امرأةً ثريّة، وخبّأ شقيقُه إميل المالَ المسروق. أُلقي القبض على إميل بجناية سرقة وحُكِمَ عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات. ذات يوم، وفي الزنزانة مع سجناء آخرين، استشاط غضباً من أخيه الذي لم يرسل إليه نقوداً ليشتري السجائر، فرمى علبة السجائر وتوعّد أخيه أندريه، قائلاً إنّه هو الذي قتل السيّدة العجوز، وأنّه فقط خبّأ الأموال المسروقة عنده، ولذلك عندما يخرج من السجن، لن يعطيه شيئاً من النقود. وقد سارع أحد السجناء إلى مكتب مدير السجن وروى له ما سمعه من إميل. ولم يستغرق الأمر الكثير من الوقت حتى أُلقي القبض على أندريه وتمّ الحكم على الأخوين بالإعدام. في جناح المحكومين بالإعدام في المركز الصحّي، وُضِعا في زنزانتين متجاورتين. وقدّم كلٌّ منهما التماساً للعفو. تمّت الموافقة على طلب إميل في اليوم الثالث والأربعين، ولكنّ طلب أندريه رُفِضَ. ومع ذلك، ولأسبابٍ إنسانية ورأفةً بأندريه، تمّ الإبقاء على إميل في قسم المحكومين بالإعدام، وكان الشقيقان يقومان يوميّاً بنزهاتهما في الباحة، أحدهما في أعقاب الآخر، والأغلال في أقدامِهما.

في اليوم السادس والأربعين، فُتِحَ بابُ زنزانة أندريه في الساعة الرابعة والنصف. ودخل إلى الزنزانة المدير وكاتب المحكمة والنائب العامّ الذي طالب برأسه. كان موعدُ تنفيذ حكم الإعدام. ولكن في اللحظة التي تهيّأ فيها المدير للكلام، وصل محاميه جرياً، متبوعاً بشخصٍ آخر سلّم ورقةً إلى النائب العام. انسحب الجميع من الزنزانة إلى الممرّ. كان حلق أندريه منقبضاً للغاية بحيث لم يكن بوسعه أن يبتلع ريقه. هذا مستحيل، لم يحصل أبداً أن يتمّ إيقاف حكمٍ بالإعدام لحظة الشروع في تنفيذه. ولكن هذا حدث بالفعل. ولم يعلمْ ما حدث إلاّ في اليوم التالي، وبعد ساعاتٍ طويلة من القلق القاتل، حينما أخبره محاميه بأنّه في عشيّة تنفيذ الحكم بإعدامه، اغتيل الرئيس دومير على يد غورغولوف، ولكنّ دومير لم يمتْ في الحال، ولذلك تسمّر المحامي طيلة الليل أمام المستشفى بعد أن أعلمَ وزير العدل بأنّه إذا ما مات الرئيس قبل موعد تنفيذ حكم

الإعدام (بين الساعة الرابعة والنصف والخامسة)، فإنّه يطالب بإيقاف تنفيذ الحكم بسبب شغور مكان رئيس السلطة التنفيذية. مات دومير في الساعة الرابعة ودقيقتين. ولأنّه احتاج إلى الوقت لكي يبلّغ المستشارية، ويستقلّ سيارة أجرة متبوعاً بحامل أمر توقيف التنفيذ، وصل متأخّراً لثلاث دقائق لمنع فتح باب زنزانة أندريه. خُفِّضَ الحكم من الإعدام إلى الأشغال الشاقّة المؤبدة. في الواقع، في اليوم الذي انتُخِبَ فيه الرئيس الجديد، زار المحامي قصر فيرساي، وما إنْ انتُخِبَ ألبير لوبرون، قدّم له المحامي طلبه للعفو عن المحكوم. ولم يسبق أن رفض رئيسٌ أوّل طلب عفوٍ يُقدّم إليه. تابع أندريه مبتهجاً: «وقّع لوبرون على طلب العفو، وأنقذتُ من الموت، وهأنذا، كما ترى، على قيد الحياة وفي صحّة جيّدة، في طريقي معكم إلى غويانا». نظرتُ إلى هذا الناجي من المقصلة وقلتُ في نفسي: على الرغم من كلّ ما عانيتُه، لا تُقارن مأساتي مع المحنة التي تعرّضَ لها.

ومع ذلك، لم أختلط به أبداً، لأنني شعرتُ بالغثيان حينما علمتُ أنّه قتل عجوزاً مسكينة من أجل سرقتها. وعلاوة على ذلك، حظي بكلّ الفرص لكي ينجو. وفيما بعد أقدم على قتل أخيه. وقد رآه العديد من المحكومين بالأشغال الشاقّة وهو يقتل أخاه. كان إميل يصطاد السمك بالصنارة، واقفاً على صخرةٍ، لا يفكّر بشيءٍ سوى صيده، وصخب الأمواج العاتية يطغى على أيّ ضجيج آخر. اقترب أندريه من شقيقه من الخلف، وفي يده قصبة من الخيزران بطول ثلاثة أمتارٍ، وبدفعةٍ واحدة منه في ظهره أفقده توازنه وأسقطه في البحر، ولأنّ المكان كان مرتعاً لأسماك القرش المفترسة، قدّم لها إميل سريعاً وجبتها اليومية. ولأنّه غاب عن التفقّد المسائي، فقد اعتُبِرَ مفقوداً في إطار عملية فرار من السجن. ولم يعد يتحدّث أحدٌ عنه. وحدهم أربعةُ أو خمسةُ سجناء كانوا يلمّون القواقع في أعالي الجزيرة رأوا ما حدث. وبالطبع عرف جميعُ الرجال ذلك، عدا الحرّاس. ولم يُقلقْ أحدٌ راحة أندريه بايار أبداً.

تمّ رفع الحجر عنه بسبب «حسن سلوكه»، وفي سان لوران دو ماروني،

حظي بنظام المعاملة التفضيليّة وخُصَّ بزنزانة خاصّة به لا ينقصه شيء فيها. ذات يوم، اختلف مع محكومٍ آخر فدعاه بطريقة مخادعة للدخول إلى زنزانته وقتله بطعنة سكينٍ في قلبه. لكنّه لم يُعاقَب على جريمته إذ اعتُبِرَ بأنّه مارس حقَّ الدفاع المشروع عن نفسه.

كان السجن يعجّ بالسجناء الذين ينقسمون على فئتين مختلفتين تماماً: فئةٌ تضمُّ ما بين ثمانمئة أو ألف سجين محكوم بالأشغال الشاقّة، وفئة تضمّ تسعمئة سجينٍ مَنفي[1]. وحتى يكون السجين محكوماً بالأشغال الشاقّة لا بدّ أن يكون قد ارتكب جرماً خطيراً، أو على الأقلّ، يكون قد اتُّهِمَ بارتكاب جريمة كبيرة. والعقوبّة الأقلّ شدّة في هذه الحالة تكون السجن لمدة سبعة أعوام مع الأشغال الشاقّة، فيما تتزايد مدّة حكم الجرائم الأخرى على نحوٍ متدرّج إلى حدّ الأشغال الشاقّة المؤبّدة. والمحكوم بالإعدام الذي يحظى بالعفو، يُخفّض حكمه تلقائياً إلى السجن المؤبّد. أمّا بالنسبة إلى السجين المنفي، فأمره مختلف، إذ يمكن للسجين أن يصبح منفياً إذا ما نال من ثلاثة إلى سبعة أحكام. صحيح أنّهم جميعاً لصوص لا أمل في صلاحهم ومن المفهوم أنّ على المجتمع أن يدافع عن نفسه؛ ولكن مع ذلك، من العار لشعبٍ متحضّر أن تكون هناك عقوبة الإبعاد التجميلية. هناك لصوصٌ صغار، غير ماهرين طالما يقعون غالباً في قبضة العدالة، تمّ نفيهم – الأمر الذي يجعلهم متساوين في المحصّلة مع المحكومين بالمؤبّد – والذين لم يسرقوا طيلة حياتهم كلصوص عشرة آلاف فرنك. هنا يكمن أعظم صور تفريغ الحضارة الفرنسية من معناها. شعبٌ لا يملك الحقّ في الانتقام لنفسه أو القضاء بأسرع طريقة على أولئك الذين يسبّبون المتاعب للمجتمع ويسيئون إليه. هؤلاء الناس يستحقون أن تتمّ رعايتهم أكثر من أن تتمّ معاقبتهم بطريقة على هذا القدر من اللاإنسانية.

سبعة عشر يوماً مرّت على وجودنا في سان مارتن دو ري. لقد عرفنا

1- المنفي: المنفي هنا، هو سجين نال عدّة أحكام قصيرة الأمد، فتمّ نفيه إلى الجُزُر – المترجم.

اسم السفينة التي سوف تقلّنا إلى سجن الأشغال الشاقّة، وهي تُدعى «لامارتينير»، وسوف تنقل ألفاً وثمانمئة وسبعين محكوماً. تم تجميع المحكومين بالأشغال الشاقّة البالغ عددهم ثمانمئة أو تسعمئة في باحة الحصن هذا الصباح. منذ قرابة ساعة، ونحن نقف على أقدامنا في صفوفٍ من عشرة محكومين، ونملأ بذلك باحة السجن المستطيلة الشكل. فُتحَ بابٌ ورأينا قدوم رجالٍ يرتدون زيّاً مختلفاً عن زيّ الحرّاس الذين عرفناهم. كانوا يرتدون زيّاً عسكرياً أنيقاً بلونٍ سماوي، ولكنّه مختلفٌ أيضاً عن زيّ رجال الدرك والجنود كذلك. يرتدي كلٌّ منهم حزاماً عريضاً يتدلّى منه جرابُ مسدّسٍ، وتبرز منه قبضة السلاح. كانوا قرابة ثمانين رجلاً، على أكتاف بعضهم رتبٌ عسكرية، ووجوه الجميع ملوّحة بالشمس، وهم من أعمارٍ مختلفة، تتراوح بين خمسة وثلاثين وخمسين عاماً. الكبار في السنّ بينهم أكثر لطفاً من الشباب الذين كانوا يتنافخون بالغرور وإظهار أهمية الذات. يرافق قائدَهم مديرُ سان مارتن دو ري، وضابطٌ برتبة العقيد من الدرك، وثلاثة أو أربعة أطبّاء مجنّدين يرتدون زيّ المستعمرات، وراهبان يرتديان الرداء الأبيض. أمسك العقيد في قوات الدرك بوقاً بيديه ورفعه إلى فمه. انتظرنا أن يعطي إيعازاً بالاستعداد، ولكن لم يحدث شيءٌ من هذا. صرخ، قائلاً:

– اسمعوا جميعاً بانتباه. منذ هذه اللحظة أصبحتم في عهدة سلطات وزير العدل، ممثّلاً لإدارة السجون الإصلاحية في غويانا الفرنسية والتي يقع مركزها الإداري في مدينة كايين. أيّها السيّد المقدّم بارو، هأنذا أسلّمك المحكومين الثمانمئة والستّة عشر الموجودين هنا؛ وهذه قائمة بأسمائهم. تفضّلوا بالتأكّد من أنّهم جميعاً موجودون هنا.

بدأت في الحال عملية التفقّد: «فلان، حاضر؛ فلان، إلخ». استغرقت عملية التفقّد ساعتين وجرت كلّها في نظامٍ صارم. ومن ثَمّ حضرنا تبادل توقيعات التسليم والاستلام بين الإدارتين على طاولة صغيرة أُحضِرَت خصيصاً لهذه الغاية.

من جهته، أخذ المقدّم بارو الذي يحمل على كتفه من الرتب والشارات بقدر ما يحملها العقيد، ولكن بلونٍ ذهبيٍّ مختلف عن اللون الفضّي الخاصّ بقوات الدرك، أخذ دوره في الكلام:

- من الآن وصاعداً، «المُبعَدون» هي الكلمة التي سيُشار إليكم بها على الدوام: المُبعَد فلان، والمُبعَد علّان في التسلسل، سوف يقصد كلّ واحدٍ منكم. منذ الآن أنتم خاضعون للقوانين الخاصّة في سجن الأشغال الشاقّة، وأنظمته، ومحاكمه الداخلية التي سوف تتّخذ، عند الاقتضاء، القرارات الضرورية بشأنكم. تستطيع هذه المحاكم المستقلّة أن تحكم عليكم بسبب مختلف الجنايات المرتكبة في السجن، بدءاً من أحكام بسيطة بالسجن، وصولاً إلى الحكم بالإعدام. وبالطبع، تنفّذ هذه الأحكام التأديبية، من سجن وحبس انفرادي، في عموم الأقسام المرتبطة بالإدارة. العناصر الذين ترونهم أمامكم يسمّون هنا بالمراقبين، وحينما تتوجّهون إلى أحدهم، تخاطبونه قائلين: «سيّدي المراقب». بعد تناول العشاء، سوف يتلقّى كلّ واحدٍ منكم كيساً بحريّاً مع الزيّ الخاصّ بالسجن. وليكنْ كلّ شيء واضحاً، لا أمتعة لكم سوى هذه. ستبحرون غداً على متن السفينة «لامارتينير». سوف نسافر معاً. لا تقنطوا من الرحيل، سوف تكونون في سجن الأشغال الشاقّة أفضل حالاً من سجنٍ انفراديّ في فرنسا. سوف تستطيعون أن تتكلّموا، وتلعبوا، وتدخّنوا، ولا تخافوا من أن تتعرّضوا لسوء المعاملة إذا ما تصرّفتم بطريقة حسنة. أطلب منكم الانتظار إلى حين الوصول إلى سجن الأشغال الشاقّة لكي تقوموا بتسوية خلافاتكم الشخصية، لأنّ النظام والانضباط خلال الرحلة سيكونان صارمين، وأتمنى أنّكم ستتفهّمون ذلك وتلتزمون به. وإذا كان بينكم من يشعر بأنّه لا يتوفّر على المقوّمات الجسدية للقيام بهذه الرحلة، فليراجع المستوصف ليكشف عليه الأطبّاء المرافقون للرحلة. أتمنى لكم رحلة سعيدة.

وبذلك انتهت المراسم.

سألتُ ديغا:

– إذاً، يا ديغا، ما رأيك بالأمر؟

– عزيزي بابيون، أرى أنّني كنتُ محقاً حينما قلتُ لك أنّ الخطر الأكبر الذي علينا التغلّب عليه، هو المحكومون الآخرون. هذه الجملة التي نطق بها: «انتظروا إلى حين الوصول إلى سجن الأشغال الشاقّة لكي تقوموا بتسوية خلافاتكم الشخصية» لها الكثير من الدلالات. تُرى كم حادث قتلٍ واغتيال سيقع؟

– لا تأبه بهذا، وثق بي.

بحثت عن فرانسيس لاباس وقلتُ له: «هل لا يزال شقيقك ممرّضاً؟»، فأجاب:

– نعم، إنّه ليس محكوماً بالأشغال الشاقّة المؤبّدة، وإنّما منفي».

– اتّصل به بأسرع ما يمكن، واطلب منه أن يعطيك مشرطاً. وإذا أراد أن ندفع له ثمنه، أخبرني كم يطلب لقاء ذلك، وسوف أدفع ما يُطلَبُ منّي.

بعد انقضاء ساعتين، حصلتُ على مشرطٍ له مقبضٌ فولاذيٌّ متينٍ جدّاً. لا عيب فيه سوى أنّه كبير الحجم بعض الشيء، ولكنّه سلاحٌ فظيع.

جلستُ قريباً جدّاً من مراحيض وسط الباحة، وأرسلتُ في طلب غالغاني لأُعيد له ماسورته، ولكن كان من الصعب العثور عليه وسط هذه الجموع الغفيرة المائجة في الباحة الممتلئة بثمانمئة رجلٍ. ومنذ وصولنا، لم نرَ لا جولو ولا لوغيتو ولا سوزيني.

من حسنات الحياة المشتركة أنّنا نعيش ونتكلّم وننتمي إلى مجتمعٍ جديد، إن جاز لنا أن نسميّ هذا مجتمعاً. كان هناك الكثير من الأمور التي يجب علينا أن نرويها ونستمع إليها ونفعلها، بحيث لا يعود لدينا متّسعٌ من الوقت للتفكير. ولأنني تبيّنتُ مدى توقّف الماضي وتراجعه للمرتبة الثانية بالنسبة إلى الحياة اليومية، ظننتُ أنّه حالما نصل إلى سجن الأشغال الشاقّة، سيكون علينا أن ننسى مَن كنّا ولماذا وكيف جئنا خاتبين إلى هنا، لكي لا

نعود نهتمّ وننشغل بأيّ شيء: أن نهرب. كنتُ مخطئاً، لأنّ الأمر الأكثر جذباً والأعظم أهمية هو أن نحافظ على أنفسنا على قيد الحياة. أين رجال الشرطة؟ أين المحلّفون؟ أين جلسات المحاكمة؟ أين القضاة؟ أين زوجتي ووالدي وأصدقائي؟ إنّهم هناك أحياء يرزقون، ولكلّ منهم مكانه في قلبي، ولكن كما لو أنّهم، بسبب حمّى الرحيل، والقفز بعيداً في المجهول، وبسبب هذه الصداقات الجديدة والمعارف المختلفة، لم يعودوا يحظون بالأهمية نفسها التي كانوا يحظون بها من قَبْل. ولكن في الحقيقة، هذا ليس سوى انطباع بسيط، وحينما أشاء ذلك، في اللحظة التي يشاء فيها دماغي فَتْحَ الدُّرج الذي يخصّ كلّ واحد منهم، سوف يحضر الجميع من جديد.

هاهو غالغاني، ينقاد نحوي، لأنّه على الرغم من نظاراته الكبيرة، كان بالكاد يرى أمامه. بدا أنّه في كامل الصحّة والعافية. اقترب منّي دون أن يتفوّه بكلمة واحدة، وصافحني. قلتُ له:

– أريدُ أن أُعيد إليك ماسورتك. أنت الآن في صحّة جيّدة، ويمكنك أن تحملها وتحافظ عليها. إنّها لمسؤولية كبيرة تقع على عاتقي خلال الرحلة، ثمّ ما يدرينا، هل سنكون قريبين من بعضنا، أو حتى إذا كنّا سنلتقي في سجن الأشغال الشاقّة أم لا؟ وبالتالي، من الأفضل أن تستردّ ماسورتك وتخلي مسؤوليتي عنها.

نظر إليّ غالغاني بأسى.

– هيّا، تعال إلى المراحيض لكي أُعطيكَ ماسورتك.

– لا، لا أُريدها، احتفظ بها، أُقدّمها لك هديةً، هي لك.

– لِمَ تقول هذا؟

– لا أُريد أن أُقتَلَ بسبب ماسورتي. أفضّل أن أحيا من دون نقود على أن أموت بسببها. أهَبُها لك، لأنّه في نهاية المطاف ليس هناك من سببٍ يدعك أن تخاطر بحياتك من أجل أموالي، وإذا ما خاطرت، فعلى الأقلّ، ليكن ذلك في سبيل مصلحتك أنت.

- أنتَ خائفٌ يا غالغاني، هل سبق وأن هدّدكَ أحدٌ؟ هل شكّ أحدٌ في أمركَ بأنّك تحمل شيئاً ما؟

- نعم، هناك ثلاثة من العرب يراقبونني باستمرار ويقتفون أثري. ولهذا السبب لم آتِ أبداً لمقابلتك لئلّا يشكّوا في أننا على تواصلٍ. كلّما أذهب إلى المراحيض، سواءً كان ذلك في الليل أو النهار، يلحق بي واحدٌ من الثلاثة ويقف بالقرب منّي، فأتعمّد أن أُريهم، دون تظاهرٍ، بأنني لا أحمل شيئاً معي، ولكن رغم كلّ شيء، لا يكفّون عن مراقبتي. يعتقدون أنّ شخصاً آخر يخفي ماسورتي معه، ولكنّهم لا يعرفون من هو، ولذلك يتابعونني باستمرار لكي يروا متى سوف تعود الماسورة إلى حوزتي.

نظرتُ إلى غالغاني، وبدا لي أنّه مرعوبٌ ومعذّبٌ بالفعل. سألته:

- أيّ مكانٍ من الباحة يرتادون؟

أجابني:

- بالقرب من المطبخ وغرفة الغسيل.

- حسناً، ابقَ هنا، سوف أعود. لا، تعال معي.

توجّهتُ معه نحو العرب. أخرجتُ المشرط من قبّعتي وأمسكتُ بمقبضه ودسستُ نصله في الكمّ الأيمن لقميصي. وبالفعل رأيتهم لدى وصولي إلى المكان: كانوا أربعة أشخاص: ثلاثة من العرب وكورسيكي، يُدعى جيراندو. فهمت الأمر في الحال: لقد كان الكورسيكي، الملفوظ من رجال الوسط الإجرامي، هو الذي حرّض العرب. لا بدّ أنّه يعرف أن غالغاني هو صهر باسكال ماترا وأنّه لا يمكن أن يكون من دون ماسورة.

- هيه، يا موكران، هل أنت بخير؟

- أنا بخير يا بابيون. وأنت، كيف حالك؟

- أنا لستُ على ما يُرام، يا كرويلا[1]. جئتُ أراك لكي أقول لك بأنّ

1- كرويلا: Crouilla، مصطلح عنصري للتحقير والإهانة يُطلق على شخص ذي أصول مغاربية أو شمال-أفريقية - المترجم.

غالغاني صديقي. وإنْ حدث له أيّ مكروه، فستكون أوّل منْ أحاسبه يا جيراندو؛ والآخرون من بعدك، افهموا كلامي كما تشاؤون.

نهض موكران من مكانه. كان بطولي نفسه، أي قرابة مترٍ وأربعة وسبعين سنتيمتراً، وعريض المنكبين مثلي. أثاره الاستفزاز وكان على وشك أن يقوم بحركة لبدء المعركة، حينما أخرجتُ سريعاً المشرط الذي لمع نصله الجديد، وأمسكته من يده بقوّة، وقلتُ له:

- إن تحرّكت، قتلتُك مثل كلبٍ.

مرتبكاً لرؤيتي مسلّحاً في مكانٍ يتمّ تفتيشنا فيه باستمرار، ومذهولاً لتصرّفي ولطول السلاح الذي أحمله، قال:

- لقد نهضتُ لأتناقش معك، لا لأقاتلك.

كنتُ أعلم أنّ ذلك ليس صحيحاً، ولكن كان من مصلحتي أن أحفظ ماء وجهه أمام أصدقائه. وقد منحته مخرجاً مشرّفاً لانسحابه.

- حسناً، ما دمت قد نهضت لكي تناقشني...

- لم أكن أعلم أنّ غالغاني صديقك. كنتُ أعتقد أنّه شخصٌ أبله، وعليك أن تدرك، يا بابيون، أنّ المرء حينما يُعاني من الإفلاس، لا بدّ له من السعي إلى الحصول على بعض الأموال لكي يقوم بالفرار من السجن.

- حسناً. هذا أمرٌ طبيعي. لك الحقّ يا موكران في أن تقاتل من أجل حياتك. ولكن عليك فقط أن تعلم أنّ هذا المكان مقدّس، ابحث عن بغيتك في مكن آخر.

مدّ إليّ يده، فصافحته. شعرتُ بارتياحٍ كبير، لأنّني أنقذتُ نفسي من ورطة، إذ كنتُ أعرف في داخلي لو أنني قتلتُ هذا الرجل، لما سافرتُ في اليوم التالي. وقد تنبّهتُ على نحوٍ متأخرٍ بعض الشيء بأنني قد ارتكبتُ خطأً جسيماً. عاد غالغاني معي، وقلتُ له: «لا تحدّث أحداً بشيءٍ عن هذه الحادثة. ليست لديّ الرغبة في أن يوسعني الأب ديغا توبيخاً». حاولت أن أقنع غالغاني باسترداد الماسورة، فقال لي: «غداً، قبل الانطلاق في

الرحلة». وقد حرصَ أشدّ الحرص على ألّا أسافر في اليومِ التالي إلى سجن الأشغال الشاقّة، ومعي ماسورتان.

في تلك الليلة، في تلك الزنزانة التي كان عددنا فيها حوالي أحد عشر شخصاً، لم يتفوّه أحدٌ بكلمة. وذلك لأنّ الجميع إلى حدٍّ ما كان يعتقد أنّ هذه آخر ليلةٍ نمضيها على الأراضي الفرنسية. كان كلٌّ منّا بدرجاتٍ متفاوتة يشدّه الحنين وهو يترك فرنسا خلفه إلى الأبد، مثل قدرٍ، إلى أرضٍ مجهولة في ظلّ نظامٍ مجهول.

لم يتكلّم ديغا. كان جالساً إلى جانبي بقرب الباب المشبّك بالقضبان الحديدية، المطلّ على الممرّ والذي كان يدخل عبره القليل من الهواء. أحسستُ بنفسي تائهاً تماماً، إذ كنّا نتلقّى معلومات متضاربة للغاية حول ما ينتظرنا، الأمر الذي أوقعني في حيرةٍ، فلم أعد أعرف إن كان عليّ أن أفرح أم أحزن أم أفقد الأمل.

كان الرجال الذين يحيطون بي في تلك الزنزانة جميعهم من المنتمين إلى الوسط الإجرامي، باستثناء الكورسيكي الصغير، الذي ولِدَ في سجن الأشغال الشاقّة، ولم يكن من هذا الوسط. وكان جميع هؤلاء الرجال في حالةٍ من اللامبالاة والتيه. جعلتهم خطورة اللحظة وأهميتها أن يلتزموا الصمت. خرج دخان السجائر من الزنزانة مثل سحابةٍ يسحبها هواء الممرّ، وإذا ما أراد المرء ألّا يلسع الدخان عينيه، وجب عليه أن يبقى جالساً في مستوى أدنى من مستوى سُحب الدخان. لم ينم أحدٌ باستثناء أندريه الذي غطّ في نومٍ عميقٍ كما لو أنّه ميّت. بالنسبة إليه، لم يكن ما تبقّى سوى فردوسٍ غير متوقّع.

توالى شريط أحداث حياتي سريعاً أمام عيني: طفولتي في كنف عائلة ملؤها الحبّ والتربية الصالحة والأدب والنبل؛ أزهار الحقول الجميلة، وخرير جداول المياه، ومذاق الجوز والخوخ والإجّاص التي كان بستاننا يمدّنا بها بوفرة، وشذى أزهار شجيرة الميموزا التي تُزهر كلّ ربيع أمام باب دارنا. منظر دارنا من الخارج وأجواؤه من الداخل وتصرّفات أهلي؛

مرّ كلّ هذا سريعاً أمام ناظريّ. هذا الشريط السينمائي الناطق الذي سمعت فيه صوت أمي المسكينة التي أحبّتني حبّاً جمّاً، ومن ثَمّ صوت أبي الحنون والملاطف أبداً، ونباح كلارا، كلبة الصيد خاصّة أبي، التي كانت تدعو من البستان إلى اللعب معها؛ الفتيات والفتيان أصدقاء طفولتي، ورفاق اللّهو واللعب في أسعد لحظات حياتي، هذا الشريط السينمائي الذي شاهدته دون إرادتي، ضوء هذا الفانوس السحري المنار بالضدّ من إرادتي عبر لاوعيي، ملأني بشعورٍ عذبٍ في تلك الليلة، بانتظار القفز نحو المجهول الكبير للمستقبل.

إنّها لحظة إجراء الحساب: عمري ستّة وعشرون عاماً، وأنا في صحّة ممتازة، وأحمل في أحشائي خمسة آلاف وستمئة فرنكٍ هي ملكيتي، وخمسة وعشرين فرنكاً هي ملكية غالغاني. وديغا إلى جانبي بعشرة آلاف فرنكٍ. أعتقد أنّني أستطيع الاعتماد على أربعين ألف فرنكٍ، لأنّه إذا لم يكن بوسع غالغاني أن يدافع عن هذا المبلغ هنا، فبالتأكيد لن يستطيع فعل ذلك على متن السفينة وفي غويانا. وهو أيضاً يعلم ذلك، ولذلك لم يأتِ ليأخذ ماسورته. إذاً، يمكنني الاعتماد على هذه الأموال، وبالطبع من خلال البقاء برفقة غالغاني؛ يجب أن يستفيد هو الآخر، لأنّه هو مالك المال ولستُ أنا. سوف أستخدم المال لصالحه هو، ولكنني سوف أستفيد منه بدوري. أربعون ألف فرنكٍ مبلغٌ كبير، وبالتالي سوف يمكنني أن أشتري به متواطئين وشركاء وسجناء يقضون عقوبتهم والمُفرَج عنهم[1]، ومراقبين.

كانت جردة الحساب إيجابية. وبالتالي، ما إنْ نصل، سيكون عليّ الفرار مع ديغا وغالغاني، وهذا هو الموضوع الوحيد الذي يجب أن يشغل بالي. لمستُ المشرط، سعيداً بالإحساس بمقبضه الفولاذي. كان

1- المُفرَج عنه: المُفرَج عنه هنا، هو محكوم أنهى عقوبته الأصلية، ولكنّه يقضي عقوبة إضافية خارج السجن في غويانا الفرنسية، قبل أن يتمكّن من الخروج منها والعودة إلى حياته الطبيعية - المترجم.

امتلاك سلاح بهذا القدر من الرعب يمنحني الإحساس بالأمان. وقد سبق لي أن برهنتُ على نجاعته في حادثة العرب. نحو الساعة الثالثة صباحاً، صفّ سجناءٌ من الحبس الانفرادي أمام شبك الزنزانة أحد عشر كيساً بحرياً سميك القماش مليئاً، وقد أُلصقت على كلٍّ منها لُصاقةٌ كبيرة تحمل اسماً. استطعتُ أن أرى لُصاقةً تدلّت إلى داخل الشبك وقد كُتِبَ عليها: س... بيير، العمر: 30 عاماً، الطول: متر وثلاثة وسبعون سنتيمتراً، القياس: اثنان وأربعون، نمرة الحذاء: واحد وأربعون، السجلّ: X. كان بيير س هذا... هو بيير لوفو، وهو مواطنٌ من مدينة بوردو حُكم عليه في باريس بتهمة القتل، بالسجن لمدة عشرين عاماً مع الأشغال الشاقّة.

إنّه فتى شجاعٌ وعضوٌ في الوسط الإجرامي صادق وصريح في تعامله مع زملائه، أنا أعرفه جيّداً. أظهرت لي هذه البطاقة مدى الدقّة والترتيب في تنظيم إدارة سجن الأشغال الشاقّة هذه. والحال هنا أفضل بكثير ممّا هو عليه في الثكنة، حيث يحاولون أن يجرّبوا الحوائج عليك عشوائياً. أمّا هنا، فكلّ شيء مسجّل، وسوف يتلقى كلّ سجينٍ الحوائج التي تناسبه. من خلال قطعة قماشٍ ظاهرة على سطح الكيس البحري، رأيتُ أنّ البزّة بيضاء اللون وعليها خطوطٌ عامودية حمراء اللون. بارتداء هذه البزّة، لن يمكننا المرور من دون أن يلمحنا أحدٌ.

سعيتُ بمحض إرادتي إلى أن أرسم في ذهني صور جلساتٍ للمحاكمة ولمحلّفين ولنائبٍ عام، إلخ. رفض ذهني بشدّة الاستجابة لإرادتي، ولم أستطع الحصول منه سوى على صور طبيعية. أدركتُ أنّه من أجل أن يعيش المرء على نحوٍ كثيف مشاهد المركز الإصلاحي وسجن بوليو، مثلما عشتُ أنا، يجب أن يكون وحيداً، وحيداً تماماً. أحسستُ بارتياح حينما تبيّن لي ذلك، وأدركتُ أنّ الحياة المشتركة التي تنتظرني ستكون لها حاجات أخرى، وردود أفعالٍ أخرى، ومشاريعُ أخرى.

اقترب بيير لوفو من الشبكة وقال لي: «هل أنت بخير، يا بابي؟».

– وأنت كيف حالك؟

- لا بأس، لطالما حلمتُ بأن أسافر إلى الجزر على سواحل أمريكا الجنوبية، ولكن بما أنني مقامرٌ، لم أستطع توفير نفقات السفر. لقد فكّر رجال الشرطة في أن يقدّموا لي هذه الرحلة المجانية. هذا شيءٌ جيد، ليس هناك ما يؤخَذُ عليها، أليس كذلك، يا بابيون؟

تكلّم على سجيّته من دون أن يكون هناك أيّ تبجّح في كلماته، وكان يُشعرنا بالفعل بأنّه واثقٌ من نفسه. قال:

- في الواقع، لهذه الرحلة المجّانية التي يقدّمها رجال الشرطة إلى الجزر على سواحل أمريكا الجنوبية محاسنها. وأنا أفضّل الذهاب إلى سجن الأشغال الشاقّة هناك على البقاء قابعاً في سجنٍ انفرادي لمدّة خمسة عشر عاماً في فرنسا.

- بقي علينا أن نعرف النتيجة النهائية يا بييرو، ألا تعتقد ذلك؟ أن نُصاب بالجنون في زنزانة، أو أن نموت من جرّاء بؤسٍ فيزيولوجي في زنزانة معتمة تحت الأرض في سجنٍ انفرادي في فرنسا، هو أسوأ من أن نموت بسبب الجذام أو الحمّى الصفراء. هذا هو رأيي.

قال:

- هذا رأيي أنا أيضاً.

- انظر يا بييرو، هذه البطاقة هي بطاقتك.

انحنى عليها، ونظر إليها بتركيزٍ كبير لكي يقرأ ما هو مكتوبٌ عليها، وبدأ بتهجئة حروفها، ثمّ قال:

- أنا متلهّف إلى ارتداء هذه البزّة، ولديّ رغبة في أن أفتح هذا الكيس وأن أرتدي الثياب، ولن يحاسبني أحد، ففي نهاية المطاف، هذه الحوائج مخصّصة لي.

- دعك من ذلك، وانتظر إلى الموعد المحدّد لاستلامها. هذا ليس أوان افتعال المشكلات، فأنا أحتاج إلى الهدوء.

تفهّم موقفي وتراجع عن الشبكة.

نظر إليّ لويس ديغا، وقال لي:

- يا عزيزي، هذه آخر ليلة لنا هنا. غداً سوف نبتعد عن بلادنا الجميلة.

أجبته، قائلاً:

- بلادنا الجميلة جدّاً، لا عدالة جميلة فيها، يا ديغا. ربّما سوف نعرف بلداناً أخرى لا تكون بجمال بلداننا، ولكنّها ستتعامل بطريقة أكثر إنسانية مع الذين أخطأوا.

لم أكن مقتنعاً تماماً بما قلته، ولكنّ المستقبل سوف يكشف لي أنني كنتُ محقّاً. ساد الصمت من جديد.

الرحيل إلى سجن الأشغال الشاقّة

في الساعة السادسة، طُلِبَ منّا الاستعداد للانطلاق. جاء سجناء من الحبس الانفرادي يقدّمون لنا القهوة، ثم وصل أربعة مراقبين. كانوا يرتدون، اليوم، ثياباً بيضاء اللون، والمسدّسات لا تزال على خصورهم. كانت أزرار ستراتهم الناصعة البياض ذهبية اللون، وعلى الكمّ الأيمن لسترة أحدهم ثلاث شارات ذهبية على شكل حرف V، من دون أن تكون هناك أيّة رتب على كتفيه.

- أيّها المرحّلون، سوف تخرجون مثنى مثنى عبر الممرّ. سوف يأخذ كلٌّ منكم الكيس الذي يخصّه، فاسمكم مكتوبٌ على البطاقة. خذوا الكيس واصطفوا إلى الجدار، قبالة الممرّ، وضعوا الكيس أمامكم.

احتجنا إلى ما يُقارب عشرين دقيقة لكي نصطفّ جميعاً ونضع الأكياس أمامنا.

قال أحدهم، آمراً:

- انزعوا ثيابكم واحزموا حوائجكم في صرّة واربطوها بإحكامٍ داخل ستراتكم بأكمامها... أحسنتم. أنت، يا من تقف هناك، اجمع الصرر كلّها وضعها في الزنزانة... ارتدوا الملابس، البسوا أوّلاً السراويل الداخلية،

ومن ثَمّ القمصان الداخلية القطنية، ثمّ السراويل المخطّطة، ثمّ القمصان، ثم الأحذية مع الجوارب... هل ارتدى الجميع ثيابهم؟

- نعم، سيّدي المراقب.

- حسناً. اتركوا البلوزة الجلدية خارج الكيس لكي تستخدموها إذا ما أمطرت، ولكي تحموا بها أنفسكم من البرد. ضعوا الأكياس على أكتافكم واستديروا إلى اليسار... اتبعوني مثنى مثنى.

أخذ ذو الشارات الذهبية مكانه في المقدّمة، وأخذ اثنان آخران مكانهما على جانبي الرتل، فيما سار المراقب الرابع خلف الرتل، وتوجّه موكبنا الصغير نحو الباحة. وفي أقلّ من ساعتين، تمّ صفّ ثمانمئة وعشرة سجناء محكومين بالأشغال الشاقّة. نُودِي على أربعين رجلاً، كنّا وديغا من بينهم، بالإضافة إلى ثلاثة سجناء كانوا قد أُعيدوا إلى السجن بعد عملية فرار، وهم جولو وغالغاني وسانتيني. ثمّ صفّ هؤلاء الرجال في أربع مجموعات، تتألّف كلّ منها من عشرة رجالٍ. وأخذ كلّ مراقبٍ مكانه بجانبِ صفٍّ على رأس هذا الموكب الذي تشكّل. لم يضعوا لنا لا قيودَ ولا أَغلالَ. كان يسير أمامنا، على مسافة ثلاثة أمتار، عشرة رجال من الدرك إلى الخلف ووجوههم قبالتنا وفي أيديهم البنادق الصغيرة. وقد ساروا بهذه الطريقة طيلة المسافة، يوجّه كلّ واحدٍ منهم دركيٌّ آخر يسحبه من حزامه.

فُتح الباب الواسع للقلعة وبدأ الموكب يسير ببطء. وكلّما خرجنا من الحصن، انضمّ إلى الموكب رجالٌ من الدرك وفي أيدهم بنادقُ عادية أو بنادقُ آلية إلى الأمام، ويتّخذون مسافة مترين تقريباً من الموكب ويسيرون في إثره. قام رجل الدرك بإبعاد جمهرةٍ من الفضوليين الذين جاؤوا لمشاهدة ترحيل السجناء إلى سجن الأشغال الشاقّة. عند منتصف المسيرة، سمعتُ صفيراً خفياً يأتي من نافذة أحد المنازل، فرفعتُ رأسي ورأيتُ زوجتي نينيت وصديقي أنطوان دي... في نافذةٍ؛ وبولا زوجة ديغا وصديقه أنطوان جيليتي في النافذة الأخرى. رآهم ديغا أيضاً، وسرنا وعيوننا شاخصة إلى

النافذتين طيلة الوقت، بقدر ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً. وسوف تكون هذه المرّة الأخيرة التي أرى فيها زوجتي، وكذلك صديقي أنطوان الذي قُتِل فيما بعد في تفجيرٍ في مدينة مرسيليا. ولأنّ لا أحد تفوّه بكلمة، ساد صمتٌ مطبق. إذ لم يُعكّر صفو هذه اللحظة المؤثّرة بالفعل لا سجينٌ، ولا مراقبٌ، ولا دركيّ، ولا أحد من الجمهور، حيث يُدرك الجميع أنّ هؤلاء الرجال الألف والثمانمئة سوف يغيبون إلى الأبد عن الحياة الطبيعية.

صعدنا على متن السفينة. توجّهنا نحن الأربعين الأوائل إلى قاع السفينة، في قفصٍ محاطٍ بقضبانٍ معدنية غليظة. قرأتُ على لوحة من الورق المقوّى، مثبّتة عليه، ما يلي: «المهجع رقم واحد، أربعون رجلاً من الفئة الخاصّة جدّاً. تحت المراقبة والحذر الصارمين». سُلِّمت لكلٍّ منّا أرجوحة نومٍ ملفوفة. وجدنا الكثير من الحلقات لتعليق الأراجيح.

عانقني أحدهم، فالتفتُّ إليه لأكتشف أنّه جولو. إنّه خبيرٌ بهذه الإجراءات، فقد سبق له وقام بهذه الرحلة منذ عشر سنوات. قال لي:

– أسرع، تعال من هنا. علّق كيسك حيث ستعلّق أرجوحة نومك. هذا المكان قريب من كوّتين مغلقتين، ولكن ما إنْ نصبح في عرض البحر، سوف يتمّ فتحهما، وسوف نتنفّس هنا أفضل من أيّ مكانٍ آخر داخل هذا القفص.

عرّفته على ديغا. كنّا نتحادث معاً حينما اقترب رجلٌ. اعترضه جولو وأوقفه بذراعه، قائلاً له:

– لا تأتي من هذه الجهة أبداً، إذا أردت أن تصل حيّاً إلى سجن الأشغال الشاقّة. هل فهمت؟

أجابه الآخر:

– نعم.

– أتعرف لماذا؟

– نعم.

- انصرف من هنا، إذاً.

انصرف الرجل. ابتهج ديغا لعرض القوّة هذا ولم يخفِ ذلك، فقال:

- معكما، أنتما الاثنان، يمكنني أن أنام مرتاح البال.

أجاب جولو:

- معنا هنا، أنت في أمانٍ أكثر ممّا أن تكون في فيلا على الشاطئ، لها نافذة مفتوحة.

استغرقت الرحلة ثمانية عشر يوماً، لم يحدث خلالها سوى حادثة واحدة: ذات ليلة، أيقظت صرخة قويّة الجميع. لقد عُثرَ على رجلٍ مقتولٍ بمديةٍ مغروسةٍ بين كتفيه من الأسفل إلى الأعلى، كانت قد اخترقت أرجوحة النوم قبل أن تخترق جسده. كان طول المدية، السلاح الرهيب، يبلغ عشرين سنتيمتراً. وفي الحال رفع ما يقارب خمسة وعشرين أو ثلاثين مراقباً مسدّساتهم أو بنادقهم في وجهنا وصاحوا بنا:

- تعرّوا جميعاً، وبسرعة!

تعرّى الجميع، وأدركتُ أنّهم سيقومون بتفتيشنا. وضعتُ المشرط تحت قدمي اليمنى الحافية، واستندتُ على ساقي اليسرى أكثر من اليمنى لأنّ حديد المشرط جرح قدمي. ولكنّ قدمي غطّت على المشرط. دخل أربعة مراقبين وبدأوا بتفتيش أحذية وثياب السجناء. قبل الدخول، تركوا أسلحتهم في الخارج وأُغلِق باب القفص عليهم، ولكن استمرّ المراقبون في الخارج في مراقبتنا وهم يشهرون أسلحتهم علينا. قال أحد القادة: «أوّل من يتحرّك سيُقتَل». أثناء التفتيش، عثروا على ثلاثة سكاكين، ومسماري نجارة مشحوذين، وفتّاحة سدّادات وماسورة من ذهب. أُخرِج ستّة رجال إلى ظهر السفينة، وهم لا يزالون عراة. وصل قائد الموكب، المقدّم بارو، بصحبة طبيبين من المستعمرة وقبطان السفينة. حينما خرج رجال الشرطة من قفصنا، ارتدى الجميع ثيابهم دون انتظار الأوامر بذلك. استعدتُ مشرطي.

انسحب المراقبون إلى قاع السفينة، ووقف المقدّم بارو في الوسط وانتشر العناصر بالقرب من السلالم. ووقف الرجال الستّة العراة أمامهم في صفٍّ وهم في حالة استعداد.

أمسك الشرطي الذي قام بالتفتيش بمدية وأشار إلى صاحبها، قائلاً:

- هل هذه لهذا!

- نعم، هذه لي.

قال بارو:

- حسناً. سوف يُكمل الرحلة في الزنزانة الانفرادية فوق الآلات.

تمّ تحديد مالك كلّ قطعة سلاح، سواءً بالنسبة إلى المسمارين، أو فتّاحة السدادات، أو السكاكين، وأقرّ كلٌّ منهم بأنّه صاحب القطعة التي عُثِرَ عليها. صعد كلٌّ منهم، وهم لا يزالون عراة، السلالم برفقة رجلي شرطة. ظلّت مديةٌ بالإضافة إلى الماسورة الذهبية على أرض؛ يملكهما رجلٌ واحد، وهو شابّ في الثالثة والعشرين أو الخامسة والعشرين، قويّ البنية، يبلغ طوله على الأقلّ متراً وثمانين سنتيمتراً، له جسمٌ رياضيّ، وعينان زرقاوان.

قال الحارس وهو يمدّ الماسورة الذهبية:

- هذه لك، أليس كذلك؟

- نعم، هذه لي.

سأل المقدّم بارو الذي أمسك الماسورة بين يديه:

- ماذا تحتوي هذه الماسورة؟

- ثلاثمئة ليرة إنكليزية، ومئتي دولار، وماستين تزن كلّ منهما خمسة قراريط.

- حسناً، سنرى.

فتح المقدّم الماسورة، ولأنّه كان محاطاً برجال شرطة آخرين، لم نرَ شيئاً، ولكننا سمعناه يقول:

- هذا صحيح. ما اسمك؟

- سالفيديا روميو.

- هل أنت إيطالي؟

- نعم، سيّدي.

- لن تُعاقَب على الماسورة، ولكن ستُعاقَب على المدية.

- عفواً، المدية ليست لي.

قال الشرطي:

- لا تقل هذا، لقد عثرتُ عليها في حذائك.

- أكرّر أنّ هذه المدية ليست لي.

- هل أنا كذّابٌ، إذاً؟

- كلّا، أنت لست كذّباً وإنّما مخطىء.

قال المقدّم:

- إذاً، لمن هذه المدية؟ إن لم تكن لك، فهي لأحدٍ ما، أليس كذلك؟

- هي ليست لي، وهذا كلّ ما لدي.

- إذا كنت لا تُريد أن تُزجّ في زنزانة تقع فوق المراجل، فتُشوى فيها، أخبرنا لمن هذه المدية.

- لا أعرف.

- هل تسخر منّي؟ نعثر على مدية في حذائك ولا تعرف لمن تكون؟ أتعتبرني غبيّاً؟ إمّا أنّها لك، أو أنّك تعرف منْ وضعها في حذائك. أجبني.

- هي ليست لي، وليس من واجبي أن أخبركم لمن تكون، فأنا لستُ مخبراً. هل تراني أقوم بدور السجّان، مصادفةً؟

- أيّها الحارس، ضع الأغلال في يدَي هذا الرجل. وسوف تدفع غالياً ثمن عدم انضباطك هذا. تباحث القائدان، قائد السفينة وقائد الموكب، فيما بينهما، ثمّ أعطى قائد السفينة الأمر لسيّدٍ آخر صعد إلى متن السفينة. بعد لحظات، وصل بحّارٌ بريتاني، وهو عملاقٌ حقيقي، يحمل في يده

دلواً خشبياً مليئاً بلا شكّ بماء البحر وحبلاً ثخيناً بثخن رسغ اليد. رُبِط الرجل بآخر درجة من السلّم، جاثياً على ركبتيه. غمس البحّار حبله في ماء الدلو ومن ثَمّ بدأ ينهال به ضرباً، ببطء ولكن بكلّ ما أوتي من قوّة، على ردفي وخاصرتي وظهر الرجل المسكين، من دون أن تنطلق صرخة واحدة من بين شفتيه. سال الدم من ردفيه وخاصرتيه. وسط صمت القبور السائد، انطلقت صرخة احتجاجٍ من قفصنا. صاح أحدهم:

- يا عصابة الأنذال!

وكان هذا كلّ ما فعله لتنطلق موجة الاحتجاج والصياح: «أيّها القتلة!» «أيّها الأقذار!» «أيّها الفاسدون!». وكلّما هدّدونا بأن يطلقوا النار علينا، لم نسكت، بل ازددنا صياحاً، فصرخ المقدّم فجأةً:

- أطلقوا عليهم البخار!

أدار بعض البحّارة نحونا العجلات وخراطيم إطلاق البخار الذي تدفّق علينا بقوّة هائلة، بحيث انطرحنا جميعاً منبطحين على الأرض، عدا اثنين من بيننا. كانت خراطيم إطلاق البخار مصوّبة علينا على مستوى الصدر. استبدّ بنا خوفٌ جماعي، ولم يجرؤ الذين احترقوا بالبخار على الشكوى، ومع أنّ ذلك لم يستغرق سوى أقلّ من دقيقة، ولكنّه أشاع الرعب والهلع فينا جميعاً.

صرخ فينا المقدّم:

- أتمنى أن تكونوا قد فهمتم الرسالة، يا أصحاب الرؤوس اليابسة. في أصغر حادثة، سوف أطلق عليكم البخار الساخن. هل فهمتم؟ انهضوا وقوفاً!

كان ثلاثة رجال فقط قد احترقوا بالفعل، وقد تمّ نقلهم إلى المستوصف. أودِع الشاب الذي جُلِدَ في القفص معنا، وقد مات بعد ستّة أعوامٍ من تلك الحادثة، في عملية فرارٍ من السجن معي.

خلال تلك الأيام الثمانية عشر التي استغرقتها الرحلة، تسنّى لنا الوقت

الكافي لكي نتبادل المعلومات، أو نسعى إلى تكوين فكرة عن سجن الأشغال الشاقّة. لن يجري أيّ شيءٍ كما اعتقدنا، ومع ذلك بذل جولو كلّ ما بوسعه لكي يزوّدنا بالمعلومات. كنا نعرف، على سبيل المثال، أنّ سان لوران دو ماروني هي قرية تقع على بعد مئة وعشرين كيلومتراً من البحر على ضفّة نهرٍ يُدعى ماروني. شرح لنا جولو:

- «في هذه القرية يقع سجن الإصلاحية، مركز سجن الأشغال الشاقّة. وفي هذا المركز تتمّ عملية الفرز حسب الفئة. يتمّ إرسال فئة المنفيين مباشرة إلى إصلاحية تُسمى سان جان، وتبعد من هناك مئة وخمسين كيلومتراً. فيما يتمّ مباشرةً توزيع المحكومين بالأشغال الشاقّة على ثلاث مجموعات: «الأكثر خطراً، الذين سوف تتمّ المناداة بأسمائهم حال وصولهم ووضعهم في زنزانات في القسم التأديبي ريثما يتمّ نقلهم إلى جزر الخلاص، ويتم احتجازهم هناك بشكلٍ مؤقّت أو مدى الحياة. وتبعد هذه الجزر خمسمئة كيلومترٍ عن سان لوران، ومئة كيلومترٍ عن كايين. وتُدعى: جزيرة رويال؛ وهي أكبرها، وجزيرة سان جوزيف، حيث يوجد السجن الانفرادي للمحكومين بالأشغال الشاقّة؛ وجزيرة الشيطان، وهي أصغر الجزر. لا يذهب المحكومون بالأشغال الشاقّة إلى جزيرة الشيطان، باستثناء حالات نادرة. والرجال الموجودون في جزيرة الشيطان هم معتقلون سياسيون محكومون بالأشغال الشاقّة. ثمّ هناك المجرمون الخطرون من الفئة الثانية: وهؤلاء سوف يبقون في معسكر سان لوران، وسوف يُسمح لهم بممارسة أعمال البستنة وحراثة الأرض. وكلّما استدعى الأمر، يتمّ إرسالهم إلى معسكرات تمارس فيها أشغال شاقّة للغاية، مثل معسكر فوريستيه، وشارفان، وكاسكاد، وكريك روج، والكيلومتر 42، الذي يُسمّى معسكر الموت؛ وأخيراً، هناك الفئة العادية: وهي تضمّ أولئك الذين يتمّ تشغيلهم في الإدارة والمطابخ وفي أعمال تنظيف القرية والمعسكر، أو في أشغال مختلفة، من قبيل العمل في الورشات، أو

النجارة، أو الدهان، أو الحدادة، أو الكهرباء، أو التنجيد، أو الخياطة، أو الغسيل، أو سواها من الأشغال».

«إذاً، ساعة الحسم هي لحظة الوصول، فإذا ما نودي علينا واقتادونا إلى الزنزانة، فهذا يعني أننا سنُحتَجَز في الجزر، الأمر الذي يُنهي أيّ أملٍ بالفرار. وتبقى هناك فرصة وحيدة: أن نقوم بسرعة بإحداث جروحٍ في أجسادنا، من خلال شقّ ركبنا أو بطوننا لكي نذهب إلى المستشفى، وبالتالي، الفرار من هناك. ينبغي أن نتجنّب الذهاب إلى الجزر مهما كلّف الثمن. ثمّة أملٌ آخر: إذا كانت السفينة المكلّفة بنقل المُحتَجزين غير جاهزة للقيام بالرحلة، حينذاك سيكون عليك إخراج النقود وتقديمها للممرّض. وسوف يقوم هذا بحقنك بخلاصة التربنتين في مفاصلك، أو إدخال شعرة مغموسة في البول إلى الجسم لكي تتسبّب بالتهابٍ. أو سوف يزوّدك بمادة الكبريت لتقوم باستنشاقها ومن ثَمّ تقوم بإخبار الطبيب بأنّ حرارتك مرتفعة وتبلغ 40 درجة. خلال أيام الانتظار القليلة هذه، يجب الذهاب إلى المستشفى بأيّ ثمن».

«إذا لم ينادونا وتركونا مع الآخرين في البرّاكات في المعسكر، سيكون لدينا متّسعٌ من الوقت لكي نتصرّف. وفي هذه الحالة، لا ينبغي علينا البحث عن وظيفةٍ داخل المعسكر. بل ينبغي أن ندفع للمحاسب لكي يجد لنا في القرية مكان عامل تنظيف المجاري أو كنّاس أو وظيفة في منشرة متعهّدٍ مدني. من خلال الخروج إلى العمل خارج الإصلاحية والعودة إلى المعسكر كلّ مساء، سوف تُتاح لنا الفرصة لإقامة علاقة تواصل مع محكومين آخرين بالأشغال الشاقة يأتون إلى القرية أو مع صينيين لكي يقوموا بتدبير هروبنا. علينا تجنّب المعسكرات من حول القرية: يموت الجميع فيها بسرعة. هناك معسكرات لا يُقاوم فيها الرجل لثلاثة أشهر. يتمّ إرغام الرجال في وسط الدَّغَل على قطع مترٍ مكعبٍ من الخشب كلّ يوم».

كلّ هذه المعلومات الثمينة، اجترّها جولوا أمامنا طيلة الرحلة. كان

جاهزاً للأمر، فهو يعلم أنّه سيذهب مباشرة إلى زنزانة منفردة معتمة في غياهب السجن لكونه عائداً من عملية فرار. كما أنّه كان يخبّئ سكيناً صغيراً جدّاً في ماسورته. لدى وصولنا، سوف يخرجه ويجرح به ركبته. أثناء النزول من السفينة، سقط من السلّم أمام الجميع. اعتقد أنّه سوف يُنقَل مباشرةً من رصيف الرسو إلى المستشفى. وهذا ما حدث بالفعل.

سان لوران دو ماروني

أجرى المراقبون عملية تبادل المناوبات لكي يذهبوا ويغيّروا ملابسهم. ومن ثَمّ عاد كلٌّ بدوره وقد ارتدوا ثيابهم البيضاء ووضعوا على رؤوسهم القلنسوات الخاصّة بالمستعمرات بدلاً من القبّعات التي كانوا يعتمرونها قبل ذلك. قال جولو: «لقد وصلنا». كان الجوّ حارّاً على نحوٍ خانق بسبب إغلاق الكوّات التي يُشاهَد من خلالها الدَّغَل. لقد وصلنا إذاً إلى ماروني. كانت المياه موحلة، وتلك الغابة العذراء خضراء ومذهلة. طارت طيورٌ من على الأشجار فزعةً من صفير السفينة. كانت السفينة تسير في بطءٍ شديد، الأمر الذي أتاح لنا أن نشاهد بسهولة ويُسر كلّ تفاصيل تلك الخميلة الخضراء الداكنة، الغزيرة والكثيفة. لمحنا أولى البيوت الخشبية بأسطحها المغطّاة بصفائح التوتياء، يقف أمام أبوابها رجالٌ ونساءٌ من الزنوج ويشاهدون مرور السفينة. كانوا معتادين على رؤية السفينة وهي تُفرغُ حمولتها البشرية، ولذلك لم تبدر منهم أيّ إشارة ترحيبٍ لدى مرورها. أخبرتنا ثلاث صفّاراتٍ من السفينة ومعها ضجيج مروحة السفينة بأننا قد وصلنا، ثمّ توقّف هدير المركبة تماماً، وساد صمتٌ تامّ بحيث كان بوسعنا أن نسمع طنين ذبابة.

لم يتفوّه أحدٌ بكلمة. فتح جولو سكّينه وشقّ سرواله من عند الركبة ممزّقاً أطراف الخياطة. كان عليه أن يجرح ركبته فقط حينما نصل إلى الجسر لكي لا يترك خلفه آثار الدم. فتح الحرّاس باب القفص وجعلونا نصطفّ كلّ ثلاثة أشخاص معاً في صفٍّ واحدٍ، وكنّا نحن في الصفّ

الرابع، يقف جولو بين ديغا وبيني. صعدنا إلى الجسر. كانت الساعة تشير إلى الثانية من بعد الظهيرة، وضربت شمسٌ لاهبة جمجمتي الحليقة وعيني. ونحن مصطفّين على الجسر، تمّ توجيهنا نحو المعبر. ولدى حدوث اهتزازٍ في العمود، ناجمٍ عن وصول أوائل السجناء إلى المعبر، أمسكتُ بكيس جولو وأبقيته على كتفه، في حين قام هو بشدّ جلد ركبته، بكلتا يديه، وغرس فيه السكين، وبضربة واحدة، فتح شقّاً بطولٍ يتراوح بين سبعة وثمانية سنتيمترات، ثمّ سلّمني السكين وأمسك كيسه بيده. في اللحظة التي سلكنا فيها المعبر، رمى بنفسه أرضاً وتدحرج إلى أن وصل إلى الأسفل. قام الحرّاس بانتشاله وحينما رأوه جريحاً، استدعوا حمَلَة النقّالات. وجرى السيناريو كما كان قد خطّط له: فقد تمّ نقله على حمّالة يحملها رجلان.

كان هناك تجمّعٌ لأناسٍ بألوان بشرة مختلفة ينظرون إلينا بفضول. بينهم زنوجٌ وسمرٌ وهنودٌ وصينيون وبعض البيض (لا بدّ أنّ هؤلاء البيض هم محكومون بالأشغال الشاقّة أنهوا عقوبتهم وحُرِّروا ولكنّهم يقضون عقوبتهم الإضافية قبل المغادرة)، وكانوا يمعنون النظر في كلّ من تطأ أقدامهم الأرض ويصطفّون خلف من سبقوهم. وعلى الجانب الآخر، كان هناك حرّاسٌ ومدنيون بثيابٍ أنيقة، ونساءٌ في ثيابٍ صيفية، وصبيانٌ يعتمرون جميعاً قبّعات خاصّة بالمستعمرات. كانوا هم أيضاً ينظرون إلى القادمين الجدد. حينما أصبح عددنا مئتي شخصٍ، بدأ الموكب بالتحرّك. سرنا لمدّة عشر دقائق تقريباً، ووصلنا إلى بابٍ مصنوعٍ من ألواح سميكة من خشب السنديان، عالٍ جدّاً، كُتِبَ عليه: «إصلاحية سان لوران دو ماروني. الاستيعاب 3000 شخص». فُتِح الباب وبدأنا بالدخول في صفوفٍ يتكوّن كلّ صفّ من عشرة أفراد. جاءنا الإيعاز: «واحد، اثنان؛ واحد، اثنان، إلى الأمام سرّ!». شاهدَنا العديد من المحكومين بالأشغال الشاقّة ونحن نصل. كانوا يقفون أمام النوافذ أو يجثمون على أحجار كبيرة ليرونا على نحوٍ أفضل.

حينما وصلنا إلى منتصف الباحة، صرخ بنا أحدهم: «توقّفوا! ضعوا أكياسكم أمامنا. وأنتم الآخرون، وزّعوا عليهم القبّعات!». وزّع على كلٍّ منّا قبّعة مصنوعة من القشّ، وكنّا بحاجة إلى تلك القبّعات: فقد سبق وأن سقط اثنان أو ثلاثة سجناء بضربة شمس. نظرنا، ديغا وأنا، إلى بعضنا، لأن ضابطاً مزيّناً بشرائط أمسك بقائمةٍ في يديه. فكّرنا في ما قاله جولو. نادوا على لوغيتو وقالوا له: «من هنا!». أُحيط بحارسين، وانصرف. جرى الأمر نفسه مع سوزيني، وكذلك مع جيرازول.

- جول بينيار!

- جول بينيار (هو جولو)، لقد جُرِح، ونُقِل إلى المستشفى.

- حسناً. هؤلاء هم المحتجزون في الجزر.

ثمّ واصل الحارس، قائلاً:

- اسمعوا وانتبهوا. كلّ من أذيع اسمه، يخرج من الصفوف، وكيسه على كتفه، ويذهب ويصطفّ أمام تلك البرّاكة الصفراء اللون، المكتوب عليها رقم 1. أنادي على فلانٍ، فيعلن عن حضوره، إلخ.

وجدنا، ديغا وكاريير وأنا، أنفسنا مع المصطفّين الآخرين أمام البرّاكة. فُتِحَ لنا الباب ودخلنا إلى مهجع مستطيل الشكل، طوله يقارب عشرين متراً. في وسطه ممرٌّ بعرض مترين؛ وعلى الجانب الأيمن والأيسر من الممرّ، ويمتد قضيبٌ حديدي من أحد طرفي المهجع إلى طرفه الآخر، وأراجيح نوم معلّقة وممتدّة بين القضيب المعدني والجدار، وعلى كلّ أرجوحة نوم غطاءٌ. أخذ كلٌّ منّا مكانه حسب رغبته. ديغا، وبييرو لوفو، وسانتوري، وغرانديه، وأنا، أخذنا أمكنتنا إلى جانب بعضنا، وبدأت في الحال التحضيرات والتدابير المنزلية. ذهبتُ إلى آخر المهجع، فوجدتُ أنّ الحمامات تقع إلى اليمين والمراحيض إلى اليسار، واكتشفتُ أنّ ليست هناك مياه جارية. تعلّقنا بقضبان النوافذ، وشاهدنا عملية توزيع السجناء الآخرين الذين وصلوا بعدنا. كنّا، لويس ديغا، وبييرو لوفو وأنا مبتهجين ومشرقين؛ فطالما أننا في برّاكة مشتركة، لن يتمّ احتجازنا في

زنازين منفردة، وإلّا لكنّا الآن في تلك الزنازين المنفردة، كما شرح لنا جولو ذلك. كان الجميع سعداء، إلى اللحظة التي قال فيها غرانديه، بعد أن انتهى كلّ شيء، وبلغت الساعة نحو الخامسة مساءً:

- إنّه لأمرٌ غريب، ففي هذه القافلة، لم يُنادى على أيّ محتجز. هذا بالفعل شيءٌ غريب. وهذا لعمري أفضل.

غرانديه هو الرجل الذي سرق الصندوق الحديدي لمركز، وهي قضية أثارت سخرية فرنسا بطولها وعرضها.

في المناطق الاستوائية، يتعاقب الليل والنهار من دون شفقٍ أو غسق. يتمّ الانتقال من أحدهما إلى الآخر فجأةً، وفي اللحظة نفسها طيلة السنة. يهبط الليل فجأةً في الساعة السادسة والنصف مساءً. وفي الساعة السادسة والنصف، يجلب محكومان بالأشغال الشاقّة عجوزان فانوسين يعملان على النفط ويعلّقانهما على خطّافٍ مدلّى من السقف، فيصدر منهما ضوءٌ خافت، بحيث تبقى ثلاثة أرباع المهجع غارقة في الظلام. في الساعة التاسعة، نام الجميع لأنّ الإثارة الناجمة عن الوصول إلى المكان كانت قد زالت، وكاد الحرّ الخانق أن يقتلنا. لم تكن هناك نسمة هواء، فتعرّينا جميعاً ولم نبقِ إلّا على السروال الداخلي. استلقيتُ بين ديغا وبييرو لوفو، وتحدّثنا مع بعضنا همساً، ثمّ خلدنا إلى النوم.

في صبيحة اليوم التالي، كان الظلام لا يزال مخيّماً حينما دوّى صوت البوق، فنهض كلٌّ واحد منّا، واغتسل وارتدى ثيابه. أُعطي لكلٍّ منّا كوبٌ من القهوة وقطعةٌ من الخبز. كان رفٌّ خشبي مثبّتاً على الجدار لكي يضع السجين عليه خبزه وكوب قهوته وحوائجه الأخرى. في الساعة التاسعة، دخل حارسان ومحكومٌ بالأشغال الشاقّة، وهو شابّ يرتدي ثياباً بيضاء غير مخطّطة. والشرطيان من كورسيكا ويتحدّثان الكورسيكية مع محكومين بالأشغال الشاقّة من مواطنيهم. في هذه الأثناء، كان الممرّض يجول في المهجع، وحينما اقترب منّي، قال لي:

- كيف الحال يا بابي؟ هل عرفتني؟

- كلا.

- أنا سيرا الجزائري، وقد تعرّفتُ عليك في بيت دانتي في باريس.

- نعم، لقد تذكّرتُك الآن. ولكنك جئتَ إلى هنا في عام 1929، وها نحن الآن في عام 1933، وما زلتَ هنا؟

- نعم، لا يخرج المرء هنا بسرعة. تظاهر بأنّك مريض. ومن يكون هذا الذي معك؟

- هذا صديقي ديغا.

- سوف أسجّل اسمك أيضاً في قائمة المرضى. أنت يا بابيون تعاني من الزحار، أمّا أنت أيّها العجوز، فتعاني من نوبات الربو. سوف ألاقيكما في العيادة في الساعة الحادية عشرة، وسيكون لي حديثٌ معكما.

تابع طريقه وصرخ بصوتٍ عالٍ:

- من منكم مريضٌ هنا؟

ذهب نحو كلّ من رفع إصبعه ودوّن اسمه. حينما عاد ومرّ من أمامنا، كان برفقته حارسٌ مسنّ، أسمر البشرة. تقدّم منّي وقال:

- أقدّم لكَ يا بابيون رئيسي، المراقب الممرّض بارتيلوني. يا سيّدي بارتيلوني هذا وذاك هما صديقاي اللذان كنتُ قد حدّثتُك عنهما.

- حسناً يا سيرا، سوف نرتّب الأمور في العيادة، اعتمد عليّ.

في الساعة الحادية عشرة، جاؤوا يستدعوننا نحن المرضى الذين كان عددنا تسعة أشخاص.

عبرنا المجمّع سيراً على الأقدام بين البرّاكات. حينما وصلنا أمام برّاكة جديدة، وهي الوحيدة المطلية باللون الأبيض وقد رُسِمَ صليبٌ باللون الأحمر عليها، دخلنا إليها ولجنا إلى قاعة انتظارٍ فيها ما يقارب ستين رجلاً، ويقف في كلّ زاوية من القاعة حارسان. ظهر سيرا، مرتدياً صدرية طبيبٍ نظيفة جدّاً. قال: «أنت، وأنت، وأنت، ادخلوا». أُدخلنا إلى غرفةٍ عرفنا في الحال بأنّها مكتب الطبيب. تحدّث إلى الكهول الثلاثة

باللغة الإسبانية. وقد تعرفّت على الفور على هذا الإسباني، إنّه فرنانديز الذي قتل ثلاثة أرجنتينيين في مقهى مدريد في باريس. حينما تبادلوا بضع كلمات باللغة الإسبانية، أدخله سييرا إلى حجرة تطلّ على القاعة، ثمّ أقبل نحونا، وقال:

– دعني أعانقك، يا بابي. أنا سعيدٌ بأن أستطيع أن أسدي خدمة كبيرة لك ولصديقك: لقد احتُجزتما أنتما الاثنان... أوه، دعني أكمل كلامي! أنت يا بابيون لمدى الحياة، وأنت يا ديغا، لمدّة خمس سنوات. هل معكما نقودٌ؟

– نعم.

– إذاً ليعطني كل منكما خمسمئة فرنكٍ وغداً سوف تُنقلون إلى المستشفى، أنت بسببِ الزحار، وأنت يا ديغا، حينما يحلّ الليل دقّ الباب، أو الأفضل أن يستدعي أحدهم الحارس ويُطالب بإحضار الممرّض زاعماً أنّ ديغا يختنق. وأنا سأتكفّل بما تبقّى. لا أطلب منك يا بابيون سوى شيءٍ واحد: إذا ما احتجت إلى شيءٍ ما، أخبرني بذلك في الوقت المناسب، وسأكون في الموعد لتلبية طلبك. في المستشفى، لقاء كلّ مئة فرنكٍ أسبوعياً يمكنهم إبقاؤكم في المستشفى لمدّة شهر. يجب التصرّف بسرعة.

خرج فرنانديز من المرحاض وسلّم أمامنا خمسمئة فرنك إلى سييرا. أمّا أنا، فقد دخلتُ إلى المرحاض، وحينما خرجتُ منه، سلّمته ليس خمسمئة فرنكٍ وإنّما ألف وخمسمئة فرنكٍ. رفض تسلّم الخمسمئة فرنكٍ. لم أشأ أن ألحّ عليه. قال لي:

– هذه النقود التي أعطيتني إيّاها، هي للشرطي. أمّا أنا، فلا أريد شيئاً لنفسي. نحن صديقان، أليس كذلك؟

في اليوم التالي، كنّا، ديغا وأنا وفرنانديز، في زنزانة فسيحة في المستشفى. كان ديغا قد نُقِل إلى المستشفى في منتصف الليل. كان الممرّض في القاعة رجلاً في الخامسة والثلاثين من العمر، ويُدعى

شاتال. وهو الذي يحمل كلّ تعليمات سيرا إلينا نحن الثلاثة. حينما يمرّ الطبيب، سوف يقدّم له نتائج تحليل البراز، والتي تُظهر بأنّني أعاني من ارتفاعٍ شديدٍ في الأميبيا. أمّا بالنسبة إلى ديغا، فقبل عشر دقائق من زيارة الطبيب، أحرق قليلاً من الكبريت الذي كان قد زُوِّد به وجعله يستنشق الغاز الناتج عنه بوساطة منشفة يلفّ بها رأسه. وكان خدّ فرنانديز متورّماً: كان الممرّض قد حقنه بحقنة تحت الجلد في خدّه وقد تألّم أشد الألم لساعة كاملة. وكان الممرّض قد فعل ذلك بمنتهى الاتقان بحيث ابتلع الورم إحدى عينيه وأغمض أجفانها. كانت الزنزانة تقع في الطابق الأوّل من المبنى، وفيها ما يقارب سبعين مريضاً، يعاني الكثير منهم من الزحار. سألتُ الممرّض عن جولو، فقال لي: مكتبة سُر مَن قرأ

– هو في المبنى المقابل تماماً. هل تريد أن أخبره بشيءٍ ما؟

– نعم. أخبره أنّ بابيون وديغا هنا، وأن يقف هو أمام النافذة.

كان الممرّض يدخل إلى القاعة ويخرج منها متى ما يشاء ذلك. ومن أجل القيام بذلك، لم يكن عليه سوى طرق الباب، فيفتحه عربيٌّ له. كان هذا العربي حمّال مفاتيح، وهو سجينٌ محكومٌ بالأشغال الشاقة ويعمل مساعداً للمراقبين. على يمين الباب وعلى يساره، يجلس على الكراسيّ ثلاثة مراقبين، وبنادقهم على ركبهم. كانت قضبان النوافذ مصنوعة من خطوط السكك الحديدية. تساءلتُ في نفسي كيف سيمكننا أن نقصّ هذه القضبان الغليظة. جلستُ أمام النافذة.

بين المبنى الذي كنّا نشغله ومبنى جولو، كانت هناك حديقة مليئة بالورود الجميلة. ظهر جولو في النافذة وفي يده لوح حجري أسود وقد كتب عليه بالحوّار الأبيض: «أحسنت». بعد انقضاء ساعة من الوقت، حمل إليّ الممرّض رسالة من جولو، يقول لي فيها: «أسعى للانتقال إلى قاعتك. إذا ما فشلتُ في ذلك، حاول أن تنتقل أنت إلى قاعتي. تحجّج بأنّ لك أعداء في صالتك. هل قرّروا احتجازك؟ تشجّع، سوف ننجح». لقد ساهم حادث مركز بوليو الذي عانينا منه معاً في توثيق عرى الصداقة بيننا

وأصبحنا متعلّقين ببعضنا كثيراً. كان جولو أخصائياً في المطرقة الخشبية، ولهذا السبب كان يُطلق عليه لقب الرجل ذو المطرقة. كان يصل إلى أمام محلٍّ للمجوهرات بالسيارة، في وضح النهار، في اللحظة التي تكون فيها المجوهرات الأكثر جمالاً معروضة في الواجهات في علبها الأنيقة، فتقف السيارة التي يقودها شخصٌ آخر أمام المحل من دون أن يُطفئ محرّكها، ويترجّل منها جولو بسرعة مزوّداً بمطرقة خشبية كبيرة، ويحطّم الواجهة الزجاجية بضربةٍ واحدة ويستولي على أكبر قدرٍ ممكن من علب المجوهرات ومن ثَمّ يعود ويصعد إلى السيارة التي تُقلع بأقصى سرعة في الشوارع. بعد أن نجح في عمليات السطو في ليون وأنجيه وتور ولوهافر، اقتحم أحد أكبر محلات المجوهرات في باريس، في الساعة الثالثة من بعد الظهر، مستولياً على قرابة مليون جوهرة. لم يروِ لي أبداً لماذا وكيف تمّ التعرّف على هويته والقبض عليه. حُكِم عليه بعشرين عاماً من السجن وهرب بعد أن قضى أربع سنوات منها. وحسبما روى لنا، تمّ إلقاء القبض عليه ثانية في طريق عودته إلى باريس: كان يبحث عن تاجر مسروقاته لكي يقتله لأنّ هذا الأخير لم يسلّم لأخته مبلغاً كبيراً من المال كان يدين به له. رآه تاجر المسروقات يجول في الشارع الذي يقيم فيه، فأخبر الشرطة، وتمّ إلقاء القبض على جولو وأعيد إلى سجن الأشغال الشاقة معنا.

ها قد مضى أسبوعٌ على وجودنا في المستشفى. البارحة، أعطيتُ مئتي فرنكاً لشاتال، وكان هذا الثمن الذي ندفعه أسبوعياً للاحتفاظ بنا، نحن الاثنان، في المستشفى. ولكي يتمّ تقديرنا والاهتمام بنا، أعطينا تبغاً لكلّ الذين لا يمتلكونه. عقد أحد المحكومين بالأشغال الشاقّة، والبالغ ستين عاماً من العمر، وهو رجلٌ من مرسيليا يُدعى كارورا، صداقةً مع ديغا. وأصبح مستشاره. كان يردّد على مسامعه لمرّاتٍ عديدة كلّ يوم بأنّه إذا كان يمتلك الكثير من المال وإذا ما عُرِفَ ذلك في القرية (من خلال الصحف القادمة من فرنسا، كنّا نعرف القضايا الكبيرة)، فمن الأفضل له ألّا يفرّ من السجن، لأنّ المُفرَج عنهم سوف يقتلونه للسطو على ماسورته المليئة

بالنقود. وكان ديغا العجوز يقاسمني الأحاديث التي تَتمُّ بينه وبين العجوز كارورا. وقد حاولت عبثاً أن أقنعه بأنّ هذا العجوز لا يصلح بالتأكيد لأيّ شيء وعفا عليه الزمن طالما أنّه موجودٌ هنا منذ عشرين عاماً، ولكنه لم يعر اهتماماً لكلامي. لقد تأثّر ديغا كثيراً بثرثرات العجوز الفارغة، ولذلك عانيتُ من صعوبات كثيرة في دعمه بأفضل ما لديّ وبكلّ قناعتي.

مرّرتُ تذكرة صغيرة إلى سييرا أطلب فيها منه أن يرسل إليّ غالغاني. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً، ففي اليوم التالي، حضر غالغاني إلى المستشفى، ولكن في قاعة لا قضبان لها. ما العمل لكي أعيد إليه ماسورته؟ شرحتُ للممرّض شاتال الضرورة القصوى للتحدّث مع غالغاني، وأوهمته بأنّ الأمر يتعلّق بالتحضير لعملية فرار. أخبرني بأنّه يستطيع أن يجلبه إليّ لمدّة خمس دقائق عند منتصف الظهيرة تماماً. قال لي بأنّه أثناء فترة تغيير الحراسة، سوف يُصعِدُه إلى الشرفة ويجعله يتحدّث معي عبر النافذة، وهذا من دون مقابل. أُحضِرَ غالغاني لي إلى النافذة في منتصف الظهيرة، فوضعت الماسورة مباشرة في يديه. وظلّ واقفاً أمامي وهو يبكي. بعد يومين، تلقيتُ منه مجلّة مع خمس أوراق نقدية من فئة الألف فرنك مرفقة بكلمة وحيدة: شكراً.

رأى شاتال الذي سلّمني المجلّة النقود. لم يحدّثني عنها ولكنني أردتُ أن أقدّم له شيئاً منها، فرفض. قلتُ له:

– نريد أن نهرب. هل تريد أن ترحل معنا؟

– كلا يا بابيون، فأنا لديّ التزاماتٌ مع جهة أخرى. لا أريد أن أحاول الفرار إلّا بعد خمسة أشهر، حينما يُطلَق سراح شريكي. وسوف تكون عملية الفرار حينها محضّرة ومدبّرة على نحو أفضل ومضمونة أكثر. أمّا أنت كمحتجز، فأنا أتفهّم أن تكون مستعجلاً، ولكن من هنا، ومع وجود هذه القضبان الحديدية الغليظة، سوف تكون العملية صعبة للغاية. لا تعتمد عليّ لمساعدتك، فأنا لا أريد أن أخاطر بوضعي. أنا أنتظر هنا بهدوء، إلى حين خروج صديقي.

- ممتاز يا شاتال، على المرء أن يكون صريحاً في الحياة ولن أعود للحديث معك في هذا الأمر.

قال:

- ومع ذلك سوف أنقل رسائلك وأقوم بالمهمّات المطلوبة.

- شكراً يا شاتال.

في تلك الليلة، سمعنا أصوات رشقات من الرصاص من أسلحة رشّاشة. وقد علمنا في اليوم التالي أنّ الرجل ذي المطرقة هو الذي فرّ من السجن. فليكن اللّه بعونه، كان صديقاً طيّباً. لا بدّ أنّه قد وجد فرصةً فاستغلّها. هنيئاً له بذلك.

بعد خمسة عشر عاماً، في عام 1948، كنتُ في هايتي التي ذهبتُ إليها برفقة مليونيرٍ فنزويلي لكي أوقّع عقداً مع رئيس الكازينو لأدير قسم القمار فيه. ذات ليلة بينما كنتُ أخرج من الملهى الذي شربنا فيه الشمبانيا، كانت معنا فتاةٌ من جملة الفتيات اللواتي يصحبننا، سوداء البشرة مثل قطعة فحم ولكنّها مثقّفة مثل فتاةٍ متحدّرة من أسرة فرنسية عريقة من المقاطعات، قالت لي:

- جدّتي الكاهنة التي تعتنق مذهب فودو تعيش مع عجوزٍ فرنسي. إنّه هاربٌ من سجن كايين، ويعيش منذ عشرين عاماً مع جدّتي، وهو في حالة ثَمَلٍ دائم، ويُدعى جول مارتو (المطرقة).

استفقتُ من سكرتي في الحال، وقلتُ لها:

- يا صغيرتي، اصحبيني إلى جدّتكِ في الحال.

تحدّثت بلهجة هايتية مع سائق سيارة الأجرة التي كانت تسير بأقصى سرعة. مررنا أمام حانةٍ ليلية متلألئة، فطلبت من السائق أن يتوقّف. دخلتُ إلى الحانة واشتريتُ زجاجةً من ليكور بيرنو، وزجاجتين من الشمبانيا، وزجاجتين من الروم المحليّ الصنع. ثمّ أمرتُ السائق بالانطلاق. وصلنا إلى شاطئ البحر أمام منزلٍ أنيق، جدرانه مطلية باللون الأبيض ومسقوفٌ

بالقرميد الأحمر، وكانت مياه البحر تكاد تصل إلى سلالم البيت الخارجية. دقّت الفتاة الباب مرّتين، فخرجت أوّلاً امرأة طويلة القامة سوداء البشرة، غزا الشيب رأسها، وترتدي معطفاً طويلاً يبلغ كعبيها. تبادلت المرأتان الكلمات باللّهجة الهايتية، ثم قالت لي السيّدة: «تفضّل أيّها السيّد بالدخول، الدار دارك». أنار مصباحٌ زيتي قاعة في غاية النظافة، مليئة بالعصافير والأسماك.

- تريد أن تقابل جولو؟ انتظر، سيحضر الآن.

نادت: جول! جول! هناك منْ يريد مقابلتك.

جاء رجلٌ مسنٌّ يرتدي منامةً مخطّطة باللون الأزرق، ذكّرتني بالزي الذي كنّا نرتديه في سجن الأشغال الشاقّة.

- حسناً يا كرة الثلج (بول دو نيج)، من ذا الذي جاء يطلب مقابلتي في مثل هذه الساعة؟ بابيون! كلا، هذا مستحيل!

ضمّني بين ذراعيه، وقال:

- قرّبي المصباح يا كرة الثلج لأرى وجه صديقي. نعم، هذا أنت يا رجل! حقّاً هذا أنت! على الرحب والسعة. المسكن والمال القليل الذي أمتلكه وحفيدة زوجتي كلّه لك. ما عليك سوى أن تأمر.

شربنا البيرنو والشمبانيا والـروم، وكان جولو يغني بين الفينة والأخرى. قال:

- رغم كلّ شيء، انتصرنا عليهم، أليس كذلك يا صديقي؟ لقد رأيتَ، لا شيء يضاهي المغامرة. لقد جلتُ في كولومبيا وبنما وكوستاريكا وجمايكا، ومن ثَمّ جئتُ إلى هنا منذ قرابة عشرين عاماً، وأنا سعيدٌ مع بول دو نيج، خيرُ امرأة يمكن لرجلٍ أن يلتقي بها. متى ستغادر؟ هل سيطول بك البقاء هنا؟

- كلّا، أسبوعٌ واحد فقط.

- ماذا جئت تفعل هنا؟

- جئتُ أحاول الحصول على إدارة قسم القمار في الكازينو، بموجب عقدٍ موقّعٍ مباشرةً مع رئيس النادي.

- أتمنى يا صديقي أن تبقى طيلة حياتك بالقرب منّي في بلدة السود هذه، ولكن إذا كنت قد اتّصلت مع الرئيس وتعاقدت معه، فاحذر هذا الرجل، فهو سيقتلك حينما يرى أنّك تحقّق النجاح وعملك يزدهر.

- شكراً لك على هذه النصيحة.

- أمّا أنتِ يا بول دو نيج، فأعدّي احتفالك الديني بطقوس الفودو «ليس للسائحين». ليكن حفلاً خاصّاً لصديقي! في مناسبة أخرى، سوف أحدّثك عن هذا الاحتفال الشهير، احتفال فودو «ليس للسائحين».

إذاً، لقد هرب جولو من السجن، بينما بقينا، أنا وديغا وفرنانديز، ننتظر. كنتُ أنظر بين الفينة والأخرى إلى قضبان النوافذ، دون أن أثير أيّ انتباه. كانت عبارة عن سكك حديدية حقيقية، وليس هناك ما يمكن فعله حيالها. بقي أمامنا الآن الباب. ولكن يحرسه ثلاثة حرّاس ليلاً ونهاراً. منذ فرار جولو، تمّ تشديد المراقبة. أصبحت الدوريات تخرج في فترات متقاربة أكثر، وأصبح الطبيب أقلّ لطفاً. لم يعد يأتي شاتال إلى القاعة سوى مرّتين في اليوم، من أجل الحُقَن ومن أجل أخذ درجات حرارة المرضى. مرّ أسبوعٌ ثان، ودفعتُ من جديد مئتي فرنكٍ. تحدّث ديغا عن كلّ شيء إلا الفرار. رأى البارحة مشرطي، وقال لي:

- هل ما زلت تحتفظ به؟ لماذا؟

أجبته بمزاجٍ معكّر:

- لكي أدافع به عن نفسي وعنك، إذا ما دعت الضرورة.

فرنانديز ليس إسبانياً، إنّه أرجنتيني. وهو كرجل لا يعيبه شيء، وهو مغامرٌ حقيقي، لكنّه تأثّر هو الآخر بثرثرات العجوز كارورا. ذات يوم، سمعته يتحدّث مع ديغا ويقول: «يبدو أنّ الجزر صحيّة جدّاً، والحال فيها

تختلف عمّا هو عليه هنا، والطقس فيها ليس حارّاً. في هذه القاعة، يمكننا أن نصاب بالزحار لأنّه لا يحتاج الأمر سوى الذهاب للمراحيض حتى تنتقل الجراثيم إلينا مباشرةً». كلّ يوم، يموت رجلٌ أو رجلان في هذه القاعدة التي تضمّ سبعين مريضاً بسبب الزحار. والأمر الجدير بالملاحظة هو أنّهم يموتون جميعاً عند انحسار الجزر البحري في فترة ما بعد الظهيرة أو مساءً. لم يمت قط مريضٌ في الصباح. لماذا؟ إنّه سرّ من أسرار الطبيعة.

في تلك الليلة، خضتُ نقاشاً مع ديغا. قلتُ له إنّ حمّال المفاتيح العربي، في بعض الأحيان في الليل، يدخل بتهوّر إلى القاعة ويرفع الأغطية عن وجوه بعض المرضى، وسيكون بمقدورنا أن نضربه على رأسه ونرتدي ثيابه (نحن نرتدي القمصان والصنادل فقط لا غير). ما إنْ أرتدي ثيابه، سوف أخرج وأستولي على نحوٍ مباغت على بندقية أحد الحراس وسوف أدخلهم تحت تهديد السلاح إلى الزنزانة وأغلق عليهم بابها. ثمّ نقفز على جدار المستشفى من جهة ماروني ونُلقي بأنفسنا في الماء، ونترك أنفسنا ننجرف مع التيار. ومن ثَمّ نرى ما الذي سنفعله. وبما أننا نمتلك المال، سوف نشتري قارباً وبعض المواد الغذائية وننطلق في الإبحار. رفض الاثنان هذه الخطّة جملةً وتفصيلاً، بل وانتقداها. فشعرتُ بأنّ عزيمتهما قد فترت، فأصبتُ بخيبة أملٍ شديدة ومضت الأيام هكذا.

يومان وتنقضي ثلاثة أسابيع على وجودنا هنا ولم يبق سوى عشرة أو خمسة عشر يوماً كحدّ أقصى لكي نقوم بمحاولة الفرار. اليوم هو يومٌ للذكرى، يوم 21 نوفمبر / تشرين الثاني من عام 1933، دخل إلى القاعة جوان كلوزيو الرجل الذي جرت محاولة اغتياله في سان مارتن، عند الحلاق. كانت عيناه مغمضتين ومليئتين بالقيح وهو شبه أعمى. وما إنْ همّ شاتال بالخروج، ذهبتُ نحوه، فأخبرني سريعاً أنّ المحتجزين الآخرين قد غادروا إلى الجزر منذ أكثر من خمسة عشر يوماً، أمّا هو فقد نسوه. ومنذ ثلاثة أيام، أخبر أحد المحاسبين عنه. وضع في عينيه بذرة خروع، وكانت عيناه المتقيّحتان كفيلتين بالسماح له بأن يأتي إلى هذا

المكان. كان متحمّساً للغاية للهروب، وأخبرني بأنّه مستعدٌّ لكلّ شيء، حتى للقتل إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك، ولكنّه سوف يغادر. كان يملك ثلاثة آلاف فرنك. غسل عينيه بالماء الدافئ وأتاح له ذلك أن يرى بوضوح تامّ. شرحتُ له مشروع خطّتي من أجل الفرار، وقد أُعجِبَ بها، ولكنّه أخبرني أنّه من أجل مباغتة الحرّاس، يجب أن يخرج لهم رجلان أو ثلاثة رجال إن أمكن. سيكون بوسعنا أن نخلع أرجل الأسرّة، ويمسك كلٌّ منّا برجلٍ وننهال بها ضرباً على رأس الحرّاس. وحسب رأيه، حتى لو كنّا نمسك ببندقية بين أيدينا، لن يصدّقوا بأننا سنطلق النار ويمكنهم أن يطلبوا المؤازرة من رجال الحراسة الآخرين من الجناح الآخر الذي فرّ منه جولو، وهو يبلغ على الأقلّ عشرين متراً.

الدفتر الثالث

الهروب الأوّل

الفرار من المستشفى

في ذلك المساء، لاقيتُ ديغا ومن بعده فرنانديز. قال لي ديغا إنّه لا يثق بنجاعة خطّتي، وأخبرني بأنّه سيدفع مبلغاً طائلاً إذا ما لزم الأمر من أجل إلغاء قرار احتجازه. لذا طلب منّي أن أكتب بهذا الشأن إلى سييرا لأخبره بعرضه، وأن يخبرنا إن كان ذلك ممكناً. حمل إلينا شاتال في اليوم نفسه الرسالة والجواب: «لا تدفع أموالاً لأحد من أجل إلغاء قرار احتجازك، فهذا الإجراء يأتي من فرنسا، وليس بوسع أحدٍ، حتى مدير الإصلاحية نفسه، أن يرفعه عنّا. إذا كنتم يائسين في المستشفى، يمكنكم أن تحاولوا الخروج منها في اليوم التالي لانطلاق المركب الذي يُدعى (مانا) إلى الجزر».

سوف نبقى لمدّة ثمانية أعوام في عنابر الزنزانات الانفرادية قبل الانتقال إلى الجزر، وربّما سيوفّر هذا فرصة للفرار أفضل من القاعة التي نزلنا فيها في المستشفى. أخبرني سييرا في هذه الرسالة نفسها بأنني إذا ما رغبت، سوف يرسل إليّ محكوماً مُفرَج عنه ليتحدّث معي بشأن تجهيز المركب لي خلف المستشفى. كان المحكوم رجلاً من تولون يُدعى جيزوس، وهو نفسه منْ أعدّ عملية فرار الدكتور بوغرات قبل عامين. ولكي أقابله، كان عليّ أن أذهب إلى قسم التصوير الشعاعي في

جناحٍ خاصّ تمّ تجهيزه خصيصاً لهذا الغرض. يقع هذا الجناح في حرم المستشفى، ولكنّ المُفرَج عنهم يصلون إليه بوساطة أمر إحالة مزوّر في ذلك اليوم. أخبرني بأن أزيل الماسورة قبل الذهاب إلى قسم التصوير الشعاعي، لأنّ الطبيب قد يكتشفها إذا ما صوّر المنطقة التي تقع أسفل الرئتين. أرسلتُ رسالة إلى سييرا، وأخبرته أن يرسل جيزوس إلى قسم التصوير الاشعاعي، وأن يرتّب مع شاتال لكي يرسلوني أنا أيضاً إلى ذلك القسم. أخبرني سييرا في المساء نفسه بأنّ الموعد سيكون بعد غد، في الساعة التاسعة.

في اليوم التالي، طلب ديغا الخروج من المستشفى، وكذلك فرنانديز. انطلق المركب (مانا) في الصباح. كانا يأملان في الفرار من معسكر الزنازين، فتمنيّتُ لهما حظّاً سعيداً، ولكنني لم أغيّر خططي.

رأيتُ جيزوس. كان المُفرَج عنه عجوزاً، جافّ العود مثل سمكة سردين، بشرته سمراء داكنة، عليها أثر جرحٍ على شكل ندبتين شنيعتين. كانت إحدى عينيه تدمع باستمرار حينما ينظر إليك. له وجهٌ قبيح ونظرة بشعة. لم يوحِ لي أبداً بالثقة، وسوف يُبرهن المستقبل على صدق حدسي. تحدّثنا سريعاً. قال لي:

- يمكنني أن أعدّ لك مركباً يتّسع لأربعة رجال أو خمسة في أقصى تقدير. وأجهزّ لك جالون ماء وبعض الأغذية، وكمية من التبغ، وثلاثة ألواح تجديف، وأكياس طحين فارغة، وإبرة وخيطان لكي تعدّ الشراع والزاويّ[1] بنفسك، وكذلك بوصلة، وفأس، وسكين، وخمسة ليترات من تافيا (روم غويانا)، وذلك لقاء ألفين وخمسمئة فرنكٍ. سوف يختفي القمر بعد ثلاثة أيام. منذ الآن ولغاية أربعة أيام، إذا وافقتَ، سوف أنتظرك في المركب وسط المياه كلّ ليلة، من الساعة الحادية عشرة وحتى الساعة

1- زاويّ: شِراع مثلّث الزوايا في مقدّم السفينة - المترجم.

الثالثة فجراً لمدة ثمانية أيام. وما إنْ يصبح القمر في طور التربيع الأوّل[1] لن أعود أنتظرك. سيكون المركب موجوداً بالضبط مقابل الزاوية نحو أسفل جدار المستشفى. استرشد بالجدار وسر معه، لأنّه ما لم تصعد إلى القارب، لن تتمكّن من رؤيته، حتى لو كنت على بعد مترين فقط منه.

لم أثق به، ومع ذلك وافقتُ على عرضه.

قال لي جيزوس:

- وماذا عن النقود؟

- سوف أرسلها لك مع سييرا.

وافترقنا من دون مصافحة. لم تكن بداية حسنة.

في الساعة الثالثة، غادر شاتال إلى المعسكر حاملاً النقود إلى سييرا، وكان المبلغ ألفين وخمسمئة فرنكٍ. قلتُ في نفسي: «إنّني أُقامر بهذا المال وهو من فضل غالغاني، لأنّ في هذا مخاطرة. طالما أنّه لم يصرف هذا المبلغ على شرب التافيا!».

سُرّ كلوزيو وشعّ وجهه، فقد كان واثقاً من نفسه، وبي وبالخطّة. يزعجه شيءٌ واحدٌ فقط: كان العربي حمّال المفاتيح يعود إلى القاعة ونادراً في وقتٍ متأخر، ليس كلّ ليلة وإنّما غالباً. ثمّة مشكلة أخرى: منْ الشخص الثالث الذي نختاره لكي نطرح عليه المقترح؟ هناك كورسيكي من مدينة نيس، يُدعى بياجي. معتقلٌ في سجن الأشغال الشاقّة منذ عام 1929، وهو موجودٌ في هذه القاعة الخاضعة للرقابة الشديدة لأنّه كان قد قتل رجلاً، وينتظر الحكم عليه بجريمة القتل هذه. تناقشنا، كلوزيو وأنا، حول ما إذا كان علينا أن نتحدّث معه ومتى. بينما كنّا نتحادث همساً، اقترب منّا فتى في الثامنة عشرة من عمره، جميلٌ بجمال امرأة. يُدعى ماتوريت وهو محكومٌ بالإعدام بتهمة قتل سائق سيارة أجرة، ثمّ تمّ العفو عنه بسبب صغر سنّه البالغ آنذاك سبعة عشر عاماً. كان معه فتى آخر في

1- التربيع الأوّل: هو طور القمر الذي نرى فيه نصف سطح القمر مضاءً، ويأتي بعد الهلال المتزايد - المترجم.

السادسة عشرة من عمره، وأثناء جلسات المحاكمة، بدل أن يتهّم كلّ من هذين الصبيين الآخر بالجريمة، صرّح كلّ منهما بأنّه هو قاتل السائق. والحال أنّ السائق لم يكن قد تلقّى سوى طلقة واحدة. وقد جعلهما هذا السلوك أثناء محاكمتهما محلّ تعاطفٍ ومودّة من لدن كلّ المحكومين بالأشغال الشاقّة.

اقترب منّا ماتوريت ذو الجمال الأنثوي، وطلب منّا بصوته الأنثوي ولّاعة. أعطيناها له، وأهديته فوق ذلك أربع سجائر وعلبة أعواد ثقاب. شكرني مع ابتسامةٍ أخّاذة، ثمّ تركناه يعود أدراجه. وعلى حين غرّة قال لي كلوزيو: «لقد نجونا يا بابي. سوف يعود هذا العربي إلى القاعة قدر ما نشاء وفي الوقت الذي نشاء. لقد أصبح مضموناً».

- كيف ذلك؟

- الأمر في غاية البساطة: سوف نتحدّث مع الفتى ماتوريت بأن يوقعَ العربي في غرامه. أنت تعرف أنّ العرب يحبّون الغلمان. من الآن وإلى حين اقتياده ليلاً لكي يوقع بالصبي، لن يطول الوقت. وعليه هو أن يجد الوسائل ويزعم بأنّه يخشى أن يراه أحد، وذلك لكي يدخل العربي في أوقاتٍ تناسبنا.

- دعني أتصرّف.

توجّهتُ نحو ماتوريت، فاستقبلني بابتسامةٍ جذّابة، معتقداً بأنّه قد استثارني بابتسامته الأخّاذة الأولى. قلتُ له في الحال:

- أنت مخطئ، اذهب إلى المراحيض.

ذهب إلى المراحيض، وهناك بدأتُ بالحديث معه:

- إذا أفشيتَ كلمةً واحدة ممّا سأخبرك به، سوف أقتلك. هل تريد أن تفعل ما أطلبه منك مقابل المال؟ كم تريد لقاء ذلك؟ كم تريد لتسدي لنا خدمة؟ أم أنّك تريد الفرار معنا؟

- أريد أن أهرب معكم، اتّفقنا؟

عاهدنا بعضنا بعضاً على ذلك، وتصافحنا.

ذهب هو لينام. بعد أن تبادلتُ بضع كلمات مع كلوزيو، ذهبتُ أنا بدوري لكي أنام. في الساعة الثامنة مساءً، جلس ماتوريت أمام النافذة. لم يكن العربي بحاجة إلى أن يتّصل به، فقد جاء لوحده وجرى الحديث بينهما بصوتٍ منخفض. وفي الساعة العاشرة، خلد ماتوريت إلى النوم. بدورنا، كنّا قد نمنا، وإحدى عينينا مفتوحة، منذ الساعة التاسعة. دخل العربي إلى القاعة وقام بجولتين فيها، فوجد رجلاً مَيْتاً. دقّ الباب وبعد القليل من الوقت دخل رجلان يحملان نقّالة وقاما بإجلاء جثّة الرجل المَيْت. وسوف يخدمنا هذا المَيّت، لأنّ موته سوف يُعطي مبرّراً للعربي لكي يقوم بدورياته في أيّ وقتٍ يشاء خلال الليل. وبناءً على توصيتنا، ضرب ماتوريت، في اليوم التالي، موعداً معه في الساعة الحادية عشرة مساءً. وصل حمّال المفاتيح في تلك الساعة المحدّدة، ومرّ من أمام سرير الصبي الكورسيكي الصغير، وسحبه من قدميه ليوقظه، ثمّ توجّه نحو المراحيض. لحق به ماتوريت. بعد انقضاء ربع ساعة خرج حمّال المفاتيح الذي ذهب مباشرةً نحو الباب وخرج. وفي اللحظة ذاتها، ذهب ماتوريت إلى النوم دون أن يكلّمنا. باختصار، جرى الأمر نفسه في اليوم التالي، ولكن هذه المرّة عند منتصف الليل. كان الجميع عراة، وجاء العربي في الموعد الذي حدّده الصبي الكورسيكي.

وفي السابع والعشرين من نوفمبر/ تشرين الثاني عام 1933، وبينما كانت رِجْلان من أرجُل السرير جاهزتين لأن تُخلَعا لكي تُستخدما كمضارب، انتظرتُ حتى الساعة الرابعة من بعد الظهر كلمة من سييرا. وصل الممرّض شاتال من دون رسالة. اكتفى بأن قال لي: «أخبرني فرانسوا سييرا أن أخبرك بأنّ جيزوس ينتظرك في المكان المحدّد. حظّاً سعيداً». في الساعة الثامنة مساءً، قال ماتوريت للعربيّ:

– تعال بعد منتصف الليل، لأننا نستطيع في ذلك الوقت أن نبقى لوقتٍ أطول مع بعضنا.

قال العربي بأنّه سوف يأتي في الموعد المحدّد. وفي منتصف الليل

بالضبط، كنّا على أتمّ الاستعداد. دخل العربي إلى القاعة في الساعة الثانية عشرة والربع وتوجّه مباشرة نحو سرير ماتوريت، وشدّ قدميه وأكمل طريقه إلى المراحيض، التي دخل ماتوريت إليها معه. خلعتُ رجل سريري، فأحدثت بعض الضجيج عند سقوطها. بينما لم نسمع شيئاً من جهة كلوزيو. كان عليّ أن آخذ مكاني خلف باب المراحيض وكان على كلوزيو أن يسير نحوه ليجذب انتباهه. بعد أن انتظرنا لعشرين دقيقة، حدث كلّ شيء بسرعة. خرج العربي من المراحيض، وفوجئ برؤية كلوزيو، فقال:

- ماذا تفعل هنا، منتصباً في وسط القاعة في هذه الساعة؟ اذهب إلى النوم.

في اللحظة نفسها، تلقّى ضربة على قفا رأسه، فسقط أرضاً دون أن يثير ضجيجاً. سارعتُ إلى ارتداء ملابسه، وانتعلتُ حذاءه، وسحبناه إلى تحت سرير، وقبل أن نخفيه تماماً، أكملتُ عليه بضربة أخرى على قذاله. لقد نال جزاءه.

لم يتحرّك أيٌّ من الرجال الثمانين النائمين في القاعة. توجّهتُ بسرعة نحو الباب، يتبعني كلوزيو وماتوريت، ويرتدي كلٌّ منهما قميصاً فقط. طرقتُ الباب، ففتح الحارس، فرفعتُ القضيب الحديدي وضربتُ به ضربة واحدة على رأس منْ فتح لي الباب. ترك الحارس الآخر الذي كان يجلس قبالته بندقيته تسقط منه أرضاً، لا بدّ أنّه كان نائماً. وقبل أن يتدارك الأمر بادرته بضربةٍ من القضيب المعدني. الحارسان اللذان تكفّلتُ أنا بأمرهما لم يصرخا، أمّا الحارس الذي تكفّل به كلوزيو، فقد أطلق صرخة «آخ»، قبل أن ينهار على الأرض. ظلّ الحارسان اللذان تكفّلتُ أنا بأمرهما فاقدين لوعيهما على كرسيهما، أمّا الثالث فقط انطرح أرضاً بطوله، وظلّ جامداً بلا حراك مثل قطعة من الخشب. حبسنا أنفاسنا خوفاً، فقد اعتقدنا أنّ العالم بأجمعه قد سمع صوت صرخة «آخ» تلك. فقد كانت بالفعل قويّة، ولكن مع ذلك لم يتحرّك أحد. لم ندخلهم إلى داخل المهجع،

وانطلقنا بعد أن أخذنا البنادق الثلاث معنا. سار كلوزيو في المقدّمة، وأنا في المؤخّرة، بينما توسّطنا الغلام الكورسيكي، ونزلنا السلالم التي ينيرها مصباحٌ بضوءٍ خافت. ألقى كلوزيو قضيبه المعدني، أمّا أنا فقد احتفظتُ به بيدي اليسرى، وأمسكتُ باليمنى البندقية. لم نجد شيئاً في الأسفل. كان الظلام دامساً من حولنا. كان علينا أن نمعن النظر جيّداً لكي نرى الجدار المؤدّي إلى النهر، وتوجّهنا نحوه سريعاً. حينما وصلنا إلى الجدار، جعلتُ من نفسي السلّم القصير، فصعد كلوزيو وامتطى الجدار مفتوح الساقين وسحب ماتوريت ومن ثَمّ سحبني. وألقينا بأنفسنا وسط الظلام على الجانب الآخر من الجدار. سقط كلوزيو في حفرةٍ وأُصيب بألمٍ في قدمه، بينما نزلنا أنا وماتوريت بسلام. نهضنا نحن الاثنان وتخلّينا عن البنادق قبل أن نقفز. وحينما أراد كلوزيو أن ينهض، عجز عن ذلك وقال بأنّ ساقه قد انكسرت. تركتُ ماتوريت برفقة كلوزيو، وجريتُ نحو الزاوية دون أن أدع يدي تفارق الجدار. كان الظلام حالكاً لدرجة أنّه حينما وصلتُ إلى نهاية الجدار لم ألمح شيئاً وسقطت يدي في الفراغ، وتزحلقت. سمعتُ صوتاً يأتي من جهة النهر يقول:

– أهذا أنت؟

– نعم. هل أنت جيزوس؟

– نعم.

أشعل عود ثقابٍ لنصف ثانية، فتبيّنتُ مكانه، وخضتُ المياه، ووصلتُ إليه. كان معه شخصٌ آخر. قال لي:

– اصعد أوّلاً. من تكون؟

– أنا بابيون.

– حسناً.

– جيزوس، يجب الرجوع إلى الوراء بعض الشيء، فقد انكسرت ساق صديقي حين ألقى بنفسه من أعلى الجدار.

– أمسك بهذا المجداف إذاً، واجدف به.

انغمست المجاديف الثلاثة في الماء وقطع الزورق الخفيف سريعاً مسافة المئة مترٍ التي كانت تفصلنا عن المكان الذي لا بدّ أن يتواجد فيه كلوزيو وماتوريت، لأننا لم نكن نرى شيئاً. ناديتُ بصوتٍ منخفض: «كلوزيو!».

قال جيزوس:

- لا تتكلّم، بحقّ اللَّه! وأنت يا لانفليه، أدر دولاب قدّاحتك حتى ينتبها لنا.

تطاير شررٌ من القدّاحة، فرأياها. صفّر كلوزيو من بين أسنانه صفيراً لا يُثير صخباً ولكنّه يُسمَع جيّداً وكأنّه فحيح الأفعى. ظلّ يصفّر بلا انقطاع حتى وصلنا إليهما. نزل لانفليه وأخذ كلوزيو بين يديه ووضعه في القارب. صعد ماتوريت بدوره إلى القارب، ومن ثَمّ تبعهما لانفليه. أصبحنا خمسة رجالٍ في القارب الذي غاص في المياه حتى حافته. قال جيزوس:

- لا تقوموا بأيّ حركة مهما كانت خفيفة من دون إنذار مسبق. كفّ عن التجديف يا بابيون، وضع المجداف بين ركبتيك. هيا يا لانفليه، انطلق!

ولأنّ التيار كان مساعداً، غاص القارب سريعاً في قلب الظلام.

حينما ابتعدنا لمسافة كيلومترٍ واحدٍ عن الإصلاحية المنارة بإضاءةٍ شحيحة لكهرباء مولّدة رديئة، كنّا في وسط النهر ونسير بسرعة فائقة يجرفنا التيار القوي. رفع لانفليه مجدافه، وظلّ جيزوس وحده يمسك بمجدافه ويسنده على فخذه في مؤخّرة القارب لكي يحافظ على توازنه وسط المياه فحسب. لم يكن يدفع القارب وإنّما يوجّهه فقط.

قال جيزوس: «يمكننا الآن أن نتكلّم وندخّن أيضاً. أعتقد أنّ الأمور تُسير على ما يُرام. هل أنت واثقٌ من أنّك لم تقتل أحداً؟».

- لا أعتقد.

قال لانفليه محتدّاً:

- اللعنة! لقد خدعتني يا جيزوس. لقد أخبرتني أنّ العملية عبارة عن رحلة عادية لا مشكلات من ورائها، ولكنّها عملية فرار سجناء محتجزين حسبما أفهم الآن.

- نعم، هؤلاء سجناء محتجزون، يا لانفليه. لم أشأ أن أخبرك بذلك، وإلا لما قدّمت لي يد المساعدة، وأنا بحاجةٍ إلى رجلٍ لهذه المهمّة. لا تقلق، إذا ما تمّ توقيفنا، سوف أتحمّل كامل المسؤولية على عاتقي.

- هذا صحيح يا جيزوس. مقابل المئة فرنك التي دفعتها لي، لا أريد أن أخاطر برأسي إن كان هناك قتيلٌ في العملية، ولا أن أُسجَن إلى الأبد إن كان هنك جريح.

قلتُ:

- سوف أكافئكما يا لانفليه بألف فرنكٍ تتقاسمانها بينكما.

- لا بأس إذاً يا رجل. اتّفقنا. شكراً لك. نحن نموت من الجوع في القرية، وأن يكون المرء هنا محكوماً أفضل له من أن يكون مُفرَجاً عنه. ففي السجن، نحصل على الأقلّ على الطعام كلّ يوم، وكذلك نحصل على الثياب.

قال جيزوس مخاطباً كلوزيو:

- هل نعاني من ألمٍ شديد؟

قال كلوزيو:

- لا بأس. ولكن ما الذي سنفعله بشأن ساقي المكسورة، يا بابيون؟

- سوف نرى. إلى أين نحن ذاهبون، يا جيزوس؟

- سوف أخفيكم في خليج صغير يقع على بعد ثلاثين كيلومتراً من الشاطئ. سوف تمكثون هناك لمدّة ثمانية أيام، ريثما تخمد حماسة عمليات التعقّب التي يجريها رجال الشرطة وصائدو الرجال. يجب أن نعطي الانطباع بأنّكم قد غادرتم ماروني في الليلة نفسها وركبتم البحر. سوف ينطلق صائدو الرجال في قوارب بلا محرّكات، وهم الأكثر خطراً. إذ قد يكون إشعال النار أو التحدّث أو السعال شؤماً عليكم، إن كانوا قريبين منكم. أمّا رجال الشرطة، فيستخدمون قوارب ذات محرّكات ضخمة تُعيق دخولها إلى الخليج لأنّها سوف تلامس القاع إن حاولت الاقتراب من الشاطئ.

تبدّد ظلام الليل، إذ قاربت الساعة الرابعة صباحاً، حينما عثرنا بعد بحثٍ طويلٍ على العلامة التي يعرفها جيزوس وحده، فدخلنا وسط الدَّغَل تماماً. شقّ القارب طريقه خلال الدَّغَل الصغير الذي شكَّلَ بعد مرورنا عَبْرهُ ستاراً كثيفاً يُخفينا ويحمينا. كان على المرء أن يكون عرّافاً لكي يعرف إن كان هناك ما يكفي من المياه لحمل قاربٍ. دخلنا وتوغّلنا في الدَّغَل سيراً بالقارب لأكثر من ساعة ونحن نباعد بين الأغصان التي تعترض مرورنا. على حين غرّة، وجدنا أنفسنا في ما يشبه قناةً، فتوقّفنا. كان الجرف أخضر اللون، مغطّى بالعشب ونظيفاً. لم تستطع أشعّة شمس الساعة السادسة صباحاً أن تخترق الأشجار الباسقة والكثيفة بأوراقها وأغصانها المتداخلة والمتشابكة. تعالت تحت تلك القبّة الجاثمة فوقنا أصواتُ آلاف الحيوانات التي لم نكن نعرفها. قال لنا جيزوس: «هذا هو المكان الذي يجب الانتظار فيه لمدّة ثمانية أيام. سوف آتيكم في اليوم السابع، وأجلب لكم أغذية». ثمّ أخرج من تحت النباتات الكثيفة زورقاً صغيراً طوله حوالي مترين، وفي داخله مجدافان. سوف يعود بهذا الزورق إلى سان لوران، حينما يبدأ المدّ البحري.

والآن فلنهتمّ بوضع كلوزيو الذي كان مستلقياً على الجرف. ولأنّه كان لا يزال يرتدي القميص فقط، كانت ساقاه عاريتين. قطعنا بالفأس بعض الأغصان الجافّة وصنعنا منها ألواحاً رفيعةً. أخذ لانفليه يشدُّ قدمَ كلوزيو المتصبّبِ عرقاً غزيراً، وفي لحظة معيّنة، صرخ كلوزيو: «توقّف! في هذه الوضعية يخفّ ألم ساقي، لا بدّ أن العظم يستقرّ في مكانه السليم عند هذه الوضعية». وضعنا الألواح الخشبية الرفيعة على ساقه المكسورة وربطناها باستخدام حبل القنّب الجديد الذي كان موجوداً في القارب. خفّ عنه الألم وارتاح قليلاً. كان جيزوس قد اشترى أربعة سراويل وأربعة قمصان وأربعة معاطف صوفية مخصّصة أصلاً للسجناء المنفيين. ارتدى ماتوريت وكلوزيو الثياب، أمّا أنا، فقد بقيتُ مرتدياً الثياب التي كنتُ قد نزعتها من العربي. شربنا بعضاً من الروم، وكانت تلك القارورة

الثانية التي نفرغهم منذ انطلاق رحلتنا وكان هذا الشراب يبثّ الدفء في أجسادنا لحسن الحظّ. هاجمَنا البعوضُ لسعاً بلا توقّف، فكان لا بدّ من أن نضحّي بعلبة من التبغ. نقعنا التبغ في قرعةٍ ودهنّا بخلاصة النيكوتين وجهنا وأيدينا وأقدامنا. كانت المعاطف مصنوعةً من الصوف ورائعة ووفّرت لنا الحرارة في تلك الرطوبة التي تغلغلت في أجسادنا.

قال لانفليه: «سوف نغادر. وماذا عن الألف فرنك التي وعدتنا بها؟».
انتحيتُ جانباً وعدتُ سريعاً مع ورقة نقدية من فئة ألف فرنكٍ جديدة تماماً.

قال جيزوس:

– إلى اللقاء! لا تتحرّكوا من هنا لمدّة ثمانية أيام. سوف نأتي في اليوم السابع، وفي اليوم الثامن سوف تركبون البحر. وخلال هذه المدّة، اصنعوا الشراع والزاويّ ورتّبوا الأمور في القارب، وضعوا كلّ شيءٍ في مكانه الصحيح، وثبّتوا مفاصل الدفّة التي لم تُركّب. وفي حال مرّت عشرة أيام من دون أن نعود إليكم، فاعلموا أننا قد أُوقِفْنا في القرية. وبما أنّ المسألة قد تعقّدت بفعل الهجوم على الحارس، لا بدّ أنّها قد أثارت ضجّة كبيرة. ومن جهة أخرى، لقد أخبرنا كلوزيو بأنّه قد ترك البندقية أسفل الجدار. لقد ألقى بها من فوق الجدار والنهر قريبٌ جدّاً منه، وبالتالي لا ندري إن كانت قد سقطت في الماء على نحوٍ مؤكّد.

قال جيزوس إنّ هذا أمرٌ جيّد، لأنّه إنْ لم يعثروا على البندقية، سيعتقد صائدو الرجال بأنّنا مسلّحون. وبما أنّهم الأكثر خطورةً، فليس هناك ما نخشاه، لأنّه طالما كانوا مسلّحين بالمسدّسات وسيوف البحّار، ويعتقدون بأننا مسلّحون ببنادق، لن يخاطروا بمهاجمتنا. إلى اللقاء، إلى اللقاء.

وفي حال انكشاف أمرنا واضطرارنا لترك القارب، سيكون علينا أن نخوض في الساقية إلى أن نصل إلى الدَّغَل الخالي من المياه، ونستخدم البوصلة لكي نستهدي دائماً إلى الشمال. وستكون هناك فرص كبيرة بأن نصل بعد السير ليومين أو ثلاثة أيام إلى معسكر الموت الذي يُدعى معسكر «شارفان». وهناك سيتوجّب علينا أن ندفع أموالاً لأحدهم لكي

يُخبر جيزوس بأننا موجودون في هذا المكان. انصرف الرجلان، وبعد بضع دقائق، توارى زورقهم الصغير عن الأنظار، ولم نعد نسمع شيئاً، ولا نرى شيئاً.

دخلت الشمس إلى الدَّغَل بطريقة فريدة، كما لو أننا كنّا تحت قناطر تتلقّى الشمس من الأعلى ولا تسمح بنفاذ أشعتها إلى الأسفل. بدأ الطقس يصبح حارّاً. حينذاك وجدنا أنفسنا، ماتوريت وكلوزيو وأنا، وحيدين. للوهلة الأولى، ضحكنا: لقد سارت عملية فرارنا بسهولةٍ ويسرٍ، لا يعكّر صفوها سوى ساق كلوزيو التي انكسرت. أمّا هو، فقد قال بأنّها قد أصبحت في حالة جيّدة بعد أن تمّ حزمها بشرائح الأغصان. سوف يمكننا أن نسخّن القهوة في الحال. وقد جرى ذلك بسرعة، وشرب كلٌّ منا كوباً كبيراً من القهوة السوداء، التي قمنا بتحليتها باستخدام السكّر الخام. كانت قهوة لذيذة. كنّا قد صرفنا من الطاقة منذ مساء اليوم السابق بحيث لم تعد لدينا الهمّة المطلوبة لأن نتفقّد الأغراض ونتفحّص القارب. وقرّرنا أن نقوم بذلك لاحقاً، فنحن الآن أحرارٌ، أحرارٌ، أحرار. وصلنا إلى سجن الأشغال الشاقّة منذ سبعة وثلاثين يوماً بالضبط. وإذا نجحت عملية فرارنا، لن يكون حكمي بالسجن المؤبّد طويلاً. قلتُ: «سيّدي الرئيس، كم تطول مدّة الأشغال الشاقّة المؤبّدة في فرنسا؟» وانفجرتُ ضاحكاً. وكذلك ضحك ماتوريت الذي كان هو الآخر محكوماً بالسجن المؤبّد. قال كلوزيو: «دعونا لا نستعجل الابتهاج بالنصر، فما زالت كولومبيا بعيدة جدّاً عنا، ويبدو لي أنّ هذا القارب المصنوع من شجرة محروقة أتفه من أن نمخر به عباب البحر».

لم أردَّ على كلامه لأنني بكلّ صراحة اعتقدتُ حتى اللحظة الأخيرة أنّ هذا القارب كان زورقاً مخصّصاً لأن يوصلنا إلى هنا حيث تكون بانتظارنا سفينة حقيقية نبحر بها. وحينما اكتشفتُ أنني مخطئ، لم أجرؤ على قول أيّ شيء حتى لا أؤثّر على معنويات صديقَيّ ماتوريت وكلوزيو، قبل كلّ شيء. من جهة أخرى، ولأنّ جيزوس بدا وكأنّه يرى ذلك أمراً طبيعياً

تماماً، لم أشأ أن أعطي الانطباع بأنني لا أعرف السفن التي تُستخدَم عادةً في عمليات الفرار.

أمضينا اليوم الأوّل في الحديث وفي التعرّف على هذا الدَّغَل المجهول بالنسبة لنا. كانت قِرَدَةٌ وأنواعٌ من السناجب تتواثب فوق رؤوسنا بمرحٍ وصخبٍ مريع. ثم جاء قطيعٌ من الخنازير البرية الصغيرة لكي تشرب وتغتسل، وكان عددها يبلغ ألفي خنزيرٍ على الأقلّ. دخلت إلى الخليج الصغير وسبحت فيه، واقتلعت الجذور المتدلّية. خرج تمساحٌ على حين غرّة والتقط قائم أحد الخنازير الذي بدأ يصرخ متخبّطاً، وحينها هاجمت الخنازير التمساح وانقضّت عليه، تحاول عضّه من شقّ خطمه الكبير. ومع كلّ ضربةٍ من ذيله، كان التمساح يرمي خنزيراً إلى اليمين أو إلى اليسار. أُصيب أحد الخنازير وسقط في المياه على ظهره وطفى بطنه على سطح المياه في الهواء. وفي الحال التهمته الخنازير الأخرى، وامتلأ الخليج الصغير بالدماء. استمرّ المشهد لعشرين دقيقة، ثمّ فرّ التمساح غائصاً في الماء، ولم نعد نراه.

نمنا في تلك الليلة نوماً هانئاً، وفي الصباح أعددنا القهوة وشربناها. كنتُ قد نزعتُ معطفي الصوفيّ لكي أغتسل في الماء بقطعة كبيرة من الصابون المصنوع في مدينة مرسيليا، عثرتُ عليها في القارب. واستخدم ماتوريت مشرطي في حلاقة ذقني وكذلك ذقن كلوزيو كيفما كان، أمّا هو، فلم تكن قد نبتت لحيته بعد. وحينما تناولتُ معطفي الصوفي لأرتديه من جديد، سقط منه عنكبوتٌ ضخمٌ كان قد علق به. له وبرٌ ولونه أسودُ يميل إلى البنفسجي. والوبر طويلٌ جدّاً وينتهي في أطرافه بما يشبه كراتٍ بلون البلاتين، ووزنه لا يقلّ عن خمسمئة غرام، فقد كان ضخماً جدّاً، وسحقتُه بتقزّزٍ. أخرجنا كلّ الأغراض الموجودة في القارب بما فيه جالون الماء الصغير. كان لون الماء يميل إلى البنفسجي بشدّة، فاعتقدتُ أنّ جيزوس قد أفرط في إضافة البرمنغنات إليه لكي لا يفسد. وعثرنا في علبٍ محكمة

الإغلاق على أعواد ثقابٍ ومحفّات اشتعال[1]، وكانت البوصلة عبارة عن بوصلة مدرسية بسيطة لا تعطي سوى الاتجاهات الرئيسة، أي الشمال والجنوب والشرق والغرب، ولم تكن فيها درجات ومقاييس تفصيلية. أمّا الصاري، فكان طوله يبلغ مترين ونصف، فخِطنا بحبلٍ أكياس الطحين الفارغة من أطرافها بشكلٍ شبه منحرف لكي نقوم بدعم الشراع. ثمّ صنعتُ زاوياً صغيراً على شكل مثلّث متساوي الأضلاع، سوف يساعد على رفع مقدّمة المركب. وحينما وضِع الصاري، لاحظتُ أنّ قعر السفينة ليس متيناً، والثقب الذي يُدخَل منه الصاري كان متآكلاً ومهترئاً على نحوٍ خطير. وحينما أدخلتُ البراغي لتثبيت مفاصل الأبواب التي ستُستَخدَم في تدعيم الدفّة، دخلت البراغي كما لو أنّها تنغرس في الزبدة. قلتُ في نفسي أنّ هذا القارب تالفٌ، والوغد جيزوس يرسلنا إلى الموت. أريتُ كلّ هذا بامتعاضٍ لشريكيّ كلوزيو وماتوريت، إذ لم يكن لي الحقّ في أن أخفي الأمر عنهما. ماذا سنفعل؟ حينما يعود جيزوس، سوف نرغمه على أن يؤمّن لنا قارباً أكثر أماناً. ولتحقيق هذا الأمر، سوف أنزع منه سلاحه، وسوف أرافقه، مسلّحاً بالسكين والفأس، نبحث في القرية عن قاربٍ آخر. هذه مخاطرة كبيرة أقدم عليها وفيها الكثير من التهوّر، ولكنّها تبقى مخاطرة أقلّ شدّة من أن نبحر في تابوتٍ. أمّا الأغذية التي بحوزتنا، فلا بأس بها، إذ كان في القارب قارورة زيت وعلب مليئة بطحين المنيهوت[2]، وهي ستكفينا لوقتٍ طويل.

هذا الصباح، رأينا مشهداً غريباً، إذ شاهدنا مجموعة من القردة رمادية الوجه تتشاجر مع مجموعة أخرى سوداء الوجه ومشعرة. تلقّى ماتوريت وسط هذا الشجار قطعة من غصن على رأسه، أحدثت حدبةً بحجم حبّة جوز.

ها قد مرّت خمسة أيام وأربع ليالٍ على وجودنا هنا. في هذه الليلة،

1- محفّ اشتعال: هو سطح مغطّى بخليطٍ من مركبات الفوسفور والرمل، يُحكّ به رأس عود الثقاب لإشعاله - المترجم.

2- المَنيهوت: جنس جُنيبات يُستخرَج من جذورها دقيق نشوي - المترجم.

هطلت الأمطار مدراراً وعاصفاً. احتمينا بأوراق شجر الموز البرية. كان الماء يسيل على الأوراق الصقيلة للأشجار، التي حمتنا من البلل عدا أقدامنا. في هذا الصباح، وبينما كنّا نشرب القهوة، فكّرتُ في جيزوس ومدى إجرامه، لأنّه استغلّ افتقارنا للخبرة فسلّمنا هذا القارب المهترئ! لتوفير مبلغ خمسمئة أو ألف فرنك، يرسل ثلاثة رجال إلى الموت المحتّم. تساءلتُ في نفسي إن كنتُ لن أقتله بعد أن أرغمه على أن يقدّم لي مركباً آخر. بلبلت أصوات طيور أبو زريق كلّ عالمنا الصغير، أصواتٌ حادّة ومزعجة للغاية إلى درجة أنني طلبتُ من ماتوريت أن يتناول السيف ويذهب ليرى ما الأمر. عاد بعد خمس دقائق وأشار عليّ أن أتبعه. وصلنا إلى مكانٍ يبعد حوالي مئة وخمسين متراً من القارب، ورأيتُ طائر تُدْرُج أو طائر ماء مدهشاً، معلّقاً في الهواء، ضخماً بما يعادل ضعفي حجم ديكٍ ضخم، وقد علق في فخٍّ وتعلّق برجله بغصنٍ من الشجرة. وبضربة من السيف، قصعتُ رأسه لكي أوقف صيحاته المزعجة. قدّرتُ وزنه بخمسة كيلوغرامات على الأقلّ. كانت مخالبه تشبه مخالب الديكة. قرّرنا أن نتناول لحمه، ولكن حينما فكّرنا في الأمر، قلنا لأنفسنا أنّ هذا الفخّ قد نَصَبَهُ أحدُهم بالتأكيد، ولا بدّ أن يكون هناك فخاخٌ أخرى في المنطقة. فقرّرنا أن ننطلق في البحث عنها. جلنا في الأنحاء ووجدنا شيئاً غريباً ومثيراً للفضول: إنّه حاجز حقيقي يبلغ ارتفاعه ثلاثين سنتيمتراً، مصنوعٌ من أوراق الشجر ونباتات متشابكة، يبعد عن الخليج بالكاد عشرة أمتار. يمتدّ هذا الحاجز على طول المجرى المائي، تتخلّله من حينٍ إلى آخر بوابة، وفي كلّ بوّابة فخٌّ مصنوعٌ من سلكٍ نحاسي مربوطٌ من طرفه بشجيرة متشعّبة الأغصان، مخفيٌّ بأغصانٍ وأعوادٍ خشبية. أدركتُ في الحال أنّ الحيوان لا بدّ وأنّه يصطدم بالحاجز ويسير بجانبه لكي يعثر على منفذٍ يمرّ منه، وحينما يجد البوابة، يحاول المرور منها، ولكنّ رجله تعلق بالسلك النحاسي ويطلق الغصن، فيجد الحيوان نفسه معلّقاً في الهواء، إلى أن يحضر صاحب الأشراك ويُمسك به.

أقلقنا هذا الاكتشاف وشغل بالنا، إذ كان الحاجز في حالة حسنة، وهذا يعني أنّه ليس قديماً، وبالتالي نحن معرّضون لخطر أن ينكشف أمرنا. علينا ألّا نوقد النار في النهار، أمّا في الليل، فلن يأتي الصياد إلى هذا المكان بكلّ تأكيد. قرّرنا أن نقوم بنوبات حراسة لمراقبة المكان الذي تتواجد فيه الأشراك. وقمنا بإخفاء القارب بما فيه من مواد تحت الأغصان والأعشاب بشكلٍ كاملٍ وسط الدَّغَل.

كانت نوبة حراستي تبدأ في اليوم التالي بدءاً من الساعة العاشرة صباحاً. تناولنا في تلك الليلة لحم طائر التُدْرُج أو الديك، إذ لم نعد نفرّق بينهما. أفرطنا في تناول المرق، واللحم المسلوق اللذيذ. أكلَ كلٌّ منّا صحنين منه. إذاً، كنتُ في نوبة حراسة، ولكنّني انشغلتُ بجماعة من نمل المنيهوت الضخم جدّاً والأسود، وتحمل كلّ نملةٍ منها قطعةً كبيرة من ورق الأشجار وتأخذها إلى جحرٍ كبير، فسَهَوْتُ عن حراستي. كان طول النملة الواحدة يبلغ قرابة سنتيمتراً ونصف، وتقف عاليةً على قوائم طويلة. كانت كلّ واحدة منها تحمل قطعاً كبيرة من أوراق الشجر. لحقتُ بها حتى وصلت إلى النبات الذي تقشّره، ووجدتُ تنظيماً رفيعاً. كانت هناك قبل كلّ شيء القاطعات، اللواتي لا يفعلن شيئاً سوى إعداد القطع، كانت تسارع إلى قصّ ورقة ضخمة من أوراق شجرة الموز، وتقطّعها في قطعٍ متساوية الحجم بمهارة مذهلة وتُسقط القطع على الأرض. وفي الأسفل، هناك رتلٌ من النمل من الفصيلة نفسها، ولكنّها مختلفة الشكل بعض الشيء، إذ هناك على طرف فكّها خطٌّ رمادي، وهي تصطفّ على شكل نصف دائرة وتراقب القاطعات. تصل حاملات الأوراق من اليمين في رتلٍ وتذهب نحو اليسار إلى الجحر. تهرع سريعاً نحو حمل الأوراق وتسير في رتلٍ، ولكن بين الفينة والأخرى، وفي خضمّ استعجالها في حمل الأوراق والسير في رتلٍ، يحدث نوعٌ من الازدحام. تتدخّل عندئذٍ شرطة النمل وتدفعُ كلّاً من العاملات إلى المكان الذي ينبغي أن تكون فيه. لم أفهم أيّ خطأ جسيم ارتكبته إحدى العاملات، حتى تمّ إخراجها

من الصفوف وانقضّت عليها نملتان من الدرك، فصلت الأولى رأسها عن جسدها، في حين قطعت الثانية جسدها إلى قطعتين من عند خصرها. ثمّ أوقِفَت عاملتان من جانب شرطة النمل، فوضعتا حملهما من قطع الأوراق، وحفرتا حفرة بأرجلهما ودفنتا فيها الأجزاء الثلاثة من النملة، أي الرأس والصدر، وما تبقّى من الجسد وأهالتا عليها التراب.

جزيرة الحمام

كنتُ مستغرقاً بعمقٍ في تأمّل هذا العالم الصغير، وفي متابعة جنود النمل لأرى إن كانت مراقبتهم ستستمرّ حتى الوصول إلى الجحر، بحيثُ تفاجأتُ تماماً حينما سمعتُ أحدهم يقول لي:

– لا تتحرّك وإلّا قتلتك! التفتْ نحوي.

كان رجلاً عاري الصدر، يرتدي سروالاً قصيراً كاكي اللون وينتعل زوجاً من الأحذية الجلدية حمراء اللون. وكان يمسك بين يديه ببندقية ذات سبطانتين. رجل متوسّط القامة وبدين، وقد سمّرت الشمس بشرته. كان أصلعَ، يغطّي عينَيه وأنفَه قناعٌ داكنُ الزرقة من الوشم، وفي منتصف جبينه وشمٌ لصورة خنفساء. سألني:

– هل أنت مسلّح؟

– كلا.

– هل أنت لوحدك؟

– كلا.

– كم عددكم؟

– ثلاثة.

– خذني إلى صديقيك.

– لا يمكنني فعل ذلك لأنّ أحدهما مسلّح ببندقية، ولا أريد أن تُقتَل قبل أن نعرف نواياك.

- آه! لا تتحرّك إذاً، وتحدّث بهدوء. هل أنتم الرجال الثلاثة الذين هربتم من المستشفى؟

- نعم.

- من هو بابيون؟

- أنا هو.

- حسناً، يمكنك القول بأنّك قد أحدثت ثورةً في القرية بفرارك! لقد أوقفت مديرية الدرك نصف المُفرَج عنهم.

اقتربَ منّي، وأنزل فوهة بندقيته نحو الأرض، ومدّ لي يده، وقال لي:

- أنا البريتاني المقنّع، هل سمعت عنّي؟

- لا، ولكنني أرى أنّك لست من صائدي الرجال.

- أنت محقّ، أنا أنصب الأشراك هنا لكي أصطاد الديوك الهندية. لا بدّ أنّ النمر قد التهم أحدها، إن لم تكونوا أنتم من استولَيتُم عليه.

- نحن من أخذناه.

- هل تريد قهوة؟

كان في كيسٍ يحمله على ظهره ترمسٌ. قدّم لي قليلاً من القهوة، وهو شرب منها بدوره. قلتُ له: «تعال لتقابل صديقيّ». جاء وجلس معنا. حينما علم أنني اختلقتُ حكاية حيازتنا على بندقية لتخويفه، ضحك بكلّ هدوء، وقال لي: «لقد صدّقتُك، خاصّة وأنّه لم يشأ أيّ قنّاصٍ أن يتعقّبكم ويبحث عنكم، لأنّ الجميع يعلمون أنّكم غادرتم وأخذتم معكم بندقيّة».

ثمّ شرح لنا بأنّه موجودٌ في غويانا منذ عشرين عاماً، ومُفرَج عنه منذ خمسة أعوام. كان في الخامسة والأربعين من عمره، وبسبب الحماقة التي ارتكبها بوشم هذا القناع على وجهه، لم تعد الحياة في فرنسا تثير اهتمامه. وقال بأنّه مغرم بالدَّغَل ويعيش حصرياً من خيراته، وذلك من خلال جلود الثعابين والنمور وتشكيلة من الفراشات، ولكن بالأخصّ من اصطياد الديكة الهندية، الطائر الذي تناولنا لحمه. وقال بأنّه يبيع الديك الواحد منها لقاء مبلغٍ يتراوح بين مئتين ومئتين وخمسين فرنكاً. عرضتُ عليه أن

أدفع له ثمن الديك الذي استولينا عليه، ولكن رفض، وعبّر عن استيائه من عرضي. وهذا م رواه لنا: «هذا الطائر البريّ هو عبارة عن ديك الأدغال. وبالطبع، لم ير أبداً لا دجاجة ولا ديكاً ولا بشراً. وبالتالي، أمسك بأحدها وأحمله إلى القرية وأبيعه لأحد أصحاب المداجن لأنّه مرغوبٌ للغاية. ومن دون أن تقصّ له جناحيه، ومن دون أن تفعل أيّ شيء، تضعه في المساء عند هبوط الليل في المدجنة، وفي الصباح، حينما تفتح باب المدجنة، تجده منتصباً أمام الباب ويبدو كما لو أنّه يحصي الدجاجات والديوك الخارجة من المدجنة، فيلحق بها ويأكل مثلها، وهو ينظر بملء عينيه في كلّ صوب، إلى الأسفل، وإلى الأعلى، والأجمات المحيطة. إنّه يلعب دور كلب حراسة لا مثيل له. وفي المساء، يقف بالباب، ولا نفهم كيف يعلم أنّ هناك نقصاً في العدد بدجاجةٍ أو دجاجتين، ولكنّه يعلم ذلك، ويذهب في البحث عنها ويجلبها. وسواء كان المتخلّف ديكاً أو دجاجةً، كان يعيدهما بضربات قوية من منقاره لكي يعلّمها التقيّد بالتوقيت. إنّه يقتل الجرذان والثعابين وفئران السمّ والعناكب وكثيرات الأرجل، وما إنْ يظهرَ طيرٌ جارحٌ في السماء حتى يلوذ الجميع بالفرار والاختباء بين الأعشاب، إلّا هو فيواجهه. ثمّ يألف العيش في المدجنة ولا يعود يُبارحها».

هذا الطائر العجيب والاستثنائي، كنّا قد أكلناه مثل ديكٍ عاديّ.

أخبرنا البريتني المقنّع أنّ جيزوس ولانفليه وما يُقارب ثلاثين من المُفرَج عنهم مرجودون في سجن مديرية الدرك في سان لوران لكي يشاهدوا المُفرَج عنهم ويروا إن كانوا يعرفون من بينهم أحداً كان يجول حول المبنى الذي هربنا منه. وأنّ العربي قد أودِع في زنزانة منفردة في الطابق السفلي، وفُرِضت عليه العزلة لأنّه متّهمٌ بالتواطؤ. فالضربتان اللتان وجّهتا إليه لم تسبّبا له بأيّ جرح، في حين أُصيب الشرطيان بجرحين خفيفين في الرأس. كما قال: «أمّا أنا، فلم أقلق لأنّ الجميع يعرفون أنّني لا أهتمّ أبداً بالإعداد لعملية فرارٍ من السجن». ثمّ أخبرنا أنّ جيزوس رجلٌ

نذلٌ حقير. وحينما حدّثته عن حال القارب، أحبّ أن يراه بنفسه، وما إنْ رآه حتى صرخ: ولكنّ هذا الرجل يرسلكم إلى الهلاك! لن يكون بوسع هذا الزورق أبداً أن يعوم في البحر لأكثر من ساعة. وعند أوّل موجة على شيءٍ من القوّة تواجهه، سينشطر إلى نصفين. لا ترحلوا بهذا القارب أبداً، فهذا سيكون انتحاراً.

قلتُ له:

– فما العمل إذاً؟

– هل تملك مالاً؟

– نعم.

– سأخبركَ بما عليك أن تفعله، وعلاوة على ذلك، سوف أساعدك، فأنت تستحقّ المساعدة. سوف أساعدك دون مقابل على أن تظفر أنت وصديقاك بالخلاص. لا ينبغي لكم الاقتراب من القرية مهما كلّف الأمر. وللحصول على قاربٍ جيّدٍ ومناسب، ينبغي عليكم الذهاب إلى جزيرة الحمام. ففي هذه الجزيرة، ثمّة قرابة مئتي مصاب بالجذام، ولا يوجد فيها مراقبٌ ولا يزورها شخصٌ سليمٌ ولا حتى طبيب. وفي الساعة الثامنة من صباح كلّ يوم، يحمل قاربٌ موادَّ غذائية لما يكفي لأربع وعشرين ساعة كمؤونة. يُسلّم ممرّض المستشفى صندوقاً للأدوية إلى ممرّضين مصابين أيضاً بالجذام، يقومان بمعالجة المرضى. لا أحد، ولا حارس، ولا صائد رجال، ولا خوري ينزل في الجزيرة. يعيش المصابون بالجذام في أكواخٍ صغيرة جدّاً بنوها بأنفسهم. ولديهم صالة مشتركة يجتمعون فيها. ويقومون بتربية الدجاج والبطّ الأمر الذي يفيدهم في تحسين حياتهم الاعتيادية. لا يمكنهم رسمياً أن يبيعوا أيّ شيء إلى خارج الجزيرة، ويعملون بالتهريب سرّاً مع سان لوران، وسان جان، وصينيّي غويانا الهولندية. وجميعهم من القتلة الخطرين، وقلّما يقتل بعضهم بعضاً، ولكنّهم يرتكبون جرائم عديدة بعد خروجهم سرّاً من الجزيرة التي يعودون إليها ويخبّئون فيها جرائمهم الناجزة. وللقيام بهذه الرحلات، يمتلكون بعض الزوارق

المسروقة من القرية المجاورة. وأكبر الجنايات هي امتلاك زورقٍ، ويُطلق رجال الشرطة النار على كلّ قاربٍ يدخل أو يخرج من جزيرة الحمام. كما أنّ المصابين يُغرقون قواربهم بتحميلها بالحجارة: وحينما يحتاجون إلى قاربٍ، يغوصون في الماء لإخراج الحجارة منه فيطفو القارب على سطح الماء. يوجد كلّ شيء في الجزيرة، وفيها أناسٌ من كلّ الأعراق ومن كلّ مناطق فرنسا. خلاصة الكلام: يستطيع قاربك أن يخدمك في ماروني، وهذا أيضاً بحملٍ خفيف! أما من أجل الإبحار، فعليك أن تجد قارباً آخر، ومن الأفضل أن يكون من جزيرة الحمام.

– ما العمل إذاً؟

– الحلّ موجود. أنا سأرافقك في النهر إلى أن تبدو الجزيرة لنا للعيان. فأنت لوحدك لن تعثر عليها، أو ربّما ستخطئ الطريق إليها. فهي تبعد قرابة مئة وخمسين كيلومتراً من مصبّ النهر، وبالتالي علينا أن نعود إلى الوراء. هذه الجزيرة أبعد من سان لوران بمسافة خمسين كيلومتراً، وسوف أوصلك إلى أقرب نقطة ممكنة، وبعد ذلك، سوف أعود بزورقي، وأنت ستتصرّف في الجزيرة.

– لمَ لا تأتي معنا إلى الجزيرة؟

– يا عزيزي، لقد وضعتُ ليوم واحدٍ قدمي على الرصيف الذي وصلتْ إليه رسميّاً سفينة الإدارة. كان ذلك في وضح النهار ومع ذلك لقيتُ ما يكفيني من العناء. اعذرني يا بابي، ولكن لن تطأ قدمي هذه الجزيرة ما حييت. من جهة أخرى، لن أكون قادراً على إخفاء ما أشعر به حيالهم. وسيضرّكم وجودي أكثر مما ينفعكم.

– متى نرحل؟

– عند هبوط الليل.

– كم الساعة الآن، أيّها البريتاني؟

– إنّها الثالثة.

– حسناً، سوف أنام قليلاً.

- لا، عليك أن تحمّل كلّ شيء وترتّبه في زورقك.

- كلا، سأرحل بالزورق الفارغ وسوف أعود لأحضر كلوزيو الذي سيبقى هنا لحراسة الأمتعة.

- مستحيل، لن تتمكّن من معرفة طريق العودة إلى المكان حتى في وضح النهار. وفي النهار، لا ينبغي لك أن تكون في النهر في أيّ حالٍ من الأحوال. لم تتوقّف ملاحقتكم، ولا يزال النهر يشكّل خطراً كبيراً عليكم.

حلّ المساء، فذهب وأحضر زورقه الذي علّقناه وراء قاربنا. كان كلوزيو بالقرب من البريتاني الذي أمسك بمجداف الدفّة، ووقف ماتوريت في الوسط، بينما أخذتُ مكاني في المقدّمة. غادرنا الخليج الصغير بصعوبة، وحينما أصبحنا في النهر، كان الليل على وشك أن يهبط والقرص الكبير للشمس يُلهبُ بلونه الأحمر الأفقَ من جهة البحر. كانت أشعّةٌ كثيرةٌ تنبعثُ من اللَّهب الضخم للشمس، وتتصارع مثل ألعابٍ نارية لتكون أكثر كثافةً وأكثر احمراراً من بين تدرّجات اللون الأحمر، وأكثر اصفراراً من بين تدرّجات اللون الأصفر، وأكثر تنوّعاً في تمازج الألوان. كنّا نرى بوضوح، لمسافة عشرين كيلومتراً أمامنا، مصبّ هذا النهر المهيب الذي يجري سريعاً بمياهه المتلألئة والبرّاقة باللون الوردي الممتزج بتلويناتٍ فضيّة لكي يصبّ في البحر.

قال البريتاني: «هذه نهاية جَزْر البحر، وبعد ساعة من الآن سوف نشعر بالمدّ الصاعد، وسوف نستفيد منه لكي ننطلق إلى ماروني، وبذلك سوف نذهب بسرعة كبيرة ومن دون بذل أيّ جهد، مدفوعين بالمدّ البحري الصاعد إلى الجزيرة». ثمّ حلّ الظلام فجأةً.

قال البريتاني:

- إلى الأمام. جدّفوا بقوّة لنسلك منتصف النهر. لا تدخّنوا.

غاصت المجاديف في الماء واندفعنا عبر التيار بسرعة، وسط صوت صفق المجاديف بالماء. جدّفنا، أنا والبريتاني، بوتيرة منتظمة وبتزامنٍ متناسق، وفعل ماتوريت ما بوسعه. كلّما تقدّمنا نحو وسط النهر أكثر،

كلّما شعرنا أكثر بالمدّ المتصاعد الذي يدفعنا إلى الأمام. انزلقنا على صفحة الماء سريعاً، وشعرنا بالتغيير كلّ نصف ساعة، فيزداد المدّ قوّةً ويزيد من سرعة جرفنا معه. بعد مضي ستّ ساعات، اقتربنا من الجزيرة كثيراً، فتوجّهنا مباشرةً إليها. كانت عبارة عن بقعة ضخمة، تقع في وَسَطِ النهر تقريباً، وتميل قليلاً إلى الجانب الأيمن منه. قال البريتاني بصوتٍ منخفض: «ها هي». لم يكن الظلام دامساً، ولكن لا بدّ أنّه كان من الصعب أن نرى لأبعد من ذلك بسبب الضباب الصاعد من سطح النهر. اقتربنا أكثر. وحينما بدأنا نميّز على نحوٍ أفضل تقاطيع الصخور، صعد البريتاني إلى زورقه، وفكّ حبله سريعاً عن قاربنا، وبكلّ بساطة قال بصوتٍ منخفض: «أتمنى لكم حظّاً سعيداً!».

- شكراً لك.

- لا شكر على واجب.

ولمّا لم يعد القارب موجّهاً من البريتاني، اندفع بخطٍّ مستقيم نحو الجزيرة بطريقة عرضية. حاولتُ أن أصوّب وجهته وأديره بعكس الاتجاه، ولكنني لم أفلح في ذلك، بسبب قوّة دفع التيار، فوصلنا ودخل ثلاثة أرباع القارب إلى الغطاء النباتي المتدلّي في الماء. وعلى الرغم من أنني حاولت إيقاف القارب باستخدام المجداف، إلا أننا وصلنا بقوّة كبيرة إلى درجة لو أننا صادفنا صخرةً، بدل أغصان وأوراق الشجر لتحطّم قاربنا، وبالتالي لخسرنا كلّ شيء من مؤن ومواد وسواها. قفز ماتوريت إلى الماء وسحب الزورق، ووجدنا أنفسنا ننزلق تحت كومة ضخمة من النباتات. ظلّ يسحب القارب ومن ثَمّ ربطناه. شربنا كوباً من الروم، وصعدتُ بمفردي إلى الضفّة، تاركاً صديقيّ في القارب.

أمسكتُ بوصلتي في يدي، وسرتُ بعد أن قطعتُ العديد من الأغصان وربطتُ أماكن مختلفة بقطعٍ من كيس الطحين التي كنتُ قد جهّزتها قبل الانطلاق. رأيتُ بصيصاً من الضوء وسمعتُ فجأةً أصواتاً ولمحتُ ثلاثة أكواخ. تقدّمتُ نحوها، ولأنني لم أكن أعرف كيف سأقدّم نفسي، قرّرتُ

أن أكشف نفسي لهم، فأشعلتُ سيجارةً. وفي اللحظة التي ومضت فيها النار، أسرع كلبٌ صغير نحوي وهو ينبحُ، وقفز محاولاً عضّ ساقي. قلتُ في نفسي: «أتمنى ألّا يكون الكلب مجذوماً». ثمّ استدركتُ: «أيّها الأحمق، الكلاب لا تُصاب بالجُذام».

- منْ هناك؟ من أنت؟ أهذا أنت يا مارسيل؟

- أنا سجينٌ هارب.

- ماذا جئت تفعل هنا؟ جئت تسرقنا؟ أتظننا أثرياء؟

- لا، أنا بحاجة إلى المساعدة.

- مساعدة مجانية أم مدفوعة الأجر؟

- اخرس يا لاشويت!

خرج أربعة أشباح من الأكواخ.

- تقدّم بهدوء، يا صديق، أراهن أنّك الرجل المسلّح ببندقية. إذا كنتَ تحملها معك، ضعها أرضاً، لا شيء تخشاه هنا.

- نعم، أنا هو، ولكنّ البندقية ليست معي.

تقدّمتُ وأصبحتُ قريباً منهم، ولكنّ الظلام كان دامساً ولم أستطع أن أميّز ملامحهم. مددتُ يدي ببلاهة ولكن لم يمْسَسْها أحدٌ منهم. أدركتُ بعد فوات الأوان أن هذه الحركة غير واردة هنا، لأنّهم لم يريدوا أن يُصيبوني بالعدوى.

قال لاشويت:

- لندخل إلى الكوخ.

كان الكوخ مضاءً بمصباحٍ زيتي موضوعٍ على الطاولة.

- اجلس.

جلستُ على كرسيٍّ بلا مسند، مصنوعٍ من القشّ. أشعل لاشويت ثلاثة مصابيح زيتية أخرى ووضع أحدها على طاولةٍ أمامي مباشرةً. كان للدخان المنبعث من فتيلة المصباح الذي يعمل على زيت جوز الهند

رائحةٌ مثيرة للتقزّز. كنتُ أنا جالساً، وهم الخمسة ظلّوا واقفين، ولم أتبيّن وجوهم. أمّا وجهي، فقد أناره الضوء لأنني كنتُ جالساً على مستوى المصباح تماماً، وهو ما أرادوه. قال صاحب الصوت نفسه الذي أمر لاشويت بالسكوت:

– اذهب يا لانغيل، واسأل سكنة البيت المشترك إن كانوا يريدون أن نأخذه إلى هناك. عد إلينا بالجواب سريعاً، وبخاصة إذا كان توسان موافقاً.

ثمّ التفت إليّ وقال:

– لا يمكننا أن نقدّم لك هنا ما تشربه، يا صاحبي، إلّا إذا أردت أن تبتلع بيضاً نيئاً.

ووضع أمامي سلّة مجدولة من أغصان الشجر مليئة بالبيض.

– لا، شكراً.

إلى يميني، جلس أحدهم قريباً جدّاً منّي، وحينئذٍ رأيتُ أوّل وجهٍ مجذوم. كان المشهد فظيعاً وبذلتُ جهداً جبّاراً لكي لا أشيح بوجهي عنه ولا أدع تعابير وجهي تتغيّر. كان الأنف قد تآكل تماماً، عظماً ولحماً، ولم يعد هناك سوى فتحةٍ في منتصف وجهه تماماً. وأنا أعني ما أقول: لم تكن هناك فتحتان، وإنّما فتحة واحدة فقط، واسعة بحجم قطعة نقدية من فئة فرنكين. شفته السفلى متآكلة في الطرف الأيمن منها فتكشف عن ثلاث أسنانٍ مخلوعة وطويلة جدّاً، صفراء، نراها تدخل في عظم الفكّ العلوي الخالي من الأسنان. ليس له سوى أذن واحدة. وضع يده اليمنى الملفوفة بضمادٍ على الطاولة، وأمسك بالإصبعين المتبقّيتين له في اليد اليسرى سيجاراً ثخيناً وطويلاً، كان قد لفّه بنفسه بالتأكيد من ورق تبغ غير ناضج لأنّ لون السيجار كان مائلاً للاخضرار. لم تكن لديه جفونٌ سوى على العين اليسرى، أمّا العين اليمنى فكانت جرداء من الجفون، وكان جرحٌ عميق يبدأ من طرف العين نحو أعلى الجبين يختفي بين شعره الرمادي الكثيف.

قال بصوتٍ مبحوحٍ للغاية:

- سوف نساعدك، يا صاحبي، لا أريدك أن تمكث هنا طويلاً وتصبح مثلي.

- شكراً.

- اسمي جان سان بور، وأنا من الضواحي. كنتُ أكثر جمالاً وصحّة وقوّةً منك حينما وصلتُ إلى سجن الأشغال الشاقّة. وخلال عشر سنوات، ها أنت ترى كيف أصبحت.

- ألا يعالجونك؟

- بلى. لقد تحسّنت حالتي منذ أن بـدأت بأخذ حقن زيت الشوموغرا. انظر.

أدار رأسه وأراني الجانب الأيسر، وقال:

- لقد جفّ الجانب الأيسر.

اجتاحني إحساسٌ جارفٌ بالإشفاق عليه، وقمتُ بحركة من يدي لكي ألامس خدّه الأيسر لأظهر له تعاطفي. ارتدّ إلى الخلف سريعاً، وقال لي: «شكراً لأنّك أردت أن تلمسني، ولكن لا تلمسْ قَطّ مريضاً، ولا تأكلْ ولا تشربْ من قصعته». لم أرَ إلى الآن سوى وجه رجلٍ مجذومٍ امتلك شجاعة مواجهتي وأنا أنظر إليه.

ظهر في عتبة الباب شبح رجلٍ قصير القامة بالكاد أطول من قزمٍ بقليل، وقال:

- أين الرجل؟ يرغب توسان والآخرون في رؤيته. خذوه إلى المركز.

نهض جان سان بور وطلب مني أن أتبعه. انطلقنا جميعاً وسط الظلام، يسير أربعة أو خمسة أشخاص في المقدّمة، وأنا إلى جانب جان سان بور، بينما سار آخرون خلفنا. حينما وصلنا بعد ثلاث دقائق إلى باحة، كان هلالٌ من القمر يُضيءُ بخفوت هذا المكان الشبيه بساحةٍ. إنّها القمّة المسطّحة للجزيرة، وفي وسطها منزلٌ، ينبعث ضوءٌ من نافذتين فيه، ويقف أمام بابه قرابة عشرين رجلاً في انتظارنا، فسرنا نحوهم. وحينما وصلنا أمام الباب، ابتعدوا جانباً لكي يفسحوا لنا طريقاً

للمرور. دخلنا إلى قاعة مستطيلة طولها حوالي عشرة أمتار، وعرضها يقارب أربعة أمتار، وفيها ما يشبه مدفأة يُحرق فيها حطبٌ، ومحاطة بأربعة حجارة كبيرة لها الارتفاع نفسه. يُضيء القاعة فانوسان كبيران يعملان على النفط. ويجلس على كرسيٍّ بلا مساند رجلٌ أبيضُ البشرة، أسودُ العينين، لا يمكن تخمين عمره، ويجلس خلفه خمسة أو ستّة رجال. قال لي:

- أنا توسان الكورسيكي، ولا بدّ أنّك بابيون.

- نعم.

- الأخبار تسري سريعاً في سجن الأشغال الشاقّة، بالسرعة نفسها التي تتصرّف بها. أين بندقيتك؟

- ألقينا بها في النهر.

- في أيّ مكانٍ من النهر؟

- قبالة جدار المستشفى، وبالتحديد في المكان الذي قفزنا إليه.

- وهل يمكن استعادتها إذاً؟

- أفترض ذلك، لأنّ الماء في هذا المكان ليس عميقاً.

- كيف عرفت ذلك؟

- لقد اضطررنا إلى النزول في الماء لكي نحمل صديقي الجريح ونضعه في القارب.

- ما به؟

- كُسِرَت ساقه.

- وماذا فعلت من أجله؟

- وضعتُ أغصاناً مقطوعة إلى نصفين حول ساقه على شكل قيدٍ يثبّتها في موضع الكسر.

- هل يتألّم؟

- نعم.

- وأين هو الآن؟

- في الزورق.

- قلتَ إنّك جئتَ تطلب مساعدة، أيّ نوع من المساعدة تحتاج؟

- أريد مركباً.

- تريدنا أن نعطيك مركباً؟

- نعم، ولديّ المال لكي أدفع ثمنه.

- حسناً. سأبيعك مركبي وهو رائعٌ وجديدٌ تماماً. لقد سرقته الأسبوع الفائت من ألبينا. إنّه ليس مركباً، بل سفينة عابرة للأطلسي. لا ينقصه سوى شيء واحد، وهو الوتد، أي العارضة الرئيسية. ليس فيه وتدٌ، ولكننا سنجهّزه بعارضة رئيسية متينة في غضون ساعتين. فيه كلّ ما يلزم: الدفّةُ مع حاجزها الكامل، وصَارٍ بطول أربعة أمتارٍ من خشبٍ وحديد، وشراعٌ جديد تماماً من قماش الكتّان. كم تدفع لي ثمناً له؟

- أخبرني بالثمن الذي تطلبه، فأنا ليست لديّ فكرة عن أسعار الأشياء هنا.

- ثلاثة آلاف فرنكٍ إذا كنتَ تستطيع دفعها، وإذا لم يكن بمقدورك، اذهب واجلب البندقية في الليلة القادمة وسوف أبادلك المركب بها.

- كلا، أفضّل أن أدفع ثمنه.

- لا بأس، تمّت الصفقة. لابوس، قدّم القهوة.

توجّه لابوس، وهو الرجل شبه القزم الذي جاء يدعوني لمقابلة توسان، نحو رفٍّ مثبّتٍ على الجدار فوق الموقد، وأخذ وعاءً جديداً ونظيفاً يلمع لمعاناً، وصبّ من قارورةٍ بعض القهوة فيه ووضعه على النار. بعد برهةٍ، رفع الوعاء عن الموقد، وصبّ القهوة في أكوابٍ موضوعة بالقرب من الحجارة، وانحنى توسان وقدّم الأكواب للرجال الواقفين خلفه. مدّ لابوس الوعاء نحوي وهو يقول لي: «اشرب بلا خشية، لأنّ هذا الوعاء ليس إلّا للمسافرين. لا أحد من المرضى يشرب فيه».

أمسكتُ بالوعاء وشربتُ منه ثمّ وضعته على ركبتي. في تلك اللحظة، رأيت أنّ هناك إصبعاً ملتصقة بالوعاء. كنتُ أحاول أن أتحقّق من الأمر حينما قال لابوس:

- ها قد فقدتُ إصبعاً أخرى! أين سقطت بحقّ الشيطان!

قلتُ له وأنا أشير إلى الوعاء:

- إنّها هنا.

نزع الإصبع ورماها في النار وأعاد إليّ الوعاء وقال:

- يمكنك أن تشرب، لأنني مصابٌ بالجذام الجافّ. أنا أتفكّك قطعة تلو قطعة، ولكنني لستُ متعفناً. أنا لا أنقل العدوى.

ثمّ شممتُ رائحة لحمٍ محترق، فقلتُ في نفسي: لا بدّ أنّ هذه رائحة الإصبع المحترقة.

قال توسان:

- ستكون مضطرّاً لأن تمضي هنا النهار كلّه حتى المساء حيث سيكون هناك الجَزْر البحري. عليك أن تذهب وتُبلّغ صديقيك بذلك. أحضر صديقك الجريح إلى أحد الأكواخ، واجمعْ كلّ ما في الزورق، ثمّ أغرقْه في الماء. ليس بوسع أحدٍ هنا أن يساعدك، ولا بدّ أنّك تعرف السبب.

ذهبتُ مسرعاً إلى صديقَيَّ الآخرَين، أخذنا كلوزيو، ثُمَّ نقلناه إلى كوخ. وبعد ساعةٍ، تمّ جمع كلّ شيء وترتيب محتويات الزورق بعناية. وطلَب لابوس أن نقدّم الزورق ومجدافاً هديّة له. منحته تلك الهدية، فأخذ الزورق وأغرقه في مكانٍ يعرفه. مرّت الليلة بسرعة، وقد نمنا نحن الثلاثة في الكوخ على أغطية جديدة أرسلها توسان. وصلت إلينا الأغطية محزّمةً بورق تغليفٍ متين. ونحن ممدّدين على تلك الأغطية، أخبرتُ كلوزيو وماتوريت بتفاصيل كلّ ما جرى منذ لحظة وصولي إلى الجزيرة، وحول الصفقة التي أبرمتها مع توسان. تفوّه كلوزيو بكلمة حمقاء دون تفكير: «لقد كلّفت عملية الفرار إذاً ستّة آلاف وخمسمئة فرنكٍ. سوف أدفع لك يا بابيون نصف هذا المبلغ، أي الثلاثة آلاف فرنكٍ التي أملكها».

– لسنا هنا من أجل إجراء حسابات ومساومات مثل الأرمن. طالما بحوزتي فلسٌ واحد، سوف أدفع، وبعد ذلك، سوف نرى ما الذي يجب فعله.

لم يدخل أيّ مجذوم إلى الكوخ. أشرقت الشمس، وجاء توسان. وقال:

– صباح الخير. يمكنكم الخروج باطمئنان. هنا، لا يمكن لأحدٍ أن يأتي ويزعجكم. ثمّة رجلٌ تسلّق شجرة جوز الهند، في أعالي الجزيرة، لكي يراقب ويرى إن كانت هناك دوريات للشرطة في النهر. لم نرَ أيّة قوارب لهم حتى الآن، وطالما قطعة القماش البيضاء ترفرف، فهذا يعني أنّ ليس هناك أيّ شيء على مدى البصر. وإن رأى أحداً، ينزل من الشجرة ليخبرنا بذلك. يمكنكم أن تقطفوا الثمار بأنفسكم وتأكلوها إن رغبتم في ذلك.

قلتُ له:

– وماذا بشأن العارضة الرئيسية للقارب يا توسان؟

– سوف نصنعها من لوحٍ خشبيٍّ نفكّه من باب المستوصف. إنّه من الخشب الثقيل، وسوف نصنع العارضة من لوحين منه. لقد أخرجنا الزورق إلى الموقع مستغلين عتمة الليل. تعال لتراه.

ذهبنا ورأينا زورقاً رائعاً، يبلغ طوله خمسة أمتارٍ، وجديداً كلّ الجدّة، وفيه مقعدان طويلان فيهما ثقبٌ لتمرير الصاري. كان ثقيلاً واستطعنا، أنا وماتوريت، بمشقّة أن نُديره. كان الشراع وحباله جديدة، وقد ثُبّتت على جنباته حلقاتٌ لكي يتمّ تعليق الحمولة ومن بينها برميل الماء. بدأنا بالعمل، وعند الظهيرة انتهينا من تجهيز العارضة الرئيسية التي تمّ مدّها من الخلف إلى الأمام وتثبيتها بمتانة بلوالب طويلة والبراغي الأربعة التي كانت بحوزتي.

نظر المجذومون الذين تحلّقوا من حولنا إلينا ونحن نعمل من دون أن يتفوّهوا بكلمة واحدة. يشرح لنا توسان طريقة العمل ونحن ننفّذ إرشاداته. لم يكن هناك أيُّ أثَرٍ لجرحٍ في وجه توسان الذي بدا طبيعياً،

ولكن حينما تكلّم، لاحظنا أنّ جانباً واحداً فقط من وجهه يتحرّك، وهو الجانب الأيسر. أخبرني بذلك وأخبرني أيضاً بأنّه مصابٌ بالجذام الجافّ. جذعُه وذراعُه اليمنى أيضاً مشلولان، وكان يتوقّع أن تُصاب ساقه اليمنى أيضاً بالشلل عمّا قريب. عينه اليمنى ثابتة كما لو أنّها عينٌ زجاجية، يرى بها ولكنّه لا يستطيع تحريكها. لن أكشِفَ عن اسمِ أيٍّ من المجذومين حتى لا يعرف قَطُّ الذين أحبُّوهم أو عرفوهم الطريقةَ الرهيبة التي تتقطّع بها أوصالُهم وهم أحياء.

كنتُ أتناقش مع توسان وأنا أعمل. لم يتحدّث أيّ شخصٍ آخر سوى مرّة واحدة حينما ذهبتُ لأجلب بعض المفصّلات التي انتزعوها من أثاث المستوصف لتدعيم تثبيت العارضة الرئيسية، إذ قال أحدهم: «لا تأخذ المزيد منها، دعها هنا. لقد جرحتُ نفسي حينما انتزعتُ واحدة منها، وقد سال بعض دمي الذي قمتُ بمسحه». ثمّ صبّ مجذومٌ بعضاً من مشروب الروم وأشعل النار فيها لمرّتين، ثمّ قال الرجل: «الآن يمكنك أن تستخدمها». بينما كنّا نعمل، قال توسان لأحد المجذومين:

- لقد سبق لك وأن قمت بهذه الرحلة لعدّة مرات. اشرحْ جيّداً لبابيون كيف عليه أن يتصرّف، طالما أنّ لا أحد من الثلاثة قد سبق له وفرّ من السجن.

وقد شرع يشرح في الحال، وقال:

- حدث الجَزْر البحري في هذا المساء باكراً جدّاً. بدأ انحسار المدّ في الساعة الثالثة، وعند هبوط الليل في حوالي الساعة السادسة، سيكون أمامك تيارٌ قويّ جدّاً سوف يقودك في أقلّ من ثلاث ساعات لمسافة ما تقارب مئة كيلومترٍ نحو المخرج. وحينما ينبغي عليك التوقّف، ستكون الساعة قد بلغت التاسعة مساءً. وسيكون عليك حينها أن تربط الزورق إلى شجرة من أشجار الدَّغَل، والانتظار لحين انقضاء الساعات الستّ التي يستغرقها المدّ، فتصبح الساعة بذلك الثالثة صباحاً. لا تنطلقْ في ذلك التوقيت لأنّ التيار لا يتراجع بالسرعة الكافية. ألقِ بنفسك في وسط النهر

في الساعة الرابعة والنصف صباحاً. وسيكون بذلك أمامك ساعةٌ ونصف قبل أن تشرق الشمس لكي تقطع مسافة خمسين كيلومتراً. وهذه المدّة البالغة ساعة ونصف هي كلّ فرصتك. يجب عليك أن تدخل إلى البحر في الساعة السادسة، أي لحظة شروق الشمس. وحتى إذا اكتشف رجال الشرطة أمرك ورأوك، لن يكون بوسعهم أن يلاحقوك لأنّهم سيكونون قد وصلوا إلى حاجز الخروج في اللحظة التي يبدأ فيها المدّ، وبالتالي لن يكون بوسعهم العبور، في حين تكون أنت قد تجاوزت الحاجز. مسافة الكيلومتر هذه التي عليك أن تتقدّم فيها حينما يروك، هي حياتك. هنا لا يوجد سوى شراع واحد، ماذا كان عندكم في القارب؟

- شراعٌ وزاويّ.

- هذا المركب ثقيل، يمكنه أن يتحمّل زاويّين، أحدهما في قِلْعِ مُقدّمة المركب، أسفلَ الصاري والآخر منفوخٌ وخارجَ مقدّمة المركب ليرفعها جيّداً. انشرْ كلّ الأشرعة إلى الخارج مستقيمةً فوق أمواج البحر التي تكون هائلةً عند مصبّ النهر. دعْ صديقيك يستلقيان في قعر المركب لكي يضبطا على نحوٍ أفضل توازنه، وأنت أمسك جيّداً ذراع المقود بيديك. لا تربط الحبل الموصول بالشراع بساقك، بل مرّره من الحلقة المثبّتة خصيصاً لهذا الغرض في المركب، ولفّه لفّة واحدة حول معصمك. وإذا رأيت أنّ قوّة الرياح تضيف قوّة إلى حركة موجة ضخمة وأنّك سوف تسقط في الماء إذا ما جازفت بالالتفاف، فما عليك سوى أن تترك كلّ شيء بسرعة، وسوف ترى أنّ مركبك قد استعاد توازنه. وإذا ما حدث ذلك، لا تتوقّف، ودع الشراع يرفرف على هواه واخرج دائماً إلى الأمام وسط الرياح، بواسطة القِلْعِ والزاويّ. وفقط حينما تصبح في المياه الزرقاء الهادئة، سيكون لديك متّسعٌ من الوقت لتُنزِل الشراعَ الصغير، وتعيده إلى متن السفينة وتستأنف الإبحار بعد إعادة رفع الشراع. هل تعرف الطريق؟

- لا. أعرف فقط أنّ فنزويلا وكولومبيا تقعان في الشمال الغربي.

- هذا صحيح، ولكن احذر من أن تُرمى إلى الساحل، حيث غويانا الهولندية، قبالة الساحل، تُسلّم الهاربين من السجن، وكذلك تفعل غويانا الإنكليزية. لن تُسلّمك ترينيداد، ولكنّها سترغمك على البقاء لمدّة خمسة عشر يوماً قبل أن تسمح لك بالرحيل. وسوف تسلّمك فنزويلا بعد أن تلزمك بالعمل في الطرقات لمدّة عام أو عامين.

أصغيتُ إليه بكلّ جوارحي. قالَ لي بأنّه يرحل من وقتٍ إلى آخر، ولكن بما أنّه مصابٌ بالجذام، يُعيدونه في الحال. واعترف بأنّه لم يذهب قطّ إلى ما هو أبعد من جورج تاون عاصمة غويانا الإنكليزية. لم يكن الجذام بادياً إلّا على قدميه اللتين كانتا قد فقدتا كلّ أصابعهما. كان حافي القدمين. طلب مني توسان أن أعيد على مسامعه كلّ النصائح التي أُسديت لي، وقد فعلتُ ذلك دون أن أُخطئ. في تلك اللحظة، قال جان سان بور: «كم من الوقت يلزمه لكي يصل إلى عرض البحر؟».

سبقتُ إلى الإجابة:

- سوف أسير ثلاثة أيام باتجاه الشمال والشمال الشرقي. ومع الانحراف، سيتحوّل الاتجاه إلى الشمال تماماً، وفي اليوم الرابع، سوف أسلك الشمال الغربي، وهذا سيؤدّي إلى الغرب تماماً.

قال المجذوم:

- أحسنت. في آخر مرّة، لم أسرْ سوى يومين باتجاه الشمال الشرقي، ولذلك وقعتُ في غويانا الإنكليزية. من خلال السير ثلاثة أيام باتجاه الشمال، سوف تمرّ إلى الشمال من ترينيداد أو باربادوس، وسوف تتجاوز دفعة واحدة فنزويلا دون أن يراك أحد لتصل إلى كوراساو أو كولومبيا.

قال جان سان بور: «بكم بعتَ قاربك يا توسان؟».

قال توسان:

- بثلاثة آلاف. هل هذا ثمنٌ غال؟

- كلا. لم أقصد ذلك. أردتُ أن أعرف، لا أكثر. هل يمكنك أن تدفع يا بابيون؟

- نعم.
- هل سيبقى في حوزتك بعض المال؟
- لا، هذا كلّ ما نملكه، بالضبط ثلاثة آلاف يحملها صديقي كلوزيو.
قال جان سان بور
- توسان، أودّ أن أبيعك مسدّسي لأنني أريد أن أساعد هؤلاء الرجال. بكم تشتريه؟
قال توسان:
- بألف فرنك، فأنا أيضاً أريد أن أساعدهم.
قال ماتوريت وهو ينظر إلى جان سان بور:
- شكراً على كلّ ما قدّمتموه لنا.
قال كلوزيو بدوره:
- شكراً.
أما أنا، فقد شعرتُ في تلك اللحظة بالخجل من كذبتي، وقلت:
- كلا، لا يمكنني أن أقبل هذا منك، فليس هناك مبرّر لذلك.
نظر إليّ وقال:
- أجل، هناك مبرّرٌ لذلك. ثلاثة آلاف فرنك مبلغٌ كبيرٌ من المال، ومع ذلك، يخسر توسان بهذا الثمن على الأقلّ ألفي فرنك، لأنّه أعطاكم مركباً شهيراً. ليس هناك سببٌ لألّا أفعل شيئاً أيضاً من أجلكم.
حدث آنذاك شيءٌ مؤثّر: فقد وضع لاشويت قبّعةً على الأرض وشرع المجذومون برمي أوراقٍ نقدية أو قطعٍ نقدية فيها. خرج المجذومون من كلّ حدبٍ وصوب وأخذوا يضعون جميعاً شيئاً في القبّعة. اجتاحني شعورٌ بالخجل، ومع ذلك لم أستطعْ أن أقول بأنني ما زلت أملك بعض المال! يا إلهي، ما العمل، فها أنا أرتكب عملاً مخزياً أمام هذا القدر الكبير من النبل والشهامة التي قوبلنا بها. قلتُ لهم: «أرجوكم، لا تقدِموا على هذه التضحية!» تقدّم رجلٌ زنجيٌّ من تمبكتو، مشوّه تماماً – كان له يدان

- المال لا ينفعنا في العيش. اقبله منّا دون خجل. لا ينفعنا المال سوى في لعب القمار أو مضاجعة نساء مصابات بالجذام يأتين من وقتٍ إلى آخر من ألبينا.

هذه الجملة أراحتني ومنعتني من الاعتراف بأنني أمتلك مالاً. سلق المجذومون مئتي بيضة، وجلبوها في صندوقٍ عليه علامة الصليب الأحمر، وهو الصندوق الذي تلقوه صباح اليوم مليئاً بحصّتهم من الأدوية. كما جلبوا سلحفاتين حيّتين، تزن الواحدة منهما على الأقلّ ثلاثين كيلوغراماً، مربوطتين بإحكام، وتبغاً من ورق الأشجار وعلبتين مليئتين بأعواد الثقاب ومحفّات اشتعال، وكيساً مليئاً بما لا يقلّ عن خمسين كيلوغراماً من الأرزّ، وكيسين من فحم الحطب، وموقداً مأخوذاً من المستوصف، وقارورة بنزين. كانت هذه الجماعة البائسة بأكملها متأثّرة بحالنا وأراد جميع أفرادها أن يساهموا في نجاحنا، كما لو أنّ هذا الفرار من السجن قضيّتهم. سحبنا المركب قريباً من المكان الذي وصلنا منه. أحصوا المبلغ الذي تجمّع في القبّعة وقد بلغ ثمانمئة وعشر فرنكات. كان عليّ فقط أن أدفع ألفاً ومئتي فرنكٍ لتوسان. سلّمني كلوزيو ماسورته، فتحتها أمام جميع الحاضرين. كانت تحتوي على ورقة نقدية من فئة الألف فرنك وأربع أوراق نقدية من فئة خمسمئة فرنك. سلّمت إلى توسان ألفاً وخمسمئة فرنكٍ، فأعاد لي ثلاثمئةِ فرنكٍ، ثمّ قال:

- تفضّل، خذ المسدّس، أقدّمه لك هديّةً. لقد خاطرتَ بكلّ شيء، ولا ينبغي لكلّ هذا أن يفشل في اللحظة الأخيرة بسبب عدم وجود سلاحٍ. آمل ألّا تحتاج إلى استخدامه.

لم أعرف كيف أشكره، أشكره هو أوّلاً، ومن ثَمّ كلّ الآخرين. أعدّ الممرّض علبةً صغيرةً تحتوي على قطنٍ وكحولٍ معقّم، وأقراصِ أسبرين، ويُودٍ، ومِقصٍّ وشريطٍ لاصق. وأحضر أحدُ المجذومين ألواحاً صغيرة مصقولة جيّداً وناعمةً وبكرَتَي ضمادات من ماركة فيلبو في أغلفتها،

وكانت كلّها جديدة. وقد قدّمها بكلّ بساطة لكي أُغيّر الألواح الخشبية التي كنتُ قد جبرتُ بها ساق كلوزيو.

نحو الساعة الخامسة، بدأ المطر بالهطول. قال لي جان سان بور: «لديكم كلّ الفرص، ولن يكون هناك خطر أن يراكم أحد، ولذلك يمكنكم الانطلاق في الحال فتكسبوا نصف ساعة كاملة من الوقت. وهكذا ستكونون أقرب إلى المصبّ لكي تنطلقوا من هناك في الساعة الرابعة والنصف صباحاً». فقلتُ له:

- وكيف سأعرف كم الساعة؟

- سوف يُخبرك المدّ بالوقت تبعاً لصعوده أو هبوطه.

أنزلنا المركب إلى الماء. لم يكن كالزورق، كانت حوافه ترتفع عن سطح الماء قرابة أربعين سنتيمتراً على الرغم من أنّه كان محمّلاً بكلّ المواد وبنا نحن الثلاثة. كان الصاري الملفوف بالشراع ممدداً طالما أنّه ليس علينا أن نرفعه إلّا عند الخروج. وضعنا الدفّة مع عصا الأمان والمقبض، ومن ثَمّ وسادةً من أعشاب وأغصانٍ لأجلس عليها. رتّبنا من الأغطية مكاناً في قعر المركب لكلوزيو الذي رفض أن نغيّر له ضماده. استلقى عند قدميّ بيني وبين برميل الماء. وأخذ ماتوريت مكانه في قعر المركب أيضاً، ولكن في المقدّمة. وأحسستُ في الحال بالأمان الذي لم أشعر به في زورقنا السابق.

استمرّ المطر في الهطول، كان عليّ أن أنزل إلى النهر من وسطه، ولكنْ مائلاً قليلاً إلى اليسار، من جانب الساحل الهولندي. قال جان سان بور:

- وداعاً، انطلِقوا بسرعة!

قال توسان:

- حظّاً سعيداً!

ثمّ دفع المركب بقدمه دفعاً قويّاً.

قلت:

- شكراً توسان، شكراً جان، شكراً للجميع ألف مرّة!

واندفعنا في الماء واختفينا عن أنظارهم بسرعة، يدفعنا المدّ الذي كان قد بدأ منذ ساعتين ونصف والذي يجري بسرعة مذهلة.

كان المطر لا يزال ينهمر بغزارة فتضعف الرؤية ولم نعد نرى أمامنا لأكثر من عشرة أمتار. ولأنّه كان هناك جزيرتان صغيرتان أكثر انخفاضاً، انحنى ماتوريت إلى الأمام محدّقاً أمامنا لكي لا نرتطم بصخورهما. هبط الليل، كانت شجرة ضخمة قد نزلت معنا إلى النهر، ولكن لحسن الحظّ، بسرعة أقلّ من سرعة مركبنا، ولكنّها مع ذلك أزعجتنا بأغصانها في لحظة ما. تخلّصنا منها سريعاً وواصلنا تقدّمنا بسرعة ثلاثين كيلومتراً في الساعة على الأقلّ. دخّنّا وشربنا بعض الروم الذي كان المجذومون قد قدّموه لنا في ست زجاجات هي بالأصل للنبيذ الإيطالي. والغريب في الأمر أنّ لا أحد منّا تحدّث عن القروح المرعبة التي رأيناها على مختلف المصابين بالجذام. كان الدافع الوحيد لحديثنا عنهم هو طيبتهم وكرمهم واستقامتهم، وحظّنا في الالتقاء مع البريتاني ذي القناع الذي قادنا إلى جزيرة الحمام. ازداد هطول المطر غزارةً، وبلغ البلل حتى عظامي، ولكنّ المعاطف الصوفية التي نرتديها ممتازة إلى درجة أنّها تبعث فينا الدفء حتى وإن كانت مبلّلة. لم نشعر بالبرد، وحدها اليد التي كانت تمسك بمقبض الدفّة كانت تتخدّر تحت المطر.

قال ماتوريت:

– في هذه اللحظة، ننحدر بسرعة تزيد على أربعين كيلومتراً في الساعة. كم من الوقت مضى على انطلاقتنا، بتقديرك؟

سبقني كلوزيو إلى الإجابة:

– أنا سأخبرك بذلك. انتظر قليلاً: مضت ثلاث ساعات وخمس عشرة دقيقة.

– هل جُننت؟ كيف عرفت ذلك؟

– بدأتُ بحساب الوقت منذ انطلاقنا، وكلّما كنتُ أُعدُّ ثلاثمئة ثانية، كنتُ أقطع قطعة صغيرة من الورق المقوّى. لديّ الآن تسع وثلاثون

قطعة من الورق المقوّى. وإذا علمنا أنّ كلّ قطعة تعادل خمس دقائق، فهذا يساوي ثلاث ساعات وخمس عشرة دقيقة منذ نزولنا. وإن لم أكن مخطئاً، من الآن وحتى خمس عشرة أو عشرين دقيقة، لن ننزل، بل سنصعد إلى حيث أتينا.

دفعتُ بمقبض الدفّة إلى اليمين لكي أقطع النهر على نحوٍ منحرف وأقترب من الضفّة، إلى جانب غويانا الهولندية. قبل الاصطدام بالدَّغَل، توقّف التيار. توقّفنا عن النزول والصعود، بينما المطر لا يزال ينهمر. لم نعد ندخّن، ولم نعد نتكلّم، همسنا همساً: «تناولْ المجداف واسحبْه». شرعتُ في التجديف بنفسي، مثبّتاً مقبض الدفّة بفخذي الأيمن. لامسنا الدَّغَل بهدوء، فأمسكنا بالأغصان واحتمينا بها، فأصبحت وسط الظلام الناجم عن النباتات والأغصان. كانت مياه النهر رمادية اللون، يغطّي الضباب صفحتَها. وسيكون من المستحيل التمييز بين موضع البحر وموضع مصبّ النهر، من دون الثقة بالمدّ والجزر.

الرحلة الكبرى

سوف يستمرّ المدّ الصاعد ست ساعات. يُضاف إليها ساعة ونصف من الوقت الذي علينا خلاله انتظار الجَزر، وبالتالي أستطيع أن أنام سبع ساعات، على الرغم من أنني متوتّرٌ جدّاً. يجب أن أنام، لأنّه ما إنْ نصبح في عرض البحر، لن يعود بوسعي أن أنام. استلقيتُ بين برميل الماء والصاري، ومدّ ماتوريت غطاءً على شكل سقف بين المقعد الطولي والبرميل، وبعد أن تأمّن ملاذي جيّداً، نمتُ نوماً عميقاً. لم يكدّر عليّ أيّ شيء هذا النوم العميق، لا الأحلام ولا المطر، ولا الوضعية السيئة. بقيتُ نائماً إلى اللحظة التي أيقظني فيها ماتوريت.

– بابي، نعتقد أنّه آن الأوان لكي ننطلق، أو يكاد. لقد بدأ الجزر منذ وقتٍ طويل.

استدار المركب نحو البحر وجرى التيار سريعاً جدّاً تحت أصابعي.

توقّف المطر عن الهطول، وأتاح لنا هلالٌ من القمر أن نرى بوضوح أمامنا، لمسافة مئة مترٍ، النهر الذي كان يجرف عشباً وأشجاراً وأشكالاً سوداء. حاولتُ أن أرى الحدود الفاصلة بين النهر والبحر. لم تكن هناك رياحٌ في المكان الذي نقف فيه. تُرى هل هناك رياحٌ في وسط النهر؟ تُرى هل هي شديدة؟ خرجنا من تحت غطاء الدَّغَل، والمركب لا يزال مربوطاً إلى جذعِ ضخمٍ لشجرةٍ بحبلٍ معقودٍ على شكل أنشوطة. ومن خلال النظر إلى السماء، قدّرتُ الحدّ الفاصل، نهاية النهر وبداية البحر. كنّا قد نزلنا إلى الأسفل أكثر بكثير ممّا اعتقدنا وأحسستُ أنّنا على بعد أقل من عشرة كيلومترات من مصبّ النهر. شربنا جرعةً جيّدةً من الروم. استشرت صديقَيّ: هل نضع الصاري هنا؟ فوافقا، ورفعناه، وكان مثبّتاً بطريقة جيّدة في قاع حفرته وفي ثقب المقعد الطولي. رفعتُ الشراع من دون أن أنشره، وتركته ملفوفاً حول الصاري. والقِلْعُ والزاويُّ جاهزان لأن يُرفعا من جانب ماتوريت حالما أعتقد أنّ ذلك ضروريٌّ. ولتفعيل الشراع، ليس علينا سوى إرخاء الحبل الذي يشدّه على الصاري، وأنا من سأقوم بهذه الحركة من مكاني. في المقدّمة، سيدفع ماتوريت بمجدافٍ، وفي المؤخّرة، سأدفع بمجدافٍ آخر. علينا أن ننفصل بقوّة كبيرة وسرعة فائقة من الضفّة التي يُلصقنا التيار بها.

قلتُ:

- انتباه. إلى الأمام، في عناية الرب!

ردّد كلوزيو:

- في عناية الرب!

وانطلقنا، نجدّف بتناسق، فأغطّ المجداف في الماء وأسحبه، ويفعل ماتوريت مثل ما أفعل. غادرنا الضفّة بسهولة، ولم نبتعد سوى عشرين متراً عنها، حتى انجرفنا مسافة مئة مترٍ مع التيار ودفعتنا الرياح القوية دفعة واحدة إلى وسط النهر.

- ارْفَعِ القِلْعَ والزاويَّ، الراسيَيْن جيّداً!

اندفعَ الهواءُ نافخاً فيهما وشَبَّ المركبُ كالحصان وانطلقَ كالسهم. لا بدّ أنّنا كنّا قد تأخّرنا عن التوقيت المحدّد، لأنّه فجأةً بان النهر أمامنا بوضوح كما لو أننا في وضح النهار، وأصبحنا نرى بسهولة، على يميننا، الساحل الفرنسي على مدى قرابة كيلومترين، وعلى يسارنا، الساحل الهولندي على مدى كيلومترٍ واحدٍ. كما رأينا بوضوح أمامنا ذرى أمواج البحر الشبيهة بخرافٍ بيضاء.

قال كلوزيو:

- يا إلهي! لقد أخطأنا في التوقيت. أتعتقد أنّه سيكون لنا الوقت الكافي للخروج؟

- لا أدري.

- انظرْ! ما أعلى الأمــواج، وما أنصع بياض ذراهــا! تُـرى هل سيبدأ الجَزر؟

- مستحيل، أنا أرى أشياءَ تنزل.

قال ماتوريت:

- لن يكون بوسعنا الخروج، لن نصل في الوقت المحدّد.

- اخرسْ وابقَ جالساً بجانب حبال الزاويّ والقِلْع. وأنت أيضاً يا كلوزيو، اسكتْ!

سمعنا أزيز رصاصتين... أُطلقت علينا طلقتان من بندقية. حدّدتُ بوضوح الموقع الذي انطلقت منه الرصاصة الثانية. لم تَصدر الطلقتان عن الخفراء أبداً، وإنّما من غويانا الهولندية. رفعتُ الشراع الذي انتفخ بالهواء بقوّة إلى درجة أنّه كاد أن يرفعني وهو يشدّني من معصمي. مال المركب بأكثر من خمس وأربعين درجةً. أخذت أكثر ما يمكن من الريح، ولم يكن ذلك صعباً لأنّ الرياح كانت قويّة. سمعنا صوت أزيز الرصاص على نحوٍ متعاقب، ثمّ توقّف تماماً ولم نعد نسمع شيئاً. كنّا قد انجرفنا أقرب إلى الساحل الفرنسي منه إلى الساحل الهولندي، ولا بدّ أنّ هذا هو السبب الذي أدّى إلى توقّف إطلاق النار.

سرنا في سرعة باعثة على الدوّار بفعل رياح شديدة. سرنا بسرعة فائقة إلى درجة أنني وجدتُ نفسي مُلْقىً في وسطِ مصبّ النهر بطريقة كدتُ معها أن ألامس في دقائق معدودات الشاطئ الفرنسي. رأينا بوضوح شديد رجالاً يركضون نحو الشاطئ. أدرتُ وجهة المركب بأقصى درجات الهدوء، وأنا أسحب بكل ما أوتيتُ من قوّة حبل الشراع. أصبح الشراع الرئيسي أمامي مباشرةً، واستدار المركب ثلاثة أرباع الدورة، فأرخيتُ الشراع وخرجنا من المصبّ، تدفعنا الرياح من الخلف. أوف! لقد تمّ الأمر بنجاح! بعد عشر دقائق، حاولت الموجة الأولى للبحر أن تسدّ علينا الطريق، ولكننا صعدناها بسهولة، وتحوّل صوت الخرير الصادر عن القارب في النهر إلى صوتِ مُخُورِ القارب لعُباب البحر وسط الأمواج. صعدنا تلك الأمواج العالية بسهولة صبيٍّ يلعب لعبة القفز. صعد ونزل المركب وهو يمخر عباب البحر وسط الأمواج دون أن يهتزّ أو يرتجّ. لم يكن هناك سوى صوت ارتطام هيكل المركب بالماء حينما ينحدر مع الموج.

صرخ كلوزيو بملء رئتيه:

- هورا! هورا! لقد خرجنا!

ولكي ينير انتصار طاقتنا هذا على عناصر الطبيعة، أرسل اللّه إلينا إشراقة شمس مبهرة. تعاقبت الأمواج بالإيقاع نفسه، وانخفض ارتفاعها كلّما تقدّمنا أكثر في عرض البحر. كانت المياه موحلة بشدّة. رأيناها قبالتنا، في الشمال، سوداء اللون، وأصبحت فيما بعد زرقاء اللون. لم تعد لي حاجة إلى البوصلة: فقد أصبحت الشمس مسلّطة مباشرةً على كتفي، وتوغّلتُ بخطٍ مستقيم، مدفوعاً بالرياح، ولكن المركب أصبح أقلّ ميلاناً، لأنني أفردتُ حبل الشراع فامتلأ بالهواء نصف امتلاء من دون أن يكون مشدوداً. بدأنا المغامرة الكبرى.

نهض كلوزيو وأراد أن يُخرج رأسه وجسده من قاع المركب ليرى على نحوٍ أفضل. جاء ماتوريت لمساعدته على أن يعتدل في جلسته

أمامي، مسنداً ظهره على برميل الماء، ثمّ لفّ لفافة تبغٍ وأشعلها وقدّمها لي، وشرعنا نحن الثلاثة بالتدخين.

قال كلوزيو:

- هاتوا شراب التافيا، لنشرب نخب خروجنا سالمين من هنا.

صبّ ماتوريت الشراب في ثلاثة أقداحٍ معدنية وشربنا.

جلس ماتوريت بجانبي، إلى يساري، وتبادلنا النظرات. كان وجها صديقيّ يشعّان بالسعادة، ولا بدّ أنّ وجهي أيضاً كان كذلك. فقال لي كلوزيو:

- أيّها القبطان، إلى أين أنت ذاهبٌ بنا، من فضلك؟

- إلى كولومبيا، إنْ شاء اللّه.

قال كلوزيو:

- إنّ اللّه سوف يشاء ذلك. باسم اللّه.

ارتقت الشمس سريعاً في السماء ولم نُعَانِ صعوبةً في تجفيف أنفسنا من البلل. وتحوّل قميص المستشفى إلى بُرْنُسٍ على الطريقة العربية. ظلّ القميص مبلّلاً، فأصبح نديّاً على رأسنا، يجنّبنا الإصابة بضربة شمس. بدت مياه البحر زرقاء زمرّدية، وكانت الأمواج ترتفع ثلاثة أمتارٍ وطويلةً جدّاً ممّا يساعد على الرحيل براحةٍ. ظلّت الرياح تهبّ قويّة، ابتعدنا بسرعة عن الشاطئ الذي كنتُ أنظر إليه وهو يختفي، من حينٍ لآخر، خلف الأفق. وكلّما ابتعدنا عن تلك الكتلة الخضراء أكثر كلّما انكشفت لنا أسرارها أكثر. كنتُ مستغرقاً في النظر إلى خلفي، حينما أعادتني موجة خاطئة إلى تركيزي وذكّرتني بمسؤوليتي عن حياة رفاقي وحياتي.

قال ماتوريت:

- سأطبخ بعض الأرزّ.

قال كلوزيو:

- سأمسكُ بالموقد، وأنت تمسك بالقدر.

كانت قارورة البنزين مؤمّنة جيّداً، في أقصى مقدّمة المركب، المكان

الذي يمنع فيه التدخين. فاحت رائحة الأرزّ بالدسم شهيّة، فأكلناه ساخناً، ممزوجاً بعلبتي سردين. ومن ثَمّ شربنا قهوة لذيذة.

قال ماتوريت:

- ما رأيكم بقدحٍ من الروم؟

رفضتُ مقترحه، لأنّ الجوّ كان حارّاً جدّاً، كما أنني لستُ مدمناً على الشراب. ظلّ كلوزيو يلفّ لي، في كلّ لحظة، لفافة تبغٍ ويشعلها. مرّت الوجبة الأولى التي تناولناها على متن المركب بطريقة حسنة. ومن خلال موقع الشمس في السماء، قدّرنا أنّ الساعة هي العاشرة صباحاً. كنّا في عرض البحر منذ خمس ساعات فقط، ومع ذلك كنّا نشعر أنّ قاع البحر من تحتنا عميقٌ جدّاً. انخفض مستوى ارتفاع الأمواج، وسرنا نعبرها من دون أن يرتطم المركب بها. كان النهار رائعاً. وضعتُ في الحسبان أنني لا أحتاج، خلال النهار، إلى البوصلة باستمرار. ومن وقتٍ لآخر، كنتُ أحدّد وجهة الشمس مقارنةً بمؤشّر البوصلة، وأتوجّه وفق ذلك، فتجري الأمور بسهولة ويسر. أرهق انعكاس الشمس على صفحة الماء عينيّ، فندمتُ على عدم اقتناء نظاراتٍ سوداء.

وعلى حين غرّةٍ، قال لي كلوزيو:

- كان حظّاً سعيداً أن ألتقي بك في المستشفى!

- لم تكن لوحدك محظوظاً، فأنا أيضاً كنتُ محظوظاً بمجيئك.

فكّرتُ بديغا وفرناندو... لو أنّهما وافقا على رأيي، لكانا معنا الآن في هذه الرحلة.

قال كلوزيو:

- لستُ متأكّداً. كنت ستواجه مصاعب في اللقاء بالعربي في الوقت المحدّد في المهجع.

- نعم، لقد كان ماتوريت مفيداً جدّاً لنا، وأنا أهنّئ نفسي على اصطحابه معنا لأنّه متفانٍ جدّاً، وشجاعٌ وحاذق.

قال ماتوريت:

- شكراً، شكراً لكما لأنكما وثقتما بي رغم حداثة سنّي ورغم ما أنا عليه. سوف أبذل دائماً ما بوسعي لأكون جديراً بهذه الثقة.

ثمّ قلت:

- وفرانسوا سييرا، الذي رغبتُ أشدّ الرغبة في أن يكون هنا معنا، وكذلك غالغاني...

- لأنّ الأمور تغيّرت، يا بابيون، لم يكن ذلك ممكناً. لو كان جيزوس رجلاً مستقيماً وقدّم لنا قارباً جيّداً، لاستطعنا أن ننتظرهما في المخبأ. كان جيزوس سيهرّبهما، ونحن نصحبهما معنا. وفي النهاية، هما يعرفانك جيّداً ويعرفان أنّك لم تصحبهما، لأنّ ذلك كان مستحيلاً.

- بالمناسبة، يا ماتوريت، كيف حدث أن وجدتَ نفسكَ في تلك القاعة الخاضعة للرقابة المشدّدة في المستشفى؟

- لم أكن أعلم أنني محتَجَز. ذهبتُ لزيارة العيادة لأنني كنتُ أعاني من ألمٍ في حلقي، وأيضاً لكي أتنزّه، وحينما رآني الطبيب، قال لي: «لقد رأيتُ في بطاقتك أنّك محتَجَزٌ في الجُزر، ما هو سبب احتجازك؟» - «لا أدري، يا دكتور. ما معنى محتَجَز؟» - «حسناً، لا شيء، هيّا اذهب إلى المستشفى». ووجدتُ نفسي منقولاً إلى المستشفى، هذا كلّ ما في الأمر.

قال كلوزيو:

- أراد أن يسدي لك خدمة.

- لا أدري ما هو الدافع الذي جعل الطبيب يفعل هذا. لا بدّ أنّه قد قال في نفسه: «هذا الصبيّ الذي حميته، على الرغم من وجهه الطفولي البريء، ليس على هذه الدرجة من الغباء طالما تمكّنَ من الفرار من السجن».

بدأنا نتفوّه بترّهات. قلتُ: «وما يدريكم ربّما سنلتقي مع جولو، الرجل ذو المطرقة. لا بدّ أنّه بعيدٌ، إلّا إذا كان لا يزال مختبئاً في الدَّغَل». قال كلوزيو: «أمّا أنا، فحينما غادرت، تركت رسالة تحت وسادتي: رحلتُ من دون أن أترك عنواناً». وضحكنا جميعاً ضحكة مجلجلة.

واصلنا الإبحار خمسة أيامٍ بهدوء وبلا حوادث. في النهار، كانت

الشمس بمسارها الشرقي-الغربي تخدمني مثل بوصلةٍ. وفي الليل، كنتُ أستخدم البوصلة. في صبيحة اليوم السادس، استقبلتنا شمسٌ حارقة وهدأ البحر على حين غرّة، وقفزت بعض الأسماك خارجةً من الماء إلى الهواء قريباً من مركبنا. كنتُ في غاية الإنهاك، ولكي يمنعني من النوم في تلك الليلة، كان ماتوريت يمرّر على وجهي قطعة من القماش المبلّل بماء البحر، ورغم ذلك عجزتُ عن المقاومة وكانت عيناي تغمضان. ولإيقاظي، عمد كلوزيو إلى وضع جمرة سيجارته على جسدي. ولأنّ البحر هدأ، قرّرت أن أنام. أنزلنا الشراع والزاويّ الأمامي وأبقينا فقط على القِلْع مرفوعاً، واستسلمت للنوم مثل جثّة هامدة في قعر المركب، محمياً تماماً من الشمس بفضل الشراع الذي نُشرِ فوقي مثل مظلّة. استيقظتُ على يد ماتوريت الذي هزّني وقال لي: «إنّها الساعة الثانية عشرة أو الواحدة بعد منتصف الظهيرة، لكنني أيقظتك لأنّ الهواء بدأ يصبح بارداً، وثمّة سوادٌ يخيّم على الأفق من الجهة التي تهبّ منها الرياح». نهضتُ وأخذتُ مكاني خلف الدفّة، ودَفَعَنا القِلْع، الذي رفعناه وحده، على السطح الهادئ للبحر بسلاسة. خيّم السواد خلفي من جهة الشرق، وازدادت برودة الهواء تدريجياً. كان القِلْع والزاويّ كافيين لسحب المركب بسرعة كبيرة، أحكمتُ ربط الشراع الملفوف حول الصاري، وقلت:

- اثبتوا جيّداً، لأنّ ما يحدث هو عاصفة.

بدأت قطراتٌ كبيرة تنهمر علينا، وذاك السواد يقترب منّا بسرعة مثيرة للدُّوار، وفي أقلّ من ربع ساعة انسدّ الأفق أمامنا. لقد قضي الأمر، فقد وصلت العاصفة، وهبّت علينا ريحٌ عاتية لم يُشهَد لها مثيل. وتشكّلت، فجأةً كما لو بلمسة سحر، أمواجٌ بسرعة مذهلة يعلوها الزبد. احتجبت الشمس تماماً، وانهمر المطر مدراراً، ولم نعد نرى شيئاً أمامنا، ونثرت الأمواج وهي تضرب المركب رذاذاً لاسعاً على وجوهنا. إنّها العاصفة، إنّها العاصفة الأولى التي تضربنا، مع كلّ صخب الطبيعة الهائجة، والرعد والبرق والمطر، والأمواج وأزيز الرياح التي هبّت علينا، ومن حولنا.

بات القارب في مهبّ العاصفة مثل قشّةٍ وصار يصعد إلى ارتفاعات هائلة وينزل إلى مهاوي سحيقة بحيث شعرنا أننا لن نخرج منها. ومع ذلك، وعلى الرغم من هذا الغطس الهائل، صمد القارب وصعد من جديد واجتاز ذرى موجة جديدة وعبرها. أمسكتُ بمقبض الدفّة بكلتا يدي، وفكّرتُ أنّه من المستحسن أن أقاوم قليلاً موجة ضخمة أعلى مما رأيتها وهي تأتي. وفي اللحظة التي انعطفتُ لقطعها، بسرعة كبيرة بالتأكيد، دخلت كمية كبيرة من الماء إلى القارب وانغمر بالكامل. لا بدّ أنّ الماء ارتفع داخل القارب بعلو خمسة وسبعين سنتيمترا. بانفعالٍ ورغماً عنّي اجتزتُ موجةً، وهو أمرٌ في غاية الخطورة، فمال المركب ميلاناً شديداً بحيث بات على وشك أن ينقلب، الأمر الذي جعله يُفرغ بنفسه كميّة كبيرة من الماء الذي كان قد دخل إليه.

صرخ كلوزيو:

- أحسنت! أنت بارعٌ في الملاحة يا بابيون! لقد أفرغت بسرعة مركبك.

قلت:

- نعم، لقد رأيت بنفسك!

لو كان يعلم أنّه بسبب نقص خبرتي كدنا أن نغرق من خلال انقلاب مركبنا في أعالي البحر! قرّرتُ ألّا أعود إلى مصارعة مسار الأمواج، ولم أعد أبالي بالاتجاه الذي نسلكه، وأصبح هاجسي الوحيد أن أحافظ قدر المستطاع على توازن مركبي. صعدتُ الأمواج بزاوية مائلة، ونزلتُ طواعيةً مع الأمواج وصعدتُ مع البحر نفسه. أدركتُ سريعاً إنّ اكتشافي كان مهمّاً وأنني بذلك أزلتُ ثمانين بالمئة من الخطر. توقّف المطر عن الهطول، لكنّ الرياح كانت لا تزال تهبّ هائجةً، ولكن أتاح لي ذلك الآن أن أرى بوضوح أمامي وخلفي. كان الجوّ أمامي صحواً، بينما كانت الغيوم خلفي سوداء ومكفهرّة، ونحن كنّا عالقين بين هاتين الحالتين المتناقضتين لأقصى درجة.

انقضى كلّ شيء بحلول الساعة الخامسة. أشرقت الشمس علينا

من جديد، وتراجعت شدّة الرياح التي غدت طبيعية، وانخفض مستوى ارتفاع الأمواج، فرفعتُ الشراع وانطلقنا من جديد، سعداء بأنفسنا. وأفرغ صديقاي المركب من الماء الفائض باستخدام القدور. أخرجنا الأغطية، ونشرناها على الصاري، فجفّت سريعاً نتيجة لتعرّضها للرياح. ثمّ تناولنا الأرزّ والطحين والزيت وشربنا القهوة مضاعفةً واحتسينا قدحاً من الروم. مالت الشمس نحو المغيب منيرةً بأشعّتها سطح البحر الأزرق في لوحة بديعة لا تُنسى: السماء مصبوغة باللون البرتقالي المائل للبنيّ، والشمس الغارقة جزئياً في البحر تبعث ألسنة ضخمة صفراء اللون، نحو السماء وكذلك نحو بعض السحب البيضاء المتناثرة فيها، وكذلك نحو البحر؛ والأمواج الصاعدة كانت زرقاء في أسفلها، وتتحوّل إلى خضراء، بينما تكون ذراها حمراء أو وردية أو صفراء حسب لون الشعاع الذي يلامسها.

خالجني شعورٌ غير عاديٍّ بالأمان، وخالط هذا الشعور بالأمان إحساسٌ بقدرتي على الثقة بنفسي. فقد أحسنتُ التصرّف في مغالبة هذه العاصفة القصيرة التي كانت مفيدة جدّاً بالنسبة لي. لقد تعلّمتُ بنفسي كيف أتصرّف في هكذا حالات. وسوف أقتحم الليل بصفاءٍ تامّ.

سألتُ متباهياً:

– إذاً يا كلوزيو، أرأيت الحركة التي قمت بها لتفريغ المركب من الماء؟

– يا صديقي، لو لم تفعل ذلك، ولاقينا موجة عرضية ثانية لغرقنا. أنت بطل.

سأل ماتوريت:

– هل تعلّمت كلّ هذا في الكلية البحرية؟

– نعم، ها إنّك ترى أنّ دروس الكلية البحرية الحربية مفيدة في بعض الأمور.

اضطررنا لأن ننحرف كثيراً عن مسارنا، ومن حركة الرياح والأمواج المماثلة، سنعرف مقدار انحرافنا خلال أربع ساعات. سأسير باتجاه الشمال الغربي لأصحّح المسار. حلّ الليل على حين غرّة ما إنْ اختفت

الشمس في البحر مرسلةً آخر شراراتها البنفسجية اللون هذه المرّة، مثل ألعابٍ نارية. أبحرنا ستّة أيامٍ إضافية من دون أن نواجه مشكلات حقيقية، اللّهمّ سوى بعض شذراتٍ عاصفةٍ وأمطارٍ لم تتجاوز مدّتها ثلاث ساعات ولم تكن بالزمن الطويل نفسه الذي استغرقته العاصفة الأولى. هذا الصباح، في تمام الساعة العاشرة، كان الجوّ هادئاً تماماً لا أثر للرياح، والبحر هادئ للغاية. نمتُ قرابة أربع ساعات، وحينما استيقظت، أحسستُ بحرقةٍ في شفتَيّ، كان جلدهما قد انسلخ تماماً، وكذلك حال أنفي. وكذلك يدي اليمنى كانت متقشّرة الجلد تماماً. وكان ماتوريت وكلوزيو قد تعرّضا لما تعرّضتُ له بالذات. دهنّا وجوهنا وأيادينا بالزيت مرّتين في اليوم، ولكن لم يكن ذلك كافياً، فالشمس الاستوائية كانت تجفّفها سريعاً.

لا بدّ أنّ الساعة كانت الثانية بعد الظهيرة، حسب وضعية الشمس. تناولت الطعام ومن ثَمّ، ولأنّ الجوّ كان صحواً، أعددنا مظلّة باستخدام الشراع لنستظلّ بها. جاءت أسماكٌ تسبح بالقرب من المركب عند الموقع الذي غسل ماتوريت فيه الأواني. أمسكتُ بساطور وطلبتُ من ماتوريت أن يُلقي بعض حبّات الأرزّ التي ما إنْ تبلّلت بالماء حتى انتشت. تجمّعت الأسماك في موقع سقوط الأرزّ وكادت أن تطفو على السطح، وحينما برز رأس سمكةٍ خارج الماء، عاجلتُها بضربةٍ قويّةٍ جعلت بطنها يطفو على السطح. كانت سمكةً تزن عشرة كيلوغرامات، فقمنا بتنظيفها ومن ثَمّ طبخها بالماء والملح، وأكلناها في المساء مع طحين المنيهوت.

ها قد مضى أحد عشر يوماً ونحن في عرض البحر، ولم نرَ طيلة هذه الأيام سوى سفينة واحدة في الأفق كانت تُبحرُ بعيدة عنّا.

بدأتُ أتساءلُ في أيّ جحيم نحن. بكلّ تأكيد نحن في عرض البحر، ولكن في أيّ موقعٍ بالنسبة إلى ترينيداد أو أيّ جزيرة أخرى من الجزر الإنكليزية. يقول المثل: حينما تتحدّث عن الذئب، يحضر... في الواقع، ظهرت أمامنا مباشرةً نقطة سوداء بدأت تكبر شيئاً فشيئاً. ترى أهي سفينة

أم زورق كبير في أعالي البحر؟ لقد أخطأنا الظنّ، فهي لم تكن مقبلة نحونا. إنّها سفينة وبتنا الآن نراها بوضوح وهي تسير متحرّكة في مسارنا. صحيحٌ أنّها كانت تقترب، ولكن في طريقٍ منحرفٍ، ولم يكن مسارها يعترض طريقنا. وبما أنّه لم تكن هناك رياحٌ قويّة، كان شراع مركبنا متدليّاً تماماً، وبالتأكيد لم ترنا السفينة. وعلى حين غرّة، انطلق صوت صفّارة إنذارٍ، ومن ثَمّ سمعنا صوت ثلاث طلقاتٍ نارية، ثمّ غيّرت مسارها وأقبلت بطريقٍ مستقيمٍ نحونا.

قال كلوزيو:

- أتمنى ألّا تقترب منّا كثيراً.

- لا خطر منها، فسطح البحر هادئٌ وأملسُ مثل الزجاج.

كانت ناقلة نفط، وكلّما اقتربت منّا أكثر شاهدنا على متنها أناساً، أدركنا أنّهم بالتأكيد يتساءلون عمّا يفعله هؤلاء الناس في مركبٍ صغيرٍ بحجم قشرة جوز، هنا في عرض البحر.

اقتربت السفينة منّا بهدوء، وبتنا نرى الآن بوضوح على متنها الضباط، ورجالاً آخرين من الطاقم، وكذلك الطبّاخ، ومن ثَمّ رأينا نساءً بأثوابٍ مبرقشة ورجالاً بقمصانٍ ملوّنة يصعدون إلى سطح السفينة. وأدركنا أنّ هؤلاء مجموعة من المسافرين. مسافرون على متن ناقلة نفط، وقد بدا لي هذا الأمر نادراً. اقتربت الناقلة بهدوء وتحدّث القبطان معنا باللغة الإنكليزية:

- من أين أنتم قادمون؟

- من غويانا الفرنسية.

سألت امرأةٌ:

- هل تتحدّث الفرنسية؟

- نعم يا سيدتي.

- ماذا تفعلون في عرض البحر؟

- نذهب إلى حيث يشاء اللّه.

تحدّثت السيّدة مع القبطان، ثمّ قالت: «يطلب القبطان منكم الصعود إلى متن الناقلة، وسوف يرفع قاربكم الصغير».

- أخبريه أننا نشكره ولكننا بأحسن حالٍ على متن مركبنا.
- لماذا لا تُريدون المساعدة؟
- لأنّنا فارّون من السجن ولا نسير في الاتجاه الذي تسلكونه.
- إلى أين تذهبون؟
- إلى المارتينيك أو ربّما إلى أبعد منها. أين نحن الآن؟
- في عرض البحر.
- أيّ طريق نسلكه لكي نصل إلى جزر الأنتيل؟
- هل تجيدون قراءة خارطة بحرية باللغة الإنكليزية؟
- نعم.

وبعد برهةٍ، أنزلوا لنا بالحبل خارطةً إنكليزية، وعُلباً من السجائر، وخبزاً، وفخذ خاروفٍ مشويةً.

قالت السيّدة:

- انظرْ في الخارطة!

نظرتُ في الخارطة وقلت:

- يجب أن أتّجه إلى الغرب وأميل بعض الشيء إلى الجنوب لكي نصل إلى جزر الأنتيل الإنكليزية، هل هذا صحيح؟
- نعم.
- كم ميلاً تبلغ المسافة على وجه التقريب؟

قال القبطان:

- سوف تصلون إلى هناك خلال يومين.
- إلى اللقاء، شكراً لكم جميعاً!
- يهنّئك قائد السفينة على شجاعتك كبحّار!
- شكراً، وداعاً!

وغادرت ناقلة النفط بهدوء، وهي تكاد تلامسنا، فابتعدتُ عنها خشيةً

من دوّامة مراوحها، وفي تلك اللحظة، ألقى أحد البحارة إليّ قبّعة بحرية. سقطت القبّعة في وسط المركب تماماً. وأنا أعتمرُ تلك القبّعة التي تحمل شريطاً ذهبيّاً ومرساةً بحرية، وصلنا بعد يومين من دون حوادث إلى ترينيداد.

ترينيداد

أنبأتنا الطيور باقترابنا من اليابسة قبل أن نراها بوقتٍ طويل. كانت الساعة السابعة والنصف صباحاً حين جاءت تحوم من حولنا. «لقد وصلنا، يا رجال! لقد وصلنا! لقد نجحنا في الجزء الأوّل من الفرار، الجزء الأصعب. تحيا الحرية!». عبّر كلٌّ منّا عن فرحته بصيحاتٍ طفولية. كانت وجوهنا مغطّاة بزبدة الكاكاو التي قدّمها لنا من كانوا على متن ناقلة النفط التي صادفتنا في عرض البحر، لكي نخفّف بها آلام حروقنا. نحو الساعة التاسعة، رأينا اليابسة. قادتنا ريحٌ باردة غير قويّة بسرعة مناسبة على سطح بحرٍ قليل الهيجان. وفقط عند الساعة الرابعة من بعد الظهيرة، لمحنا تفاصيل جزيرة طويلة، على سواحلها مجمّعاتٌ صغيرة من بيوت بيضاء، وقمّتها مغطّاة بأشجار جوز الهند. لم نكن قد اكتشفنا بعد إن كانت هذه جزيرةً بالفعل أم أنّها شبه جزيرة، ولا حتى إن كانت هذه البيوت مسكونة أم لا. وقد احتجنا إلى ساعة إضافية حتى رأينا أناساً يركضون صوب الشاطئ الذي كنّا نتّجه نحوه. وفي أقلّ من عشرين دقيقة، اجتمعت جمهرة من الناس بثيابٍ مزركشة. كانت هذه القرية الصغيرة قد خرجت عن بكرة أبيها إلى شاطئ البحر لتستقبلنا. وقد علمنا لاحقاً أنّها تُدعى سان فيرناندو.

على بعد ثلاثمئة مترٍ من الشاطئ، ألقيتُ المرساة التي علقت في الحال. وقد فعلتُ ذلك لأرى أوّلاً ردّ فعل هؤلاء الناس، وأيضاً لكي أحمي مركبي من الضرر حينما يلامس القاع إن كان هذا القاع من طبيعة مرجانية. أنزلنا الأشرعة وحزمناها وانتظرنا. أقبل زورقٌ صغير نحونا،

وكان على متنه رجلان زنجيان، كانا يجدِّفان، وآخرُ أبيضُ يعتمرُ قبّعةً خاصّة بالمستعمرات.

قال الرجل الأبيض بلغة فرنسية فصيحة:

- مرحباً بكم في ترينيداد.

ابتسم الزنجيان ابتسامةً عريضة كشفت عن أسنانهما.

- شكراً سيّدي على هذه الكلمات الطيّبة. هل قاعُ الشاطئ مرجانيٌّ أم رمليّ؟

- إنّه رمليّ، ويمكنكم الوصول إلى الشاطئ بلا مخاطر.

سحبنا المرساة ودفعتنا الأمواج بهدوءٍ إلى الشاطئ. وما كدنا نلامس الشاطئ حتى خاض عشرة رجالٍ في الماء وسحبوا دفعةً واحدة المركب إلى اليابسة. نظروا إلينا، ولمسونا في حركاتٍ ملاطفة، وتقدّمت نسوة زنجيات أو من أصولٍ صينية أو هندية وبادرننا بحركات ترحيبية. أراد الجميع أن يستضيفونا في منازلهم، حسبما شرح لي الرجل الأبيض باللغة الفرنسية. التقط ماتوريت حفنةً من الرمل ورفعها إلى فمه ليقبّلها. كان شيءٌ من الهذيان. وحينما شرحتُ للرجل الأبيض حالة كلوزيو، نقله إلى بيته القريب جدّاً من الشاطئ. أخبرنا بأننا نستطيع أن نترك كلّ شيء في القارب حتى الصباح، وأنّ لا أحد سوف يمسّ شيئاً من محتوياته. كان الجميع يخاطبونني بلقب «القبطان»، وضحكتُ من هذا اللقب الذي خصّوني به. كان الجميع يقول لي باللغة الإنكليزية: «قبطانٌ بارع، ورحلة طويلة على متن قاربٍ صغير!».

هبط الليل، وبعد أن طُلِبَ أن يُدفع المركب لمسافة أبعدِ بعض الشيء ويُربَط بمركبٍ آخرَ أكبر حجماً بكثير، مركونٍ على الشاطئ، لحقتُ بالرجل الإنكليزي إلى بيته، الذي كان عبارة عن مسكن من طابقٍ واحد كالذي يمكن أن نراه في كلّ أرضٍ إنكليزية؛ وفيه سلّمٌ خشبي من عدّة درجات، وبابٌ ذو ستارة معدنية. دخلتُ وراء الرجل الإنكليزي، يتبعني ماتوريت. وحينما دخلت رأيت كلوزيو جالساً على أريكة، ورجله المكسورة ممدودة فوق كرسيٍّ، محاطاً بامرأة وفتاة.

قال السيّد:

- هذه زوجتي، وهذه ابنتي. وعندي ولدٌ يدرس في إنكلترا.

قالت السيّدة باللغة الفرنسية:

- أهلاً وسهلاً بكم في هذا المنزل.

قدّمت لنا الفتاة كرسيين من الخيزران، وهي تقول:

- تفضّلا بالجلوس.

- شكراً لكما سيّدتَيَّ، لا تتعبا نَفسَيكما من أجلنا.

- لماذا؟ نحن نعرف من أين أتيتم، خذوا راحتكم، وأكرّر القول لكم: أهلاً وسهلاً بكم في هذا المنزل.

الرجل محامٍ يُدعى ماستر بوين، ويقع مكتبه في العاصمة، على بعد أربعين كيلومتراً، في بورت أوف سبين، عاصمة ترينيداد. قدّموا لنا أكواباً من الشاي بالحليب وخبزاً محمّصاً، وزبدةً، ومربّى. ماذا أقول لكم؟ لقد كانت هذه سهرتنا الأولى كرجالٍ أحرار، ولن أنساها أبداً. لم يتفوّه أحدٌ بكلمة واحدة عن ماضينا، ولم يطرح أحدٌ أيّ سؤالٍ فضولي، بل تركّز الحديث عن عدد الأيام التي أمضيناها في البحر، وكيف سير الرحلة؛ وعمّا إذا كان كلوزيو يتألّم كثيراً، وإذا ما كنّا نرغب في إبلاغ الشرطة غداً أو ننتظر يوماً إضافياً قبل إبلاغها؛ وسألونا إن كان آباؤنا وأمّهاتنا على قيد الحياة، وإن كان لنا زوجاتٌ وأطفال. وأخبرونا بأنّه إذا كنّا نرغب في الكتابة إلى ذوينا، سوف يودعون الرسائل في البريد. لقد كان استقبالاً استثنائياً رائعاً من جانب الناس على الشاطئ كما من جانب هذه العائلة التي أولت رعايةً يعجز عنها الوصف لثلاثة هاربين من السجن.

استشار ماستر بروين عبر الهاتف طبيباً، فأخبره هذا الأخير أن ينقل الجريح كلوزيو إلى عيادته بعد ظهيرة يوم الغد ليجري له تصويراً شعاعياً، ويرى ما الذي ينبغي فعله من أجله. اتّصل ماستر بوين هاتفياً بقائد جماعة

جيش الخلاص (The Salvation Army)[1] في العاصمة بورت أوف سبين، فأخبره هذا الأخير بأنّه سيحجز لنا غرفة في فندق جيش الخلاص، يمكننا النزول فيها حينما نشاء، وبأن نحتفظ بمركبنا، إن كان في حالةٍ جيّدة، لأننا سوف نحتاج إليه في استئناف رحلتنا. وسأل إن كنّا من السجناء المحكومين بالأشغال الشاقّة أم من المنفيين، فأجبناه بأنّنا سجناء محكومون بالأشغال الشاقّة. وقد بدا أنّ المحامي قد سُرّ لكوننا سجناء محميّين لا مبعَدين.

قالت لي الفتاة:

– هل تريدون أن تستحمّوا وتحلقوا ذقونكم؟ لا ترفضوا ذلك، فهذا لا يزعجنا في شيء. سوف تجدون في الحمّام أدوات ولوازم وألبسة، أتمنى أن تكون مناسبة لكم.

دخلتُ إلى الحمّام واستحممت، وحلقتُ ذقني، وسرّحتُ شعري، ومن ثَمّ خرجتُ وأنا أرتدي سروالاً رماديّ اللون وقميصاً أبيض، وأنتعل حذاءً رياضيّاً، وزوجاً من الجوارب البيضاء اللون.

دقّ رجلٌ هندي الباب، وهو يمسك تحت ذراعه حزمة أعطاها للفتى ماتوريت وهو يقول له بأنّ الطبيب قد لاحظ أنّ طول قامتي، أنا بابيون، قريبٌ من طول قامة الطبيب، وبالتالي لن أحتاج إلى أيّ شيءٍ من هنا لأرتديه لأنّ الطبيب سوف يقدّم لي من ثيابه، ولكنّ الفتى ماتوريت، وبسبب قصر قامته، لن يجد ما يناسبه من ثياب، لأنّه ليس هناك أحدٌ من أسرة المحامي بالقِصَرِ نفسه الذي لقامة ماتوريت لكي يقدّم له ثياباً من عنده. انحنى أمامنا كما يفعل المسلمون وانسحب. ماذا يمكنني أن أقول لكم أمام كلّ هذه الطيبة؟ إنّ العاطفة والمشاعر الجيّاشة التي يفيض بها قلبي لا توصف. كان كلوزيو أوّل من ينام، في حين تبادلنا نحن الخمسة بعض الأفكار حول الأمور المختلفة. ما أثار فضول أولئك النسوة الساحرات هو ما الذي نفكّر في القيام به من أجل إعادة بناء حياتنا.

1- جيش الخلاص: جماعة مسيحية بروتستانتية دولية مستقلّة عن الكنائس تقوم بأعمال خيرية لمساعدة الفقراء – المترجم.

لم نتحدّث في شيءٍ عن الماضي، بل تركّز كلّ حديثنا على الحاضر والمستقبل. عبّر ماستر بوين عن أسفه لكون ترينيداد لا تقبل بأن يقيم هاربون من السجن في الجزيرة. وقد شرح لي بأنّه قد طالب لمرّات عديدة بتبني هذا الإجراء بالنسبة إلى بعض الأشخاص، لكنّهم لم يقبلوا بذلك أبداً.

كانت الفتاة تتكلّم بلغة فرنسية فصيحة، مثلها مثل الأب، من دون لكنة خاصّة أو خطأ في اللفظ. كانت فتاة شقراء، يملأ النمش وجهها، وتبلغ من العمر ما بين سبعة عشر وعشرين عاماً، إذ لم أجرؤ على سؤالها عن عمرها. قالت:

- أنتم ما زلتم شباباً والحياة تنتظركم، لا أدري ما الذي فعلتموه حتى حُكِم عليكم ولا أرغب في معرفة ذلك، ولكن امتلاككم لشجاعة الإلقاء بنفسكم في البحر في قاربٍ بهذا الحجم الصغير لكي تقوموا برحلة طويلة جدّاً ومحفوفة بمخاطر جسيمة، يدلّ على أنّكم على استعدادٍ لأن تقامروا بأيّ ثمنٍ كان لكي تكونوا أحراراً، وهذا أمرٌ يستحقّ الاحترام والتقدير.

نمنا حتى الساعة الثامنة صباحاً. حينما استيقظنا، وجدنا أنّ المائدة جاهزة. أخبرتنا السيّدة بكلّ بساطة وبطريقة طبيعية أنّ ماستر بوين قد سافر إلى بورت أوف سبين، وأنّه لن يعود إلّا بعد الظهيرة، وأنّه قد أعطى التعليمات الضرورية للقيام بخدمتنا.

هذا الرجل الذي ترك بيته، وفيه ثلاثة محكومين بالأشغال الشاقّة هاربين، يُعطينا درساً لا مثيل له، أراد من خلاله أن يقول لنا: أنتم أشخاصٌ أسوياء؛ فأنا أعرفكم فقط منذ اثنتي عشرة ساعة، ولكن لديّ ما يكفي من الثقة بكم لكي أدعكم لوحدكم مع زوجتي وابنتي. بأسلوبه الصامت هذا، أراد أن يقول لنا: لقد رأيتُ بعد المناقشة معكم أنتم الثلاثة، بأنّكم رجالٌ جديرون بالثقة تماماً إلى درجة أنني لم أشكّ للحظة بأنّكم قد تتصرّفون بطريقة سيّئة في بيتي، لا بالفعل، ولا بالتصرّف، ولا بالكلام، فقد تركتكم في منزلي كما لو أنّكم أصدقاء قدماء لي. وقد أثّرت فينا هذه البادرة أعمق تأثير.

لستُ مثقّفاً مقتدراً بحيث أصف لك أيّها القارئ - إذا ما قُدِّر أن يكون لهذا الكتاب قرّاء ذات يوم - بالتكثيف الضروري، والموهبة الفذّة، هذا الإحساس والشعور الرائع باحترام ذواتنا، كلا: ليس فقط احترام ذواتنا، بل وإعادة تأهيلٍ وحياةٍ جديدة. هذه المعمودية الخيالية، وحمّام الطهارة هذا، وهذا السموّ بوجودي فوق الوحل الذي كنتُ قد أُغرقتُ فيه، وهذه الطريقة في وضعي أمام مسؤولية حقيقية بين ليلةٍ وضحاها، قد جعلت مني للتوّ وبطريقة في غاية البساطة رجلاً آخرَ مختلفاً تماماً عن هذا المحكوم بالأشغال الشاقّة، الفارّ المعقّد، الذي، حتى بعد إطلاق سراحه، لا يزال يسمع صرير أغلاله ويعتقد في كلّ لحظة أنّ أحداً ما يراقبه، وأنّ كلّ ما عاشه ومرّ به وتحمّله، وكلّ ما تعرّض له، وكلّ ما يشدّه لأن يكون رجلاً معتوهاً وفاسداً وخطيراً في كلّ لحظة، مطيعاً على نحوٍ سلبيّ ظاهرياً، وخطيراً على نحوٍ مرعب في ثورته، كلّ هذا قد اختفى كما لو أنّه بلمسة ساحرة. شكراً أيّها المعلّم بوين، محامي صاحب الجلالة، شكراً لأنّك جعلت منّي رجلاً مختلفاً في وقتٍ قصيرٍ للغاية!

الفتاة الشقراء ذات العينين الزرقاوين زرقة البحر والتي تعتني بنا، تجلس معي تحت أشجار جوز الهند في حديقة دارة والدها. وكانت أزهار البوغَنْفيليا بألوانها الحمراء والصفراء والبنفسجية تُضفي على هذه الحديقة اللمسة الشاعرية اللازمة في هذه اللحظة. قالت:

- يا سيد هنري (قالت لي يا سيّد. منذ متى لم يناديني أحد بكلمة سيّد!)، كما قال لك أبي البارحة، بسبب الموقف الغبي والجائر للسلطات الإنكليزية، لا يمكنكم للأسف البقاء هنا. سوف تمنحكم السلطات مهلة خمسة عشر يوماً فقط لكي ترتاحوا وتستأنفوا رحلتكم في البحر. ذهبتُ في الصباح الباكر وتفقّدتُ مركبكم، إنّه خفيفٌ جدّاً وصغيرٌ جدّاً لهذه الرحلة الطويلة جدّاً التي تنتظركم. تمنّياتي لكم أن تنزلوا في بلدٍ أكثر إكراماً للضيف من بلدنا وأكثر تفهّماً لوضعكم.

لجميع الجزر الإنكليزية طريقة التعامل نفسها مع هذه الحالات.

أطلب منكم، إذا ما عانيتم كثيراً في رحلتكم القادمة، ألّا تحقدوا على شعب هذه الجزر. فهو ليس مسؤولاً عن هذه الطريقة في التعامل، وإنّما هي أوامر إنكلترا، الصادرة عن أناسٍ لا يعرفونكم. عنوان أبي هو رقم مئة وواحد، كوين ستريت، بورت أوف سبين، ترينيداد. أناشدكم، إذا شاء الربّ أن يقدّر لكم ذلك، أن تكتبوا لنا بضع كلمات لكي نعرف مصيركم.

تأثّرتُ كثيراً لدرجة أنني لم أعرف بماذا أجيبها. اقتربت السيّدة بوين منّا. كانت سيّدة في غاية الجمال وتبلغ حوالي الأربعين من العمر، شعرها أشقر يميل للكستنائي، وعيناها خضراوين. ترتدي فستاناً أبيض اللون، بسيطاً جدّاً، مربوطاً بشريطٍ أبيضَ، وتنتعل زوجاً من الصنادل، خضراء كاشفة. قالت:

– يا سيّد، لن يعود زوجي إلّا في الساعة الخامسة. إنّه يسعى إلى الحصول على إذنٍ بأن تسافروا دون مرافقة الشرطة في سيارته الخاصّة إلى العاصمة. كما أنّه يرغب في أن يجنّبكم النوم، في الليلة الأولى، في مركز شرطة بورت أوف سبين. وسوف يذهب صديقك الجريح مباشرةً إلى عيادة طبيبٍ صديقٍ، وستذهبان أنتما الاثنان إلى فندق جيش الخلاص.

جاء ماتوريت ينضمّ إلينا في الحديقة، وكان قد ذهب لتفقّد القارب المُحاط ببعض الفضوليين، كما قال لي. لم يكن قد مُسّ أيّ شيءٍ فيه. وخلال تفقّد المركب، كان الفضوليون قد عثروا على طلقة مرمية تحت الدفّة، وقد طلب منه أحدهم الإذن بأن يأخذها تذكاراً. وقد أجاب: «قبطان، قبطان»، وقد فهم الرجل الهندي أنّ عليه أن يسأل القبطان، وقال لي: «لماذا لا نُطلق سراح السلحفاتين؟».

فسألت الفتاة:

– ألديكم سلاحف؟ هيّا بنا لنراها.

ذهبنا إلى المركب. وفي الطريق، أمسكت امرأةٌ هندية قصيرة القامة بيدي دون كلفة. وقال الحضور المتنوّع، باللغة الإنكليزية: نهارك سعيد.

أخرجتُ السلحفاتين من المركب، وقلت:

«ماذا نفعل بهما؟ هل نُلقي بهما في البحر؟ أم أنّكِ تريدينهما لتضعيهما في حديقة منزلكم؟».

- الحوض الداخلي للحديقة مليءٌ بماء البحر. سوف نضعهما في هذا الحوض، وبذلك سأحتفظ بذكرى منكم.

- «حسناً، لكِ ذلك».

وزّعتُ على الحاضرين كلّ ما كان في القارب، ما عدا البوصلة والتبغ وبرميل الماء والمدية وسيف البحر والفأس، والأغطية والمسدّس الذي خبّأته بين الأغطية فلم يره أحد.

وصل ماستر بوين في الساعة الخامسة وقال: «يا سادة، لقد تمّ ترتيب كلّ شيء، سوف أصحبكم بنفسي إلى العاصمة. سوف نودع الجريح أوّلاً في عيادة الطبيب، ومن ثَمّ نذهب إلى الفندق».

أجلسْنا كلوزيو في المقعد الخلفي للسيارة. كنتُ أهمّ بتوديع الفتاة حينما جاءت أمّها ومعها حقيبة وقالت: «تفضّلوا بقبول بعض اللوازم، مقدّمة من زوجي، نقدّمها لكم بكلّ طيبة خاطر». ما عساي أن أقول أمام هذه الطيبة الإنسانية؟ قلتُ لها: «شكراً، شكراً جزيلاً من القلب». وانطلقنا بالسيارة التي كان مقودها إلى اليمين. وصلنا إلى العيادة في الساعة السادسة إلّا ربعاً. كانت تُسمى عيادة سان جورج. حمل ممرّضون كلوزيو على نقالة إلى قاعة يجلس فيها رجلٌ هندي على سريره. جاء الطبيب وصافح بوين، ومن ثَمّ صافحنا. لم يكن يتحدّث الفرنسية ولكنه أفهمنا عبر مترجمٍ بأنّ كلوزيو سوف يحظى بالعناية التامّة، وأننا نستطيع أن نأتي لزيارته متى شئنا ذلك. عبرنا المدينة بسيارة بوين، وقد انبهرنا بأضوائها وسيّاراتها ودرّاجاتها الهوائية. كان السكان البيض والزنوج والصفر والهنود والصينيون يسيرون جنباً إلى جنب على أرصفة تلك المدينة المبنية بأكملها من الخشب، والتي تُدعى بورت أوف سبين. وصلنا إلى فندق جيش الخلاص، وهو فندقٌ، الطابق الأرضي منه فقط مبنيٌّ من الحجر، أمّا بقية طوابقه فكانت مبنية من الخشب. وهو يقع في

ساحة حسنة الإضاءة، حيث استطعتُ أن أقرأ على لوحةٍ عبارةَ «سوق السمك» مكتوبة باللغة الإنكليزية. لدى وصولنا، استقبلنا نقيب جيش الخلاص برفقة كلّ قيادة أركانه من النساء والرجال. كان يتكلّم الفرنسية قليلاً، أمّا الآخرون فكانوا جميعاً يتحدّثون معنا باللغة الإنكليزية التي لا نفهمها، ولكنّ وجوههم كانت بشوشة، وعيونهم مرحة للغاية بحيث عرفنا أنّهم يوجّهون لنا كلمات لطيفة وطيّبة.

رافقونا إلى غرفةٍ في الطابق الثاني، فيها ثلاثة أسرّة – كان السرير الثالث مخصّصاً لكلوزيو – وكان هناك حمّام ملحق بالغرفة، فيه صابون ومناشف تحت تصرّفنا. بعد أن دلّنا على غرفتنا، قال لنا النقيب: «إذا أردتما تناول الطعام، يُقدّم العشاء بشكلٍ مشترك في الساعة السابعة، أي بعد نصف ساعة من الآن».

- كلا. لسنا جائعين.

- إذا أردتما الذهاب في جولة في المدينة، فهاكما دولارين لتشتريا فنجاناً من القهوة أو الشاي، أو لتناول قطعة من المثلّجات. ولكن احذرا من أن تضيعا في شوارعها. وحينما تريدان العودة، اسألا عن طريقكما بهذه الكلمات الإنكليزية فقط: من فضلكم، جيش الخلاص؟».

بعد عشر دقائق، نزلنا إلى الشارع، ومشينا على الأرصفة، وسرنا بين الناس. لم ينظر أحدٌ إلينا ولم ينتبه إلينا أحد، فتنفسنا الصعداء، واستمتعنا بانفعالٍ بهذه الخطوات الأولى التي خطوناها بحريّة في المدينة. هذه الثقة المتواصلة بتركنا أحراراً في مدينة كبيرة أراحتنا، ومنحتنا ليس فقط الثقة بأنفسنا، بل أيضاً الإدراك التامّ بأنّه من المستحيل أن ننكص بهذه الثقة بأنفسنا.

سرنا ماتوريت وأنا بهدوء وسط حشود الناس. فقد كنّا بحاجة إلى أن نخالط الناس ونحسّ بهم ونصطدم بهم ويصطدموا بنا، ونندمج فيهم لكي نكون جزءاً منهم. دخلنا إلى حانةٍ وطلبنا زجاجتين من الجعّة. مع أنّنا لفظنا اسم البيرة باللغة الإنكليزية بطريقة خاطئة، بدا لنا طريفاً أن تقدّم

لنا نادلة هندية تضع خزاماً ذهبياً على شكل صدفةٍ ذهبية في أنفها، ما طلبناه، وتطلب منّا باللغة الإنكليزية: «نصف دولار، يا سيّدي». ابتسامتها التي أبرزت أسنانها اللؤلؤية، وعيناها الواسعتان بسوادهما المائل إلى البنفسجي مع تجاعيد خفيفة حولهما، وشعرها الأسود الفاحم الذي ينساب على كتفيها، وقميصها المفتوح نصف فتحةٍ تكشف عن بداية نهديها اللذين رأيناهما جميلين للغاية، كلّ هذه الأمور التي تُعدّ تافهة وطبيعية جدّاً بالنسبة إلى جميع الناس، بدت لنا، نحن، كما لو أنها مناظر خلّابة ورائعة. قلتُ في نفسي غير مصدّقٍ: كلا، يا بابي، هذا ليس حقيقياً، لا يمكن أن يكون حقيقياً أن تتحوّل فجأةً من ميّت حيّ، من سجينٍ محكومٍ بالأشغال الشاقّة المؤبّدة، إلى رجلٍ حرّ!

ماتوريت هو الذي دفع الفاتورة، ولذلك لم يبقَ معه سوى نصف دولار. كانت الجعّة باردةً ولذيذة، وقال لي: «أنشربُ زجاجةً ثانية؟» بدا لي أنّ لا داعي لجولة ثانية من الشراب، فقلتُ له:

– كلا، لم تمضِ سوى ساعة واحدة على نيلك للحرية الحقيقية، ومع ذلك تفكّر في أنْ تثمل؟

– أوه، أرجوك يا بابي، لا تبالغ في الأمر! ثمّة مسافةٌ بعيدة بين شرب زجاجتين من الجعّة والثّمَل.

– ربّما تكون على حق، ولكنني أرى أنّه بدافع اللباقة لا ينبغي علينا أن نكبّ على الملذّات التي تقدّمها لنا هذه اللحظة. أعتقد أنّه علينا أن نتذوّق طعمها تدريجيّاً وليس بشراهة. فقبل كلّ شيء، هذه النقود ليست لنا.

– نعم، هذا صحيح. أنت على حقّ. سنتعلّم أن نكون أحراراً بالقطّارة، فهذا أكثر ملاءمةً.

خرجنا من الحانة ونزلنا شارع واترز ستريت العريض، الجادة الرئيسية التي تعبر المدينة من أقصاها إلى أقصاها، ومن دون أن ننتبه إلى ذلك، ولشدّة ما كنا مأخوذين بالقطارات الكهربائية التي تمرّ، والحمير التي تجرّ عرباتها الصغيرة، والسيارات والإعلانات المضيئة لدور السينما،

والنوادي الليلية، وعيون الفتيات الزنجيات أو الهنديات اللواتي ينظرن إلينا وهنّ يضحكن، وجدنا أنفسنا في الميناء دون أن نشاء ذلك. بدت أمامنا السفن المضاءة بالكامل، سفن السوّاح بأسماءٍ أخّاذة من قبيل: بنما، لوس أنجلوس، بوسطن، كيبيك؛ وكذلك سفن الشحن من قبيل: هامبورغ، أمستردام، لندن. تمتدّ على طول الرصيف البحري، وعلى نحوٍ متلاصق، حانات ونوادٍ ليلية ومطاعم مليئة تماماً برجالٍ ونساء يشربون ويغنّون ويتخاصمون وتعلو صيحاتهم.

وعلى حين غرّة، دفعتني حاجة لا تُقاوم إلى أن أختلط بهذا الحشد من الناس، الذين ربّما كانوا شعبيين ولكن أيضاً طافحين بالحياة. على رصيف إحدى الحانات، رأينا في الواجهة الزجاجية صفوفاً من المحار وقنافذ البحر والسلطعون والسولين وبلح البحر وتشكيلة واسعة من ثمار البحر التي تجذب المارّة وتغريهم. والطاولات المغطاة بشراشف ذات مربّعات حمراء وبيضاء، المشغولة بمعظمها، تدعوك إلى الجلوس. وفتيات، ببشرة سمراء فاتحة، وملامح وجهٍ ناعمة ولطيفة، سمراوات ليس فيهن أيّ ملمح زنجي، أجسادهنّ محشورة في قمصانٍ مختلفة الألوان ومفتوحة تكشف عن صدورهنّ، يقنعنك بالاستمتاع بكلّ هذا. اقتربت من إحداهنّ وعرضتُ عليها ورقة نقدية من فئة ألف فرنك فرنسي، وقلتُ لها بلغة إنكليزية ركيكة ما معناه: «العملة الفرنسية جيّدة؟» فأجابت بلغة إنكليزية سليمة: «نعم، سوف أصرفها لك». فأخذت الورقة النقدية من يدي وتوارت في الصالة المكتظّة بالناس. ثمّ عادت وقالت لي باللغة الإنكليزية: تعال، ورافقتني إلى الصندوق حيث كان هناك رجلٌ صيني سألني:

- أأنتم فرنسيون؟

- نعم.

- أتريدون صرف ألف فرنك؟

- نعم.

- تريدون مقابلها كلّها دولارات أنتيلية؟

- نعم.

- جواز سفرك؟

- لا أحمله.

- بطاقة بحّار؟

- لا أحملها.

- أوراق هجرة؟

- لا أحملها.

- حسناً.

قال كلمتين للفتاة، فنظرتْ إلى الصالة، وذهبت إلى رجلٍ بحّارٍ يعتمر قبّعة مثل قبّعتي، لها شريطٌ ذهبي وشعار على شكل مرساة، ورافقته إلى الصندوق. قال له الصيني:

- بطاقتك الشخصية؟

- ها هي.

وبكلّ برود، حرّر الصيني بطاقة صرف ألف فرنك فرنسي باسم الرجل المجهول، وجعله يوقّع عليها وأخذته الفتاة من ذراعه ورافقته.

لم يعلم الرجل بالتأكيد ما الذي يحصل، أمّا أنا فقد قبضتُ مئتين وخمسين دولاراً أنتيلياً منها خمسون دولاراً من فئة دولارٍ واحدٍ ودولارين.

أعطيتُ دولاراً واحداً للفتاة، وخرجنا إلى الرصيف وجلسنا إلى طاولةٍ، وانكببنا على تشكيلة من ثمار البحر وزجاجة من النبيذ الأبيض اللذيذ للغاية.

الدفتر الرابع
الفرار الأوّل (تابع)

ترينيداد

أتذكّر ليلة الحرية الأولى في تلك المدينة الإنكليزية كما لو أنّها بالأمس فقط. ذهبنا إلى كلّ مكانٍ ثملين بالنور وبدفء قلوبنا، متلمسين في كلّ لحظة روح ذلك الجمهور الضاحك الفائض بالسعادة.

كانت إحدى الحانات تغصّ بالبحّارة، وبفتيات من المناطق الاستوائية ينتظرنهم لابتزازهم. ولكن تلك الفتيات لم يكنّ في شيءٍ من الابتذال أو الدناءة، ولا يُقارَنَّ بالفتيات المبتذلات في باريس أو لوهافر أو مرسيليا. لقد كنّ مختلفات تماماً، فبدل تلك الوجوه المدهونة بكميات كبيرة من مساحيق التجميل، الموسومة بالرذيلة، والمضاءة بالعيون المحمومة المليئة بالمكر، كانت الفتيات هنا من ذوات البشرة الملوّنة، بدءاً من البشرة الصفراء للصينية وحتى البشرة السوداء للزنجية الأفريقية، مروراً بذوات بشرة بلون الشوكولا الكاشف والشعر الأملس المسرّح، وصولاً إلى الهندية أو ذات الأصول الجاوية التي اقترن والداها ببعضهما في مزارع أشجار الكاكاو أو قصب السكّر. أو الصينية الهجينة من العرقين الصيني والهندي، وفي أنفها الخزام الذهبي على شكل قوقعة، أو ذات الملامح الرومانية، بوجهٍ وضّاء وبعينين واسعتين وسوداوين فيهما بريقٌ، ولهما رموشٌ طويلة، ويبرز صدرها المكشوف من تحت قميصها

المفتوح وكأنّها تقول: «انظر إلى نهديّ ما أروعهما». كلّ هؤلاء الفتيات اللواتي تُزيّن كلّ واحدة منهنّ شعرها بأزهارٍ من لونٍ مختلف، يُظهرن الحبّ ويثرن الرغبة في الجنس، من دون أيّ ابتذال أو نزعة تجارية؛ فهنّ لا يعطين الانطباع بأنّهنّ يؤدّين عملاً، بل يتسلّين فعلاً ويجعلننا نشعر بأنّ المال ليس الأمر الأساسي في حياتهنّ.

مثل خنفستين متهافتتين على مصابيح، رحنا، ماتوريت وأنا، نترنّح من حانة إلى أخرى. وحينما وصلنا إلى ساحة صغيرة تفيض نوراً، عرفتُ على ساعة جدارية لكنيسةٍ أو معبدٍ. كانت الساعة الثانية. إنّها الساعة الثانية صباحاً! بسرعة، هيّا لنعد بسرعة! لقد أسأنا التصرّف، ولا بدّ أنّ نقيب جيش الخلاص قد كوّن فكرة سيئة عنّا. هيّا لنعد بسرعة. أوقفتُ سيارة أجرة أقلّتنا إلى مقصدنا لقاء دولارين. دفعتُ له، وعدنا في غاية الخجل إلى الفندق. في بهو الفندق، استقبلتنا بلطف مجنّدة شقراء من جيش الخلاص، وهي شابّة عمرها بين خمسة وعشرين وثلاثين عاماً. لم يبدُ عليها لا الاندهاش ولا الضيق من عودتنا في هذا الوقت المتأخّر جدّاً. بعد بضع كلماتٍ باللغة الإنكليزية التي خمّنّاها ودّية ومرحّبة، أعطتنا مفتاح الغرفة وتمنّت لنا ليلة سعيدة. أعددنا أنفسنا للنوم. وجدتُ في الحقيبة منامةً. وفي اللحظة التي هممتُ فيها بإطفاء الضوء، قال لي ماتوريت: «على أيّ حال، ربّما علينا أن نشكر الربّ الكريم الذي أنعم علينا بالكثير من الأشياء في وقتٍ وجيز. ما رأيك في ذلك، يا بابي؟».

– أُشكُرْهُ نيابةً عنّي أيضاً، فربّك الكريم عظيمٌ. وكما قلت، فقد أجزل لنا العطاء على نحوٍ عجيب. عمت مساءً.

ثمّ أطفأتُ الضوء.

هذا الانبعاث، هذه العودة من القبر، الخروج من تلك المقبرة التي كنتُ مدفوناً فيها، وكلّ هذه المشاعر والانفعالات المتعاقبة، والاستحمام في تلك الليلة والذي أعاد دمجي في الحياة وسط بشرٍ آخرين، كلّ هذا أثارني

لدرجة أنّني لم أستطع إلى النوم سبيلاً. تدافعت الصور والأشياء وكلّ ذاك المزيج من الأحاسيس في خلفية عينيّ المغمضتين من دون ترتيبٍ زمني، وحضرت بوضوحٍ ولكن بطريقةٍ مجزّأة ومفكّكة تماماً: جلسات المحاكمة، وسجن التوقيف، ثمّ المصابون بالجذام، ومن ثَمّ سان مارتن دو ري، تريبويارد، جيزوس، العاصفة... في تراقصٍ عصبيٍّ، كما لو أنّ كلّ ما عشته منذ عامٍ جاء يحضر في الوقت ذاته في معرض ذكرياتي. عبثاً حاولتُ طرد هذه الصور، إذ إنّني لم أفلح في ذلك. والأغرب من ذلك، أنّها كانت تختلط مع نخير الخنازير، وصياح طيور الدرّاج، وهزيز الرياح، وهدير الأمواج، يشوبها جميعاً موسيقى آلات الكمان ذات الوتر الوحيد التي كان الهنود قد بدأوا بالعزف عليها في مختلف الحانات التي مررنا بها.

وأخيراً نمتُ حينما أشرقت الشمس. حوالي الساعة العاشرة صباحاً، دُقّ علينا الباب. كان ماستر بوين هو الذي دخل علينا مبتسماً. قال:

– صباح الخير يا صديقي. أما زلتما نائمين؟ لقد عدتما في وقتٍ متأخّر. هل لهوتما جيّداً؟

– صباح الخير. نعم، لقد عدنا متأخرين بالفعل، اعذرنا.

– لا، لا عليكما! هذا أمرٌ طبيعي بعد كل ما عانيتما منه. كان عليكما أن تستمتعا جيّداً بليلتكما الأولى كرجلين نالا حريتهما حديثاً. جئتُ لأرافقكما إلى مركز الشرطة. يجب أن نقدّمكما إلى الشرطة لنعلن رسمياً عن أنّكما دخلتما سرّاً إلى البلاد. بعد هذا الإجراء الشكلي، سوف نذهب لزيارة صديقكما. لقد أُجريت له عمليات التصوير الشعاعي في ساعة مبكّرة من صباح اليوم. وسوف نعرف النتيجة فيما بعد.

اغتسلنا وارتدينا ملابسنا بسرعة، ثمّ نزلنا إلى الصالة السفلية حيث ينتظرنا بوين برفقة النقيب.

حيّانا النقيب بلغة فرنسية ركيكة:

- صباح الخير يا صديقيّ.
- صباح الخير جميعاً، كيف حالكم؟
قالت لنا ضابطة في جيش الخلاص:
- هل وجدتما بورت أوف سين لطيفة؟
- أوه نعم يا سيّدتي! لقد سُررنا بها.

شربنا فنجاناً صغيراً من القهوة ومن ثَمّ انطلقنا إلى مركز الشرطة مشياً على الأقدام، إذ لم يكن يبعد أكثر من مئتي مترٍ. حيّانا جميع رجال الشرطة ونظروا إلينا دون فضولٍ خاصّ. دخلنا إلى مكتبٍ بسيطٍ وواسع بعد أن مررنا أمام حارسين أسمرين يرتديان زيّاً موحّداً كاكي اللون. نهض أمامنا ضابطٌ في حدود الخمسين من عمره يرتدي قميصاً وربطة عنق بلونٍ كاكي، ويحمل الكثير من الشارات والأوسمة. كان يرتدي سروالاً قصيراً، قال لنا باللغة الفرنسية:

- صباح الخير، تفضّلا بالجلوس. قبل أن أحصل على إفادتكما الرسمية، أودّ التحدّث إليكما قليلاً. كم عمركما؟
- ستّة وعشرون عاماً وتسعة عشر عاماً.
- لمَ حُكِمَ عليكما؟
- بجريمة قتل عادية.
- ما عقوبتكما؟
- الأشغال الشاقّة المؤبّدة.
- إذاً الحكم ليس بجريمة قتل عادية وإنّما القتل العمد.
- لا يا سيدي، أنا بتهمة جريمة قتل عادية.

قال ماتوريت:
- أمّا أنا، فبجريمة القتل العمد، وكان عمري سبعة عشر عاماً.

قال الضابط:
- في سنّ السابعة عشرة، يعي المرء ما يفعله. في إنكلترا، إذا ما

تمّ إثبات هذا الجرم عليك، سوف تُعدَم شنقاً. حسناً، ليس للسلطات الإنكليزية أن تقيّم العدالة الفرنسية، ولكن ما لا نتّفق عليه هو إرسال محكومين إلى غويانا الفرنسية. نحن نعلم أنّ هذه عقوبة غير إنسانية وغير لائقة ببلدٍ متحضّر مثل فرنسا. ولكن لسوء الحظّ لا يمكنكم البقاء في ترينيداد، ولا في أيّ جزيرة إنكليزية أخرى. هذا مستحيل. كما أنني أطلب منكم أن تلعبوا اللعبة بشرف ولا تبحثوا عن مناصٍ من قبيل المرض أو أيّ ذريعة أخرى، بغرض تأخير رحيلكم. يمكنكم أن تستريحوا بحريّة في بورت أو سبين من خمسة عشر إلى ثمانية عشر يوماً. ويبدو أنّ قاربكم جيّد ومناسب للإبحار، وسوف أجلبه لكم إلى هنا في الميناء. وإذا كان هناك فيه ما ينبغي إصلاحه، فإنّ نجاري البحرية الملكية سوف يقومون بذلك. وسوف تحصلون على كلّ ما يلزمكم من أغذية للرحلة وكذلك ستحصلون على بوصلة جيّدة وخارطة بحرية. أتمنى أن تقبل بلدان أمريكا الجنوبية باستضافتكم وإقامتكم فيها. لا تذهبوا إلى فنزويلا لأنّه سوف يتم توقيفكم وإرغامكم على العمل في تعبيد الطرقات إلى أن يتمّ تسليمكم إلى السلطات الفرنسية. بعد غلطة كبيرة، لا يكون المرء مضطراً لأن يضيع إلى الأبد. أنتم شبابٌ وأصحّاء، وتبدون لطفاء، ولذا أتمنى ألّا تقبلوا بأن تُهزموا إلى الأبد بعد كلّ ما اضطررتم لتحمّله. ولا شيء يدلّ على عكس ذلك سوى مجيئكم إلى هنا. يسعدني أن أكون أحد العناصر الذين سوف يعينونكم على أن تصبحوا رجالاً صالحين يتصرّفون بمسؤولية. أتمنى لكم حظّاً سعيداً. إذا ما واجهتكم مشكلة، اتّصلوا بهذا الرقم، وسوف يُرَدُّ عليكم باللغة الفرنسية.

رنّ جرساً، فحضر شخصٌ مدني واصطحبنا إلى قاعة كان فيها العديد من رجال الشرطة والمدنيون يطبعون على الآلة الكاتبة، وأخذ أحد المدنيين إفادتنا.

- لم جئتم إلى ترينيداد؟

- لكي نستريح فيها.

- من أين أتيتم؟

- من غويانا الفرنسية.

- لكي تهربوا من السجن، هل ارتكبتم جناية تسبّبت بإصابات أو موت أشخاصٍ آخرين؟

- لم نصبْ أيّ شخصٍ بجروحٍ خطيرة.

- كيف عرفتم ذلك؟

- عرفنا ذلك قبل أن نغادر.

- ماذا عن عمركم، ووضعكم الجزائي في فرنسا؟ يا سادة، لديكم من خمسة عشر يوماً إلى ثمانية عشر يوماً لكي تستريحوا هنا. خلال هذه المدّة الممنوحة لكم، يمكنكم أن تفعلوا بمنتهى الحرية ما تشاؤون. وإذا ما غيّرتم الفندق، أبلغونا بذلك. أنا الرقيب ويلي. يوجد على بطاقتي رقمان هاتفيان: هذا الرقم، هو رقمي الرسمي في سلك الشرطة، وهذا الرقم هو رقمي الخاصّ. مهما جرى لكم، إن احتجتم إلى مساعدتي، اتّصلوا بي مباشرةً. نحن نعلم أنّ الثقة التي نمنحها لكم في محلّها. أنا واثقٌ من أنّكم ستتصرّفون بطريقة حسنة.

بعد بضع دقائق، رافقنا السيّد بوين إلى العيادة. سُرّ كلوزيو لرؤيتنا. لم نروِ له أيّ شيء عن الليلة التي أمضيناها في المدينة. أخبرناه فقط بأنّهم قد تركوا لنا الحريّة في أن نذهب حيثما نراه مناسباً لنا. وقد ذُهل للغاية لذلك إلى درجة أنّه قال:

- دون مرافقة؟

- نعم دون مرافقة.

- حسناً إذاً، إنّهم أناسٌ ظرفاء هؤلاء العجول المشوية (الإنكليز)!

عاد بوين برفقة الطبيب الذي كان قد ذهب للقائه. طلب من كلوزيو قائلاً:

- من جبّر الكسر في ساقك قبل أن يحزمه بالألواح الخشبية؟

سبقتُه إلى الإجابة:

- أنا ورجلٌ آخر هو ليس هنا الآن.

- لقد أحسنتما صنعاً بحيث لسنا بحاجة إلى إعادة كسر الساق وتجبيره من جديد، فالشظية المتكسّرة ملصقة بمكانها المناسب بإحكام. سوف نقوم بكلّ بساطة بوضع جبيرة من الجصّ وتركيب قضيبٍ معدني لكي تتمكّن من المشي قليلاً. هل تفضّل البقاء هنا أم ترغب في الذهاب مع صاحبيك؟

- أفضّل الذهاب معهما.

- حسناً، منذ صباح الغد يمكنك الانضمام إليهما.

ارتبكنا ونحن نقدّم لهما الشكر. غادر السيّد بوين والطبيب، وبقينا نحن وأمضينا فترة الضحى وجزءاً من فترة ما بعد الظهيرة مع صديقنا كلوزيو. وقد ابتهجنا حينما وجدنا، في اليوم التالي، أنفسنا نحن الثلاثة في غرفتنا في الفندق، وقد فُتِحت نافذتها على مصراعيها وشُغّلَت المراوح لتهوية الغرفة وتبريد هوائها. تبادلنا التهاني على وجوهنا الطلقة ومظهرنا الوسيم الذي اكتسبناه بفضل ثيابنا الجديدة. وحينما وجدتُ أنّ حديثنا بات يجري حول الماضي، قلتُ لهما:

- الآن، دعونا ننسى الماضي قدر المستطاع، ولنرَ الحاضر والمستقبل. إلى أين سوف نذهب؟ إلى كولومبيا؟ إلى بنما؟ إلى كوستاريكا؟ يجب أن نستشير بوين بشأن البلد الذي قد نحظى فيه بفرص القبول بإقامتنا فيه.

حاولت الاتصال مع بوين في مكتبه، فلم يكن متواجداً فيه. اتّصلت به في بيته، في سان فيرناندو، فردّت عليّ ابنته، وبعد تبادل بضع كلمات لطيفة، قالت لي: «سيّد هنري، بالقرب من الفندق، في سوق السمك، هناك حافلات تأتي إلى سان فيرناندو، لماذا لا تأتون لقضاء فترة ما بعد الظهيرة في بيتنا؟ تعالوا، وأنا بانتظاركم». وافقنا على دعوتها في الحال، وها نحن الثلاثة في الطريق إلى سان فيرناندو. بدا كلوزيو رائعاً في بذلته شبه العسكرية ذات اللون الفستقي.

هذه العودة إلى هذا المنزل الذي استقبلنا بالكثير من الطيبة والكرم أثار فينا نحن الثلاثة مشاعر الغبطة. بدا لنا كما لو أنّ هاتين السيّدتين فهمتا ما نشعر به لأنهما قالتا بصوتٍ واحد: «ها قد عدتم إلى بيتكم، أصدقاءنا الأعزاء، تفضّلوا بالجلوس وخذوا راحتكم»، وبدل أن تخاطبانا بكلمة «سيّد»، كلّما تحدّثتا إلينا، نادتانا باسمنا الأول من دون كلفة: «هنري، ناولني السكّر؛ أندريه (ماتوريت يُدعى أندريه)، هل تُريد قطعة أخرى من حلوى البودينغ؟».

السيّدة والآنسة بوين، نسأل اللّه أن يكافئكما أحسن مكافأة على كلّ هذه الطيبة التي بذلتماها حيالنا، وأن يغمر روحيكما السامية فيما تبقى من عمركما بالسعادة الأبدية لقاء ما منحتمانا من مسرّات رفيعة.

تناقشنا معهما ونشرنا خارطة على الطاولة. كانت المسافات طويلة جدّاً: ألف ومئتا كيلومترٍ للوصول إلى أوّل مرفأ كولومبي يُدعى سانتا مارتا؛ ألفان ومئة كيلومترٍ للوصول إلى بنما؛ ألفان وخمسمئة كيلومترٍ للوصول إلى كوستاريكا. جاء ماستر بوين وقال: «اتّصلتُ بكلّ القنصليات، ولديّ خبرٌ سارّ: يمكن التوقّف لبضعة أيام في كوراساو لكي تستريحوا فيها. ليس لدى كولومبيا أيّ شيء ينصّ عليه القانون بشأن الفارّين من السجن. وأكّد لي القنصل بأنّه لم يحدث أن وصل هاربون أبداً إلى كولومبيا عبر البحر. وكذلك الحال بالنسبة إلى بنما والبلدان الأخرى».

قالت مارغاريت، ابنة السيّد بوين:

– أعرف مكاناً سيكون آمناً لكم. ولكنّه بعيدٌ جدّاً ويقع على بعد ثلاثة آلاف كيلومتراً على الأقلّ من هنا.

سأل والدها:

– أين هو هذا المكان؟

– هندوراس البريطانية. حاكمها عرّابي.

نظرتُ إلى صديقيّ وقلتُ لهما: «ستكون هندوراس الإنكليزية

وجهتنا». إنّها من الممتلكات الإنكليزية التي تحدّها من الجنوب جمهورية هندوراس وفي الشمال المكسيك. أمضينا فترة ما بعد الظهيرة ونحن نتعرّف على مسار الطريق بمساعدة مارغاريت ووالدتها. المرحلة الأولى: من ترينيداد إلى كوراساو، وتبلغ المسافة ألف كيلومترٍ. المرحلة الثانية: من كوراساو إلى أيّ جزيرة تقع على مسار طريقنا. المرحلة الثالثة: هندوراس البريطانية. ولأننا لا نعلم ما الذيّ قد يحدث في البحر، بالإضافة إلى الأغذية التي سوف تقدّمها الشرطة، تقرّر أن نأخذ معنا معلّبات احتياطية في صندوقٍ خاصّ يحتوي على بعض اللحوم والخضراوات والمربيّات والسمك وسواها. أخبرتنا مارغاريت أنّ سوبر ماركيت «سالفاتوري» سيكون سعيداً بأنّ يقدّم لنا هذه المعلّبات كهدية. وأضافت بكلّ بساطة: «وفي حالة الرفض، سوف نشتريها، أمّي وأنا، لكم».

قلتُ لها:

- لا يا آنسة.

- اسكت يا هنري.

- لا أبداً، هذا مستحيل، فنحن لدينا المال وسوف يكون مسيئاً لنا أن نستغلّ طيبتكم وكرمكم طالما نستطيع أن نشتري هذه الأغذية بأنفسنا.

كان القارب في بورت أوف سبين، في البحر، تحت حماية القوّة البحرية الحربية. غادرنا المنزل بعد أن وعدناهم بزيارة أخرى قبل الرحلة الكبرى. خرجنا كلّ ليلة في الساعة الحادية عشرة كموعدٍ مقدّس. يجلس كلوزيو على مقعدٍ في ساحةٍ تعجّ بالناس، ويأخذ كلٌّ منّا دوره في الجلوس بجانبه ليكون برفقته، بينما يتجوّل الآخر في شوارع المدينة. انقضت عشرة أيامٍ على وجودنا هنا. بدأ كلوزيو يمشي على قدميه دون الكثير من الصعوبات بفضل الصفيحة المعدنية المثبّتة على الجبيرة. تعلّمنا كيف نذهب إلى المرفأ بالقطار الكهربائي. كنا نذهب إليه غالباً في فترة ما بعد الظهيرة ودائماً في المساء. وقد أصبحنا معروفين ومقبولين في بعض حانات المرفأ. يُلقي علينا رجال الشرطة المناوبون التحية، ويعرف

الجميع من نحن ومن أين أتينا، ولم يلمّح أحدٌ قط إلى أيّ شيءٍ يزعجنا. ولكننا لاحظنا أنّ الحانات التي نرتادها وأصبحنا معروفين فيها تقبض ثمن ما نأكلِ أو نشرب بسعرٍ أرخَصَ من الذي يقبضونه من البحّارة. وكذلك تفعلُ الفتيات. فعادةً، حينما يجلسن إلى طاولات البحارة أو الضبّاط أو السياح، يشربن دون توقّف ويجعلنهم يدفعون أكبر ما يمكن من المبالغ. وفي الحانات التي يرقص فيها الزبائن، لا يرقصن مع أحدٍ قبل أن يشربن عدّة أكوابٍ من المشروب على حسابه. ولكن معنا، كانت جميع الفتيات يتصرّفن بطريقة مختلفة. فكنّ يجلسن معنا لأوقاتٍ طويلة ونلحّ عليهنّ كثيراً لكي يشربن كأساً من المشروب. وإذا قبلن بذلك لا يشربن المشاريب الفاخرة والشهيرة التي يشربنها عادةً، وإنّما يكتفين بجِعة أو كأسٍ من الويسكي بالصودا. كان كلّ هذا يسرُّنا غاية السرور لأنّ هذا التصرّف هو طريقة غير مباشرة ليقلن لنا بأنّهن يعرفن وضعنا وأنّهنّ يقفن إلى جانبنا بصدق.

شاهدنا أنّ المركب قد أُعيد صبغه وزيد في علو حوافه بارتفاع عشرة سنتيمترات، وجرى تمتين عارضته الرئيسية وتقوية أرضيته. لم تكن الضلوع الداخلية في المركب تعاني من أي خللٍ وبالتالي كان على أتمّ الجاهزيّة. استُبدِل الصاري القديم بواحدٍ جديدٍ أكثر ارتفاعاً ولكنّه أخفّ من القديم؛ كما استُبدِل الزاويّ والقِلْع المصنوعين من أكياس الطحين بآخرين من نسيجٍ جيّدٍ ومناسبٍ باللون الأمغر. وفي مقرّ البحرية، سلّمني قبطان سفينةٍ بوصلةً مغناطيسية تحدّد جميع الجهات بدقّة (يُسمونها كومباس)، وشرح لي كيف يمكنني بمساعدة الخريطة أن أعرف موقعي على نحوٍ تقريبي. وقد تمّ تحديد الطريق إلى كوراساو انطلاقاً من الغرب مع انحرافٍ بمقدار الربع نحو الشمال.

قدّم لي قبطان السفينة ضابطاً من البحرية وهو قائد لسفينة تدريبية تُدعى (تاربون)، سألني إن كنتُ أرغب في خوض البحر نحو الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي والخروج قليلاً من الميناء. لم أفهم المغزى

من اقتراحه ومع ذلك وعدته بالقيام بذلك. في اليوم التالي، حضرتُ إلى مقرّ القوات البحرية في الموعد المحدّد مع ماتوريت. صعد بحّارٌ معنا إلى المركب، وخرجتُ من الميناء مدفوعاً برياحٍ مواتية. وبعد ساعتين، وبينما كنّا منهمكين في التناوب على الدخول إلى الميناء والخروج منه، أقبلت سفينة حربية نحونا، وقد اصطفّ على متنها الطاقم والضبّاط، يرتدون جميعهم الزي الأبيض الخاصّ بالبحرية. مرّوا بالقرب منّا وصاحوا: «هورا!»، قاموا بمناورة ورفعوا وأنزلوا علمهم مرّتين. كانت تلك التحية الرسمية التي لم أفهم مغزاها. عُدنا إلى مقرّ القوات البحرية حيث كانت السفينة البحرية قد رست في المرفق الخاصّ. أمّا نحن، فقد رسونا بجانب الرصيف. أشار علينا البحّار بأن نتبعه، فصعدنا إلى متن السفينة حيث استقبلنا قائدها في أعلى قمرة القيادة. أُطلقت صفّارة تحيّة لنا، وبعد أن تمّ تقديمنا إلى الضباط، جعلونا نمرّ أمام تلاميذ البحرية وضبّاط الصفّ الواقفين باستعدادٍ عسكري. تحدّث إليهم القائد ببضع كلماتٍ إنكليزية، ومن ثَمّ انفرط عقد صفوفهم جميعاً. وقد شرح لي ضابطٌ شاب أنّ القائد قد أخبر تلامذة الطاقم بمدى جدارتنا باحترام البحارة لقيامنا على متن هذا القارب الصغير برحلة طويلة للغاية، ولكوننا سوف نقوم برحلة إضافية أكثر طولاً وأكثر خطورةً. شكرنا هذا الضابط على الشرف الكبير الذي منحنا إياه. وقد أهدانا ثلاثة مشمّعات بحرية سوف تكون مفيدة جدّاً لنا فيما بعد.

كانت عبارة عن واقيات من المطر سوداء اللون لها فتحة طويلة تُغلق بسحّابٍ كبير، ومزوّدة بقلنسوات. قبل يومين من بدء رحلتنا، جاء ماستر بوين للقائنا وطلب منّا، بناءً على طلب مراقب الشرطة، أن نصحب معنا ثلاثة من السجناء المنفيين الذين أُلقي القبض عليهم قبل أسبوع. كان هؤلاء السجناء الثلاثة قد أُبعدوا ونُقلوا إلى الجزيرة، وعاد مرافقوهم إلى فنزويلا، حسب إفادتهم للشرطة. لم أحبّذ ذلك، ولكننا عوملنا بغاية النبل والشهامة بحيث لم أستطع رفض اصطحاب هؤلاء الرجال الثلاثة على متن قاربنا. طلبتُ أن أراهم قبل أن أردّ على طلب اصطحابهم. جاءت

سيارة للشرطة وأقلّتني إلى المركز، فرحتُ أتحدّث مع مراقب الشرطة، وهو الضابط ذو الشارات والنياشين الذي استجوبنا حينما وصلنا إلى الجزيرة. وقد عمل الرقيب ويلي مترجماً.

قلتُ:

- كيف حالك؟

أجاب:

- بخير، أشكرك. نحن بحاجة إلى أن تسدي لنا خدمةً.

- إذا كان باستطاعتي، فبكلّ سرور.

- لدينا هنا في السجن ثلاثة فرنسيين منفيين. وقد عاشوا هنا في الجزيرة بضعة أسابيع بشكلٍ سرّي وادّعوا أنّ مرافقيهم قد تركوهم هنا وغادروا. نعتقد بأنّهم قد أغرقوا مركبهم، ولكن يقول كلّ واحدٍ منهم أنّه لا يجيد قيادة مركبٍ. ونحن نعتقد أنّ هذه مناورة منهم لكي نقدّم لهم مركباً مع قائده لينقلهم. علينا أن نقوم بترحيلهم: وسيكون من المؤسف أن أُضطرّ إلى تسليمهم إلى مفوّض أوّل سفينة فرنسية تمرّ من هنا.

- سيادة المدير، سأفعل المستحيل لخدمتكم ولكنني أرغب في التحدّث معهم قبل كلّ شيء. لا بدّ أنّك تدرك أنّه من الخطر نقل ثلاثة مجهولين على متن قارب.

- أعرف ذلك. يا ويلي، أعطِ الأمر بأن يتمّ إخراج الفرنسيين الثلاثة إلى الباحة.

أردتُ أن أقابلهم منفرداً وطلبتُ من الرقيب أن يغادر.

سألتهم:

- هل أنتم سجناء منفيون؟

- لا، نحن سجناء محكومون بالأشغال الشاقّة.

- ولماذا ادّعيتم أنّكم منفيون؟

- لقد اعتقدنا بأنّ السلطات هنا سوف تفضّل رجلاً ارتكب جنحة

صغيرة على رجلٍ ارتكب جرماً كبيراً. وقد رأينا بأننا قد ارتكبنا خطأً. وأنت، من تكون؟

- محكومٌ بالأشغال الشاقّة.

- نحن لا نعرفك.

- أنا من القافلة الأخيرة، وأنت؟

- أنا من قافلة عام 1929.

وقال الثالث:

- وأنا من قافلة 27.

- اسمعوا: لقد استدعاني المدير ليطلب مني أن أصحبكم معنا على متن قاربنا. ونحن أيضاً ثلاثة أشخاص. وقد أخبرني بأنّه في حال عدم موافقتي على ذلك، سيجد نفسه مضطرّاً لأن يسلّمكم إلى أوّل سفينة فرنسية تمرّ من هنا، لأنّه لا أحد منكم يجيد قيادة قاربٍ. ما رأيكم بهذا الكلام؟

- لأسبابٍ تخصّنا لا نودّ الرحيل مرّة أخرى عبر البحر. يمكننا التظاهر بأننا سوف نرحل معكم، فتضعوننا في طرف الجزيرة وتتابعون رحلتكم من دوننا.

- لا أستطيع أن أفعل ذلك.

- لماذا؟

- لأنني لا أستطيع أن أقابل النوايا الحسنة التي استقبلونا بها والجميل الذي أسدوه لنا بفعلٍ قذر.

- أعتقد، يا صاحبي، أنّه عليك أن تفضّل المحكومين بالأشغال الشاقّة على الإنكليز.

- لماذا؟

- لأنّك محكومٌ بالأشغال الشاقّة.

- نعم، ولكن هناك تفاوتٌ كبير بين المحكومين بالأشغال الشاقّة،

بحيث قد يكون هناك اختلافٌ بينكم وبيني أكثر من الاختلاف بيني وبين الإنكليزي، فهذا الأمر يتعلّق برؤية كلٍّ منّا إلى الأمور.

- إذاً، ستتركنا نُسلّم للسلطات الفرنسية؟

- لا، ولكنني في الوقت ذاته لا أريد أن أنزلكم من مركبي قبل الوصول إلى كوراساو.

قال أحدهم:

- لا أشعر بالجرأة الكافية على استئناف الإبحار.

- اسمعوا، تعالوا لتروا المركب أوّلاً، فربّما كان المركب الذي جئتم به سيئاً.

قال الآخران بصوتٍ واحد:

- حسناً، سنحاول.

- لا بأس. سأطلب من المدير أن يدعكم تأتون معي لرؤية المركب.

ذهبنا برفقة الرقيب ويلي إلى الميناء. وقد بدا أنّ الرجال الثلاثة قد أصبحوا أكثر ثقةً بعد أن رأوا القارب.

الرحلة الجديدة

غادرنا الجزيرة بعد يومين، نحن الثلاثة والمجهولون الثلاثة. لا أدري كيف علمن بالأمر، ولكن ما يقارب اثنتي عشرة فتاةً من فتيات الحانات حضرن مغادرتنا للميناء، وكذلك عائلة بوين ونقيب جيش الخلاص. ولما عانقتني فتاة، قالت لي مارغاريت، وهي تضحك: «يا هنري، هل خطبت فتاةً بهذه السرعة؟ هذا ليس أمراً جادّاً!».

- إلى اللقاء جميعاً. لا، بل وداعاً! ولكن اعلموا جيّداً أنكم حجزتم مكانة عظيمة في قلوبنا لن تزول أبداً.

وفي تمام الساعة الرابعة بعد الظهيرة، انطلقنا، يسحب مركبنا زورقٌ خاصّ بالقطر. أُخرجنا بسرعة من المرفأ، ونحن نمسح دموعنا وننظر

حتى اللحظة الأخيرة إلى المجموعة التي جاءت لوداعنا والتي كانت تلوّح بمناديل كبيرة بيضاء اللون. وما إنْ فُكّ الحبل الذي كان يربط مركبنا بالزورق، حتى انتفخت كلّ الأشرعة الخارجية، وانقضضنا على الدفعة الأولى من ملايين الأمواج التي سيكون علينا أن نعبرها قبل أن نصل إلى مقصدنا.

ثمّة مديتان على متن المركب، أحمل أنا إحداهما، ويحمل ماتوريت الأخرى. في حين كان الفأس والساطور بالقرب من كلوزيو. كنّا متأكّدين أنّ لا أحد من الآخرين يحمل سلاحاً. وقد اتّخذنا تدابير لكي لا ننام نحن الاثنان في الوقت ذاته، وأن نتناوب على بقاء أحدنا يقظاً أثناء نوم الآخر، وذلك طيلة الرحلة. حينما كانت الشمس تميل نحو الغروب، جاءت السفينة التدريبية لكي ترافقنا لما يُقارب نصف ساعة. وبعد ذلك، حيّتنا وانصرفت.

– ما اسمك؟

– لوبلوند.

– من أيّ قافلة؟

– من القافلة السابعة والعشرين.

– وكم مدّة عقوبتك؟

– عشرون سنة.

– وأنت؟

– كارغيري. من القافلة التاسعة والعشرين، عقوبتي خمس عشرة سنة، وأنا بريتاني.

– أأنت بريتاني ولا تُجيد قيادة مركب؟

– لا.

– أمّا أنا، فاسمي دوفيل، وأنا من أنجه. محكومٌ بالمؤبّد بسبب تفوّهي بكلام غبيّ أثناء جلسات المحاكمة، ولولا ذلك لحُكِمتُ بالسجن لعشر سنواتٍ كحدٍّ أقصى. من القافلة التاسعة والعشرين.

- وما الكلام الذي تفوّهت به؟

- حسناً، هذا ما حدث. أنا قتلتُ زوجتي باستخدام مكواة ثياب. وأثناء محاكمتي، سألني أحد المحلّفين لماذا استخدمت مكواةً في ضربها. لا أدري لماذا، ولكنني أجبته بأنني قتلتها لأنّها كانت لا تجيد كي الثياب. وبسبب هذه الجملة الغبية، حسبما شرح لي محاميّ، أثقلوا عليّ بالحكم وجعلوني أدفع الثمن غالياً.

- من أين غادرتم؟

- من معسكرٍ للعمل في أحراجٍ تُدعى كاسكاد، ويبعد ثمانين كيلومتراً من سان لوران. لم يكن من الصعب مغادرة المعسكر لأننا كنّا نتمتّع بالكثير من الحرية. لقد كنّا خمسة وكان الأمر سهلاً جدّاً.

- كيف كنتم خمسة، أين الآخران إذاً؟

ساد صمتٌ ثقيل. فقال كلوزيو:

- يا رجل، لا يوجد هنا إلّا الرجال، وبما أننا معاً، فمن حقّنا أن نعرف كلّ شيء. تكلّم.

قال البريتاني:

- سأخبركم بكلّ شيء. بالفعل حينما غادرنا كنّا خمسة أشخاص لكنّ الرجلين الذين كانا من مدينة كان واللذين تخلّفا قالا لنا بأنّهما من صيادي السمك على الشاطئ. لم يكونا قد دفعا أيّ شيء من أجل الفرار وقالا بأنّ عملهما على متن سفينة يساوي أكثر من المال. والحال أننا اكتشفنا في الطريق أنّ لا هذا ولا ذاك يعرف أيّ شيء عن الإبحار. وقد أوشكنا على أن نغرق عشرين مرّة. كنا نبحر بموازاة الشواطئ، فوصلنا أوّلاً إلى غويانا الهولندية، ومن ثَمّ غويانا الإنكليزية، إلى أن وصلنا أخيراً إلى ترينيداد. بين جورج تاون وترينيداد، قتلتُ مَن قال بأنّه يستطيع أن يكون قبطان عملية الفرار. كان هذا الرجل يستحقّ القتل، لأنّه خدع الجميع بشأن قدراته البحرية لكي يستطيع أن يسافر مجاناً. أمّا الآخر، فقد اعتقد بأنّنا سنقتله هو الآخر أيضاً، فألقى بنفسه طواعية في البحر أثناء سوء الأحوال

الجوية تاركاً دفّة المركب. فتدبّرنا أمرنا حسب مقدرتنا. وقد امتلأ القارب معنا بالماء مرّات عديدة، وارتطمنا بصخرة ونجونا بأعجوبة. وأنا أعطي كلمتي كرجل وأؤكّد لكم أنّ كلّ ما أخبرتكم به هو الحقيقة بحذافيرها.

أكّد الآخران على روايته، وقالا بصوتٍ واحد:

- هذا صحيح. لقد سارت الأمور هكذا، وكنّا نحن الثلاثة قد اتّفقنا على أن نقتل هذا الرجل. ماذا تقول في ذلك، يا بابيون؟

- لستُ في موقعٍ يؤهّلني لأن أكون قاضياً.

ألحّ البريتاني:

- ولكن ما الذي كنت ستفعله لو كنت في مكاننا؟

- هذا أمرٌ يحتاج إلى تفكير. حتى يكون المرء منصفاً، يجب أن يعيش تلك اللحظة، ومن دون ذلك لا يمكن للمرء أن يعرف أين تكمن الحقيقة.

قال كلوزيو:

- لو كنتُ أنا لقتلتُه، لأنّه كذب كذبة يمكنها أن تكلّف الجميع حياتهم.

- حسناً، لنكفّ عن الحديث في هذا الأمر. ولكن أشعر أنكم قد خفتم كثيراً، وأنّ الخوف لم يُبارحكم بعد، وأنّكم في البحر لأنّكم مرغمون على ذلك، أليس كذلك؟

فأجابوا بصوتٍ واحد:

- بلى.

- إذاً، لا فزع هنا مهما حدث. لا أحد يستطيع أن يُظهر خوفه. ومن يخاف، فليخرس. هذا القارب جيّد، وقد أثبت لنا ذلك. الآن حمل المركب أكثر من ذي قبل، ولكنّ حوافه أكثر ارتفاعاً بمقدار عشرة سنتيمترات. وهذا يعوّض على نحوٍ كبير الحمولة الزائدة.

دخّنّا وشربنا قهوةً، وكنّا قد أكلنا جيّداً قبل البدء برحلتنا وقرّرنا ألّا نأكل ثانية قبل حلول صباح الغد.

كنّا في يوم التاسع من ديسمبر / كانون الأوّل 1933، وقد أخبرنا

كلوزيو، محاسب الرحلة الرسمي، بأنّه قد مضى اثنان وأربعون يوماً على بدئنا بعملية الفرار التي شرعنا بها في القاعة المحميّة في مستشفى سان لوران. وخلال ذلك، حصلتُ على ثلاثة أشياء ثمينة علاوة على الخروج من السجن: ساعة فولاذية مضادة للماء اشتريتها في ترينيداد، وبوصلة حقيقية في علبتها ودقيقة للغاية في تحديد الاتجاهات المختلفة، ونظارات سوداء من السيلولويد، في حين حصل كلّ من كلوزيو وماتوريت على قبّعة.

مرّت ثلاثة أيام دون حوادث تذكر، سوى أنّنا صادفنا مرّتين مجموعة من الدلافين. وقد أصابتنا بذعرٍ شديد، لأنّ مجموعة من ثمانية دلافين جاءت تتلاعب بالقارب. كانت تغطس أوّلاً تحت القارب على طوله ومن ثَمّ تخرج مباشرةً أمامه. في بعض الأحيان، كنا نلامس أحدها. ولكن أكثر ما أثّر علينا كان اللعبة التالية: ثلاثة دلافين على شكل مثلّث، يتقدّم أحدها في الأمام ويلحق به الاثنان الآخران على نحوٍ موازٍ، أقبلت نحونا مباشرةً بسرعة جنونية باتجاه مقدّمة المركب. وفي اللحظة التي وصلت إلينا تقريبياً، غطست في الماء ومن ثَمّ خرجت إلى اليمين واليسار من المركب. وعلى الرغم من أنّ الرياح كانت قويّة، وكنّا نسير بسرعة مدفوعين بالأشرعة المليئة، إلّا أنّ الدلافين كانت تسير أسرع منّا.

كانت هذه اللعبة التي استغرقت عدّة ساعات مرعبة للغاية، حيث إنّ أدنى خطأ في حساباتها كان سيؤدي إلى انقلاب المركب بنا! لم يتفوه الرجال الثلاثة الآخرون بكلمة واحدة، لكن ليتكم رأيتم آثار الرعب على وجوههم!

في منتصف ليلة اليوم الرابع، هبّت عاصفة مروّعة، وكانت بالفعل مرعبة. والأنكى من ذلك أنّ الأمواج لم تكن تسلك الاتجاه نفسه. كانت الأمواج غالباً تتلاطم. بعضها عميقة، وبعضها الآخر قصيرة، بحيث لم نكن نفهم ما يحصل، ولم يتفوّه أحدٌ بكلمة سوى كلوزيو الذي كنتُ أسمعه بين الفينة والأخرى يصرخ: «هيا يا صديقي! سوف تقهر هذه

الموجة، كما قهرت سواها!» أو يحذّرني: «احذر موجة آتية من الخلف!». كان ذلك أمراً نادر الحدوث، تأتي الأمواج من ثلاث جهات، هادرة وطافحة بالزبد. كنتُ أقدّر مدى سرعتها وأتوقّع مسبقاً زاوية انقضاضها بدقّة. وعلى نحوٍ غير منطقي، كانت تأتي، على حين غرّة، موجةٌ على مؤخرة المركب فترفعه عالياً. ولمرّات عديدة، تكسّرت تلك الأمواج على كتفي، وبطبيعة الحال، دخل جزءٌ كبيرٌ من مياهها إلى المركب. وكان الرجال الخمسة ينهمكون دون توقّف في إفراغ الماء باستخدام الطناجر والعلب المتوفّرة. ورغم كلّ هذا، لم يحدث أبداً أن تركتُ المركب يمتلئ بالماء لأكثر من ربعه، وبالتالي لم يكن هناك خطر أن نغرق في البحر. وقد استغرق هذ الاحتفال السوقي نصف فترة الليل، أي قرابة سبع ساعات. وبسبب انهمار المطر، لم نرَ الشمس إلّا عند الساعة الثامنة صباحاً.

بعد أن هدأت العاصفة، استقبلنا جميعاً بفرح وابتهاج الشمس التي أشرقت معلنةً عن نهارٍ جديد، وألقت بأشعّتها الساطعة علينا. قبل كلّ شيء، شربنا القهوة. قهوة ساخنة ممزوجة بحليب نستله، وتناولنا كعكاً بحرياً قاسياً مثل الحديد، يصبح لذيذاً ما إنْ نغمسه في القهوة.

كان الصراع الليلي مع تلك العاصفة قد أنهكني، ولم يعد بوسعي الصمود، ولذلك طلبتُ من ماتوريت أن يحلّ محلّي لبعض الوقت، على الرغم من أنّ الرياح كانت لا تزال قويّة والأمواج عالية وغير مستقرّة. أردتُ أن أنام. وما كدتُ أن أغمضَ عينيّ لعشر دقائق، حتى أخطأ ماتوريت في تقدير اتجاه الأمواج وامتلأ القارب بالماء لثلاثة أرباعه. سبح كلّ شيء في الماء: الصناديق والموقد والأغطية... أسرعتُ نحوه وأنا أخوض في المياه حتى مستوى بطني، ووصلتُ في اللحظة المناسبة لكي أمسك بدفّة القيادة وأتجنّب موجة متكسّرة مقبلة مباشرةً نحونا. بحركةٍ من الدفّة أدرتُ مؤخرة المركب للموجة، فلم يدخل الماء إليه، وقذفتنا الموجة بقوّة صدمتها مسافةً تقارب عشرة أمتار.

انهمك الجميع في إفراغ المركب من الماء، كان القدر الضخم الذي

يفرغ به ماتوريت يرمي خمسة عشر لتراً في المرّة الواحدة. لم يهتمّ أحدٌ باسترجاع أيّ شيءٍ كان، لم يكن لدى الجميع سوى فكرة ثابتة: إفراغ المركب بأقصى سرعة ممكنة من الماء الذي كان يجعله ثقيلاً جدّاً ويمنعه من مقاومة الأمواج بطريقة جيّدة. عليّ أن أعترف أنّ الرجال الثلاثة الجدد قد تصرّفوا بطريقة حسنة، وحينما رأى البريتاني بأنّ صندوقه قد انجرف مع الماء، اتّخذ قراره بمفرده، ودون تردّد، وذلك لتخفيف حمل القارب، ألقى ببرميل الماء من دون أي صعوبة خارج المركب. بعد ساعتين، جفّ كلّ شيء، ولكننا خسرنا الأغطية والموقد والفرن وأكياس فحم الحطب، وعبوة البنزين وبرميل الماء، الذي تخلينا عنه طواعيةً.

كانت الساعة الثانية عشرة ظهراً عندما اكتشفتُ، وأنا أُريد أن أرتدي سروالاً جديداً، أنّ حقيبتي الصغيرة هي الأُخرى قد ذهبت مع الموجة، وكذلك مشمّعان واقيان من المطر من أصل ثلاثة. في قاع المركب، عثرنا على زجاجتين من الروم. وكان كلّ التبغ قد فُقِدَ أو تبلّل، والورق قد اختفى مع علبته المعدنية المحكمة الإغلاق. قلتُ:

– يا رجال، دعونا أوّلاً نشرب جرعة جيّدة من الروم، ثمّ افتحوا صندوق المؤن لنرى ما الذي يُمكننا أن نُكمِل به. هناك الكثير من عصير الفاكهة. لكننا سنقتصد في الشرب. هناك علب البسكويت المغمّس بالزبدة، أفرغوا علبة منها واصنعوا منها موقداً. سوف نضع علب الكونسروة في قعر المركب ونوقد النار باستخدام ألواح الصندوق الخشبي. لقد شعرنا جميعاً بالخوف، ولكن الخطر زال الآن. يجب على كلٍّ منّا أن يستعيد توازنه وأن يكون بمستوى الأحداث. وبدءاً من هذه اللحظة، لا ينبغي لأحدٍ منّا أن يقول: أنا ظمآن؛ ولا ينبغي لأحد منّا أن يقول: أنا جوعان؛ ولا ينبغي لأحد منّا أن يقول: أرغب في التدخين. اتّفقنا؟

ردّ الجميع بصوتٍ واحد:

– نعم بابي، اتّفقنا.

أبلى الجميع بلاءً حسناً، ويسّرت لنا العناية الإلهية ريحاً كافية أتاحت

لنا أن نعدّ حساءً باللحم البقري المعلّب، فملأنا بطوننا بقصعةٍ مليئة من هذا الحساء الساخن الذي نقعنا فيه الكعك الخاصّ بالجنود، الأمر الذي كان كافياً لأن ننتظر حتى اليوم التالي. وأعددنا كمية قليلة جدّاً من الشاي الأخضر لكلٍّ منّا. في الصندوق السليم الذي لم يتأثّر بالبلل، عثرنا على كرتونة من علب السجائر. كانت عبارة عن علب صغيرة تضمّ الواحدة منها ثماني سجائر. وكانت فيها أربع وعشرون علبة. قرّر الخمسة الآخرون أنّه يجب أن أدخّن وحدي لكي يساعدني ذلك على البقاء يقظاً، وحتى لا يكون هناك من يحسدني أو يغار منّي. رفض كلوزيو أن يشعل لي السجائر، ولكنه أعطاني الولّاعة. وبسبب هذا التفاهم، لم يقع أيّ حادثٍ مزعج بيننا.

ها قد مضت ستّة أيام على بدء رحلتنا ولم أستطع بَعْدُ أن أنام. ولأنّ البحر هادئٌ للغاية هذا المساء، غططتُ في نومٍ عميق قرابة خمس ساعات. كانت الساعة تشير إلى العاشرة مساءً حينما استيقظت. كان البحر لا يزال هادئاً تماماً. كانوا قد تناولوا الطعام من دوني، ووجدتُ نوعاً من عصيدة محضّرة من دقيق الذرة، المعلّب طبعاً، المعدّة بطريقة ممتازة، وتناولتها مع بعض القطع من النقانق المدخّنة. كانت لذيذة. كان الشاي بارداً تقريباً، ولكن لا بأس في ذلك. دخّنت وانتظرت أن تهبّ الرياح بالسرعة المناسبة.

كانت السماء صافية، تتلألأ النجوم الساطعة فيها، ويتلألأ نجم الشمال بكلّ سطوعه، لا يضاهيه في بريقه الأخّاذ سوى كوكبة صليب الجنوب، كما يُرى بوضوح الدبّ الأكبر والدبّ الأصغر. لم تكن هناك سحابة واحدة، ويسطع البدر المنير في كبد السماء المرصّعة بالنجوم المتلألئة. كان الرجل البريتاني يرتعش برداً، لأنّه فقد سترته ويرتدي فقط قميصاً قصير الكمّين، فأَعَرْتُه المشمّعَ الواقي من المطر خاصّتي. كنّا مقبلين على اليوم السابع من رحلتنا.

قلت:

- يا رجال، لا يمكن أن نكون بعيدين جدّاً من كوراساو. لدي إحساسٌ بأنني قد ملتُ قليلاً نحو الشمال أكثر ممّا ينبغي، ولذلك سوف أميل نحو الغرب من الآن فصاعداً، لأنّه ينبغي علينا ألّا نُخطئ جزر الأنتيل الهولندية. سيكون الوضع خطيراً بعد الآن لكوننا لم نعد نتوفّر على الماء العذب وقد فقدنا كلّ الأغذية والمؤن، ولم يعد لدينا سوى الاحتياطي منها.

قال الرجل البريتاني:

- نحن نثق بكَ يا بابيون.

ردّد الآخرون بصوتٍ واحد:

- نعم، نحن نثق بك. تصرّف كما تشاء.

- شكراً لكم.

أعتقد أنّ ما قلته هو الأفضل. ظلّت الرياح غير مواتية طيلة تلك الليلة، وفقط بحلول الساعة الرابعة صباحاً، هبّت علينا نسمةٌ ساعدتنا على الانطلاق من جديد في إبحارنا. استمرّت تلك النسمة، التي ازدادت قوّتها بحلول الفترة الصباحية، لمدّة ستّ وثلاثين ساعة بقوّة كافية لكي يسير المركب بسلاسةٍ ويتقدّم جيّداً، ولكن بوجود أمواجٍ صغيرةٍ لا تضرب هيكل مركبنا.

كوراساو

اقتربت منّا النوارس، وكنّا قد سمعنا أصواتها في البداية، لأنّ ظلام الليل لم يسمح لنا برؤيتها، ولكنّها اقتربت منّا بنفسها، وصارت تحوم من حول المركب. حطّ أحدها على الصاري ثمّ طار، ليعود ويحطّ عليه. واستمرّت هذه المناورة أكثر من ثلاث ساعات، حتى انبلج الصبح بشمسٍ مشرقة. لم يكن هناك أيّ شيءٍ في الأفق يدلّنا إلى اليابسة. من أين جاء الشيطان بهذه النوارس وطيور البحر؟ ظلت عيوننا طيلة النهار تفتّش عن اليابسة ولكن دون جدوى. لم يكن هناك أدنى دليل على وجود

يابسة قريبة. طلع القمر بدراً مكتملاً في اللحظة التي غابت فيها الشمس، وكان هذا القمر الاستوائي ساطع النور إلى درجة أنّ انعكاسه على صفحة الماء أبهر عيني. لم تعد نظاراتي السوداء بحوزتي، فقد ذهبت وضاعت مع الموجة الشهيرة التي ضربتنا، وكذلك ضاعت معها كلّ القبعات. نحو الساعة الثامنة مساءً، لمحنا في أفق تلك الليلة المقمرة خطّاً أسود اللون بعيداً جدّاً.

قلتُ قبل الجميع:

– هذه هي اليابسة، بكلّ تأكيد.

– نعم، حقّاً إنّها اليابسة.

باختصار، كان الجميع متّفقين على أنّهم قد رأوا خطّاً داكناً لا بدّ أن يكون أرضاً يابسة. وطيلة الوقت المتبقي من الليل أبقيتُ وجهة المركب نحو تلك البقعة الداكنة التي بدأت تصبح أكثر وضوحاً شيئاً فشيئاً. وصلنا إليها. وصلنا إليها بأقصى سرعة بفضل رياحٍ قوية خالية من السحب وموجةٍ عالية وطويلة ولكنّها منتظمة. لم تكن تلك الكتلة السوداء مرتفعة كثيراً عن سطح البحر، ولم يكن هناك أيّ شيء يدلّ على أنّ ساحلها مكوّنٌ من منحدرات أو صخور أو رمل. وقد منعني القمر الموشك على المغيب في الطرف الآخر من هذه اليابسة عن رؤية أيّ شيء، سوى سلسلة من الضوء على صفحة الماء، كان في البداية متّصلاً ومن ثَمّ تبعثر. اقتربتُ أكثر فأكثر، ومن ثَمّ ألقيتُ المرساة وأنا على بعدِ ما يقارب كيلومتراً واحداً. كانت الريح قوية، فاستدار المركب على نفسه وأصبح في مواجهة الموجة التي رفعته كلّما مرّت به. كانت الأمواج مضطربة جدّاً، ولذلك لم نشعر بالارتياح. وبالطبع أنزلنا الأشرعة وطويناها. وكان بإمكاننا أن ننتظر حتى الصباح في هذا الوضع غير المريح ولكن الآمن، غير أنّ المرساة أفلتت بضربة واحدة لسوء الحظّ. لكي نوجّه المركب، يجب أن يسير، ومن دون ذلك لا يمكننا التحكّم به. رفعنا القِلْع والزاويّ، لكن الغريب في الأمر هو أنّ المرساة لم تنفكّ سريعاً. سحب رفاقي الحبل إلى

المركب، فعاد من دون مرساة، لقد فقدناها. رغم كلّ ما بذلته من جهود، دفعتنا الأمواج بقوّة قريباً من صخور تلك اليابسة التي قرّرت أن أصعدها وأذهب إليها طواعيةً. وقد نجحتُ ببراعة في مناورتي بحيث وجدنا أنفسنا مثبّتين بين صخرتين، ولكنّ القارب تحطّم تماماً. لم يصرخ أحد من الرجال الذين برفقتي بعبارة: «انجوا بحياتكم!»، ولكن حينما أقبلت الموجة التالية، ألقينا بأنفسنا جميعاً في طريقها لنصل إلى تلك الأرض، متدحرجين ومضروبين ولكن أحياء. وحده كلوزيو، بساقه المجبّرة، تأذّى أكثر من الآخرين من تلك الأمواج العاتية. كانت الدماء تسيل من ذراعه ووجهه ويديه المليئتين بالجروح والرضوض. أمّا نحن الآخرون، فقد أُصبنا برضوضٍ في ركبنا وأيدينا وكعوبنا. وكنتُ أنزف من إحدى أذنيّ التي احتكّت بقسوة بإحدى الصخور.

رغم كلّ ما حدث، كنّا جميعاً أحياء وعلى الأرض اليابسة بمنأى عن الأمواج. حينما انبلج الصبح، استعدنا المشمّع الواقي وعدتُ إلى المركب الذي بدأ يتفكّك، وقد نجحتُ في انتزاع البوصلة المثبّتة على المقعد الخلفي.

لم يكن هناك أحدٌ في المكان الذي نزلنا فيه ولا في المناطق المجاورة. نظرنا إلى الأضواء التي كنّا قد لمحناها، فوجدناها سلسلة من المصابيح التي تُستخدم في إرشاد صيّادي السمك، وسوف نعلم لاحقاً أنّ المكان محفوفٌ بالمخاطر. توجّهنا سيراً على الأقدام نحو عمق تلك الأرض، ولم نعثر على شيءٍ سوى أشجار الصبّار التي كانت ضخمة، وحميراً. ثمّ وصلنا إلى بئرٍ ونحن منهكون، لأنّه كان علينا أن نتناوب كلّ اثنين منّا على حمل كلوزيو ونحن نشابك بين أيدينا بطريقة معيّنة بحيث نشكّل ما يشبه كرسياً يجلس فيه. كانت تنتشر حول البئر جيف متعفّنة لحميرٍ وماعزٍ، وكان البئر جافّاً، وتدور أجنحة الطاحونة التي كانت تشغّله سابقاً فارغة دون أن ترفع ماءً. لم تكن هناك روحٌ بشرية واحدة، وحدها الحمير والماعز تنتشر في المكان.

واصلنا السير إلى أن وصلنا إلى بيتٍ صغير، كانت أبوابه المفتوحة تدعونا للدخول إليه. صرخنا: «هولا! هولا!»، ولكن لم نجد أحداً. كان على المدفأة كيسٌ من القماش مغلقٌ بحبلٍ، فأخذته وفتحته. عندما هممتُ بفتحه، انقطع الحبل، ووجدتُ أنّ الكيس مليءٌ بالعملة الهولندية، فلوران. فأدركنا حينها أنّنا في الأراضي الهولندية: لا بدّ أنّنا في بونير أو كوراساو أو آروبا. أعدنا الكيس إلى مكانه من دون أن نأخذ منه شيئاً. وجدنا ماءً، فأخذ كلٌّ منّا يشرب بمغرفة. لم يكن هناك أحدٌ في المنزل، ولا في محيطه. غادرنا المنزل وسرنا ببطءٍ شديد بسبب كلوزيو، عندما قطعت علينا سيارة قديمة من طراز فورد الطريق.

- أأنتم فرنسيون؟

- نعم، يا سيّد.

- تفضّلوا بالصعود إلى السيارة.

مدّدنا كلوزيو على ركب الثلاثة الذين جلسوا في المقعد الخلفي، بينما جلستُ إلى جانب السائق، وأخذ ماتوريت مكانه بجانبي.

- هل تحطّم بكم المركب؟

- نعم.

- هل غرق بعض رفاقكم؟

- كلا.

- من أين قدمتم؟

- من ترينيداد.

- وقبل ذلك؟

- من غويانا الفرنسية.

- هل أنتم محكومون بالأشغال الشاقّة أم منفيون؟

- محكومون بالأشغال الشاقّة.

- أنا الدكتور نال، صاحب هذه الأرض الممتدّة، وهي شبه جزيرة

ملاصقة لكوراساو. وشبه الجزيرة هذه تُدعى جزيرة الحمير. فالحمير والماعز تعيش فيها على الصبّار ذي الأشواك الطويلة. والشعب هنا يُطلق على هذه الأشواك الطويلة تسمية «آنسات كوراساو».

قلتُ:

- لا شكّ أنّ هذا ليس إطراءً لآنسات كوراساو الحقيقيات ولا يُرضيهنّ.

قهقه السيّد الضخم، وطويل القامة. توقّفت سيارة الفورد، التي تلهث وتُصدر أصواتاً كرجلٍ مصابٍ بالربو، من تلقائها. قلتُ وأنا أُشير إلى قطعان الحمير:

- إذا لم يعد بوسع السيارة أن تسير، يمكننا جرّها بسهولة.

ردّ الرجل:

- لديّ ما يشبه السروج في صندوق السيارة، لكن الأمر الأهمّ هو أن نتمكّن من الإمساك بحمارين من هذه الحمير ونشدّ السرجين عليهما. هذا ليس بالأمر اليسير.

رفع الرجل البدين غطاء محرّك السيارة ورأى في الحال أنّ صدمة قويّة قد قطعت شريطاً يتّصل بالبواجي. وقبل أن يصعد إلى السيارة من جديد، نظر من حوله في كلّ الاتجاهات، وقد بدا عليه القلق. انطلقنا بالسيارة، وبعد أن مررنا بطرقٍ منحدرة ومليئة بالأخاديد، خرجنا لنقف في مواجهة حاجزٍ أبيض اللون يسدّ الطريق. كان هناك بيتٌ صغيرٌ أبيضُ اللون. تحدّث باللغة الهولندية مع رجلٍ زنجي كاشف البشرة يرتدي ثياباً نظيفة، يردّد في كلّ لحظة: «يا ماستر، يا ماستر». ثمّ توجّه إلينا وقال: «لقد أعطيتُ الأوامر لهذا الرجل بأن يبقى بصحبتكم ويسقيكم ماءً إذا كنتم عطشى، إلى أن أعود إليكم. تفضّلوا بالنزول. نزلنا من السيارة وجلسنا في الخارج، على العشب، في الظلّ. انصرفت سيارة الفورد اللاهثة. ما كاد الرجل أن يبتعد خمسين متراً حتى أخبرنا الرجل الزنجي بلغة بابيامنتو، اللّهجة الهولندية لسكان جزر الأنتيل، وهي خليطٌ من كلمات إنكليزية وهولندية وفرنسية وإسبانية، أنّ سيّده، الدكتور نال، قد ذهب لإحضار الشرطة لأنّه خاف منّا

أشدّ الخوف، وأنّه قد أخبره بأنّ يتنبه لنفسه لأنّنا لصوصٌ هاربون. ولم يعرف هذا الرجل المسكين الخلاسي ماذا يفعل لكي يكون لطيفاً معنا. أعدّ لنا قهوةً خفيفة جدّاً، ولكنّها أراحتنا بحرارتها. انتظرنا أكثر من ساعة، إلى أن وصلت شاحنة تشبه بهيكلها زبدية سلطة كبيرة، فيها ستّة رجال شرطة يرتدون زيّاً ألمانياً، وسيارة مكشوفة يقودها سائق بالزيّ الرسمي للشرطة ومعه ثلاثة رجال، وخلفهم الدكتور نال.

نزلوا من السيارة، وتوجّه أصغرهم سنّاً، وكان حليق الرأس تماماً، إلينا، وقال لنا:

– أنا رئيس جهاز أمن جزيرة كوراساو. وبحكم مسؤوليتي هذه، أرى نفسي مضطرّاً لتوقيفكم. هل اقترفتم جريمة منذ وصولكم إلى الجزيرة، وما هي هذه الجريمة؟ ومن منكم ارتكبها؟

– سيّدي، نحن محكومون بالأشغال الشاقّة هاربون، قدمنا من ترينيداد، ولم يمضِ سوى بضع ساعات على وصولنا وتحطّم مركبنا على صخوركم. أنا قائد هذه المجموعة الصغيرة ويمكنني أن أؤكّد لك أنّ لا أحد منّا قد ارتكب أيّ جنحة.

التفت مفوّض الشرطة نحو الدكتور نال البدين وتحدّث معه باللغة الهولندية. كان الاثنان يتحادثان حينما وصل رجلٌ على دراجة هوائية. تحدث بسرعة وبنبرة صاخبة إلى الدكتور نال أوّلاً، ثمّ إلى مفوّض الشرطة. قلتُ:

– سيّد نال، لماذا قلتَ لهذا الرجل أنّنا لصوص؟

– لأنّ هذا الرجل الذي ترونه أمامكم أخبرني، قبل أن أقابلكم، بأنّه بينما كان مختبئاً خلف شجرة صبّار، رآكم تدخلون بيته وتخرجون منه. هذا الرجل مستخدَمٌ عندي ويعتني بقسمٍ من الحمير.

– ولأنّنا دخلنا إلى البيت، هذا يعني أنّنا لصوص؟ إنّها تفاهة ما تتفوّه به، يا سيّد، فنحن لم نأخذ من البيت سوى الماء، وهل تعتبر هذه سرقة؟

- وماذا عن صرّة النقود؟

- لقد فتحتُ الصرّة بالفعل، بل وقطعت الحبل أثناء فتحها، ولكنني لم أفعل شيئاً سوى محاولتي لأن أرى النقود التي في داخلها لكي أعرف البلد الذي وصلنا إليه. وقد أرجعتُ النقود والصرّة بأمانة إلى المكان نفسه الذي كانت فيه، على صفيحة المدفأة.

حدّق المفوّض في عينيّ، واستدار فجأةً نحو الرجل صاحب الدرّاجة الهوائية، وتحدّث معه بقسوة بالغة. أتى الدكتور بال بحركة وأراد أن يتكلّم. بجفاءٍ بالغ وعلى الطريقة الألمانية، منعه المفوّض من التدخّل. أمر المفوض الرجل أن يصعد إلى جانب سائق سيارته، وصعد هو الآخر إلى السيارة برفقة شرطيين وانصرف. عاد بال والرجل الآخر الذي جاء برفقته معنا.

قال لنا:

- عليّ أن أشرح لكم أنّ هذا الرجل أخبرني أنّ الصرّة قد اختفت. وقبل أن يفتّشكم، استجوب المفوّض الرجلَ، مفترضاً أنّه كان يكذب. إذا كنتم أبرياء فأنا أعتذر عمّا حدث ولكن هذا ليس خطأي.

بعد أقلّ من ربع ساعة، عادت السيارة وقال لي مفوّض الشرطة: «لقد قلتَ الحقيقة، هذا الرجل كاذبٌ خسيس. سوف يُعاقب على رغبته في أن يُلحق بكم ضرراً جسيماً». في هذه الأثناء، أركبوا الرجل في الشاحنة الشبيهة بزبدية السلطة، وصعد الرجال الخمسة الآخرون وكنتُ أهمّ بدوري بالصعود إليها، حينما استبقني مفوّض الشرطة وقال لي: «خذ مكانك في سيارتي إلى جانب السائق». انطلقنا قبل الشاحنة، وسرعان ما غابت عن أنظارنا. سلكنا طرقاً معبّدة، ثمّ دخلنا المدينة التي كانت بيوتها من الطراز الهولندي. وجدنا كلّ شيء نظيفاً للغاية، معظم الناس يسيرون على دراجات هوائية. يجوب مئات الأشخاص المدينة جيئة وذهاباً هكذا على درّاجات ذات إطارين. دخلنا مركز الشرطة، وانتقلنا من مكتبٍ واسعٍ يجلس فيه عدّة رجال شرطة على طاولاتهم،

وقد ارتدى الجميع زيّاً أبيض اللون، إلى غرفة أخرى فيها مكيّف هواء، ولذلك كان الجوّ فيها منعشاً. كان رجلٌ طويل القامة وقويّ البنية وأشقر، في حوالي الأربعين من عمره، يجلس في أريكةٍ. نهض من مكانه وتحدّث بالهولندية. بعد أن انتهت نقاشاتهم، قال مفوّض الشرطة باللغة الفرنسية:

- أقدّم لك القائد الأوّل لشرطة كوراساو.

ثمّ التفت إلى القائد، وقال:

- سيّدي القائد، هذا الرجل فرنسي وهو قائد المجموعة المكوّنة من الأشخاص الستّة الذين قمنا بتوقيفهم.

- حسناً أيّها المفوّض. أهلاً بكم في كوراساو بصفتكم منكوبين تحطّم مركبهم. ما اسمك؟

- هنري.

- حسناً يا هنري، لقد أمضيتم وقتاً مزعجاً للغاية بسبب واقعة الصرّة، ولكنّ هذه الواقعة كانت لصالحكم أيضاً لأنّها تُظهر من دون أدنى شكّ بأنّك رجلٌ شريف. سوف أمنحكم قاعة حسنة الإنارة فيها سريرٌ لكي تستريحوا فيها. سوف يبتّ الحاكم في أمركم، وسوف يُصدر الأوامر بشأنكم. سوف نتدخّل، المفوّض وأنا بنفسي، لصالحكم.

مدّ يده إليّ وخرجنا معاً. في الباحة، اعتذر لي الدكتور نال ووعدني بأن يتدخّل لصالحنا. بعد ساعتين، كنّا جميعاً محجوزين في قاعة واسعة جدّاً، مستطيلة الشكل، فيها قرابة اثني عشر سريراً وطاولة خشبيّة طويلة وفي وسطها مقاعد طولية. تحدّثنا من خلال النافذة المشبّكة بالقضبان الحديدية مع شرطي، وعرضنا عليه بعض المال بالدولار الترينيدادي، وطلبنا منه أن يشتري لنا تبغاً وورق لفٍّ وعلباً لأعواد الثقاب. لم يأخذ منّا المال ولم نفهم ما أجابنا به.

بعد انتظارٍ طويل، قال كلوزيو:

- يبدو أنّ هذا الزنجي الأسود صقيل البشرة لن ينفعنا بشيء ولن يسدي لنا أيّ خدمة. لم نحصل على هذا التبغ بعد.

كنتُ سأذهب لأدقّ الباب الذي انفتح في اللحظة نفسها. دخل رجلٌ قصير القامة، ذو ملامح صينية، يرتدي بزّة رمادية خاصّة بالسجناء وعلى صدره رقمٌ لكي لا نُخطئ، وقال لنا: «هل تريدون مالاً؟».

- كلا، نريد تبغاً وورقاً وأعواد ثقاب.

عاد بعد دقائق قليلة وقد جلب لنا كلّ ما طلبناه ومعها أيضاً وعاءٌ كبير يتصاعد منه بخار الشوكولا الساخنة أو الكاكاو. شرب كلٌّ منا كوباً كبيراً من الأكواب التي جلبها السجين.

جاؤوا في طلبي بعد الظهر، فعدتُ إلى مكتب قائد الشرطة. قال لي:

- لقد أعطاني الحاكم الأمر في أن أدعكم أحراراً في باحة السجن. أخبر رفاقك ألّا يحاولوا الفرار، لأنّ النتائج ستكون وخيمة على الجميع. وأنت كقائد للمجموعة، يمكنك الخروج إلى المدينة كلّ صباح لمدّة ساعتين، من الساعة العاشرة صباحاً إلى الثانية عشرة ظهراً، وكذلك في فترة ما بعد الظهيرة، من الساعة الثالثة عصراً حتى الساعة الخامسة. هل لديكم نقود؟

- نعم، لدينا نقود إنكليزية وفرنسية.

- سوف يرافقك شرطيٌّ بالزيّ المدني إلى حيث تشاء خلال ساعات خروجك إلى المدينة.

- وماذا ستفعلون بنا؟

- أعتقد أنّنا سنقوم بترحيلكم الواحد تلو الآخر على متن ناقلات للنفط من بلدان مختلفة. لأنّ كوراساو تمتلك واحدة من أكبر المصافي في العالم، وتقوم بمعالجة النفط الفنزويلي، يدخل إليها ويخرج منها يومياً ما بين عشرين وخمس وعشرين ناقلة نفط من كلّ بلدان العالم. وسيكون هذا الحلّ هو الحلّ الذي تحلمون به لأنّكم سوف تصلون إلى الدول من دون أيّ مشكلة.

- أيّ البلدان على سبيل المثال؟ بنما، كوستاريكا، غواتيمالا، نيكاراغوا، المكسيك، كندا، كوبا، الولايات المتحدة الأمريكية، والبلدان ذات القوانين الإنكليزية؟

- مستحيل، وأوروبا أيضاً مستحيلة. التزموا الهدوء، وكونوا على ثقة، ودعونا نعمل على مساعدتكم في وضع قدمكم على طريق النجاح في حياةٍ جديدة.

- شكراً، أيّها القائد.

رويتُ كلّ ما قيل لي بأمانةٍ تامّة لرفاقي. قال لي كلوزيو، وهو أكثر أفراد الزمرة شرّاً:

- وما رأيك أنت، يا بابيون؟

- لا أدري بعد، فأنا أخشى أن يكون هذا كلاماً معسولاً فقط لكي نبقى ملتزمين بالهدوء، وألا نحاول الفرار.

قال:

- وأنا أخشى أن تكون على حقٍّ في مخاوفك.

أما الفتى البريتاني فقد كان مؤمناً بهذه الخطّة التي اعتبرها رائعة.

ابتهج الرجل صاحب المكواة قائلاً: «لا مركب بعد الآن، لا مغامرة بعد الآن، هذا أمرٌ مؤكّد. سوف يصل كلٌّ منّا إلى بلدٍ ما على متن ناقلة نفطٍ ضخمة، وسندخل إلى البلد بطريقة رسمية». وكان لورو من الرأي نفسه. قلت: «وما رأيك أنت يا ماتوريت؟» فردّ هذا الفتى البالغ تسعة عشر عاماً، هذا الأبله الذي تحوّل عرضاً إلى سجينٍ محكومٍ بالأشغال الشاقّة، هذا الصبي ذو القسمات الأكثر رقّة من قسمات امرأة، وقال بصوته العذب:

- وهل تصدّقون أنّ رجال الشرطة هؤلاء، ذوي الرؤوس المربّعة سوف يستخرجون لكلٍّ منّا بطاقة شخصية مثيرة للريبة أو مزوّرة؟ أنا لا أصدّق ذلك. في أسوأ الأحوال، قد يغضّون الطرف عنّا لكي نبحر، واحدنا تلو الآخر، بطريقة غير مشروعة على متن ناقلة نفطٍ على وشك

المغادرة، لا أكثر، ولا يفعلون هذا إلّا لكي يتخلّصوا منّا دون أن يعانوا من متاعب. هذا هو رأيي. أنا لا أصدّق هذه الحكاية.

كنتُ أخرج نادراً جدّاً، ولوقتٍ قصير في الصباح، إلى المدينة لأتبضّع بعض ما نحتاج إليه. وها قد مضى أسبوعٌ كامل على وجودنا هنا دون أن يحدث أيّ جديد، فبدأنا نصبح عصبيين ومتوتّرين. بعد ظهيرة أحد الأيام، رأينا ثلاثة خوارنة محاطين برجالٍ من الشرطة يزورون الزنازين والقاعات بالتناوب. وقد توقّفوا مطوّلاً في الزنزانة الأقرب إلينا حيث يوجد فيها رجلٌ زنجي متّهم بجريمة اغتصاب. ولأننا افترضنا أنّهم سيأتون إلينا أيضاً، عدنا جميعاً إلى القاعة وجلس كلّ منّا على سريره. وبالفعل دخل ثلاثتهم، مصحوبين بالدكتور نال، وبقائد الشرطة، وبضابطٍ على كتفه رتبٌ، ويرتدي بزّة بيضاء، الأمر الذي دلّ على أنّه ضابطٌ من البحرية.

قال قائد الشرطة باللغة الفرنسية:

- سيّدي، ها هم الفرنسيون. إنّهم على سلوكٍ نموذجي.

- أهنّئكم يا أطفالي. فلنجلس على المقاعد حول هذه الطاولة، وسيكون هذا أفضل لنا لنتحادث.

جلس الجميع بمن فيهم الأشخاص الذين يرافقون الأسقف. جلبوا مقعداً بلا مساند، كان موضوعاً بالقرب من الباب في الباحة، وجلس عليه الأسقف إلى طرف الطاولة، وبذلك استطاع أن يرى الجميع.

- الفرنسيون بمعظمهم يتبعون المذهب الكاثوليكي، من منكم ليس كذلك؟

لم يرفع أحدٌ يده، فقد اعتقدتُ أنّ خوري سجن التوقيف قد عمّدني تقريباً وأنّه علي أن أعتبر نفسي كاثوليكياً، أنا أيضاً.

- أصدقائي، أنا من أصولٍ فرنسية، وأُدعى إيرينيه دو بروين. كان أجدادي من البروتستانت الهوغونوتيين الذين لجأوا إلى هولندا في الفترة التي كانت كاترين دي ميديسي تلاحقهم بالموت. وبالتالي تجري في

عروقي دماءٌ فرنسية، وأنا أسقف كوراساو، المدينة التي يوجد فيها من البروتستانت أكثر من الكاثوليك، ولكن الكاثوليك فيها أكثر صرامة في إيمانهم وممارسة شعائرهم. ما هو وضعكم؟

- نحن ننتظر أن يتمّ ترحلينا، الواحد تلو الآخر، على متن ناقلاتٍ للنفط.

- وكم واحداً منكم رُحِّل بهذه الطريقة حتى الآن؟

- لا أحد، حتى الآن.

- همم! ما قولك في هذا، يا قائد؟ أجبني باللغة الفرنسية من فضلك، فأنت تُجيدها تماماً.

- سيادة الأسقف، يُفكّر الحاكم بجدٍّ وإخلاص في أن يُساعد هؤلاء الرجال من خلال هذه الطريقة، ولكن عليّ أن أقول بصدق وصراحة أنّه، حتى يومنا هذا، لم يشأ أيّ قبطان سفينة أن يوافق على نقل أيّ واحدٍ منهم، وذلك لأنّهم لا يحملون جوازات سفر.

- يجب البدء من هذه النقطة. ألا يستطيع الحاكم أن يمنح لكلٍّ منهم جواز سفرٍ خاصّاً؟

- لا أدري. لم يحدثني أبداً عن هذا الأمر.

- بعد غد، سأُلقي قدّاساً من أجلكم. هل ترغبون في أن تأتوا بعد ظهيرة الغد لتعترفوا بخطاياكم؟ سوف أقبل اعترافكم شخصياً لكي أساعدكم على أن يغفر الربّ الرحيم لكم خطاياكم. أرسلوهم لي إلى الكاتدرائية الساعة الثالثة، هل هذا ممكن؟

- نعم.

- أتمنى أن يأتوا في سيارة أجرة أو في سيارة خاصّة.

قال الدكتور نال:

- سوف أصحبهم بنفسي، سيادة الأسقف.

- شكراً، يا بني. يا أطفالي، لن أعدكم بشيء. لن أقول لكم سوى

كلمة وحيدة وحقيقية: منذ هذه اللحظة، سوف أبذل كلّ ما بوسعي لما فيه خيركم. وإذ رأينا الدكتور نال يقبّل خاتمه، ومن بعده الفتى البريتاني، لثمنا بدورنا بشفاهنا الخاتم الأسقفي ورافقناه إلى سيارته المركونة في الباحة.

في اليوم التالي، اعترف الجميع بخطاياهم لدى الأسقف، وكنتُ أنا آخر من يفعل ذلك.

- هيّا، يا ولدي، اِبْدَأْ أوّلاً بالإثم الأكبر.

- يا أبانا، قبل كلّ شيء، لستُ معمّداً، ولكن خورياً في السجن في فرنسا قال لي بأنّنا إن كنّا مُعَمَّدين أم لم نكن، فكلّنا أبناء الربّ الطيّب.

- كان محقّاً في قوله. حسناً. سنخرج من الاعتراف وسوف تخبرني بكلّ شيء.

رويتُ له كلّ تفاصيل حياتي. أصغى إليّ أمير الكنيسة هذا مطوّلاً، وبصبرٍ، وبانتباهٍ شديد، من دون أن يقاطعني. أمسك بيديّ وضمّهما بين يديه ونظر غالباً إلى عينيّ، وفي بعض الأحيان، عند المقاطع الصعبة على الاعتراف، يخفض عينيه لكي يعينني في اعترافي بخطاياي. كان وجه وعينا هذا القس البالغ ستين عاماً في غاية الصفاء والنقاء بحيث كانت تنعكس مسحةٌ طفوليةٌ فيها. كانت روحه الصافية والطافحة بطيبة لا نهاية لها تشعّ في كلّ قسماته، وتدخل نظرته الحنونة المنبثقة من عينين رماديتين صافيتين في كياني مثل بلسمٍ على جرحٍ. تحدّث إليّ بغاية اللطف والرقّة، وهو يُبقي يديّ بين يديه، وبصوتٍ عذبٍ وهادئ يكاد يكون همساً: «يمنح الربّ أحياناً لأطفاله فرصة تحمّل الخبث البشري لكي يخرج مَنْ اصطفاه كضحية أكثر قوّةً ونبلاً من أيّ وقت مضى. أترى يا بني، لو لم تكابد هذه المحنة، لما استطعت قط أن تسمو إلى هذه الدرجة وتقترب عن كثب من حقيقة الربّ. سأقول بطريقة أفضل: إنّ الناس والأنظمة وتروس هذه الآلة الرهيبة التي طحنتك، والمخلوقات الشريرة بطبيعتها التي عذّبتك بمختلف الوسائل وألحقت بك الضرر الفادح، إنّها كلّها قد أسدت لك في الوقت ذاته أكبر خدمة استطاعت إليها سبيلاً. لقد خلقت في داخلك

كائناً جديداً سامياً أقصى درجات السموّ. وإذا كنت اليوم تشعر بالعزّة والطيبة وحبّ الخير وتحظى بالطاقة الضرورية للتغلّب على كلّ العقبات وأصبحتَ شخصاً سامياً، فأنت مدينٌ لها بذلك. لا يُمكن لهذه الأفكار حول الانتقام ومعاقبة كلّ شخص بسبب فداحة الضرر الذي ألحقه بك، لا يُمكنها أن تنتعش في كائنٍ مثلك. عليك أن تكون منقذاً للبشر، لا أن تعيش لكي تؤذي الآخرين، حتى وإن كنت تعتقد أنّ هذا الأذى سيكون مبرّراً. لقد كان اللّه كريماً معك، فقد قال لك: «ساعد نفسك، سوف أساعدك». لقد ساعدك في كلّ شيء، بل وسمح لك أن تنقذ بشراً آخرين وتقودهم نحو الحرية. ولذلك لا تعتقد أن كلّ هذه الآثام التي اقترفتها هي خطيرة جدّاً. هناك الكثير من الناس من الطبقات الاجتماعية الراقية اقترفوا آثاماً أكبر وأخطر من تلك التي اقترفتَها، ولكنّهم فقط لم يحظوا، في العقاب الذي أنزلتْهُ بهم عدالةُ البشر، بالفرصة لكي يرتقوا ويسموا مثلما ارتقيت وسموتَ أنت.

قلت له:

– شكراً يا أبتاه. لقد أسديت لي معروفاً عظيماً، طيلة حياتي، ولن أنساه ما حييت.

ثمّ قبّلتُ يديه.

– سوف ترحل من جديد يا بنيّ، وسوف تواجه أخطاراً أخرى. أودّ أن أعمّدك قبل الرحيل. ما رأيك؟

– يا أبَتِ، دعْني على ما أنا عليه في الوقت الحاضر. لقد ربّاني والدي بلا دِين. كان رجلاً طيّب القلب. حينما ماتت والدتي، أحسن إيجاد مبادرات وكلمات وعوّض عليّ عناية الأمّ لكي يزيد في حبّه لي. يبدو لي لو أنني تعمّدتُ، سأرتكب نوعاً من الخيانة بحقّه. أتِحْ لي الوقتَ لأكونَ حرّاً تماماً مع هويّة ثابتة، مع طريقة من العيش الطبيعي، حتى أسأله، حينما أكتب له رسالة، إن كنتُ أستطيع أن أتعمّد من دون أن أتسبّب له بالألم، ومن دون أن أتخلّى عن فلسفته.

- إنّي أفهمك يا بني، وأنا على ثقة بأنّ اللّه سيكون معك. أباركك وأتضرّع إلى اللّه أن يحميك.

قال لي الدكتور نال:

- ها هو الأسقف إيرينيه دو بروين يتجلّى بأكمل خصاله في هذه العظة.

- بالتأكيد يا سيّدي. والآن ماذا تنوي أن تفعل؟

- سأطلب من الحاكم أن يعطي الأوامر للجمارك بأن تترك لي الأفضلية في أوّل بيعٍ للسفن المصادرة من المهرّبين. سوف تأتون معي للإدلاء برأيكم واختيار المركب الذي يناسبكم. وستكون بقية الأمور، كالغذاء والكساء، سهلةً.

منذ اليوم الذي ألقى فيه الأسقف موعظته علينا، تلقّينا زيارات متواصلة، وخاصّة في المساء حوالي الساعة السادسة. أراد أولئك الناس التعرّف علينا. يجلسون على المقاعد المحيطة بالطاولة. ويجلب كلّ زائرٍ منهم معه غرضاً ما ويضعه فوق أحد الأسرّة من دون أن يقول: لقد جلبتُ لكم هذا. نحو الساعة الثانية من بعد الظهر، كنّا نتلقّى دائماً زيارة من نساء منتمياتٍ إلى جماعة تُدعى «الأخوات الصغيرات للفقراء»، بصحبة رئيستهنّ، وكنّ يتحدّثن اللغة الفرنسية بإتقانٍ تامّ. كانت حقيبتهنّ مليئة على الدوام بالأطعمة اللذيذة التي يطبخنها بأنفسهنّ. وكانت رئيستهنّ شابّة عمرها أقلّ من أربعين عاماً. لا يظهر شعرها المخفي تحت وشاحٍ أبيض اللون، وعيناها زرقاوان وحاجباها أشقران. وهي من عائلة هولنديةٍ كبيرة (حسب المعلومات التي أخبرنا بها الدكتور نال عنها)، وكتبتْ رسالة إلى السلطات الهولندية لتعرف إن كانت هناك وسيلة لإطلاق سراحنا غير إعادتنا عبر البحر. أمضينا أوقاتاً ممتعة معاً، وجعلتني أُعيد على مسامعها لمرّات عديدة حكاية هروبنا من السجن. في بعض الأحيان، طلبت منّي أن أروي الحكاية مباشرةً للأخوات اللواتي يرافقنها واللواتي يجدن التحدّث باللغة الفرنسية. وإذا ما سَهَوْتُ عن تفصيلٍ أو قفزتُ فوقه، كانت تعيدني بلطف إليه: «لا تستعجل يا هنري. لقد قفزْت على حكاية الديك... لماذا

نسيت النمل اليوم؟ للنمل مكانة مهمّة في الحكاية، لأنّه بسببها فوجئتم بالبريتاني ذي القناع!». رويتُ كلّ ذلك بطيبة خاطر، لأنّها كانت لحظات سعيدة للغاية ومناقضة تماماً لكلّ ما عشناه وعانينا منه، بحيث كان نورٌ سماويٌّ يُضيء بطريقة غير واقعية دربَ العفن هذا الآيلَ للزوال.

رأيتُ المركب، وقد كان رائعاً يبلغ طوله ثمانية أمتار، بأرضية ممتازة، وصارٍ عالٍ جدّاً وأشرعة واسعة. لقد صُنِع بالفعل من أجل سباق التهريب. وكان مجهّزاً بكلّ ما يلزم ولكنّه مختومٌ بالكثير من الأختام الشمعية التي ختمته إدارة الجمارك بها. بدأ رجلُ المزاد العلني عليه بستّة آلاف فلوران، أي حوالي ألف دولار. باختصار، لقد أُعطي لنا المركب مقابل ستّة آلاف وفلورانٍ واحدٍ، بعد أن همس الدكتور نال ببضع كلماتٍ في أذن ذاك الرجل. في غضون خمسة أيام، أصبحنا جاهزين للرحيل. كان هذا المركب الذي له نصف جسر، والمطلي حديثاً، والمليء بالأطعمة المرتّبة في العنبر، هدية تليق بالملوك. أُعدّت ست حقائب، لكلٍّ منّا حقيبة تحتوي على أغراض جديدة وأحذية وكلّ ما نحتاج إليه من ثياب، في مغلّفٍ نسيجيٍّ كبير، ومن ثَمّ وضِعَت على سطح المركب.

سجن ريوهاتشا

انطلقنا مع بزوغ الشمس. جاء الدكتور نال والأخوات الصغيرات لوداعنا. افترقنا بسهولة ويسر عن الرصيف البحري، دفعتنا الرياح في الحال وأبحرنا على نحوٍ طبيعي. أشرقت الشمس مشعّة وتوقّعنا أنّ نهاراً جميلاً بلا حوادث ينتظرنا. اكتشفتُ في الحال أنّ للمركب الكثير من الأشرعة وليس مستقراً بما فيه الكفاية. قررتُ أن أكون حذراً، وسرنا بأقصى سرعة. هذا المركب يشبه حصاناً أصيلاً في السرعة، ولكنّه غيورٌ وحرون. توجّهتُ نحو الغرب بالضبط. كان من المقرّر أن نُنزلَ سرّاً وبطريقة غير شرعية الرجال الثلاثة الذين انضموا إلينا في ترينيداد. لم يرغبوا في معرفة أيّ شيء طيلة رحلتنا الطويلة، وقالوا بأنّهم يثقون بي،

ولكنّهم لا يثقون بالأحوال الجوية والطقس. وبالفعل، وحسب النشرات الجوية في الصحف التي قرأناها في السجن، كانت تنتظرنا أحوالٌ جويّةٌ سيئة، بل وحتى عواصف.

اعترفتُ لهم بحقهم، وكان من المتفق عليه أن أُنزلهم على شبه جزيرة معزولة وغير مأهولة، تُدعى غواجيرا. أما نحن الثلاثة، فسوف نغادر من هناك حتى نصل إلى هندوراس البريطانية. وقد سهّل الطقس المشمس والليلة المقمرة ذات السماء المرصّعة بالنجوم والتي أعقبت ذلك النهار الجميل مشروعنا في الإبحار. اتّجهنا مباشرةً إلى الساحل الكولومبي، وألقيتُ المرساة وسبرنا المياه شيئاً فشيئاً لنرى إن كان بوسع الرجال الثلاثة أن ينزلوا من المركب، ولكن المياه كانت، لسوء الحظّ، عميقة، واضطررنا لأن نقترب بمخاطرة من ساحل صخري لنصلٍ إلى عمقٍ يقلّ عن مترٍ ونصف. صافحنا بعضنا بعضاً مودّعين، ونزل كلٌّ منهم مثبّتاً قدميه على الأرض ومن ثَمّ تقدّم، واضعاً حقيبته فوق رأسه، نحو البر. راقبنا تحرّكهم باهتمام وبشيءٍ من الحزن. فقد أحسن هؤلاء الأصحاب التصرّف معنا خلال الرحلة، وكانوا بمستوى كلّ الظروف التي واجهناها. كان نزولهم من المركب أمراً مؤسفاً ومحزناً بالنسبة لنا. وفي الوقت الذي كانوا يقتربون فيه من الساحل، همدت الرياح تماماً. اللعنة! تمنينا ألّا يرانا أحدٌ من تلك القرية الظاهرة على الخارطة والتي تُدعى ريوهاتشا! هذا أوّل ميناءٍ توجد فيه سلطات وشرطة. تمنينا ألّا يكون الأمر كذلك. بدا لي أنّنا ابتعدنا كثيراً عن النقطة المحدّدة بسبب المنارة الصغيرة الموجودة في النقطة التي مررنا بها للتوّ.

ظللنا ننتظر لوقتٍ طويل... توارى الرجال الثلاثة عن أنظارنا بعد أن ألقوا علينا تحية الوداع ملوّحين بمنديلٍ أبيض. الريح! كرمى لله، الريح! نحتاج إلى الريح لننفكّ عن هذه الأرض الكولومبية التي تشكّل بالنسبة لنا علامة استفهام! في الواقع، لم نكن نعلم إن كان السجناء الفارون سيعودون أم لا، في حين كنّا نحن الثلاثة نفضّل يقين هندوراس البريطانية

على مجهول كولومبيا. وفقط عند الساعة الثالثة من بعد الظهيرة، هبّت الريح من جديد واستطعنا أن نتحرّك. رفعت الشراع بالكامل وانحنيتُ إلى الأمام، ربّما أكثر من اللازم، وسرنا بهدوء لأكثر من ساعتين من الزمن حينما توجّه زورقٌ محمّلٌ برجالٍ نحونا مباشرةً وبدأ بإطلاق الرصاص في الهواء من بنادق لكي يرغمونا على التوقّف. انطلقت دون أن أخضع لأوامرهم، محاولاً الوصول إلى عرض البحر لكي أخرج من المياه الإقليمية. لكن كان ذلك مستحيلاً. لحق بنا ذلك الزورق القوي بعد أقلّ من ساعة ونصف من المطاردة، واضطررنا للاستسلام بعد أن صوّب عشرة رجال بنادقهم نحونا.

كان لأولئك الجنود أو رجال الشرطة الذين أوقفونا جميعهم هيئات خاصّة: كانوا يرتدون سراويل متّسخة بيضاء اللون في الأصل، وبلوزات صوفية لا شكّ أنّها لم تُغسَل أبداً وفيها ثقوبٌ، وجميعهم حفاةٌ باستثناء «القائد» الذي يرتدي ثياباً أفضل حالاً وأكثر نظافةً. ولئن كانوا يرتدون ثياباً رثّة، إلا إنّهم كانوا بالمقابل مدجّجين بالسلاح: كانوا يتحزّمون بأحزمة مليئة بالذخائر ويحملون بنادق حربية في حالة ممتازة، وعلاوة على ذلك، غمداً يحتوي على سكينٍ كبير مقبضه في متناول اليد. وكان للرجل الذي يخاطبونه بصفة «القائد» رأسُ خلاسيٍّ قاتل، يحمل مسدّساً كبيراً يتدلّى هو الآخر من حزامٍ مليءٍ بالذخيرة الحيّة. وبما أنّهم لم يتكلّموا سوى بالإسبانية، لم نفهمْ ما قالوه، ولكن لم تكن لا نظرتهم ولا حركاتهم ولا نبرة صوتهم ودّية، بل كان كلّ شيء فيهم عدائياً.

ذهبنا سيراً على الأقدام من الميناء إلى السجن، عابرين القرية التي كانت فعلاً ريوهاتشا، محاطين بستّة عفاريت بالإضافة إلى ثلاثة آخرين يسيرون على بعد مترين وهم يصوبون أسلحتهم نحونا. وبالتالي لم تكن معاملتهم أكثر لطفاً في طريق إيصالنا إلى السجن.

وصلنا إلى فناء سجنٍ محاطٍ بجدارٍ صغير، يحتوي على قرابة عشرين سجيناً ملتحياً، أجسادهم متّسخة من قمّة الرأس حتى أخمص القدم. لدى

دخولنا، نهض بعضهم، وظلّ آخرون جالسين، ولكنّهم نظروا جميعاً إلينا نظرة عدائية أيضاً كالجنود ورجال الشرطة. سمعناهم يهتفون بصوتٍ عالٍ: «فاموس، فاموس». فهمنا أنّهم يريدون أن يقولوا: «هيّا أسرعوا، هيّا أسرعوا». وقد كان هذا الأمر صعباً بالنسبة إلينا، لأنّ كلوزيو، وإن أصبح أحسن حالاً بكثير، إلّا أنّه كان لا يزال يسير على الصفيحة المعدنية التي في ساقه الموضوعة بالجبس ولا يستطيع أن يمشي بسرعة. أمّا «القائد» الذي ظلّ يسير خلفنا فقد التحق بنا وهو يحمل تحت إبطه البوصلة والمشمّع. كان يأكل من فطائرنا والشوكولا خاصّتنا، وأدركنا في الحال بأنّه سوف يسلبُ منّا كلّ شيء. ولم نكن مخطئين في اعتقادنا هذا، فقد احتُجزنا في قاعةٍ قذرة مثيرة للاشمئزاز فيها نافذةٌ بقضبان معدنية ضخمة. على الأرض ألواح خشبية في أحد طرفيها ما يشبه وسادة خشبية، تُستخدَم كأسرّة للنوم. حينما غادر رجال الشرطة المكان بعد أن حبسونا، جاء سجينٌ ينادينا عبر النافذة: «أيّها الفرنسيون، أيّها الفرنسيون».

أجبت:

– ما الذي تُريده؟

– أيّها الفرنسيون، ليس طيباً، ليس طيباً!

– ما الذي ليس طيّباً؟

– الشرطة.

– الشرطة؟

– نعم، الشرطة ليست طيّبة.

ثمّ انصرف. هبط الليل، وأُضيئت القاعة بمصباحٍ كهربائي لا بدّ أنّه ضعيف التوتّر لأنّه أنار القاعة بضوءٍ خافت. انقضّ علينا البعوض يئزّ حول آذاننا ويحطّ على أنوفنا.

قال ماتوريت:

– إذاً، ما أحلانا! سوف يكلّفنا غالياً قبولنا بنقل هؤلاء الرجال.

– ماذا تريد، لم نكن نعلم. كان هذا بسبب غياب الريح.

قال كلوزيو:

- لقد اقتربت كثيراً من الشاطئ.

قلتُ:

- كفى. هذا ليس أوان تبادل التهم أو اتّهام الآخرين، هذا أوان رصّ الصفوف، وعلينا أن نكون متّحدين أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

- عذراً، أنت على حقّ يا بابي. إنّه ليس خطأ أحدٍ.

أوه! سيكون الأمر في غاية الإجحاف أن نكافح كلّ هذا الكفاح ومن ثَمّ ينتهي فرارنا هنا، ويفشل هذا الفشل الذريع. لم يقوموا بتفتيشنا. كانت ماسورتي في جيبي، وسارعتُ إلى المراحيض لدسّها في أحشائي، وكذلك فعل كلوزيو مع ماسورته. وقد اكتشفنا بأننا حسناً فعلنا حينما لم نتخلّص منها. فهي في الواقع حافظة نقود محكمة الإغلاق وصغيرة جدّاً، ومن السهل الاحتفاظ بها معنا. حسب ساعة يدي، كانت الساعة الثامنة مساءً. جُلِبَ لنا بعض السكّر الخام البني اللون، عبارة عن قطعة بمقدار قبضة يدٍ لكلٍّ منا وما يشبه ثلاث علبٍ من عجين الأرزّ المطبوخ بالماء والملح. وقيل لنا: «بيوناس نوشس!».

قال ماتوريت: لا بدّ أنّ هذه العبارة تعني: «ليلة سعيدة». في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي، قُدِّمت لنا قهوة ممتازة في أكوابٍ خشبية في باحة السجن. نحو الساعة الثامنة، جاء القائد. طلبتُ منه الذهاب إلى المركب لجلب حاجياتنا. إمّا أنّه لم يفهم ما قلتهُ وإمّا أنّه تظاهر بأنّه لم يفهم. وكلّما نظرتُ إليه، كلّما وجدتُ في هيئته هيئة مجرم. كان يحمل في يده اليسرى قارورة صغيرة في قرابٍ جلدي، فأخرجها وفتح غطاءها وشرب منها جرعةً ثمّ بصق على الأرض، وناولني القارورة. أمام هذه البادرة الودية الأولى، أخذت القارورة وشربت منها. ولحسن الحظ، ارتشفتُ القليل منها، لأنّ المشروب الكحولي كان بمثابة نارٍ حارقة بنكهة الكحول. ابتلعته بسرعة وبدأتُ أسعل، فضحك هذا الهندي الخلاسي الزنجي مقهقهاً.

في الساعة العاشرة، وصل العديد من المدنيين مرتدين ثياباً بيضاء وربطات عنق. كانوا ستّة أو سبعة أشخاص، ودخلوا إلى مبنى يبدو أنّه مقر إدارة السجن. تمّ استدعاؤنا، وأُدخلنا إلى قاعة فوجدناهم يجلسون جميعاً على كراسيّ على شكل نصف دائرة، وقد تصدّرت القاعة لوحة كبيرة تضمّ صورة ضابطٍ بالزيّ الأبيض ومزخرفة زخرفة بالغة وعرفنا أنّها صورة «الرئيس ألفونسو لوبيز، رئيس كولومبيا». قام أحد أولئك السادة وأجلس كلوزيو في مقعد وهو يتحدّث إليه باللغة الفرنسية، أمّا نحن فقد بقينا واقفين أمامهم. يتوسّطهم رجلٌ نحيل له أنفٌ شبيه بمنقار نسرٍ ويضع نظّارات زجاجها مبتور، وقد بدأ باستجوابي. لم يُترجم المترجم شيئاً ممّا قال، وقال لي:

- السيّد الذي تحدّث والذي سيستجوبك هو قاضي مدينة ريوهاتشا، والآخرون هم من وجهاء المدينة وهم أصدقاؤه. أما أنا الذي سأقوم بالترجمة، فأنا هاييتيٌّ أدير أعمال الكهرباء في هذه المقاطعة. اعتقدتُ أنّ هناك بين هؤلاء الحاضرين بعض من يفهم اللغة الفرنسية، بل ربّما حتى القاضي نفسه، وإن لم يفصحوا عن ذلك.

عيل صبر القاضي من هذه المقدّمة، وبدأ استجوابه لي باللغة الإسبانية. وقد قام الرجل الهاييتي بترجمة الأسئلة والأجوبة على التوالي.

- أأنتم فرنسيون؟

- نعم.

- من أين قدمتم؟

- من كوراساو.

- وقبلها؟

- من ترينيداد.

- وقبلها؟

- من المارتينيك.

- أنت تكذب. فقد أخطرنا قنصلنا، قبل أسبوعٍ من الآن، بأن نراقب

سواحلنا لأنّ ستّة فارين من السجن الإصلاحي في فرنسا سيحاولون النزول في بلدنا.

- حسناً. نحن فارّون من السجن الإصلاحي.

- أنتم من كايين إذاً؟

- نعم.

- إذا كان بلدٌ نبيل مثل فرنسا قد طردكم بعيداً جدّاً وعاقبكم بهذه القسوة، فهذا يعني أنّكم عصابة خطيرة للغاية. أليس كذلك؟

- ربّما.

- أأنتم لصوصٌ أم مغتالون؟

- نحن قتلة.

- الأمران سيّان، يا قاتل. إذاً، أنتم قتلة، أليس كذلك؟ أين الثلاثة الآخرون؟

- ظلّوا في كوراساو.

- أنت تكذب مرّة أخرى. لقد أنزلتموهم على بعد ستين كيلومتراً من هنا، في بلدٍ يدعى كاستيليت. وقد تمّ توقيفهم لحسن الحظّ، وسيُحضرون إلى هنا في غضون بضع ساعات. هل سرقتم هذا المركب؟

- لا، لا، لقد قُدِّم هديةً لنا من أُسقف كوراساو.

- حسناً. سوف تبقون سجناء هنا إلى أن يقرّر الحاكم ما علينا فعله معكم. وبشأن ارتكابكم لجرم إنزال ثلاثة من المتواطئين معكم على الأراضي الكولومبية ومحاولةِ الإبحار بعد ذلك، أحكم عليك، أنت قائد المركب، بالسجن لمدّة ثلاثة أشهر، فيما أحكم على رفيقيك الآخرين بالسجن لمدّة شهرٍ واحد. تصرّفوا بطريقة حسنة إذا كنتم لا ترغبون أن تُعاقبوا جسدياً من رجال الشرطة القساة جدّاً. هل لديكم ما تقولونه؟

- لا. أرغب فقط أن أحصل على حاجياتي والأغذية الموجودة على متن المركب.

– لقد تمّت مصادرة كلّ شيء من جانب الجمارك عدا سروال وقميصٍ وسترةٍ وزوجٍ من الأحذية لكلٍّ منكم. أما ما تبقى فقد تمّت مصادرته ولا تلحّ في طلبه، إذ ليس هناك شيءٌ يمكن فعله، فهذا حكم القانون.

انسحبنا إلى باحة السجن، هبّ السجناء البؤساء من أبناء البلد نحو القاضي وهتفوا: «دكتور، دكتور!». مرّ القاضي من بين صفوفهم، ممتلئاً بالغرور والعجرفة، من دون أن يردّ عليهم ومن دون أن يتوقّف عندهم. خرج القاضي ومن معه من السجن وتواروا عن الأنظار.

في الساعة الواحدة، وصل الثلاثة الآخرون في سيارة شاحنة يرافقهم سبعة أو ثمانية رجالٍ مسلّحين. ترجّلوا من الشاحنة وعلى محياهم الخجل والحرج ومعهم حقائبهم. دخلنا معهم إلى القاعة.

قال الصبيّ البريتاني:

– يا له من خطأ فادحٍ ارتكبناه، وورطناكم معنا. خطأنا لا يُغتَفَر يا بابيون، وإن شئت قتلي، يمكنك فعل ذلك، ولن أدافع عن نفسي حتى. نحن لسنا رجالاً، نحن أوغادٌ. لقد فعلنا هذا خوفاً من البحر، والحال أنّ ما شاهدناه من كولومبيا والكولومبيين، فإنّ أخطار البحر هي فكاهة مقارنةً بالأخطار التي نواجهها بين أيدي هكذا شيوعيين خطرين. هل بسبب انعدام الرياح وقعتم في قبضة هؤلاء؟

– نعم يا بريتاني. ولكنني لستُ في وارد قتل أحد، فقد أخطأنا جميعاً، فلو رفضتُ إنزالكم، لما حدث شيء.

– أنت رجلٌ طيّبٌ للغاية، يا بابي.

– لا، أنا أحاول فقط أن أكون منصفاً.

حدّثتهم عن الاستجواب الذي خضعتُ له، وأخبرتهم بأنّ الحاكم قد يُطلق سراحنا في النهاية.

– صحيح. دعونا إذاً نتمسّك بالأمل. فكما يقول زميلي: الأمل يصنع الحياة.

حسب رأيي، لا تستطيع سلطات هذا البلد نصف المتحضّر أن تتّخذ قراراً بشأن حالتنا. لا يمكن سوى لسلطة عليا أن تتّخذ القرار إذا ما سيكون بوسعنا أن نبقى في كولومبيا، أو نُعاد إلى فرنسا، أو تركنا نعود إلى مركبنا لكي نسافر إلى بلدٍ أبعد. سيكون أمراً شيطانياً إذا ما اتّخذ هؤلاء الناس، الذين لم نلحق بهم أيّ أذى، القرار الأكثر خطورةً بشأننا لأننا في النهاية لم نرتكب أيّ جريمة على أرضهم.

ها قد مرّ أسبوعٌ على وجودنا هنا. ولم يجرِ أيّ تغييرٍ على وضعنا سوى الحديث عن إمكانية نقلنا تحت الحراسة المشدّدة إلى مدينة أكثر أهميةً، تقع على بعد مئتي كيلومترٍ من هنا، وتُدعى سانتا مارتا. لم يغيّر رجال الشرطة هؤلاء الذين لهم هيئة قراصنة طريقة تعاملهم معنا. فبالأمس فقط، كنتُ على وشك أن أتلقى طلقة بندقية من أحدهم لأنني استرددتُ صابونتي منه في المغسلة.

ما زلنا في قاعة البعوض العفنة هذه، والتي باتت، لحسن الحظّ، أكثر نظافةً مما وجدناها حين وصولنا إليها، وذلك لأنّ ماتوريت والصبي البريتاني عكفا على غسلها كلّ يوم.

بدأ اليأس يستولي عليّ وأفقد الثقة بالخلاص. هذا العِرق من الكولومبيين، الذين هم مزيجٌ من الهنود والزنوج، هؤلاء الخلاسيين الهنود والإسبان الذين كانوا في العصر القديم سادة هذه البلاد، جعلني هذا العِرق أن أفقد الثقة بالخلاص. أعارني سجينٌ كولومبي عدداً قديماً من جريدة سانتا مارتا. شاهدتُ على الصفحة الأولى منها صورتنا نحن الستّة وتحتها صورة قائد الشرطة بقبّعته اللبادية الضخمة، وفي فمه سيجارٌ، وكذلك صورة ما يقارب عشرة رجال شرطة مسلّحين ببنادقهم. أدركتُ أنّه قد تمّ إضفاء طابعٍ خيالي على حكاية إلقاء القبض علينا، وقد جرى تضخيم الدور الذي لعِبه هؤلاء فيه، وكأنّ كولومبيا بأكملها قد أُنقِذَت من خطرٍ رهيبٍ من خلال توقيفنا. ومع ذلك، كانت صورة المجرمين أكثر لطفاً من صورة رجال الشرطة، إذ كانت للمجرمين هيئة أناسٍ أشراف، في

حين أنّ هيئة رجال الشرطة، وعلى رأسهم قائدهم، فالعياذ باللّه! وعذراً على هذا التعبير! ما العمل إذاً؟ بدأتُ أتعلّم بضع كلمات باللغة الإسبانية: الهروب = فوغارس، السجين = بريسو، قتل = ماتار، سلسلة = كادينا، الأغلال = إيسبوزا، الرجل = أومبر، المرأة = موجير.

الفرار من ريوهاتشا

رأيتُ في الباحة رجلاً يداه في الأغلال بشكلٍ دائم، وقد أقمتُ معه علاقة صداقة. كنّا ندخّن السيجار نفسه، سيجارٌ طويل ورفيع. كان قويّاً جدّاً، ولكننا كنا رغم ذلك ندخّنه. علمتُ أنّه كان يعمل مهرّباً بين فنزويلا وجزيرة آرابا، وقد اتُّهِم بقتل بعض خفر السواحل وينتظر الحكم في قضيته. تراه في بعض الأيام هادئاً بشكلٍ غير عاديّ، وفي أيام أخرى عصبيّاً ومتوتّراً. وقد بدأتُ ألاحظ أنّه يكون هادئاً حينما يأتي أحدهم لزيارته ويقوم بمضغ الأوراق التي يجلبها له. ذات يوم، أعطاني نصف ورقة منها، وفي الحال أدركتُ السرّ. بعد أن مضغتها، فقدتُ الإحساس بلساني وسقف حلقي وشفتيّ. كانت الأوراق أوراق الكوكا المخدّرة. هذا الرجل البالغ خمسة وثلاثين ربيعاً ذو الساعدين المشعرين والصدر المغطّى بالشعر المجعّد الأسود الفاحم، لا بدّ أن يكون قويّاً بشكلٍ غير عاديّ. في أسفل قدميه الحافيتين طبقة متقرّنة سميكة، ينزع في أحيانٍ كثيرة قطعاً منها باستخدام كسرة زجاج أو مسمارٍ معدني، ينغرزان في تلك الطبقة دون أن تصل إلى اللحم الحي.

ذات مساء، قلتُ للمهرّب: «فوغا، أنت وأنا». وكنتُ قد طلبتُ من الرجل الهايتي، خلال زيارة قام بها للمهرّب، قاموساً فرنسياً – إسبانياً. فهم عليّ الرجل وأشار لي بأنّه يرغب من جهته في الفرار، لكنّ المشكلة تكمن في الأغلال! إنّها أغلالٌ أمريكية ذات فتحة، وفيها شقٌّ للمفتاح الذي كان بكلّ تأكيد مفتاحاً مسطّحاً. صنع لي الصبي البريتاني خطّافاً من سلكٍ معدنيٍّ مسطّح الطرف. بعد محاولاتٍ عديدة، نجحتُ في فكّ

أغلال صديقي الجديد حينما أشاء. كان يودَعُ ليلاً لوحده في زنزانة منفردة قضبانها الحديدية ثخينة جداً. في حين كانت القضبان في قاعتنا رفيعة وبالتأكيد، كان من الممكن إبعادها عن بعضها. لن يكون علينا إذاً سوى نشر قضيبٍ معدني واحد، وهو قضيب زنزانة أنطونيو – كان الكولومبي يُدعى أنطونيو – سألته: «كيف يمكن الحصول على منشارٍ؟»، ولفظت كلمة منشار باللغة الإسبانية، بعد أن استخرجتها من القاموس. أجاب: «لقاء بعض المال»، وقد لفظ كلمة المال بالإسبانية. سألته بالإسبانية: «بكم؟»، فأجاب: «مئة بيزو». – «كم دولاراً؟». – «عشر دولات». باختصار، بعشرة دولارات التي أعطيتها له حصل على منشارين للمعدن. وقد شرحتُ له من خلال الرسم على تراب الباحة بأنّه في كلّ مرّة ينشر القضيب قليلاً، عليه أن يخلط برادة الحديد بكرات عجين الأرزّ التي يقدّمونها لنا وأن يسدّ الشقّ جيّداً حتى لا يثير انتباه أحد. في اللحظة الأخيرة، قبل أن أعود، فتحتُ له الأغلال. وفي حال جاؤوا ليتحقّقوا من أنّها في يديه، لن يكون عليه سوى الضغط عليها فتنغلق تلقائياً. استغرق نشر القضيب المعدني ثلاث ليالٍ. شرح لي بأنّه في أقلّ من دقيقة واحدة سوف ينجز قطع القضيب وأنّه واثقٌ من قدرته على أن يطويه بيديه. كان عليه أن يأتي للقائي.

كان المطر يهطل غالباً، وقد قال أيضاً باللغة الإسبانية بأنّه سوف يأتي للقائي في أوّل ليلة ماطرة. في تلك الليلة، هطل المطر مدراراً. كان رفاقي على علمٍ بخططي، ولم يرغب أحدٌ في أن يتبعني، ظنّاً منهم أنّ المنطقة التي أنوي الذهاب إليها بعيدةٌ جدّاً. كنتُ أريد أن أذهب إلى رأس شبه الجزيرة الكولومبية، على حدود فنزويلا. حسب ما كان مدوّناً على الخارطة التي بحوزتنا، تُدعى هذه المنطقة «غواجيرا» وهي منطقة متنازعٌ عليها، فهي ليست كولومبية ولا فنزويلية. قال الكولومبي باللغة الإسبانية: «إنّها أرض الهنود»، وإنه لا توجد أيّ شرطة فيها، لا شرطة كولومبية، ولا فنزويلية. يمرّ بها بعض المهرّبين. وهي محفوفة بالخطر،

لأنّ هنود غواجيرا لا يتسامحون مع دخول رجلٍ متمدّن إلى بلادهم. ويصبحون أكثر خطراً كلّما تعمّقنا داخل أراضيهم. وعلى الساحل، هناك هنودٌ صيادون يتاجرون، بوساطة هنود آخرين أكثر تمدّناً بقليل، مع قرية كاستيليت وقرية صغيرة أخرى في جوارها، تُدعى لافيلا.

لم يرغب أنطونيو في الذهاب إلى هناك: ربّما يكون رفاقه أو هو بنفسه قد قتلوا بعض الهنود أثناء معركةٍ معهم ذات يوم حينما اضطرّت السفينة المحمّلة بمواد مهرّبة إلى اللجوء إلى ساحل إقليمهم. ولكنّ أنطونيو التزم بأن يرافقني إلى مكانٍ قريبٍ جدّاً من غواجيرا، وبعد ذلك سيكون عليّ أن أواصل طريقي بمفردي. وإنّه من نافلة القول أنّ كلّ هذا احتاج إلى جهدٍ مضنٍ وشاقّ لكي يُبنى بيننا لأنّه استخدم مفردات غير موجودة في القاموس. إذاً، كان المطر يهطل مدراراً في تلك الليلة. كنتُ بالقرب من النافذة، وكان لديّ لوحٌ خشبي قد نُزِع منذ وقتٍ طويل من حاجز سوف نستخدمه كعتلة للمباعدة بين القضبان. وكنّا قد جرّبناه قبل ليلتين، ورأينا أن القضبان تتباعد بسهولة.

قال باللغة الإسبانية:

– أنا جاهز.

بدا وجه أنطونيو، ملتصقاً على القضبان الحديدية. وباستخدام عتلةٍ، وبمساعدة ماتوريت والصبي البريتاني، لم تبتعد القضبان المعدنية عن بعضها فحسب، بل خُلعَت من جذورها. دفعوني وهم يرفعونني، وتلقيتُ صفعات على ردفيّ قبل أن أختفي. هذه الصفعات كانت لكمات من أصدقائي. كنّا في الباحة، وكان المطر الغزير يُصدر ضجيجاً جهنّمياً بسقوطه على الأسطح المبنية من الصفيح. أمسك أنطونيو بيدي وجرّني نحو الجدار. لم يكن القفز من فوقه سوى لعبة مسلّية لأنّ ارتفاعه لم يكن يزيد على مترين. ومع ذلك جرحتُ يدي بقطعة من الزجاج المغروز في أعلى الجدار على طريقنا، لكنّه كان جرحاً بسيطاً. نجح أنطونيو الحقير هذا في التعرّف على طريقه وسط هذا المطر الغزير الذي منعنا من الرؤية

لمدى ثلاثة أمتار. وقد استفاد منه لكي يعبر تماماً كلّ القرية، ومن ثَمّ سلكنا طريقاً بين الدَّغَل والساحل. في وقتٍ متأخّرٍ من الليل، لمحنا ضوءاً، فاضطررنا لأن نقوم بجولة طويلةٍ في الدَّغَل الذي، لحسن الحظّ، لم يكن كثيفاً جدّاً، وعدنا إلى الطريق. سرنا تحت المطر حتى مطلع النهار. وعند انطلاقنا، كان قد أعطاني ورقة كوكا، فمضغتُها على نحو ما كان يفعل في السجن. لم أشعر بالتعب على الإطلاق حينما بزغ الصباح. هل كان ذلك بفعل ورقة الكوكا؟ نعم بكلّ تأكيد. وعلى الرغم من طلوع النهار، واصلنا سيرنا. كان ينبطحُ أرضاً من حينٍ لآخر، ويضع أذنه على الأرض التي تجري عليها المياه، ثمّ ينهض، فنستأنف سيرنا.

لاحظت أنّ له طريقة غريبة في المشي. لم يكن يركض ولا يمشي، بل كان سيره عبارة عن نوعٍ من القفزات المتعاقبة، جميعها بالطول نفسه، ذراعاه منفردتان ومتأرجحتان كما لو أنّه يجذّف في الهواء. لا بدّ أنّه قد سمع صوت شيءٍ ما، لأنّه جرّني إلى داخل الدَّغَل. كان المطر لا يزال يهطل. وبالفعل، مرّت من أمام أنظارنا مدحلة حجرية يجرّها جرّارٌ وذلك بهدف تسوية الأرض على الطريق بكلّ تأكيد.

أصبحت الساعة العاشرة والنصف، توقّف المطر عن الهطول، وأشرقت الشمس. وقد دخلنا إلى الدَّغَل بعد أن سرنا لمسافة كيلومترٍ واحدٍ على المرج وليس على الطريق. ونحن مستلقِيَيْن تحت نبتة كثيفة جدّاً، ومحاطَين بأعشاب سميكة ومليئة بالأشواك، اعتقدتُ أنّنا لا نخشى شيئاً، ومع ذلك لم يدعني أنطونيو أدخّن أو أتكلّم، ولو همساً. وإذ لم يتوقّف أنطونيو عن تجرّع عصير أوراق الكوكا، فعلتُ مثله ولكن على نحوٍ أكثر اعتدالاً منه. أراني جُرِباً يحتوي في داخله على أكثر من عشرين ورقة كوكا. لمعت أسنانه الرائعة في الظلّ كلّما ابتسم، دون أن يصدر صوتاً. ولأنّ المكان كان مليئاً بالبعوض، مضغ سيجاراً ودهنّا وجهينا وأيادينا باللعاب المشبَعِ بالنيكوتين، وقد ارتحنا بعد ذلك وهدأنا. بلغت الساعة السابعة مساءً، فهبط الليل، ولكنّ القمر أنار الطريق بوضوح.

وضع إصبعه على الساعة التاسعة وقال باللغة الإسبانية: «مطر». فهمتُ منه أنّ المطر سيهطل في الساعة التاسعة. وبالفعل، بدأ المطر بالهطول في الساعة التاسعة وعشرين دقيقةً، فاستأنفنا السير. تعلّمت القفز وأنا أمشي وكذلك التجديف بذراعيّ، وذلك لكي أجاريه في مشيته. وكان الأمر سهلاً، فكنا نتقدّم أكثر سرعةً، رغم أننا لا نركض. أثناء الليل، اضطررنا لأن ندخل إلى الدَّغَل ثلاث مرّات، وذلك لكي نتجنّب سيارةً، وشاحنةً، وعربةً صغيرة يجرّها حماران، مرّت في الطريق. بفضل هذه الأوراق، لم أشعر بالتعب حينما أشرقت الشمس. توقّف المطر عن الهطول في الساعة الثامنة، وبالتالي، كرّرنا ما فعلناه سابقاً، فسرنا بهدوء بين العشب لمسافة تزيد عن كيلومترٍ واحدٍ، ثمّ دخلنا بين الدَّغَل لنختبئ. الأمر السيّئ في هذه الأوراق، هو أننا عجزنا عن النوم، إذ لم يغمض لنا جفن منذ أن بدأنا رحلتنا. وقد توسّعت حدقتا عيني أنطونيو كثيراً بحيث لم تعد هناك قزحيتان. ولا بدّ أنّ حدقتي عينيّ قد أُصيبتا بالحالة نفسها.

في الساعة التاسعة مساءً، بدأ المطر بالهطول، وكأنّ المطر كان ينتظر حلول هذه الساعة لكي يبدأ بالهطول. وسوف أعرف فيما بعد أنّه في الأقاليم الاستوائية، حينما يبدأ المطر بالهطول في هذه الساعة، يعود ويهطل حينما يكون القمر في طور التربيع الأوّل في الساعة نفسها، ويتوقّف عن الهطول أيضاً في التوقيت نفسه تقريباً. في بداية المسير، في تلك الليلة، سمعنا صيحاتٍ في البداية، ومن ثَمّ شاهدنا أضواءً. هتف أنطونيو: «إنّها كاستيليت». أمسكني هذا الشيطان من يدي دون تردّد، ودخلنا بين أشجار الدَّغَل، وبعد سيرٍ شاقٍّ لأكثر من ساعتين، وجدنا أنفسنا على الطريق. وقد مشينا، أو بالأحرى قفزنا خلال كلّ ما تبقّى من الليل، ولجزءٍ كبيرٍ من الفترة الصباحية. جفّفت الشمس ثيابنا على جسدينا. كانت قد مضتْ ثلاثةُ أيامٍ ونحن مبلّلون، ولم نذقْ طعاماً سوى قطعةٍ من السكّر الخامّ، في اليوم الأوّل من الرحلة. بدا أنطونيو على شبه يقينٍ بأننا لن نصادف أشخاصاً أشراراً. كان يسير بلا قلق وها قد مضت عدّة ساعات من دون

أن يضع أذنه على الأرض. كان الطريق يحاذي الشاطئ. قطع أنطونيو عوداً يابساً من شجرة، وأصبحنا نسير الآن على الرمل الرطب، بعد أن خرجنا من الطريق. توقّف أنطونيو لكي يتفحّص أثراً عريضاً من الرمل المستوي، بعرض خمسين سنتيمتراً، يخرج من البحر ويصل إلى الرمل الجافّ. تابعنا الأثر ووصلنا إلى مكانٍ يغدو فيه الأثر عريضاً على شكل دائرة، فغرز أنطونيو عصاه في الأرض. وحينما سحبه، كان قد التصق به سائلٌ أصفر اللون، مثل صفار البيض. وبالطبع، ساعدته في حفر حفرةٍ من خلال جرف الرمل بأيدينا، وبعد قليلٍ، ظهرت بيوضٌ، يُقارب عددها ثلاثمئة أو أربعمئة بيضةٍ، لا أعرف بالضبط. كان بيض سلحفاة البحر. وهذه البيوض لا قشرة لها، وإنّما فقط طبقة من الجلد. أخذنا منها ملء القميص الذي خلعه أنطونيو، وكان عددها قرابة مئة بيضةٍ. خرجنا من الشاطئ وعبرنا الطريق لكي نعود إلى الدَّغَل. وبمنأى عن الأنظار، بدأنا نأكل، وقد نبّهني أنطونيو ألّا آكل سوى الصفار. بضربة من أنيابه الشبيهة بأنياب الذئاب، مزّق الغلاف الجلدي للبيضة وأفرغ البياض منه ومن ثَمّ بدأنا نتناوب على ارتشاف الصفار، فيأخذ هو بيضةً وأنا آخذ أخرى. وقد فتح كميّة كبيرة منها، وهو يبتلع بيضةً ويناولني الأخرى. بعد أن أكلنا إلى حدّ التخمة، استلقينا على الأرض، يستخدم كلٌّ منّا سترته كوسادة. قال أنطونيو باللغة الإسبانية ما معناه:

– غداً، سوف تواصل طريقك لوحدك ليومين إضافيين. بدءاً من يوم الغد، لن يعود هناك رجال شرطة.

تجاوزنا آخر موقعٍ حدودي في الساعة العاشرة من ذاك المساء. وقد عرفنا ذلك من خلال نُباح الكلاب وبيتٍ صغيرٍ غامرٍ بالأضواء. وقد تجنّبنا كلّ ذلك بطريقة رائعة تصرّف بها أنطونيو. وبالتالي، سرنا طيلة الليل من دون أن نتّخذ إجراءات احترازية. لم يكن الطريق واسعاً، وإنّما كان عبارة عن مسارٍ يشعر المرء على أيّ حال أنّ الكثير من الناس يسلكونه، لأنّه كان خالياً من الأعشاب. كان عرضه يقارب خمسين سنتيمتراً، ويحاذي الدَّغَل، مطلّاً

على الشاطئ ويرتفع عنه قرابة مترين. وتُرى فيه أيضاً آثار النعال المعدنية للخيل والحمير، مطبوعة على الأرض. جلس أنطونيو على جذعِ ضخمٍ لشجرةٍ، أشار لي أن أجلس أيضاً. كانت الشمس المشرقة قويّة، وقد أشارت ساعة يدي إلى أنّها الساعة الحادية عشرة، ولكن حسب موقع الشمس، لا بدّ أنّ الساعة كانت قد بلغت الثانية عشرة ظهراً: حينما نظرتُ إلى عودٍ يابسٍ مغروزٍ في الأرض، لم أرَ له أيّ ظلّ، إذاً هذا يعني أنّنا في منتصف الظهيرة، فقمتُ بضبط ساعتي على الثانية عشرة. أفرغ أنطونيو كيسه من أوراق الكوكا: كانت سبع أوراق. أعطاني أربع ورقات واحتفظ بثلاثٍ منها لنفسه. ابتعدتُ قليلاً، ودخلت إلى الدَّغَل، وعدتُ ومعي خمسون دولاراً ترينيدادياً وستون فلوراناً وقدّمتها له. نظر إليّ باندهاشٍ شديد، وأمسك بالأوراق النقدية، ولم يفهم لماذا كانت جديدة وعلى هذه الحالة الجيّدة وكيف لم تبتلّ أبداً ولا سيّما وأنّه لم يرني قطّ أجفّفها. شكرني، وهو يمسك كلّ الأوراق النقدية بيده، وفكّر مليّاً، ثمّ أخذ ستّ أوراق نقدية من فئة خمسة فلوران، أي ثلاثين فلوراناً، وأعاد لي بقية الأوراق النقدية. ورغم إلحاحي عليه، رفض أن يقبل أكثر من ذلك. تغيّر شيءٌ ما في داخله في تلك اللحظة. كان من المقرّر أن ننفصل هنا، ولكن بدا أنّه راغبٌ في أن يرافقني الآن ليومٍ إضافي. وأفهمني بأنّه سيستدير بعد ذلك نصف استدارة ويكمل طريقه بمفرده. حسناً، انطلقنا بعد أن التهمنا صفار بضع بيضات، وأشعلنا سيجاراً بعد أن بذلنا جهداً كبيرة لإيقادِ نارٍ من خلال ضرب حجرين ببعضهما لأكثر من نصف ساعة لقدح شرارة تشعل بعض الهشيم.

كنّا نمشي منذ ثلاث ساعات حينما أقبل رجلٌ يمتطي حصاناً نحونا مباشرةً. كان هذا الرجل يعتمر قبّعة من القشّ واسعة وينتعل حذاءً طويل الساقين، ولا يرتدي سروالاً وإنّما نوعاً من سروال داخلي جلدي، وقميصاً أخضر اللون، وسترةً خضراء اللون أيضاً ولكن بلونٍ فاتح، أقرب إلى اللون العسكري. أمّا بالنسبة إلى السلاح، فقد كان يحمل بندقية قصيرة جميلة جدّاً، ومسدساً كبيراً يتدلّى من حزامه.

- كارامبا! أنطونيو، يا بنيّ.

كان أنطونيو قد تعرّف من بعيد على الفارس، ولم يخبرني بشيء، ولكنّه كان يعرف من هو القادم، وبدا ذلك واضحاً تماماً. ترجّل الرجل القويّ البنية، الأسمر البشرة، والبالغ أربعين ربيعاً على الأقلّ، من صهوة حصانه، فتعانقا وربّتا بقوّة على كتفي بعضهما. وهذه الطريقة في العناق، سوف أصادفها لاحقاً في كلّ مكان.

- ومنْ هذا؟

ردّ بالإسبانية:

- رفيقي في الفرار من السجن، إنّه فرنسي.

- إلى أين تمضي؟

- إلى أقرب مكانٍ ممكنٍ من الصيادين الهنود.

- يريد المرور بالإقليم الهندي، ويدخل إلى الأراضي الفنزويلية، وهناك، يبحث عن وسيلة للعودة إلى آروبا أو كوراساو.

قال الرجل:

- هنود غواجيرا شعبٌ شرير، وأنت غير مسلّح. خذ هذا.

أعطاني خنجراً مع قرابه الجلدي، له مقبض مصنوع من قرنٍ مصقول. جلسنا على قارعة الدرب الضيّق. خلعتُ حذائي، ورأيتُ قدميّ الداميتين. تحادث أنطونيو والفارس بسرعة، وقد بدا واضحاً أنَّ خطّتي في عبور غواجيرا لم تعجبهما.

أشار أنطونيو إليّ أن أمتطي الحصان، ونصحني أن أعلّق حذائي على كتفي، وأبقى حافياً لكي أجفّف جراحي. وقد فهمتُ كلّ ذلك عبر الحركات. امتطى الفارس الحصان، ومدّ لي أنطونيو يده ودون أن أفهم، وجدتُ نفسي أمتطي صهوة الجواد خلف صديق أنطونيو. وعدونا بالحصان طيلة النهار وطيلة الليل. وكنّا نتوقّف بين الفينة وأخرى، فيعطيني زجاجة اليانسون، وأشرب القليل منه في كلّ مرّة. عند طلوع

النهار، توقّف الرجل. أشرقت الشمس، فأعطاني قطعة من الجبن قاسية مثل الحديد وقطعتي «صمّون»، وست أوراق كوكا وأهداني كيساً خاصّاً لأضع المأكولات فيه وأُحكِم إغلاقه، وهو من النوع الذي يُعلّق على الحزام. ضمّني بين ذراعيه وهو يربّت على كتفي على غرار ما رأيته يفعل مع أنطونيو، ومن ثَمّ امتطى حصانه وانطلق به يُسابق الريح.

الهنود

تابعتُ السير حتى الساعة الواحدة بعد الظهر. لم يعد هناك لا دغل ولا أشجار في الأفق. سطعت مياه البحر فضيّة اللون، تحت أشعة الشمس اللاهبة. مشيتُ حافي القدمين، ولا يزال حذائي معلّقاً على كتفي الأيسر منذ أن كنتُ على صهوة الحصان. وفي اللحظة التي قرّرتُ فيها أن أنام، بدا لي أنني ألمح من بعيد خمس أو ستّ أشجارٍ، أو صخورٍ، بعيدة عن الشاطئ لمسافة جيّدة. حاولتُ أن أقدّر المسافة: ربّما عشرة كيلومترات. تناولت نصف ورقة كبيرة، وفي الوقت الذي كنتُ أمضغها، استأنفتُ السير بخطى سريعة. بعد انقضاء ساعة، عرفتُ ماهية تلك الأشياء الخمسة أو الستّة: إنّها أكواخٌ بأسطح من القصب أو القشّ، أو من أوراق الشجر كستنائية اللون. كان يتصاعد دخانٌ من أحدها. ثمّ رأيتُ أناساً، وهم رأوني بدورهم. وسمعت صيحات ورأيت حركات مجموعة منهم تتجه نحو البحر. ورأيتُ حينها أربع سفن تقترب بسرعة من الشاطئ والتي أنزلت ما يقارب اثني عشر شخصاً. تجمّع الجميع أمام البيوت ونظروا نحوي. رأيتُ أنّ الرجال والنساء كانوا عراة ويعلّقون فقط شيئاً ما أمامهم يسترون به أعضاءهم التناسلية. سرتُ ببطء نحوهم. كان ثلاثة منهم يتكئون على أقواسٍ وبأيديهم سِهامٌ. ومن خلال الحركات، بدا أنّهم لا يضمرون لي لا عداوة ولا صداقة. نبح كلبٌ وهرع منقضّاً عليّ هائجاً ومسعوراً. عضّني من أسفل ربلة ساقي، مختطفاً قطعة من سروالي... وحينما عاد لينقضّ عليّ ثانية، تلقّى على مؤخرته سهماً صغيراً لم أعرف

من أين انطلق (وقد علمتُ بعد ذلك أنّه أُطلِق من أنبوبة رماية)، فولّى هارباً وهو يهرّ صارخاً وبدا أنّه عاد ليدخل أحد تلك الأكواخ. اقتربتُ، وأنا أعرج، لأنّه عضّني على نحوٍ جدّي. لم أكن أبعد عن المجموعة سوى عشرة أمتار. لم يتحرّك أيّ واحدٍ منهم ولم يتكلّم، وكان الأطفال يختبئون خلف أمهاتهم. لهم أجسادٌ سمراءُ وعاريةٌ وعضلات مفتولة ورائعة. وللنساء نهود نافرة ومشدودة ولها حلمات كبيرة. كان لواحدة فقط منهنّ نهدان ضخمان ومتدليان.

كان أحدهم نبيلاً جدّاً في تصرّفه وسلوكه، وقسمات وجهه رقيقة جدّاً، وبدا أصله النبيل بكلّ وضوح لدرجة أنّني قصدته مباشرةً. لم يكن يحمل لا قوساً ولا سهاماً. كان بطولي نفسه وشعره مشذّب بطريقة جيّدة، وله غرّة كبيرة فوق الحاجبين. كانت أذناه مخفيتين تحت شعره الذي يصل، من الخلف، إلى مستوى شحمتي أذنيه، ولون شعره أسودُ فاحم يكاد يكون بنفسجيّاً. وعيناه رماديتان بلون الحديد، ولم تكن هناك شعرة واحدة لا في صدره ولا في ذراعيه ولا في ساقيه. وفخذاه السمراوان مفتولَي العضلات، وكذلك الحال بالنسبة إلى ساقيه، الدقيقتين والمتناسقتين. كان حافي القدمين. توقّفتُ على بعد ثلاثة أمتارٍ منه. فتقدّم خطوتين إلى الأمام وحدّق مباشرةً في عينيّ. واستمرّ هذا الاختبار دقيقتين. بدا وجهه الذي لم يتحرّك فيه ولا عضلة كما لو أنّه تمثالٌ نحاسي بعينين ضيقتين. ثمّ ابتسم ،ووضع يده على كتفي. فهبّ الجميع نحوي وهم يلمسونني، ثمّ أمسكت شابّة هندية بيدي وجرّتني إلى ظلّ أحد الأكواخ. وهناك، رفعت سروالي عن ساقي، وجلس الجميع من حولنا على شكل حلقة. مدّ رجلٌ نحوي سيجاراً مشتعلاً، أخذته وشرعتُ أدخّن. ضحك الجميع من طريقتي في التدخين، لأنّهم يدخّنون، رجالاً ونساءً، بوضع الطرف المشتعل من السيجار في الفم. كان النزف من موقع العضّة قد توقّف، ولكن الكلب كان قد قضم قطعة بنصف حجم قطعة نقدية. بدأت المرأة بإزالة الشعر، ومن ثمّ، حينما أنهت عملية الإزالة، غسلت الجرح بماء

البحر الذي ذهب صبيٌّ هندي لجلبه. صبّت الماء على الجرح وحاولت أن تجعله ينزف دماً، وحينما لم يتمّ ذلك بما يُرضيها، نكأت كلّ ثقبٍ من الثقوب التي تركتها أنياب الكلب، وتوسّعه باستخدام قطعة معدنية مدبّبة. بذلتُ جهدي لكي لا أشتكي من الألم لأنّ الجميع كانوا يراقبونني. جاءت فتاة هندية أخرى لتساعدها، ولكنّها نهرتها بقسوة. وأخذ الجميع يضحكون من تلك الحركة. وقد فهمت أنّها أرادت بهذه الحركة أن تُظهر للفتاة الأخرى بأنني أخصّها هي حصراً وأنّ هذا هو السبب الذي جعل الجميع يضحكون. ثمّ قصّت ساقي سروالي من فوق الركبتين تماماً. أعدّت فوق حجرٍ بعض طحالب البحر التي جُلِبَت لها، ووضعتها فوق الجرح وربطتها بأشرطة رفيعة قطعتها من سروالي. ابتهجت بصنيعها وأشارت إليّ أن أنهض.

نهضتُ وتخلّيتُ عن سترتي. في تلك اللحظة، رأت عند تقويرة قميصي فراشةً موشومة على أسفل رقبتي. نظرت إليها، ثمّ حينما اكتشفت وشوماً أخرى على جسدي، نزعت عنّي قميصي بنفسها لترى على نحوٍ أفضل. اهتمّ الجميع، رجالاً ونساءً، اهتماماً شديداً بالوشوم الموجودة على صدري: إلى اليمين، كانت صورة حارس من كالفي؛ وإلى اليسار، رأس امرأة؛ وعلى بطني، رأس نمرٍ؛ وعلى عمودي الفقري، وشم بحارٍ طويل القامة مصلوب؛ وعلى كامل عرض الكليتين، وشم صيد النمور، مع صيادين وأشجار نخيل وأفيالٍ ونمور. حينما رأى الرجال هذه الوشوم، أبعدوا النساء وجاؤوا يلمسون كلّ وشم بأناةٍ وإمعان. وبعد زعيمهم، أبدى كلٌّ منهم رأيه. وبدءاً من هذه اللحظة، تبنّاني الرجال بصورة نهائية. أمّا النساء، فكنّ قد تبنّينني منذ اللحظة الأولى التي ابتسم فيها الزعيم لي ووضع يده على كتفي.

دخلنا إلى أكبر الأكواخ، وهناك، ارتبكتُ واحترتُ تماماً. كان الكوخ مبنياً من الطين الأحمر القرميدي، وله ثمانية أبواب، وشكله دائري، وفي داخله، كان العمود يسند في ركنٍ أراجيح نومٍ مزركشة بألوان فاقعة من

الصوف الخالص. وفي الوسط، كانت هناك حجرة دائرية ومسطّحة، وتوجد حول هذه الحجرة البنّية والمصقولة أحجارٌ مسطّحة للجلوس عليها. وقد عُلِّقَت على الجدران العديد من البنادق ذات فوهتين وسيفٌ عسكري، وقد عُلِّقَت أيضاً أقواسٌ بأحجامٍ مختلفة في كلّ مكان.

كما رأيتُ صدفةً سلحفاة عملاقة حيث يمكن لرجلٍ أن ينام فيها، ومدفأة مصنوعة من أحجار جافّة وقد صُفّت بإتقانٍ فوق بعضها باتّساقٍ تامّ دون أن يكون هناك أثرٌ لملاطٍ إسمنتي. على الطاولة، نصف قرعةٍ مجوّفة، في قعرها حفنتان أو ثلاث من اللؤلؤ. قدّموا لي في إناءٍ خشبي مشروباً محضّراً من الفاكهة المخمّرة، كان له مذاقٌ حامضٌ وحلو، ولذيذٌ للغاية، ثمّ، جلبوا لي على ورقة من شجرة الموز سمكةً كبيرة تزن على الأقل كيلوغرامين، مشوية على الجمر. دُعيتُ إلى تناول الطعام، وأكلتُ بهدوءٍ وتمهّل. حينما انتهيتُ من تناول تلك السمكة اللذيذة، أمسكت المرأة بيدي ورافقتني إلى الشاطئ حيث غسلتُ يديّ وفمي بماء البحر. ثمّ عدنا إلى الكوخ. جالسين في حلقة دائرية، والفتاة الهندية إلى جانبي ويدها على فخذي، حاولنا بحركاتٍ وكلماتٍ أن نتبادل بعض المعلومات عن أنفسنا.

نهض الزعيم على حين غرّة، وذهب إلى آخر الكوخ، وعاد مع قطعة من حجر أبيض ورسم أشكالاً على الطاولة. رسم في البداية الهنود العراة وقريتهم، ومن ثَمّ البحر. إلى اليمين من القرية الهندية، بيوتٌ فيها نوافذ، ورجالٌ ونساءٌ يرتدون ثياباً. يحمل الرجال في أيديهم بندقية أو عصا. وإلى اليسار، قرية أخرى، ورجالٌ يحملون بنادق ويعتمرون قبّعات وهم بحالة مزرية، في حين ترتدي النساء ثياباً. بعد أن أمعنتُ النظر جيّداً في الرسومات، تنبّه إلى أنّه كان قد نسي شيئاً ورسم طريقاً يذهب من القرية الهندية إلى البلدة في اليمين، وطريقاً آخر إلى اليسار نحو القرية الأخرى. ولكي يوضّح لي موقعهما بالنسبة إلى قريته، رسم من جهة فنزويلا، إلى اليمين، شمساً دائرية مكتملة تشعّ منها أشعّة من كلّ أطرافها، في حين

رسم من جهة كولومبيا، شمساً مقطوعة بالأفق بخطّ متعرّج. هنا لا مجال للخطأ: فالشمس تشرق من جهة وتغرب في الجهة الأخرى. نظر الزعيم الشابّ إلى صنيعه بفخر، ومن ثَمّ نظر الجميع، الواحد تلو الآخر، إلى الرسم. وحينما رأى أنني فهمت ما أراد أن يقوله، أمسك بالحوّار الأبيض وغطّى بخطوطِ القريتين، وظلّت صورة قريته فقط سليمة. فهمتُ أنّه يريد القول بأنّ سكان القريتين أشرار، وأنّه لا يريد أن يتعاطى معهم في أيّ شيء، وأنّ قريته وحدها طيّبة. كما لو أنّه كان بحاجةٍ إلى أن يخبرني بذلك!

مسحوا الطاولة بقطعة من القماش الصوفي المبلّل. وحينما نشفت الطاولة، وضع في يدي قطعة الحوّار الأبيض وحان دوري لكي أروي لهم حكايتي من خلال الرسم. وكان الأمر بالنسبة لي أكثر تعقيداً من حكايته البسيطة. رسمتُ له رجلاً مكبّل اليدين مع رجلي شرطة ينظران إليه، ومن ثَمّ رسمتُ الرجل نفسه وهو يركض ويلاحقه الشرطيان وهما يُصوبّان سلاحهما نحوه. رسمتُ المشهد نفسه ثلاث مرّات، ولكن في كلّ مرّة، كنتُ أكثر بعداً عن الشرطيين اللذين يتعقّباني، وفي المرّة الأخيرة، يتوقّف الشرطيان بينما أواصل الجري نحو قريتهم التي رسمتها مع الهنود والكلب، يتقدّمهم جميعاً الزعيم مفتوح الذراعين نحوي.

لا بدّ أنّ ما رسمت قد حقّق نجاحاً لا بأس به لأنّه بعد ثرثرة طويلة بين الرجال، فتح الزعيم ذراعيه على غرار ما رسمته. لقد فهموا حكايتي.

في الليلة نفسها، اصطحبتني الفتاة الهندية إلى كوخها حيث يعيش ست هنديات وأربعة هنود. نصبت لي أرجوحةَ نومٍ على هيئة سرير مصنوعةً من صوفٍ مزركش وعريضة تتّسع لنوم شخصين بالعرض. كنتُ قد استلقيتُ في الأرجوحة ولكن بالطول، عندما استقرت هي في أرجوحةِ نومٍ أخرى وتمدّدت بالعرض. فعلتُ مثلها، فجاءت واستلقت إلى جانبي. لامست جسدي وأذني وعيني وفمي بأصابعها الطويلة والرفيعة ولكن الخشنة جدّاً، والمليئة بندب الجروح والتشققات. إنّها جروحٌ ناجمة عن المرجان حينما تغطس يديها في الماء لالتقاط المحارات ذات اللؤلؤ. حينما داعبتُ بدوري

وجهها، أمسكت بيدي، فاندهشت كثيراً لكونها طرية وخالية من الندوب. بعد أن أمضينا هذه الساعة في أرجوحة النوم، نهضنا وذهبنا إلى الكوخ الكبير للزعيم. أعطاني الزعيم البنادق لكي أتفحّصها، وهي من عيار 12 و16 من سانت أتيان. كما كانت هناك ستّ علب مليئة بالذخائر الخاصّة بها.

كانت الفتاة الهندية متوسّطة الطول في قامتها، ولها عينان رماديتان بلون الحديد مثل عيني الزعيم، وبشرتها صافية جدّاً، وشعرها مسرّحٌ مفروق ومجدولٌ بطوله الذي يبلغ ردفيها. كان نهداها على جمالٍ رائع، ينتصبان للأعلى ولهما شكل كمثرى، وحلمتاهما أشدّ سواداً من بشرتها السمراء وطويلتان جدّاً. لم تكن تجيد التقبيل، بل كانت تعضّ عضّاً خفيفاً، فعلّمتها كيف تقبّل بطريقة حضارية. حينما كنّا نمشي، لم تكن ترغب في أن تسير إلى جانبي، بل تسير خلفي، ولم أستطع ثنيها عن تلك العادة. كان أحد الأكواخ غير مأهولٍ وفي حالة سيئة، فرمّمت بمساعدة نساء أخريات سقفه بأوراق أشجار جوز الهند وجدرانه بطينٍ أحمرٍ صلصالي. يمتلك الهنود كل أنواع الحديد القاطع مثل السكاكين والخناجر والسواطير والفؤوس والمعاول ومذراة بأسنان من الحديد. وكذلك مشغولات متفرقة من النحاس والألمنيوم من قبيل مرشّات الماء وطناجر ومجلخة وموقد وبراميل معدنية وخشبية. وأيضاً أراجيح نومٍ كبيرة جدّاً من الصوف الخالص مزخرفة بأشرطة مجدولة ورسومات ملوّنة بألوان فاقعة مثل الأحمر الدموي والأزرق البروسي والأسود اللميع والأصفر الكناري. جهز المنزل سريعاً وبدأت الفتاة الهندية تنقل إليه الأشياء التي تتلقاها من هنودٍ آخرين (حتى بردعة حمار). قدّموا لها موقداً دائرياً مرفوعاً على ثلاثة قوائم معدنية لإيقاد النار فيه، وأرجوحة نومٍ تكفي لأن ينام فيها بالعرض أربعة أشخاص بالغين، وأكواباً زجاجية وآنية من الصفيح وقدوراً وسواها.

كنّا نتبادل المداعبات والملاطفات منذ خمسة عشر يوماً أي منذ أوّل يومٍ لوصولي، لكنّها ظلّت ترفض بشدّة أن نذهب حتى النهاية. ولم أفهم

موقفها، لأنّها هي من كانت تستثيرني وفي اللحظة التي نقترب من بلوغ النهاية كانت تتمنّع. لم تكن ترتدي أيّ شيء سوى قطعة قماش تستر بها عورتها من خلال ربطها حول خصرها النحيل بخيطٍ رفيع، بينما يبقى ردفاها عاريين تماماً. ودون أيّ مراسم، بقينا نُقيم في ذلك الكوخ الصغير الذي فيه ثلاثة أبواب، أحدها وهو الرئيسي في مركز الدائرة، في حين يتقابل الآخران كلّ منهما في جهة. تشكّل هذه الأبواب الثلاثة في دائرة البيت المستدير مثلثاً متساوي الساقين. وكانت لهذه الأبواب الثلاثة أسباب وجودها: بالنسبة لي، كان عليّ أن أخرج وأعود دائماً من الباب الشمالي. أمّا هي، فكان عليها أن تخرج وتعود دائماً من الباب الجنوبي. لم يكن مسموحاً لي أن أخرج وأعود من بابها، كما لم يكن مسموحاً لها أن تستخدم بابي. في حين كان الأصدقاء يدخلون من الباب الكبير، أمّا أنا وهي فلم يكن بوسعنا أن ندخل من الباب الكبير إلّا بصحبة الأصدقاء والزوّار. وفقط حينما أصبحنا في بيتنا، سلّمت نفسها لي. لا أُريد الدخول في التفاصيل، ولكنّها كانت عاشقة ولهانة وتتصرّف بمهارة بديهية وحدسية، بحيث كانت تلتفّ عليّ كما تلتفّ دالية على عريشة. وبعيداً عن أنظار الجميع دون استثناء، كنتُ أسرّح شعرها وأجدله. كانت تشعر بسعادة غامرة حينما أسرّح شعرها، سعادة لا توصف، تُرى بوضوح على وجهها، وفي الوقت نفسه كانت هناك خشية من أن يُباغتنا أحد، لأنني أُدركُ بأنّه لا ينبغي أن يسرّح رجلٌ شعر زوجته، ولا أن يفرك يديها بحجرٍ مثل حجر الخفاف، ولا أن يقبّل بطريقة معيّنة فمها ونهديها.

إذاً، لقد سكنّا لالي (هذا اسمها) وأنا في البيت. وما أدهشني هو أنّها لم تكن تستخدم أبداً مقلاة أو طنجرة من حديد أو ألمنيوم للطبخ، ولا تشرب في كوبٍ من الزجاج، بل كانت تعدّ كلّ شيء في قدور أو أوانٍ فخارية، صنعها الهنود بأنفسهم.

كنّا نغتسل باستخدام مرشّ الماء، في حين نذهب إلى المراحيض في البحر.

شاهدتُ عمليات فتح أصداف المحار بحثاً عن اللؤلؤ، وكانت النسوة الأكبر سناً هنّ من يقمنَ بهذا العمل. وكان لكلّ امرأة شابّة تصطاد المحار كيسها الخاصّ بها. ويوزّع اللؤلؤ الذي يُعثَر عليه في المحار بالطريقة التالية: حصّةٌ للزعيم الذي يُمثّل الجماعة، وحصّةٌ للصياد، ونصف حصّة للمرأة التي تفتح أصداف المحار وحصّةٌ ونصف للمرأة التي تغطس في الماء. وحينما تكون الفتاة تعيش مع أسرتها، تقدّم حصّتها من اللؤلؤ إلى عمّها، شقيق والدها. وفي الحقيقة، لم أفهم لماذا أيضاً كان العمّ هو أوّل من يدخل إلى بيت العشّاق المقبلين على الزواج، ويُمسك بيد المرأة ويمرّرها حول خصر الرجل ويضع اليد اليمنى للرجل حول خصر المرأة، فتدخل السبابة في سرّتها. ثمّ ينصرف حالما يُنجز كلّ هذا.

إذاً، لقد شاهدتُ عملية فتح أصداف المحار، ولكنني لم أحضر الصيد، لأنّهم لم يدعوني إلى ركوب قاربٍ. كانوا يقومون بالصيد بعيداً عن الشواطئ، لمسافةٍ تقارب خمسمئة مترٍ. في بعض الأيام، كانت لالي تعود وهي مليئة بخدوشٍ في فخذيها أو أضلاعها ناجمة عن الاحتكاك بالمرجان. وكان يحدث أن تُصاب بجروحٍ تسيل منها الدماء. فكانت تدقّ طحالبَ بحريةً على شكل مسحوقٍ وتضعها على الجروح. ولم أكن أفعل أيّ شيء إلا إذا دُعيتُ بالإشارات إلى فعل ذلك. ولم أكن أدخل أبداً إلى بيت الزعيم ما لم يجرّني أحدٌ أو هو بنفسه من يدي. ساورت لالي شكوكٌ أنّ ثلاث فتيات هنديات كنّ يأتين ويختبئن بين الأحراش الأكثر قرباً من باب بيتنا ليرين أو يسمعن ما نفعله حينما نكون لوحدنا في المنزل.

رأيتُ يوم أمس الرجل الهندي الذي يقيم الصلة بين قرية الهنود وأوّل تجمّع سكني كولومبي، على بعد كيلومترين من نقطة المراقبة الحدودية، ويقوم بالتبادل التجاري معهم. وهذه القرية تُدعى لافيلا. كان لدى الرجل الهندي حماران وبندقية قصيرة من طراز وينشستر تعمل بالضغط، وهو الآخر، مثله مثل الجميع، لم يكن يرتدي أيّ شيء سوى ما يَسترُ عورتَه. لم يكن يتحدّث كلمة واحدة بالإسبانية، وبالتالي كيف يُتاجر

معهم؟ استعنتُ بالقاموس، وكتبتُ على ورقة أسماء الحاجات المطلوبة: إبرَ خياطة، وحبراً صينيّاً أزرقَ وأحمرَ، وخيطاناً، لأنّ الزعيم كان يطلب مني غالباً أن أرسم وشوماً على جسمه. كان هذا الرجل، الذي يشكّل صلة وصل، قصيرَ القامة ونحيلاً وجافَّ العود، وعلى جذعه أثر جرحٍ فظيع، يمتدُّ من عند أضلاعه ويصل إلى أسفل جذعه، ويعبر كلّ جسمه وينتهي عند كتفه الأيمن. وكان هذا الجرح قد ترك ندبة كبيرة ونافرة على شكل إصبع. كانوا يضعون اللؤلؤ في علبة السيجار، مقسّمة إلى أقسام متفاوتة الحجم ويوزّع اللؤلؤ عليها حسب أحجامها. حينما انصرف الهندي، حصلتُ على الإذن من الزعيم لكي أرافقه. وبطريقة مبسّطة، ولكي يُرغمني على العودة، أعارني الزعيم بندقية ذات سبطانتين وستّ طلقات. كان متأكّداً من أنني، بهذه الطريقة، سوف أكون مرغماً على أن أعود إليهم. كان على يقينٍ من أنني لن آخذ شيئاً ليس لي. ولأنّ الحمارين لم يعودا محمّلين، ركب الرجل الهندي أحدهما، وركبتُ الآخر. سافرنا طيلة النهار من الطريق نفسه الذي سلكته أثناء قدومي، ولكن على بعد قرابة ثلاثة أو أربعة كيلومترات من المركز الحدودي، أدار الهندي ظهره للبحر وتوغّل داخل الأراضي.

نحو الساعة الخامسة، وصلنا إلى ضفّة جدول ماء حيث توجد خمسة بيوت للهنود. جاء الجميع ليروني. ظلّ الرجل الهندي يتكلّم دون توقّف، إلى أن جاء شخصٌ كلّ ملامحه هندية، من العينين والشعر والأنف وملامح الوجه، عدا لون بشرته المختلفة التي كانت بيضاء باهتة، وكانت عيناه حمراوَين وكامدتَين. يرتدي سروالاً كاكياً. وهنا أدركت أنّ هنديّ قريتي لن يذهب أبداً أبعد من هذا المكان.

قال لي الهندي الأبيض بالإسبانية:

- صباح الخير. هل أنت القاتل الذي هرب مع أنطونيو؟ أنطونيو قريبي بصلة الدم الممتزج. لكي «يرتبط» رجلان، يتصرّفان كالتالي: يشابكان ذراعيهما، ثمّ يمرّر كلّ منهما مديته على ذراع الآخر ويغرسها

فيها قليلاً حتى تنزف دماً، ثمّ يضرج ذراع الآخر بدمه ويتناوبان على لعق دمِ بعضهما.

– ماذا تُريد؟

– إبرَ خياطة وحبراً صينيّاً أزرقَ وأحمرَ، ولا شيء آخر.

– سوف تحصل عليها من الآن وحتى دخول القمر إلى طور التربيع الأوّل. كان يجيد الإسبانية أفضل منّي، وشعرنا بأنّه يُحسن إجراء التواصل مع المتحضّرين، وتنظيم المبادلات التجارية مدافعاً بضراوة عن مصالح قومه. وعندما هممنا بالمغادرة، أعطاني عقداً مصنوعاً من قطعٍ من الفضّة الكولومبية المعالجة، فضّة ناصعة البياض. وقال لي بأنّ هذا العقد من أجل لالي. قال لي الهندي الأبيض:

– عد لتراني.

ولكي يتأكّد من أنني سوف أعود، أعطاني قوساً.

عدتُ بمفردي، ولم أكن قد قطعتُ نصف مسافة الطريق حينما رأيتُ لالي مصحوبةً بإحدى أخواتها، وكانت صغيرة جدّاً، ربّما لا يزيد عمرها عن اثني عشر أو ثلاثة عشر عاماً. في حين تبلغ لالي بالتأكيد ما بين ستّة عشر إلى ثمانية عشر عاماً. حينما أقبلت نحوي مثل مجنونةٍ خدشت صدري بأظافرها، لأنني أخفيتُ وجهي، ثمّ عضتني بعنف من رقبتي. وقد وجدتُ صعوبةً في الإمساك بها مستخدماً كلّ قواي. وفجأةً هدأت. وضعتُ الهندية الصغيرة على ظهر الحمار ورحتُ أمشي خلفه، وأنا ألف ذراعي على خصر لالي. وعدنا بتمهّلٍ إلى القرية. في الطريق، قتلتُ شوحةً. أطلقتُ النار عليها دون أن أعرف ما هي، إذ رأيتُ فقط عينين براقتين في عتمة الليل. أرادت لالي أن تحصل عليها بأيّ ثمن، فأخذتها وعلّقتها ببردعة الحمار. وصلنا إلى القرية عند الفجر. كنتُ في غاية الإرهاق فأردتُ أن أغتسل. حمّمتني لالي، ومن ثَمّ نزعت، أمامي، الخرقة التي كانت تستر عورة أختها، وراحت تحمّمها، ثمّ استحمّت هي نفسها.

حينما عادتا، كنتُ جالساً، بانتظار أن يغلي الماء الذي كنتُ أسخّنه لكي أشربه مع الليمون والسكّر. وهنا، حدث أمرٌ لم أفهمه جيّداً إلا فيما بعد. دفعت لالي أختها بين ساقيّ، وأمسكت بذراعيّ لكي أُطوّق خصر الفتاة الصغيرة، ولاحظتُ أنّ أخت لالي لم تكن ترتدي السروال الداخلي، وكانت تضع العقد الذي كنتُ قد قدّمته إلى لالي. لم أعرف كيف أُخرج نفسي من هذا الموقف الخاصّ جدّاً، ولكنني سحبتُ الصغيرة بلطف من بين ساقيّ، وأخذتها بين ذراعيّ ووضعتها في أرجوحة النوم. ونزعتُ عنها العقد ووضعته في رقبة لالي. نامت لالي إلى جانب أختها وأنا نمتُ إلى جانب لالي. أدركتُ فيما بعد أنّ لالي قد ظنّت بأنّني كنتُ أجمع المعلومات لكي أغادر لأنني ربّما لم أكن سعيداً معها، وأنّ أختها هي التي ربّما جذبتني وأعادتني. استيقظتُ على وقع يد لالي التي أغمضت عيني. كان الوقت متأخراً جدّاً، إذا كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة صباحاً. لم تكن الفتاة الصغيرة موجودة في البيت، وكانت لالي تنظر إليّ بحبٍّ وحنان بعينيها الواسعتين الرماديتين وعضّت بلطف شفتيّ. كانت سعيدة بأن جعلتني أرى أنّها قد أدركت بأنني أحبّها وأنني لم أغادر لأنّها لم تكن تجيد أن تستبقيني بجانبها.

أمام البيت، كان يجلس الهندي الذي اعتاد أن يقود المركب الذي تستقلّه لالي. أدركتُ أنّه ينتظرها. ابتسم لي وأغمض عينيه في حركة إيمائية جميلة جدّاً أراد أن يقول لي من خلالها أنّه يعلم أنّ لالي لا تزال نائمة. جلستُ إلى جانبه، فتحدّث عن أمورٍ لم أفهمها. إنّه شابٌّ مفتول العضلات على نحوٍ غير طبيعي، قويّ البنية مثل مصارع. نظر إلى وشومي مليّاً، وتمعّن فيها وتفحّصها، ثمّ أشار إليّ بأنّه يريد أن أرسم له وشماً. أخبرته بموافقتي بإشارةٍ من رأسي، ولكنّه بدا وكأنّه يظنّ أنني لا أجيد ذلك. جاءت لالي وقد دهنت كلّ جسمها بالزيت. كانت تعلم أنني لا أحبّ ذلك، ولكنّها أفهمتني أنّ الماء في هذا الجوّ الغائم لا بدّ أن يكون بارداً جدّاً. كانت حركاتها الإيمائية هذه، التي تؤدّي بعضها ضاحكة

وبعضها الآخر بجدّية، جميلة جدّاً بحيث جعلتُها تكرّرها مرّات عديدة، متظاهراً بأنني لم أفهم ما تودّ قوله. حينما أشرتُ لها أن تعيد ما تُريد شرحه، عبست بطريقة أرادت أن تقول لي من خلالها بكلّ وضوح: «هل أنت غبيّ أم أنني أنا العاجزة عن أن أشرح لك سبب دهن جسمي بالزيت؟».

مرّ الزعيم أمامنا وبرفقته سيّدتان هنديتان تحملان سحلية عملاقة خضراء اللون تزن على الأقل خمسة كيلوغرامات، بينما هو يحمل قوساً ومجموعةً من السهام. كان الزعيم قد اصطادها للتوّ ودعاني إلى أن أذهب لاحقاً إلى بيته لتناول لحمها. تكلّمت لالي معه، فوضع يده على كتفي وأشار لي على البحر. فهمت أنّه يمكنني الذهاب مع لالي إذا ما أردت. ذهبنا نحن الثلاثة، لالي ورفيقها الذي اعتاد أن يصطاد معها وأنا. رأينا قارباً صغيراً وخفيفاً جدّاً، مصنوعاً من خشب فليني، وضِع بسهولة في الماء. خاضا مياه البحر وهما يحملان القارب على أكتافهما وغصنا في الماء. كانت عملية وضعه في الماء غريبة ومثيرة للفضول: صعد الرجل الهندي أوّلاً إلى مؤخّرة القارب، وهو يمسك بمجدافٍ ضخم، في حين أمسكت لالي، وهي تغوص حتى جذعها في الماء، بالقارب وحافظت على توازنه ومنعته من الرجوع إلى الشاطئ، ثمّ صعدتُ أنا وأوقفوني في وسط القارب، وأخيراً وبقفزة واحدة، صعدت لالي إلى القارب في اللحظة نفسها التي دفعَنا فيها الرجل الهندي بضربة من مجدافه قدماً في البحر. كانت الأمواج على شكل لفائف، وكانت هذه اللفائف تصبح أكثر ارتفاعاً كلّما تقدّمنا أكثر إلى عرض البحر. على بعد خمسمئة أو ستمئة مترٍ من الشاطئ، وجدنا ما يشبه قناةً ملاحية توجد فيها سفينتان تقومان بالصيد. ربطت لالي جدائلها على رأسها بواسطة خمسة أشرطة جلدية حمراء اللون، ثلاثة منها بالعرض، واثنان بالطول، والتي كانت هي بنفسها مربوطة إلى العنق. أمسكت لالي بمديةٍ قويّة، ولحقت بقضيب معدني يزن قرابة خمسة عشر كيلوغراماً، يُستخدم بمثابة مرساة، وألقاه الرجل في عمق البحر. ظلّ القارب راسياً ولكنّه لم يكن مستقرّاً، فكان يصعد ويهبط مع كلّ موجة شبيهةٍ بلفيفة تضربه.

خلال أكثر من ثلاث ساعات، نزلت لالي وصعدت من أعماق البحر. لم نرَ قاع البحر ولكن من خلال الزمن الذي استغرقته لالي تحت الماء، خمّنتُ أنّه بعمق يقارب خمسة عشر إلى ثمانية عشر متراً. وفي كلّ مرّة تصعد فيها، تحمل محاراً في كيسها، فيفرغها الهندي في قعر القارب. خلال الساعات الثلاث هذه، لم تصعد لالي أبداً إلى القارب، ولأجل أخذ قسطٍ من الراحة، كانت تمسك بحرف القارب لمدّة خمس دقائق. غيّرنا موقعنا مرّتين، دون أن تصعد لالي إلى القارب. في المكان الثاني، عادت لالي وفي كيسها كمية أكبر من المحار، بحجم أكبر. قرّرنا العودة إلى اليابسة، فصعدت لالي إلى القارب ودفعتنا الأمواج الشبيهة باللفائف سريعاً إلى الشاطئ. كانت العجوز الهندية تنتظرنا هناك، فتركناها، لالي وأنا، لتنقل المحار إلى الرمل الجافّ مع الرجل الهندي.

حينما أصبحت المحارات كلّها على الرمل اليابس، منعت لالي السيدة العجوز من فتحها، وبدأت تفتحها بنفسها. وبرأس مديتها، فتحت سريعاً ما يقارب ثلاثين محارةً منها قبل أن تعثر على لؤلؤةٍ. غني عن القول أنني التهمت أربعاً وعشرين محارةً على الأقلّ. ولا بدّ أنّ ماء قاع البحر كان بارداً، لأنّ لحمها كان طازجاً وبارداً. استخرجت لالي بهدوءٍ وحذر اللؤلؤة الضخمة بحجم حبّة حمص. وكانت تُعتبر من الحجم الكبير أكثر منه من الحجم المتوسّط. وكم كانت تلمع! كانت الطبيعة قد حَبَتْها بتنوّعٍ كبيرٍ في الألوان بحيث تُبهر الأبصار. أمسكَتْ لالي باللؤلؤة بين أصابعها، ووضعتْها في فمها وأبقتْها فيه لبرهةٍ، ثمّ حينما أخرجتها، وضعتها في فمي. وبسلسلةٍ من الحركات بفكّها، أفهمتني أنّها تُريد أن أهرسها بأسناني ومن ثَمّ أبتلعها. كانت توسّلاتها أمام رفضي للمرّة الأولى جميلةً وعذبة بحيثُ أطعتُها واستجبتُ لطلبها، فسحقتُ اللؤلؤة بين أسناني وابتلعتُ حُطامها. فتحت أربع أو خمس محارات وقدّمتها لي لكي ألتهمها، رغبةً منها في أن تنزل كلّ اللؤلؤة إلى جوفي. مدّدتني مثل طفلٍ على الرمل وفتحت فمي لترى إن كانت بقايا من اللؤلؤة قد علقت

بين أسناني. غادرنا المكان، تاركين الشخصين الآخرين يواصلان العمل على المحار.

انقضى شهرٌ على وجودي بين هؤلاء الهنود. ولم يكن ممكناً أن أُخطئ في الحساب، إذ كنتُ أدوّن، كلّ يوم، اليوم والتاريخ على ورقةٍ. وصلت الإبر منذ وقتٍ طويل مع الحبر الصيني الأحمر والأزرق والبنفسجي. اكتشفتُ عند الزعيم ثلاث شفرات حلاقة، لم تكن قد استُخدِمَت قطّ في حلاقة ذقنٍ، لأنّ الهنود رجالٌ مُردٌ. كانت إحدى الشفرات صالحة لقصّ الشعر تدريجياً. رسمتُ وشماً على ذراع الزعيم زاتو. رسمتُ له هندياً يعتمر قبّعة يخرج منها ريشٌ بألوانٍ مختلفة. انبهر بالوشم وأفهمني ألّا أرسم وشماً لأيّ شخص قبل أن أرسم له وشماً كبيراً على صدره. أراد أن أرسم له وشم رأس النمر الذي على صدري مع أنيابه الطويلة. ضحكتُ لطلبه، لأنني لستُ بارعاً في الرسم لكي أرسم بالإتقان نفسه رأس النمر. أزالت لالي الشعر من كلّ جسمي. وبالكاد عثرت على شعرةٍ انتزعتها وفركت جسمي بطحلبٍ من البحر كانت قد دقّته ممزوجاً ببعض الرماد. وبدا لي بعد ذلك أنّ الشعر ينمو في جسمي أكثر بطئاً وأشدّ صعوبةً.

تُدعى هذه الجماعة من الهنود غواجيرا. يعيش أبناؤها على الشاطئ وفي عمق السهل وصولاً إلى سفوح الجبال.

تعيش في الجبال جماعات أخرى تُسمى هنود الموتيلون. وبعد سنوات سوف أتعامل معهم. وكما أسلفت كان لهنود غواجيرا اتصالٌ غير مباشر مع الحضارة بوساطة المبادلات التجارية. يسلّم هنود الساحل للهندي الأبيض ما بحوزتهم من لؤلؤ وأيضاً سلاحف. كانت السلاحف تُقدّم حيّةً وتزن حوالي مئة وخمسين كيلوغراماً. ولكنّها لم تصل قطّ إلى وزن سلاحف الأورينوكو أو الماروني والتي تصل في وزنها إلى أربعمئة كيلوغرام، وكان طول صدفها يبلغ في بعض الأحيان مترين في حين يصل عرضها إلى أكثر من مترٍ بالنسبة للسلاحف الأكبر حجماً. حينما تُقلَب السلاحف على ظهرها، لا يعود باستطاعتها أن تنهض على قوائمها. وقد

رأيتهم يأخذونها بعد أن تبقى ثلاثة أسابيع على ظهرها من دون أن تأكل أو تشرب، ومع ذلك تبقى حيّة. أمّا بالنسبة إلى السحالي الخضراء، فهي وجبة شهيّة للغاية. لحمها لذيذ وأبيض اللون وطري. وبيضها الذي يجري سلقه بالرمل تحت أشعّة الشمس أيضاً له مذاقٌ لذيذ. وحده شكلها، يُضعف قليلاً الإقبال على تناول لحمها.

كلّما ذهبت لالي إلى الصيد، جلبت إلى البيت حصّتها من اللؤلؤ وقدّمتها لي، فكنتُ أضعها في كوبٍ خشبي من دون أن أفرزها عن بعضها، فتختلط بأحجامها الكبيرة والمتوسّطة والصغيرة. عزلتُ عنها فقط لؤلؤتين ورديتين، وثلاث لآلئ سوداء وسبع لآلئ بلونٍ رمادي معدني رائعة الجمال، ووضعتها في علبة لأعواد الثقاب. ولدي أيضاً لؤلؤة ضخمة غريبة الشكل على شكل حبّة فاصولياء، وهي أيضاً بحجم حبّة فاصولياء بيضاء أو حمراء في بلدنا. كانت لهذه اللؤلؤة الغريبة ثلاثة ألوان متداخلة، كلّ لون من الألوان الثلاثة يظهر أكثر من سواه، حسب الطقس، الطبقة السوداء، أو الطبقة الفولاذية الضاربة إلى السمرة أو الطبقة الفضيّة التي لها انعكاسٌ وردي. بفضل اللؤلؤ وبعض السلاحف، لم يكن ينقص القبيلة أيّ شيء. يملكون أشياءَ لا تنفعهم في شيء، في حين تنقصهم أشياء أخرى ربّما تنفعهم. على سبيل المثال، لم تكن هناك في القبيلة كلّها مرآة واحدة. وقد اضطررتُ إلى أن أحصل من سفينةٍ، من حطام سفينة بلا شكّ، على لوحٍ مربّع طول كلّ ضلع منه أربعون سنتيمتراً، وقد جرى صبغ أحد وجهيه بالنيكل، لكي أستطيع أنْ أحلق ذقني أمامها أو أنظر إلى وجهي فيها.

كانت سياستي بالنسبة إلى أصدقائي سهلة: لا أفعل أيّ شيء يمكنه أن يقوّض سلطة ومعرفة الزعيم، ولا كذلك سلطة ومعرفة مسنٍّ هندي يعيش وحيداً على بعد أربعة كيلومترات في عمق الأراضي، محاطاً بثعابين وعنزتين وقرابة اثني عشر خروفاً ونعجة. إنّه ساحر مختلف قرى هنود غواجيرا. كان سلوكي هذا سبباً لألّا يغار منّي أحدٌ أو ينظر إليّ نظرة سوء.

وبعد انقضاء شهرين، أصبحتُ مقبولاً من الجميع. كان لدى الساحر حوالي عشرين دجاجة أيضاً. ونظراً لأنّه لم يكن هناك في القريتين التي أعرفهما لا عنزات ولا دجاجات ولا خراف ولا نعاج، لا بدّ أنّ امتلاك حيوانات منزلية هو ميزة الساحر. كلّ صباح، تذهب إليه امرأة هندية وعلى رأسها سلّة مجدولة من القشّ، وتحمل إليه سمكاً و محاراً من البحر مما اصطيد حديثاً. كنّ يحملن إليه أيضاً فطائر الذرة المخبوزة في الصباح نفسه على أحجارٍ محاطة بالنار. في بعض الأحيان، وليس دائماً، كنّ يرجعن ومعهنّ بيضٌ ولبنٌ رائب. حينما يُريد الساحر أن أذهب للقائه، كان يرسل لي شخصياً ثلاث بيضات ومدية من الخشب مصقولة جيّداً. فترافقني لالي لمنتصف الطريق، وتنتظرني في ظلّ أشجار جوز الهند الضخمة. في المرّة الأولى، وضعتْ المدية الخشبية في يدي وأشارت عليّ بالذهاب في الاتجاه الذي مدّت نحوه ذراعها.

كان العجوز الهندي يعيش وسط قذارة مثيرة للاشمئزاز، تحت خيمة مصنوعة من جلد البقر المشدود، الوجه المشعر منه إلى الداخل. داخل الخيمة ثلاث حجارة مع نيرانٍ نشعر أنّها تظلّ موقَدة على الدوام. لم يكن ينام في أرجوحة نومٍ، وإنّما على ما يشبه سريراً مصنوعاً من أغصان الأشجار ويعلو الأرض بارتفاع يقارب متراً واحداً. خيمته كبيرة، تُقارب مساحتها عشرين متراً مربّعاً. لم تكن لها جدران سوى بعض أغصان الشجر في الجهة التي تأتي منها الريح. رأيتُ عنده ثعبانين، أحدهما بطولٍ يُقارب ثلاثة أمتار، وقطره بحجم ساعدِ رجلٍ، في حين كان الآخر بطولٍ يقارب متراً واحداً، وعلى رأسه علامة صفراء اللون على شكل الحرف V، وقلتُ في نفسي، مستغرباً: «كيف يدع هذان الثعبانان الدجاج والبيض في أمان!». لم أفهم كيف يعيش الماعز والدجاج والخراف والحمار أيضاً تحت هذه الخيمة مع بعضهم. تفحّص العجوز الهندي كلّ تفاصيلي وجعلني أخلع سروالي الذي كانت لالي قد حوّلته إلى سروال قصير، وحينما أصبحتُ عارياً تماماً، أجلسني على حجرةٍ بالقرب من النار. ألقى

في النار أوراقاً خضراء أثارت الكثير من الدخان ونشرت رائحة النعناع. غمرني الدخان إلى حدّ الاختناق ولكنني لم أسعل، انتظرتُ أن يتمّ كلّ ذلك لما يقارب عشر دقائق.

بعد ذلك، أحرق سروالي وأعطاني سروالين داخليين خاصّين بالرجال الهنود، أحدهما من جلد الخروف والآخر من جلد الثعبان، وهو مرنٌ مثل قفاز. كما وضع في ذراعي سواراً مصنوعاً من أشرطة مجدولة من جلد الماعز والغنم والثعبان. كان عرض السوار عشرة سنتيمترات ويتمّ تثبيته بشريطٍ من جلد الثعبان يتمّ شدّه أو إرخاؤه حسب الرغبة.

كانت في الكعب الأيسر للساحر قرحةٌ كبيرة بحجم قطعة نقدية من فئة فرنكين، مغطاةٌ بالحشرات التي كان بين الفينة والأخرى يطردها وحينما تتكاثر عليه، ينثر بعض الرماد على الجرح. بعد أن تبنّاني الساحر، كنتُ على وشك الانصراف حينما أعطاني مدية خشبيةً أصغر من تلك التي أرسلها لي حينما أراد أن أذهب للقائه. وقد شرحت لي لالي فيما بعد أنّه في حال أردتُ مقابلة الساحر، علي أن أرسل له هذه المدية الصغيرة، وإذا ما وافق على لقائي، سوف يرسل لي المدية الكبيرة. غادرتُ الساحر الهندي الطاعن في السنّ بعد أن لاحظتُ حجم التجاعيد الكثيرة في وجهه النحيل ورقبته. وكان فمه الأدرد لا يحتوي سوى على خمس أسنان، ثلاثٌ منها في الفكّ السفلي واثنتان في الفكّ العلوي الأمامي. عيناه المشقوقتان على شكل حبتي لوز، كما هو الحال عند جميع الهنود، لهما أجفان كثيرة الجلد بحيث حينما يغمضهما تبدوان ككرتين مستديرتين. لم تكن له رموش ولا حواجب، ولكن له شعرٌ قاسٍ وأسودُ فاحم ينسدل فوق كتفيه ومقصوصٌ بعناية من أطرافه. وككلّ الهنود، له غرّةٌ على مستوى الحاجبين.

انصرفت ووجدتُ نفسي متضايقاً من ردفيّ العاريين في الهواء الطلق. أحسستُ أنني مثيرٌ للضحك. وأخيراً، حان وقت الفرار! لا ينبغي المزاح مع الهنود، وأن يكون المرء حرّاً أمرٌ يستحقّ تحمّل بعض العيوب. نظرت لالي إلى ساتر عورتي، وضحكت حتى بانت نواجذها، التي كانت جميلة

مثل اللآلئ التي تصطادها. تفحّصت السوار الذي في ساعدي والسروال الداخلي الآخر، المصنوع من جلد الثعبان. ولكي تعرف إن كنتُ قد تعرّضتُ للدخان، جاءت تشمّني. فحاسة الشمّ عند الهنود، بين قوسين، قويّة جدّاً.

لقد اعتدتُ على هذه الحياة وأحسستُ أنّه لا ينبغي أن أستمرّ طويلاً في هذه الطريقة للعيش، لأنّه قد يأتي يوم لا يعود المرء يرغب في أن يقلع عنها. كانت لالي تُراقبني باستمرار، وترغب في أن تراني أنخرط على نحوٍ أكثر نشاطاً في الحياة العامّة. على سبيل المثال، رأتني أخرج إلى صيد السمك، وعلمتْ أنني أجدّف بطريقة ممتازة وأتعامل مع القارب الصغير والخفيف بمهارة فائقة. ومن هنا لم يكن بعيداً أن تتمنّى عليّ أن أقود أنا دفّة المركب خلال الصيد. والحال أنّ هذا الأمر لم يكن يناسبني. كانت لالي الغوّاصة الأكثر مهارة من بين كلّ فتيات القرية، ومركبها هو الذي يجلب على الدوام الكمية الأكبر من المحار الأكبر حجماً، الذي تصطاده من القاع الأعمق ممّا يصل إليه الآخرون. وعلمتُ أيضاً أنّ الصيّاد الشاب الذي يقود مركبها هو شقيق الزعيم. وإذا ما رافقتُ أنا لالي في رحلة الصيد، سأرتكب خطأً بحقّه، وبالتالي، هذا ما لا ينبغي عليّ فعله. حينما رأتني لالي مطرقاً في التفكير، غادرت من جديد تبحث عن أختها. وأقبلت هذه فرحةً وهي تركض، ودخلت إلى البيت من بابي الخاصّ. لا بدّ أن تكون لهذا التصرّف دلالة مهمّة. على سبيل المثال، جاءتا معاً إلى أمام الباب الكبير الذي يقع قبالة البحر. وهنا افترقتا، واستدارت لالي ودخلت من بابها الخاصّ، في حين راحت زورايما، الأخت الصغيرة، تدخل من الباب الخاصّ بي. كان نهدا زورايما بالكاد بحجم حبتي مندرين، ولم يكن شعرها طويلاً، بل مقصوصاً حتى مستوى ذقنها، وغرّتها الجبهية أخفض من مستوى حاجبيها وتصل تقريباً إلى أطراف أهدابها. وكلّما كانت تأتي بهذه الطريقة، مدعوّةً من شقيقتها، كانتا تستحمّان معاً، وحينما تدخلان تنزعان سروالهما الداخلي وتعلّقانه على أرجوحة النوم. وبعد ذلك، تغادرنا الصغيرة دائماً حزينةً لأنني لم

ألمسها. في أحد الأيام، بينما كنّا ننام نحن الثلاثة، نهضت لالي التي كانت تتوسّطنا، من الأرجوحة، وحينما عادت إلى النوم، غيّرت مكانها وتركتني ملتصقاً بالجسد العاري لزورايما.

أُصيب الهندي الذي يشارك لالي الصيد في ركبته بجرحٍ بليغ، فحمله الرجال إلى الساحر، وعاد بجبيرةٍ من الصلصال الأبيض. ولذلك، ذهبتُ هذا الصباح إلى الصيد برفقة لالي. تمّت عملية إنزالها في الماء، والتي جرت بالطريقة نفسها التي اتّبعها الرجل الآخر، بنجاح. ذهبتُ بها إلى مسافةٍ أبعد بقليل من المسافة المعتادة. وقد شعّ وجهها فرحاً لرؤيتي معها في القارب. قبل أن تغطس في الماء، دهنت جسمها بالزيت. أعتقد أنّ الماء في الأعماق، التي رأيتها، مظلمةٌ باردةٌ جدّاً. مرّت ثلاث زعانف لأسماك القرش بالقرب منّا، حذّرتها منها ولكنّها لم تعر أيّ اهتمامٍ للأمر. كانت الساعة العاشرة صباحاً، والشمس مشرقة. لفّت كيسها حول ذراعها الأيسر، ووضعت مديتها في غمدها المثبّت جيّداً على حزامها، وغطست من دون أن تدفع القارب بقدميها مثلما كان سيفعل شخصٌ عادي. وغاصت بسرعةٍ مذهلة في الأعماق المظلمة للماء. لا بدّ أنّ غوصها الأوّل كان استكشافياً، لأنّها عادت وفي كيسها القليل من المحار. راودتني فكرة. كانت على متن القارب بكرة ضخمة من الأشرطة الجلدية، فأعددتُ رباطاً مضاعفاً للكيس وأعدته إلى لالي وأرخيتُ الشريط من على البكرة أثناء نزولها إلى القاع، فسحبت الشريط معها. ولا بدّ أنّها فهمت خطّتي، فبعد وقتٍ طويلٍ من الغوص، صعدت إلى سطح الماء من دون الكيس. تشبّثت بالقارب لكي تستريح من عملية الغوص الطويلة هذه، وأشارت لي أن أسحب الكيس. سحبتُ الحبل مطوّلاً ولكن في لحظة معيّنة، ظلّ الكيس عالقاً، وبالتأكيد كان قد علق بمرجانٍ. غطست لالي وفكّت الكيس عن المرجان، فوصل نصف ممتلئ. وأفرغته في قاع القارب. في ذلك الصباح، ومن خلال ثماني عمليات غطس لعمق خمسة عشر متراً، ملأنا القارب بالمحار تقريباً. حينما صعدت إلى القارب، كان

الماء على مسافة إصبعين فقط ليدخل إليه. حينما أردتُ سحب المرساة، كان القارب محمّلاً بالكثير من المحار إلى درجة أنّنا كنّا معرّضين لخطر الغرق، ففصلنا حبل المرساة وربطناه بطرف مجدافٍ سيظلّ عائماً إلى أن نعود. رسونا في الشاطئ دون حوادث.

كانت العجوز تنتظرنا برفقة الرجل الهندي على الرمل الجاف في المكان الذي يفتحون فيه المحارات التي تمّ اصطيادها. في البداية ابتهج الرجل لكوننا التقطنا هذه الكمية الكبيرة من المحار. وبدا لي أنّ لالي تشرح له ما فعلتُ بشأن ربط الكيس الأمر الذي جعلها خفيفة في الصعود إلى سطح الماء وكذلك وضع كمية أكبر من المحار فيه. نظر إلى طريقة ربطي للكيس وتفحّص بتمعّن العقد المزدوجة للشريط. فحلّ العقدة، وأعاد ربطها بطريقة ممتازة من المحاولة الأولى. نظر إليّ وهو فخورٌ للغاية بنفسه.

عثرت العجوز أثناء فتحها للمحارات على ثلاث عشرة لؤلؤة. أمّا لالي، التي لم تكن في العادة تبقى أبداً لتحضر هذه العملية، بل تنتظر في بيتها لتُنقَل إليها حصّتها، فقد ظلّت في المكان إلى أن فُتِحَت آخر محارة. التهمتُ على الأقلّ ستّاً وثلاثين محارة، في حين تناولت لالي خمس أو ست محارات. قامت العجوز بتوزيع الحصص. كانت المحارات إلى حدّ ما بالحجم نفسه، ولها حجم حبّة حمّصٍ تقريباً. وضعت كومةً من ثلاث لآلئ حصّةً للزعيم، ثمّ ثلاث لآلئ حصّة لي، وأخذت لؤلؤتين لنفسها، في حين خصّت لالي بخمس لآلئ. أخذت لالي اللآلئ الثلاث وقدّمتها لي. أخذتُها وناولتها للرجل الهندي الجريح، فأبى أن يأخذها، ولكنني فتحتُ يده ودسست اللآلئ فيها ثمّ أطبقتها ثانية عليها، فوافق على أخذها. كانت زوجته وابنته تراقبان المشهد على مسافةٍ من مجموعتنا، صامتتين، فأخذتا تضحكان وأقبلتا للانضمام إلينا. ثم ساعدتُ في حمل الصيّاد إلى كوخه.

تكرّر هذا المشهد خلال ما يُقارب أسبوعين. وفي كلّ مرّة كنتُ أعطي حصّتي من اللؤلؤ للصيّاد. البارحة، احتفظتُ بلؤلؤةٍ واحدة من

أصلّ ست لآلئ كانت حصّتي. حينما وصلنا إلى البيت، أرغمتُ لالي على أن تأكلها. طار صوابها فرحاً، وظلّت تغنّي طيلة فترة ما بعد الظهيرة.
كنتُ أذهب من حينٍ إلى آخر للقاء الهنديّ الأبيض. وطلب منّي أن أناديه زوريلو، أي الثعلب الصغير باللغة الإسبانية. أخبرني أنّ الزعيم قد كلّفه أن يسألني لماذا لا أرسم له وشمَ رأس النمر، فشرحتُ له أنّ السبب هو أنني لا أُجيد الرسم بإتقانٍ. مستعيناً بالقاموس، طلبتُ منه أن يجلب لي مرآة مستطيلة الشكل بمساحة صدري، وورقاً شفّافاً، وفرشاةً رفيعة وقارورة حبر، وورقاً فحمياً، وإن لم يستطع تأمينه، فقلماً شمعيّاً كبيرَ الحجم. كما طلبتُ منه أن يجلب لي بعض الثياب على مقاسي وأن يتركها عنده مع ثلاثة قمصان كاكية اللون. وقد علمتُ أنّ الشرطة قد استجوبته بشأني وشأن أنطونيو. وقد أخبر رجال الشرطة بأنني قد انتقلتُ عبر الجبال إلى فنزويلا وأنّ أنطونيو قد لُدِغَ من ثعبانٍ ومات. كما علم أنّ الفرنسيين مسجونون في سانتا مارتا.

في منزل زوريلو، توجد بالضبط الأشياء المتنافرة نفسها التي في بيت الزعيم: مجموعة ضخمة من الأواني الفخارية المزخرفة برسومات عزيزة على قلوب الهنود، وخزف مشغولٌ بطريقة فنية رائعة بأشكالها كما برسوماتها وألوانها؛ وأراجيح نومٍ رائعة مصنوعة من الصوف الخالص، بعضها ناصعة البياض، وبعضها الآخر ملوّنة، مع أشرطة زينة؛ وجلود مدبوغة لثعابين وسحالي وجواميس ضخمة؛ وسلال مجدولة من عرائش بيضاء وأخرى مجدولة من عرائش ملوّنة. وقد أخبرني بأنّ كلّ هذه الأشياء صُنِعت بأيدي هنودٍ من عِرق قبيلته نفسه، ولكنّهم يعيشون تحت الأشجار داخل الدَّغَل على بعد خمسة وعشرين يوماً سيراً على الأقدام من هنا. ومن ذاك المكان كانت تأتي أوراق الكوكا التي أعطاني أكثر من عشرين ورقة منها. وسوف أمضغ واحدة منها كلما اسودَّت الدنيا في وجهي.
غادرتُ زوريلو وأنا أطلب منه، إن كان ذلك باستطاعته، أن يجلب لي كلّ ما دوّن، بالإضافة إلى بعض الصحف أو المجلات باللغة الإسبانية،

لأنني، باستخدام القاموس، تعلّمتُ الكثير خلال شهرين. لم يكن لديه معلومات عن أنطونيو، وكان يعلم فقط أنّ هناك صداماً جديداً بين خفر السواحل ورجال العصابات. وقد قتل في الاشتباكات خمسة من حرّاس السواحل ورجل عصاباتٍ واحد، ولم يتمّ احتجاز المركب. لم أشهد في القرية أبداً قطرة من الكحول، عدا عن هذا الشراب المخمّر المصنوع من الفاكهة. حينما رأيتُ زجاجةً من اليانسون، قلتُ له أن يعطيني إياها، ولكنه رفض. لو أردت لاستطعت أن أشربها هنا في الحال، ولكن من دون أن آخذها معي. هذا العجوز الهندي حكيمٌ.

غادرت منزل زوريلو ورحلتُ على ظهر حمارٍ أعارني إياه والذي سوف يعود يوم غد لوحده إلى الدار. أخذتُ فقط علبة كبيرة من السكاكر بألوان مختلفة، كلّ حبّة منها مغلّفة بورقٍ رقيق، وستين علبة سجائر. كانت لالي تنتظرني على بعد أكثر من ثلاثة كيلومترات من القرية، مع أختها، ولم تفعل ما يعكّر مزاجي وقبلت أن تسير إلى جانبي، وأيدينا متشابكة. تقف بين الفينة والأخرى وتقبّلني بطريقة حضارية من فمي. حينما وصلنا، ذهبتُ أقدّم السكاكر والسجائر للزعيم. وجلسنا أمام الباب المطلّ على البحر. شربنا من الشراب المخمّر والمحفوظ بارداً في جرارٍ فخارية. جلست لالي إلى يميني، تحيط بذراعها فخذي، وأختها إلى يساري في الوضعية نفسها. كانتا تمصّان سكاكر. فُتِحَت العلبة أمامنا وتناول الأطفال والنساء منها خلسةً. دفع الزعيم رأس زورايما نحو رأسي وأفهمني أنّها ترغب في أن تكون زوجتي مثل لالي. قامت لالي بحركات وهي تمسك بنهديها بين يديها ومن ثَمّ أرتني أنّ لدى زورايما نهدين صغيرين ولهذا لا أرغب فيها. هززتُ كتفيّ وضحك الجميع. لاحظتُ أنّ زورايما كانت تعيسة جدّاً، فأخذتها بين ذراعي مطوّقاً رقبتها وداعبتُ نهديها فشعّت فرحاً وسعادةً. دخّنتُ بعض السجائر، وحاول بعض الهنود أن يدخّنوا على غراري، ولكنّهم سرعان ما عافوا ذلك وعادوا يدخّنون سيجارهم وهم يضعون الطرف المشتعل منه في فمهم. أخذتُ لالي من

ذراعها لكي أنصرف بعد أن حيّيتُ جميع الحاضرين. سارت لالي خلفي وسارت زورايما في إثرنا. شوينا أسماكاً ضخمة على الجمر. إنّها الوجبة الشهيّة واللذيذة على الدوام. وضعتُ على الجمر كركنداً يزن على الأقل كيلوغرامين. وتناولنا بشهية وتلذّذ ذاك اللحم الطري.

حصلتُ على المرآة والورق الناعم وورق الرسم الشفّاف، وعبوة من الصمغ التي لم أكن قد أوصيتُ عليها ولكنّها قد تكون نافعة لي، وعدّة أقلام شمعية متوسطة القساوة، ودواة الحبر والفرشاة. ثبّتُّ المرآة المعلّقة بخيطٍ على مستوى صدري وأنا جالسٌ. ظهر في المرآة وشم رأس النمر بكلّ تفاصيله وبحجمه الحقيقي نفسه. نظرت لالي وزورايما إليّ بفضولٍ واهتمام كبيرين. حاولتُ أن أتّبع خطوط الرسم بالفرشاة، ولكن لأنّ الحبر كان يسيل، لجأتُ إلى الصمغ: مزجتُ بعض الصمغ مع الحبر. ومنذ تلك الحظة، سار كلّ شيءٍ على ما يُرام. وفي ثلاث جلسات مدّة كلّ واحدة منها ساعة واحدة، نجحتُ في رسم نسخة طبق الأصل من وشم رأس النمر على المرآة.

ذهبت لالي لإحضار الزعيم، وأمسكت زورايما بيديّ ووضعتهما على نهديها، كانت تبدو في غاية التعاسة والهيام، تفيض عيناها بالشهوة والغرام، ومن دون وعيٍ منّي لما أفعله، طرحتُها أرضاً وضاجعتها وسط الكوخ. أنّت قليلاً ولكنّ جسدها المتوتّر من فرط اللذّة التفّ عليّ ولم يشأ أن يفلتني. تحرّرتُ منها بهدوء ولطف وذهبتُ إلى البحر لأغتسل فيه لأنّ جسمي كان قد تمرّغ بالتراب، فلحقت بي واستحممنا معاً. فركتُ ظهرها، وفركت هي ساقيّ وذراعيّ، وعدنا إلى الكوخ.

وجدنا لالي تجلس في المكان نفسه الذي مارسنا الجنس فيه، وعندما دخلنا، أدركتْ ما فعلناه. نهضت من مكانها، وعانقتني بذراعيها مطوّقة رقبتي وقبّلتني برقّة وحنان، ثمّ أمسكت بذراع أختها وأخرجتها من بابي، ثمّ عادت وخرجت من بابها. سمعتُ صوت ضرباتٍ في الخارج، فخرجت ورأيتُ لالي وزورايما وامرأتين أخريين وهنّ يحاولن، باستخدام

قطعة من الحديد، فتح فتحةٍ في الجدار. أدركتُ أنّهن سيفتحن باباً رابعاً للكوخ. ولكي يتمّ فتح الجدار من دون إحداث تشقّقات في أماكن أخرى، كانوا يسقون الجدار بمرشّ الماء لكي يصبح رطباً وبالتالي سهلاً على الحفر. وخلال وقتٍ قصير تمّ فتح الباب الجديد. دفعت زورايما الحطام، والمخلّفات الناجمة عن الحفر إلى الخارج. من الآن فصاعداً، سوف تستخدم وحدها هذا الباب فقط، ولن تستخدم بعد الآن بابي أبداً.

جاء الزعيم برفقة ثلاثة هنود وشقيقه الذي جُبِرَت ساقه تقريباً. نظر إلى الرسم في المرآة، ونظر إلى صورته المنعكسة فيها. وقد ذُهِل لرؤية رأس النمر المرسوم بإتقانٍ فائق، ولرؤية وجهه. لم يفهم ما أريد فعله. بعد أن جفّ كلّ شيء، وضعتُ المرآة على الطاولة ووضعتُ فوقها الورق الشفّاف وبدأتُ أنسخ الصورة. جرى العمل سريعاً جدّاً، وبغاية السهولة. رسم القلم الشمعي المتوسّط القساوة كلّ التفاصيل بدقّة متناهية. وفي أقلّ من نصف ساعة، تحت الأنظار الفضولية للجميع، أنجزتُ صورةً بالإتقان نفسه الذي للنسخة الأصلية. وتناوب جميع الحضور، الواحد تلوى الآخر، على الإمساك بالورقة وتفحّص الصورة، وهم يقارنون النمر المرسوم على صدري مع النمر المرسوم على الورقة. مددتُ لالي على الطاولة، وبلّلتها على نحوٍ خفيفٍ جدّاً بخرقةٍ مبلّلة، ثمّ وضعتُ على بطنها ورقةً شفّافة ووضعتُ فوقها الورقة التي كنتُ قد رسمتُ عليها للتوّ. رسمتُ بعض الخطوط، وبلغت دهشة الجميع ذروتها حينما رأوا أنّ جزءاً من الصورةِ قد رُسِمَ على بطن لالي. وحينها فقط أدرك الزعيم أنّ كلّ هذا العناء الذي تحمّلته كان من أجله هو.

يتصرّف الناس الذين ليس لديهم النفاق المُكتَسَب من التربية الحضارية بطريقة طبيعية وتكون ردود فعلهم عفوية، مثلما يرون الأشياء على حقيقتها. يظهر عليهم في الحال إن كانوا راضين أو مستائين، فرحين أو حزينين، مهتمين أو لا مبالين. إنّ سمو الهنود الأقحاح مثل هنود غواجيرا هؤلاء مذهل. يتفوّقون علينا بكلّ شيء، لأنّهم إذا ما تبنّوا

شخصاً، يسخّرون له كلّ ما يملكون، وبدورهم، إذا ما تلقّوا أدنى اهتمام من هذا الشخص، يتأثرون لذلك أعمق تأثّر. قررتُ أن أرسم الخطوطَ الأولى باستخدام موسى الحلاقة بحيث تتثبّت أطراف الصورة بشكلٍ نهائي منذ الجلسة الأولى بالوشم الأوّل. ومن ثَمّ سأقوم بالوخز فوقها باستخدام ثلاث إبر مثبّتة على عودٍ خشبيٍّ صغير. كما قرّرتُ أن أبدأ العمل في اليوم التالي.

تمدّد زاتو على الطاولة. بعد أن أطبقتُ الرسم المطبوع على ورقة رقيقة على ورقة بيضاء أخرى أكثر متانةً، استنسختها بقلم قاس على جلده، الذي كان قد أُعدّ مسبقاً بماءٍ معجونٍ بغضارٍ أبيض تركته يجفّ. خرجت النسخة صورةً طبق الأصل، وتركتها تجفّ جيّداً. كان الزعيم ممدّداً على الطاولة، متيبّساً دون أن يعترض ولا أن يحرّك رأسه لشدّة خوفه من أن يُفسدَ الرسم الذي كنتُ أجعله يراه في المرآة. رسمتُ كلّ الخطوط بموسى الحلاقة. سال الدمُ على نحوٍ خفيف ومسحته في كلّ مرّة. حينما أُنجزَ كلّ شيء بنجاح، وحلّت خطوطُ رفيعة حمراء محلّ الرسمة، لطّختُ صدره بالكامل بالحبر الصيني الأزرق. لم يثبت الحبر، مدفوعاً بالدم، بصعوبة سوى في الأماكن التي كنتُ قد عمّقتُ الجرح فيها قليلاً، ولكن كلّ الرسم تقريباً ظهر على نحوٍ رائع. بعد انقضاء ثمانية أيام، ظهر بوضوح على صدر زاتو رأس النمر فاتحاً شدقيه وكاشفاً عن لسانه الوردي وأسنانه البيضاء وأنفه وشواربه السوداء وكذلك عينيه. كنتُ في غاية السعادة بصنيعي: ظهر الوشم أجمل من وشم صدري وألوانه أكثر حيويّةً. حينما سقطت قشور الجروح، أعدتُ وخز بعض الأماكن بالإبر. وقد سُرّ زاتو كثيراً بالوشم إلى درجة أنّه أوصى زوريلو على ستّ مرايا، مرآة لكلّ كوخ واثنتين لكوخه الخاصّ.

مرّت الأيام والأسابيع والأشهر، ووصلنا إلى شهر أبريل / نيسان، أيّ مضت أربعة أشهر على وجودي بين هؤلاء الهنود. كنتُ بصحّة ممتازة وقويّاً، وأتاحت لي قدماي المعتادتان على المشي حافيتين أن أقطع

مسافاتٍ طويلةٍ سيراً على الأقدام دون أن أشعر بالتعب، وأنا أصطاد السحالي الضخمة. لقد فاتني أن أقول بأنني قد طلبتُ من زوريلو، خلال زيارتي الأولى للساحر، أن يجلب لي بعضاً من صبغة اليود وماء الأوكسجين والقطن والضمادات وأقراص الكينين والستوفارسول. قبل الفرار، كنتُ قد رأيتُ سجيناً محكوماً بالأشغال الشاقة في المستشفى يعاني من قرحةٍ بحجم القرحة التي في كعب الساحر. آنذاك، سحق الممرّض شاتال حبّة ستوفارسول ووضع مسحوقها على القرحة. وقد حصلتُ على كلّ ما طلبت بالإضافة إلى مرهمٍ جلبه زوريلو من زعيمه. وكنتُ قد أرسلتُ المدية الخشبية الصغيرة إلى الساحر فردّ عليّ بإرسال مديته الخاصّة إليّ. استغرق إقناعه بتلقّي العلاج وقتاً طويلاً وواجهتُ صعوبة كبيرة في ذلك. ولكن بعد عدّة زيارات، خفّت القرحة وتقلّصت إلى نصف حجمها السابق، ومن ثَمّ واصل بنفسه معالجتها. وذات يومٍ جميل، أرسل إليّ مديته الخشبية الكبيرة لأذهب للقائه وأرى أنه قد شُفي تماماً. لم يعرف أحدٌ أبداً بأنني أنا من عالجته.

زوجتاي لا تتركاني لوحدي أبداً، فحينما تذهب لالي إلى الصيد، تكون زورايما معي، وإذا ما ذهبت زورايما إلى الغطس، تبقى لالي بصحبتي.

وُلِد طفلٌ للزعيم زاتو. ذهبت زوجته إلى الشاطئ أثناء آلام المخاض، واختارت صخرة كبيرة تُخفيها عن أنظار الجميع، وحملت زوجةٌ أخرى من زوجات زاتو إليها سلّة كبيرة مع طحالب، وماءً عذباً وقطعاً من سكّر بنّي غير مصفّى تزن القطعة الواحدة منها كيلوغرامين. لا بدّ أنّها قد وضعت مولودها نحو الساعة الرابعة من بعد الظهر، لأنّها مع مغيب الشمس كانت تصرخ مقبلةً نحو القرية وهي ترفع طفلها على يديها. عرف زاتو أنّ الوليد صبيٌّ حتى قبل وصولها. أعتقد أنني فهمتُ أنّه لو كان الوليد بنتاً، لعادت الأم إلى القرية من دون صراخ ووليدها بين يديها، بدل أن ترفعه في الهواء وتصرخ فرِحَةً. ولالي هي التي شرحت لي هذا من خلال الإشارات والإيماءات. تقدّمت الهندية، ومن ثَمّ توقّفت بعد أن رفعت الصبي. مدّ

زاتو ذراعيه صارخاً، ولكن من دون أن يتحرّك. فنهضت وتقدّمت بضعة أمتارٍ أخرى نحوه، ورفعت الصبي في الهواء وصرخت وتوقّفت من جديد. صرخ زاتو من جديد ومدّ ذراعيه. وقد تكرّر هذا المشهد خمس أو ست مرّات في الأمتار الثلاثين أو الأربعين الأخيرة. ظلّ زاتو خلال ذلك لا يبارح عتبة كوخه. يقف أمام الباب الكبير بينما يصطفّ الجميع إلى يمينه ويساره. توقّفت الأمّ، وهي لا تبعد أكثر من خمس أو ست خطوات، ورفعت بطرفي ذراعيها طفلها وصرخت. فتقدّم زاتو وأمسك بالصبي من تحت إبطيه ورفعه بدوره بطرفي ذراعيه، واستدار نحو الشرق وصرخ ثلاث مرّات وهو يرفعه ثلاث مرات. ثمّ أجلس الصبي على ذراعه الأيمن، ومدّده بالعرض على صدره ووضع رأسه تحت إبطه وأخفاه بذراعه اليسرى. وعاد يدخل دون أن يلتفت إلى الوراء عبر الباب الكبير للكوخ. تبعه الجميع ودخلت الأمّ أخيراً. وشربوا كلّ ما كان عنده من شراب مخمّر.

طيلة الأسبوع، كانوا يرشون الماء صباحاً ومساءً أمام كوخ زاتو، ثمّ يقوم الرجال والنساء بعصر التراب بضربه بكعابهم أو أقدامهم، فشكّلوا بذلك بقعة كبيرة جدّاً من الطين الصلصالي الأحمر. وفي اليوم التالي، نصبوا خيمة كبيرة من جلد الثور وخمّنت أنّه ستكون هناك حفلة. تحت الخيمة، مُلِئت دنان فخارية كبيرة بمشروبهم المفضّل، وعددها عشرون دنّاً على الأقل. كما رُصِفت حجارةٌ، ووضِع حولها حطبٌ يابس وأغصان خضراء، يزداد كدسها حجماً كلّ يوم، لأنّ البحر يلفظ الكثير من الحطب والأخشاب البيضاء والمصقولة. كانت هناك جذوع ضخمة سُحِبت بعيداً عن الأمواج قبل زمنٍ طويل. ونصبوا فوق الحجارة مذراتين خشبيتين بالارتفاع نفسه: إنّهما قاعدتا سفود شواءٍ ضخم. جُلِبَت أربع سلاحف مقلوبة على ظهرها وأكثر من ثلاثين سحليةً كلّها ضخمة وحيّة، ومخالب قوائمها متشابكة بطريقة معيّنة بحيث لا تستطيع الهرب، وخاروفان. أُحضِرَت هذه الأطعمة كلّها بانتظار أن يُضحّى بها وأن تؤكَل. وأُضيف إليها ألفا بيضة من بيض السلاحف.

في صباح أحد الأيام، وصل خمسة عشر فارساً، جميعهم من الهنود، في أعناقهم قلائد، ويعتمرون قبّعات من القشّ كبيرة جدّاً، ويرتدون ستراً للعورات، في حين كانت أفخاذهم وسيقانهم وأقدامهم وأردافهم عارية، ويرتدون سترات من جلد الخروف مقلوبة الوجه وبلا أكمام. ويُعلّق كلّ واحدٍ منهم خنجراً كبيراً على حزام خصره، ويحمل اثنان منهم بندقيتي صيد بسبطانتين، في حين يحمل الزعيم بندقية رشّاشة، ويرتدي أيضاً سترة جلدية رائعة، سوداء اللون ولها كمّان طويلان ويتمنطق بحزام ذخيرةٍ مليءٍ بالطلقات. كانت جيادهم رائعة، فهي صغيرة الحجم، ولكنّها متوتّرة جدّاً، وجميعها بلونٍ رماديٍّ مرقّط. ويحمل كلّ فارسٍ خلفه على ردفي الحصان حزمةً من الأعشاب الجافّة. أعلنوا عن وصولهم من مسافةٍ بعيدةٍ جدّاً من خلال إطلاق النار من بنادقهم، ولكن لأنّهم كانوا يسابقون الريح في عَدْوِهم، سرعان ما أصبحوا بالقرب منّا. لاحظتُ أنّ زعيمهم يشبه على نحوٍ غريب زاتو وشقيقه، ولكنّه أكبر سنّاً منهما بقليل. ترجّل عن صهوة جواده الأصيل وتقدّم نحو زاتو، فربّتا على كتفي بعضهما. دخل بمفرده إلى الدار وخرج يتبعه الهندي والصبي بين ذراعيه. رفعه على أطراف يديه وأراه للجميع، ثمّ قام بالحركة نفسها التي قام بها زاتو: بعد أن قدّمه لجهة الشرق، حيث تشرق الشمس، أخفاه تحت إبطه وساعده الأيسر وعاد إلى داخل الدار. حينها ترجّل جميع الفرسان عن صهوات جيادهم. قيّدوا جيادهم بعيداً عن المكان قليلاً وعلّقوا في رقبة كلّ جوادٍ كيس العشب الجافّ. نحو منتصف الظهيرة، وصلت المرأة الهندية في عربة ضخمة تجرّها أربعة جياد، يقودها زوريلو. وصل في العربة على الأقلّ عشرون امرأة هندية كلّهن شابّات، وسبعة أو ثمانية أطفال، كلّهم صبيان.

قبل أن يصل زوريلو، كان قد جرى تقديمي لجميع الفرسان بدءاً من الزعيم. لفت زاتو انتباهي إلى أنّ خنصر قدمه اليسرى ملتوية وأنّها تمرّ فوق الإصبع المجاورة. وكان شقيقه يعاني من الحالة نفسها، وكذلك الحال بالنسبة إلى الزعيم الذي وصل لتوّه. وبعد ذلك، أراني تحت ذراع كلّ

منهما بقعة سوداء، على شكل شامةٍ. ففهمتُ أنّ القادم الجديد هو شقيقه. أُعجب الجميع بوشوم زاتو أشدّ الإعجاب، وخاصّة وشم رأس النمر. كانت النساء الهنديات اللواتي وصلن للتوّ يحملن جميعاً رسوماً على أجسادهنّ ووجوههنّ، وبجميع الألوان. وضعت لالي بعض القلائد من قطع المرجان حول رقبة بعضهن، في حين طوّقت رقاب أخرياتٍ بقلائد من الأصداف. لفتت انتباهي امرأة هندية رائعة، أطول قامة من الأخريات اللواتي كنّ متوسّطات طول القامة. بدت ملامح وجهها إيطالية، كما لو أنّها جوهرة. لها شعرٌ أسود مائل للبنفسجي، وعيناها خضراوان تماماً بلون حجر اليشم، وواسعتان لهما أهداب طويلة وحاجبان مقوّسان. وكانت قد قصّت شعرها على الطريقة الهندية وتركت غرّة، يفصل شعرها من الأمام خطٌّ في الوسط ويقسّمه إلى نصفين بحيث ينسدل إلى يمين الوجه ويساره وهو يغطّي أذنيها، ويصل إلى منتصف رقبتها. كان نهداها المرمريان متقاربين عند منبتهما وينفتحان متباعدين بتناسقٍ تامّ.

قدّمتني لالي لها وجرّتها إلى دارنا مع زورايما وفتاة هندية أخرى صغيرة تحمل أكواباً وأنواعاً من الفراشي. في الواقع كان على الزائرات أن يرسمن على أجساد هنديات قريتي. شهدتُ التحفة الفنية الرائعة التي رسمتها الفتاة الجميلة على جسدي لالي وزورايما. كانت فراشيهنّ مصنوعة من قطعة من الخشب في طرفها قطعة صغيرة من الصوف، وكنّ يغمسنها في ألوانٍ مختلفة لكي يرسمن بها. فأمسكتُ بريشتي، وبدأتُ أرسم نبتةً تنطلق من سرّة لالي ويتفرّع منها غصنان يتّجه كلّ منهما نحو أسفل كلّ نهدٍ من نهديها، ثمّ رسمتُ بتلات وردية اللون ولوّنتُ طرف النهد بالأصفر. بدت الصورة وكأنّها لزهرة نصف متفتّحة مع مدقها. أرادت الهنديات الثلاث الأخريات أن أرسم على أجسادهنّ ما رسمته على جسد لالي.

كان عليّ أن أسأل زوريلو عن ذلك، فأخبرني بأنّه بإمكاني أن أرسم على أجسادهنّ كما أشاء حالما يوافقن على ذلك. وما الذي لم أفعله هنا!

خلال أكثر من ساعتين، رسمتُ على نهود جميع الهنديات اللواتي جئن في زيارة وكذلك الأخريات. طلبت زورايما بإلحاح أن أرسم على نهديها الصورة نفسها التي رسمتها على نهدي لالي. في هذه الأثناء، قام الرجال الهنود بشي الخراف على السّفود وسلحفاتين على قطع من الجمر. كان اللحم الذي أعدّوه محمّراً وطيّباً كما لو أنّه لحم العجل.

جلستُ بجانب زاتو ووالـده، تحت الخيمة. بدأ الرجال بتناول الطعام في جانب من الخيمة، والنساء في الجانب الآخر، عدا اللواتي كنّ يخدمننا. انتهت الحفلة بنوعٍ من الرقص، في وقتٍ متأخرٍ جدّاً من الليل. ولجعل الحضور يرقصون، عزف أحد الهنود على نايٍ من الخشب يعطي أنغاماً حادّة وقليلة التنوّع ودقّ على طبلين من جلد الخروف. ثمل الكثير من الهنود والهنديات، ولكن لم يقع أيّ حادثٍ مزعج. جاء الساحر على ظهر حمارٍ. نظر الجميع إلى الندبة الزهرية اللون في مكان القرحة التي كانت في كعبه، تلك القرحة التي يعرفها الجميع. وكانت مفاجأةً حقيقيةً للجميع أن يروها وقد اندملت. كنّا وحدنا، زوريلو وأنا، على بيّنة من أمر علاجه. شرح لي زوريلو أنّ زعيم القبيلة الذي وصل هو والد زاتو وأنّ اسمه جوستو، ويعني العادل. وهو الذي يفصل ويحكم في المسائل والقضايا التي تقع بين أبناء قبيلته والقبائل الأخرى المنتمية إلى عرق غواجيرا. كما أخبرني بأنّه حينما تنشب خلافات مع قبائل أخرى من الهنود، مثل لابوس التي تنتمي إلى عرقٍ آخر، يجتمعون لكي يتباحثوا ويروا إن كانوا سيخوضون الحرب أم سيقومون بتسوية الأمور وديّاً. حينما يُقتَلُ هنديٌّ بيد هنديٍّ آخر من قبيلة أخرى، يتّفقون، وذلك بهدف تجنّب الحرب، على أن يدفع القاتلُ ديّة القتيل، والتي قد تبلغ في بعض الأحيان مئتي رأسٍ من الثيران، لأنّه في الجبال وسفوحها تمتلك كلّ القبائل الكثير من الأبقار والثيران. ولسوء الحظ، لا يقومون بتلقيحها بالمضادات الضرورية ضدّ الحمّى القلاعية، ولذلك تفتك الأوبئة بعددٍ كبيرٍ من الماشية. ويقول زوريلو أنّ هذا أمرٌ جيّدٌ من جهة، لأنّه لولا هذه

الأوبئة سوف يزداد عددها كثيراً. ولا يُمكن أن تُباع هذه الماشية بطريقة رسمية في كولومبيا أو فنزويلا، وينبغي أن تبقى دائماً في الأراضي الهندية خوفاً من أن تنقل الحمّى القلاعية إلى هذين البلدين. ولكنّ، حسب ما أخبرني به زوريلو، يجري تهريب قطعانها على نحوٍ واسعٍ عبر طرقٍ جبلية.

دعاني الزعيم الزائر، العادل، عبر زوريلو أن أذهب للقائه في قريته التي على ما يبدو تضمّ قرابة مئة كوخ. أخبرني أن أذهب إليه برفقة لالي وزورايما، وأنّه سوف يمنحني كوخاً لنقيم فيه، وألّا أجلب معي شيئاً لأنّني سوف أحصل هناك على كلّ ما يلزم. قال لي أن أجلب معي فقط عدّتي الخاصّة بالوشم لكي أرسم له أيضاً وشم رأس النمر. نزع عن معصمه سواراً جلدياً أسود اللون وقدّمه لي. وحسبما أخبرني زوريلو، هذه بادرة مهمّة وذات مغزى تعني أنّه قد أصبح صديقي، وأنّه سوف يلبّي كلّ رغباتي، وأنّه سيكون عاجزاً عن رفض أيّ منها. سألني إن كنتُ أريد حصاناً، فأجبته بالإيجاب ولكنني شرحتُ له بأنني لا أستطيع أن أوافق على اقتنائه لأنّ الأرض هنا تكاد تكون خالية من الأعشاب. أخبرني أنّ لالي أو زورايما تستطيعان، كلّما دعت الضرورة، أن تذهبا مسافة نصف نهارٍ على الحصان حيث يوجد العشب الطويل والجيّد. فوافقتُ على اقتناء الحصان الذي سوف يرسله لي عمّا قريب حسبما أخبرني.

اغتنمتُ فرصة زيارة زوريلو الطويلة هذه لأعرب له عن ثقتي به، وأملي بألّا يخونني ويُفشي ما أفكّر فيه بشأن الذهاب إلى فنزويلا أو كولومبيا. وصف لي المخاطر المحدقة خلال الثلاثين كيلومتراً الأولى حول الحدود. فحسب معلومات المهرّبين، الجانب الفنزويلي من الحدود أشدّ خطراً من الجانب الكولومبي. من جهة أخرى، عرض عليّ أن يرافقني بنفسه على الجانب الكولومبي حتى مسافة قريبة من سانتا مارتا، مضيفاً بأنّه قد سبق لي أن سلكتُ هذا الطريق وأنّه، حسب رأيه، من الأفضل اختيار كولومبيا. واتّفقنا على أن أشتري قاموساً جديداً، أو بالأحرى كتباً لتعلّم اللغة الإسبانية تحتوي على عبارات معيارية ثابتة.

وحسب رأيه، إذا ما تعلّمتُ أن أتأتأ بقوّة، سيكون هذا بمثابة ميزة كبيرة لأنّ الناس سوف يتبرّمون وهم يصغون إليّ وسوف يُكملون بأنفسهم الجمل من دون أن يعيروا اهتماماً كبيراً إلى اللّهجة أو اللفظ. لقد اتّخذنا القرار، وسوف يشتري لي كتباً وخارطة تكون الأكثر دقّة قدر المستطاع، كما تكفّل بأن يبيع لآلئي حينما تدعو الحاجة، مقابل العملة الكولومبية. شرح لي زوريلو أنّ الهنود، بدءاً من الزعيم، لا يمكنهم إلّا أن يكونوا إلى جانبي في قراري بالرحيل، طالما أنّني راغبٌ في ذلك. سوف يتأسفون لرؤيتي وأنا أرحل عنهم ولكنّهم سوف يتفهّمون بأنّه من الطبيعي أن أسعى للعودة إلى أهلي. لكن الموقف الأصعب سيكون مع زورايما وكذلك لالي، فكلاهما، وخاصّة لالي، قادرتان تماماً على أن تقتلاني بطلقة بندقية. من جهة أخرى، علمتُ، وأيضاً عن طريق زوريلو، بأمرٍ لم أكن أعرفه من قَبْلُ: زورايما حامل. ولم ألاحظ أيّ شيء عليها، ولذا اندهشتُ كثيراً.

انتهت الحفلة وغادر الجميع، وأُنزِلت الخيمة الجلدية وعاد كلّ شيءٍ كما كان، ظاهرياً على الأقل. تلقيتُ الحصان الرائع بلونه الرمادي المرقّط وذيله الطويل الذي يكاد أن يلامس الأرض وعرفٍ رمادي يميل إلى لون البلاتين المذهل. لم تكن لالي وزورايما سعيدتين أبداً، واستدعاني الساحر ليخبرني بأنّ لالي وزورايما قد سألتاه إن كانتا تستطيعان إعطاء زجاجٍ مكسورٍ للحصان كي يموت من دون أن يشكّل ذلك خطراً عليهما. وكشف لي أنّه نهاهما عن فعل ذلك لأنني محميٌّ من قديسٍ هندي مجهول، وأنّ الزجاج المهشّم سوف يتحوّل حينئذٍ إلى بطنيهما. وأضاف بأنّه يعتقد بأنه لم يعد هناك من خطر ولكن لا يمكن الاطمئنان إلى ذلك تماماً، ولذلك عليّ أن أكون حذراً. سألته: وماذا عنّي أنا؟ فأجاب بالنفي، وقال بأنّه إذا ما رأتاني أتهيّأ للرحيل جادّاً، فإنّ كلّ ما بوسعهما أن تفعلاه، وخاصّة لالي، هو قتلي بطلقة من بندقية. وحينما سألته إن كان بوسعي أن أقنعهما بأن تدعاني أرحل، إذا ما أخبرتهما بأنني سوف أعود ثانيةً، ردّ بأنّ ذلك غير ممكنٍ على الإطلاق، وأنّه عليّ ألّا أظهر أبداً بأنني أرغب في الرحيل.

استطاع الساحر أن يخبرني بكلّ هذا لأنّه كان قد أحضر في اليوم ذاته زوريلو الذي عمل مترجماً. وقد اختتم زوريلو قائلاً بأنّ الأمور في غاية الخطورة وتستدعي أخذ كلّ التدابير الاحترازية. عدتُ إلى البيت في حين كان زوريلو قد جاء إلى كوخ الساحر وغادره من طريقٍ مختلف تماماً عن طريقي. لم يعلم أحدٌ من القرية أنّ الساحر كان قد استدعاني في الوقت نفسه الذي استدعى فيه زوريلو.

ها قد مرّت ستة أشهرٍ الآن وأنا أتطلّع بشوقٍ للرحيل. ذات يوم، عدتُ إلى البيت ورأيت لالي وزورايما تنحنيان فوق الخارطة، وهما تحاولان فهم ما ترمز إليه هذه الرسومات. ما كان يقلقهما هو الرسم الذي فيه أسهمٌ تشير إلى الجهات الأربع الأساسية. كانتا حائرتين أمامها، ولكنّهما تخمّنان أنّ في هذه الورقة شيءٌ مهمٌّ للغاية على صلةٍ بحياتنا.

بدأ بطن زورايما يكبر بوضوح، وبدأت لالي تغار بعض الشيء وتُرغمني على ممارسة الجنس في أيّ ساعةٍ من النهار أو الليل، وفي أيّ مكانٍ مناسب. طالبتني زورايما أيضاً بممارسة الجنس ولكن لحسن الحظّ فقط أثناء الليل. ذهبتُ للقاء جوستو، والد زاتو. جاءت لالي وزورايما معي. أخذتُ معي الرسمة التي كنتُ قد احتفظتُ بها لحسن الحظّ، لكي أنسخ منها صورة رأس النمر على صدره. انتهيتُ من الوشم في غضون ستة أيام، لأنّ أوّل قشرة للجرح سقطت سريعاً بفضل اغتساله بالماء الذي أضاف إليه قطعةً من الجير الحيّ. كان جوستو في غاية السعادة بحيث كان يتمرأى عدّة مرّات في اليوم ليرى الوشم على صدره. وقد جاء زوريلو خلال زيارتي وإقامتي بضيافته. وبعد أن أذنتُ له، تحدّث إلى الزعيم العادل عن خطّتي لأنني أردتُ أن يبدّل حصاني. لم تكن جياد غواجيرا الرمادية المرقّطة موجودة في كولومبيا، ولكنّ الزعيم العادل كان يمتلك ثلاثة جياد صهباء، وهي كولومبية. وما إنْ علِمَ جوستو بخططي حتى أرسل في طلب الجياد التي جيء بها في الحال، فاخترتُ من بينها الحصان الذي بدا لي أنّه الأكثر وداعةً، فأسرجه لي بسرجٍ ذي

ركابين ووضع له شكيمة من حديد، لأنّ أحصنتهم بلا سروج، وشكائمها مصنوعة من العظم. بعد أن جهّز لي كلّ شيء على الطريقة الكولومبية، وضع جوستو في يدي لجاماً من الجلد الكستنائي اللون، وبعد ذلك، وأمام أنظاري، عدّ لزوريلو تسعاً وثلاثين قطعة نقدية ذهبية، تعادل كلّ واحدة منها مئة بيزو. كان على زوريلو الاحتفاظ بها وتسليمها لي في اليوم الذي أرحل فيه. أراد أن يهبني بندقيته الرشّاشة من طراز مانشستر، ولكنني رفضتُ، وأخبرني زوريلو بدوره أنّه لا يمكنني الدخول إلى كولومبيا وأنا مسلّحٌ، فقدّم جوستو لي سهمين طويلين على شكل إصبع، ملفوفين بين الصوف ومدسوسين في غمدٍ جلدي. أخبرني زوريلو أنّهما سهمان مسمومان بسمٍّ زعافٍ ونادر الوجود. لم يكن زوريلو قد رأى في حياته سهاماً مسمومةً ولا امتلكها، وكان عليه الآن أن يحتفظ بهذين السهمين إلى يوم رحيلي. لم أعرف كيف أعبّر لجوستو عن امتناني الشديد لكلّ هذا العطاء والإحسان حيالي. أخبرني بأنّه قد عرف من خلال زوريلو القليل عن حياتي، وأنّ الجزء الذي لا يعرفه لا بدّ وأن يكون ثريّاً لأنني رجلٌ كامل؛ وكشف لي بأنّ هذه المرّة الأولى في حياته التي يتعرّف فيها على رجلٍ أبيضَ، وبأنّه، فيما مضى، كان يعتبرهم جميعاً أعداء، أمّا الآن فسيحبّهم وسيسعى إلى أن يتعرّف على رجلٍ آخرَ مثلي.

قال جوستو:

- فكّر جيّداً قبل أن ترحل إلى أرضٍ لك فيها الكثير من الأعداء في حين أنّ ليس لك على أرضنا هذه سوى أصدقاء.

أخبرني أنّه هو وزاتو سوف يسهران على راحة لالي وزورايما ويعتنيان بهما، وأنّ طفل زورايما سوف يحظى بمكانة مشرّفة في القبيلة، طبعاً إن كان صبيّاً. وأضاف قائلاً:

- لا أريدك أن ترحل. ابق معنا وسوف أمنحك الفتاة الهندية الجميلة التي عرفتها في الحفلة. إنّها عزباء، وهي تحبّك. يمكنك البقاء هنا معنا. سوف تحصل على كوخٍ كبير وكذلك على الأبقار والثيران التي تريدها.

فارقتُ هذا الرجل الرائع وعدتُ إلى قريتي. وطيلة المسافة التي قطعناها، لم تتفوّه لالي بكلمةٍ واحدة. كانت جالسة خلفي على صهوة الجواد الأصهب. جرح السرج فخذيها من جرّاء الاحتكاك ولكنّها لم تقل شيئاً طيلة الرحلة. كانت زورايما خلف رجل هنديٍّ أركبها على حصانه. أمّا زوريلو، فقد غادر إلى قريته سالكاً طريقاً آخر. في الليل، كان الطقس بارداً بعض الشيء. ناولتُ لالي سترةً من جلد الخروف كان جوستو قد قدّمها لي، فارتدتها دون أن تتفوّه بكلمة، ودون أن تعبّر عن أيّ شيء، ولا أن تبدي أيّ حركة. قبلت أن تأخذ السترة، لا أكثر. عبثاً هرول الحصان بسرعة أكبر بقليل، فلم تتشبّث بخصري لكي تتثبّت على ظهره. حينما وصلنا إلى القرية، ذهبتُ لألقي التحية على زاتو، في حين غادرت هي مع الحصان، وربطته أمام الدار، ووضعت أمامه حزمةً من العشب، من دون أن ترفع عنه السرج أو تنزع عنه الشكيمة. وبعد أن أمضيتُ قرابة ساعةٍ مع زاتو، عدتُ إلى بيتي.

عندما يخيّم الحزن على الهنود، وخاصّة على الهنديات، تراهم عابسين، لا تتحرّك عضلة واحدة في وجوههم، تغرق عيونهم في الحزن ولكنّهم لا يبكون أبداً. قد يئنّون ويتأوّهون ولكنهم لا يبكون أبداً. حينما تحرّكتُ في أرجوحة النوم، أوجعتُ بطن زورايما، وجعلها الألم تطلق صرخةً، فنهضتُ من جنبها خشية أن يتكرّر الأمر وذهبتُ إلى النوم في أرجوحة أخرى. كانت هذه الأرجوحة معلّقة على علوٍ منخفضٍ جدّاً، فاستلقيتُ فيها وأحسستُ أنّ أحدهم يهزّها. تظاهرتُ أنّني نائم. جلست لالي على جذع شجرة مقطوع وراحت تنظر إليّ بلا حراك. بعد برهةٍ، أحسستُ بحضور زورايما التي كانت معتادة على أن تتعطّر من خلال سحق زهور أشجار البرتقال وفركها بجلدها. كانت تشتري تلك الزهور من خلال مقايضتها ببضائعَ أخرى بأكياسٍ صغيرة من امرأةٍ هندية تأتي إلى القريةِ من وقتٍ إلى آخر.

حينما استيقظت، كانتا لا تزالان في مكانهما جامدتين بلا حراك.

أشرقت الشمس، وكانت الساعة تقارب الثامنة. رافقتهما إلى الشاطئ، واستلقيتُ على الرمل الجافّ. جلست لالي وكذلك فعلت زورايما. داعبتُ نهدي زورايما وبطنها، ولكنّها ظلّت جامدة مثل المرمر. مدّدتُ لالي على الرمل وقبّلتُها من فمها، فأطبقت شفتيها. جاء الصيّاد ينتظر لالي. وما كاد أن يرى وجهها، حتى فهم الأمر وانسحب من المكان. كنتُ بالفعل حزيناً ولا أدري ماذا أفعل، سوى أن أداعبهما وأقبّلهما لأُعبّر لهما عن حبّي. لم تخرج كلمة واحدة من فمهما. أقلقني بالفعل حجم الألم الذي شعرتُ به لمجرّد فكرة ما الذي سيحلّ بحياتهما حينما أهجرهما. رضخت لالي لأن أمارس الجنس معها بالإكراه. استسلمت لي بنوعٍ من اليأس. ما الباعث على ذلك؟ لا يمكن أن يكون هناك إلّا باعثٌ واحدٌ، ألا وهو أن تحبل منّي.

رأيتُ هذا الصباح، للمرّة الأولى، علامة غيرة على لالي من زورايما. كنتُ أداعب بطن زورايما ونهديها، وكانت هي تعضّ عضّاً خفيفاً شحمتي أذنيّ. كنا ممدّدين على الشاطئ، في حفرة محفورة في الرمل الناعم، وتحجبنا جيّداً عن أنظار الآخرين. جاءت لالي وأمسكت بذراع أختها ومرّرت يدها على بطنها المنتفخ، ومن ثَمّ على بطنها هي الأملس والمستوي. نهضت زورايما وبدت كما لو أنّها تقول: أنتِ على حقّ. ثمّ تركت مكانها لأختها بالقرب مني.

كانت زوجتاي تعدّان لي الطعام كلّ يوم، ولكنّهما لا تأكلان شيئاً. وقد مرّت ثلاثة أيام عليهما من دون تناول أيّ شيء. أخذتُ الحصان وكدتُ أن أرتكب خطأً جسيماً، وهو الخطأ الأوّل منذ خمسة أشهر: غادرتُ من دون الحصول على الإذن لكي أذهب للقاء الساحر. في الطريق، استدركتُ الأمر، وبدل أن أذهب إليه، رحتُ أجول ذهاباً وإياباً على بعد ما يُقارب مئتي مترٍ من خيمته. حينما رآني أشار لي أن أذهب للقائه. بعد جهدٍ جهيد، استطعتُ أن أُفهمه بأنّ لالي وزورايما لا تتناولان الطعام منذ أيامٍ. أعطاني نوعاً من الجوز وأخبرني أن أضعه في الماء العذب في البيت.

عدتُ إلى البيت ووضعتُ الجوز في الجرّة الفخارية الكبيرة. شربتا مراراً من الجرّة، ولكنّهما لم تأكلا الطعام. لم تعد لالي تذهب إلى الصيد، وقد قامت اليوم، بعد أربعة أيامٍ من الصيام عن الطعام، بعملٍ جنوني، فقد ذهبت من دون مركب، وابتعدت سباحةً ما يقارب مئتي مترٍ عن الشاطئ، وعادت بثلاثين محارة لكي أتناولها. وقد أقلقني يأسهما إلى درجة أنني لم أعد أنا أيضاً أتناول الطعام تقريباً. استمرت هذه الحالة ستة أيام. رقدت لالي مصابةً بالحمّى، فخلال ستة أيامٍ لم تتناول شيئاً سوى القليل من عصارة الليمون. أمّا زورايما، فكانت تتناول الطعام مرّة واحدة في اليوم، في أوقات الظهيرة. احترتُ في أمري ولم أعد أدري ما الذي عليّ فعله. جلستُ إلى جانب لالي، الممدّدة على الأرض في أرجوحة نومٍ كنتُ قد طويتها لكي أجعل منها ما يشبه فراشاً، وكانت تحدّق في سقف الكوخ دون حراك. نظرتُ إليها، ونظرتُ إلى زورايما ببطنها النافر، ولا أدري لماذا بالضبط بدأتُ أبكي. تُرى كنتُ أبكي على حالي، أم عليهما؟ لكم أن تعرفوا ذلك! بكيتُ بحرقة، وسالت دموعي على خديّ. أنّت زورايما التي رأت دموعي، أنيناً، فالتفتت لالي ورأتني غارقاً في دموعي. نهضت فجأةً وجلست بين ساقيّ وهي تئنّ أنيناً خافتاً، وراحت تقبّلني وتداعبني. مرّرت زورايما ذراعها على كتفي، وبدأت لالي تتكلّم، تتكلّم وفي الوقت نفسه تئنُّ أنيناً تردّ زورايما عليها بمثلها. بدت وكأنّها تعاتب لالي. أخذت لالي قطعة من السكر الخام بحجم قبضة يد وجعلتني أراها تُذيبها في الماء وتتجرّعه على دفعتين. ثمّ خرجت مع زورايما، وسمعتهما تجرّان الحصان الذي رأيته مسرجاً تماماً عندما خرجتُ إليهما، وقد وضعتا له الشكيمة وربطتا اللجام بمقبض السرج. ألبستُ زورايما السترة المصنوعة من جلد الخروف، ووضعت لالي على السرج أرجوحةً مطوية. ركبت زورايما أوّلاً إلى الأمام كثيراً بحيث كادت تجلس على رقبة الحصان، فجلستُ في الوسط، في حين أخذت لالي مكانها خلفي. كنتُ مشوّش الذهن للغاية بحيث غادرتُ من دون أن أودّع أحداً ولا أن أُخبِرَ الزعيم.

شدّت لالي اللجام لأنني كنتُ قد سلكتُ الاتجاه المؤدّي إلى خيمة الساحر، ظنّاً منّي بأننا سنذهب إليه. ولكن لا، فقد سحبت لالي اللجام وقالت: «زوريلو». ذهبنا للقاء زوريلو. في الطريق، وهي متشبّثة بحزامي بشدّة، قبّلتني مرّات عديدة من رقبتي. أمّا أنا، فقد أمسكتُ بيدي اليسرى اللجام، وداعبتُ باليمنى حبيبتي زورايما. وصلنا إلى قرية زوريلو في الوقت نفسه الذي عاد هو بنفسه من كولومبيا ومعه ثلاثة حمير وحصان ينوء تحت الحمل الثقيل. دخلنا إلى الدار. تحدّثت لالي أوّلاً ومن ثَمّ زورايما.

وهذا ما شرحه لي زوريلو مترجماً حديثهما: إلى اللحظة التي بكيتُ فيها، كانت لالي تعتقد أنني رجلٌ أبيضُ لا يعير أيّ أهمية لها، وأنّها كانت تعلم بأنّني سوف أرحل، ولكنني كنتُ مخادعاً مثل أفعى، طالما أنني لم أقل لها أبداً ولم أُفهمها ما كنتُ عازماً عليه. وقالت بأنّها كانت في غاية اليأس والإحباط، لأنها كانت تعتقد أنّ امرأةً هندية مثلها تستطيع أن تُسعِدَ رجلاً، وأنّ رجلاً سعيداً لا يرحل عنها، وأنّها كانت تظنّ بأنّه ليس هناك سببٌ لأن تستمرّ في العيش بعد كارثة بهذه الجسامة. قالت زورايما الكلام نفسه، وعلاوة على ذلك، كانت قد خشيت أن يولد ابنها ويكون كوالده: رجلاً بلا وفاء، رجلاً مخادعاً سيطلب من زوجاته القيام بأشياء مختلفة جدّاً، أمّا هما، المستعدات أن يهبن حياتهنّ من أجله، فلن يستطعن فهمه. وسألتني لماذا هربتُ منها كما لو أنّها الكلب الذي عضّني في اليوم الذي وصلتُ فيه إلى قبيلتهم؟ فأجبت:

– ماذا ستفعلين يا لالي لو كان والدك مريضاً؟

– سوف أمشي على الأشواك لكي أذهب وأعتني به.

– ماذا ستفعلين، إذا ما كان قد تمّت مطاردتكِ مثل حيوان، في اليوم الذي سيكون فيه بإمكانكِ الدفاع عن نفسكِ؟

– سوف أبحث عن عدويّ في كلّ مكان لكي أدفنه عميقاً جدّاً بحيث لن يعود بوسعه الخروج من حفرته.

- وبعد أن يتحقّق كلّ هذا، ماذا ستفعلين لو أنّ لديكِ زوجتين رائعتين تنتظرانكِ؟

- سوف أعود على صهوةِ حصان.

- وهذا ما سأفعله، بكلّ تأكيد.

- وماذا لو عدتَ بعد أن أكونَ قد أصبحتُ عجوزاً وقبيحة؟

- سأعود قبل أن تصبحي قبيحة وعجوزاً بكثير.

- نعم لقد ذرفت الدمع، ولا يمكنك قط أن تفعل ذلك عن قصد. كما يمكنك أن ترحل حينما تشاء، ولكن عليك أن ترحل في وضح النهار وأمام الجميع، وليس مثل لصٍّ. عليك أن ترحل كما جئتَ، في الساعة نفسها من بعد الظهيرة، وأنت ترتدي كامل ثيابك. عليك أن تقرّر من عليه أن يسهر علينا ويعتني بنا ليل نهار. زاتو هو الزعيم، ولكن لا بدّ أنّ لديه رجلاً آخر ليهتمّ بأمرنا. عليك أن تُعلن أنّ البيت سيبقى بيتك، وأنّه لا يجوز لأيّ رجلٍ آخر أن يدخل إلى بيتك، سوى ابنك، هذا إن كان منْ في بطن زورايما صبيّاً. ولذا، يجب على زوريلو أن يأتي في اليوم الذي تحدّده للرحيل. حتى يُترجم كل ما سوف تقوله.

نمنا في بيت زوريلو، وكانت ليلة لطيفة وعذبة ومبهجة، وكانت للهمسات والأصوات الصادرة عن شفتي تلك الفتاتين الشقيقتين نغماتُ حبٍّ مؤثّرة للغاية تأثّرتُ بها غاية التأثّر. عدنا نحن الثلاثة على ظهر الحصان وسرنا بهدوء مراعاةً لحمل زورايما. علي أن أرحل بعد ظهور الهلال بثمانية أيام، لأنّ لالي كانت تُريد أن تخبرني إن كان حملها مؤكّداً. ففي الشهر الأخير لم ترَ حيضاً، ولكنها كانت تخشى أن تكون مخطئة، أمّا إذا لم يأتها الحيض في هذا الشهر أيضاً، فهذا يعني أنّ جنيناً قد نما في بطنها. وسيكون على زوريلو أن يجلب كلّ الثياب التي سوف أرتديها: علي أن أرتدي ثيابي هناك، بعد أن ألقي خطاب الوداع على غرار رجال قبيلة غواجيرا، أي عارياً. وسيكون علينا أن نذهب نحن الثلاثة عشية السفر إلى لقاء الساحر، وهو سوف يُخبرنا إن كان ينبغي إغلاق الباب

الخاصّ بي في الدار أم تركه مفتوحاً. هذه العودة البطيئة، بسبب بطن زورايما، لم تكن محزنة في شيء. كانتا تفضّلان معرفة ذلك على أن تبقيا منبوذتين ومضحكتين أمام نساء القرية ورجالها.

حين تلد زورايما طفلها، سوف تذهب مع صيّاد لتستخرج الكثير من المحار الذي سوف تحتفظ به لي. وسوف تصطاد لالي كلّ يوم لساعات أطول ممّا كانت تفعل من ذي قبل حتى تُشغِل وقتها أيضاً. وقد تأسّفتُ لكوني لم أتعلّم التحدّث بلغة غواجيرا ولم أحفظ منها سوى ما يقارب اثنتي عشرة كلمة. لدي الكثير من الأشياء التي ينبغي أن أخبرهما بها، لا يمكن إيصالها عبر المترجم. وصلنا وكان أوّل ما ينبغي فعله هو الذهاب للقاء زاتو لكي أُفهمه بأنّني أعتذر لكوني رحلتُ دون أن أخبره بأيّ شيء. كان زاتو نبيلاً كشقيقه، فقبل أن أشرع في الكلام وضع يده على عنقي وقال لي بلغته: «اسكت». سوف يهلّ القمر الجديد بعد اثني عشر يوماً، ولأنني سأنتظر بعد ذلك ثمانية أيام، سأكون إذاً على طريق الرحيل بعد عشرين يوماً.

بينما كنتُ أعاين الخارطة من جديد، وأعدّل بعض التفاصيل في طريقة المرور بالقرى، استعدتُ في ذهني ما قاله جوستو. أين سأكون أكثر سعادة من سعادتي هنا حيث يحبّني الجميع؟ تُرى ألن أصنع شقائي بنفسي من خلال عودتي إلى الحضارة؟ المستقبل سوف يُجيب على هذا السؤال.

مرّت هذه الأسابيع الثلاثة رائعةً كحلم ساحر. فقد تأكّدت لالي من أنّها حامل، وبالتالي سوف ينتظرني طفلان أو ثلاثة لدى عودتي من رحلتي. لماذا ثلاثة أطفال؟ لقد أخبرتني لالي بأنّ والدتها قد أنجبت توأمين مرّتين. ذهبنا إلى خيمة الساحر لأخذ رأيه، فأخبرنا بأنّه لا ينبغي أن نُغلِق الباب، بل علينا فقط أن نضع غصن شجرة فيه بالعرض. وينبغي للأرجوحة التي ننام فيها نحن الثلاثة أن تبقى معلّقة بسقف الكوخ. وعليهما أن يناما دائماً مع بعضهما لأنّهما ليستا سوى امرأة واحدة. ثم دعانا إلى أن نجلس بالقرب من النار، وألقى فيها أوراقاً خضراء وتركنا

وسط الدخان لأكثر من عشر دقائق. ذهبنا إلى البيت في انتظار زوريلو الذي وصل بالفعل في المساء نفسه. أمضينا كلّ الليل حول نارٍ موقدة أمام كوخي ونحن نتسامر. كنتُ أقول لكلّ هنديٍّ، بوساطة زوريلو، كلاماً لطيفاً، وكان هو أيضاً يردّ ببعض الكلمات. عند طلوع الشمس، انسحبتُ مع لالي وزورايما. مارسنا الحبّ في الكوخ طيلة النهار. ركبت زورايما فوقي لكي تشعر بي أكثر في أعماقها، والتفّت لالي حولي مثل لبلابٍ وأنا ألجها بعمق وأحسستُ أنّ فرجها ينبض مثل قلب.

بعد الظهيرة، حان موعد الرحيل، فقلتُ، وزوريلو يترجم كلماتي:

- زاتو، أيّها الزعيم العظيم لهذه القبيلة التي استقبلتني ومنحتني كلّ شيء، جئتُ أطلب منكم أن تأذنوا لي بمغادرتكم لأشهرٍ عديدة.

- لماذا تريد أن تغادر أصدقاءك؟

- لأنّه يجب أن أذهب وأعاقب أولئك الذين طاردوني كما لو أنّهم يطاردون حيواناً. بفضلكَ، استطعتُ أن أجد الملاذ في قريتك، واستطعتُ أن أحظى بالسعادة فيها، وأن أتناول أطيب الأطعمة وأن أحظى بأصدقاء نبلاء، وبزوجتين أشاعتا الدفء في قلبي وشرحتا صدري. ولكن لا ينبغي لهذا أن يحوّل رجلاً مثلي إلى بهيمة ما إنْ لجأتْ إلى ملاذٍ دافئٍ وآمن، مَكَثَتْ فيه طيلة حياتها خشيةً من مشقّة الكفاح. سوف أواجه أعدائي، وسأذهب إلى أبي الذي يحتاجني. أترك هنا روحي، في أحشاء زوجتيّ لالي وزورايما، الأطفال الذين هم ثمرة اقتراننا. كوخي هو ملكٌ لهما وللأطفال الذين سيولدون. أتمنى عليك، يا زاتو، إذا ما نسي أحد ذلك، أن تذكّرَه به. كما أطلب علاوة على رعايتك الشخصية أن يحمي شخصٌ يُدعى أوسلي عائلتي ليلاً ونهاراً.

لقد أحببتكم جميعاً وسوف أبقى أحبّكم دائماً. سوف أبذل كلّ ما بوسعي لكي أعود بأسرع ما يمكن. وإذا ما متُّ وأنا أؤدّي واجبي، سوف أفكّر بكم، سوف أفكّر بلالي وزورايما وأطفالي، وبكم أنتم يا هنود غواجيرا، يا من كنتم عائلتي.

عدتُ إلى كوخي متبوعاً بزوجتي لالي وزورايما. ارتديتُ قميصاً وسروالاً كاكياً وزوجاً من الجوارب، وانتعلتُ حذاءً عالي الساق قليلاً.

أدرتُ رأسي مطولاً وجلتُ بناظريّ لكي أرى كلّ بقعةٍ من هذه القرية المثالية والرائعة التي أمضيتُ فيها ستة أشهر. قبيلة غواجيرا هذه التي تهابها القبائل الأخرى كثيراً مثلما يهابها السكان البيض، كانت بالنسبة لي متنفّساً مريحاً وملاذاً لا مثيل له من شرور البشر. لقد لاقيتُ فيها الحبّ والسلام والهدوء والنُبل. وداعاً يا أبناء قبيلة غواجيرا، أيّها الهنود المستوحشون في شبه الجزيرة الكولومبية-الفنزويلية. كونوا سعداء بكون أرضكم الواسعة جدّاً متحرّرة من أيّ تدخّلٍ من الحضارتين اللتين تحيطان بكم. إنّ طريقتكم البدائية في العيش وفي الدفاع عن أنفسكم علّمتني شيئاً مهمّاً للغاية من أجل المستقبل، ألا وهو أن تكون هندياً بدائياً أفضل من أن تكون مجازاً في آداب القضاء.

وداعاً لالي وزورايما، وداعاً للزوجتين اللتين لا مثيل لهما، في ردود فعلهما الطبيعية والعفوية، دون حسابات، واللتين أعدّتا لي في لحظة رحيلي، وبحركة بسيطة، كيساً صغيراً وضعتا فيه كلّ اللآلئ الموجودة في الكوخ. سوف أعود، أنا متأكّدٌ من ذلك، أنا على يقين. ولكن متى؟ وكيف؟ لا أدري، ولكنني عاهدتُ نفسي على أن أعود.

نحو نهاية ما بعد الظهيرة، امتطى زوريلو الحصان، وانطلقنا نحو كولومبيا. كنتُ أعتمر قبّعة من القش وأسير ممسكاً بعنان الحصان. أخفى جميع هنود القبيلة، دون استثناء، وجوههم بيدهم اليسرى ومدّوا لي اليمنى. كانوا يقصدون بهذه الحركة أن يُظهروا لي بأنّهم لا يريدون أن يروني أرحل، وأنّ رحيلي يؤلمهم جدّاً ويمدّون أذرعهم وأيديهم في الهواء علامة على أنّهم يرغبون في أن يمسكوا بي لاستبقائي معهم. رافقتني لالي وزورايما لقرابة مئة مترٍ. كنتُ أعتقد أنّهما تهمّان بتقبيلي حينما انطلقتا فجأةً، وهما تنتحبان، نحو بيتنا جرياً دون أن تلتفتا إلى الوراء.

الدفتر الخامس
العودة إلى الحضارة

سجن سانتا مارتا

لم يكن الخروج من أرض غواجيرا الهندية صعباً، وتجاوزنا دون مشكلات مراكز لافيلا الحدودية. على صهوة الحصان، استطعنا أن نقطع في غضون يومين المسافة التي استغرقت منّي الكثير من الوقت لكي أقطعها مع أنطونيو. ولكن لم تكن وحدها هذه المراكز الحدودية خطيرة للغاية، بل كانت هناك أيضاً منطقة تمتدّ لحوالي أكثر من مئة وعشرين كيلومتراً حتى ريوهاتشا، القرية التي كنتُ قد هربتُ منها.

قمتُ، برفقة زوريلو، بتجربتي الأولى في المحادثة مع مدنيّ كولومبي حينما توقّفنا في ما يشبه استراحةً على الطريق تبيع طعاماً وشراباً. تدبّرتُ أمري بطريقة لا بأس بها، وكما أخبرني زوريلو من قَبْلُ، ساعد الإكثار من التأتأة في التغطية على اللَّهجة وأسلوب الكلام.

استأنفنا سيرنا منطلقين نحو سانتا مارتا. كان على زوريلو أن يفارقني في منتصف الطريق لأكمل وحدي، بينما سيعود هو أدراجه هذا الصباح.

فارقني زوريلو وقد اتّفقنا أن يأخذ الحصان معه، لأنّ امتلاك حصانٍ يُعدُّ في الحقيقة بمثابة امتلاك منزلٍ في قرية معيّنة وبالتالي هناك خطر أن تضطرّ للإجابة على أسئلة محرجة من قبيل: هل تعرف فلان من الناس؟ ما اسم المختار؟ ماذا تفعل السيّدة الفلانية؟ منْ يُدير «فوندا»؟

ولذلك من الأفضل أن أواصل طريقي سيراً على القدمين، ومن ثَمّ أسافر بشاحنةٍ أو حافلة، وحينما أصل إلى سانتا مارتا، أستقلّ القطار. يجب أن أكون بالنسبة للجميع (غريباً) في هذه المنطقة، يعمل في أيّ مكانٍ كان، ويفعل أيّ شيءٍ كان.

كان زوريلو قد صرف لي ثلاث قطع ذهبية وبدّلها بالبيزو، فأعطاني ألف بيزو. ويكسب العامل النشيط في هذه المنطقة بين ثمانية وعشرة بيزو في اليوم، وبالتالي لديّ ما يكفيني من المال لمعيشتي هنا لوقتٍ طويل دون أن أحتاج إلى شيء. صعدتُ إلى شاحنة كانت تذهب إلى مكانٍ قريبٍ جدّاً من سانتا مارتا، وهو ميناءٌ مهمٌّ جدّاً يقع على بعد قرابة مئة وعشرين كيلومتراً من المكان الذي تركني فيه زوريلو. كانت هذه الشاحنة تذهب لنقل الماعز أو التيوس.

في الطريق كنّا نصادف كلّ ستة أو عشرة كيلومترات حانة، فيدعوني السائق إليها، ولكنني كنتُ أدفع الحساب بنفسي. وفي كلّ مرّة، يشرب خمسة أو ستة أقداح من مشروبٍ كحولي حارق كالنار. أما أنا، فكنتُ أتظاهر بأنني أشرب قدحاً منه. وحينما اجتزنا مسافة تقارب خمسين كيلومتراً، أصبح ثملاً تماماً. لقد ثمل كثيراً بحيث أخطأ الطريق ودخل في طريقٍ ترابيٍّ موحلٍ علقت فيه الشاحنة ولم يعد بمقدورنا الخروج منه. لم يقلق هذا الأمر السائق الكولومبي، فنام في الصندوق الخلفي للشاحنة، وطلب مني أن أذهب لأنام في قمرة القيادة. احترتُ في أمري، إذا كان لا يزال أمامي ما يقارب 40 كيلومتراً لكي أصل إلى سانتا مارتا، فإنّ كوني معه يمنع المارّين في الطريق من طرح الأسئلة عليّ، ورغم توقّفه لمرّات عديدة على الطريق، فسوف أصل إلى مقصدي أسرع ممّا لو ذهبتُ سيراً على الأقدام.

وبالتالي، مع اقتراب الصباح، قرّرتُ أن أنام. أشرقت الشمس وبلغت الساعة نحو السابعة. رأينا عربة صغيرة يجرّها حصانان تصل إلى مكاننا، ولكن الشاحنة العالقة في الأوحال حالت دون مرورها. جاؤوا لإيقاظي

ظنّاً منهم أنني سائق الشاحنة لأنني كنتُ نائماً في قمرة القيادة. فبدأتُ أتأتئ وأنا أتظاهر بأنني الرجل النائم الذي استفاق فجأة ولا يزال مشوّش الذهن ولا يدري ما يجري حوله.

استيقظ سائق الشاحنة وتناقش مع الحوذي. بعد محاولات عديدة، لم ننجح في انتشال الشاحنة من الأوحال التي كانت قد بلغت محاور العجلات، ولم يكن بوسعنا فعل أيّ شيء. كانت في العربة راهبتان ترتديان ثياباً سوداء مع خمارهما وثلاث فتيات صغيرات. بعد مناقشات مطوّلة، اتّفق الرجلان على أن يقوما بتجريف فسحةً من الدَّغَل على جانب الطريق لكي تسير العربة وإحدى عجلاتها على الطريق والعجلة الأخرى على الأرض التي تمّ تجريف النباتات منها لكي تقطع تلك المسافة التي تقارب عشرين متراً.

أخرج كلٌّ من الرجلين سكيناً كبيراً يُستخدم لحصاد قصب السكّر، وهي أداة يحملها كلّ من يسير في طرقات تلك المنطقة، وبدأ يقطع كلّ ما قد يُعيق سير العربة، بينما كنتُ أرتّب ما يقطعانه في الطريق بغية تسويته وكذلك لحماية العربة التي كانت معرّضة لأن تنغرز في الأوحال. بعد قرابة ساعتين، عبرت العربة الطريق، وعندها فقط شكرتني الراهبتان وسألتاني عن وجهتي، فأجبتُ باقتضاب: «سانتا مارتا».

- ولكنّك لا تسير في الطريق الصحيح، عليك أن تعود إلى الوراء معنا. سوف نرافقك إلى مكانٍ قريبٍ جدّاً من سانتا مارتا، لا يبعد عنها سوى ثمانية كيلومترات.

كان من المستحيل بالنسبة لي أن أرفض، فالأمر سيبدو غير طبيعي. ومن جهة أخرى، كان بودّي أن أقول بأنني سأبقى مع سائق الشاحنة لمساعدته، ولكن أمام صعوبة القدرة على التحدّث طويلاً بلغتهنّ، آثرتُ أن أقول باللغة الإسبانية: «شكراً، شكراً».

وها أنا الآن جالسٌ في الصندوق الخلفي للعربة مع الفتيات الصغيرات الثلاث، بينما تجلس الراهبتان الطيّبتان في المقعد الأمامي بجانب الحوذي.

انطلقنا، وبالفعل سرنا بما فيه الكفاية لنقطع المسافة البالغة خمسة أو ستة كيلومترات التي كنّا قد سرنا فيها خطأً بالشاحنة. ما إنْ أصبحنا في الطريق الصحيح، سرنا سيراً حثيثاً بشكلٍ متواصل، ومع اقتراب منتصف النهار، وصلنا إلى استراحة فتوقّفنا فيها لتناول الطعام. جلست الفتيات الصغيرات الثلاث إلى طاولة مع الحوذي، بينما جلسنا، الراهبتان وأنا، إلى طاولة مجاورة. الراهبتان شابّتان يتراوح عمرهما بين الخامسة والعشرين والثلاثين، وبشرتهما في غاية البياض، إحداهما إسبانية والأخرى إيرلندية. سألت الراهبة الإيرلندية بلطف:

- أنت لست من هنا، أليس كذلك؟

- أجل. أنا من بارانكيا.

- لا، أنت لست كولومبياً، فشعرك أشقر، وبشرتك سمراء لأنّها ملسوعة بالشمس. من أين أنت قادم؟

- من ريوهاتشا.

- ماذا كنتَ تفعل هناك؟

- كنتُ أعمل في مجال الكهرباء.

- آه! لديّ صديقٌ في شركة الكهرباء، يُدعى بيريز، إنّه إسباني. هل تعرفه؟

- نعم.

- هذا يُسعدني.

عند الانتهاء من تناول الوجبة، نهضتا لتذهبا وتغسلا أيديهما، وعادت الراهبة الإيرلندية بمفردها. نظرت إليّ، ومن ثَمّ قالت لي باللغة الفرنسية:

- لن أخونك، لكنّ رفيقتي تقول بأنّها قد رأت صورتك في صحيفة. أنت السجين الذي هرب من سجن ريوهاتشا، أليس كذلك؟

كان الإنكار سيكون أكثر خطورةً عليّ، فأجبت:

- نعم، يا أختاه. وأتوسّل إليكِ لا تشيا بي. فأنا لستُ الصبي الشرير الذي رسموا صورته، بل أحبّ اللّه وأحترمه.

جاءت الراهبة الإسبانية وأخبرتها الأخرى: «نعم». ردّت عليها بكلمات سريعة جدّاً لم أفهمها. بدتا مطرقتين في التفكير، ثمّ نهضتا وذهبتا إلى المغاسل من جديد. وخلال الدقائق الخمس التي غابتا فيها، تصرّفتُ بسرعة. تُرى هل علي أن أغادر قبل أن تعودا، تُرى هل عليّ أن أبقى هنا؟ سيكون الأمران سيّان إذا ما فكّرتا في التبليغ عنّي، لأنني إذا ما انصرفت، سوف يتمّ العثور عليّ بمنتهى السرعة. لا يوجد في هذه المنطقة دغلٌ كثيفٌ جدّاً، ولا شكّ أنّ المنافذ إلى الطرقات المؤدّية إلى المدن سوف تُوضع تحت المراقبة سريعاً جدّاً. فقرّرتُ أن أستسلم للقدر الذي لم يكن حتى الآن قاسياً.

عادتا وهما تبتسمان ابتسامة عريضة. سألتني الراهبة الإيرلندية عن اسمي، فأجبتها:

- انريك.

- حسناً يا انريك، ستأتي معنا إلى الدير الذي نذهب إليه والذي يبعد عن سانتا مارتا ثمانية كيلومترات. وأنت معنا في العربة، لا تخشَ أيّ شيء في الطريق. لا تتكلّم وسوف يعتقد الجميع أنّك عاملٌ في الدير.

دفعت الراهبتان فاتورة طعامنا جميعاً. اشتريتُ اثنتي عشرة علبة سجائر وولّاعة ذات فتيلة. ثمّ غادرنا الاستراحة. طوال الطريق، لم تعد الراهبتان توجّهان لي أيّ كلام، وكنتُ ممتنّاً لهما على ذلك، لأنّ الحوذي لن ينتبه في هذه الحالة بأنني لا أجيد التحدّث بالإسبانية. في نهاية فترة ما بعد الظهيرة، توقّفنا في استراحة كبيرة. صادفنا فيها حافلة كُتِبَ عليها: «ريوهاتشا - سانتا مارتا». استبدت بي الرغبة في أن أستقلّها. اقتربتُ من الراهبة الإيرلندية وأخبرتها بنيتي في أن أستقلّ هذه الحافلة.

قالت:

- إنّه لخطرٌ شديد، فقبل الوصول إلى سانتا مارتا، هناك على الأقلّ مركزان للشرطة يطلبون من الركّاب بطاقاتهم الشخصية، الأمر الذي لا يحدث مع ركّاب العربة.

شكرتُها بحرارة وحينها زال تماماً القلق الذي انتابني منذ أن اكتشفتا هويتي الحقيقية. وعلى العكس تماماً، كانت فرصة لا مثيل لها أن ألتقي بهاتين الراهبتين الطيّبتين. وبالفعل، عند حلول الليل، وصلنا إلى مركزٍ للشرطة. وكانت حافلة قادمة من سانتا مارتا ومتّجهة إلى ريوهاتشا تُفتّش من جانب رجال الشرطة. كنتُ مستلقياً على ظهري في العربة، أُغطّي وجهي بقبّعتي المصنوعة من القشّ، متظاهراً بالنوم. وكانت واحدة من الفتيات الصغيرات البالغات الثامنة من عمرها تقريباً تسند رأسها على كتفي ونائمة بالفعل. حينما مرّت العربة، أوقف الحوذي عربته بين الحافلة ومركز الشرطة تماماً. جرى حديثٌ باللغة الإسبانية بين الراهبة الإسبانية وأحد رجال الشرطة:

– كيف حالكم هنا؟

– ممتاز يا أختاه.

– يسرّني ذلك، هيا بنا يا أولادي.

وغادرنا بهدوء وأمان.

في الساعة العاشرة مساءً، صادفنا مركزاً آخر للشرطة، وكان مضاءً بأنوارٍ ساطعة، يقف أمامه رتلان من السيارات من مختلف المستويات والفئات. كان أحد الرتلين يسير على الجانب الأيمن، في حين يتقدّم رتلنا من الجانب الأيسر. تُفتَح صناديق السيارات، فيقوم رجال الشرطة بتفتيشها. رأيتُ سيّدة أرغموها على النزول وراحوا ينبشون في حقيبة يدها. ثم اقتادوها إلى داخل مركز الشرطة.

ربّما لم تكن تحمل بطاقتها الشخصية. في هذه الحالة، ليس هناك ما يمكن فعله. مرّت المركبات واحدة تلو الأخرى. ولأنّه كان هناك رتلان، لم نتمكّن من الحصول على ممرّ خدمة خاصّ. ولانعدام المساحة الكافية للمرور، كان علينا الاستسلام للانتظار. ألفيتُ نفسي ضائعاً. تقف حافلة صغيرة جدّاً أمامنا وهي مكتظّة بالركّاب، وعلى سقفها حقائب وطرود ضخمة من الأمتعة. وخلفها أيضاً نوعٌ من الشبك المعدني مليءٌ بالطرود.

أنزل أربعة شرطيين الركاب من الحافلة التي لم يكن لها سوى باب واحد في المقدّمة، فنزل منه الرجال والنساء. نساءٌ يحملن أطفالهنّ على أذرعهنّ. ثم عادوا وصعدوا إلى الحافلة فرداً فرداً.

يناديُ شرطيّ باللغة الإسبانية:

- البطاقة الشخصية! البطاقة الشخصية!

فيُخرِج الجميع بطاقة كرتونية عليها صورته الشخصية ويُريها للشرطي.

لم يحدّثني زوريلو قطّ عن هذا الأمر. لو أنني كنتُ أعرف، لحصلتُ ربّما على بطاقة شخصية مزوّرة. فكّرتُ في نفسي إذا ما تجاوزتُ هذا المركز، سوف أدفع أيّ مبلغٍ كان لكي أحصل على «بطاقة شخصية» قبل السفر إلى بارانكيا، المدينةُ المهمّة جدّاً على الساحل الأطلسي، والتي تضمّ مئتين وخمسين ألف نسمة، حسبما يرد في القاموس.

يا إلهي، ما أطول إجراءات تفتيش هذه الحافلة. التفتت الراهبة الإيرلندية نحوي وقالت: «كن هادئاً، يا انريك». امتعضتُ منها مباشرةً لهذه الجملة الطائشة، فالحوذيّ سمعها بكلّ تأكيد.

حان دورنا، فتقدّمت العربة وسط هذا الضوء المبهر. قرّرت أن أجلس، فقد بدا لي لو أنني بقيتُ مستلقياً، سأوحي لهم بأنني أختبئ منهم. أسندتُ ظهري إلى الألواح الخشبية للعربة وأدرتُ نظري نحو ظهر الراهبتين. لم يكن بوسعهم أن يروا سوى وجهي وكنتُ قد أنزلتُ القبّعة الكبيرة نحو وجهي ولكن من دون مبالغة.

ردّدت الراهبة الإسبانية الجملة نفسها التي خاطبت بها رجال الشرطة في المركز الأوّل، باللغة الإسبانية:

- كيف حالكم جميعاً هنا؟

- ممتاز يا أختانا. لماذا تسافران في هذا الوقت المتأخّر؟

- لحالة طارئة، أتمنى ألّا تؤخّرونا أكثر، فنحن في عجلةٍ من أمرنا.

- هيّا، كان اللّه معكما. يا أختانا.

- شكراً يا أولادي. حفظكم اللّه.

ردّ رجال الشرطة:

- آمين.

ومررنا بهدوء دون أن يطلب منّا أحدٌ أيّ شيء. لا بدّ أنّ انفعالات وتوتّرات الدقائق الماضية قد آلمت بطني الراهبتين، لأنّهما ما إنْ ابتعدنا لمسافة مئة مترٍ عن المركز، حتى أوقفتا العربة ونزلتا وتوارتا عن الأنظار بين الدَّغَل لبرهةٍ. استأنفنا سيرنا، وبدأتُ أدخّن. وقد كنتُ متأثّراً للغاية إلى درجة أنّه حينما صعدت الراهبة الإيرلندية إلى العربة، قلتُ لها: «شكراً، يا أختاه».

قالت لي: «لا شيء يستحقّ الشكر، ولكنّ الخوف الذي استبدّ بنا سبّب اضطراباً في بطننا».

وصلنا بحلول منتصف الليل إلى الدير ذي الجدران العالية والباب الواسع. ذهب الحوذي لإيواء الجوادين وتأمين العربة، فيما أُدخِلَت الفتيات الصغيرات الثلاث إلى الدير. على سلالم عتبة الباحة، جرى حديثٌ وديّ للغاية بين الراهبة البوّابة والراهبتين. أخبرتني الراهبة الإيرلندية بأنّها لا ترغب في إيقاظ رئيسة الدير لتطلب منها الإذن بأن تنام في الدير. هنا لم أتّخذ القرار الصائب وارتكبتُ الخطأ القاتل. كان عليّ أن أستغلّ هذا الحادث سريعاً لكي أنسحب وأغادر نحو سانتا مارتا، طالما كنتُ أعلم أنّها لا تبعد سوى ثمانية كيلومترات.

وقد كلّفني هذا الخطأ لاحقاً سبع سنوات من السجن.

أخيراً، بعد أن استيقظت رئيسة الدير، قدّمت لي غرفة في الطابق الثاني. رأيتُ أضواء المدينة من خلال النافذة، ورأيتُ ضوء المنارة وشاهدتُ سفينة ضخمة تغادر الميناء.

نمتُ، وكانت الشمس قد أشرقت، حينما طُرِق بابي. حلمتُ حلماً فظيعاً. رأيتُ أنّ بطن لالي يُفتَح أمامي ويُخرج طفلنا من بطنها إرباً إرباً.

حلقتُ ذقني وأسرعتُ في تسريح شعري ثمّ نزلتُ إلى الأسفل، وكانت الراهبة الإيرلندية تقف أسفل الدرج واستقبلتني بابتسامةٍ خفيفة، وقالت:

- صباح الخير يا هنري، هل نمت جيّداً؟

- نعم يا أختاه.

- أرجوك أن تأتي إلى مكتب أمّنا التي ترغب في لقائك.

دخلنا إلى المكتب، فرأيتُ سيّدة تجلس خلف طاولة. كان وجهها صارماً للغاية لامرأة في الخمسين من عمرها أو ربّما أكثر، نظرت إليّ بعينين سوداوين غير ودّيتين.

سألتني بالإسبانية:

- هل تجيد التحدّث بالإسبانية، يا سيّد؟

- قليلاً جدّاً.

- حسناً، ستقوم الأخت بالترجمة بيننا.

ثمّ أكملت:

- لقد قيل لي أنّك فرنسي.

- نعم يا أماه.

- هل أنت هاربٌ من سجن ريوهاتشا؟

- نعم يا أمّاه.

- منذ متى؟

- منذ سبعة أشهر تقريباً.

- وماذا فعلت خلال هذه الفترة؟

- كنتُ مع الهنود.

- ماذا؟ أنت كنت مع هنود غواجيرا؟ هذا مستحيل. لم يسبق لهؤلاء الوحوش أن قبلوا أحداً على أرضهم. تخيّل أنّ مبشّراً واحداً لم يستطع الدخول إلى أراضيهم. لا أقبل بهذه الإجابة. أين كنت؟ أخبرني الحقيقة.

- يا أمّاه، كنتُ عند الهنود ولديّ دليلٌ يُثبتُ ما أقول.

- وما هو؟

- لآلئ قاموا هم باصطيادها.

فككتُ كيسي الذي كان معلّقاً بدبوسٍ في وسط ظهر سترتي وسلّمته لها. فتحته وأخرجت منه حفنةً من اللآلئ.

- كم لؤلؤة في الكيس؟

- لا أعلم بدقّة. ربّما خمسمئة أو ستمئة؟ تقريباً.

- هذا ليس دليلاً. يمكنك أن تسرق هذه اللآلئ من مكانٍ آخر.

- أمّاه، حتى يرتاح ضميركِ، إذا أردتِ، سوف أبقى هنا للوقت اللازم لكي تتحقّقي إن حدثت سرقة للآلئ. لديّ نقود ويمكنني أن أدفع نفقات إقامتي هنا. وأعدكِ بأنني لن أبارح غرفتي إلى اليوم الذي تقرّرين فيه السماح لي بذلك.

حدّقت فيّ بتركيزٍ شديد. وسرعان ما فكرتُ في نفسي بأنّها لا بدّ أنّها تقول في نفسها: «وماذا لو هربت؟ لقد هربتَ من السجن، والهروب من هنا أسهل».

قلتُ لها:

- سوف أترك لديكِ كيس اللآلئ التي تشكّل كلّ ثروتي، فأنا أعرف أنّها في أيدٍ أمينة.

- حسناً، اتّفقنا. ولكن لستَ مضطرّاً لأن تبقى حبيساً في غرفتك. يمكنك في الصباح وما بعد الظهيرة أن تنزل إلى الحديقة، حينما تكون بناتي في الكنيسة. وسوف تتناول الطعام في المطبخ مع العاملين فيه.

خرجتُ من هذه المقابلة غير مطمئنٍ تماماً. في اللحظة التي كنتُ سأهمُّ فيها بالصعود إلى غرفتي، قادتني الراهبة الإيرلندية إلى المطبخ. قُدّم لي هناك كوبٌ كبير من القهوة بالحليب وخبزٌ أسود طازج جدّاً وزبدةٌ. حضرت الأخت تناولي لفطوري دون أن تتفوّه بكلمة واحدة، ودون أن تجلس، بل ظلّت واقفة أمامي. بدت، هي الأخرى، قلقة، فقلتُ لها: «شكراً يا أختاه على كلّ ما فعلتِه من أجلي».

- أودّ أن أفعل المزيد، ولكن لم يعد بوسعي فعل أيّ شيء يا صديقي هنري.

وبعد هذه الكلمات خرجت من المطبخ.

جلستُ أمام النافذة، وتأمّلتُ في المدينة والميناء والبحر. كانت حقول الأرياف المحيطة بها مزروعة بشكلٍ جيّد. لم أستطع التخلّص من الإحساس بأنني في خطر، إلى درجة أنني قرّرت أن أفرّ من الدير في ليلة اليوم التالي. بئس اللآلئ، فلتحتفظ بها كبيرة الراهبات لديرها أو لنفسها! لا توحي لي بالثقة وعليّ ألّا أخدع نفسي، إذ كيف لا تجيد راهبة كتالونية ورئيسة دير التحدّث باللغة الفرنسية، أي أنّها ليست مثقّفة، وهذه حالة نادرة. خلاصة القول: سوف أغادر هذا المساء.

نعم، سوف أنزل بعد ظهيرة اليوم إلى الباحة لكي أعاين المكان الذي يمكنني منه أن أجتاز الجدار. حوالي الساعة الواحدة، دُقّ بابي وقيل لي:

- تفضّل بالنزول لتناول الطعام يا هنري.

- حسناً، أنا قادم، شكراً.

حينما جلستُ إلى المائدة، كنتُ قد بدأتُ للتوّ بسكب بعض اللحم والبطاطس المسلوقة في صحني عندما فُتِح الباب ودخل أربعة رجال شرطة، مسلّحين بالبنادق، يرتدون الزي الرسمي الأبيض برفقة ضابطٍ يحمل مسدّساً في يده.

خاطبني الضابط باللغة الإسبانية، مهدّداً:

- لا تتحرّك وإلّا قتلتك!

وضع القيد في يدي. أطلقت الراهبة الإيرلندية صيحة مدويّة وأُغمي عليها. حملتها راهبتان من المطبخ.

قال قائد الشرطة بالإسبانية:

- هيّا بنا.

صعد معي إلى غرفتي، وقاموا بتفتيش حقيبتي وعثروا على الست

والثلاثين قطعة ذهبية التي تعادل كلّ قطعة منها مئة بيزو والتي كانت لا تزال بحوزتي، ولكنّهم لم يفتّشوا القراب الذي يحتوي على السهمين. لا بدّ أنّهم قد ظنّوا أنّها عبارة عن أقلام رصاص. وضع قائد الشرطة القطع الذهبية في جيبه بفرحٍ ظاهر. غادرنا الغرفة وكانت سيارة تنتظرنا في الباحة.

تكدّسنا، رجال الشرطة الخمسة وأنا، في تلك السيارة القديمة التي انطلقت بنا مسرعةً يقودها سائقٌ أسود مثل الفحم، يرتدي زيّ الشرطة. كنتُ منهاراً ومحطّماً ولم أعترض؛ وحاولتُ أن أحافظ على كرامتي، فلم أطلب الرحمة أو المغفرة. كن رجلاً وفكّر بأنّك لا يجب أن تفقد الأمل أبداً. مرّت هذه الأفكار كلّها سريعاً في ذهني. وحينما نزلتُ من السيارة، كنتُ عاقداً العزم على أن أكون رجلاً وليس في حالة مزرية. وقد نجحتُ في ذلك بحيث كان الحديث الأوّل للضابط الذي أمعن النظر في ليقول: «هذا الفرنسي مختالٌ فخور بنفسه كثيراً، يبدو أنّه غير متأثّر كثيراً بكونه في قبضتنا». دخلتُ إلى مكتبه ونزعتُ قبّعتي، وجلستُ دون أن يُقال لي ذلك، واضعاً حقيبتي بين قدميّ.

سألني باللغة الإسبانية:

– هل تجيد التحدّث باللغة الإسبانية؟

– كلا.

– استدعِ الإسكافي.

وبعد لحظات جاء رجلٌ قصير القامة يحمل في يده مطرقة الإسكافي؟

– هل أنت الفرنسي الذي فرّ من سجن ريوهاتشا قبل عامٍ؟

– كلا.

– أنت تكذب.

– أنا لا أكذب. لستُ الفرنسي الذي فرّ من سجن ريوهاتشا قبل عامٍ.

– فكّوا القيد عن يديه. انزع سترتك وقميصك.

(أمسك بورقة وراح ينظر فيها. دوّن كلّ الوشوم المرسومة على جسمي).

- ينقصك إبهام اليد اليسرى. نعم. إذاً أنت هو.

- كلا، لستُ أنا هو، لأنني لم أفرّ من السجن منذ عام، بل منذ سبعة أشهر.

- الأمران سيّان.

- بالنسبة لك، نعم الأمران سيّان، ولكن ليس بالنسبة لي.

- إني أرى أنّك قاتلٌ نموذجي. إن كنت فرنسياً أو كولومبياً، لا يهم فكلّ القتلة يتشابهون، إنّهم متوحّشون. لستُ سوى الآمر الثاني لهذا السجن. لا أدري ما الذي سنفعله بك. في الوقت الراهن سأودعك مع رفاقك القدامى.

- أيّ رفاق؟

- الفرنسيون الذين جلبتهم معك إلى كولومبيا.

تبعتُ رجال الشرطة الذين قادوني إلى زنزانة تطلّ شِباكها المعدنية على الباحة. وجدتُ فيها أصدقائي الخمسة. تعانقنا، وقال لي كلوزيو: «لقد اعتقدنا أنّك نجوت إلى الأبد يا صاحبي». أمّا ماتوريت فقد بكى مثل طفلٍ. واعتصر الأسى قلوب الثلاثة الآخرين أيضاً. منحني اللقاء بهم القوّة. قالوا لي:

- اروِ لنا ما حدث معك.

- فيما بعد. وماذا عنكم؟

- نحن هنا منذ ثلاثة أشهر.

- هل تُعاملون معاملة حسنة؟

- لا معاملة حسنة ولا سيئة. ننتظر أن يتمّ نقلنا إلى بارانكيا حيث، على ما يبدو، سيسلّمونا إلى السلطات الفرنسية.

- يا لها من عصابات قذرة! وماذا عن الهروب؟

- أصبحت تفكّر في الفرار وأنت بالكاد قد وصلت!

- ولم لا! وهل تظنني سأترك اللعبة هكذا بسهولة؟ هل أنتم تحت الرقابة المشدّدة هنا؟

- في النهار، لا تكون الرقابة مشدّدة، ولكن في الليل، هناك حراسة خاصّة بنا.

- من كم حارس؟

- ثلاثة مراقبين.

- وماذا عن ساقك؟

- بخير، حتى أنني لم أعد أعرج.

- هل تبقون في السجن باستمرار؟

- لا، نتفسّح في الباحة تحت الشمس، لمدّة ساعتين في الصباح وثلاث ساعات في فترة ما بعد الظهيرة.

- وماذا عن السجناء الآخرين الكولومبيين؟

- بينهم رجال بمنتهى الخطورة. إنّهم لصوص أكثر منهم قتلة.

في فترة ما بعد الظهيرة، كنتُ في باحة السجن، وأتحدّث على انفرادٍ مع كلوزيو، حينما تمّ استدعائي. تبعتُ الشرطي ودخلتُ إلى المكتب نفسه الذي دخلتُ إليه في الصباح. وجدتُ فيه آمر السجن بصحبة الضابط الذي استجوبني. ورأيتُ رجلاً داكن البشرة جدّاً، يكاد يكون زنجياً، يجلس في كرسي الشرف.

حسب لون بشرته، كان يميل إلى أن يكون زنجياً أكثر منه هندياً. شعره القصير والمجعّد شعر رجلٍ زنجي. عمره يناهز الخمسين سنة. له عينان سوداوان وشريرتان، وشاربان قصيران جدّاً يعلوان شفة غليظة لفمٍ سريع الغضب. قميصه مفتوح من الأعلى وبلا ربطة عنق. على كتفه الأيسر الشارة الخضراء والبيضاء ببعض الزخرفة. كان الإسكافيُّ أيضاً حاضراً.

- أيّها الفرنسي لقد أُلقي القبض عليك بعد سبعة أشهرٍ من فرارك. ماذا فعلتَ خلال هذه المدّة؟

- كنتُ عند هنود غواجيرا.

- لا تسخر منّي وإلّا سأُربيك.

- قلتُ الحقيقة.

- لم يعش أحدٌ قطّ عند الهنود. في هذه السنة وحدها، قُتِلَ أكثر من خمسة وعشرين فرداً من خفر السواحل على أيديهم.

- لا، لقد قُتِلَ خفر السواحل من جانب المهرّبين.

- كيف تعرف ذلك؟

- لقد عشتُ سبعة أشهرٍ بينهم هناك. لا يخرج هنود غواجيرا أبداً من أرضهم.

- حسناً، ربّما يكون هذا صحيحاً. من أين سرقت الست والثلاثين قطعة نقدية من فئة مئة بيزو؟

- إنّها نقودي. لقد منحني إياها زعيمٌ قبلي يُدعى جوستو.

- كيف استطاع رجلٌ هندي أن يحصل على هذه الثروة، ويمنحك إياها؟

- حسناً أيّها الآمر، هل هناك سرقة لقطعٍ نقدية ذهبية من فئة مئة بيزو؟

- لا، هذا صحيح. لم يرد في النشرات أنّ هناك سرقة قد وقعت. ولكن هذا لن يمنعنا عن الاستعلام أكثر.

- افعلوا ذلك، فهو لصالحي.

- أيّها الفرنسي، لقد ارتكبت خطأً جسيماً بفرارك من سجن ريوهاتشا، وخطأً أكثر جسامةً بقيامك بتهريب رجلٍ مثل أنطونيو والذي كان سيُعدَم رمياً بالرصاص بسبب قتله العديد من خفر السواحل. والآن علمنا أنّك أنت بنفسك مطلوبٌ من جانب فرنسا التي عليك أن تخضع فيها لحكم بالسجن المؤبّد. أنت قاتلٌ خطير. وكذلك لا يمكنني أن أجازف بأنْ أدعك تهرب من هنا أيضاً من خلال تركك مع الفرنسيين الآخرين. سوف تودَع في زنزانة منفردة إلى أن يحين موعد ترحيلك إلى بارانكيا. والقطع الذهبية سوف تُعاد إليك، إذا لم يظهر أنّ هناك سرقة.

خرجتُ من المكتب وجرّوني إلى سلّمٍ ينزل إلى تحت الأرض. بعد أن نزلنا لأكثر من خمس وعشرين درجة، وصلنا إلى ممرٍّ مضاءٍ بضوءٍ

خافتٍ للغاية، توجد فيه أقفاصٌ إلى اليمين وإلى اليسار. فتحوا قفصاً ودفعوني إلى داخله. حينما أُغلق الباب المطلّ على الممرّ، فاحت رائحة عفونةٍ من أرضية ترابية لزجة. نودي عليّ من كلّ الجهات. كان في كلّ جحرٍ مبني من القضبان الحديدية سجينٌ أو سجينان أو ثلاثة سجناء.

صرخوا:

- أيّها الفرنسي! أيّها الفرنسي! ماذا فعلت؟ لماذا أنت هنا؟ هل تعلم أنّ هذه الزنازين هي زنازين الموت؟

سمعتُ أحدهم يصرخ:

- اسكتوا! دعوه يتكلّم!

أجبتهم باللغة الإسبانية:

- نعم أنا فرنسي. أنا هنا لأنني هربتُ من سجن ريوهاتشا.

وقد فُهِمَت رطانتي الإسبانية من جانبهم تماماً.

- تعلّم هذا أيّها الفرنسي. اسمع: في قاع الزنزانة هناك لوحٌ خشبي يُستخدَم للنوم عليه. لديك إلى اليمين علبة فيها ماء. لا تهدر منه نقطةً، لأنّهم لا يعطونك منه سوى القليل كلّ صباح ولا يمكنك أن تطلب المزيد منه. وإلى اليسار، لديك سطلٌ لاستخدامه في قضاء حاجتك بدل المرحاض. غطّه بسترتك، فهنا لا حاجة لك بالسترة، فالجوّ حارٌّ جدّاً، ولكن غطِّ بها سطلك حتى تخفّ الرائحة النتنة التي تفوح منه. نحن جميعاً نغطّي هنا سطولنا بثيابنا.

اقتربت من الشبكة المعدنية محاولاً أن أرى وجوه السجناء الآخرين، فلم أتمكّن من رؤية سوى وجهين ملتصقين بالشباك المعدنية وأربع سيقان خارجة عنها. كان وجه أحدهما لرجلٍ هنديٍّ أصبح إسبانياً، من نمط رجال الشرطة الأوائل الذين أوقفوني في ريوهاتشا؛ أمّا الآخر، فقد كان شاباً زنجياً فاتح البشرة ومليح الوجه. أخبرني الفتى الزنجي أنّ المياه تفيض في الزنازين عند حدوث أيّ مدٍّ بحري. وأوضح لي بأنّه عليّ ألّا أفزع لذلك لأنّ المياه لا ترتفع أبداً أعلى من مستوى البطن، وألّا أمسك

بالجرذان التي قد تعتلي جسدي وإنّما أُبعدها بضربةٍ خاطفة. حذّرني بألّا أمسك بها أبداً، إذا كنتُ لا أريد أن تعضّني. سألته:

- منذ متى أنت في هذه الزنزانة؟

- منذ شهرين.

- والآخرون؟

- ليس هناك من تزيد مدّة وجوده هنا على ثلاثة أشهر. منْ يُمضي هنا ثلاثة أشهر ولا يتمّ إخراجه، فهو ميّتٌ لا محالة.

- ما أطول مدّة قضاها أحدهم هنا؟

- ثمانية أشهر، ولكنّه على وشك أن يهلك. فمنذ شهر تقريباً لم يعد بوسعه الوقوف سوى على ركبتيه، ولم يعد بوسعه أن ينتصب على قدميه. ما إنْ يحدث مدٌّ عالٍ ذات يوم، سوف يموت غرقاً في المياه.

- ولكن هل بلدكم هذا بلدُ الوحوش؟

- لم أقل لك أبداً أنّنا كنّا متحضّرين. وبلدك أيضاً ليس بلداً متحضّراً، طالما أنّك حُكِمت بالسجن المؤبّد فيه. هنا في كولومبيا، إمّا يُحكم عليك بالسجن عشرين سنة أو بالإعدام. لكن لا يُحكم أحدٌ على الإطلاق بالسجن مدى الحياة.

- صحيح، الأمر سواءٌ في كلّ مكان.

- هل قتلت الكثير؟

- كلا، قتلتُ شخصاً واحداً فقط.

- هذا مستحيل. لا يُمكن الحكم على رجلٍ لهذه المدّة الطويلة بسبب قتل شخصٍ واحدٍ فقط.

- أؤكّد لك أنني أقول الحقيقة.

- إذاً، أنت ترى أنّ بلدك متوحّش بقدر بلدي.

- حسناً، لن نتشاجر بسبب بلدينا. أنت على حقّ، فالشرطة في كلّ مكان قذرة. وأنت ماذا فعلت؟

- قتلتُ رجلاً وابنه وزوجته.

- لماذا؟

- ألقوا بأخي الصغير لخنزيرةٍ لتلتهمه.

- مستحيل. يا للفظاعة!

- كان أخي الصغير البالغ خمس سنوات يرمي كلّ يوم طفلهما بالحجارة وقد جُرِح الصغير لعدّة مرّات في رأسه.

- هذا ليس سبباً كافياً لإلقائه طعاماً لخنزيرةٍ.

- وهذا ما قلتُه، حينما علمتُ بالأمر.

- وكيف عرفت ذلك؟

- اختفى أخي الصغير لمدّة ثلاثة أيام، ولدى البحث عنه، عثرتُ على فردةٍ من صندله في كومةٍ من الزبل كانت قد أُخرِجَت من حظيرة خنزيرة. ومن خلال النبش في كومة الزبل، عثرتُ على جوربٍ أبيض اللون مخضّب بالدم، ففهمتُ الحكاية. واعترفت الزوجة قبل أن أقتلهم. وقد جعلتهم يصلّون صلواتهم قبل أن أرميهم بالرصاص من بندقية. في الطلقة الأولى من البندقية، حطّمت ساقي الأب.

- لقد أحسنت صنعاً بقتلهم. ما عساهم يفعلون بك؟

- الحكم عليّ بالسجن عشرين عاماً على الأكثر.

- لماذا أنت في الزنزانة الانفرادية؟

- لقد ضربتُ شرطياً من عائلتهم. كان هنا في السجن. وقد نقلوه من هنا. لم يعد موجوداً هنا، ولذا أنا مرتاح.

فُتِحَ باب الممرّ ودخل حارسٌ برفقة سجينين يحملان برميلاً خشبياً معلّقاً بقضيبين خشبيين. ولاح خلفهما في العمق حارسان آخران يمسك كلّ منهما بندقية بيديه. مرّوا على الزنزانات، الواحدة تلو الأخرى، وأخرجوا السطول التي تُستخدم كمراحيض وأفرغوها في البرميل. سمّمت رائحة البول والبراز الجوّ إلى درجة أننا شعرنا بالاختناق. لم

يتكلّم أحد. حينما وصلوا إلى زنزانتي، ترك السجين الذي أخذ سطلي حزمةً صغيرةً تسقط منه على الأرض. وسريعاً دفعتها بقدمي لأبعدها نحو عمق الزنزانة المعتم. حينما غادروا المكان، وجدتُ في الحزمة علبتي سجائر وولّاعة ذات فتيلة وورقة مكتوبة باللغة الفرنسية. أشعلتُ أوّلاً سيجارتين ورميتهما إلى السجينين في الزنزانتين اللتين تقعان قبالة زنزانتي. ثمّ ناديتُ جاري الذي مدّ ذراعه وأخذ السجائر لكي يمرّرها للسجناء الآخرين. بعد توزيع السجائر، أشعلتُ سيجارتي وحاولتُ أن أقرأ الورقة على ضوء النور الخافت للممرّ، ولكنني لم أتمكّن. فأخذتُ الورقة التي كانت تغلّف علبتي السجائر وشكّلتُ منها لفافة رفيعة وبعد جهدٍ جهيد تمكّنت ولّاعتي ذات الفتيلة أن تشعل الورقة، وقرأتُ سريعاً:

«تشجّع يا بابيون، اعتمد علينا. انتبه جيّداً، سوف نرسل لك غداً ورقاً وقلم رصاص لكي تكتب إلينا. نحن معك حتى الموت».

بثّت هذه الكلمات الدفء في قلبي. كانت هذه الرسالة القصيرة مريحةً جدّاً لي. فأنا لستُ وحيداً ويمكنني الاعتماد على أصدقائي.

لم يتحدّث أحد بكلمة، فالجميع انشغل بالتدخين. كشف لي توزيع السجائر أننا تسعة عشر شخصاً في زنازين الموت هذه. إذاً، مرّة أخرى أصبحتُ في طريق العفن، وهذه المرّة غصتُ فيه حتى عنقي! هؤلاء الأخوات الصغيرات للربّ كنّ في الحقيقة أخوات الشيطان. ومع ذلك، بالتأكيد ليست الراهبة الإيرلندية هي التي وشت بي، وإنّما الراهبة الإسبانية. آه! أيّ حماقة ارتكبتُ حينما وثقتُ بهاتين الراهبتين الصغيرتين! لا، ليست الراهبتان منْ وشّتا بي. تُرى أيكون الحوذي؟ لمرّتين أو ثلاث، كنّا حذرين ونحن نتحدّث الفرنسية. تُرى أيكون سمعنا ونحن نتحدّث؟ ما الفرق؟ المهم أنك وقعت هذه المرّة في ورطة، وقعت بالفعل في ورطة. سواء كانت الراهبتان أو الحوذي أو رئيسة الدير وراء الوشاية، النتيجة واحدة.

المهمّ أنني الآن مرميٌّ مفلساً في هذه الزنزانة المقزّزة التي يبدو أنّها

تفيض بالمياه مرّتين في اليوم بفعل المدّ البحري. كانت الحرارة خانقة جدّاً بحيث نزعتُ أوّلاً قميصي، ثمّ سروالي. وأخيراً خلعتُ حذائي وعلّقت كلّ شيء على الشبك الحديدي.

والأنكى أنني قطعت مسافة ألفين وخمسمئة كيلومتر لأصل إلى هنا! يا لها من نتيجة باهرة! يا إلهي! أنت يا من كنت كريماً جدّاً معي، هل ستتخلى عنّي؟ ربّما أنّك غاضبٌ، لأنّك باختصار وهبتني الحرية الأكثر أماناً وجمالاً. لقد منحتني جماعةً تبنّتني تماماً، ومنحتني بدل زوجةٍ واحدة زوجتين رائعتين. ومنحتني الشمس والبحر. ووهبتني كوخاً كنتُ سيّده بلا منازع. تلك الحياة في الطبيعة، حياة بدائية ولكنّها كم كانت وديعة وهادئة. تلك الهدية الفريدة التي قدّمتها لي ألا وهي أن أكون حرّاً بلا شرطيّ ولا قاضٍ ولا أناسٍ حاسدين أو أشرار من حولي! وأنا، لم أعرف أن أقدّر هذه النعمة حقّ قدرها. لقد منحتني هذا البحر الأزرق الذي يستحيل أحياناً أخضر اللون ويكاد يصبح أسود اللون، ومنحتني شروق الشمس وغروبها الطافحين بالسلام والصفاء والطمأنينة، وهذه الطريقة في العيش بلا مال، حيث لم ينقصني أيّ شيءٍ أساسي لحياة رجلٍ، وقد وطئتُ كلّ هذا بقدمي وازدريته. وكلّ هذا لكي أذهب إلى أين؟ نحو مجتمعاتٍ لا تريد أن تهتمّ بي، ونحو أناسٍ لا يكلّفون أنفسهم حتى عناء معرفة ما إذا كنتُ أستحق النجاة. نحو عالمٍ يرفضني ويلفظني، ويقصيني بعيداً عن أيّ أمل. نحو مجتمعات لا تفكّر سوى في أمرٍ واحد: أن تقضي عليّ بأيّ وسيلة كانت.

حينما يتلقى المحلّفون الأوغاد الاثنا عشر في المحكمة وبولان العفن ورجال الشرطة والمدّعي العامّ خبر اعتقالي، سيقهقهون ضحكاً. لأنّه سوف يكون هناك بالتأكيد صحافي يرسل الخبر إلى فرنسا.

وماذا عن أقاربي؟ لا شكّ أنّهم، حينما زارهم رجال الدرك لإخبارهم بفراري من السجن، قد سعدوا كثيراً بخبر فرار ابنهم أو شقيقهم من جلّاديه! والآن وقد علموا بأنّه قد تمّ إلقاء القبض عليّ، سيتألّمون مرّة أخرى.

لقد ارتكبتُ خطأً في التنكّر لقبيلتي. نعم يمكنني أن أقول «قبيلتي»، لكونهم قد تبنوني جميعاً. لقد ارتكبتُ خطأً وأستحقّ ما جرى لي. ولكن مع ذلك... لم أهرب من السجن لكي أزيد عدد سكان هنود أمريكا الجنوبية.

يا إلهي، يجب أن تدرك أنّه عليّ أن أعيش في مجتمع متحضّر بطريقة طبيعية وأن أُثبتَ بأنني أستطيع أن أكون جزءاً منه دون أن أكون خطراً عليه. هذا هو قدري الحقيقي – مع جلالتك – أو من دون مساعدةٍ من جلالتك.

علي أن أنجح في البرهان على أنني أستطيع، وأنني كنتُ – وسوف أكون – مخلوقاً سويّاً إن لم أكن أفضل من الأفراد الآخرين لأيّ مجتمعٍ كان أو أيّ بلدٍ كان.

دخّنت. بدأ الماء بالصعود. وصل بالكاد إلى كاحلي. ناديت: «أيّها الزنجي، كم من الوقت يبقى الماء في الزنزانة؟».

– يتوقّف هذا على قوّة المدّ البحري. ساعة واحدة، وساعتان حينما يكون المدّ في أقصى قوّته.

سمعتُ العديد من السجناء وهم يصرخون باللغة الإسبانية: «لقد جاء!».

صعدت المياه في الزنزانة ببطءٍ شديدٍ للغاية. كان الرجل الخلاسي وزميله الزنجي جاثمين على القضبان المعدنية. سمعتُ ضجيجاً صادراً وسط الماء: إنّه جرذ مجاري ضخم بحجم قطّ يتخبّط في الماء. كان يحاول الصعود إلى الشبك الحديدي. أمسكتُ بفردة حذائي، وحينما اقترب منّي سدّدتُ ضربة قويّة إلى رأسه. ففرّ إلى الممرّ صارخاً.

قال لي الزنجي: «أيّها الفرنسي، لقد بدأت بالصيد. لن تنتهي منها إذا أردت قتلها كلّها. اصعد إلى الشبك المعدني، وتمسّك بالقضبان المعدنية والتزم الهدوء».

عملتُ بنصيحته، ولكنّ القضبان كانت تجرح فخذيّ ولم أستطع

الصمود لوقتٍ طويلٍ في هذه الوضعية. فتحتُ غطاء سطلي وأخذتُ سترتي وربطتها على القضبان الحديدية وانزلقتُ عليها. وقد أصبحت ما يشبه كرسياً أتاح لي أن أتحمّل تلك الوضعية على نحوٍ أفضل، لأنني كنتُ الآن جالساً تقريباً.

كانت غزوة الماء والجرذان والحراش والسرطانات الصغيرة التي جرفتها المياه معها هي الشيء الأكثر إثارة للاشمئزاز، والأكثر إحباطاً الذي قد يتحمّله كائنٌ بشري. حينما انحسر الماء بعد ساعة من ذلك، ظلّت طبقة من الطين اللزج بسماكة تزيد عن سنتيمتر واحدٍ. انتعلتُ حذائي حتى لا تغوص قدماي في هذا الوحل القذر. ألقى الرجل الزنجي إليّ قطعة من الخشب بطول عشرة سنتيمترات تقريباً وقال لي بأن أجرف بها الوحل وأدفع به إلى الممرّ، بدءاً من اللوح الخشبي الذي أنام عليه، ومن ثَمّ من آخر زنزانتي وصولاً إلى الممرّ. هذا الانشغال بالتنظيف أخذ من وقتي قرابة نصف ساعة وأرغمني على عدم التفكير بأمورٍ أخرى. وهذه مسألة مهمّة. فقبل حدوث المدّ البحري التالي، أي خلال إحدى عشرة ساعة، لن يكون لديّ ماء، حيث تكون الساعة الأخيرة ساعة الفيضان. ومن أجل الحصول على الماء، يجب حساب الساعات الست التي ينحسر فيها البحر والساعات الخمس التي يصعد خلالها. راودتني هذه الفكرة المضحكة بعض الشيء:

– بابيون، أنت مقدّرٌ لك أن تتعامل مع حالات المدّ البحري. فالقمر، شئتَ أم أبيت، له أهمية كبيرة بالنسبة لك ولحياتك. فبفضل حالات المدّ والجذر، استطعت أن تخرج بسهولةٍ من ماروني حينما هربت من سجن الأشغال الشاقّة. وكذلك خرجت من ترينيداد وكوراساو وأنت تحسب ساعات المدّ البحري. وإذا كنتَ قد اعتُقِلتَ في ريوهاتشا، فذلك لأنّ المدّ البحري لم يكن قويّاً بما فيه الكفاية ليدفعك بعيداً على نحوٍ أسرع، وأنت الآن تحت الرحمة الدائمة للمدّ البحري.

من بين الذين سوف يقرؤون هذه الصفحات، إذا ما قيض لها أن تُنشر

ذات يوم، سوف يرثي بعضٌ لحالي ربّما، عند سرد ما اضطررتُ لتحمّله في هذه الزنازين الكولومبية، ويشعر حيالي بشيءٍ من الشفقة. هؤلاء هم الطيّبون. أمّا الآخرون، من أولاد عمومة الجرمانيين المحلّفين الأوغاد الاثني عشر الذين حكموا عليّ، أو أخوة المدعي العام، فسوف يقولون: «إنّه يستحقّ ذلك، فلو بقي في سجن الأشغال الشاقّة، لما حدث له ما حدث». حسناً أيّها الطيّبون، هل تودّون أن أقول لكم شيئاً هو خيرٌ لكم كما للمحلّفين الأوغاد؟ أنا لستُ يائساً على الإطلاق، وسوف أخبركم بأكثر من هذا: أنا أفضّل أن أكون في هذه الزنازين في هذا الحصن الكولومبي القديم، الذي بنته محاكم التفتيش الإسبانية، على أن أكون في جزر الخلاص التي كان من المفروض أن أكون فيها في الوقت الراهن. هنا، لا يزال أمامي الكثير لأعدّ محاولة «الفرار»، وأنا هنا، حتى في هذا الجحر العفن، أنا مع ذلك بعيدٌ عن سجن الأشغال الشاقة لمسافة ألفين وخمسمئة كيلومترٍ. وسيتعيّن عليهم فعلاً اتّخاذ إجراءات احترازية لكي ينجحوا في إعادتي إلى هناك من جديد. لستُ نادماً إلّا على شيءٍ واحد: قبيلتي غواجيرا ولالي وزورايما وتلك الحرية في أحضان الطبيعة، المحرومة من رفاهية التمدّن، ولكنها أيضاً الخالية من الشرطة والسجون والزنازين المنفردة. فكّرتُ في الهنود وكيف لم يخطر ببالهم أن يُطبّقوا هكذا عقوبة قاسية على عدوٍّ، فما بالكم برجلٍ مثلي لم يرتكب أيّ جنحةٍ بحقّ الكولومبيين.

تمدّدتُ على اللوح الخشبي ودخّنتُ سيجارتين أو ثلاث في عمق زنزانتي لكي لا يراني الآخرون أدخّن. حينما أعدتُ القطعة الخشبية للزنجي رميتُ له أيضاً سيجارة مشتعلة، فقام هو الآخر بالشيء نفسه الذي قمتُ به مِن تدخين في عمق الزنزانة استحياءً منه واحتراماً لمشاعر السجناء الآخرين. ولهذه التفاصيل التي تبدو تافهة قيمة كبيرة بالنسبة لي. فهذا يبرهن على أنّنا نحن المنبوذون من المجتمع لا نزال على الأقلّ نحتفظ ببقايا من آداب السلوك والحياء.

هنا الحال ليست كما كانت في سجن الإصلاحية. أستطيع أن أحلم وأشرد في الفضاء من دون أن أضطرّ لوضع منديلٍ لأحمي عينيّ من نورٍ شديد السطوع.

تُرى من ذا الذي أخبر الشرطة بوجودي في الدير؟ آه، لو عرفته ذات يوم، سوف أجعله يدفع ثمن فعلته. ثمّ قلتُ لنفسي: «لا تعبث يا بابيون! أمام ما عليك القيام به في فرنسا لتنتقم لنفسك، لم تأتِ إلى هذا البلد التائه لكي تسيء لأحد! هذا الشخص سوف يُعاقَب بالتأكيد من الحياة نفسها وإذا كان عليك أن تعود يوماً، فلن يكون ذلك لكي تنتقم لنفسك، وإنّما لكي تمنح السعادة لزوجتيك لالي وزورايما وربّما لأطفالك، الذين سوف تنجبانهم منك. إذا كان عليك أن تعود إلى هذه البلاد، سوف يكون ذلك من أجلهما ومن أجل كلّ هنود غواجيرا الذين منحوك شرف القبول بك بينهم كما لو كنت واحداً منهم. ما زلت في طريق العفن، ولكنني، على الرغم من أنني في زنزانة غوّاصة، ما زلت، شاء من شاء وأبى من أبى، في حالة فرار، وبالتالي في درب الحرية. هذا هو الأمر الذي لا يُمكن إنكاره».

تلقيتُ ورقاً وقلم رصاصٍ وعلبتي سجائر، وقد مضت ثلاثة أيامٍ على وجودي هنا. ربّما عليّ أن أقول ثلاث ليالٍ، لأنّ الظلام مخيّمٌ دائماً هنا بحيث لا وجود للنهار. في حين كنتُ أشعل سيجارة من طراز «بييل روخا»، لم أستطع إلّا أن أُعجب بروح التفاني الشائعة بين السجناء. لقد عرّض الكولومبي الذي مرّر إليّ الحزمة نفسه إلى خطرٍ كبير. لو ضُبط من الحرّاس، لكلّفه الأمر دون شكّ الإقامة هنا في هذه الزنازين نفسها. لم يكن يجهل ذلك، وأن يقبل بأن يساعدني في محنتي ليس مجرّد شجاعة، وإنّما نبلٌ قلّ نظيره. وبالطريقة السابقة نفسها في إشعال الورق، قرأتُ ما يلي: «بابيون، نعلم أنّك صمدت جيّداً، بوركت! أرسل إلينا أخبارك. أمّا بالنسبة إلينا، فالأمور لا تزال على حالها. جاءت راهبة طيّبة تجيد التحدّث بالفرنسية للقائك، ولكنهم لم يدعوها تتحدّث معنا، إلّا أنّ كولومبياً أخبرنا

بأنّه قد وجد الفرصة ليخبرها بأنّ السجين الفرنسي موجودٌ في زنازين الموت. وقد قالت: سوف أعود. هذا كلّ شيء. لك قبلاتنا. أصدقاؤك».

لم يكن الجواب على تلك الرسالة القصيرة بالأمر السهل، ومع ذلك نجحتُ في أن أكتب التالي: «شكراً لكم على كلّ شيء. أنا بخير، وقد صمدتُ جيّداً. اكتبوا إلى القنصل الفرنسي، وما يدريكم. احرصوا على أن يقوم دائماً الشخص نفسه من بينكم بالمهام لكي يُعاقب شخصٌ واحدٌ فقط إذا ما انكشف أمركم. لا تلمسوا رأس السهمين الصغيرين. يحيا الفرار!».

الهروب إلى سانتا مارتا

لم يمضِ سوى ثمانية وعشرين يوماً، وبتدخّلٍ من قنصلٍ بلجيكي في سانتا مارتا، يُدعى كلوزن، حتى أُخرجتُ من ذلك الجُحر القذر المقزّز. كان الزنجي الذي يُدعى بالاسيوس قد خرج من الزنزانة المنفردة بعد وصولي بثلاثة أسابيع. وأثناء إحدى زيارات والدته، راودته فكرة أن يطلب منها إخبار القنصل البلجيكي بأنّ سجيناً بلجيكياً موجودٌ في هذه الزنازين. وكانت هذه الفكرة قد راودته حينما رأى سجيناً بلجيكياً يتلقّى زيارة من القنصل البلجيكي يوم الأحد.

ذات يوم، اقتادوني إلى مكتب آمر السجن الذي قال لي:

– أنت فرنسي، فلماذا تقدّمت بالتماسٍ إلى القنصل البلجيكي؟

في المكتب، رأيتُ رجلاً يرتدي بزّة بيضاء، في الخمسين من العمر تقريباً، له شعرٌ أشقر مائلٌ للبياض، يحيط بوجهٍ مدوّرٍ متورّد، يجلس في أريكةٍ، وعلى ركبتيه حقيبة من الجلد. وفي الحال أدركتُ الموقف. فقلتُ لآمر السجن:

– أنتم من قلتُم إنّني فرنسي. أنا أعترف بأنني هاربٌ من وجه العدالة الفرنسية، ولكنني بلجيكي.

قال الرجل القصير ذو الوجه الشبيه بوجه خوري:

- آه! أرأيت؟

- لماذا لم تخبرنا بذلك؟

- بالنسبة لي، لم يكن لهذا الأمر أيّ أهمية حيالكم، لأنني بالفعل لم أرتكب جرماً جدّياً على أرضكم سوى أنني هربتُ من السجن، وهذا أمرٌ طبيعي بالنسبة لأيّ سجين.

- حسناً، سوف أودعك مع رفاقك. ولكن، سيّدي القنصل، ألفت انتباهكم إلى أنّه عند أوّل محاولة للفرار، سوف أُعيده إلى حيث أتى.

التفت إلى الحرّاس، وقال:

- خذوه إلى الحلّاق ثمّ أودعوه مع شركائه.

قلتُ باللغة الفرنسية:

- شكراً لكم سيّدي القنصل، شكراً جزيلاً على ما تحمّلتم من مشقّة من أجلي.

- يا إلهي! كم عانيتَ وتعذّبتَ في هذه الزنازين الفظيعة! هيّا، انصرف بسرعة، قبل أن يغيّر هذا البهيم رأيه. سوف أعود للقائك. إلى اللقاء.

لم يكن الحلّاق حاضراً، وأودعتُ مع أصدقائي. لا بدّ أنّ شكلي كان غريباً لأنّهم لم يكفّوا عن القول:

- هذا ليس أنت! هذا مستحيل! ماذا فعل بك هؤلاء الأوغاد حتى تكون في هذه الحالة المزرية؟ حدّثنا، قل لنا شيئاً. هل عُميتَ؟ ماذا أصاب عينيك؟ لماذا تغمضهما وتفتحهما باستمرار؟

- هذا لأنني لا أستطيع أن أتأقلم مع هذا الضوء. هذا الضوء شديدٌ جدّاً بالنسبة لي ويُزعج عيني المعتادتين على العتمة.

جلستُ وأنا أنظر إلى داخل الزنزانة: «الآن باتت الأمور أفضل».

- تفوح منك رائحة العفونة، هذا لا يُصدّق! تفوح رائحة العفونة حتى من جسدك!

بدأتُ بالتعرّي تماماً، ووضعوا ثيابي بالقرب من الباب. كانت ذراعاي وكذلك ظهري وفخذاي وساقاي مليئة بآثار اللسعات الحمراء، مثل لسعات البق في بلادنا، وبعضّات السرطانات التي كانت تطفو مع فيضان مياه المدّ البحري. كنتُ شنيعاً، ولم أكن بحاجة إلى أن أقف أمام المرآة لأُدرك ذلك.

توقّف هؤلاء السجناء الخمسة الذين عانوا الكثير في حياتهم عن الكلام، وذُهلوا لرؤيتي على هذه الحال. نادى كلوزيو شرطياً وقال له: «إذا كان الحلاق غير موجودٍ، فهناك ماءٌ في الباحة ليغتسل به». لكن الشرطي طلب منه الانتظار إلى حين حلول موعد الخروج إلى الباحة.

خرجتُ عارياً تماماً، وحمل كلوزيو الثياب النظيفة التي سأرتديها. وبمساعدة ماتوريت، اغتسلتُ مراراً بالماء والصابون الأسود المحلي. وكلّما اغتسلتُ أكثر، كلّما زالت عن جسدي أوساخٌ أكثر. وأخيراً، بعد أن كرّرت الاغتسال بالصابون ورشّ الماء عدّة مرّات، أحسستُ بالنظافة. نشّفتُ جسدي تحت الشمس لعدّة دقائق وارتديتُ ثيابي. جاء الحلّاق، وأراد أن يحلق شعري بالكامل، فقلتُ له:

– كلا. قصّ شعري قصّة عادية واحلق ذقني، وسوف أدفع لك أجرتك.

– كم ستدفع لي؟

– بيزو واحد.

قال كلوزيو:

– احلق له بإتقان، وسوف أدفع لك اثنين.

بعد الاستحمام وحلاقة الذقن وقصّ الشعر وارتداء الثياب النظيفة، شعرتُ بالحياة مجدّداً. لم يكفّ أصدقائي عن استجوابي:

– والماء، كم كان ارتفاعه؟ والجرذان؟ والحراش؟ والوحل؟ والسرطانات؟ وغائط السطول؟ والموتى الذين كانوا يُخرجون من الزنازين؟ هل كانوا موتى ماتوا بشكلٍ طبيعي أم انتحروا شنقاً؟ أم «منتحرون» على أيدي رجال الشرطة؟

لم يتوقّف أصدقائي عن طرح الأسئلة ولكثرة ما تكلّمت، عطشت.

كان في الباحة بائعُ قهوة. خلال الساعات الثلاث التي بقينا فيها في الباحة، شربتُ على الأقل عشرة أكواب من القهوة الثقيلة والمحلّاة بالسكّر الخام. وقد بدت لي تلك القهوة وكأنّها أفضل مشروب في العالم. جاء الزنجي المحبوس في الزنزانة التي تقع قبالة زنزانتي وألقى عليّ تحية الصباح. شرح لي بصوتٍ هامس حكاية القنصل البلجيكي مع أمّه، فصافحته بحرارة وشكرته، وشعر بفخرٍ شديد لكونه يقف خلف إخراجي من الزنزانة المنفردة، ثمّ حينما انسحب، وهو في غاية السعادة، قال لي: «سوف نكمل حديثنا غداً. يكفي ما قلناه اليوم».

بدا لي أنّ زنزانة أصدقائي قصرٌ. كان لكلوزيو أرجوحته الخاصّة، وقد اشتراها بماله الخاصّ. أرغمني على أن أنام فيها، فتمدّدتُ فيها بالعرض. اندهش لطريقتي في النوم، فشرحتُ له بأنّه إذا كان ينام باتجاه الطول، فهذا لأنّه لا يجيد استخدام أرجوحة نومٍ.

بات تناول الطعام والشراب، والنوم ولعب الداما ولعب الورق بالورق الإسباني، والتحدّث باللغة الإسبانية فيما بيننا ومع رجال الشرطة والسجناء الكولومبيين لتحسين لغتنا الإسبانية، كلّ هذه النشاطات باتت تشغل كلّ نهارنا وقسماً من الليل أيضاً. من الصعب أن ينام المرء بدءاً من الساعة التاسعة مساءً، ولذلك تدفّقت في أذهاننا تفاصيل عملية الفرار من مستشفى سان لوران إلى سانتا مارتا، كانت هذه التفاصيل تراود ذهني وتتدفّق أمام أنظاري وتطلب منّي أن تكون هناك تتمّة لها. لا يمكن للشريط المصوّر أن يتوقّف هنا وينبغي له أن يستمرّ، وسوف يستمرّ يا رجل. دعني أستعيد قواي ويمكنك أن تكون واثقاً من أنّه ستكون هناك حلقات جديدة من المسلسل. ثق بي! عثرتُ على سهميّ الصغيرين وورقتي كوكا، واحدة منهما يابسة تماماً، في حين كانت الأخرى لا تزال تحتفظ ببعض اخضرارها. مضغتُ الورقة الخضراء، فنظر الجميع إليّ بذهول. شرحتُ لرفاقي أنّها الأوراق التي يُصنع منها الكوكايين.

قال كلوزيو:

- أتسخر منّا؟

- تذوّقها.

- نعم، بالفعل، إنّها تخدّر اللسان والشفتين.

ثمّ سأل كلوزيو:

- هل يُباع منها هنا؟

- لا أدري. كيف يمكنك يا كلوزيو أن تُخرج لنا المال من وقتٍ إلى آخر؟

- لقد صرّفتُ في ريوهاتشا ومنذ ذلك الحين أملك نقوداً أمام أنظار الجميع.

قلت:

- أمّا أنا، فلدي ست وثلاثون قطعة ذهبية من فئة مئة بيزو عند آمر السجن وكلّ قطعة منها تساوي ثلاثمئة بيزو. وسوف أثير هذه المشكلة في أحد الأيام القادمة لكي أستردّها.

- هؤلاء الناس يتضوّرون جوعاً، اعقد معه صفقة بهذا المال.

- إنّها فكرة معقولة.

في يوم الأحد، تحدّثتُ مع القنصل البلجيكي ومع السجين البلجيكي. كان هذا السجين قد ارتكب جرم خيانة الأمانة مع شركة أمريكية لتجارة الموز. وضع القنصل نفسه تحت تصرّفنا لكي يحمينا. ملأ استمارةً صرّحتُ فيها بأنني مولودٌ من أبوين بلجيكيين في بروكسل. تحدّثتُ معه عن الأخوات الراهبات واللآلئ، ولكنّه، وهو البروتستانتي، لم يكن يعرف لا الراهبات ولا الخوارنة. أمّا بالنسبة إلى القطع الذهبية، فقد نصحني بألّا أُطالب بها، لأنّ ذلك سيشكّل خطراً كبيراً عليّ. وقال لي: «من المفروض أن يتمّ إخطاري قبل أربع وعشرين ساعةً من مغادرتنا إلى بارانكيا، ويمكنك أن تطالب بها بحضوري، طالما أنّ هناك شهوداً، حسبما فهمت منك».

- هذا صحيح.

- ولكن في الوقت الراهن لا تُطالب بشيء، فهو قادرٌ على أن يعيدك إلى تلك الزنازين الرهيبة وربّما حتى يتسبّب بقتلك. فهذه القطع الذهبية ثروة حقيقية، وهي لا تساوي ثلاثمئة بيزو كما تظنّ، وإنّما خمسمئة وخمسين بيزو لكلّ قطعة. وبالتالي هذا مبلغٌ ضخم. لا ينبغي أن نسعى إلى إثارة الشيطان. أمّا بالنسبة إلى اللآلئ، فالأمر مختلف. امنحني بعض الوقت للتفكير في المسألة.

سألتُ السجين الزنجي إن كان يرغب في الفرار معي، وكيف علينا أن نتصرّف برأيه. تحوّلت بشرته الكاشفة إلى اللون الرمادي حينما سمعني أتحدّث عن الفرار من السجن. وقال لي:

- أتوسّل إليك يا رجل، لا تفكّر مجرّد تفكير في هذا الأمر. فإذا ما أخفقت في المحاولة، سينتظرك الموت البطيء الأكثر فظاعةً، وقد سبق لك أن ذقت مرارته. انتظر إلى أن تصبح في مكانٍ آخر، في بارانكيا. أمّا هنا، فسيكون الأمر انتحاراً. هل تريد أن تموت؟ إذا كنت لا تريد الموت، التزم الهدوء. في كلّ كولومبيا، ليست هناك زنزانة كالتي عرفتها، فلماذا تُقدم على هذه المجازفة هنا؟

- هذا صحيح، ولكن الجدار هنا ليس عالياً جدّاً، وبالتالي سيكون الفرار أسهل نسبياً.

- يا رجل، سواء كان الأمر سهلاً أم لا، لا تعتمد عليّ لا في الرحيل معك ولا حتى في تقديم المساعدة لك. ولا حتى في الكلام عن ذلك.

ثمّ فارقني مذعوراً، بعد أن قال لي: «أيّها الفرنسي، أنت لست رجلاً عاديّاً، أنت مجنونٌ طالما تفكّر بهكذا أمور هنا في سانتا مارتا».

كنتُ أنظر كلّ يوم صباحاً وبعد الظهيرة إلى السجناء الكولومبيين الذين كانوا هنا لارتكابهم جرائم خطيرة، فتبدو وجوههم جميعاً وجوه مجرمين، ولكن كنتُ أشعر بأنّهم تحت السيطرة تماماً لأنّ الرعب الذي ينتابهم من فكرة إرسالهم إلى هذه الزنازين الانفرادية الرهيبة كانت تشلّهم تماماً. قبل أربعة أو خمسة أيام، شاهدنا شيطاناً ضخماً برأسٍ أكبر من

رأسي يخرج من الزنزانة الانفرادية يُدعى (كيمان)، وكان ذائع الصيت بكونه رجلاً في غاية الخطورة. تكلّمتُ معه، ثمّ بعد أن تفسّحنا ثلاث أو أربع مرّات معاً، قلتُ له باللغة الإسبانية:

- كيمان، هل ترغب في أن تهرب معي من السجن؟

نظر إليّ شزراً كما لو كنتُ عفريتاً، وقال لي:

- لكي نعود إلى حيث جئنا إذا ما فشلنا في المحاولة؟ لا، شكراً. إنّي لأفضّل أن أقتل أمّي على أن أعود إلى هناك.

كانت تلك آخر محاولة لي. ولم أعد أتكلّم أبداً مع أحدٍ بشأن الهروب.

في فترة ما بعد الظهيرة، رأيتُ آمر السجن يمرّ. توقّف ونظر إليّ، ثمّ قال لي:

- كيف حالك؟

- بخير، ولكن سأكون أحسن حالاً لو حصلتُ على قطعي الذهبية.

- لماذا؟

- لأنني أستطيع أن أدفع بها أجور محامٍ يدافع عنّي.

- تعال معي.

وقادني إلى المكتب، فأصبحنا لوحدنا. ناولني سيجاراً - خطوة لا بأس بها - وأشعله لي - الأمور تتّجه نحو أفضلٍ وأفضل.

- هل تجيد اللغة الإسبانية بما يكفي لكي تفهم وتردّ بوضوح إذا ما حدّثتُك ببطء؟

- نعم.

- حسناً. لقد أخبرتني بأنّك تريد بيع قطعك الذهبية الست والعشرين.

- لا، قطعي الذهبية الست والثلاثون.

- آه! نعم، نعم! وبهذه النقود سوف تدفع أجور محامٍ؟ ولكن لا أحد سوانا نحن، الاثنين، يعلم بأمر هذه القطع الذهبية.

- لا، هناك الرقيب والرجال الخمسة الذين أوقفوني والآمر الثاني الذي استلمها قبل أن يسلّمها لك. ثمّ هناك قنصل بلادي.

- آه! آه! حسناً. وهذا أفضل طالما يعرف أناسٌ كثيرون بأمرها، فهكذا يمكننا أن نتصرّف في وضح النهار. أنت تعلم أنّني أسديتُ لك خدمة جليلة. فقد التزمتُ السكوت ولم أعمّم نشرة طلب معلومات على مختلف أجهزة الشرطة في البلدان التي مررت فيها لكي نعرف إن كانت قد حدثت واقعة سرقة قطع ذهبية فيها.

- ولكن كان عليك أن تفعل ذلك.

- لا، من أجل مصلحتك، كان من الأفضل ألّا أفعل ذلك.

- أشكرك، أيّها الآمر.

- هل تودّ أن أبيعها لك؟

- بكم؟

- حسناً، بالسعر نفسه الذي قلت لي بأنّه قد دُفِع لك بها: ثلاثمئة بيزو. وسوف تدفع لي مئة بيزو لكلّ قطعة مقابل إسدائي هذه الخدمة لك. ما رأيك بذلك؟

- لا. أعد لي القطع عشراً عشراً، وسوف أدفع لك مئتي بيزو مقابل القطعة بدل مئة بيزو. وهذا سيكون مقابل ما قدّمت لي من خدمة.

- أيّها الفرنسي، أنت خبيثٌ للغاية. أنا ضابطٌ كولومبي مسكين وقنوعٌ للغاية وعلى شيءٍ من الغباء، أمّا أنت فرجلٌ ذكيّ وشديد الخبث كما سبق وأن أخبرتك.

- حسناً إذاً، ما هو العرض المعقول الذي تريد أن تقدّمه لي؟

- غداً، سأحضر الشاري إلى هنا في مكتبي. سوف يرى القطع الذهبية، فقدّم عرضاً، وسنتقاسم المبلغ مناصفةً. إمّا أن تقبل بهذا العرض وإمّا لا شيء. سوف أرسلك إلى بارانكيا مع القطع النقدية أو سأحتفظ بها للتحقيق بشأنها.

- لا. هذا آخر اقتراحٍ أقترحه عليك. فليأتِ الرجل إلى هنا وينظر إلى القطع الذهبية وكل ما يزيد عن ثلاثمئة بيزو للقطعة الواحدة هو لك.

- حسناً اتّفقنا، أعدك بذلك. ولكن أين ستضع هذا المبلغ الكبير؟

- في لحظة تسليم النقود، سوف تستدعي القنصل البلجيكي، وسأدفعها له لكي يوكّل لي محامياً.

- لا، فأنا لا أُريد شاهداً على ما بيننا.

- لن تتعرّض لأيّ خطر، لأنني سوف أوقّع لك على إيصالٍ بأنّك قد سلّمت لي قطعي الست والثلاثين. اقبل بهذا العرض، وإذا ما تصرّفت معي باستقامة سوف أعرض عليك عرضاً آخر.

- وما هو؟

- ثق بي. إنّه عرضٌ مناسب مثل الآخر، وفي العرض الثاني سيكون المبلغ مناصفةً بيننا.

- ما هو العرض؟ أخبرني.

- استعجل غداً، وفي المساء عند الساعة الخامسة، حينما تصبح نقودي آمنة لدى قنصل بلادي، سوف أكشف لك عن العرض الثاني.

استغرقت المقابلة وقتاً طويلاً. حينما عدتُ سعيداً جدّاً إلى الباحة، كان أصدقائي قد عادوا إلى الزنزانة.

ذهبتُ إلى الزنزانة، فسألوني:

- أخبرنا إذاً، ما الذي جرى بينكما؟

رويتُ لهم كلّ الحديث الذي جرى بيننا. وضحكنا كثيراً على الرغم من الوضع الذي كنّا فيه.

قال أحد رفاقي:

- يا له من ثعلب، هذا الرجل، ولكنّك تفوّقت عليه. هل تعتقد أن الأمور سوف تسير على ما يُرام؟

- أنا أقامر بمئة بيزو مقابل مئتين ممّا في الكيس. أهناك من لا يُقامر؟

- كلا، أنا أيضاً أعتقد أنّ الأمور سوف تسير على ما يُرام.

بقيتُ طيلة الليلة أفكّر بما جرى. كنتُ أقول في نفسي: لقد أُنجِزَت الصفقة الأولى. أما الصفقة الثانية – سوف يكون في غاية السعادة

بحصوله على اللآلئ - فسوف تُنجَز أيضاً. تبقى الصفقة الثالثة. الصفقة الثالثة... فهي أنني سوف أقدّم له كلّ ما حصلتُ عليه لكي يدعني أسرق مركباً من الميناء. يمكنني أن أشتري هذا المركب بالمال الذي أملكه في ماسورتي. سنرى إن كان سيقاوم الإغراء. ما الذي أجازف به؟ فبعد الصفقتين الأولى والثانية التي قبل بإبرامهما معي، لا يمكنه حتى أن يعاقبني. سوف نرى. دعنا لا نستبق الأمور، إلخ. يمكنني الانتظار إلى حين الوصول إلى بارانكيا. ولكن لماذا؟ في مدينة أكبر وأهمّ، وفي سجن أكبر، وبالتالي الحراسة فيه أشدّ وجدرانه أعلى. ينبغي عليّ أن أعود وأعيش مع لالي وزورايما: سوف أهرب من السجن بسرعة، وأنتظر هناك لسنوات عديدة، وأذهب إلى الجبل مع القبيلة التي تملك ثيراناً وأتواصل حينئذٍ مع الفنزويليين. ينبغي أن أنجح في هذا الفرار بأيّ ثمن. ظللتُ طيلة الليل أرتّب طريقة أستطيع أن أتعامل بها لكي أنجح في إتمام الصفقة الثالثة.

في اليوم التالي، لم يستغرق انتظاري وقتاً طويلاً. ففي الساعة التاسعة صباحاً، جاؤوا في طلبي لمقابلة رجلٍ ينتظرني في مكتب آمر السجن. حينما وصلتُ إلى المكتب، ظلّ الشرطي في الخارج ووجدتُ نفسي أمام شخص في حدود الستين من العمر، يرتدي بزّة بلونٍ رماديٍّ فاتحٍ وربطة عنق رمادية اللون أيضاً. ورأيتُ على الطاولة قبّعة من اللبّاد هي الأخرى رمادية اللون من طراز تلك التي يعتمرها رعاة البقر. تبرز لؤلؤة كبيرة رمادية وزرقاء من ربطة عنقه كما لو أنّها في علبة. كان هذا الرجل النحيل وجافّ العود لا يعدم بعض الأناقة.

- صباح الخير، يا سيد.

- هل تتحدّث الفرنسية؟

- نعم، يا سيد، فأنا من أصولٍ لبنانية. أرى أنّ لديكم قطعاً ذهبية من فئة مئة بيزو وأنا مهتمٌّ بشرائها. هل تريد خمسمئة بيزو لكلّ واحدة منها؟

- لا. أريدُ ستمئة وخمسين بيزو.

- معلوماتك خاطئة يا سيّد! فسعرها الأعلى خمسمئة وخمسون بيزو للقطعة الواحدة.

- اسمع، طالما أنّك ستشتريها كلّها، سأبيعها لك بستمئة بيزو.

- لا. بخمسمئة وخمسين.

باختصار، لقد اتّفقنا على خمسمئة وثمانين بيزو. وأُبرِمَت الصفقة.

سأل آمر السجن باللغة الإسبانية:

- ماذا قلت؟

- لقد تمّت الصفقة بخمس مئة وثمانين سيدي الآمر، وسيكون البيع بعد الظهر.

انصرف الرجل. نهض آمر السجن وقال لي:

- ممتاز، كم هي حصّتي إذاً؟

- مئتان وخمسون في كلّ قطعة. ها أنّك ترى، أعطيك مثلين ونصف ما كنت تُطالب به، أي مئة بيزو في كلّ قطعة.

ابتسم وقال: «وماذا عن الصفقة الثانية؟».

- فليحضر القنصل أوّلاً إلى هنا بعد الظهر لكي يستلم المبلغ. وحينما يغادر، سوف أخبرك بالصفقة الثانية.

- إذاً، هناك بالفعل صفقة ثانية؟

- أعدك بذلك.

- حسناً، أتمنى أن يكون ذلك صحيحاً.

في الساعة الثانية من بعد الظهر، حضر القنصل والرجل اللبناني. أعطاني هذا الأخير عشرين ألفاً وثمانمئة بيزو. سلّمتُ منها اثني عشر ألفاً وستمئة بيزو إلى القنصل وثمانية آلاف ومئتين وثمانين بيزو إلى آمر السجن. أمضيتُ على إيصالٍ لآمر السجن أقرّ فيه بأنّه قد سلّمني أموالي وهي ست وثلاثون قطعة نقدية من فئة مئة بيزو ذهبية. بقينا لوحدنا، الآمر وأنا، في المكتب. فرويتُ له ما حدث لي مع رئيسة الدير. سألني الآمر:

- كم لؤلؤة؟
- من خمسمئة إلى ستمئة لؤلؤة.
- يا لها من لصّة مديرة الدير هذه. سيكون لزاماً عليها أن تعيدها لك أو ترسلها إليك هنا أو تسلّمها للشرطة. سوف أفضح أمرها وأبلّغ عنها.
- لا، ستذهب إليها وتسلّمها رسالة منّي باللغة الفرنسية. وقبل الحديث عن الرسالة، اطلب منها أن ترسل في طلب الراهبة الإيرلندية.
- لقد فهمت: الراهبة الإيرلندية هي التي يجب أن تقرأ رسالتك المكتوبة باللغة الفرنسية وتترجمها لها. ممتاز. سأذهب إليها.
- انتظر الرسالة.
- آه، هذا صحيح!
صرخ من الباب الموارب:
- جهّز السيارة مع شرطيين، يا جوزيه!
جلستُ إلى طاولة مكتب آمر السجن، وعلى ورقة من الأوراق الرسمية للسجن، كتبتُ الرسالة التالية:
«سيّدتي رئيسة الدير،
«إلى عناية الأخت الإيرلندية الطيّبة والخيّرة،
«حينما قادني الربّ إلى ديركنّ حيث كنتُ أعتقد أنّه من حقّ أيّ مضطَهَد أن يتلقّى العون منه في الشريعة المسيحية، أودعتُ لديكم كيساً فيه لآلئ، هي ملكي، لكي أمنحكم الثقة بأنني لن أغادر بطريقة غير مشروعة من تحت سقفكنّ الذي يضمّ بيتاً من بيوت اللّٰه. وقد اعتقد كائنٌ دنيء أنّ واجبه أن يشي بي للشرطة التي أوقفتني سريعاً في ديركنّ. وأرجو ألّا تكون النفس الدنيئة التي ارتكبت هذه الفعلة واحدة من بنات الربّ في دارتكنّ. لا يمكنني أن أقول لكنّ بأنني أسامح هذه الروح العفنة لذكرٍ كانت أم لأنثى، لأنني سأكون كاذباً. على العكس، سوف أتضرّع إلى اللّٰه أن يُعاقب هو بنفسه أو أحد قديسيه هذه النفس الآثمة دون رحمة بأشدّ أنواع العقاب قسوة. أرجوكِ يا سيّدتي العظيمة أن تُسلّمي إلى الآمر

سيزاريو كيس اللآلئ الذي أودعته لديكِ. وأنا متأكّدٌ من أنّه سوف يُسلّمني إياه بأمانة. وستكون هذه الرسالة بمثابة إيصال استلامٍ. تفضّلي بقبول... إلى آخره».

ولأنّ الدير كان يبعد ثمانية كيلومترات عن سانتا مارتا، فقد عادت السيارة بعد ساعةٍ ونصف. وأرسل آمر السجن في طلبي. حينما وصلت، قال لي:

- لقد تمّ الأمر. احصِها لترى إن كان فيها نقصٌ.

أحصيتُ اللآلئ لا لكي أعرف إن كانت ناقصة لأنني لم أكن أعرف عددها، وإنّما لكي أعرف عدد اللآلئ التي أصبحت الآن بين يدي هذا الشرير: خمسمئة واثنان وسبعون.

- هل هي كاملة؟

- نعم.

- لا نقص فيها؟

- كلا. والآن اروِ لي ما حدث.

- حينما وصلتُ إلى الدير، كانت رئيسة الدير في الباحة. أحاط بي الشرطيان وقلت: «سيّدتي، لأمرٍ خطير جدّاً قد تخمّنيه بالحدس، من الضروري أن أتحدّث إلى الأخت الإيرلندية بحضوركِ».

- وماذا بعد ذلك؟

- قرأت تلك الأخت الرسالة لرئيسة الدير وهي ترتجف. في حين لم تتفوّه رئيسة الدير بكلمة واحدة، فقط خفضت رأسها وفتحت درج مكتبها وقالت لي: «هذه هي الصرّة، سليمة وفيها لآلئ السجين. وليغفر الله للآثم الذي ارتكب هكذا جريمة بحقّ هذا الرجل. أخبره بأننا نصلّي من أجله».

ثمّ أنهى الآمر حديثه، ووجهه يشعّ بالسعادة:

- هذا كلّ ما جرى!

- ومتى سنبيع اللآلئ؟

- غداً. لن أسألك عن مصدرها، فأنا أعرف الآن أنّك قاتلٌ خطير، ولكنني أعلم أيضاً أنّك رجلٌ صاحب كلمتك ورجلٌ صادقٌ وشريف. تفضّل، خذ قطعة الجانبون هذه وزجاجة النبيذ والخبز الفرنسي لكي تحتفل مع أصدقائك بهذا اليوم التاريخي.

- عمتَ مساءً.

وصلتُ إلى الزنزانة وبحوزتي زجاجة نبيذ سعة لترين وقرابة ثلاثة كيلوغرامات من اللحم المدخّن وأربعة أرغفة طويلة من الخبز الفرنسي. وكانت وجبة عيدٍ. تقلّصت كمية الجانبون والخبز والنبيذ سريعاً، فقد أكل وشرب الجميع بشهيّة مفتوحة.

- هل تعتقد أنّ محامياً سيستطيع أن يقدّم لنا مساعدة ويفعل شيئاً من أجلنا؟

انفجرتُ ضاحكاً. المساكين، هم أيضاً صدّقوا حكاية المحامي.

- لا أدري. يجب أن ندرس الأمر ونتشاور بشأنه قبل أن ندفع له.

قال كلوزيو:

- الأفضل ألّا ندفع شيئاً إلّا في حال نجاحه.

- وهو كذلك، يجب أن نجد محامياً يقبل بعرضنا هذا.

ثمّ لم أعد أتحدّث في هذا الموضوع، لأنني شعرتُ بشيءٍ من الخجل.

في اليوم التالي، عاد الرجل اللبناني. قال: «الأمر معقّد جدّاً. يجب أن نصنّف اللآلئ أوّلاً حسب حجمها، ثمّ حسب لونها، ثمّ حسب شكلها، أي إذا كانت مكوّرة وملساء تماماً أم مزخرفة». باختصار، الأمر ليس معقّداً فحسب، بل وفوق ذلك قال اللبناني بأنّه ينبغي عليه أن يُحضِر تاجراً أكثر خبرةً وكفاءةً منه. وخلال أربعة أيام أنهينا عملية بيع اللآلئ. دفع ثلاثين ألف بيزو. وفي اللحظة الأخيرة، أخذتُ من بينها لؤلؤة وردية واثنتين سوداوين لكي أقدّمها هديّة لزوجة القنصل البلجيكي. ولكونهم تجّاراً مهرة، استغلوا ذلك لكي يقولوا إنّ هذه اللآلئ الثلاث لوحدها تساوي خمسة آلاف بيزو. ومع ذلك أخذتُ اللآلئ الثلاث.

وافق القنصل البلجيكي بصعوبة على تلقي اللآلئ، وسلّمني خمسة عشر ألف بيزو، وبالتالي أصبحتُ أملك سبعة وعشرين ألف بيزو. والآن أصبح الأمر يتعلّق بإنجاح الصفقة الثالثة.

كيف وبأيّ طريقة سأتصرّف وأتعامل مع آمر السجن؟ إنّ عاملاً ماهراً يكسب في كولومبيا بين ثمانية وعشرة بيزو في اليوم. إذاً، مبلغ سبعة وعشرين ألف بيزو مبلغٌ ضخم. قرّرتُ أن أدقّ الحديد وهو حام. لقد حصل آمر السجن على ثلاثة وعشرين ألف بيزو. وإذا ما أُضيف هذا المبلغ الذي بحوزتي، سوف يملك خمسين ألفاً.

توجّهتُ إليه، قائلاً:

- أيّها الآمر، كم تحتاج تجارة حتى تجعل شخصاً ما يعيش عيشة أفضل مما تعيشها أنت؟

- إنّ تجارة ناجحة تحتاج إلى رأسمالٍ يتراوح بين خمسة وأربعين إلى ستين ألف بيزو.

- وكم سيكون مردودها؟ ثلاثة أضعاف ما تكسب؟ أربعة أضعاف؟

- بل أكثر من ذلك، سوف تدرّ دخلاً يعادل خمسة أو ستة أضعاف ما أحصل عليه الآن.

- ولماذا لا تصبح تاجراً؟

- سوف يلزمني ضعف ما أملك الآن.

- اسمع أيّها الآمر، لدي صفقة ثالثة أعرضها عليك.

- لا تحاول العبث بي.

- لا، أؤكّد لك. هل تريد مبلغ سبعة وعشرين ألف بيزو الذي أملكه؟ سيكون المبلغ لك حينما تشاء.

- كيف ذلك؟

- دعني أهرب من السجن.

- اسمع أيّها الفرنسي، أنا أعلم أنّك لا تثق بي. قبل الآن، ربّما كنت

على حقٍّ في ذلك. أمّا الآن وقد خرجتُ بفضلك من حالة البؤس أو أكاد، ويمكنني أن أشتري منزلاً وأن أرسل أطفالي إلى المدرسة الخاصّة، فاعلم أنّي صديقك. لا أريد أن أسرقك أو أتسبّب بقتلك؛ هنا لا يمكنني أن أفعل لك أيّ شيء، حتى لقاء ثروة كبيرة. لا يمكنني أن أجعلك تهرب من السجن مع فرصٍ للنجاح في ذلك.

- وماذا لو برهنتُ لك العكس؟
- سنرى إذاً، لكن فكّر جيّداً قبل ذلك.
- هل لك صديقٌ صيّاد، أيّها الآمر؟
- نعم.
- هل يمكنه أن يخرج إليّ في البحر ويبيعني مركبه؟
- لا أدري.
- كم يساوي ثمن مركبه تقريباً؟
- ألفا بيزو.
- إذا ما دفعتُ له سبعة آلاف ولك عشرين ألفٍ، هل سينجح الأمر؟
- أيّها الفرنسي، يكفي أن تعطيني عشرة آلاف، اترك شيئاً لك.
- رتّب الأمور إذاً.
- هل ستغادر لوحدك؟
- كلا.
- كم شخصاً؟
- ثلاثة أشخاص إجمالاً.
- دعني أفاتح صديقي الصيّاد بالأمر.

سعدتُ للغاية بتغيّر هذا الرجل تجاهي. رغم أنّ وجهه وجه مجرمٍ، كان يخفي في أعماق قلبه أشياءَ جميلة.

في الباحة، تكلّمتُ مع كلوزيو وماتوريت بشأن ما طرحته على آمر السجن، ففوّضاني بأن أفعل ما أراه مناسباً وقالا بأنّهما جاهزان لأن يتبعاني.

قرارهما هذا بإيداع حياتهما بين يدي منحني شعوراً عظيماً بالارتياح. ولن أستغلّ هذه الثقة، بل سأكون حذراً أقصى درجات الحذر، لأنني أخذتُ على عاتقي مسؤولية كبيرة. ولكن عليّ أن أُخبر رفاقنا الآخرين. كنا قد انتهينا من لعبة دومينو، والساعة توشك على التاسعة مساءً، وهي اللحظة الأخيرة لكي نشرب فيها بعض القهوة، فناديت باللغة الإسبانية: «يا صانع القهوة!»، وأخذنا ستة أكوابٍ من القهوة الساخنة.

قلتُ لرفاقي:

- يجب أن أتحدّث إليكم. يجب أن أوضّح لكم الأمور. أعتقد أنني سأستطيع أن أهرب من السجن. ولسوء الحظ، يمكن لثلاثة منّا فقط أن يغادروا، ومن الطبيعي أن أرحل مع كلوزيو وماتوريت الرجلان اللذان هربتُ معهما من سجن الأشغال الشاقّة. إذا كان لدى أحدكم ما يقوله بهذا الشأن، فليفصح عنه بصراحة، سوف أصغي إليه.

قال الفتى البريتاني:

- لا، هذا قرارٌ صحيح بكلّ الأوجه. أوّلاً، لأنكم هربتم معاً من سجن الأشغال الشاقّة، ومن ثَمّ، إذا كنتم ترون أنفسكم الآن في هذا الوضع المزري، فهذا ذنبنا نحن الذين أردنا أن نُبحر إلى كولومبيا. ومع ذلك، نشكرك لأنّك طلبت رأينا. ولكن لك كلّ الحقّ في التصرّف بهذه الطريقة. أعانكم اللّه في نجاحكم في الفرار، لأنّه إذا ما تمّ إلقاء القبض عليكم، فإنّ الموت المحتّم، وفي أبشع الظروف هو ما ينتظركم.

قال كلوزيو وماتوريت بصوتٍ واحد:

- نحن نعلم ذلك.

حدّثني آمر السجن بعد الظهر وأخبرني بأنّ صديقه قد وافق على بيع مركبه، وسألني عمّا نريد أن نحمله معنا في القارب.

- برميلٌ يتّسع لخمسين لتراً من الماء العذب، وخمسة وعشرون كيلوغراماً من طحين الذرة وست لترات من الزيت. هذا كلّ شيء.

صرخ الآمر مندهشاً:

- اللعنة! لا يمكنك أن تُبحر بهذه الأشياء القليلة!

- بلى.

- أنت رجلٌ مقدام، أيّها الفرنسي.

قُضي الأمر. لقد عزم على القيام بالعملية الثالثة. أضاف ببرود: «إن شئت أن تصدّق أو لا تصدّق، أنا أقوم بهذا من أجل أطفالي أوّلاً ثمّ من أجلك، وأنت تستحقّ ذلك لشجاعتك».

عرفتُ أنّه صادقٌ في كلامه، وشكرته على ذلك.

سألني:

- ماذا ستفعل حتى لا ينكشف تواطؤي معك؟

- لن تتحمّل المسؤولية، إذ سأرحل في الليل حينما يكون الآمر الثاني مناوباً.

- ما هي خطّتك؟

- ابدأ غداً بإنقاص شرطيٍّ واحدٍ من الحراسة الليلية. وبعد ثلاثة أيام، ستقوم بإنقاص شرطيٍّ آخر. وحينما لا يبقى سوى شرطيٍّ واحدٍ في الحراسة، ستنصب محرساً قبالة باب الزنزانة. في أوّل ليلة ماطرة، سوف يلجأ الحارس المناوب إلى المحرس للاحتماء من المطر، وحينئذٍ سوف أقفز من النافذة الخلفية. بالنسبة إلى الإنارة المحيطة بالجدار، يجب أن تجد الوسيلة لقطع التيار. هذا كلّ ما أطلبه منك. يمكنك قطع التيار بنفسك وذلك من خلال الاستعانة بسلكٍ نحاسي بطول مترٍ واحدٍ، وتربط حجرة بكلّ طرفٍ من طرفيه ثمّ ترميه على السلكين الموصولين بخط المصابيح التي تُنير فوق الجدار. أمّا بالنسبة إلى صديقك الصيّاد، فيجب أن يكون القارب مربوطاً بسلسلة يقوم هو بنفسه بخلع القفل بحيث لا أُضطرّ لأن أضيّع وقتي به، وأن تكون الأشرعة جاهزة للرفع مع ثلاثة مجاديف ضخمة لنُقلع بها.

قال الآمر معلّقاً:

- ولكن هناك محرّك صغير في المركب.

- آه! هذا أفضل إذاً: فليشغّل المحرّك في وضعية التوقّف كما لو أنّه يقوم بإحمائه وليذهب بعدها إلى أقرب مقهى ويشرب كحولاً. وحينما يرانا نصل، عليه أن يقف بقرب القارب مرتدياً مشمّعاً أسود اللون.

- وماذا عن المال؟

- سوف أقطع كلّ ورقة نقدية من مبلغ العشرين ألف بيزو إلى نصفين. أمّا مبلغ سبعة آلاف بيزو فسوف أدفعه مقدّماً للصياد. بالنسبة لك، سوف أعطيك مقدّماً نصف الأوراق النقدية والنصف الآخر سوف يُدفَع لك من أحد الفرنسيين والذي سيبقى هنا في السجن، وسوف أحدّده لك.

- ألا تثق بي؟ هذا أمرٌ سيِّئ.

- لا، المسألة ليست أنني لا أثق بك، ولكن قد ترتكب خطأً في قطع التيار الكهربائي وحينها لن أدفع لك، لأنني لا أستطيع الرحيل من دون قطع التيار الكهربائي.

- حسناً.

أصبح كلّ شيء جاهزاً. بوساطة آمر السجن، أعطيتُ السبعة آلاف بيزو للصياد. ها قد مضت خمسة أيام ولا يوجد سوى حارس واحد في المناوبة. نُصبَ المحرس وأصبحنا ننتظر المطر الذي لم يهطل. وكان القضيبُ المعدني قد نُشِرَ بمنشارٍ أُحضِرَ لنا من جانب آمر السجن، وسُدّ الشقّ المفتوح فيه وأُخفي - فوق كلّ شيء - بقفصٍ يعيش فيه ببغاء بدأ يقول بالفرنسية «قذارة». أصبحنا على أحرّ من الجمر، وحصل الآمر على أنصاف الأوراق النقدية. ننتظر كلّ ليلة، ولا يهطل المطر. وكان على الآمر، بعد ساعة من بدء هطول المطر، أن يقطع التيار الكهربائي المغذّي للمصابيح فوق الجدار، من الجانب الخارجي. لا شيء، لا شيء، لا أمطار في هذا الفصل، وهذا أمرٌ لا يُصدّق. كانت أصغر سحابة تظهر في الصباح الباكر عبر الشبك تملأ نفوسنا بالأمل، ثمّ لا شيء. أصبحنا على وشك أن نفقد صوابنا. ستة عشر يوماً بلياليها وكلّ شيء جاهز، ونحن في غاية القلق والتوتّر. ذات يوم أحدٍ، في الصباح، جاء آمر السجن بنفسه إلى

الباحة يطلبني ورافقني إلى مكتبه. أعاد إليّ رزمة أنصاف الأوراق النقدية وثلاثة آلاف بيزو بأوراق نقدية كاملة.

- ماذا يحدث؟

- صديقي الفرنسي، لم تعد أمامك سوى هذه الليلة. غداً في الساعة السادسة ستغادرون إلى بارانكيا. لن أعيد إليك سوى ثلاثة آلاف بيزو من الصياد، لأنّه أنفق الباقي. إذا أراد اللّه أن يهطل المطر هذه الليلة، سوف ينتظرك الصياد وحينما تستلم المركب منه، ستُعيد له المبلغ. أنا أثق بك، وأعلم أنّه ليس هناك ما أخشاه.

ولم يهطل المطر.

محاولات الفرار في بارانكيا

في الساعة السادسة صباحاً، جاء ثمانية جنود وعريفان برفقة ضابطٍ برتبة ملازم أوّل ووضعوا الأغلال في أيدينا، ووضعونا في شاحنة عسكرية، وقادونا في الطريق إلى بارانكيا. قطعنا المسافة البالغة مئة وثمانين كيلومتراً في ثلاث ساعات ونصف. وفي تمام الساعة العاشرة صباحاً وصلنا إلى سجن يُدعى «سجن الثمانين»، في شارع ميدلين في مدينة بارانكيا. لقد بذلنا الكثير من الجهود لكي لا نذهب إلى بارانكيا، ومع ذلك ها نحن الآن فيها! إنّها مدينة مهمّة، فهي الميناء الكولومبي الأوّل على المحيط الأطلسي، ولكنها تقع عند مدخل مصبّ نهرٍ يُدعى نهر ماجدالينا. أمّا بالنسبة إلى سجنها، فهو سجن مهمّ، إذ يضمّ أربعمئة سجينٍ وفيه قرابة مئة حارسٍ، وهو منظّم مثل أيّ سجنٍ في أوروبا. يسوّره جداران دائريان يبلغ ارتفاع كلٍّ منهما أكثر من ثمانية أمتار.

استُقبلنا من هيئة أركان السجن وعلى رأسها دون غريغوريو، مدير السجن. ويضمّ السجن أربع باحات، اثنتان منها في جانب واثنتان أخريان في جانب آخر، تفصل بينها كنيسة طويلة يُقام فيها القدّاس وتُستخدم أيضاً غرفة لاستقبال الزيارات. وُضعنا في الباحة المخصّصة للسجناء الأكثر

خطورةً. لدى تفتيشنا، عثروا على الثلاثة والعشرين ألف بيزو والسهمين الصغيرين. ارتأيتُ أنّه من واجبي أن أحذّر المدير بأنّهما مسمومان، الأمر الذي زاد في سوء سمعتنا لديه. فقد قال:

– هؤلاء الفرنسيون يحملون معهم حتى سهاماً مسمومة!

كان وجودنا في هذا السجن في مدينة بارانكيا اللحظة الأكثر خطورةً في مغامرتنا. ففي الحقيقة، هنا في هذا السجن، سوف يتمّ تسليمنا للسلطات الفرنسية. نعم، لقد مثّلت بارانكيا، التي اختُزِلَت بالنسبة لنا في سجنها الكبير، العنصر الحاسم. علينا أن نهرب من هذا السجن مهما كلّف الثمن من تضحيات. عليّ أن أقامر بكلّ شيء، فإمّا أن نحصل على كلّ شيء أو لا شيء.

كانت زنزانتنا في وسط الباحة. والحقيقة لم تكن زنزانة، وإنّما قفص: كانت مكوّنة من سقفٍ إسمنتي منصوبٍ على قضيبين معدنيين ضخمين، في إحدى زواياه مرحاضٌ ومغسلة. في حين كان السجناء الآخرون، وعددهم حوالي مئة سجين، موزّعين على زنازين محفورة في الجدران الأربعة لتلك الباحة التي كان عرضها عشرين متراً وطولها أربعين متراً، يغطّيها شبكٌ معدني. وكان يعلو كلّ شبكة ما يشبه مظلّة نسيجية لمنع دخول مياه المطر إلى داخل الزنزانة. لم يكن هناك غيرنا نحن الفرنسيون الستة في هذا القفص المركزي، معروضين في النهار والليل لنظرات السجناء، ولكن على نحوٍ خاصّ لنظرات الحرّاس. كنّا نمضي النهار في الباحة، من الساعة السادسة صباحاً ولغاية السادسة مساءً. وكنّا ندخل إلى الزنزانة ونخرج منها كما نشاء. بوسعنا أن نتكلّم ونتفسّح، بل ونأكل أيضاً في الباحة.

بعد يومين من وصولنا، جمعونا نحن الستة في الكنيسة وبحضور مدير السجن وبعض رجال الشرطة وسبعة أو ثمانية مصوّرين صحافيين.

– هل أنتم فارون من السجن الفرنسي في غويانا؟

– لم ننكر ذلك أبداً.

- ما الجرائم التي ارتكبتموها حتى حُكِم على كلّ منكم بهذه الأحكام القاسية؟

- ليس لهذا الأمر أيّ أهمية. المهمّ هو أننا لم نرتكب أيّ جرمٍ على الأراضي الكولومبية وأنّ بلدكم لم تنكر علينا حقّ البدء بحياتنا من جديد فحسب، بل وتعملون كصائدي رجال ورجال درك لدى الحكومة الفرنسية.

- تعتقد كولومبيا بأنّ عليها ألّا تقبل بكم على أرضها.

- ولكنني شخصياً، وكذلك الحال بالنسبة إلى اثنين من رفاقي، كنّا قد قررنا بالفعل ألّا نعيش في هذه البلاد. لقد أُلقي القبض علينا نحن الثلاثة في عرض البحر، وليس أثناء نزولنا إلى البرّ على أرضكم هذه. على العكس من ذلك تماماً، لقد بذلنا كلّ الجهود الممكنة لكي نبتعد عن هذه الأرض.

قال أحد الصحفيين من صحيفة كاثوليكية:

- الفرنسيون كلّهم تقريباً كاثوليكيون مثلنا نحن الكولومبيين.

- من الممكن أن تكونوا قد عمّدتم ككاثوليكيين، ولكنّ طريقة تصرّفكم لا تمتّ إلى المسيحية في شيء.

- وبماذا تلوموننا؟

- بكونكم متعاونين مع السلطات التي تلاحقنا. بل وتنوبون عنها في أداء عملها. وبأنّكم سلبتم منّا مركبنا مع كلّ ما يخصّنا وهو في الحقيقة ملكنا، كهبةٍ من كاثوليكيي جزيرة كوراساو، ممثّلين على نحوٍ نبيل بالأسقف إيرينيه دو بروين. لا يمكننا أن نجد من المقبول ألّا ترغبوا في المجازفة بتجربة إصلاحنا الإشكالي، وممّا يزيد الطين بلّة، أن تحولوا دون ذهابنا إلى مكانٍ أبعد بأموالنا الخاصّة، إلى بلدٍ قد يقبل بهذه المجازفة. هذا ما لا يمكن القبول به.

- أتحقدون علينا نحن الكولومبيين؟

- ليس على الكولومبيين بذاتهم، وإنّما على نظامهم الأمني والقضائي.

- ماذا تقصد بذلك؟

- أعني أيّ خطأ يمكن تداركه وإصلاحه إذا ما أراد المرء ذلك. دعونا نغادر بحراً نحو بلدٍ آخر.

- سوف نسعى إلى الحصول على ذلك لكم.

حينما عدنا إلى الباحة، قال لي ماتوريت: «حسناً! هل فهمت؟ دعنا لا نختلق أوهاماً هذه المرّة، يا صاحبي! لقد وقعنا في ورطة كبيرة ولن يكون من السهل أن نخرج منها».

- أصدقائي الأعزاء، لا أدري إن كنّا سنصبح أقوى إذا ما كنّا متّحدين، لكنني أريد أن أقول لكم بأنّه بوسع كلّ واحدٍ منكم أن يفعل ما يراه مناسباً له. أمّا أنا، فيجب أن أهرب من هذا السجن الشهير الذي يُدعى «80».

يوم الخميس، نودي عليّ لأذهب إلى قاعة الزيارات، فرأيتُ رجلاً أنيق الهندام في حوالي الخامسة والأربعين من عمره. نظرتُ إليه فوجدتُ أنه يشبه على نحوٍ غريب لويس ديغا.

- هل أنت بابيون؟

- نعم.

- أنا جوزيف، شقيق لويس ديغا. لقد قرأتُ الصحف وجئتُ للقائك.

- شكراً لك.

- هل رأيت أخي هناك؟ هل تعرفه؟

رويتُ له بالتفصيل ملحمة ديغا إلى اليوم الذي افترقنا فيه في المستشفى. أخبرني بأنّ شقيقه موجود في جزر الخلاص، وهو الخبر الذي وصله عبر مرسيليا. تتمّ الزيارات في الكنيسة، أيام الخميس والأحد. أخبرني أنّ في بارانكيا يعيش اثنا عشر فرنسياً جاؤوا مع زوجاتهم بحثاً عن الثروة. وكلهم قوّادون حسبما أعلمني. في حيٍّ خاصٍّ من المدينة، تحافظ ثماني عشرة مومساً على التقليد الفرنسي الرفيع للدعارة، المميّز والحاذق. لا يزال النمط نفسه من الرجال والنساء، من مصر إلى لبنان

ومن إنكلترا إلى أستراليا ومن بوينس آيرس إلى كاراكاس ومن سايغون إلى برازافيل، ينشرون على الأرض مهنتهم، القديمة قدم العالم، ألا وهي الدعارة وطريقة العيش من ورائها.

أعلمني جوزيف ديغا أيضاً أنّ القوادين الفرنسيين قلقون، لأنّهم يخشون أن يتسبّب وصولنا إلى سجن هذه المدينة في زعزعة استقرارهم وإلحاق الضرر بتجارتهم المزدهرة. في الواقع، إذا ما فرّ أحدنا أو العديد من بيننا، سوف تذهب الشرطة للبحث عنهم في «أكشاك» الفرنسيين، حتى لو لم يذهب الفار أبداً إليها طلباً للمساعدة. من هنا، وعلى نحوٍ غير مباشر، هناك خطر أن تكتشف الشرطة الكثير من الأشياء عندهم من قبيل أوراق رسمية مزوّرة وإجازات إقامة منتهية الصلاحية أو باطلة. وسوف يسفر البحث عنّا عن إجراء تحقيقات بشأن الهويّة والإقامة. وهناك نساء بل وحتى رجال قد يتعرّضون لمصاعب جمّة إذا ما انكشف أمرهم.

زوّدني بكلّ أنواع المعلومات، ثمّ أضاف بأنّه يضع نفسه تحت تصرّفي لأيّ شيءٍ كان، وبأنّه سوف يأتي لزيارتي في أيام الأحد والخميس. شكرت هذا الفتى الجسور الذي برهن لي لاحقاً على أنّه كان صادقاً ووفيّاً في وعوده. كما أعلمني أنّ الصحف قد نشرت أنّ السلطات قد اتّفقت مع فرنسا على ترحيلنا إليها. حينما عدتُ إلى الزنزانة أخبرتُ رفاقي بالأمر:

– هيه يا سادة! لدي الكثير من الأمور لأخبركم بها.

صاح الخمسة في جوقة:

– ماذا؟

– قبل كلّ شيء، يجب ألّا تساورنا الأوهام، فقد تمّ حسم أمر ترحيلنا وتسليمنا إلى فرنسا. سوف تأتي سفينة خاصّة من غويانا لتنقلنا من هنا وتُعيدنا إلى حيث كنّا. ثم أنّ وجودنا هنا يقلق قوادينا المقيمين في هذه المدينة وينعمون بالاستقرار فيها. ليس الفتى الذي جاء لزيارتي، فهو لا يبالي بالعواقب، وإنّما زملاؤه في المهنة يخشون أن يهرب أحدنا، فتتسبّب لهم بمشكلات.

قهقه الجميع ضحكاً، ظنّاً منهم أنني أمزح. قال كلوزيو:

- السيّد القواد فلان، هلا سمحت لي بأن أهرب من السجن؟

- الأمر ليس مضحكاً. إذا ما جاءت مومسات للقائنا، يجب أن نخبرهنّ بألّا يعدن لزيارتنا. اتّفقنا؟

- اتّفقنا.

كان في باحتنا، كما أسلفتُ القول، ما يقارب مئة سجينٍ كولومبي، ولم يكونوا بالتأكيد أغبياء. هناك بينهم لصوصٌ حقيقيون ومهرة، ومزوّرون بارعون، ومحتالون بعقلٍ عبقري، ومحترفون في السطو المسلّح، وتجّار مخدّرات، وبعض القتلة الذين تمّ إعدادهم على نحوٍ خاصّ لهذه المهنة، العادية جدّاً في أمريكا، عبر تدريبات وتمارين عديدة. في تلك البلاد، يستأجر الأثرياء ورجال السياسة والمغامرون الناجحون خدمات هؤلاء القتلة الذين يعملون لصالحهم.

كانوا من أعراق وألوان متنوّعة. من ذوي البشرة السوداء الأفريقية لسنغاليين إلى البشرة الشبيهة بلون الشاي الخاصة بشعوبنا الكريول المارتينيكيين؛ ومن ذوي البشرة القرميدية للهنود المنغوليين إلى ذوي الشعر الأملس الأسود المائل للبنفسجي، وصولاً إلى ذوي البشرة البيضاء النقية. أجريتُ بعض الاتصالات، وحاولت استطلاع قدرة وإرادة الفرار عند بعض الأفراد الذين اخترتهم. اكتشفت أنّ معظمهم يعيشون حالتي نفسها، إذ بما أنّهم يخافون أو أنّهم محكومون بأحكام لمدد طويلة، يعيشون في حالةٍ من التأهّب الدائم للفرار.

علاوة على الجدران الأربعة لهذه الباحة المستطيلة، كان يحيط بها طريقٌ دائري مُنارٌ بشدّة في الليل، وفي كلّ زاوية من زواياها برجٌ صغير يأوي إليه حارسٌ مناوب. وبهذه الطريقة، يكون هناك أربعة حرّاس في الخدمة ليلاً ونهاراً، علاوة على حارسٍ في الباحة، يقف أمام باب الكنيسة، ولكن من دون سلاح. كان الطعام كافياً، ويبيع العديد من السجناء أطعمة ومشروبات مثل القهوة وعصير الفاكهة المحلية كالبرتقال والأناناس

والبابايا وسواها، والتي كانت تأتي من الخارج. من وقتٍ لآخر، كان هؤلاء التجار الصغار يقعون ضحايا سطوٍ مسلّحٍ يُنفّذ بسرعةٍ مذهلة. من دون أن يحظوا بالوقت الكافي لرؤية المهاجمين، كانوا يجدون أنفسهم فجأةً وقد شدّت منشفة كبيرة على وجههم لمنعهم من الصراخ، ووضعت مِدْيَةً على خاصرتهم أو رقبتهم ستنغرس عميقاً في جسدهم إذا ما قاموا بأدنى حركة. فكانت الضحية تُجرّد ممّا بحوزتها قبل أن تنبس بكلمة أفٍّ واحدة. كانت لكمة قويّة على قفا الرأس ترافق رفع المنشفة، فلا يتكلّم أحدٌ مهما حدث. في بعض الأحيان، كان التاجر يضبّ ما يبيعه - من قبيل إغلاق حانوته - ويبحث عمّن سدّد له اللكمة. وإذا ما كشفه، تنشب بينهما معركة، تكون غالباً بالسكاكين.

جاء لصّان كولومبيان يعرضان عليّ اقتراحاً. أصغيتُ إليهما بغاية الانتباه. يبدو أنّ في المدينة رجال شرطة لصوصاً. وحينما يكونون في المناوبة في قطّاعٍ ما، كانوا يقومون بإخطار شركائهم ليأتوا ويقوموا بالسرقة في ذلك القطاع.

كان زائراي يعرفانهم جميعاً، وشرحا لي بأنّه سيكون من سوء الحظّ إن لم يكن، خلال الأسبوع، هناك أحد هؤلاء الرجال في نوبة الحراسة أمام باب الكنيسة. سيكون عليّ أن أُدخل مسدّساً خلال الزيارة. سوف يوافق الشرطي اللصّ بسهولة على أن يطرق باب الخروج من الكنيسة والمطلّ على المحرس الصغير الذي يأوي من أربعة إلى خمسة رجال على الأكثر. وحينما نباغتهم والمسدّس في يدنا، لن يستطيعوا منعنا من الوصول إلى الشارع، ولن يبقى علينا سوى أن نختفي وسط حركة السير المزدحمة جدّاً.

لم تعجبني الخطّة كثيراً. فمن أجل إخفاء المسدّس، لا يمكن له أن يكون سوى سلاحٍ صغيرٍ جداً من عيار 6,35 على الأكثر، وبهذا ربّما لا نستطيع أن نخيف الحرّاس بما فيه الكفاية. أو ربّما يسيء أحدهم التصرّف ونضطرّ حينها لقتله، فرفضتُ الخطّة.

لم تكن الرغبة في التحرّك ترهقني وحدي، وإنّما أصدقائي أيضاً. لكن الفارق بيننا هو أنّهم، في بعض الأيام التي يُصابون فيها بالتعب والإرهاق، لا يفعلون شيئاً لإنجاح التحرّك وإنّما لا مانع لديهم أن ينتظروا في السجن إلى حين أن تأتي السفينة وتقلّنا من السجن إلى فرنسا. في الحقيقة، لا يختلف هذا الأمر كثيراً عن الاستسلام التامّ. بل كانوا يناقشون ما قد تُفرَضُ علينا من عقوبات هناك وطريقة التعامل التي تنتظرنا. أغضبتني روح الاستسلام هذه، فقلتُ لهم:

- لا يمكنني حتى أن أصغي إلى هرائكم! حينما ترغبون في الحديث عن هذا المستقبل، افعلوا ذلك بعيداً عني، اذهبوا وتحادثوا في ركنٍ لا أكون فيه. لا يمكن القبول بهذا القدر المحتوم الذي تتحدّثون عنه إلّا إذا كنّا عاجزين. هل أنتم عاجزون؟ هل بيننا منْ هو مخصي؟ إذا ما حدث هذا، أخبروني. لأنني سأقول لكم أيّها الرجال بأنني حينما أفكّر بالفرار من هنا، أفكّر بفرار الجميع. حينما ينفجر دماغي لشدّة التفكير في كيفية التصرّف من أجل الفرار، فهذا لأنني أفكّر في فرار الجميع. وهذا ليس بالأمر السهل، أن نرتّب فرار ستة رجال. وسأخبرك بكلّ صراحة بأنني حينما أرى أنّ موعد الترحيل قد اقترب كثيراً من دون أن نفعل شيئاً، سيكون الأمر بالنسبة لي سهلاً: أقتل شرطياً كولومبياً لكسب المزيد من الوقت. لن يسلّموني لفرنسا إذا قتلت منهم شرطياً. وحينها، سيكون أمامي المزيد من الوقت، ولأنني سأكون وحيداً في فراري، سيكون الأمر أكثر سهولةً.

أعدّ الكولومبيون خطّة أخرى، ليست سيئة الترتيب. في قداس صباح يوم الأحد، تكون الكنيسة دائماً مليئة بالزوار والسجناء. في البداية، يتمّ الاستماع إلى القدّاس معاً، ثمّ بعد أن ينتهي القدّاس، يبقى في الكنيسة السجناء الذين لديهم زيارة. طلب مني الكولومبيون أن أذهب يوم الأحد إلى القداس لأرى بنفسي كيف تسير الأمور لكي نتمكّن من تنسيق التحرّك معاً في يوم الأحد التالي. عرضوا عليّ أن أكون زعيم التمرّد، لكنني رفضت نيل هذا الشرف، لأنني لا أعرف جيّداً الرجال الذين سيقومون به.

أجبتُ نيابةً عن أربعة فرنسيين، في حين رفض الفتى البريتاني والرجل ذو المكواة المشاركة في عملية الفرار. في الواقع، لا مشكلة في ذلك، إذ ليس لهم سوى الامتناع عن الذهاب إلى الكنيسة. أمّا نحن الأربعة، فقد حضرنا قدّاس يوم الأحد. كانت الكنيسة مستطيلة الشكل، تأخذ جوقة مكانها في صدارتها؛ وفي الوسط، يوجد على كلّ جانب بابان يطلّان على الباحات، في حين يطلّ الباب الرئيسي على المحرس، وهو مسدودٌ بشبكٍ معدنيّ، يقف خلفه قرابة عشرين حارساً. وأخيراً يأتي خلفهم الباب الذي يُفضي إلى الشارع. وبما أنّ الكنيسة ممتلئة عن آخرها، يترك الحرّاس الشبك مفتوحاً ويظلّون، خلال القدّاس، واقفين في صفٍّ متراصٍ. وكان من المفترض أن يأتي مع الزوّار رجلان وأسلحة تنقلها نسوة من خلال إخفائها بين أفخاذهنّ. وسوف يقمن بإدخالها بعد أن يدخل الجميع إلى الكنيسة. وستكون الأسلحة عبارة عن مسدّسين كبيرين من عيار 38 أو 45. سوف يستلم زعيم المؤامرة مسدّساً ضخماً من إحدى النسوة والتي ستغادر المكان بعد ذلك في الحال. وعند إشارة الرنّة الثانية من جرس صبّي المذبح، علينا أن نهجم دفعةً واحدة. سيكون عليّ أن أضع مدية كبيرة على عنق المدير، دون غريغوريو، قائلاً باللغة الإسبانية: «أعطِ الأمر بأن يُطلَق سراحنا والخروج من المكان وإلّا قتلتك». في حين سيتكفّل شخصٍ آخر بالقيام بالشيء نفسه مع الخوري. أمّا الثلاثة الآخرون، فسيصوّبون فوهات أسلحتهم، من ثلاث زوايا مختلفة، على رجال الشرطة الواقفين عند شبك المدخل الرئيسي للكنيسة. مع وجود الأمر بقتل أوّل شرطيٍّ يرفض إلقاء سلاحه. أمّا غير المسلّحين، فيجب أن يخرجوا أوّلاً. وسوف نستخدم الخوري والمدير كدرع لحماية ظهورنا. وإذا ما تمّ كلّ شيء بشكلٍ طبيعي، سوف يترك رجال الشرطة بنادقهم على الأرض، فيقوم رجالنا المسلّحون بجمعها وإدخالها إلى الكنيسة. وسوف نخرج بعد أن نغلق الشبك أوّلاً ومن ثَمّ الباب الخشبي. وسيكون المحرس فارغاً لأنّ كلّ رجال الشرطة يحضرون القدّاس مرغمين على

الوقوف. وفي الخارج، سوف تنتظرنا شاحنة مع سلّمٍ صغيرٍ معلّقٍ خلفها لكي نستطيع الصعود إليها بأسرع ما يمكن. وسوف تُقلع الشاحنة فقط بعد أن يصعد إليها زعيم التمرّد، إذ سيكون آخر منْ يصعد إلى الشاحنة. بعد أن شاهدتُ مجريات القدّاس، وافقتُ على الخطّة. وقد جرى كلّ شيء كما وصفه لي فيرناندو.

لن يأتي جوزيف ديغا لزيارتي يوم الأحد. وهو يعلم لماذا، إذ سوف يقوم بتحضير سيارة أجرة زائفة لكي لا نصعد إلى شاحنة، وسوف يأخذنا إلى مخبأ سيعدّه أيضاً. كنتُ قلقاً ومتوتّراً طيلة الأسبوع وأنتظر تنفيذ العملية بفارغ الصبر. استطاع فيرناندو أن يتحصّل على مسدّسٍ بطريقة أخرى. إنّه مسدّس من عيار 45 مخصّص للحرس الوطني الكولومبي، وهو سلاحٌ مرعبٌ بالفعل. يوم الخميس، جاءت امرأة من طرف جوزيف ديغا للقائي. سيّدة في غاية اللطف وأخبرتني بأنّ سيارة الأجرة ستكون بلونٍ أصفر، وأننا لن نخطئها.

- حسناً. شكراً لكِ.

- أتمنى لكم حظّاً سعيداً.

ثمّ قبّلتني على خدّي بلطف، وبدت أنّها متأثّرة بعض الشيء.

صرخ الخوري:

- هيا ادخلوا، هيا ادخلوا. فلتمتلئ هذه الكنيسة من أجل الإصغاء إلى صوت الربّ.

كلوزيو على أهبة الاستعداد، وعينا ماريورت تلتمعان في حين لا يفارقني الآخر قيد أنملة. أخذت مكاني وأنا في غاية الهدوء. كان دون غريغوريو، المدير، حاضراً، جالساً على مقعدٍ بجانب امرأةٍ بدينة. وقفتُ مسنداً ظهري إلى الجدار، يقف كلوزيو إلى يميني، والآخران إلى يساري، ونحن نرتدي ثياباً مناسبة لكي لا نلفت انتباه الناس حينما نصل إلى الشارع. كنتُ أحتفظ بمديتي مفتوحةً تماماً، مشدودة برباطٍ بلاستيكي إلى

زندي الأيمن، ومخفية تحت كمّ قميصي الكاكي اللون المزرّر جيّداً حتى رسغي. في لحظة رفع كأس القُربان، عندما خفض الجميع رؤوسهم كما لو أنّهم يبحثون عن شيءٍ ما على الأرض، ينبغي لصبي المذبح، بعد أن قرع ناقوسه سريعاً جدّاً، أن يقرع ثلاث رنّات متميّزة، حيث تكون الرنّة الثانية هي إشارتنا المتّفق عليها، وحينها يعرف كلٌّ منّا ما هو المطلوب منه فعله.

قرع الرنّة الأولى، وثمّ الثانية... فارتميتُ على دون غريغوريو، ووضعتُ المدية على رقبته الغليظة المجعّدة. صرخ الخوري باللغة الإسبانية: «الرحمة، لا تقتلوني». ومن دون أن أراهم، سمعتُ الثلاثة الآخرين يأمرون الحرّاس بإلقاء بنادقهم. سار كلّ شيءٍ على ما يرام. أمسكتُ دون غريغوريو من ياقة بذلته الجميلة، وقلتُ له باللغة الإسبانية:

- اتبعني ولا تخف، لن أُلحِق بك أذىً.

واحتُجز الخوري بموسى حلاقة تحت حلقه، بالقرب من مجموعتي. قال فيرناندو باللغة الإسبانية:

- هيّا أيّها الفرنسيون، هيا اخرجوا.

بفرحة الانتصار والنجاح، دفعتُ بكلّ أصحابي نحو الباب المطلّ على الشارع، حينما دوّى صوت طلقتي بندقية في الوقت نفسه. خرّ فيرناندو على الأرض وكذلك أحد المسلّحين، ولكنني واصلتُ التقدّم مع ذلك لمترٍ إضافي، ولكنّ الحرّاس نهضوا وقطعوا علينا الممرّ ببنادقهم. ولحسن الحظ كانت نسوةٌ تفصل بيننا وبينهم، فمنعنهم عن إطلاق النار. ثمّ دوّت طلقتا بندقية أخريان، تبعتهما طلقة مسدّس. سقط رفيقنا الثالث المسلّح بعد أن سنحت له الفرصة ليُطلق رصاصة عشوائية إلى حدٍّ ما لأنّه أصاب فتاةً وجرحها. قال لي دون غريغوريو، وقد شحب وجهه مثل الأموات:

- أعطني المدية.

سلّمتها له، إذ لم يعد هناك جدوى من استمرار المعركة. ففي غضون أقلّ من ثلاثين ثانية، انقلب الوضع رأساً على عقب.

بعد ذلك بأكثر من أسبوع، علمتُ أنّ التمرّد قد فشل بسبب سجينٍ من باحةٍ أخرى كان يحضر القداس بدافع الفضول، من خارج الكنيسة. فبعد الثواني الأولى من بدء العملية، أخبر حرّاس الجدار الدائري، فقفزوا من هذا الجدار البالغ ارتفاعه أكثر من ستة أمتار إلى الباحة، أحدهما من جهة الكنيسة، والآخر من الجهة الأخرى، ومن خلال القضبان الحديدية للأبواب الجانبية أطلقا النار أوّلاً على الشخصين الواقفين على المقعد الطولي، اللذين كانا يهدّدان بأسلحتهما رجال الشرطة. في حين سقط الثالث بعد ثوانٍ من ذلك أثناء مروره في حقل رمي الحارسين. وما تلا ذلك كان عبارة عن «مصارعة ثيران» جميلة. أمّا أنا، فقد بقيتُ إلى جانب المدير الذي كان يصرخ وهو يُعطي الأوامر. وجد ستة عشر شخصاً من بيننا، بما فيهم الفرنسيون الأربعة، أنفسهم وهم يُساقون بقضبان العدالة إلى زنزانة، لا يُقدّم فيها سوى الخبز والماء.

تلقى دون غريغوريو زيارة جوزيف، فاستدعاني وشرح لي بأنّه سيودعني الباحة مع رفاقي إرضاءً لجوزيف. وبفضل جوزيف، كنّا جميعاً ومن ضمننا الكولومبيون من جديد في الباحة بعد مضي عشرة أيام على تمرّدنا، وفي الزنزانة نفسها. بعد أن وصلنا إلى الزنزانة، طلبتُ أن نمنح فيرناندو وصديقيه الذين ماتوا في العملية بعض الدقائق إحياءً لذكراهم وحداداً على أرواحهم. وخلال إحدى الزيارات، شرح لي جوزيف بأنّه قد قام بمسعى بين القوادين وأنّه جمع منهم جميعاً خمسة آلاف بيزو، استطاع بوساطتها أن يُقنع دون غريغوريو بإعادتنا إلى الباحة. وقد علت هذه المبادرة من شأن القوادين لدينا. ما العمل الآن؟ ما الجديد الذي سنبتكره؟ فرغم كلّ ما حصل لن أقرّ بهزيمتي ولن أنتظر، دون أن أفعل شيئاً، وصول السفينة التي ستنقلنا إلى فرنسا!

مستلقياً في حوض اغتسالٍ مشترك، بمنأى عن شمسٍ حارقة، أستطيع أن أتفحّص حلبة الحرّاس على الجدار الدائري دون أن أُثير انتباه أحدٍ. في الليل، كلّ عشر دقائق، يصرخون، كلٌّ بدوره، محذّرين: «أيّها الحرّاس،

كونوا حذرين!» وبهذه الطريقة يستطيع قائد المحرس أنّ يتحقّق من أنّ لا أحد من الحراس الأربعة نائمٌ. وفي حال لم يُجب أحدهم، يمدّد الآخر نداءه إلى أن يردّ. اعتقدت أنني قد وجدتُ ثغرةً. ففي الواقع، كانت تتدلّى من كلّ خيمة، في الأركان الأربعة للطريق الدائري، علبة مربوطة بحبل. وحينما يرغب الحارس في شرب القهوة، ينادي «صانع القهوة» الذي يصبّ له كوباً أو كوبين من القهوة في العلبة، وليس على الحارس سوى أن يسحب الحبل. والحال أنّ للخيمة التي تقع في أقصى اليمين ما يشبه برجاً صغيراً يتقدّم قليلاً على الباحة. وقلتُ في نفسي لو أصنع خطّافاً كبيراً مربوطاً بطرف حبلٍ مجدول، لا بدّ أنّه سيعلّق بالجدار بسهولة، وبالتالي سأستطيع، خلال ثوانٍ قليلة، أن أعبر الجدار المطلّ على الشارع. لكن تبقى مشكلة وحيدة: كيف أتمكّن من تحييد الحارس؟

رأيته ينهض ويسير بضع خطواتٍ على الجدار الدائري. أعطاني الانطباع بأنّه غير مرتاح بسبب الحرارة ويُكافح لكي لا يغالبه النعاس، فينام. هذا هو، بحق الجحيم! يجب أن ينام! سوف أصنع حبلاً قبل كلّ شيء وإذا ما وجدتُ خطّافاً مضموناً، سأجعله ينام وأجرّب حظي. خلال يومين، جدلتُ حبلاً يقارب طوله سبعة أمتارٍ من كلّ القمصان النسيجية القويّة التي استطعتُ العثور عليها، خاصّة القمصان الكاكية. وكان تأمينُ خطّافٍ سهلاً نسبياً. استعنتُ بمسند إفريز مثبّت فوق باب الزنزانة لحمايتها من الأمطار. وجلب لي ديغا زجاجة فيها مادّة منوّمة قويّة جدّاً. وحسب التعليمات، يجب أن تؤخّذ عشر قطرات منها فقط. كانت الزجاجة تحتوي على ما يقارب ست ملاعق شراب كبيرة الحجم. عوّدتُ الحارس على أن يقبل بأن أقدّم له القهوة. كان يُدلي بعلبته فأصبّ فيها في كلّ مرّة ثلاثة أكواب من القهوة وأرسلها له. وبما أنّ الكولومبيين جميعهم يحبّون الكحول وللمادة المنوّمة نكهة اليانسون، حصلتُ على زجاجة من اليانسون. قلتُ للحارس:

– هل ترغب في كوبٍ من القهوة على الطريقة الفرنسية؟

- وكيف تكون القهوة على الطريقة الفرنسية؟
- يُضاف إليها القليل من اليانسون.
- جرّب، سوف أتذوق طعمها أوّلاً.

تذوّق العديد من الحرّاس قهوتي المحضّرة مع اليانسون، والآن حينما أقدّم لهم القهوة، يقولون لي: «على الطريقة الفرنسية! إذا سمحت». فأسكب في الحال بعض اليانسون في قهوتهم.

دقّت ساعة الصفر، عند منتصف الظهيرة من يوم السبت. كان الطقس حارّاً جدّاً، ويعلم أصدقائي أنّه من المستحيل أن يكون هناك مجال لمرور اثنين معاً، ولكن أحد الكولومبيين ذي الاسم العربي، علي، أخبرني بأنّه سيصعد بعدي، ووافقت على ذلك، لأنّ هذا الطريق يجنّبنا على الأقل أن يكون أحد الفرنسيين متواطئاً وبالتالي يُعاقب لاحقاً. من جهة أخرى، لا يمكنني أن أحمل معي الحبل والخطّاف، لأنّ الحارس سيكون له الوقت الكافي لكي يراقبني حينما أقدّم له القهوة. وكنّا نعتقد بأنّه يجب أن ينتهي الأمر برمّته في غضون خمس دقائق. كانت الساعة الثانية عشرة إلا «خمس دقائق». سألت الحارس:

- هل أنت بخير؟
- نعم.
- هل ترغب في قهوة؟
- نعم، على الطريقة الفرنسية، فهذا أفضل.
- انتظر، سأحضرها لك.

ذهبتُ إلى صانع القهوة وطلبتُ منه كوبين. وكنتُ قد أفرغتُ كلّ زجاجة المنوّم في علبتي. وإن لم يسقط بهذه الكمية طريحاً مثل خشبة! ذهبتُ إلى أسفل برجه وجعلته يراني أسكب اليانسون على نحوٍ ظاهرٍ.

- هل تُريدها ثقيلة؟
- نعم.

أضفتُ إليها القليل أيضاً، وسكبتُ المزيج كلّه في علبته، ورفعها في الحال.

مرّت خمس دقائق، ثمّ عشر دقائق، خمس عشرة دقيقة، عشرون دقيقةً، ولكنّه لم ينم. والأنكى من ذلك، بدل أن يجلس، سار بضع خطوات، وهو يحمل بندقيته في يده، جيئة وذهاباً، رغم أنّه شربها كلّها. وكان موعد تبديل الحراسة في الساعة الواحدة.

راقبتُ حركاته كما لو أنني على جمر متّقد. لم يكن هناك أيّ شيء يدلّ على أنّه مخدّر. آه! لقد تعثّر. جلس أمام المحرس، واضعاً بندقيته بين ساقيه. مال رأسه على كتفه. تابع أصدقائي ورجلان أو ثلاثة من الكولومبيين المطّلعين على خطّتي بلهفتي نفسها ردود فعله.

قلتُ للكولومبي:

- هيّا. هات الحبل!

كان يتهيّأ لإلقاء الحبل حينما نهض الحارس تاركاً بندقيته تسقط أرضاً، تمطّى وحرّك ساقيه كما لو أنّه يراوح في مكانه. بقي أمامنا من الوقت ثماني عشرة دقيقة فقط قبل تبديل نوبة الحراسة. فبدأتُ أُناجي الربّ في ذهني داعياً أن ينجدني: «أتضرّع إليك، ساعدني مرّة أخرى! أتوسّل إليك ألّا تتخلّى عني!» ولكنّه كان من العبث أن أتضرّع إلى ربّ المسيحيين هذا، الذي قلّما يتعاطف في بعض الأحيان مع البشر، خاصّة بالنسبة لي، أنا الملحد.

قال كلوزيو وهو يقترب منّي:

- يا إلهي! من العجيب ألّا ينام هذا الأبله!

أراد الحارس أن يلتقط بندقيته، وفي اللحظة التي انحنى ليلتقطها، هوى بكلّ طوله على الطريق الدائري كما لو أنّه صُعِقَ. ألقى الكولومبي الخطّاف، ولكنّ الخطّاف لم يعلق وسقط من جديد. ألقاه مرّة ثانية، فعلق وسحبه قليلاً ليرى إن كان قد ثبت على نحوٍ جيد. تحقّقتُ منه بدوري،

وفي اللحظة التي وضعتُ فيها قدمي على الجدار لأقوم بأوّل شدٍّ وأبدأ بالصعود، قال لي كلوزيو:

- احذر! ها قد أقبلت الدورية البديلة.

حظيتُ بالوقت الكافي لكي أنسحب قبل أن أنكشف. تأثّر ما يقارب عشرة كولومبيين بهذه اللحظة التي كشفت عن روحٍ دفاعية ورفاقية من جانب السجناء، وأحاطوا بي سريعاً وضمّوني إلى مجموعتهم. سرنا على طول الجدار، تاركين خلفنا حبلنا المدلّى. لاحظ أحد الحرّاس من الدورية بالنظرة نفسها الخطّاف والحارس المرتمي مع بندقيته. ركض لمسافة مترين أو ثلاثة وضغط على زرّ الإنذار، مقتنعاً بأنّ هناك عملية فرار.

جاؤوا لنقل المغمى عليه بنقّالة. حضر أكثر من عشرين رجلَ شرطة على الطريق الدائري. كان دون غريغوريو معهم وسحب الحبل، وأمسك الخطّاف بيده. بعد لحظات، طوّق رجال الشرطة الباحة وهم يصوبون بنادقهم.

تمّ إجراء التفقّد. وعند المناداة بكلّ اسم، كان على السجين أن يعود إلى زنزانته. وكانت المفاجأة! لم يكن هناك أيّ سجين غائب. تمّ احتجاز الجميع في الزنزانات وإقفال أبوابها عليهم، كلٌّ في زنزانته.

ثمّ جرت عملية تفقّد وتحقّق ثانية في كلّ زنزانة على حدة، فكانت النتيجة هي ذاتها، لم يغب أيّ سجين. حوالي الساعة الثالثة، تركونا من جديد نخرج إلى الباحة. علمنا أنّ الحارس يغطّ في نومٍ عميق، وأنّ جميع الوسائل المُستخدَمة لم تفلح في إيقاظه. كان شريكي الكولومبي محبطاً مثلي، فقد كان مقتنعاً بأنّ محاولتنا ستنجح! وقد ثارت ثائرته على المنتجات الأمريكية، لأنّ المادة المنوّمة التي وضعناها في قهوة الحارس كانت أمريكية. سألني:

- ما العمل؟

أجبته باللغة الإسبانية:

- يا صاحبي، سنعاود الكرّة!

هذا كلّ ما وجدته لأقوله له. اعتقدَ أنني أريد القول: نعاود تنويم حارسٍ؛ في حين كنتُ أقصد أن نجد طريقة أخرى. قال لي:

- وهل تعتقد أنّ هؤلاء الحرّاس على هذه الدرجة من الغباء بحيث تجد بينهم شرطياً آخر يريد شرب قهوة على الطريقة الفرنسية؟

ورغم مأساوية هذه اللحظة لم أستطع الامتناع عن الضحك.

- بكلّ تأكيد يا رجل!

ظلّ الشرطي نائماً لثلاثة أيام وأربع ليالٍ. وعندما استيقظ أخيراً، قال بالطبع بأنني لا ريب منْ نوّمته بالقهوة المعدّة على الطريقة الفرنسية. استدعاني دون غريغوريو وواجهني معه. أراد رئيس الحرس أن يضربني بسيفه، فقفزتُ إلى زاوية الغرفة وأثرتُ غضبه. رفع آخرُ سيفه، فاعترضه دون غريغوريو وتلقّى الضربة في كتفه وسقط أرضاً، وقد انكسرت ترقوته، وبدأ يصرخ صراخاً قويّاً بحيث لم يعد الضابط ينشغل سوى به. رفعه عن الأرض، وراح دون غريغوريو يستغيث ويطلب النجدة، فهبّ جميع الموظفين المدنيين من مكاتب مجاورة. تعارك الضابط واثنان آخران من رجال الشرطة والحارس الذي نوّمته مع ما يقارب عشرة مدنيين أرادوا الانتقام لمدير السجن. وسط هذه المعمعة، أُصيب العديد من الأشخاص بجروح طفيفة. وكنتُ الوحيد الذي لم يصبه أيّ شيء. ولم يعد الاهتمام ينصبّ على حالتي، وإنّما حالة المدير والضابط. نُقِل المدير إلى المستشفى، في حين قادني بديله إلى الباحة، وقال:

- سننظر في أمرك لاحقاً، أيّها الفرنسي.

جاء المدير في اليوم التالي وقد وضِعتْ كتفه في الجبس، وطلب مني تصريحاً خطّياً ضد الضابط. كتبتُ تصريحاً بكلّ سرور وضمّنته كلّ ما أراد. وقد نُسيت حكاية المنوّم تماماً، ولم تعد تشغل اهتمامهم، وكانت هذه فرصة لي.

كانت قد مرّت عدّة أيّام، حينما عرض عليّ جوزيف ديغا تنظيم عملية من الخارج. ولأنني أخبرته بأنّ الفرار ليلاً مستحيل بسبب إنارة الطريق الدائري، حاول أن يجد وسيلةً لقطع التيار الكهربائي، وقد وجدها بفضل عاملٍ كهربائي: من خلال إنزال قاطع محوّل كهربائي يقع خارج السجن. أمّا أنا، فبقي عليّ أن أشتري الشرطي المناوب في المحرس الذي يقع في جانب الشارع وكذلك المناوب في محرس الباحة، على باب الكنيسة. وكان الأمر أكثر تعقيداً مما اعتقدنا. في البداية، كنتُ مجبراً على إقناع دون غريغوريو بأن يسلّمني عشرة آلاف بيزو تحت ذريعة إرسالها إلى عائلتي بوساطة جوزيف، وذلك من خلال «إرغامه» طبعاً على القبول بقبض ألفي بيزو لكي يشتري بها هدية لزوجته. ثمّ الوصول إلى منْ ينظّم ترتيب الدوريات ومواعيدها وشرائه هو الآخر. وقد قبض ثلاثة آلاف بيزو، ولكنه رفض التفاوض مع الحارسين الآخرين. فكان عليّ أن أجدهما بنفسي وأتّفق معهما. وبعد ذلك، سأعطيه اسميهما، وهو يقوم بتحديد فترة مناوبتهما التي أحددها له.

أخذ الإعداد لهذا الفرار الجديد أكثر من شهر من وقتي. وأخيراً، تمّ توقيت كلّ شيء. ولأنّه ارتأينا ألّا نكلّف أنفسنا الاتفاق مع شرطي الباحة، قرّرنا أن نقوم بجزّ القضيب المعدني بمنشارٍ معدني. حصلتُ على ثلاثة نصال للمنشار. وقد تمّ تنبيه الكولومبي ذي الخطّاف إليها. فهو سيقوم بجزّ القضيب المعدني الموكل إليه على عدّة مراحل. وفي ليلة العملية، سوف يقوم أحد أصدقائه المتظاهرين بالجنون منذ بعض الوقت بالطرق على قطعة من التوتياء ويغني بأعلى صوته للتغطية على صوت المنشار. يعلم الكولومبي أنّ الحارس لم يشأ التعامل سوى من أجل فرار السجينين الفرنسيين وأخبرنا بأنّه في حال صعد رجلٌ ثالث، سوف يُطلق النار عليه. ومع ذلك أراد أن يجرّب حظّه وقال لي بأنّه حينما نتسلّق الجدار متلاصقين ببعضنا بعضاً وسط الظلام، لن يتمكّن الحارس أن يرى إن كان هناك شخصٌ واحد أو شخصين. سحب كلوزيو وماتوريت القرعة لمعرفة من سيغادر معنا. وقد فاز كلوزيو بالقرعة.

حلّت الليلة الظلماء الخالية من القمر. وقبض الرقيب والشرطيان نصف الأوراق النقدية التي تخصّ كلّ منهم. وهذه المرّة، لم أضطرّ إلى قطعها لأنّها كانت مقطوعة بالأساس إلى نصفين. وكان عليهم أن يذهبوا لاستلام الأنصاف الأخرى في باريو شينو (الحي الصيني)، في منزل زوجة جوزيف ديغا.

انطفأ الضوء، فانكببنا على القضيب المعدني وتمّ جزّه في أقلّ من عشر دقائق. خرجنا من الزنزانة بالسروال والقميص الداكنين. انضمّ إلينا الكولومبي في الممرّ، وهو عارٍ تماماً، لا يرتدي سوى سروال داخلي أسود اللون. صعدتُ الشبك المعدني لباب الزنزانة، المفتوح في الجدار، والتففتُ على الإفريز، وألقيتُ الخطّاف المربوط بحبلٍ طوله ثلاثة أمتار. أصبحتُ على الطريق الدائري في أقلّ من ثلاث دقائق دون أن أُحدث أيّ ضجّة. انبطحتُ على بطني وانتظرتُ كلوزيو. كانت ليلة ظلماء، وفجأةً رأيتُ، أو بالأحرى خمّنت أنّ يداً تمتدّ، فأمسكتُ بها وسحبتها. فصدر ضجيجٌ مرعب، وذاك لأنّ كلوزيو مرّ بين الإفريز والجدار وعلق من مقبض حزام سرواله بالصفيحة المعدنية. وبالطبع توقّفتُ عن سحبه عند صدور الضجيج، فسكت لوح التوتياء. سحبتُ كلوزيو من جديد ظنّاً مني أنّه قد تحرّر من اللوح المعدني، ووسط هذا الصخب الذي يصدره لوح التوتياء، انتزعته بالقوّة ورفعته إلى أعلى الطريق الدائري. انطلقت أعيرة نارية للبنادق من مراكز أخرى، ولكن ليس من مركزي. أُصبنا بالذعر من هذه الطلقات، فقفزنا إلى الجانب الخاطئ، في الشارع الذي ينخفض عن أعلى الجدار بتسعة أمتارٍ في حين كان في الجانب الأيمن شارعٌ آخر ينخفض عن أعلى الجدار بخمسة أمتارٍ فقط. وكانت النتيجة أن انكسرت ساق كلوزيو اليمنى مرّة أخرى، في حين لم أعد أستطيع النهوض إذ انكسرت قدماي. وسوف أعلم فيما بعد أنّ الكسور كانت في العقبين. أمّا الكولومبي، فقد انخلعت ركبته. أخرج صوت الأعيرة النارية للبنادق الحرّاس إلى الشارع، فأحاطوا بنا تحت ضوء مصباحٍ كهربائيٍّ ضخم.

بكيتُ حنقاً وغيظاً. علاوة على ذلك، لم يشأ رجال الشرطة أن يصدّقوا بأنني لا أستطيع النهوض. عدتُ إلى السجن زاحفاً على ركبتي وتحت المئات من ضربات أعقاب البنادق. في حين كان كلوزيو يقفز على ساقٍ واحدة، وكذلك الحال بالنسبة إلى الكولومبي. كنتُ أنزف بغزارة من جرحٍ في رأسي ناجمٍ عن ضربة من أخمص بندقية.

أيقظت طلقات البنادق دون غريغوريو النائم في مكتبه لأنّه كان، لحسن الحظّ، مناوباً في تلك الليلة. فلولا وجوده، لقُضي علينا بضربات أعقاب البنادق وحرابها.

وأكثر من انهال عليّ ضرباً هو بالتحديد الرقيب الذي كنتُ قد دفعتُ له رشوةً لكي يعيّن الحارسين المتواطئين. أوقف دون غريغوريو هذه الهجمة الوحشية الشرسة، بعد أن هدّدهم بإحالتهم إلى المحاكم إذا ما أصابونا بجروحٍ خطيرة، فشلّت هذه الكلمة السحرية الجميع.

في اليوم التالي، تمّ وضع ساق كلوزيو في الجبس في المستشفى الذي نُقِلَ إليه. وأُعيدت ركبة الكولومبي المخلوعة إلى مكانها من سجينٍ خبيرٍ في التجبير، ولُفّت بضمادٍ. أثناء الليل، انتفخت قدماي كثيراً بحيث أصبحت كلّ قدمٍ ضخمة بحجم رأسي، واحمرّتا وازرقتا من الدم وتورّمت إلى أقصى درجة، فجاء الطبيب وغطسهما في ماءٍ فاترٍ ومملّح، ثمّ علق عليهما العلق الماصّ للدم ثلاث مرّات في اليوم. وحينما كانت العلقة تمتلئُ بالدماء تسقط من تلقائها، فتوضع في إناءٍ مليءٍ بالخل لتفرغ فيه ما في جوفها من دم. في حين أغلقت ست قطب جرح رأسي.

وكنتيجة لكلّ هذا، نشر صحافيٌّ مقالة ضدّي، روى فيها أنني كنتُ زعيم التمرّد الذي وقع في الكنيسة، وأنني قد «سمّمتُ» حارساً، وأنني في نهاية هذه الأفعال دبّرتُ عملية فرار جماعي بالتواطؤ مع أشخاصٍ في خارج السجن إذ قاموا بقطع التيار الكهربائي عن الحيّ من خلال الهجوم على محوّلٍ كهربائي. ثمّ ختم مقالته بالعبارة التالية: «فلنأمل أن تأتي فرنسا بأقرب وقتٍ ممكن وتخلّصنا من مجرمها الأخطر».

جاء جوزيف للقائي، بصحبة زوجته آني. حضر الرقيب ورجال الشرطة الثلاثة كلٌّ بمفرده ليقبضوا النصف الآخر من الأوراق النقدية. جاءت آني تسألني ما عليها أن تفعله. فأخبرتها بأن تدفع لهم المبلغ لأنّهم أوفوا بالتزاماتهم، وإذا كنّا قد فشلنا، فهذا ليس خطأهم.

ظلّوا لأسبوعٍ كامل يجولون بي في الباحة في عربة معدنية كنتُ أستخدمها بمثابة سريرٍ لي، أتمدّد فيها، وقدماي المرفوعتان تستندان على ضمادٍ من القماش مشدودٍ بين قطعتين من الخشب مثبّتتين عامودياً على ذراعي العربة. وهذه هي الوضعية الوحيدة الممكنة لئلا أتألّم كثيراً. لم يكن بوسعي أن أضغط بقدميّ الضخمتين، المتورّمتين والمحتقنتين بالدم المتخثّر، على أيّ شيءٍ كان، حتى في وضعية الاستلقاء. ومن خلال هذا الترتيب، كنتُ أتألّم على نحوٍ أخفّ. وبعد انقضاء أسبوعين على كسر قدميّ، خفّ الورم بمقدار النصف وتمّ نقلي إلى مركز التصوير الشعاعي لتصويرهما. وعلمتُ أنني سأبقى مدى الحياة بقدمين مسطّحتين.

نشرت الصحيفة اليومية خبراً مفاده أنّ في نهاية الشهر سوف تصل السفينة التي ستأتي لنقلنا إلى فرنسا وعلى متنها مجموعة من رجال الشرطة الفرنسيين لمرافقتنا. وقد كشفت الصحيفة أنّ السفينة تُدعى «مانا». نحن في يوم 12 أكتوبر / تشرين الأوّل، وبالتالي لم يبق أمامنا سوى ثمانية عشر يوماً، ولذلك يجب أن ألعب ورقتي الأخيرة. ولكن أيّ ورقة، بقدميّ المكسورتين؟

كان جوزيف محبطاً. وخلال زيارته لي، روى لي أنّ جميع الفرنسيين والفرنسيات المقيمين في باريو شينو منزعجون لرؤيتهم لي وأنا أكافح كلّ هذا الكفاح من أجل حريتي ومع ذلك يرون بأنني سوف أُسلّم للسلطات الفرنسية في غضون بضعة أيامٍ فقط، وأنّ وضعي يُقلق كلّ المستعمرة. شعرتُ بالارتياح حينما عرفتُ أنّ هؤلاء الرجال والنساء يتضامنون معي معنوياً.

تخلّيتُ عن مشروع قتل شرطي كولومبي، لأنني في الواقع لا أستطيع

أن أقرّر إنهاء حياة رجلٍ لم يفعل بي أيّ شيء. وفكّرتُ في نفسي بأنّه قد يكون له أبٌ أو أمٌّ يساعدهما، كما قد يكون له زوجة وأطفال. وقد ابتسمتُ وأنا أفكّر بأنّه سيكون عليّ أن أجد شرطياً شريراً ولا عائلة له. على سبيل المثال، يمكنني أن أسأله: «إذا قتلتُك، ألن يكون هناك أحدٌ يشتاق إليك؟» أنا محبطٌ في هذا الصباح من اليوم الثالث عشر من أكتوبر / تشرين الأوّل. نظرتُ إلى قطعة من حجر حمض البيكريك والتي، بعد أن أتناولها، قد تُصيبني بمرض اليرقان. وإذا ما نُقلتُ إلى المستشفى لتلقي العلاج، قد أتمكّن من الفرار من المستشفى بمساعدة رجال يقوم جوزيف بدفع رشوة لهم. في اليوم التالي، 14 أكتوبر / تشرين الأوّل، أصبح لون جسمي أكثر اصفراراً من الليمون. جاء دون غريغوريو لرؤيتي في الباحة، حيث كنتُ مضطجعاً على عربتي في الظلّ، وقدماي مرفوعتان في الهواء. سريعاً ومن دون لفّ أو دوران ودون حذر داهمته. قلتُ له:

– لك عشرة آلاف بيزو، إذا ما نقلتني إلى المستشفى.

– سوف أحاول أيّها الفرنسي. لا من أجل عشرة آلاف بيزو، وإنّما لأنّه يؤلمني أن أراك وأنت تكافح كلّ هذا الكفاح عبثاً من أجل حريتك. ولكنني لا أعتقد أنّهم سيبقونك في المستشفى، بسبب هذه المقالة المنشورة في الصحيفة. سوف يخافون.

بعد ساعة من لقائنا، أرسلني الطبيب إلى المستشفى. ولكن لم تطأ قدماي أرضها. فقد أنزلوني من سيارة الإسعاف على نقّالةٍ، أعادوني إلى السجن بعد ساعتين بعد فحصٍ دقيق وتحليلٍ للبول دون أن أتحرّك من النقّالة.

وصلنا إلى يوم الخميس، 19 أكتوبر / تشرين الأوّل. جاءت آني، زوجة جوزيف، برفقة زوجة رجلٍ كورسيكي، وقد جلبتا لي معهما بعض السجائر والحلويات، وأراحتاني أيما راحة بكلماتهما اللطيفة. وقد حوّلت الأشياء الأكثر جمالاً، أي تجلّي صداقتهما النقية، ذلك اليوم «المرير» إلى ما بعد ظهيرة مشمسة. لن أستطيع أبداً أن أعبّر عن عظيم

الجميل الذي أسداه لي تضامن الناس خلال إقامتي في السجن «80». ولا كم أنا مدينٌ لجوزيف ديغا الذي ذهب إلى حدّ المخاطرة بحريته ومكانته من أجل مساعدتي على الفرار.

لكنّ جملة من جمل آني ألهمتني فكرة، فقد قالت أثناء الحديث:

- عزيزي بابيون، لقد فعلت كلّ ما هو في طاقة البشر لكي تستعيد حريتك. لقد كان القدر قاسياً جدّاً معك. لم يعد ينقصك سوى أن تنسف السجن «80»!

- ولمَ لا؟ لمَ لا أنسف هذا السجن العتيق؟ سيكون هذا بمثابة خدمة أسديها لهؤلاء الكولومبيين. فإذا ما نسفته، ربّما يقرّرون أن يبنوا سجناً جديداً، أكثر صحيّةً.

حينما عانقتُ تلك السيّدتين الشابتين الساحرتين اللتين ودّعتهما الوداع الأخير، قلتُ لآني:

- أخبري جوزيف أن يأتي للقائي يوم الأحد.

حضر جوزيف يوم الأحد، 22 أكتوبر / تشرين الأوّل، فقلتُ له:

- اسمع، افعل المستحيل لكي يجلب لي أحدهم علبة ديناميت وصاعق وسلك بيكفورد. ومن جهتي، سوف أقوم بما هو ضروري للحصول على مثقب وثلاث ريش ثقب.

- ماذا ستفعل؟

- سأنسف جدار السجن في وضح النهار. اتّفق مع سائق سيارة أجرة زائفة على خمسة آلاف بيزو وكلّفه بأن يكون في الشارع الذي يقع خلف شارع ميدلين كلّ يوم من الساعة الثامنة صباحاً وحتى الساعة السادسة مساءً. وأخبره بأنّه سيقبض خمسمئة بيزو كلّ يوم إن لم يحدث شيء وخمسة آلاف بيزو إذا نجحت المحاولة. من خلال الفتحة التي سيفتحها الديناميت، سوف أصل على ظهر رجل كولومبي ضخم إلى سيارة الأجرة وهو سيتكفّل بالباقي. إذا ما أمّنت سيارة أجرة، أرسل لي علبة الديناميت. وإذا لم تستطع تأمينها، فقد انتهى كلّ شيء، ولم يعد هناك من أمل.

قال جوزيف:

- اعتمد عليّ.

في الساعة الخامسة، حملوني على الأيدي إلى الكنيسة. قلتُ إنني أريد أن أصلّي بمفردي، فحُملتُ إلى الكنيسة. طلبتُ أن يأتي دون غريغوريو للقائي، فحضر، وقال لي:

- يا رجل، لم يعد هناك سوى ثمانية أيام لكي تغادرنا.

- ولهذا السبب طلبتُ حضورك إلى هنا. أنت مدينٌ لي بأربعة عشر ألف بيزو. أُريدُ أن أسلّمها لصديقي قبل ترحيلي لكي يرسلها إلى أسرتي، وتفضّل بقبول ثلاثة آلاف بيزو منها أقدّمها هدية من كلّ قلبي لقاء حمايتك المستمرّة لي من سوء معاملة الجنود. سوف تسدي لي خدمة لو أنّك تعيدها إليّ اليوم مع بكرة من ورق اللفّ لكي أجهّزها من الآن وحتى يوم الخميس وأُسلّمها لصديقي.

- حسناً.

عاد وسلّمني اثني عشر ألف بيزو وهي لا تزال مقطوعة إلى نصفين، واحتفظ لنفسه بثلاثة آلاف بيزو.

عدتُ إلى عربتي المتنقلّة وناديتُ الكولومبي الذي غادر معي في المرّة الأخيرة، وانفردتُ به في ركنٍ بعيداً عن الأنظار. شرحتُ له خطّتي وسألته إن كان يشعر بأنّه قادر على أن يحملني على كتفيه إلى مسافة عشرين أو ثلاثين متراً حتى يوصلني إلى سيارة الأجرة. فتعهّد لي بذلك تعهّداً قطعياً، وتمّ تأمين هذا الجانب. تصرّفتُ كما لو أنني متأكّدٌ من أنّ جوزيف سوف ينجح في ترتيب كلّ شيء في الخارج. أخذتُ مكاني تحت المغاسل منذ الصباح الباكر ليوم الإثنين، في حين راح ماتوريت، الذي كان يعمل دائماً مع كلوزيو «سائقاً» لعربتي المتنقلّة، ليُحضر الرقيب الذي كنتُ قد أعطيتُ له ثلاثة آلاف بيزو، والذي ضربني في غاية الوحشية خلال محاولتي الأخيرة للفرار. قلتُ له:

- الرقيب لوبيز، يجب أن أتكلّم معك.

- ماذا تريد؟

- مقابل ألفي بيزو أريدُ مثقباً قويّاً جدّاً بثلاث سرعات وست ريش، اثنتان منها بسماكة نصف سنتمر، واثنتان بسماكة سنتيمتر واحد، واثنتان بسماكة سنتيمتر ونصف.

- ليس لدي مال لأشتريها.

- هاك خمسمئة بيزو.

- سأحضرها لك غداً يوم الثلاثاء عند تبديل الحرس، في الساعة الواحدة. جهّز الألفي بيزو.

في يوم الثلاثاء، حصلتُ على كلّ ما طلبت في الساعة الواحدة، في سلّة مهملات فارغة في الباحة، سلّة مهملات مخصّصة للورق أُفرِغَت عند تبديل الحرس. التقط العملاق الكولومبي بابلو كلّ شيء وأخفاه. في يوم الخميس، 26 أكتوبر / تشرين الأوّل، لم يأتِ جوزيف لزيارتي. وعند مشارف انتهاء موعد الزيارة، نودي عليّ. جاءني رجلٌ مسنّ فرنسي، وجهه مليء بالتجاعيد، وقد جاء من طرف جوزيف. قال لي:

- في قرص الخبز هذا، يوجد كلّ ما طلبت.

- هاك ألفي بيزو لصاحب سيارة الأجرة. كلّ يوم خمسمئة بيزو.

- سائق سيارة الأجرة عجوز بيروفي سريع الانفعال. لا تقلق بهذا الشأن. إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

في صرّة ورقية كبيرة، كي لا يثير قرص الخبز الفضول، وضعوا علب سجائر وأعواد ثقاب ونقانق مدخّنة، وقطعة لحم مقدّد، وعلبة زبدة وعبوة زيت أسود. بينما انهمك حارس الباب في نبش صرّتي، أعطيتُ له علبة سجائر وأعواد ثقاب وقطعتي نقانق مدخّنة. قال لي:

- أعطني قطعة خبز.

لم يكن ينقصني سوى هذا!

- لا، اشترِ الخبز لنفسك. هاك خمسة بيزو، لأن الخبز لا يكفينا نحن الستة.

أوف! لقد خرجتُ من هذا الخطر سالماً. يا لها من فكرة رائعة أن تقدّم نقانق مدخّنة لهذا الرجل! ابتعدت العربة بسرعة عن هذا الشرطي المزعج. لقد فوجئتُ للغاية بطلبه هذا للخبز بحيثُ كنتُ لا أزال أتصبّب عرقاً حينما وصلتُ إلى الزنزانة.

- غداً هو موعد الألعاب النارية. كلّ شيء جاهز هنا، يا بابلو. يجب حفر الثقب بالضبط تحت مقدّمة البرج. لن يتمكّن الشرطي المتمركز في الأعلى من رؤيتك.

- ولكنّه سوف يستطيع أن يسمع الصوت.

- لقد تحسّبتُ لهذا الأمر. في الساعة العاشرة صباحاً، يكون هذا الجانب من الباحة في الظلّ، ويجب أن يقوم أحد عمّال النحاس بتسطيح صفيحة من النحاس من خلال طرقها وتثبيتها كلوحة على الجدار على بعد بضعة أمتارٍ منّا، وبشكلٍ مكشوف. وسيكون من الأفضل إذا كان هناك عاملان. سوف أدفع لكلّ منهما خمسمئة بيزو. اتّفق مع رجلين لأداء هذه المهمّة.

وقد وجد رجلين بالفعل.

- سيقوم صديقان لي بالطرق على النحاس بلا انقطاع، وبالتالي لن يستطيع الحارس أن يميّز ضجيج ريشة المثقب. فقط عليك أنت، في عربتك، أن تتواجد خارج مقدّمة البرج قليلاً وتتحادث مع الفرنسيين. وهذا سوف يخفيني عن الحارس بعض الشيء من الزاوية الأخرى.

خلال ساعة واحدة، تمّ حفر الثقب. بفضل ضربات المطرقة على النحاس والزيت الذي كان يُسكب على الريشة للتخفيف من ضجيجها، لم يشكّ الحارس في أيّ شيء. حشونا الثقب بالمادة المتفجرة وثبّتنا الصاعق فيها، وأوصلناها بالفتيل البالغ طوله عشرين سنتيمتراً. قمنا

بتثبيت الديناميت وإخفائه بمساعدة الصلصال، وانسحبنا من المكان. وإذا ما سار كلّ شيءٍ على ما يُرام، سوف يفتح التفجير ثغرةً في الجدار، وسوف يسقط الحارس مع محرسه، وأنا سأخرج عبر الثغرة ممتطياً كتفي بابلو وأصل إلى سيارة الأجرة. أمّا الآخرون، فسوف يتدبّرون أمورهم. من الناحية المنطقية، سوف يصل كلوزيو وماتوريت، حتى وإن خرجا بعدنا، أسرع منّا إلى سيارة الأجرة.

قبل إشعال الفتيل بالضبط، أخبر بابلو مجموعةً من الكولومبيين بالأمر وقال:

– إذا أردتم أن تهربوا من السجن، ستكون هناك ثغرة في الجدار بعد لحظات قليلة.

– وهذا شيءٌ جيّد لأن رجال الشرطة سوف يركضون ويُطلقون النار على من هم في المؤخّرة والأقرب في مدى رؤيتهم.

أشعلنا النار في الفتيل. دوّى انفجارٌ عنيف وهزّ الحيّ. سقط برج المراقبة إلى الأسفل مع الشرطي. تصدّع الجدار وظهرت فيه شقوق كبيرة في كلّ الجوانب، وكانت الشقوق متباعدة بحيث استطعنا أن نرى الشارع في الجانب الآخر من الجدار، ولكن لم تكن أيّ ثغرة من الثغرات واسعة بما يكفي لأن نمرّ عبرها إلى الخارج. لم تنفتح أيّ فتحة كافية في الجدار، وفي تلك اللحظة فقط، اعترفتُ بأنني قد خسرت وضعت. وكان قدري أن أعود إلى هناك، إلى سجن الأشغال الشاقّة في كايين.

فاق الاستنفار العامّ الذي أعقب ذلك الانفجار حدّ الوصف. كان هناك أكثر من خمسين رجلَ شرطة في الباحة. عرف دون غريغوريو من المسؤول عن هذا التفجير. توجّه إليّ وقال:

– حسناً، أيّها الفرنسي. أعتقد أنّ هذه المرّة هي المرّة الأخيرة.

جنّ جنون قائد الحامية العسكرية واستشاط غضباً. لم يستطع أن يعطي الأمر بضرب رجلٍ جريح، ممدّدٍ في عربة متنقلة، وأنا من جهتي،

لكي لا ألحق الأذى بالآخرين، أعلنتُ جهاراً وبأعلى صوتي بأنني دبّرتُ هذا التفجير بنفسي ولوحدي. توزّع ستة حراسٍ أمام الجدار المتصدّع، وانتشر ستة حراسٍ في الباحة، في حين وقف ستة آخرون في الشارع وتولّوا الحراسة باستمرار إلى أن أجرى البنّاؤون تقيماً للأضرار التي لحقت بالموقع. ولحسن الحظ، لم يلحق أي أذى بالحارس الذي سقط من الجدار الدائري.

العودة إلى سجن الأشغال الشاقّة

بعد ثلاثة أيام، 30 أكتوبر / تشرين الأوّل، في الساعة الحادية عشرة صباحاً، جاء الاثنا عشر حارساً لسجن الأشغال الشاقّة، ببزّاتهم البيضاء، لاستلامنا. وقبل أن نُغادر، تمّت بعض الإجراءات الرسمية: كان على كلٍّ منّا أن يُفصِحَ عن هويّته ويُعرّف عن نفسه. جلبوا ملفاتنا الخاصّة بقياسات أجسامنا وصورنا وبصماتنا وكلّ شيء يخصّنا. وبعد أن تمّ التحقّق من هوياتنا، اقترب القنصل الفرنسي ليوقّع على وثيقةٍ لقاضي الدائرة الذي كان هو الشخص المكلّف بأن يسلّمنا رسمياً إلى فرنسا. اندهش جميع الحاضرين من الطريقة الودّية التي عاملنا بها المراقبون. إذ لم تبدر منهم أي حركة عدوانية ولم يوجّهوا لنا أيّ كلمة قاسية. وكان السجناء الثلاثة الذين كانوا هناك قبلنا بوقتٍ طويل يعرفون العديد من رجال الشرطة وتحدّثوا معهم ومازحوهم كما لو أنّهم زملاء قدماء. قلق رئيس الحرس المرافق، المقدّم بورال لحالتي، فنظر إلى قدميّ وقال لي بأنّه ستتمّ معالجتي على متن السفينة، وأخبرني بأنّ هناك ممرّضاً ماهراً ضمن المجموعة التي جاءت لنقلنا.

كانت الرحلة في قاع هذا المركب مرهقة على نحوٍ خاصّ بسبب الحرارة الخانقة والضيق الذي عانينا منه لكوننا مربوطين مثنى مثنى إلى «قضبان العدالة»[1] التي تعود إلى أيام سجن الأشغال الشاقّة في

1- قضبان العدالة: قضبان معدنية تُربط بها الأغلال المعدنية التي توضع في أقدام السجناء المعاقبين.

تولون. طبعت حادثة واحدة رحلتنا، وهي أنّ السفينة اضطرّت لأن تتزوّد بالوقود في ترينيداد. ما إنْ أصبحت في الميناء، طلب ضابطٌ من البحرية الإنكليزية أن تُنزع أغلالنا. يبدو أنّه كان من الممنوع تقييد أحدٍ على متن سفينة. استغللتُ تلك الحادثة لكي أصفع ضابطاً إنكليزياً آخر، كان ضمن فريق تفتيش السفينة. وقد سعيتُ من خلال هذه الحركة أن يتمّ توقيفي وإنزالي من السفينة إلى الأرض. قال لي الضابط:

– لن أوقفك ولن أنزلك من السفينة إلى الأرض بسبب هذا الجرم الخطير الذي ارتكبته للتوّ. سوف تُعاقب بعقوبة أشدّ بكثير هناك.

لم تتحقق أمنيتي. لا، بالفعل مقدّرٌ عليّ أن أعود إلى سجن الأشغال الشاقّة. من المؤسف أن تنتهي هذه الأشهر الأحد عشر من الفرار ومن المحاولات الكثيرة والمتنوعّة من أجل حريتي هذه النهاية المأساوية. ورغم كلّ شيء، رغم الصخب المدوّي لهذه المغامرات العديدة، فإنّ العودة إلى سجن الأشغال الشاقّة، مع كلّ نتائجها المريرة، لا تستطيع أن تمحي اللحظات التي لا تُنسى التي عشتها.

بالقرب من هذا الميناء في ترينيداد الذي غادرناه للتوّ، على بعد قرابة كيلومترٍ واحدٍ، توجد عائلة بوين التي لا مثيل لها في الروعة. ومررنا ليس بعيداً عن كوراساو، أرض رجلٍ عظيمٍ وهو أسقف تلك البلاد، ايرين دو بروين. وبكلّ تأكيد، مررنا أيضاً على مشارف إقليم هنود غواجيرا حيثُ عرفتُ الحبّ الأكثر شغفاً ونقاءً في شكله العفوي بطبيعة الحال.

وجدتُ كلّ الصفاء الذي يتّسم به الأطفال والطريقة النقية في رؤية الأشياء التي تسم هذا العمر المميّز في دخيلة تلك الهنديات المفعمات بالإرادة والغنيّات بروح التفاهم وبالحبّ وبالنقاء.

وأولئك المجذومون في جزيرة الحمام! هؤلاء المحكومون بالأشغال الشاقّة، البؤساء المصابون بهذا المرض الشنيع والذين وجدوا مع ذلك القوّة في أن يتوفّر في قلوبهم النبل الضروري لمساعدتنا!

وحتى القنصل البلجيكي في طيبته العفوية، وحتى جوزيف ديغا الذي،

من دون أن يعرفني من قبل، عرّض نفسه للكثير من المخاطر من أجلي! كلّ هؤلاء الناس، كل هؤلاء الأشخاص الذين عرفتهم خلال هذا الهروب يستحقون مشقّة الإقدام عليه. حتى وإن لم يكتمل، فإنّ هروبي هو انتصارٌ لمجرّد أنّ روحي اغتنت بمعرفة هؤلاء الأشخاص الاستثنائيين. كلا، لستُ نادماً على القيام بهذا الهروب من السجن.

ها قد وصلنا إلى ماروني ومياهها الموحلة. نحن الآن على متن السفينة مانا. كانت الشمس الاستوائية قد حرقت هذه الأرض. إنّها الساعة التاسعة صباحاً. رأيتُ مصبّ النهر من جديد وعدنا بهدوء إلى حيث كنتُ قد غادرت بسرعة. لزم رفاقي الصمت، وسرَّ المراقبون بالوصول، فالبحر كان هائجاً طيلة الرحلة، والآن يشعر كثيرون منهم بالارتياح.

السادس عشر من نوفمبر/ تشرين الثاني عام 1934.

حينما نزلنا من السفينة، وجدنا حشداً غفيراً من الناس في انتظارنا. أحسسنا بأنّهم ينتظرون بفضول الرجالَ الذين لم يخافوا من الذهاب بعيداً جدّاً. ولأننا وصلنا يوم الأحد، فكان مشهد وصولنا أيضاً ترفيهاً لهذا المجتمع الذي ليس لديه الكثير من الترفيه. سمعتُ بعض الأشخاص يقولون:

– الجريح، هو بابيون، وهذا كلوزيو، وذاك ماتوريت...

وهكذا ظلّوا يؤشّرون علينا.

في ميدان سجن الإصلاح، اصطفّ ستمئة رجلٍ في مجموعات أمام برّاكاتهم. ويقف بالقرب من كلّ مجموعة عددٌ من المراقبين. أوّل من تعرّفتُ عليه كان فرانسوا سييرا، الذي كان يبكي جهراً دون أن يخفي دموعه عن الآخرين. كان جاثماً على نافذةٍ في المستوصف وينظر إلي. أحسستُ أن ألمه حقيقي وصادق. وقفنا وسط الميدان. أمسك آمر سجن الإصلاحية بمكبّر صوت وخطب فينا:

– أيّها المبعدون، لا بدّ أنّكم تأكدّتم من عبث محاولات الفرار. لقد أوقفتكم جميع البلدان لكي يتمّ تسليمكم إلى فرنسا. لا أحد يتقبّلكم.

ولذلك من الأفضل لكم أن تلزموا الهدوء وتُحسنوا التصرّف والسلوك. تسألون عمّا ينتظر هؤلاء الرجال الخمسة؟ ينتظرهم حكمٌ صارم ينبغي عليهم أن يخضعوا له في سجن جزيرة سان جوزيف الانفرادي، أمّا بقية العقوبة فسيقضونها محتجزين مدى الحياة في جزر الخلاص. هذا ما جنوه من محاولتهم الفرار. آمل أن تكونوا قد فهمتم. أيّها المراقبون، خذوا هؤلاء الرجال إلى القسم التأديبي.

بعد بضع دقائق، وجدنا أنفسنا في زنزانة خاصّة في القسم التأديبي تحت الرقابة المشدّدة. ما إنْ وصلنا، طلبتُ منهم أن تتمّ معالجة قدميّ اللتين كانتا لا تزالان متورّمتين ومنتفختين جدّاً. وقال كلوزيو أنّ جبيرة ساقه تؤلمه. يمكننا أن نحاول مرّة أخرى... في حال كانوا سيرسلوننا إلى المستشفى! جاء فرانسوا سييرا مع الحارس المرافق له. قال الشرطي:

- ها هو الممرّض.

قال فرانسوا:

- كيف حالك يا بابيون؟

- أنا مريض وأريد الذهاب إلى المستشفى.

- سوف أحاول أن أرسلك إلى المستشفى، ولكن بعد ما فعلته هناك، أعتقد أنّ هذا سيكون شبه مستحيل، وكذلك الحال بالنسبة إلى كلوزيو.

قام بتدليك قدميّ ودهنهما بمرهم، وفحص جبيرة كلوزيو، ثمّ انصرف. لم نستطع أن نقول أيّ شيء لأنّ رجال الشرطة كانوا حاضرين، ولكن عينيه كانتا تعبّران عن الكثير من اللطف الذي أثّر فيّ أيّما تأثير.

حينما عاد في اليوم التالي، وقام مرّة أخرى بتدليك قدميّ ودهنهما بمرهم، قال لي:

- لا، ليس هناك ما يمكننا فعله. هل تُريد أن تُنقَل إلى زنزانة مشتركة؟ هل يضعون الأغلال في قدميك، في المساء؟

- نعم.

- إذاً، من الأفضل أن تُنقَل إلى زنزانة مشتركة. سيضعون لك الأغلال

هناك أيضاً، ولكنّك لن تكون وحيداً. وفي هذه الفترة، لا بدّ أن يكون أمراً فظيعاً بالنسبة لك أن تجد نفسك في عزلةٍ.
– حسناً.

نعم، إنّ العزلة في هذه الفترة أكثر صعوبة على التحمّل من ذي قبل. فقد كنتُ في حالة نفسية سيئة للغاية بحيث لم أكن بحاجة إلى أن أغمض عيني لكي أسبر أغوار الماضي والحاضر. ولأنني لا أستطيع السير على قدمي، كانت الزنزانة بالنسبة لي أسوأ ممّا كانت عليه.

آه! ها قد عدتُ إلى «طريق العفن». ومع ذلك كنتُ قد استطعتُ أن أنتزع نفسي منه سريعاً جدّاً وحلّقتُ فوق البحر نحو الحرية، نحو بهجة القدرة على أن أكون إنساناً من جديد، نحو الانتقام أيضاً. هذا الدين الذي يدين لي به الثلاثي: بولان ورجال الشرطة الخنازير والمدّعي العام، لا ينبغي أن أنساه. أمّا بالنسبة إلى الصندوق، فلا حاجة إلى تسليمه إلى الحرّاس الواقفين أمام باب الشرطة القضائية. سوف أصل إلى هناك مرتدياً الزيّ الخاصّ بموظّف في شركة «فاغون – لي كوك» للقطارات، معتمراً قبّعة جميلة للشركة. وسوف أضع على الصندوق بطاقة كبيرة، مكتوب عليها: المفوّض العام بينوا، 36، رصيف أورفيفر في باريس (سين). وسوف أحمل بنفسي الصندوق وأوصله إلى قاعة التقارير، ولأنني سأكون قد حسبت ألّا يعمل المنبّه إلا حينما أكون قد انسحبت، لا يمكن للعملية أن تفشل. خفّف إيجاد الحلّ حملاً ثقيلاً عن كاهلي. بالنسبة إلى المدّعي العام، لدي الوقت الكافي لكي أقتلع لسانه من حلقه. لم تتحدّد الطريقة بعد، ولكن الأمر كما لو أنّه قد تمّ. سوف أقتلع هذا اللسان السليط من حلقه إرباً إربا.

ولكن في الوقت الراهن، هدفي الأوّل هو معالجة كسور قدميّ. يجب أن أستطيع السير عليهما بأسرع ما يُمكن. لن أُعرَض على محكمة قبل مضي ثلاثة أشهر، وخلال هذه الأشهر الثلاثة، تحدث أمورٌ كثيرة. شهرٌ لأتمكّن من السير، وشهرٌ لأضع الأمور في نصابها الصحيح، ومن ثَمّ،

عمتم مساءً أيّها السادة، وسأبدأ بمغامرتي الجديدة. ستكون الوجهة هندوراس البريطانية. ولكن هذه المرّة، لن يستطيع أحدٌ أن يقبض عليّ.

البارحة، وبعد مضي ثلاثة أيام على عودتنا، تمّ نقلي إلى الزنزانة المشتركة، حيث ينتظر أربعون رجلاً المحاكمة العسكرية. كان بعضهم متّهمين بالسرقة، وآخرون بالسلب أو بإشعال حرائق متعمّدة أو بالقتل أو الشروع بالقتل أو الاغتيال أو الشروع بالفرار أو الفرار وحتى أكل لحم البشر. كنّا عشرين سجيناً على كلّ جانب من الحاجز الخشبي، مربوطين جميعاً إلى القضيب المعدني نفسه الذي يزيد طوله عن خمسة عشر متراً. في الساعة السادسة مساءً، تُربط القدم اليسرى لكلّ سجين بالقضيب المعدني المشترك بحلقة معدنية. وفي الساعة السادسة صباحاً، يتمّ سحب هذه الحلقات الضخمة، ويمكننا طيلة النهار أن نجلس ونتفسّح ونلعب لعبة الداما، ونتناقش في ما كانوا يسمّونه قناة الطاحونة، وهي عبارة عن ممرّ عرضه متران على طول الزنزانة. في النهار، لم يكن لديّ الوقت لكي أشعر بالضيق والملل. إذ يأتي الجميع للقائي في مجموعات صغيرة لكي أروي لهم مغامرة هروبي. وكان الجميع يصرخون تعجّباً حينما أُخبرهم بأنني قد هجرتُ طواعية قبيلتي من هنود غواجيرا ولالي وزورايما.

قال سجينٌ باريسي وهو يُصغي إلى الحكاية:

– عن ماذا كنت تبحث بحقّ الجحيم، يا رجل؟ عن قطارات كهربائية؟ عن مصاعد؟ عن أفلام سينمائية؟ الضوء الكهربائي مع تياره عالي التوتّر لتشغيل الكرسي الكهربائي؟ أم أنّك كنتَ ترغب في الذهاب للاستحمام في حوض ساحة بيغال؟ هل أنت مجنون؟

ثمّ أردف الرفيق الصغير:

– لديك امرأتان كلّ واحدة منهما أكثر حسناً وجمالاً من الأخرى، وتعيش عارياً وسط الطبيعة مع زمرة كاملة من العراة اللطفاء، وتأكل وتشرب وتصطاد؛ ولديك البحر والشمس والرمل الدافئ وحتى لآلئ المحارات لك، مجاناً، ولم تجد شيئاً أفضل من ترك كلّ هذا للذهاب إلى

أين؟ أخبرني. لكي تعبر الشوارع جرياً حتى لا تدهسك السيارات، لتكون مرغماً على أن تدفع إيجار بيت وأجور خيّاط، وفواتير الكهرباء والهاتف، وإذا أردت أن تمتلك سيارة مستعملة لكي تعمل تاجراً للقطع السليمة من السيارات المستعملة أو تعمل مثل أبله لصالح ربّ عملٍ، فقط لكسب ما هو كفيلٌ بألا تموت جوعاً؟ حقيقة لا أفهم، يا رجل! كنتَ في الجنّة وعُدتَ طواعية إلى الجحيم حيث عليك، علاوة على هموم الحياة، أن تحمل همّ الفرار من جميع رجال الشرطة في العالم الذين يلاحقونك! صحيحٌ أنّ دماءً فرنسية حارّة تجري في عروقك وليس لديك الوقت لترى قدراتك الجسدية والمعنوية وهي تنضب. فعلاً لم أعد أفهم عليك، أنا الذي لدي خبرة عشر سنوات في سجن الأشغال الشاقّة. وأخيراً، على كلّ حال أهلاً بك بيننا، وبما أنّه لديك بكلّ تأكيد النيّة في أن تبدأ من جديد، اعتمد علينا جميعاً لنساعدك. أليس هذا صحيحاً، يا رفاق؟

هل أنتم موافقون؟ وافق الرجال، وشكرتهم على ذلك.

لقد رأيتُ تماماً أنّهم رجالٌ خطيرون. وبحكم اختلاطنا، كان من الصعب ألّا يلاحظ هذا أو ذاك السجين أننا نحمل ماسورة. في الليل، وبما أنّ الجميع مربوطون إلى «قضيب العدالة» المشترك، لم يكن من الصعب قتل أحدهم دون عقاب. كان يكفي أن يوافق حمّال المفاتيح العربي، لقاء مبلغٍ ما من المال، ألّا يغلق الحلقة المعدنية جيّداً في النهار. وبذلك، يمكن للرجل المهني أن يفكّ قيده في الليل ويقوم بما خطّط له ومن ثَمّ يعود بكلّ هدوء وينام في مكانه، بعد أن يحرص على أن يقفل جيّداً حلقته المعدنية. ولأنّ العربي سيكون متواطئاً بشكلٍ غير مباشر، سوف يغلق فمه ولا يكشف الأمر.

ها قد مرّت ثلاثة أسابيعٍ على عودتي إلى السجن. وقد مرّت سريعاً. بدأت أمشي على قدميّ بعضَ الشيء ممسكاً بالقضيب المعدني في الممرّ الذي يفصل بين صفّي الحاجز الخشبي. بذلتُ أولى محاولاتي. رأيتُ في الأسبوع الماضي، أثناء التحقيق، الحراس الثلاثة للمستشفى الذين كنّا قد

قمنا بضربهم ونزع أسلحتهم. كانوا سعداء للغاية لإعادتنا إلى السجن، وكانوا يتمنون أن يأتي يوم ونصادفهم في مكانٍ يكونون مناوبين فيه. لأنّه بعد عملية فرارنا، تعرّض ثلاثتهم إلى عقوبات قاسية: فقد تمّ حرمانهم من إجازتهم التي كان من المفروض أن يقضوها لمدّة ستة أشهر في أوروبا، كما تمّ حرمانهم لمدّة سنة من رواتبهم الإضافية التي يتلقونها بسبب الخدمة في المستعمرات. وبالتالي غنيٌّ عن القول بأنّ لقاءنا لم يكن ودّياً. وقد روينا هذه التهديدات أثناء التحقيق لكي يكون المحقّقون على بيّنة.

سلك العربي سلوكاً أفضل، ولم يقل سوى الحقيقة، دون مبالغة، وساهياً عن الدور الذي لعبه ماتوريت. ألحّ قاضي التحقيق كثيراً لكي يعرف منْ الذي قدّم لنا المركب. أسأنا لأنفسنا حينما روينا له حكايات غير معقولة ولا تُصدّق، مثل صناعة طوّافات بأنفسنا، إلخ.

وبسبب اعتدائنا على الحرّاس، أخبرنا بأنّه سيبذل كلّ ما بوسعه لكي يحصل على حكمٍ لخمس سنوات بالنسبة لي ولكلوزيو، وثلاث سنوات بالنسبة لماتوريت. ثمّ قال:

– وبما أنّك المدعو بابيون، ثق بي أنني سوف أقطع أجنحتكم ولن تكونوا قادرين على الطيران.

خفتُ حقيقةً من أن يكون على صواب.

انتظرنا لأكثر من شهرين حتى أحالونا إلى المحكمة.

حقدتُ على نفسي كثيراً لأنني لم أضع في ماسورتي رأساً أو رأسين من الأسهم المسمومة. لو أنني فعلت ذلك واحتفظت بالأسهم المسمومة، لاستطعتُ ربّما أن أقامر بكلّ شيء في القسم التأديبي. الآن، تتحسّن حالتي يوماً بعد آخر، وأصبحتُ أمشي على قدميّ على نحو أفضل. لا يتخلّف فرانسوا سييرا عن المجي، صباحاً ومساءً وتدليك قدمي بزيت الكافور. وهذه الزيارات والمعالجة بالتدليك أراحتني كثيراً وحسّنت حالة قدميّ وحالتي المعنوية. إنّه لأمرٌ رائعٌ جدّاً أن يكون للمرء صديقٌ في الحياة!

لاحظتُ أنّ هذا الهروب الطويل قد منحنا هيبةً لا جدال فيها لدى كلّ السجناء. وأصبحتُ على يقينٍ بأننا في أمانٍ تامّ وسط هؤلاء الرجال، وأننا لسنا معرّضين لخطر أن يتمّ قتلنا بغرض سرقتنا. وسوف لن تقبل الأغلبية الساحقة بهذا الأمر، ومن المؤكّد أنّ المجرمين سوف يُقتلون. الجميع، دون استثناء، ينظرون إلينا باحترام، بل ويكنّون لنا قدراً من الإعجاب. وكوننا قد تجرأنا على ضرب الحرّاس جعل السجناء يصنّفوننا على أننا جاهزون لفعل أيّ شيء كان. والإحساس بالأمان أمرٌ مهمٌّ للغاية. أصبحتُ أسير كلّ يوم لمسافةٍ أطول من اليوم السابق. وكان سييرا قد ترك لي عبوة صغيرة من الزيت، فتطوّع غالباً بعض الرجال لكي يدلّكوا ليس قدمي فقط، بل وعضلات ساقي التي كان العجز عن الحركة لوقتٍ طويل قد أصابها بالضمور.

عربيٌّ طعاماً للنمل

كان في هذا المهجع رجلان مقلّان في الكلام لا يتحدّثان إلى أحد. يجلسان على الدوام متلاصقين ببعضهما ولا يتحدّثان إلا مع بعضهما بصوتٍ خفيضٍ للغاية بحيث لا يستطيع أحدٌ أن يسمع أيّ شيء من حديثهما. ذات يوم، قدّمتُ لأحدهما سيجارة أمريكية من علبة كان سييرا قد جلبها لي. شكرني ثمّ قال لي:

– هل فرانسوا سييرا صديقك؟

– نعم، إنّه صديقي الأكثر وفاءً.

– ربّما ذات يوم، إذا ما ساء كلّ شيء، قد نرسل لك ميراثنا بوساطته.

– أيّ ميراث؟

– لقد قرّرنا، صديقي وأنا، بأنّه إذا ما نُفّذ فينا حُكم الإعدام، سوف نعطيك ماسورتنا لكي تستخدم ما فيها من أموال لتدبير عملية فرار جديدة. سنعطيها إذاً لسييرا لكي يسلّمها لك.

- هل تعتقدان بأنكما ستُحكمان بالموت؟

- هذا شبه مؤكّد، وهناك فرصة ضئيلة للغاية لننجو من ذلك.

- إذا كان الحكم عليكما بالموت مؤكَّداً إلى هذه الدرجة، فلماذا أنتما هنا في هذا المهجع المشترك؟

- أعتقد أنّهم يخشون من أن ننتحر إذا ما أودعونا في زنزانة منفردة لوحدنا.

- آه! نعم، هذا ممكن. وماذا فعلتما؟

- لقد أطعمنا عربياً للنمل آكل اللحوم. وأنا أكشف لك هذا، لأنّهم، لسوء الحظّ، يمتلكون أدلّة دامغة على جريمتنا. لقد ضُبطنا بالجرم المشهود.

- وأين حدث هذا؟

- عند الكيلومتر 42، في معسكر الموت بعد خليج سباروين.

اقترب رفيقه منّا، وهو رجلُ من تولوز. قدّمتُ له سيجارة أمريكية، فجلس بالقرب من صديقه، أمامي. وقال القادم الجديد:

- لم نسأل قط عن رأي أحدٍ فينا، ولكنني سأكون فضولياً لمعرفة رأيك فينا.

- كيف تُريدني أن أقول رأيي فيكما دون أن أعلم شيئاً عمّا إذا كنتَ على حقٍّ أو مخطئاً في إطعام رجلٍ حيّ للنمل، حتى وإن كان عربياً؟ لكي أعطيك رأيي، يجب أن أعرف كلّ تفاصيل القضية من الألف إلى الياء.

قال الرجل التولوزي:

- سأروي لك الحكاية. معسكر الكيلومتر 42 الذي يبعد لمسافة اثنين وأربعين كيلومتراً من سان لوران، هو معسكرٌ يقع وسط الغابات. هناك، كان المحكومون بالأشغال الشاقّة مرغمين على أن يقطعوا يومياً متراً مكعّباً من الحطب القاسي. كلّ مساء، كان عليك أن توجد في الدَّغَل بعد أن تُرتّب الحطب الذي قطعته. ويأتي المراقبون برفقة حمّالي المفاتيح

العرب ليتحقّقوا إن كنتَ قد أنجزت مهمّتك. حينما يتمّ استلام المتر المكعّب من الحطب، يتمّ التأشير عليه باللون الأحمر أو الأخضر أو الأصفر. ويتوقّف هذا على الأيام، إذ لم يكونوا يقبلون العمل إلا إذا كانت كلّ قطعة من قطع الحطب قاسية. ولكي ننجح في ذلك على أفضل نحو، كنّا نشكّل فريقاً من شخصين. وفي حالات كثيرة، لم نستطع أن ننجز مهمتنا على أكمل وجه. فكنّا نوضع مساءً في زنزانة منفردة دون طعام، وفي الصباح، ونحن لا نزال بلا طعام، يأخذوننا إلى العمل ويُرغموننا على أن نكمل ما نقُصَ في اليوم السابق من حجم العمل، إضافة إلى إنجاز ما يُطلب منّا في اليوم ذاته. كنّا نهلك ونكاد ننفق مثل الكلاب.

«وكلّما يمضي الوقت أكثر، كنّا نصبح أكثر ضعفاً وغير قادرين على إنجاز العمل. وعلاوة على ذلك، كانوا يخصّصون لنا حارساً خاصّاً، لم يكن مراقباً وإنّما رجلٌ عربي. يصل المراقب معنا إلى موقع العمل، ويجلس باسترخاءٍ وراحة، واضعاً سوطه بين ساقيه، ولا يكفّ عن توجيه الإهانات لنا. وحينما يتناول الطعام، يتعمّد إصدار ضجيجٍ من فكّيه لكي يثير رغبتنا أكثر في الطعام ونحن محرومون منه. باختصار، كان يخضعنا لعذابٍ دائم. كنا نملك ماسورتين تحتوي كلّ منهما على ثلاثة آلاف فرنك، لكي نستخدمها في الهروب من السجن. ذات يوم، قرّرنا أن نرشو العربي، لكنّ الوضع أصبح أكثر سوءاً. لحسن الحظّ، اعتقد على الدوام أننا لا نمتلك سوى ماسورةٍ واحدة. كان منهجه سهلاً: كنّا ندفع له خمسين فرنكاً، على سبيل المثال، فيسمح لنا بالذهاب وسرقة بعض الحطب من الأكوام المستلمة في اليوم السابق وبعض الحطب الذي نجا من التأشير عليه ونُعدُّ بذلك الكمية المطلوبة منّا كلّ يوم من الحطب. وبهذه الطريقة، ومن خلال خمسين ومئة فرنكٍ، سحب منّا قرابة ألفي فرنك. ولأننا بتنا متأقلمين مع عملنا وننجز ما هو مطلوبٌ منّا، تمّ سحب العربي من موقع العمل. وعندئذٍ، وظنّاً منّا بأنّه لن يشي بنا لكونه قد سلب منّا الكثير من النقود، بحثنا في الدَّغَل عن الحطب المقطوع لنقوم بالعملية نفسها التي

كنّا نقوم بها بالاتّفاق مع العربي. ذات يوم، لحق بنا العربي، مختبئاً، لكي يرى إن كنّا نسرق الحطب. ثمّ كشف عن نفسه، وقال:

– ها! ها! أنت لا تزال تسرق الحطب من دون أن تدفع! إذا لم تدفع لي خمسمئة فرنكٍ، سوف أشي بك.

وظنّاً منّا أنّ الأمر لا يتعلّق سوى بتهديدٍ، رفضنا أن ندفع له. في اليوم التالي، عاد إلينا، وقال:

– إمّا أن تدفع أو ستكون في الزنزانة المنفردة هذا المساء.

رفضنا طلبه مرّة أخرى. عاد بعد الظهر برفقة بعض الحرّاس. كان الأمر رهيباً، يا بابيون! بعد أن جرّدونا من ثيابنا تماماً، أخذونا إلى حيث الحزم التي أخذنا منها الحطب، وبمتابعة من هؤلاء الوحوش، وتحت سياط العربي، أُجبرنا، جرياً، على أن نحلّ حزمنا من الحطب ونكمل كلّ حزمة من الحزم التي سرقنا منها الحطب. استمرت هذه المعمعة ليومين، دون طعام ولا شراب. كنّا نسقط غالباً من شدّة الإنهاك والجوع، فيرغمنا العربي على الوقوف بالركل أو السوط. وفي النهاية سقطنا أرضاً، ولم يعد بوسعنا أن نفعل شيئاً. وهل تعلم ما الذي حدث لإيقافنا على قدمينا؟ لقد جلب واحداً من هذه الأعشاش، نوعٌ من عشّ الدبابير البريّة، المسكونة باليرعات. قطع الغصن الذي كان العشّ معلّقاً عليه وحطّمه فوقنا. من شدّة الألم الفظيع لم ننهض من مكاننا فحسب، بل وأصبحنا نركض مثل المجانين. من العبث أن نشرح لك حجم الألم الذي عانينا منه. أنت تعرف كم هي مؤلمة لسعة الدبور. تخيّل خمسين أو ستين لسعة. فلسعة هذه اليرعات تؤلم أكثر من لسعة الدبابير. تركونا على الخبز الحافّ والماء فقط في زنزانة منفردة عشرة أيام، دون أن يقدّموا لنا العلاج. بل كانوا يتبوّلون علينا في اليوم ثلاث مرّات، الأمر الذي يزيد في حروقنا بلا توقّف. فقدتُ عيني اليسرى التي هاجمتها العشرات من اليرعات. حينما أعادونا إلى المعسكر، قرّر المحكومون الآخرون أن يقدّموا لنا المساعدة. قرّروا أن يقدّم كلّ واحدٍ منهم لنا قطعة من الحطب القاسي

المقطوع بالحجم نفسه. وقد منحنا ذلك ما يقارب متراً مكعّباً من الحطب وساعدنا كثيراً لأنّه لم يعد يتطلّب منّا سوى قطع مترٍ مكعبٍ واحدٍ من الحطب. وقد استطعنا أن نقوم بذلك ولو بمشقّة. واستعدنا قوانا شيئاً فشيئاً، وبدأنا نأكل كثيراً. وقد راودتنا بالصدفة فكرة أن ننتقم من العربي عبر النمل. ونحن نبحث عن الحطب القاسي، وجدنا عشّاً كبيراً للنمل آكل اللحم في دغلٍ وهو يلتهم غزالة كبيرة بحجم ماعزٍ.

كان العربي يقوم باستمرار بجولاته على العمل. وذات يوم كان الطقس فيه جميلاً، ضربناه بمقبض فأسٍ، ثمّ سحبناه ووضعناه بالقرب من عشّ النمل. جرّدناه من ثيابه وربطناه إلى الشجرة، مُلْقىً على الأرض على شكل قوس، وربطنا يديه وقدميه بحبالٍ غليظة كانت تُستخدم في ربط الحطب. وأحدثنا بالفأس بعض الجراح في مختلف أنحاء جسده. وحشونا فمه بالعشب لكي لا يستطيع أن يصرخ، وثبّتنا العشب بكمّامة، وانتظرنا. لم يهاجمه النمل إلّا بعدما جعلناه يصعد على عصا أولجناها في العشّ، ثمّ هززناه فوق جسد العربي. ولم يمضِ الكثير من الوقت، فبعد نصف ساعة هاجمه النمل بالآلاف.

ثمّ سألني:

- هل رأيت نملاً آكلاً للحم، يا بابيون؟

- لا، أبداً. رأيتُ نملاً ضخماً، أسود اللون.

- هذه اليرعات صغيرة الحجم وحمراء قانية بلون الدم. تنهش قطع صغيرة جدّاً من اللحم وتحملها إلى العشّ. وإذا كنّا نحن قد تألّمنا كثيراً بلسعات الدبابير، فتخيّل شدّة الألم الذي عاناه هو، وهو يُنهَش حيّاً من الآلاف من هذا النمل آكل اللحم. استغرق عذابه يومين كاملين وصباح يوم ثالث. وبعد أربع وعشرين ساعة، لم تعد لديه عينان. أنا أعترف بأنّنا كنّا عديمي الرحمة والشفقة في انتقامنا منه، ولكن يجب النظر إلى ما كان قد فعله بنا من قبل. لقد نجونا من الموت بمعجزة. بالطبع، كان يتمّ البحث عن العربي في كلّ مكان، وكان حمَلة المفاتيح الآخرون من

العرب، وكذلك الحرّاس، يشكّون في أنّنا متورّطون في هذا الاختفاء. في دغلٍ آخر، كنّا نحفر كلّ يوم قليلاً في الأرض لكي ندفن لاحقاً ما يتبقّى من أشلائه. لم يكن قد اكتشفوا أيّ شيء عن العربي، حينما رآنا أحد الحرّاس نعدّ حفرةً. حينما كنا نذهب إلى العمل، كان يلحق بنا ليرى إلى أين نذهب. وهذا ما أوقع بنا. ذات صباح، وبعد وصولنا إلى العمل مباشرةً، فككنا من الشجرة العربي الذي كان لا يزال ما تبقى من جسمه مليئاً بالنمل، ولكنّه أصبح شبه هيكلٍ عظمي، وفي اللحظة التي كنّا على وشك أن نجرّه نحو الحفرة (لم يكن بوسعنا أن نحمله من دون أن نتعرّض للعضّ من جانب النمل)، بوغتنا بثلاثة عرب من حمَلَة المفاتيح وحارسين، كانوا ينتظرون بفارغ الصبر، مختفين جيّداً، أن نفعل هذا: أن ندفنه. وهذا ما جرى! اعترفنا رسمياً بأننا قتلناه في البداية، ثمّ أطعمناه للنمل. وقد تمّ دعم الاتّهام بتقرير الطبيب الشرعي، إذ كشف بأنّه ليس هناك أيّ أثرٍ لجرحٍ مميت على الجسد: وقد أثبت التقرير بأننا قد أطعمناه للنمل حيّاً. وقد أخبرنا الحارس المدافع عنّا (لأنّه في المعسكر، كان الحرّاس يرتجلون في الدفاع عن المتهّمين كمحامين) بأنّه إذا ما تمّ تبنّي روايتنا، يمكن إنقاذ رأسينا، وإلّا سنُعدَم. بصراحة، لدينا القليل من الأمل. ولهذا السبب اخترنا، أنا وصديقي، أن تكون وريثنا من دون أن نخبرك بذلك.

– دعونا نأمل بألّا أكون وريثكم، أتمنى ذلك من كلّ قلبي.

أشعلنا سيجارةً ورأيتُ أنّهما ينظران إليّ ولسان حالهما يقول: «إذاً، هل ستتكلّم؟».

– اسمعا يا صاحبيّ، إنني أرى أنكما تنتظران ما كنتما قد سألتماني عنه قبل روايتكما: طريقتي في الحكم على حالتكما، كإنسان. سوف أطرح عليكما سؤالاً أخيراً، لن يكون له أيّ تأثير على قراري: «ما رأي الأغلبية في هذا المهجع، ولماذا لا تتكلّمان مع أحدٍ؟».

– تعتقد الأغلبية بأنّه كان علينا أن نقتله، ولكن لا أن نطعمه حيّاً للنمل.

أمّا بشأن صمتنا وعدم التحدّث مع الآخرين، فلأنّه كانت أمامنا فرصة لأن نهرب من السجن ذات يوم من خلال القيام بتمرّدٍ، ولكنّهم لم يفعلوا ذلك.

- سوف أخبركما برأيي، يا صاحبيّ. لقد أحسنتما صنعاً بأن أذقتماه من العذاب مئة ضعف ما أذاقكما: إنّ ضربكما بالدبابير أو اليرعات ذنبٌ لا يُغتَفَر. إذا ما نُفِّذ حكم الإعدام بكما، فكّرا في اللحظة الأخيرة بتركيزٍ شديد في أمرٍ واحدٍ فقط: «إنّ قطع رأسي سيستغرق ثلاثين ثانية، بين وقت ربطي ودفعي إلى كوّة المقصلة وإنزال السكين، أمّا هو، فقد استمرّ عذابه ستين ساعةً. أنا الرابح إذاً». أمّا في ما يتعلّق بالرجال في المهجع، فلا أدري إن كنتما على حقّ، لأنّكما استطعتما أن تعتقدا بأنّ تمرّداً، يومذاك، كان سيسمح بهروبٍ جماعي، في حين لم يستطع الآخرون أن يكون لهم هذا الرأي نفسه. من جهة أخرى، أثناء عملية تمرّد في السجن، يمكن للمرء أن يكون قادراً على أن يقتل حتى من دون أن يرغب في ذلك مسبقاً. والحال أنّ من بين كلّ الموجودين هنا، أعتقد أنّ الوحيدين الذين يخاطرون بقطع رأسهم هم أنتما والشقيقان غرافيل. يا صاحبيّ، إنّ كلّ حالة خاصّة تستجرّ ردود فعل مختلفة، بالضرورة.

وبعد أن ارتاحا لحديثنا، انسحب هذان الكائنان المسكينان وعادا للعيش في صمتهما الذي كانا قد قطعاه للتوّ من أجلي.

فرار أكلة لحوم البشر

يصيح أحدهم: «لقد أكلوا الساق الخشبية!». يصيح آخر: «طبقٌ واحد من حساء الساق الخشبية، طبقٌ واحد!» أو يأتي صوتٌ يُقلّد صوت امرأة: «أيّها النادل، قطعة من لحم رجلٍ مشويّة جيّداً ودون توابل، من فضلك!»

قلّما كانت الليالي المدلهمّة تمضي من دون أن نسمع إحدى هذه الجمل إن لم تكن مجتمعة.

كنّا نتساءل، كلوزيو وأنا، لمَنْ ولماذا تُطلَقُ هذه العبارات في الليل.

بعد ظهيرة اليوم، حصلتُ على مفتاح هذا اللغز. وقد روى لي ذلك أحد العناصر الفاعلة المتورطين في إطلاق تلك الجمل، ويُدعى ماريوس دو لاسيوتا، وهو اختصاصي في الخزائن الحديدية. وحينما علم أنني كنتُ أعرف والده تيتان، لم يخف من التكلّم معي.

بعد أن رويتُ له جزءاً من حكاية فراري، كان من الطبيعي أن أسأله: «وماذا عنك؟».

قال لي:

- أوه، أنا في ورطة قذرة. أنا أخشى أن أفقد خمس سنوات من عمري بسبب حكاية فرارٍ بسيطة. أنا من ضمن مجموعة من الفارين الذين يُطلقون على عملية فرارهم اسم «فرار أكلة لحوم البشر». وما تسمعه أحياناً من أصوات تصرخ في الليل: «لقد أكلوا، إلخ» أو «طبقٌ واحد من حساء، إلخ» هذه من أجل الأخوين غرافيل. كنّا ستة أشخاص وهربنا من الكيلومتر 42. كان من ضمن المجموعة الفارّة ديدي وجان غرافيل، وهما أخوان، أحدهما في الثلاثين والآخر في الخامسة والثلاثين من العمر، وهما من مدينة ليون، وشخصٌ آخر من مرسيليا، وأنا من لاسيوتا، ثمّ رجلٌ من أنجيه بساقٍ خشبية وفتى في الثالثة والعشرين من العمر يقوم بدور زوجةٍ له. خرجنا بخير من ماروني، ولكن حينما أصبحنا في عرض البحر، لم نستطع قطّ أن نتّخذ الوجهة الصحيحة، وفي غضون بضع ساعات، ألقى بنا البحر على سواحل غويانا الهولندية. لم يستطع أيّ شيء أن ينجو من تحطّم مركبنا، لا الأغذية ولا أيّ شيء كان. ووجدنا أنفسنا، ونحن نرتدي ثيابنا لحسن الحظّ، في الدَّغَل. ويجب أن أخبرك بأنّه لم يكن هناك في ذلك المكان شاطئٌ، وإنّما يدخل البحر مباشرة في الغابة العذراء. غابةٌ كثيفة ومتداخلة، ولا يمكن اجتيازها بسبب أشجار مقطوعة، إمّا مكسورة من قاعدتها، وإمّا مقتلعة من جذورها بفعل مياه البحر، ومتشابكة مع بعضها. بعد أن سرنا طيلة يومٍ كامل، وصلنا إلى الأرض الجافّة. انقسمنا، الأخوان غرافيل وأنا وغيزيبي، والرجل ذو

الساق الخشبية مع صديقه الصغير إلى ثلاث مجموعات. باختصار، بعد أن انطلقنا في اتجاهات مختلفة، وبعد اثني عشر يوماً، عُدنا والتقينا، الأخوان غرافيل وماريوس وأنا، تقريباً في المكان نفسه الذي افترقنا عن بعضنا منه. كان المكان محاطاً بطينٍ رملي ولم نجد أيّ ممرّ. ولا داعي لأن أصف لك وجوهنا. كنّا قد عشنا ثلاثة عشر يوماً من دون أن نأكل شيئاً سوى بعض جذور الأشجار أو براعمها. بعد أن كدنا نموت جوعاً وتعباً، منهكين للغاية تماماً، تمّ اتّخاذ القرار بأن نعود، أنا وماريوس، بما تبقّى لنا من طاقة إلى الساحل ونعلّق قميصاً بأعلى ما يمكن على شجرةٍ لكي نلفت انتباه أوّل قارب لخفر السواحل الهولندي والذي لن يتأخّر بكلّ تأكيد عن المرور من هناك. كان على الأخوين غرافيل، بعد أن استراحا عدّة ساعات، أن يبحثا عن أثر الرجلين الآخرين. ولا بدّ أن يكون العثور عليهما سهلاً، لأننا كنّا قد اتّفقنا قبل انطلاقنا على أن تترك كلّ مجموعة أثراً على مسار مرورها من خلال أغصان مكسورة. ولم تمضِ سوى بضع ساعات، حتى رأيا الرجل ذي الساق الخشبية يصل لوحده.

- أين الصغير؟

- لقد تركته في مكانٍ بعيدٍ جداً، لأنّه لم يعد يقوى على المشي.

- أنت قذرٌ لأنّك تركته.

- هو من أراد أن أعود على أعقابي.

في تلك اللحظة، لاحظ ديدي أنّه ينتعل في قدمه الوحيدة حذاء الفتى، فقال له:

- وفوق كلّ شيء تركته حافي القدمين لتنتعل حذاءه؟ أهنئك! وتبدو في صحة جيّدة، ولست في حالتنا، يبدو أنّك قد أكلت.

- نعم، لقد وجدتُ قرداً كبيراً جريحاً.

- هنيئاً لك.

وهنا، نهض ديدي، وفي يده السكين، لأنّه اعتقد بأنّه قد فهم الأمر حينما رأى أيضاً حقيبته ممتلئة.

- افتح حقيبتك. ماذا يوجد في داخلها؟

فتح الحقيبة، وظهرت قطعة من اللحم.

- ما هذا؟

- قطعة من لحم القرد.

- أيّها السافل، لقد قتلت الفتى لتأكل لحمه!

- كلا يا ديدي، أقسم لك. لقد مات من شدّة التعب، وأكلتُ قطعةً صغيرةً من لحمه. أرجو المعذرة.

لم تسنح له الفرصة لكي ينهي كلامه، فقد غرس ديدي السكين في بطنه. وعندئذٍ وأثناء تفتيشه، عُثِر على جُريبٍ جلديٍّ فيه أعواد ثقاب ومحفّة اشتعال. وما أثار غيظهم هو أنّ الرجل لم يوزّع أعواد الثقاب قبل افتراقهم، وباختصار، لشدّة شعورهم بالجوع، أوقدوا ناراً وبدأوا بتناول لحم الرجل. وصل غيزيبي في أثناء الوليمة، فدعوه إليها، ولكنّ غيزيبي رفض. كان قد تناول على شاطئ البحر بعض سراطين البحر والسمك النيء. فحضر، من دون أن يشارك، مشهد الأخوين غرافيل وهما يضعان على الجمر قطع أخرى من اللحم، بل وحتى وهما يستخدمان الساق الخشبية في إزكاء النار. إذاً، لقد شاهد غيزيبي في ذلك اليوم واليوم التالي الأخوين غرافيل وهما يأكلان لحم الرجل، بل ورأى الأجزاء التي أكلاها: بطّة الساق والفخذ والردفين.

تابع ماريوس:

- أمّا أنا، فكنتُ لا أزال على ضفّة البحر حينما جاء غيزيبي يبحث عني. ملأنا قبّعة بأسماكٍ صغيرة وسراطين البحر وذهبنا لنشويها على نار الأخوين غرافيل. لم أرَ الجثّة، كانوا قد سحبوها بكلّ تأكيد إلى مكانٍ بعيد. ولكنني رأيتُ الكثير من قطع اللحم التي كانت لا تزال مرفوعة عن النار وموضوعة على الرماد. بعد مضي ثلاثة أيام، التقطتنا دورية لخفر السواحل وسلّمتنا إلى سجن سان لوران دو ماروني الإصلاحي. لم يعرف غيزيبي أن يمسك لسانه. عرف جميع منْ في هذا المهجع

بالمسألة، بما فيهم الحرّاس. أنا أروي لك تفاصيل القصّة لأنّها معروفة من الجميع: ومن هنا يأتي الهراء الذي تسمعه في الليل، لأنّ الأخوين غرافيل رجلان على طباعٍ سيّئة. وجِّهَت لنا رسمياً تهمة الفرار من السجن وتمّ تشديد تهمتنا بإضافة أكل لحم البشر. والمصيبة هي أنني لكي أدافع عن نفسي كان عليّ أن أتهم غيري وهذا غير ممكن. وقد أنكر الجميع بما فيهم غيزيبي التهمة أثناء التحقيق. وقد ادّعوا بأنّهم قد ضاعوا في الدَّغَل. هذا هو وضعي، يا بابيون.

– أنا أُشفق عليك يا صاحبي، لأنّك بالفعل لا تستطيع الدفاع عن نفسك إلا من خلال اتّهام الآخرين.

بعد شهر، قُتِل غيزيبي بطعنة سكينٍ في صميم قلبه أثناء الليل. ولم تكن هناك حاجة حتى إلى التساؤل عمّن قام بهذه الطعنة.

هذه هي القصة الحقيقية لأكلة لحم البشر الذي أكلوا الرجل بعد شيّه مع ساقه الخشبية والذي كان هو نفسه قد التهم الفتى الصغير الذي كان يرافقه. في تلك الليلة، نمتُ في مكانٍ آخر من «قضيب العدالة». أخذتُ مكان رجلٍ غادرَ، وأخذ كلوزيو مكانه إلى جانبي بعد أن طلب من الجميع إفساح المجال له.

من المكان الذي نمتُ فيه، وعلى الرغم من أنّ قدمي اليسرى كانت موثوقة بحلقة إلى القضيب المعدني، استطعتُ، حينما جلست، أن أرى ما يحدث في الباحة.

رأيتُ أنّ الرقابة مشدّدة للغاية بحيث لم يكن للدوريات إيقاعٌ زمني محدّد. تجول الدوريات الواحدة تلو الأخرى دون توقّف، في حين تصل دوريات أخرى من الاتجاه المعاكس في أيّ لحظة كانت.

أصبحت قدماي تحملاني على نحوٍ ممتاز ويجب أن يهطل المطر حتى أتألم. إذاً، أستطيع حقّاً أن أبدأ بالتحضير لعملية فرار جديدة، ولكن كيف؟ لا نوافذ في هذا المهجع، وليس هناك سوى شبك معدني متّصل يمتد على كامل عرض المهجع ويصل إلى السقف. والشبك موضوعٌ

بطريقة بحيث تدخل الرياح الشمالية الشرقية بحرية إلى المهجع. وعلى الرغم من مراقبة الوضع لأسبوع كامل، لم أنجح في إيجاد ثغرة في رقابة الحرّاس المشدّدة. وللمرّة الأولى، أوشكتُ على التسليم بأنّهم سوف ينجحون في احتجازي في سجن جزيرة سان جوزيف الانفرادي.

وقد قيل لي بأنّه سجنٌ رهيب ويدعى «آكل البشر». كما أُخبرتُ بمعلومة أخرى عنه: لم يسبق قط أن استطاع أحدٌ أن يفرّ منه منذ إنشائه قبل ثمانين عاماً.

من الطبيعي أن يدفعني هذا القبول الجزئي بخسارتي للمباراة إلى النظر إلى المستقبل. أنا في الثامنة والعشرين من عمري، ويطلب قاضي التحقيق أن تُنزل المحكمة بي عقوبة السجن الانفرادي لخمس سنوات. وسوف يكون من الصعب أن أخرج من هذه القضية بمدّة أقلّ. وبالتالي، سوف أكون في الثالثة والثلاثين من عمري حينما أخرج من السجن الانفرادي.

لا يزال معي الكثير من المال في ماسورتي. وبالتالي، إذا لم أهرب من السجن، وهو الاحتمال الأرجح بسبب ما أعرفه من صعاب، فعلى الأقلّ سيكون عليّ أن أحافظ على نفسي في صحّة جيدة. إذ من الصعب على المرء أن يتحمّل خمس سنوات من العزلة التامّة دون أن يصبح مجنوناً. كما أنني نويت، بالإضافة إلى حسن التغذية، أن أُبرمج دماغي منذ اليوم الأوّل من عقوبتي على برنامج راسخ ومتنوّع. وأن أتجنّب قدر المستطاع أحلام القصر في إسبانيا، وخاصّة الأحلام المتعلّقة بالانتقام لنفسي. وبالتالي، أعددتُ نفسي منذ الآن لكي أجتاز منتصراً العقوبة التي تنتظرني. أجل، إنّهم سيدفعون الثمن ويخرجون خاسرين، إذ سوف أخرج من السجن الانفرادي قويّاً من الناحية الجسدية وأحافظ تماماً على قدراتي البدنية والمعنوية.

لقد أراحني أن أضع هذه الخطّة في السلوك والتصرّف وأن أقبل بهدوء وأمان ما ينتظرني. النسمة التي تدخل إلى المهجع تداعب وجهي قبل الجميع وتجعلني أشعر بالفعل بالراحة.

يعلم كلوزيو متى لا أريد التحدّث، ولذلك لا يُفسدُ عليّ صمتي ويُكثر من التدخين، وهذا كلّ ما في الأمر. لمحنا بعض النجوم، فقلتُ له: «هل ترى النجوم من مكانك؟».

قال وهو ينحني قليلاً:

- نعم. أفضّل ألّا أنظر إليها لأنّها تذكّرني كثيراً بالنجوم التي كنّا نراها أثناء الفرار.

- لا تقلق، سوف نراها بالآلاف في عملية فرارٍ أخرى.

- متى؟ بعد خمس سنوات؟

- كلوزيو، ألا تستحقّ هذه السنة التي عشناها وكلّ هذه المغامرات التي قمنا بها والأحداث التي وقعت لنا، والناس الذين عرفناهم أن نقضي خمس سنوات من السجن الانفرادي؟ هل تفضّل لو أنك لم تقم بعملية الفرار هذه والبقاء في الجُزر منذ وصولك؟ هل أنت نادمٌ على أنّك كنت جزءاً من هذا الفرار بسبب ما ينتظرنا، والذي لن يكون هيّناً بالتأكيد؟ أجبني بصراحة، بنعم أو لا، هل أنت نادم؟

- بابي، أنت تنسى شيئاً أنا لم أحظَ به: الأشهر السبعة التي أمضيتَها أنت مع الهنود. لو أنني كنتُ معك، لفكّرت كما تفكّر الآن، ولكنني كنتُ في السجن.

- عفوك، لقد نسيت هذا الأمر، أنا أثرثر.

- لا، أنت لا تثرثر ورغم كلّ شيء أنا سعيدٌ بفرارنا لأنني عشتُ أنا أيضاً لحظات لا تُنسى. أنا أشعر فقط ببعض القلق ممّا ينتظرنا في «آكل البشر». يكاد يكون من المستحيل قضاء خمس سنوات فيه.

فشرحتُ له ما قرّرتُ القيام به وشعرتُ بأنّه يتصرّف على نحوٍ إيجابي للغاية. وقد أسعدني أيّما سعادة أن أرى صديقي متحمّساً إلى جانبي. كان يفصلنا خمسة عشر يوماً عن مثولنا أمام المحكمة. حسب بعض الإشاعات، كان المقدّم الذي سيأتي ويترأس المحاكمة العسكرية معروفاً

بأنّه صارم، ولكنّه على ما يبدو كان أيضاً عادلاً جدّاً. وهو لا يقبل بسهولة بافتراءات الإدارة. وكان هذا في الحقيقة خبراً سارّاً.

رفضنا، كلوزيو وأنا، لأنّ ماتوريت كان في الزنزانة الانفرادية منذ وصولنا، أن يكون حارسٌ محامياً عنّا. قرّرنا أن أتحدّث نيابة عن ثلاثتنا، وأن أقدّم بنفسي دفاعنا.

الحكم

هذا الصباح، بعد أن حلقنا ذقننا وقصصنا شعرنا وارتدينا ثياباً جديدة كانت عبارة عن بزّة باللون العسكري المخطّط بخطوطٍ حمراء، وانتعلنا أحذيتنا، رحنا ننتظر في الباحة إلى حين أخذنا للمثول أمام المحكمة العسكرية. كانت قد مضت خمسة عشر يوماً على فكّ الجبس من ساق كلوزيو. وبات الآن يمشي على نحوٍ طبيعي، ولم يعد يعرج.

بدأت المحاكمة العسكرية جلساتها يوم الإثنين. نحن الآن في صباح يوم السبت، وهذا يعني أنّ المحكمة تنظر منذ خمسة أيام في دعاوي مختلفة: استغرقت دعوى الرجلين المتّهمين بإطعام العربي للنمل يوماً كاملاً. وقد حُكِم عليهما بالإعدام، ولم أعد أراهما. أمّا الأخوان غرافيل فقد حُكِم عليهما بالسجن أربع سنوات فقط (بسبب عدم كفاية الأدلّة على فعل أكل لحم البشر). وقد استغرقت دعواهما أكثر من نصف نهار. أمّا بقية الجرائم، فتراوحت الأحكام فيها بين خمس وأربع سنوات.

بشكلٍ عام، كانت الأحكام التي صدرت بحقّ أربعة عشر شخصاً مثلوا أمام المحكمة صارمة ولكنّها مقبولة، ولا مبالغة فيها.

بدأت جلسة المحاكمة في الساعة السابعة والنصف. كنّا في القاعة حينما دخل ضابطٌ برتبة مقدّم، يرتدي ثوب القضاة، برفقة نقيبٍ مسنّ من قوات المشاة وملازمٍ أوّل سيكونان المساعدين له في المحكمة.

كان يقف في الجانب الأيمن من منصّة المحكمة مراقبٌ على كتفيه

رتب عسكرية تشير إلى أنّه نقيبٌ، وهو يمثّل الإدارة، أي جهة الادّعاء التي توجّه الاتهام.

صاح صوتٌ:

- دعوى شاريير وكلوزيو وماتوريت.

كنّا على بعد أربعة أمتارٍ تقريباً من منصّة المحكمة. سنحت لي الفرصة لكي أدقّق في تفاصيل الوجه المنهك بفعل الصحراء لهذا المقدّم الذي يتراوح عمره بين أربعين وخمسة وأربعين عاماً، فوجدتُ شعره الأشقر الرمادي على صدغيه. يعلو عينيه السوداوين الرائعين حاجبان كثيفان، وهو ينظر مباشرةً في عيون محدّثيه. إنّه عسكريٌّ حقيقي، لا تحمل نظرته أيّ شرّ. تفحّصنا بعينيه وأمعن النظر فينا لبضع ثوانٍ. حدّقتُ في عينيه بثبات، ثم خفضتُهما طواعيةً.

هاجمنا نقيب الإدارة بشراسة بالغة، وهذا ما سيُخسره المباراة. اعتبر التحييد المؤقّت للحرّاس محاولةً لقتلهم. بالنسبة إلى العربي، اعتبر أنّ معجزة هي التي حالت دون موته تحت ضرباتنا المتعددة. كما أنّه ارتكب خطأً آخر حينما قال بأننا نحن المحكومين بالأشغال الشاقّة الذين نقلوا خزي فرنسا وفضيحتها إلى أبعد مكانٍ من بلدٍ أجنبي منذ إنشاء سجن الأشغال الشاقّة: «سيّدي الرئيس، لقد وصل هؤلاء الرجال إلى كولومبيا! على بعد ألفين وخمسمئة كيلومترٍ. بكلّ تأكيد، لقد أصغت أمم ترينيداد وكوراساو وكولومبيا إلى الثرثرات الفارغة الأكثر افتراءً حول إدارة السجون التأديبية الفرنسية. لذا أطالب بإصدار حكمين إجماليين بحقّ المتّهمين شاريير وكلوزيو، أي ثماني سنوات من السجن لكلّ منهما؛ خمس سنوات بجرم الشروع في القتل من جهة؛ وثلاث سنوات بجرم الهروب من السجن من جهة أخرى. أمّا بالنسبة إلى ماتوريت، فأُطالب بثلاث سنوات فقط بجرم الهروب من السجن، لأنّه تبيّن خلال التحقيق بأنّه لم يشارك في محاولة القتل.

قال رئيس المحكمة: «سوف تهتمّ المحكمة بالرواية الأكثر اختصاراً قدر المستطاع من هذه الملحمة الطويلة جدّاً».

رويتُ رحلتنا عبر البحر إلى ترينيداد، ناسياً الجزء الخاصّ بماروني. وصفتُ لهم عائلة بوين ومكارم أخلاقها. وذكرتُ لهم كلام قائد شرطة ترينيداد حينما قال: «ليس لنا أن نقيّم العدالة الفرنسية، ولكن ما لا نتّفق عليه هو إرسال محكومين إلى غويانا الفرنسية، ولهذا السبب نقدّم لكم المساعدة»؛ كما تحدّثت عن كوراساو والأب إيرينيه دو بروين، وحادثة كيس عملة فلوران، ثمّ كولومبيا، ولماذا وكيف ذهبنا إلى تلك البلاد. ثمّ عرضتُ سريعاً جدّاً موجزاً عن حياتي عند الهنود. أصغى إليّ المقدّم دون أن يقاطعني. طلب منّي فقط بعض التفاصيل الإضافية حول حياتي مع الهنود، وهي الفقرة التي أثارت اهتمامه أشدّ اهتمام. بالإضافة إلى السجون الكولومبية، وخاصّة الزنزانة الغوّاصة في سانتا مارتا.

قال لي:

- شكراً لك، لقد أوضح سردك الصورة للمحكمة وأثار اهتمامها. سوف تُرفَع الجلسة لخمس عشرة دقيقة. لم أرَ محاميكم، أين هم؟

- ليس لدينا حامون. سوف أطلب منكم الموافقة على أن أقوم بنفسي بالدفاع عن رفاقي وعن نفسي.

- يمكنك القيام بذلك، فالأنظمة تجيزه.

- شكراً.

استؤنفَت الجلسة بعد ربع ساعة.

قال رئيس المحكمة: «شاريير، تسمح لك هيئة المحكمة بأن تقدّم مرافعة الدفاع عن رفاقك وعن نفسك. وفي الوقت نفسه، نلفت انتباهك إلى أنّ المحكمة ستسحب منك حقّ الكلام إذا ما قلّلت من احترامك لممثّل الإدارة. يمكنك الدفاع عن نفسك بكلّ حرية، ولكن بعبارات مناسبة. الكلمة لك الآن».

- أطلب من هيئة المحكمة استبعاد جرم الشروع في القتل بلا قيد ولا شرط لأنّه غير قابلٍ للتصديق وسأثبت لكم ذلك: كنتُ في السابعة

والعشرين من عمري في السنة الماضية، وكلوزيو في الثلاثين. كنّا بكامل قوتنا، ووصلنا لتوّنا من فرنسا. وطولنا مترٌ وأربعة وسبعون، ومترٌ وخمسة وسبعون سنتيمتراً. وقد ضربنا العربي والحرّاس بالقوائم الحديدية لأسرّتنا. ولم يصب أيّ منهم بجروحٍ بليغة. وبالتالي ضُربوا بكثيرٍ من الحذر بغرض إسقاطهم من خلال إلحاق أدنى أذى ممكن بهم، وهذا ما تحقّق لنا. وقد نسي المراقب المشتكي، أو تجاهل، أنّ القطع المعدنية كانت ملفوفة بخرقٍ من القماش لكي لا يكون هناك خطر قتل أحدٍ. تعلم هيئة المحكمة، المشكّلة من رجالٍ عسكريين محترفين، جيّداً ما يمكن أن يفعله رجلٌ قوي بضربه أحداً على الرأس، حتى لو كان بنصل حربةٍ، فتصوّروا ما يمكن للمرء أن يفعله باستخدام قائم سريرٍ معدني. أُلفت نظر المحكمة إلى أنّ أيّاً من الأشخاص الذين هوجموا من جانبنا لم يُنقَل إلى المستشفى. وأعتقد أنّ جرم الفرار بالنسبة إلى شخصٍ محكومٍ بالسجن المؤبّد أقلّ خطورةً بالنسبة إلى رجلٍ محكومٍ بعقوبة بسيطة. من الصعب جدّاً قبول من هو في عمرنا بأنّه لن يعود أبداً ليعيش حياته، ولذا أطلب من هيئة المحكمة أن ترأف بنا نحن الثلاثة.

تهامس المقدّم مع معاونيه، ثمّ ضرب بمطرقةٍ على الطاولة، وخاطبنا:

- أيّها المتّهمون، قفوا!

وقفنا نحن الثلاثة منتصبين كالأوتاد، وانتظرنا.

قال رئيس المحكمة:

- إنّ هيئة المحكمة، إذ تستبعد تهمة الشروع في القتل، ليس لها أن تُصدر حُكماً بشأنها. أمّا بالنسبة إلى جرم الهروب، فإنّكم مذنبون من الدرجة الثانية. ومن أجل هذا الجرم، تحكم هيئة المحكمة عليكم بالسجن الانفرادي لمدّة عامين.

قلنا في صوتٍ واحد:

- شكراً لك أيّها المقدّم.

ثمّ أردفتُ:

- شكراً لهيئة المحكمة.

في قاعة المحكمة، لم يستطع رجال الشرطة الذين حضروا الدعوة أن يصدّقوا ما سمعت آذانهم.

حينما عدنا إلى المبنى حيث رفاقنا، ابتهج الجميع بالخبر، ولم يثر ذلك حسد أحدٍ. على العكس تماماً، حتى أولئك الذين لم يحالفهم الحظّ كثيراً هنّأونا بصدق بحظّنا السعيد.

جاء فرانسوا سييرا يعانقني، وهو يكاد يطير فرحاً.

الدفتر السادس

جزر الخلاص

الوصول إلى الجزر

كان علينا أن نُبحر يوم غد إلى جزر الخلاص. رغم كلّ كفاحي، ها أنا هذه المرّة على بعد بضع ساعات فقط لكي أُدفَن مدى الحياة. سيكون عليّ أوّلاً أن أقضي سنتين من السجن الانفرادي في جزيرة سان جوزيف. وآمل أن أستطيع أن أدحض اللقب الذي منحه السجناء لهذا السجن: «آكل البشر».

لقد خسرتُ المباراة، ولكن روحي لم تنهزم. علي أن أكون سعيداً لأنّه لم يُحكم عليّ سوى بسنتين أقضيهما في هذا السجن داخل سجنٍ. ولأنني كنتُ قد وعدتُ نفسي بذلك، لن أدع نفسي أنقاد بسهولة لحالات الهذيان التي تخلقها العزلة التامّة. ولكي أنجو من ذلك، لديّ الدواء الناجع: علي أن أرى نفسي مسبقاً حرّاً وسليماً ومعافى مثل محكومٍ بالأشغال الشاقّة عاديٍّ في الجزر. سوف أكون في الثلاثين من عمري، حينما أخرج من السجن.

أعلم أنّ عمليات الفرار من السجن نادرة جدّاً في الجُزر. ولكن مع ذلك، نجح بعض الرجال في الفرار وإن كانوا يعدّون على أصابع اليد الواحدة. إذاً، أنا أيضاً سأهرب من السجن. هذا مؤكّد. وقد كرّرتُ على مسامع كلوزيو، الجالس إلى جانبي، بأنني خلال سنتين سوف أفرّ من السجن.

– صديقي العزيز بابيون، إنّه من الصعب جدّاً أن تكافح من أجل ذلك، وإنّي لأرغب هذه المرّة أن تحمل في داخلك هذا التوق إلى أن تكون حرّاً. منذ عام وأنت لا تكفّ عن محاولات الفرار ولم تستسلم مرّة واحدة. ما إنْ تخفق في محاولة فرار حتى تعدّ لمحاولة أخرى. وسيكون مثار دهشتي إن لم تقم بأيّ محاولة هنا.

– هنا، يا صديقي، لا يوجد سوى طريقة واحدة: التحريض على تمرّدٍ، ولكن للقيام بهذا الأمر ليس لدي الوقت الضروري لتولي زمام كلّ هؤلاء الرجال الذين يصعب إقناعهم. كدتُ أن أحدث هذه الفتنة، ولكنني خشيتُ من أن تلتهمني. هؤلاء الرجال الأربعون الموجودون هنا هم من السجناء القدماء. وقد أنهكهم طريق العفن، ويتصرفون بطريقة مختلفة عن طريقتنا. على سبيل المثال: أكلة لحوم البشر، والرجال الذين أطعموا العربي للنمل، وذاك الذي دسّ السمّ في الحساء، ولكي يقتل رجلاً واحداً، لم يتوان عن تسميم سبعة رجالٍ آخرين لم يكونوا قد أضرّوه بأيّ شيء.

– ولكن في الجزر، سوف يكون هناك الطراز نفسه من الرجال.

– نعم، ولكنني سوف أهرب من الجزر دون الحاجة إلى أحد. سوف أغادر لوحدي، أو في الحدّ الأقصى، مع صديقٍ واحد فقط. أراك تبتسم يا كلوزيو، لماذا؟

– أنا أبتسم لأنّك لا تتخلّى عن اللعبة أبداً. إنّ النار التي تحرق أحشاءك لتعود إلى باريس على وشك أن تعطي الإشارة لأصدقائك وهي تساندك بقوّة كبيرة بحيث لا تقبل أن يعجز ما ترغب فيه عن التحقّق.

– عمتَ مساءً يا كلوزيو. إلى اللقاء غداً. نعم سوف نرى جزر الخلاص الحقيرة هذه. وأوّل ما يتبادر إلى الذهن هو: لماذا تُسمى جزر الهلاك هذه بجزر الخلاص؟

ثمّ وأنا أُدير ظهري لكلوزيو، أدرتُ وجهي أكثر نحو نسيم الليل.

في اليوم التالي، ومنذ الصباح الباكر، أبحرنا نحو الجزر. كنّا ستة

وعشرين رجلاً على متن باخرة رديئة تزن أربعمئة طنٍ. هذه الباخرة التي تُدعى «تانون» تُبحر بطريقة مكوكية بين كايين – الجزر – وسان لوران جيئة وذهاباً. تمّ تقييد كل اثنين من السجناء معاً بسلسة في أقدامنا، وبأغلال في أيدينا. ثمّ تمّ توزيعنا على مجموعتين من ثمانية رجالٍ في مقدّمة الباخرة يراقب كلّ مجموعة أربعة حرّاس يحملون في أيديهم بنادق قصيرة. ثمّ مجموعة من عشرة سجناء في مؤخّرة السفينة يراقبهم ستة رجال شرطة وقائدا مجموعة المرافقة. كان الجميع على متن هذه الباخرة في حالة سيئة إلى درجة أنّه كان من الممكن أن يُغمى عليهم في أيّ لحظة بسبب سوء الأحوال الجوية.

قررتُ ألّا أفكّر بشيء خلال هذه الرحلة، لأنني أردتُ أن أتسلّى. أيضاً، وفقط لكي أُضايقه، قلتُ للمراقب العابس الأقرب إليّ:

– مع هذه السلاسل التي وضعتموها في أرجلنا والأغلال في أيدينا، لن تكون هناك فرصة لأن ننقذ أنفسنا إذا ما غرقت هذه السفينة المهترئة، والمعرّضة لذلك في أيّ لحظة إذا ما ضربتها موجةٌ قويّة، نظراً لسوء حالتها.

استشاط الحارس الناعس غضباً وتصرّف كما خطّطتُ له أن يتصرّف:

– فلتغرقوا، نحن لا نبالي بذلك. لدينا الأوامر بأن نكبّلكم وهذا كلّ شيء. المسؤولية تقع على عاتق منْ يصدرون هذه الأوامر. أمّا نحن، فمحصّنون على أيّ حال.

– على أيّ حال أنت على حقّ، سيدي المراقب، سواءً كنّا مقيّدين أم لا، إذا ما انفتح هذا التابوت في الطريق، سوف نغرق جميعاً في أعماق البحر.

قال الأبله:

– أوه! منذ زمنٍ طويل تسلك هذه السفينة هذا المسار ولم يحصل لها أيّ شيء أبداً.

– بالتأكيد، ولكن لأنّ هذه السفينة موجودة منذ زمنٍ طويل، فهي الآن معرّضة لأن يحصل لها شيء في أيّ لحظة كانت.

المهمّ أنني نجحتُ في تحقيق ما أصبو إليه: أن أكسر هذا الصمت العامّ الذي كان يوتّر أعصابي. وفي الحال استؤنف الموضوع من المراقبين والسجناء. قال أحد السجناء:

- نعم، هذه الباخرة خطيرة وعلاوة على ذلك، تمّ تقييدنا بالسلاسل. لولا السلاسل لكانت لنا فرصة في النجاة.

ردّ أحد الحراس:

- أوه! الأمران سيّان. نحن أيضاً، بزيّنا العسكري الرسمي وأحذيتنا العسكرية طويلة الساق وبنادقنا القصيرة، لسنا من الخفّة بما يساعدنا على النجاة.

قال مراقبٌ آخر:

- البندقية ليست في الحسبان، لأنّه في حال غرق السفينة، سوف نتخلّص منها في الحال.

وحينما رأيت أنّ خطّتي الأولى قد نجحت، أطلقتُ الخطّة الثانية، فسألت:

- أين قوارب النجاة؟ لا أرى سوى قاربٍ وحيدٍ وصغيرٍ جدّاً لا يتّسع سوى لثمانية رجال في أقصى تقدير. سوف يمتلئ بالقبطان وطاقم الباخرة، أمّا الآخرون، فإلى الجحيم!

فانطلقت الباخرة، مع إطلاق صفيرٍ عالي الصوت.

- هذا صحيح، ليس هناك أيّ شيء، وهذه السفينة في حالة سيئة للغاية بحيث يُعدّ انعداماً للإحساس بالمسؤولية إلى حدٍّ غير مقبولٍ أن يضطرّ آباءٌ للمخاطرة بمرافقة هؤلاء الأوغاد.

وبما أنني كنتُ ضمن المجموعة الموجودة على الجهة الخلفية للباخرة، فقد سافر معنا قائدا القافلة. نظر إليّ أحد القائدين وقال لي:

- أأنت بابيون الذي عاد من كولومبيا؟

- نعم.

- لا يدهشني أنّك قد ذهبت بعيداً، إذ إنّك تبدو خبيراً بالشؤون البحرية.

أجبتُ بتبجّح: «نعم، كثيراً». فأشاع ردّي هذا شيئاً من الهدوء فيه. وعلاوة على ذلك، نزل القبطان من مقصورة القيادة، لأننا الآن كنّا على وشك الخروج من مصبّ ماروني ولأنه المكان الأكثر خطورةً، كان عليه أن يمسك بنفسه بمقبض دفّة القيادة. الآن، سلّم دفّة القيادة لشخصٍ آخر. إذاً نزل هذا القبطان داكن البشرة كما لو أنّه من مدينة تمبكتو في مالي، وقصير القامة والبدين، ووجه بملامح شبابية، وسأل عن الصبيان الذين ذهبوا على قطعة من الخشب إلى كولومبيا.

قال قائد القافلة:

– هذا وذاك، والآخر الذي بجانبه.

سأل القزم:

– ومن منهم كان القائد؟

أجبت:

– أنا يا سيّدي.

– حسناً أيّها الفتى، بصفتي بحّاراً أهنّئك. أنت لست رجلاً عادياً. تفضّل!

وضع يده في جيب سترته وقال لي:

– تقبّل منّي علبة التبغ الأزرق هذه مع ورق اللفّ. دخّنها نخب صحّتي.

– شكراً لك، سيّدي القبطان. ولكن عليّ أنا أيضاً أن أهنّئك على جرأتك في الإبحار على متن عربة نقل الموتى هذه، مرّة أو مرّتين في الأسبوع على ما أعتقد.

انفجر ضاحكاً، أكثر من جميع الناس الذين أردتُ إغاظتهم.

قال: «آه! أنت على حقّ! كان علينا أن نرسل هذه الباخرة الرديئة منذ زمنٍ طويل إلى المقبرة، ولكن هذه الشركة تنتظر أن تغرق لكي تحصل على تعويض من شركة التأمين».

فأنهيتُ حديثي، غامزاً من قناته: «لحسن الحظ، لديكم قارب نجاة لطاقم السفينة ولك».

قال القبطان دون تفكيرٍ قبل أن يختفي في سلّم الباخرة: «لحسن الحظّ، نعم».

هذا الموضوع الحواري الذي أطلقته طواعيةً لطّف رحلتنا لأكثر من أربع ساعات، وأدلى كلٌّ بدلوه فيه ووصل النقاش إلى مقدّمة السفينة ولكن لا أعرف كيف.

لم يكن البحر اليوم، نحو الساعة العاشرة صباحاً، هائجاً، ولكنّ الريح لم تكن مشجّعة للرحلة. كنّا نسير باتجاه الشمال الشرقي، أي بعكس اتجاه الموج والريح، الأمر جعل بطبيعة الحال السفينة تهتزّ وتضطرب أكثر من المعدّل الوسطي الطبيعي. أصاب المرض العديد من الحرّاس والسجناء. لحسن الحظّ، كان السجين المقيّد معي معتاداً على الإبحار ولم يتأثّر لأنّه لا شيء أكثر إزعاجاً من أن يتقيّأ أحدهم بالقرب منك. هذا الفتى كان شقيّ باريس حقيقياً. وقد وصل إلى سجن الأشغال الشاقّة عام 1927. إذاً، لقد مضت سبع سنوات على وجوده في سجن الجزر. وهو لا يزال شاباً نسبياً، إذ يبلغ من العمر ثمانية وثلاثين عاماً. قال لي:

– يُسمونني تيتي لابيلوت، لأنّه يجب عليّ أن أخبرك يا صديقي بأنني بارعٌ في لعبة بيلوت. وأنا أعيش في الجزر من هذه اللعبة. نلعب هذه اللعبة طيلة الليل، وأقبض فرنكين عن كلّ جولة أكسبها. وهذا يجمع الكثير مع المزايدة. فإذا كسبت في لعبة واحدة، يدفع لك الرجل أربعمئة قرشٍ.

– وهل هذا يعني أنّ هناك الكثير من الأموال في الجزر؟

– أجل يا صديقي بابيون، الجزر مليئة بالمواسير المترعة بالأموال. يحمل بعضُ المواسير معهم، ويتلقّى آخرون الأموال من الخارج بعد دفع نصف مبلغها للحرّاس الذين يدبّرون إدخالها لهم. يبدو أنّك حديث العهد تماماً بهذه الأمور يا صديقي، وتبدو أنّك لا تعرف شيئاً عن هذه الأمور، أليس كذلك؟

– لا، في الحقيقة لا أعرف شيئاً على الإطلاق عن الجزر. أعرف فقط أنّه من الصعب جدّاً الفرار منها.

قال تيتي متعجّباً:

- الفرار؟ لا داعي للحديث عنه. أنا في الجزر منذ سبع سنوات، جرت خلالها محاولتا فرار، وكانت نتائجها مقتل ثلاثة أشخاص وتوقيف اثنين، في حين لم ينجح أحد في الفرار. ولهذا السبب ليس هناك الكثير من المرشّحين لاختبار حظوظهم.

- لماذا ذهبت إلى البر الرئيسي؟

- لقد عرّضتُ نفسي لأشعة الشمس لأتأكّد من أنني لستُ مصاباً بتقرّحات.

- ولِمْ تحاول الفرار من المستشفى؟

- يمكنك قول هذا! أنت من حرقت كلّ شيء، يا بابيون. وعلاوة على ذلك، كان لي الحظّ العاثر في أن أنزل في المهجع نفسه الذي هربت منه. وليتك ترى مدى الرقابة اللصيقة! فكلّما يقترب أحدنا من النافذة ليتنفّس القليل من الهواء، يتمّ سحبه. وحينما نسأل لماذا هذه المعاملة القاسية، كان الجواب: «نخشى أن تراودك الفكرة نفسها التي راودت بابيون».

- أخبرني يا تيتي، من هذا الرجل البدين الجالس بجانب قائد القافلة؟ هل هو واشٍ؟

- هل جُننتَ؟ هذا الرجل يحظى بالاحترام والتقدير من لدن الجميع. إنّه أبله، ولكنه يعرف كيف يعامل نفسه كداعرٍ كبير: ليست له علاقات وثيقة مع الحرّاس، ولا منزلة خاصّة له، وتصنيفه كمحكوم بالأشغال الشاقّة محفوظ. إنّه قادر على إسداء نصيحة مفيدة، وهو صديقٌ وفي، ويحافظ على مسافة مع الشرطة. حتى الخوري والطبيب لم يستطيعا أن يستخدماه. هذا الأبله الذي يتصرّف كقواد حقيقي كما تراه، هو من سلالة لويس الخامس عشر. نعم يا صديقي، إنّه كونت، كونت حقيقي، ويدعى الكونت جان دو بيراك. ومع ذلك، حينما وصل إلى هنا، قبل أن يحظى بتقدير واحترام الرجال، وقد استغرق ذلك وقتاً طويلاً، لأنّه ارتكب فعلة قذرة لكي يُحكم عليه بالأشغال الشاقّة.

- ماذا فعل؟

- حسناً، لقد ألقى بغلامه الخاصّ من أعلى جسرٍ إلى نهرٍ، ولأنّ الصبي سقط في مياهٍ ضحلةٍ، امتلك وقاحة النزول إلى النهر والإمساك به وإغراقه في لجّةٍ أكثر عمقاً.

- ماذا؟ بهذه الطريقة يكون كما لو أنّه قتل غلامه مرّتين، أليس كذلك؟

- حسب ما روى لي أحد أصدقائي، وهو يعمل محاسباً ومطّلع على ملف دعواه، كان هذا الرجل قد تعرّض للترهيب من قبل وسطه الاجتماعي النبيل، وأنّ أمّه قد رُمِيَتْ إلى الشارع مثل كلبة أمِّ الغلام والتي كانت شابّة خادمة في قصرها. حسب ما روى صديقي، كان هذا الصبي خاضعاً لأمٍّ متعجرفة ومتحذلقة، وقد أذلّته كثيراً إلى درجة أنّه أقام، وهو الكونت، علاقات مع خادمة، لم يعد يعرف ما الذي حلّ بها حينما ألقى بالغلام في النهر بعد أن قال للأمّ بأنّه قد أودعه في دارٍ للرعاية العامّة.

- وبكم سنة حكموا عليه؟

- حكموا عليه بعشر سنوات فقط. أنت تعرف جيّداً يا بابيون أنّ هذا ليس رجلاً عادياً مثلنا. لا بدّ أنّ الكونتيسة، الرئيسة الشرفية في الأسرة، قد شرحت للقضاة بأنّ قتل ابن خادمة ليس بالجرم الخطير حين يُرتكَب من جانب كونتٍ يريد إنقاذ سمعة عائلته.

- وماذا كانت النتيجة؟

- حسناً، النتيجة بالنسبة لي أنا تيتي الباريسي المتواضع هي التالي: إنّ الكونت جان دو بيراك هذا، الحرّ والذي لا مشكلات ظاهرة له، كان نبيلاً ريفياً تربّى بطريقة يرى من خلالها أنّ لا شيء له قيمة سوى العرق النبيل، وأنّ كلّ ما تبقى لا معنى له ولا يستحقّ عناء الاهتمام به. ربّما لم يكن هؤلاء البشر بنظرهم عبيداً بالمعنى الحرفي للكلمة، بل مخلوقات غير جديرة بالاهتمام. هذا الوحش الأناني والدعي الذي تجسّد في والدته كان قد سحقه وأرهبه إلى درجة أنّه أصبح مثلهم. وفقط في سجن الأشغال

الشاقة، أصبح هذا السيّد، الذي كان يعتقد سابقاً بأنّ له حقّ التفخيذ[1]، نبيلاً حقيقياً - بالمعنى الواسع للكلمة. يبدو هذا وكأنّه مفارقة وتناقض، ولكنّه الآن فقط هو بالفعل الكونت جان دو بيراك.

جزر الخلاص، هذا «المجهول» بالنسبة لي، لن تعود مجهولة بعد بضع ساعات. أعرف أنّ الفرار منها صعب جدّاً، ولكنّه ليس مستحيلاً. ثمّ وأنا أتنفّس رياح عرض البحر بتلذّذ، فكّرت: «متى سوف تتحوّل هذه الرياح المعاكسة إلى رياحٍ مواتية تدفعني من الخلف خلال فرارٍ من السجن؟»

وصلنا إلى الجزر التي مثلت أمامنا على شكل مثلّث، تشكّل جزيرتا رويال وسان جوزيف قاعدته، وجزيرة الشيطان رأسها. تُنيرها الشمس المائلة للغروب بكلّ أشعّتها التي لا تكون على هذه الكثافة سوى في المناطق الاستوائية، واستطعنا أن نكتشف تفاصيلها على مهل. أوّلاً جزيرة رويال بطريقها البحري المنبسط حول أكمة يصل ارتفاعها إلى أكثر من مئتي متر وقمتها مسطّحة. وتبدو في كامل مظهرها أشبه بقبّعة مكسيكية موضوعة فوق البحر وقد قُطِعتْ قمّتها. وتنتشر في كلّ أرجائها أشجار جوز الهند المخضرّة أشدّ اخضرار. تُضفي بيوتٌ صغيرة ذات سطوحٍ ملبّسة بالقرميد الأحمر على الجزيرة جاذبيّة قلّ نظيرها، والشخص الذي لا يعرف ما هو موجود على هذه الجزيرة سيتمنى لو أنّه يعيش فيها كلّ حياته. كانت هناك منارة على قمّتها المسطّحة تُنير ليل الجزيرة ولا بدّ أنّ الغرض منها هو ألّا تصطدم السفن بالصخور وتتحطّم عليها خاصّة أثناء الأحوال الجويّة السيئة. الآن وقد أصبحنا أكثر قرباً من الجزر، أستطيع أن أميّز ثلاثة أبنية ضخمة وطويلة. وعرفتُ أوّلاً عن طريق تيتي أنّها عبارة عن قاعتين واسعتين يعيش فيهما أربعمئة محكومٍ بالأشغال الشاقّة. ثمّ قسم الانضباط، بحجراته وزنزاناته الانفرادية، المحاط بسورٍ عالٍ أبيض اللون. أمّا المبنى الرابع، فهو مستشفى المحكومين بالأشغال الشاقّة، والمبنى الخامس هو مستشفى الحرّاس. تنتشر في كلّ مكان على السفوح

1- حقّ التفخيذ: حقّ السيّد سابقاً في أن يتمتّع بالعروس في الليلة الأولى - المترجم.

والمنحدرات بيوتٌ صغيرة ذات سطوح من القرميد الوردي اللون يعيش فيها الحرّاس. بعيداً عنّا ولكن قريباً جدّاً من جزيرة رويال، تقع جزيرة سان جوزيف. كانت أشجار جوز الهند أقلّ وكذلك الخضرة، وفي أعلى السفح لاحت بناية كبيرة رأيناها من البحر بكلّ وضوح. وفيما بعد، فهمتُ أنّ هذه البناية هي السجن الانفرادي. وقد أكّد لي تيتي لابيلوت ذلك. وأراني في الأسفل مباني المعسكر التي يعيش فيها المحكومون بالأشغال الشاقّة الذين يقضون عقوبة عادية.

كانت هذه المباني قريبة من البحر. تنفصل أبراج المراقبة عن بعضها مع منافذها، بكلّ بوضوح. ثمّ تأتي بيوت صغيرة أخرى، أنيقة بكاملها، بجدرانها المصبوغة باللون الأبيض وسطوحها الحمراء.

وإذ اندفعت السفينة عبر جنوب مدخل جزيرة رويال، لم نعد نرى الآن جزيرة الشيطان الصغيرة. من خلال اللمحة الأولى التي تشكّلت في ذهني عنها، كانت الجزيرة عبارة عن صخرة كبيرة مغطاة بأشجار جوز الهند، دون بناءٍ ذي أهمية. كما ظهرت بضعة بيوت على حافة البحر، مصبوغة باللون الأصفر مع سطوح غطّاها سواد الدخان. وسوف أعلم فيما بعد أنّ هذه البيوت مخصّصة لإقامة المنفيين السياسيين.

كنّا على وشك الدخول في ميناء جزيرة رويال، المحميّ جيّداً برصيفٍ واسع مبني من مداميك كبيرة. وهو عملٌ لا بدّ أنّه قد كلّف حياة الكثيرين من السجناء المحكومين بالأشغال الشاقّة في سبيل بنائه.

بعد ثلاث صفّارات من بوقها، ألقت السفينة «تانون» المرساة على بعد حوالي مئتين وخمسين متراً من الرصيف. كان هذا الرصيف المبني جيّداً بالإسمنت والمداميك الكبيرة طويلاً جدّاً ويرتفع بعلوٍّ يفوق ثلاثة أمتار. يمتدّ صفٌّ من المباني المصبوغة باللون الأبيض بالتوازي مع هذا الرصيف. قرأتُ لوحات مكتوبة باللون الأسود على أرضية بيضاء تقول: «مركز الحراسة» - «مصلحة الزوارق» - «المخبز» - «إدارة الميناء».

رأينا بعض المحكومين بالأشغال الشاقّة وهم ينظرون إلى السفينة. لم

يكونوا يرتدون الزيّ المخطّط، بل يرتدي كلٌّ منهم سروالاً وما يشبه بلوزة بيضاء اللون. وقد أخبرني تيتي لابيلوت بأنّه في الجزر يفصّل منْ يمتلكون المال ثياباً على مقاسهم عند الخيّاطين وذلك من أقمشة أكياس الطحين بعد إزالة الأحرف عنها، وهي ثيابٌ مرنة جدّاً، بل وتعطي نوعاً من الأناقة، ولذلك لا أحد تقريباً يرتدي الزيّ الموحّد للمحكومين بالأشغال الشاقّة.

اقترب قاربٌ من السفينة «تانون»، يأخذ حارسٌ مكانه خلف دفّة القيادة، بينما يأخذ حارسان مسلّحان ببنادق قصيرة مكانهما إلى اليمين واليسار؛ وفي الخلف، بالقرب من قائد القارب، يقف ستة محكومين بالأشغال الشاقّة عراة الصدر، ويرتدون سراويل بيضاء اللون، ويجدّفون بمجاديف كبيرة. وقد قطعوا المسافة بسرعة كبيرة. كانوا يجرّون خلفهم قارباً كبيراً فارغاً، بدا أنّه قارب نجاة. رست السفينة في المينا، فنزل منها أوّلاً قادة الموكب الذين كانوا يتّخذون أماكنهم في مؤخّرة السفينة، ثمّ انضمّ إليهم حارسان مسلّحان ببنادق قصيرة من الذين كانوا في مقدّمة السفينة. تمّ فكّ الأغلال من أقدام السجناء المجلوبين ولكن بقيت الأغلال في أيديهم، وجرى إنزالهم من السفينة مثنى مثنى إلى القارب؛ وقد أنزلوا أوّلاً السجناء العشرة الذين في مجموعتي، ومن ثَمّ السجناء الثمانية في المجموعة الأخرى التي كانت في مقدّمة السفينة. أمّا البقية، فسيتمّ أخذهم في رحلة أخرى. تمّ نقلنا إلى الرصيف، ووقفنا في صفٍّ واحدٍ ننتظر أمام مكتب «إدارة الميناء». لم تكن لأيّ منا حزمة أغراضه. ومن دون اعتبارٍ لوجود الحرّاس، راح السجناء المنقولون يتكلّمون معنا بصوتٍ عالٍ من مسافة معقولة تبلغ من خمسة إلى ستة أمتار. ألقى العديد من المنقولين في موكبي التحية عليّ بمودّة. وقد قال لي سيزاري وإيساري، وهما لصان كورسيكيان تعرّفتُ عليهما في سان مارتن، بأنّهما يعملان مجدّفين على الزوارق في مصلحة الميناء. وفي هذه الأثناء، وصل شابار، المتّهم في قضية بورصة مرسيليا والذي كنتُ قد عرفته في فرنسا قبل أن نُعتَقَل. دون أن يشعر بالإحراج، قال لي أمام الحرّاس: «لا

تقلق يا بابيون! اعتمد على الأصدقاء وسوف لن تعوز شيئاً في السجن الانفرادي. بكم حُكِم عليك؟

– بسنتين.

– حسناً، ستمرّان بسرعة وسوف تأتي إلى هنا معنا وترى أننا لسنا سيئين هنا.

– شكراً لك يا شابار، وماذا عن ديغا؟

– إنّه محاسب في القسم العلوي، ويدهشني أنّه ليس هنا، سوف يتحسّر على عدم رؤيتك.

وفي هذه الأثناء، وصل غالغاني. أقبل نحوي، فأراد الحارس أن يمنعه من المرور، ولكنّه مرّ مع ذلك وهو يقول: «سوف لن تمنعوني عن معانقة أخي، تبّاً لكم!» ثمّ عانقني وقبّلني، وقال لي: «اعتمد عليّ». ثمّ انصرف لكي ينسحب من المكان.

– ماذا تفعل؟

– أنا ساعي بريد، أوزّع البريد.

– هل أنت بخير؟

– أنا مرتاح.

تمّ إنزال آخر دفعة وانضموا إلينا. فكّوا الأغلال عن أيادينا جميعاً. انسحب تيتي لابيلوت ودو بيراك وآخرون لا أعرفهم من المجموعة. قال لهم أحد الحرّاس: «هيا، اسلكوا الطريق للصعود إلى المعسكر». كان أفراد هذه المجموعة يحملون أكياس أمتعتهم التي جلبوها من سجن الأشغال الشاقّة. حمل كلٌّ منهم كيس أمتعته على كتفه وساروا نحو طريقٍ لا بدّ أنّه يصعد نحو أعالي الجزيرة. وصل ناظر سجن الجزر مصحوباً بعشرة حرّاس. تمّ إجراء التفقّد، واستلم العدد كاملاً. ثمّ انسحبت دورية الحراسة التي رافقتنا.

سأل الناظر:

– أين المحاسب؟

قيل له:

- لقد وصل، سيّدي الناظر.

رأيتُ ديغا يأتي وهو حسن الهندام في بزّة بيضاء وسترةٍ مزرّرة، يرافقه حارسٌ، ويحمل كلّ منهما كتاباً تحت ذراعه.

أخرج الرجلان الرجالَ من الصفّ فرداً فرداً، مع تصنيفهم الجديد: «أنتم أيّها الوافدون، السجين فلان، رقم تسلسل المنقول كذا، سيصبح رقم تسلسل السجين كذا».

- كم؟

- كذا سنة.

عندما حان دوري، عانقني ديغا وقبّلني مرّات عديدة. اقترب آمر السجن وسأله:

- أهذا هو بابيون؟

أجاب ديغا:

- نعم، سيّدي الآمر.

- اعتنِ بنفسك جيّداً في الحبس الانفرادي. سوف تمضي مدّة السنتين سريعاً.

الحبس الانفرادي

جهّزوا زورقاً، ومن أصل تسعة عشر سجيناً محكوماً بالحبس الانفرادي، انصرف عشرة سجناء إلى الزورق الأوّل. نوديتُ لكي أغادر إلى الزورق، فقال ديغا ببرود: «كلا، هذا السجين سيغادر في الرحلة الأخيرة».

منذ وصولي إلى الجزر، ذُهلتُ لرؤية الطريقة التي يتكلّم بها السجناء المحكومون بالأشغال الشاقّة. إذ لا يشعر المرء بوجود نظام وانضباط، ويبدو أنّهم لا يسخرون من الحرّاس. تكلّمتُ مع ديغا الذي وقف بالقرب منّي، فوجدته يعرف مسبقاً كلّ حكايتي وحكاية هروبي من السجن. كان

بعض الرجال الذين كانوا معي في سان لوران قد جاؤوا إلى الجزر ورووا له كلّ شيء. لم يلمني على شيء، فهو أكثر رقّة من أن يفعل هذا. قال جملة واحدة فقط من صميم قلبه: «كنت تستحقّ النجاح في هروبك، يا بني. سوف يحالفك النجاح في المرّة القادمة!». حتى أنّه لم ير ضرورة في أن يقول لي: «تشجّع»، لأنّه يعلم بأنني أتحلّى بتلك الشجاعة المطلوبة.

قال ديغا:

– أنا المحاسب العامّ هنا وعلاقتي ممتازة مع آمر السجن. اصمد جيّداً في السجن الانفرادي. سوف أرسل إليك تبغاً وطعاماً. لن ينقصك أيّ شيء.

حان دوري، فنوديتُ:

– هيا يا بابيون.

فقلتُ، مودّعاً:

– إلى اللقاء جميعاً. شكراً لكم على كلماتكم الطيّبة.

ونزلتُ إلى الزورق. وبعد عشرين دقيقةً، رسا زورقنا في جزيرة سان جوزيف. سنحت لي الفرصة لألاحظ أنّه لم يكن هناك سوى ثلاثة مراقبين على متن الزورق مقابل ستة محكومين بالأشغال الشاقّة مجذّفين، وعشرة سجناء محكومين بالحبس الانفرادي. سيكون التنسيق من أجل الاستيلاء على هذا الزورق نكتةً. استقبلتنا في جزيرة سان جوزيف لجنة الاستقبال، وقدّم لنا آمران نفسيهما: آمر السجن التأديبي في الجزيرة، وآمر الحبس الانفرادي. جعلونا نصعد مشياً على الأقدام، محاطين بالحراس، الطريق المؤدّي إلى السجن الانفرادي. لم يكن هناك أيّ محكوم بالأشغال الشاقّة في طريق دخولنا. حينما دخلنا من الباب المعدني الكبير الذي تعلوه لافتة مكتوبٌ عليها بالخطّ العريض: «الحبس الانفرادي التأديبي»، أدركنا في الحال جدّية هذا السجن. كان هذا الباب والأسوار الأربعة العالية التي تحيط به تُخفي أوّلاً مبنى صغيراً،

نقرأ على لافتة معلّقة على واجته: «الإدارة»، وثلاثة مبانٍ أخرى تحمل بالتسلسل الأحرف أ – ب – ت.

تمّ إدخالنا إلى مبنى الإدارة التي كانت عبارة عن قاعة باردة. تمّ توزيعنا نحن التسعة عشر على صفّين، وقال لنا آمر الحبس الانفرادي:

– أيّها المحكومون بالسجن الانفرادي، أنتم تعلمون أنّ هذا السجن مخصّصٌ للعقاب على جرائم ارتكبها رجالٌ سبق لهم أن حُكِم عليهم بالأشغال الشاقّة. نحن هنا لا نحاول إصلاحكم، فنحن نعلم أنّه من العبث أن نسعى إلى ذلك، وإنّما نسعى إلى أن نقهركم ونذلّكم. في هذا المكان، هناك قاعدة وحيدة: أن تخرسوا. أن تلتزموا الصمت المطبق. وإذا ما ضُبِط أحدكم وهو يحاول أن يرسل إشارات صوتية للتواصل، سوف يكون هناك خطر فرض عقوبات أكثر قسوةً. وإذا لم تكن مريضاً على نحوٍ خطير، لا تسجّل اسمك لزيارة العيادة الطبيّة، لأنّ زيارة غير مبرّرة للمستوصف تعرّضك لعقوبة. هذا كلّ ما لديّ لأقوله لكم. آه! التدخين ممنوع بصرامة هنا. هيّا أيّها الحراس، فتّشوهم تفتيشاً دقيقاً، وأودعوا كلّ واحدٍ منهم في زنزانة انفرادية. لا ينبغي أن يكون شاريير وكلوزيو وماتوريت في المبنى نفسه. تابع ذلك بنفسك يا سيّد سانتوري.

بعد عشر دقائق، حُبِستُ في زنزانتي المنفردة، الزنزانة رقم 234 في المبنى (أ). في حين وُضِعَ كلوزيو في المبنى (ب)، وماتوريت في المبنى (ت). ودّعنا بعضنا بالنظرات. حينما دخلنا إلى هذا المكان، أدركنا جميعاً على الفور بأنّه إذا أردنا الخروج من هنا أحياء، علينا الخضوع إلى هذا القانون غير الإنساني. رأيتهما يغادران، وهما رفيقاي في عملية الهروب الطويلة جدّاً هذه، الرفيقان الفخوران والشجاعان اللذان رافقاني بقيم ومناقب عالية، من دون أن يشتكيا أو يندما على كلّ ما فعلاه معي. شعرتُ بانقباضٍ في قلبي لفراقهما، لأنّه بعد أربعة عشر شهراً من الكفاح جنباً إلى جنب لنيل حريتنا، ما زلنا مرتبطين مع بعضنا إلى الأبد بعلاقة لا حدود لها.

عاينتُ الزنزانة التي حبسوني فيها. لم أكن أفترض أبداً ولا أتخيّل أنّه

يمكن أن تكون هناك في بلدٍ مثل بلدي فرنسا، أمّ الحرّية في العالم أجمع، والأرض التي أنجبت حقوق الإنسان والمواطن، منشأةٌ قمعيةٌ بهذه الدرجة من الوحشية التي عليها سجن سان جوزيف الانفرادي، حتى في غويانا الفرنسية، على جزيرة مفقودة في المحيط الأطلسي، بحجم منديل جيب. تخيّلوا مئة وخمسين زنزانةً متراصة بجانب بعضها، تسند كلّ واحدة منها زنزانة أخرى، ظهراً لظهر، وجدرانها الأربعة السميكة جدّاً مثقوبة فقط ببابٍ معدني فيه كوّة فقط. وقد كُتِبت فوق كلّ كوّة عبارة: «يُمنع فتح هذا الباب دون أمرٍ من الجهة العليا». وجدتُ على اليسار لوحاً خشبياً مع وسادة خشبية من الطراز نفسه الموجود في بوليو: كان اللوح الخشبي يرتفع ويُعلّق على الجدار؛ وكان هناك أيضاً غطاءٌ؛ ومدماكٌ إسمنتي في الركن الداخلي، أشبه بمقعد بلا مساند؛ ومكنسةٌ صغيرة؛ وقدحٌ معدني ذو مقبض، وملعقةٌ خشبية، وصفيحةٌ معدنية عمودية تغطّي دناً معدنياً، كانت مربوطة به بسلسلة (يمكننا سحبها من الخارج لإفراغها ومن الداخل حينما نحتاج لاستخدامها). كان ارتفاع جدران الزنزانة يبلغ ثلاثة أمتارٍ وسقفها عبارة عن قضبان معدنية ضخمة وسميكة بسماكة السكك الحديدية للقطارات الكهربائية، متصالبة بطريقة معيّنة بحيث لا يمكن لأيّ شيء مهما صغر حجمه أن يمرّ من بينها. ثمّ على ارتفاع أعلى يأتي السطح الحقيقي للمبنى والذي يرتفع عن الأرض قرابة سبعة أمتارٍ. ويمرّ فوق الزنازين المستندة على بعضها ظهراً لظهر ويشرف عليها طريقٌ دائري يبلغ عرضه متراً واحداً تقريباً، يسوّره درابزينٌ حديدي. يجول حارسان دون توقّف من طرفٍ إلى منتصف المسافة حيث يلتقيان فيستديران ويعودان إلى نقطة انطلاقهما ويُعيدان الكرّة بالطريقة نفسها. ترك السجن انطباعاً مرعباً، إذ يصل ضوء النهار حتى الممرّ، أمّا داخل الزنزانة، فكنتُ بالكاد أرى أمامي حتى في عزّ النهار. وفي الحال بدأتُ بالمشي في الزنزانة منتظراً صفيراً أو أي شيء من هذا القبيل لكي أُنزل اللوح الخشبي. ولعدم إثارة أدنى ضجّة، كان السجناء والحرّاس ينتعلون

مشّايات. فكّرتُ في نفسي مباشرةً: «هنا، في الزنزانة رقم 234، سيحاول شارير، المدعو بابيون، أن يعيش دون أن يصبح مجنوناً، ويقضي عقوبة من سنتين، أي سبعمئة وثلاثين يوماً. وعليه هو أن يدحض لقب «آكل البشر» الذي يحمله هذا الحبس الانفرادي.

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، نصف استدارة. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، نصف استدارة. جاء الحارس يمرّ أمام سطح زنزانتي. لم أسمعه يأتي، وإنّما رأيته.

فجأةً، أُضيئت الزنزانة، لكنّ المصباح كان عالياً جدّاً، فهو معلّق بالسطح العلوي على ارتفاع ينوف على ستة أمتار. أُضيء الممرّ في حين ظلّت الزنازين غارقة في الظّلام. مشيت، فعاد بندول الساعة إلى الحركة من جديد. ناموا قريري العين أيّها المحلّفون الأوغاد الذين حكمتم عليّ، ناموا قريري العين، لأنني أعتقد لو أنّكم كنتُم تعلمون إلى أين أرسلتموني، لرفضتم بشدّة أن تكونوا شركاء في إنزال هكذا عقوبة عليّ. سيكون من الصعب جدّاً التخلّص من جولات الشرود في الخيال، بل يكاد يكون ذلك مستحيلاً. ولذلك اعتقدتُ بأنّه من الأفضل أن أوجّهها نحو دوافع أقلّ إحباطاً بدل أن ألغيها تماماً.

وبالفعل تمّ الإعلان بصفيرٍ بأننا نستطيع إنزال اللوح الخشبي الذي يُستخدم كسريرٍ. ثمّ سمعتُ صوتاً أجش يقول:

– أيّها السجناء الجدد، اعلموا بأنّه بدءاً من الآن يمكنكم أن تُنزلوا الألواحَ الخشبية وأن تناموا إذا ما رغبتم في ذلك.

لم أحفظ سوى هذه الكلمات فقط: «إذا ما رغبتم في ذلك». وبالتالي، واصلتُ المشي على قدميّ في تلك المساحة الضيّقة، إذ كان الوقت مفصلياً للغاية من أجل النوم. وعليّ أن أعتاد على هذا القفص المفتوح من السطح. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، وقد اتّخذتُ في الحال إيقاع بندول الساعة؛ خافضاً رأسي وعاقداً ذراعيّ خلف ظهري، ومقدّراً مسافة الخطوات بالضبط كما ينبغي، مثل رقّاص ساعة يتراوح، رحتُ

وجئتُ باستمرار ودون توقّف مثل رجلٍ يمشي وهو نائم. حينما كنتُ أصل إلى نهاية كلّ خمس خطوات، لم أكن أرى حتى الجدار، وكنتُ ألامسه عند استدارتي، دون كللٍ أو مللٍ، في هذا الماراثون الذي لا نقطة وصول له، ولا زمن محدّد لنهايته.

نعم، بالفعل يا بابي، هذا السجن المسمّى «آكل البشر» ليس مزحةً. يترك ظلّ الحارس الذي ينعكس على الجدار أثراً غريباً عليّ. فإذا ما نظرتُ إليه رافعاً رأسي، يصبح المشهد أكثر إحباطاً: أشعر أنني نمرٌ واقعٌ في حفرة، يُراقبه من الأعلى الصيّاد الذي يأتي لاصطياده. كان هذا الشعور رهيباً واحتجتُ إلى أشهرٍ من الوقت لكي أعتاد عليه.

قلتُ في نفسي إنّ كلّ سنة هي ثلاثمئة وخمسة وستون يوماً؛ وبالتالي، يساوي عامان سبعمئة وثلاثين يوماً، إن لم تكن هناك سنة كبيسة. ابتسمتُ لهذه الفكرة التي راودتني. هل تعلم إن كانت المدّة سبعمئة وثلاثين يوماً أو سبعمئة وواحد وثلاثين يوماً، الأمران سيّان. لماذا الأمران سيّان؟ كلا، هذا ليس الشيء نفسه. فيومٌ إضافي يعني أربعاً وعشرين ساعة إضافية. وأربع وعشرون ساعة زمنٌ طويل. سبعمئة وثلاثون يوماً، يتكوّن كلّ يوم من أربع وعشرين ساعة مدّة طويلة جدّاً. كم عدد ساعات كلّ هذه المدّة؟ تُرى هل سأكون قادراً على أن أحسبها ذهنياً؟ كيف لي أن أقوم بذلك، هذا مستحيل. لمَ لا؟ هذا ممكن. لنحاول قليلاً. كلّ مئة يوم تتكوّن من ألفين وأربعمئة ساعةٍ. إذا ضربنا الرقم بسبعة، الأمر سهلٌ جدّاً، فالنتيجة هي ستة عشر ألفاً وثمانمئة ساعةٍ، من جهة، ثمّ الأيام الثلاثون المتبقيّة تساوي سبعمئة وعشرين ساعة. فيصبح الإجمالي: ستة عشر ألفاً وثمانمئة ساعة زائداً سبعمئة وعشرون ساعة، فتكون النتيجة، إن لم أكن قد ارتكبتُ خطأً، سبعة عشر ألفاً وخمسمئة وعشرين ساعة عليّ أن أقضيها في هذا القفص المصنوع خصيصاً، بجدرانه الملساء من أجل الحيوانات البرية. كم دقيقة عليّ أن أقضيها هنا؟ ليس لهذا أيّ أهمية، لنرى، لقد حسبتُ عدد الساعات، أمّا الدقائق فكم عددها؟ دعونا لا نبالغ. ولمَ لا نحسب

الثواني أيضاً؟ سواء كان لهذا الأمر من أهمية أم لا، ليس هذا ما يهمّني. علي أن أشغل بشيءٍ ما هذه الأيام وهذه الساعات وهذه الدقائق، لوحدي ومع نفسي! تُرى منْ عساه يكون في الزنزانة التي تقع إلى يميني؟ ومَنْ على يساري؟ ومن هو المحبوس في الزنزانة التي تقع خلف زنزانتي؟ هؤلاء الرجال الثلاثة، إن كانت الزنازين مشغلة بالفعل، لا بدّ أنّهم هم أيضاً يتساءلون عمّن يُقيم في الزنزانة رقم 234.

صدرت ضجّة كامدة من شيءٍ سقط خلفي في زنزانتي. ما عساه أن يكون هذا الشيء؟ أيكون جاري قد امتلك مهارة أن يرمي لي شيئاً ما عبر الشبك المعدني؟ حاولتُ أن أتبيّن هذا الشيء الذي سقط، فرأيتُ بالكاد شيئاً طويلاً وضيّقاً. وفي اللحظة التي كنتُ أهمّ فيها بالتقاطه، أخذ الشيء الذي خمّنته في الظلام أكثر من أن أراه بالفعل يتحرّك ويذهب سريعاً نحو الجدار. حينما تحرّك، تراجعتُ في حركةٍ إلى الوراء. حينما وصل إلى الجدار، بدأ يتسلّق الجدار قليلاً ثمّ سقط على الأرض. كان الجدار أملسَ بحيث لم يستطع هذا الشيء أن يتشبّث به بما فيه الكفاية لكي يتقدّم عليه. تركته يحاول ثلاث مرّات أن يصعد على طول الجدار، ثمّ عند المحاولة الرابعة، حينما سقط على الأرض، سحقته بدعسةٍ من قدمي. أحسستُ به رخواً تحت خفّي النسيجي. ما عساه أن يكون؟ نظرتُ إليه من أقرب مسافة ممكنة، جاثياً على ركبتي، وفي النهاية، استطعتُ أن أميّزه: إنّه حريشٌ ضخم يبلغ طوله نحو عشرين سنتيمتراً، وعرضه بحجم إصبعين ضخمين. وقد شعرتُ بتقزّزٍ شديد بحيث لم ألتقطه من الأرض لكي أضعه في دلو الفضلات. دفعته بقدمي إلى ما تحت اللوح الخشبي. رأيته في صباح اليوم التالي في وضح النهار. وسوف أحظى بالوقت الكافي لأرى الكثير من كثيرات الأرجل؛ والتي كانت تسقط من أعالي السطح. وسوف أتعلّم أن أتركها تجول على جسدي العاري، دون أن أمسك بها أو أزعجها إن كنتُ نائماً. كما سأحظى بفرصة أن أعرف كم يكلّفك غالياً خطأٌ تكتيكي، إذا ما كان ضدّك، ويسبّب لك الآلام. فلدغة من هذه الدويبة

المقزّزة تسبّب لك حمّى شديدة لمدّة اثنتي عشرة ساعة وتجعلك تشعر بحرقة شديدة في مكان اللدغةِ قرابة ست ساعات.

على أيّ حال، ستكون هذه الدويبات مصدر تسليةٍ وإلهاءٍ وتحريفٍ لمسار أفكاري. حينما يسقطُ حريشٌ من السطح وأستيقظ من النوم، سوف أقوم بتعذيبه باستخدام المكنسة الصغيرة لأطول وقتٍ ممكن أو سأتسلّى معه من خلال تركه يختبئ في زاوية ما، لأقوم أنا بعد بضع دقائق بالبحث عنه واكتشافه.

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة... ثمّ يسود صمتٌ تامّ. ولكن ألا يشخر أحدٌ في هذا المكان؟ ألا يسعل أحد؟ صحيحٌ أنّ الجوّ حارٌّ وخانق. وصحيحٌ أنّ الليل قد حلّ! وما عساه أن يكون النهار! أنا السجين المقدّر له أن يعيش مع كثيرات الأرجل. حينما كانت المياه تفيض في الزنزانة الانفرادية الغوّاصة في سانتا مارتا وترتفع فيها، كانت تأتي كميات كبيرة منها مع المياه إلى داخل الزنزانة. كانت أصغر حجماً ولكنّها مع ذلك من هذه الفصيلة نفسها التي أراها هنا الآن. صحيحٌ أنّ في سانتا مارتا كان هناك فيضانٌ يومي، ولكننا كنّا نتكلّم ونصرخ ونضحك ونصغي إلى أغاني أو صرخات مجانين مؤقّتين أو دائمين. لم يكن الأمر مشابهاً لما نحن فيه هنا. وإذا ما خُيّرت، سوف أختار سانتا مارتا. ما تقوله غير منطقي يا بابيون. إذ هناك إجماعٌ في الرأي على أنّ الحدّ الأقصى لمقاومة رجلٍ في ذاك السجن هو ستة أشهر. والحال أنّه هنا، هناك الكثير من السجناء الذين أمضوا أربع أو خمس سنوات بل وأكثر. أن يُحكَم على السجناء بهذه المدّة شيء؛ ولكن أن يقضوا هذه المدّة شيءٌ آخر. كم سجيناً انتحر؟ لا أرى كيف يمكن لأحدهم أن ينتحر. أجل، هذا ممكن. الأمر ليس سهلاً، ولكن يمكن للمرء أن يعلّق نفسه وينتحر. يصنع السجين حبلاً من سرواله ويشنق به نفسه. من خلال ربط المكنسة بأحد طرفي الحبل والصعود على اللوح الخشبي، يستطيع السجين أن يمرّر الحبل عبر قضيبٍ حديدي ويعلّقه به. وإذا ما قمتَ بهذه العملية على مستوى جدار الطريق الدائري،

من المرجّح أنّ الحارس لن يرى الحبل. وفي اللحظة التي يمرّ فيها، تتدلّى في الفراغ. وعند عودة الحارس، تكون قد أسلمت الروح. أضف إلى ذلك أنّه لن يسارع إلى النزول وفتح باب الزنزانة لكي يفكّ الحبل عن رقبتك. فتح باب الزنزانة؟ لا يمكنه فعل ذلك، لأنّه مكتوب على الباب: «يُمنع فتح هذا الباب دون أمرٍ من الجهة العليا». لا تخشَ شيئاً إذاً، فمن يريد أن ينتحر سوف يحظى بكامل الوقت اللازم قبل أن يُفكّ الحبل عن رقبته «بأمرٍ من الجهة العليا».

أنا أصف كلّ هذا الذي قد لا يكون مشوّقاً ومثيراً للاهتمام بالنسبة إلى الذين يحبّون الإثارة والشجار. يمكن لأولئك أن يقفزوا فوق الصفحات، إذا كنتُ أسبّب لهم الملل والضجر. ومع ذلك، فإنّ هذه الانطباعات الأولى، وهذه الأفكار الأولى التي انتابتني لدى اتّصالي بزنزانتي الجديدة، ردود الفعل هذه على الساعات الأولى من وضعي في القبر، أعتقد أنّه عليّ أن أرسمها بأقصى درجات الدقّة الممكنة.

ها قد مضى وقتٌ طويل وأنا أمشي داخل الزنزانة. ميّزتُ ضجّة وسط ظلام الليل، وعلمتُ أنّه تبديل الحراسة. كان الحارس الأوّل طويل القامة ونحيلاً، في حين أنّ الذي حلّ محلّه قصير القامة وبدين. كان يجرّ في قدميه مشّايته، فيُسمع صوت احتكاك خفّيه بالأرض في زنزانتين قبل زنزانتي وزنزانتين بعد زنزانتي. لم يكن صموتاً مئة بالمئة مثل زميله. واصلتُ المشي داخل الزنزانة. لا بدّ أنّ الوقت متأخّرٌ. تُرى كم تكون الساعة الآن؟ غداً لن أبقى من دون مقياسٍ للوقت. بفضل المرّات الأربع التي تُفتَحُ فيها طاقة باب الزنزانة كلّ يوم، سوف أعرف كيف أقدّر الوقت تقريبياً. بالنسبة إلى الليل، حينما أعرف توقيت بدء مناوبة الحراسة الأولى ومدّتها، سيكون بإمكاني أن أعيش مع مقياسٍ سليمٍ للوقت: الحراسة الأولى، والثانية والثالثة، إلخ.

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة... أصبحتُ أستأنف تلقائياً هذه النزهة، وإذ يساعدني التعب، أحلّق بسهولة لكي أذهب وأنبش في

الماضي. وبالتناقض مع عتمة الزنزانة بالطبع، كنتُ أتخيّل أنّني وسط أشعّة الشمس، جالساً على الشاطئ في موطن قبيلتي، أرى المركب الذي تصطاد لالي على متنه يتأرجح على بعد مئتي مترٍ منّي على ذلك البحر الأخضر المتلألئ كالجواهر، والذي لا مثيل له، وأنا أحكّ الرمل بقدمي. تقدّم لي زورايما سمكة ضخمة مشوية على الجمر ومحفوظة جيّداً في ورقة من أشجار الموز لتحتفظ بحرارتها. أتناولها بأصابعي، بطبيعة الحال، وهي تنظر إليّ متصالبة الساقين، جالسةً أمامي. كانت في غاية السعادة وهي ترى أنّ القطع الكبيرة من اللحم تُنزَعُ بسهولة من السمكة، وتقرأ على وجهي علامات الرضا والارتياح وأنا أتناول بشهية وجبةً بهذه اللذّة.

لم أعد في الزنزانة، بل لا أعرف السجن الانفرادي، ولا سان جوزيف، ولا الجزر. تدحرجتُ على الرمل، منظّفاً يديّ بفركها بهذا المرجان الناعم جدّاً كما لو أنّه من الطحين. ثمّ ذهبتُ إلى البحر وغسلتُ فمي بهذا الماء النقي جدّاً والمالح جدّاً أيضاً. وأخذتُ بعض الماء بيديّ ورششته على وجهي. حينما فركتُ رقبتي انتبهتُ إلى أنّ شعري طويل. وحينما تعود لالي سوف أحلق شعر رقبتي. أمضيتُ كلّ الليل مع قبيلتي. حللتُ ساتر عورة زورايما وعلى الرمل، هناك، تحت أشعة الشمس، تداعبني رياح البحر، ضاجعتها. أصبحت تئنُّ بشغف مثلما كانت تفعل حينما تنال متعة. ربّما أوصلت الريح هذه الموسيقى العاشقة إلى لالي. على أيّ حال، لم تكن لالي تعدم الرؤية والتميز بأننا كنّا ملتفين على بعضنا بعضاً، فقد كانت قريبة جدّاً منّا لترى بوضوح أننا كنّا نمارس الجنس. نعم، لا بدّ أنّها قد رأتنا لأنّ القارب عاد نحو الشاطئ. نزلتْ من القارب، مبتسمةً. أثناء العودة، حلّت ضفائرها ومرّرت أصابعها الطويلة بين شعرها المبلّل، الذي بدأ يجفّ بفعل الريح والشمس في ذلك اليوم الرائع. ذهبتُ نحوها، فطوّقت خصري بذراعها اليمنى ودفعتني لكي نصعد الشاطئ نحو كوخنا. وطيلة المسافة، لم تكفّ عن إفهامي: «وأنا، وأنا». عندما دخلنا إلى

الكوخ، ألقت بي على أرجوحة نومٍ مطوية على الأرض كغطاء ونسيتُ في حضنها العالم والوجود. زورايما ذكية جدّاً، ولم تشأ أن تعود وتدخل إلى الكوخ إلّا بعد أن تحسب أنّ لهونا قد انتهى. وصلت حينما كنّا، وقد شبعنا من الحبّ، لا نزال ممدّين على أرجوحة النوم عاريين تماماً. جاءت تجلس معنا، وهي تنقر نقرات خفيفة على خدّي أختها وهي تردّد كلمة لا بدّ أنّها كانت تعني شيئاً من قبيل: شرِهة. ثمّ قمت باستحياء بترتيب ساتر عورتي وساتر عورة لالي بحركات مليئة بالرقّة والحشمة. أمضيت كلّ الليل مع هنود غواجيرا، ولم أنم أبداً. بل ولم أتمدّد لكي أرى، مغمض العينين، عبر أجفاني هذه المشاهد التي عشتُها. ومن خلال المشي دون توقّف كما لو أنني نائمٌ مغناطيسياً، دون جهدٍ بإرادتي، نُقِلتُ من جديد إلى ذلك النهار الجميل والممتع، الذي عشته منذ قرابة ستة أشهر.

انطفأ الضوء وبات من الممكن أن أرى أنّ الشمس قد طلعت مجتاحةً عتمة الزنزانة، طاردةً ما يشبه الضباب العائم الذي يلفّ كلّ ما هو في الأسفل، من حولي. دوّى صوتُ صفيرٍ، وسمعتُ صوت الألواح الخشبية التي صفقت على الجدران وحتى صوت خطّاف الجار الذي على يميني حينما مرّره في الحلقة المثبّتة على الجدار. سعل جاري وسمعتُ صوت القليل من الماء الذي سقط على الأرض. كيف يغتسل المرء هنا؟

- سيّدي المراقب، كيف يغتسل المرء هنا؟

- أيّها السجين، أعتذر منك لعدم معرفتي ذلك.

لا يحقّ للسجين أن يتكلّم مع المراقب في الحراسة دون نيل عقابٍ شديد. لكي تغتسل، عليك أن تأخذ مكانك فوق دلو الفضلات وأنت تسكب الماء من الإناء بيدٍ. أمّا اليد الأخرى، فتغتسل بها. ألم تنشر غطاءك؟

- كلا.

- هناك بكلّ تأكيد منشفة من الكتّان في الداخل.

هذا على سبيل المثال! أليس لنا الحقّ في التكلّم مع الحارس؟

وأيّاً كان السبب؟ وماذا لو اشتدّ بنا الألم من أيّ شيءٍ كان؟ أو إذا كان أحدنا على وشك أن يموت؟ من جراء أزمة قلبية، أو أزمة التهاب الزائدة الدودية، أو نوبة ربو حادّة جدّاً؟ هل من المحظور هنا أن نصرخ طالبين النجدة، حتى في حالة خطر الموت؟ إنّه لأمرٌ لا يُصدّق! ولكن كلا، هذا أمرٌ طبيعي. سيكون من السهل جدّاً أن تُثير فضيحةً حينما تثور أعصابك بعد أن تصل إلى نهاية قدرتك على المقاومة. فقط لكي تسمع صوتاً، فقط لكي يكلّمك أحدٌ، حتى لكي تسمع أحداً يقول لك: «متْ، ولكن اخرس»، ولكن في هذه الحالة سوف يثير يومياً عشرون شخصاً من أصل مئتين، ربّما يكونون موجودين هنا، أيّ حديثٍ كمتنفّسٍ لكي يتخلّصوا من الضغط الشديد للغاز في دماغهم!

لا يمكن أن يكون عالم نفس هو مَنْ جاءته فكرة بناء أقفاص الأسود هذه: لا يمكن لطبيبٍ أن يصل إلى هذه الدرجة من الخزي. كما أنّ الذي وضع هذا النظام لا يمكن أن يكون طبيباً. لكنّ الشخصين اللذين وضعا خطط هذا المكان وقوانينه، أي المهندس المعماري وكذلك الموظف المسؤول، واللذين دقّقا جيّداً في جميع تفاصيل تنفيذ العقوبة، وحشان بغيضان، عالمان نفسيان شريران وخبيثان، يملأهما الحقد السادي على المحكومين.

من زنازين مركز بوليو في كاين، العميقة جدّاً بمستوى طابقين تحت الأرض، كان من الممكن أن يتسرّب ويصل ذات يوم إلى عامّة الناس صدى أعمال التعذيب أو سوء المعاملة المفروضة على هذا أو ذاك من المُعاقبين.

والدليل على ذلك هو أنّه حينما فكّوا الأغلال عن يديّ، رأيتُ بالفعل الخوف على وجوه الحرّاس، ولا شكّ أنّه كان الخوف من أن يواجهوا بعض المشكلات.

أمّا هنا، في هذا السجن الانفرادي الخاصّ بالأشغال الشاقّة حيث لا يستطيع الدخول إليه سوى موظفي الإدارة، فتراهم مطمئنين هادئين، إذ لن يحدث لهم أيّ شيء.

تعالت أصوات طقطقة فتح كلّ الطاقات الموجودة في أبواب الزنازين، فاقتربتُ من كوّة باب زنزانتي، مجازفاً بإلقاء نظرةٍ، ثمّ أخرجتُ رأسي قليلاً من الكوّة، ومن ثَمّ أخرجتُ كامل رأسي من الطاقة إلى الممرّ، فرأيتُ العديد من الرؤوس الخارجة من الكوّات على يميني وعلى يساري. وسرعان ما أدركتُ أنّه ما إنْ تُفتَح كوّات الأبواب حتى تُسارع رؤوس السجناء إلى الخروج من خلالها. نظر إليّ السجين الذي إلى يميني من دون أن يكون هناك أيّ تعبيرٍ على الإطلاق في نظرته، وقد أعيته من دون شكّ ممارسة العادة السرّية، فقد كانت بشرته شاحبة ودهنية، ولا أثر للضياء على وجهه النحيل والأبله. أمّا الذي إلى يساري، فقد قال لي سريعاً:

- كم سنة؟

- عامان.

- أنا محكومٌ بأربعة أعوام. أمضيتُ منها عاماً واحداً. ما اسمك؟

- بابيون.

- أنا اسمي جورج، جوجو الأوفيرني[1]. أين اعتُقلت؟

- في باريس، وأنت؟

لم تسنح له الفرصة لكي يجيب، فقد وصل موزّع القهوة والخبز إلى الزنزانة التي تفصلها زنزانتان عن زنزانته، فأدخل رأسه إلى الزنزانة، وفعلتُ الشيء نفسه. مددتُ فنجاني فملأه الموزّع بالقهوة، ثمّ أعطاني قطعة من الخبز. ولأنني لم أسحب قطعة الخبز بسرعة كافية، حينما صفق الحارس باب طاقة زنزانتي، سقطت قطعة الخبز خاصّتي وتدحرجت على الأرض. وفي غضون أقلّ من ربع ساعة، عاد الصمتُ ليخيّم على المكان. لا بدّ أنّ هناك عمليتي توزيع، إحداها عبر الممرّ، وقد جرت بسرعة. عند الظهيرة، طبقٌ من الحساء مع قطعة من اللحم المسلوق. أمّا في المساء،

1- أوفيرني: مواطن من منطقة أوفيرن الفرنسية - المترجم.

فيُقدّمُ طبقٌ من حساء العدس. هذه الوجبة، لم تتغيّر خلال عامين سوى في المساء: عدس وفاصولياء حمراء وبازلاء مقشّرة وحمّص وفاصولياء بيضاء ورزّ مطبوخ بالدهن. أمّا وجبة الظهيرة، فكانت هي نفسها دائماً ولا تتغيّر.

وكلّ خمسة عشر يوماً، نُخرج رؤوسنا من كوّة الباب، ويقوم أحد السجناء باستخدام ماكينة الحلاقة بحلاقة ذقوننا.

ها قد مرّت ثلاثة أيام على وجودي هنا، ويشغل أمرٌ واحدٌ بالي. في جزيرة رويال، قال لي أصدقائي بأنّهم سيرسلون إليّ طعاماً وتبغاً. لم أتلقّ حتى الآن شيئاً، وكنتُ أتساءل في نفسي كيف سيكون بوسعهم أن يصنعوا معجزةً كهذه. ولكنني لم أندهش كثيراً من عدم تلقّي أيّ شيء حتى الآن. قد يكون التدخين فعلاً خطيراً للغاية، وهو في كلّ الأحوال عبارة عن بذخ. تناول الطعام، نعم قد يكون هذا أمراً حيوياً، لأنّ الحساء الذي يُقدّم عند الظهيرة هو عبارة عن ماء ساخن، فيه قطعتان أو ثلاث قطع من أوراق الخضار وقطعة صغيرة من اللحم المسلوق وزنها حوالي مئة غرام. وفي المساء، يقدّمون لنا مغرفة من الماء الذي تسبح فيه بعض حبّات الفاصولياء أو سواها من الخضراوات الجافّة. ولكي أكون صريحاً وصادقاً، كنتُ أقلّ شكّاً في أنّ الإدارة لا تعطينا جراية مناسبة من الطعام، وأكثر شكّاً في أنّ السجناء المحكومين بالحبس الانفرادي الذين يوزّعون أو يعدّون الطعام هم منْ يُنقصون علينا الطعام. وقد راودتني هذه الفكرة لأنّه في المساء يقوم فتى من مرسيليا بتوزيع الخضراوات. كانت مغرفته تغوص عميقاً في الإناء، وكلّما كان هو الموزّع، كنتُ أحصل على كمية من الخضراوات تفوق كميّة الماء. أما الآخرون، فقد كان الأمر معهم عكس ذلك، إذ لم يكن يغرفون مغرفتهم عميقاً، بل كانوا يملؤونها من السطح بعد تحريك الحساء قليلاً. ولهذا كانت المغرفة تمتلئ بالكثير من المرق والقليل من الخضراوات. هذا السوء في التغذية كان خطيراً للغاية. فمن أجل أن تمتلك إرادة قوية ومعنويات عالية، تحتاج إلى شيءٍ من القوّة البدنية.

كانوا يكنسون الممرّ، ووجدتُ أنهم يكنسون لوقتٍ طويل أمام زنزانتي، فيصدرُ قشّ المكنسة صريراً وهو يحتكّ بباب زنزانتي. نظرتُ بتركيزٍ ورأيتُ قطعةً من الورق الأبيض تظهر من تحت الباب، فأدركتُ في الحال بأنّه قد تمّ تمرير شيءٍ ما لي من تحت الباب ولكن لم يتمّ دسّه جيّداً. وقد انتظرني الكنّاس أن أسحب الورقة قبل أن ينصرف إلى التكنيس بعيداً عن بابِ زنزانتي. سحبتُ الورقة وفتحتُها فوجدتُ كلمة مكتوبة بالحبر الفوسفوري. انتظرتُ أن يمرّ الحارس ثمّ قرأتُ سريعاً: «بابي، اعتباراً من يوم غد، ستجد في الدلو يومياً خمس سجائر وجوزة هند. امضغ جيّداً جوزة الهند عندما تأكلها إذا أردت أن تنفعك جيّداً. ابلع اللبّ. دخّن في الصباح أثناء إفراغ الدلاء. ولا تدخّن أبداً بعد قهوة الصباح، وإنّما عند توزيع حساء الظهيرة وذلك بعد أن تأكل، وفي المساء، عند توزيع الخضراوات. مع هذه الرسالة، هناك قطعة صغيرة من رصاص قلم. كلّما تحتاج إلى شيء، اطلبه عبر قطعة صغيرة من الورق. وحينما يحفّ الكنّاس مكنسته بالباب، انقر بأصابعك وإذا ردّ عليك بحفّ الباب، ادفع ورقتك. ولا تمرّر الورقة أبداً قبل أن يردّ على نقراتك على الباب. ضع قطعة الورق في أذنك لكي لا تضطرّ لإخراج ماسورتك، وضع قطعة الرصاص في أيّ مكان أسفل جدار الزنزانة. تشجّع. لك قبلاتنا. اينياس - لويس».

إنّ غالغاني وديغا هما من أرسلا إليّ الرسالة. سرت حرارةٌ في حلقي: لقد أشاع الإحساس بوجود أصدقاء بهذا الوفاء وهذا التفاني الدفء في جسدي. وقد زادني هذا إيماناً بالمستقبل ويقيناً بأنني سوف أخرج حيّاً من هذا القبر، فأقبلتُ بخطوات مرحة ومتحمّسة على السير في الزنزانة: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، نصف استدارة، إلخ. وأنا أمشي، فكّرتُ وقلتُ في نفسي: أيّ نبل وأيّ رغبة في فعل الخير من أجل الآخرين في سريرة هذين الرجلين. لا بدّ أنهما قد عرّضا نفسيهما لمخاطر جمّة، وربّما جازف أحدهما بفقدان وظيفته كمحاسب، والآخر كساعي بريد. إنّه بالفعل لعملٌ جليل ما فعلاه من أجلي، دون أن يحسبا حساباً لأن

يكلّفهما ذلك ثمناً غالياً. كم رجلاً قاما برشوتهم حتى استطاعا أن يوصلا لي السجائر وجوز الهند من سجن جزيرة رويال إلى هنا، في زنزانتي، في السجن المسمّى «آكل البشر»!

أيّها القارئ، يجب أن تعلم أنّ جوزة الهند مليئة بالزيت. ونواتها الصلبة والبيضاء مليئة بالزيت إلى درجة أنّه بتقطيع ست ثمرات من جوز الهند ونقع اللبّ في الماء الساخن، سوف نحصل في اليوم التالي على لترٍ من الزيت الطافي على سطح الماء. وهذا الزيت، المادّة الدسمة التي يسبّب الحرمان منها في نظامنا الغذائي المزيد من الآلام، هو غنيٌّ بالفيتامينات أيضاً. وتناول جوزة هند واحدة في اليوم يكاد يضمن لي صحّة جيّدة. فعلى الأقلّ لن أُصاب بالجفاف ولن أموت بسبب العوز الفيزيولوجي. في هذا اليوم، يمر أكثر من شهرين وأنا أتلقّى من دون صعوبات ما أتناوله وأدخّنه. أتّخذ تدابيرَ في غاية الحذر أثناء التدخين، فأسحب الدخان بعمق ثمّ أنفث تدريجياً وبكميات قليلة، وأنا أضرب الهواء بيدي اليمنى المفتوحة مثل مروحة لتبديد الدخان وإزالة آثاره.

يوم أمس، حدث شيءٌ غريب. لا أعلم إن كنتُ قد أحسنت أو أسأت التصرّف. استند أحد الحرّاس من الدورية في الممرّ العلوي على الدرابزين وهو ينظر إلى داخل زنزانتي. أشعل سيجارةً وسحب منها عدّة أنفاس ثمّ تركها تسقط في زنزانتي. وغادر بعد ذلك. انتظرتُه إلى أن عاد ومرّ من فوق زنزانتي لكي أسحق السيجارة تحت أنظاره بقدمي. الوقفة الخفيفة التي توقّفها لم تكن طويلة: ما إنْ تأكّد من الحركة التي قمتُ بها حتى غادر. تُرى هل أشفق عليّ أم أحسّ بالخجل من الإدارة التي ينتمي إليها؟ أم أنّ هذا كان فخّاً ينصبه لي؟ لم أعرف حقيقة دوافعه وهذا ما حيّرني. حينما يتألّم المرء، يغدو مفرط الحساسية حيال أيّ شيء. لم أشأ أن أُزعج هذا الحارس بحركتي التي دلّت على الازدراء، إذا كان قد أراد لبضع ثوانٍ أن يكون إنساناً خيّراً.

في الواقع، مرّ أكثر من شهرين على وجودي هنا. هذا السجن الانفرادي،

حسب رأيي، هو الوحيد الذي لا يوجد فيه أيّ شيء يتعلّمه المرء. لأنّه ما باليد حيلة. لقد درّبتُ نفسي جيّداً على أن أكون في مكانين في الوقت نفسه. واتّبعتُ في ذلك تكتيكاً لا يتزعزع. لكي أجول بين النجوم بعمقٍ أكثر، ولكي أرى دون عناء ظهور مراحل ماضية مختلفة عن حياتي كمغامر أو من طفولتي، أو لكي أبني قصوراً في إسبانيا مع حقيقة مدهشة، يجب قبل كلّ شيء أن أتعب كثيراً. عليّ أن أمشي دون أن أجلس خلال ساعات عديدة دون توقّف، وأنا أفكر بشكلٍ طبيعي بأيّ شيءٍ كان. ثمّ حينما أصل إلى درجة الإرهاق، أتمدّد على سريري الخشبي، وأضع رأسي على نصف غطائي، في حين أطوي النصف الثاني منه على وجهي، فيصل هواء الزنزانة المصفّى إلى فمي وأنفي بصعوبة، متسرّباً عبر الغطاء. لا بدّ أنّ هذا يُحدث في رئتي نوعاً من الاختناق، فيبدأ صداعٌ في رأسي. أشعر بالاختناق من الحرارة وقلّة الهواء وحينها، أبدأ فجأةً بالتحليق. آه! هذه النزهات الروحية كانت تمنحني مشاعر لا توصف. حظيتُ بليالِ حبّ أكثر كثافةً مما حظيتُ بها حينما كنتُ طليقاً، وأكثر إثارةً للقلق، ومع مشاعر أكثر من المشاعر الحقيقية، المشاعر التي راودتني بالفعل في الماضي. نعم إنّ هذه المقدرة على التحليق في فضاء الخيال أتاحت لي أن أجلس مع أمّي المتوفاة منذ سبعة عشر عاماً. كنتُ ألعب بفستانها وهي تداعب حلقات شعري الذي كانت تتركه طويلاً جدّاً، كما لو أنني فتاةٌ صغيرة في الخامسة من عمرها. أداعب أصابعها الطويلة والرفيعة جدّاً، وبشرتها الناعمة مثل الحرير. تضحك معي من رغبتي الجريئة في الغطس في النهر مثلما رأيتُ الفتيان يفعلون ذات يومٍ أثناء نزهةٍ. أتذكّر أدقّ تفاصيل تسريحة شعرها، والرقّة والحنان في عينيها الصافيتين والساحرتين، وعذوبة كلماتها التي لا توصف: «عزيزي ريري، كن هادئاً وعاقلاً، حتى تستطيع أمّك أن تحبّك كثيراً. في وقتٍ لاحق، سوف تغطس أنت أيضاً في النهر، سوف تغطس عميقاً، حينما تكبر قليلاً. أمّا الآن، فأنت ما زلت صغيراً جدّاً، يا عزيزي. هيّا، سوف يأتي سريعاً، بل وسريعاً جدّاً، اليوم الذي ستكون فيه فتى كبيراً».

ونسير، يداً بيد، على ضفاف النهر ونعود إلى البيت. كنتُ أشعر وكأنني بالفعل في منزل طفولتي، إلى درجة أنني كنتُ أضع يديّ على عيني أمّي لكي لا تستطيع قراءة النوتة الموسيقية وهي تواصل رغم ذلك العزف على البيانو. كنتُ في البيت بالفعل، لم يكن ذلك ضرباً من الخيال. كنتُ مـها هناك، أعتلي كرسيّاً، خلف كرسيٍّ بلا مساند دوّار تجلس فيه أمّي، وكنتُ أضغط بقوّة بيديّ الصغيرتين على عينيها الكبيرتين. كانت أصابعها الرشيقة تواصل لمس مفاتيح البيانو لكي أسمع معزوفة «الأرملة الطروب» حتى نهايتها. لا أنت، أيّها المدّعي العام المجرّد من الإنسانية، ولا أنتم، يا رجال الشرطة المشكوك في نزاهتكم، ولا بولين، البائس الذي ساوم على حريته بثمن شهادة زور، ولا المحلّفون الأوغاد الاثنا عشر الحمقى بما فيه الكفاية لكي ينساقوا وراء فرضية الاتهام وطريقتها في تفسير الأمور، ولا حرّاس السجن الانفرادي، الشركاء الجديرون بسجن «آكل البشر»، لا أحد، لا أحد على الإطلاق، ولا حتى الجدران السميكة ولا المسافة البعيدة لهذه الجزيرة الضائعة على المحيط الأطلسي، لا شيء، لا شيء على الإطلاق؛ معنوياً كان أو ماديّاً، لن يمنع رحلاتي الملوّنة بلذّة بلون ورد النعيم حينما أحلّق هائماً بين النجوم.

لقد ارتكبتُ خطأً، لأنّه حينما حسبتُ الوقت الذي عليّ أن أبقى فيه وحيداً مع نفسي، لم أتحدّث سوى عن «الساعات – الزمن». وهذا خطأ. هناك لحظات يجب قياسها من خلال «الدقائق – الزمن». على سبيل المثال، بعد توزيع القهوة والخبز، يجري تفريغ الدلاء – بعد هذا التوزيع بساعة واحدة تقريباً. وعند إعادة الدلو الفارغ، سوف أجد لبّ جوزة الهند، والسجائر الخمس، وفي بعض الأحيان، بطاقة مكتوبة بقلم الفوسفور. ليس دائماً، وإنّما غالباً، كنتُ أحسب حينذاك الدقائق. الأمر سهلٌ بما فيه الكفاية، لأنني كنتُ أضبط كلّ خطوة على ثانيةٍ، وجاعلاً من جسدي رقّاص ساعةٍ، كلّ خمس خطوات، في لحظة الاستدارة، كنتُ أقول في ذهني: واحد. وعند كل اثنتي عشرة عملية على هذا الغرار، كنتُ أحسب دقيقةً. لا تظنّوا أنني كنتُ متلهّفاً لمعرفة إذا ما كنتُ سأحصل

على جوزة الهند هذه والتي هي كلّ حياتي، أو إذا ما كنتُ سأحصل على السجائر، رغمّ أنّها متعة لا توصف أنّك تستطيع أن تدخّن في هذا القبر عشر مرّات خلال أربع وعشرين ساعة، لأنني كنتُ أقسّم كلّ سيجارة إلى نصفين. كلا، في بعض الأحيان كان يستبدّ بي نوعٌ من القلق في لحظة استلام القهوة، وكنتُ أخاف، من دون سببٍ محدّد، أن يحدث شيءٌ ما للناس الذين يساعدونني بسخاء على حساب سلامتهم. وكنتُ أنتظر على هذه الحال ولا أرتاح إلّا حينما أرى جوزة الهند. طالما هي موجودة، فكلّ شيء على ما يُرام، *بالنسبة لهم*.

مرّت الساعات والأيام والأسابيع والأشهر ببطء، ببطءٍ شديد. ها قد مرّت سنة تقريباً على وجودي هنا. مرّ بالضبط أحد عشر شهراً وعشرون يوماً لم أتحدّث خلالها مع أحدٍ لأكثر من أربعين ثانيةً بكلماتٍ متقطعة هي أقرب إلى الهمس منها إلى الحديث جهاراً. ومع ذلك، كان لي حديثٌ بصوتٍ عالٍ. كنتُ قد أُصبتُ بنزلة برد وأسعل كثيراً. وظنّاً منّي أنّ هذا سوف يبرّر خروجي من الزنزانة للذهاب إلى زيارة عيادة الطبيب، أبلغتهم بأنني أصبحتُ «شاحباً».

ها قد حضر الطبيب، ووسط دهشتي الكبيرة، انفتحت طاقة الباب، وظهر من خلال هذه الفتحة رأسٌ. سألني الطبيب:

– ما بك؟ ممَّ تعاني؟ من ألم في القصبات؟ استدر. اسعل.

تبّاً! هل هذه مزحة؟ ومع ذلك، هذه هي الحقيقة بدقّة. لقد حدث أن جاءني طبيبٌ من المستعمرات لكي يفحصني عبر طاقة الباب، ويجعلني أستدير على بعد مترٍ من الباب، بينما ينحني هو واضعاً أذنه في الطاقة لكي يفحصني. ثمّ يقول لي: «أخرج ذراعك». كنتُ على وشك أن أخرجها تلقائياً حينما، وبدافع نوعٍ من الاحترام لنفسي، قلتُ للطبيب الغريب: «شكراً لك يا دكتور، لا تزعج نفسك كثيراً، فالأمر لا يستحقّ هذا العناء». وقد امتلكتُ على الأقل قوّة الشخصية لكي أُفهمه جيّداً بأنني لم أكن آخذ فحصه على محمل الجدّ.

أمّا هو، فقد أجاب باستخفاف:

- كما تشاء.

ثمّ غادر، وكان ذلك لحسن حظّي، لأنني كنتُ على وشك أن أنفجر غيظاً.

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، نصف استدارة. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، نصف استدارة. مشيتُ في الزنزانة ومشيت دون كللٍ أو مللٍ ودون توقّفٍ، مشيتُ في ذلك اليوم بحنق، فكانت ساقاي متوتّرتين وغير مسترخيتين كما كانتا عادةً. بدا لي أنّ بعد الذي حصل، كنتُ بحاجة إلى أن أدعس على شيءٍ ما. ما الذي بوسعي أن أدعسه بقدميّ؟ ليس تحت قدميّ سوى الإسمنت. لا، لقد دعستُ على الكثير من الأشياء، من خلال المشي بهذه الطريقة. أدعس على وضاعة هذا الطبيب الذي ارتضى أن يقوم بأقذر الأشياء في سبيل التقرّب من الإدارة ونيل رضاها. أدعس على لامبالاة طبقة من البشر حيال آلام ومعاناة طبقة أخرى من البشر. أدعس على جهل الشعب الفرنسي، وافتقاره إلى الاهتمام أو الفضول لمعرفة مصير الشحنات البشرية التي تغادر كلّ سنتين مرّة من سان مارتن دو ري، وطريقة التعامل معها. أدعس على صحافيي الأخبار المحلية الفضائحية والذين يكتبون مقالات فضائحية عن رجلٍ ارتكب جريمة معيّنة، ثمّ ينسون تماماً أنّه موجود بعد بضعة أشهر. أدعس على القساوسة الكاثوليك الذين تلقّوا اعترافات المذنبين والذين يعرفون ما الذي يجري في سجن الأشغال الشاقّة الفرنسي ويسكتون على ذلك. أدعس على نظام محاكمة تتحوّل إلى مبارزة كلامية بين منْ يتّهم ومنْ يدافع. أدعس على منظّمة رابطة حقوق الإنسان والمواطن التي لا ترفع صوتها لتقول: أوقفوا مقصلتكم الحادّة وألغوا السادية الجماعية المتفشّية وسط موظفي الإدارة. أدعس على غياب أيّ منظمة أو جمعية تستجوب مسؤولي هذا النظام لكي تسألهم كيف ولماذا يختفي كلّ عامين ثمانون بالمئة من سكانها في طريق العفن. أدعس على شهادات الوفاة الرسمية التي يصدرها الطب

العدلي: انتحار، عوز فيزيولوجي، موت بسبب سوء التغذية المستدام، داء الاسقربوط، مرض السلّ، جنون حادّ، الخرف. وما يدريني ما الذي أدعسُ عليه أيضاً؟ ولكن في كلّ الأحوال، بعد الذي جرى للتوّ، لا أمشي بطريقة عادية، وإنّما أسحق في كلّ خطوةٍ شيئاً ما تحت قدمي.

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة... وكانت الساعات التي تمضي ببطء تخمد من خلال التعب والإرهاق ثورتي الصامتة.

بعد عشرة أيام، سأكون قد أكملتُ بالضبط نصف مدّة عقوبتي في الحبس الانفرادي. إنّه حقّاً عيدٌ سنوي جميل يستحقّ الاحتفال به، لأنّه عدا نزلة البرد الشديدة هذه، كنتُ في صحّة جيّدة. لستُ مجنوناً، ولا على وشك الجنون. أنا واثقٌ، بل واثقٌ مئة بالمئة، من أنّني سأخرج حيّاً ومتوازناً في نهاية السنة الثانية التي ستبدأ.

استيقظتُ على أصواتٍ لاهثة. سمعتُ أحدهم يقول:

– إنّه متيبّسٌ تماماً يا سيّد دوران. كيف لم تلاحظ ذلك من قبل؟

– لا أدري، سيّدي. لأنّه علّق نفسه في الزاوية من جانب الممرّ، مررتُ أكثر من مرّة دون أن أراه.

– لا أهمية لذلك، لكن اعترف بأنّه من غير المنطقي ألّا تكون قد رأيته.

لقد انتحر جاري السجين في الزنزانة التي تقع إلى يسار زنزانتي. هذا ما فهمته من الحديث الذي سمعته. نقلوا جثّته. أُغلِق الباب. وقد طُبِّق القانون بصرامة حيث فُتِحَ الباب وأُغلِق بحضور «سلطة عليا»، متمثّلة برئيس السجن الانفرادي الذي تعرّفتُ إلى صوته. إنّه خامس سجين يختفي من حولي في غضون عشرة أسابيع.

حلّ يوم العيد السنوي لوجودي في هذه الزنزانة. عثرتُ في دلو الفضلات على علبة حليب مكثّف من ماركة نستله. إنّه جنونٌ من أصدقائي. فقد دفعوا ثمناً غالياً للحصول عليها وعرّضوا أنفسهم لمخاطر شديدة لإيصالها إليّ.

لقد حصلتُ إذاً على يوم للانتصار على المحنة والشدائد. لذلك وعدتُ نفسي بألّا أُحلّق بعيداً بخيالي. أنا في الحبس الانفرادي، وقد مرّ عامٌ منذ وصولي، وأشعرُ أنني قادرٌ على الفرار غداً إذا ما توفّرت لي فرصة ذلك. هذا تطوّرٌ إيجابي وأنا فخورٌ به.

تلقّيتُ من الكنّاس الذي حضر بعد الظهيرة، وهو أمرٌ غير طبيعي، رسالةً من أصدقائي، كتبوا فيها: «تشجّع. بقي عليك أقلّ من سنة من العقوبة. نحن نعلم أنّك بصحّة جيّدة. أمّا بالنسبة لنا، فنحن بطبيعة الحال بخير. قبلاتنا لك. لويس – اينياس. إذ استطعت، أرسل لنا مباشرةً بضع كلمات مع الشخص نفسه الذي استلمتَ منه رسالتنا».

على الورقة الصغيرة البيضاء المرفقة بالرسالة، كتبت: «شكراً لكما على كلّ شيء. أنا قويّ وأتمنى أن أبقى كذلك بفضلكما خلال عام. هل يمكنكما تزويدي بأخبارٍ عن كلوزيو وماتوريت؟» وبالفعل جاء الكنّاس ينقر على باب زنزانتي، فمررتُ له الورقة سريعاً، ثمّ اختفى في الحال. وطيلة هذا النهار، وفي جزءٍ من الليل، كنتُ على أرض الواقع في الحالة التي كنتُ قد وعدتُ نفسي بأن أكون عليها لمرّات عديدة. عامٌ واحد، وسأُنقَل إلى واحدة من الجزر. جزيرة رويال أم جزيرة سان جوزيف؟ سأثمل بالكلام وبالتدخين وبالتخطيط الفوري للهروب المقبل.

أقبلتُ في اليوم التالي على أوّل يومٍ من الأيام الثلاثمئة والخمسة والستين التي عليّ أن أقضيها في هذه الزّنزانة، مؤمناً بقدري. كنتُ على حقّ بالنسبة إلى الأشهر الثمانية التي تلت. ولكن في الشهر التاسع، فسدت الأمور. هذا الصباح، في لحظة إفراغ الدلو، ضُبِط حامل جوزة الهند متلبساً في اللحظة التي كان يدفع فيها الدلو، في حين كان قد وضع في داخلها حبّة جوزة الهند والسجائر الخمس.

كان الحادث خطيراً جدّاً لدرجة أنّهم نسُوا، خلال بضع دقائق، قانون الصمت. كانت أصوات الضربات التي يتلقاها هذا المسكين البائس تُسمَع بوضوح. ثمّ سمعتُ حشرجة رجلٍ يشارف على الموت. فُتِحَت

طاقة باب زنزانتي وامتدّ عبرها رأس حارسٍ محتقن الوجه، وصرخ بي: «أمّا أنت، فستنال نصيبك يا ابن العاهرة!».

أجبته وأنا أكاد أنفجر غضباً وتوتّراً من المعاملة الرهيبة التي عاملوا بها الرجل المسكين:

- تحت تصرّفك، أيّها الغبي!

حدث ذلك في الساعة السابعة، وما كادت الساعة تبلغ الحادية عشرة حتى جاء وفدٌ يرأسه الآمر الثاني للسجن الانفرادي لأخذي من الزنزانة. فتحوا ذلك الباب الذي كان مغلقاً عليّ منذ عشرين شهراً والذي لم يكن قد فُتِح أبداً. كنتُ في آخر الزنزانة وفنجان الشرب في يدي، في وضعية التأهّب للدفاع، عاقداً العزم على أن أسدّد أكبر عددٍ ممكن من الضربات، وذلك لسببين: أوّلاً، لكي لا يضربني بعض الحرّاس بلا رادع، وثانياً، لكي يتمّ ضربي بسرعة. ولكن لم يحدث أيّ شيءٍ من هذا. قيل لي:

- أيّها السجين، اخرج.

- إذا كان هذا لضربي، انتظروا مني أن أدافع عن نفسي. لن أخرج من هنا لكي تنقضّوا عليّ من كلّ الجهات. أنا في موقعٍ أفضل هنا لكي أضرب بعنف أوّل من يحاول المسّ بي.

- يا شاريير، لن نضربك.

- ومنْ يضمن لي ذلك؟

- أنا، الآمر الثاني للسجن الانفرادي.

- وهل أنت صاحب كلمة وتصون الوعد؟

- لا تهنّي، فهذا عبث. أقسم لك بشرفي، أعدك بأنّك لن تُضرَب. هيّا، اخرج.

أبقيتُ كوب الشرب في يدي.

- يمكنك الاحتفاظ به، وسوف لن تحتاج إلى استخدامه.

- حسناً، اتّفقنا.

خرجتُ، وسرنا في طول الممرّ، يحيط بي ستة حرّاس وآمر السجن. حينما وصلتُ إلى الباحة، أحسستُ بالدوّار ولم تستطع عيناي أن تظلّا مفتوحتين بسبب وهج الضوء الذي أبهرهما. ولمحتُ أخيراً المنزل الصغير الذي استُقبلنا فيه. كان هناك قرابة اثني عشر حارساً. ودون أن يدفعوني، أدخلوني إلى قاعة «الإدارة». وجدتُ رجلاً غارقاً في دمائه يئنّ على الأرض. حينما رأيت أنّ الساعة تشير إلى الحادية عشرة على ساعةٍ معلّقة على الجدار، قلتُ في نفسي: «إنّهم يعذّبون هذا الرجل المسكين منذ أربع ساعات». كان الآمر الأوّل جالساً خلف طاولته، وجلس الآمر الثاني إلى جانبه.

سألني الآمر:

- يا شارِيير، منذ كم من الوقت تتلقّى طعاماً وسجائر؟

- لا بدّ أنّه قد أخبركم بنفسه بذلك.

- أنا أسألك أنت.

- أنا أعاني من فقدان الذاكرة، ولا أعرف ما الذي حدث ليلة أمس.

- أتسخر منّي؟

- كلا، يُثير استغرابي أنّ هذا غير مكتوب في ملفّي. أنا فاقدٌ لذاكرتي من جرّاء ضربةٍ تلقّيتُها على رأسي.

فوجئ الآمر للغاية من هكذا جواب إلى درجة أنّه قال:

- اسألوا في جزيرة رويال إن كانت هناك إشارة إلى هذا الموضوع بشأنه.

بينما كانوا يجرون اتّصالاً هاتفيّاً، واصل استجوابه لي:

- هل تتذكّر جيّداً أنّ اسمك شارِيير؟

- هذا نعم.

وبسرعة، ولكي أضلّله أكثر، قلتُ مثل رجلٍ آلي:

- اسمي شارِيير، ولدتُ في عام 1906 في مقاطعة أرديش، وحُكِمَ عليّ بالسجن المؤبّد في باريس، السين.

فتح عينيه المدوّرتين مثل كرتين، وأحسستُ بأنني أفقدته صوابه. سألني:

- هل حصلت على قهوتك وخبزك هذا الصباح؟

- نعم.

- ما هي الخضار التي قُدِّمَت لك البارحة مساءً؟

- لا أدري.

- إذاً، علينا أن نصدّقك بأنّه ليست لك أيّ ذاكرة؟

- بشأن ما يحدث، لا أتذكّر شيئاً على الإطلاق. أمّا بالنسبة إلى الوجوه، فأتذكّر. على سبيل المثال، أعلم أنّك أنتَ منْ استقبلتني ذات يوم. ولكن متى؟ لا أدري.

- إذاً، ألا تدري كم بقي لك من العقوبة لتقضيها هنا؟

- حول الحكم المؤبّد؟ إلى أن أموت، على ما أعتقد.

- لا، لا. بشأن عقوبتك في الحبس الانفرادي.

- أنا محكومٌ بالحبس الانفرادي؟ لماذا؟

- آه! لقد طفح الكيل! اللعنة! لا تخرجني عن طوري. هل تحاول أن تقول لي أنّك لا تتذكّر أنّك قد حِكُمتَ بالسجن سنتين بسبب هروبك من السجن؟ لا أصدّق ذلك!

وهنا، أزعجته تماماً. سألتُه، متعجّباً:

- بسبب الهروب، أنا؟ سيّدي الآمر، أنا رجلٌ جادّ وقادرٌ على تحمّل مسؤولياتي. تعال معي إلى زنزانتي وسوف ترى إن كنتُ قد هربت.

في هذه اللحظة، قال له شرطي:

- اتّصالٌ لك من جزيرة رويال، سيّدي الآمر.

أمسك الآمر بسمّاعة الهاتف:

- لا يوجد أيّ شيء؟ إنّه أمرٌ غريب، يدّعي أنّه فاقد للذاكرة... السبب؟ ضربة على الرأس... مفهوم، إنّه يتظاهر بفقدان الذاكرة. سيعلم... لا

شيء، اعذرني سيّدي المقدّم، سوف أتحقّق من الأمر. إلى اللقاء. نعم، سوف أحيطكم علماً.

ثمّ استدار نحوي وقال:

- أيّها الممثّل الكوميدي، أرني رأسك. آه! نعم، هناك أثرٌ لجرح كبير. ولكن كيف يحدث أنّك تتذكّر بأنّك لم تعد تمتلك ذاكرة منذ تلقيك هذه الضربة، ها؟ هلا أخبرتني ذلك؟

- لا أستطيع تفسير ذلك. كلّ ما أستطيع قوله هو أنني أتذكّر الضربة، وأنّ اسمي شاريير وبعض الأمور الأخرى.

- ماذا تريد أن تقول أو تفعل، بعد كلّ هذا؟

- هذا ما يُناقَش هنا. هل كنتَ تسألني منذ متى أتلقى طعاماً وسجائر؟ هذا هو جوابي النهائي: لا أعرف إن كانت هذه المرّة الأولى أم المرّة الألف. بسبب فقداني للذاكرة، لا يمكنني أن أجيبك. هذا كلّ ما لدي، افعل ما تشاء.

- ما أريده هو في غاية البساطة. لقد تناولت الكثير من الأطعمة لمدّة طويلة، والآن، سوف تصبح نحيلاً بعض الشيء. احرموه من وجبة المساء من الآن وحتى انتهاء مدّة عقوبته.

في هذا اليوم نفسه، تلقيتُ بطاقة أثناء عملية الكنس الثانية. لسوء الحظّ، لم أستطع قراءتها، إذ لم تكن مكتوبة بالحبر الفوسفوري. في الليل، أشعلتُ سيجارةً كانت قد بقيت لي من الأمس ونجت من التفتيش لكونها كانت مخبّأة جيّداً في سريري الخشبي. وحينما سحبتُ منها نفساً، استطعتُ أن أقرأ على الضوء الخافت لجمرتها ما هو مكتوبٌ في الرسالة: «لم يُعطِ مفرّغ الدلو الكثير من المعلومات، لقد قال بأنّ هذه هي المرّة الثانية فقط التي أدخل فيها طعاماً إليك، وبمحض إرادته، وبأنّه قد فعل هذا لأنّه سبق وقد عرفك في فرنسا. لن يتعرّض أحدٌ لمشكلات في جزيرة رويال. تشجّع».

إذاً، ها قد حُرِمتُ من جوزة الهند والسجائر وأخبار أصدقائي في جزيرة رويال. وما زاد الطين بلّة هو أنّهم ألغوا وجبة المساء المخصّصة

لي. كنتُ قد تعوّدتُ على ألّا أعاني من الجوع. وعلاوة على ذلك، كانت الجلسات العشر للتدخين تملأ نهاري وجزءاً من وقتي في الليل. لم أفكّر بنفسي فقط، بل فكّرتُ في الرجل المسكين الذي قتلوه بالضرب بسببي. تمنّيتُ لو أنّه لم يُعاقب بقسوة شديدة. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، نصف استدارة... واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، نصف استدارة... قلتُ لنفسي: لن تتحمّل بسهولة هذا النظام الغذائي القاسي، وربّما، بسبب قلّة الطعام الذي ستتلقاه، ستضطرّ لأن تغيّر التكتيك، أليس كذلك؟ على سبيل المثال، ابقَ ممدّداً لأطول وقتٍ ممكن حتى لا تصرف الكثير من الطاقة. كلّما قلّت حركتي، كلّما قلّ حرق السعرات الحرارية، ولذلك قرّرت أن أبقى جالساً في مكاني أثناء النهار لساعات طويلة. وهذه طريقة مختلفة جدّاً للعيش يجب عليّ أن أتعلّمها وأعتاد عليها. أربعة أشهر، أي مئة وعشرون يوماً عليّ أن أقضيها بهذه الطريقة. بموجب النظام الغذائي الذي أخضعوني له الآن، كم من الوقت يلزم لكي أُصاب بمرض فقر الدم؟ شهران، على الأقلّ. وبالتالي، أمامي شهران حاسمان ومفصليان. عندما أصبحُ ضعيفاً للغاية، سوف يكون الطريق مهيّأً على نحوٍ مدهش لكي تنقضّ عليّ الأمراض. قرّرتُ أن أبقى ممدّداً من الساعة السادسة مساءً وحتى الساعة السادسة صباحاً. سوف أمشي فقط في فترة تلقي القهوة وحتى ما بعد إفراغ الدلاء، أي بحدود ساعتين. وفي فترة الظهيرة، بعد تناول الحساء، قرابة ساعتين أيضاً. وبالتالي، سوف أمشي أربع ساعات في مجمل اليوم، أمّا في الأوقات المتبقيّة، فسأبقى جالساً أو ممدّداً.

سيكون من الصعب أن يسرح بي الخيال وأهيمَ في الماضي من دون أن أتعب. ومع ذلك سوف أحاول أن أنجح في ذلك. اليوم، وبعد أن فكّرتُ لوقتٍ طويل بأصدقائي، وبالرجل البائس الذي عومِل بأقسى ما يمكن من القسوة، بدأتُ أتمرّن على هذا النظام الجديد. لقد نجحتُ في ذلك بما فيه الكفاية، مع أنّ الساعات بدت لي أطول وبدت لي ساقاي، اللتان لم تعودا تشتغلان خلال ساعات كاملة، أنّهما مليئتان بالنمل. ها

قد مرّت عشرة أيّام على هذا النظام الغذائي. أشعر الآن بالجوع بشكلٍ متواصل. وبدأتُ أشعر بنوعٍ من التعب الدائم الذي استبدّ بي على نحوٍ مستمرّ. أصبحتُ أشتاق إلى جوزة الهند تلك بشكلٍ رهيب، مثلما أشتاق إلى السجائر قليلاً، أنام باكراً جدّاً وسريعاً، أهربُ افتراضياً من زنزانتي. البارحة، كنتُ في باريس، في كازينو رامور، أشرب الشامبانيا مع أصدقائي: أنطونيو دو لندن – أصوله من جزر البليار، ولكنه يتكلّم اللغة الفرنسية مثل مواطنٍ باريسي واللغة الإنكليزية مثل إنكليزيٍّ حقيقي. في اليوم التالي، في مارونييه، جادة كليشي، كان يقتل بخمس طلقات من مسدّسه أحد أصدقائه. في الوسط الإجرامي، تتحوّل الصداقة سريعاً إلى حقد قاتل. نعم، البارحة كنتُ في باريس، أرقص على أنغام الأكورديون في كازينو بوتي جاردان، في جادة سان أوين، الذي كلّ روّاده من كورسيكا ومرسيليا. مرّ جميع الأصدقاء أمام عيني في هذه الرحلة الخيالية بواقعية تامّة إلى درجة أنني لم أشكّ لا في حضورهم ولا في حضوري في كلّ هذه الأماكن التي أمضيتُ فيها لياليَ رائعة.

إذاً، دون أن أمشي كثيراً، توصّلتُ مع هذا النظام الغذائي المتدني جدّاً إلى النتيجة نفسها التي حققتها من خلال السعي إلى إجهاد نفسي. انتزعتني صور الماضي من زنزانتي بقوّة بالغة بحيث عشتُ بالفعل ساعات من الحرية أكثر من الساعات التي أقضيها في الحبس الانفرادي.

لم يبق أمامي سوى شهر واحد أقضيه في هذه الزنزانة. ها قد مرّت ثلاثة أشهرٍ لم أذق خلالها سوى قطعة من الخبز وطبق من الحساء الساخن دون أي نشويات في فترة الظهيرة مع قطعة اللحم المسلوق. جعلتني حالة الجوع الدائمة أتفحّص قطعة اللحم حالما تُقدّم لي، لأرى إن لم تكن عبارة عن قطعة جلد فقط، مثلما يحدث غالباً.

نحفتُ كثيراً وأدركتُ كم كانت جوزة الهند هذه التي حظيتُ بفرصة تلقيها خلال عشرين شهراً أساسية للحفاظ على صحتي الجيّدة ولتوازني وسط هذا الحرمان الرهيب من الحياة.

أنا متوتّرٌ وعصبي جدّاً هذا الصباح، بعد شرب قهوتي. سمحتُ لنفسي أن أتناول نصف قطعة الخبز المخصّصة لي، وهذا ما لم يحدث أبداً من قبل. كنتُ أقسّم في العادة قطعة الخبز إلى أربعة أقسام متساوية الحجم تقريباً وأتناولها في الساعة السادسة صباحاً وعند منتصف الظهيرة وفي الساعة السادسة مساءً، وأتناول القطعة الأخيرة في الليل. تساءلتُ، موبّخاً نفسي: «لماذا فعلت هذا؟» - «هل تعاني من إخفاقات خطيرة جدّاً بعد أن شارفت على نهاية عقوبتك؟» - «أنا جائع وأشعر بأنني خائر القوى» - «لا تكن متعجرفاً كثيراً. كيف يمكن لك أن تكون قويّاً؟ من خلال التهام ما تلتهمه؟ الأمر الأساسي، وأنت منتصرٌ في هذه النقطة، هو أنّك ضعيف، وهذا صحيح، ولكنّك لستَ مريضاً. من الناحية المنطقية، لا بدّ أن يخسر (آكل البشر) المباراة معك». بعد أن مشيت خلال الساعتين اللتين خصّصتهما، جلستُ على المدماك الإسمنتي الذي أستخدمه ككرسي بلا مساند. ثلاثون يوماً أخرى، أي سبعمئة وعشرون ساعةً، ومن ثَمّ سيُفتَح الباب ويُنادى عليّ: «السجين شارير، اخرج. لقد أمضيت سنتيك من السجن الانفرادي». وماذا سأقول: سأقول التالي: «نعم، لقد أنهيتُ أخيراً هاتين السنتين من المحنة». ولكن لا، لنرَ! إذا جاءك الأمر الذي مثّلت عليه مسرحية فقدان الذاكرة، عليك أن تكمل معه هذه الحكاية ببرود، وتقول له: «ماذا، هل تمّ العفو عنّي، وسأغادر إلى فرنسا؟ هل انتهت مدّة حكمي بالمؤبّد؟» لا لشيء سوى لأرى وجهه وأقنعه بأنّ الصيام الذي حَكم به عليّ كان ظلماً وإجحافاً - «يا إلهي، ما الذي حصل لك؟» سواءً كان ذلك إجحافاً أم لا، فالأمر لا يبالي بكونه مخطئاً. أيّ أهمية قد تكون لهذا الأمر بالنسبة إلى عقلية كهذه؟ ألم يكن مطلبك هو أن يشعر بالندم على كونه قد فرض عليك عقاباً بطريقة مجحفة؟ لا أريدك أن تفترض، غداً كما لاحقاً، أنّ السجّان كائن طبيعي. أيّ إنسان جدير بأن يحمل صفة إنسانٍ لا يمكنه الانتماء إلى هذه المؤسسة. يعتاد المرء على كلّ شيء في الحياة، حتى أن يكون وغداً وسافلاً طوال حياته المهنية. ربّما وفقط عندما يقترب من

القبر، سوف تجعله مخافة اللّه، إذا كان يعتنق ديناً، خائفاً ونادماً. لا، ليس بندمٍ حقيقي على الموبقات التي ارتكبها، وإنّما بالخوف من أنّ يكون هو بنفسه مُداناً بحكم ربّه.

ومن هنا، حينما تخرج إلى الجزيرة، أيّاً كانت الجزيرة المخصّصة لك، لا تقبل، من الآن فصاعداً، بأيّ تسوية أو مساومة مع هذا النوع من البشر. فكلّ منكما يجد نفسه على الطرف النقيض للآخر. ففي جانبٍ، هناك قلّة المروءة والسلطة المتحذلقة المجرّدة من الروح، والسادية البديهية، الآلية في ردود فعلها؛ وفي الجانب الآخر، هناك أنا مع الرجال الذين ينتمون إلى فئتي الاجتماعية، والذين بالتأكيد قد ارتكبوا جرائم خطيرة، ولكن الألم خلق في داخلهم سجايا لا مثيل لها: الرحمة، الطيبة، التضحية، النبالة، الشجاعة.

بكلّ صدقٍ وصراحة، أنا أفضّل أن أكون سجيناً محكوماً بالأشغال الشاقّة على أن أكون سجّاناً.

لم يبق أمامي إلا عشرين يوماً. شعرتُ بالفعل بالوهن الشديد. لاحظتُ أنّ قطعة الخبز الخاصّة بي تزداد صغراً في حجمها. من عساه أن يذلّ نفسه إلى حدّ أن يسرق من قطعة الخبز خاصّتي؟ وفي طبق الحساء الخاصّ بي، منذ عدّة أيام، لم يعد هناك سوى الماء الساخن، أمّا قطعة اللحم فهي دائماً عبارة عن قطعة عظم مع القليل من اللحم أو قطعة صغيرة من الجلد. خشيتُ أن أُصاب بمرضٍ، وقد أصبحت هذه الخشية هاجساً لي. أصبحتُ في غاية الوهن بحيث لم يعد لدي أيّ جهد أبذله لكي أحلم بأيّ شيءٍ كان، وأنا يقظٌ تماماً. أقلقني هذا الإرهاق الشديد المصاحب باكتئابٍ خطيرٍ بالفعل. حاولتُ أن أتصرّف وقد نجحتُ، بصعوبة، أن أمضي الساعات الأربع والعشرين من كلّ يوم. تمّ النقر على باب زنزانتي، والتقطتُ سريعاً بطاقةً. كانت مكتوبة بالحبر الفوسفوري، وهي مرسلة من ديغا وغالغاني. قرأتُ فيها: «أرسل رسالة. نحن قلقون للغاية بشأن حالتك الصحية. لا يزال أمامك تسعة عشر يوماً. تشجّع – لويس، اينياس».

كانت لديّ قطعة من الورق الأبيض وقطعة من فحم قلمِ أسود، فكتبت: «أنا صامد، ولكنني منهكٌ جدّاً - شكراً - بابي».

نقرت المكنسة على باب زنزانتي من جديد، فأرسلتُ البطاقة. هذه الرسالة، التي جاءتني من دون سجائر ومن دون جوزة الهند، كانت بالنسبة لي أكثر من كلّ هذا. فهذا الإظهار للصداقة بهذه الروعة والاستمرارية منحني الدفع القوي الذي كنتُ بحاجةٍ إليه. في الخارج، يعرفون حالتي الصحية، وإذا ما مرضتُ، فبكلّ تأكيد سوف يقوم أصدقائي بزيارة الطبيب لحثّه على تقديم الرعاية والعلاج لي بطريقة صحيحة وسليمة. كانوا على حقّ. لم يعد أمامي سوى تسعة عشر يوماً، سأصل إلى خطّ النهاية لهذا السباق المنهِك ضدّ الموت والجنون. لن أمرض. يُفترَضُ بي أن أقلّل من حركتي إلى أدنى مستوى لكي لا أصرف السعرات الحرارية الضرورية. سوف ألغي ساعتي المشي في الصباح، وكذلك ساعتي فترة ما بعد الظهيرة. هذه أفضل طريقة للاستمرار في الصمود. وكذلك، سأبقى طيلة الليل، خلال اثنتي عشرة ساعة، ممدّداً على سريري الخشبي، في حين سأبقى، خلال الساعات الاثنتي عشرة الأخرى، جالساً بلا حراك على مقعدي الحجري. ومن حينٍ إلى آخر، سوف أنهض وأمارس بعض تمارين المرونة الخفيفة وحركات الذراعين، ومن ثَمّ أعود وأجلس على مقعدي. لم يعد أمامي إلّا عشرة أيام.

كنتُ أتنزّه في ترينيداد، تهزّني الكمنجات الجاويّة ذات الوتر الواحد بأنغامها الحزينة عندما أعادتني صرخة رهيبة، غير إنسانية، إلى الواقع. جاءت هذه الصرخة من زنزانة تقع خلف زنزانتي، قريبة جدّاً منّي. سمعتُ أحدهم يقول:

- أيّها السافل الحقير، تعال وانزل إلى حفرتي. ألم تتعب من مراقبتي من الأعلى؟ ألا ترى بأنّك تفقد نصف المشهد بسبب الضوء الخافت في هذه الحفرة؟

قال الحارس:

- اخرس وإلّا ستعاقب عقاباً قاسياً.

- آه، آه! أضحكتني، أيّها الغبي! كيف يمكنك أن تجد عقاباً أشدّ من هذا الصمت؟ عاقبني، طالما ترغب في ذلك، اضربني إن كان ذلك يسعدك، أيّها الجلّاد الشنيع، ولكن لن ترى شيئاً يُقارن بالصمت الذي تلزمني بأن أبقى فيه. لا، لا، لا! لم أعد أريد أن أبقى صامتاً، لم أعد أستطيع أن أبقى دون كلام! منذ ثلاثة أعوام، كان عليّ أن أقول لك: اللعنة! أيّها الغبي القذر! وكنتُ غبياً بما فيه الكفاية لكي أنتظر ثلاثين شهراً لكي أصرخ في وجهك وأعبّر عن اشمئزازي خوفاً من عقابٍ! اشمئزازي وكرهي لك ولكلّ أقرانك، من السجّانين العفنين!

بعد بضع دقائق، فُتِح الباب وسمعت أحد الحرّاس يقول للآخر:

- لا، ليس هكذا! ضعها له مقلوبةً، فذلك أنجع بكثير!

وبدأ الرجل المسكين يصرخ بقوّة:

- ضع سترة القيد[1] خاصتك كما تشاء أيّها القذر! ضعها مقلوبةً إن شئت، شدّها حتى تخنقني، اضغط بركبتيك بقوّة على الأربطة، فهذا لن يمنعني عن القول بأنّ أمّك كانت خنزيرة ولذا لا يمكنك أن تكون سوى كومة من القاذورات!

لا بدّ أنّهم قد وضعوا له كمامة لأنني لم أعد أسمع شيئاً. أُغلق الباب ثانيةً. لا بدّ أنّ هذا المشهد الرهيب قد أثّر في الحارس الشاب لأنّه، بعد مرور بضع دقائق، توقّف أمام زنزانتي، وقال: «لا بدّ أنّه قد جنّ».

- هل تعتقد ذلك؟ مع ذلك، كلّ ما قاله كان متوازناً.

ذُهِل الشرطي، وقال لي وهو ينصرف: «إذاً، سوف تفعل معي الشيء نفسه الذي فعله!».

1- سترة قيد: تُسمى أيضاً سترة الحجْر وسترة مجانين، وهي سترة نسيجية قوية جدّاً مخصّصة لمنع شخص من استخدام ذراعيه، حيث تمرّر الذراعان في كمّين مغلقين ومتصالبين في الأمام ومربوطين إلى الظهر. تُستخدَم للسجناء أو المجانين لكي لا يؤذوا أنفسهم - المترجم.

انتزعتني هذه الحالة من جزيرة الناس الطيّبين والكمنجات وأثداء الهنديات، ومن ميناء بورت أوف سبين، لتعيدني إلى الواقع المحزن للسجن الانفرادي.

لا تزال أمامي عشرة أيام، أي مئتان وأربعون ساعة من الخضوع في هذه الزنزانة.

أعطى تكتيك الامتناع عن الحركة ثماره، عدا عن أنّ الأيام كانت تمرّ ببطءٍ وهدوءٍ، أو ربّما كانت رسالة أصدقائي هي التي أثمرت وشجّعتني. بالأحرى، أعتقد أنني أشعر بأنني أكثر قوّة بسبب مقارنة تفرض نفسها عليّ: أنا على بعد مئتين وأربعين ساعة من التحرّر من السجن الانفرادي، أنا منهك ولكن دماغي سليم، وطاقتي لا تتطلّب سوى القليل من القوّة البدنية الإضافية لكي تنشط من جديد تماماً. في حين أنّ هناك، خلفي على بعد مترين، رجلاً مسكيناً، يفصله عنّي الجدار، يدخل الطور الأوّل للجنون، ربّما من الباب الأكثر سوءاً ألا وهو باب العنف. لن يعيش طويلاً، لأنّ ثورته تعطي الفرصة لهم لكي يتمكّنوا من إشباعه بأدوية مدروسة بدقّة لكي يقتلوه بطريقة علمية. عاتبتُ نفسي على إحساسي بأنني أكثر قوّة لأنّ الآخر مهزوم. تساءلتُ في نفسي إن كنتُ أنا أيضاً أحد هؤلاء الأنانيين الذين، في فصل الشتاء وهم يرتدون جوارب وقفازات دافئة ويتلحّفون بمعطفٍ مصنوعٍ من جلد الضأن ومبطّنٍ بالفراء الدافئ، يرون جموع الناس وهم يمرّون من أمامهم ذاهبين إلى العمل، متجمّدين من البرد في ثيابٍ خفيفةٍ ورثّة، أو على الأقلّ أياديهم مزرقّة بفعل جليد الصباح والذين، بالمقارنة مع هذا الجمع الذي يركض للحاق بأوّل قطارِ أنفاقٍ أو حافلةٍ، فيشعر هؤلاء الأنانيون أمام مشهد هؤلاء البائسين بأنّهم أكثر دفئاً من ذي قبل ويستمتعون بمعطفهم المبطّن بالفراء أكثر من أيّ وقتٍ مضى. لكنّ كلّ شيءٍ في الحياة قائمٌ غالباً على المقارنات. صحيحٌ أنني محكوم بعشر سنوات، لكنّ بابيون محكومٌ بالمؤبّد. صحيحٌ أنني محكومٌ بالمؤبّد، ولكن عمري ثمانية وعشرين عاماً، في حين أنّه هو محكومٌ بخمسة عشر عاماً، ولكنه في الخمسين من عمره.

هيّا بنا، لقد وصلتُ إلى خطّ النهاية وآمل أن أكون بخيرٍ من جميع الجوانب قبل ستة أشهر، من جهة الصحّة والمعنويات والطاقة، وفي وضعية مناسبة لكي أقوم بعملية فرار مثيرة. لقد تحدّثنا عن المحاولة الأولى، والثانية سوف تكون محفورة على أحجار أحد جدران سجن الأشغال الشاقّة. لا ينبغي أن أشكّ في ذلك. سوف أغادر قبل ستة أشهر، وأنا متأكّدٌ من هذا.

هذه آخر ليلة أقضيها في الحبس الانفرادي. لقد مرّت سبعة عشر ألفاً وخمسمئة وثماني ساعات على دخولي إلى الزنزانة رقم 234، فُتِحَ بابي خلالها مرّة واحدة فقط لاقتيادي إلى آمر السجن لكي يعاقبني. وعدا الكلمات الأحادية المقطع التي تبادلتها مع جاري لبضع ثوانٍ في اليوم، تكلّموا معي أربع مرّات فقط. مرّة ليقولوا لي بأنّه عند سماع الصافرة عليّ أن أُنزل أرجوحة نومي، وكان ذلك في اليوم الأوّل لدخولي إلى الزنزانة. ومرّة قال لي الطبيب: «استدر، اسعل». ثمّ حديثٌ أطول وأكثر اضطراباً مع آمر السجن. وفي يومٍ آخر، تبادلتُ أربع كلمات مع الحارس الذي تأثّر لحال المسكين الذي جُنّ. وهذا ليس كثيراً كتسلية! نمتُ بهدوء دون أن أفكّر بأيّ شيءٍ آخر سوى هذه الحقيقة: غداً سيُفتَح الباب نهائياً. غداً، سوف أرى الشمس، وإذا ما أُرسلتُ إلى جزيرة رويال، سوف أستنشق هواء البحر. غداً، سأكون حرّاً. انفجرتُ ضاحكاً. كيف أكون حرّاً؟ غداً سوف تبدأ رسمياً بقضاء حكمك بالأشغال الشاقّة المؤبّدة. أهذا ما تسميه حرّية؟ أعرف، أعرف، ولكن كحياة فهذا لا يُقارَن مع ما تحمّلته حتى الآن. كيف سأجد كلوزيو وماتوريت؟

في الساعة السادسة، قدّموا لي القهوة والخبز. رغبتُ في أن أقول: «ولكنني سأخرج. أنا سأخرج اليوم، أنتم مخطئون». ولكن سرعان ما أدركتُ أنني «فاقدٌ للذاكرة»، ومنْ يدري، ربّما لو أنني اعترفتُ بهذه الطريقة بأنني كنتُ أسخر من الآمر، لكان قادراً على أن يفرض عليّ حكماً لمدّة ثلاثين يوماً أمضيها في الزنزانة الانفرادية على الفور. لأنّه في كلّ

الأحوال، كان عليّ، بموجب القانون، أن أخرج من الحبس الانفرادي في سان جوزيف، اليوم، 26 يونيو / حزيران 1936. وبعد أربعة أشهر، سأبلغ الثلاثين من عمري.

أصبحت الساعة الثامنة. تناولت كامل قطعة خبزي. وسوف أجد ما أتناوله في المعسكر. فُتِح الباب، وظهر الآمر الثاني ومعه حارسان. قال لي الآمر:

– شارير، لقد أنهيتَ عقوبتك، نحن في السادس والعشرين من شهر يونيو / حزيران 1936. اتبعنا.

خرجتُ من الزنزانة. حينما وصلتُ إلى الباحة، كانت الشمس قد أشرقت وسطعت بما فيه الكفاية لتُبهر عيني. كنتُ أعاني من نوعٍ من الوهن. ساقاي كانتا رخوتين وتراقصت بقعٌ سوداء أمام عينيّ. ومع ذلك لم أمشِ سوى مسافة خمسين متراً، منها ثلاثون متراً تحت الشمس.

حينما وصلنا أمام مكتب «الإدارة»، رأيتُ ماتوريت وكلوزيو. كان ماتوريت قد أصبح هيكلاً عظمياً حقيقياً، بخدين غائرين ووجنتين بارزتين وعينين غائرتين. أمّا كلوزيو، فقد ألفيته ممدّداً على نقّالة. كان شاحب الوجه وتفوح منه رائحة الموت، ففكّرتُ في نفسي: «صديقاي ليسا بخير. هل أنا في الحالة نفسها؟» كم أتوق لرؤية نفسي في مرآة. قلتُ لهما:

– كيف حالكما؟

لم يردّا، فكرّرتُ عليهما:

– هل أنتما بخير؟

أجاب ماتوريت بهدوء:

– نعم.

رغبتُ في أن أُخبره بأنّ عقاب الحبس الانفرادي قد انتهى، ولنا الحقّ الآن في أن نتكلّم. قبّلتُ كلوزيو على خدّه، فنظر إليّ بعينين لامعتين وابتسم، ثمّ قال:

– وداعاً يا بابيون.

- لا، لا تقل هذا! ماذا تقصد؟

- لقد انتهيت، لقد انتهى الأمر.

بعد بضعة أيام، مات في مستشفى رويال. كان له من العمر اثنان وثلاثون عاماً، وكان قد حُكِمَ عليه بالسجن عشرين سنة بتهمة سرقة دراجة هوائية لم يرتكبها.

وصل آمر السجن وقال:

- هيّا أدخلوهم. ماتوريت وأنت يا كلوزيو أحسنتما السلوك والتصرّف هنا، ولذلك سوف أدوّن في ملفّكما عبارة: «حسن السلوك»، أمّا أنت يا شاريير، بما أنّك قد ارتكبتَ خطأً فادحاً، فسأدوّن في ملفّك ما تستحقّ: «سيِّئ السلوك».

- عفواً، أيّها الآمر، ما الخطأ الذي ارتكبته؟

- حقّاً، ألا تتذكّر اكتشاف السجائر وجوزة الهند؟

- كلا، بصدق.

- لنرَ، أيّ نظامٍ كنتَ تتبعه منذ أربعة أشهر؟

- من أيّ ناحيةٍ تقصد؟ من ناحية تناول الطعام؟ أتّبع النظام نفسه دائماً منذ وصولي إلى هنا.

- آها! هنا، لقد طفح الكيل! ماذا أكلت البارحة مساءً؟

- مثل العادة، ما تمّ تقديمه لي. وما أدراني، أنا؟ لا أتذكّر ذلك. ربّما أعطوني فاصولياء أو أرزّاً بالدسم، أو نوعاً آخر من الخضار.

- إذاً، لقد تناولت الطعام مساءً؟

- طبعاً! أتحسبني قد رميتُ قصعتي؟

- كلا، لا أقصد هذا، لقد عدَلتُ عن رأيي. حسناً، سأسحب عبارة «سيِّئ السلوك». أعد بطاقة خروج جديدة، يا سيّد فلان... سوف أضع لك عبارة «حسن السلوك»، هل أعجبك هذا؟

- هذا صحيح. لم أفعل أيّ شيء ينافي هذا التقدير.

وعند هذه الجملة الأخيرة خرجنا من المكتب.

فتحوا لنا البوابة الكبيرة للسجن الانفرادي لكي يدعونا نمرّ. رافقنا حارسٌ واحد فقط، ونزلنا ببطء الطريق المؤدي إلى المعسكر. كنّا نطلّ على البحر الذي لمعت مياهه بانعكاسات فضيّة اللون والزبد. وظهرت جزيرة رويال قبالتنا مغطّاة بالخضرة ومليئة بالسطوح الحمراء. أمّا جزيرة الشيطان، فكانت قاحلة وموحشة. طلبتُ من الحارس الإذن بأن أجلس بضع دقائق. فوافق على طلبي. جلسنا، أحدنا إلى يمين كلوزيو والآخر إلى يساره، وتماسكت أيدينا حتى من دون أن ننتبه إلى ذلك. هذا الاتصال بيننا خلق فينا شعوراً غريباً، وتعانقنا دون أن نتفوّه بكلمة. قال الحارس:

– هيّا يا شباب. يجب أن ننزل.

ونزلنا ببطء، بمنتهى البطء، حتى وصلنا إلى المعسكر الذي دخلنا إليه كلانا في المقدّمة، وما زلنا نمسك بأيدي بعضنا، يتبعنا حاملا نقّالة يحملان صديقنا المحتضر.

الحياة في جزيرة رويال

ما إنْ وصلنا إلى باحة المعسكر حتى أُحطنا بالترحاب والاهتمام من جانب كلّ السجناء. وجدتُ بيرو لوفو وجان سارترو وكولونديني وشيسيليا. قال لنا الحارس بأنّه علينا نحن الثلاثة الذهاب إلى المستوصف. وقد عبرنا الباحة إلى المستوصف، يرافقنا ما يقارب عشرين رجلاً. وخلال بضع دقائق، وجدنا، ماتوريت وأنا، أمامنا دزينة من علب السجائر وتبغ وقهوة بالحليب ساخنة جدّاً، وشوكولا مصنوعة مع كاكاو صافية. أراد الجميع أن يقدّموا لنا شيئاً. تلقّى كلوزيو من الممرّض حقنة من زيت الكافور والأدرينالين من أجل القلب. قال زنجيٌّ نحيل جدّاً: «أيّها الممرّض، أعطه حصّتي من الفيتامينات، فهو بحاجة إليها أكثر منّي». وقد كان هذا الإظهار للطيبة والتضامن معنا مؤثّراً حقّاً.

قال لي بيير البوردولي:

- هل تريد نقوداً؟ قبل أن تغادر إلى جزيرة رويال، لديّ الوقت لأقوم بجمع تبرّعاتٍ.

- لا، شكراً جزيلاً، معي نقودٌ. ولكن هل تعلم أنني ذاهبٌ إلى جزيرة رويال؟

- نعم، أخبرنا المحاسب بذلك. أنتم الثلاثة. بل وأعتقد أنّكم ستذهبون، أنتم الثلاثة، إلى المستشفى.

كان الممرّض قاطع طريق جبلي من كورسيكا، ويُدعى إيساري. وفي وقتٍ لاحق، عرفته جيّداً، وسوف أروي حكايته كاملةً، وهي بالفعل مثيرة. مضت الساعتان في المستوصف سريعاً جدّاً. أكلنا وشربنا بشكلٍ جيّد، وغادرنا إلى جزيرة رويال شبعين وفرحين. أبقى كلوزيو طيلة الوقت تقريباً عينيه مغمضتين، باستثناء لحظة اقترابي منه ووضع يدي على جبينه، ففتح عينيه حينئذٍ، وقال لي:

- صديقي بابي، نحن صديقان حقيقيان.

فأجبته:

- بل أكثر من هذا، فنحن أخوان.

نزلنا ولا يزال برفقتنا حارسٌ واحد فقط. في الوسط، كان كلوزيو محمولاً على نقّالة، بينما كنّا، ماتوريت وأنا، نسير إلى جانبيه. على باب المعسكر، ودّعنا كلّ السجناء وتمنّوا لنا حظّاً سعيداً. شكرناهم على الرغم من احتجاجاتهم. وضع بييرو لوفو في رقبتي حقيبة صغيرة مليئة بالتبغ والسجائر والشوكولا وعلب حليب نستله. وكذلك حصل ماتوريت على حقيبة مثلها. لم يعلم بأنّها قد أُعطيت له. رافقنا فقط الممرّض فيرنانديز والحارس إلى الرصيف البحري. ووضعا لكلٍّ منّا بطاقة لمستشفى رويال.

أدركتُ أنّ السجينين الممرّضين إيساري وفيرنانديز هما من حوّلانا إلى المستشفى من دون استشارة الطبيب في ذلك. وصل قارب النقل وعلى متنه ستّة مجدّفين وحارسان في مؤخرة القارب، مسلّحين ببنادق قصيرة، في حين يقف حارسٌ آخر خلف دفّة القيادة في القارب. كان

أحد المجدّفين هو شابار، المتّهم في قضية البورصة في مرسيليا. أصبحنا على طريق الإبحار وغاصت المجاديف في مياه البحر، قال لي شابار وهو يجدّف:

- كيف حالك يا بابيون؟ هل بقيتَ تتلقّى جوز الهند؟

- كلا، لم أعد أتلقّاها منذ أربعة أشهر.

- أعرف، لقد وقع حادثٌ. لقد أحسن الرجل التصرّف. لم يكن يعرف أحداً سواي، ولكنّه لم يشِ بي.

- ما الذي حلّ به؟

- لقد مات.

- مستحيل، من جرّاء ماذا؟

- حسب ما أخبرني ممرّضٌ، يبدو أنّهم قد مزّقوا كبده بركلةٍ.

أبحرنا إلى رصيف جزيرة رويال، الأكثر أهمية من بين الجزر الثلاث. كانت الساعة تشير إلى الثالثة على ساعة الحائط المعلّقة على جدار المخبز. كانت شمس ما بعد الظهيرة هذه قويّة بالفعل، وقد أبهرت عيني وأشاعت الحرارة في جسمي على نحوٍ بالغ. طلب أحد الحرّاس حمّالي نقّالة، فحضر سجينان ضخمان يرتديان ثياباً بيضاء بالكامل، وفي معصم كلّ منهما حزام جلدي أسود اللون، ورفعا كلوزيو مثل ريشةٍ وسرنا، ماتوريت وأنا، خلفه. وسار خلفنا حارسٌ يحمل في يده بعض الأوراق.

كان الطريق الذي ينيف عرضه عن أربعة أمتار مفروشاً بالحصى. كان صعوده شاقّاً. لحسن الحظّ، كان حمّالا النقّالة يتوقّفان من حينٍ لآخر وينتظران ريثما نلحق بهما. فكنتُ أجلس على ذراع النقّالة، من جهة رأس كلوزيو، وأمرّر يدي بلطف على جبينه ورأسه. وفي كلّ مرّة، يبتسم لي ويفتح عينيه، ويقول لي:

- صديقي العزيز بابي!

أمسك ماتوريت بيده، فقال له كلوزيو همساً:

– أهذا أنت، يا صغيري؟

بدا أنّه في غاية السعادة لشعوره بأننا إلى جانبه. خلال توقّفٍ، قبل الوصول، صادفتنا مجموعةٌ من عمال السخرة وهم يذهبون إلى العمل. كانوا تقريباً بمعظمهم من السجناء الذين كانوا ضمن قافلتي. وحينما مرّوا بنا، ألقى علينا الجميع كلمة طيّبة. حينما وصلنا إلى فناءٍ أمام مبنى مربّع الشكل، أبيض اللون، رأينا أرفع مسؤولي الجزر، جالسين في الظلّ. اقتربنا من آمر السجن بارو الملقّب بـ«جوزة الهند الجافّة»، ومسؤولين آخرين لسجن الإصلاحية. دون أن ينهض من مكانه ودون مراسم، قال لنا آمر السجن:

– إذاً، ألم يكن السجن الانفرادي قاسياً للغاية؟ وهذا الذي على النقّالة، من يكونْ؟

– إنّه كلوزيو.

نظر إليه ثمّ قال:

– خذوهم إلى المستشفى. وحينما يخرجون منه، أبلغوني بذلك من فضلكم لكي يمثلوا أمامي قبل إيداعهم المعسكر.

في المستشفى، في قاعة كبيرة ومنارةٍ بشكلٍ ممتاز، خصّصوا لنا أسرّة نظيفة جدّاً مع شراشف ووسائد. أوّل ممرّضٍ رأيته هو شاتال، ممرّض غرفة الحراسة المشدّدة في سان لوران دو ماروني. اعتنى في الحال بكلوزيو وأعطى الأمر لحارسٍ بأن يستدعي الطبيب. ووصل الطبيب في الساعة الخامسة. وبعد فحصٍ طويلٍ ودقيق، رأيته يهزّ رأسه، وقد بدا غير سعيد. كتب وصفته ثمّ استدار نحوي. وخاطب شاتال:

– بابيون وأنا لسنا صديقين جيّدين.

– هذا يدهشني، لأنّه صبيٌّ شجاع، يا دكتور.

– ربّما، ولكنه صعب المراس.

– بسبب ماذا؟

– بسبب زيارة قمتُ بها له في السجن الانفرادي.

قلتُ له:

- دكتور، هل تسمي هذه زيارة، أن تعاينني عبر طاقة الباب؟

- قرار الإدارة ينصّ على عدم فتح باب سجينٍ محكومٍ بالحبس الانفرادي.

- ممتاز يا دكتور، ولكن كان أملي ألّا تكون سوى معارٍ إلى الإدارة وليس جزءاً منها.

- سوف نتحدّث عن هذا الأمر في مناسبة أخرى. سأسعى إلى معالجتكما والاعتناء بوضعكما أنت وصديقك. أمّا بالنسبة إلى صديقك الآخر، فأخشى أن يكون قد فات الأوان.

روى لي شاتال بأنّه سُجنَ في الجزر للاشتباه بأنّه يعدّ لعملية فرارٍ من السجن. كما أخبرني بأنّ جيزوس الذي خانني في عملية فراري من السجن، قد قُتِل على يد مجذوم. لم يكن يعرف اسم المجذوم وتساءلتُ في نفسي إن كان أحد أولئك الذّين ساعدونا بمنتهى السخاء.

إنّ حياة السجناء المحكومين بالأشغال الشاقّة في جزر الخلاص مختلفة تماماً عمّا قد يتصوّره المرء. معظم الرجال هم من الخطيرين للغاية، وذلك لعدّة أسباب. أوّلاً يتغذّى الجميع بشكلٍ جيّد، لأنّه يتمّ تهريب كلّ شيء إلى المعسكر، من كحول وسجائر وبن وشوكولا وسكّر ولحم وخضار طازجة وسمك وكركند وجوز الهند... إلخ. وبالتالي جميع السجناء في صحّة ممتازة وبكامل القوّة وفي مناخٍ سليم. وحدهم المحكومون بمدد محدّدة لديهم الأمل في أن يُطلَق سراحهم، أمّا المحكومون بالمؤبّد - ليس لديهم ما يخسرونه! - فهم جميعهم خطيرون جدّاً. الجميع متواطئون في التهريب اليومي، من سجناء وحرّاس. وهذا خليطٌ ليس من السهل فهمه. كانت بعض زوجات الحرّاس يبحثن عن سجناء شبان للقيام بأعمال الخدمة في منازلهن، وغالباً يتخذن منهم عشاقاً. ويُدعون «غلمان العائلة». يعمل بعضهم في أعمال البستنة وآخرون في أعمال الطبخ. هذه الفئة من المبعدين هي

التي تقوم بمهمّة صلة الوصل بين المعسكر وبيوت الحرّاس. لم يكن السجناء الآخرون ينظرون نظرة سوء إلى «غلمان العائلة» لأنّه بفضلهم هم كانوا يستطيعون تهريب كلّ شيء إلى داخل المعسكر. ولكن أيضاً لم يُعتَبروا من الأنقياء. إذ لا يقبل أيّ رجلٍ من الوسط الإجرامي الحقيقي أن ينزل إلى مستوى القيام بهذه الأعمال الرديئة. لا أن يكون حمّال مفاتيح ولا أن يعمل في مطعم الحرّاس. بالمقابل، كانوا يدفعون ثمناً غالياً بالنسبة إلى الأعمال التي لا علاقة لهم فيها مع الحرّاس، مثل تفريغ دلاء الفضلات، وجمع أوراق الشجر المتساقطة، وسَوْق الجواميس، والتمريض، والبستنة في الإصلاحية، والجزارة، والخبازة، والعمل على القوارب، والمراسلة، وحراسة الفنار. يقوم بكلّ هذه الأعمال سجناء محكومون بالأشغال الشاقّة حقيقيون. إنّ سجيناً محكوماً بالأشغال الشاقّة حقيقياً لا يعمل أبداً في أعمال السخرة في مجال صيانة الجدران الساندة للتربة أو الطرقات أو السلالم أو زراعة جوز الهند: أي في أعمال السُخرة التي تؤدّى تحت الشمس أو تحت رقابة الحرّاس. يقوم السجناء بالعمل من الساعة السابعة صباحاً وحتى منتصف الظهيرة، ثمّ من الساعة الثانية بعد الظهر وحتى الساعة السادسة مساءً. وهذا يعطي لمحة عن جوّ هذا الخليط من الناس المختلفين جدّاً والذين يعيشون حياةً مشتركة، من سجناء وحرّاس، كقرية صغيرة حقيقية يشرح فيها كلّ شيء نفسه بنفسه ويحكم نفسه بنفسه ويرى الجميع فيها بعضهم وهم يعيشون ويراقبون بعضهم بعضاً.

جاء ديغا وغالغاني لقضاء يوم الأحد معي في المستشفى. أكلنا صلصة الثوم مع السمك، وحساء السمك وبطاطا وجبن، وشربنا قهوةً ونبيذاً أبيض. وتناولنا هذه الوجبة في غرفة شاتال واجتمعنا على المائدة، بالإضافة إلى شاتال نفسه، ديغا وغالغاني وماتوريت وغرانديه وأنا. طلبوا مني أن أروي لهم كلّ حكاية هروبي بأدقّ تفاصيلها. وقد قرّر ديغا بألّا يعود ويجرّب أيّ شيء من أجل الهروب. كان ينتظر من فرنسا عفواً عنه

لمدّة خمس سنوات. وبجمع السنوات الثلاث التي قضاها في السجن في فرنسا مع السنوات الثلاث التي قضاها هنا، لن يبقى أمامه سوى أربع سنوات يقضيها سجيناً. وقد أذعن للأمر الواقع وقرّر أن يقضيها دون أيّ محاولة للهروب. أمّا غالغاني، فقد زعم بأنّ سيناتوراً كورسيكياً يهتم بأمره ويسعى للإفراج عنه.

ثمّ حان دوري. سألتهم عن الأماكن الأكثر ملاءمةً هنا لمحاولة الفرار عبرها، فعمّت صيحات الاستنكار والاحتجاج وسطهم. بالنسبة إلى ديغا، هذه مسألة لم تخطر على باله حتى، وكذلك الحال بالنسبة إلى غالغاني. من جهته، افترض شاتال بأنّه لا بدّ أن تكون لحديقةٍ فوائدها من أجل إعداد قاربٍ. أمّا بالنسبة إلى غرانديه، فقد أخبرني بأنّه حدّادٌ في ورشة «الأشغال». وقد أخبرني بأنّ هذه ورشة يوجد فيها حرفيون من جميع الاختصاصات، من مدهّنين ونجارين وحدادين وبنائين وسبّاكين، وعددهم قرابة مئة وعشرين رجلاً يعملون في صيانة أبنية الإدارة. وسوف يجعلني ديغا، وهو المحاسب العامّ، أرى المكان الذي أرغب في رؤيته. وسيكون عليّ أن أختار المكان المناسب. وهبني غرانديه نصف منصبه كمديرٍ للعبة القمار في السجن، بحيث أستفيد ممّا سأربحه من المقامرين وأستطيع أن أعيش من هذه الواردات بشكلٍ لائق دون أن أصرف من الأموال المخبّأة في ماسورتي. وسوف أكتشف فيما بعد بأنّ هذا الأمر مهمّ جدّاً ولكنّه في غاية الخطورة.

مرّ يوم الأحد بسرعة مذهلة. قال ديغا الذي يحمل ساعة يد جميلة: «لقد بلغت الساعة الخامسة، يجب أن نعود إلى المعسكر». قُبيل المغادرة، أعطاني ديغا خمسمئة فرنكٍ لكي ألعب بها البوكر، لأنّه كانت هناك في بعض الأحيان مباريات جميلة في قاعتنا. أعطاني غرانديه مدية قابلة للطي رائعة كان قد قام بنفسه بسقاية فولاذ نصلها. إنّه سلاحٌ رهيب. قال لي:

– كن مسلّحاً باستمرار، ليلاً ونهاراً.

– وماذا عن عمليات التفتيش؟

– غالبية المراقبين الذين يقومون بالتفتيش هم من حَمَلة المفاتيح العرب. وحينما يُعتَبَر الرجل خطيراً، لا يجدون بحوزته سلاحاً أبداً، حتى إذا لمسوه لمس اليد.

قال لي غراندِيه:

– سوف نرى بعضنا في المعسكر.

قبل المغادرة، أخبرني غالغاني بأنّه قد حجز لي مسبقاً مكاناً في ركنه وبأننا سوف نقيم معاً في الخصّ نفسه (أعضاء الخصّ الواحد يتناولون الطعام معاً والمال الذي يمتلكه أحدهم يكون لجميع الأعضاء).

أمّا ديغا، فلم يكن ينام في المعسكر وإنّما في غرفة في مبنى الإدارة.

ها قد مرّت ثلاثة أيام على وجودنا هنا، ولكن بما أنني كنتُ أُمضي الليل بجانب كلوزيو، لمَ أفهم جيّداً الحياة في قاعة المستشفى هذه التي عددنا فيها يقارب ستين شخصاً. ثمّ بعد أن ساءت حالة كلوزيو كثيراً، تمّ عزله في حجرةٍ كان فيها أصلاً مريضٌ في حالة سيئة للغاية. قام شاتال بحقنه بمادة المورفين المسكّنة، وهو يخشى ألّا يبقى على قيد الحياة حتى الصباح.

في القاعة، كان هناك ثلاثون سريراً على كلّ جانبٍ من ممرٍّ بعرض ثلاثة أمتارٍ، وكانت الأسرّة بمعظمها مشغلة. يُضيء مصباحان زيتيان كامل القاعة. قال لي ماتوريت:

– هناك، يلعبون البوكر.

ذهبتُ نحو اللاعبين، وكان عددهم أربعة. سألتهم:

– هل أستطيع أن أكون خامسكم؟

– نعم، اجلس. يجب وضع مئة فرنكٍ على الأقلّ في المربّع. ولكي تلعب، يجب أن تضع في ثلاث مربّعات، أي ثلاثمئة فرنكٍ. ها هي ثلاثمئة فرنكٍ بالمسكوكات البديلة.

أعطيتُ مئتي فرنكٍ منها لماتوريت ليحتفظ بها في حوزته. قال لي رجلٌ باريسي، يُدعى ديبون:

– نحن نلعب حسب النظام الإنكليزي، من دون جوكر. هل تجيد اللعب حسب هذا النظام؟

– نعم.

– إذاً، وزّع الورق، إنّه دورك.

كانت السرعة التي يلعب بها هؤلاء الرجال لا تُصدّق. إذ ينبغي أن تراهن بسرعة كبيرة، وإلّا يقول مدير اللعبة: «تأخّرٌ في الرهان»، فتبقى خارج الرهان. وهنا اكتشفتُ طبقة جديدة من السجناء المحكومين بالأشغال الشاقّة: المقامرون، وهم يعيشون من القمار ومن أجل القمار وفي القمار. لا شيء يشغل اهتمامهم سوى المقامرة. ينسون كلّ شيء، ينسون ما كانوا عليه وينسون عقوبتهم، وما قد يمكنهم أن يفعلوه ليغيّروا نمط حياتهم. سواء كان الشريك رجلاً جسوراً أم لا، يهمّهم شيءٌ وحيد: المقامرة.

لعبنا طيلة الليل، وتوقّفنا لشرب القهوة. ربحتُ ألفاً وثلاثمئة فرنكٍ. كنتُ أتوجّه إلى سريري عندما انضمّ إليّ بولو وطلب مني أن أُقرضه مئتي فرنكٍ لكي يواصل لعبة البيلوت بشكل ثنائي. كان يلزمه مئتا فرنكٍ ولم يكن لديه سوى مئة. قلتُ له: «تفضّل، هذه ثلاثمئة فرنكٍ. سنتقاسم الأرباح».

– شكراً لك يا بابيون، فعلاً أنت الرجل الذي سمعتُ الكثير عنه. سنكون صديقين.

مدّ لي يده، فصافحته، وانصرف وهو في غاية الفرح.

مات كلوزيو هذا الصباح. في لحظة من الصفاء، كان قد طلب من شاتال ليلة أمس بأن يكفّ عن حقنه بالمورفين:

– أريدُ أن أموت في سريري، وأصدقائي من حولي.

كانت الأوامر تمنع على نحوٍ صارم الدخول إلى غرفة العزل، لكن شاتال أخذ الأمر على عاتقه وتحقّقت رغبة صديقنا ومات بين ذراعينا. أغمضتُ بيدي عينيه. وكان قلب ماتوريت يتمزّق ألماً. فقد رحل رفيق مغامرتنا الرائعة جدّاً. وألقوا به طعاماً لأسماك القرش.

حينما سمعتُ هذه الكلمات: «ألقوا به طعاماً لأسماك القرش»، تجمّد الدم في عروقي. في الواقع، ليست هناك مقبرة للسجناء المحكومين بالأشغال الشاقّة في الجزر. حينما يموت محكومٌ بالأشغال الشاقّة، يُلقى به في البحر في الساعة السادسة مساءً، عند غروب الشمس، بين جزيرتي سان جوزيف ورويال، في موقعٍ يعجّ بأسماك القرش.

جعل موت صديقي المستشفى بالنسبة لي مكاناً لا يُطاق. أبلغتُ ديغا بأنني سأخرج من المستشفى بعد غد. فأرسل لي رسالة قصيرة، كتب فيها: «اطلب من شاتال أن يمنحك استراحة لمدّة خمسة عشر يوماً في المعسكر، وبذلك سيكون لديك متّسعٌ من الوقت لكي تختار الوظيفة التي تعجبك». أمّا ماتوريت فسوف يبقى في المستشفى لبعض الوقت الإضافي. ربّما سيتّخذه شاتال كمعاون ممرّض.

ما إنْ خرجتُ من المستشفى، تمّ اقتيادي إلى مبنى الإدارة، أمام آمر السجن بارو، الملّقب بجوزة الهند الجافّة.

قال لي:

– بابيون، قبل أن أودعك المعسكر، حرصتُ على أن أتحدّث معك قليلاً. لديك هنا صديقٌ عظيم، وهو محاسبي العامّ، لويس ديغا. وهو يزعم أنّك لا تستحقّ الملاحظات التي تردنا عنك من فرنسا، وأنّه بما أنّك تعتبر نفسك محكوماً بريئاً فمن الطبيعي أن تكون في حالةٍ من التمرّد الدائم. وسوف أقول لك بأنّني لستُ متّفقاً معه حول هذا الأمر. ما أودّ أن أعرف ما هي الحالة النفسية التي تجد نفسك فيها الآن.

قلتُ له:

– أوّلاً، يا سيّدي، حتى أستطيع الإجابة على سؤالك، هل يمكنك أن تخبرني ما هي الملاحظات المكتوبة في ملفّي؟

مدّ نحوي بطاقة من الورق المقوّى صفراء اللون، وقال لي:

– انظر بنفسك.

قرأتُ في البطاقة التالي: «هنري شاريير، المدعو بابيون، تولّد السادس عشر من نوفمبر / تشرين الثاني 1906، في...، أرديش، محكوم بجريمة القتل العمد بالأشغال الشاقّة المؤبّدة من محكمة السين. رجلٌ خطير بكلّ المقاييس، ويجب أن يخضع للرقابة الشديدة. ولن يكون بوسعه الاستفادة من أيّ امتيازات».

«*سجن كاين المركزي*: محكوم غير قابل للإصلاح. قابلٌ للقيام بالتحريض على تمرّدٍ وقيادته. ينبغي أن يكون تحت المراقبة الدائمة».

«*سان مارتن دو ري*: شخص منظّم ولكنه بكل تأكيد مؤثّر جدّاً في رفاقه. سوف يحاول الفرار من أيّ مكانٍ كان».

«*سان لوران دو ماروني*: ارتكب اعتداءً وحشياً على ثلاثة حرّاس وأحد حَمَلة المفاتيح لكي يهرب من المستشفى. عائدٌ من كولومبيا. كان حسن السلوك خلال حبسه الاحتياطي هناك. فنال حكماً مخفّفاً بالسجن لمدّة عامين في الحبس الانفرادي».

«*الحبس الانفرادي في جزيرة سان جوزيف*: حسن السلوك حتى لحظة إطلاق سراحه من الحبس الانفرادي».

حينما أعدتُ الملفّ إلى المدير، قال لي:

– عزيزي بابيون، مع هذه الشهادات لسنا مطمئنين كثيراً لاستقبالك كنزيلٍ لدينا. هل تُريد أن تعقد اتّفاقاً معي؟

– لمَ لا؟ هذا يتوقّف على مضمون الاتّفاق.

– ليس هناك أدنى شكّ في أنّك رجلٌ سوف تفعل كلّ شيء لكي تهرب من الجزر على الرغم من الصعوبات الكبيرة التي تعترض سبيلك. بل وربّما سوف تنجح في ذلك. بالنسبة لي، لا يزال أمامي خمسة أشهر فقط في منصب إدارة الجزر. هل تعرف ما هو الثمن الذي سيرتّبه هروبك على آمر السجن في الجزر؟ الرصيد الطبيعي لسنة كاملة. أي الخسارة التامّة للأجر المخصّص للخدمة في المستعمرات؛ بالإضافة إلى تأجيل

إجازة ستة أشهر خاصّتي، وتخفيضها إلى ثلاثة أشهر. وإذا ما أثبتت نتائج التحقيقات أنّ هناك إهمالاً من جانب آمر السجن، هناك احتمال أن يتمّ تخفيض رتبتي العسكرية. ها أنت ترى أنّ الأمر جدّي. الآن، إذا كنتُ أقوم بعملي بنزاهة وأمانة، ليس من حقّي أن أضعك في حُجرة أو زنزانة منفردة لأنّك قابلٌ لأن تهرب، إلّا إذا اختلقتُ لك ذنوباً وهميةً، وهذا ما لا أُريد فعله. وبالتالي، أودّ أن تقطع لي وعداً بأنّك لن تحاول الهرب إلى حين مغادرتي للجزر. أي بعد خمسة أشهر.

- سيّدي الآمر، أعِدُكَ وعدَ شرفٍ بأنني لن أغادر طالما أنت هنا، إذا لم تتجاوز المدّة ستة أشهر.

- سأغادر الجزر في غضون أقلّ من خمسة أشهر بقليل، هذا مؤكّد على الإطلاق.

- ممتاز، اسأل ديغا، وسوف يُخبرك بأنني صاحب كلمة وألتزم بها.

- أنا أصدّقك.

- ولكن في المقابل، أطلب شيئاً آخر.

- ما هو؟

- هو أن أستطيع خلال الأشهر الخمسة التي ينبغي عليّ قضاؤها هنا الحصول على الوظائف التي قد أستفيد منها فيما بعد وربّما حتى أن أُنقَل إلى جزيرة أخرى.

- حسناً، اتّفقنا. ولكن على أن يبقى هذا الأمر سرّاً بيننا ولا يُفشى أبداً.

- اتّفقنا، سيّدي الآمر.

ثم استدعى ديغا الذي أقنعه بأنّ مكاني ليس مع ذوي السلوك الحسن وإنّما مع رجال العصابات، في مبنى السجناء الخطيرين حيث يوجد كلّ أصدقائي. سلّموني كيس أمتعتي الممتلئ باللوازم وأضاف إليه آمر السجن بعض السراويل والسترات البيضاء اللون، المأخوذة من الخياطين.

ومع سروالين ناصعي البياض، جديدين تماماً، وثلاث سترات، وقبّعة

من قشّ الأرزّ، سلكتُ طريقي إلى المعسكر المركزي مصحوباً بمراقب. وللذهاب من المبنى الصغير للإدارة إلى المعسكر، لا بدّ من عبور كلّ الهضبة. مررنا أمام مستشفى الحرّاس بمحاذاة جدارٍ ارتفاعه أربعة أمتار ويحيط بكامل الإصلاحية. وبعد أن طفنا حول كلّ هذا المستطيل الواسع تقريباً، وقفنا أمام البوّابة الرئيسية التي كُتبت عليها عبارة: «سجن الجُزر الإصلاحي - قطّاع رويال». كان الباب الكبير مصنوعاً من الخشب، ومفتوحاً على مصراعيه. لا بدّ أنّ ارتفاعه يبلغ قرابة ستة أمتارٍ. ينتصب على كلّ جانبٍ منه محرسٌ يضمّ أربعة حرّاسٍ، ويجلس ضابطٌ على كرسي. لم تكن هناك بنادق قصيرة، وإنّما الجميع يحملون مسدّسات على خصورهم. كما رأيتُ خمسة أو ستة من حَمَلة المفاتيح العرب.

حينما وصلتُ إلى المدخل المسقوف، خرج جميع الحرّاس، وقال قائدهم، وهو رجلٌ كورسيكي: «هذا نزيلٌ جديد، ومن الطبقة الرفيعة». تهيّأ حَمَلة المفاتيح لكي يقوموا بتفتيشي، ولكنّه أوقفهم: «لا تزعجوه بإخراج كلّ أمتعته. هيّا انصرفوا. ادخل يا بابيون. لديك في المبنى الرئيسي بكلّ تأكيد الكثير من الأصدقاء الذين ينتظرونك. اسمي سوفراني. أتمنى لك حظّاً سعيداً في الجزر».

- شكراً، أيّها القائد.

ثمّ دخلتُ إلى باحة فسيحة تنتصب فيها ثلاثة أبنية كبيرة. تبعتُ المُراقب الذي قادني إلى أحد تلك الأبنية. قرأتُ على لافتة فوق الباب عبارة: «المبنى (أ) - المجموعة الخاصّة».

أمام الباب المفتوح على مصراعيه، صرخ المُراقب: «يا حارس البيت!»، فظهر محكومٌ عجوز. قال له القائد: «هاك نزيلاً جديداً»، ثمّ انصرف.

دخلتُ إلى مهجع فسيح جدّاً مستطيل الشكل يعيش فيه مئة وعشرون رجلاً. وكما كانت الحال في البرّاكة الأولى في سان لوران، كان قضيبٌ حديدي يعبر كلّ جانبٍ من جوانبها الأكثر طولاً، يقطعه فقط مكان الباب،

وهو عبارة عن شبكٍ معدني لا يُغلَق سوى في الليل. وبين الجدار وهذا القضيب الحديدي، تمتدّ أقمشة مفروشة جيّداً تُستخدم كأسرّة وتُسمى هنا أراجيح نوم على الرغم من أنّها ليست كذلك. «أراجيح النوم» هذه مريحة جدّاً وصحّية. وقد ثُبّت فوق كلّ واحدٍ منها على الجدار رفّان خشبيان يُمكن للسجين أن يضع فوقهما أمتعته، فيستخدم أحدهما لثيابه، والآخر للأغذية وآنية الطعام. بين صفوف أراجيح النوم، هناك ممرٌّ عرضه ثلاثة أمتارٍ، يُطلق السجناء عليه اسم «ساعي البريد». يعيش الرجال هنا أيضاً في مجموعات صغيرة، تُسمى كلّ واحدة منها خُصّاً. هناك مجموعات تضمّ رجلين فقط، ولكن هناك أيضاً مجموعات تضمّ عشرة أشخاصٍ.

ما إنْ دخلتُ إلى المهجع حتى هبّ السجناء بثيابهم البيضاء من كلّ حدبٍ وصوب، يقول أحدهم: «بابي، تعال إلى هنا»، فيردّ آخر: «لا، تعال معنا». أقبل غرانديه نحوي وأخذ كيس أمتعتي من يدي وقال: «سوف يشكّل خصّاً معي». تبعته، فنصب قطعة النسيج لي، والتي ستكون سريري المعلّق، ثمّ قال: «تفضّل يا رجل، هذه وسادة من ريش الدجاج». وجدتُ مجموعةً كبيرةً من الأصدقاء، بينهم الكثيرون من كورسيكا ومرسيليا وبعضهم من باريس، وجميعهم أصدقاء من فرنسا أو أشخاصٌ تعرّفتُ عليهم في المستشفى أو في سجن التوقيف أو في موكب الترحيل. ولكنني دُهشتُ لرؤيتهم هنا، فسألتهم: «ألستم في العمل في هذا الوقت؟» فضحك الجميع من سؤالي، وقال أحدهم: «آه! على رسلك! في هذا المبنى، منْ يعمل لا يشتغل أكثر من ساعةٍ واحدةٍ في اليوم. ثمّ نعود إلى خصّنا». هذا الاستقبال كان حارّاً بالفعل، وتمنّيتُ أن تستمر هذه الحفاوة. ولكن سرعان ما لاحظتُ أمراً لم أكن أتوقّعه: على الرغم من أنني أمضيتُ عدّة أيام في المستشفى، كان عليّ أن أتعلّم من جديد العيش ضمن الجماعة.

وشاهدتُ أمراً ما كنتُ لأتخيّله. دخل رجلٌ يرتدي ثياباً بيضاء ويحمل صينية مغطّاة بغطاء ناصع البياض، وصاح: «شرائح لحم، شرائح لحم،

من يريد شرائح لحم؟» وصل إلينا، فتوقّف ورفع الغطاء الأبيض، فظهرت شرائح لحم مصفوفة ومكدّسة بطريقة مرتّبة، كما في محلات الجزارة في فرنسا، تملأ كلّ الصينية. رأينا أن غرانديه زبونٌ يومي، لأنه لم يسأله إن كان يريد، بل سأله كم شريحة يضع له. أجاب غرانديه:

– هاتِ خمس شرائح.

– هل تُريدها من فتائل الظهر أم من الكتف؟

– من لحم فتائل الظهر. كم أدفع لك؟ احسبها جيّداً، فقد زاد الآن فردٌ على مجموعتنا، وبالتالي لن يكون الحساب كما كان في السابق.

أخرج بائع شرائح اللحم دفتراً صغيراً، وأخذ يحسب. ثمّ قال:

– مجموع الحساب هو مئة وخمسة وثلاثون فرنكاً.

– ارصد الحساب، ولنبدأ من نقطة الصفر.

عندما انصرف الرجل، قال لي غرانديه: «هنا، إذا لم يكن معك مال، ستموت جوعاً. ولكن هناك نظامٌ لكي تحصل عليه طيلة الوقت: إنّه فن تدبير الأمور».

في سجون الأشغال الشاقّة، «فن تدبير الأمور» هو أسلوبٌ ينبغي على كلّ واحدٍ أن يتدبّر من خلاله أموره لكي يحصل على المال. يبيع طبّاخ المعسكر اللحم النظيف المخصّص للسجناء على شكل شرائح. حينما يتلّقى اللحم في المطبخ، يقطع منه كمية النصف تقريباً. وحسب القطع، يعدّ منها عدّة شرائح أو قطعاً صغيرة من أجل وضعها في الحساء أو سلقها. فيُباع جزءٌ منه للمراقبين والحرّاس من خلال زوجاتهم، ويُباعُ جزءٌ آخر للسجناء المحكومين بالأشغال الشاقّة، الذين لديهم القدرة المادية على الشراء. بالطبع، يدفع الطبّاخ جزءاً من أرباحه من هذه المبيعات للحارس المكلّف بالإشراف على المطبخ. وأوّل مبنى يحضر إليه من أجل تجارته هو دائماً مبنى المجموعة الخاصّة، المبنى (أ)، أي مبنانا نحن.

إذاً، مدبّر الأمور هنا هو الطبّاخ الذي يبيع اللحم والشحم؛ والخبّاز

الذي يبيع الخبز الفاخر والخبز الأبيض الفرنسي المخصّص للحرّاس؛ وجزّار الملحمة الذي يبيع بدوره اللحم؛ والممرّض الذي يبيع الحُقَن؛ والمحاسب الذي يتقاضى أموالاً لتعيين السجناء في هذا الموقع أو ذاك، أو بكلّ بساطة من أجل مساعدته للتخلّص من سخرةٍ؛ والبستاني الذي يبيع خضاراً طازجة وفاكهةً؛ والمحكوم الموظّف في المخبر الذي يبيع نتائج التحاليل الطبية ويذهب إلى حدّ اختلاق حالات سلّ زائفة، وحالات جذام زائفة، وحالات التهابات معوية زائفة وسواها؛ والمختصّون بالسرقة في باحة منازل المراقبين الذين يبيعون البيض والدجاج وصابون مرسيليا؛ و«غلمان العائلة» الذين يهرّبون بالتواطؤ مع سيّدة المنزل الذي يعملون فيه ويجلبون ما يُطلَب منهم من زبدة وحليب مكثّف وحليب مسحوق وعُلب التونا والسردين والأجبان، وبالطبع، النبيذ والمشروبات الكحولية الأخرى (وبهذه الطريقة، هناك باستمرار في خصّي زجاجة من مشروب ريكارد وسجائرُ إنكليزية وأمريكية)؛ وكذلك أولئك الذين لهم الحقّ في الصيد والذين يبيعون ما يصطادونه من سمك وكركند.

لكنّ «فن تدبير الأمور» الأفضل، والأكثر خطورةً، هو أن يكون المرء مدير لعبة القمار. القانون المعمول به هو أنّه لا يمكن أن يكون هناك أكثر من ثلاثة أو أربعة مدراء لعبة في كلّ مبنى يضمّ مئة وعشرين رجلاً. والرجل الذي يقرّر أن يدير لعبة القمار يحضر ذات ليلة، في وقت اللعبة، ويقول:

– أريد منصب مدير اللعبة.

فيأتيه الجواب:

– لا.

– أنتم جميعاً تقولون لا؟

– نعم كلّنا.

– إذاً، سأختار فلاناً لكي أحلّ محلّه.

والرجل الذي يقوم باختياره يفهم قصده، فينهض من مكانه ويذهب

إلى وسط المهجع، ويتبارز الاثنان بالسكاكين. من يفوز منهما يُدير لعبة القمار. ويتقاضى مديرو اللعبة خمسة بالمئة عن كلّ جولة رابحة.

وألعاب القمار هي فرصة لآخرين كي ينتفعوا بمنافع صغيرة. هناك منْ يعدّ الأغطية ويفرشها جيّداً على الأرض، ومنْ يؤجّر كراسيّ صغيرة للاعبين الذين لا يستطيعون الجلوس على أوراكهم، وبائع السجائر، ومنْ لديه على الأغطية عدّة علب سيجار فارغة، تمّ ملؤها بسجائر فرنسية وإنكليزية وأمريكية وحتى سجائر ملفوفة يدوياً. ولكلّ سيجارة سعرها ويأخذ اللاعبون بأنفسهم السجائر من العلبِ ويضعون بأمانة الثمن المحدّد في العلبة. هناك أيضاً منْ يقوم بتحضير المصابيح الزيتية والذي يسهر على ألّا تَطرَح الكثير من الدخان. إنّها مصابيحٌ مصنوعةٌ من علب الحليب الفارغة والتي تمّ ثقب غطائها العلوي لكي يتمّ تمرير فتيلٍ يغوص داخل النفط والذي يجب رفعه وإصلاحه غالباً لاستمرار الاشتعال والإضاءة. بالنسبة لغير المدخّنين، هناك سكاكرُ وقطع حلوى تتمّ صناعتها بتدبيرٍ خاصّ. في كلّ مبنى هناك إبريقٌ أو إبريقان للقهوة. يُغطّى الإبريق بكيسين من الخيش، فتبقى القهوة المحضّرة على الطريقة العربية ساخنة طيلة الليل. من حين لآخر، يمرّ موزّع القهوة في المهجع ويقدّم كاكاو أو قهوة ساخنةً في ما هو أشبه بِقِدرٍ نروجي مصنوع منزلياً.

وأخيراً، هناك سقط المتاع، وهو نوعٌ من التدبير الحرفي، إذ يقوم بعضٌ بالعمل في صنع مشغولات من درق السلاحف التي يأخذونها من الصيادين.

فلكلّ درقة سلحفاة ثلاث عشرة صفيحة قرنية صلبة قد يصل وزنها إلى كيلوغرامين. ويصنع الحرفي منها أساور وأقراطاً وعقوداً ومباسمَ سجائر وأمشاطاً وظهور فراشٍ. بل ورأيتُ علبَ مصاغٍ من درق أشقر اللون، مذهلة بالفعل. يعمل آخرون في نحت نوى جوز الهند، وقرون الثيران والجواميس وخشب الأبنوس، وخشب الجزر على شكل ثعابين. ويصنع آخرون تماثيلَ فنية من خشب الأبنوس مصقولة، لا مسامير فيها،

ولها فتحات تعشيقٍ لتركيب أجزائها. أمّا الأكثر مهارةً فيشتغلون على البرونز. وبالطبع من دون أن ننسى الفنانين الرسّامين.

يحصلُ أن تشترك عدّة مواهب لإنجازِ تحفة فنية واحدة. على سبيل المثال: صيادٌ يُمسك بسمكةَ قرشٍ. يعدّه نحّاتٌ يترك فكّ القرش مفتوحاً، تظهر منه كلّ أسنانه المصقولة جيّداً والمستقيمةِ ثمّ يصنع أحد نحاتي خشب الأبنوس نموذجاً مصغّراً لمرساة من الخشب الأملس والناعم، وتكون المرساة عريضةً في الوسط لكي يستطيع الرسّام أن يرسم عليها. ويتمّ تثبيت الفكّ المفتوح بهذه المرساة التي يرسم عليها رسّامٌ جزر الخلاص محاطةً بالبحر. والموضوع الرائج في أغلب الأحيان هو التالي: يرى المرء رأس جزيرة رويال، والقناة الملاحية وجزيرة سان جوزيف. وترمي الشمس المائلة للغروب أشعتها على البحر الأزرق. وفي المياه زورقٌ على متنه ستة محكومين بالأشغال الشاقّة عراة الصدر، تُرفع مجاديفهم عمودياً، وفي مؤخرة الزورق ثلاثة حرّاسٍ يحملون في أياديهم بنادق رشّاشة. وفي المقدّمة، يرفع رجلان نعشاً ينزلق منه جثمانُ محكومٍ بالأشغال الشاقّة ميّتٍ، ملفوفٌ في كيس طحينٍ. تظهر أسماك قرشٍ على سطح الماء، وهي تنتظر الجثّة فاغرة الأفواه. وفي الأسفل، على يمين اللوحة، نقرأ عبارة مكتوبة: «الدفن في جزيرة رويال – وتاريخ الوفاة».

تُباع كلّ هذه «الخردوات» المختلفة في منازل المراقبين. والقطع الأكثر جمالاً غالباً ما تُشترى مسبقاً أو تُصنَع حسب الطلب. أمّا بقية القطع فتُباع على متن السفن التي تمرُّ بالجزر. وهذا مجال عمل العاملين على القوارب. كما أنّ هناك المهرّجين، أولئك الذين يأخذون قدحاً قديماً محدّباً ويحفرون عليه: «هذا القدح كان مُلك دريفوس – جزيرة الشيطان – التاريخ». والأمر نفسه مع الملاعق أو الأطباق. بالنسبة إلى البحّارة البريتانيين، فكانت هناك بضاعة رائجة على الدوام: أيّ شيءٍ عليه اسم «سيزنك».

تُدخلُ هذه التجارة الدائمة الكثير من الأموال إلى الجزر، وللمراقبين

مصلحةٌ في استمرارها وبالتالي غضّ الطرف عنها. إذ يصبح التعامل مع الرجال أسهل حينما ينشغلون بحياتهم الجديدة.

واللواطة تأخذ طابعاً رسمياً. فالجميع يعرف، بما فيهم آمر السجن، أنّ فلان هو زوجة فلان وعندما يتمّ إرسال أحدهم إلى جزيرة أخرى، يتمّ ترتيب الأمور بحيث يلحقُ به الآخر سريعاً، هذا إن لم يُفكّروا في نقلهما معاً.

من بين جميع الرجال، ليس هناك ثلاثة في المئة يفكّرون في الفرار من الجزر، بما فيهم المحكومون بالمؤبّد. والطريقة الوحيدة لفعل ذلك هي السعي بكلّ السُبل إلى أن يُرفَع الحجز عن المحكوم ويُرسَل إلى البرّ، في سان لوران أو كورو أو كايين. وهو الأمر الذي لا يستفيد منه سوى المحكومين بمدد محدّدة. أمّا بالنسبة إلى المحكومين مدى الحياة، فمن المستحيل أن يحدث ذلك إلّا في حالة ارتكاب جريمة قتل. ففي الواقع، حينما يقتل أحدهم شخصاً يتمّ إرساله إلى سان لوران لكي يمثل أمام المحكمة العسكرية. ولكن بما أنّ الذهاب إلى المحكمة يستلزم الإدلاء باعترافات، فهناك خطرُ أن يُحكم على القاتل بالحبس الانفرادي لمدّة خمسة أعوام، من دون أن نعلم إن كان سيستطيع استغلال المدة القصيرة لإقامته في القسم التأديبي في سان لوران – وهي ثلاثة أشهرٍ كحدّ أقصى – للتمكّن من الهروب.

كما يمكن للمحكوم أن يحاول الحصول على رفع الحجز لأسباب طبية. فإذا ما أُقّر بإصابة المحكوم بداء السلّ، يتمّ إرساله إلى المعسكر الخاصّ بالمصابين بالسلّ، والذي يُدعى «المعسكر الجديد» ويقع على بعد ثمانين كيلومتراً من سان لوران.

وهناك أيضاً الجذام أو الالتهاب المعوي الزحاري المزمن. ومن السهل نسبياً الوصول إلى هذه النتيجة، ولكنّها تشتمل على خطرٍ رهيب: المُساكنة في جناحٍ خاصّ، على نحوٍ منعزل، خلال ما يُقارب عامين مع المرضى الحقيقيين. ومن هنا فإنّ ادّعاء المحكوم بأنّه مصابٌ بالجذام

سيؤدي في النهاية إلى إصابته بالجذام، والادّعاء بأنّه مصابٌ بداء السلّ سيؤدي إلى إصابته بداء السلّ، ولا يكون المحكوم سوى على بعد خطوة واحدة من ذلك. أمّا بالنسبة إلى الزحار، فالنجاة من العدوى تغدو أكثر صعوبةً.

هأنذا أُقيم إذاً في المبنى (أ) مع أصدقائي المئة والعشرين. لا بدّ من تعلّم العيش مع هذا المجتمع حيث يجري تصنيفك فيه سريعاً. يجب قبل كلّ شيء أن يعلم الجميع بأنّه لا يمكن لأحدٍ مهاجمتك دون أن يعرّض نفسه للخطر. وحالما يصبح المحكوم مرهوبَ الجانب، عليه أن يكون محترَماً من خلال طريقة تصرّفه مع الحرّاس، ألّا يقبل ببعض الوظائف، ويرفض القيام ببعض أنواع السُخرة، ولا يعترف أبداً بسلطة حمَلَة المفاتيح، وألا يُطيع أبداً، حتى ولو كان ثمن ذلك الوقوع في مشكلة مع مراقبٍ. وعندما يلعب أحدهم القمار طيلة الليل، لا يخرج حتّى للتفقّد. يأتي حارس البيت (يُسمى هذا المبنى «البيت») ويصرخ: «مريضٌ نائم». في «البيتين» الآخرين، يذهب المراقبون في بعض الأحيان لإحضار «المريض» المُصرّح به، ويُرغمونه على حضور التفقّد. وهذا لا يحصل أبداً في مبنى الرؤوس الكبيرة. والخلاصة هي أنّ ما يسعون إليه، من أكبرهم إلى أصغرهم، هو هدوء السجن.

صديقي غرانديه، الذي انضممتُ إليه في مجموعةٍ، رجلٌ من مرسيليا في الخامسة والثلاثين من العمر. وهو فارع الطول ونحيل مثل مسمارٍ، ولكنّه قويٌّ جدّاً. نحن صديقان مذ كنّا في فرنسا، وكنّا نلتقي في تولون كما في مرسيليا وباريس.

وهو ذائع الصيت في ثقب الخزائن الحديدية وسرقة ما فيها. إنّه طيّب، ولكنّه ربما يكون خطيراً جدّاً. اليوم أكاد أكون وحيداً في هذا المهجع الفسيح، الذي جاء رئيسه يكنّسه ويمرّر الممسحة على الأرضية الإسمنتية. رأيتُ رجلاً يُصلّح ساعة يد، وقد وضع شيئاً خشبياً على عينه اليسرى. وكان يعلو أرجوحة نومه رفٌّ خشبيٌّ وقد عُلّق عليه ما يُقارب

ثلاثين ساعة يد. كان هذا الفتى، الذي له ملامح شابٍّ في الثلاثين من العمر، أشيب الشعر تماماً. اقتربتُ منه ونظرتُ إليه وهو يعمل، ثمّ حاولتُ أن أنخرط في حديثٍ معه، لكنّه لم يكلّف نفسه حتى عناء رفع رأسه، وظلّ صامتاً. انسحبتُ منزعجاً بعض الشيء وخرجتُ إلى الباحة وجلستُ قرب المغسلة. وجدتُ تيتي لابيلوت منهمكاً في التمرّن على لعبة ورق بأوراقٍ جديدة تماماً.

كانت أصابعه الرشيقة تُخفق وتُخلط الاثنتين والثلاثين ورقةً بسرعةٍ لا مثيل لها. ودون أن يوقف اللعبة بيديه الشبيهتين بيدي مشعوذ، قال لي: «إيه يا صديقي، كيف حالك؟ هل أنت مرتاحٌ في رويال؟».

أجبته:

- نعم، ولكنني منزعجٌ ومتضايقٌ اليوم. سأباشر العمل قليلاً، وبذلك سأخرج من المعسكر. أردتُ أن أتحدّث لبرهةٍ مع الرجل الذي يصلّح ساعة اليد، ولكنّه لم يردّ عليّ حتى.

- أُصدّق ذلك، يا بابي، فهذا الرجل يهزأ من الجميع، ولا يهتمّ سوى بساعاته. وكلّ ما عدا ذلك، فهراء! والحقيقة، بعد ما حصل له، لديه الحقّ في أن يغدو مجنوناً، أو سيجعلونه كذلك على الأقلّ. تصوّر أنّ هذا الشاب - يُمكننا أن نقول عنه شاب لأنه لم يبلغ الثلاثين من العمر بعد - كان قد حُكِم عليه بالموت في العام الماضي، بزعم أنّه قد اغتصب زوجة حارسٍ. وهي تهمة باطلة تماماً. كان يضاجع منذ زمنٍ طويل معلّمته، الزوجةَ الشرعية لرئيس الحرس البريتاني. وبما أنّه كان يعمل «خادماً منزلياً» عندهم، كلّما ذهب البريتاني إلى المناوبة النهارية، كان الساعاتي يضاجع المرأة الشابّة. ولكنّهما ارتكبا خطأً واحداً فقط: لم تعد المرأة تدعه يقوم بغسل وكي الثياب، بل كانت تقوم بنفسها بذلك، وإذ يعرف زوجها المخدوع أنّها كسولة، وجد الأمر غريباً وبدأت الشكوك تساوره.

ولكنّه لم تكن لديه أدلّة على مصيبته، فأعدّ خطّة لكي يُباغتهما ويضبطهما بالجرم المشهود، فيقتل كليهما. أعدّ خطّته دون أن يُثير انتباه

الزوجة الخائنة. ذات يوم، ترك مناوبته بعد ساعتين من المباشرة بها وطلب من حارسٍ أن يرافقه إلى منزله، تحت ذريعة إهدائه قطعةً من الجانبون تلقّاها من بلدته. ودون إثارة أيّ ضجّة، عبر البوابة، ولكن ما إنْ فتح باب المنزل الصغير، حتى راح ببغاءٌ يُردّد: «جاء السيّد!» مثلما اعتاد أن يفعل حينما يعود الشرطي إلى بيته. وفي الحال بدأت زوجته تصرخ: «النجدة! النجدة! أنا أتعرّض للاغتصاب!» فدخل الشرطيان إلى الغرفة في اللحظة التي تملّصت الزوجة من بين يدي المحكومِ الذي فوجِئ، فقفز من النافذة في حين أطلق الزوج المخدوع النار عليه. تلقّى رصاصةً في كتفه، بينما خرمشت المرأة في الأثناء نهديها وخدّيها ومزّقت مئزرها. سقط الساعاتي أرضاً، وفي اللحظة التي همّ فيها البريتاني بالإجهاز عليه، جرّده الشرطي الآخر من سلاحه. لا بدّ أن أُعلمكم بأنّ الشرطي الآخر كان كورسيكياً وأنّه قد أدرك في الحال بأنّ رئيسه قد لفّق له حكاية زائفة وأنّه ليس هناك لا اغتصاب ولا هم يحزنون. ولكن الشرطي الكورسيكي لم يستطع أن يصارح رئيسه البريتاني، وتظاهر بأنّه قد صدّق حكاية الاغتصاب. وتمّ الحكم على الساعاتي بالإعدام.

إلى هنا يا صديقي، لا شيء غير عاديّ، ولكن القضية أصبحت مهمّة بعد ذلك.

في سجن جزيرة رويال، في قسم المعاقبين، كانت توجد مقصلة، كلّ قطعة منها مودَعة في مكان خاصّ. في الباحة، كانت البلاطات الأربع التي تُنصَب المقصلة عليها قد غُلّفت وصُفّت جيّداً. وفي كلّ أسبوع، كان الجلّاد ومساعداه، وهما محكومان بالأشغال الشاقّة، ينصبون المقصلة مع شفرتها الحديدية الحادّة ويقطعون بها جذعاً أو جذعين لشجرة موز، فيتأكّدون بذلك من أنّها لا تزال في حالة جيّدة وتعمل بنجاح.

وكان الساعاتي، وهو من مقاطعة سافوا، في زنزانة للمحكومين بالإعدام مع أربعة محكومين آخرين، ثلاثة منهم عرب، والرابع صقلي. وكان الخمسة ينتظرون الردّ على طلب العفو عنهم والذي تقدّم به المراقبون الذين قاموا مقام محامي الدفاع عنهم.

ذات صباح، نصبوا المقصلة، وفتحوا على نحوٍ مفاجئ باب زنزانة الساعاتي. انقضّ الجلّادون عليه، وربطوا قدميه بحبلٍ، ووثقوا معصميه بالحبل نفسه الذي أوصلوه من جديد برباط قدميه. ثمّ راحوا يقصّون بمقصٍّ ياقة ردائه على نحوٍ مقوّر، وعبر بخطواتٍ بطيئة وقصيرة، وسط الظلام الذي لم يكن قد انقشع تماماً في تلك الصبيحة المبكّرة، مسافة تقارب عشرين متراً. يجب أن تعلم يا بابيون أنّه حينما تصل إلى أمام المقصلة، تجد نفسك وجهاً لوجه مع لوحٍ عامودي يتمّ ربطك عليه بوساطة أربطة مثبّتة فوقه. فتمّ ربط الساعاتي، وكانوا على وشك إسقاط اللوح الذي يُمرّر من خلاله رأسه حينما وصل الآمر الحالي للسجن، «جوزة الهند الجافّة»، الذي كان عليه أن يحضر إلزامياً تنفيذ الإعدام. كان يحمل في يده فانوساً، وفي اللحظة التي أضاء فيها مسرح عملية الإعدام، انتبه إلى أنّ هؤلاء الحرّاس الأغبياء قد أخطأوا، وأنّهم سيقطعون رأس الساعاتي الذي لم يكن، يومذاك، المطلوب تنفيذ حكم الإعدام فيه.

صاح الآمر بارو:

– توقّفوا! توقّفوا!

كان منفعلاً للغاية إلى درجة أنّه على ما يبدو لم يعد يستطيع أن يتكلّم، فترك الفانوس يسقط من يده، ودفع بيده الجميع، من حرّاس وجلّادين، وفكّ وثاق الساعاتي بنفسه. ونجح في النهاية أن يُعطي أوامره:

– أيّها الممرّض، أعده إلى زنزانته. اعتنِ به، وابق معه، وقدّم له شيئاً من شراب الروم. وأنتم أيّها الأغبياء، اذهبوا سريعاً وأحضروا رينكاسو، إنّه هو من سنُعدمه اليوم وليس سواه!

في اليوم التالي، كان شعر الساعاتي ابن مقاطعة سافوا قد شاب بالكامل، مثلما رأيته اليوم. كتب محاميه، وهو حارسٌ من كالفي، طلباً جدياً للعفو عنه إلى وزير العدل شارحاً له الحادثة التي جرت مع الساعاتي. تمّ العفو عن الساعاتي واستُبدِلَ حكمه من الإعدام إلى السجن المؤبّد. ومنذ ذلك الحين، يقضي وقته في تصليح ساعات الحرّاس. إنّها

هوايته التي يمارسها بشغف. ومن عادته أنّه يراقب الساعات لزمنٍ طويل، ولهذا السبب ترى هذه الساعات المعلّقة على لوحة المراقبة خاصّته.

الآن، لا بدّ أنّك قد فهمت أنّ الرجل محقّ في كونه متأثراً بعض الشيء، أليس كذلك؟

- بالتأكيد، يا بابي، بعد صدمة قويّة كهذه، معه الحقّ في ألّا يكون اجتماعياً كثيراً، أنا أشفق عليه بصدق.

كلّ يوم أتعلّم أموراً جديدة حول هذه الحياة الجديدة. إنّ المبنى (أ) هو بالفعل مركز تجميع الرجال الذين يدبّون الرعب في القلوب، بماضيهم كما بطريقة تصرّفهم في الحياة اليومية. وأنا ما زلت لا أعمل، إذ أنتظرُ أن أشغل وظيفة مفرّغ الدلاء، والتي ستدعني، بعد ثلاثة أرباع ساعة فقط من العمل، حرّاً على أراضي الجزيرة، مع منحي الحقّ في الذهاب إلى الصيد.

هذا الصباح، أثناء التفقّد من أجل سخرة زراعة أشجار جوز الهند، تمّ تحديد جان كاستيلي. خرج من بين الصفوف، وسأل: «ما هذا؟ سيتمّ إرسالي، أنا، إلى العمل؟».

أجابه الشرطي المشرف على السخرة:

- نعم، أنت. خذ هذا المعول.

نظر إليه كارالي ببرود، وقال:

- عجباً، أيّها الأوفيرني، ألا ترى أنّه يجب أن يأتي المرء من بلدتك حتى يُجيد استخدام هذه الأداة الغريبة؟ أنا كورسيكي من مرسيليا. في كورسيكا، يرمي المرء بعيداً عنه أدوات العمل، وفي مرسيليا، لا يعلمون حتى بوجودها. احتفظ أنت بالمعول ودعني وشأني.

لم يكن الشرطي الشابّ على إطّلاعٍ بعد بأوضاع المحكومين، مثلما علمتُ لاحقاً، فرفع المعول على كاستيلي، ومقبضه في الهواء. فصرخ الرجال المئة والعشرون بصوتٍ واحد:

- يا آكل الجيف، لا تلمسه، وإلّا قتلناك.

ودون أن يُبالي بوضعية التهيّؤ للهجوم التي اتّخذها جميع الحرّاس، صاح غرانديه:

- اتركوا الصفوف وتفرّقوا!

تقاطر نزلاء المبنى (ب) للذهاب إلى العمل، وكذلك فعل نزلاء المبنى (ت). وصلت تعزيزات تضمّ قرابة اثني عشر شرطياً، وفي تصرّف نادر أغلقوا الباب الشبكي. وبعد مضي ساعة، كان أربعون حارساً يأخذون أماكنهم على كلّ جانبٍ من الباب، وبنادقهم الرشّاشة في أيديهم. وحضر إلى المكان معاون الآمر ورئيس الحرس وقائد المراقبين والمراقبون، وغاب فقط آمر السجن الذي كان قد غادر في الساعة السادسة صباحاً، قبل وقوع الحادث، وذلك في مهمّة تفتيشية في سجن جزيرة الشيطان.

قال معاون الآمر:

- داسيلي، تفضّل بمناداة الرجال، واحداً تلوَ الآخر.

- غرانديه؟

- حاضر.

- اخرج.

خرج غرانديه وسط أربعة حرّاس. قال له داسيلي:

- اذهب إلى عملك.

- لا أستطيع.

- أترفض الذهاب إلى العمل؟

- كلا، لا أرفض، ولكنني مريض.

- منذ متى؟ لم تفصح عن أنّك مريض أثناء التفقّد الأوّل.

- هذا الصباح لم أكن مريضاً، الآن أنا مريض.

ردّ الستّون محكوماً الأوائل ممن نودي عليهم بالجواب نفسه تماماً، واحداً تلو الآخر. وذهب واحدٌ منهم إلى حدّ رفض الانصياع للأوامر.

لا شكّ أنّه كان ينوي أن يتمّ إرساله إلى سان لوران لكي يتمّ تحويله إلى المحاكمة العسكرية. وحينما قيل له. «أتعصي الأوامر؟»، أجاب:

- نعم، أرفض الأوامر، ثلاث مرّات.

- ثلاث مرّات؟ لماذا؟

- لأنكم أثرتم غضبي. أنا أرفض رفضاً قاطعاً العمل لصالح رجالٍ بغبائكم.

بلغ التوتّر ذروته. لم يكن الحرّاس، وخاصة الشبّان منهم، يتحمّلون أن تتمّ إهانتهم بهذه الطريقة من جانب السجناء. لم يكونوا ينتظرون سوى شيء واحد: بادرة تهديد تسمح لهم بالدخول في عملية باستخدام أسلحتهم، التي كانت حتى تلك اللحظة مصوّبة نحو الأرض.

أعطى معاون الآمر أوامره:

- جميع الذي نودي عليهم، تعرّوا تماماً! هيّا عودوا إلى زنازينكم.

وبينما سقطت الثياب، سُمِع أحياناً ضجيج السكاكين وهي ترنّ على إسفلت الباحة. وفي تلك اللحظة، وصل الطبيب. فصاح معاون الآمر:

- حسناً، توقّفوا! ها هو الطبيب. هلّا تفضّلت يا دكتور بمعاينة هؤلاء الرجال؟ والذين يتبيّن أنّهم ليسوا مرضى بالفعل، سوف يذهبون إلى المنفردات. أمّا الآخرون، فسوف يبقون في مهجعهم.

- هناك ستون مريضاً؟

- نعم، يا دكتور، ما عدا هذا الذي رفض الذهاب إلى العمل.

قال الطبيب:

- إلى الأوّل في الطابور، غرانديه، ما بكَ؟

- لدي عسر هضم للسجّان، يا دكتور. نحن جميعاً رجالٌ محكومون بأحكام طويلة الأمد، والغالبية بالسجن المؤبّد، يا دكتور. في الجزر، لا أمل في الفرار. لذا لم نعد نطيق هذه الحياة إلّا إذا كان هناك نوعٌ من المرونة والتفهّم في تطبيق القانون. والحال أنّ مراقباً سمح لنفسه، هذا الصباح،

أمامنا جميعاً بالرغبة في أن يضرب بمقبض المعول أحد زملائنا الذي يحظى باحترام وتقدير الجميع. لم تكن هذه محاولة للدفاع عن النفس، لأنّ هذا الرجل لم يهدّد أحداً. ولم يفعل شيئاً سوى قوله أنّه لا يرغب في أن يستخدم معولاً. هذا هو السبب الحقيقي لمرضنا الجماعي. ونترك الحكم لك.

خفض الطبيب رأسه، وفكّر لدقيقةٍ كاملة، ثمّ قال:

- أيّها الممرّض، اكتب: «نظراً لوجود حالة تسمّم غذائي جماعي، فإنّ المُراقب - الممرّض الفلاني سوف يتّخذ التدابير الضرورية لكي يُطهّر باستخدام عشرين غراماً من سلفات الصوديوم كلّ المُبعَدين الذين أعلنوا أنّهم مرضى اليوم. أمّا بالنسبة إلى المُبعد (س)، فتفضّلوا بوضعه تحت المراقبة في المستشفى لكي نتأكّد إن كان قد عبّر عن رفضه للذهاب إلى العمل وهو بكامل قواه العقلية».

ثمّ أدار ظهره لنا وانصرف.

صاح معاون آمر السجن:

- الجميع إلى الداخل! اجمعوا حوائجكم ولا تنسوا سكاكينكم.

في ذلك اليوم، لزم الجميع المهجع، ولم يستطع أحدٌ الخروج، ولا حتى ناقل الخبز. نحو منتصف الظهيرة، بدل أن يُقدّم لنا الحساء، جاء المراقب - الممرّض، مصحوباً بسجينين - ممرّضين، ومعهم سطلٌ خشبي مليء بمسهّل سلفات الصوديوم. أُرغم ثلاثة أشخاصٍ فقط على ابتلاع المُسهّل، في حين سقط الرابع على السطل متظاهراً بنوبة صرع، مبعثراً المُسهّل والسطل والمغرفة في كلّ الجهات. وهكذا انتهت الحادثة، من خلال العمل المُسنَد لرئيس المهجع لكي يقوم بتنشيف كلّ السائل المُراق على الأرض.

أمضيتُ فترة ما بعد الظهيرة في الحديث مع جان كاستيلي، الذي جاء لتناول الطعام معنا. كان قد كوّن خصّاً مع رجلٍ من تولون يُدعى لويس غرافون، محكومٌ بتهمة سرقة فراء. حينما تحدّثتُ معه عن الفرار، لمعت عيناه.

قال لي:

- في السنة الماضية، كدتُ أن أهرب، ولكن محاولتي لم تفلح. ما كنتُ أشكّ في أنّك رجلٌ لا يمكنه البقاء هادئاً هنا. مجرّد الكلام عن الهروب في الجزر، هو بمثابة التكلّم باللغة العبرية. من جهة أخرى، لاحظتُ أنّك لم تفهم بعد سجناء الجزر. كما تراهم بنفسك، تسعون في المئة من المحكومين يجدون أنفسهم سعداء هنا. لا أحد يشي بك، مهما فعلت. يُقتل أحدٌ هنا، ولا يوجد أيّ شاهد؛ والأمر نفسه إذا ما سُرِق شيءٌ ما. وأيّاً كانت الفعلة التي يرتكبها أحدهم هنا، يتوحّد الجميع كجسدٍ واحد في سبيل الدفاع عنه. لا يخاف سجناء الجزر إلّا من شيءٍ واحد، وهو أن تنجح عملية فرار. لأنّه حينذاك، يتزعزع كلّ الهدوء النسبي الذي يعيشونه: تكون هناك عمليات تفتيش مستمرّة، ولا تعود هناك ألعاب الورق، ولا تعود هناك موسيقى - يتمّ تخريب الآلات الموسيقية أثناء عمليات التفتيش - ولا تعود هناك ألعاب الشطرنج والداما، ولا تعود هناك كتب ولا أيّ شيءٍ آخر! ولا تعود هناك مشغولات يدوية أيضاً. يُلغى كلّ شيء، يُلغى كلّ شيء على الإطلاق. ويتمّ التفتيش بلا انقطاع.

ونتيجة لعمليات التفتيش، يختفي السكّر والزيت وشرائح اللحم والزبدة وغيرها من المواد الغذائية. وفي كلّ مرّة تنجح عملية فرار من الجزر، تتوقّف على البر الرئيسي، في أطراف كورو. ولكن بالنسبة إلى الجزر، يكون الفرار قد نجح، فقد استطاع الرجال المحكومون الخروج من الجزيرة. ومن هنا تُفرض عقوبات على الحرّاس، الذين ينتقمون بعد ذلك من الجميع.

كنتُ أُصغي إليه بكلّ أحاسيسي. لم أستطع تصديق ذلك، إذ لم أكن قد رأيتُ المسألة على هذه الصورة قط.

قال كاستيلي:

- خلاصة القول، في اليوم الذي تضع في ذهنك التحضير لعملية

الفرار، تصرّف بخطوات محسوبة. قبل أن تتعامل مع شخصٍ هنا، إن لم يكن صديقاً موثوقاً لك، فكّر في الأمر عشر مرّات.

كان جان كاستيلي، لصّ المنازل المحترف، صاحب إرادة وذكاءٍ قلّ نظيرهما. كان يكره العنف ويُطلَق عليه لقب «الأسلوب القديم». على سبيل المثال، لا يغتسل إلّا بصابون مرسيليا، وإذا ما اغتسلتُ بصابون بالموليف، قال لي: «يا لهذه الرائحة الغريبة النتنة! لقد اغتسلتَ بصابون المرأة!». كان لسوء الحظّ في الثانية والخمسين من العمر، ولكنّ طاقته الحديدية كانت تُسرّ النظر وتُبهج الفؤاد. قال لي: «أنت يا بابيون تشبهني كما لو أنّك ابني. حياة الجزر لا تستهويك. تأكل جيّداً لأنّ هذا ضروري لتحافظ على صحتك ولياقتك، ولكنّك لن تستقرّ لكي تعيش في الجزر. أهنّئك على هذا. من بين جميع المحكومين هنا، لا يصل عددنا نحن الذين نفكّر بهذه الطريقة إلى ستة أشخاص، خاصّة في مسألة الفرار. هناك بالفعل عددٌ من الرجال الذين يدفعون أموالاً باهظة لكي يتمّ رفع الحجز عنهم هنا في الجزر ونقلهم إلى البر الرئيسي من أجل تدبير الفرار من السجن، ولكن هنا لا أحد يؤمن بمسألة الفرار».

وأسدى العجوز كاستيلي إليّ بعض النصائح: أن أتعلّم اللغة الإنكليزية، وكلّما أُتيحت لي الفرصة، أتحدّث الإسبانية مع رجلٍ إسباني. وقد أعارني كتاباً لتعلّم الإسبانية في أربعة وعشرين درساً. وكذلك أعطاني قاموساً فرنسياً – إنكليزياً. وهو صديقٌ حميم لرجلٍ مرسيلي يُدعى غارديس، عرف منه الكثير حول عمليات الهروب. كان الرجل قد هرب مرّتين من السجن. كان الهروب الأوّل من سجن الأشغال الشاقّة في البرتغال؛ أمّا الثاني، فقد حدث على البر الرئيسي. له وجهة نظره الخاصّة بشأن الفرار من الجزر، وأيضاً جان كاستيلي. والتولوني غرافون، هو الآخر كانت له طريقته الخاصّة في النظر إلى الأمور. لم تكن أيّ من هذه الأفكار تتطابق مع رؤيتي، ولذلك، منذ ذلك اليوم اتّخذت القرار بأن أعتمد على نفسي في التخطيط والتدبير وألّا أعود إلى الحديث عن الفرار مع أحد.

الأمر صعبٌ وقاس، ولكن هذا هو الواقع. النقطة الوحيدة التي يُجمعون عليها هي أنّ لعبة القمار ليست مهمّة سوى لكسب المال، وأنّها خطيرة جدّاً. وفي أيّ لحظة قد يضطرّ المرء للمبارزة بالسكين مع أوّل متعنترٍ[1] قادم. هناك ثلاثة رجال هم رجال أفعالٍ لا أقوال، وهم حقّاً في غاية الروعة بأعمارهم: إضافة إلى جان كاستيلي، ولويس غرافون في الخامسة والأربعين وغارديس في قرابة الخمسين من عمره.

حظيتُ البارحة مساءً بالفرصة لكي أشرح طريقتي في النظر إلى الأمور والتصرّف لكلّ نزلاء مهجعنا تقريباً. واجه فتى من مدينة تولوز تحدّياً بالسكين مع رجلٍ من مدينة نيم. كان لقب الفتى التولوزي هو (سردين)، أمّا العملاق النيمي، فلقبه هو (موتون – خروف). وقف موتون عاري الصدر في وسط الممرّ، ممسكاً السكين بيده، وقال:

– إمّا أن تدفع لي خمسة وعشرين فرنكاً لكلّ لعبة بوكر، أو لن تلعب.

أجاب سردين:

– لم يسبق أن دفع أحدٌ شيئاً لأحد لكي يلعب البوكر. لماذا تُضايقني ولا تهاجم مدير اللعبة على الطريقة المرسيلية؟

– ليس لك أن تعرف السبب. إمّا أن تدفع أو لن تلعب، أو تُقاتل.

– كلا، لن أُقاتل.

– هل خانتك شجاعتك؟

– نعم. لأنني إذا قاتلتُك سأجازف بأن أتلقّى طعنة سكينٍ أو أعرّض نفسي للقتل على يدِ متعنترٍ مثلك لم يسبق له أن شارك في محاولة فرار من السجن. أمّا أنا، فأنا رجلُ فرارٍ، ولستُ هنا لأَقتُلَ أو أُقتَلَ.

كنّا جميعاً في حالة انتظار لنرى ما سيحدث. قال لي غرانديه:

1– المُتعنترون: هم الأبطال النبلاء في أدب المغامرة الأوروبي، والمتعنتر هو الفارس المثالي المتمرد الذي يتميز بالشجاعة والشهامة والمهارة في استخدام السيف والعنترة في الأدب العربي منسوبة إلى الفارس عنترة بن شداد العبسي رمز البسالة والنبل – المترجم.

- هذا الفتى شجاعٌ بالفعل، وهو رجل الفرار. من المؤسف ألّا نستطيع قول أيّ شيء.

فتحتُ سكيني ووضعته على فخذي. وجلستُ على أرجوحة نوم غرانديه.

قال موتون:

- إذاً أيّها الجبان، هل ستدفع لي أم تكفّ عن اللعب؟ أجبني.

ثمّ تقدّم خطوةً نحو سردين. حينئذٍ، صرخت:

- اخرس يا موتون، ودع هذا الرجل وشأنه!

قال لي غرانديه:

- هل جُننتَ يا بابيون؟

ومن دون أن أتحرّك من مكاني، وأنا ما زلت جالساً على السرير المعلّق وسكيني على ساقي اليسرى، قلت:

- كلا، لستُ مجنوناً واسمعوا جميعاً ما سأقوله لكم. يا موتون، قبل أن أتقاتل معك، الأمر الذي سأفعله إذا ما فرضته عليّ، حتى بعد أن أتكلّم، دعني أقول لك وللجميع أنّه منذ أن وصلتُ إلى هذا المهجع الذي يزيدُ عددنا فيه على مئة نزيلٍ، ونحن جميعاً من الوسط الإجرامي، لاحظتُ بخجل أنّ الشيء الأجمل، والأكثر جدارةً، والحقيقة الوحيدة، أي الفرار من السجن، لا يحظى بالاحترام هنا. والحال أنّ كلّ رجلٍ أثبت بأنّه رجل فرار، وأنّه يضمر ما يكفي من الإرادة ليجازف بحياته في محاولة للفرار، ينبغي أن يحظى بالاحترام من لدن الجميع بعيداً عن أيّ اعتبارٍ آخر. من يقول عكس هذا؟ (صمت). في كلّ قوانينكم، هناك قانونٌ ناقص، وهو قانونٌ أساسي: واجب الجميع ليس فقط في احترام، بل أيضاً مساعدة ومساندة رجال الفرار. لا أحد مجبرٌ على الرحيل وأقبل فكرة أنّ جميعكم تقريباً قد قررتم أن تعيشوا حياتكم هنا. ولكن إذا كنتم لا تمتلكون شجاعة محاولة استئناف حياتكم الحرّة، فليكن لديكم على الأقلّ الاحترام الذي يستحقّه رجال الفرار. والشخص الذي سوف يتجاهل هذا القانون

الإنساني، فلينتظر عواقب وخيمة. الآن يا موتون، إذا كنتَ لا تزال ترغب في القتال، هيّا فأنا قادمٌ لمنازلتك!

وقفزتُ إلى وسط المهجع، ممسكاً السكين بيدي. ألقى موتون سكينه وقال لي:

- أنت على حقٍ يا بابيون، ولذلك لا أريد أن أتقاتل بالسكين معك، وإنّما بالأيدي لكي أُريك بأنني لستُ جباناً.

تركتُ سكيني مع غرانديه. تعاركنا مثل كلبين لمدّة عشرين دقيقة تقريباً. وفي النهاية، وبضربة موفّقة من الرأس، غلبته في آخر لحظة. ذهبنا معاً إلى مغاسل المراحيض واغتسلنا من الدماء التي كانت تسيل من وجهنا. قال لي موتون: «هذا صحيح، يُصاب المرء بالخبل في هذه الجزر. أنا هنا منذ خمسة عشر عاماً ومع ذلك لم أصرف ألف فرنكٍ لكي أحاول التحرّر منها. إنّه لعارٌ».

حينما عدتُ إلى الخصّ، عنّفني غرانديه وغالغاني، وقالا لي:

- هل أنت مجنون حتى تستفزّ وتُهين الجميع كما فعلت الآن؟ لا أعرف بأيّ أعجوبةٍ لم يقفز أحدٌ إلى الميدان لكي يتعارك معك بالسكين.

- كلا يا صديقيّ، ليس هناك ما هو مثير للعجب. عندما يكون أحدنا على حقّ، يتصرّف كلّ رجل من وسطنا بشكلٍ سليم ويؤيّده في موقفه.

قال غالغاني:

- حسناً. ولكن لا تلهو كثيراً باللعب مع هذا البركان.

وطيلة السهرة، جاء رجالٌ للتكلّم معي. كانوا يقتربون منّي كما لو أن الأمر مصادفة، ويتحدّثون في مواضيعَ لا أهمية لها، ثمّ قبل أن يغادروا، يقول لي كلٌّ منهم: «أنا متّفقٌ معك على ما قلته، يا بابي». وقد عزّز هذا الحادث مكانتي كثيراً عند الرجال في المهجع.

بدءاً من تلك اللحظة، اعتبرني زملائي بكلّ تأكيد رجلاً من وسطهم ولكنْ رجلاً لا ينحني للأشياء السارية دون أن يحلّلها أو يناقشها. وقد

لاحظتُ أنّه عندما أُدير لعبة القمار، تقلّ النزاعات بين اللاعبين، وحينما أُعطي أمراً، ينصاع له الجميع سريعاً جدّاً.

ومدير لعبة القمار، كما سبق وأخبرتكم بذلك، يتقاضى خمسة من مئة على كلّ جولة رابحة. يجلس على مقعدٍ، مسنداً ظهره للجدار لكي يحمي نفسه من قاتلٍ محتملٍ في أيّ وقت. ويُخفي غطاءٌ على الركبتين سكيناً مفتوحاً ومهيّأً تماماً. ويتحلّق من حوله ثلاثون أو أربعون وأحياناً خمسون مقامراً من جميع مناطق فرنسا، والكثير من الأجانب، من ضمنهم عربٌ. اللعبة سهلةٌ للغاية: هناك الخازن وهناك موزّع الورق. وكلّما يخسر الخازن، يمرّر الورق إلى جاره.

يتمّ اللعب باثنتين وخمسين ورقة. يقوم الموزّع بتوزيع الحزمة ويُبقي على ورقة مستورة. يُخرج الخازن ورقةً ويُرميها على الغطاء، وتبدأ اللعبة. يتمّ اللعب إمّا على القطع، وإمّا على الخزينة. حينما توضع الرهانات في أكوام صغيرة، يبدأ سحب الأوراق ورقة بورقة. والورقة التي تكون لها قيمة الورقتين المطروحتين نفسها فإنها تخسر. على سبيل المثال، إذا ستر موزّع الورق ورقة عليها صورة البنت، وكشف الخازن ورقة ذات خمس نقاط، إذا ما أخرج ورقة عليها صورة البنت قبل ورقة ذات خمس نقاط، يخسر الموزّع. أمّا إذا حصل العكس، أي أخرج ورقة ذات خمس نقاط، يخسر الخازن. على مدير اللعبة أن يعرف مبلغ كلّ رهان ويتذكّر من هو الموزّع ومن هو الخازن لكي يعرف لمن سيعيد المال. والأمر ليس سهلاً، إذ يجب الدفاع عن الضعفاء في مواجهة الأقوياء، محاولاً باستمرار النيل من هيبتهم. حينما يتّخذ مدير اللعبة قراراً بشأن حالةٍ مشكوكٍ فيها، ينبغي القبول بهذا القرار دون تذمّرٍ.

في تلك الليلة، اغتيل رجلٌ إيطالي يُدعى كارلينو. كان يعيش مع شابٌ بمثابة زوجته. ويعمل كلاهما في حديقةٍ. لا بدّ أنّه كان يعلم أنّ حياته في خطر، لأنّه حينما ينام، يبقى الفتى يقظاً، والعكس بالعكس. وكانا قد وضعا تحت قماش أرجوحة نومهما علباً فارغة لكي لا يستطيع أحدٌ أن

يتسلّل إليهما دون إثارة ضجّة. ومع ذلك قُتِل الرجل من تحت السرير. وأعقب صرخته مباشرةً ضجيجٌ صاخب ناجمٌ عن العلب الفارغة التي انقلبت وتبعثرت بفعل القاتل.

كان غرانديه يُدير لعبة قمار «على الطريقة المرسيلية» مع أكثر من ثلاثين مقامراً، متحلّقين من حوله. أمّا أنا، فكنتُ أتحدّثُ واقفاً مع أحدهم على مقربةٍ من مكان اللعبة. أوقفت الصرخة وضجّة العلب الفارغة المباراة. نهضَ كلّ واحدٍ من مكانه وسأل عمّا يحدث. لم يرَ صديق كارلينو الشاب أيّ شيء ولفظ كارلينو أنفاسه الأخيرة. سأل رئيس المهجع إن كان عليه أن يستدعي المراقبين. قال أحدهم: «لا. غداً، أثناء التفقّد سيكون الوقت المناسب لإبلاغهم بالأمر؛ طالما أنّ الرجل قد مات ولم يعد هناك ما يُمكنهم فعله لأجله».

باشر غرانديه بالكلام:

- لا أحد سمعَ شيئاً.

ثمّ التفت إلى صديق كارلينو، وقال:

- وأنت أيضاً يا فتى. غداً صباحاً حينما تستيقظ، ستكتشف بأنّه ميّت.

وانتهى كلّ شيء! هيّا، لقد استؤنفت لعبة القمار. وكما لو أنّ شيئاً لم يكن، استأنف المقامرون صيحاتهم: «موزّع! لا، خازن!» إلخ.

انتظرتُ بفارغ الصبر لأرى ما الذي سيحدث حينما يكتشف الحرّاس جريمة قتل. في الساعة الخامسة والنصف صباحاً، رنّ الجرس رنّته الأولى.

في الساعة السادسة، رنّ الجرس رنّته الثانية وتمّ توزيع القهوة. وفي الساعة السادسة والنصف، رنّ الجرس رنّته الثالثة، وخرجنا إلى التفقّد، مثل كلّ يوم. ولكن اليوم، الأمر مختلف. عند الرنّة الثانية، قال رئيس المهجع للحارس الذي يرافق موزّع القهوة:

- أيّها الرئيس، لقد قُتِل رجلٌ.

- من هو؟

- كارلينو.
- لا بأس.
بعد عشر دقائق، حضر ستة حرّاسٍ. سأل أحدهم:
- أين الميّت؟
- هناك.
رأوا المدية مغروزةً في ظهر كارلينو عبر نسيج الأرجوحة، فسحبوها. أمر أحدهم:
- حمَلَة النقّالة، احملوه.
حمله رجلان على حمّالة. أشرقت الشمس، فرنّ الجرس رنّته الثالثة. كانت المدية المخضّبة بالدم لا تزال في يد رئيس الحرس حينما أعطى الأمر، قائلاً:
- الجميع إلى الخارج استعداداً لإجراء التفقّد. لن نقبل اليوم مريضاً يبقى في السرير.
خرج الجميع. أثناء التفقّد الصباحي، يحضر بشكلٍ دائم آمرا السجن وقادة الحرس. بدأ إجراء التفقّد، وحينما وصل المنادي إلى اسم كارلينو، أجاب رئيس المهجع: «مات ليلة أمس، ونُقِل إلى المشرحة».
قال الحارس الذي يُجري التفقّد:
- حسناً.
حينما ردّ الجميع على المنادي معلنين عن حضورهم، رفع قائد المعسكر المدية بيده في الهواء وسأل:
- هل يعرف أحدكم هذه المدية؟
لم يُجب أحدٌ على سؤاله.
- هل رأى أحدكم القاتل؟
ساد الصمت المطبق.
- إذاً ما من أحدٍ يعرف شيئاً، كما العادة. مدّوا أياديكم أمامي، الواحد

تلو الآخر، وليذهب بعد ذلك كلٌّ إلى عمله. مثل كلّ مرّة، سيّدي الآمر، لا شيء يُتيح لنا معرفة من الذي قام بطعن الرجل.

قال الآمر:

- لقد أُغلِقَت القضية. احتفظوا بالمدية، واربطوا بها بطاقة تشير إلى أنّها استُخدِمت في قتل كارلينو.

هذا كلّ ما جرى. عدتُ إلى المهجع وتمدّدتُ في سريري لكي أنام لأنّ عيني لم تُغمضا طيلة الليل. قُبيل أن أنام، قلتُ في نفسي بأنّه لا أهمية لسجينٍ محكومٍ بالأشغال الشاقّة، فحتى لو قُتِل بطريقة جبانة، يمتنع الآخرون عن إزعاج أنفسهم بالسعي إلى معرفة القاتل. بالنسبة إلى الإدارة، هو لا يعني شيئاً على الإطلاق، فهو مجرّد محكوم، أي أدنى من كلبٍ.

قرّرتُ أن أباشر بعملي كمفرّغ لدلاء الفضلات بدءاً من يوم الإثنين. سوف أخرج في الساعة الرابعة والنصف مع شخصٍ آخر لكي نُفرِغ دلاء المبنى (أ)، أي مبنانا. وينصّ القانون، من أجل إفراغها، على أن نُنزِلها إلى البحر. ولكن من خلال الدفع لمنْ يقود الجواميس، كان ينتظرنا في مكانٍ من الهضبة حيث تنحدر قناةٌ إسمنتية ضيّقة حتى تصل إلى البحر. وبالتالي، كنّا نُفرغ سريعاً، في غضون أقلّ من عشرين دقيقةً، كلّ الدلاء الخشبية في تلك القناة ونسكبُ وراءها ثلاثة آلاف لترٍ من مياه البحر المنقولةِ في برميلٍ ضخم، وذلك لكي تجرف كلّ الفضلات معها إلى البحر. كنّا ندفع لقاء نقل مياه البحر عشرين فرنكاً لصاحب الجواميس، وهو رجلٌ زنجي لطيف من المارتينيك. وكنّا نساعد في تجريف الفضلات باستخدام مكنسة قاسية جدّاً. ولأنّه كان يومي الأوّل في العمل، أتعبني حمل الدلاء الخشبية بوساطة عارضتين خشبيتين وأوجع معصميّ. ولكنني سرعان ما اعتدتُ على ذلك.

كان رفيقي الجديد خدوماً جدّاً ومع ذلك أخبرني غالغاني بأنّه في غاية الخطورة. ويبدو أنّه كان قد ارتكب سبع جرائم قتل في الجزر. وكانت

وسيلته في تدبير معيشته هي بيع الغائط. ففي الواقع، كان على كلّ بستانيٍّ أن يُعدّ سماداً لبستانه. ولذلك، كان يحفر حفرةً ويضع فيها أوراق الشجر اليابسة وبعض العشب، وكان صديقي المارتينيكي يحمل سرّاً دلواً أو دلوين من دلاء التفريغ إلى البستان المحدّد. وبالطبع، لم يكن بوسعه أن يفعل هذا بمفرده، وبالتالي كنتُ مضطرّاً لأن أساعده في ذلك. ولكنني كنتُ أعلم أنّ هذا خطأٌ جسيم، لأنّه من شأن هذا، من خلال العدوى عن طريق الخضار، أن يتسبّب في انتشار الزحار بين المراقبين والحرّاس وكذلك السُجناء المُبعَدين. وقد قرّرتُ أن أمنعه ذات يوم، حينما أعرفه على نحوٍ أفضل، عن القيام بهذا الأمر. وبالطبع، سوف أدفع له ما سيخسره من جرّاء إيقاف تجارته هذه. وبالإضافة إلى ذلك، كان ينقش على قرون الثيران. أمّا فيما يخصّ الصيد، فقد أخبرني بأنّه لا يستطيع أن يعلّمني أيّ شيء في هذا المجال، ولكن، على الرصيف البحري، يستطيع شابار أو شخصٌ آخر أن يساعدني.

ها قد أصبحتُ مفرّغ دلاء الفضلات إذاً. ما إنْ ينتهي العمل، كنتُ أستحمّ جيّداً وأرتدي سروالاً قصيراً وأذهب إلى الصيد بحريّة أينما يحلو لي. لم يكن عليّ سوى واجبٌ واحد: أن أكون في المعسكر عند منتصف الظهيرة. بفضل شابار، لم تنقصني لا قصبات الصيد ولا صنّارات. حينما كنتُ أعود صاعداً الهضبة، حاملاً أسماك البوري الحمراء المعلّقة من خياشيمها على سلكٍ معدني، كان نادراً ألّا تُناديني زوجات المراقبين من بيوتهنّ الصغيرة. كنّ جميعهنّ يعرفن اسمي، فتخاطبني إحداهنّ: «بابيون، بعني كيلوغرامين من سمك البوري الأحمر». فأسألها:

– هل أنتِ مريضة؟

– كلا.

– هل لديكِ صبيٌّ مريض؟

– كلا.

– إذاً لن أبيعكِ سمكتي.

اصطدتُ كمية كبيرة من السمك تكفي لأن أعطي بعضها للأصدقاء في المعسكر، أقايضه بالخبز أو الخضار أو الفاكهة. في خصّي، نتناول مرّة واحدة على الأقل سمكاً. ذات يوم، بينما كنتُ أصعد من الشاطئ حاملاً ما يقارب اثني عشر كركنداً ضخماً وسبع أو ثماني سمكات من البوري الأحمر، مررتُ أمام بيت الآمر بارو. قالت امرأةٌ بدينة: «لقد اصطدت صيداً ثميناً يا بابيون. مع أنّ البحر هائج ولم يصطد أحدٌ سمكاً. لقد مرّ خمسة عشر يوماً لم أذق خلالها طعم السمك. من المؤسف أنّك لا تبيعه. لقد علمتُ من زوجي أنّك لا تبيع السمك لزوجات المراقبين».

- هذا صحيح، سيّدتي. ولكن بالنسبة إليكِ، قد يكون الأمر مختلفاً.

- لماذا؟

- لأنّكِ بدينة، واللحم قد يضرّ بكِ.

- هذا صحيح، لقد قيل لي بأنّه عليّ ألّا آكل سوى الخضار والسمك المسلوق بالمرق. ولكن هذا غير ممكن هنا.

- تفضّلي سيّدتي، خذي الكركند والسمك.

وأعطيتُها ما يقارب كيلوغرامين من السمك.

ومنذ ذلك اليوم، كلّما اصطدتُ كميّة جيّدة من السمك والكركند، أعطيتُها ما يلزمها لاتّباع نظامٍ غذائيٍّ مناسب. وهي التي تعلم أنّ كلّ شيء يُباع في الجزر، لم تدفع لي شيئاً ولم تقل لي سوى كلمة «شكراً». كانت على حقّ، لأنّها أحسّت بأنّه إذا ما أعطتني مالاً، سوف يزعجني ذلك. لكنها غالباً ما دعتني للدخول إلى بيتها. وكانت تقدّم لي بنفسها كأساً من شراب باستيس أو النبيذ الأبيض. وإذا ما تلقّت من كورسيكا سجق (فيغاتيللي)، أعطتني بعضاً منه.

لم تسألني السيّدة بارو أبداً عن حياتي الماضية. جملةٌ واحدة أفلتت منها، ذات يوم، بشأن سجن الأشغال الشاقّة: «صحيحٌ أنّه لا يمكن الفرار من الجزر، لكنّه من الأفضل البقاء هنا، في مناخ صحي وسليم، بدل التعفّن مثل بهيمة على البر الرئيسي».

وهي من شرحت لي أصل تسمية الجزر: أثناء تفشي وباء الحمّى الصفراء في كايين، لجأ إليها الآباء البيض وراهبات دير، وقد نجوا جميعاً من الوباء، ومن هنا جاءت تسمية جزر الخلاص.

وبفضل الصيد، ذهبتُ إلى كلّ مكان. ها قد مرّت ثلاثة أشهرٍ على عملي مفرّغاً للدلاء، وأصبحتُ أعرف الجزيرة أفضل من أيِّ كان آخر. ذهبتُ وراقبتُ البساتين بذريعة مبادلة أسماكي بالخضار والفاكهة. كان بستانيّ بستانٍ يقع على طرف مقبرة المراقبين ماتيو كاربونييري الذي كوّن خصّاً معي. وهو يعمل بمفرده في البستان وقلتُ في نفسي بأننا قد نستطيع، فيما بعد، أن ندفن طوفاً أو نعدّه في بستانه. إذ سينصرف آمر السجن بعد شهرين، وسأكون حرّاً في التصرّف.

نظّمتُ أموري: بصفتي مفرّغاً للدلاء، كنتُ أخرج كما لو أنني ذاهبٌ لتفريغ الدلاء، لكن الرجل المارتينيكي هو الذي كان يقوم بهذا العمل نيابةً عنّي، مقابل بعض المال بالطبع. تودّدتُ إلى عديلين محكومين بالمؤبّد، هما ناريك وكينيه، وأقمتُ علاقة صداقة معهما. يُطلق السجناء عليهما لقب (العديلان ذوا العربة). ويُقال بأنهما أُتهما بقتل محصّل سندات مالية وإخفاء جثّته بين إسمنت مصبوب. وقد رآهما شهودٌ وهما ينقلان في عربة تُدفع بالأيدي كتلة إسمنتية ربّما ألقيا بها في نهر المارن أو السين. وقد توصّلت التحقيقات إلى أنّ المحصّل زارهما لتحصيل سندٍ، ولم يُرَ منذ ذلك الحين. وقد أنكرا الجريمة المنسوبة إليهما باستمرار، وحتى في السجن، ظلّا يدّعيان البراءة. ومع ذلك، إذا كان لم يُعثَر على الجثّة، فقد عُثِر على رأس الضحية وهو ملفوفٌ بمنديل. والحال أنّ الشرطة عثرت في منزلهما على مناديل من النسيج نفسه والخيوط نفسها (حسب الخبراء). لكنّ المحامين والمتّهمين بنفسيهما أثبتوا أنّ الآلاف من الأمتار من هذا القماش قد تحوّلت إلى مناديل، وأنّ هذه المناديل موجودة بحوزة الجميع. وفي النهاية، تمّ الحكم على العديلين بالسجن المؤبّد وعلى زوجة أحدهما، وهي شقيقة زوجة الآخر، بعشرين عاماً في السجن الانفرادي.

نجحتُ في توطيد علاقتي بهما. ولكونهما بنائين، كانت لهما مداخلهما ومخارجهما إلى ورشة الأعمال. وربّما يكون بوسعهما أن يُخرجا لي، قطعة بقطعة، ما يكفي لصناعة طوفٍ. بقي عليّ أن أقنعهما بالأمر.

التقيتُ البارحة بالطبيب، وأنا أحمل سمكة تزن على الأقلّ عشرين كيلوغراماً، ظريفة جدّاً، تُدعى ميرو. صعدنا معاً نحو الهضبة. في منتصف المنحدر، جلسنا على جدارٍ منخفض. قال لي بأنّه يمكن تحضير حساء لذيذ من رأس هذه السمكة. قدّمت له رأس السمكة مع قطعة كبيرة من لحمها. تعجّب لتصرّفي، وقال لي:

- أنت لستَ حقوداً، يا بابيون.

- هذا يعني يا دكتور أنني لم أقم بهذه اللفتة من أجلي. أنا مدينٌ لك لأنّك فعلت المستحيل من أجل صديقي كلوزيو.

تكلّمنا قليلاً، ثمّ قال لي:

- تودّ أن تهرب من السجن، أليس كذلك؟ أنت لست محكوماً بالأشغال الشاقّة. أنت تُعطي الانطباع بأنّك مختلفٌ.

- أنت على حقّ، يا دكتور، أنا لا أنتمي إلى السجن، أنا فقط في زيارة هنا.

بدأ يضحك، فقلت:

- دكتور، ألا تعتقد أنّ الإنسان يستطيع أن يولد من جديد؟

- بلى.

- هل بوسعك الافتراض بأنني أستطيع أن أخدم المجتمع دون أن أكون خطراً عليه، وأن أتحوّل إلى مواطنٍ شريف؟

- نعم، أؤمن بصدق أنّ هذا ممكن تماماً.

- إذاً، لماذا لا تساعدني في الوصول إلى هذا الهدف؟

- كيف؟

- من خلال رفع الحجز عني بذريعة أنّني مصابٌ بداء السلّ.

حينها أكّد لي أمراً كنتُ قد سمعتُ عنه من قبل. قال:

- هذا غير ممكن وأنصحك ألّا تفعل هذا أبداً. هذه مسألة خطيرة للغاية. لا ترفع الإدارة الحجز عن رجلٍ بسبب مرضٍ إلّا بعد مرور عامٍ على الأقلّ على بقائه في الجناح الخاصّ بالمصابين بمرضه نفسه.

- لماذا؟

- من المخجل بعض الشيء أن أذكر السبب، ولكن أعتقد أنّ الهدف من ذلك هو أن يعلم الرجل المعني، إن كان متمارضاً، بأنّ هناك احتمالاً كبيراً لأن يُصاب بالعدوى من خلال التعايش مع المرضى الآخرين، وأن يُصاب بالفعل بالعدوى. وبالتالي لا يمكنني أن أفعل شيئاً من أجلك.

منذ ذلك اليوم، أصبحنا، الطبيب وأنا، صديقين مقرّبين، إلى أن جاء اليوم الذي كاد فيه أن يتسبّب بمقتل صديقي كاربونييري. ففي الواقع، قبل ماتيو كاربونييري، الذي كان على اتّفاقٍ مشتركٍ معي، بأن يصبح طبّاخ بيت المونة لإعداد مائدة قادة الحرس. وكان ذلك بغرض دراسة إن كان من الممكن، بين النبيذ والزيت والخلّ، سرقة ثلاثة براميل وإيجاد الوسيلة لربطها ببعضها والإبحار بها. بالطبع، بعد أن يكون بارو قد غادر الخدمة في الجزر. كانت المصاعب كبيرة لأنّه ينبغي أن تتمّ في الليلة نفسها سرقة البراميل وأخذها إلى البحر من دون أن يراها أحدٌ أو يسمع صوت ضجيجها وربطها ببعضها باستخدام كابلات معدنية. لم يكن من الممكن إيجاد فرص مناسبة سوى في ليلة عاصفة بالرياح والأمطار. ولكن أصعب ما سيواجهنا بوجود الرياح والأمطار هو وضع الطوف في البحر الذي سيكون بالضرورة هائجاً.

إذاً، كان كاربونييري طبّاخاً. أعطاه رئيس بيت المونة ثلاثة أرانب ليقوم بإعدادها وجبةً لليوم التالي، وهو يوم الأحد. أرسل كاربونييري، أحد الأرانب، المسلوخة لحسن الحظّ، إلى شقيقه في الرصيف البحري، وأرسل الأرنبين الآخرين لنا. ثمّ قتل ثلاثة قطط ضخمة وأعدّ منها وجبة بالمرق شهيّة للغاية.

لسوء حظّه، دُعي الطبيب في اليوم التالي إلى هذه الوجبة، وحينما تذوّق لحم الأرنب، قال:

- السيّد فيليدوري، أهنّئك على وجبتك، فلحم هذا القطّ لذيذٌ.

- لا تسخر منّي يا دكتور، نحن نتناول لحم ثلاثة أرانب جميلة.

قال الطبيب، عنيداً مثل بغل:

- كلا. هذا لحم قطط. هل ترى الأضلاع التي آكلها؟ إنّها مسطّحة، في حين تكون أضلاع الأرانب مستديرة. وبالتالي، لا مجال للخطأ: نحن نأكل الآن لحم القطط.

قال الكورسيكي:

- اللعنة يا كريستاشو! لديّ قطٌّ في بطني!

وخرج يركض نحو المطبخ، ووضع فوهة مسدّسه على أنف ماتيو وقال له:

- لن ينفعك أنّك نابليوني مثلي، سوف أقتلك لأنّك أطعمتني لحم القطط.

كانت عيناه تقدح شرراً مثل عيني مجنون، ومن دون أن يفهم كاربونييري كيف عُرِفَ ذلك، قال له:

- إذا كنتَ تسمّي ما أعطيتني قططاً، فهذا ليس خطأي.

- أنا أعطيتُك ثلاثة أرانب.

- حسناً، وأنا طبختُ ما أعطيتني. انظر، لا تزال الجلود والرؤوس هنا.

رأى الحارس، حائراً، جلود ورؤوس الأرانب.

- وهل هذا يعني أن الدكتور لا يعي ما يقوله؟

سأل كاربونييري، متنفساً الصعداء:

- أهو الدكتور من قال هذا؟ إنّه يسخر منك. أخبره أنّ هذا ليس مزاحاً مناسباً في هكذا أمور.

هدأ فيليدوري واقتنع بكلام الطبّاخ، فعاد إلى قاعة الطعام وقال للطبيب:

- تكلّم، تكلّم قدر ما تشاء يا دكتور. إنّ النبيذ هو ما لعب برأسك. سواء كانت الأضلاع التي تأكلها مسطّحة أو مستديرة، فأنا أعلم أنني أتناول لحم الأرانب. لقد رأيتُ للتوّ جلودها ورؤوسها الثلاثة.

نجا ماتيو ببراعة من الورطة، ولكنّه فضّل أن يقدّم استقالته من المطبخ بعد بضعة أيامٍ من تلك الحادثة.

اقترب اليوم الذي سأتمكّن من التحرّك فيه. لم يعد هناك سوى بضعة أسابيع وسينصرف الآمر بارو. ذهبتُ البارحة لأرى زوجته البدينة التي كانت، بالمناسبة، قد نحفت كثيراً بفضل النظام الغذائي القائم على تناول السمك بالحساء والخضار الطازجة. أدخلتني هذه السيّدة الجسورة إلى بيتها لتقدّم لي زجاجة من نبيذ كينكينا العطري. وجدتُ في الصالة صناديقَ كبيرة مليئة، إذ كانت الأسرة تعدّ نفسها للرحيل. قالت لي الآمرة، مثلما كان الجميع يناديها:

- بابيون، لا أدري كيفك أشكرك على كلّ هذا الاهتمام بي طيلة هذه الأشهر الأخيرة. أنا أعلم أنّك، خلال بعض الأيام التي كان صيدك فيها شحيحاً، أعطيتني كلّ ما اصطدتَ. أشكرك جزيل الشكر على ذلك. بفضلك أنت، أشعر أنني أفضل حالاً بكثير، وقد نحفتُ بمقدار أربعة عشر كيلوغراماً. ما الذي يمكنني أن أفعله لأعبّر لك عن امتناني؟

- شيءٌ صعبٌ للغاية بالنسبة لكِ، سيّدتي. أن تؤمّني لي بوصلة جيّدة، دقيقة ولكنّها صغيرة الحجم.

- إنّ ما تطلبه مني ليس بالشيء الكثير، ولكنّه في الوقت نفسه ليس بالشيء القليل يا بابيون. وسيكون من الصعب عليّ تأمينه في غضون ثلاثة أسابيع.

قبل مغادرتها بثمانية أيام، بادرت هذه السيّدة النبيلة، التي أزعجها ألّا تنجح في تأمين بوصلة مناسبة، إلى أن تستقلّ القارب الساحلي وتذهب إلى كايين، وتعود بعد أربعة أيام وقد جلبت لي بوصلة رائعة ضدّ المغناطيس.

غادر الآمر والآمرة بارو هذا الصباح. وقد سلّم الآمر القيادة يوم أمس لمراقبٍ برتبته نفسها، وهو من أصلٍ تونسي ويُدعى بروييه. والخبر السارّ هو أنّ الآمر الجديد أبقى على ديغا في منصبه كمحاسبٍ عامّ. وهذا أمرٌ مهمٌّ جدّاً للجميع، وخاصة لي. في خطابه الموجّه إلى المحكومين المجتمعين على شكلٍ مربّعٍ في الفناء الواسع، أعطى الآمر الجديد الانطباع بأنّه رجلٌ حيويٌّ جدّاً، ولكنّه ذكيٌّ أيضاً. من بين أشياءَ أخرى، قال لنا:

– بدءاً من اليوم، أتولّى قيادة جزر الخلاص. وإذ تبيّن لي أنّ المنهجيات والأساليب التي اتّبعها سلفي كانت لها نتائج إيجابية، لا أرى سبباً لتغيير ما هو موجود. إن لم ترغموني بسلوككم على ذلك، لا أرى ضرورةً في تعديل طريقة حياتكم هنا.

لقد شهدتُ بفرحٍ مبرّرٍ تماماً رحيل الآمرة وزوجها، مع أنّ هذه الأشهر الخمسة من الانتظار القسري قد مرّت بسرعةٍ لم يسبق لها مثيل. هذه الحريّة الزائفة التي يتمتّع بها تقريباً كلّ المحكومين بالأشغال الشاقّة في الجزر، وألعاب القمار، والصيد، والمناقشات، والمعارف الجديدة، والمشاجرات، والمعارك، كلّها عبارة عن أمور مسليّة لا تترك الوقت للمرء لكي يشعر بالملل والضجر.

مع ذلك، لم أسمح لنفسي أن أستسلم لهذا الجوّ بالفعل. كلّما اتّخذتُ صديقاً جديداً، طرحتُ على نفسي هذا السؤال: «تُرى هل سيكون مرشّحاً للمشاركة في عملية فرار؟ هل هو مؤهّلٌ لأن يساعد شخصاً آخرَ في التحضير لفرارٍ إذا لم يشأ أن يغادر بنفسه؟»

لم أعش إلّا من أجل تحقيق هذا الهدف: أن أهرب، أن أهرب من السجن. ليس مهمّاً أن أهرب بمفردي أو برفقة أحد، المهمّ أن أهرب. كانت هذه فكرة ثابتة في ذهني، لم أتحدّث عنها مع أحدٍ، مثلما نصحني بذلك جان كاستيلي، ولكنّها كانت تأسر تفكيري. ودون ضعفٍ أو تهاون، سوف أحقّق هدفي الأسمى؛ ألا وهو الهروب من الاحتجاز.

الدفتر السابع
جزر الخلاص

طوفٌ في قبرٍ

في غضون خمسة أشهر، استطعتُ أن أعرف كل ركن وجانب من الجزر. والآن توصّلتُ إلى خلاصة وهي أنّ البستان القريب من المقبرة والذي كان صديقي كاربونييري يعمل فيه - الآن لم يعد يعمل فيه - هو المكان الأكثر أماناً من أجل إعداد طوفٍ. ولذلك طلبتُ من كاربونييري أن يعود إلى العمل في بستانه، ولكن من دون معاون. فوافق على ذلك، وبفضل ديغا أُعيد إليه البستان.

هذا الصباح، أثناء مروري أمام منزل الآمر الجديد وأنا أحمل كمية كبيرة من أسماك البوري الحمراء المعلّقة بسلكٍ معدني، سمعتُ الفتى المحكوم الذي يعمل في خدمة العائلة يقول لامرأة شابّة: «هذا هو، سيّدتي الآمرة، الذي كان يجلب كلّ يوم سمكاً للسيّدة بارو». وسمعتُ المرأة الشابّة، الحسناء السمراء، وهي تبدو جزائرية، تقول له: «إذاً، أهذا هو بابيون؟» ثم توجّهت إليّ، وقالت لي:

- لقد تناولتُ كركنداً لذيذاً اصطدتَه أنت وقدّمته لي السيّدة بارو. تفضّل واشرب كأساً من النبيذ، وتناول قطعةً من جبن الماعز والذي وصلني حديثاً من فرنسا.

- لا، شكراً لكِ سيّدتي.

- لماذا؟ كنتَ تدخل مع السيّدة بارو إلى بيتها، لمَ لا تدخل معي؟
- لأنّ زوجها هو الذي سمح لي بأن أدخل إلى منزلها.
- بابيون، زوجي آمرٌ في المعسكر، وأنا آمرة في البيت. ادخل ولا تخف.
شعرت بأن هذه الحسناء السمراء العنيدة جدّاً قد تكون مفيدة وقد تكون خطيرة. ودخلتُ معها.
على طاولة المائدة في غرفة الطعام، قدّمت لي طبقاً من الجانبون المدخّن وجبناً.
ودون كلفةً، جلست أمامي وقدّمت لي نبيذاً، ثمّ فنجاناً من القهوة، وأخيراً كأساً من الروم اللذيذ من جامايكا.
قالت لي:
- لقد أُتيح للسيّدة بارو الوقت لكي تحدّثني عنك على الرغم من انشغالها بإعداد الأمتعة لمغادرتها والتحضير لوصولنا. أنا أعلمُ أنّها كانت السيّدة الوحيدة في الجزر التي كانت تحصل على السمك منك. أتمنى أن تمنحني الامتياز نفسه.
- هذا لأنّها كانت مريضة، أمّا أنتِ، فإنّكِ بصحّة جيّدة على ما أرى.
- لا أجيد الكذب، يا بابيون. نعم، أنا بصحّة جيّدة، ولكنني امرأةٌ ساحلية وأعشق السمك. أنا من مدينة وهران الجزائرية. لا يُضايقني هنا سوى شيءٌ واحد، وهو أنني أعلم أيضاً أنّك لا تبيع ما تصطاده من السمك. هذا ما يُكدّرني.
باختصار، تمّ اتّخاذ القرار بأن أجلب لها سمكاً.
كنتُ أُدخّنُ سيجارةً بعد أن أعطيتها ثلاثة كيلوغرامات من سمك البوري الأحمر وستة من الكركند، حينما وصل الآمر.
رآني، فقال لزوجته: «لقد قلتُ لكِ، يا جولييت، بأنّه عدا المحكوم الذي يخدم البيت، لا يجوز لأيّ مبعدٍ أن يدخل إلى البيت».
نهضتُ من مكاني، لكنّها قالت: «ابقَ جالساً. هذا المُبعَد هو الرجل

الذي أوصتني به السيّدة بارو قبل رحيلها. وبالتالي ليس لك أن تقول أيّ شيء، فلن يدخل أحدٌ سواه إلى هنا. من جهة أخرى، سوف يجلب لي سمكاً حينما أحتاج إليه».

قال الآمر:

- لا بأس. ما اسمك؟

كنتُ على وشك أن أنهض من مكاني لأُجيب على سؤاله عندما وضعت جوليت يدها على كتفي وأرغمتني على الجلوس، ثمّ قالت: «هنا منزلي. هنا، لا يعود الآمر آمراً، هذا زوجي، السيّد بروييه».

- شكراً، سيّدي. اسمي بابيون.

- آه! لقد سمعتُ عنك وعن هروبك قبل ثلاثة أعوام من مستشفى سان لوران دو ماروني. كما أنّ أحد الحرّاس الذين ضربتهم ليس سوى ابن أخي وابن أخت هذه السيّدة التي تحميك الآن.

هنا أخذت جوليت تضحك ضحكة مرحة، وقالت: «إذاً، أنتَ الرجل الذي هزمت غاستون؟ هذا لن يغيّر شيئاً في علاقتنا».

قال لي الآمر الذي كان لا يزال واقفاً: «إنّ عدد جرائم القتل والاغتيال التي تُرتَكَب في الجزر كلّ سنة مدهش ولا يُصدّق. إنّ العدد أكبر بكثير مما يُرتكب من جرائم كهذه في البرّ الرئيسي. إلى ماذا تعزو هذا الأمر، يا بابيون؟»

- هنا، سيّدي الآمر، لأنّ الرجال لا يستطيعون الفرار، لذا يكونون شرسين. يعيشون هنا متكدّسين فوق بعضهم لسنوات طويلة، ومن الطبيعي أن تتكوّن أحقادٌ وصداقات غير قابلة للزوال. ومن جهة أخرى، أقلّ من خمسة في المئة من جرائم القتل تُكتَشَف، الأمر الذي يجعل القاتل أو الجاني شبه واثق من أنّه سيفلت من العقاب.

- تفسيرك منطقي. منذ متى تقوم بالصيد وما هو العمل الذي تؤدّيه لكي تنال الحقّ في الصيد؟

- أنا أعمل مفرّغاً لدلاء الفضلات. أُنهي عملي في الساعة السادسة صباحاً، الأمر الذي يسمح لي بالقيام بالصيد.

سألت جولييت:

- كلّ ما يتبقّى من النهار؟

- كلا، أنا مرغمٌ على أن أعود في منتصف الظهيرة إلى المعسكر، ومن ثَمّ أستطيع الخروج ثانيةً في الساعة الثالثة وحتى السادسة مساءً. إنّه أمرٌ مزعج جدّاً، لأنّه حسب حالة المدّ في البحر، أخسر في بعض الأحيان صيدي.

استدارت جولييت نحو زوجها، وقالت:

- سوف تمنحه إذناً خاصّاً، أليس كذلك، يا عزيزي؟ من السادسة صباحاً وحتى الساعة السادسة مساءً، وبذلك سوف يستطيع أن يصطاد حسبما يشاء.

قال الآمر:

- حسناً.

غادرتُ المنزل، مهنّئاً نفسي على التصرّف بهذه الطريقة، لأنّ هذه الساعات الثلاث، من منتصف الظهيرة وحتى الساعة الثالثة ثمينة للغاية. فهي ساعات القيلولة ومعظم المراقبين ينامون خلال هذه الساعات، وبالتالي تخفّ حدّة المراقبة.

استأثرت جولييت عمليّاً بي وبصيدي. وقد راحت إلى حدّ أن ترسل الصبي المحكوم الذي يخدم في منزلها ليرى أين أقوم بالصيد لكي يأخذ ما أصطاده من سمك وكركند. وكان يأتي غالباً ويقول لي: «لقد أرسلتني الآمرة لكي أحضر لها كلّ ما اصطدتَه لأنّ لديها ضيوفٌ على المائدة وتودّ أن تحضّر لهم تشكيلةً من السمك»، أو يأتي ليطلب هذا النوع أو ذاك من السمك والكركند. باختصار، لقد استحوذت على صيدي، بل وتطلب منّي أن أصطاد هذا النوع أو ذاك من السمك وأن أغوص في

البحر لاصطياد الكركند. وقد أزعجني هذا الأمر على نحوٍ جدّي لأنّه كان يؤثّر في وجبة مجموعتنا في المهجع، ولكن من جهة أخرى، كنتُ أحظى بالحماية كشخص. كما أنّها كانت تهتمّ بأمري، فتسألني مثلاً: «بابيون، هل المدّ البحري يحصل في الساعة الواحدة؟» وحينما أجيبها: «نعم، يا سيّدتي»، تدعوني إلى الدخول، وتقول: «تعالَ وتناول الطعام في البيت، وبذلك لن تضطرّ للعودة إلى المعسكر». وكنتُ أتناول الطعام في منزلها، وليس في المطبخ على الإطلاق، وإنّما دائماً في غرفة الطعام. تجلس أمامي وتسكب لي الطعام وتصبّ الشراب. لم تكن صموتة مثل السيّدة بارو، فكانت غالباً تسألني بشيءٍ من المكر عن حياتي الماضية. وكنتُ أتجنّب على الدوام الموضوع الأكثر أهمية بالنسبة إليها وهو حياتي في مونتمارتر، لكي أتحدّث لها عن فتوّتي وطفولتي. في هذه الأثناء، كان الآمر ينام في غرفته.

في صبيحة أحد الأيام، بعد أن اصطدتُ صيداً وفيراً في ساعةٍ مبكّرةٍ جدّاً، وأمسكتُ بقرابة ستين كركنداً، مررتُ بها في البيت في الساعة العاشرة صباحاً. وجدتُها جالسةً في قميص نوم أبيض اللون، وتقف خلفها امرأةٌ شابّة تضفّر شعرها. ألقيتُ عليها تحيّة الصباح، وقدّمتُ لها اثني عشر كركنداً.

قالت لي:

- كلا، أعطنيها كلّها. كم عددها؟

- ستون.

- ممتاز. دعها لي أرجوك. كم يلزمكم، أنت وأصدقائك، من السمك؟

- ثماني سمكات.

- خذها وأعطِ الباقي لخادم المنزل الذي سيبرّدها.

وقعتُ في حيرةٍ من أمري، لا أدري ما أقوله. لم يسبق لها أن خاطبتني دون كلفة، وخاصّةً أمام امرأة أخرى والتي لن تتوانى بالتأكيد عن ترداد

ذلك. كنتُ سأنصرف، وأنا في غاية الحرج، عندما قالت لي: «اهدأ، واجلس واشرب كأساً من شراب الباستيس. لا بدّ أنّك تشعر بالحرّ».

أوقعتني هذه السيّدة المتسلّطة في حيرةٍ وأربكتني كثيراً بحيث جلستُ امتثالاً لطلبها. شربتُ بهدوء وتلذّذ كأساً من شراب الباستيس ودخّنت سيجارةً، وأنا أنظر إلى المرأة الشابّة التي تمشّط شعر الآمرة التي تُمسك في يدها مرآةً، وقالت لها: «إنّ حبيبي العابر وسيم، أليس كذلك، يا سيمون؟ أنتنّ جميعاً تغرنَ مني، أليس صحيحاً؟» ثمّ أخذتا تضحكان. ولشدّة خجلي، لم أعد أعرف أين أدسّ نفسي. فقلتُ ببلاهة: «لحسن الحظّ أنّ حبيبك العابر، كما تقولين، ليس خطيراً وأنّه في وضعه الحالي لا يستطيع أن يحظى بإعجاب أيّ امرأة».

قالت المرأة الجزائرية:

– لا تقل لي بأنّك لستَ معجباً بي، وأنا أفعل بكَ ما أشاء. هناك سببٌ وجيه لهذا، أليس كذلك، يا سيمون؟

قالت سيمون:

– لا أعرف السبب، ولكن ما هو مؤكّد أنّك متوحّش مع الجميع إلّا مع الآمرة، يا بابيون. إلى درجة أنّك كنت في الأسبوع الماضي تحمل أكثر من خمسة عشر كيلوغراماً من السمك، حسب ما روت لي زوجة رئيس الحرس، وأنّك لم تقبل بأن تبيعها سمكتين بائستين كانت ترغب في الحصول عليهما أشدّ الرغبة، لأنّه لم يكن هناك لحمٌ في محلّ الجزارة.

– آه! هذه لم تخبريني بها من قبل، يا سيمون!

واصلت سيمون:

– ألا تدرين ما الذي قاله للسيّدة كاركيريه في ذلك اليوم؟ رأته يمرُّ ومعه بعض الكركند وسمكة (مواريه) ضخمة، فقالت له: «بعني سمكة (مواريه) هذه، أو نصفها على الأقلّ، يا بابيون، فأنت تعرف أننا نحن البريتانيون نجيد إعدادها بطريقة ممتازة»، فقال لها: «أليسَ هناك سوى

البريتانيين من يقدّرها حقّ قدرها، يا سيّدتي؟ الكثير من الناس، بما فيهم الأرديشيون، عرفوا منذ عصر الرومان بأنّه طبقٌ مميّز». وواصل طريقه دون أن يبيعها شيئاً.

وضحكتا ضحكةً مجلجلة.

عدتُ إلى المعسكر حانقاً وفي المساء، رويتُ لزملائي في الخصّ كلّ الحكاية.

قال كاربونييري:

– هذه مسألة في غاية الجدّية. هذه المرأة تعرّضك للخطر. قلّل من مرّات ذهابك إلى هناك قدر المستطاع وفقط حينما تعلم أنّ الآمر في البيت.

وكان للجميع هذا الرأي نفسه، وقرّرتُ أن أعمل به.

اكتشفتُ نجّاراً من بلدة فالانس الفرنسية. وهذه البلدة هي بلدتي تقريباً. وكان قد قتل حارساً تابعاً لمديرية المياه والغابات. وهو مقامرٌ مدمن، تراه مديناً على الدوام، إذ يقضي النهار في صناعة أدوات ولوازم خشبية، وفي الليل يخسر ما كسبه في النهار. وغالباً ما يضطرّ لأن يقدّم بعض القطع التي صنعها في النهار للتعويض على من أقرضه المال ليلعب القمار. ويتمّ حينها ابتزازه فيدفعون له مئة وخمسين أو مئتي فرنكٍ في قطعة يساوي ثمنها الحقيقي ثلاثمئة فرنكٍ. فقررتُ أن أغير عليه.

قابلته في أحد الأيام عند المغسلة وقلتُ له: «أريدُ أن أتكلّم معك هذه الليلة. سأنتظرك في المراحيض، وسأُرسل لك إشارة».

تقابلنا في الليل لوحدنا لكي نتناقش بهدوء. قلتُ له:

– بورسيه! هل تعلم أننا من البلد نفسه؟

– لا! كيف ذلك؟

– ألستَ من فالانس؟

– بلى.

- أنا من أرديش، إذاً نحن أبناء البلد نفسه.

- ومن ثَمّ ما معنى هذا؟

- هذا يعني أنني لا أُريد أن يتمّ استغلالك حينما تكون مديناً بالمال وأن يدفعوا لك نصف قيمة قطعة تصنعها. أعطني القطعة وسوف أدفع لك ثمنها الحقيقي. هذا كلّ ما في الأمر.

قال بورسيه:

- شكراً لك.

لم أكفّ عن التدخّل من أجل مساعدته، وهو لم يكفّ عن المجادلة مع أولئك الذين يدين لهم. وسارت الأمور على ما يُرام إلى أن جاء اليوم الذي بات فيه مديناً للصّ الكورسيكي فيسيولي وهو أحد أصدقائي المخلصين. علمتُ بالأمر من خلال بورسيه الذي جاء يقول لي إنّ فيسيولي قد هدّده إن لم يدفع له السبعمئة فرنكٍ التي يدينُ بها له، وأنّ لديه الآن طاولة مكتب صغيرة يعمل على صناعتها، ولكنّه لا يعلم متى ستكون جاهزة لأنّه يعمل عليها في الخفاء. وفي الواقع، لم يكن من المسموح صنع قطع من الأثاث كبيرة جدّاً بسبب كميّة الخشب التي تلزمها. فأجبتُه بأنني سوف أرى ما يمكنني فعله من أجله. وبالاتفاق مع فيسيولي، أخرجنا مسرحية كوميدية صغيرة.

اتّفقنا على أنّه ينبغي ممارسة الضغط على بورسيه، بل وتهديده بشدّة. وسوف أصل بعد ذلك كمنقذٍ له. وهو ما حدث بالفعل. بعد هذه القضيّة المدبّرة مسبقاً، لم يعد بورسيه يرى الأمور إلا من خلالي وبات يثق بي ثقة مطلقة. وللمرّة الأولى في حياته كمحكومٍ، استطاع أن يتنفّس الصعداء. والآن أصبحتُ عاقداً العزم على أن أبدأ المغامرة.

ذات مساء، قلتُ له: «لك مني ألفا فرنكٍ إذا ما فعلت ما أطلبه منك: أن تصنع لي طوفاً يتّسع لرجلين من قطعِ الخشب».

- اسمع يا بابيون، أنا لا أفعل هذا لأحدٍ، ولكن من أجلك أنا مستعدٌّ

لأن أعرّض نفسي لخطر الحبس الانفرادي لعامين إذا ما تمّ القبض عليّ متلبّساً. ليس هناك سوى شيءٍ واحد: لا أستطيع أن أُخرِج أخشاب كبيرة بعض الشيء من الورشة.

- لديّ منْ يمكنني الاعتماد عليهم.

- مَنْ هم؟

- العديلان صاحبا العربة، ناريك وكينيه. كيف تخطّط لصناعة الطوف؟

- يجب أوّلاً أن نضع تصميماً مناسباً، ومن ثَمّ أن نجهّز القطع، قطعةً بقطعة، مع فتحات تعشيق لكي يتمّ تركيب القطع على بعضها تماماً. الأمر الصعب هو العثور على أخشاب تطفو على سطح المياه جيّداً، لأنّ الأخشاب الموجودة في الجزر كلّها من النوع القاسي الذي لا يطفو على السطح.

- متى سترد لي الجواب؟

- خلال ثلاثة أيام.

- هل تُريد الفرار معي؟

- كلا.

- لماذا؟

- أخاف من أسماك القرش، وأخشى أن أغرق.

- هل تعدني بأن تساعدني إلى النهاية؟

- أقسم لك على ذلك بأولادي. المشكلة الوحيدة هي أنّ هذا سيستغرق وقتاً طويلاً.

- اسمعني جيّداً: منذ الآن سأعدّ لك خطّة حماية في حالة تعرّضك لأيّ حادث. سوف أنسخ بنفسي مخطّط تصميم الطوف على ورقةِ دفتر. وسوف أكتب تحته: «يا بورسيه، إذا كنتَ لا تُريدُ أن تُقتَلَ، اصنع لي هذا الطوف المرسوم أعلاه». وفيما بعد، سوف أُعطيك كتابياً الأوامر لتنفيذ كلّ قطعة. وكلّما تنتهي من قطعة، سوف تضعها في المكان الذي سوف أُحدّده لك. وسوف يتمّ أخذه من هناك. لا تحاول أن تعرف من قبل مَنْ وكيف

(وبدا أنّ هذه الفكرة قد أراحته). وبهذه الطريقة لن تتعرّض للتعذيب إذا ما تمّ ضبطك ولن تُجازف سوى بحكمٍ مخفّفٍ من حوالي ستة أشهر.

– وماذا لو تمّ ضبطكَ أنت؟

– حينذاك، سيحدث العكس. سوف أعترف بأنني أنا منْ كتبتُ الأوراق. وعليك بالطبع أن تحتفظ بهذه الأوامر المكتوبة. هل تعدني بذلك؟

– نعم.

– ألا تخاف؟

– كلا، لم أعد أشعر بالفزع، ويُسعدني أن أساعدك.

لم أقل أيّ شيء بعد لأحدٍ، وانتظرتُ أوّلاً جواب بورسيه. لم يمضِ سوى أسبوعٍ واحد ولكنّه طال كما لو أنّه لا ينتهي، حتى استطعتُ أن أتكلّم معه على انفراد، في المكتبة. لم يكن هناك أحدٌ سوانا. كان ذلك في صباح أحد أيام الأحد. تحت المغسلة في الباحة، كانت اللعبة على أشدّها، بمشاركة قرابة ثمانين مقامراً والكثير من الفضوليين.

فجأةً، أدخل البهجة إلى قلبي حينما قال:

– كان أصعب ما واجهني هو التأكّد من الحصول على خشبٍ خفيفٍ وجافّ بكمية كافية. وقد عالجتُ هذه المشكلة من خلال تصميم نوعٍ من الطوق الخشبي المكوّن من طبقتين رقيقتين من الخشب، والذي سيتمّ حشوه بجوز الهند الجاف مع غلافه الليفي بالطبع. لن يكون هناك ما هو أكثر خفّة من هذه الألياف ولن تستطيع المياه التسرّب إليها. وحينما يصبح الطوف جاهزاً، سيكون عليك أنت أن تحصل على ما يكفي من جوز الهند لوضعه داخل الطوق المكوّن من الطبقتين الخشبيتين. إذاً، سأبدأ بصنع القطعة الأولى غداً. وسوف يستغرق تجهيزها قرابة ثلاثة أيام من وقتي. وبدءاً من يوم الخميس، سوف يستطيع أحد العديلين أن يأخذها، في أوّل انفراجٍ للمشكلة. وسوف لن أبدأ بقطعةٍ أخرى أبداً قبل أن تُخرَجَ القطعة الأولى من الورشة. هذا هو التصميم الذي أعددتُه، انسخه وأرسل إليّ الرسالة التي وعدتني بها. هل تحدّثت مع رجلي العربة؟

- لا، ليس بعد. كنتُ أنتظر ردّك.

- حسناً، ها قد حصلت على ردّ، وهو إيجابي.

- شكراً لك يا بورسيه، لا أعرف كيف أشكرك. تفضّل، هذه خمسمئة فرنكٍ.

فنظر إليّ محدّقاً في وجهي جيّداً، ثمّ قال لي:

- كلا، احتفظ بنقودك. إذا ما وصلت إلى البر الرئيسي، سوف تحتاج إليها لكي ترتّب عملية هروبٍ أخرى من هناك. بدءاً من اليوم، لن ألعب القمار إلى أن تغادر. من خلال بعض المشغولات، سوف أكسب ما يكفيني لشراء سجائري وشرائح اللحم.

- لماذا ترفض أن تقبض نقوداً؟

- لأنني لا أفعل هذا حتى مقابل عشرة آلاف فرنكٍ. أنا أخاطر مخاطرة جسيمة، حتى مع الاحتياطات التي اتّخذناها. يمكننا أن نفعل ذلك فقط مجّاناً. أنت ساعدتني، وكنتَ الوحيد الذي مدّ لي يده ووقف إلى جانبي. أنا سعيدٌ، حتى وإن كنتُ خائفاً، بأنني أساعدك في أن تستعيد حريّتك.

وأنا أنسخ المخطّط على ورقة دفترٍ، شعرتُ بالخجل أمام كلّ هذا النبل الساذج. لم يفكّر حتى مجرّد تفكير في أنّ مبادراتي حياله كانت محسوبة ومدبّرة، ونابعة عن مصلحة. ولكي أخفّف من إحساسي بالخزي، اضطررتُ لأن أقول في نفسي بأنّه عليّ أن أفرّ من المعسكر بأيّ ثمنٍ كان، حتى وإن استدعى الأمر أن يكون ثمن ذلك مواقف صعبة وليست مستحبّة دائماً. في الليل، تحدّثتُ إلى ناريك، الذي يُطلَقُ عليه لقب بون بوي[1]، والذي سيكون عليه بعد ذلك أن يُطلع عديله على الأمر. قال لي دون تردّد:

- اعتمد عليّ في إخراج القِطَع من الورشة. ولكن فقط لا تكن مستعجلاً، لأننا لن نستطيع أخذها إلا عندما نخرج مع مواد كثيرة للقيام

1- الوجه الحسن - المترجم.

بأعمال بناءٍ في الجزيرة، فنُخرج القطع معها. على أيّ حال، أعدكَ بأننا لن نضيّع فرصةً.

حسناً. بقي عليّ أن أتكلّم مع ماتيو كاربونييري لأنّه هو منْ أُريدُ الهروب معه، وهو متّفقٌ معي تماماً. ذهبتُ إليه وقلتُ له:

- ماتيو، لقد وجدتُ من يصنع لي الطوف، ووجدتُ من يخرج لي قطع الطوف من المشغل. والآن حان دورك لكي تجد مكاناً في بستانك لإخفاء الطوف.

- لا، إنّه من الخطر إخفاء الطوف داخل مسكبة خضار، لأنّه في الليل، هناك حرّاسٌ يأتون لسرقة الخضار وإذا ما ساروا فوقها واكتشفوا وجود الحفرة، سوف ينكشف أمرنا ويتمّ ضبطنا. سوف أُعدّ مخبأً في أحد الجدران الساندة للتربة من خلال اقتلاع حجرة كبيرة منه وحفر ما يشبه كهفاً صغيراً خلفه. وبهذه الطريقة، حينما أتلقّى قطعة من الطوف، لن يكون عليّ سوى رفع الحجرة ومن ثَمّ إعادتها إلى مكانها بعد إخفاء الخشب في الكهف الصغير.

- هل علينا أن نحضر قطع الخشب مباشرةً إلى بستانك؟

- كلا، سيكون في هذا خطرٌ كبير. ليس للعديلين ذوي العربة ما يبرّر وجودهما في بستاني، ولذلك من الأفضل أن نتّفق على أن يضعا القطعة في كلّ مرّة في مكانٍ مختلف، ولكن ليس بعيداً جدّاً عن بستاني.

- اتّفقنا.

بدا أن كلّ شيءٍ يسير بشكلٍ سليم. بقي عليّ أن أتدبّر أمر جوز الهند، وسوف أرى كيف يمكن لي أنْ أُعدّ كمية كافية منه دون أن ألفتَ الأنظار وأُثير الشكوك.

وهنا بدأتُ أشعر بأنني أعود إلى الحياة من جديد. لم يعد لي سوى أن أتكلّم في الموضوع مع غالغاني وغرانديه، إذ ليس لي الحق في أن أسكت على ذلك، لأنّهما قد يُتّهَمان بالتواطؤ. وفي الحالة الطبيعية، سينبغي عليّ أن أنفصل عنهما رسمياً لكي أعيش بمفردي. حينما أخبرتهما بأنني سأعدّ

العدّة لعملية فرارٍ وأنه عليّ أن أنفصل عنهما، قاما بتوبيخي ورفضا رفضاً قاطعاً: «غادر بأسرع ما يمكن. أمّا نحن، فستدبّر أمرنا دائماً. وإلى ذلك الحين، ابق معنا، لقد سبق وشهدنا عمليات فرار أخرى».

ها قد مرّ أكثر من شهرٍ وخطّة الفرار تسير كما هو مرسومٌ لها. وقد تلقّيتُ حتى الآن سبع قطع من الطوف، بينها قطعتان كبيرتان. ذهبتُ لرؤية الجدار الساند للتربة الذي حفر فيه ماتيو المخبأ. لا يظهر أنّ الحجرة قد حُرِّكَت من مكانها، لأنّ ماتيو حرِص على أن يُخفي حوافها بالطحالب. وجدتُ المخبأ ممتازاً، ولكنّ الكهف بدا لي صغيراً جدّاً لاحتواء كلّ قطع الطوف. ولكن حتى هذه اللحظة، لا يزال هناك متّسع فيها.

منحني واقع أنني أعدّ العدّة للفرار من المعسكر روحاً معنوية رائعة. وأصبحتُ أتناول الطعام بشهية لم يسبق لها مثيل، والصيد يبقيني في حالة بدنية ممتازة. وعلاوة على ذلك، أمارس كلّ صباح لأكثر من ساعتين تمارين بدنية بين الصخور، تركّز على نحوٍ خاصّ على تقوية عضلات ساقيّ، لأنّ الصيد يعمل على تقوية ذراعيّ بالأساس. وقد وجدتُ طريقة لتمرين الساقين: كنتُ أتقدّم أكثر في المياه وأذهب أبعد ممّا كنتُ أفعل من قبل، وكانت أمواج البحر تُقبل وتضرب فخذّي. ولكي أتلقّى تلك الأمواج وأحافظ على توازني، أشدّ على عضلاتي. وكانت النتائج مبهرة.

ظلّت جولييت الآمرة لطيفة وودودة جدّاً معي ولكنّها لاحظت أنني لا أدخل إلى بيتها إلّا حينما يكون زوجها موجوداً فيه. وقد صارحتني بذلك، ولكي تُريحني، شرحت لي بأنّها كانت تمزح معي، في اليوم الذي كانت المرأة الشابّة تسرّح شعرها. ومع ذلك، ظلّت المرأة الشابة، التي تعمل مزيّنة لدى الآمرة، تترصّدني في غالب الأحيان في طريق عودتي من الصيد وتُسمعني على الدوام بعض الكلمات الطيّبة وهي تسأل عن صحّتي ومعنوياتي. إذاً، كانت الأمور كلّها تسير نحو الأفضل. لا يضيّع بورسيه فرصةً لصناعة قطعة جديدة من الطوف. وها قد مرّ شهران ونصف على بداية الإعداد.

امتلأ المخبأ، كما توقّعت، ولا ينقصنا سوى قطعتين خشبيتين من الطوف وهما الأطول؛ يبلغ طول إحداهما مترين؛ وتبلغ الأخرى متراً ونصف. ولا يمكن إدخال هاتين القطعتين إلى الكهف الصغير.

حينما نظرتُ نحو المقبرة، لاحظتُ أنّ هناك قبراً حديثاً، وهو قبر زوجة أحد المراقبين، ماتت في الأسبوع المنصرم، وقد وُضِعَتْ عليه باقة وردٍ بسيطة. كان حارس المقبرة محكوماً بالأشغال الشاقّة، عجوزاً نصف أعمى، يُطلق عليه لقب بابا. ويُمضي هذا الحارس كلّ النهار جالساً في ظلّ شجرة جوز الهند في الزاوية المعاكسة للقبر الحديث، ومن مكانه هذا لا يستطيع لا أن يرى القبر ولا أن يرى شخصاً يقترب منه. فنويتُ أن أستخدم هذا القبر لتركيب الطوف وأن أضع في ما يشبه القالب الذي صنعه النجّار أكبر كمية ممكنة من جوز الهند. ولكنّه يتّسع لقرابة ثلاثين إلى أربع وثلاثين حبّةً فقط، وهو أقلّ بكثير ممّا كان متوقّعاً. وقد وزّعتُ أكثر من خمسين حبّة في أماكن مختلفة. ففي باحة منزل جوليت وحدها توجد اثنتا عشرة حبّة منها. واعتقد خادم البيت أنني أجمع جوز الهند وأودعه هناك في انتظار اليوم الذي سأصنع فيه زيتاً منه.

حينما علمتُ أنّ زوج المتوفاة قد غادر إلى البر الرئيسي، اتّخذتُ القرار بأن أُفرغ جزءاً من تراب القبر حتى الوصول إلى النعش.

جلس ماتيو كاربونييري على جداره ليقوم بدور المراقب. وضع على رأسه منديلاً أبيض اللون مربوطاً في أربع عقدٍ على زواياه، ووضع بجانبه منديلاً أحمر اللون، فيه هو الآخر أربع عقد في زواياه. واتّفقنا على أنّه طالما ليس هناك خطرٌ يهدّدنا يُبقي على المنديل الأبيض، وفي حال ظهر أحدٌ في الأنحاء، أيّاً كان الشخص، يضع على رأسه المنديل الأحمر علامة على الخطر.

هذا العمل المحفوف بمخاطر كبيرة لم يستغرق من وقتي سوى فترة ما بعد الظهيرة وليلةً واحدة. ما كان عليّ أنّ أرفع التراب حتى النعش، لأنّني اضطررتُ لأن أوسّع الحفرة لكي تكون بعرض الطوف البالغ متراً

وعشرين سنتيمتراً، مع إضافة بضعة سنتيمترات لتسهيل الحركة. بدت لي الساعات طويلة وكأنّها لا تنتهي، وظهرت الطاقية الحمراء على رأس ماتيو عدّة مرّات. وأخيراً، أنهيتُ العمل بحلول الصباح. قمتُ بتغطية الحفرة بأوراق أشجار جوز الهند المحزّمة، مشكّلة ما يشبه أرضية قويّة بما فيه الكفاية، ووضعتُ فوقها حافّة صغيرة من التراب، بحيث يكاد لا يظهر أثرُ أيّ شيءٍ مثيرٍ للشكوك. شارفتُ على حافة الانهيار العصبي.

استغرق هذا الإعداد للهروب ثلاثة أشهر. أخرجنا جميع القطع الخشبية، المربوطة والمرقّمة، من المخبأ. وضعناها فوق نعش المرأة المسكينة وأخفيناها جيّداً بالتراب الذي يغطي الحصائر المنسوجة من ورق أشجار جوز الهند. وضعنا في الكهف المحفور في الجدار ثلاثة أكياس من الطحين، وحبلاً بطول مترين للشراع، وقارورة مليئة بأعواد الثقاب ومحفّات الاشتعال، ودزينة من عُلب الحديد، وهذا كلّ شيء.

يزداد بورسيه حماسةً يوماً بعد آخر كما لو أنّه هو من سيغادر بدلاً عنّي. وندم ناريك لأنّه لم يُوافق على طلبي منذ البداية، فلو وافق منذ البداية لكنّا أعددنا طوفاً يتّسع لثلاثة أشخاص بدل شخصين.

إنّه موسم الأمطار، إذ يهطل المطر كلّ يوم، الأمر الذي يساعدني في زياراتي إلى الكهف المحفور حيثُ أنجزتُ تقريباً تركيب أجزاء الطوف، ولم يبق سوى جنبي الهيكل. نقلتُ جوز الهند تدريجياً إلى مقربةٍ من بستان صديقي، بحيث يمكن نقله بسهولة ودون مخاطر إلى الحظيرة المفتوحة للجواميس. وطيلة هذه الفترة، لم يسألني أصدقائي إلى أين وصلتُ في خطواتي. كانوا ببساطة يقولون لي من وقتٍ إلى آخر:

– هل تسير الأمور على ما يُرام؟

فأُجيب:

– نعم، كلّ شيء يسير على ما يُرام.

– ألا تعتقد أن الوقت قد طال بعض الشيء؟

- لا يُمكن أن نسرّع الأمور أكثر من دون التعرّض لمخاطر جسيمة.

كان هذا كلّ ما جرى من حديثٍ بيننا. ولأنني كنتُ أنقل حبّات جوز الهند المودعة في باحة منزل جولييت، رأت السيّدة ذلك وأصابتني بخوفٍ رهيب. سألتني:

- قل لي إذاً يا بابيون، هل ستصنع زيت جوز الهند؟ لماذا لا تصنعه هنا في الباحة؟ لديك مطرقة ضخمة لفتحها وكنتُ سأعيرك قدراً كبيراً لتضع فيه اللب.

قلتُ لها:

- أفضّل أن أصنعه في المعسكر.

- أمركَ غريب، في المعسكر لن يكون هذا هيّناً.

ثمّ بعد برهةٍ من التفكير، قالت:

- أتريد أن أقول لك شيئاً؟ لا أصدّق أنّك، أنت بالذات، ستصنع زيت جوز الهند.

تجمّد الدم في عروقي. ثمّ أردفت:

- أوّلاً، لماذا ستصنع زيت جوز الهند، طالما أنّك تحصل منّي على كلّ زيت الزيتون الذي ترغب فيه؟ أنت تأخذ جوز الهند هذا لغرضٍ آخر، أليس كذلك؟

تصبّبتُ عرقاً بقطراتٍ كبيرة، وأنا أنتظر منذ تلك اللحظة أن تنطق كلمة الفرار. انقطعت أنفاسي، وقلتُ لها:

- سيّدتي، هذا سرّ، ولكنني أراكِ في غاية الاهتمام والفضول بحيث أنّك ستنسفين المفاجأة التي أردتُ أنا أفاجئكِ بها. ولكنني لن أقول لكِ سوى أنّ حبّات جوز الهندِ الضخمة هذه قد اختيرَت لكي يُصنع من خشبها، بعد تفريغه، شيءٌ جميلٌ جدّاً أنوي أن أقدّمه هديّةً لكِ. هذه هي الحقيقة.

وقد نجحتُ في حيلتي، لأنّها أجابت:

- بابيون، لا تتعب نفسك من أجلي، وأُنهيكَ على نحوٍ خاصّ عن إنفاقك نقودك لكي تصنع لي شيئاً استثنائياً. أشكرك على ذلك بصدق، ولكن لا تفعل ذلك، أنا أطلب منك هذا الأمر.

- حسناً، سوف أرى.

أوف! وفجأةً طلبتُ منها كأساً من شراب باستيس، الأمر الذي لم يسبق لي أن فعلته. ولحسن الحظ، لم تلاحظ الخوف والارتباك اللذين سيطرا عليّ. وقف الربّ الكريم معي.

ظلّت الأمطار تهطل كلّ يوم، وخاصّة بعد الظهيرة وفي الليل. خشيتُ أن تتسرّب المياه عبر الطبقة الرقيقة من التراب وتكشف عن الحصائر المنسوجة من أوراق أشجار جوز الهند.

كان ماتيو يحرص باستمرار على أن يهيل التراب عليها كلّما انجرف عنها، أمّا الطبقة السفلية، فلا بدّ وأنّها قد غرقت بالمياه. سحبنا الحصائر بمساعدة ماتيو: كاد الماء أن يغطّي النعش، وكانت اللحظة حاسمة. بالقرب من القبر، وجدنا سرداب قبر طفلين متوفين منذ زمنٍ طويل. ذات يوم، رفعنا البلاطة ودخلتُ إلى السرداب مع عتلة قصيرة وانهلتُ على الإسمنت بالطبقة الأدنى من طرف القبر الذي يضمّ الطوف. بعد أن انكسر الإسمنت، بالكاد أدخلتُ العتلة في الطبقة الترابية، حتى تدفّقت المياه بغزارة وسال من القبر الآخر ودخل في السرداب. خرجتُ من السرداب حينما وصلت المياه إلى مستوى ركبتي. أعدنا البلاطة إلى مكانها وألصقناها بالملاط الأبيض الذي كان ناريك قد زوّدني به. هذه العملية أنقصت إلى النصف كميّة المياه المترسّبة في القبر - المخبأ. في المساء، قال لي كاربونييري:

- لن ننتهي أبداً من مشكلات هذا الهروب.

- نكاد ننتهي منها، يا ماتيو.

- نكاد. أتمنى ذلك.

لقد كنّا بالفعل على أحرّ من الجمر. في الصباح التالي، نزلنا إلى

الرصيف البحري. طلبتُ من شابار أن يشتري لي كيلوغرامين من السمك، وأخبرته بأنني سأمرّ لأخذها عند الظهيرة. واتّفقنا على ذلك. صعدتُ إلى بستان كاربونييري. وحينما اقتربت، رأيتُ ثلاث قبّعات بيضاء. فتساءلت عن سبب وجود ثلاثة حرّاس معاً في البستان. تُرى هل جاؤوا لتفتيش المكان؟ إنّه أمرٌ غير مألوف، إذ لم يسبق لي أبداً أن رأيتُ ثلاثة مراقبين معاً في بستان كاربونييري. انتظرتُ أكثر من ساعة ولم أعد أقوى على الصبر فقرّرت أن أتقدّم نحوهم لأرى ما الذي يجري. تقدّمتُ مباشرةً عبر الطريق المؤدّي إلى البستان. رآني الحرّاس أقبل نحوهم. كنتُ متلهّفاً، على بعد قرابةَ عشرين متراً منهم، عندما وضع ماتيو منديله الأبيض على رأسه، فتنفّست الصعداء أخيراً وحظيتُ بالوقت لكي أستعيد هدوئي وحالتي الطبيعية قبل أن أصل إلى مجموعتهم.

– صباح الخير أيّها السادة الحرّاس. صباح الخير يا ماتيو. لقد جئتُ لكي آخذ ثمرة البابايا التي وعدتني بها.

– أنا آسف يا بابيون، ولكنّها سُرِقَت منّي هذا الصباح عندما ذهبتُ لأجلب الأعواد لأثبّت بها الفاصولياء المتسلقة. ولكن في غضون أربعة أو خمسة أيام، ستكون هناك ثمارٌ ناضجة منها، فهي قد اصفرّت بعض الشيء ولكنّها لم تنضج تماماً بعد. إذا أيّها السادة الحرّاس، ألا تُريدون بعض الخسّ والطماطم والفجل لنسائكم؟

قال أحدهم:

– بستانك منظّم بشكلٍ جيّد يا كاربونييري، وأنا أهنئك على هذا.

قبلوا بالطماطم والخس والفجل، وانصرفوا. غادرتُ ظاهرياً قبلهم وأخذتُ معي خسّتين.

مررتُ بالمقبرة، ووجدتُ أنّ المطر قد جرف التربة عن القبر الذي بات نصفه مكشوفاً، بحيثُ لمحتُ الحصائر من بعد عشر خطوات. وسيكون الربّ الرحيم معنا بالفعل إن لم يكن أمرنا قد انكشف. كانت الرياح تهبّ كلّ ليلة وتصفّر مثل إبليسٍ، وهي تكنّس هضبة الجزيرة بزئيرٍ

غاضب، مصحوبة غالباً بالمطر. تمنّيتُ لو أنّ هذا يستمرّ، لأنّه الطقس المثالي للرحيل، ولكن ليس للقبر.

وصلت القطعة الخشبية الأكبر حجماً، التي يبلغ طولها مترين، إلى المسكن بسلام، وانضمت إلى القطع الأخرى للطوف، بل وقمتُ بتركيبها، وقد دخلت، دون جهدٍ يُذكر، في فتحات التعشيق. وصل بورسيه إلى المعسكر جرياً ليعرف إن كنتُ قد تلقيتُ هذه القطعة التي لها أهمية حيوية ورئيسية، ولكنها مزعجة بشكلٍ غريب. كان في غاية السعادة بمعرفته أنّ كلّ شيءٍ يسير سيراً حسناً. كما لو أنّه كان يشكّ في أن يحدث ذلك. سألته:

- هل تساورك شكوك؟ هل تعتقد أنّ أحداً ما على علمٍ بما نخطّط له؟ هل أفشيت سرّاً؟ أجبني.

- لا، لا، على الإطلاق.

- ومع ذلك يبدو لي أنّ شيئاً ما يُقلقك. تكلّم.

- شعورٌ مزعج ناجم عن نظرة سيئة بطريقةٍ غريبة لشخصٍ يُدعى بيبي سيليه. لدي إحساسٌ بأنّه رأى ناريك يأخذ القطعة الخشبية من تحت طاولة العمل ويضعها في برميل الكلس، ومن ثَمّ ينقلها. لقد تابعت عيناه ناريك حتى باب الورشة. سيقوم العديلان بطلاء أحد المباني بالكلس. هذا هو سبب قلقي.

سألتُ غرانديه:

- بيبير سيليه هذا في مهجعنا، وهو بالتالي ليس بواشٍ، أليس كذلك؟

قال لي:

- هذا الرجل مسرّحٌ من وظيفته في وزارة الأشغال العامّة. ومن هنا ترى أنّه كان مقاتلاً في الكتيبة الأفريقية، وأحد أولئك الجنود العنيدين الطائشين والذي ذاق طعم كلّ السجون العسكرية في المغرب والجزائر، محاربٌ وخطير في العراك بالسكين، ولوطيٌّ مولع بالفتيان ومُقامر. لم

يكن البتّة مدنياً. خلاصة القول، هو لا ينفع في أيّ شيء وخطير للغاية. سجن الأشغال الشاقّة هو كلّ حياته. وإذا كانت لديك شكوك كبيرة بشأنه، استبق الأمور، واقتله الليلة، وبذلك لن يحظى بالفرصة للوشاية بكَ إذا كانت لديه النيّة في ذلك.

- لا شيء يُثبت بأنّه واشٍ.

قال غالغاني:

- هذا صحيح، ولكن لا شيء يُثبتُ أيضاً بأنّه فتى شجاع. أنت تعلم أنّ هذا النوع من المحكومين بالأشغال الشاقّة لا يحبّون محاولات الهروب. فالهروب يُثير الاضطراب في حياتهم البسيطة والهادئة والمنظّمة في السجن. بالنسبة إلى أيّ أمرٍ آخر، لا يكونون وشاة، ولكن بالنسبة إلى عملية هروب، من يدري؟

استشرتُ ماتيو كاربونيري، فكان مع الرأي القائل بضرورة قتله هذه الليلة، وأراد أن يفعل ذلك بنفسه. وقد ارتكبتُ خطأً منعه عن ذلك. ينفرني أن أقتل أحداً أو أدعه يُقتَل لمجرّد الاشتباه. وماذا لو كان ما رواه بورسيه مجرّد توهّم؟ ربّما جعله الخوف يرى الأشياء بطريقة مقلوبة.

سألتُ ناريك:

- بون بوي، هل لاحظت شيئاً من ناحية بيبير سيليه؟

- من جهتي، كلا لم أُلاحظ عليه شيئاً. لقد أخرجتُ البرميل على كتفي لكي لا يستطيع حمّال المفاتيح أن يرى ما بداخله. كان عليّ، حسب خطّة متّفق عليها، أن أنتصب أمام حمّال المفاتيح تماماً، دون أن أُنزل البرميل، منتظراً وصول عديلي. وكان ذلك لكي يرى العربي بأنني لم أكن مستعجلاً على الخروج وبذلك أمنحه الثقة لكي لا يقوم بتفتيش البرميل. ولكن بعد ذلك، أخبرني عديلي بأنّه يظنّ أنّ بيبير سيليه كان يُراقبنا مراقبة دقيقة.

- وما رأيكَ أنت؟

- رأيي هو أنّه بسبب أهمية هذه القطعة التي تُشير من النظرة الأولى

إلى أنّها تُستخدَم لطوف، كان عديلي متوتّراً وخائفاً أيضاً. وأعتقد أنّه قد توهّم بأنّه قد رأى ولم ير بالفعل.

- هذا رأيي أيضاً. دعنا لا نعود إلى الحديث في هذا الأمر. بالنسبةِ إلى القطعة الأخيرة، تأكّدوا من مكان تواجد بيير سيليه قبل أن تتصرّفوا بشأنها. واحذروا منه كما تحذرون من الحرّاس.

أمضيتُ الليلة كلّها وأنا ألعب لعبة قمارٍ جهنّمية على الطريقة المرسيلية. وربحتُ منها سبعة آلاف فرنكٍ. وكلّما لعبتُ متهافتاً أكثر، ربحتُ أكثر. وفي الساعة الرابعة صباحاً، خرجتُ لأقوم بسخرتي المزعومة. تركتُ شريكي المارتينيكي يقوم بالعمل. توقّف المطر عن الهطول، وذهبتُ وسط الظلام الذي كان لا يزال دامساً إلى المقبرة. رتّبتُ التراب بقدمي لأنني لم أستطع العثور على المجرفة، ولكن تمّ الأمر على نحوٍ معقول باستخدام حذائي. في الساعة السابعة حينما نزلتُ إلى الصيد، كانت الشمس قد أشرقت على نحوٍ مذهل. توجهتُ نحو الرأس الجنوبي لجزيرة رويال حيثُ نويتُ أن أضع الطوف في الماء. كانت أمواج البحر عالية وقاسية. لا أعرف حقيقةً لماذا، ولكن سيطر عليّ شعورٌ بأنّه لن يكون من السهل الإقلاع من شواطئ الجزيرة من دون أن ترمينا موجة عاتية على الصخور. بدأتُ بالصيد وفي الحال اصطدتُ كميّة من سمك البوري الأحمر الصخري. وفي وقتٍ قصيرٍ جدّاً، اصطدتُ أكثر من خمسة كيلوغرامات. توقّفتُ بعد أن نظّفتها بماء البحر.

كنتُ في غاية القلق والتعب بسبب لعبة القمار المجنونة التي لعبتها في الليلة المنصرمة. جلستُ في الظلّ وارتحتُ وهدأت قليلاً وأنا أقول في نفسي إنّ هذا التوتّر الذي أعيشُ فيه منذ أكثر من ثلاثة أشهر قد شارف على نهايته، وحينما فكّرتُ في حالة سيليه، استخلصتُ من جديد بأنّه ليس لديّ الحقّ في قتله.

ذهبتُ لأقابل ماتيو. ومن جدار بستانه، يُرى القبر جيّداً. كان هناك ترابٌ

في الممرّ. عند منتصف الظهيرة، سوف يذهب كاربونييري لتكنيسه. مررتُ على جولييت وأعطيتها نصف كمية السمك الذي اصطدته. قالت لي:

- بابيون، لقد حلمتُ أحلاماً مزعجة عنك، فقد رأيتكَ غارقاً في الدم، ومن ثَمّ يتمّ تكبيلك. لا ترتكب حماقةً، سوف أتألّم كثيراً إذا ما أصابك مكروه. لقد انزعجتُ كثيراً لهذا الحلم بحيث لا اغتسلت ولا سرّحتُ شعري. حاولتُ باستخدام المنظار أن أرى أين كنتَ تصطاد ولكنني لم أرَك. أين اصطدت هذا السمك؟

- في الجانب الآخر من الجزيرة. ولهذا السبب لم تريني.

- لماذا ذهبت تصطاد في مكانٍ بعيدٍ جدّاً، في مكانٍ لم أستطع أن أراك فيه حتى بالمنظار؟ وماذا لو جرفتك موجة؟ لم يكن أحدٌ سيراك لكي يساعدك في الخروج حيّاً من بين أسماك القرش.

- أوه! لا تبالغي!

- هل تظنني أُبالغ؟ أمنعك من الصيد خلف الجزيرة وإن لم تطعني سوف أعمل على سحب رخصة الصيد منك.

- هيّا، كوني منطقية يا سيّدتي. ولكي أرضيكِ، سوف أُخبر خادمك أين سأصطاد.

- حسناً، ولكنك تبدو متعباً، أليس كذلك؟

- نعم سيّدتي، سوف أذهب لأنام في المعسكر.

- حسناً، ولكنني سأنتظرك في الساعة الرابعة لنشرب القهوة معاً. هل ستأتي؟

- نعم سيّدتي. إلى اللقاء قريباً.

لم يكن ينقصني هذا لتهدئتي، حلم جولييت! كما لو أنّه ليس لدي ما يكفي من المشكلات الحقيقية، كان لا بدّ من أن تُضاف إليها الأحلام أيضاً.

قال بورسيه بأنّه يشعر بأنّه مُراقَبٌ بالفعل. وها قد مرّ خمسة عشر يوماً ونحن ننتظر القطعة الخشبية الأخيرة البالغة متراً وخمسين سنتيمتراً. يقول

ناريك وكينيه بأنّهما لا يُلاحظان أيّ شيءٍ غير طبيعي، ومع ذلك يصرّ بورسيه على عدم تجهيز اللوح الخشبي. لو لم تكن فيه خمس فتحات تعشيق دقيقة، لصنعه ماتيو في بستانه. في الواقع، كانت الضلوع الخمسة الأخرى للطوف تدخل في هذه القطعة. ولأنّ ناريك وكينيه يقومان بترميم الكنيسة، كانا يُخرجان من ويُدخلان إلى الورشة بسهولة الكثير من المواد. والأفضل من هذا، كانا يستخدمان في بعض الأحيان عربة صغيرة يجرّها جاموسٌ صغير. وكان يجب أن نستفيد من هذه الظروف.

قام بورسيه، بدفعٍ منا، بصناعة القطعة الخشبية الأخيرة على مضضٍ. وذات يوم، زعم بأنّه على يقينٍ بأنّه حينما يُغادر الورشة، هناك من يأتي ويعبث بالقطعة الخشبية ويُعيدها مرّة أخرى إلى مكانها. بقيت فتحة تعشيقٍ واحدة ليتمّ فتحها في طرف اللوح الخشبي. قرّرنا بأن يُنجزها ومن ثَمّ يُخفي القطعة الخشبية تحت طاولته الخاصّة بالعمل، وأن يضع فوقها شعرةً لنرى إن كان هناك من يعبث بها. صنع فتحة التعشيق، وفي الساعة السادسة، كان آخر من يُغادر الورشة بعد أن تأكّد من أنّه لم يعد هناك أحدٌ فيها سوى الحارس. وكان قد وضع القطعة الخشبية في مكانها وعليها شعرة. عند منتصف الظهيرة، كنتُ في المعسكر، أنتظر وصول عمال الورشة، وهم أربعة وعشرون رجلاً. كان ناريك وكينيه موجودين، ولكنّ بورسيه كان غائباً. جاءني رجلٌ ألماني وسلّمني رسالة مغلقة ومُلصقة. ورأيتُ أنّ الرسالة لم تُفتَح. فتحتُ الرسالة وقرأتُ فيها: «لم تعد الشعرة موجودة، وهذا يعني أنّ أحدهم قد حرّك القطعة الخشبية من مكانها. لقد طلبتُ من الحارس أن أبقى في الورشة وأستمرّ في العمل خلال فترة القيلولة لكي أُنهي صندوقاً خشبياً صغيراً للورد أعمل عليه. وقد سمح لي بذلك. سوف أرفع القطعة الخشبية وأضعها في مكان عدّة ناريك. أخبرهما بذلك وعليهما أن يخرجا في الساعة الثالثة مباشرة ومعهما اللوح الخشبي. ربّما نستطيع أن نستبق الرجل الذي يُراقب القطعة الخشبية».

وافق ناريك وكينيه على ذلك، وراحا يقفان في الصفّ الأوّل لعمال

الورشة. وقبل أن يُدخَل الجميع، سيتعارك رجلان لبعض الوقت أمام الباب للتمويه، وقد طُلِبَت هذه الخدمة من رجلين من بلد كاربونيري، وهما كورسيكيان من مونتمارتر، يُدعيان ماساني وسانتيني. لم يسألانا عن سبب هذا الطلب، وهكذا تمّ الأمر على نحوٍ ممتاز. وسيكون على ناريك وكينيه أن يستغلّا ذلك لكي يُخرجا بسرعة بعض المواد لكونهما مستعجلين على الذهاب إلى عملهما ولذلك لا يهتمّان بأمر المشاجرة. كنّا جميعاً متّفقين على أنّه لا تزال أمامنا فرصةٌ. وإذا نجح ذلك، سيكون عليّ ألّا أتحرّك خلال شهرٍ أو شهرين، لأنّه من المؤكّد هناك شخصٌ أو عدّة أشخاص يعرفون أنّ طوفاً يُجهّز. وسيكون عليهم أن يعرفوا من هو هذا الشخص أو هؤلاء الأشخاص، وأين المخبأ.

وأخيراً أصبحت الساعة الثانية والنصف، واستعدّ الرجال. بين إجراء التفقّد وانصراف المحكومين إلى أشغالهم، هناك حاجة إلى ثلاثين دقيقةً. انطلق العمال، وكان بيبير سيليه تقريباً في وسط الطابور المكوّن من عشرين صفّاً رباعيّاً.

كان ناريك وكينيه في الصفّ الأوّل، فيما كان ماساني وسانتيني في الصفّ الثاني عشر، يتقدّمهما بيبير سيليه في الصفّ العاشر. اعتقدتُ أنّ الوضع جيّدٌ هكذا، لأنّه في اللحظة التي سيأخذ فيها ناريك الأخشاب والقضبان والقطعة الخشبية، لن يكون الآخرون قد انتهوا من الدخول. وسيكون بيبير عند باب الورشة تقريباً أو قبل ذلك بقليل. وحينما تقع المشاجرة، ولأنّ المتشاجرين سيصيحان مثل بنات عِرسٍ، سوف يعود الجميع، بما فيهم بيبير، تلقائياً ليروا ما الذي يجري. عند حلول الساعة الرابعة، تمّ كلّ شيءٍ على ما يُرام، وأصبحت القطعة الخشبية تحت كدسٍ من المواد في الكنيسة التي يجري ترميمها. لم يستطيعا أن يُخرجاها من الكنيسة، ولكنّها كانت في مأمنٍ هناك.

ذهبتُ لأُقابل جوليت، ولكنّها لم تكن في البيت. حينما عدتُ، مررتُ بالمكان الذي توجد فيه مكاتب الإدارة. وقفتُ في الظلّ، فرأيتُ

ماساني وجان سانتيني ينتظران هناك لكي يدخلا إلى الزنزانة. وكنّا نعرف ذلك مسبقاً، فمررتُ بجانبهما وسألتهما: «كم؟».

أجاب سانتيني:

– ثمانية أيام.

قال حارسٌ كورسيكي:

– من المحزن أن نرى ابنَي بلد يتشاجران!

عدتُ إلى المعسكر. في الساعة السادسة، عاد بورسيه مبتهجاً، وقال لي: «وكأنّه كان قد قيل لي بأنني مُصابٌ بالسرطان ومن ثَمّ أخبرني الطبيب بأنّه قد أخطأ في التشخيص وأنني لا أعاني من أيّ شيء». انتشى كاربونييري وأصدقائي وهنّأوني على الطريقة التي نظّمتُ بها العملية. وكان ناريك وكينيه أيضاً راضيين. سار كلّ شيءٍ على ما يُرام، فنمتُ طيلة الليلة، رغم أنّ المقامرين جاؤوا أثناء السهرة ودعوني إلى اللعب، ولكنني تظاهرتُ بأنني أعاني من صداعٍ شديد. وما كنتُ أعانيه في الحقيقة هو أنني كنتُ نعساً للغاية ولكنني كنتُ سعيداً وفرحاً بكوني على مشارف النجاح. لقد انتهى أصعب ما في العملية.

هذا الصباح، وضع ماتيو القطعة الخشبية مؤقّتاً في حفرة الجدار الساند. في الواقع، كان حارس المقبرة ينظّف الممرّ بجانب القبر الذي نستخدمه مخبأً، وسوف لن يكون من الحكمة الاقتراب منه الآن. وفي كلّ صباح، كنتُ أذهب بسرعةٍ، عند الفجر، ومعي مجرفة خشبية لكي أرتّب تراب القبر، وأُنظّف بمكنسة الممرّ ومن ثَمّ أعود مسرعاً إلى عملي في تفريغ الدلاء، تاركاً الدلاء والمكنسة والمجرفة في ركنٍ.

مضت الآن بالضبط أربعة أشهر وأنا منشغلٌ بإعداد العدّة لعملية الهروب وتسعة أيام على استلامنا للقطعة الأخيرة من الطوف. بات المطر يتوقّف عن الهطول كلّ يوم وأحياناً طيلة الليل. وكانت قدراتي كلّها مستنفَرة، من أجل ساعتَي الصفر: أوّلاً، إخراج القطعة الخشبية الشهيرة

من بستان ماتيو وتركيبها في مكانها في الطوف، وإدخال كلّ ضلع فيها بإحكام. ولا يمكن إجراء هذه العملية إلّا في النهار. ومن ثَمّ، الفرار. ولا يمكن للفرار أن يتمّ مباشرةً، لأنّه بعد إخراج الطوف سيتوجّب علينا إدخال جوز الهند والمؤن الغذائية إليه.

رويتُ البارحة كلّ شيء لجان كاستيلي، وشرحتُ له إلى أين وصلتُ في خططي. وقد سُرّ من أجلي لأنني شارفتُ على النهاية. قال لي: «إنّ القمر في طور التربيع الأوّل».

- أعرف هذا، وبالتالي لن يكون القمر مزعجاً بحلول منتصف الليل. ويكون الجزر في الساعة العاشرة، وسيكون الوقت المناسب لإنزال الطوف إلى الماء هو ما بين الساعة الواحدة والثانية صباحاً.

كنّا قد قرّرنا، كاربونييري وأنا، أن نسرّع الأحداث. غداً صباحاً في الساعة التاسعة، سنركّب القطعة الخشبية، وفي المساء، يكون الهروب.

في صباح اليوم التالي، وبعد أن نسّقنا إجراءاتنا جيّداً، مررتُ عبر البستان إلى المقبرة وقفزتُ من فوق الجدار باستخدام مجرفة. بينما كنتُ أزيل التراب عن الحصائر، رفع ماتيو الحجرة وجاء ينضمّ إليّ ومعه القطعة الخشبية. رفعنا معاً الحصائر ووضعناها على حرف القبر. بدا الطوف سليماً في مكانه، وفي حالةٍ ممتازة. كان متّسخاً بالطين الملصَق به، ولكنّه كان في حالةٍ جيّدة. أخرجناه من الحفرة لأنّنا كنّا بحاجة إلى مساحة للتحرّك لكي نركّب عليه القطعة الخشبية. أدخلنا الضلوع الخمسة في فتحات التعشيق، وثبّتنا كلّاً منها جيّداً في مكانه. ولإدخالها جيّداً في الفتحات اضطررنا أن نَضربها بحجرةٍ. في اللحظة التي أنهينا العمل فيه وأوشكنا على إعادته إلى مكانه، ظهر مُراقبٌ، وفي يده بندقيته القصيرة. قال مهدّداً:

- لا تأتيا بحركة وإلّا قتلتكما!

تركنا الطوف يسقط ورفعنا أيدينا في الهواء. تعرّفتُ على هذا الحارس، إنّه قائد حرس الورشة.

- لا ترتكبا حماقة ولا تحاولا أن تقاوما، لقد وقعتما. اقبلوا بذلك وأنقذوا على الأقلّ حياتكما التي لا ترتبط سوى بخيطٍ مع رغبتي في أن أطلق عليكما النار من بندقيتي. هيّا، امشيا أمامي وأبقيا أيديكما مرفوعة في الهواء! سيرا نحو مقرّ القيادة!

أثناء المرور من أمام باب المقبرة، صادفنا عربياً من حمَلَة المفاتيح، فقال له الحارس:

- محمّد، شكراً لك على الخدمة التي أسديتها لي. مرّ عليّ غداً صباحاً، سوف أعطيكَ ما وعدتُك به.

قال العربي:

- شكراً. سوف آتي بالتأكيد، ولكن يا سيّدي، يجب على بيبير سيليه أيضاً أن يدفع لي، أليس كذلك؟

قال الحارس:

- سوِّ الأمر معه.

حينئذٍ قلت: «أهو بيبير سيليه من وَشَى بنا، أيّها القائد؟».

- لستُ أنا من أخبرتكما بذلك.

- الأمران سيّان، من المفيد أن نعرف.

كنّا لا نزال تحت رحمة البندقية، وقال الحارس:

- محمّد، فتّشهما.

أخرج العربي مديتي المدسوسة تحت حزامي وكذلك مدية ماتيو. قلتُ له:

- أنت خبيثٌ يا محمّد. كيف اكتشفت أمرنا؟

- لقد كنتُ أتسلّق شجرة جوز الهند كلّ يوم لأرى أين خبّأتم الطوف.

- ومن طلب منك أن تفعل هذا؟

- إنّه بيبير سيليه أوّلاً، ومن ثَمّ المراقب برويه.

قال الحارس:

- هيّا، لقد تكلّمتما كثيراً. يمكنكما الآن أن تنزلا أيديكما وتسيرا على نحوٍ أسرع.

طالت الأمتار الأربعمئة التي كان علينا أن نقطعها حتى نصل إلى مقرّ القيادة، وبدت لي أنّها الطريق الأطول في حياتي. كنتُ محطّماً. فقد كافحتُ كلّ هذا الكفاح لكي أدع نفسي أقع بين أيديهم مثل الأغبياء. يا إلهي، كم أنت قاسٍ معي! كان وصولنا إلى مقرّ القيادة فضيحة مدوّية، فكلّما تقدّمنا أكثر، صادفنا المزيد من المراقبين الذين ينضمون إلى زميلهم الذي ظلّ يهدّدنا ببندقيته القصيرة. وحينما وصلنا، كان يسير في إثرنا ستة أو ثمانية مراقبين.

كان الآمر، الذي أُخبِر بالأمر من جانب العربي الذي كان قد ركض أمامنا، يقف على عتبة باب مبنى الإدارة وكذلك ديغا وخمسة من قادة الحرس.

قال الآمر:

- ما الذي يحدث، يا سيّد برويه؟

- ما يحدث هو أنني ضبطتُ بالجرم المشهود هذين الرجلين وهما يُخفيان طوفاً، أعتقد أنّه جاهزٌ للإبحار.

- ما قولك في هذا، يا بابيون؟

- لا شيء، سوف أتكلّم أثناء التحقيق.

- ضعوهما في الزنزانة المنفردة.

وُضعتُ في زنزانة منفردة تطلّ بشبّاكها المسدود على جانب مدخل مبنى القيادة. كانت الزنزانة مظلمة ولكنني سمعتُ الناس يتحدّثون في شارع مبنى القيادة.

جرت الأحداث بسرعة. في الساعة الثالثة، أُخرجنا وكُبّلنا.

أُدخلنا إلى قاعة فيها ما يُشبه هيئة محكمة تتكوّن من الآمر ومعاونه ورئيس الحرس. وقام أحد الحرّاس بدور كاتب المحكمة. وكان على ديغا، الجالس بعيداً إلى طاولةٍ صغيرة، أن يدوّن بالتأكيد إفادتنا.

- شارير وكاربونييري، استمعا إلى التقرير الذي أعدّه السيّد برويه

ضدّكما: «أنا، برويه أوغوست، قائد الحرس ومدير ورشة جزر الخلاص، أتّهم المحكومين شارير وكاربونييري بسرقة وإهدار مواد مملوكة للدولة. وأتّهم النجّار بورسيه بالتواطؤ معهما. كما يمكنني تحميل مسؤولية التواطؤ للمحكومين ناريك وكينيه. وأُضيف أنني قد ضبطتُ بالجرم المشهود شارير وكاربونييري وهما ينتهكان حرمة قبر السيّدة بريفات الذي استخدماه مخبأً لإخفاء طوفهما».

قال الآمر:

- ما قولكما في ما سمعتما؟

قلتُ:

- أوّلاً ليس لكاربونييري أيّ علاقة بهذا الموضوع، لأنّ القارب مصمّم لرجلٍ واحد وهو أنا. لقد أرغمته فقط على أن يساعدني في رفع الحصائر من فوق القبر، وهي العملية التي لم أستطع أن أقوم بها بمفردي. وبالتالي، كاربونييري ليس مذنباً في إهدار وسرقة مواد مملوكة للدولة، ولا بالتواطؤ في الفرار، بما أنّ الفرار لم يتمّ. وبورسيه رجلٌ مسكين تصرّف تحت التهديد بالقتل. أمّا ناريك وكينيه، فهما رجلان أكاد لا أعرفهما. وأؤكّد أنّه ليس لهما أيّ علاقة بهذه القضيّة.

قال الحارس:

- ليس هذا ما أخبرني به مُخبري.

- إنّ بيير سيليه هذا الذي أخبرك يستطيع أن يستغلّ جيّداً هذه القضية في سبيل الانتقام من أحدهم معرّضاً إياه للخطر زوراً. من عساه أن يثق بمخبرٍ؟

قال الآمر:

- باختصار، أنت متّهم رسمياً بسرقة وإهدار مواد مملوكة للدولة، وبتدنيس قبرٍ، وبمحاولة الفرار من المعسكر. تفضّل بالتوقيع على الوثيقة.

- لن أوقّع إلّا إذا أُضيفت أقوالي بشأن كاربونييري وبورسيه والعديلين ناريك وكينيه.

– أنا أوافق. وقّع على الوثيقة.

وقّعتُ على الصك. لا أستطيع أن أعبّر بوضوح عن كلّ ما يحدث في داخلي منذ هذا الفشل في اللحظة الأخيرة. أنا مثل المجنون في هذه الزنزانة المنفردة، بالكاد أتناول الطعام، ولا أمشي، ولكنني أُدخّن، أدخّن دون توقّف، سيجارة تلو الأخرى. لحسن الحظّ، كان ديغا قد موّنني جيّداً بالتبغ. كلّ يوم، نقوم بساعةٍ من التنزّه تحت الشمس في باحة زنازين القسم التأديبي.

هذا الصباح، جاء الآمر يتكلّم معي. والأمر الغريب هو أنّه كان الأقلّ غضباً مني وحنقاً عليّ، على الرغم من أنّه هو الذي كان سيتعرّض للضرر الأكبر فيما لو نجح الفرار.

أخبرني مبتسماً بأنّ زوجته قد قالت إنّه من الطبيعي أن يحاول رجلٌ الفرار، إن لم يكن فاسداً. سعى بمهارةٍ فائقة إلى أن أؤكّد له تواطؤ كاربونييري. شعرتُ بأنني قد أقنعته وشرحتُ له بأنّه من الناحية العملية كان من المستحيل على كاربونييري أن يرفض مساعدتي لبضع دقائق في سحب الحصائر عن القبر.

أمّا بورسيه فقد أظهر لهم رسالة التهديد والمخطّط المكتوبين من جانبي. وفيما يخصّه، اقتنع الآمر تماماً بأنّ الأمور قد جرت بالفعل هكذا. سألته عن مدّة الحكم الذي يمكن أن يصدر بحقي، حسب رأيه، بسبب هذا الاتّهام بسرقة المواد، فقال لي: «ليس أكثر من ثمانية عشر شهراً».

باختصار، بدأتُ أصعدُ تدريجياً منحدر الهاوية التي حشرتُ نفسي فيها. تلقيتُ رسالة من شاتال الممرّض، يُخبرني فيها أنّ بيير سيليه موجودٌ في قاعة منفصلة في المستشفى، في انتظار رفع الحجز عنه في الجزر مع تشخيصٍ نادر: خرّاج في الكبد. لا بدّ أنّ هذا تدبيرٌ بين الإدارة والطبيب لوضعه بمنأى عن أعمال انتقامية.

لم يقوموا أبداً لا بتفتيش زنزانتي ولا بتفتيشي أنا. وقد استفدتُ من ذلك في إدخال سكينٍ. أخبرتُ ناريك وكينيه بأن يطلبا مواجهةً بيني وبين

مراقب الورشة، وبيير سيليه، والنجار، وأن يلتمسا من الآمر أنّ يتّخذ بعد هذه المواجهة القرار الذي يراه عادلاً بشأنهما: إمّا التوقيف الاحترازي وإمّا عقوبة تأديبية أو إطلاق سراحهما داخل المعسكر.

خلال فسحة اليوم، أخبرني ناريك أنّ الآمر وافق على طلبهما، وأنّ المواجهة سوف تتمّ غداً في الساعة العاشرة. وسوف يحضر هذه المواجهة أحد قادة الحرس بصفة محقّق. طيلة الليل، حاولتُ أن أُقنع نفسي بالعدول عن فكرة قتل بيير سيليه التي كنتُ أنوي تنفيذها. ولكنني لم أفلح في ذلك. كلا، سيكون في غاية الإجحاف أن يتمّ رفع الحجز عنه في الجزيرة ونقله إلى البرّ الرئيسي مقابل هذه الخدمة وأن يقوم بعد ذلك، من البر الرئيسي، بالفرار، كمكافأة له على منعه شخصاً آخر من الفرار. نعم، ولكن قد يُحكَم عليك بالإعدام، لأنّه يمكن اعتبار الجريمة قد وقعت مع سبق الإصرار والترصّد. لا يهمّني ذلك. تلك كانت النتيجة التي توصّلتُ إليها لشدّة ما كنتُ يائساً. أربعة أشهر من الأمل والفرح والخوف من السقوط، ومن البراعة لكي أختمها، وهي على وشك الانتهاء، بهذا الفشل الذريع بلسانِ مخبرٍ. فليحصل ما يحصل، غداً سأحاول أن أقتل سيليه!

الوسيلة الوحيدة للإفلات من حكم الإعدام في حال قتله هو أن يُشهر سكينه في وجهي. وليحدث ذلك، يجب أن أجعله يرى بشكلٍ واضحٍ وجلي أنني أحمل سكيناً مفتوح النصل. وحينها بالتأكيد سوف يستلّ سكينه. وينبغي أن أستطيع تحقيق هذا قبل المواجهة بقليل أو حال انتهائها. إذ لا أستطيع أن أقتله أثناء المواجهة، لأنني أخشى أن يُطلق عليّ أحد الحراس رصاصةً من مسدّسه. قررت أن أعتمد على إهمال الحرّاس المزمن.

بقيتُ طيلة الليل أُقاوم هذه الفكرة، ولكنني لم أفلح في التغلّب عليها. هناك بالفعل في الحياة أمورٌ لا تُغتَفَر. أنا أعلم أنّه ليس من حقّ المرء أن يُحقّق العدالة بنفسه، ولكن هذا بالنسبة إلى أناسٍ من طبقة اجتماعية

أخرى. كيف يمكن القبول بأن يستطيع المرء بألّا يفكّر في أن يُعاقب حتماً وبلا هوادة شخصاً على هذه الدرجة من الخسّة؟ لم أُلحق أيّ أذى بهذا المطرود من الخدمة العسكرية، حتى أنّه لا يعرفني. لقد حكم عليّ إذاً بكذا سنة من الحبس الانفرادي دون أن يكون له أيّ شيءٍ يأخذه عليّ. لقد سعى إلى دفني حيّاً لكي يعود هو إلى الحياة. كلا، كلا، كلا على الإطلاق، لن أقبل بهذا! من المستحيل أن أدعه يستفيد من فعلته القذرة. من المستحيل. شعرتُ أنني خسرتُ كلّ شيء. وطالما لم يعد هناك ما أخسره، فليخسر هو أيضاً، بل وأكثر منّي. عدتُ وتساءلتُ في نفسي: «ولكن ماذا لو حُكِمَ عليك بالإعدام؟» سيكون من الحماقة الموت من أجل هكذا شخصية منحطّة ودنيئة. وفي النهاية، توصّلتُ إلى أن أعدَ نفسي بشيءٍ واحد فقط: إن لم يُشهر سكينه، لن أقتله.

لم أنم طيلة الليل، ودخّنتُ علبة تبغ كاملة. تبقّت لي سيجارتان فقط حينما أحضروا لي القهوة في الساعة السادسة صباحاً. كنتُ متوتّراً للغاية بحيث تجاوزت الحظر أمام الحارس وقلتُ لموزّع القهوة:

– هل يمكنك أن تعطيني بعض السجائر أو القليل من التبغ بعد الاستئذان من القائد؟ أنا على وشك الانهيار، يا سيّد أنتارتاغليا.

قال الحارس:

– نعم، أعطه إذا كانت لديك سجائر. أمّا أنا، فلا أدخّن. أنا أُشفق عليك بصدق، يا بابيون. أنا كرجلٍ كورسيكي، أحبّ الرجال الحقيقيين وأكره الأوغاد.

في الساعة العاشرة إلّا ربعاً، كنتُ في الباحة في انتظار الدخول إلى القاعة. وكان ناريك وكينيه وبورسيه وكاربونييري في الباحة أيضاً. كان الحارس الذي يُراقبنا هو أنتارتاغليا، مراقب توزيع القهوة. تحدّث باللغة الكورسيكية مع كاربونييري، وفهمتُ من حديثه أنّه يقول له بأنّه حزينٌ لما حدث له وأنّه ثمّة خطر أن يُعاقب بالحكم عليه لمدّة ثلاث سنوات بالحبس الانفرادي. وفي تلك اللحظة، فُتِحَ الباب ودخل إلى الباحة

العربي الذي كان يعتلي شجرة جوز الهند لمراقبتنا، والعربي الذي كان يحرس باب الورشة وبيير سيليه. حينما رآني، تراجع إلى الخلف ولكنّ الحارس المرافق لهم قال له:

- تقدّم وخذ مكانك منفرداً، هنا إلى اليمين. أنتارتاغليا، لا تدعهم يتواصلون فيما بينهم.

أصبحنا على بعد أقلّ من مترين من بعضنا، وقال أنتارتاغليا:

- ممنوع التكلّم بين المجموعتين.

ظلّ كاربونيري يتحدّث باللغة الكورسيكية مع ابن بلده الذي يُراقب المجموعتين. انشغل الحارس بشدّ رباط حذائه، فأشرتُ إلى ماتيو أن يتقدّم أكثر قليلاً. فهم عليّ في الحال، فنظر نحو بيير سيليه وبصق باتجاهه. حينما انتصب المراقب واقفاً، ظلّ كاربونيري يتكلّم معه دون توقّف وشغل اهتمامه إلى درجة أنني تقدّمتُ خطوةً من دون أن يُلاحظ ذلك. تركتُ سكيني ينسلّ إلى يدي. وحده سيليه استطاع أن يراه، وبسرعةٍ غير متوقّعة استلّ سكينه الذي كان مفتوحاً في جيب سرواله ووجّه لي طعنةً جرحت عضلة ساعدي الأيمن، أما أنا الأعسر، فقد غرستُ سكيني، بضربة واحدة، حتى المقبض في صدره. أطلق صرخة قويّة كوحشٍ: «آ آ آه!»، ثمّ خرّ صريعاً مكوّماً على الأرض. قال لي أنتارتاغليا وهو يمسك بمسدّسه:

- تراجع، يا فتى، تراجع. لا تطعنه وهو على الأرض، وإلّا اضطررتُ لإطلاق النار عليك، وأنا لا أُريد ذلك.

اقترب كاربونيري من سيليه وحرّك بقدمه رأسه. قال كلمتين باللغة الكورسيكية. فهمتُ أنّه يقول: لقد مات. ردّد الحارس:

- أعطني سكينك، يا فتى.

أعطيته السكين، فأعاد مسدّسه إلى قرابه، وذهب نحو الباب الحديدي ودقّه. فتح حارسٌ الباب فقال له:

- أرسل حمَلَة النقّالة لينقلوا ميّتاً.

- منْ الذي مات؟

- بيبير سيليه.

- آه! لقد ظننتُ أنّه بابيون.

أعادونا إلى منفرداتنا. وقد تمّ تعليق المواجهة. قال لي كاربونييري قبل أن يدخل إلى الممرّ:

- صديقي المسكين، بابيون، لقد وقعتَ هذه المرّة.

- نعم، ولكنني حيّ، أمّا هو فقد نَفَق.

عاد الحارس لوحده، وفتح الباب بهدوءٍ شديد وقال لي، وهو لا يزال منفعلاً:

- دقّ الباب وقل بأنّك جريح. إنّه هو من هاجم أوّلاً، وقد رأيتُ ذلك.

ثمّ عاد وأغلق الباب بهدوء.

هؤلاء الحرّاس الكورسيكيون مدهشون: إمّا يكون أحدهم سيئاً بالمطلق وإمّا يكون طيّباً بالمطلق. طرقتُ الباب وصرخت: «أنا جريح، أُريد أن يتمّ نقلي إلى المستشفى لكي يضمّدوا جرحي».

عاد الحارس مع رئيس الحرس في القسم التأديبي.

- ما بك؟ لماذا كلّ هذا الضجيج؟

- أنا جريح، يا سيّدي.

- آه! أنت جريح؟ كنتُ أعتقد أنّه لم يُصبك عندما هاجمك.

- لقد تمزّقت عضلة ساعدي الأيمن.

قال الحارس الآخر:

- افتح الباب.

فُتِحَ الباب وخرجت من المنفردة. في الواقع، كانت العضلة بالفعل مقطوعة.

- كبّل يديه وخذه إلى المستشفى. ولا تدعه هناك تحت أيّ ذريعة. أعده إلى هنا بعد أن يتمّ تضميد جرحه.

عندما خرجنا، كان هناك أكثر من عشرة حرّاس مع الآمر. هتف مراقب الورشة في وجهي:

- قاتل!

قبل أن أردّ عليه، قال له الآمر:

- اخرس، أيّها المراقب برويه. لقد هوجِم بابيون أوّلاً.

قال برويه:

- هذا غير محتملِ.

قال أنتارتاغليا:

- لقد رأيتُه وأنا شاهدٌ على ذلك. واعلم، يا سيّد برويه، أنّ الكورسيكي لا يكذب.

في المستشفى، استدعى شاتال الطبيب. خاط لي جرحي من دون أن يتمّ تخديري تخديراً عامّاً ولا حتى تخديراً موضعياً، ثمّ غرز لي ثمانية دبابيس من دون أن يوجّه لي كلمة واحدة. وأنا تركتُه يفعل ما يشاء دون تذمّر أو تشكّي. وفي النهاية قال لي:

- لم أستطع أن أخدّرك موضعياً، لأنّه لم تعد لديّ حقنٌ لهذا الغرض.

ثمّ أضاف:

- ما فعلتَه ليس صحيحاً.

- أوه أنت تعلم! في كلّ الأحوال لم يكن ليعيش لوقتٍ طويل مع الخرّاجِ في كبده.

جعله جوابي غير المتوقّع يعبس.

استمرّ التحقيق، واستُبعِدَت مسؤولية بورسيه تماماً، إذ تمّ الإقرار بأنّه قد تعرّض للترهيب، وهو الأمر الذي ساهمتُ في جعلهم يصدّقونه. وكذلك تمّ استبعاد مسؤولية ناريك وكينيه لعدم كفاية الأدلّة ضدّهما. بقيتُ أنا ومعي كاربونييري. بالنسبة إلى كاربونييري، تمّ إسقاط تهمة السرقة وإهدار المواد المملوكة للدولة، وبقيت عليه تهمة التواطؤ في

محاولة الفرار. وهذه لن تكلّفه أكثر من ستة أشهر من السجن. أمّا بالنسبة لي، فقد تعقّدت الأمور. في الحقيقة، بالرغم من كلّ الشهادات التي أُدليت لصالحي، رفض المكلّف بالتحقيق القبول باعتبار حادثة القتل دفاعاً مشروعاً عن النفس. قال لي ديغا الذي اطّلع على كلّ الملفّ بأنّه على الرغم من عناد المحقّق، من المستحيل الحكمَ عليّ بالإعدام نظراً لإصابتي بجرح. وقد استند الاتّهام ضدّي لتشديد الحكم عليّ على شيء واحدٍ وهو أنّ العربيين صرّحا بأنني أنا من أشهرتُ السكين أوّلاً.

انتهى التحقيق، وانتظرتُ أن يتمّ تحويلي إلى سان لوران لأمثل أمام المحكمة العسكرية. لم أكن أفعل شيئاً سوى التدخين، وأصبحتُ لا أمشي في الزنزانة إلّا قليلاً. سُمِحَ لي باستراحةٍ ثانية مدّتها ساعة في فترة ما بعد الظهيرة. ولم يُظهر آمر السجن ولا الحرّاس، ما عدا حارس الورشة والمحقّق، أيّ مشاعر عدائية حيالي أبداً. كان الجميع يتكلّمون معي دون تحفّظٍ أو عدوانية ويسمحون لي بأن أُدخِل التبغ الذي أُريده.

كان من المفروض أن أغادر يوم الجمعة، واليوم هو الثلاثاء. في صبيحة يوم الأربعاء، في الساعة العاشرة، كنتُ في الباحة منذ ساعتين تقريباً عندما ناداني آمر السجن وقال لي: «تعال معي». خرجتُ معه دون حراسة. سألته إلى أين نذهب، فسلك الطريق المؤدّي إلى بيته. وفي الطريق، قال لي:

- تُريد زوجتي أن تراك قبل أن ترحل، ولم أشأ أن أُحزنها بإرسالك إليها مصحوباً بحارسٍ مسلّح. وآمل أن تُحسنَ التصرّف.

- نعم، سيّدي الآمر.

وصلنا إلى بيته، فنادى زوجته: «جولييت، لقد جلبتُ لكِ من تدافعين عنه مثلما وعدتُكِ. وأنتِ تعلمين أنّه عليّ أن أُعيده قبل منتصف الظهيرة. لديكِ ساعة من الوقت للحديث معه». ثمّ انسحب بهدوء.

اقتربت جولييت مني ووضعت يدها على كتفي وهي تحدّق في عيني مباشرةً. لمعت عيناها السوداوان ولا سيّما وأنّهما اغرورقتا بالدموع التي تمالكتها لحسن الحظّ.

– أنت مجنون، يا صديقي. لو أنّك أخبرتني بأنّك ترغب في الفرار، أعتقد أنني كنتُ قادرة على أن أُيسّر لك الأمور. لقد طلبتُ من زوجي أن يساعدك قدر المستطاع وأخبرني بأنّ الأمر ليس في يده لسوء الحظّ. لقد أردتُ إحضارك إلى هنا لأرى أوّلاً كيف حالك. أهنّئك على شجاعتك، وأجدك أفضل حالاً ممّا كنتُ أعتقد. ومن ثَمّ لأقول لك أيضاً بأنني سأدفع لك ثمن السمك الذي قدّمته لي بغاية السخاء على مدى أشهرٍ كثيرة. تفضّل، هذه ألف فرنكٍ، وهذا كلّ ما أستطيع أن أدفعه لك. يؤسفني أنني لا أستطيع أن أفعل لك أكثر من هذا.

قلتُ لها:

– اسمعي يا سيّدتي، أنا لستُ في حاجةٍ إلى المال. أرجوكِ، أن تفهمي أنني لا أستطيع القبول بتلقي هذه النقود، فأنا أرى أن ذلك سيُلطّخ صداقتنا.

ودفعتُ بيدي الورقتين النقديتين من فئة الخمسمئة فرنكٍ اللتين قدّمتهما لي بسخاءٍ كبير. وقلتُ لها بلطف: «لا تُلحّي عليّ، أرجوكِ».

قالت:

– كما تشاء. هل تشرب القليل من مشروب باستيس الخفيف؟

وعلى مدى ساعةٍ كاملة، لم تفعل هذه المرأة الرائعة سوى إسماعي كلمات عذبة. افترضتْ أنني سوف أُبرّأ بكل تأكيد من جريمة قتل هذا السافل، وسأنال ربّما جزاءً من ثمانية عشر شهراً إلى سنتين من السجن على التهم الأخرى الموجّهة إليّ.

في لحظة المغادرة، صافحتني بحرارة وشدّت على يدي مطوّلاً وقالت لي: «إلى اللقاء، أتمنى لك حظّاً سعيداً». وأجهشت بالبكاء.

قادني الآمر إلى قسم الزنازين المنفردة. وفي الطريق، قلتُ له:

– سيّدي الآمر، لديك أنبل زوجة في العالم.

– أعرف ذلك يا بابيون، هي لم تُخلَق لتعيش هنا، الحياة هنا قاسية جدّاً بالنسبة إليها. ولكن، ما العمل؟ في النهاية، بعد أربع سنوات، سأُحال على التقاعد.

- أودّ أن أستغلّ فرصة أننا لوحدنا، سيّدي الآمر، لكي أشكرك على كونك قد عاملتني بأفضل ما يُمكن على الرغم من المشكلات الكبيرة التي كنتُ سأتسبّب بها لك، لو أنني نجحتُ في الفرار.

- نعم، كنتَ ستتسبّب لي بمتاعب ومشكلات كبيرة. بالرغم من ذلك، هل تُحبّ أن أقول لك شيئاً؟ كنتَ تستحقّ النجاح.

وأمام باب القسم التأديبي، أضاف:

- وداعاً يا بابيون. كان اللّه في عونك، فستكون في حاجةٍ إلى عونه.

- وداعاً، سيّدي الآمر.

نعم! سأكون في حاجةٍ إلى عون اللّه، لأنّ المحكمة العسكرية التي يرأسها قائدٌ في الدرك يحمل على كتفه أربع شارات كانت قاسية ولا ترحم. حكمت عليّ المحكمة بالسجن ثلاث سنوات بتهمة سرقة وإهدار المواد المملوكة للدولة وتدنيس قبرٍ ومحاولة فرارٍ، إضافةً إلى السجن خمس سنوات دون الدمج بين العقوبتين، بتهمة قتل سيليه، ليكون المجموع الكلّي ثمانية أعوام من الحبس الانفرادي. ولو لم أكن جريحاً، لحكمت المحكمة عليّ بالإعدام.

هذه المحكمة القاسية جدّاً بالنسبة لي كانت أكثر تفهّماً حيال بولوني يُدعى داندوسكي كان قد قتل رجلين. إذ لم تحكم عليه سوى بالسجن خمس سنوات بالرغم من أنّه كان هناك سبق إصرارٍ وترصّد بلا أدنى شكّ.

كان داندوسكي خبّازاً لا يحضّر سوى الخميرة. وكان يعمل من الساعة الثالثة إلى الرابعة صباحاً. ولأنّ المخبز يقع على الرصيف البحري قبالة البحر، كان يمضي كلّ ساعات فراغه في الصيد. لم يكن هذا الرجل الهادئ الذي يتكلّم الفرنسية بركاكة يُخالط أحداً. وكانت هذه الأشغال الشاقّة المؤبّدة تُعطي كل حنانه وعطفه لقطٍّ أسودَ أخضر العينين رائعٍ كان يعيشُ فعلياً معه. كانا ينامان معاً، وكان القطّ يلحق به مثل كلبٍ إلى العمل لكي يبقى برفقته. باختصار، كان هناك حبٌّ كبير بينه وبين هذا الحيوان الأليف.

يرافقه القطّ إلى الصيد، ولكن إذا كان الطقس حارّاً جدّاً ولم يكن هناك ركنٌ في الظلّ، يعود وحيداً إلى المخبز وينام في أرجوحة نوم صديقه. وفي منتصف الظهيرة، حينما يرنّ الجرس، كان يذهب للقاء البولوني ويقفز خلف السمكة الصغيرة التي يُرقِّصُها أمام أنفه إلى أن يلتقطها.

كان الخبّازون جميعاً يعيشون معاً في مهجع مجاورٍ للمخبز. ذات يوم، دعا محكومان يُدعيان كورازي وأنجيلو الخبّاز داندوسكي إلى تناول لحم الأرنب الذي أعدّه كورازي بالمرقة، الأمر الذي كان يفعله على الأقلّ مرّة واحدة في الأسبوع. جلس داندوسكي إلى المائدة وأكل معهما، مقدّماً زجاجةً من النبيذ لشربها مع الطعام. لم يعد القطّ في المساء. بحث عنه البولوني في كلّ مكان دون جدوى. مرّ أسبوع، والقطّ غائب. حزن داندوسكي على فقد رفيقه ولم تعد لديه الشهية في تذوّق أيّ شيء. كان بالفعل حزيناً لاختفاء الكائن الوحيد الذي أحبّه والذي جعله في حالة جيّدة، في ظروفٍ غامضة. وحينما علمت زوجة أحد المراقبين بمدى حزنه، أهدته قطّاً صغيراً.

طرده داندوسكي وسأل المرأة حانقاً كيف تستطيع أن تفترض أنّه قد يحبّ قطّاً غير قطّه، وقال بأنّ هذا سيكون إهانة كبيرة لذكرى قطّه المختفي

ذات يوم، ضرب كورازي خبّازاً متدرّباً كان موزّعاً للخبز أيضاً. لم يكن ينام مع الخبّازين ولكنّه تابعٌ للمعسكر. امتلأ قلبه حقداً على كورازي، فراح يبحث عن داندوسكي، وحينما التقى به، قال له:

– لعلمك، إنّ الأرنب الذي دعاك كورازي وأنجيلو لتناول لحمه كان قطّك.

أمسك البولوني بخناق الرجل، وقال:

– ما الدليل عندك؟

– تحت شجرة المانجو التي يوجد خلفها رجال الزوارق، رأيتُ كورازي عندما كان يدفن جلد قطّك.

ذهب البولوني كالمجنون ليرى، وقد عثر بالفعل على الجلد. التقطه وقد اهترأ جزئياً، وتفسّخ الرأس. راح وغسله بماء البحر، وعرّضه للشمس لكي يجفّ، ثمّ لفّه في قطعة قماشٍ بيضاء ونظيفة ودفنه في مكانٍ جافّ وعميق لكي لا يلتهمه النمل. هذا ما رواه لي.

في الليل وعلى ضوء مصباحٍ زيتي، كان كورازي وأنجيلو يجلسان جنباً إلى جنب على مقعدٍ سميكٍ جدّاً في مهجع الخبّازين ويلعبان لعبة بيلوت. كان داندوسكي رجلاً في حوالي الأربعين من عمره، متوسّط الطول وممتلئ الجسم وعريض المنكبين وقويّاً جدّاً. أعدّ عصا خشبية ضخمة ومتينة كالحديد، وثقيلة مثل المعدن، وجاء من الخلف دون أن ينبس ببنت شفة وسدّد ضربة رهيبة من العصا على رأس كلّ منهما. انفتحت الجمجمتان مثل حبّتي رمّان وتناثر الدماغ على الأرض. ولشدّة حنقه وغضبه، لم يكتفِ بقتلهما، بل أخذ الدماغين وسحقهما على جدار القاعة الذي تلطّخ بالدم والدماغ.

وإذا كان قائد الدرك الذي ترأس المحكمة العسكرية لم يتعاطف معي، فإنّه تعاطف لحسن الحظّ مع داندوسكي الذي قتل رجلين إلى درجة أنّه لم يحكم عليه سوى بخمسة أعوام فقط من السجن.

السجن الانفرادي الثاني

صعدتُ إلى الجزر مقيّداً مع الخبّاز البولوني. لم يتمّ إيداعنا في منفردات سان لوران! لقد وصلنا يوم الإثنين، ومثلنا أمام المحكمة العسكرية يوم الخميس، وتمّ ترحيلنا إلى الجزر صباح يوم الجمعة.

أُعدنا إلى الجزر، وكان عددنا ثلاثة عشر رجلاً، بيننا اثنا عشر رجلاً محكوماً بالسجن الانفرادي. جرت الرحلة وسط بحرٍ هائجٍ للغاية، وفي معظم الأحيان كان متن الزورق يتعرّض لموجة أعتى من الأخرى. وصل بي الأمر، لشدّة يأسي، أن أتمنّى أن يغرق بنا هذا القارب المتهالك. لم أتكلّم مع أحد، متكوّراً على نفسي بفعل هذه الرياح الرطبة التي

كانت تجلد وجهي. لم أحمِ نفسي، بل على العكس، تركتُ طواعيةً أن تتطاير قبّعتي، إذ لن أعود في حاجةٍ إليها خلال ثمانية أعوامٍ من الحبس الانفرادي. في مواجهة الريح، كنتُ أستنشق إلى حدّ الاختناق هذا الهواء الذي يجلدني كالسياط. بعد أن تمنّيتُ الغرق، استدركت: «أكلَ سمك القرش بيبير سيليه؛ أما أنت فإنّك في الثلاثين من العمر، وعليك أن تقضي ثمانية أعوام في الحبس الانفرادي». ولكن هل يمكن للمرء إتمام ثمانية أعوام بين جدران السجن المسمّى آكل البشر؟

حسب خبرتي، أعتقد أنّ هذا مستحيل. أربعة أعوام أو خمسة هي المدّة الأقصى التي يمكن خلالها مقاومة الظروف القاسية في هذه المنفردات. لو لم أقتل سيليه، لما حُكِم عليّ سوى بالسجن الانفرادي لمدّة ثلاثة أعوام، وحتى ربّما لعامين فقط، لأنّ جريمة القتل شدّدت عقوبتي على كلّ التهم بما فيه الفرار. ما كان عليّ أن أقتل آكل الجيف هذا. فواجبي كإنسان اتّجاه نفسي، ليس أن أحقّق العدالة لنفسي، وإنّما هو أوّلاً وقبل كلّ شيء أن أبقى حيّاً، أن أبقى حيّاً لكي أهرب من السجن. كيف استطعتُ أن أرتكب خطأً كهذا؟ دون الأخذ بالحسبان بأنّ هذا الوغد القذر كان على وشك أن يقتلني. الحياة، الحياة، الحياة، ينبغي أن تكون هذه هي عقيدتي الوحيدة.

من بين المراقبين الذين رافقوا قافلة النقل، كان هناك حارسٌ عرفته أثناء وجودي في الحبس الانفرادي. لا أعرف ما اسمه، ولكن استبدّت بي رغبة شديدة في أن أطرح عليه سؤالاً. توجّهتُ إليه:

– سيّدي، أودّ أن أسألك أمراً.

اقترب منّي مندهشاً، وقال لي:

– ماذا؟

– هل عرفتَ رجالاً استطاعوا أن يقضوا ثمانية أعوام في الحبس الانفرادي؟

فكّر قليلاً ثمّ قال لي:

- كلا، ولكنني عرفتُ العديد من الرجال الذين أمضوا خمسة أعوام، بل وأتذكّر جيّداً أنّ أحدهم خرج من المنفردة وهو في صحّة جيّدة ومتّزنٌ بعد أن أمضى فيها ستّة أعوام. كنتُ أخدم في قسم الحبس الانفرادي عندما أُطلِقَ سراحه.

- شكراً لك.

قال الحارس:

- لم أفعل ما يستحقّ الشكر. أعتقد أنّك محكومٌ بثمانية أعوام عليك أن تقضيها في المنفردة، أليس كذلك؟

- نعم، سيّدي.

- لن تستطيع الخروج منها إلّا في حال لم تُعاقب أبداً.

ثمّ انسحب.

هذه الجملة في غاية الأهمية. نعم لا يمكنني النجاة منها إلّا إذا لم أُعاقب أبداً. في الواقع، كانت العقوبات تقوم على أساس اقتطاع جزء من الطعام أو قطعه كلّياً عن السجين خلال مدّة محدّدة، وفيما بعد، حتى لو عاد السجين إلى النظام الغذائي الطبيعي، لا يستطيع أن يستعيد صحّته أبداً. وبعض العقوبات المشدّدة قليلاً تمنع السجين عن المقاومة وبالتالي يموت قبل أوانه. والنتيجة هي أنّه عليّ ألّا أقبل بتلقي جوز الهند والسجائر من أصدقائي، بل ولا أكتب إليهم ولا أتلقّى منهم رسائل.

وخلال ما تبقّى من الرحلة، ظللتُ أجترّ دون توقّفٍ هذا القرار. لا شيء، لا شيء البتّة، لا مع الخارج ولا مع الداخل. راودتني فكرة: السبيل الوحيد لمساعدتي من دون أن أتعرّض لخطر اقتطاع الطعام منّي هو أن يدفع أحد أصدقائي في الخارج رشوةً لموزّعي الحساء لكي يختاروا لي أكبر وأفضل قطعة من اللحم في وجبتي عند الظهيرة. وهذه مسألة سهلة، لأنّ أحد الموزّعين يسكب المرقة في القصعة، في حين يضع الموزّع الآخر الذي يسير في إثره حاملاً صينية قطعة من اللحم. عليه أن يوصل

المغرفة إلى قاع الإناء ويُعطيني حصّتي من الحساء مع أكبر كمية ممكنة من الخضار. أراحني إيجاد هذه الفكرة. ففي الواقع، سوف أستطيع أن أتغذّى جيّداً لأسدّ جوعي بل وربّما أحصل على ما يكفيني تقريباً من الطعام إذا ما دُبِّرت هذه الحيلة بنجاح. وسيكون عليّ أن أحلم وأن أُحلِّق بخيالي قدر المستطاع، وأن أختار المواضيع المفرحة من حياتي الماضية لكي لا أُصاب بالجنون.

وصلنا إلى الجزر. كانت الساعة الثالثة بعد الظهر. بالكاد نزلنا من المركب حتى رأيتُ ثوب جولييت الأصفر الفاتح، التي تقف إلى جانب زوجها. اقترب منّي آمر السجن بسرعة، حتى قبل أن يُتاح لنا الوقت لكي نصطفّ، وقال لي:

- كم سنة؟

- ثمانية أعوام.

عاد إلى زوجته وتكلّم معها. لا بدّ أنّها تأثّرت لسماع الخبر، فجلست على حجرةٍ، سارحة بخيالها. أمسك زوجها بذراعها، فنهضت وبعد أن ألقت عليّ نظرة مثقلة بعينيها الواسعتين، انصرف كلاهما من دون أن يلتفتا إلى الوراء.

سألني ديغا:

- كم سنة، يا بابيون؟

- ثمانية أعوام من الحبس الانفرادي.

لم يقل شيئاً ولم يجرؤ على النظر إلي. اقترب غالغاني وقبل أن يتكلّم، قلتُ له:

- لا ترسل لي شيئاً، ولا تكتب لي أيضاً. مع حكمٍ طويلٍ كهذا، لا أستطيع أن أجازف بتعريض نفسي للعقاب.

- فهمت.

بصوتٍ منخفض، أضفتُ بسرعة: «رتّب الأمور بحيث يُقدّم لي أفضل

ما يمكن من الطعام في منتصف الظهيرة وفي المساء. إذا استطعت أن ترتّب هذا الأمر، ربّما سنلتقي مجدّداً ذات يوم. وداعاً».

توجّهتُ طواعيةً إلى أوّل زورقٍ سينقُلُنا إلى جزيرة سان جوزيف. نظر إليّ الجميع كما لو أنّهم ينظرون إلى نعشٍ يتمّ إنزاله إلى قبر. لم يتكلّم أحد. خلال الرحلة القصيرة، كرّرتُ على شابار ما قلته لغالغاني، فأجابني:

- لا بدّ أن يكون هذا ممكناً. تشجّع يا بابي.

ثمّ قال لي:

- وماذا عن ماتيو كاربونييري؟

- اعذرني على أنني نسيته. لقد طلب رئيس المحكمة العسكرية بأن يتمّ جمع معلومات إضافية حول حالته قبل اتّخاذ القرار بشأنه، هل هذا أمرٌ جيّد أم سيّئ؟

- أظنّه أمراً جيّداً.

كنتُ في الصفّ الأوّل ضمن الطابور الصغير المكوّن من اثني عشر رجلاً الذي يصعد الساحل للوصول إلى الحبس الانفرادي. أسرعتُ الخطى واستعجلتُ الوصول لأنّه كان أمراً مثيراً للفضول أن أجد نفسي في زنزانتي المنفردة. لقد حثثتُ الخطى بقوّة إلى درجة أنّ الحارس قال لي:

- تمهّل يا بابيون. كأنّك تستعجل العودة إلى المنزل الذي هجرته منذ وقتٍ قصير.

وصلنا إلى الحبس، فصرخ الحارس بنا:

- تعرّوا جميعاً! أقدّم لكم آمر الحبس الانفرادي الذي سيتحدّث إليكم.

قال الآمر:

- يؤسفني أنّك عدّت إلى هنا، يا بابيون.

ثمّ ألقى خطابه المعتاد من قبيل: «أيّها المحكومون بالحبس الانفرادي هنا... إلخ». ثمّ توجّه إليّ وقال لي: «المبنى (أ)، الزنزانة رقم 127. إنّها

الزنزانة الأفضل يا بابيون، لأنّها تقع قبالة باب الممرّ وبذلك ستحظى بضوء أكثر ولن ينقصك الهواء أبداً. أتمنى أن تُحسن التصرّف، إذ سيمكنك أن تنال عفواً صغيراً من سنة أو سنتين. وأتمنى لك ذلك لأنّك رجلٌ شجاع».

هأنذا في الزنزانة رقم 127. وهي بالفعل تقع تماماً قبالة بابٍ كبير مشبّك بالحديد يطلّ على الممرّ. وعلى الرغم من أنّ الساعة كانت تقارب السادسة مساءً، كنتُ لا أزال أرى فيها بما يكفي من الوضوح. وليس للزنزانة طعم ورائحة العفونة كما كان الأمر في زنزانتي الأولى. وهذا ما منحني القليل من الشجاعة. قلتُ في نفسي: «عزيزي بابيون، ها هي الجدران الأربعة التي عليها أن تُشاهدك وأنت تعيش بينها خلال ثمانية أعوام. لا تعدّ الأشهر والساعات، فلا جدوى من ذلك. وإذا أردتَ أن تتّخذ مقياساً مقبولاً، فعليك أنّ تعدّ كلّ ستّة أشهر. ثلاث عشرة مرّة ستّة أشهر، وتعود حرّاً من جديد. في كلّ الأحوال، لديك ميزة، فإذا ما متّ هنا، سوف تحظى على الأقل، إن كان ذلك خلال النهار، براحة الموت تحت الضوء. وهذا أمرٌ جد مهمّ. لا بدّ أنّه ليس بالأمر المفرح أن يموت المرء في الظلام. وإذا مرضت، هنا على الأقلّ سوف يرى الطبيب فمك. ليس عليك أن تلوم نفسك على رغبتك في العودة إلى الحياة من جديد من خلال محاولة الفرار، ولا حتى، حسب قناعتي، على قتل سيليه. تخيّل مدى الألم الذي كنت ستشعر به إذا ما فكّرت بأنّه بينما تكون أنت هنا، يُغادر هو السجن هارباً. سوف يقول الزمن كلمته. ربّما يكون بوسعه أن يشهد عفواً أو حرباً أو زلزالاً أو إعصاراً يهدّ هذا الحصن. لَمَ لا؟ أن ينجح رجلٌ شريف، عائد إلى فرنسا، في التأثير في الفرنسيين وينجح هؤلاء في إرغام الإدارة التأديبية على إلغاء هذه الطريقة في إعدام الناس من دون مقصلة. ربّما يروي طبيبٌ مشمئزٌّ من هذا الوضع كلّ هذه التفاصيل لصحافيٍّ أو لخوريٍّ، ما يُدريني؟ على أيّ حال، لقد هضمت أسماك القرش سيليه منذ زمنٍ طويل، أمّا أنا، فأنا هنا وجديرٌ بثقتي بنفسي، وعليّ أن أخرج حيّاً من هذا القبر.

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، نصف استدارة؛ واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، نصف استدارة، بدأتُ بالمشي داخل الزنزانة، مسترجعاً على الفور وضعية الرأس والذراعَين، والطول الدقيق الذي ينبغي للخطوة أن تكون عليه لكي يعمل رقّاص الساعة بدقّة وعلى أكمل وجه. قرّرتُ ألّا أمشي سوى ساعتين في الصباح وساعتين بعد الظهر إلى حين أن أعرف إن كنتُ سأستطيع الاعتماد على غذاءٍ متميّزٍ في كميّته. وحرصتُ على ألّا أبدأ، وسط توتّر الأيام الأولى هذا، بهدر طاقتي من دون جدوى.

نعم، إنّه من المؤسف والمثير للأسى أن نفشل في النهاية. صحيحٌ أنّ هذا لم يكن سوى الجزء الأوّل من عملية الفرار، وكان علينا أن نقوم برحلة سعيدة من أكثر من مئة وخمسين كيلومتراً على متن ذاك القارب الهزيل. وحسب المكان الذي كنّا سنصل إليه على البر الرئيسي، كان علينا أن نقوم من جديد بعملية فرار. لو أنّ النزول إلى المياه قد سار على ما يُرام، لكان الشراع المصنوع من أكياس الطحين دفع القارب بسرعة تزيد عن عشرة كيلومترات في الساعة. وكنّا سنصل إلى اليابسة في غضون أقلّ من خمس عشرة ساعة، وربّما في غضون اثنتي عشرة ساعة. وبالطبع لو كان المطر يهطل في النهار، لأنّه كنّا نستطيع أن نجازف بنشر الشراع فقط أثناء هطول المطر. أعتقد أنني أتذكّر بأنّه في اليوم التالي للذي أودِعتُ فيه المنفردة، هطل المطر. لستُ متأكّداً من ذلك. أحاول أن أعثر على الأخطاء المرتكبة أو سوء تصرّفٍ، فلم أجد منها سوى اثنين. الخطأ الأوّل هو أنّ النجّار أراد أن يصنع قارباً في غاية الجودة، وفي غاية الأمان، وبالتالي كان عليه، من أجل طمر جوز الهند، أن يصنع غلافاً الأمر الذي جعله كمن يصنع قاربين أحدهما داخل الآخر. ومن هنا حضّر الكثير من القطع واحتاج إلى الكثير من الوقت لكي يقوم بذلك بحذر واحتراس.

أمّا الخطأ الثاني والأكثر فداحة فهو أنني لم أقتل سيليه منذ أوّل شكٍّ جدّي في أمره. تُرى أين كنتُ الآن، لو أنني فعلتُ ذلك؟ حتى لو تمّ إحباط محاولتي على البر الرئيسي أو تمّ توقيفي في لحظة النزول إلى البحر، ما

كنتُ سأُعاقب سوى بثلاثة أعوام من السجن وليس ثمانية أعوام، ولكنتُ راضياً بما حدث. تُرى أين كنتُ الآن لو أنّ كلّ شيء سار على ما يُرام في الجزر أو في البر الرئيسي؟ لكم أن تتخيّلوا. ربّما كنتُ أتحدّثُ الآن مع بوين في ترينيداد، أو في كوراساو أحظى بحماية الأسقف إيرينيه دو بروين. ومن هناك، ما كنّا لنغادر إلا بعد التأكّد من أنّ هذه الدولة أو تلك ستقبل باستضافتنا. وبعكس ذلك، كان من السهل عليّ أن أعود بمفردي مباشرةً على متن زورقٍ صغير إلى قبيلتي الهندية غواجيرا.

نمتُ في وقتٍ متأخّر جدّاً، واستطعتُ أن أنام نوماً طبيعياً. ولم تكن الليلة الأولى هذه مُحبطة كثيراً. الحياة، الحياة، الحياة. علي أن أُردّد كلمة الأمل هذه ثلاث مرّات، كلّما شعرتُ بأنني أُشارف على الاستسلام لليأس: «طالما هناك حياة، هناك أمل».

مرّ أسبوعٌ. منذ البارحة، لاحظتُ تغيّراً في كميّة الغذاء، إذ قُدّمت لي قطعةٌ رائعة من اللحم المسلوق في وجبة منتصف الظهيرة، وقصعةٌ من حساء العدس الكثيف، من دون ماءٍ تقريباً. وقلتُ بلهفة طفلٍ: «العدس يحتوي على حديد، وهذا مفيدٌ جدّاً للصحّة».

إذا ما استمرّ تقديم الطعام لي بهذه الكمية، سأستطيع أن أمشي من عشر إلى اثنتي عشرة ساعة في النهار، وفي المساء، وقد نال منّي التعب، سأكون في حالة ترحالٍ وسط النجوم. كلا، أنا لا أجول في الخيال، بل أنا على الأرض، أنا على أرض الواقع تماماً، أُفكّر بكلّ أحوال السجناء المحكومين بالأشغال الشاقّة الذين عرفتهم في الجزر. لكلٍّ حكايته، قبل وأثناء السجن. أُفكّر بالأساطير مثلما رُويت في الجزر. إحدى تلك الأساطير التي وعدتُ نفسي أن أتحقّق منها إذا ما قيض لي ذات يوم أن أصبح في الجزيرة، هي أسطورة الناقوس.

كما أسلفتُ القول، إنّ السجناء المحكومين بالأشغال الشاقّة لا يُدفنون إن ماتوا، وإنّما يُرمى بهم في البحر بين جزيرتي سان جوزيف ورويال، في مكانٍ يعجّ بأسماك القرش. يُلفّ الميّت في أكياس الطحين،

ويُربط بقدميه حبلٌ مع حجرة ضخمة. يوضع صندوقٌ مستطيل، هو نفسه دائماً، أفقياً في مقدّمة المركب. حينما يصل المركب إلى المكان المحدّد، يرفع ستّة من المجدّفين المحكومين بالأشغال الشاقّة مجاديفهم بشكلٍ أفقي إلى مستوى الحافة العليا للمركب، ثمّ يميل رجلٌ الصندوق ويفتحُ آخرُ ما يشبه فتحةً، فتنزلق الجثّة إلى البحر. من المؤكّد، وهذا لا يرقى إليه الشكّ، أنّ أسماك القرش تقطع الحبل مباشرةً، ولا يحظى أيّ ميتٍ على الإطلاق بفرصة الغوص عميقاً. تطفو الجثّة على السطح وتبدأ أسماك القرش بالتنازع على هذه القطعة النفيسة بالنسبة لها. ويقول الذين شاهدوا المشهد أنّ رؤية التهام رجلٍ مِن أسماك القرش مؤثّرة للغاية لأنّه حينما تكون أسماك القرش كثيرة العدد تنجح في رفع الكفن مع محتواه خارج المياه وتنتزع قطع كبيرة من الجثّة بعد تمزيق أكياس الطحين.

جرى هذا كما وصفته تماماً، ولكن هناك أمرٌ لم أستطع التحقّق منه. يقول المحكومون، دون استثناء، أنّ ما يجذب أسماك القرس إلى هذا المكان هو صوت الناقوس الذي يُدقّ في الكنيسة عندما يكون هناك ميّت. يبدو أنّه حينما تكون على طرف رصيف جزيرة رويال في الساعة السادسة مساءً، هناك أيام لا تجد فيها أيّ سمكة قرش. وعندما يُقرَع ناقوس الكنيسة الصغيرة، يمتلأ المكان بأسماك القرش في غمضة عين في انتظار جثّة الميّت، لأنّه ليس هناك أيّ شيء يبرّر تدفّقها إلى هذا المكان في هذه الساعة بعينها. تمنّوا لي ألّا أكون وجبةً لأسماك القرش في جزيرة رويال في ظروفٍ مشابهة.

لا بأس أن تلتهمني وأنا على قيد الحياة، فعلى الأقلّ سيكون ذلك في سبيل البحث عن حريتي. ولكن أن يكون ذلك بعد موتٍ بسبب المرض في زنزانة، فهذا ما لا أريده، ولا يجب أن يحدث.

ولأنني أتناول الطعام ملء بطني بسبب الترتيب الذي دبّره أصدقائي، أجد نفسي في صحّة ممتازة. أمشي من الساعة السابعة صباحاً لغاية السادسة مساءً دون توقّف. ولذلك، فإنّ قصعة المساء المليئة بالخضار

الجافّة من فاصولياء أو العدس أو الحمّص المجروش أو الرزّ بالدهن لم تكن تدوم طويلاً أمامي. كنتُ أتناولها كلّ يوم بالكامل دون أن أرغم نفسي على ذلك. والمشي ينفعني كثيراً، وهذا التعب الذي يسبّبه لي صحّي وبفضله أستطيع أن أسرح بخيالي لأعيش في الخارج وأنا أمشي داخل الزنزانة. البارحة مثلاً، أمضيتُ كلّ النهار في مروج بلدة صغيرة في أرديش تُدعى فافراس. كنتُ أذهب غالباً، بعد أن ماتت أمّي، لأمضي بضعة أسابيع في بيت خالتي، شقيقة أمّي التي كانت معلّمة في هذه البلدة. إذاً، البارحة كنتُ افتراضياً في غابات أشجار الكستناء، أجمع الفطر، ثمّ أسمع صديقي الصغير، حارس الخراف يصرخ في كلب الراعي ويعطيه الأوامر التي ينفّذها الكلب على أكمل وجه لكي يُعيد خروفاً شارداً أو يُعاقب عنزة سريعة الجري. والأفضل من هذا، حتى برودة ماء نبع المياه المعدنية كانت تعود إلى فمي، وكنتُ أشعر بدغدغة الفقاعات الدقيقة التي كانت تصعد إلى أنفي. هذا التصوّر بصورة حقيقية للحظات مضى عليها أكثر من خمسة عشر عاماً، وهذه القدرة على أن أعيشها من جديد حقّاً بكثيرٍ من التكثيف، لا يمكن له أن يتحقّق إلّا في الزنزانة، بعيداً عن كلّ ضجيج، وسط الصمت المطبق.

بل أرى اللون الأصفر لفستان الخالة أوتين. وأسمع همس الرياح بين أشجار الكستناء، والضجيج الحاد الذي تصدره صرّة كستناء عندما تسقط على الأرض الجافّة، والضجيج الخافت حينما تتلقّاها طبقة من أوراق الشجر. يخرجُ خنزيرٌ برّي ضخم من أعالي أشجار الوزّال ويُصيبني بخوفٍ شديد فأنطلق جرياً وأفقد في ذُعري قسماً كبيراً من الفطور التي كنتُ قد جمعتها. نعم لقد أمضيتُ (وأنا أمشي) كلّ النهار في فافراس مع خالتي وصديقي الصغير راعي المصلحة العامّة، جوليان. هذه الذكريات التي أعيشها مجدّداً، والمفعمة بالحنان والصفاء والوضوح، لا أحد يستطيع أن يمنعني من أن أسير فيها وأنهل منها السلام الضروري لروحي المحطّمة.

بالنسبة إلى المجتمع، أنا في واحدة من عدّة زنزانات في السجن

(آكل البشر). في الواقع، سرقتُ منهم نهاراً كاملاً، وأمضيتُه في فافراس وسط المروج وأشجار الكستناء، بل وشربتُ من المياه المعدنية من النبع المُسمّى (بيشيه). ها قد مرّت الأشهر الستة الأولى. وكنتُ قد وعدتُ نفسي أن أحسب بستّة أشهر؛ إذاً لقد وفيتُ بوعدي. هذا الصباح فقط، خفّضتُ العدد من ستة عشر إلى خمسة عشر... لم يعد أمامي سوى خمس عشرة مرّة ستة أشهر.

دعونا نستعرض ما جرى خلال الأشهر الستة الأولى. لم يقع أيّ حادث شخصي خلال الأشهر الستة هذه. جرى تقديم الطعام نفسه دائماً، ولكن أيضاً دائماً بجراية مناسبة جدّاً، وبفضلها لم أعانِ من مشكلات صحية. وقعت من حولي حالات انتحار كثيرة، وجُنّ الكثير من السجناء، ولحسن الحظ تمّ نقلهم سريعاً، لأنّه من المحبط أن تسمع صرخات وصيحات شكوى وتذمّر وآنّات لساعات وأيام كاملة. لقد وجدتُ حيلة مناسبة لتحاشي تلك الأصوات، ولكنها ضارّةٌ بالأذنين. قطعتُ قطعتين من الصابون ودسستهما في أذنيّ بحيث لا أعود أسمع هذه الصرخات المرعبة. ولكن لسوء الحظّ، أوجع الصابون أذنيّ وسال منهما بعد يوم أو يومين.

للمرّة الأولى منذ وجودي في سجن الأشغال الشاقّة، تنازلتُ لطلب شيءٍ ما من حارسٍ. في الوقع، كان أحد المراقبين الذين يقدّمون الحساء من بلدة مونيليمار، القريبة من بلدتي. وقد تعرّفتُ عليه في جزيرة رويال وطلبتُ منه أن يحضر لي كرة من الشمع لتساعدني في تحمّل أصوات صيحات المجانين قبل أن يتمّ نقلهم. وقد جلب لي في اليوم التالي كرة كبيرة من الشمع بحجم جوزة. وقد نعمتُ براحة كبيرة إذ لم أعد أسمع الصيحات الرهيبة لهؤلاء التعساء.

لقد تدرّبتُ كثيراً على تحاشي كثيرات الأرجل الضخمة، فخلال ستة أشهر، لم تعضّني سوى مرّة واحدة. كنتُ أقاوم على نحوٍ ممتاز حينما أستيقظ وأجد واحدة منها تجول فوق جسمي العاري. يعتاد المرء في

الزنزانة على كلّ شيء، وهذه مسألة تحكّم بالذات وضبط للنفس، لأنّ هذه الدغدغات التي تسبّبها قوائم وقرون الاستشعار لهذه الحشرات في غاية الإزعاج. ولكن إذا ما أمسك المرء بها بطريقة خاطئة، يتعرّض للسعاتها. من الأفضل الانتظار إلى أن تنزل من تلقاء نفسها، ومن ثَمّ البحث عنها وسحقها. على مقعدي الإسمنتي، كنتُ أترك دائماً قطعة أو قطعتين صغيرتين من خبز اليوم. كانت رائحة الخبز تجذبها بالضرورة وتضطرّ للمجيء إلى هذا المكان، وعندئذٍ أقتلها.

عليّ أن أطرد من ذهني فكرة تُضايقني كثيراً، وهي: لماذا لم أقتل بيبير سيليه في اليوم نفسه التي حامت فيه شكوكنا حول دوره المشؤوم؟ فكنتُ على الدوام أتناقش مع نفسي متسائلاً: متى يحقّ لنا أن نقتل أحداً؟ ثم أصل إلى الخلاصة: الغاية تبرّر الوسيلة. غايتي كانت النجاح في فراري من المعسكر، وكانت لديّ الفرصة في أن أُجهّز قارباً ممتازاً، وأن أخفيه في مكانٍ آمن. وكان الرحيل مسألة أيام. وطالما أنني عرفتُ الخطر الذي كان يمثّله سيليه على القطعة قبل الأخيرة من المركب، والتي وصلت بمعجزة إلى شاطئ الأمان، كان عليّ أن أقتله دون تردّد. وماذا لو كنتُ مخطئاً في تقديري، وماذا لو كانت الدلائل على خطورة سيليه زائفة؟ لكنتُ قد قتلتُ نفساً بريئة. يا للهول! ولكنّه من غير المنطقي أن تفرض على نفسك مشكلة الضمير، وأنت السجين المحكوم بالأشغال الشاقة المؤبّدة – والأنكى، أنّك محكومٌ بثمانية أعوام بالسجن الانفرادي لقضاء عقوبةٍ إلى الأبد.

من تظنّ نفسك، أيّها النفاية الضائعة، التي تُعامل كرجسٍ من أرجاس المجتمع؟ أودّ أن أعرف إن كان المحلّفون الأوغاد الاثنا عشر الذين حكموا عليك سألوا نفسهم مرّة واحدة ليعرفوا إن كانوا حقّاً، في ضمائرهم، قد أحسنوا في الحكم عليك بهذه القسوة وبهذا الحكم الجائر للغاية. وإن كان المدّعي العامّ، الذي لم أقرّر بعد بماذا سأقتلع لسانه، هو الآخر قد سأل نفسه إن لم يكن قاسياً بعض الشيء عليّ في مرافعته.

حتى أنّ المحامين الذين دافعوا عنّي لا يتذكّرونني بكلّ تأكيد. لا بدّ أنّهم يتكلّمون بعبارات عامّة «حول قضية بابيون التعيسة هذه» في المحاكمات التي جرت في عام 1932: «أتعلمون يا زملاء، في ذلك اليوم، لم أكن في كامل لياقتي وتركيزي الذهني، وعلاوة على ذلك، كان المحامي العام براديل في أفضل أيامه. لقد اختطف هذه القضية لمصلحة جهة الاتّهام بطريقة بارعة. إنّه بالفعل خصمٌ من الطراز الرفيع».

سمعتُ كلّ هذا كما لو كنتُ بجانب المحامي ريمون هوبير في حديثٍ بين المحامين، أو في اجتماعٍ عادي أو بالأحرى في أحد ممرّات القصر العدلي.

شخصٌ واحدٌ، بكلّ تأكيد، يمكن أن يكون له موقفٌ مبدئي ونزيه، وهو الرئيس بيفان. يستطيع هذا الرجل الحيادي بالفعل أن يتحدّث بين زملائه أو في اجتماعٍ عادي حول خطر الحكم على إنسانٍ من خلال المحلّفين. لا شكّ أنّه سيقول بكلماتٍ منتقاة، بالطبع، أنّ المحلّفين الأوغاد الاثني عشر في المحكمة ليسوا مؤهّلين لتحمّل مسؤوليةٍ كهذه، وأنّهم يتأثّرون للغاية بسحر الاتّهام أو الدفاع، حسب الذي يُسيطر في هذه المبارزة الخطابية؛ وأنّهم يُبرّؤون متّهماً باستعجالٍ بالغٍ أو يحكمون على آخرَ دون أن يعرفوا كيف حدث ذلك، وذلك حسب الجوّ الإيجابي أو السلبي الذي ينجح في خلقه الطرف الأقوى من بين طرفي الدعوى.

الرئيس وأسرتي أيضاً، نعم أسرتي أيضاً، ولكنّ أسرتي قد تحقد عليّ قليلاً بسبب المتاعب التي خلقتها لها بلا شكّ. رجلٌ واحد، أبي، نعم أبي المسكين، لا بدّ أنّه الرجل الوحيد الذي لا يتذمّر من الصليب الذي ألقى به ابنه على كاهله، وأنا واثقٌ من ذلك. هذا الصليب الثقيل، يحمله أبي دون أن يتّهم ابنه، ودون أن يلومه على أيّ شيء، وهو كمعلّم يحترم القوانين، بل ويُعلّم الآخرين فهمها واحترامها. أنا واثقٌ من أنّ قلبه يصرخ في أعماقه: «أيّها الأوغاد، لقد قتلتم ابني، والأنكى من ذلك، لقد حكمتم عليه بالموت البطيء وهو لا يزال في الخامسة والعشرين من

عمره!» لو أنّه كان يعلم أين ابنه وما الذي يفعلون به، لأصبح قابلاً لأن يغدو متمرّداً فوضوياً.

هذه الليلة، استحقّ السجن (آكل البشر) اسمه أكثر من أيّ وقتٍ مضى. علمتُ أنّ هناك مشنوقَين، وآخرُ خنق نفسه بدسّ خرقٍ في فمه ومنخريه. الزنزانة رقم 127 قريبة من المكان الذي يبدّل فيه الحرّاس مناوبتهم وأسمع في بعض الأحيان بعض النتف من أحاديثهم. هذا الصباح على سبيل المثال، لم يتكلّموا بصوتٍ منخفضٍ بما فيه الكفاية لكي لا أسمع ما يقولونه حول الحوادث التي وقعت في الليل.

مرّت ستة أشهرٍ أخرى، فأجريتُ استعراضاً لما حصل خلالها وحفرتُ على الخشب بخطٍّ جميل الرقم «14». كان لديّ مسمارٌ أستخدمه كلّ ستة أشهر مرّة واحدة. نعم أجريتُ تقييماً للوضع، ووجدتُ أنّ الصحّة لا تزال جيّدة ولدي معنويات عالية.

بفضل رحلاتي وسط النجوم، كان من النادر جدّاً أن أُعاني من نوبات يأسٍ طويلة. كنتُ أتغلّب عليها سريعاً جدّاً وأصنع من كلّ الأجزاء رحلة واقعية أو خيالية كاملة تطرد من ذهني الأفكار السيئة. وقد ساعدني موت سيليه كثيراً في أن أكون المنتصر في لحظات الأزمات الحادّة هذه. قلتُ: أنا أعيش، أنا أعيش، أنا على قيد الحياة، ويجب أن أحيا، وأحيا، وأحيا لكي أعود حرّاً ذات يوم. أمّا هو الذي منعني من الهروب، فقد مات ولن يكون حرّاً أبداً كما سأكون ذات يوم، هذا مؤكّد لا يرقى إليه الشكّ. على أيّ حال، إذا خرجتُ وأنا في الثامنة والثلاثين من عمري، لن أكون عجوزاً، وسيكون الهروب القادم ناجحاً، وأنا متأكّدٌ من ذلك.

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، نصف استدارة أخرى. منذ بضعة أيام، اسودّت ساقاي ونزف الدم من لثّتي. هل أُخبرهم بأنني مريض؟ ضغطتُ بإبهامي على أسفل ساقي، فظلّ أثره مطبوعاً على ساقي. شعرتُ وكأنّ جسمي مليءٌ بالماء. منذ أسبوع، لم أعد أستطيع المشي لعشر أو اثنتي عشرة ساعة في اليوم، وأصبحتُ أشعرُ بإرهاقٍ شديد من جراء المشي

لست ساعات فقط في مرّتين. حينما غسلتُ أسناني، لم أعد أستطيع فركها بالمنشفة الخشنة المغطّسة بالصابون دون أن أتألّم وأنزف بغزارة. بل سقطت إحدى أسناني من تلقائها البارحة، أحد القواطع من الفكّ العلوي.

لقد انتهت هذه الأشهر الستة الجديدة بثورة حقيقية. في الواقع، جعلونا البارحة نُخرِجَ جميعاً رؤوسنا من الكوّات المفتوحة في الباب، ومرّ طبيبٌ علينا كان يرفع شفتي كلّ واحدٍ منّا. وهذا الصباح، وبعد ثمانية عشر شهراً بالضبط من وجودي في هذه الزنزانة، فُتِح باب زنزانتي، وقيل لي:

- اخرج، وقف باتجاه الجدار وانتظر.

كنتُ الأوّل بجانب الباب، وخرج ما يُقارب سبعين رجلاً. قيل لنا: «يساراً، دُر»، فاستدرتُ ووجدتُ نفسي الأخير في رتلٍ ينصرف نحو الطرف الآخر من المبنى ويخرج إلى الباحة.

إنّها الساعة التاسعة صباحاً. كان طبيبٌ شاب يرتدي قميصاً كاكياً قصير الكمّين يجلس في الهواء الطلق، وراء طاولة خشبية صغيرة. ويقف بالقرب منه ممرّضان من المحكومين بالأشغال الشاقّة، ومراقبٌ ممرّض. كان الجميع، بما فيهم الطبيب، مجهولين بالنسبة لي. وكان عشرة حرّاس مدجّجين بالسلاح يغطّون الحفلة. يقف آمر السجن ورئيس الحرس دون أن يتفوّها بكلمة واحدة.

ثمّ صرخ رئيس الحرس فينا:

- تعرّوا جميعاً. ضعوا ثيابكم تحت إبطكم. الأوّل، ما اسمك؟

- فلان...

- افتح فمك، باعد بين ساقيك. اقلع له هذه الأسنان الثلاث. كحول باليود أوّلاً، ثمّ أزرق الميثيلين، شراب كوكلياريا مرّتين قبل الطعام.

كنتُ آخر من يمرّ أمامه.

- ما اسمك؟

- شارير.

- هه! أنت الوحيد الذي لديه جسم حسن المظهر. هل وصلت حديثاً؟

- كلا.
- منذ متى أنت هنا؟
- اليوم أكملتُ ثمانية عشر شهراً.
- لماذا لست نحيفاً مثل الآخرين؟
- لا أعلم.
- حسناً، أنا سأخبرك بالسبب. لأنّك تأكل أكثر منهم، أو ربّما تستمني أقلّ منهم. افتح فمك، وباعد بين ساقيك. حبتا ليمون في اليوم: واحدة في الصباح، وأخرى في المساء. مصّ الليمونة ومرّر عصيرها على لثّتك، فأنت تعاني من داء الإسقربوط.

نظّفوا لثّتي بالكحول مع اليود، ثمّ مسحوها بأزرق الميثيلين، وأعطوني ليموناً. استدرنا، فأصبحتُ الأخير في الرتل من جديد وعدتُ إلى زنزانتي.

ما حدث للتوّ كان بمثابة ثورة حقيقية، أن يقوموا بإخراج السجناء إلى الباحة ويجعلوهم يرون الشمس، ويعرضوهم على الطبيب تحت الشمس. لم يسبق أن رأى أحدٌ هذا يحدث في السجن الانفرادي. تُرى ما الذي يحدث؟ هل حدث بمحض الصدفة ورفض أحد الأطباء أخيراً أن يكون المتواطئ الصامت حيال هذا النظام الشهير؟ هذا الطبيب، الذي سيصبح لاحقاً صديقي، يُدعى جيرمان غيبير. وقد مات في الهند الصينية. كتبت لي زوجته ذلك في ماراكايبو في فنزويلا بعد ذلك اليوم بسنوات كثيرة.

كلّ عشرة أيام، أخرج مرّة واحدة إلى الباحة تحت الشمس. وفي كلّ مرّة أتلقّى الوصفة نفسها: كحول باليود، أزرق الميثيلين، ليمونتان. لم تتدهور حالتي، ولكنّها أيضاً لم تتحسّن. طلبتُ مرّتين شراب كوكلياريا، وفي المرتين رفض الطبيب أن يُعطيني منه، الأمر الذي بدأ يثير غضبي لأنني ما زلت لا أستطيع أن أمشي لأكثر من ست ساعات في اليوم ولأنّ أسفل ساقيّ لا يزال منتفخاً ومسودّاً.

ذات يوم، منتظراً دوري لأمرّ أمام الطبيب، لاحظتُ أنّ الشجيرة

الهزيلة التي أحتمي بها قليلاً من الشمس هي شجرة ليمون لا ثمار فيها. قطفتُ ورقةً منها ومضغتها، ومن ثَمّ وبحركة تلقائية، قطعتُ طرف غصنٍ صغير مع بضع أوراق، دون فكرة مسبقة. حينما ناداني الطبيب، دسستُ الغصن الصغير في مؤخرتي، وقلتُ له:

- دكتور، لا أعرف إذا كان هذا بسبب الليمون الذي أعطيتموني، ولكن انظر ما الذي نبت في مؤخّرتي.

واستدرتُ وغصن الليمون مع أوراقه في مؤخّرتي.

انفجر الحرّاس ضاحكين في البداية، ثمّ قال لي رئيس الحرس:

- سوف تُعاقَبُ يا بابيون على عدم احترامك للطبيب.

قال الطبيب:

- على الإطلاق. لا يجوز لكم أن تعاقبوا هذا الرجل لأنني لا أشتكي عليه. ألم تعد تريد ليموناً؟ أهذا ما تُريد قوله؟

- نعم يا دكتور، لقد سئمتُ الليمون، فهو لا يشفيني. أريدُ أن أُجرّب شراب كوكلياريا.

- لم أعطِكَ من هذا الشراب لأنّه لديّ القليل جدّاً منه، وأحتفظ به للمرضى الذين يعانون من أمراضٍ شديدة. ومع ذلك سوف أعطيك كلّ يوم ملعقة منه، بالإضافة إلى الليمون.

- دكتور، لقد شاهدتُ هنوداً يأكلون طحالب البحر، والحال أنني رأيتُ الطحالب نفسها في جزيرة رويال. ولا بدّ أن تكون هذه الطحالب موجودة في جزيرة سان جوزيف أيضاً.

- أنت تعطيني فكرة ثريّة. سوف أجعلهم يوزّعون عليكم يومياً بعض الطحالب التي رأيتها بالفعل بنفسي على شاطئ البحر. هل يأكلها الهنود مطبوخةً أم نيئة؟

- نيّئة.

- حسناً، شكراً لك، وأريد، يا سيّدي الآمر على نحوٍ خاصّ ألّا يُعاقَب هذا الرجل، وأنا أعتمد عليك في ذلك.

- حسناً، أيّها النقيب.

حدثت معجزة. خروج السجين إلى الشمس لمدّة ساعتين كلّ ثمانية أيام، إمّا لانتظار دوره في زيارة الطبيب، أو ليستطيع الآخرون أن يمرّوا، ويروا وجوهاً، ويتهامسوا ببعض الكلمات؛ من كان بوسعه أن يحلم حتى بأن يحدث شيءٌ مذهل كهذا؟ كان هذا تحوّلاً رائعاً بالنسبة للجميع: نهض الأموات وساروا تحت الشمس؛ هؤلاء المدفونون على قيد الحياة، بوسعهم أخيراً أن يتفوّهوا ببضع كلمات. إنّها عبوة أكسجين تبثّ في كلّ واحدٍ منّا الحياة.

تصاعدت أصوات لامتناهية لقرقعة المفاتيح التي فتحت جميع أبواب الزنازين في الساعة التاسعة من صباح أحد أيام الخميس. أُمرنا بأن يقف كلّ واحدٍ منّا على عتبة باب زنزانته. ثمّ صرخ أحدهم: «أيّها السجناء، تفتيش من جانب الحاكم».

حضر الحاكم برفقة خمسة ضبّاط من المستعمرة، وهم جميعاً أطبّاء بكلّ تأكيد. مرّ الحاكم، وهو رجلٌ طويل القامة وأنيق، وقد غزا الشيب رأسه، بخطى وئيدة في طول الممرّ أمام جميع الزنازين. سمعتُهم يشيرون له على العقوبات طويلة الأمد وسبب الحكم بها على السجين. قبل أن يصل إليّ، رفع الحرّاس رجلاً عن الأرض لم يكن بوسعه أن ينتظر طويلاً واقفاً على قدميه. إنّه أحد آكلي لحوم البشر، واسمه غرافيل.

قال أحد العسكريين:

- إنّ هذا الرجل عبارة عن جثّة متنقّلة!

أجاب الحاكم:

- الجميع في حالةٍ يُرثى لها.

وصلت البعثة إليّ، فقال الآمر:

- هذا صاحب العقوبة الأطول في السجن الانفرادي.

قال الحاكم:

- ما اسمك؟

- شاريير.

- ما هي عقوبتك؟

- ثمانية أعوام بتهمة سرقة مواد للدولة، وجريمة قتل، أي ثلاث وخمس سنوات، دون دمج العقوبتين.

- كم أمضيت منها؟

- ثمانية عشر شهراً.

- كيف سلوكه؟

قال الآمر:

- حسن السلوك.

سألني الحاكم:

- وكيف صحّتك؟

ردّ الطبيب نيابةً عنّي:

- مقبولة.

- ماذا لديك لتقوله؟

- أقول إنّ هذا النظام غير إنساني ولا يليق بشعبٍ كالشعب الفرنسي.

- ما هي الأسباب؟

- يُفرَضُ علينا صمتٌ مطبق، ويُمنع عنّا الخروج للاستراحة، وحتى قبل بضعة أيام، لم تكن هناك عناية طبية.

- اصمد جيّداً، وربما ستنال عفواً إذا ما بقيتُ حاكماً.

- شكراً لك.

بدءاً من هذا اليوم، وبأمرٍ من الحاكم ورئيس الأطباء اللذين قدما من مارتينيك وكايين، تمتّع السجناء كلّ يوم بساعةٍ من التنفّس مع الاستحمام في البحر، في ما يشبه مسبحاً يكون فيه السابحون محميين من أسماك القرش بكتل كبيرة من الأحجار المصفوفة على شكل جدار.

نتزل كلّ صباح في الساعة التاسعة في مجموعات من مئة سجين من السجن الانفرادي عراةً بالكامل إلى حوض الاستحمام. وكان على زوجات وأطفال المراقبين أن يبقوا في بيوتهم لكي نستطيع أن ننزل إلى البحر عراة.

استمرّ الوضع على هذا الحال لمدّة شهر. تغيّرت وجوه الرجال تماماً. لقد أحدث هذا الخروج إلى الشمس لمدّة ساعة كلّ يوم، وهذا الاستحمام في مياه البحر المالحة، والقدرة على التكلّم مع الآخرين لساعة كلّ يوم، تحوّلاً جذرياً في هذا القطيع من السجناء المحبوسين انفرادياً، المرضى نفسياً وجسدياً.

ذات يوم، لدى العودة من حوض الاستحمام إلى الحبس الانفرادي، كنتُ بين أواخر العائدين، عندما سمعنا صرخات يائسة لامرأة وصوت طلقتي مسدّس. سمعتها تقول:

– النجدة! طفلتي تغرق!

جاءت الصرخات من الرصيف الذي لم يكن سوى منحدرٍ إسمنتي داخلٍ في البحر والذي ترسو على جانبيه القوارب. وسمعتُ صيحات أخرى تقول:

– أسماك القرش.

ثمّ سمعتُ صوت طلقتي مسدّس أخريين. ولأنّ الجميع التفتوا نحو نداءات الاستغاثة هذه وطلقات المسدّس، دفعتُ دون تفكيرٍ حارساً وانطلقتُ عارياً تماماً أركض نحو الرصيف. حينما وصلت، رأيتُ امرأتين تصرخان مثل ضائعتين وثلاثة مراقبين وبعض العرب.

صرخت المرأة:

– ارم بنفسك في الماء! إنّها ليست بعيدة! أنا لا أُجيد السباحة، وإلّا لذهبت إليها. عصبة جبناء!

قال حارسٌ:

– أسماك القرش.

وأطلق الرصاص من جديد على أسماك القرش.

طفت طفلةٌ بثوبها الأزرق والأبيض على سطح البحر، يجرفها بهدوء تيار ضعيف. ذهبت بخطٍّ مستقيم نحو ملتقى التيارات الذي يُستخدم مقبرة لجثث السجناء الموتى، ولكنّها كانت لا تزال بعيدة عنه. لم يتوقّف الحرّاس عن إطلاق الرصاص وقد أصابوا بكلّ تأكيد العديد من أسماك القرش لأنّه كانت هناك دوّامة بالقرب من الطفلة.

صرختُ في الحرّاس:

- كفّوا عن إطلاق الرصاص.

ودون تفكير، ألقيتُ بنفسي في الماء. بمساعدة التيار، توجهتُ بسرعة كبيرة نحو الطفلة التي كانت لا تزال تطفو على السطح بسبب ثوبها، وهي تضرب بقدميها بكلّ ما أوتيت من قوّة لإبعاد أسماك القرش عنها.

لم يعد يُبعدني عنها سوى ثلاثين أو أربعين متراً عندما جاء قاربٌ خارجٌ من جزيرة رويال شاهد المشهد من بعيد. وصل القارب إلى الطفلة قبلي، وانتشلها ووضعها في مأمن. بكيتُ غضباً وحنقاً، دون حتى أن أفكّر بأسماك القرش، حينما صعدتُ بدوري إلى متن القارب. لقد عرّضتُ حياتي للخطر في سبيل لا شيء...

بالأحرى، هكذا ظننت لأنّه بعد شهرٍ من تلك الحادثة، ومن خلال نوعٍ من المكافأة، حصل الدكتور جيرمان غيبير على قرارٍ بتعليق عقوبتي في السجن الانفرادي لأسبابٍ صحية.

الدفتر الثامن

العودة إلى جزيرة رويال

الجواميس

إذاً، لقد عدتُ بأعجوبةٍ حقيقية كسجينٍ يقضي العقوبة العادية في جزيرة رويال، التي كنتُ قد غادرتها بحكمٍ لمدّة ثمانية أعوام وبسبب محاولة إنقاذ الطفلة هذه، عدتُ إليها بعد تسعة عشر شهراً.

التقيتُ بأصدقائي، من ديغا الذي لا يزال محاسباً، وغالغاني المراسل، وكاربونييري الذي بُرِئت ساحته في قضية هروبي، وغرانديه، وبورسيه النجّار، ورَجُلَي العربة: ناريك وكينيه، وشاتال العامل في المستوصف، وشريكي في الهروب الأوّل، ماتوريت الذي لا يزال في جزيرة رويال، ويعمل مساعد ممرّض.

ولصوص الأدغال الكورسيكية كلّهم هنا: إيساري وفيسبولي وسيزاري، ورازوري، وفوسكو، وموكوير وشابار الذي أعدم بالمقصلة لاغريف في قضية البورصة في مرسيليا. ونجوم الصحافة الصفراء من عام 1927 إلى 1935 كلّهم هنا.

كان مارسينو قاتل دوفرين قد قضى نحبه الأسبوع المنصرم بسبب الضمور الجسدي من جرّاء نقص التغذية. في ذلك اليوم، حظيت أسماك القرش بوجبة مختارة، فقد قُدِّم لها أحد الخبراء المعتبَرين في الأحجار الكريمة في باريس.

وبارات، الذي أُطلقَ عليه لقب (الممثلّة الكوميدية)، بطل كرة المضرب، ومليونير ليموج، الذي قتل سائقاً وصديقه العزيز الحميم، الحميم للغاية. بارات هو رئيس المخبر والصيدلي في مستشفى رويال. وزعم طبيبٌ فكِهٌ أنّ المرء يُصابُ بمرض السلّ في الجزر بفعل حقّ التفخيذ.

باختصار، كان وصولي إلى جزيرة رويال مفاجأةً مدوّية. حينما دخلتُ من جديد إلى مبنى الرؤوس الكبيرة، كان صباح يوم السبت، وكان الجميع تقريباً حاضرين، واحتفل الجميع دون استثناء بي وأظهروا صداقتهم. حتى الرجل صاحب الساعات الذي لا يتكلّم أبداً منذ الصباح الشهير الذي كانوا سيعدمونه فيه بالمقصلة خطأً، تجشّم عناء المجيء إليّ وإلقاء التحية عليّ.

– إذاً، يا أصدقائي، هل أنتم جميعاً بخير؟

– نعم، يا بابي، مرحباً بعودتك.

قال غرانديه:

– لا يزال مكانك محفوظاً. لقد بقي شاغراً منذ اليوم الذي غادرت فيه.

– شكراً لكم جميعاً. ما الجديد؟

– خبرٌ سارّ.

– ما هو؟

– هذه الليلة، في المهجع، عُثِرَ على العربي الذي وَشَى بك والذي كان يُراقبك من أعلى شجرة جوز الهند مقتولاً. لا شكّ أنّ أحد أصدقائك لم يشأ أن تلتقي به حيّاً فوفّر عليك قتله.

– بالتأكيد، أودّ أن أعرف من هو لكي أشكره على صنيعه.

– ربّما سوف يُخبرك بذلك ذات يوم. لقد عُثِرَ عليه هذا الصباح أثناء موعد التفقّد وقد غُرِز سكّينٌ في قلبه. لا أحد رأى شيئاً ولا سمع.

– هذا أفضل، وماذا عن القمار؟

– لا بأس، مكانك لا يزال محفوظاً.

– حسناً. إذاً، سنعاود الحياة بالأعمال الشاقّة المؤبّدة. لنرَ كيف ومتى ستنتهي هذه الحكاية.

- بابي، لقد صُدمنا جميعاً صدمة شديدة حينما علمنا أنّك قد نلت حكماً بالسجن الانفرادي لمدّة ثمانية أعوام. لا أعتقد أنّ هناك على الجزر رجلاً واحداً، الآن وقد أصبحت بيننا هنا، قادرٌ على أن يرفض مساعدتك في أيّ أمرٍ كان، مهما كلّف الثمن.

قال حارسٌ عربي:

- آمر السجن يطلبك.

خرجتُ معه. في نقطة الحراسة، أسمعني العديد من الحرّاس كلمات لطيفة. تبعتُ الحارس العربي وقابلتُ الآمر برويه، الذي قال لي:

- هل أنت بخير، يا بابيون؟

- نعم، سيّدي الآمر.

- أنا سعيدٌ لأنّك نلت العفو وأهنّئك على عملك الشجاع حيال طفلة زميلي.

- شكراً لك.

- سوف أعيّنك راعياً للجواميس بانتظار أن تعود مفرّغاً للدلاء مع الحقّ في الصيد.

- إذا كان هذا لا يعرّضك للخطر، أوافق على ذلك.

- هذا شأني أنا. لم يعد مراقب الورشة هنا، وأنا سوف أُسافر إلى فرنسا بعد ثلاثة أسابيع. حسناً، سوف تستلم إذاً مهمّتك غداً.

- لا أعرف كيف أشكرك، سيّدي الآمر.

قال برويه ضاحكاً:

- أن تنتظر شهراً قبل أن تحاول الفرار مرّة أخرى؟

رأيتُ في المهجع الرجال أنفسهم كما كانوا، وطريقتهم نفسها في الحياة قبل مغادرتي. المقامرون، وهم فئة قائمة بذاتها، لا يفكّرون ولا يعيشون سوى من أجل القمار. والرجال الذين لديهم غلمان يعيشون ويأكلون وينامون معهم. أُسرٌ معيشية حيث يأسر الحبّ والعاطفة بين الرجال كلّ أفكارهم، ليلاً ونهاراً. مشاهد غيرة وعواطف بلا تحفّظ حيث

يتبادل «الرجل» و«المرأة» اختلاس النظرات والتي تتسبّب بجرائم قتل إذا ما سئِم أحدهما الآخر وطار إلى علاقات حبٍّ جديدة.

من أجل الحسناء شارلي (بارات)، قتل رجلٌ زنجي يُدعى سامبلون الأسبوع المنصرم رجلاً كان يُدعى سيديرو. وهذا ثالثُ رجلٍ يقتله سامبلون من أجل شارلي.

لم يكن قد مضى على وصولي إلى المعسكر سوى بضع ساعات حينما جاء رجلان لمقابلتي. قال لي أحدهما:

- قل لي، يا بابيون! أودّ أن أعرف إن كان ماتوريت غلامك؟

- لماذا؟

- لأسبابٍ تخصّني.

- اسمع جيّداً! لقد قام ماتوريت بعملية فرارٍ معي من ألفين وخمسمئة كيلومترٍ، تصرّف خلالها كرجل، هذا كلّ ما لديّ لأخبرك به.

- أُريد أن أعرف إن كان معك.

- كلا، لا أعرف ماتوريت من الناحية الجنسية. أنا معجبٌ به كصديق، أما ما عدا ذلك، فلا يعنيني، باستثناء إذا ما أراد أحدٌ به شرّاً.

- ولكن ماذا لو أصبح ذات يوم زوجتي؟

- حينذاك، إذا ما كان ذلك برضاه، لن أتدخّل في شيءٍ. ولكن إذا كنتَ ستهدّده لتصل إلى رغبتك في أن يصبح غلامك، حينها ستكون مشكلتك معي.

مع اللوطين لا فرق بين الإيجابيين والسلبيين، طالما أنّهم مستغرقون في شغفهم، دون التفكير في أيّ شيءٍ آخر.

وجدتُ الرجل الإيطالي ذي الماسورة الذهبية الذي كان في قافلتي. جاء ليلقي عليّ التحيّة، فقلتُ له:

- أما زلتَ هنا؟

- لقد فعلتُ كلّ شيء. أرسلت لي والدتي اثني عشر ألف فرنكٍ،

أخذ الحارس منها ستة آلاف فرنك كعمولة، وأنفقتُ منها أربعة آلاف فرنك لكي يتمّ رفع الحجز عني في الجزيرة ويتمّ نقلي إلى البرّ الرئيسي، فنجحتُ في الذهاب إلى كايين لإجراء التصوير الشعاعي ولم أستطع أن أفعل أيّ شيء. وبعد ذلك، اتّهمتُ نفسي بأنني قد جرحتُ صديقاً تعرفه، هو رازوري، اللصّ الكورسيكي.

– نعم، ماذا بعد؟

– باتّفاقٍ معه، أحدثَ جرحاً في بطنه ونزلتُ إلى المحكمة العسكرية معه، هو كمُتَّهم وأنا كمذنب. لم تطأ أقدامنا الأرض هناك. فقد انتهت القضية في غضون خمسة عشر يوماً بالحكم عليّ بالسجن لمدّة ستة أشهر، قضيتها في العام الماضي في الحبس الانفرادي. حتى أنّك لم تكن تعلم أنني هناك. بابي، لم يعد بوسعي أن أتحمّل، سوف أنتحر.

– الأولى بك أن تموت خلال رحلة هروبٍ، على الأقل ستموت حرّاً.

– أنا جاهز لكلّ شيء، فأنت على حقّ. إذا أردت أن تحضّر لأمرٍ ما، أبلغني به.

– اتّفقنا.

واستؤنِفَت الحياة في جزيرة رويـال. وهأنذا قد أصبحتُ راعياً للجواميس. لديّ جاموسٌ يُدعى بروتوس. يزن ألفي كيلوغرامٍ، وهو قاتل جواميس أخرى. لقد سبق له وأن قتل جاموسين ذكرين. قال لي المراقب أنغوستي الذي يقوم بهذه الخدمة: «هذه فرصته الأخيرة. إذا ما قتل جاموساً آخر، سوف يُنحَر».

تعرّفتُ على بروتوس هذا الصباح. كان على الزنجي المارتينيكي الذي يقوده أن يبقى معي لمدّة أسبوع لكي يعلّمني الرعي. وفي الحال أصبحتُ صديقاً لبروتوس من خلال التبوّل على أنفه: فلسانه الطويل يعشق لعق السائل المالح. ثمّ أعطيته بضع حبّات من المانجو الأخضر كنتُ قد قطفتها من حديقة المستشفى. نزلتُ مع بروتوس المربوطِ مثل

ثورٍ بالنير الكبير لعربة صغيرة جديرةٍ بعصور الملوك الكسالى لكونها قد صُنِعت بطريقة ريفية بسيطة ويوجد فوقها برميلٌ يتّسع لثلاثة آلاف لتر ماء. وكان عملي وعمل صاحبي بروتوس هو الذهاب إلى البحر وملء البرميل بالماء وصعود هذا الساحل المخيف إلى أعلى الهضبة. وهناك، أفتح صنبور البرميل فيجري الماء في الأقنية، جارفاً معه كلّ ما تبقى من القاذورات أثناء تفريغ الدلاء في الصباح. أبدأ عملي في السادسة صباحاً وأنتهي منه نحو الساعة التاسعة.

بعد أربعة أيام، قال المارتينيكي بأنني أستطيع أن أتدبّر أموري لوحدي. ولم يكن هناك سوى صعوبة واحدة: في الساعة الخامسة صباحاً، كان عليّ أن أسبح في المستنقع بحثاً عن بروتوس الذي كان يختبئ لأنّه لا يرغب في أن يعمل. ولأنّه كان لديه منخران في غاية الحساسية، كانت حلقة حديدية تعبرهما وتتدلّى منها قطعة من سلسلة معدنية بطول خمسين سنتيمتراً على نحوٍ دائم. وحينما أعثر عليه، ينسحب ويغوص ويذهب ليخرج من مكانٍ أبعد. وفي بعض الأحيان، يستغرق القبض عليه أكثر من ساعة وأنا أخوض في تلك المياه الآسنة المقزّزة للمستنقع، والمليئة بالحيوانات وزنابق الماء. كانت تنتابني نوبات غضب منه لوحدي، فأناديه بحنق: «أيّها القذر! أيّها الأحمق العنيد! أيّها العنيد مثل رجلٍ بريتاني! ستخرج، نعم أم لا أيّها القذر؟» لم يكن حسّاساً إلّا بالسلسلة عندما أمسكُ بها، أمّا الشتائم والإهانات، فلا يبالي بها. ولكن حينما يخرج أخيراً من المستنقع، يصبح حينئذٍ صديقي.

كانت لديّ صفيحتا دهون فارغتان، مليئتان بالمياه العذبة. أبدأ بالاغتسال بها لكي أنظّف جسمي جيّداً من مياه المستنقع اللزجة. وعندما أغسل جسمي جيّداً بالصابون وأشطفه بالماء النظيف، يبقى لدي ملء نصف صفيحة، فأغسل به بروتوس باستخدام ألياف جوز الهند. كنتُ أفركُ جيّداً الأماكن الحسّاسة من جسمه ثمّ أسكب عليه الماء لأنظّفه. كان بروتوس يفركُ حينئذٍ رأسه بيديّ ويأخذ مكانه من تلقاء نفسه أمام حمّالة

العربة. لم ألجأ أبداً إلى وخزه بالسهم كما كان يفعل به المارتينيكي. وقد كان ممتناً لي بذلك ويُظهر لي العرفان بالجميل، لأنّه كان يسير معي على نحوٍ أسرع ممّا كان يسير معه.

كانت هناك جاموسة صغيرة وجميلة مغرمة ببروتوس. كانت ترافقنا وهي تسير بجانبنا. ولم أكن أطردها كما كان يفعل راعي الجواميس السابق، بل على العكس كنتُ أدعها تلعق بروتوس وترافقنا أينما ذهبنا. على سبيل المثال، لم أكن أضايقهما حينما يتبادلان اللعق، وكان بروتوس يُظهر لي العرفان بالجميل، فيصعد بحمولته البالغة ثلاثة آلاف لتر ماء بسرعة مذهلة. ويبدو أنّه كان يريد من خلال سرعته هذه أن يعوّضني الوقت الذي كان يهدره على حسابي في جلسات اللعق مع مارغريت، فالجاموسة الصغيرة تُدعى مارغريت.

أثناء تفقّد الساعة العاشرة يوم أمس، كانت هناك فضيحة صغيرة بسبب مارغريت. يبدو أنّ الزنجي المارتينيكي كان يصعد إلى جدارٍ صغير وينكح الجاموسة هناك كلّ يوم. وحينما باغته حارسٌ يقوم بفعلته تلك، حُكِمَ عليه بالسجن لمدّة شهر في المنفردة، بتهمة «مضاجعة حيوان»، بموجب القانون. والحال أن مارغريت جاءت البارحة إلى المعسكر، ومرّت أمام أكثر من ستين رجلاً، وحينـ ا وصلت إلى الزنجي، استدارت مقدّمةً له كفليها. فأثار ذلك موجةً من الضحك العامّ بين الحضور وأصبح وجه الزنجي رمادياً من شدّة الإحراج.

كان عليّ أن أقوم بثلاث نقلات مياه في اليوم. وأطولها هي ملء البرميل مِن الشخصين المكلّفين في الأسفل، ولكن الأمر يتمّ بسرعة كافية. أُنهي عملي في الساعة التاسعة، وأذهب بعد ذلك إلى الصيد.

تحالفتُ مع مارغريت من أجل إخراجه من المستنقع. من خلال حكّ أذنها كانت تُصدر صوتاً أشبه بحمحمة فرسٍ في حالة شبق، فيخرج بروتوس من المستنقع من تلقائه. وبما أنني لم أعد في حاجة إلى الاستحمام، كنتُ أغسله وأنظّفه أفضل من ذي قبل. ولأنّه يصبح نظيفاً

تماماً ومن دون الرائحة المقزّزة للمياه الآسنة التي يقضي الليل فيها، يُثير إعجاب مارغريت وشوقها أكثر.

في طريق الصعود من البحر، في منتصف المسافة من الشاطئ، يوجد مكان منبسط بعض الشيء لي فيه حجرة كبيرة. اعتاد بروتوس أن يتوقّف فيه ليلتقط أنفاسه لخمس دقائق، حيثُ كنتُ أُوقف العربة من خلال وضع الحجرة خلف عجلتها، وبذلك كان يرتاح الجاموس على نحوٍ أفضل. ولكن هذا الصباح كان جاموسٌ آخر، يُدعى دانتون، ضخمٌ مثل بروتوس، ينتظرنا مختبئاً خلف شجيراتٍ لجوز الهند لم يكن فيها سوى أوراق، لأنها كانت في مشتلٍ. انطلق دانتون وهاج بروتوس، فتنحّى هذا الأخير جانباً وتفادى الضربة، فاصطدم دانتون بالعربة. ودخل أحد قرنيه في البرميل. بذل دانتون جهوداً اعتباطية للإفلات من البرميل، في حين قمتُ بتحرير بروتوس من ألجمته، فتراجع بروتوس إلى الوراء في الجانب المرتفع، على الأقلّ لمسافة ثلاثين متراً، ثمّ أسرع مهرولاً نحو دانتون. فجعل الخوف أو اليأس دانتون يتحرّر، قبل أن يصل إليه جاموسي، من البرميل تاركاً جزءاً من قرنه فيه، ولكنّ بروتوس لم يستطع أن يكبح جماحه فارتطم بالعربة التي انقلبت.

وهنا شاهدتُ الأمر الأكثر غرابةً. تلامس بروتوس ودانتون بقرونهما دون أن يتدافعا، بل اكتفيا بأن فركا قرونهما العريضة ببعضها. بدا وكأنّهما يتخاطبان ولكن لا يصرخان، بل يتنفّسان نخيراً فقط. ثمّ صعدت الجاموسة الساحل، وتبعها الذكران، اللذان كانا يتوقّفان من وقتٍ لآخر ثمّ يستأنفان فرك قرونهما ببعضها ويشابكانها. وحينما تطول هذه الوضعية كثيراً، تئنّ مارغريت بخمول وتصعد من جديد نحو الهضبة. فيلحق بها الذكران العملاقان، اللذان لا يزالان على الخطّ نفسه. بعد التوقّف ثلاث مرّات بالطقوس نفسها، وصلنا إلى الهضبة. هذا الجزء الذي وصلنا إليه هو أمام المنارة ويشكّل ساحة جرداء يبلغ طولها حوالي ثلاثمئة مترٍ. ويقع في نهايتها معسكر المحكومين بالأشغال الشاقّة؛ على اليمين وعلى اليسار، تقع أبنية المستشفيين: مستشفى المبعدين ومستشفى العسكريين.

واصل دانتون وبروتوس السير لعشرين خطوةً. أمّا مارغريت، فقد ذهبت بهدوء إلى مركز الساحة وتوقّفت. جاء العدوّان إلى مقربة منها. في حين ظلّت هي تُطلق من حينٍ لآخر صرختها الكئيبة، والمثيرة جنسياً بشكلٍ إيجابي. احتكّا بالقرون من جديد، ولكن هذه المرّة أحسستُ أنّهما يتخاطبان بالفعل لأنّه امتزجت بأنفاسهما أصواتٌ لا بدّ أنّها كانت تعني شيئاً ما.

بعد هذه المحادثة، انطلق أحدهما إلى اليمين بهدوء، وتنحّى الآخر إلى اليسار. راحا يأخذان موقعهما على أطراف الساحة. وبالتالي كان بينهما ثلاثمئة مترٍ. بينما ظلّت مارغريت تنتظر في الوسط. لقد فهمت: إنّها مبارزة حسب الأصول وتكون الجاموسة الشابّة هي الجائزة التي سيفوز بها المنتصر في المعركة. وهي أيضاً في الواقع موافقة وفخورة بأنّ عاشقين سيتصارعان من أجلها.

وعلى وقع صرخةٍ من مارغريت انطلق كلّ منهما نحو الآخر. وفي المسار الذي يستطيع كلّ منهما الجري فيه، وهو قرابة مئة وخمسين متراً، من نافلة القول أنّ وزن كلّ منهما البالغ ألفي كيلوغرام تضاعف ثقلاً بفعل السرعة التي بلغاها. وكان ارتطام هذين الرأسين ببعضهما رهيباً إلى درجة أنّ الجاموسين ظلّا ملتحمين لأكثر من خمس دقائق. خفض كلّ منهما سيقانه. كان الأسرع لاستعادة قواه هو بروتوس الذي انصرف هذه المرّة عدواً ليأخذ مكانه من جديد. استمرّت المعركة ساعتين. أراد بعض الحرّاس قتل بروتوس، ولكنني منعتهم من ذلك، وفي لحظة معيّنة، وفي صدمةٍ، انكسر قرن دانتون الذي كان قد تضرّر عند نطحه للبرميل.

لاذ بالفرار، فلحق به بروتوس. استمرّت معركة الملاحقة حتى اليوم التالي. وقد حطّموا كلّ مكانٍ مرّوا به من البساتين والمقبرة وغرفة الغسيل.

وفقط بعد أن تصارعا طيلة الليل، استطاع بروتوس، في صباح اليوم التالي نحو الساعة السابعة، أن يُحاصر دانتون على جدار الملحمة التي كانت على شاطئ البحر، وهناك، غرس قرناً كاملاً في بطنه. ولكي يُجهِزَ

عليه تماماً، استدار بروتوس حول نفسه لكي يدوّر القرن المنغرس في بطن دانتون الذي سقط صريعاً وسط جدولٍ من الدم والأحشاء.

أنهكت معركة العمالقة هذه بروتوس للغاية إلى درجة أنّه احتاج إلى أن أحرّر قرنه من بطن خصمه الصريع لكي يستطيع أن ينهض. ابتعد مترنّحاً عبر الطريق المحاذي للبحر، وهناك، أخذت مارغريت تسير إلى جانبه وهي ترفع رقبتها الضخمة ورأسها الخالي من القرون.

لم أحضر ليلة زفافهما، لأنّ الحارس المسؤول عن الجواميس اتّهمني بحلّ ألجمة بروتوس وفقدتُ وظيفتي كراعٍ للجواميس.

طلبتُ التحدّث إلى آمر السجن في موضوع بروتوس.

– إذاً يا بابيون، ما الذي حدث؟ يجب أن يُقتَل بروتوس، إنّه خطيرٌ جدّاً. ها قد قتل ثلاثة جواميس نموذجية وجميلة.

– لقد جئتُ بالضبط لأطلب منكم إنقاذ بروتوس. هذا الحارس المكلّف بالشؤون الزراعية والمسؤول عن الجواميس لا يفهم شيئاً عنها. اسمحوا لي أن أروي لكم لماذا تصرّف بروتوس في دفاعٍ مشروع.

ابتسم الآمر، ثمّ قال:

– أُصغي إليك.

–... إذاً، لقد فهمت، سيّدي الآمر، بأنّ جاموسي هو المُهاجِم، حسب ما استنتجتُ بعد رواية كلّ التفاصيل. ولو لم أحلّ ألجمة بروتوس، لقتله دانتون مربوطاً وبالتالي غير قادرٍ على الدفاع عن نفسه، لكونه كان مربوطاً إلى نيره وإلى العربة.

قال الآمر:

– هذا صحيح.

حينئذٍ وصل الحارس المكلّف بالشؤون الزراعية، وقال:

– صباح الخير، سيدي الآمر. أنا أبحث عنك، يا بابيون، لأنّك خرجت هذا الصباح إلى الجزيرة كما لو أنّك تذهب إلى العمل، على الرغم من أنّ ليس لديك أيّ شيء تفعله.

- لقد خرجتُ، يا سيّد أنغوستي، لأرى إن كنتُ أستطيع إيقاف هذه المعركة، ولكن للأسف كان الجاموسان هائجين.

- نعم، هذا ممكن، ولكن الآن لم يعد لك أن تقود الجاموس، وقد سبق أن أخبرتك بذلك. من جهة أخرى، سوف ننحره صباح يوم الأحد، وسيصبح لحمه طعاماً لنزلاء السجن الإصلاحي.

- لن تفعلوا ذلك.

- ليس أنت من ستمنعني عن ذلك.

- كلا، ولكنّ الآمر. وإذا كان هذا غير كافٍ، فالدكتور جيرمان غيبير الذي سأطلب منه أن يتدخّل من أجل إنقاذ بروتوس.

- بماذا تحشر نفسك؟

- بما يعنيني. أنا الذي أقود الجاموس، وهو صديقي.

- صديقك؟ جاموس؟ أتسخر مني؟

- اسمع، يا سيّد أنغوستي، هلا تركتني أتكلّم للحظة؟

قال الآمر:

- دعه يدافع عن جاموسه.

- حسناً، تكلّم.

- هل تصدّق، يا سيّد أنغوستي، أنّ الحيوانات تتخاطب فيما بينها؟

- لمَ لا، إذا تواصلت مع بعضها.

- إذاً، لقد تصارع بروتوس ودانتون في مبارزةٍ وفق اتّفاقٍ مشترك بينهما.

ومن جديد شرحتُ كلّ شيء، من البداية وحتى النهاية.

قال الكورسيكي:

- كريستاشو! أنت رجلٌ غريب، يا بابيون. تدبّر أمرك مع بروتوس، ولكن إذا ما قتل جاموساً آخر في المرّة القادمة، لا أحد سينقذه، حتى الآمر. أكلّفك من جديد برعي الجواميس. تدبّر أمرك لكي يعمل بروتوس.

بعد يومين، وبعد أن تمّ إصلاح العربة من جانب عمّال الورشة،

استأنف بروتوس، مصحوباً بزوجته الشرعية مارغريت، أعمال النقل اليومية للماء من البحر. وحينما كنّا نصل إلى المكان الذي يرتاح فيه، وقد أوقِفَت العربة بوضع الحجرة خلف عجلتها، كنتُ أقول: «أين دانتون، يا بروتوس؟» وكان هذا العملاق الضخم يُقلع بالعربة فجأةً وبخطواتٍ مرحةٍ كمنتصر يقطع المسافة دون توقّف.

تمرّدٌ في جزيرة سان جوزيف

الجزر في غاية الخطورة بسبب هذه الحرية الزائفة التي يتمتّع بها المحكومون. وأنا أتألم حينما أرى الجميع هنا وقد استقروا على راحةٍ لكي يعيشوا بلا مشكلات. ينتظر بعضهم انتهاء عقوبتهم، وآخرون لا ينتظرون شيئاً، ويستغرقون في رذالاتهم.

كنتُ هذه الليلة مستلقياً على أرجوحة نومي، وفي آخر المهجع كانت هناك لعبة قمار جهنمية حامية الوطيس إلى درجة أنّ صديقي كاربونييري وغرانديه اضطرا لأن يتشاركا في إدارة اللعبة، إذ لم يكن شخصٌ واحد كافياً لإدارتها. في حين كنتُ مشغولاً في محاولة استعادة ذكرياتي من حياتي الماضية، وكانت تستعصي على الحضور كما لو أنّ جلسات محاكمتي لم تكن. عبثاً جهدتُ لإضاءة الصور الضبابية لذلك اليوم المشؤوم، إذ لم أنجح في رؤية ملامح أيّ شخصية بوضوح. وحده المدّعي العام مَثُلَ أمامي بكلّ حقيقته القاسية. اللعنة! كنتُ أظنّ أنني قد فزتُ عليك نهائياً عندما رأيتُ نفسي في ترينيداد في بيت بوين. أيّ تعويذةٍ سحرية ألقيتها عليّ أيّها الوغد السافل لكي تعجز ست محاولات فرار عن منحي الحرية؟ في المحاولة الأولى، من سجن الأشغال الشاقة، هل استطعت أن تنام بهدوءٍ وراحة بال حينما تلقيّت خبرها؟ أودّ أن أعرف إن كنتَ قد خفتَ، أم أنّك فقط شعرت بالغضب عندما علمتَ أنّ فريستك قد أفلتت من طريق العفن الذي كنتَ قد ألقيت بها عليه بعد ثلاثة وأربعين يوماً فقط؟ كنتُ قد حطّمتُ القفص، ولكن أيّ قدرٍ مشؤومٍ لاحقني

لأعود إلى سجن الأشغال الشاقّة بعد أحد عشر شهراً؟ تُرى هل شاء اللّه أن يُعاقبني على ازدرائي للحياة البدائية ولكن الجميلة جدّاً التي كان بوسعي أن أستمرّ فيها طويلاً قدر ما أشاء؟

حبيبتاي لالي وزورايما، وهذه القبيلة التي لا درك ولا شرطة فيها ولا قانون آخر فيها سوى التفاهم الأعظم بين أفرادها، نعم، أنا هنا بسبب خطأي أنا، ولكن لا ينبغي عليّ أن أفكّر سوى بأمرٍ واحدٍ، وهو أن أهرب، أن أهرب أو أموت دون ذلك. أجل، عندما علمتَ بأنني قد اعتُقِلت وأُعدتُ إلى السجن، انفرجت أساريرك واستعدت ابتسامتك كمنتصرٍ في جلسات المحاكمة وأنت تقول في نفسك: «كلّ شيء على ما يُرام هكذا، لقد أصبح من جديد في طريق العفن الذي كنتُ قد وضعته فيه»، ولكنك مخطئ. لن ينتمي عقلي وروحي أبداً إلى هذا الطريق المُهين. أنت تحتجز جسدي فقط؛ الحرّاس ونظامك التأديبي يتبيّنون مرّتين كلّ يومٍ أنني حاضرٌ، وهذا يكفيكم. في الساعة السادسة صباحاً، ينادي المتفقّد: «بابيون!»، فأُجيب: «موجود». وفي الساعة السادسة مساءً، ينادي المتفقّد: «بابيون!»، فأُجيب: «موجود». إذاً، كلّ شيء على ما يُرام. تقولون ها نحن نحتجزه منذ قرابة ستّة أعوام، لا بدّ أنّه قد بدأ يتعفّن في السجن، ومع قليلٍ من الحظّ، سوف يُقرَع ناقوس الكنيسة ذات يوم لدعوة أسماك القرش إلى استقباله بكلّ مراسم التشريف، كوجبة يومية يقدّمه لها مجّاناً نظامك للتخلّص من السجناء عبر جعلهم يهترئون.

أنت مخطئ وحساباتك ليست صحيحة. حضوري الجسدي ليس له أيّ علاقة مع وجودي المعنوي. هل تريد أن أقول لك شيئاً؟ أنا لا أنتمي إلى السجن، لستُ مندمجاً في عادات زملائي المعتقلين، ولا حتى في عادات أصدقائي المقرّبين. أنا مرشّحٌ دائم للفرار من السجن. كنتُ منهمكاً في هذا الحديث مع المدّعي العام الذي يوجّه التهمة لي في المحكمة، عندما اقترب رجلان من أرجوحة نومي. قال لي أحدهما:

– هل أنت نائم، يا بابيون؟

– كلا.

– نودّ أن نكلّمك في أمر.

– تكلّم. لا أحد هنا، وإذا تكلّمت بصوتٍ منخفض، لن يسمعك أحد.

– حسناً، نحن نعدّ العدّة لتمرّدٍ.

– وما هي خطّتكم؟

– سنقتل جميع العرب وجميع الحرّاس، وجميع نساء الحرّاس والأطفال الذين من البذرة الفاسدة نفسها. ولتحقيق هذا، أنا أرنو وصديقي هوتان، بمساعدة أربعة رجال متّفقين معنا، سوف نهاجم مستودع أسلحة مقرّ القيادة. أنا أعمل في المستودع للحفاظ على الأسلحة في حالة جيّدة. وفي المستودع ثلاث وعشرون بندقية آلية وأكثر من ثمانين بندقية عادية وبنادق قصيرة ومسدسات ليبيل. ستبدأ العملية من...

– مهلاً، لا تُكمل. أنا أرفض السير في هذا المخطّط. شكراً لك على ثقتك بي، ولكنني لستُ موافقاً.

– كنّا نعتقد أنّك ستقبل بأن تكون زعيم التمرّد. دعني أشرح لك التفاصيل المدروسة من جانبنا وسوف ترى أنّ الخطّة لا يمكن لها أن تفشل. نحن نحضّر للعملية منذ خمسة أشهر. ولدينا أكثر من خمسين رجلاً متّفقين معنا.

– لا تكشفوا لي عن أيّ اسم، فأنا أرفض أن أتزعّم هذا التمرّد، بل وأرفض المشاركة في هذه المؤامرة.

– لماذا؟ من حقّنا عليك أن تشرح لنا سبب رفضك بعد الثقة التي جعلتنا نخبرك بكلّ شيء.

– لم أطلب منك أن تحدّثني عن مشاريعك. ثمّ أنني لا أفعل في حياتي سوى ما أُريده أنا لا ما يُريده الآخرون. فضلاً عن ذلك، لستُ قاتلاً متسلسلاً حتى أقتل الناس جماعياً، وأنا أستطيع أن أقتل شخصاً ألحق بي أذى كبير، ولكن لا أستطيع أن أقتل نساءً وأطفالاً لم يفعلوا بي أيّ شيء.

أما الأمر الأخطر، فأنتم لا ترونه حتى، وسأخبركم به: حتى وإن نجحتم في التمرّد، سوف تفشلون.

- لماذا؟

- لأنّ هدفكم الرئيسي، وهو الهروب، ليس ممكناً. فلنفترض أنّ مئة رجلٍ التحقوا بالتمرّد، كيف سيغادرون الجزر؟ هناك قاربان فقط في الجزر، لا يتّسعان في الحدّ الأقصى لأكثر من أربعين سجيناً. فماذا ستفعلون بالستين الآخرين؟

- نحن سنكون من بين الأربعين الذين سيغادرون في القاربين.

- هذا ما تفترضونه أنتم، ولكن الآخرين ليسوا أكثر غباءً منكم، فهم سيكونون مسلّحين مثلكم، وإذا كان لكلّ منهم ذرّة من العقل، حينما يتمّ التخلّص من كلّ هؤلاء الذين ذكرتهم، سوف تُطلقون النار على بعضكم في سبيل الحصول على حقّ ركوب المركبين. والأمر الأهمّ من كلّ هذا، هو أنّه لن تكون هناك أيّ دولة تقبل باستقبال هذين القاربين، لأنّ البرقيات ستسبقكم إلى كلّ البلدان التي من المحتَمَل أن تتوجّهوا إليها، خاصّة مع العدد الكبير من القتلى الذين ستتركونهم خلفكم. وأينما حللتم، سيتمّ إلقاء القبض عليكم وتسليمكم إلى فرنسا. أنتم تعلمون أنني عدتُ من كولومبيا، ولذلك أعي ما أقوله. أنا أؤكّد لكم بأنّه بعد هكذا مؤامرة، سوف تتمّ إعادتكم من أيّ مكان تصلون إليه.

- حسناً، أنت ترفض إذاً الانخراط معنا؟

- نعم.

- أهذه كلمتك الأخيرة؟

- هذا قراري الذي لا رجعة فيه.

- لم يبق سوى أن ننسحب.

- لحظة. أطلب منكما ألّا تفاتحا أيّاً من أصدقائي في هذا المشروع.

- لماذا؟

- لأنني أعلم مسبقاً أنّهم سيرفضون، وبالتالي لا داعي لأن تكلّفا نفسيكما العناء.

- ممتاز.

- هل تعتقدان أنّكما لا تستطيعان التراجع عن هذا المشروع؟

- بكلّ صراحة، كلا يا بابيون.

- لا أفهم ما هو الهدف الأسمى لكم كمجموعة متّفقة على التمرّد، طالما أنني شرحتُ لكما، بمنتهى الجدية، بأنّه حتى إذا نجح التمرّد، لن تستطيعوا أن تصبحوا أحراراً.

- نحن نريد بالأحرى أن ننتقم. والآن وقد شرحتَ لنا بأنّه من المستحيل أن يستقبلنا أيّ بلد، سوف نلجأ إلى الدَّغَل، ونشكّل عصابة في الغابة البكر.

- أعدكما بأنني لن أتكلّم في هذا الموضوع حتى مع أقرب أصدقائي المقرّبين.

- نحن متأكّدان من هذا.

- حسناً. سوف أطلب منكما طلباً أخيراً: أخبراني قبل بدء العملية بثمانية أيام، لكي أذهب إلى جزيرة سان جوزيف ولا أكون في جزيرة رويال عندما يحدث هذا التمرّد.

- سوف نُعلمك بالوقت المناسب لكي تتمكّن من تغيير الجزيرة.

- ألا يمكنني أن أفعل أيّ شيء لكي أجعلكما تغيّران رأيكما؟ هل تريدان أن تدبّرا أمراً آخر معي؟ على سبيل المثال، أن نسرق أربع بنادق قصيرة ونهاجم في أحد الليالي المركز الذي يحرس القاربين، من دون أن نقتل أحداً، ونستقلّ مركباً وتغادر الجزر معاً.

- كلا، لقد عانينا وتألّمنا كثيراً. الأمر الأساسي بالنسبة لنا هو الانتقام، حتى لو كان ثمن ذلك هو حياتنا.

- وما ذنب الأطفال والنساء؟

- كلّهم من البذرة نفسها، من الدم نفسه، يجب أن يموتوا جميعاً.
- فلنكفّ عن الحديث في هذا الأمر.
- ألن تتمنّى لنا التوفيق؟
- كلا، بل أقول لكما: تخلّوا عن هذا المخطّط، هناك ما هو أفضل من هذه القذارة، يُمكن القيام به.
- ألا توافقنا الرأي على أنّه لنا الحقّ في الانتقام لأنفسنا؟
- بلى، ولكن ليس على حساب الأبرياء.
قال أحدهما:
- عمتَ مساءً.
وقال الآخر:
- عمتَ مساءً. اعتبرنا لم نقل شيئاً، اتّفقنا، يا بابيون؟
- اتّفقنا، يا شباب!
وانصرف هوتان وأرنو. يا لها من قصّة غريبة، هذه! قصّة هذين الرجلين المعتوهين، وما يزيد الطين بلّة أنّ هناك خمسين أو ستين متواطئاً معهما، وفي ساعة الصفر، سيزيد عددهم عن مئة! يا لها من قصّة مجانين! لم يتفوّه أيٌّ من أصدقائي بكلمة واحدة عن هذه القضية، وهذا يعني أنّ هذين السجينين لم يتحدّثا عن الأمر سوى إلى البُلهاء. إذ ليس من الممكن أن يكون رجال الوسط الإجرامي شركاء في هذه المؤامرة. وهذا يجعل الأمر أكثر خطورةً، لأنّ القتلة البُلهاء هم القتلة الحقيقيون، أمّا الآخرون المنتمون إلى الوسط الإجرامي، فهم قتلة عاديون، وهناك فرق بين الفئتين.
جمعتُ هذا الأسبوع معلومات في غاية السرّية عن أرنو وهوتان. كان أرنو قد حُكِمَ، وعلى نحو جائر على ما يبدو، بالأشغال الشاقّة المؤبّدة على قضية لم تكن تستحقّ أن يُحكَم عليه حتى بعشر سنوات من أجلها. وقد حكم عليه المحلّفون بأقسى ما يمكن لأنّه في السنة السابقة كان شقيقه قد أُعدِمَ بالمقصلة بتهمة قتل شرطي. أمّا هو، وبسبب حقيقة أنّ

المدّعي العام قد تكلّم في المحكمة عن شقيقه المدان أكثر ممّا تكلّم عنه هو المتّهم، وذلك لخلق جوٍّ عدائيٍّ ضدّه، حُكِمَ عليه بهذا الحكم القاسي الرهيب. وربّما يكون قد تعرّض أيضاً لتعذيبٍ رهيبٍ أثناء توقيفه، ودائماً بسبب ما أقدم عليه شقيقه.

أمّا هوتان، فلم يكن قد عرف طعم الحرية أبداً، فقد كان في السجن منذ أن كان في التاسعة من عمره. قبل أن يخرج من سجنٍ للأحداث، في التاسعة عشرة من عمره، قتل رجلاً، عشية إطلاق سراحه لكي ينضمّ إلى البحرية التي تطوّع فيها لكي يخرج من سجن الأحداث. لا بدّ أن يكون فيه شيءٌ من الجنون، لأنّ مشاريعه كانت، على ما يبدو، أن يصل إلى فنزويلا، وأن يعمل في منجم للذهب، وأن ينسف ساقه لكي يحصل على تعويضٍ ضخم. وساقه هذه كانت متيبّسة بسبب حقنة لا أحد يعلم ما هي المادة التي كانت تحتوي عليها، وقد حقن نفسه بها بمحض إرادته في سان مارتن دو ري.

في تطورٍ مفاجئ وغير متوقّع، هذا الصباح خلال التفقّد، نودي على أرنو وهوتان وشقيق صديقي ماتيو كاربونييري. كان شقيق ماتيو خبّازاً، وبالتالي كان على الرصيف البحري بالقرب من المراكب.

كانوا قد أُرسِلوا إلى جزيرة سان جوزيف دون تفسير ودون سببٍ ظاهر. حاولتُ أن أعرف، ولكن لم يتسرّب أيّ شيء، سوى أنّ أرنو كان منذ أربع سنوات في قسم صيانة الأسلحة وكان جان كاربونييري خبّازاً منذ خمس سنوات. ربّما لم تكن هذه مجرّد مصادفة. لا بدّ أنّ هناك عملية فرار، ولكن أيّ فرار وإلى أين؟

قررتُ أن أتكلّم مع أصدقائي الثلاثة المقرّبين: ماتيو كاربونييري وغرانديه وغالغاني. لم يكن أيٌّ منهم يعرف شيئاً عن الموضوع. إذاً، هذان الرجلان، هوتان وأرنو، لم يكونا قد أخبرا سوى المحكومين بالأشغال الشاقة الذين لم يكونوا من الأشرار.

قلتُ لأصدقائي:

– لماذا تحدّثا معي أنا بالذات، إذاً؟
– لأنّه من المعروف للجميع أنّك تُريد أن تهرب بأيّ ثمنٍ كان.
– ولكن ليس بهذا الثمن.
– إنّهم لم يُجيدوا التميز.
– وماذا عن أخيك جان؟
– لا أعلم كيف ارتكب حماقة توريط نفسه في هذه المؤامرة.
– ربّما يكون الرجل الذي قام بالوشاية هو الذي قال بأنّه متورّط في هذه المؤامرة من دون أن يكون له أيّ علاقة بها.

تسارعت الأحداث. اغتيل هذه الليلة جيرازولو في اللحظة التي دخل فيها إلى المراحيض. وقد وجِدَ دمٌ على قميص راعي الجواميس المارتينيكي. وبعد خمسة عشر يوماً من تحقيقٍ سريع جداً وشهادة زنجي آخر مودعٍ في زنزانة منفردة، تمّ الحكم بالإعدام على راعي الجواميس السابق من جانب محكمة استثنائية.

جاء محكومٌ عجوز، يُدعى غارفيل أو السافوائي، يحدّثني عند المغسلة في الباحة.

– بابي، أنا متضايق لأنني أنا منْ قتلتُ جيرازولو. أودّ أن أنقذ الزنجي، ولكنني أخشى أن يعدموني بالمقصلة. وخوفاً من هذا الثمن، لا أتكلّم. ولكن إذا وجدتُ وسيلة لكي لا يُحكم عليّ سوى بثلاث أو خمس سنوات، فسوف أعترف بجريمتي.
– ما هي عقوبة الأشغال الشاقّة المفروضة عليك؟
– عشرون عاماً.
– كم قضيتَ منها؟
– اثنا عشر عاماً.
– أوجد الوسيلة للحكم عليك بالمؤبّد، وبذلك لن تذهب إلى الحبس الانفرادي.
– وما العمل؟

- دعني أفكّر، وسأخبركَ هذه الليلة.

حلّ المساء، فقلتُ لغارفيل:

- لا يمكنك أن تجعل أحدهم يشي بك، وتعترف بالحقيقة.

- لماذا؟

- لأنّك تجازف بأن يُحكَمَ عليك بالموت. هناك وسيلة وحيدة لتجنّب الحبس الانفرادي ونيل الحكم المؤبّد وهي أن تبلّغ بنفسك عن نفسك، وتقول أنّ ما دفعك إلى ذلك هو أنّك لا تستطيع بوازعٍ من ضميرك أن تدع بريئاً يُعدَمَ بالمقصلة. واختر حارساً كورسيكياً ليدافع عنك في المحكمة، وسوف أُخبرك باسمه بعد أن أستشيره. يجب التصرّف بسرعة. أتمنى فقط ألّا يتمّ ضرب عنقه قريباً جدّاً. انتظر يومين أو ثلاثة.

تكلّمتُ مع المراقب كولونا بشأن هذه القضية، فأعطاني فكرة رائعة، وقال: «أنا سأقوده إلى آمر السجن وأقول إنّ غارفيل قد طلب منّي أن أُدافع عنه وأن أرافقه لكي يُدلي باعترافاته، وأنني قد قدّمتُ له الضمانات بأنّه بسبب هذا الموقف النبيل، من المستحيل أن يُحكم عليه بالموت، وأنّه في كلّ الأحوال قضيته خطيرة ولا بدّ أنّه يتوقّع حكماً بالسجن المؤبّد.

وقد سار كلّ شيء على ما يُرام. فقد أنقذ غارفيل الزنجي الذي أُطلِقَ سراحه على الفور. وحُكِم على صاحب شهادة الزور بالسجن لمدّة سنة. فيما حُكِم على روبير غارفيل بالسجن المؤبّد.

ها قد مرّ شهران على هذه القضية، أورد لي غارفيل تتمّة تفاصيل القضية الآن فقط بعد أن انتهى كلّ شيء. كان جيرازولو هو الرجل الذي وشَى بأرنو وهوتمان وجان كاربونييري، بعد أن عرف تفاصيل مؤامرة التمرّد التي كان قد وافق على المشاركة فيها. ولحسن الحظ، لم يكن يعرف أيّ اسمٍ آخر سوى هؤلاء الثلاثة. وأمام ضخامة الوشاية، لم يُصدّقها الحرّاس. ومع ذلك، وكتدبيرٍ وقائي، أرسلوا المحكومين الثلاثة الذين تمّت الوشاية بهم إلى جزيرة سان جوزيف، من دون أن يُقال لهم أيّ شيء أو يتمّ استجوابهم أو أيّ شيءٍ آخر.

- ما الدافع الذي جعلك تقتله أنت يا غارفيل؟

- الدافع هو أنّه كان قد سرق ماسورتي التي أُخفي فيها نقودي. كنتُ أنام قُبالته، وفي الليل، كنتُ أُخفي ماسورتي تحت لحافي الذي أستخدمه كوسادة. ذات ليلة، ذهبتُ إلى المراحيض، وحينما عدت كانت ماسورتي قد اختفت. والحال أنّ من بين المحيطين بي، كان هناك رجلٌ وحيد لم ينم، وهو جيرازولو. صدّق الحرّاس تفسيري، بل أنّهم لم يُخبروني بأنّه كان قد وشى بشأن عملية تمرّدٍ مُحتَمَلة.

صرخ أحدهم من الباحة:

- بابيون! بابيون! إلى التفقّد!

- حاضر.

- اجمع حوائجك. إلى جزيرة سان جوزيف.

- آه، اللعنة إذاً!

اندلعت الحرب في فرنسا، فجلبت معها أنظمة جديدة: سوف يتمّ عزل رؤساء الأقسام المسؤولين عن عملية هروب. وبالنسبة إلى السجناء المبعدين الذي يتمّ إلقاء القبض عليهم خلال عملية هروب، سوف يُحكَم عليهم بالموت. وسوف يُعتبَر أنّ عملية الهروب قد وقعت بدافع الرغبة في الالتحاق بالقوات الفرنسية الحرّة التي تخون الوطن. سوف يتمّ التسامح مع كلّ شيء، إلّا الفرار.

كان قد مرّ شهران على رحيل الآمر برويه، ولم أكن أعرف هذا الآمر الجديد للسجن. ليس بوسعي أن أفعل أي شيء. ودّعتُ أصدقائي، وفي الساعة الثامنة، صعدتُ إلى القارب متوجّهاً إلى سان جوزيف.

لم يعد والد ليزيت في معسكر سان جوزيف، إذ كان قد سافر مع عائلته إلى كايين الأسبوع الماضي. كان آمر سجن سان جوزيف يُدعى دوتان، وهو من مدينة هافر. استُقبِلتُ من جانبه. وصلتُ لوحدي، وتمّ تسليمي على الرصيف البحري إلى الحارس من جانب رئيس المراقبين في القارب الكبير مع بعض الأوراق التي رافقتني.

- أأنتَ بابيون؟

- نعم، سيّدي الآمر.

قال لي آمر السجن وهو يتصفّح أوراقي:

- أنت شخصية غريبة.

- لماذا أنا غريبٍ بهذا القدر؟

- لأنّه من جهة أنت مسجّل كشخص خطير بكلّ المقاييس، وخاصّة هناك ملاحظة بالخط الأحمر تقول: «في حالة إعدادٍ دائمة للفرار»، وبعد ذلك، هناك إضافة: «لقد حاول إنقاذ طفلة قائد جزر سان جوزيف وسط أسماك القرش»، أنا لديّ طفلتان صغيرتان، يا بابيون، هل تريدُ أن تراهما؟

نادى الطفلتين البالغتين ثلاث وخمس سنوات، وكانتا شقراوين، فدخلتا إلى مكتبه مصحوبتين بفتاةٍ عربية ترتدي ثياباً بيضاء بالكامل وامرأة سمراء، جميلة جدّاً.

- حبيبتي، هذا الرجل الذي ترينه، هو الذي حاول أن يُنقذ طفلتكِ بالمعمودية، ليزيت.

قالت المرأة الشابّة:

- أوه! دعني أصافحك.

إنّ مصافحة محكوم بالأشغال الشاقّة هو أكبر شرفٍ يمكن أن يُمنح له. لا أحد يُصافح محكوماً بالأشغال الشاقّة أبداً. تأثّرتُ كثيراً بعفويتها ومبادرتها.

- نعم، أنا عرّابة ليزيت. نحن على علاقةٍ وثيقةٍ مع آل غراندوا.

ثمّ التفتت إلى الآمر وقالت:

- ماذا ستفعل من أجله، حبيبي؟

قال آمر السجن:

- سيذهب أوّلاً إلى المعسكر.

ثمّ التفت إليّ وقال:

- وبعد ذلك، أخبرني بالوظيفة التي تُريد أن أُعطيك إياه.

- شكراً لك، سيّدي الآمر، شكراً لكِ، سيّدتي. هل يمكنك أن تخبرني ما هو الدافع إلى إرسالي إلى سان جوزيف؟ يكاد هذا أن يكون عقاباً.

- ليس هناك دافـع، برأيي. السبب هو أنّ الآمر الجديد يخشى من أن تهرب.

- هو ليس مخطئاً.

- لقد تمت مضاعفة العقوبات على المسؤولين عن الفرار. قبل الحرب، كان من المحتمل خسارة رتبة؛ أمّا الآن، فخسارة الرتبة حتمية، ناهيك عن عقوبات أخرى. ولهذا السبب أرسلك إلى هنا، فهو يفضّل أن تهرب من جزيرة سان جوزيف حيث لا مسؤولية عليه كما هو الحال بالنسبة إلى جزيرة رويال حيث يتحمّل المسؤولية.

- ما هي المدّة التي ينبغي عليك أن تبقى خلالها هنا، سيدي الآمر؟

- ثمانية عشر شهراً.

- لا أستطيع أن أنتظر طويلاً جدّاً، ولكن سوف أجد طريقة للعودة إلى جزيرة رويال لكي لا أُلحِق بك أيّ ضرر.

قالت المرأة:

- شكراً لك. أنا سعيدة بأن أعرفك بهذا النبل. إذا ما احتجت إلى أيّ شيءٍ كان، تعال إلى هنا بكلّ ثقة. وأنت، يا بابا، أعطِ الأمر لمركز حراسة المعسكر بأن يسمحوا لبابيون بالمجيء إلى مقابلتي كلّما طلب ذلك.

- نعم، عزيزتي. يا محمد، رافق بابيون إلى المعسكر، وأنت يا بابيون، اختر المهجع الذي تُريد أن يتمّ تحديده لك.

- آه بالنسبة لي الأمر سهل: مبنى النزلاء الخطيرين.

قال آمر السجن ضاحكاً:

- هذا ليس بالأمر الصعب.

ثمّ كتب على ورقةٍ وأعطاها لمحمد.

غادرتُ المنزل الذي يُستخدَمُ مسكناً ومكتباً للآمر، على حافة الرصيف البحري، وهو منزل ليزيت السابق، ووصلتُ مصحوباً بالفتى العربي إلى المعسكر.

كان قائد المحرس عجوزاً كورسيكياً عنيفاً جدّاً، وقاتلاً معروفاً. ويُدعى فيليساري. قال لي:

- إذاً، يا بابيون، أهذا أنت القادم إلينا؟ أنت تعلم أنني طيبٌ جدّاً أو شريرٌ جدّاً. لا تحاول أن تهرب بوجودي، لأنّك إذا أخفقت في الهروب، سأقتلك مثل أرنبٍ. بعد سنتين سوف أنال تقاعدي، وبالتالي الوقت غير مناسب لكي أتلقّى ضربة قاسية.

- أنت تعلم أنني صديق جميع الكورسيكيين. لن أقول لك بأنني لن أهرب، ولكن إذا هربت سوف أُرتّب الأمر بحيث يتمّ هروبي في ساعات لا تكون فيها أنت بالخدمة.

- إذا كان الأمر كذلك، فلا بأس، يا بابيون. إذاً، لن نكون عدوّين. أنت تعلم أنّ الحرّاس الشباب يتحمّلون على نحوٍ أفضل العواقب الناجمة عن عملية هروب، في حين أنني لا أقوى على ذلك في هذا العمر، وأنا على أبواب التقاعد. حسناً، اتّفقنا؟ اذهب إلى المبنى الذي حُدِّد لك.

ها قد أصبحتُ في المعسكر، في مهجعٍ يشبه تماماً مهجع سجن جزيرة رويال، يضمّ من مئة إلى مئة وعشرين معتقلاً. وهنا في المهجع، يتواجد بييرو لوفو وهوتان وأرنو وجان كاربونييري. من الناحية المنطقية، كان عليّ أن أنضمّ إلى خصّ جان كاربونييري، لكونه شقيق ماتيو، لكنّ جان ليس من صنف أخيه، ومن ثَمّ لا يناسبني الانضمام لمجموعته، بسبب صداقته مع هوتان وأرنو. ولذلك استبعدته وأقمتُ إلى جانب كارييه، الرجل البوردولي الذي يُلقّب ببييرو لوفو.

جزيرة سان جوزيف أكثر وحشةً من جزيرة رويال، وهي أصغر منها قليلاً ولكنّها تبدو أكبر حجماً لأنّها أكثر طولاً. يقع المعسكر في منتصف الجزيرة، لأنّها مكوّنة من هضبتين تعلو الواحدة الأخرى. في الهضبة

الأولى، يقع المعسكر؛ وفي الهضبة الثانية الأعلى، يقع السجن الانفرادي الرهيب. وبالمناسبة، لا يزال المحكومون بالحبس الانفرادي يواصلون الذهاب إلى الاستحمام كلّ يوم لمدّة ساعة، وآمل أن يستمرّ هذا الأمر.

عند منتصف ظهيرة كلّ يوم، كان العربي الذي يعمل مع الآمر يجلب لي ثلاث طاسات متراكبة فوق بعضها مصنوعة من حديدٍ مسطّح وتنتهي بمقبضٍ خشبي. كان يترك لي الطاسات الثلاث ويأخذ تلك التي جلبها في اليوم السابق. كانت عرّابة ليزيت ترسل لي كلّ يوم الطعام نفسه الذي تعدّه لأسرتها.

ذهبتُ يوم الأحد لزيارتها وتقديم الشكر لها على صنيعها. أمضيتُ فترة ما بعد الظهيرة في الحديث معها واللعب مع طفلتيها. وأنا أداعب الشعر الأشقر لرأسي الطفلتين، قلتُ في نفسي أنّه من الصعب على المرء في بعض الأحيان أن يعرف أين يكمن واجبه. كان الخطر الذي يخيّم فوق رأس هذه الأسرة رهيباً إذا ما كان هذا الأبلهان لا يزالان يتشبّثان بالأفكار نفسها بشأن عملية التمرّد. بعد الوشاية التي لم يصدّقها الحرّاس إلى درجة أنّهم لم يقوموا بفصلهما عن بعض، بل اكتفوا بإرسالهما إلى جزيرة سان جوزيف، إذا ما تفوّهتُ بكلمة واحدة لكي يتمّ الفصل بينهما، سوف أؤكّد صحّة وخطورة الإخبارية الأولى. وحينها ماذا سيكون ردّ فعل الحرّاس؟ ولذلك آثرتُ الالتزام بالسكوت على الأمر.

يكاد أرنو وهوتان ألّا يتكلّما معي في المهجع. وهذا أفضل، إذ نعامل بعضنا بتهذيب ولكن من دون مودّة. أمّا جان كاربونييري، فلا يتحدّثُ معي أبداً، فهو غاضبٌ منّي لأنني لم أنضمّ إلى خصّ معه. نحن كنّا أربعة: بييرو لوفو وماركيتيو، وهو الحائز على جائزة روما الثانية للعزف على الكمان، والذي يعزف غالباً لساعات كاملة، الأمر الذي يغرقني في الكآبة، ومارسوري، وهو كورسيكيّ من سيت، وأنا.

لم أقلْ أيّ شيء لأيّ شخصٍ، ولدي الإحساس أنّ لا أحد هنا على علمٍ بالتحضير للتمرّد الذي تمّ إجهاضه في جزيرة رويال. تُرى هل لا

يزالون متشبّثين بالأفكار نفسها؟ يعمل ثلاثتهم معاً في سخرة شاقّة، إذ عليهم أن يجرّوا أو بالأحرى يرفعوا حجارة ضخمة باستخدام أحزمة. وتُستخدَم هذه الحجارة في بناء مسبح داخل البحر. تتمّ إحاطة الحجرة الضخمة بسلاسل، ويتمّ تعليقها بسلسلة طويلة جدّاً من خمسة عشر إلى عشرين متراً، وعلى اليمين واليسار من الحجرة، يلفّ كلّ محكوم بالأشغال الشاقّة حزامه حول جذعه وكتفيه، ويعلّقون الحزام بخطّافٍ بحلقةٍ من حلقات السلسلة. وحينئذٍ، وفي دفعة واحدة مثل الحيوانات تماماً، يجرّون الحجرة حتى إيصالها إلى مقصدها. وهذا العمل تحت الشمس يكون شاقّاً للغاية، بل ومحبطاً.

جاءت أصوات طلقات بنادق، وبنادق قصيرة، ومسدّسات من جهة الرصيف البحري. فهمتُ من ذلك أنّ المجانين قد بدأوا بتحرّكهم. ما الذي يحدث؟ منْ المنتصر؟ جلستُ في المهجع ولم أتحرّك. قال جميع السجناء: «إنّه التمرّد!».

حرصتُ على أن أظهر للجميع بأنني لا أعلم شيئاً عمّا يحدث، وسألت:

- التمرّد؟ أيّ تمرّد؟

جان كاربونيري الذي لم يذهب إلى العمل يومذاك اقترب منّي، شاحباً مثل ميّت على الرغم من وجهه المحروق بأشعّة الشمس. سمعته يقول بصوتٍ منخفضٍ جدّاً: «إنّه التمرّد، يا بابي»، قلتُ له ببرود: «أيّ تمرّد؟ لا علم لي بشيء».

تواصل إطلاق الرصاص من البنادق القصيرة. وعاد بييرو لوفو إلى المهجع راكضاً.

- إنّه التمرّد، ولكنني أعتقد أنّهم قد فشلوا. يا لها من عصبة مجانين! بابيون، افتح سكّينك، فعلى الأقلّ سنقتل أكبر عددٍ ممكن منهم قبل أن نموت!

ردّد كاربونيري:

- نعم، فلنقتل أكبر عدد ممكن منهم!

أخرج شيسيليا موسى حلاقة. وأمسك الجميع بسكاكينهم المفتوحة. قلتُ لهم:

- لا تكونوا حمقى. كم عددنا؟

- تسعة.

- فليلقِ سبعة منكم سلاحهم. أوّل من يهدّد حارساً، سأقتله. أنا لا أرغب في أن تقتلني طلقة بندقية في هذا المهجع مثل أرنبٍ. أنت، هل أنت معهم في هذه المؤامرة؟

- كلا.

- وأنت؟

- ولا أنا.

- وأنت؟

- لم أكن أعلم شيئاً عن هذه المحاولة.

- حسناً. هنا نحن جميعاً رجال من عالم الجريمة، ولا أحد منّا كان يعلم شيئاً عن تمرّد البُلهاء هذا. مفهوم؟

- نعم.

- وفي اللحظة التي يكشف فيها أيّ أحدٍ منكم بأنّه كان على علم بشيء ما حول هذا التمرّد، سيُقتَل في الحال. إذاً، لن ينال الغبيّ الذي يتكلّم أيّ شيء. ألقوا بسكاكينكم في حاوية القاذورات، فسوف لن يتأخّروا في المجيء إلى هنا.

- وماذا لو انتصر المحكومون؟

- إذا ما انتصر المحكومون، فليرتّبوا أمورهم لكي يتوّجوا انتصارهم بالهروب من الجزيرة. أمّا أنا، فلا أهرب بهذه الطريقة، فما رأيكم أنتم؟

قال كلّ الرجال الثمانية الآخرين، بمن فيهم جان كاربونييري، بصوتٍ واحد:

- ولا نحن أيضاً.

من جهتي، لم أكن قد نبستُ ببنت شفة حول ما كنتُ أعرفه، وبما أنّ إطلاق الرصاص قد توقّف، فهذا يعني أنّ المحكومين المتمرّدين قد انهزموا. في الواقع، ما كانت للمجزرة أن تتوقّف لو لم ينهزموا.

وصل الحرّاس كالمجانين وهم يدفعون بأعقاب البنادق وبالعصي ويركلون بالأقدام عمّال سخرة الأحجار. أدخلوهم إلى المبنى المجاور الذي تدفقّوا إليه جميعاً. داسوا على القيثارات وآلات الماندولين وألعاب الشطرنج والداما والمصابيح والمقاعد الصغيرة وقوارير الزيت والسكّر والقهوة والثياب البيضاء بحنق وغضب وحطّموها ورموها إلى الخارج. انتقموا من كلّ شيء مخالف. سُمِعَ صوت عيارين ناريين، كانا لمسدّس بكلّ تأكيد.

هناك ثمانية أبنية في المعسكر، قام الحرّاس بالتخريب نفسه في جميعها، من وقتٍ لآخر، باستخدام أعقاب البنادق. خرج رجلٌ عارٍ وهو يركض نحو زنازين القسم التأديبي، وقد أوسعه الحرّاس المكلّفين باقتياده إلى المنفردة ضرباً.

إنّهم يذهبون في كلّ اتّجاه، أمامنا وإلى يميننا وإلى جانبا. إنّهم متواجدون في هذه اللحظة في المهجع السابع، ولم يبقَ سوى مهجعنا. التزم كلٌّ منّا، نحن التسعة، بمكانه. لم يعد أيٌّ ممن كانوا يعملون في الخارج إلى المهجع، وتجمّد كلٌّ في مكانه. لم يتفوّه أحدٌ بكلمة، وأنا شعرتُ بجفافٍ في فمي، وكنتُ أفكّر وأقول في نفسي: «أتمنّى ألّا يستغل وغدٌ هذه القصّة لكي يقتلني دون أن ينال عقاباً!».

قال كاربونييري وهو يكاد أن يموت فزعاً:

– ها قد جاؤوا.

اندفعوا إلى داخل مهجعنا، وكان عددهم أكثر من عشرين حارساً، وقد لقّموا أسلحتهم من بنادق قصيرة ومسدّسات وهم على أهبة الاستعداد لإطلاق النار.

صرخ فيليساري:

- كيف لم تتعرّوا حتى الآن؟ ماذا تنتظرون، يا عصبة الجيف؟ سوف نعدمكم جميعاً رمياً بالرصاص. هيّا تعرّوا بسرعة، لا نُريد أن نجرّدكم من ثيابكم بعد أن تتحوّلوا إلى جثث.

- السيّد فيليساري...

- اخرس، يا بابيون! هنا لا مجال لطلب المغفرة. ما دبّرتموه في غاية الخطورة! وفي مهجع السجناء الخطرين هذا، كلّكم شركاء في المؤامرة، بكلّ تأكيد!

كانت عيناه تقدحان شرراً وتكادان أن تخرجا من محجريهما، كانتا محتقنتين بالدم، مع بريقٍ قاتلٍ لا لبس فيه.

قال بييرو:

- لنا الحقّ في ذلك.

قررتُ أن أجازف بكلّ شيء، فقلت:

- يدهشني أنّ نابليونياً مثلك سيذهب إلى حدّ قتل أبرياء لا ذنب لهم. هل تُريد أن تطلق علينا النار؟ حسناً، لا داعي للجدال، لا نرغب في مجادلتك. أطلق، ولكن أطلق بسرعة، باسم الربّ! كنتُ أظنّك رجلاً أيّها العجوز فيليساري، كنتُ أظنّك نابليونياً حقيقيّاً، ولكنني كنتُ مخطئاً. لا يهمّ. تفضّل لا أُريد حتى أن أراك حينما تطلق النار، سوف أُدير لك ظهري. أديروا جميعاً ظهوركم لهؤلاء الحرّاس، حتى لا يتوهّموا أننا قد نهاجمهم.

واستدار الجميع، كما لو أنّهم رجلٌ واحد، وقدّموا لهم ظهورهم. ذُهِلَ الحرّاس من تصرّفي، ولا سيّما وأنّ فيليساري كان قد قتل رجلين تعيسين في المهجع الآخر، كما علمنا بعد ذلك.

- ماذا لديك بعد لتقوله، يا بابيون؟

أجبت وأنا لا أزال أُدير له ظهري: «حكاية التمرّد هذه، لا أؤمن

بها. لماذا التمرّد؟ أمن أجل قتل الحرّاس؟ ومن ثَمّ الانطلاق في عملية هروب؟ إلى أين سنذهب؟ أنا شخصياً رجل فرار، وقد عدتُ من مكانٍ بعيدٍ جدّاً، من كولومبيا. أنا أسأل ما هو البلد الذي سيمنح حقّ اللجوء لقتلة هاربين من السجن؟ ما اسم هذا البلد؟ لا تكن أحمق، إنّ أيّ رجل جديرٍ بهذه التسمية لا يمكن له أن يكون متورّطاً في هذه المؤامرة».

- أنت ربّما، ولكن ماذا عن كاربونييري؟ هو متورّط، أنا متأكّدٌ من ذلك، لأنّ أرنو وهوتان فوجئا هذا الصباح بأنّه قد ادّعى بأنّه مريض لكي لا يذهب إلى العمل.

قلتُ له:

- هذا محض إحساس، أؤكّد لك ذلك.

ثم أدرتُ إليه وجهي وقلت:

- سوف تدرك ذلك في الحال. كاربونييري صديقي، وهو يعرف كلّ تفاصيل هروبي، وبالتالي لا يمكن له أن يعلّل نفسه بالأوهام، وهو يعلم ما هي العواقب الوخيمة لعملية فرارٍ بعد تمرّدٍ.

وصل آمر السجن في هذه اللحظة، ولكنّه بقي في الخارج، فخرج إليه فيليساري، وقال آمر السجن:

- كاربونييري!

- حاضر.

- اقتادوه إلى المنفردة دون إساءة معاملته. المراقب فلان، رافقه إلى المنفردة. اخرجوا جميعاً، وليَبْقَ قادة الحرّاس فقط. هيّا اذهبوا وأدخلوا جميع المبعدين المنتشرين في الجزيرة إلى المهاجع. لا تقتلوا أحداً، أعيدوهم جميعاً ودون استثناء إلى المعسكر.

دخل الآمر ومعاونه وفيليساري الذي عاد مع أربعة حرّاس إلى المهجع. قال الآمر:

- بابيون، ما حدث للتوّ أمرٌ خطيرٌ جدّاً. وكآمرٍ للسجن التأديبي، تقع

على عاتقي مسؤولية جسيمة عليّ أن أقوم بها. قبل اتّخاذ بعض التدابير، أُريد أن أحصل سريعاً على بعض المعلومات. أنا أعرف أنّه في لحظة مفصلية كهذه ربّما سترفض التحدّث معي على انفراد، ولهذا السبب جئتُ إلى هنا. لقد اغتالوا المراقب دوغلاس. وأرادوا الاستيلاء على الأسلحة المودعة لديّ، وبالتالي كان هذا تمرّداً. ليس لديّ متّسعٌ من الوقت سوى بضع دقائق، وأنا أثق بك، ما رأيك بما حدث؟

- إذا كان هناك تمرّدٌ، كيف لم نكن على علم به؟ لماذا لم يُقَلْ لنا شيء؟ كم شخصاً سيكون قد اشترك فيه؟ هذه الأسئلة الثلاثة التي أطرحها عليك، سيّدي الآمر، سأُجيب عليها، ولكن قبل ذلك، يجب أن تُخبرني كم رجلاً، بعد قتل الحارس، والاستيلاء على سلاحه، كما أفترض، تحرّكوا في هذه المحاولة؟

- ثلاثة رجال.

- منْ هم؟

- أرنو وهوتان ومارسو.

- فهمت. سواءً شئت أم أبيت، لم يكن هناك تمرّد.

قال فيليساري:

- أنت تكذب يا بابيون. كان من المفترَض أن يُدبّر هذا التمرّد في جزيرة رويال، وقد وشى جيرازولو بها، ونحن لم نصدّقه. واليوم نرى أنّ كلّ ما قاله كان صحيحاً. إذاً، أنت تخدعنا يا بابيون!

- إن كان ذلك صحيحاً، وإذا كنتَ محقّاً، فأنا واشٍ وبيرو لوفو أيضاً وكذلك كاربونييري وغالغاني وجميع اللصوص الكورسيكيين في جزيرة رويال ورجال الوسط الإجرامي. على الرغم ممّا جرى، أنا لا أصدّق. لو أنّ تمرّداً قد حدث، لكنّا نحن زعماؤه وليس سوانا.

- ماذا تقول لي؟ لا أحد متورّطٌ في هذه الحركة؟ هذا مستحيل.

- أين تحرّك الآخرين؟ هل تحرّك أحدٌ غير هؤلاء المجانين الثلاثة؟

هل هناك مجرّد إشارة إلى محاولة للاستيلاء هنا على مركز الحراسة، حيث يوجد أربعة مراقبين مسلّحين بالإضافة إلى رئيس الحرس، السيّد فيليساري، ببنادق قصيرة؟ كم سفينة توجد في جزيرة سان جوزيف؟ قاربٌ كبيرٌ وحيد. وهل يكفي قاربٌ واحدٌ لستمئة شخصٍ؟ لسنا أغبياء، أليس كذلك؟ ومن ثَمّ القتل من أجل الفرار! إذا افترضنا أنّ عشرين سجيناً سينصرفون، فهذا من أجل الذهاب والاستسلام للاعتقال والإعادة من أيّ مكانٍ كان. سيّدي الآمر، ما زلت لا أعرف كم هو عدد الرجال الذين قُتلوا على أيدي رجالكم أو على أيديكم أنتم، ولكنني أكاد أكون على يقينٍ بأنّهم كانوا أبرياء. والآن ما معنى تكسير كلّ ما كنّا نمتلكه من أشياء قليلة. يبدو غضبكم مبرّراً، ولكن لا تنسوا أنّ في اليوم الذي لا تتركون فيه الحدّ الأدنى من شروط الحياة المقبولة للسجناء، في ذلك اليوم، نعم من الممكن أن يحدث تمرّدٌ، تمرّد اليائسين، تمرّد انتحارٍ جماعي، وطالما أنّنا سنموت في كلّ الأحوال، فلنمت معاً، من حرّاسٍ وسجناء. السيّد دوتان، لقد تكلّمتُ معك بقلبٍ مفتوح، وأعتقد أنّك تستحقّ ذلك، فقط لأنّك جئت إلينا تستعلم قبل اتّخاذ قراراتك. دعونا وشأننا.

قال فيليساري من جديد:

– وماذا بشأن المتواطئين؟

– هذا الأمر، عليكم أنتم أن تكتشفوه. أمّا نحن، فلا نعرف شيئاً، ولا يمكننا أن ننفعكم في هذا الموضوع. أُكرّر عليكم ذلك، هذه القصّة هي حماقة أناسٍ بُلهاء، وليس لنا أيّ علاقة بهذا الموضوع.

توجّه دوتان إلى فيليساري:

– السيّد فيليساري، حينما يدخل الرجال إلى مهجع الخطرين، أغلق عليهم الباب إلى حين صدور أوامر جديدة. ضع حارسين على الباب، من دون أي إساءة للرجال ومن دون تحطيم الأشياء التي تخصّهم. هيّا بنا.

وغادر مع بقيّة الحرّاس.

أوف! لقد تنفّسنا الصعداء.

قال لي فليساري وهو يوصد الباب:

- من حسن حظّك أنني نابليوني!

وفي أقلّ من ساعة، دخل جميع الرجال المقيمين في مهجعنا تقريباً، وبقي منهم ثمانية عشر رجلاً: وقد لاحظ الحرّاس بأنّهم، وسط استعجالهم، قد أدخلوهم في مبنى آخر. وحينما أُعيدوا إلى مهجعنا، عرفنا كلّ ما حدث، لأنّ هؤلاء الرجال كانوا في السخرة. روى لي لصٌّ من مدينة سان اتيان تفاصيل ما جرى بصوتٍ خافت، فقال:

- تصوّر يا بابي، لقد سحبنا صخرة تزن قرابة طنٍّ واحدٍ لمسافةٍ تقارب أربعمئة مترٍ. والطريق الذي نجرّ عليه الحجارة ليس مستوياً تماماً، ونصل إلى بئرٍ يقع على بعد حوالي خمسين متراً من منزل آمر السجن. وقد استُخدِم هذا البئر على الدوام كمكانٍ للتوقّف والاستراحة. وهو يقع تحت ظلال شجرة جوز الهند، وفي منتصف طريق المسافة التي علينا أن نقطعها. فتوقّفنا كالعادة وسحبنا دلواً كبيراً من الماء البارد من البئر وشربنا منه، وبلّل آخرون مناديلهم بالماء البارد ليضعوها فوق رؤوسهم. ولأنّ الاستراحة كانت لعشر دقائق، جلس الحارس أيضاً على حرف البئر. نزع قبّعته وبدأ يمسح جبينه وجمجمته بمنديلٍ كبير، عندما اقترب أرنو من الخلف وفي يده مجرفة لم يرفعها، الأمر الذي لم يجعل أحداً يحذّر الحارس بصرخةٍ. لم يستغرق رفع المجرفة وضربها على مفرق جمجمة الحارس تماماً ثانية واحدة. انفلق رأس الحارس إلى نصفين، فسقط على الأرض صريعاً دون أن تصدر عنه صرخةٌ. بعد أن سقط متيّبساً بهذه الطريقة، استولى هوتان، الذي كان في المقدّمة بالطبع، على بندقيته القصيرة، ونزع مارسو عنه حزامه بما يحتوي من أعيرة نارية، ثمّ التفت نحو جميع عمال السخرة وقال «إنّها الثورة، من يقف معنا فيها، فليتبعنا». لم يتحرّك أيٌّ من حملة المفاتيح ولم يصرخ أحدٌ منهم، ولم يُبدِ أيّ رجلٍ من عناصر السخرة النيّة في اللحاق به. نظر أرنو إلينا جميعاً، وقال لنا:

«أنتم عصبةٌ من الجبناء، سوف نُريكم كيف يكون الرجال!» أخذ أرنو البندقية من يدي هوتان وركض الاثنان نحو منزل آمر السجن. أمّا مارسو، فقد بقي في المكان بعد أن ابتعد عنّا قليلاً. يُمسك المسدّس الكبير في يده ويُعطي الأوامر: «لا تتحرّكوا، لا تتكلّموا، لا تصرخوا. أنتم أيّها الزنوج، انبطحوا أرضاً». وقد رأيتُ من المكان الذي أقف فيه كلّ ما جرى: لأنّ أرنو كان يصعد السلّم لكي يدخل إلى بيت آمر السجن، فتح العربي الذي كان يعمل هناك الباب مع الطفلتين، يُمسك بيد إحداهما ويحمل الأخرى بين ذراعيه. تفاجأ الرجلان، فركل العربي، وهو لا يزال يمسك بالطفلة بين ذراعيه، أرنو بقدمه. أراد هذا الأخير أن يقتل العربي، ولكنّ الزنجي قدّم الطفلة إلى الأمام محتمياً بها. لم يصرخ أحد، لا الزنجي ولا الآخرون. سدّد أرنو أربع أو خمس مرّات البندقيّة من زوايا مختلفة على العربي، ولكن في كلّ مرّة كانت الطفلة توضَع أمام فوهة السبطانة. أمسك هوتان، الذي لم يصعد السلّم، من طرفِ أسفل سروال العربي. كاد هذا الأخير أن يسقط وعندئذٍ وبضربةٍ واحدة، ألقى بالطفلة على البندقية التي يمسك بها أرنو. بسببِ اختلال التوازن على السلّم، سقط أرنو والطفلة ومعهما العربي مدفوعاً بساقه من جانب هوتان على الأرض عشوائياً. في تلك اللحظة، انطلقت أولى الصرخات، من الطفلة أوّلاً، ثمّ من العربي، متبوعةً بشتائم أرنو وهوتان. التقط العربي من الأرض، أسرع منهما، السلاح الذي سقط، ولكنّه أمسك به من فوهته وباليد اليسرى. أمسك هوتان بساقه من الجديد، في حين أمسك أرنو بذراعه اليمنى ولواها. رمى العربي البندقية لمسافةٍ تزيد عن عشرة أمتارٍ.

«في اللحظة التي ركض فيها الرجال الثلاثة يتسابقون للاستيلاء على البندقية، انطلقت أوّل رصاصة من بندقية أطلقها أحد الحرّاس المراقبين لعمال السخرة في الأوراق اليابسة. ظهر الآمر من نافذة غرفته وبدأ بإطلاق الرصاص دراكاً، ولكنّه خشية من أن يُصيب العربي، أطلق الرصاص على المكان الذي توجد فيه البندقية. فرّ هوتان وأرنو نحو المعسكر

عبر الطريق المحاذي للبحر، تلاحقهما طلقات البندقية. كان هوتان بساقه المتيّبسة يركض بسرعةٍ أقلّ وقُتِلَ قبل أن يصل إلى البحر. أمّا أرنو فقد دخل إلى البحر بين حوض استحمام السجناء الذي هو قيد الإنشاء ومسبح الحرّاس، وهو مكانٌ يعجّ باستمرار بأسماك القرش. أحاطت الطلقات بأرنو من كلّ حدبٍ وصوب لأنّ حارساً آخر جاء لنجدة الآمر وحارس سخرة الأوراق اليابسة. اختبأ أرنو خلف صخرة كبيرة، فصرخ به الحرّاس: «سلّم نفسك، وسوف تنقذ حياتك!»، فأجاب أرنو بالقطع: «لن أعود أبداً، فأنا أفضّل أن تلتهمني أسماك القرش، وبذلك لن أرى ثانية وجوهكم القذرة». وخاض في البحر، مباشرةً نحو أسماك القرش. لا بدّ أنّه قد تلقّى رصاصةً، لأنّه توقّف في لحظةٍ، ومع ذلك واصل الحرّاس إطلاق النار عليه. انطلق من جديد مشياً على القدمين من دون أن يسبح. لم تكن المياه قد غمرت جذعه بعد عندما هاجمته أسماك القرش. وقد رأيناه بوضوح وهو يسدّد لكمةً لسمكة قرشٍ طفحت على السطح بنصف جسمها وارتمت عليه. ومن ثَمّ مُزِّق بالمعنى الحرفي للكلمة لأنّ أسماك القرش سحبته من كلّ الجهات دون أن تقطع ذراعيه وساقيه. وفي غضون أقلّ من خمس دقائق تلاشى تماماً.

«أطلق الحرّاس مئة طلقة على الأقلّ من بنادقهم على الكتلة المتشكّلة من أرنو وأسماك القرش. قُتلت سمكة قرشٍ واحدة، لكونها قد جاءت إلى الشاطئ مقلوبة على ظهرها وبطنها في الهواء. ولأنّ الحرّاس وصلوا من كلّ حدبٍ وصوبٍ، ظنّ مارسو بأنّه قد أنقذ حياته بإلقاء المسدّس في البئر، لكنّ العرب نهضوا من كلّ مكان، وانهالوا عليه بالعصي والركلات واللكمات ودفعوه نحو الحراس وهم يصيحون بأنّه كان مشاركاً في المؤامرة. وعلى الرغم من أنّه كان غارقاً في دمائه ورافعاً يديه مستسلماً، قتله الحرّاس بطلقات المسدّسات والبنادق، وللإجهاز عليه تماماً، سحق أحد الحرّاس رأسه بضربة من أخمص بندقية وصار يرفعه ككرةٍ على سبطانة بندقيته ويلوّح به.

«أمّا بالنسبة إلى هوتان، فقد أفرَغ كلّ حارسٍ ما في سلاحه من ذخيرة في جسده، ولأنّهم كانوا ثلاثين حارساً، ومع كلّ حارسٍ ست طلقات، فقد أطلقوا عليه، حيّاً أو ميّتاً، قرابة مئة وخمسين طلقة من مسدّساتهم. أمّا الرجلان اللذان قُتلا على يد فيليساري، فهما من الرجال الذين أشار إليهم العرب بأنّهم قد تحرّكوا في البداية لكي يتبعوا أرنو، ثمّ تراجعوا. وهذا محض افتراء، لأنّه لو كان هناك متواطئون، لما تحرّكَ أحد.

ها قد مرّ يومان ونحن جميعاً محبوسون في القاعات الخاصّة بكلّ فئة. لا أحد يخرج إلى العمل، ويتبدّل الحرّاس أمام الباب كلّ ساعتين. وهناك حرّاسٌ آخرون ينتشرون بين المباني. ومن الممنوع التخاطب بين مبنى وآخر، وممنوع الوقوف أمام النوافذ. لم يكن بوسعنا أن نرى الباحة سوى من الممرّ الذي يشكّله صفّا أراجيح النوم وذلك من خلال الباب المشبّك.

جاء حرّاسٌ من جزيرة رويال كتعزيزات إضافية. ولم يبق مبعدٌ واحد في الخارج، ولا كذلك عربيٌّ واحد من حمَلة المفاتيح. الجميع محبوسون في الداخل. ومن حينٍ إلى آخر، كنا نرى، دون صراخٍ أو ضربٍ، رجلاً عارياً يمرّ، وفي إثره حارسٌ، ويتوجّه إلى الزنازين التأديبية. كان الحرّاس ينظرون غالباً إلى داخل المهجع من خلال النوافذ الجانبية. ويقف الحارسان على الباب، أحدهما إلى اليمين والآخر إلى اليسار. وكانت مدّة مناوبتهما في الحِراسة قصيرة، تقتصر على ساعتين، ولكنّهما لا يجلسان أبداً ولا يضعان سلاحهما من أيديهما: كانا يضعان البندقية القصيرة على الذراع اليسرى، وهي ملقّمة وأصابعهم على الزناد.

قررنا أن نلعب البوكر في مجموعات صغيرة من خمسة أشخاص. لم تعد هناك لا اللعبة المرسيلية ولا الألعاب الكبيرة المشتركة، فهذه تثير الكثير من الضجيج. واضطرّ ماركيتي الذي كان يعزف على الكمان لحناً من ألحان بيتهوفن أن يتوقّف عن العزف.

قال له أحد الحرّاس:

– أوقف هذه الموسيقى، فنحن الحرّاس في حالة حداد.

ساد توتّرٌ شبه عام ليس فقط المهجع بل في كلّ المعسكر. لم تعد هناك لا قهوة ولا شوربة. اكتفوا بتقديم قطعة خبزٍ في الصباح، وقطعة من اللحم البقري المحفوظ عند منتصف الظهيرة ومثلها في المساء، وكانت علبةٌ واحدة من هذا اللحم المحفوظ تُعطى لأربعة سجناء. ولأنّهم لم يحطّموا أي شيء في مهجعنا، كان لدينا بعض القهوة والأغذية مثل الزبدة والزيت والطحين، وسواها. أمّا بقية المهاجع، فلم يعد لديها أيّ شيء. حينما صعد دخان النار من المراحيض من أجل إعداد القهوة، أمر أحد الحرّاس بإطفاء النار. كان سجينٌ عجوز من مرسيليا، يُدعى نيستون، يقوم بإعداد القهوة لكي يبيعها. وقد امتلك الجرأة لأن يردّ على الحارس قائلاً:

– إذا أردتَ أن تُطفَأَ النار، ادخل وأطفئها بنفسك؟

فأطلق الحارس بضع طلقات عبر النافذة، وسرعان ما تبعثرت القهوة والنار.

تلقّى نيستون طلقة في ساقه. توتّر الجميع أشدّ التوتّر إلى درجة أننا اعتقدنا بأنّهم قد بدأوا بإطلاق الرصاص علينا، وانبطحنا جميعاً على الأرض.

كان قائد المحرس لا يزال إلى تلك اللحظة هو فيليساري، وقد هرع مثل المجنون مصحوباً بعناصره الأربعة. شرح الحارس الذي أطلق النار موقفه، وهو من منطقة أوفيرن. شتمه فيليساري باللغة الكورسيكية، والآخر الذي لم يفهم شيئاً لم يعرف سوى أن يقول متلعثماً:

– أنا لا أفهم ما تقوله.

عدنا إلى أراجيح نومنا. كانت ساق نيستون تنزف. قال لنا:

– لا تقولوا إنّني جريح، إنّهم قادرون على الإجهاز عليّ في الخارج.

اقترب فيليساري من الشبك. تكلّم ماركيتي معه باللغة الكورسيكية. قال لنا:

– أعدّوا قهوتكم، وما جرى للتوّ لن يتكرّر.

ثمّ انصرف.

لحسن حظّ نيستون أنّ الطلقة لم تستقر في ساقه، فقد دخلت من أسفل العضلة وخرجت من عند منتصف ربلة الساق. وضعنا له عصابة، فتوقّف النزف، ومن ثَمّ وضعنا له ضمادة مشبعة بالخلّ.

جاء حارسٌ وقال:

– اخرج يا بابيون.

كانت الساعة تشير إلى الثامنة، إذاً، لقد حلّ الليل. لم أعرف الحارس الذي ناداني، لا بدّ أنّه بريتاني.

– لماذا سأخرج في هذا الوقت؟ ليس لديّ ما أفعله في الخارج.

– يُريد آمر السجن أن يقابلك.

– أخبره بأن يأتي إلى هنا. أمّا أنا، فلا أخرج.

– أترفض الخروج؟

– نعم، أرفض.

أحاط بي أصدقائي وشكّلوا حلقةً من حولي. تكلّم الحارس من خلف الباب المغلق، فذهب ماركيتي إلى الباب وقال:

– لن ندع بابيون يخرج من دون حضور الآمر.

– ولكن هو من أرسل في طلبه.

– قل له بأن يأتي هو بنفسه إلى هنا.

بعد ساعة، حضر حارسان شابّان أمام الباب. وكان برفقتهما العربي الذي يعمل في منزل آمر السجن. إنّه العربي الذي أنقذه وأحبط التمرّد.

– بابيون، هذا أنا، محمّد. جئتُ في طلبك، فالآمر يرغب في لقائك، ولا يُريد المجيء إلى هنا.

قال لي ماركيتي:

– بابي، إنّ الرجل مسلّح ببندقية قصيرة.

حينها خرجتُ من حلقة أصدقائي المحيطين بي واقتربت من الباب. وبالفعل كان محمّد يحمل بندقية على ذراعه. كان هذا شيئاً جديد بالنسبة إلى السجناء، لم يروه من قبل. سجينٌ مسلّح رسمياً ببندقية!

قال لي الكروييا[1]:

- تعال معي، أنا هنا لحمايتك والدفاع عنك إذا لزم الأمر.

ولكنني لم أصدّق.

كرّر علي:

- هيا، تعال معنا!

خرجتُ من المهجع، سار محمد بجانبي والحارسان الآخران خلفي. ذهبتُ إلى مقرّ القيادة، مروراً بالمحرس عند مخرج المعسكر، فقال لي فيليساري:

- بابيون، أتمنى ألّا يكون هناك ما تُصرّح به ضدّي.

- لن نشهد، لا أنا شخصياً ولا أحد من مهجع الخطرين، ضدّك. أما في الأماكن الأخرى، فلا أدري. نزلنا إلى مقرّ القيادة. كان الدار والرصيف البحري منارين بمصابيح تعمل على مركّب الكربيد، وتحاول أن تنشر الضوء دون أن تنجح في إنارة المنطقة المحيطة. في الطريق، أعطاني محمد علبة سجائر من نوع غلواز. لدى الدخول إلى المهجع المنار بشدّة بمصباحين يعملان على مركّب الكربيد، وجدتُ آمر سجن جزيرة رويال، ومساعد الآمر، وآمر سجن جزيرة سان جوزيف، وآمر السجن الانفرادي ومعاون آمر سجن جزيرة سان جوزيف جالسين.

في الخارج، لمحتُ أربعة عرب مراقبين من جانب الحرّاس. عرفتُ من بينهم اثنين كانا ينتميان إلى مجموعة السخرة المعنية.

قال العربي:

1- crouilla: كلمة مهينة تُطلق على عرب جنوب أفريقيا ذوي البشرة السمراء - المترجم.

- ها هو بابيون.

قال آمر سجن جزيرة سان جوزيف:

- عمتَ مساءً يا بابيون.

- عمتَ مساءً.

- تفضّل واجلس هنا، على هذا الكرسي.

جلستُ قبالة الجميع. كان باب المهجع مفتوحاً على المطبخ الذي لوحّت منه عرّابة ليزيت بإشارةٍ وديّة.

قال آمر سجن جزيرة رويال:

- بابيون، يعتبرك الآمر دوتان رجلاً جديراً بالثقة، بناءً على محاولة إنقاذ ابنة زوجته بالمعمودية. أمّا أنا، فلا أعرفك سوى من الملاحظات والتقارير الرسمية المكتوبة في ملّفك والتي تقدّمك كرجلٍ خطيرٍ تماماً بكلّ المقاييس. أُريد أن أنسى هذه الملاحظات والتقارير وأثق بزميلي دوتان. بكلّ تأكيد سوف تأتي لجنة للتحقيق، وسوف يكون على جميع المحكومين المُبعَدين ومن جميع الفئات أن يدلوا بما يعرفون من معلومات. من المؤكّد أنّ لك ولبعض المحكومين الآخرين تأثيرٌ كبير في كلّ المحكومين وأنّهم يتّبعون حرفياً توجيهاتكم. أردنا أن نعرف رأيك بشأن التمرّد وأيضاً، إذا كنت تتوقّع، إلى حدّ ما، ما الذي يمكن للمحكومين في مهجعكم أوّلاً، ثمّ في المهاجع الأخرى، أن يُصرّحوا به أمام اللجنة.

- أنا، ليس لديّ لا ما أقوله ولا التأثير على ما سيقوله الآخرون. إذا ما جاءت بالفعل لجنة للتحقيق مع الجوّ السائد حالياً، سوف تُعزَلون جميعاً.

- ما هذا الذي تقوله، يا بابيون؟ لقد منعتُ التمرّد أنا وزملائي في جزيرة سان جوزيف.

- ربّما تستطيع، أنت، أن تنقذ نفسك، ولكن قادة جزيرة رويال لن يستطيعوا ذلك.

- اشرح وجهة نظرك!

ثمّ نهض آمرا سجن جزيرة رويال وجلسا من جديد.

- إذا ما واصلتم الحديث رسمياً عن حركة تمرّد، سوف تخسرون جميعاً. إذا وافقتم على تلبية شروطي، سأنقذكم جميعاً، باستثناء فيليساري.

- وما هي شروطك؟

- أوّلاً، أن تستعيد الحياة مجراها المعتاد، في الحال، وبدءاً من صباح يوم غد. فقط من خلال التخاطب فيما بيننا، نستطيع التأثير على الجميع، حول ما علينا أن نصرّح به للجنة. هل هذا صحيح؟

قال دوتان:

- نعم. ولكن لماذا سنحتاج إلى إنقاذ أنفسنا؟

- أنتم، في جزيرة رويال، لستُم قادة جزيرة رويال فقط، وإنّما قادة الجزر الثلاث.

- نعم.

- والحال أنّكم تلقّيتم وشايةً من جيرازولو يُخبركم فيها بأنّ تمرّداً يجري الإعداد له بزعامة هوتان وأرنو.

أضاف الحارس:

- وكاربونييري أيضاً.

- كلا، هذا ليس صحيحاً. كان كاربونييري عدواً شخصياً لجيرازولو منذ كانا في مرسيليا، وقد أضاف اسمه كيدياً إلى هذه المؤامرة. والحال أنّكم *لم تصدّقوا* أنّ هناك تمرّداً يتم إعداد العدّة له، لماذا؟ لأنّه أخبركم بأنّ هدف التمرّد هو قتل النساء والأطفال والعرب والحرّاس، وهو أمرٌ بدا لكم مستبعداً وغير قابلٍ للتصديق. من جهة أخرى، هناك قاربان لثمانمئة رجلٍ في جزيرة رويال، وقاربٌ واحد لستمئة رجلٍ في جزيرة سان جوزيف، ولا يمكن لأيّ رجلٍ جدّي أن يقبل بالانخراط في مؤامرةٍ كهذه.

- كيف عرفتَ كلّ هذا؟

- هذا شأنٌ يخصّني، ولكن إذا واصلتم الحديث عن تمرّدٍ، حتى وإن

جعلتم أحدهم يُخفيني عن الوجود، بل حتى وإن فعلتم ذلك بأنفسكم، فإنّ كلّ هذا سيُحكى وسيتمّ إثباته. إذاً، المسؤولية تكمن في أنّ قيادة جزيرة رويال أرسلت هذين الرجلين إلى جزيرة سان جوزيف، ولكن من دون أن تفصل بينهما. كان القرار المنطقي، وإذا ما اكتشف التحقيق هذا الأمر لن تستطيعوا الإفلات من عقوبات صارمة، هو أن ترسلوا أحدهما إلى جزيرة الشيطان، والآخر إلى جزيرة سان جوزيف، مع أنني أعلم أنّه كان من الصعب تصديق قصّة المجانين هذه. إذا ما تحدّثتم عن مؤامرة، فأنا أُعيدُ وأُكرّر أنّكم تورّطون أنفسكم بأنفسكم. وبالتالي إذا قبلتم بشروطي، وهي كما قلت لكم من قبل، أوّلاً، أن تُستأنف الحياة منذ صباح الغد على نحوٍ طبيعي؛ وثانياً، أن يتمّ إطلاق سراح جميع الرجال المحبوسين في الزنازين الانفرادية بشبهة الاشتراك في التمرّد في الحال - وألّا يخضعوا للاستجواب حول تورّطهم في المؤامرة لكونها غير موجودة؛ وثالثاً، أن يُرسل فيليساري، منذ هذه اللحظة، إلى جزيرة رويال، أوّلاً من أجل سلامته الشخصية، لأنّه في حال لم يكن هناك تمرّدٌ، كيف له أن يبرّر قتله لثلاثة رجال؟ ثمّ، لأنّ المراقب قاتلٌ خسيس وعندما تصرّف في لحظة الحادث، كان في غاية الذعر وأراد أن يقتل الجميع بما فيهم نحن الذين كنّا في المهجع. إذا وافقتم على هذه الشروط، سوف أرتّب الأمور بحيث يصرّح الجميع بأنّ أرنو وهوتان ومارسو قد تصرّفوا لكي يُلحقوا أكبر ضررٍ ممكن قبل أن يموتوا. وأنّ ما أقدموا عليه لم يكن متوقّعاً. ولم يكن لديهم لا متواطئون ولا متكتّمون.

حسب كلّ المعطيات، هؤلاء رجالٌ كانوا قد قرّروا الانتحار بهذه الطريقة، وهي أن يقتلوا أكبر عددٍ ممكن قبل أن يُقتَلوا، وهو الأمر الذي سعوا إليه. سأنسحب، إن أردتم ذلك، إلى المطبخ ويمكنكم بهذه الطريقة أن تتناقشوا فيما بينكم بحريّة لكي تبلّغوني بردّكم.

دخلتُ إلى المطبخ وأغلقتُ الباب. صافحتني السيّدة دوتان بحرارة وقدّمت لي قهوةً وكأساً من الكونياك. قال العربي محمد:

- ألم تقل شيئاً بشأني؟

- هذا الأمر يعود إلى الآمر، طالما أنّه قد سلّحك، فهذا لأنّه ينوي العفو عنك.

قالت لي عرّابة ليزيت بهدوء: «حسناً! لقد نالت جماعة جزيرة رويال حسابها».

- بالطبع، كان من السهل جدّاً بالنسبة إليهم الإقرار بتمرّدٍ في جزيرة سان جوزيف لا بدّ أنّ الجميع علِمَ بها عدا زوجك.

- بابيون، لقد سمعتُ كلّ شيء وأدركتُ في الحال بأنّك تُريد لنا الخير.

- هذا صحيح، يا سيّدة دوتان.

فُتِحَ الباب، وقال الحارس:

- تفضّل يا بابيون.

قال آمر سجن جزيرة رويال:

- اجلس يا بابيون. بعد أن تباحثنا في الأمر، خلصنا بالإجماع إلى أنّك بالفعل على حقّ. لم يكن هناك تمرّدٌ. كان هؤلاء المبعدون الثلاثة قد قرروا الانتحار وأرادوا أن يقتلوا أكبر عددٍ ممكن قبل ذلك. وبالتالي سوف تعود الحياة غداً إلى طبيعتها كما في السابق. وسوف يتمّ نقل السيّد فيليساري إلى جزيرة رويال في هذه الليلة نفسها. ووضعه يخصّنا نحن، ولا نطلب منك أيّ مساعدة في هذه المسألة. سوف نعتمد على وفائك بوعدك.

- اعتمدوا عليّ. إلى اللقاء.

- محمد والسيدان المراقبان، أوصلوا بابيون إلى المهجع. وأدخلوا فيليساري، فسوف يغادر معنا إلى جزيرة رويال.

في الطريق، قلتُ لمحمد أنني أتمنى أن ينال حريته، فشكرني.

في المهجع، سألني أحد الأصدقاء:

- إذاً، ماذا كان يريد الحرّاس منك؟

وفي ظلّ صمتٍ مطبق، رويتُ بصوتٍ عالٍ بدقّة وكلمة بكلمة كلّ ما حصل.

- إذا كان هناك أحدٌ ليس موافقاً أو مَنْ يعتقد بأنّه يستطيع انتقاد هذا الاتفاق الذي أبرمته مع الحرّاس باسم الجميع، فليقل ذلك.

وأعلن الجميع بصوتٍ واحد موافقتهم.

- هل تعتقد أنّهم صدّقوا بالفعل أنّ ليس هناك أيّ شخصٍ آخر متواطئ؟

- كلا، ولكن إذا كانوا لا يُريدون أن يُعزَلوا، عليهم أن يصدّقوا ذلك. ونحن أيضاً، إذا أردنا أن نتحاشى المصاعب والمشكلات، يجب أن نصدّق ذلك.

تمّ في الساعة السابعة من هذا الصباح إفراغ جميع الزنازين الانفرادية في قسم التأديب. وكان عدد المحتجزين فيها أكثر من مئة وخمسين سجيناً. لم يخرج أحدٌ إلى العمل، ولكن فُتحت أبواب جميع المهاجع، وامتلأت الباحة بالسجناء المحكومين بالأشغال الشاقّة، والذين تحدّثوا مع بعضهم ودخّنوا ووقفوا تحت الشمس أو في الظلّ، حسب رغبتهم، وبكلّ حرّية. وغادر نيستون إلى المستشفى. وقد أخبرني كاربونييري بأنّهم كانوا قد وضعوا على الأقلّ على ثمانين إلى مئة وعشرين باباً من أبواب الزنازين بطاقة ورقية كُتِبَت عليها عبارة: «مشتبه به بالتواطؤ في التمرّد».

الآن وقد اجتمعنا جميعاً، عرفنا الحقيقة. لم يقتل فيليساري سوى رجلٍ واحد، أمّا الرجلان الآخران فقد قُتِلا على أيدي حارسين شابّين تعرّضا للتهديد من جانب الرجال الذين حوصِروا وظنّوا أنّهم سيُقتَلون، فهاجموا بسكاكينهم في محاولةٍ لقتل أحدهما على الأقل قبل أن يموتوا. وهكذا تحوّل تمرّدٌ حقيقي، والذي فشل لحسن الحظّ منذ بدايته، إلى عملية انتحارٍ مُختَلَقة لثلاثة سجناء، وهي الفرضية المقبولة رسمياً مِن الجميع: الإدارة والمحكومون. وقد بقي منها أسطورة أو حكاية حقيقية، لا أدري تماماً، تتراوح بين هاتين الكلمتين.

يبدو أنّ دفن القتلى الثلاثة في المعسكر، بالإضافة إلى كلّ من هوتان ومارسو، قد جرى بالطريقة التالية: لأنّه لم يكن هناك سوى صندوق - تابوت واحدٍ لإلقاء الجثث في البحر، وضعهم الحرّاس في قاع القارب

وألقوا بخمستهم معاً لأسماك القرش. كانوا قد حسبوا أنّ الأواخر منهم سيحظون بالوقت لكي يغوصوا في الماء عميقاً بفعل الأحجار المربوطة إلى أقدامهم، في حين يكون أصدقاؤهم قد التُهِموا مِن أسماك القرش. وقد روي لي أنّ أيّاً من الجثث لم تستطع أن تختفي في مياه البحر وأنّ الجثث الخمس، مع هبوط الليل، رقصت رقصة باليه الكفن الأبيض، كعرائس حقيقية تحرّكها أخطام أسماك القرش وذيولها في هذه الوليمة اللائقة بنبوخذ نصر. وجعلت فظاعة المشهد الحرّاس والمجدّفين يفرّون من المكان ويعودون إلى الشاطئ.

جاءت لجنة ومكثت قرابة خمسة أيام في جزيرة سان جوزيف ويومين في جزيرة رويال. لم تستجوبني اللجنة استجواباً خاصّاً، وإنّما مثلتُ أمامها مثل الآخرين. ومن خلال الآمر دوتان، علمتُ أنّ كلّ شيء قد جرى على ما يُرام. فقد أُرسِل فيليساري في إجازة حتى حلول موعد تقاعده، وبالتالي لن يعود ثانية. وتمّ إعفاء محمد من كامل عقوبته، وحصل الآمر دوتان على رتبة إضافية.

ولأنّه هناك على الدوام ساخطون وممتعضون، سألني البارحة محكومٌ من بوردو:

– وماذا كسبنا نحن الآخرون من ترتيب هذا الاتفاق مع الحرّاس؟

نظرتُ إلى هذا الرجل وقلتُ له:

– لم نكسب الشيء الكثير: فقط لن يقضي خمسّون أو ستون رجلاً خمس سنوات في الحبس الانفرادي بتهمة التواطؤ، هل ترى أنّ لا قيمة لهذا؟

لقد هدأت هذه العاصفة لحسن الحظّ. قوّض تفاهمٌ ضمني بين المراقبين والمحكومين بالأشغال الشاقّة تماماً عمل لجنة التحقيق الشهيرة والتي ربّما لم تكن تطلب سوى أن ينتهي كلّ شيء على ما يُرام. أنا شخصياً لم أكسب شيئاً كما لم أخسر شيئاً، سوى أنّ رفاقي أصبحوا

ممتنين لي لكوني لم أدعهم يخضعون لنظامٍ أكثر قسوةً. وعلى العكس من ذلك، تمّ إلغاء جرّ الحجارة، وأُبطِلَت هذه السخرة الفظيعة. وقد أصبح جرّها من عمل الجواميس، واقتصرت مهمّة السجناء على وضعها في محلّها. عاد كاربونييري إلى عمله في المخبز. أمّا أنا، فسعيتُ إلى العودة إلى جزيرة رويال، لأنّه في الواقع، لا توجد هنا ورشة، وبالتالي من المستحيل صنع قاربٍ لترتيب عملية فرار.

زاد وصول بيتان إلى السلطة من توتّر العلاقات بين المُبعَدين والمراقبين. لقد أعلن كلّ كادر الإدارة بصوتٍ عال بأنّه «بيتاني»، إلى درجة أنّ حارساً نورماندياً قال لي:

– هل تُريد أن أقول لك شيئاً، يا بابيون؟ لم أكن يوماً جمهورياً.

في الجزر، لم يكن لدى أحدٍ مذياعٌ ولم نكن نسمع الأخبار. وعلاوة على ذلك، قيل بأننا نزوّد الغوّاصات الألمانية، في المارتينيك وفي غوادلوب، بالمؤن. إنّه لأمرٌ محيّر. وكانت هناك باستمرار خلافات وجدالات.

– اللعنة، هل تُريد أن أقول لك شيئاً، يا بابيون؟ الآن علينا أن نقوم بتمرّدٍ، لكي نعطي الجزر للفرنسيين الموالين لديغول.

– أتظنّ أنّ شاريوت العظيم يحتاج إلى سجن الأشغال الشاقّة؟ ليفعل بها ماذا؟

– ايه! ليأخذ منه من ألفين إلى ثلاثة آلاف رجلٍ!

– هل ليأخذ مجذومين ومغفّلين ومصابين بالسلّ والزحار؟ لا أصدّق ذلك، أنت تمزح! هذا الرجل ليس غبيّاً لكي يُربك نفسه بمحكومين بالأشغال الشاقّة.

– وماذا عن ألفي رجل من الذين ظلّوا أصحّاء؟

– هذا شيءٌ مختلف. ولكن كونهم رجالاً، لا يعني أنّهم صالحون للحرب، أليس كذلك؟ وهل تظنّ أنّ الحرب هي عملية سطو مسلّح؟ إنّ عملية سطو مسلّح تستغرق عشر دقائق، أمّا الحرب، فتستغرق سنوات

طويلة. ليكون الرجل جندياً جيّداً، يجب أن يمتلك الإيمان بالوطن. وسواءً أعجبك هذا أم لم يعجبك، أنا لا أرى هنا رجلاً مستعداً لأن يقدّم حياته في سبيل فرنسا.

- ولماذا نقدّم لها حياتنا بعد كلّ ما فعلته بنا؟

- إذاً، أنت ترى بأنني على حقّ. لحسن الحظّ أنّ لدى هذا العظيم شاريوت رجالاً آخرين غيركم ليخوضوا الحرب. ومع ذلك، اللعنة! لا أطيق أن يكون هؤلاء الأوغاد الألمان في وطننا! ولا أن يكون هناك فرنسيون يعملون لصالح الألمان! الحرّاس هنا، جميعهم ودون استثناء، يعلنون بأنهم مع بيتان.

قال الكونت دو بيراك: «ستكون هذه طريقة للتكفير عن الذنب». وحينئذٍ حدثت الظاهرة التالية: لم يحدث من قبل أن تحدّث أحدٌ عن التكفير عن ذنبه. وها قد أصبح الجميع، من رجال الوسط الإجرامي والبُلهاء، جميع هؤلاء المحكومين بالأشغال الشاقّة، يرون بصيص أمل.

- وهل نقوم بهذا التمرّد حتى نتمكّن من الالتحاق بقوات ديغول، يا بابيون؟

- أنا آسف جدّاً، ولكنني لا أسعى إلى أن أكفّر عن ذنبي من أجل عيون أيّ أحد. أنا أجلس فوق العدالة الفرنسية والباب الخاصّ بشأن «ردّ الاعتبار». سوف أعمّد نفسي بنفسي وأُعيد الاعتبار لنفسي، وواجبي هو أن أغادر هذا المكان هارباً من السجن، وأن أصبح، بعد نيلي لحريتي، رجلاً طبيعياً يعيش في مجتمعه دون أن يكون خطراً عليه. لا أعتقد أنّ رجلاً يستطيع أن يُبرهِنَ على شيءٍ مختلف بطريقة مختلفة. أنا دائم التأهّب لأن أقوم بأيّ عملٍ بهدف تدبير عملية فرار. إنّ تقديم الجزر لشاريوت العظيم لا يهمّني في شيء وأنا متأكّد بأنّه لا يهمّه هو أيضاً. من جهة أخرى، إذا ما قمتَ بشيءٍ كهذا، أتدري ماذا سيقول الرجال من ذوي المناصب الرفيعة؟ سيقولون بأنّك استوليت على الجزر لتكون حرّاً لا لتفعل شيئاً صالحاً من أجل فرنسا الحرّة. ثمّ، هل تعلمون أيّ من الرجلين على حقّ؟ ديغول أم

بيتان؟ أنا من جهتي، لا أعلم شيئاً على الإطلاق. أنا أتألّم كأحمقٍ مسكين لأن تُحتلّ بلادي، أفكّر في أهلي وفي والديّ وشقيقاتي وبناتهنّ.

– هل ينبغي أن نكون أوغاداً، وأن نقلق كلّ هذا القلق على مجتمعٍ لا يمتلك ذرّة من الرحمة والشفقة علينا؟

– ومع ذلك، هذا أمرٌ طبيعي، لأنّ رجال الشرطة والجهاز القضائي الفرنسي، وهؤلاء الدرك والحرّاس، ليسوا فرنسا، إنّهم يشكّلون طبقة خاصّة قائمة بذاتها، متشكّلة من الناس الذين لديهم ذهنية مشوّهة ومشوّشة تماماً. كم هو عدد هؤلاء الناس الذين هم على استعدادٍ اليوم ليصبحوا خدماً للألمان؟ هل تُراهن أنّ الشرطة الفرنسية توقِف مواطنين فرنسيين وتُسلّمهم للسلطات الألمانية؟ حسناً. بالنسبة لي، أقول وأكرّر بأنني لن أسير في تمرّدٍ، أيّاً كانت دوافعه. إلّا إذا كان من أجلِ فرارٍ، ولكن أيّ فرار؟

جرت مناقشات حادّة جدّاً بين الفرقاء، فقد أيّد بعضٌ ديغول، فيما أيّد آخرون بيتان. وفي قاع تلك المهاجع، لم نكن نعلم شيئاً، لأنّه، كما أسلفتُ القول، لم تكن هناك أيّ محطّة إذاعية لا عند المراقبين ولا عند المُبعَدين. كانت الأخبار تصل فقط عبر السفن التي تمرّ بنا وتحمل إلينا بعض الطحين والخضار المجفّفة والأرزّ. بالنسبة إلينا، كانت الحرب بعيدة عن أنظارنا ومن الصعب فهمها.

سوف يأتي، على ما يبدو، إلى سان لوران دو ماروني ضابط تجنيد لكي يقوم بتجنيد الرجال في القوّات الحرّة. في سجون الأشغال الشاقّة، لم نكن نعلم شيئاً سوى أنّ الألمان قد بسطوا احتلالهم على كلّ فرنسا.

حدثت واقعة مسلّية: جاء خوريٌّ إلى جزيرة رويال، وألقى عظةً بعد القدّاس. وقد قال:

– إذا ما تعرّضت الجزر إلى الهجوم، سوف نزوّدكم بالأسلحة لكي تساعدوا المراقبين والحرّاس في الدفاع عن الأراضي الفرنسية.

لقد قال بالفعل هذا الكلام! ما أحلاه من خوري، وبالفعل لا بدّ أنّ

لديه فكرة ساذجة جدّاً عنّا! الذهاب للطلب من السجناء لكي يدافعوا عن الزنازين! وهذا مثالٌ على أننا سنكون قد رأينا كلّ شيء في سجون الأشغال الشاقة!

الحرب بالنسبة إلينا تتجلّى بالتالي: يتضاعف عدد الحرّاس، ويتحوّل الحارس البسيط إلى آمر سجن وقائد حرس؛ الكثير من المفتّشين والمحقّقين الذين يتحدّث بعضهم بلهجة ألمانية أو إلزاسية واضحة جدّاً؛ القليل جدّاً من الخبز؛ قرابة أربعمئة غرامٍ فقط؛ القليل جدّاً من اللحم.

باختصار، الشيء الوحيد الذي يزداد، هو كلفة عملية فرار فاشلة: الحكم بالموت وتنفيذه. لأنّه تُضاف إلى تهمة الفرار تهمة «محاولة تنفيذ أوامر أعداء فرنسا».

أنا في جزيرة رويال منذ قرابة أربعة أشهر، وقد عقدتُ علاقة صداقة حميمة مع الدكتور جيرمان غيبير. طلبت منّي زوجته، وهي سيّدة مميّزة جدّاً، أن أنشئ لها مزرعة خضار لتساعدها على أن تعيش هذا النظام الغذائي الصارم. زرعتُ لها بستاناً فيه خسّ وفجل وفاصولياء خضراء وطماطم وباذنجان. انبهرت بالبستان وعاملتني كصديقٍ عزيز.

لم يسبق لهذا الطبيب أبداً أن صافح مراقباً، أيّاً كانت رتبته، ولكنّه غالباً ما كان يصافحني أو يصافح بعض المحكومين الذين يتعرّف عليهم ويكنّ لهم الاحترام.

حينما استعدتُ حريّتي، استأنفتُ الاتصال مع الدكتور جيرمان غيبير عبر الدكتور روزنبيرغ. وقد أرسل لي صورة له ولزوجته في جادة كانبيير في مرسيليا. كان يعود من المغرب وقد هنّأني بعد أن عرف بأنني حرّ وسعيد. وقد مات في الهند الصينية وهو يحاول إنقاذ جنديٍّ جريحٍ متأخّر في أرض المعركة. كان إنساناً متميّزاً جدّاً وكانت زوجته جديرةً به. حينما سافرتُ إلى فرنسا، في عام 1967، أردتُ الذهاب إلى لقائها، ولكنني عدلتُ عن ذلك لأنّها كانت قد توقّفت عن مراسلتي بعد أن طلبتُ منها شهادةً لصالحي، وكانت قد لبّت طلبي. ولكن منذ ذلك الوقت، لم تعد

تزوّدني بأخبارها أبداً. لا أعرف ما هو سبب هذا الصمت، ولكنني أحتفظ في روحي بأسمى آيات العرفان لهما بسبب الطريقة التي عاملاني بها في منزلهما في جزيرة رويال.

بعد بضعة أشهر، استطعتُ أن أعود إلى جزيرة رويال.

الدفتر التاسع

جزيرة سان جوزيف

موت كاربونييري

البارحة، تلقّى صديقي ماتيو كاربونييري طعنة سكينٍ في قلبه. وسوف تتبع عملية القتل هذه سلسلة من عمليات قتل أخرى. تلقّى طعنةَ سكين وهو يستحمّ عارياً عند المغسلة، ووجهه مغطّى برغوة الصابون. حينما يستحمّ السجين، يترك عادة سكّينه مفتوحاً، ويدسّه تحت ثيابه حتى يكون لديه الوقت تماماً لكي يمسك به إذا ما اقترب فجأةً شخصٌ يعتبره عدوّاً. ولأنّه لم يفعل ذلك، فقد كلّفه الأمر حياته.

مع الحصول على إذنٍ من الناظر، أنزلتُ بنفسي، وبمساعدة شخصٍ آخر، جثّة صديقي إلى الرصيف البحري. كانت الجثّة ثقيلة، وخلال نزولي عبر الشاطئ، اضطررتُ لأن أتوقّف ثلاث مرّات للاستراحة. ربطتُ بقدميه حجرةً كبيرة واستخدمتُ في ذلك سلكاً معدنياً بدل الحبل العادي. وبذلك، لن تتمكّن أسماك القرش أن تقطع الحبل وتغوص الجثّة في البحر دون أن تلتهمها أسماك القرش.

دقّ ناقوس الكنيسة، ووصلنا إلى الرصيف البحري. كانت الساعة تشير إلى السادسة مساءً. مالت الشمس إلى المغيب في الأفق. صعدنا إلى القارب. في الصندوق الشهير، الذي يُستخدَم للجميع، والموضوع في القارب مفتوح الغطاء، ينام ماتيو إلى الأبد. لقد انتهى الأمر بالنسبة إليه.

قال لي الحارس الذي يقود دفّة المركب: «إلى الأمام! ألقِ به». في

غضون أقلّ من عشر دقائق، وصلنا إلى التيار المتشكّل بفعل القناة بين جزيرتي رويال وسان جوزيف. وحينئذٍ، شعرتُ فجأةً بغصّة في حلقي. خرجت العشرات من زعانف أسماك القرش من الماء، وهي تلفّ بسرعةٍ في مساحة ضيّقة تقلّ عن أربعمئة مترٍ. وها هي قاضمات المحكومين قد وصلت على الموعد تماماً. أتمنى من الربّ الرحيم ألّا تحظى بالوقت لالتقاط جثّة صديقي. رُفِعت المجاديف في إشارةٍ إلى الوداع، ورفعنا الصندوق، فانزلقت جثّة ماتيو الملفوفة بأكياس الطحين، مسحوبةً بثقل الحجرة الضخمة، ولامست سريعاً مياه البحر.

يا للهول! بالكادِ دخلت الجثة إلى الماء، وظننتُ أنها اختفت، حتى ارتفعت من جديد مرفوعةً في الهواء من قبل لا أدري إن كانت سبع أو عشر أو عشرين سمكة قرش، ومن عساه أن يعرف العدد؟ وقبل أن ينسحب القارب، نُزِعت أكياس الطحين التي تغلّف الجثّة، وحينذاك حدث أمرٌ لا يُمكن تفسيره. ظهر ماتيو قرابة ثانيتين أو ثلاث واقفاً على قدميه على صفحة الماء، وقد بُتِرَ ساعده الأيمن. أقبلت الجثّة وهي غائصة في البحر حتى منتصفها مباشرةً نحو القارب، ومن ثَمّ، وسط دوّامةٍ أقوى، اختفت إلى الأبد. مرّت أسماك القرش تحت قاربنا واصطدمت بقاعه وكاد أحد الرجال أن يفقد توازنه ويسقط في البحر.

ذُهِل الجميع بما فيهم الحرّاس. وللمرّة الأولى في حياتي، تمنّيتُ أن أموت. ووصلتُ إلى حدّ أنني أوشكتُ على أن أُلقي بنفسي إلى أسماك القرش لأختفي إلى الأبد وأنتهي من هذا الجحيم.

صعدتُ وئيداً من الرصيف البحري إلى المعسكر. لم يرافقني أحد. وضعتُ النقالة على كتفي ووصلتُ إلى المنبسط الذي هاجم فيه جاموسي بروتوس الجاموس دانتون. توقّفتُ في المكان وجلست. حلّ الليل ولما تزل الساعة السابعة مساءً. في الغرب، رأيتُ السماء مضاءة قليلاً ببعض ألسنة الشمس التي غابت في الأفق. أمّا ما تبقى من السماء فكان مظلماً، يخترقه للحظات وميض منارة الجزيرة، وأنا قلبي مثقلٌ بالأحزان.

اللعنة! هل أردتَ أن ترى عملية دفن، والأنكى من ذلك، دفن جثّة صديقك؟ حسناً، ها قد رأيت ذلك، وأيّ رؤية! لقد شاهدتَ قرع الناقوس وكلّ التفاصيل الأخرى! هل أنت راضٍ الآن؟ لقد أشبعت فضولك المرضي.

بقي عليك أن تقتل الرجل الذي قتل صديقك. متى؟ أفي هذه الليلة؟ لماذا هذه الليلة؟ إنّه من المبكّر جداً، سوف يكون القاتل في أقصى درجات الاحتراس. تضمّ مجموعته عشرة أشخاص. لا ينبغي أن أكون بنفسي ضحية ويأخذ بي التسرّع في هذه الضربة. تُرى، على كم رجلٍ يمكنني أن أعتمد؟ أربعة رجال وأنا خامسهم. هذا جيّد. نعم، يجب أنّ أقوم بتصفية هذا الرجل، وإن أمكن، أغادر إلى جزيرة الشيطان. للوصول إلى هناك، لا حاجة إلى طوفٍ ولا إلى تحضيرات ولا إلى أيّ شيء؛ يكفي أن أملأ كيسين بجوز الهند ولا أُبالي بعد ذلك بالبحر. المسافة إلى الشاطئ قصيرة نسبياً، وهي لا تتعدّى أربعين كيلومتراً بخطٍّ مستقيم. وبوجود الأمواج والرياح والمدّ البحري يمكن لهذه المسافة أن تتحوّل إلى مئة كيلومترٍ. والمسألة لن تكون سوى مسألة صمود ومقاومة. وأنا قويّ، ولا بدّ أنني سأستطيع أن أمضي يومين ممتطياً كيسي العائم.

أخذتُ النقّالة وصعدتُ إلى المعسكر. حينما وصلتُ إلى الباب، تمّ تفتيشي، وهو أمرٌ غير مألوف، إذ لم يسبق لهذا أن حصل. واستولى الحارس شخصياً على سكيني. فقلتُ للحرّاس:

– أتُريدون أن أُقتَل؟ لماذا يتمّ تجريدي من سلاحي؟ هل تعلمون أنكم بهذا التصرّف ترسلوني إلى الموت؟ إذا ما قُتِلت سيكون هذا ذنبكم.

لم يُجب أحد لا من الحرّاس ولا من حمَلَة المفاتيح العرب. فُتِحَ الباب ودخلتُ إلى المهجع. وقلت: «ولكن لا نرى شيئاً هنا، لماذا هناك مصباحٌ واحدٌ فقط بدل ثلاثة؟».

سحبني غرانديه من كمّ قميصي وقال:

– بابي، تعال من هنا.

لم يكن المهجع صاخباً كثيراً، وانتابني إحساسٌ بأنّ أمراً جللاً سيحدث أو أنّه قد حدث.

- لم يعد سكّيني معي. لقد أخذوه مني أثناء التفتيش.

- لن تحتاج إليه هذه الليلة.

- لماذا؟

- الأرمني وصديقه في المراحيض.

- ماذا يفعلان هناك؟

- لقد ماتا.

- مَنْ قتلهما؟

- أنا.

- لقد أُنجزَ ذلك بسرعة. وماذا عن الآخرين؟

- لقد بقي أربعة أشخاص من خصّهم. وقد وعدني بولو وعدَ الرجال بأنّهم لن يتصرّفوا أيّ تصرّف وأنّهم سينتظرونك لكي يعرفوا إن كنتَ موافقاً على أن تتوقّف القضية عند هذا الحدّ.

- أعطني سكيناً.

- تفضّل، هذا سكيني. سأبقى في هذه الزاوية، اذهب وتكلّم معهم.

تقدّمتُ نحو خصّهم. وأصبحت الآن عيناي متأقلمتين مع هذا الضوء الشاحب. وأخيراً نجحتُ في تمييز المجموعة. وبالفعل، كان الرجال الأربعة واقفين أمام أراجيح نومهم، متلاصقين ببعضهم.

- بولو، أتريد أن تتكلّم معي؟

- نعم.

- لوحدك، أم أمام أصدقائك؟ ماذا تُريد منّي؟

تركتُ، من باب الحذر، مسافة مترٍ ونصف بيني وبينهم. كان سكيني مفتوحاً تحت كمّ قميصي الأيسر الذي يبلغ كفّ يدي.

- كنتُ أودّ أن أقول لك بأنّه قد تمّ الانتقام لصديقك بما فيه الكفاية.

أنتَ فقدت صديقك المقرّب، ونحن فقدنا اثنين من أصدقائنا. برأيي، يجب أن يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ، أنت ما رأيك في ذلك؟

- بولو، أسجّل لك عرضك هذا. ما يمكننا فعله، إذا كنتم موافقين، هو أن يلتزم الخصّان بعدم فعل أيّ شيء خلال ثمانية أيام. ومن الآن إلى انقضاء هذه المدّة، سوف نرى ما الذي يجب فعله. هل توافقون؟

- اتّفقنا.

وانسحبت.

سألني غرانديه:

- ماذا قالوا لك؟

- قالوا بأنّهم يعتقدون أنّه قد تمّ الانتقام لماتيو بما فيه الكفاية بمقتل الأرمني وسان سوسي.

قال غالغاني:

- كلا.

لم يقل غرانديه شيئاً. أمّا جان كاستيلي ولويس غرافون فقد وافقا على عقد معاهدة سلام، وسألاني:

- وأنت، ما رأيك، يا بابي؟

- أوّلاً، مَنْ قتل ماتيو؟ إنّه الأرمني. حسناً. لقد عرضتُ عليهم اتفاقاً. أعطيتُ وعداً وهم وعدوني بأنّ لا يتصرّف أحدٌ منا أيّ تصرّف خلال ثمانية أيام.

قال غالغاني:

- ألا تريد أن تنتقم لماتيو؟

- يا صاحبي، لقد تمّ الانتقام لماتيو الآن، وقد قُتِلَ رجلان مقابله. لماذا نقتل الآخرين؟

- هل كانوا على علم؟ هذا ما يجب أن نعرفه.

- طابت ليلتكم جميعاً، اعذروني. سأنام لو استطعتُ إلى ذلك سبيلاً.

كنتُ أحتاج على الأقلّ إلى أن أبقى وحيداً، فتمدّدتُ على أرجوحة نومي، وأحسستُ بيدٍ تتسلّل إليّ وتسحب بهدوء السكين. سمعتُ همساً خفيفاً في الظلام: «نم إن استطعت، يا بابي، نم بهدوء. أمّا نحن، فعلى أيّ حال، سوف نقوم بالحراسة كلٌّ بدوره».

لم يكن هناك باعثٌ جدّي للموت القاسي جدّاً والمقزّز للغاية لصديقي. لقد قتله الرجل الأرمني لأنّه في الليل، أثناء لعبة القمار، فرض عليه أن يدفع مئة وسبعين فرنكاً. أحسّ هذا الغبي بأنّه قد أُذلّ لأنّه أُرغِمَ على أن يمتثل لأوامر ماتيو أمام ثلاثين أو أربعين مقامراً. إذ حُشِرَ بين ماتيو وغرانديه، فما كان أمامه من خيار سوى الانصياع.

لقد قتلَ بجبن ونذالة رجلاً كان نموذج المغامر النظيف والنقي في وسطه. لقد أصابتني هذه الضربة بقوّة ومسّتني بعمق، وليس لي سوى عزاءٍ وحيدٍ، وهو أنّ القاتلين لم يَنْجُوَا بجريمتهما إلّا لبضع ساعات، ولكن هذا قليلٌ جدّاً.

لقد طعن غرانديه، مثل نمرٍ، رقبتيهما بسرعةٍ تليق ببطلٍ في مبارزة السيف، حتى دون أن يحظيا بفرصة الاحتراس من ضربته. تخيّلتُ الحادثة وقلتُ في نفسي: «لا بدّ أنّ المكان الذي سقطا فيه قد فاض بالدم». ثمّ فكّرتُ ببلاهة: «لديّ الرغبة في أن أسأل من ذا الذي جرّهما إلى المراحيض؟» ولكنني لا أرغب في الكلام. وأنا مغمض الأجفان، تراءت لي الشمس وهي تغيب على نحوٍ مأساوي بأشعّةٍ حمراء وبنفسجية، وتُنير بآخر ألسنتها هذا المشهد الفظيع، الأشبه بالجحيم: تتنازع أسماك القرش جثّة صديقي... وهذا الجذع المنتصب، المبتور الساعد، المُقبل نحو القارب!... إذاً، كان صحيحاً أنّ ناقوس الكنيسة يدعو أسماك القرش وأنّ هذه الأسماك القذرة تعرف أنّ وليمةً ستقدّم لها حينما يُقرَع الناقوس...

كما تراءت لي أيضاً العشرات من الزعانف، بتلويناتها الكثيبة المائلة للون الفضي، وهي تمور كالغواصات وتجول دائرياً... فعلاً كان عددها

أكثر من مئة... بالنسبة له، بالنسبة لصديقي، قُضي الأمر: لقد أنجز طريق العفن عمله حتى النهاية. الموت بطعنة سكينٍ لسببٍ تافهٍ، في الأربعين من العمر! يا لصديقي المسكين. أمّا أنا، فلم أعد أستطيع أن أفعل له شيئاً. كلا. كلا. أريدُ أن تلتهمني أسماك القرش، ولكن حيّاً، وأنا أجازف من أجل حريّتي، من دون أكياس طحينٍ، ومن دون حجرةٍ، ومن دون حبل. من دون مشاهدين، لا من المحكومين بالأشغال الشاقّة ولا من الحرّاس. من دون ناقوس. إذا أردتُ أن تلتهمني أسماك القرش، حسناً... فلتلتهمني وأنا حيّ، وأنا أصارع الطبيعة لكي أصل إلى البر الرئيسي.

– لقد قضي الأمر، قُضي تماماً. لن يعود هناك هروبٌ جيّد الإعداد. إلى جزيرة الشيطان، بكيسين من جوز الهند وترك كلّ شيء، ترك كلّ شيء لمشيئة الربّ.

في النهاية، لن تكون المسألة سوى مسألة مقاومة بدنية. ثماني وأربعون ساعة أو خمسون ساعة؟ تُرى هل سيتسبّب وقتٌ طويلٌ جدّاً كهذا، مع جهود عضلات الفخذين المنقبضة على كيسي جوز الهند، في لحظة معيّنة بشلّ ساقيّ؟ إذا ما حالفني الحظّ واستطعتُ الذهاب إلى جزيرة الشيطان، سوف أقوم بمحاولاتي. الخروج أوّلاً من جزيرة رويال، وبعد ذلك سأرى ما الذي يمكنني فعله.

– هل أنت نائم، يا بابي؟

– كلا.

– هل تُريد بعض القهوة؟

– من فضلك.

وجلستُ على أرجوحة نومي، وقبلتُ بفنجان القهوة الساخنة الذي قدّمه لي غرانديه مع سيجارة غلواز مشتعلة.

– كم الساعة؟

– الواحدة فجراً. استلمتُ مناوبة الحراسة في منتصف الليل، ولكن بما أنني رأيتُك لا تزال تتحرّك، اعتقدتُ أنّك لم تنم.

– أنت على حقّ. لقد هزّني موت ماتيو، لكنّ دفنه رمياً لأسماك القرش آلمني أكثر. كان الأمر رهيباً، هل تعرف؟

– لا تقل لي شيئاً، يا بابي، أنا أُقدّر ما يمكن أن يكون عليه ذلك من فظاعة. ما كان عليك أبداً أن تذهب مع الجثّة إلى هناك.

– كنتُ أعتقد أنّ حكاية ناقوس الكنيسة مجرّد هراء. ثمّ أنني بعد أن ربطتُ الحجرة الضخمة بسلكٍ معدني، لم أتصوّر قطّ أنّ أسماك القرش سوف تحظى بالوقت الكافي لتلقّف جثّته بهذه السرعة. صديقي المسكين ماتيو، سوف أرى هذا المشهد المرعب طيلة حياتي. وأنت، ماذا فعلت، حتى قضيت على الأرمني وسان سوسي بهذه السرعة البالغة؟

– أمّا أنا، فكنتُ في طرف الجزيرة أركّب باباً حديدياً لملحمة عندما علمتُ بأنّهما قد قتلا صديقنا. كان ذلك في منتصف الظهيرة. وبدل أن أصعد إلى المعسكر، ذهبتُ إلى المشغل زاعماً بأنني سأصلّح قفل الباب. استطعتُ أن أُثبّت بطرفِ أنبوبٍ بطول مترٍ خنجراً شحذتُ طرفي نصله. كان مقبض الخنجر فارغاً وكذلك الأنبوب. عدتُ إلى المعسكر في الساعة الخامسة والأنبوب في يدي. سألني الحارس عمّا أحمله في يدي، فأجبتُه بأنّ القضيب الخشبي لأرجوحة نومي قد انكسر وأنني سأستخدم هذا الأنبوب بدلاً عنه هذه الليلة. كان الوقت لا يزال نهاراً حينما دخلتُ إلى المهجع، ولكنني تركتُ الأنبوب عند المغسلة. قبل بدء التفقّد، جلبته إلى المهجع، وكان الليل قد بدأ بالهبوط. محاطاً بأصدقائنا، ركّبتُ الخنجر بسرعة على الأنبوب. كان الأرمني وسان سوسي واقفين في مكانهما، أمام أرجوحة نومهما، ويقف بولو خلفهما بمسافة قصيرة. أنت تعلم أنّ جان كاستيلي ولويس غرافون بمنتهى الشجاعة، ولكنّهما عجوزان وتنقصهما الرشاقة للقتال في عراكٍ منظّمٍ كهذا.

أردتُ أن أتصرّف قبل أن تَصل، لكي أجنّبك التورّط في هذا العراك. مع ما لديك من سوابق، لو أننا ضُبطنا بالجرم المشهود، كنت ستنال أقصى العقوبات. ذهب جان إلى آخر المهجع، وأطفأ أحد المصابيح؛

وفعل غرافون الشيء نفسه في الطرف الآخر من المهجع. أصبح المهجع بلا ضوء تقريباً، حيث لم يبقَ إلا مصباحٌ زيتيٌّ واحدٌ في وسطه. أخذتُ معي مصباح جيب كبيراً، زوّدني به ديغا. تقدّم جان أوّلاً، وسرتُ أنا خلفه. حينما وصل جان إليهم، رفع ذراعه وسلّط نور المصباح عليهم، فرفع الأرمني، الذي أبهر الضوء عينيه، ذراعه اليمنى إلى عينيه، فانتهزتُ الفرصة واخترقتُ عنقه برمحي. استلّ سان سوسي، الذي انبهر بدوره، سكينه أمامه دون أن يعرف تماماً إلى أين يوجهه في الفراغ. فعاجلته بضربة قويّة جدّاً من رمحي بحيثُ اخترقه من طرف وخرج من الطرف الآخر. ارتمى بولو منبطحاً على الأرض، وتدحرج إلى أسفل أراجيح النوم. وإذ أطفأ جان المصباح، تخلّيتُ عن ملاحقة بولو تحت أراجيح النوم، وهذا ما أنقذه.

- ومن سحبهما إلى المراحيض؟

- لا أدري. أعتقد أنّ رفاقهما في الخصّ هم من قاموا بذلك لكي يُخرجوا الماسورتين المليئتين بالمال من بطنيهما.

- ولكن لا بدّ أنّ بركة كبيرة من الدماء قد تشكّلت في المهجع، أليس كذلك؟

- نعم، لقد نحرتهما بالمعنى الحرفي للكلمة، ولا بدّ أنّهما قد نزفا كلّ ما فيهما من دم. تسلّط نور المصباح الكهربائي عليّ حينما كنتُ أجهّز الرمح. كان أحد الحرّاس في الورشة يُغيّر بطاريات مصباحه. وهذا ما ألهمني الفكرة، فاتّصلتُ في الحال مع ديغا لكي يؤمّن لي مصباح جيب. يستطيع الحرّاس أن يقوموا بالتفتيش بانتظام. وقد أُخرِج المصباح الكهربائي خلال جولة تفتيشٍ وسُلّم إلى ديغا، وكذلك الخنجر.

وبالتالي ليس هناك أيّ فضيحة في هذا الجانب، وليس هناك أيّ شيء أتأسّف عليه. لقد قتلا صديقنا وعيناه مليئتان برغوة الصابون، وأنا قتلتهما وعيونهما مليئة بالضوء، وبالتالي نحن متعادلون. ما قولك أنت في هذا، يا بابي؟

- لقد أحسنت صنعاً ولا أعرف كيف أشكرك على تصرّفك بهذه السرعة للانتقام لصديقنا، وعلاوة على ذلك، بأن واتتك هذه الفكرة بأن تُبقيني بعيداً عن هذه الحادثة.

- فلنكفّ عن الحديث في هذا. لقد قمتُ بواجبي: لقد عانيتَ كثيراً ولديك رغبة شديدة بأن تصبح حرّاً، ولذلك كان عليّ أفعل ذلك.

- شكراً لك، يا غرانديه. نعم أرغب في الرحيل أكثر من أيّ وقتٍ مضى. ولذلك ساعدني لكي تقف هذه القضيّة عند هذا الحدّ. بكلّ صراحة، كنتُ سأتفاجأ كثيراً لو أنّ الأرمني كان قد أعلَم أفراد مجموعته قبل أن يتصرّف. ما كان لبولو أن يوافق على عملية قتلٍ بهذا الجبن. لأنّه يعرف نتائجها.

- وأنا أيضاً أعتقد ذلك. وحده غالغاني يقول بأنّهم جميعاً مذنبون.

- سنرى ما سيحدث في الساعة السادسة. لن أخرج لتفريغ الدلاء، وسأتظاهر بأنني مريض لكي أُراقب الأحداث.

في الساعة الخامسة صباحاً، اقترب حارس المهجع منّا، وقال: «يا جماعة، هل تعتقدون أنّه عليّ أن أستدعي عناصر المحرس؟ لقد اكتشفتُ للتوّ جثّتين في المراحيض». وقد أراد هذا المحكوم العجوز البالغ سبعين عاماً أن يوهمنا بأنّه منذ الساعة السادسة والنصف، الساعة التي قُتِلَ فيها الرجلان، لم يكن يعلم شيئاً عن الحادثة. لا بدّ أنّ المهجع مليء بالدم، لأنّ الرجال، وهم يمشون، قد غطسوا حتماً أقدامهم في بركة الدم المتجمّعة في وسط الممرّ تماماً.

أجاب غرانديه بخبث الحارس العجوز نفسه:

- ماذا؟ هناك ميّتان في المراحيض؟ منذ متى؟

قال العجوز:

- ومن يدري؟ أنا نمتُ منذ الساعة السادسة. الآن فقط، وأنا ذاهبٌ لأتبوّل، تزحلقتُ على بركةٍ لزجة، وكاد وجهي أن يتحطّم، فأشعلتُ قدّاحتي وتبيّن لي أنّه دمٌ ووجدتُ الرجلين في المراحيض.

- استدعِ الحرّاس، وسوف نرى.

– أيّها الحرّاس! أيّها الحرّاس!

– لماذا تصرخ بهذه القوّة، أيّها العجوز النكِد؟ هل هناك حريقٌ في مهجعك؟

– كلّا، يا سيّدي، هناك جثّتان في المراحيض.

– وماذا تُريدني أن أفعل؟ أتريدني أن أُعيدهما إلى الحياة؟ إنّها الساعة الخامسة والربع، في الساعة السادسة، سوف نرى. لا تدع أحداً يذهب إلى المراحيض.

– ما تقوله غير ممكن. في هذه الساعة، عند الاستيقاظ العام، يذهب الجميع إلى المراحيض للتبوّل أو التغوّط.

– هذا صحيح، انتظر، سوف أُبلّغ قائد الحرس.

عادوا، وكانوا ثلاثة حرّاس وقائد الحرس وشخصان آخران. ظننا أنّهم سيدخلون، ولكنهم لم يفعلوا، بل ظلّوا أمام الباب المشبّك.

– هل قلتَ إنّ هناك ميّتَين في المراحيض؟

– نعم، سيّدي.

– منذ أيّ ساعة؟

– لا أدري، لقد وجدتهما للتوّ أثناء ذهابي للتبوّل.

– منْ هما؟

– لا أعلم.

– حسناً، أيّها العجوز المختلّ، أنا سأقول لك ذلك. أحدهما هو الأرمني. اذهب وانظر.

– بالفعل، إنّهما الأرمني وسان سوسي.

– حسناً، فلننتظر التفقّد.

وانصرفوا.

في الساعة السادسة، رنّ الجرس الأوّل. فُتِحَ الباب، ومرّ موزّعا القهوة من مكانٍ إلى آخر، وتلاهما موزّعو الخبز.

في الساعة السادسة والنصف، رنّ الجرس الثاني. أشرقت الشمس، وظهر أنّ الممرّ ممتلئ بآثار الأقدام التي خاضت في الدم تلك الليلة.

وصل الناظران. وكانت الشمس قد علت في السماء. وكان يرافقهما ثمانية مراقبين والطبيب.

- تعرّوا جميعاً، وقفوا باستعداد أمام أراجيح نومكم! هذا مذبحة حقيقية، الدم في كلّ مكان!

دخل مساعد آمر السجن إلى المراحيض أوّلاً، وحينما خرج منها، كان شاحب الوجه للغاية، وقال: «لقد نُحِرا بالمعنى الحرفي للكلمة. وبطبيعة الحال، لا أحد رأى شيئاً، ولا أحد سمعَ شيئاً، أليس كذلك؟».

ساد الصمت المُطبَق.

- أنت أيّها العجوز، أنت حارس المهجع، هذان الرجلان متيبّسان. كم من الوقت مضى على موتهما تقريباً، يا دكتور؟

أجاب الطبيب:

- من ثماني إلى عشر ساعات.

- واكتشفتهما فقط في الساعة الخامسة؟ ألم ترَ شيئاً، ألم تسمع شيئاً؟

- كلا، أنا ثقيل السمع، وأكاد ألّا أرى أمامي، وعلاوة على ذلك، لدي سبعون عاماً، قضيتُ منها أربعين سنة في سجن الأشغال الشاقّة. وبالتالي، لا بدّ أنّكم تفهمون وضعي، فأنا أنام كثيراً. أنام في الساعة السادسة، والرغبة في التبوّل هي التي أيقظتني في الساعة الخامسة. وهذه مصادفة، لأنني عادة لا أستيقظُ إلّا على صوت قرع الجرس.

قال آمر السجن بسخرية:

- أنت على حقّ، هذه صدفة. حتى بالنسبة إلينا، هكذا نام الجميع بهدوء طيلة الليل، المراقبون والمحكومون. يا حملَة النقالات، ارفعوا هاتين الجثّتين وانقلوهما إلى قاعة المدرج. أُريد أن تقوم بالتشريح، يا دكتور. أمّا أنتم، فاخرجوا، واحداً تلوَ الآخر، إلى الباحة، وأنتم جميعاً عراة.

مررنا، واحداً تلوَ الآخر، أمام الآمرين والطبيب. وقد تفحّصنا الرجال

الثلاثة بدقّة وعاينوا كلّ أجزاء جسمنا. لم يكن أيٌّ منّا يحمل جرحاً على جسده، بينما يحمل العديد منّا على جسمه لطخات الدم. وقد شرحوا ذلك للآمرين والطبيب بأنّهم تزحلقوا ووقعوا أرضاً أثناء ذهابهم إلى المراحيض. وقد جرى فحصنا نحن الثلاثة، غرانديه وغالغاني وأنا، بدقّة وتركيزٍ أكبر من الآخرين.

- بابيون، أين مكانك؟

وحينما أرشدتهم إلى مكاني، قاموا بتفتيش كلّ أمتعتي. ثمّ سألني الآمر:

- وأين سكينك؟

- لقد صودِر سكيني مني في الساعة السابعة مساءً على الباب مِن المُراقب.

قال الحارس:

- هذا صحيح. وقد أثار جدالاً معنا، قائلاً بأننا نُريد أن يتمّ اغتياله.

- غرانديه، أهذا السكين لك؟

- أجل، طالما هو في مكاني، هو لي إذاً.

تفحّص السكين، وهو نظيفٌ ولامع، لا تشوبه لطخة.

عاد الطبيب من المراحيض وقال:

- لقد استخدم القاتل خنجراً ذي حدّين في ذبح هذين الرجلين. لقد قُتِلا وهما واقفين. وهذا أمرٌ محيّر. إنّ خنجراً لا يدع المرء يُذبَح كأرنبٍ، من دون أن يدافع عن نفسه. كان ينبغي أن يكون هناك جريحٌ في هذه العملية.

- لقد رأيتَ بنفسك يا دكتور، لا أحد عليه حتى أثر «خدشة».

- هل كان هذان الرجلان خطيرين؟

- بالغ الخطورة، يا دكتور. من المؤكّد أنّ الرجل الأرمني هو قاتل كاربونيري الذي قُتِلَ البارحة عند المغسلة في الساعة التاسعة صباحاً.

قال الآمر:

- أُغلِقَت القضية. ومع ذلك، احتفظوا بسكين غرانديه. وليذهب

الجميع إلى العمل، عدا المرضى. بابيون، هل أبلغتَ عن حالتك على أنّك مريض؟

- نعم، سيّدي الآمر.

- لم تضيّع وقتاً في الانتقام لصديقك. لستُ مغفّلاً، وأنت تعلم ذلك. ولكن لسوء الحظّ، ليست لديّ أدلّة، وأنا أعرف بأننا لن نعثر عليها. أيضاً للمرّة الأخيرة، أليس هناك من لديه ما يُصرّح به؟ إذا ما استطاع أحدكم أن يُلقي الضوء على هذه الجريمة المزدوجة، أعدكم بأنّه سوف يُرفَعُ عنه الحجز في الجزر ويُرسَل إلى البرّ الرئيسي.

ساد صمتٌ مطبق.

ادّعى جميع أفراد خصّ الرجل الأرمني القتيل بأنّهم مرضى. وحينما رأى أصدقائي هذا، ادّعى غرانديه وغالغاني وجان كاستيلي ولويس غرافون أيضاً، وفي اللحظة الأخيرة، بأنّهم مرضى. فرغ المهجع من نزلائه المئة والعشرين. بقينا في المهجع فقط خمسة رجال من خصّي، وأربعة رجال من خصّ الأرمني، بالإضافة إلى الساعاتي، وحارس المهجع الذي ظلّ يتذمّر دون توقّف من التنظيف الذي عليه أن يقوم به، وكذلك اثنان أو ثلاثة سجناء، أحدهم إلزاسي، وهو سيلفان الكبير.

هذا الرجل يعيش وحيداً في سجن الأشغال الشاقّة، وليس له سوى أصدقائه. وهو مرتكب جريمة نادرة الحدوث أرسلته لمدّة عشرين سنة إلى سجن الأشغال الشاقّة، وهو رجلٌ عمليّ ومحترم جدّاً. لقد هاجم بمفرده عربة بريد، في القطار السريع بين باريس وبروكسل، وهاجم الحارسين وألقى على طبقة حجارة السكّة الحديدية أكياس البريد، التي كانت تحتوي على مبالغ مالية ضخمة، فجمعها شركاؤه في الهجوم.

ولمّا رأى سيلفان أنّ أفراد كلّ خصٍّ من الخصّين يتهامسون في ركنهم، ولكونه يجهل بأننا قد تعهّدنا لبعضنا بعدم التصرّف ضدّ بعضنا، سمح لنفسه بأن يباشر بالكلام، وقال: «آمل أنّكم لن تتقاتلوا في عراكٍ منظّمٍ على غرار الفرسان الثلاثة».

قال غالغاني:
- اليوم، لن يحدث ذلك، سيكون هذا فيما بعد.
قال بولو:
- لماذا فيما بعد؟ لا ينبغي أبدّاً أن نؤجّل إلى الغد ما يُمكن أن نفعله اليوم، ولكنني شخصياً لا أرى سبباً لكي نتقاتل فيما بيننا. ما رأيكَ أنت يا بابيون؟
- أسألك سؤالاً واحداً فقط: هل كنتم على علمٍ بما كان سيفعله الأرمني؟
- أقول كلمتي كرجل، يا بابي، لم نكن نعلم أيّ شيءٍ عن الموضوع، وهل تُريدني أن أخبرك بأمر؟ لا أدري كيف كنتُ سأقبل بفعلة الأرمني هذا، لو أنّه لم يمت.
قال غراندیه:
- حسناً، إذا كان الأمر هكذا، لماذا لا تتوقّف هذه الحكاية إلى الأبد؟
- من جهتنا، نحن موافقون. لنتصافح ولنكفّ عن الحديث في هذه القضية المحزنة.
- اتّفقنا.
قال سيلفان.
- أنا شاهدٌ. يسعدني أن تنتهي هذه القضية.
- فلنكفّ عن الحديث فيها.
في المساء، رنّ الجرس عند الساعة السادسة. وحينما سمعتُ صوت الجرس، لم أستطع أن أمنع نفسي من رؤية مشهد الأمس، وصديقي بنصف جسده المنتصب وهو يُقبِل نحو القارب. كانت الصورة مؤثّرة جدّاً لدرجة أنّه حتى بعد أربع وعشرين ساعة، لم أتمنَّ للحظة واحدة أن يصبح الأرمني وسان سوسي نهب قطيع أسماك القرش.
لم يتفوّه غالغاني بكلمة واحدة، فهو يعلم ما الذي حدث بالنسبة إلى كاربونييري. ظلّ ينظر في الفراغ سارحاً وساقاه المتدلّيتان تتأرجحان على

يمين أرجوحة نومه ويسارها. لم يكن غرانديه قد عاد بعد. كان صوت الجرس قد خمد منذ عشر دقائق، عندما قال غالغاني، دون أن ينظر إليّ، وساقاه لا تزالان تتأرجحان، بصوتٍ منخفض: «أتمنى ألّا تُلتَهَم أيّ قطعة من جثّة هذا القذر مِن سمكةِ قرشٍ أكلت ماتيو. سيكون أمراً سخيفاً جدّاً أن يلتقيا في بطنِ سمكة قرشٍ، بعد أن افترقا في الحياة».

حقّاً ستترك خسارة هذا الصديق النبيل والوفي فراغاً كبيراً بالنسبة إليّ. من الأفضل لي أن أرحل عن جزيرة رويال وأتصرّف بأسرع وقت ممكن. ردّدتُ هذا على نفسي كلّ يوم.

فرار المجانين

- بما أنّنا في زمن الحرب وأنّ العقوبات قد زادت في حالة عملية فرار فاشلة، فالآن ليس الوقت المناسب لإفساد عملية هروب، أليس كذلك، يا سالفيديا؟

كنّا، الإيطالي صاحب الماسورة الذهبية في القافلة وأنا، نتناقش تحت المغسلة بعد أن قرأنا من جديد الإعلان الذي يُخبرنا بالأحكام الجديدة في حالة الفرار. قلتُ له:

- ومع ذلك، ليس احتمال المجازفة بأن أُحكَم بالموت هو ما سيمنعني من الرحيل. وأنت؟

- أما أنا، يا بابيون، فلم تعد لديّ القدرة على التحمّل وأريد أن أهرب. فليحصل ما يحصل. لقد طلبتُ أن أُوظَّفَ في ملجأ المجانين كممرّض. أنا أعرف أنّه هناك في بيت المونة في الملجأ برميلان بسعة مئتين وخمسة وعشرين لتراً، وبالتالي يكفيان لصنع طوفٍ. أحدهما مليءٌ بزيت الزيتون، والآخر مليءٌ بالخلّ. وإذا ما ربطناهما بإحكام مع بعضهما بحيث لا ينفصلان، يبدو لي بأنّه ستكون هناك فرصة جدّية للوصول إلى البر الرئيسي. وأسفل الجدران المحيطة بمباني المجانين، من الجانب الخارجي، ليست هناك مراقبة. وفي الداخل، هناك مناوبة وحيدة دائمة،

مكوّنة من حارسٍ واحد يساعده محكومون، تُراقب باستمرار ما يفعله المرضى. لماذا لا تأتي معي إلى هناك؟

- كممرّض؟

- مستحيل، يا بابيون. أنت تعلم جيّداً بأنّهم لن يعطوك أبداً وظيفةً في ملجأ المجانين. موقعه البعيد عن المعسكر، وضعف الرقابة فيه، كلّها أسباب لكي لا تُرسَلَ إلى هناك. ولكنّك تستطيع الذهاب إليه كمجنون.

- هذا صعبٌ جدّاً، يا سالفيديا. حينما يصنّفك طبيبٌ على أنّك «مغفّل»، فهو لا يمنحك سوى الحقّ في القيام بأيّ شيءٍ كان دون عقاب، لا أكثر ولا أقلّ. وهو في الواقع اعترافٌ بأنّك غير مسؤولٍ عن تصرّفاتك. هل تدرك المسؤولية التي يتحمّلها الطبيب حينما يوافق على هذا ويوقّع على تشخيصٍ كهذا؟ يُمكنك أن تقتل محكوماً، بل وحارساً أو زوجة حارس أو طفلاً. يمكنك أن تهرب، وأن ترتكب أي جرمٍ كان، ولا يعود للقضاء أن يصدر أيّ حكمٍ ضدّك. وأقصى ما يُمكن فعله ضدّك، هو وضعك في زنزانة مبطّنة عارياً في سترة قيد. وهذا النظام لا يمكن أن يستمرّ سوى لبعض الوقت، ولا بدّ أن يأتي يوم تلين فيه معاملتهم. والنتيجة هي أنّك لن تدفع ثمناً باهظاً لأيّ فعلٍ خطيرٍ ترتكبه، بما في ذلك الفرار.

- بابيون، أنا أثق بك، وأرغب أشدّ الرغبة في أن أهرب معك. افعل المستحيل لكي تأتي وتنضمّ إليّ كمجنونٍ في الملجأ. وبصفتي ممرّضاً، سوف أستطيع أن أساعدك لكي تُعدّ لعملية الفرار بأفضل ما يُمكن، وأن أخفّف عنك في اللحظات الأشدّ قسوةً. أنا أعترف بأنّه من المرعب أن يجد المرء نفسه، من دون أن يكون مجنوناً، وسط هؤلاء الكائنات الخطيرة جدّاً.

- اذهب إلى ملجأ المجانين، يا روميو، سأدرس المسألة بعمق، وخاصّة سأستعلم جيّداً عن الأعراض الأوّلية للجنون للنجاح في إقناع الطبيب. أن أنجح في أن يصنّفني الطبيب شخصاً غير مسؤولٍ عن تصرّفاته ليست فكرة سيئة.

بدأتُ أدرس الأمر بجدّية. لم يكن هناك أيّ كتابٍ حول الموضوع في مكتبة السجن الانفرادي. وكلّما سنحت لي الفرصة، تناقشتُ مع رجالٍ عانوا لفتراتٍ متفاوتة من المرض، وتوصّلتُ تدريجياً إلى أن أكوّن لنفسي فكرة واضحة بما فيه الكفاية:

أوّلاً، يعاني جميع المجانين من آلام شديدة في الدماغ.

ثانياً، غالباً ما يشعرون بطنينٍ في الأذنين.

ثالثاً، لأنّهم متوتّرون جدّاً، لا يستطيعون البقاء لوقتٍ طويل نائمين في الوضعية نفسها دون أن تهزّهم شحنة عصبية حقيقية توقظهم وتجعلهم يرتجفون بألمٍ في كلّ أنحاء جسدهم المتوتّر إلى حدّ التمزّق.

وبالتالي يجب جعل هذه الأعراض تُكتَشَف من دون الإشارة إليها مباشرةً. يجب أن يكون جنوني خطيراً فقط بما يكفي لإرغام الطبيب على اتّخاذ القرار بإيداعي في ملجأ المجانين، ولكن دون أن يكون عنيفاً بما يكفي لتبرير المعاملة السيئة من جانب المراقبين، من قبيل إلباسي سترة قيد، وضربي وإنقاص كمية الطعام عنيّ، وحقني بالبروميد، وصبّ الماء البارد جدّاً أو الساخن جدّاً عليّ، إلخ. إذا ما أردتُ أن أجيد اللعبة بنجاح، عليّ أن أخدع الطبيب.

هناك شيءٌ واحدٌ لصالحي: لماذا، ولأيّ سببٍ قد أتظاهر بالجنون؟ وإذ لن يجد الطبيب أيّ تفسيرٍ منطقيٍّ لهذا السؤال، فمن الأرجح أنني سأستطيع كسب المباراة. ليس هناك حلٌّ آخر بالنسبة لي. فقد رفضوا إرسالي إلى جزيرة الشيطان. ولم أعد أُطيق المعسكر منذ اغتيال صديقي ماتيو. فليذهب التردّد إلى الجحيم! لقد حسمتُ أمري واتّخذتُ قراري. سأذهب يوم الإثنين لزيارة الطبيب. كلا، لا ينبغي أن أُبلّغ بنفسي عن مرضي. من الأفضل أن يفعل شخصٌ آخر ذلك وأن يتصرّف هو بنفسه بحسن نيّة. علي أن أقوم بحركتين أو ثلاث حركات غير طبيعية في المهجع، وحينئذٍ سيتكلّم رئيس المهجع عن ذلك مع الحارس وسيقوم هذا الأخير بنفسه بتسجيل اسمي لزيارة الطبيب.

ها قد مرّت ثلاثة أيام دون أن أنام، ولم أعد أغتسل ولا أحلق ذقني. وفي كلّ ليلة أستمني عدّةً مرّات وأتناول القليل من الطعام. سألتُ البارحة جاري لماذا نزع عن مكاني صورة لم تعد موجودة، فأقسم أمام كلّ الآلهة بأنّه لم يلمس أمتعتي. ولأنّه شعر بالقلق، غيّر مكانه. كان الحساء يبقى غالباً لبضع دقائق في سطلٍ قبل أن يوزَّع. اقتربتُ من السطل، وتبوّلتُ فيه أمام أنظار الجميع. أصاب تصرّفي هذا الجميع بالذهول، ولكن لا بدّ أنّ وجهي قد أثّر في الجميع، فلم يتفوّه أحدٌ بكلمة، وحده صديقي غرانديه قال لي:

- لماذا فعلت هذا يا بابيون؟

- لأنّهم نَسُوا أن يُضيفوا إليه الملح.

ودون أن أعير أي اهتمام للآخرين، ذهبتُ وجلبتُ قصعتي ومددتها إلى رئيس المهجع لكي يصبّ لي الحساء.

وفي صمتٍ تامّ، نظر الجميع إليّ وأنا أتناول حسائي. كانت هاتان الحادثتان كافيتين لكي أجد نفسي هذا الصباح أمام الطبيب دون أن أطلب ذلك.

كرّرتُ سؤالي على الطبيب:

- إذاً، أيّها الطبيب، هل أنت بخير؟ أجب بنعم أو لا.

نظر الطبيب إليّ مذهولاً. فحدّقتُ فيه بعينين أردتهما طبيعيّتين. ثمّ قال:

- نعم، أنا بخير. وأنت، هل أنت مريض؟

- كلا.

- لماذا جئتَ إذاً إلى الزيارة؟

- لا لشيء، لقد قيل لي إنّك مريض. ويُسعدني أنّ ذلك ليس صحيحاً. إلى اللقاء.

- انتظر قليلاً، يا بابيون. اجلس هنا، أمامي. انظر إليّ.

وفحص الطبيب عينيّ باستخدام مصباحٍ يَبعثُ شعاعاً ضعيفاً من الضوء.

- ألم ترَ شيئاً، أيّها الطبيب، ممّا كنتَ تظنّ أنّك ستكتشفه؟ ضوء

مصباحك ليس قوياً بما فيه الكفاية، ولكن مع ذلك، أعتقد أنّك فهمت، أليس كذلك؟ قل لي هل رأيتها؟

قال الطبيب:

- ماذا؟

- لا تتظاهر بالغباء، أأنت طبيبٌ بشري أم طبيبٌ بيطري؟ لا تقل لي بأنّك لم تتوفّر على الوقت الكافي لتراها قبل أن تختبئ، وإلّا فأنت لا تُريد أن تخبرني بذلك، أو أنّك تعتبرني غبياً حقيقياً.

كانت عيناي تلتمعان من التعب والإرهاق، وقد لعب مظهري لصالحي لأنني لم أكن قد حلقتُ ذقني ولا اغتسلتُ. أصغى الحرّاس إليّ، محملقين بذهول، ولكنني لم أقم بأي حركة عنيفة يمكنها أن تُبرِّر تدخّلهم. نهض الطبيب من مكانه وهو يُداريني ويدخل في لعبتي كي لا يُثيرني، ووضع يده على كتفي، وأنا لا أزال جالساً، فقال لي:

- نعم، لا أُريد أن أخبرك بذلك، يا بابيون، ولكنني حظيتُ بالوقت الكافي لكي أراها.

- أنت تكذب، أيّها الطبيب، برباطة جأشٍ استعمارية. لأنّك لم ترَ شيئاً على الإطلاق! ما اعتقدتُ أنّك تبحث عنه، هو النقاط السوداء الثلاث التي في عيني اليسرى. أراها فقط حينما أنظر في الفراغ أو حينما أقرأ. ولكن إذا ما أمسكتُ بمرآةٍ، أرى عيني بصفاء، ولكن لا يكون هناك أثرٌ للنقاط السوداء. إنّها تختبئ حالما أمسكُ بالمرآة لأنظر إليها.

قال الطبيب:

- حوّلوه إلى المستشفى. انقلوه مباشرة دون أن يعود إلى المعسكر. بابيون، هل قلتَ لي بأنّك لستَ مريضاً؟ ربّما يكون هذا صحيحاً، ولكنني أراك متعباً جدّاً، ولذلك سوف أودعك لبضعة أيام في المستشفى لكي ترتاح. هل ترغب في ذلك؟

- هذا لا يزعجني. سواءً كنتُ في المستشفى أو في المعسكر، أبقى في الجزر.

لقد أُنجِزَت الخطوة الأولى. وجدتُ نفسي بعد نصف ساعة في المستشفى في حجرة مضاءة جيّداً وفيها سريرٌ جيّد ونظيف، مغطّى بشراشف بيضاء اللون. رأيتُ على باب الحجرة بطاقة من الورق المقوّى، مكتوبٌ عليها: «تحت المراقبة». وقد تحوّلتُ شيئاً فشيئاً، وباقتراح ضمني، إلى مغفّل. إنّها لعبة خطيرة: فحركَة التشنّج في وجهي وزمّ الشفة السفلى بين أسناني والتي تدرّبتُ عليها كثيراً أمام قطعة مرآةٍ أخفيتها معي، أصبحتُ أمارسها كثيراً إلى درجة أصبحت معها هذه الحركة تلقائية ودون إرادة منّي. لا ينبغي عليك أن تتسلّى لوقتٍ طويلٍ مع هذه اللعبة الصغيرة، يا بابي. فلفرط ما تُرغم نفسك على الإحساس افتراضياً بأنّك غير متّزن، قد يكون هذا خطراً ويترك فيك عيوباً. ومع ذلك، عليّ أن ألعب اللعبة كاملةً، إذا أردتُ الوصول إلى النهاية. أن أدخل إلى ملجأ المجانين، وأن يتمّ تصنيفي كشخص غير مسؤول عن أفعاله، ومن ثمّ أنطلق في عملية فرار مع صاحبي. الفرار! هذه الكلمة السحرية نقلتني إلى عالم الخيال، فرأيتُ نفسي جالساً على البرميلين، مدفوعاً نحو البر الرئيسي برفقة صاحبي، الممرّض الإيطالي.

مرّ الطبيب لزيارتي كلّ يوم، وفحصني مطوّلاً، ونحن نتخاطب على الدوام بلباقة ولطف. بات الرجل قلقاً، لكنّه غير مقتنع بعد. وبالتالي سأخبره بأنّني أعاني من آلام فظيعة في قفا رأسي، ليكون أوّل عرضٍ من الأعراض.

- كيف حالك، يا بابيون؟ هل نمت جيّداً؟

- نعم، دكتور. شكراً لك، أنا بخير تقريباً. شكراً لك لأنّك أعرتني نسختك من مجلة (ماتش). النوم أمرٌ مختلف فعلاً. في الواقع، خلف حجرتي، هناك مضخّة تُستخدم بالتأكيد في سقاية شيءٍ ما، ولكنّ التكتكة التي تصدر عن ذراع هذه المضخّة تصل طيلة الليل إلى قفا رأسي كما لو أنها صدى في داخل رأسي طيلة الليل وهذا أمرٌ لا يُطاق. ولذلك سأكون ممتناً لك لو غيّرت حجرتي.

التفت الطبيب نحو الحارس الممرّض، وهمس في أذنه بسرعة:

- هل هناك مضخّة؟

أجاب الحارس بالنفي، بإشارةٍ من رأسه.

- أيّها المُراقب، غيّر له الحجرة. إلى أين تُريد أن تذهب؟

- إلى أبعد ما يُمكن عن هذه المضخّة الحقيرة، في نهاية الممرّ. شكراً لك، يا دكتور.

أُغلِق الباب، ووجدتُ نفسي وحيداً في حجرتي. نبّهني صوتٌ أشبه بحفيفٍ، فأدركتُ أنّني أُراقَبُ من خلال ثقب المُراقبة، ولا شكّ أنّه الطبيب هو الذي يُراقبني، لأنني لم أسمع وقع خطواته وهو يبتعد حينما انسحب مع الحارس إلى الخارج. ولذلك، مددتُ بسرعة قبضتي نحو الجدار الذي يُخفي المضخّة المتخيّلة وصرختُ، ولكن ليس بصوتٍ قويّ: «توقّفي، توقّفي، أيّتها المضخّة القذرة! ألا تنتهي أبداً من السقاية، أيّها البستاني الغبيّ؟» ونمتُ على سريري، مخفياً رأسي تحت الوسادة.

لم أسمع صوت القطعة النحاسية الصغيرة وهي تنغلق على ثقب المُراقبة، ولكنني أحسستُ بصوتِ خطواتٍ وهي تبتعد. والخلاصة: لقد كان الطبيب هو رجل المُراقبة.

بعد الظهيرة، غيّروا لي حجرتي. لا بدّ أنّ الانطباع الذي أعطيتُه هذا الصباح كان مناسباً، فقد رافقني حارسان ومحكومان يعملان حارسين خلال سيري لبضعة أمتار حتى أصل إلى نهاية الممرّ. ولأنّهم لم يوجّهوا الي أيّ كلمة، أنا أيضاً لم أتكلّم معهم. اكتفيتُ بأن تبعتهم دون أن أتفوّه بكلمة واحدة. بعد يومين من ذلك، ظهر ثاني الأعراض: الضجيج في الأذنين.

- كيف حالك، يا بابيون؟ هل أنهيتَ قراءة المجلّة التي أرسلتها إليك؟

- كلّا لم أقرأها، فقد أمضيتُ كلّ النهار وجزءاً من الليل في محاولة خنق بعوضةٍ أو برغشةٍ بنت عشّها في أذني. وقد أدخلتُ عبثاً قطعةً من القطن فيها، إذ لم تنفعني في شيء. لا تتوقّف خشخشة جناحيها، ويتواصل طنينها... وفضلاً عن أنّ هذا يدغدغ أذني بطريقة مزعجة، فإنّ

الطنين متواصل. في النهاية، هذا يُثير أعصابي، أيّها الطبيب! ما رأيكَ أنت بذلك؟ ربّما إن لم أنجح في خنقها، سيمكننا أن نحاول إغراقها؟ ما قولك في ذلك؟

لم تتوقّف حركة التشنّج في وجهي وفمي ورأيتُ أن الطبيب قد لاحظ ذلك. أمسك بيدي ونظر بثباتٍ في عينيّ. شعرتُ أنّه قلقٌ ومنزعج.

- نعم، يا صديقي بابيون، سنغرقها. شاتال، دعهم يُجرون له عملية غسيل الأذنين.

تكرّرت هذه المشاهد كلّ صباح مع متغيّرات، ولكنّ لم يبدُ على الطبيب أنّه سيقرّر إرسالي إلى ملجأ المجانين.

وذات مرّة، حينما حقنني شاتال بحقنة من البروميد، أخبرني قائلاً:

- كلّ شيء سيكون على ما يُرام في الوقت الحالي. الطبيب قلقٌ جدّياً لحالتك، ولكن قد يطول الوقت أكثر قبل أن يرسلك إلى ملجأ المجانين. أظهر للطبيب بأنّك تستطيع أن تكون خطِراً، إذا ما أردتَ أن يستعجل في قراره بإرسالك.

فتح الطبيب باب حجرتي، وبرفقته الحارسان الممرّضان وشاتال، وألقى عليّ التحيّة بلطف، وسألني:

- كيف حالك، يا بابيون؟

- توقّف عن هرائك وعبثك، أيّها الطبيب.

أصبح تصرّفي عدوانياً:

- أنت تعرف جيّداً أنني لستُ بخير. وأتساءل منْ منكم متواطئ مع الرجل الذي يعذّبني.

- ومنْ يعذّبك؟ ومتى؟ وكيف؟

- أولاً، أيّها الطبيب، هل تعرف أعمال الطبيب جاك أرسين دارسونفال؟

- نعم، آمل أن...

- أنت تعلم بأنّه قد اخترع جهازاً لتوليد الذبذبات لكي يقوم بتوليد الأيونات في الهواء المحيط بالمريض المُصاب بالقرحة في المعي الاثني عشري. وبوساطة هذا الجهاز، يتمّ إرسال تيارات كهربائية. تصوّر إذاً أن أحد أعدائي قد سرق جهازاً في مستشفى كايين. وفي كلّ مرّة أنام فيها بهدوء، يضغط على الزرّ، فتضرب الشحنة الكهربائية بطني وفخذيّ، أنتفض فجأةً وأقفز قفزةً فوق سريري إلى أكثر من عشرة سنتيمترات إلى الأعلى. كيف تُريدني أن أُقاوم وأنام بوجود هذا؟ وهذه الليلة لم تكفّ هذه الشحنات عن ضربي. لا أكاد أن أغمض عيني، حتى يصل التيار ويصعقني. كلّ جسمي ينتفض مثل نابضٍ يتمّ تحريره. لم أعد أحتمل هذا، أيّها الطبيب! نبّه الجميع جيّداً بأنّ أوّل شخصٍ أكتشفُ أنّه متواطئ مع الرجل، سأقتله. صحيحٌ ليس لديّ سلاح، ولكنني أمتلكُ من القوّة كي أخنقه، أيّاً كان. واللبيبُ من الإشارة يفهم! ثمّ دعني وشأني وأرِحْني من عبارات التحية المنافقة والسؤال عن حالي. أُعيد وأُكرّر عليك، أيّها الطبيب، بأن تكفّ عن هرائك وعبثك!

وقد أعطت الحادثة ثمارها. فقد أخبرني شاتال بأنّ الطبيب قد نبّه الحرّاس إلى أن يكونوا في غاية الحذر. وألّا يفتحوا باب حجرتي إلّا إذا كانوا اثنين أو ثلاثة، وأن يُخاطبوني دائماً بلطف. وقال لهم الطبيب بأنّ بابيون مصابٌ بعقدة الاضطهاد ويجب إرساله بأسرع وقت إلى ملجأ المجانين.

ولكي لا يُلبسوني سترة القيد، اقترح شاتال:

- أعتقدُ أنني أستطيع أن أتكفّل بقيادته إلى الملجأ، بمرافقة مراقبٍ واحد فقط.

سألني:



- هل أكلتَ جيّداً، يا بابي؟

- نعم، يا شاتال، وكان طعاماً لذيذاً.

- هل تُريد أن تأتي معي ومع السيّد جينوس؟

- إلى أين نذهب؟
- سنذهب إلى الملجأ لجلب الأدوية، وسيكون هذا بمثابة نزهةٍ لك.
- هيّا بنا.

وخرجنا نحن الثلاثة من المستشفى، وسلكنا الطريق إلى ملجأ المجانيين.

ونحن نسير في الطريق، تكلّم شاتال، ثمّ وفي لحظة معيّنة حينما قاربنا الوصول، سألني: «ألا تشعر بأنّك متعبٌ بوجودك في المعسكر، يا بابيون؟»

- أوه! نعم، لقد سئمتُ من العيش فيه، ولا سيّما وأنّ صديقي كاربونييري لم يعد موجوداً فيه.

- لماذا لا تبقى لبضعة أيامٍ في الملجأ؟ وبذلك قد لا يجدك الرجل صاحب جهاز بثّ الذبذبات لكّي يرسل إليك التيار الكهربائي.

- هذه فكرة حسنة، يا صاحبي، ولكن هل تعتقد بأنّهم سيقبلون بي في الملجأ وأنا لا أشكو من مرضٍ عقلي؟

قال الحارس وهو في غاية السعادة لرؤيتي أقع في فخّ شاتال المزعوم:

- دعني أتصرّف، سوف أتحدّثُ معهم من أجلك.

باختصار، ها أنا الآن في ملجأ المجانين مع ما يُقارب مئة مجنونٍ. والحياة ليست حلوة مع المعتوهين! كنّا نخرج إلى الهواء الطلق في الباحة في مجموعات تضمّ من ثلاثين إلى أربعين مجنوناً، ريثما يقوم الممرّضون بتنظيف الزنزانات. الجميع عراة، ليلاً ونهاراً. ولحسن الحظّ، كان الطقس حارّاً. بالنسبة لي، تركوا لي مشّاية أنتعلها داخل الزنزانة.

تلقّيتُ من الممرّض سيجارة مشتعلة. جالساً تحت الشمس، فكّرت أنّه قد مضت خمسة أيامٍ على وجودي هنا، ولم أستطع بعد أن أتواصل مع سالفيديا.

اقترب مجنونٌ مني، وكنتُ أعرف حكايته، واسمه فوشيه. كانت والدته قد باعت منزلها لكي ترسل إليه خمسة عشر ألف فرنكٍ عبر مراقبٍ لكي يهرب من السجن. كان من المفروض أن يترك الحارس خمسة آلاف

فرنكٍ لنفسه ويُسلّمه عشرة آلاف فرنكٍ. لكنّ هذا الحارس سطا على كلّ المبلغ، وغادر إلى كايين.

حينما علِمَ فوشيه عن طريق آخرين بأنّ والدته كانت قد أرسلت إليه المال وأنّها قد تجرّدت من كلّ ما تملك ولكن دون جدوى، جنّ وأصبح مسعوراً هائجاً، وهاجم المراقبين في اليوم نفسه. ولكن سيطروا عليه، ولم تسنح له فرصة إلحاق الأذى بأحد. منذ ذلك اليوم، أودِع ملجأ المجانين، وها هو لا يزال فيه منذ ثلاثة أو أربعة أعوام.

سألني:

- منْ أنت؟

نظرتُ إلى هذا الرجل المسكين، الشابّ، البالغ حوالي الثلاثين من عمره، المزروع أمامي والذي يسألني. أجبته:

- منْ أنا؟ رجلٌ مثلك، لا أكثر ولا أقلّ.

- أنت أحمقٌ في إجابتك. أنا أرى أنّك رجل، طالما لك قضيبٌ وخصيتان، لو كنتَ امرأة، لكانت لك فتحة. أنا أسألك منْ أنت؟ أي ما اسمك؟

- بابيون.

- بابيون؟ أنت فراشة؟ يا لك من مسكين. الفراشة تطير ولها جناحان، أين جناحاك؟

- لقد أضعتهما.

- يجب أن تعثر عليهما، وبذلك تستطيع أن تهرب. الحرّاس لا أجنحة لهم، وبالتالي سوف تُغافلهم. أعطني سيجارتك.

وقبل أن أحظى بالوقت لأمدّها له، انتزعها من بين أصابعي. ثمّ جلس قبالتي وأخذ يدخّن بتلذّذ.

سألته:

- وأنت، منْ أنت؟

- أمّا أنا، فأنا المتعفّن. في كلّ مرّة ينبغي أن يعطوني شيئاً يخصّني، يخدعونني.

- لماذا؟

- هكذا. ولذلك أقتل أكبر عددٍ ممكن من الحرّاس. هذه الليلة، شنقتُ اثنين منهم. ولكن إياك أن تخبر أحداً بهذا.

- لماذا شنقتهما؟

- لقد سرقا منزل والدتي. تصوّر أنّ والدتي أرسلت إليّ بيتها، والحارسان، لأنّهما وجدا المنزل جميلاً، احتفظا به لنفسيهما ويعيشان فيه. ألم أُحسنَ صنعاً في شنقهما؟

- أنت على حقّ. هكذا لن يستمتعوا بمنزل والدتك.

- الحارس البدين الذي تراه هناك، خلف الشِباك المعدنية، أتراه؟ هو أيضاً يقيم في المنزل. ولذلك سوف أقضي عليه هو أيضاً، ثق بي.

ثمّ نهض وانصرف.

أوف! ليس أمراً ممتعاً أن تعيش وسط المجانين، وهذا، علاوة على ذلك، خطر. في الليل، تتصاعد الصيحات من كلّ حدبٍ وصوب، وحينما يكون القمر بدراً مكتملاً، يزداد المجانين هياجاً وإثارةً أكثر من أيّ وقت مضى. كيف يمكن للقمر أن يؤثّر على اضطرابات المجانين؟ لا أستطيع أن أفسّر ذلك، ولكنني لاحظتُ ذلك لمرّات كثيرة.

يُعدّ الحرّاس التقارير حول أوضاع المجانين الخاضعين للمراقبة. بالنسبة لي، أجروا بعض الاختبارات. فعلى سبيل المثال، تناسوا برغبة منهم أن يُخرجوني إلى الباحة، وانتظروا ليروا إن كنتُ سأحتجّ وأُطالب بالخروج إلى الباحة كبقية المجانين. أو كانوا يقطعون عني وجبة طعام. كانت لدي عصا مع خيط، أقوم بحركات صيّاد سمكٍ. قال لي رئيس الحرس: «هل السمكة تعضّ الصنّارة، يا بابيون؟» أجبته: «لا يمكن للسمكة أن تعضّ. تصوّر، عندما أصطاد، هناك سمكة صغيرة تتبعني في كلّ مكان، وحينما تكون هناك سمكة كبيرة تأتي لتعضّ الصنّارة، تحذّرها

السمكة الصغيرة: احذري، لا تعضّي، هذا بابيون منْ يصطاد». «ولهذا السبب لا أصطاد أيّ سمكة. ومع ذلك أستمرّ في الصيد. ربّما يأتي يوم، وتكون هناك سمكة لا تصدّق السمكة الصغيرة».

سمعتُ الحارس يقول للممرّض: «إذاً، لقد جنّ تماماً!».

حينما جعلوني أتناول الطعام على المائدة المشتركة في قاعة الطعام، لم أستطع قطّ أن أتناول طبقاً من العدس. كان هناك رجلٌ عملاق يبلغ طوله على الأقلّ متراً وتسعين سنتيمتراً، يملأ الشعر ذراعيه وساقيه وجذعه مثل قردٍ، وقد اختارني لأكون الضحية. أوّلاً، كان يجلس على الدوام بجانبي. وكان العدس يُقدّم لنا ساخناً جدّاً، وبالتالي حتى أستطيع أن أتناول عليّ الانتظار لبعض الوقت حتى يبرد، فآخذ بملعقتي الخشبية القليل منه وأنفخ عليه، وأنجح بذلك في تناول بضع ملاعق منه. أمّا ايفانهوي - هو يعتقد أنّه ايفانهوي - فكان يأخذ طبقه، ويضع يديه على شكل قمع ويلتهم كلّ ما في الطبق خلال خمس ثواني. ثمّ يأخذ طبقي عنوةً ويلتهمه بالطريقة نفسها. حينما يفرغ الطبق، يضعه أمامي بضجيج وينظر إليّ بعينيه الواسعتين المحتقنتين بالدمّ، كمل لو أنّه يقول لي: «هل رأيت كيف آكل العدس؟» بدأت أضيق ذرعاً بالمدعو ايفانهوي، وبما أنني لم أكن قد صُنِّفتُ مجنوناً بعد، قرّرت أن أوجّه له ضربة عنيفة. كان ذلك أيضاً في أحد أيام تقديم العدس. جلس إلى جانبي، وبدا وجهه الجنوني مشرقاً، وهو يتلمّظ مسبقاً ويتذوّق طعم الفرح بالتهام طبقه وطبقي من العدس. سحبتُ إلى أمامي إبريقاً ثقيلاً وضخماً من الخزف مليئاً بالماء. ما إنْ رفع المجنون العملاق قصعتي من حساء العدس في الهواء وبدأ يترك الحساء يجري في حلقه، رفعتُ الإبريق الخزفي وبكلّ ما أوتيتُ من قوّة حطّمته على رأسه. خرّ العملاق على الأرض وهو يطلق صرخة قويّة مثل حيوانٍ جريح. وسرعان ما بدأ كلّ المجانين ينهالون على بعضهم بعضاً، مسلّحين بالأطباق. حدثت ضجّة رهيبة، فقد تمازجت هذه المشاجرة الجماعية مع صرخات كلّ هؤلاء الرجال.

تمّ انتشالي من بينهم، ووجدتُ نفسي من جديد في زنزانتي التي حملني إليها أربعة ممرّضين ضخام بسرعة، وكيفما كان. صرختُ مثل ضائعٍ وزعمتُ أنّ ايفانهوي قد سرق مني محفظتي مع بطاقة هويّتي. وهذه المرّة، تمّ الأمر بنجاح! فقد قرّر الطبيب أن يصنّفني على أنني شخصٌ غير مسؤول عن أفعالي وتصرّفاتي. وقد اتّفق جميع الحرّاس على الإقرار بأنني مجنونٌ مسالم ولكنني، في بعض اللحظات، أصبح خطيراً. لُفّ رأس ايفانهوي بضمادة كبيرة، ويبدو أنّني أحدثتُ جرحاً في رأسه بطول ثمانية سنتيمترات. ولحسن الحظّ، لم يعد يتنزّه في الأوقات نفسها التي أتنزّه أنا فيها.

استطعتُ أن أتكلّم مع سالفيديا. وكان قد حصل على النسخة الإضافية من مفتاح مستودع المؤن الذي يُحفَظُ فيه البرميلان. وهو يسعى الآن إلى الحصول على كمية كافية من الأسلاك المعدنية ليستخدمها في شدّ البرميلين إلى بعضهما. قلتُ له بأنني أخشى أن تنقطع الأسلاك المعدنية بفعل عمليات التأرجح التي سيتعرّض لها البرميلان في البحر؛ ولذلك سيكون من الأفضل الحصول على حبالٍ، لأنّها ستكون أكثر مرونةً. فقال بأنّه سيحاول أن يحصل عليها، وستكون لدينا في النهاية حبالٌ وأسلاكٌ معدنية. وعليه أن يصنع أيضاً ثلاثة مفاتيح أخرى: مفتاحٌ لزنزانتي، ومفتاحٌ آخر للممرّ الذي يؤدّي إليها، ومفتاحٌ ثالثُ لباب الملجأ الرئيسي. كانت دوريات المراقبة قليلة، إذ يقومُ حارسٌ واحدٌ فقط بالمناوبة طيلة أربع ساعات. تبدأ مناوبةٌ من الساعة التاسعة وحتى الواحدة صباحاً، تليها مناوبةٌ أخرى من الساعة الواحدة وحتى الخامسة. ينام اثنان من الحرّاس طيلة مدّة مناوبتهما ولا يقومان بأيّ دورية مراقبة، ويعتمدان على السجين الممرّض الذي يُرافقهما في المناوبة. إذاً، كلّ الأمور على ما يُرام، والمسألة مسألة صبرٍ فقط. نحتاج إلى شهرٍ فقط، على أقصى تقدير، لكي نبدأ بالتحرّك.

أعطاني رئيس الحرس سيجاراً رديئاً مشتعلاً حينما كنتُ أدخل إلى الباحة. ولكنّه بدا لي لذيذاً على الرغم من أنّه كان رديئاً. نظرتُ إلى

هذا القطيع من الرجال العراة الذين يغنّون ويبكون ويقومون بحركات فوضوية ومضطربة ويتحدّثون مع أنفسهم. نظرتُ إلى أجسامهم التي لا تزال مبلّلة بماء رشّاش الحمام الذي يأخذه كلّ واحدٍ منهم قبل العودة إلى الباحة، ونظرتُ إلى أجسادهم المليئة بالكدمات الناجمة عن الضربات التي يتلقّونها أو التي يحدثونها بأنفسهم، وإلى أثار حبال سترة القيد التي يشدّونها كثيراً على أجسادهم. إنّه بالفعل مشهد نهاية طريق العفن. تُرى كم واحداً من هؤلاء المجانين اعتُبِروا مسؤولين عن أفعالهم وتصرّفاتهم من جانب الأطباء النفسانيين في فرنسا؟

كان تيتان – يُنادونه بهذا الاسم – ضمن قافلتي في عام 1933. وقد قتل رجلاً في مرسيليا، ثمّ أخذ عربةً ووضع جثّة ضحيته فيها وقادها إلى المستشفى، وعندما وصل إلى هناك، قال: «خذوه واعتنوا به، أظنّ أنّه مريض».

تمّ توقيفه على الفور، وكان لدى المحلّفين الجرأة بألّا يعترفوا له بأيّ درجة، مهما تدنّت، من درجات المسؤولية. إذ لا بدّ أن يكون مجنوناً لكي يستطيع الإقدام على فعلةٍ كهذه. وكان بمقدور الأكثر غباءً من بين هؤلاء الرجال أن يعرف بطبيعة الحال بأنّه سيدع نفسه يقع بين أيديهم. وها هو تيتان هنا، يجلس إلى جانبي، وهو يعاني من الزحار بشكلٍ دائم. إنّه عبارة عن جثّة حقيقية متنقّلة. نظر إليّ بعينيه الرماديتين بلون الحديد، ببلاهة. قال لي: «لديّ قرود صغيرة في بطني، يا ابن بلدي. بعضها شرّيرة، وتعضّ أمعائي، ولذلك أنزف دماً، وهي تفعل ذلك حينما تكون غاضبة. وبعضها الآخر، وهي من سلالة المشعرات، جسمها مليءٌ بالشعر، ولديها أيادٍ ناعمة مثل الريش. تُداعبني بلطف وتمنع القرود الأخرى الشريرة من أن تعضّني. وحينما تريد هذه القرود اللطيفة أن تدافع عنّي، لا أنزف دماً».

– هل تتذكّر مرسيليا، يا تيتان؟

– بالطبع، أجل، أتذكّر مرسيليا. بل أتذكّرها جيّداً. ساحة البورصة مع القوادين وفرق اللصوص.

- هل تتذكّر أسماء بعضٍ منهم؟ لانج لولوكر؟ لوغرافات؟ كليمان؟

- كلا، لا أتذكّر أسماء، فقط أتذكّر شخصاً غبيّاً له عربة وقد رافقني إلى المستشفى مع صديقي المريض والذي قال لي بأنني كنتُ سبب مرضه. هذا كلّ شيء.

- والأصدقاء؟

- لا أدري.

مسكينٌ تيتان، أعطيته ما تبقّى من سيجاري ونهضتُ وقلبي مليءٌ بالشفقة على هذا الكائن المسكين الذي سيموت مثل كلبٍ. نعم، إنّه من الخطر الشديد أن يعيش المرء مع مجانين، ولكن ما العمل؟ إنّها على كلّ حال الطريقة الوحيدة، على ما أعتقد، لكي أدبّر عملية فرار دون أن أعرّض نفسي لخطر الحكم عليّ بسببها.

أصبح سالفيديا تقريباً جاهزاً للعملية. فقد حصل على اثنين من المفاتيح، ولم يعد ينقصه سوى مفتاح زنزانتي. كما أنّه حصل على حبلٍ ممتاز، وعلاوة على ذلك، صنع حبلاً آخر من الأشرطة النسيجية لأراجيح النوم والتي، حسبما قال لي، جُدِلَت من خمسة أشرطة. إذاً، كلّ شيء على ما يُرام من هذا الجانب.

كنتُ متحمّساً ومتشوّقاً إلى أن ننتقل إلى الفعل، لأنّه من الصعب حقّاً التحلّي بالصبر في لعب هذه المسرحية الكوميدية التي ألعبُ فيها دور المجنون. من أجل البقاء في هذا القسم من الملجأ حيث توجد زنزانتي، كان عليّ أن أفتعِل من حينٍ إلى آخر أزمةً.

افتعلتُ أزمةً بمنتهى الإحكام والتدبير بحيث وضعني الحرّاس الممرّضون في حوض استحمامٍ مليءٍ بالماء الساخن جدّاً وحقنوني بحقنتين من البروميد. وكان حوض الاستحمام هذا مغطّى بنسيجٍ متينٍ جدّاً بحيث لا أستطيع الخروج منه. وحده رأسي كان يخرج منه عبر فتحةٍ. كان قد مضى أكثر من ساعتين على وجودي في هذا الحوض وأنا مثبّتٌ

بهذا القماش الأشبه بسترة تقييد، عندما دخل ايفانهوي. ذُعرتُ لرؤية الطريقة التي ينظر بها إليّ هذا الوحش. انتابني خوفٌ فظيع من أن يخنقني. وأنا لا أستطيع حتى أن أدافع عن نفسي، فذراعاي تحت الغطاء النسيجي.

اقترب منّي، وهو يُحملق فيّ بعينيه الضخمتين، بدا أنّه يُحاول أن يتذكّر أين رأى هذا الرأس الذي يبدو وكأنّه يبرزُ من قيد. غمرت وجهي أنفاسه ورائحة عفونةٍ كريهة. رغبتُ في أن أطلق نداء استغاثة، ولكنني خشيتُ من أن أُزيده غضباً وحنقاً بصرخاتي. أغمضتُ عينيّ وانتظرت، وأنا على قناعة بأنّه سيخنقني بيديه الضخمتين كعملاق. مرّت بضع لحظاتٍ من الرعب، لن أنساها في أمدٍ قريب. وأخيراً، ابتعد عنّي، وجال في القاعة، ثمّ توجّه إلى اللولبين اللذين يزوّدان الحوض بالماء، وأغلق لولب الماء البارد، وفتح واسعاً لولب الماء الساخن الذي كان يغلي. صرختُ كمن فقد صوابه، لأنني كنتُ على وشك أن أُسلَق بالمعنى الحرفي للكلمة. غادر ايفانهوي. امتلأت القاعة كلّها بالبخار، وكدتُ أختنق وأنا أستنشقه، وبذلتُ جهوداً تفوق قدرة البشر لكي أمزّق غطاء البؤس هذا، ولكن عبثاً. وأخيراً، جاء الحرّاس لنجدتي بعد أن رأوا البخار يخرج من النافذة. حينما أخرجوني من ذلك المرجل الذي كان يغلي، كانت في جسدي حروق فظيعة وأتألّم بشدّة. وخاصّة في فخذيّ، وانسلخ الجلد عن أجزاءٍ من جسمي. دهنوا جسمي بحمض البيكريك المطهّر، ومددوني في قاعة التمريض الصغيرة في الملجأ. وجدوا أنّ جروحي خطيرة بحيث استدعوا الطبيب لمعالجتها. وقد ساعدتني بعض حقن المورفين على أن أمضي الساعات الأربع والعشرين الأولى. حينما سألني الطبيب عمّا جرى، أخبرته أنّ بركاناً قد انفجر في حوض الاستحمام. لم يفهم أحدٌ ما الذي حدث. واتّهم الحارس الممرّض الشخص الذي جهّز الحمّام بأنّه قد ضبط عيار عملية وصول الماء بطريقة خاطئة.

خرج سالفيديا بعد أن دهن جسمي بالمرهم المطهّر. أخبرني بأنّه جاهز للبدء بعملية الفرار ولفت انتباهي إلى أنّ وجودي في المستوصف

فرصة جيّدة لأنّه إذا فشلت عملية الهروب فسوف نستطيع أن نعود إلى هذا القسم من الملجأ دون أن يرانا أحد. وبالتالي، عليه أن يستعجل في صنع نسخة من مفتاح زنزانتي، وقد طبع شكل المفتاح على قطعةٍ من الصابون، وأخبرني بأننا سنحصل على نسخة المفتاح غداً. والآن حان دوري لأحدّد اليوم الذي سأشعر فيه بأنني قد تعافيتُ بما فيه الكفاية لكي نستفيد من المناوبة الأولى للحارسين اللذين لا يقومان بدوريات.

وفي هذه الليلة، خلال المناوبة من الساعة الواحدة وحتى الساعة الخامسة صباحاً، لا يكون سالفيديا في الخدمة. ولكسب بعض الوقت، سوف يُفرِغ برميل الخلّ نحو الساعة الحادية عشرة مساءً. أمّا البرميل الآخر، برميل الزيت، فسوف نُدحرجه وهو ممتلئ، لأنّ البحر هائجٌ جدّاً وربّما ينفعنا الزيت في تهدئة الأمواج لإنزال البرميل في الماء.

لدي سروالٌ من أكياس الطحين مقطوعٌ من عن الركبتين ومعطفٌ من الصوف، وسكين في حزامي. وكذلك لديّ كيس كتيم لا ينفذ إليه الماء، أعلّقه برقبتي وهو يحتوي على سجائر وولّاعة. أمّا سالفيديا، فقد أعدّ كيس طعام عازل ومحكم الإغلاق، وضع فيه طحين المنيهوت الذي أضاف إليه بعض الزيت والسكّر. وقال لي بأنّ وزنه يقارب ثلاثة كيلوغرامات. تأخّر الوقت. جلستُ على سريري وانتظرتُ صاحبي، وقلبي يخفق بسرعة وقوّة. فما هي إلا دقائق وستنطلق عملية الهروب. فليحالفني الحظّ ويباركني الربّ، وأخرج أخيراً ومنتصراً إلى الأبد من طريق العفن!

الغريبُ في الأمر هو أنّه، وأنا أوشِك على الهروب، لم يعد في ذهني عن الماضي سوى التفكير بأبي وعائلتي. لم تعد تراودني ولا صورة واحدة عن جلسات المحاكمة أو المحلّفين أو المدّعي العام.

في اللحظة التي فُتِحَ فيها الباب، تراءى لي، رغماً عنّي، ماتيو بوضوح منتصباً تحمله أسماك القرش.

– بابي، هيّا بنا!

تبعته. أغلق الباب بسرعة، وأخفى المفتاح في زاوية من الممرّ. واستعجلني، قائلاً: «أسرع، هيا أسرع». وصلنا إلى مستودع المؤن، وكان الباب مفتوحاً، وإخراج البرميل سهلاً. أحاط نفسه بالحبل، وأحطتُ نفسي بالأسلاك المعدنية. أخذتُ كيس الطحين وبدأتُ، في الظلام الدامس، بدحرجة برميلي نحو البحر. وجاء هو ورائي وهو يجلب برميل الزيت. لحسن الحظّ، كان قوياً وتمكّن بسهولة من كبح البرميل بما فيه الكفاية في هذا المنحدر الوعر.

- بهدوء، بهدوء، كن حذراً لئلا تأخذ بك السرعة.

انتظرته بحيث في حال أفلت برميله، يتوقّف على برميلي. نزلتُ وأنا أرجع القهقري، وأنا أسير أمام برميلي، وبلغنا أسفل الطريق دون أن نواجه أيّ مصاعب. كان هناك منفذٌ ضيّق إلى البحر، ولكن بعد ذلك، من الصعب عبور الصخور.

- أفرغ البرميل، فلن نستطيع قط أن نتجاوز الصخور إذا بقي ممتلئاً.

هبّت الرياح بقوّة وتكسّرت الأمواج على الصخور بعنف. تمّ الأمر، فقد أُفرِغَ البرميل.

- ضع السدادة بإحكام. انتظر. ضع فوقها هذه الصفيحة.

فُتِحَت الثقوب.

- أدخل المسامير بإحكام.

غطّى صخب الريح والأمواج على صوت الضربات، ولم يعد من الممكن أن يسمعها أحد.

بعد أن تمّ ربطهما ببعضهما بإحكام، أصبح من الصعب رفع البرميلين فوق الصخور. إذ تبلغ سعة كلّ منهما مئتين وخمسة وعشرين ليتراً. أصبحا معاً طوفاً ضخماً ليس من السهل التعامل معه. المكان الذي اختاره صاحبي ليتمّ وضع البرميلين منه في البحر لا يسهّل الأمور. «ادفع إلى الأعلى، بحق اللّه! ارفع قليلاً. انتبه لهذه الموجة!» رفعتنا الموجة نحن

الإثنين مع البرميلين ودفعتنا بقسوة نحو الصخرة. «انتبه! سيتحطّمان، ناهيك عن أنّه قد تُكسرُ يدنا أو ذراعنا!»

- اِهْدأ، يا سالفيديا. إمّا تقدّم إلى الأمام نحو البحر أو تعال إلى هنا في الخلف. مكانك هناك جيّد. اسحب الطوف نحوك دفعةً واحدة حالما أصرخ. وسوف أدفعه في الوقت نفسه وبكلّ تأكيد سنبتعد عن الصخور، ولكن يجب أن نصمد ونبقى في المكان، حتى وإن غمرتنا الموجة.

وأنا أصرخ بهذه الأوامر لصديقي، وسط جعجعة الرياح والأمواج، ظننتُ أنّه سمعها: غطّت موجةٌ عالية الكتلة المدمجة التي شكّلناها بالكامل، أي البرميلين وهو وأنا. وفي تلك اللحظة، وأنا في غاية الحنق، دفعتُ بكلّ قواي الطوف. لا شكّ هو أيضاً سحب الطوف، لأنّنا وجدنا أنفسنا فجأةً وقد تحرّرنا من الصخور وتأخذنا الموجة معها. اعتلى سالفيديا البرميلين قبلي، وفي اللحظة التي اعتليتُ فيها بدوري الطوف، غمرتنا موجة عاتية وقذفت بنا مثل ريشةٍ على صخرة ناتئة متقدّمة أكثر من الصخور الأخرى، وكانت الضربة الرهيبة قويّة جدّاً لدرجة أنّ البرميلين انفلقا وتناثرت شظاياهما. وحينما انحسرت الموجة، حملتني معها بعيداً عن الصخرة لأكثر من عشرين متراً، فسبحتُ وتركتُ نفسي أنجرف مع موجةٍ أخرى اندفعت مباشرةً نحو الشاطئ، فهبطتُ جالساً تماماً بين صخرتين، وتمكّنتُ من التشبّث بمكاني قبل أن تجرفني موجةٌ أخرى.

استطعتُ، وقد امتلأ كلّ جسمي بالرضوض، أن أخرج من هناك، ولكن حينما وصلتُ إلى اليابسة، أدركتُ أنني قد أُبعدتُ لأكثر من مئة مترٍ عن النقطة التي دخلنا منها إلى البحر.

ودون أخذ أي احتياطات، صرخت: «سالفيديا! روميو! أين أنت؟» ولكنني لم أتلقّ أيّ جواب.

استلقيتُ محطّماً على الطريق، وتخلّيتُ عن سروالي ومعطفي الصوفي ووجدتُ نفسي عارياً تماماً، أنتعل خفيّ النسيجيين لا أكثر. باسم الربّ، يا صديقي، أين أنت؟ وصرختُ من جديد بأعلى صوتي:

«أين أنت؟» لم تَلقَ صرختي صدى سوى من الريح والبحر والأمواج. بقيتُ هناك، لا أعرف لكم من الوقت، ضعيفاً ومحطّماً تماماً، جسدياً ومعنوياً. ثمّ بكيتُ حنقاً وأنا أرمي الكيس الصغير المدلّى من عنقي مع التبغ والولّاعة - وكانت تلك عناية أخوية من صديقي، لأنّه هو لا يُدخّن.

وقفتُ منتصباً في مواجهة الريح، وفي مواجهة تلك الأمواج العاتية المتوحّشة التي تكنّس كلّ شيء، ورفعتُ قبضتي وشتمتُ الربّ: «أيّها السافل، الخنزير، المقزّز، اللوطي، ألا تخجل من انقضاضك عليّ بهذه الطريقة؟ أأنت هو الإله الطيّب؟ مقزّز، نعم، هذا هو! ساديّ، لعين، هذا هو أنت! مشوّه، وغبيّ قذر! لن ألفظ اسمك مرّة أخرى في حياتي! أنت لا تستحقّه!».

هدأت الريح، وهذا الهدوء الظاهري أراحني وأعادني إلى الواقع.

سأصعد إلى الملجأ، وإن استطعت، سأعود إلى المستوصف. وبقليلٍ من الحظّ، هذا ممكن.

صعدتُ الشاطئ وفي ذهني فكرة وحيدة: أن أعود وأستلقي من جديد في سريري. لا من رأى ولا من عرف. وصلتُ إلى ممرّ المستوصف دون مصاعب. قفزتُ فوق جدار الملجأ، لأنني لم أكن أعرف أين وضع سالفيديا مفتاح الباب الرئيسي.

ودون أن أبحث كثيراً، عثرتُ على مفتاح المستوصف. دخلت وأغلقتُ الباب على نفسي وقفلته. ذهبتُ إلى النافذة ورميتُ المفتاح بعيداً جدّاً، فسقط على الجانب الآخر من الجدار. واستلقيتُ على السرير. الشيء الوحيد الذي قد يفضحني، هو أنّ خفّي كانا مبلّلين. نهضتُ وذهبتُ إلى المراحيض وعصرتُ الخفّين فيها. سحبتُ الشرشف على وجهي، وبدأتُ أشعر بالدفء شيئاً فشيئاً. كانت الرياح ومياه البحر قد جمّدتني من البرد. تُرى هل غرق صديقي بالفعل؟ ربّما تكون الموجة قد دفعته أبعد منّي بكثير، واستطاع أن يتعلّق بطرف الجزيرة. تُرى ألم أستعجل العودة

إلى الملجأ؟ ربّما كان عليّ أن أنتظر لبعض الوقت. عاتبتُ نفسي على التسرّع في تقبّل أنّ صديقي قد فُقِدَ.

في درج الطاولة الصغيرة بجانب سريري، كان هناك قرصان منوّمان. ابتلعتهما دون ماء، وكان لعابي كافياً لجعلهما ينزلقان إلى جوفي.

كنتُ نائماً حينما هزّني أحدهم، ففتحتُ عيني لأرى الحارس الممرّض أمامي. كانت القاعة مليئة بأشعة الشمس، والنافذة مفتوحة، ينظر عبرها ثلاثة مرضى من الخارج.

- ما بك، يا بابيون؟ أنت نائمٌ كمن فقد وعيه. إنّها الساعة العاشرة صباحاً. ألم تشرب قهوتك؟ لقد بردت. انظر، اشربها.

استيقظتُ بصعوبة ولم أكن صاحياً تماماً، ومع ذلك تبيّن لي بأنّه ليس هناك أيّ شيء غير طبيعي فيما يخصّني.

- لماذا أيقظتني؟

- لأننا، بما أنّ حروقك قد شُفيت، في حاجة إلى السرير الذي تنام فيه. ستعود إلى زنزانتك.

- حسناً، أيّها الرئيس.

وسرتُ في إثره. لدى مرورنا في الباحة، تركني فيها، فاغتنمتُ فرصة ذلك لكي أجفّف مشّايتي تحت أشعة الشمس.

ها قد مرّت ثلاثة أيام على فشل محاولة الفرار. لم أسمع أيّ إشاعة عنها. أذهب من زنزانتي إلى الباحة، ومن الباحة إلى زنزانتي. لم يعد سالفيديا يظهر، وهذا يعني أنّ المسكين قد مات، ولا شكّ أنّه قد تحطّم على الصخور. وأنا أيضاً نجوت من الموت بأعجوبة، وقد نجوت بالتأكيد لأنني كنتُ في الخلف بدل أن أكون في الأمام. كيف سأعرف ما جرى لصديقي؟ لا بدّ أن أخرج من الملجأ. وسيكون إقناع الطبيب بأنني قد شُفيت، أو على الأقل إقناعه بأنني قادرٌ على العودة إلى المعسكر، أصعب بكثير من إقناعه بالدخول إلى الملجأ. يجب الآن أن أُقنِعَ الطبيب بأنّ حالتي قد تحسّنت.

- السيّد روفيوت (هذا هو رئيس الممرّضين)، أنا أشعر بالبرد في الليل. أعدك بأنني لن ألوّث ثيابي، لماذا لا تُعطيني سروالاً وقميصاً، من فضلك؟

ذُهِلَ الحارس. نظر إليّ وهو في غاية الاندهاش، ثمّ قال لي:

- اجلس معي هنا، يا بابيون. أخبرني ما الذي حدث؟

- أنا متفاجئٌ، يا سيدي، أن أجد نفسي هنا. هذا هو الملجأ، هل هذا يعني أنني بين المجانين؟ تُرى هل أكون، بالصدفة، قد ضللتُ طريقي وفقدتُ أعصابي؟ لماذا أنا هنا؟ أخبرني بذلك، سيّدي، وسيكون هذا لطفٌ منك.

- صديقي بابيون، لقد كنتَ مريضاً، وأرى أنّك ستتحسّن. هل تريد أن تعمل؟

- نعم.

- ماذا تُريد أن تعمل؟

- أيّ شيءٍ كان.

وها قد ارتديتُ ثيابي، وأصبحتُ أساعد في تنظيف الزنازين. وفي المساء، تركوا باب زنزانتي مفتوحاً حتى الساعة التاسعة، وفقط حينما يبدأ الحارس الليلي مناوبته، يُغلق باب زنزانتي.

تحدّث معي مساء أمس، وللمرّة الأولى، حارسٌ ممرّض، وهو من منطقة أوفيرن. كنّا لوحدنا في المحرس، إذ لم يكن الحارس قد وصل بعد. لم أكن أعرف هذا الرجل، ولكنّه كان يعرفني جيّداً، حسبما أخبرني بنفسه.

- لا داعي لأن تواصل الكفاح الآن، يا صاحبي.

- ماذا تقصد؟

- دعك من هذا! وهل تعتقد أنني قد خدعتُ بحيلتك؟ أنا ممرّضٌ في قسم المجانين منذ سبعة أعوام، ومنذ الأسبوع الأوّل، أدركتُ أنّك متظاهرٌ بالجنون.

- إذاً، وماذا بعد؟

- بعد ذلك، أشعر بالشفقة عليك بصدق لفشلك في محاولة الفرار مع سالفيديا. بالنسبة له، لقد كلّفته هذه المحاولة حياته. أتألّم بصدق من أجله، لأنّه كان صديقاً جيّداً، وعلى الرغم من أنه لم يُصارحني بنيّته في الفرار من قبل، ولكنني لا أحقد عليه. إذا ما احتجتَ إلى أيّ شيء كان، أخبرني بذلك، وسأكون سعيداً بأن أسدي لك خدمةً. رأيتُ في عينيه نظرة صادقة، بحيث لم يخالجني الشكّ أبداً في استقامته. وإذا كنتُ لم أسمع عنه حديثاً بالخير، فلم أسمع عنه أيضاً حديثاً بالسوء، وبالتالي، لا بدّ أن يكون شخصاً طيّباً.

يا لك من مسكين يا سالفيديا! لا بدّ أنّ ضجّة قد ثارت حينما اكتشفوا بأنّه قد غادر. لقد عثروا على قطعٍ من حطام البرميلين وقد لفظها البحر، فأيقنوا بأنّه قد التُهِمَ مِن أسماك القرش. وقد أثار الطبيب ضجّة كبيرة بشأن زيت الزيتون المُراق، وقال بأنّه من الصعب الحصول عليه في زمن الحرب.

- بماذا تنصحني أن أفعل؟

- سوف أعيّنك في السخرة التي تخرج من الملجأ كلّ يوم لكي تذهب وتجلب الأغذية للمستشفى. سيكون هذا بمثابة نزهة لك. ابدأ بأن تتصرّف بطريقة سليمة، ولكن من أصل عشر محادثات، تصرفّ في ثمانيةٍ منها كإنسانٍ عاقل، لأنّ الشفاء لا ينبغي أن يكون سريعاً جدّاً أيضاً.

- شكراً لك، ما اسمك؟

- ديبون.

- شكراً، يا صاحبي. لن أنسى نصائحك السديدة.

مضى الآن على فشل محاولتي في الفرار ما يُقارب شهراً. بعد ستة أيام من فشل المحاولة، عثروا على جثّة صديقي، طافية على الماء. بصدفة لا يمكن تفسيرها، لم تكن أسماك القرش قد التهمته. ولكنّ الأسماك الأخرى كانت قد التهمت كلّ أحشائه وجزءاً من ساقه، حسبما روى لي ديبون. وكانت جمجمته محطّمة. وبسبب درجة التفسّخ في الجثّة، لم يتمّ

تشريحها. طلبتُ من ديبون أن يُخرج لي رسالة إلى البريد إذا كان ذلك ممكناً بالنسبة إليه. سيكون عليه أن يُسلّمها إلى غالغاني لكي يدسّها في كيس البريد لحظة ختمه.

كتبتُ رسالة إلى أمّ روميو سالفيديا، باللغة الإيطالية:

«سيّدتي، لقد مات ابنكِ دون أن تكون هناك أغلالٌ في قدميه. لقد مات في البحر، بشجاعة، بعيداً عن الحرّاس والسجن. لقد مات حرّاً وهو يُكافح ببسالة من أجل نيل حريته. كنّا قد اتّفقنا، هو وأنا، على أن نكتب لأسرتنا إذا ما حصل مكروهٌ لأحدنا. أقوم بهذا الواجب الأليم وأنا أقبّل يديكِ تقبيل الابن ليدي أمّه.

صديق ولدكِ

بابيون».

بعد أن أدّيتُ هذا الواجب، قرّرتُ ألّا أعود إلى التفكير في هذا الكابوس أبداً. إنّها الحياة. بقي عليّ أن أخرج من الملجأ، وأذهب بأي ثمنٍ كان إلى جزيرة الشيطان وأجرّب محاولة أخرى للفرار.

عيّنني الحارس بستانياً في بستانه. مضى شهران على خدمتي في بستانه، وأنا أتصرّف أحسن التصرّف وأصبحتُ محلّ إعجاب هذا الحارس الغبي أشدّ الإعجاب بحيث لم يعد يرغب في التخلّي عنّي. وقد أخبرني ابن منطقة أوفيرن بأنّه، خلال الزيارة الأخيرة، أراد الطبيب أن يُخرجني من الملجأ لكي يُعيدني إلى المعسكر في «خروج تجريبي»، ولكنّ الحارس اعترض على ذلك قائلاً بأنّه لم يسبق أن عمِلَ أحدٌ في بستانه بهذه الدرجة من الاعتناء.

ولذلك، قمتُ هذا الصباح باقتلاع كلّ أشجار الفراولة ورميتها في القُمامة، وغرستُ بدلّ كلّ شجرة من أشجار الفراولة صليباً صغيراً، بحيث أصبح عدد الصلبان الصغيرة بعدد الأشجار المُقتَلَعة. ولا داعي

لأن أصف لكم شدّة الاستنكار والغضب. كاد هذا الحارس البدين والثقيل أن ينفجر لشدّة غيظه وحنقه. عانى كثيراً وكاد أن يختنق لكي يتكلّم، لكن الأصوات أبت أن تخرج من حنجرته. جالساً على عربة، انفجر أخيراً باكياً بحرقة. كنتُ قاسياً عليه بعض الشيء، ولكن ما عساي أن أفعل؟

لم يأخذ الطبيب المسألة على محمل الكارثة، وألحّ، قائلاً: يجب أن يخضع هذا المريض للخروج التجريبي إلى المعسكر، لكي يتأقلم من جديد مع الحياة الطبيعية. إنّ هذه الفكرة الغريبة راودته من جرّاء وجوده وحيداً في البستان.

– أخبرني، يا بابيون، لماذا اقتلعت أشجار الفراولة، وغرست صلباناً في مكانها؟

– لا أستطيع أن أفسّر هذا التصرّف، يا دكتور، وأنا أعتذر للحارس على هذه الفعلة. كان يحبّ كثيراً أشجار الفراولة هذه بحيث أنني أتأسّف بالفعل لذلك. سوف أسأل الربّ الكريم أن يعطيه أشجاراً غيرها.

ها قد عدتُ إلى المعسكر، والتقيتُ بأصدقائي من جديد. كان مكان كاربونييري فارغاً، فوضعتُ أرجوحة نومي بجانب هذه الفسحة الفارغة، كما لو أنّ ماتيو لا يزال موجوداً.

أمر الطبيب أن تُخاط على معطفي عبارة: «في حالة معاملة خاصّة». وبموجب هذه المعاملة الخاصّة، لم يكن يحقّ لأحدٍ غير الطبيب أن يأمرني. طلب مني أن ألمّ أوراق الشجر من الساعة الثامنة ولغاية الساعة العاشرة صباحاً، أمام المستشفى. شربتُ القهوة ودخّنتُ بضع سجائر برفقة الطبيب في أريكةٍ أمام منزله. جلست زوجته معنا، وحاول الطبيب أن يجرّني إلى أن أتحدّث له عن حياتي الماضية، وساعدته زوجته في ذلك.

– إذاً، يا بابيون، وبعد ذلك؟ ما الذي حدث لك بعد أن تركت الهنود من صيادي اللآلئ؟

وكنتُ أمضي فترة ما بعد الظهيرة من كلّ يوم مع هذين الزوجين

الرائعين. وذلك بناءً على دعوة زوجة الطبيب، فقد قالت لي: «تعال إلى لقائي كلّ يوم، يا بابيون. أوّلاً أريدُ أن أراك، ومن ثَمّ أن أسمع أيضاً القصص التي حدثت لك».

أصبحتُ أمضي كلّ يوم بضع ساعات مع الطبيب وزوجته وفي بعض الأحيان مع زوجته بمفردها. كانا مقتنعين بأنّهما من خلال إرغامي على الحديث عن حياتي الماضية يساهمان في استعادة توازني بشكلٍ دائم. قررتُ أن أطلب من الطبيب أن يرسلني إلى جزيرة الشيطان.

تمّ لي ذلك، وعليّ أن أغادر غداً. كان هذا الطبيب وزوجته يعرفان لماذا أذهب إلى جزيرة الشيطان. لقد كانا في غاية الطيبة معي إلى درجة أنني لم أشأ أن أخدعهما: «أيّها الطبيب، لم أعد أحتمل هذا السجن، أرسلني إلى جزيرة الشيطان، فإمّا أن أهرب وإمّا أن أموت، ولكن المهم أنّ ينتهي هذا الذي أنا فيه».

- أنا أفهمك، يا بابيون، هذا النظام في القمع يُثير اشمئزازي، وهذه الإدارة فاسدة. ولذلك وداعاً وأتمنّى لك حظّاً سعيداً!

الدفتر العاشر
جزيرة الشيطان

مقعد دريفوس

إنّها الجزيرة الأصغر من بين جزر الخلاص الثلاث. وهي التي تقع إلى أقصى الشمال أيضاً بالمقارنة مع الجزيرتين الأخريين، وبالتالي الأكثر عرضةً للريح والأمواج التي تضربها مباشرةً. بعد منبسطٍ ضيّق يمتد على طول شاطئ البحر، ترتقي صعوداً نحو منبسطٍ في الأعلى يقع فيه محرس المراقبين وقاعة وحيدة للمحكومين بالأشغال الشاقّة، وعددهم حوالي عشرة محكومين. من الناحية الرسمية، لا يجب إرسال سجناء الحقّ العام إلى جزيرة الشيطان، وإنّما فقط المحكومين والمبعدين السياسيين.

يعيش كلٌّ منهم في بيتٍ صغير سقفه من الصفيح. تُعطى لهم كلّ يوم إثنين ما يكفيهم من الأطعمة النيئة لأسبوع، ويوزّع الخبز عليهم كلّ يوم. وعددهم يقارب الثلاثين. ويعمل هنا بصفة ممرّض الدكتور ليجيه الذي سمّم كلّ أسرته في ليون أو ضواحيها. لا يتعامل السياسيون مع المحكومين العاديين ويكتبون في بعض الأحيان إلى كايين مذكّرات احتجاج ضدّ هذا المحكوم أو ذاك في الجزيرة، فيتمّ إعادته إلى جزيرة رويال.

هناك حبلٌ معدني يربط جزيرة رويال بجزيرة الشيطان، لأنّ البحر غالباً ما يكون هائجاً، فيُستخدم الحبل في مساعدة المركب القادم من جزيرة رويال لكي يستطيع أن يأتي ويحاذي نوعاً من البناء الإسمنتي.

رئيس الحرس في المعسكر (وهم ثلاثة حرّاس) يُدعى سانتوري. وهو رجل طويل القامة ضخم وقذر، وغالباً لا يحلق ذقنه إلّا كلّ ثمانية أيام مرّة واحدة. قال لي:

- بابيون، آمل أنّك سوف تسلك سلوكاً حسناً في جزيرة الشيطان. لا تزعجني، وأنا سأدعك تعيش بهدوء. اصعد إلى المعسكر، وسوف أراك هناك.

وجدتُ في القاعة ستة محكومين بالأشغال الشاقّة: صينيان وزنجيان ورجلٌ من بوردو وآخرُ من ليل. أحد الصينيين يعرفني جيّداً، فقد كان معي في سان لوران، إذ كان موقوفاً رهن التحقيق بتهمة ارتكابه جريمة قتل. إنّه رجلٌ هندوصيني، وهو ناج من تمرّد سجن بولو كوندور، في الهند الصينية.

وكقرصانٍ محترف، كان يُهاجم زوارق السمبان الصينية، وفي بعض الأحيان يقتل كلّ طاقم الزورق مع عائلاتهم. وعلى الرغم من أنّه في غاية الخطورة، إلّا أنّه كانت له طريقة في العيش المشترك، تحوز على الثقة والمحبّة.

- هل أنت بخير، يا بابيون؟

- وأنت يا شانغ؟

ردّ بلغة فرنسية ركيكة:

- لا بأس، هنا، نحن بخير. أنت، تتناول الطعام معي. وأنت، سوف تنام هناك، إلى جانبي. وأنا سأطبخ الطعام مرّتين في اليوم. أمّا أنت، فستصطاد السمك. هنا، يوجد الكثير من السمك.

وصل سانتوري، وقال:

- آه! هل استقرّ بك المقام؟ غداً صباحاً، سوف تذهب مع شانغ لإطعام الخنازير. هو سيجلب جوز الهند، وأنت، سوف تفتحها إلى فلقتين باستخدام فأس. ويجب فرز جوز الهند الدسم لإطعامه للخنازير الصغيرة التي لا أسنان لها. وفي الساعة الرابعة من بعد الظهيرة، تقومان بالعمل نفسه. وعدا هاتين الساعتين، إحداهما في الصباح، والأخرى في فترة ما بعد الظهيرة، أنتما حرّان في القيام بأيّ شيءٍ ترغبان في القيام به في الجزيرة.

على كلّ صيّاد أن يحمل كيلوغراماً من السمك كلّ يوم إلى طباخي، أو الكركند. وهكذا يكون الجميع سعداء. هل هذا يناسبك؟

- نعم، يا سيّد سانتوري.

- أنا أعلم أنّك رجلُ فرارٍ، ولكن بما أنّ الفرار من هنا مستحيل، لن أقلق كثيراً. في الليل، تكونون محبوسين، ولكن أعلم أنّ هناك منْ يخرجون رغم ذلك. كن حذراً من المبعدين السياسيين، إذ لدى كلٍّ منهم ساطوره. وحينما تقترب من منزلهم، يظنّون أنّك قادمٌ لسرقة دجاجةٍ أو بيضٍ منهم. ولذلك يمكن لك أن تُقتَل أو تُجرَح، لأنّهم يرونك، وأنت لا تراهم.

بعد تقديم العلف لأكثر من مئتي خنزيرٍ، جلتُ في أرجاء الجزيرة طيلة النهار، برفقة شانغ الذي يعرفها كاملةً. صادفنا رجلٌ عجوز، ذو لحية طويلة بيضاء، على الطريق الذي يُحيط بالجزيرة على شواطئ البحر. وهو صحافي من كاليدونيا الجديدة، كتب خلال حرب 1914 ضدّ فرنسا لصالح الألمان. كما أنني رأيتُ النذل الذي أعدم إديث كافيل رمياً بالرصاص، وهي الممرضة الإنكليزية أو البلجيكية التي كانت تنقذ الطيارين الإنكليز في عام 1917 [1]. هذا الشخص المثير للاشمئزاز، الضخم والسمين، كانت في يده عصا ويضرب بها سمكة موراي ضخمة، طولها أكثر من متر ونصف، وبضخامة فخذي.

يعيش الممرّض، هو الآخر، في أحد تلك البيوت الصغيرة التي من المفترض أنّها خاصّة بالسجناء السياسيين.

كان الدكتور ليجيه هذا رجلاً طويل القامة قذراً وقويّاً. وحده وجهه نظيف، يعلوه شعرٌ شائبٌ وطويلٌ جدّاً عند الرقبة والصدغين. ويداه مليئتان بآثار جراحٍ ملتئمة بطريقة سيّئة والتي لا بدّ أنّه قد أُصيب بها في البحر وهو يتعلّق بالحواف الخشنة للصخور.

- إذا ما احتجتَ إلى شيء، تعال وسوف أعطيك إياه. لا تأتِ إلّا إذا كنتَ

1- أُعدِمَت الممرّضة البريطانية إديث كافيل رمياً بالرصاص بواسطة فرقة إطلاق النار الألمانية في 12 أكتوبر / تشرين الأوّل عام 1915 - المترجم.

مريضاً، فأنا لا أُحبّ أن يزورني أحد، ولا حتى أن يكلّمني أحد. أنا أبيع بيضاً وفي بعض الأحيان، أبيع فرّوجاً أو دجاجةً. وإذا قتلتَ خلسةً خنزيراً صغيراً، اجلب لي فخذاً خلفياً، وسأعطيك فرّوجاً وست بيضات. وبما أنّك هنا، اِحْمل معك هذه الزجاجة التي تحوي مئة وعشرين حبّة كينين. وبما أنّك جئت إلى هنا لكي تهرب، ففي حال حدثت معجزة ونجحت في الفرار، سوف تحتاج إليها في الدَّغَل.

في الصباح، أذهب للصيد، وفي المساء، أحصل على كميات هائلة من السمك الأحمر الصخري، فأرسل منها كلّ يوم ما بين ثلاثة إلى أربعة كيلوغرامات إلى قصعات الحرّاس، فيبتهج سانتوري ويشعّ وجهه فرحاً، إذ لم يسبق قطّ أنّ قدّم له أحدٌ هذه الكمية الكبيرة والمتنوعّة من السمك والكركند. في بعض المرّات، حينما كنتُ أغوص في البركة المنخفضة، كنتُ أستخرج ثلاثمئة كركند.

جاء الطبيب جيرمان غيبير يوم أمس إلى جزيرة الشيطان. ولأنّ البحر كان هادئاً، جاء مع آمر سجن جزيرة رويال والسيّدة غيبير، هذه المرأة الرائعة، وهي أوّل امرأة تطأ قدمها أرض جزيرة الشيطان.

حسب آمر السجن، لم يسبق أبداً أن جاء شخصٌ مدني إلى الجزيرة. وقد استطعتُ أن أتكلّم معها لأكثر من ساعة. وقد جاءت معي حتى وصلنا إلى المقعد الذي كان دريفوس يجلس عليه وهو ينظر نحو عرض البحر، نحو فرنسا التي كانت قد لفظته. قالت وهي تداعب الحجر بيدها:

- ليت هذا الحجر المصقول يستطيع أن يروي لنا أفكار دريفوس... بابيون، بكلّ تأكيد هذه آخر مرّة نلتقي فيها، طالما أنّك تقول لي بأنّك ستحاول قريباً أن تهرب من هنا. سوف أدعو اللّه أن يَنصُرَكَ ويحقّق لك مرادك. وأطلبُ منك أن تأتي، قبل الرحيل، لقضاء دقيقةٍ واحدة على هذا المقعد الذي داعبتُه بيدي، وأن تلمسه أنت بنفسك لكي تودّعني هنا بقربه. أذِن لي الآمر أن أرسل بوساطة الحبل المعدني، حينما أرغب في ذلك، الكركند والسمك إلى الطبيب. ووافق سانتوري على ذلك.

- وداعاً أيّها الطبيب، وداعاً يا سيّدتي.

الاحتمال الأرجح والطبيعي هو أن أحيّيهم وأودّعهم قبل أن يغادر القارب الرصيف البحري. نظرت إليّ السيّدة غيبير بعينين واسعتين، كما لو أنّها تقول لي: «تذكّرنا دائماً، لأنّه لن ننساك أيضاً».

يقع مقعد دريفوس في أعلى الطرف الشمالي من الجزيرة، ويطلّ على البحر من ارتفاعٍ يفوق أربعين متراً.

لم أصطد شيئاً اليوم، ولكن لديّ في حوضٍ طبيعيٍّ للسمكِ أكثر من مئة كيلوغرام من السمك الأحمر البوري، وفي برميل معدني مربوطٍ بسلسلة معدنية، أكثر من خمسمئة كركند. وبالتالي يمكنني ألّا أنشغل بالصيد. فلديّ من السمك والكركند ما يكفي لإرساله إلى الطبيب ويكفينا، سانتوري والصيني وأنا. نحن في عام 1941، وقد مضى على وجودي في السجن أحد عشر عاماً. وأنا الآن في الخامسة والثلاثين من عمري. وقد قضيتُ أجمل سنوات عمري إمّا في زنزانة أو في منفردة. لدي فقط سبعة أشهر من الحريّة التامة مع قبيلتي الهندية. والصبيان الذين من المفترض أنني أنجبتهم من زوجتي الهنديتين يبلغون الآن الثامنة من عمرهم. يا للهول! كم يمضي الوقت سريعاً! ولكن حينما أنظر إلى الوراء، أتأمّل هذه الساعات وهذه الدقائق، أرى أنّها مع ذلك طويلة جدّاً، وكلّ واحدة منها مطرّزة في درب الآلام هذا.

خمسة وثلاثون عاماً! أين مونتمارتر، وساحة بلانش، وبيغال، والحفلة الراقصة في كازينو بوتي جاردان، وجادة كليشي؟ أين هي نينيت، بوجهها المريمي المجدلي، الصديقة الحقيقية التي حينما التهمتني عيناها الواسعتان السوداوان يأساً، صرخت في المحكمة: «لا تبالي، يا زوجي، سوف ألحق بكَ إلى هناك»؟ أين هو المحامي ريمون هوبير مع عبارته: «سوف نحصل على البراءة»؟ أين هم الاثنا عشر محلّفاً الأوغاد في المحكمة؟ وأين رجال الشرطة؟ والمحامي العام؟ ماذا يفعل أبي والأسر التي كوّنتها شقيقاتي تحت النير الألماني؟

الكثير من محاولات الفرار! لنرَ، كم محاولة فرار وقعت؟

وقعت المحاولة الأولى عندما انطلقتُ من المستشفى، بعد ضرب الحراس.

وكانت المحاولة الثانية في كولومبيا، في ريوهاتشا، وهي المحاولة الأجمل، فقد نجحتُ هناك نجاحاً تامّاً. لماذا غادرتُ قبيلتي؟ سرت رعشةُ حبٍّ في جسدي، وبدا لي أنني ما زلت أشعر بأفعال الغرام مع الشقيقتين الهنديتين.

ثمّ كانت المحاولة الثالثة، والرابعة، والخامسة، والسادسة في بارانكيا. يا لسوء الحظّ في محاولات الفرار هذه! المحاولة التي تمّت خلال القدّاس، التي فشلت بطريقة مؤسفة! ذلك الديناميت الذي فشل في فتح الجدار، وفي المحاولة الأخرى، وكلوزيو هذا الذي علق سرواله! وتأخر مفعول ذاك المنوّم!

كانت المحاولة السابعة في جزيرة رويال، حيث وشى بي هذا القذر بيبير سيليه. كانت هذه المحاولة ستنجح بكلّ تأكيد، لولاه. لو أنّه أغلق فمه، لكنتُ حرّاً الآن مع صديقي المسكين كاربونييري.

المحاولة الثامنة، وهي الأخيرة، كانت من ملجأ المجانين. فشلت هذه المحاولة بخطأٍ فادحٍ من جانبي. كان خطأي الفادح هو أنني تركتُ الرجل الإيطالي يختار نقطةَ الدخول إلى الماء. لو أننا نزلنا لمسافة مئتي مترٍ نحو الملحمة، لكان من الأسهل علينا بكلّ تأكيد إطلاق الطوف في البحر.

لا بدّ لهذا المقعد الذي وجد دريفوس، المحكوم البريء، الشجاعة لكي يعيش عليه أن يخدمني في شيءٍ ما. يخدمني في ألّا أعترف بأنني مهزوم، في أن أقوم بمحاولة أخرى للفرار.

نعم، هذه الحجرة الملساء، المطلّة على هاوية الصخور، التي ترتطم بها الأمواج بعنفٍ دون توقّف، يجب أن تكون بالنسبة لي سنداً ومثلاً يُحتذى به. لم يستسلم دريفوس أبداً للضعف وكافح على الدوام، وحتى النهاية، من أجل ردّ اعتباره. صحيح أنّ إميل زولا وقف إلى جانبه بمقالته الشهيرة

بعنوان «أنا أتّهم» للدفاع عنه، ولكن مع ذلك، لو لم يكن رجلاً صلباً، أمام الكثير من الإجحاف، لألقى بكلّ تأكيد بنفسه إلى الهاوية، من هذا المقعد نفسه. لقد صمد جسدياً ومعنوياً، وعليّ ألّا أكون أقلّ صموداً منه، وعليّ أن أتخلّى عن فكرة القيام بمحاولة فرار جديدة تحت شعار: النصر أو الموت. كلمة «الموت» هي التي يجب عليّ أن أتخلّى عنها حتى لا أفكّر سوى بأنني سأنتصر وسأكون حرّاً.

خلال الساعات الطويلة التي قضيتها جالساً على مقعد دريفوس، سرح ذهني بعيداً وحلم بالماضي وبنى مستقبلاً وردياً. انبهرت عيناي غالباً بالضوء الساطع، وبالانعكاسات اللونية الرمادية لحواف الأمواج. ولفرط النظر إلى هذا البحر دون رؤيته، أصبحتُ أعرف التقلبات الممكنة والمتخيّلة للأمواج التي تلي هبوب الريح. ينقض البحر بلا هوادة، ودون كللٍ أو مللٍ، الصخور الأكثر تقدّماً في الجزيرة. يفتّشها ويضربها ويحتّ منها، كما لو أنّه يقول لجزيرة الشيطان: «انصرفي، يجب أن تختفي، أنتِ تضايقيني عندما أتقدّم نحو البر الرئيسي، أنتِ تعترضين طريقي. ولهذا السبب، أنزع كلّ يوم، وبلا توقّف، جزءاً صغيراً منكِ». وحينما تهبّ العاصفة، يكون للبحر يومٌ حافل ولا يجرف أثناء انحساره ما استطاع أن يحطّمه، بل ويسعى بكلّ قوّة إلى إرسال المياه إلى جميع الزوايا والأركان لكي يقوّض، شيئاً فشيئاً، من الأسفل هذه الصخور العملاقة التي تبدو وكأنّها تقول للبحر: «هنا، لا يمكنك المرور».

وحينئذٍ اكتشفتُ شيئاً مهمّاً جدّاً. في أسفل مقعد دريفوس تماماً، كانت الأمواج، مقبلةً في مواجهة صخور ضخمة على شكل مطبّات، تنقضّ وتتكسّر وتنحسر بعنف. لا تستطيع الأطنان من مياهها أن تتناثر، لأنّها تنحصر بهاتين الصخرتين اللتين تشكّلان ما يشبه حدوة حصان بعرض يقارب خمسة إلى ستة أمتار. وبعد ذلك يأتي المنحدر، وبالتالي ليس لمياه الموجة مخرجٌ آخر سوى الرجوع إلى البحر.

وهذا أمرٌ في غاية الأهمية، لأنّه إذا ما ألقيتُ بنفسي، في اللحظة

التي تتكسّر فيها الموجة وتُسارع نحو الهوّة، من الصخرة مع كيس جوز الهند، غاطساً مباشرةً فيها، سوف تحملني الموجة دون أدنى شكّ معها أثناء انحسارها.

أعرف من أين أحصل على العديد من أكياس الخيش، لأنّه في زريبة الخنازير، يمكن للمرء الحصول على ما يُريد منها لجمع جوز الهند.

أوّل ما يجب القيام به هو إجراء تجربة. عندما يكون القمر بدراً يكون المدّ أعلى، وبالتالي تكون الأمواج أقوى. سوف أنتظر أن يكتمل القمر بدراً. وسأستخدم كيساً من الخيش مخاطاً بإحكام، ومليئاً بجوز الهند الجاف بقشرته الليفية، أخفيه جيّداً في كهفٍ، يجب الغوص تحت المياه للدخول إليه. وقد اكتشفتُ هذا الكهف أثناء الغوص لاصطياد الكركند. والكركند يلتصق بسقف الكهف الذي يتلقّى الهواء فقط عندما يكون المدّ منخفضاً. وفي كيسٍ آخر مربوطٍ بكيس جوز الهند، وضعتُ حجرة كبيرة لا بدّ أنّها تزن من خمسة وثلاثين إلى أربعين كيلوغراماً.

وبما أنني سأغادر باستخدام كيسين بدل كيسٍ واحد، وبما أنّ وزني يبلغ سبعين كيلوغراماً، فالنسب معقولةٌ إذاً.

تحمّستُ للغاية لهذه التجربة. هذا الجانب من الجزيرة محرّم، ولا أحد يستطيع أبداً أن يتخيّل أنّ أحداً سوف يختار المكان الأكثر عرضةً للأمواج، وبالتالي الأكثر خطورة، للفرار من خلاله.

ومع ذلك، هذا هو المكان الوحيد الذي، إذا نجحتُ فيه بالانفكاك عن الشاطئ، سوف أُحمَل منه نحو عرض البحر وسوف أستطيع بأيّ شكلٍ من الأشكال أن أذهب وأقع على شاطئ جزيرة رويال.

من هنا وليس من أيّ مكان آخر يجب أن أنطلق.

كيس جوز الهند والحجرة أكثر ثقلاً وليس من السهل حملهما معاً. لم أستطع أن أرفعهما إلى الصخرة. وما زاد الأمر صعوبة هو أنّ الصخرة لزجة ومبلّلة باستمرار بماء الأمواج. سوف يأتي شانغ، الذي تحدّثتُ إليه، لكي يساعدني. جلب معه كلّ عدّة الصيد، من بينها الصنانير، وذلك إذا ما تمّت

مباغتتنا وضُبطنا، نستطيع الزعم بأننا كنا ذاهبين لوضع الصنانير كفخاخٍ لأسماك القرش.

- هيّا، يا شانغ، بقي القليل، وسيتمّ الأمر بنجاح.

كان البدر ينير المشهد كما لو أننا في عزّ النهار. أصمّ الصخب الناجم عن الأمواج أذنيّ. قال لي شانغ: «هل أنت جاهز، يا بابيون؟ أرسل إلى هذه». انقضت الموجة العالية بارتفاعٍ يقارب خمسة أمتار، منتصبةً، مسرعةً بجنون على الصخرة، وضربت الصخرة من تحتنا، ولكن الصدمة كانت عنيفة لدرجة أنّ حافّة الموجة مرّت من فوق الصخرة وبلّلتنا بالكامل. ولكن هذا لم يمنعنا من أن نُلقي بالكيس في اللحظة نفسها التي تشكّلت فيها دوّامتها قبل أن تنحسر. حملت الموجة الكيس مثل قشّةٍ فخاض في البحر.

- نجح الأمر، يا شانغ، هذا جيّد.

- انتظر لنرى إن كان الكيس لن يعود.

بالكاد مرّت خمس دقائق، حتى رأيتُ، مستاءً ومذهولاً، كيسي وهو يأتي، جاثماً على حرف موجةٍ كاسحة ترتفع لأكثر من سبعة أو ثمانية أمتار. رفعت الموجة كيس جوز الهند هذا والحجرة التي بداخله كما لو أنّه ريشةٌ. حملته على حرفها، قبل الزبد بقليل، وقذفته بقوّة لا مثيل لها إلى حيث انطلق منه، منحرفاً إلى اليسار بعض الشيء، وتحطّم على الصخرة المقابلة. انفتح الكيس، وتناثرت حبّات جوز الهند وتدحرجت الحجرة إلى قاع الهاوية.

أصاب البلل حتى عظامنا، لأنّ الموجة بلّلتنا بالكامل وكنّستنا فعلياً - ولحسن الحظ نحو البرّ - وأُصبنا بكدمات وبانسلاخ الجلد عن بعض الأماكن في جسمنا، فابتعدنا، شانغ وأنا، بأسرع ما يُمكن عن هذا المكان اللعين دون أن نُلقي نظرة أخرى على البحر.

قال لي شانغ:

- هذا ليس مستحسناً، يا بابيون، إنّ فكرة الهروب من جزيرة الشيطان ليست فكرة حسنة. من الأفضل أن نحاول من جزيرة رويال، فمن الجهة الجنوبية، يمكنك الانطلاق على نحوٍ أفضلٍ من هنا.

- نعم، ولكن الفرار من جزيرة رويال سوف يُكتَشَف خلال ساعتين في أقصى تقدير. ولأنّه لن يكون لكيس جوز الهند أيّ قوة دفع أخرى سوى الموج، سأكون معرّضاً لأن يُقبَض عليّ من جانب القوارب الثلاثة في الجزيرة، كمن يقع بين فكي كمّاشة. في حين أنّه في هذا المكان، أوّلاً، ليس هناك قارب؛ وثانياً، أنا متأكّد من أنّه سيكون أمامي كلّ الليل قبل انكشاف أمر الفرار؛ ومن ثَمّ، يمكن أن يظنّوا بأنني قد غرقتُ وأنا أصطاد السمك، ولا يشكّوا في أمر فراري. في جزيرة الشيطان، لا يوجد هاتف، وبالتالي إذا غادرتُ في ظروف سوء الأحوال الجوية، لن يكون هناك قارب قادرٌ على المجيء إلى جزيرة الشيطان. وبالتالي، عليّ أن أنطلق من هنا. ولكن السؤال هو: كيف؟

اعتلت شمسٌ حارقة في السماء. شمسٌ استوائية قويّة كما لو أنّها تغلي الأدمغة في الجماجم. شمسٌ تحرق كلّ نبتةٍ نمت ولكنها لم تكبر إلى درجة أن تكون قويّة بما فيه الكفاية لكي تستطيع مقاومة هذه الشمس. شمسٌ تُبخّر خلال ساعات كلّ بركة صغيرة وضحلة من ماء البحر، وتترك خلفها طبقة رقيقة بيضاء اللون من الملح. شمسٌ تجعل الهواء يرقص. نعم الهواء يتحرّك، يتحرّك بالمعنى الحرفي أمام عيني وانعكاس نوره على صفحة البحر يحرق حدقتي عينيّ. ومع ذلك، وأنا أجلس من جديد على مقعد دريفوس، لم يمنعني كلّ ذلك من دراسة أحوال البحر، وفي تلك اللحظة بالذات، اكتشفتُ أنني أحمقُ حقيقي.

الموجة الرئيسية العارمة، والتي هي أعلى بمرّتين من جميع الأمواج الأخرى، التي ردّت إليّ كيسي على الصخور، والتي حطمته بالمعنى الحرفي للكلمة، هذه الموجة تتكرّر فقط بعد سبع موجات عادية.

من منتصف الظهيرة وحتى غروب الشمس، ظللتُ أراقب لأتأكّد إن كان هذا التكرار يتمّ بطريقة تلقائية، وإذا لم تكن هناك تقلّبات في مزاجها، وبالتالي اضطراب في وتيرة وشكل هذه الموجة العملاقة.

تبيّن لي أنّ وتيرة الموجة منتظمة، فلم يحدث لمرّة واحدة أن جاءت

الموجة قبل أو بعد أوانها. تأتي ست أمواج بارتفاعٍ يبلغ حوالي ستة أمتار، ثمّ تتشكّل على بعد أكثر من ثلاثمائة مترٍ من الشاطئ، الموجة الرئيسية العارمة. تأتي مستقيمةً مثل حرف (أ). وكلّما تقترب أكثر، تزداد حجماً وارتفاعاً. يكاد يكون حرفها خالياً من الزبد، بخلاف الأمواج الست الأخرى، وهذه حالة نادرة جدّاً. ولها صخبٌ خاصّ، مثل دويّ رعدٍ يحدث وهو ينطفئ بعيداً. وحينما تتكسّر على الصخرتين وتندفع بسرعة في الممرّ بينهما، وترتطم بالجرف الصخري، تختنق بكتلة مائها الهائلة التي تزيد بكثير عن مياه الأمواج الأخرى، فتدور لمرّات عديدة في التجويف، وتحتاج إلى عشر أو خمس عشرة ثانية لكي تجد هذه الدوّامات، الشبيهة بالزوابع، المخرج وتنحسر مقتلعةً وجارفةً معها أحجاراً ضخمةً تتلاطم وتصطدم ببعضها محدثةً دويّاً كما لو أنّ المئات من شاحنات نقل الأحجار تُفرغ حمولتها بصورةٍ مفاجئة.

وضعتُ حوالي عشر حبّات من جوز الهند في الكيس نفسه، ومعها حجرةٌ تزن حوالي عشرين كيلوغراماً، وما إنْ تكسّرت الموجة ألقيتُ بالكيس فيها.

لم أستطع أن أتابعه بالنظر لأنّه كان هناك كمٌّ هائل من الزبد الأبيض في الهاوية، ولكنني حظيتُ بفرصة لكي ألمحه لثانية واحدة، حينما سارع الماء إلى البحر كما لو أنّ البحر يمتصّه. لم يعد الكيس. لم تكن الأمواج الست الأخرى بالقوّة الكافية لتعيد لفظه إلى الشاطئ، وحينما تشكّلت الموجة السابعة، على بعد ثلاثمئة مترٍ تقريباً، كان الكيس قد تجاوز النقطة التي تولّدت فيها الموجة، لأنني لم أعد أراه.

امتلأتُ فرحاً وأملاً، فسرتُ نحو المعسكر. لقد نجح الأمر، وقد وجدتُ طريقة لوضع الطوف في الماء بنجاح. لا مجال للمغامرة في هذه المحاولة. ومع ذلك سوف أجري تجربة أكثر جدّية، وفق المعطيات نفسها التي تخصّني: أي كيسان مليئان بجوز الهند، أربطهما بإحكام إلى بعضهما، وفوقهما حمولة من سبعين كيلوغراماً موزّعة على حجرتين أو ثلاث

حجارة. رويتُ ما جرى لصاحبي شانغ. وأصغى إليّ صاحبي شيتوك دي بولو كوندور بكلّ جوارحه. قال بلغة فرنسية ركيكة:

- هذا جيّد، يا بابيون. أعتقد أنّك قد وجدت السبيل، «أنا يُساعد أنت» في إجراء التجربة الحقيقية. في انتظار المدّ العالي بارتفاع ثمانية أمتار. وقريباً سيحلّ الاعتدال الخريفي حيث يتساوى الليل والنهار تماماً.

بمساعدة شانغ، وبالاستفادة من مدٍّ عالٍ لأكثر من ثمانية أمتار، ألقينا في الموجة الرئيسية الشهيرة كيسين مليئين بجوز الهند محمّلين بثلاث حجارة، والتي لا بدّ أنّها تزن قرابة ثمانين كيلوغراماً.

سألني شانغ بلغة فرنسية ركيكة:

- «كيف أنت يسمي» الفتاة الصغيرة التي أردت إنقاذها في سان جوزيف؟

- ليزيت.

- «نحن يسمي» الموجة التي «تحمل أنت» ذات يوم: ليزيت. اتّفقنا؟

- اتّفقنا.

وصلت الموجة ليزيت بالصخب نفسه الذي يثيره قطارٌ سريعٌ يهمّ بالدخول إلى محطّة. وقد تشكّلت على بعد أكثر من مئتين وخمسين متراً، ومنتصبة مثل جرفٍ، تقدّمت وهي تتعاظم حجماً في كلّ ثانية. وكانت بالفعل مؤثّرة ومثيرة للغاية. وقد تكسّرت بقوّة شديدة بحيث كنّستنا أنا وشانغ من على الصخرة، وسقط الكيس المحمّل من تلقائه في الهاوية. أمّا نحن، ولأننا أدركنا مباشرةً بأننا لن نتمكّن من الصمود على الصخرة عند الثانية العاشرة، ارتمينا إلى الخلف، الأمر الذي لم ينقذنا من فيضٍ من الماء، ولكن منعنا من السقوط في الهاوية. أجرينا هذه التجربة في الساعة العاشرة صباحاً. لم نكن نعرّض أنفسنا لأيّ خطرٍ، لأن الحرّاس الثلاثة كانوا مشغولين في الطرف الآخر من الجزيرة بعملية جرد عامّ. غادر الكيس، وقد لمحناه بعيداً جدّاً عن الشاطئ. تُرى هل سُحِبَ إلى مكانٍ أبعد من الذي تولّدت فيه الموجة؟ ليست لدينا معالم واضحة لكي نرى إن كان الكيس

أكثر بعداً أو قرباً من ذلك المكان. الأمواج الست التي تلت ليزيت لم تستطع أن تلتقطه في مسارها. تشكّلت ليزيت مرّة أخرى وانطلقت. وهي الأخرى لم تجلب معها الكيسين. إذاً لقد خرج الكيسان من منطقة تأثيرها.

صعدنا سريعاً إلى مقعد دريفوس لكي نحاول أن نراهما مرّة أخرى، وقد حالفنا الحظ وابتهجنا لرؤيتهما لأربع مرّات وهما بعيدين جدّاً ويرتفعان على حواف الأمواج التي لم تأتِ صوب جزيرة الشيطان، وإنّما ذهبت نحو الغرب. لقد نجحت التجربة وكانت إيجابية بما لا يدع مجالاً للجدل. سوف أنطلق نحو المغامرة الكبرى على متن ليزيت.

- إنّها هناك، انظر.

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة... وها هي ليزيت تأتي.

البحر دائماً هائج عند رأس مقعد دريفوس، ولكنّه اليوم على نحوٍ خاصّ، سيّئ المزاج. أقبلت ليزيت بصخبها المميّز. بدت لي أضخم حجماً من قبل، وهي تنقل، وخاصّة عند قاعدتها، كمية أكبر من المياه مما كانت تحمله عادةً. أقبلت هذه الكتلة المتوحّشة وانقضّت على الصخرتين بشكلٍ أسرع وأكثر مباشرةً من أيّ مرّة مضت. وحينما تكسّرت واندفعت مسرعةً في المساحة بين الصخرتين الضخمتين، كانت الضربة أكثر دويّاً، إذا جاز القول، من معظم الوقت.

- أهذا هو المكان، الذي تقول بأنّه علينا أن نرمي بأنفسنا منه؟ حسناً، يا صاحبي، لقد اخترت المكان الممتاز. ولكن ليس لي. صحيحٌ أنني أُريد أن أرحل في عملية فرار، ولكن لا أُريد أن أنتحر.

كان سيلفان منبهراً جدّاً بالعرض الذي قدمّته له للتوّ عن ليزيت. إنّه في جزيرة الشيطان منذ ثلاثة أيام، وبالطبع، اقترحتُ عليه أن نغادر معاً. كلٌّ منا على طوف. وبذلك، إذا ما وافق، سيكون لي رفيقٌ على البر الرئيسي لكي نقوم بمحاولة فرار أخرى. فالوحدة في الدَّغَل ليست مسلّية.

- لا تجزع مسبقاً. أنا أعترف بأنّه للوهلة الأولى، أيّ رجل سيتراجع. ومع ذلك، هذه هي الموجة الوحيدة القادرة على أن تسحبك بعيداً بما فيه

الكفاية حتى لا يحظى الآخرون الذين سيأتون بعدك بالقوّة الكافية لإعادتك إلى الصخور.

قال شانغ بلغة فرنسية ركيكة:

- اهدأ، وانظر، لقد جرّبنا. هذا مؤكّد، «أبداً أنت»، ما إنْ تنطلق، «لا يستطيع» العودة إلى جزيرة الشيطان، ولا الوصول إلى جزيرة رويال.

احتجتُ إلى أسبوعٍ كاملٍ لكي أُقنع سيلفان. رجلٌ مبنيّ من العضلات، وطوله متر وثمانون سنتيمتراً، متناسبٌ تماماً مع كلّ جسمه الرياضي.

- حسناً. أنا أقرّ بأننا سننسحب بعيداً بما فيه الكفاية. وبعد ذلك، كم من الوقت تعتقد يلزمنا لكي نصل إلى البرّ الرئيسي، مدفوعين بالمدّ البحري؟

- بصراحة، يا سيلفان، لا أدري. يمكن لبقائنا في البحر أن يكون أكثر أو أقلّ طولاً، فذلك يتعلّق بالطقس. إذا ما خمدت الريح علينا، سنبقى عالقين في البحر لوقتٍ طويل. ولكن إذا كان هناك طقسٌ عاصف، ستكون الأمواج أقوى وسوف تدفعنا بسرعةٍ أكبر حتى نصل إلى الدَّغَل. في غضون سبع أو ثماني أو عشر حالات مدّ بحري، لا بدّ أن يُلقى بنا على الشاطئ. وبالتالي، مع الفارق في التوقيت، سوف يستغرق ذلك من ثماني وأربعين إلى ستين ساعة.

- كيف تحسب؟

- من الجُزر مباشرةً إلى الشاطئ، ليس هناك أكثر من أربعين كيلومتراً. ومع الانحراف، يشكّل المسار وتراً في مثلّث قائم. انظر إلى اتجاه الأمواج. علينا أن نقطع تقريباً من مئة وعشرين إلى مئة وخمسين كيلومتراً كحدّ أقصى. وكلّما اقتربنا من الشاطئ أكثر، كلّما وجّهتنا الأمواج على نحوٍ مباشر أكثر ورمتنا على الشاطئ. للوهلة الأولى، ألا تظنّ أنّ حطام سفينة على هذه المسافة من الشاطئ لا تقطع خمسة كيلومترات في الساعة؟

نظر إليّ وأصغى بانتباهٍ شديد إلى شروحاتي. هذا الصبي طويل القامة ذكيّ جدّاً.

- كلا، ما تقوله ليس ترّهات، وأنا أقرّ لك بذلك، وإذا لم تكن هناك

حالات جزر والتي ستضيّع وقتنا، لأنّها هي التي ستسحبنا إلى عرض البحر، سوف نكون بالتأكيد على الشاطئ في غضون أقلّ من ثلاثين ساعة. بسبب حالات الجزر، أعتقد أنّك على حق: بين ثماني وأربعين وستين ساعة، سوف نصل إلى الشاطئ.

- هل اقتنعتَ، هل سترحل معي؟

- تقريباً. لنفترض أننا وصلنا إلى البرّ الرئيسي في الدَّغَل، ماذا سنفعل؟

- يجب الاقتراب من ضواحي كورو. هناك، ثمّة قرية كبيرة للصيادين، سكانها عبارة عن باحثين عن صمغ أشجار البَلاطة والذهب. يجب الاقتراب بحذر لأنّه هناك أيضاً معسكرٌ للمحكومين بالأشغال الشاقّة وسط الغابة. وهناك بالتأكيد بعض المسالك في الدَّغَل للذهاب نحو كايين ونحو معسكرٍ صيني يُدعى إينيني. وسيكون علينا أن نحتجز محكوماً أو مدنياً زنجياً ونُرغمه على أن يرافقنا إلى معسكر إينيني. وإذا كان رجلاً يتصرّف بطريقة حسنة، سوف نعطيه خمسمئة فرنكٍ – ولينصرف بعد ذلك. وإن كان محكوماً، سوف نُرغمه على أن يهرب معنا.

- ماذا سنفعل في معسكر إينيني، هذا المعسكر الخاصّ بأبناء الهند – الصينية؟

- يوجد في ذلك المعسكر شقيق شانغ.

- نعم هناك أخي. وهو سيغادر معكما في رحلة فرار، وهو سيجد بالتأكيد قارباً وأطعمة. وعندما تلتقون كويك – كويك، سوف تحصلون على كلّ ما هو مطلوب من أجل عملية الفرار. ليس هناك أبداً صينيّ واحدٌ يعمل مخبراً. ولذلك أيّ آناميّ[1] تجدونه في الدَّغَل، تتحدّثون معه وهو سيُخبِر كويك – كويك.

سأل سيلفان:

1- نسبة إلى محمية آنام الفرنسية، في منطقة شرق الهند الصينية، والتي كانت دولة مستقلة في وسط فيتنام إلى أن أصبحت محمية فرنسية في الثمانينيّات من القرن التاسع عشر – المترجم.

- لماذا يُدعى أخوك كويك - كويك؟
- لا أدري، الفرنسيون هم منْ سمّوه كويك - كويك.
ثمّ أضاف:
- ولكن احذرا. حينما توشكان على الوصول إلى البرّ الرئيسي، سوف تجدون منطقة هي عبارة عن مستنقع طمي، لا تمشيا فيها أبداً، فهي أرض غير مناسبة، سوف تمتصّكما وتغوران فيها. بل انتظرا مدّاً آخر يدفعكما حتى الدَّغَل لكي تستطيعا أن تتمسكّا بالعرائش وأغصان الأشجار، وإلّا، ستُهلكان.
قلتُ:
- آه! نعم، يا سيلفان. لا تمشِ أبداً فوق الطمي، حتى ولو كان قريباً، وقريباً جدّاً من الشاطئ. يجب الانتظار إلى حين أن تستطيع الإمساك بالأغصان والعرائش.
- لا بأس، يا بابيون. لقد قررت.
- إذا تمّ تحضير الطوفين بشكلٍ متماثل، وبما أنّه لنا الوزن نفسه، بالتأكيد لن نبتعد عن بعضنا لمسافة طويلة. ولكن لا نعرف أبداً، ففي حال أضاع أحدنا الآخر، كيف سنجد بعضنا؟ من هنا، لا نرى كورو. ولكنّك لاحظتَ، حينما كنتَ في جزيرة رويال، أنّ على يمين كورو، تقريباً على بعد عشرين كيلومتراً، هناك صخورٌ بيضاء نراها بوضوح حينما تشرق عليها الشمس.
- نعم.
- إنّها الصخور الوحيدة على كلّ الشاطئ. على اليمين وعلى اليسار، إلى ما لا نهاية، هناك مستنقع الطمي. هذه الصخور بيضاء اللون بسبب ذرق الطيور. هناك الآلاف من الطيور، ولأنّ لا أحد يذهب أبداً إلى هناك، سيكون المكان ملاذاً مناسباً لنا لالتقاط أنفاسنا قبل أن نغوص في الدَّغَل. سوف نأكل بيضاً ونواة جوز الهند الذي سنحمله معنا. لن نوقِدَ ناراً. وأوّل منْ يصل بيننا، سوف ينتظر الآخر.
- كم يوماً؟

- خمسة أيام. من المستحيل ألّا يكون الآخر في الموعد المحدّد في أقلّ من خمسة أيام.

تمّ تجهيز الطوفين. تمّ استخدام كيسين بدل كيسٍ واحد لكي يكونا أكثر مقاومةً. طلبتُ عشرة أيام من سيلفان لكي أستطيع أن أتدرّب لأكبر عدد ممكن من الساعات على امتطاء كيسٍ. وهو فعل الأمر ذاته. في كلّ مرّة، كنا ندرك أنّه عندما يوشك الكيسان على أن يدورا، يتطلّب هذا جهوداً إضافية لكي نحافظ على أنفسنا على متنها. وفي كلّ مرّة نستطيع فعل ذلك، سنستلقي فوقها. ولكن علينا ألّا ننام فوقها، لأنّه قد نخسر الكيس حينما نسقط في المياه ولا نستطيع التقاطه. أعدّ لي شانغ كيساً صغيراً لا ينفذ إليه الماء والذي سأعلّقه في عنقي، لأضع فيه بعض السجائر وولّاعة. سوف نقطّع عشر حبات من جوز الهند لكلّ منّا، لنحملها معنا. وسوف يُتيح لنا لبّها أن نسدّ بها الجوع وكذلك إرواء الظمأ. يبدو أنّ لدى سانتوري نوعاً من قربة جلدية لوضع النبيذ فيها. ولكنه لا يستخدمها. وسيحاول شانغ، الذي يذهب في بعض المرات إلى بيت الحارس، أن يسلبها.

سيكون ذلك في الساعة العاشرة من مساء يوم الأحد. إذ من المفترض أن يكون المدّ العالي بارتفاع ثمانية أمتار، أثناء اكتمال البدر. سوف يقوم شانغ بمفرده بإطعام الخنازير صباح يوم الأحد. وأنا سوف أنام طيلة نهار السبت وكلّ يوم الأحد.

سيكون الانطلاق في الساعة العاشرة مساءً، حيث سيكون المدّ المنخفض قد بدأ منذ ساعتين.

من المستحيل أن ينفصل كيساي عن بعضهما بعضاً، فقد ربطتُهما ببعضهما بحبال من القنّب المجدول، وبأسلاكٍ من النحاس، وخيّطتهما ببعضهما بخيوط ثخينة خاصّة بالأشرعة. لقد وجدنا أكياساً أكبر من الأخرى، وفتحة كلّ منها تتراكب مع الآخر. وسوف لن تفلت حبّات جوز الهند منها كذلك.

لم يتوقّف سيلفان عن ممارسة التمارين الرياضية، في حين كنتُ أقومُ

بتدليك فخذي وتقوية عضلاتهما من خلال الأمواج الصغيرة التي أتركها تأتي وتضربهما خلال ساعات طويلة. هذه الضربات المتكرّرة من الماء على فخذيّ وعمليات الشدّ التي أضطرُ للقيام بها عند قدوم أيّ موجة لكي أقاومها، منحت عضلات فولاذية لفخذيّ وساقيّ.

في بئرٍ مهجورٍ في الجزيرة، هناك سلسلة معدنية يبلغ طولها قرابة ثلاثة أمتارٍ، قمتُ بتشبيكها مع الحبال التي تربط كيسيّ. وكان لدي لولب يمرّ من الحلقات، وبالتالي، في حال خارت قواي ولم أعد أحتمل، سوف أربط نفسي بالكيسين باستخدام هذه السلسلة، فأستطيع ربّما أن أنام دون أن أعرّض نفسي لخطر السقوط في الماء وفقدان طوفي. وإذا ما دار الطوف، سوف يوقظني الماء، فأعيده إلى الوضعية الصحيحة.

كنّا جالسين على مقعد دريفوس ونحن ننظر إلى الموجة ليزيت. قال لي سيلفان:

- إذاً، يا بابيون. لم يبق أمامنا سوى ثلاثة أيام.

- نعم يا سيلفان، لم يعد أمامنا سوى ثلاثة أيام. أنا لدي الإيمان بأننا سوف ننجح. وأنت؟

- هذا مؤكّد، يا بابيون. يوم الثلاثاء ليلاً، أو الأربعاء صباحاً، سوف نكون في الدَّغَل. وحينئذٍ، سنكون جميعاً جاهزين!

سيقوم شانغ بقطع عشر حبّات جوز الهند لكلِّ واحدٍ منّا. وبالإضافة إلى السكاكين، أخذنا معنا ساطورين مسروقين من مستودع العدّة.

يقع معسكر إينيني إلى الشرق من كورو. فقط من خلال السير بعكس اتجاه الشمس في الصباح، سنكون متأكدين من أننا نسلك الاتجاه الصحيح.

قال شانغ:

- يوم الإثنين صباحاً، سيجنّ جنون سانتوري. وأنا لن أقول إنّكما، أنت وبابيون، قد اختفيتما قبل يوم الإثنين في الساعة الثالثة من بعد الظهيرة، حينما يقوم الحارس من قيلولته.

- ولماذا لا تصل جرياً وتقول بأنّ موجةً قد جرفتنا أثناء الصيد؟

قال شانغ بلغة ركيكة:

- كلا، أنا «لا تعقيدات». «أنا يقول»: «سيّدي، بابيون وستيفان لم يأتيا للعمل اليوم. أنا لوحدي قدمتُ العلف للخنازير». لا أكثر ولا أقلّ.

الفرار من جزيرة الشيطان

يوم الأحد، الساعة السابعة مساءً. استيقظتُ من النوم، بعد أن كنتُ قد نمتُ طواعيةً منذ صباح يوم السبت. لا يظهر القمر إلّا في الساعة التاسعة، وبالتالي يكون الظلام في الخارج دامساً. في السماء القليل من النجوم، وسحبٌ ضخمة محمّلة بالمطر تمرّ جرياً فوق رؤوسنا. خرجنا من البرّاكة، ولأننا كنّا نخرج غالباً في السرّ إلى الصيد في الليل أو حتى نتنزّه في الجزيرة، وجد جميع الآخرين خروجنا شيئاً طبيعياً.

وصل فتى صغير مع عشيقه، وهو عربيٌّ كثّ الشعر. لقد جاءا بكلّ تأكيد لممارسة الجنس في زاوية ما من المكان. وحينما نظرتُ إليهما وهما يرفعان اللوح الخشبي للدخول إلى القاعة، اعتقدتُ أنّ ذروة النشوة بالنسبة إلى العربي هي أن يستطيع مضاجعة صديقه مرّتين أو ثلاث مرّات في اليوم. وإنّ إشباع رغباته الجنسية يحوّل سجن الأشغال الشاقة إلى فردوسٍ بالنسبة إليه. والأمر ذاته بالنسبة إلى شريكه الذي يُقدّر عمره بثلاثة وعشرين إلى خمسة وعشرين عاماً، وجسمه لم يعد مثل جسم فتى رقيق. وكان عبثاً يُحاول ألّا يعيش إلّا في الظل ليحافظ على بشرته بيضاء كالحليب. لقد بدأ جماله يخبو ولم يعد مثل أدونيس. ولكن في سجن الأشغال الشاقّة، لديه من العشاق أكثر ما يحلم به من عشّاق وهو طليق. وبالإضافة إلى عاشقه الحميم، العربي، كان لديه زبائن لقاء خمسة وعشرين فرنكاً لكلّ مضاجعة، تماماً مثل عاهرة في جادة روشيشوارت في مونتمارتر. وعلاوة على المتعة التي ينالها من زبائنه، يسحب منهم ما يكفي من المال لكي يعيش هو و«رَجُله» بيسرٍ. فهما وزبائنه، والذين ينغمسون طوعاً في الرذيلة، منذ اليوم الذي وضعوا فيه قدمهم في سجن الأشغال الشاقّة، ليس في ذهنهم شيءٌ آخر سوى الجنس.

لقد خرج المدّعي العام الذي حكم عليهما خاسراً في مسعاه إلى معاقبتهما من خلال إرسالهما إلى طريق العفن، لأنّهما وجدا السعادة وسط هذا العفن بالذات.

أُغلِق اللوح الخشبي على مؤخّرة اللوطي الصغير، فبقينا لوحدنا، شانغ وسيلفان وأنا.

قلتُ:

- هيّا بنا.

وسريعاً وصلنا إلى شمال الجزيرة.

أخرجنا الطوفين من الكهف، وقد أصابنا البلل جميعاً من جرّاء ذلك. دوّى الصفير المتميّز لرياح عرض البحر الهائج. ساعدني سيلفان وشانغ في دفع طوفي إلى أعلى الصخرة. وفي اللحظة الأخيرة، قررتُ أن أربط معصمي الأيسر بحبل الكيس. فقد خفتُ فجأةً أن أفقد كيسي، وأن يجرفني البحر من دونه. صعد سيلفان إلى الصخرة المقابلة بمساعد شانغ. كان القمر قد طلع، ورأيناه بوضوح تامّ.

لففتُ منشفةً حول رأسي. كان علينا أن ننتظر ست أمواج، أي أكثر من ثلاثين دقيقة.

جاء شانغ ووقف بالقرب مني، فعانقني ومن ثَمّ قبّلني. تمدّد على الصخرة وغاص في أحد شقوقها، لكي يمسك بساقيّ في سبيل مساعدتي على تحمّل صدمة تكسّر الموجة ليزيت.

صرخ سيلفان:

- لم تبقَ سوى موجة واحدة، والأخرى هي المناسبة!

كان أمام طوفه لكي يغطّيه بجسده ويحميه من فيض الماء الذي سيمرّ فوقه. اتّخذتُ الوضعية نفسها، ولكن بالإضافة إلى ذلك، ولكي أتثبّت جيّداً، كانت هناك يدا شانغ اللتين، في لجّة توتّره، انغرست أظافرهما في ربلتي ساقيّ.

لقد وصلت. وصلت الموجة ليزيت التي جاءت لتأخذنا. وصلت

مستقيمةً مثل برج كنيسةٍ. مع صخبها المعتاد الصاعق، تحطّمت على صخرتينا واندفعت نحو الجرف الصخري.

ألقيتُ بنفسي في جزءٍ من الثانية قبل صديقي الذي وصل مباشرةً بعدي، فالتصق طوفانا ببعضهما وامتصتنا الموجة ليزيت نحو عرض البحر بسرعة مذهلة. وفي غضون أقلّ من خمس دقائق، كنا على بعد أكثر من ثلاثمائة مترٍ من الشاطئ. لم يكن سيلفان قد صعد بعد على طوفه. أمّا أنا، فكنتُ فوق طوفي منذ الدقيقة الثانية. كان شانغ جاثماً على مقعد دريفوس الذي لا بدّ أنّه قد سارع إلى تسلّقه، ويُمسك بيده قطعة قماشٍ أبيض اللون ويلوّح بها وهو يودّعنا الوداع الأخير. ها قد مرّت خمس دقائق على خروجنا من المكان الخطر الذي تتشكّل فيه الأمواج لكي تنقضّ مباشرةً على جزيرة الشيطان. أمّا الأمواج التي حملتنا، فهي أطول بكثير، وتكاد تكون بلا زبد، ومنتظمة جدّاً بحيث ننطلق بانحرافٍ، ملتصقين بها، دون هزّات أو صدمات ودون أن يكون هناك خطر أن يعود الطوف.

نصعد ونهبط هذه الأمواج السحيقة والعالية، محمولين غالباً نحو عرض البحر، لأنّ البحر يكون في حالة مدٍّ منخفض.

ومن خلال الصعود إلى حافة إحدى هذه الأمواج، استطعتُ مرّة أخرى، من خلال استدارة الرأس تماماً، أن أرى المنديل الأبيض في يد شانغ.

لم يكن سيلفان بعيداً عنّي كثيراً، على مسافة تقارب خمسين متراً نحو عرض البحر. لمرّاتٍ عديدة، رفع ذراعه ولوّح بها في إشارةٍ على الفرح والانتصار.

لم يكن الظلام داكناً وشعرنا بقوّة بتغيّر جاذبية البحر. سحبَنا المدّ الذي انطلقنا معه نحو عرض البحر، أمّا هذا المدّ فيدفعنا الآن نحو البرّ الرئيسي.

بزغت الشمس وارتفعت في الأفق. إذاً، لقد بلغت الساعة العاشرة. كنّا قريبين جدّاً من سطح الماء وبالتالي لم يكن بوسعنا رؤية الشاطئ، ولكنني أدركتُ أننا بعيدان جدّاً عن الجزر، لأننا كنّا نلمحها بصعوبة ودون القدرة على أن نميّز بأنّها ثلاث جزر (على الرغم من أنّ الشمس تنيرها من الأعلى).

رأيتُ كتلة فقط، وهذا كلّ شيء. ولأنني لم أستطع أن أميّز تفاصيلها، خمّنتُ أنّها بعيدة عنّا على الأقل لمسافة ثلاثين كيلومتراً.

ابتسمتُ فرحاً بالانتصار، بالنجاح.

وماذا لو جلستُ على طوفي؟ سوف تدفعني الريح أكثر من خلال ضربها على ظهري.

هنا، جلستُ وحللتُ السلسلة ولففتها حول حزامي. جعل اللولب المشحّم جيّداً شدّ الصامولة سهلاً. رفعتُ يديّ في الهواء لكي تجففهما الريح، لأنني قرّرت أن أدخّن سيجارةً. لقد تمّ الأمر بنجاح. تنفّستُ طويلاً وعميقاً أولى النفثات وزفرتُ الدخان بهدوء وبطء. لم أعد أخاف، لأنّه من العبث أن أصف لكم شدّة الآلام التي نهشت بطني قبل وأثناء اللحظات الأولى للعملية. كلا، لم أعد أخاف، إلى درجة أنني، بعد أن انتهيتُ من تدخين سيجارتي، قرّرتُ أن آكل بعض اللقم من لبّ جوز الهند. التهمتُ قبضة كبيرة منه، ثمّ دخّنتُ سيجارةً ثانية. كان سيلفان بعيداً عنّي لمسافة طويلة. ومن وقتٍ إلى آخر، حينما يتصادف وجودنا في لحظة محدّدة على حرف موجةٍ، استطعنا أن نرى بعضنا خلسةً. ضربت الشمس بقوّة شيطانية جمجمتي التي بدأت تغلي. بللتُ منشفتي ولففتُها على رأسي. نزعتُ معطفي الصوفي، فعلى الرغم من هبوب الريح، كنتُ أكاد أختنق بها.

يا إلهي! بات طوفي يدور وكدتُ أن أغرق. شربتُ جرعتين كبيرتين من ماء البحر. لم أستطع، على الرغم من الجهود التي بذلتها، أن أقلب طوفي وأصعد فوقه. كان الخطأ يكمن في السلسلة المعدنية، إذ كانت تحدّ من حرّيتي في الحركة. وأخيراً، استطعت أن أسبح واقفاً بجانب طوفي وأتنفّس بعمق، بعد أن أزحتُ السلسلة تماماً من جانبٍ واحد، ومن ثَمّ حاولتُ أن أتحرّر منها تماماً، فأصبحت أصابعي تسعى دون جدوى إلى فكّ الصامولة. كنتُ غاضباً، وربّما متوتّراً جدّاً، ولذلك لم تكن لدي القوة الكافية في أصابعي من أجل فتحها.

أوف! وأخيراً نجح الأمر! لقد أمضيتُ وقتاً عصيباً. فقد ذُعرتُ بالمعنى

الحرفي للكلمة لاعتقادي بأنّه من المستحيل أن أتحرّر من السلسلة الحديدية التي كبّلتني.

لم أتحمّل عناء قلب طوفي، فقد كنتُ منهكاً وأحسستُ أنّ قواي تخونني. صعدتُ إليه، وقلتُ في نفسي فلأجلس على سافله الذي تحوّل إلى عاليه، فما الفرق؟ لن أربط نفسي مرّة أخرى على الإطلاق، لا بالسلسلة ولا بأيّ شيءٍ آخر. لقد سبق لي ورأيتُ الحماقة التي ارتكبتها في البدء، حينما ربطتُ معصمي. كان ذلك كافياً لي كتجربة. أحرقت الشمس بلا رحمة ذراعيّ وساقيّ، واشتعل وجهي. وحينما بلّلته ازداد سوءاً، لأنّه حسب اعتقادي كان الماء يتبخّر مباشرةً وهذا يُزيد من حرق وجهي.

انخفضت شدّة الريح كثيراً، وإذا كانت الرحلة أكثر راحةً، لأن الأمواج الآن أقلّ ارتفاعاً، فأنا أتقدّم بسرعة أقلّ. وبالتالي من الأفضل بكثير أن تكون الرياح أشدّ وأن يكون البحر هائجاً لا هادئاً.

عانيتُ من تشنّجات شديدة جدّاً في عضلات ساقي اليمنى إلى درجة أنني صرختُ كما لو أنّ أحداً يستطيع أن يسمعني. ورسمتُ بإصبعي صلباناً على العضلة المتشنّجة، متذكّراً أنّ جدّتي كانت تقول لي أنّ ذلك يؤدي إلى إزالة التشنّج. ولكن دواء السيّدة الطيّبة فشل فشلاً ذريعاً. مالت الشمس كثيراً نحو الغرب. وقاربت الساعة الرابعة من بعد الظهيرة، وهذه رابع حالة مدّ منذ انطلاقنا. بدا أنّ هذا المدّ العالي يدفعني بشكلٍ أقوى نحو الشاطئ.

الآن، أرى دون انقطاع سيلفان وهو أيضاً يراني جيّداً. كان نادراً ما يختفي عن أنظاري لأنّ الأمواج لم تكن عميقة. رأيته قد تخلّى عن قميصه وأصبح عاري الصدر. لوّح لي سيلفان بحركاتٍ من يده. كان على بعد أكثر من ثلاثمئة مترٍ منّي، ولكنّه متقدّمٌ في عرض البحر أكثر منّي. بدا أنّه يجدّف بيديه، نظراً إلى الزبد الخفيف الذي رأيته من حوله، كما لو أنّه يحاول كبح الطوف لكي أقترب منه. انبطحتُ على طوفي وغمستُ ذراعيّ في الماء، وبدأتُ أجدف. إذا ما كبح طوفه وأنا أدفع قدماً بطوفي، هل يمكن أن نقصّر المسافة بيننا؟

لقد أحسنتُ اختيار شريكي في عملية الفرار هذه، فهو على مستوى المسؤولية مئة بالمئة.

توقّفتُ عن التجديف بيديّ، لأنني شعرتُ بالتعب، وأردتُ أن أحتفظ بقواي. وقـرّرتُ أن أتناول بعض الطعام وأحاول قلب الطوف. كانت صرّة الطعام في الأسفل وكذلك القربة الجلدية للماء العذب. كنتُ أشعر بالعطش والجوع، وكانت شفتاي قد تشقّقتا وتحرقاني. كانت أفضل طريقة لقلب الطوف هي أن أتعلّق به، في مواجهة الموجة، ومن ثَمّ أدفعه بقدمي في اللحظة التي يرتفع فيها إلى أعلى الموجة.

بعد خمس محاولات، حالفني الحظّ في أن أقلب طوفي دفعةً واحدة. أنهكتني هذه الجهود التي بذلتها، فصعدتُ بصعوبة على طوفي.

مالت الشمس في الأفق وشارفت على المغيب، وهذا يعني أنّ الساعة تقارب السادسة. تمنّيتُ ألّا يكون الليل عاصفاً، لأنني أُدرك أنّ حالات غمر الطوف بالماء للحظات طويلة هي التي تهدّ قواي.

شربتُ جرعة كبيرة من الماء من قربة سانتوري الجلدية، بعد أن التهمتُ حفنتين من لب جوز الهند. بعد أن شبعت، وبعد أن جفّت يداي في الهواء، سحبتُ سيجارةً وبدأت أدخّن بتلذّذ. قبل أن يهبط الليل، لوّح سيلفان بمنشفته، وأنا لوّحتُ بمنشفتي، في إشارةٍ إلى أنّنا نتمنّى ليلة سعيدة لبعضنا. كان لا يزال بعيداً عني. جلستُ على الطوف ممدّداً ساقيّ. عصرتُ معطفي الصوفي قدر استطاعتي وارتديته. فهذه المعاطف الصوفية حتى وهي مبلّلة تحتفظ بالحرارة، وحينما غابت الشمس، شعرتُ فجأةً بالبرد.

أصبحت الرياح باردة، ووحدها السحب في الغرب كانت سابحة في الضوء الوردي في الأفق. وكلّ ما تبقّى يغرق الآن في الظلام الذي يدلهمّ دقيقة بعد أخرى. في الشرق، حيث تأتي الرياح، لم تكن هناك سحب، وبالتالي لم يكن هناك خطر هطول المطر في الوقت الراهن.

لم أفكّر على الإطلاق بأيّ شيء سوى بأن أصمد، وألّا أعرّض نفسي عبثاً للبلل وأن أسأل نفسي، إذا ما تعبت، هل سيكون من الحكمة أن أربط نفسي إلى

الطوف، أم أنّ في ذلك خطراً كبيراً بعد التجربة التي مررتُ بها. ثمّ لاحظتُ أنني غير مرتاحٍ في حركاتي لأنّ السلسلة قصيرة جدّاً، إذ كان أحد طرفيها ضائعاً من دون جدوى، متشابكاً مع الحبال والأسلاك المعدنية للكيس. كان من السهولة بمكان العثور على هذا الطرف، وبعدها ستكون حركاتي أكثر طلاقةً.

رتّبت السلسلة وربطتها من جديد إلى حزامي، ولأن الصامولة مليئة بالشحم فقد عملت بلا صعوبة. عليّ ألّا أشدّها كثيراً مثل المرّة الأولى. وبهذا شعرتُ أنني أكثر هدوءاً، لأنني كنتُ أخاف خوفاً شديداً من أن أنام وأفقد كيسي.

نعم، لقد اشتدّت الرياح ومعها الأمواج، فصارت المزلجة تسير على نحوٍ مذهل مع مستويات متفاوتة من السرعة، تشتدّ تدريجياً.

حلّ الظلام تماماً، وترصّعت السماء بملايين النجوم وشعّ نجم القطب الجنوبي أكثر من جميع النجوم الأخرى.

لم أعد أرى صديقي. وهذه الليلة التي بدأت مهمّة جدّاً، لأنّه إذا شاء الحظّ أن تهبّ الرياح طيلة الليل بالقوّة نفسها، سوف أواصل السير في دربي حتى صباح الغد!

وكلّما تقدّم الليل، كلّما هبّت الرياح أقوى. خرج القمر ببطء من البحر، وكان لونه أحمرَ مائلاً إلى البنّي وحينما ظهر أخيراً، وقد تحرّر كاملاً وضخماً، رأيتُ بوضوح تلك البقع السوداء التي جعلته يشبه وجهاً.

إذاً، لقد تجاوزت الساعة العاشرة مساءً. خفّ ظلام الليل تدريجياً، وكلّما ارتفع القمر أكثر في السماء كلّما غدا ضوؤه أكثر كثافةً. تحوّل لون الأمواج إلى الرمادي كمعدن البلاتين وأحرقت الانعكاسات الغريبة لضوء القمر عينيّ. لم يكن ممكناً عدم النظر إلى تلك الانعكاسات الملوّنة بلون الفضّة، ولكنّها بالفعل تجرح وتحرق عيني اللتين كانتا بالأساس متهيّجتين من شمس النهار وماء البحر المالح.

حاولتُ عبثاً أن أُقنع نفسي بأنني أُبالغ في الأمر، وأنني لا أمتلك إرادة المقاومة، ودخّنتُ ثلاث سجائر على التوالي.

لم يكن هناك أيّ شيء غير طبيعي بالنسبة إلى الطوف الذي يصعد وينزل على بحرٍ متموّج بقوّة. لم أستطع أن أُبقي ساقيّ ممدّدتين على الطوف لوقتٍ طويل، لأنّ وضعية الجلوس تسبّب لي سريعاً تشنّجات مؤلمة على نحوٍ رهيب.

كنتُ بالطبع مبلّلاً على الدوام بالماء حتى منطقة الحوض، بينما يبقى صدري ناشفاً تقريباً، لأنّ الرياح جفّفت المعطف، ولم تبلّلني أيّ موجة بعد ذلك لأكثر من منطقة حزامي. اشتدت الحرقة في عينيّ على نحوٍ متزايد، فأغمضتهما. وأصبحتُ أغفو من حينٍ لآخر، وأقول في نفسي: «يجب عليك ألّا تنام». من السهل أن أقول هذا الكلام، ولكنّ تنفيذه في الواقع صعبٌ ولم أعد أستطيع التحمّل. اللعنة إذاً! أنا أكافح ضدّ هذا الخبو والسُبات. وكلّما أستعيد إحساسي بالواقع، أشعر بألمٍ شديد في دماغي. أُخرجتُ ولّاعتي ذات الفتيل من وقتٍ إلى آخر، أحرقُ بها نقطة من جسمي، وذلك بوضع فتيلها المشتعل على ساعدي الأيمن أو على رقبتي، لكي أقاوم النوم وأبقى يقظاً.

استبدّ بي قلقٌ رهيب، حاولتُ أن أتخلّص منه بكل ما أوتيتُ من إرادة. هل سأنام؟ وإذا ما سقطتُ في الماء، هل ستوقظني برودة الماء؟ لقد أحسنتُ صنعاً في ربط نفسي بالسلسلة.

لا يمكنني أن أفقد هذين الكيسين، لأنّهما حياتي. سوف يكون عملاً من أعمال الشيطان إذا لم أستيقظ وأنا أتدحرج إلى الماء.

منذ بضع دقائق، ابتلّ جسمي بالكامل من جديد، فقد جاءت موجةٌ متمرّدة لم تشأ بكلّ تأكيد أن تسير في الدرب المنتظم للأمواج الأخرى وصدمتني من الجانب الأيمن. لم تبلّلني هي بنفسها فقط وإنّما رمت بي عرضاً في طريق موجتين أخريين طبيعيتين واللتين بدورهما غمرتاني من قمّة رأسي وحتى أخمص قدميّ بالماء.

شارفنا على الهزيع الأخير من الليلة الثانية. تُرى كم الساعة الآن؟ حسب وضعية القمر الذي بات يميل منحدراً نحو الغرب، من المفترض

أن تكون الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً. ها قد مرتّ على وجودنا في عرض البحر خمس حالات مدّ وثلاث ساعات. إن إصابتي بالبلل حتى عظامي أفادتني في شيءٍ واحد: لقد أيقظني البرد تماماً وأطار النوم من عيني. كنتُ أرتعش من البرد ولكنني أبقيتُ عينيّ مفتوحتين على وسعهما. كانت ساقاي مخدّرتين وقرّرتُ أن أضعهما تحت وركيّ. ومن خلال رفعهما بيديّ، كلٌ منهما بدوره، استطعتُ أن أجلس فوقهما. وكانت أصابع قدمي متجمّدة من البرد، تُرى هل ستتدفأ تحتي؟

جالساً القرفصاء، بقيتُ لوقتٍ طويل في وضعيتي تلك. وقد أفادني تغيير وضعيتي وأراحني. حاولتُ أن أرى سيلفان لأنّ القمر أنار البحر بشدّة، فقد مال إلى الأسفل ولأنني كنتُ في مواجهته، كان يُضايقني وأنا أحاول أن أدقّق النظر لكي أرى سيلفان، ولكنني لم أرَ شيئاً. لم يكن لدى سيلفان أيّ شيء لكي يتعلّق بالطوف، من يدري إن كان لا يزال فوق الطوف؟ حاولتُ يائساً، وعبثاً أن أتبيّنه. كانت الريح قويّة، ولكنّها منتظمة، ولم تكن فيها مطبّات، وهذا أمرٌ في غاية الأهمية. لقد اعتدتُ على إيقاعه وقد توحّد جسمي تماماً مع طوفي.

ولكثرة ما فتّشتُ حولي، وصلتُ إلى نقطة لم يعد في ذهني سوى فكرة راسخة: أن أرى صديقي. نشّفتُ أصابعي في الريح، ومن ثَمّ وضعتها في فمي وصفّرتُ بكلّ ما أوتيتُ من قوّة. ثم أصختُ السمع علّني أتلقى جواباً، ولكن لم يحصل ذلك. تُرى هل يُجيد سيلفان التصفير باستخدام أصابعه؟ لا أدري. ربّما كان عليّ أن أسأله قبل الانطلاق. بل كنّا نستطيع أن نصنع بسهولة صفّارتين! عاتبتُ نفسي على عدم التفكير في ذلك. ثمّ وضعتُ يديّ أمام فمي وصرخت: «هو-هو!»، ولكن لم يردّ عليّ سوى صخب الريح ووشوشة الأمواج.

وحينئذٍ، وبعد أن عيل صبري، نهضتُ واقفاً على طوفي ورفعتُ سلسلتي باليد اليسرى، واحتفظتُ بتوازني خلال الوقت الذي رفعتني فيه خمس أمواج على حوافها. حينما وصلتُ إلى أعلى الموجة، كنتُ منتصب القامة

تماماً، وخلال الهبوط والصعود، جلستُ القرفصاء. لم أرَ شيئاً على يميني، ولا على يساري، ولا أمامي. تُرى هل يكون ورائي؟ لم أجرؤ على أن أقف منتصباً وأنظر إلى الخلف. الشيء الوحيد الذي بدا لي أنني أراه دون أدنى شكّ هو خطٌّ أسودُ يخترق ضوء القمر هذا إلى يساري. إنّه الدَّغَل بالتأكيد.

حينما يحلّ النهار سوف أرى الأشجار، وهذا ما أراحني. قلتُ في نفسي: «في النهار سوف ترى الدَّغَل، يا بابي! أوه يا إلهي، أتمنى أن أرى صديقي أيضاً!».

مددتُ ساقيّ بعد أن فركتُ أصابعي. ثمّ قررتُ أن أجفّف يديّ وأدخّن سيجارة. دخّنتُ سيجارتين متتاليتين. تُرى كم تكون الساعة الآن؟ كان القمر منخفضاً كثيراً. لم أعد أتذكّر كم من الوقت مضى على اختفاء القمر في الليلة الماضية، قبل طلوع الشمس. حاولت أن أتذكّر وأنا أغمض عينيّ وأتذكّر صور الليلة الأولى. ولكن عبثاً. آه، أجل! فجأةً رأيتُ بوضوح الشمس تشرق من الشرق وفي الوقت نفسه، لا يزال جزءٌ من القمر يُرى على خطّ الأفق في الغرب. إذاً، لا بدّ أن تكون الساعة الخامسة تقريباً. مال القمر بطيئاً بما فيه الكفاية، ولذلك لم يُسارع إلى الانغماس في البحر. اختفى نجم القطب الجنوبي منذ زمنٍ طويل، وكذلك نجوم الدبّ الأكبر والدبّ الأصغر. وحده نجم القطب سطع أكثر من النجوم الأخرى. منذ أن غادر نجم القطب الجنوبي أصبح نجم القطب ملك السماء.

بدت الريح أكثر دفقاً، وقد أصبحت على الأقلّ أكثر كثافةً ممّا كانت عليه في الليل، إذا ما استطعنا أن نقول ذلك. ومن جرّاء ذلك، أصبحت الأمواج أقوى وأعمق وازداد عدد الكتل البيضاء من الزبد عمّا كان عليه في بداية الليل.

مضت ثلاثون ساعة على وجودي في البحر. لا بدّ من الاعتراف بأنّ الأمر يسير حتى الآن بشكلٍ لا بأس به وأنّ النهار الأصعب سيكون النهار المقبل.

البارحة، أحرقتني أشعّة الشمس التي تعرّضتُ لها على نحوٍ مباشر من الساعة السادسة صباحاً وحتى السادسة مساءً. اليوم، حينما ستضربني

الشمس من جديد، لن يكون الأمر سهلاً أبداً. كانت شفتاي قد تشقّقتا على الرغم من أنني كنتُ لا أزال في برودة الليل. كانتا تحرقاني بقوّة مثل عينيّ. وكذلك ساعداي ويداي. إذا استطعت، لن أكشف عن ذراعيّ. وأعرف إن كان من الممكن تحمّل المعطف الصوفي. ما كان يحرقني كثيراً أيضاً هو ما بين الفخذين والعجز. وهذه المنطقة لم تحترق بفعل أشعّة الشمس وإنّما بسبب الماء المالح والاحتكاك بالطوف.

على أيّ حال، يا رجل، سواءً احترقتَ أم لم تحترق، فأنت في حالة فرار وأن تكون هنا حيث أنت أمرٌ يستحقّ تحمّل الكثير من الأشياء بل وأكثر. احتمالات الوصول إلى البر الرئيسي وأنا على قيد الحياة إيجابية بنسبة تسعين في المئة وهذا أمرٌ مهم، أصحيحٌ أم لا؟ حتى وإن وصلتُ وقد جُزّت فروة رأسي وجسدي مثخنٌ بالجراح، فهذا ليس ثمناً غالياً لقاء هكذا رحلة ونتيجة كهذه. تخيّل أنّك لم ترَ سمكة قرشٍ واحدة. أهي كلّها في عطلة؟ لا تنكر بأنّك محظوظٌ ومحظوظٌ على نحوٍ غريب. سوف ترى أنّ هذه المرّة قد حقّقت المُراد. من بين كلّ محاولاتك للفرار والتي رتّبتها بدقّة وأعددت العدّة لها جيّداً، هذه هي محاولتك التي ستلقى النجاح، وهي ستكون الأكثر سخافةً. كيسان مليئان بجوز الهند ومن ثَمّ اِذْهب حيث تقودك الريح ويأخذك البحر. إلى البر الرئيسي. اعترف بأنّه لا يجب أن يكون المرء متخرّجاً من مدرسة سان سير العسكرية ليعرف أنّ كلّ حطام سفينة يُلفَظ إلى الشاطئ.

إذا ظلّت الريح والموجة في النهار على القوّة نفسها التي عليها هذه الليلة، فمن المؤكّد أننا سنصل إلى البرّ في فترة ما بعد الظهيرة.

انبثق الوحش الاستوائي خلفي وقد بدا عازماً على أن يشوي كلّ شيء اليوم، لأنّه أخرج كلّ ما فيه من لهبٍ، وطرد ضوء القمر في لحظات. حتى أنّه لم ينتظر أن يخرج بالكامل من سريره ليفرض نفسه سيّداً، وملكاً لا منازع له في المناطق الاستوائية. باتت الريح في وقتٍ قصيرٍ للغاية فاترةً تقريباً. وخلال ساعةٍ سوف يصبح الجو حارّاً. بدر أوّل إحساسٍ بالراحة من كلّ أنحاء جسمي. ما كادت هذه الأشعة الأولى للشمس أن تُلامس جسدي،

حتى سرت حرارة لطيفة في كياني من حزامي وحتى رأسي. نزعتُ منشفتي التي كنتُ قد لففتها على رأسي، معرّضاً خدّي لأشعة الشمس كما لو أنني أعرضهما لنار حطبٍ. وقبل أن يحرقني، يُريد هذا الوحش اللاهب أن يُشعرني قبل كلّ شيء كم إنّه هو الحياة قبل أن يكون الموت.

جرى دمي سلساً في عروقي وحتى فخذاي المبلّلان أحسّا بجريان هذا الدم المتدفّق.

رأيتُ الدَّغَل بوضوحٍ شديد، ورأيتُ رؤوس الأشجار بالطبع. تولّد لديّ انطباعٌ بأنّها ليست بعيدةً. سأنتظر إلى أن تصعد الشمس أكثر في السماء، وحينها سأقف منتصباً على الطوف وأرى إن كان بوسعي أن أرى سيلفان.

في غضون أقلّ من ساعة، ارتفعت الشمس إلى كبد السماء. نعم سيغدو الجوّ حارّاً، يا إلهي! إنّ عيني اليسرى نصف مغمضة وأجفاني ملتصقة ببعضها. أخذت الماء في كفّ يدي وفركتُ به عيني. أحرق الماء المالح عيني. تخلّيتُ عن معطفي: سوف أترك جذعي عارياً لبضع دقائق قبل أن تشتدّ الشمس وتحرق جسمي أكثر.

أخذتني موجةٌ أقوى من غيرها إلى الأسفل ثمّ رفعتني عالياً جدّاً. في اللحظة التي بلغت ذروتها قبل أن تبدأ بالنزول، لمحتُ صديقي لنصف ثانية. رأيته جالساً عاري الصدر على طوفه. لم يرني. كان على بعد أقلّ من مئتي متر منّي، يتقدّم عليّ قليلاً من جهة اليسار. كانت الريح لا تزال قوية، ولذلك قررتُ أن أقترب منه لأنّه يتقدّم عليّ قليلاً ويكاد يكون على الخط نفسه، فمررتُ فقط ذراعيّ في كمّي معطفي ورفعتُه في الهواء في حين وضعتُ أسفله في فمي وأمسكتُ به بأسناني، فتشكّل ما يشبه شراعاً، سوف يدفعني بكلّ تأكيد بسرعة أكبر من سرعته، وبالتالي سألحق به.

استخدمتُ هذا الشراع البدائي خلال ما يُقارب نصف ساعة، ولكنّ المعطف أوجع أسناني والقوى التي وجب عليّ صرفها لمقاومة الريح خارت سريعاً. حينما تخلّيتُ عن الشراع، كنتُ لا أزال أشعر بأنني أسير بسرعة أكبر مما كنتُ عليه حينما تركتُ نفسي تحملني الأمواج فقط.

مرحى! لقد رأيتُ «الطويل». بات الآن على بعد أقلّ من مئة متر. ولكن ماذا يفعل؟ لا يبدو أنّه مهتمٌّ بأن يعرف أين أكون. حينما رفعتني موجةٌ أخرى بقوّة كافية، رأيته مرّة ثانية وثالثة. لاحظتُ بوضوح أنّه يضع يده اليمنى على عينيه، وهذا يعني أنّه يتفحّص البحر. انظر إلى خلفك، أيّها الغبي! لا بدّ أنّه قد نظر، وهذا مؤكّد، ولكنه لم يرَك.

نهضتُ واقفاً وصفّرت. حينما صعدتُ من قاع الموجة، رأيتُ سيلفان منتصباً أمامي. رفع المعطف في الهواء. ألقينا تحية الصباح على بعضنا لعشرين مرّة على الأقل قبل أن نجلس من جديد. وفي كلّ صعودٍ لموجةٍ في الهواء، تبادلنا تحية الصباح، ولحسن الحظّ كان هو أيضاً يرتفع مع الموجة بالتزامن معي. أثناء الموجتين الأخيرتين، مدّ ذراعه نحو الدَّغَل الذي بتنا الآن نستطيع أن نتبيّن تفاصيله جيّداً. كُنّا على مسافة أقلّ من عشرة كيلومترات منها. اختلّ توازني وسقطتُ جالساً على الطوف. برؤية صديقي والدَّغَل على هذا القرب منّي، انتابني شعورٌ عارم بالفرح، وانفعالٌ شديد إلى درجة أنني أجهشتُ بالبكاء مثل طفل. من خلال الدموع التي نظّفت عيني المتقيحتين، رأيتُ ألف بلورة كريستالية بكلّ الألوان وفكّرتُ ببلاهة: كأنّه الزجاج الملوّن لنوافذ كنيسةٍ. إنّ اللّه معك اليوم، يا بابي. وسط العناصر المتوحّشة للطبيعة مثل الريح والبحر الشاسع والأمواج العميقة، والسقف الأخضر الذي يفرضه الدَّغَل تشعر بأنّك في منتهى الصغر مقارنةً بكلّ ما يحيط بك، وربّما تلتقي، من دون أن تسعى إلى ذلك، بالربّ وتلامسه بأصابعك. وكما كنتُ في الليل خلال آلاف الساعات التي قضيتها في دياجير الزنازين المنفردة حيث كنتُ مدفوناً على قيد الحياة دون بصيص ضوءٍ، ها أنا ألمسه اليوم في هذه السماء التي ترتفع لكي تلتهم من لا يكون قوياً بما فيه الكفاية لمقاومته، ألمس بالفعل اللّه، وأشعر به من حولي، أشعر به في داخلي. حتى أنّه يهمس في أذني: «أنت تُعاني وسوف تُعاني المزيد، ولكنني قرّرتُ أن أكون معك هذه المرّة. سوف تكون حرّاً ومنتصراً، أعدكَ بذلك».

عدم تلقّي أي تعليم ديني، وعدم معرفة ألفباء الدين المسيحي، والجهل

التامّ إلى درجة عدم معرفة من هو والد يسوع وإن كانت أمّه بالفعل مريم العذراء، ووالده نجّاراً أو سائس إبل، كلّ رجس الجهل هذا لا يمنع لقاء الربّ حينما يبحث المرء عنه حقّاً، ونتوصّل إلى التعرّف عليه في الريح والبحر والشمس والدَّغَل والنجوم وحتى الأسماك التي لا بدّ أنّه قد بذرها بوفرة لكي يتغذّى الإنسان عليها.

ارتفعت الشمس في السماء بسرعة، ولا بدّ أن تكون الساعة قد قاربت العاشرة صباحاً. وقد جفّ جسمي بالكامل من الحزام وحتى رأسي. بللتُ منشفتي من جديد ولففتُها حول رأسي. وارتديتُ معطفي لأنّ كتفيّ وظهري وذراعيّ بدأت تحرقني على نحوٍ فظيع. حتى ساقاي اللتان كانتا غالباً ما تسبحان في الماء كانتا حمراوين مثل السلطعون.

لأنّ الشاطئ أصبح أكثر قرباً، بات الانجذاب أكثر قوّة، وتوجّهت الأمواج تقريباً على نحوٍ عمودي نحو الشاطئ. رأيتُ تفاصيل الدَّغَل، الأمر الذي جعلني أفترض أننا كنّا قد اقتربنا كثيراً من البرّ هذا الصباح عند الساعة الرابعة أو الخامسة. بفضل رحلتي الأولى في الفرار، أُجيد تقدير المسافات. حينما نرى تفاصيل شيءٍ ما بشكلٍ جيّد، نكون على مسافة أقلّ من خمسة كيلومترات منه، والحال أنني أرى الآن الفروقات بين أحجام جذوع الأشجار، بل ومن حافة موجة أكثر ارتفاعاً، أميّز بوضوحٍ تامّ شجرة عملاقة ممدّدة عبر الجذوع وقد نزلت أغصانها وأوراقها في البحر سابحة في مياهه.

ها قد ظهرت دلافين وطيور! أتمنى ألّا تتسلّى الدلافين في دفع طوفي. لقد سمعتُ أنّ الدلافين لها عادة أن تدفع نحو الشاطئ حطام السفن أو البشر وأنّها علاوة على ذلك تُغرقهم بضربات خطمها بنية صادقة في مساعدتهم. كلا، إنّها تلفّ وتدور، إنّها ثلاثة أو أربعة دلافين جاءت تستكشف وترى ما الذي يقبل نحوها، ولكنّها غادرت من دون حتى أن تلمس طوفي. شكراً يا إلهي!

عند منتصف الظهيرة، وقفت الشمس بخطٍ مستقيم فوق رأسي. لا بدّ

أنّها تنوي أن تسلقني في قدرٍ يغلي، يا رجل. ازداد التهاب وتقيّح عيني دون توقّف، وانسلخ جلد شفتيّ وأنفي. الأمواج غدت أكثر قصراً واندفعت بهياج، وبصخبٍ شديد نحو الشاطئ.

رأيتُ سيلفان بشكلٍ شبه متواصل، ولم يعد يختفي أبداً عن أنظاري تقريباً، ولم تعد الأمواج عميقة كثيراً. يلتفتُ من حينٍ إلى آخر نحوي ويرفع ذراعه، وهو لا يزال عاري الصدر، والمنشفة على رأسه. لم تعد الأمواج العادية وإنّما الأمواج المتكسّرة هي التي تسحبنا نحو الشاطئ. كان هناك ما يشبه حاجزاً تصطدم به الأمواج بصخبٍ رهيب، ثمّ تجتاز الحاجز المليء بالزبد وتنقضّ في هجومٍ على الدَّغَل.

نحن على مسافة أقلّ من كيلومترٍ واحدٍ من الشاطئ وأصبحتُ أميّز الطيور البيضاء والوردية مع قنازعها الأرستقراطية التي تتنزّه وهي تنقر في الطمي. كانت هناك الملايين من هذه الطيور، وتقريباً لم يكن أيٌّ منها يطير على علوٍ يزيد عن مترين. هذا الطيران لمسافات قصيرة كان بغرض تجنّب البلل بالزبد. كان البحر هنا مليئاً بالزبد وبلونٍ أصفرٍ طيني، مقرّز. أصبحنا قريبين جدّاً بحيثُ أصبحتُ أميّز على جذوع الأشجار الخطّ المتّسخ الذي يتركه الماء عليها حينما يبلغ ارتفاعه الأقصى.

لم يستطع صخب الأمواج المتكسّرة أن يغطّي على الصرخات الحادّة لهذه الملايين من الطيور المخوّضة بكلّ الألوان. تطلق صيحات ثم تقفز طائرةً لمترين أو ثلاثة، ثمّ تحطّ ثانية! لقد وصلت، وصلتُ دون ماء إلى الطمي. لم يكن هناك ما يكفي من الماء ليحملني. حسب ميلان الشمس، بلغت الساعة الثانية من بعد الظهيرة. لقد مضت أربعون ساعة على انطلاقي في هذه الرحلة. كان ذلك أوّل أمس، في العاشرة مساءً، بعد ساعتين من المدّ المنخفض. وبالتالي، هذا سابع مدّ ومن الطبيعي أن أكون دون ماء: إنّه المدّ المنخفض. والمد الصاعد سيبدأ نحو الساعات الثلاث. في الليل، سوف أكون في الدَّغَل. ولنحتفظ بالسلسة المعدنية لكي لا أُنزَع من الطوف لأنّ اللحظة الأكثر خطراً هي اللحظة التي ستبدأ فيها الأمواج المتكسّرة

بالمرور فوقي دون أن تأخذني معها بسبب الافتقار إلى العمق. ولن أعوم قبل ساعتين أو ثلاث ساعات على الأقلّ من المدّ الصاعد.

كان سيلفان على يميني، متقدّماً عليّ بأكثر من مئة متر. نظر إليّ، وقام ببعض الحركات. اعتقدتُ أنّه يُريد أن يصرخ بشيءٍ ما ولكنّ حنجرته تبدو غير قادرة على إرسال صوتٍ وإلّا لكنتُ سمعته. اختفت الأمواج المتكسّرة، وأصبحنا في مستنقع الطمي دون أن يكون هناك أيّ ضجيج يزعجنا سوى صراخ الطيور المخوّضة. بالنسبة لي، كنتُ على بعد قرابة خمسمئة متر من الدَّغَل وكان سيلفان على بعد مئة أو مئة وخمسين متراً منّي، ومتقدّماً عليّ. ولكن ماذا يفعل هذا الأحمق الطويل؟ كان واقفاً وتاركاً طوفه. إنّه أبله، أليس كذلك؟ لا ينبغي عليه أن يمشي، وإلّا سوف يغوص أكثر في كلّ خطوة يخطوها وربّما لن يستطيع العودة إلى الطوف. أردتُ أن أُصفّر، ولكنني لم أستطع. كان قد بقي القليل من الماء معي، فأفرغتُ القربة، ومن ثَمّ حاولتُ أن أصرخ لكي أوقفه. لم أستطع أن أُصدِرَ صوتاً. كانت فقاعاتٌ غازية تخرج من بين الطمي، وهذا يعني بأنّ هذه ليست سوى طبقة رقيقة ومن تحتها الطين، والرجل الذي يترك نفسه يغوص في هذا الطمي، من المؤكّد أنّه سيموت.

التفت سيلفان نحوي، نظر إليّ وأشار بيده بإشاراتٍ لم أفهمها. أمّا أنا فقد أشرتُ له بحركات مبالغ فيها، لكي أقول له: لا، لا، لا تتحرّك من طوفك، وإلّا لن تصل أبداً إلى الدَّغَل! ولأنّه كان خلف كيسه المليء بجوز الهند، لم أستطع أن أعرف إن كان بعيداً أم قريباً عن طوفه. اعتقدتُ في البداية بأنّه لا بدّ أن يكون قريباً جدّاً من الطوف وفي حال انزلق سيكون بمقدوره التعلّق به.

فجأةً، أدركتُ بأنّه قد ابتعد كثيراً وأنّه قد انغرس في الطمي ولا يستطيع الخروج منه والعودة إلى الطوف. وصلت صرخةٌ إلى مسامعي، فانبطحتُ على بطني فوق الطوف ودسستُ يديّ في الطمي وأنا أسحب بكلّ ما أوتيتُ من قوّة. تقدّم طوفي تحتي واستطعتُ أن أنزلق لمسافة تزيد عن عشرين متراً.

وحينئذٍ، حينما ملتُ إلى اليسار، وانتصبتُ واقفاً فوق طوفي، رأيتُ، دون أن يحجبه طوفه عني، صديقي، وأخي وقد دُفِن حتى بطنه في الوحل. كان على بعد أكثر من عشرة أمتارٍ من طوفه. أعاد إليّ الفزع صوتي وصرخت: «سيلفان! سيلفان! لا تتحرّك أكثر، تمدّد في الطمي! وإذا استطعت، حرّر ساقيك!» نقلت الريح كلماتي إليه وسمعها. خفض رأسه من الأعلى إلى الأسفل ليقول لي بأنّه قد فهم. انبطحتُ من جديد، وشققتُ طريقي بين الطمي منزلقاً بطوفي. منحني الهياج قوة تفوق طاقة البشر وتقدّمتُ بسرعةٍ أكبر نحوه لمسافة تزيد عن ثلاثين متراً. استغرق ذلك مني أكثر من ساعة بكلّ تأكيد، ولكنني أصبحتُ قريباً جدّاً منه، ربما على بعد خمسين أو ستين متراً. كنتُ أراه على نحوٍ غير واضح.

جلستُ وقد غطّى الوحل يديّ وذراعيّ ووجهي، وحاولتُ أن أمسح عيني اليسرى التي دخل إليها وحلٌ مالحٌ أصبح يحرقني ويمنعني من الرؤية، ليس فقط بعيني هذه فحسب، بل وبالعين الأخرى أيضاً، أي العين اليمنى التي بدأت تدمعُ لكي تُزيد الطين بلّة. وأخيراً رأيته؛ ولم يعد ممدّداً بل واقفاً، ولا يظهر منه غير جذعه خارج الوحل.

مرّت الموجة المتكسرة الأولى وقفزت من فوقي دون أن ترميني عن الطوف وراحت تنتشر بعيداً عنّي، مغطّية الطمي بزبدها. كما أنّها مرّت أيضاً فوق سيلفان الذي كان لا يزال جذعه خارج الطمي. وفكّرتُ سريعاً: «كلّما ستأتي الأمواج المتكسّرة أكثر، كلّما سيزداد الطمي رخاوةً. يجب أن أصل إليه مهما كلّف الثمن».

تولّدت في داخلي طاقة بهيمة مهدّدة بفقدان وكرها، ومثل أمٍّ تُريد أن تنقذ طفلها من خطرٍ داهم، أصبحتُ أسحب بيديّ، وأسحب بقوّة وعلى نحوٍ متواصل، فوق هذا الطمي لكي أصل إليه. كان ينظر إليّ دون أن يتفوّه بكلمة، ودون أن يأتي بحركة، وعيناه مفتوحتان على وسعهما وتحدّقان في عينيّ التي كانتا تلتهمانه بالمعنى الحرفي للكلمة. كانت عيناي المثبّتتان عليه لا تنشغلان سوى بألّا تحيدا عن نظرته ولم تَعُودا تباليان تماماً برؤية أين

أغرز يديّ. زحفتُ قليلاً نحوه، ولكن بسبب موجتين متكسّرتين أخريين مرّتا من فوقي وغطّتاني تماماً، بات الطمي أقلّ تماسكاً فتقدّمتُ على نحوٍ أسرعٍ مما كنتُ أتقدّم به قبل ساعةٍ. جاءت موجةٌ متكسّرة ضخمة ومرّت عليّ وكادت أن تخنقني وأن ترميني عن الطوف. جلستُ في مكاني لأرى على نحوٍ أفضل. كان الطمي قد بلغ أسفل إبطي سيلفان. وكنتُ على بعد أقلّ من أربعين متراً عنه. نظر إليّ بإمعان، ورأيتُ أنّه يعرف بأنّه سوف يموت، غارقاً هناك، كرجلٍ مسكين، على بعد ثلاثمئة مترٍ من الأرض الموعودة.

انبطحتُ من جديد واخترقتُ أيضاً هذا الطمي الذي بات شبه سائلٍ الآن. كانت عيناي وعيناه تتجّهان صوب بعضهما. أشار لي لكي يقول لا، لا تبذل المزيد من الجهود. ومع ذلك، واصلتُ زحفي، وكنتُ على بعد أقلّ من ثلاثين متراً منه، حينما وصلت موجة متكسّرة ضخمة غطّتني بكتلتها المائية وكادت أن تنزعني عن طوفي الذي تقدّم لخمسة أو ستّة أمتار.

حينما مرّت الموجة، نظرتُ فوجدتُ أنّ سيلفان قد اختفى، وأنّ الطمي المغطّى بطبقة خفيفة من الماء والزبد أملسُ تماماً. حتى يد صديقي المسكين لم تكن ظاهرة لكي تودّعني الوداع الأخير. كان ردّ فعلي وحشياً ومقزّزاً على نحوٍ مروّع، وقد طغت غريزة الكلام على كلّ شعور: «أنت، أنت حيّ. أنت وحيد، وحينما تكون في الدَّغَل، بلا صديق، لن يكون النجاح في الفرار هيّناً».

جاءت موجة أخرى متكسّرة وتحطّمت على ظهري، لأنني كنتُ جالساً، ونبّهتني. لقد طوتني إلى نصفين وقطعت شدّة الضربة أنفاسي لعدّة دقائق. وانزلق الطوف لعدّة أمتار أخرى وحينها فقط، وأنا أنظر إلى الموجة تختفي عند الأشجار، بكيتُ سيلفان: «لقد كنّا قريبين جدّاً من بعضنا، ليتك لم تتحرّك! كنا على بعدِ أقلّ من ثلاثمئة مترٍ من الأشجار! لماذا؟ أخبرني لماذا ارتكبت هذه الحماقة؟ كيف افترضتَ أنّ هذه القشرة الجافّة قويّة بما فيه الكفاية لكي تسير عليها وتصل مشياً على القدمين إلى الشاطئ؟ الشمس؟ انعكاس الضوء؟ ما يدريني أنا؟ أَلَمْ تعد تستطيع مقاومة هذا الجحيم؟

أخبرني لماذا لم يستطع رجلٌ مثلك أن يتحمّل لبضع ساعات أخرى هذا الاحتراق؟».

تتالت الأمواج المتكسّرة دون توقّف وبصخبٍ مدوٍّ. وقد وصلت متعاقبة وقريبة من بعضها وأكثر ضخامةً على نحوٍ متزايد. وفي كلّ مرّة تغطيني المياه تماماً، وفي كلّ مرّة أنزلق لبضعة أمتار إضافية، ودائماً في احتكاكٍ مع الطوف. نحو الساعة الخامسة، تحوّلت الأمواج المتكسّرة فجأة إلى أمواج عادية، فأقلعتُ عن الطمي وطفتُ فوق الماء. وإذ أصبح للأمواج عمقٌ تحتها، لم تعد تصدر صخباً. وتوقّف دويّ الأمواج المتكسّرة. وكان طوف سيلفان قد دخل إلى الدَّغَل.

وصلتُ، ليس بصعوبة كبيرة، إلى موقعٍ بالكاد يبعد عشرين متراً عن الغابة العذراء. حينما انحسرت الموجة، أصبحتُ من جديد على الطمي وعاقداً العزم على ألّا أتحرّك عن طوفي إلى أن أمسك بغصنٍ أو داليةٍ بيديّ. كانت المسافة تقارب عشرين متراً، واستغرقت من وقتي أكثر من ساعة قبل أن يكون هناك ما يكفي من العمق ليرتفع طوفي من جديد وأُحمَل إلى الدَّغَل. الموجة التي دفعتني عند انبثاقها رمتني تماماً تحت الأشجار. فككتُ الصامولة وتحرّرتُ من السلسلة التي لم أرمِها لأنني قد أحتاج إليها مرّة أخرى.

في الدَّغَل

دخلتُ بسرعة، قبل أن تغيب الشمس، إلى الدَّغَل، وأنا أسبحُ تارةً وأمشي تارةً أخرى، لأنّه هنا أيضاً هناك طميٌّ يمتصّك. توغّلت المياه بعيداً في الدَّغَل وهبط الليل وأنا لم أصل إلى اليابسة بعد. صعدت رائحة عفونةٍ إلى أنفي وكان هناك الكثير من الغاز بحيث أصبحتُ أشعر بحرقةٍ لاذعة في عينيّ. تغطّت قدماي بالأعشاب وأوراق الشجر. كنتُ لا أزال أدفع طوفي. وفي كلّ مرّة أخطو فيها خطوةً، تتحسّس قدماي الأرض من تحت الماء، وعندما أتأكّد من أنّها لا تغور تحت قدمي، حينها فقط أتقدّم إلى الأمام.

أمضيتُ ليلتي الأولى على شجرة ضخمة ساقطة. سارت بهائمُ كثيرة على جسدي الذي بات يحرقني وأشعر بلسعٍ في كلِّ مكانٍ منه. ارتديتُ معطفي بعد أن ربطتُ جيّداً طوفي الذي رفعته على جذع الشجرة وثبّته من طرفيه. كانت الحياة موجودة في الكيس لأنّ حبّات جوز الهند، ما إنْ تُفتَح، سوف تسمح لي بأن أتغذّى وأصمد.

أبقيتُ سيفي القاطع مربوطاً إلى معصمي الأيمن. تمدّدتُ، منهكاً، على الشجرة في مفرق غصنين شكّلا بالنسبة لي ما يشبه مشكاة كبيرة، ونمتُ دون أن تَسنَحَ لي الفرصة للتفكير في أيّ شيء.

بلى، ربّما تمتمتُ لمرّتين أو ثلاث مرّات باسم سيلفان: «المسكين سيلفان!» قبل أن أنهار وأغطّ في نوم عميق.

إنّ صيحات الطيور هي التي أيقظتني. ولجت الشمس بعيداً جدّاً في الدَّغَل، وقد جاءت أفقيةً، وبالتالي لا بدّ أن تكون الساعة قد بلغت السابعة أو الثامنة صباحاً. ومن حولي، كان الماء يغمر كلّ مكان، فالبحر في حالة مدٍّ صاعدٍ إذاً. ربّما هذه نهاية المدّ العاشر.

ها قد مرّت ستون ساعة على مغادرتي جزيرة الشيطان. ولا أدري إن كنتُ بعيداً عن البحر. على أيّ حال، سأنتظر إلى أن ينحسر الماء لكي أذهب إلى شاطئ البحر وأجفّف ثيابي وآخذ قسطاً من أشعّة الشمس وحرارتها. لم يعد لديّ ماءٌ عذب، وبقيت لديّ ثلاث حفن من لبّ جوز الهند الذي تناولته بتلذّذ. كما وضعتُ القليل منه على جراحي، فلبّ جوز الهند، بفضل الزيت الذي يحتويه، يخفّف آلام حروق جسدي. ثمّ دخّنتُ سيجارتين، وفكّرتُ في سيلفان، ولكن هذه المرّة من دون أنانية. ألم يكن عليّ أن أقوم بالفرار دون صديق؟ هذا لأنني كنتُ أزعم بأنني أستطيع أن أتدبّر أموري بمفردي. وبالتالي لم يتغيّر أيّ شيء، فقط اعتصر حزنٌ عميق قلبي فأغمضتُ عينيّ كما لو أنّ من شأن ذلك أن يمنعني من رؤية مشهد صديقي وهو يغور في الطمي. لقد انتهى الأمر بالنسبة إليه.

ثبّتُّ كيسي جيّداً في المشكاة وبدأتُ أستخرج منه جوز الهند. استطعتُ

أن أكسر حبتي جوز الهند من خلال ضربها بكلّ ما أوتيتُ من قوة على جذع الشجرة بين ساقيّ. يجب ضرب جوز الهند على رأسه لكي تنفلق قشرته، وهذا أفضل من استخدام السيف القاطع. تناولتُ حبّة طازجة منه بالكامل وشربتُ القليل من الماء حلو المذاق الذي يحتويه. انحسر ماء البحر سريعاً واستطعتُ أن أسير في الطمي بسهولةٍ وأصل إلى شاطئ البحر.

كان الشمس مشرقة، اليوم، والبحر على جمالٍ لا نظير له. نظرتُ مطوّلاً نحو المكان الذي افترضتُ أنّ صديقي سيلفان اختفى فيه. جفّت ثيابي سريعاً وكذلك جسمي الذي غسلته بماءٍ مالحٍ غرفته من حفرةٍ. دخّنتُ سيجارةً، وألقيتُ نظرةً أخيرةً على قبر صديقي وعدتُ إلى الدَّغَل، وأنا أمشي دون صعوبة كبيرة. تغلغلتُ، حاملاً كيسي على كتفي، ببطءٍ في الغطاء النباتي. وفي غضون أقلّ من ساعتين، وجدتُ أخيراً أرضاً لم تغمرها المياه أبداً. لم يكن هناك أيّ أثرٍ على أسفل جذوع الشجر يدلّ على أنّ المدّ البحري قد بلغ هذا المكان. قرّرتُ أن أُخيّم في هذا المكان وأن أرتاح تماماً لمدّة أربع وعشرين ساعة. وسوف أفتح جوز الهند شيئاً فشيئاً وأستخرج النواة لكي أضعها في الكيس، جاهزةً للأكل حينما أشاء. وسوف أستطيع أن أوقد ناراً، ولكنني اعتقدتُ أنّ ذلك ليس من الحكمة.

مرّ ما تبقى من النهار والليل بهدوء ودون مشكلات. أيقظني ضجيج الطيور عند طلوع الشمس. أنهيتُ استخراج لب جوز الهند، وحملتُ كيساً صغيراً على كتفي وسلكتُ دربي متّجهاً نحو الشرق.

نحو الساعة الثالثة من بعد الظهيرة، وجدتُ درباً ضيّقاً. إنّه مسارٌ إمّا للأشخاص الباحثين عن صمغ شجر البَلاطة[1] الطبيعي أو لمستكشفي الغابات أو لمموّني الباحثين عن الذهب. كان الدرب ضيّقاً ولكنّه نظيف، لا أغصان تعترضه، وبالتالي، هذا يعني أنّه غالباً ما يكون سالكاً. ومن حين إلى آخر، كنتُ أرى آثار أقدام حيوانٍ أو حوافر بغالٍ بلا حدوة. وفي حفرٍ

1- بَلاطة: شجر أمريكي استوائي ضخم، ينزّ مادة صمغية تتحوّل إلى ما يشبه المطّاط - المترجم.

في الوحل الجافّ، لاحظتُ آثار أقدام بشرٍ، وقد طُبِعت إبهام القدم بوضوح على الصلصال. واصلتُ السير حتى حلول الليل. مضغتُ لبّ جوز الهند، وقد غذّاني ذلك وفي الوقت نفسه أزال عنّي الشعور بالعطش. وفي بعض الأحيان، كنتُ أمضغه جيّداً حتى يتشبّع بالزيت واللعاب، فأفرك أنفي وشفتي وخدّي بهذا المزيج. كانت عيناي تلتصقان غالباً وهي مليئة بالقيح، وكنتُ أنوي أن أغسلهما بالماء العذب ما إنْ أستطيع ذلك. كنتُ أحمل في كيسي، مع جوز الهند، علبة محكمة الإغلاق تحتوي على قطعة من صابون مرسيليا، وماكينة حلاقة من ماركة جيليت، واثنتي عشرة شفرة وفرشاة حلاقة، وكانت سليمة، لم يُصبها شيء.

سرتُ وفي يدي السيف، ولكنني لم أستخدمه لأنّ الطريق كان خالياً من العقبات. بل ولاحظتُ على أطراف الطريق أنّ هناك أغصاناً قد قُطِعَت حديثاً. على هذا الدرب الضيّق، يسير الناس، ولذلك عليّ أن أذهب بحذرٍ واحتراس.

لم يعد الدَّغَل هو نفسه الذي عرفته خلال رحلتي الأولى في الفرار، في سان لوران دو ماروني. هذا الدَّغَل يتكوّن من طابقين وليس كثيفاً كما هو عليه الدَّغَل الموجود في ماروني. يرتفع الغطاء النباتي الأوّل لقرابة خمسة أو ستّة أمتار، أمّا الغطاء الأعلى، والذي يشكّل قبّة الدَّغَل، فيرتفع لأكثر من عشرين متراً. ليس هناك ضوءٌ سوى في الجانب الأيمن من الدرب الضيّق، أمّا على يساره، فيكاد يكون كالليل في ظلمته.

تقدّمتُ سريعاً، أحياناً في فسحةٍ أحدثها حريقٌ أشعله إنسانٌ أو تسبّبت به صاعقةٌ. رأيتُ أشعّةً للشمس، وقد دلّ ميلانها على أنّها لم تعد بعيدة عن الغروب. فأدرتُ لها ظهرِي وأنا أتّجه نحو الشرق، أي نحو قرية زنوج كورو أو إلى المعسكر التأديبي الذي يحمل الاسم نفسه.

فجأةً سيحلّ الظلام، وعليّ ألّا أمشي في الليل، ولذلك سوف أدخل في الدَّغَل وأجدُ ركناً أنام فيه.

على بعد أكثر من ثلاثين متراً من الطريق، احتميتُ جيّداً بكتلةٍ من الأوراق

الملساء كأوراق أشجار الموز، تمدّدتُ على كدسٍ من هذه الأوراق نفسها التي قطعتها بسيفي القاطع. سأنام في الحال في مكانٍ جاف، وقد حالفني الحظّ، إذ لم يهطل المطر. دخّنتُ سيجارتين.

لستُ متعباً جدّاً هذا المساء. وقد سدّ لبّ جوز الهند جوعي. وحده العطش يجفّف فمي ولم أستطع أن أبلع ريقي بسهولة.

لقد بدأت المرحلة الثانية من الهروب وها هي الليلة الثالثة التي أقضيها دون حادثٍ مزعج على البرّ الرئيسي.

آه! ليت سيلفان كان معي! إنّه ليس هنا، يا رجل، ماذا عساك أن تفعل؟ لكي تتصرّف، ألم يسبق لك قط أن احتجت في حياتك إلى أن ينصحك أحد أو يساندك؟ هل أنت قائد أم جندي؟ لا تكن غبيّاً. بابيون، لا بأس أن تحزن لفقدان صديقك، ولكن لكونك وحيداً في الدَّغَل لا يعني أنّك أقلّ قوّة. الآن أصبح أصدقاؤك بعيدين عنك، أصدقاؤك الذين في جزر رويال وسان جوزيف والشيطان، وها قد مرّت ستة أيامٍ على رحيلك عنهم. ولا بدّ أنّ كورو قد أُخبِرَت بالأمر. في البداية، حرّاس المعسكر الواقع في الغابة، ومن ثَمّ زنوج القرية. ولا بدّ أن يكون هناك مركزٌ للدرك أيضاً. هل من الحكمة الذهاب إلى هذه القرية؟ لا أعرف أيّ شيء عن محيطها. كلّ ما أعرف عن كورو هو أنّ المعسكر يقع بين القرية والنهر.

في جزيرة رويال، كنتُ قد فكّرتُ في أن أُهاجم أوّل رجلٍ أصادفه وأن أُرغمه على أن يقودني إلى أطراف معسكر إينيني حيث يوجد الصينيون ومن بينهم كويك - كويك، شقيق شانغ. لماذا أغيّر الخطّة؟ إذا ما توصلوا في جزيرة الشيطان إلى الاعتقاد بأنّنا قد غرقنا، لن تكون هناك ضجّة حول الموضوع، أمّا إذا اكتشفوا عملية الفرار فإنّ كورو هذه ستغدو خطيرةً.

وبما أنّ هذا المعسكر يقع وسط الغابة، لا بدّ أن يكون مليئاً بالعرب، ومن هنا وجود عدد كبير من صائدي الرجال. احترس منهم، يا بابيون! لا مجال للخطأ هنا. لا تدع نفسك لقمة سائغة لهم. يجب أن ترى الرجال، أيّاً كانوا، قبل أن يروك. خلاصة الكلام: عليّ ألّا أمشي في هذا الدرب الضيّق، وإنّما

بين الدَّغَل، بالتوازي مع هذا الطريق. لقد ارتكبت اليوم خطأً غريباً وأنت تهرول على هذا المسار وليس معك سلاحٌ سوى هذا السيف. وهذا ليس مجرّد قلّة وعي، وإنما هو الجنون بذاته. إذاً، سوف أمشي غداً وسط الدَّغَل.

نهضتُ في ساعة مبكّرة، وقد استيقظتُ على صيحات البهائم والطيور التي حيّت بزوغ الصباح، وتحرّكت في الوقت نفسه الذي اهتزّ فيه الدَّغَل. بالنسبة إليّ أيضاً، بدأ نهارٌ جديد. التهمتُ حفنة من جوز الهند بعد أن مضغتها جيّداً، ودهنتُ وجهي ببعضٍ منها وسلكتُ طريقي.

قريباً جدّاً من الدرب الضيّق، ولكن تحت الغطاء النباتي، مشيتُ بصعوبة كبيرة، لأنّه كان عليّ أن أُزيح الأغصان والعرائش عن طريق سيري لكي أستطيع التقدّم. على أيّ حال، لقد أحسنتُ صنعاً بتركي للدرب الضيّق، لأنني سمعتُ صوت أحدهم وهو يُصفِّر. كان الدرب يسري أمامي بخطٍّ مستقيم لأكثر من خمسين متراً. لم أرَ الشخص الذي يصفّر. آه! ها هو قد أتى! إنّه رجلٌ أسود البشرة، يبدو وكأنّه من تمبكتو. كان يحمل شيئاً على كتفه، ويُمسك بيده اليمنى بندقية. يرتدي قميصاً كاكيّاً وسروالاً قصيراً، وهو عاري الساقين وحافي القدمين. يخفض رأسه إلى الأسفل ولا يشيح ببصره عن الأرض، وظهره مقوّس تحت ثقل الحمل الكبير الذي يحمله على كتفه.

مختبئاً خلف شجرة ضخمة على حافة الممشى الضيّق، انتظرتُ أن يصل إليّ، وسكيني مفتوحٌ في يدي المتأهّبة. في اللحظة التي مرّ فيها من أمامي، ارتميتُ عليه، وأمسكتُ سريعاً بيدي اليمنى ذراعه التي كان يمسك بها البندقية ولويتها، وانتزعتُ منه سلاحه. صرخ متوسّلاً: «لا تقتلني! الرحمة يا ربّاه!» كان لا يزال واقفاً، ووضعت رأس نصل سكيني على القاعدة اليسرى لعنقه. انحنيتُ والتقطتُ بندقيته، وهي بندقية عتيقة ذات سبطانة وحيدة، ولكنّها محشوة بالتأكيد بالبارود والرصاص ملء مخزنها. لقّمتُ البندقية وابتعدتُ عنه لمسافة مترين، وأمرته:

– اترك حملك، ودعه يسقط أرضاً. لا تحاول أن تنطلق راكضاً وإلّا أعدمتُك.

امتثل الزنجي المسكين المذعور لأوامري، ثمّ نظر إليّ وقال:

- هل أنت هاربٌ من السجن؟

- نعم.

- ماذا تريد؟ خذ كلّ ما أملك، ولكنني أرجوك، لا تقتلني، فلديّ خمسة أطفال. أرجوك، أبقني على قيد الحياة.

- اخرس. ما اسمك؟

- جان.

- إلى أين تذهب؟

- أحمل أطعمة وأدوية إلى شقيقيّ اللذين يقطعان الأشجار في الدَّغَل.

- من أين تأتي؟

- من كورو.

- وهل أنت من هذه القرية؟

- لقد ولدتُ فيها.

- هل تعرف إينيني؟

- نعم، أتاجر أحياناً مع الصينيين في معسكر السجناء.

- أترى هذا؟

- ما هذا؟

- هذه ورقة نقدية من فئة خمسمئة فرنكٍ. لك أن تختار: إمّا أن تفعل ما أقوله لك، فأهديك خمسمئة فرنكٍ، وتستعيد بندقيتك؛ أو ترفض ما أقوله لك، أو تحاول أن تخدعني، وحينئذٍ، أقتلك. اختر ما يُناسبك.

- ما الذي يجب عليّ أن أفعله؟ سوف أفعل كلّ ما تُريده منّي، حتى من دون مقابل.

- يجب أن تصحبني من دون أخطار وبأمان إلى محيط معسكر إينيني. وبعد أن أتمكّن من التواصل مع رجلٍ صيني، سوف يكون بمقدورك أن تغادر. اتّفقنا؟

- اتّفقنا.

- لا تخدعني، وإلّا ستكون رجلاً ميّتاً.
- كلا، أقسم لك على أنني سوف أساعدك بصدق وإخلاص.
كان لديه حليبٌ مكثّف، فأخرج ست علب وقدّمها لي، وكذلك قطعة خبزٍ تزن كيلوغراماً واحداً، وبعضاً من لحم الخنزير المدخّن.
- خبّئ كيسك في الدَّغَل، وسوف تستردّه فيما بعد. تفضّل، ها هي علامةٌ على الشجرة نقشتها بسيفي القاطع.
شربتُ علبةً من الحليب. قدّم لي أيضاً سروالاً جديداً تماماً، أزرق اللون كالذي يرتديه الميكانيكيون. فارتديته، دون أن أترك البندقية أبداً.
- هيّا إلى الأمام، يا جان. خذ احتياطاتك لكي لا يرانا أحد، لأنّه إذا ما بوغتنا سيكون ذلك ذنبك، وحينها الويل لك.
يُجيد جان المشي في الدَّغَل أفضل منّي ولاقيتُ صعوبة في اللحاق به لكثرة ما كان يُزيح بمهارةٍ الأغصان والعرائش. هذا الرجل اللعين يمشي في الدَّغَل بسهولة للغاية.
- أنت تعلم بأنّه قد تمّ إخبار كورو بأنّ سجينين محكومين بالأشغال الشاقّة قد فرّا من الجزر. ولذلك أريد أن أكون صادقاً معك: سوف يكون هناك خطرٌ كبير عندما نمرّ بالقرب من معسكر كورو للسجناء المحكومين بالأشغال الشاقّة.
- يبدو عليك أنّك رجلٌ طيّب وصادق، يا جان. أتمنى ألّا أكون مخطئاً. ما الذي تنصحني به لكي أذهب بأفضل طريقة ممكنة إلى معسكر إينيني؟ لا تنسَ أنّ سلامتي هي حياتك، لأنّه إذا ما فوجئتُ بالحرّاس أو بصائدي الرجال، سوف أكون مضطرّاً لأن أقتلك.
- بماذا يجب عليّ أن أناديك؟
- بابيون.
- حسناً، يا سيّد بابيون. يجب أن نتوغّل تماماً في الدَّغَل وأن نذهب بعيداً عن كورو. أنا أضمن لك أن أقودك إلى إينيني عبر الدَّغَل.
- أنا أثق بك. اسلك الطريق الذي تعتقد أنّه الأكثر أماناً.

سرنا داخل الدَّغَل ببطءٍ أكبر، ولكن منذ أن غادرنا أطراف الدرب الضيّق، شعرتُ أنّ الرجل الزنجي بات أكثر ارتياحاً. لم يعد يتصبّب عرقاً بالغزارة نفسها وبدت ملامح وجهه أقلّ توتّراً، بدا وكأنّه قد اطمأنّ وهدأ.

- يبدو لي، يا جان، أنّك أقلّ خوفاً الآن، أليس كذلك؟

- نعم، يا سيّد بابيون. إنّ وجودنا على قارعة الطريق كان خطراً كبيراً بالنسبة إليك، وبالتالي بالنسبة إليّ أيضاً.

تقدّمنا بسرعة. وكان هذا الرجل الزنجي ذكيّاً، ولم يبتعد قطّ عني لأكثر من ثلاثة أو أربعة أمتار.

- توقّف، أُريد أن أدخّن سيجارةً.

- تفضّل، ها هي علبة سجائر غلواز.

- شكراً لك، يا جان، أنت رجلٌ طيّب.

- نعم، هذا صحيح، أنا رجلٌ طيّب للغاية. أنا رجلٌ كاثوليكي وأتألّم حينما أرى كيف تتمّ معاملة السجناء مِن المراقبين البيض.

- هل رأيت الكثير منهم؟ وأين رأيتهم؟

- في معسكر كورو في الغابة. من المثير للشفقة رؤيتهم وهم يموتون ببطء، يلتهمهم هذا العمل الشاقّ في قطع الحطب، وبسبب الحمّى والزُحار. في الجزر، الوضع أفضل بالنسبة لكم. هذه أوّل مرّة أرى فيها محكوماً مثلك، في صحّة ممتازة.

- نعم، نحن أفضل حالاً في الجزر.

جلسنا قليلاً على غصنٍ ضخمٍ لشجرة. قدّمتُ له واحدة من علب الحليب خاصّته، فرفض وفضّل أن يمضغ جوزة هند.

- هل زوجتك شابّة؟

- نعم، إنّها في الثانية والثلاثين من عمرها. وأنا عمري أربعون عاماً. لدينا خمسة أطفال، ثلاث بنات وصبيّان.

- هل تكسب جيّداً لمعيشتك؟

- نتدبّر أمرنا إلى حدٍّ مقبول بقطع الحطب الوردي، وزوجتي تغسل

وتكوي الثياب للمراقبين. وهذا يُساعدنا قليلاً. نحن فقراء جدّاً، ولكننا نأكل جميعاً ما يسدّ رمقنا، ويذهب الأطفال جميعاً إلى المدرسة. لديهم حتى الآن أحذية ينتعلونها.

مسكينٌ هذا الزنجي الذي يرى أنّه طالما أنّ لدى أطفاله أحذية، فكلّ شيء على ما يُرام. كان طول قامته يُعادل طول قامتي تقريباً، ولم يكن على ملامح وجهه الزنجي أيّ شيءٍ يدلّ على نزعة عدائية. بل على العكس من ذلك تماماً، أفصحت عيناه بكلّ وضوح بأنّه رجلٌ مليءٌ بمشاعر الافتخار بكونه عاملاً وسليم الجسد وربَّ أسرة طيّب، وزوجاً عطوفاً، ومسيحيّاً صالحاً.

- وأنت، يا بابيون؟

- أنا، يا جان، أسعى لكي أعيش. أنا مدفونٌ حيّاً منذ عشر سنوات، لا أتوقّف عن الهروب لكي أنجح ذات يوم في أن أكون مثلك، حرّاً مع زوجة وأطفال، دون أن يُلحق الأذى بأحدٍ، حتى من خلال التفكير. لقد قلتَ ذلك بنفسك. هذا السجن متعفّن، وإنّ أيّ رجل يحترم نفسه عليه أن يهرب من هذا المستنقع القذر.

- سوف أساعدك بصدقٍ وإخلاصٍ لكي تنجح. هيّا بنا لنتابع طريقنا.

بإحساسٍ مدهشٍ بالاتجاهات، ودون أن يتردّد أبداً على طريقه، قادني جان مباشرةً إلى أطراف معسكر الصينيين الذي وصلنا إليه عندما كان الليل قد هبط منذ قرابة ساعتين. سمعنا أصوات طلقات نارية قادمة من بعيد، دون أن نرى ضوءاً. شرح لي جان بأنّه من أجل الاقتراب بالفعل من المعسكر، يجب تجنّب مركزين متقدّمين للحرّاس. قرّرنا أن نتوقّف لقضاء الليل.

كنتُ في غاية التعب والإرهاق، ولكنني خفتُ أن أنام. وماذا لو خُدِعتُ من جانب الزنجي؟ ماذا لو أنّه يمثّل عليّ دور المسكين المتعاطف وأن يأخذ منّي البندقية أثناء نومي ويقتلني؟ سوف يكسب مرّتين من قتلي: سوف يتخلّص من الخطر الذي أُمثّله عليه، وسوف يكسب مكافأةً على قتله لرجلٍ فارٍّ من السجن.

نعم، إنّه ذكيٌّ جدّاً. دون أن يتكلّم، ودون أن ينتظر لوقتٍ أطول، استلقى

لكي ينام. كنتُ لا أزال أحتفظ بالسلسلة المعدنية والصامولة. رغبتُ في أن أربطه، ثمّ فكّرتُ أنّه قد يتمكّن من فكّ الصامولة كما استطعتُ أنا أن أفكّها، وأنّه إذا ما تصرّف بحذرٍ، وأنا أغطّ في نومٍ عميق، لن أشعر بشيء. وبالتالي، قررتُ أن أحاول أوّلاً ألّا أنام. لديّ علبة سجائر غلواز كاملة، وسوف أبذل كلّ ما بوسعي لكي لا أنام. لا يمكنني أن أثق بهذا الرجل الذي هو في نهاية المطاف رجلٌ شريف ويُصنفني كقاطع طريق.

وسط الظلام الدامس، نام الرجل الزنجي على بعد مترين منّي، ولم أكن أرى سوى بياض راحة قدميه الحافيتين. للدغل أصوات ضجيجه المتميّزة في الليل: إذ تَسمَعُ دون توقّف صياح القرد المتضخّم الغدد، وهو صياحٌ حادّ وقويّ تتردّد أصداؤه على بعد كيلومترات. وهو مهمٌّ جدّاً، لأنّه إذا كان منتظماً فذلك لأنّ قطيعه يستطيع أن يأكل وينام بهدوء. هو لا يدلّ على الفزع ولا الخطر، وبالتالي، ليس هناك في الأنحاء لا حيوانات متوحّشة ولا بشر.

متوتّراً تماماً، صمدتُ أمام النعاس دون بذل الكثير من الجهود وتغلّبتُ عليه، بمساعدة بعض الحروق بالسيجارة على جسمي وخاصّة بمساعدة أسرابٍ من البعوض العازمة تماماً على امتصاص كلّ دمي. كان بوسعي أن أحمي نفسي منها باستخدام اللعاب الممزوج بالتبغ. لو أنني دهنتُ جسمي بعصير النيكوتين هذا، لحماني من البعوض، ولكن لولاه لشعرتُ بالنعاس. ولم يكن أمامي سوى أن أتمنّى ألّا يكون هذا البعوض حاملاً للملاريا أو الحمّى الصفراء.

هأنذا قد خرجتُ، ربّما مؤقّتاً، من طريق العفن. حينما دخلتُ إلى هذا الطريق، كان عمري خمسة وعشرين عاماً، وكان ذلك في عام 1931. ونحن الآن في عام 1941. كان ذلك في عام 1932، عندما استطاع براديل، المدّعي العام عديم الضمير، من خلال مرافعة لا رحمة فيها وغير إنسانية، أن يرمي بي شابّاً وقويّاً في هذا البئر الذي يُدعى إدارة السجون الإصلاحية، وهذه الإدارة عبارة عن حفرة مليئة بسائلٍ لزجٍ من المفروض أن يُذيبني ببطء ويجعلني أختفي تماماً. وقد نجحتُ أخيراً في المرحلة الأولى من الهروب.

لقد صعدتُ من قاع البئر وأصبحتُ على خرزته. وعليّ الآن أن أضع كلّ طاقتي وذكائي في كسب المرحلة الثانية من الهروب.

كان الليل طويلاً ولكنّه سار نحو نهايته دون أن أنام. بل ولم أترك للحظة بندقيتي. بقيتُ يقظاً تماماً بمساعدة حروق السيجارة ولسعات البعوض، بحيث لم يسقط السلاح من يدي ولا مرّة واحدة. أستطيع أن أكون راضياً عن ذاتي، إذ لم أجازف بحريتي من خلال الاستسلام تحت وطأة التعب. كانت الروح أقوى من المادّة وهنّأتُ نفسي على ذلك عندما سمعتُ أولى صيحات الطيور التي تعلن عن قرب طلوع الشمس. وكان هذا «الاستيقاظ المبكّر لبعض الطيور» توطئة لاستيقاظ الطيور الأخرى.

جلس الرجل الزنجي بعد أن تمطّى بكلّ جسمه ثمّ أخذ يفرك قدميه. قال لي:

- صباح الخير، أَلَمْ تنم؟

- كلا.

- هذا غباء، لأنني أكّدتُ لك بأنّه ليس هناك ما تخافه منّي. لقد قرّرتُ أن أساعدك لكي تنجح في مشروعك.

- شكراً لك، يا جان. تُرى هل ستتأخّر الشمس بضوئها في ولوج الدَّغَل؟

- أكثر من ساعةٍ أخرى. وحدها الحيوانات تشعر قبل الجميع بوقتٍ طويل بأنّ الشمس ستشرق. سوف نرى بوضوح، بعد قرابة ساعة من الآن. أعرني سكينك، يا بابيون.

ناولته السكين دون أيّ تردّ، فخطا خطوتين أو ثلاث خطوات وقطع غصناً من نبتةٍ كثيفة الورق. أعطاني قطعة كبيرة منه واحتفظ بقطعة أخرى لنفسه. ثمّ قال لي:

- اشرب الماء الذي في داخلها وادهن وجهك به.

شربتُ من هذا الوعاء الغريب واغتسلتُ به. وها قد بزغت الشمس.

أعاد إليّ جان السكين. أشعلتُ سيجارة ودخّن جان أيضاً. ثمّ انطلقنا. حوالي منتصف النهار، بعد أن خضنا لعدّة مرّات في مستنقعات طينية كبيرة

وصعبة جدّاً على العبور، دون أي لقاء جيّد أو سيّئ، وصلنا إلى أطراف معسكر إينيني.

اقتربنا من طريقٍ حقيقي للوصول إلى المعسكر. وكان خطّ سكك حديدية ضيّق يسير على جانب هذا الطريق الذي يشبه أرضاً مستصلحة. قال لي جان: «هذه سكّة حديدية لا يعبرها سوى العربات التي يدفعها الصينيون. وتُصدر هذه العربات ضجيجاً رهيباً يُسمع من بعيد». شاهدنا عبور إحدى تلك العربات، التي كان عليها مقعدٌ يجلس عليه حارسان. وكان خلفها صينيان يستخدمان قضباناً خشبية طويلة لكبحها. تطاير الشرر من عجلات العربة، فشرح لي جان أنّ لهذه القضبان الخشبية طرفاً من الفولاذ وأنها تُستخدم لدفع أو كبح العربة.

يسلك الكثير من الناس هذا الطريق، فيمرّ فيه صينيون يحملون على أكتافهم أكداساً من العرائش، في حين يمرّ آخرون وهم يحملون خنزيراً برّياً، وسواهم يحملون حزماً من أوراق أشجار جوز الهند. وبدا أنّ كلّ هؤلاء يتوجّهون نحو المعسكر. أخبرني جان بأنّ هناك أسباباً عديدة للخروج إلى الدَّغَل، مثل صيد الطرائد وجلب عرائش لصنع الأثاث وأوراق أشجار جوز الهند لتجهيز حصائر تحمي خضار البساتين من حرارة الشمس القويّة، ومطاردة الفراشات والذباب والأفاعي، إلخ. ويُسمَح لبعض الصينيين بالذهاب إلى الدَّغَل لبضع ساعات ما إنْ يُنجزوا المهمّة المفروضة عليهم من إدارة المعسكر. وعليهم أن يعودوا جميعاً قبل الساعة الخامسة مساءً.

- تفضّل، يا جان. ها هي خمسمئة فرنكٍ وبندقيتك (التي كنتُ قد أفرغتُ مخزنها من قبل). لديّ سكيني وسيفي القاطع. يمكنك أن تنصرف. شكراً لك. فليجزيك الربّ أفضل منّي على مساعدتك لرجلٍ تعيسٍ يسعى إلى أن يعود إلى الحياة من جديد. لقد كنتَ صادقاً ووفيّاً، شكراً لك مرّة أخرى. أتمنى حينما تروي هذه الحكاية لأطفالك، أن تقول: «كان لهذا السجين الهارب هيئة فتى جسور، لستُ نادماً على مساعدته».

- سيّد بابيون، لقد تأخّر الوقت، وسوف لن أستطيع السير طويلاً قبل أن

يحلّ الليل. احتفظ بالبندقية، وسأبقى معك حتى صباح الغد. أودّ، إن شئتَ ذلك، أن أوقفَ بنفسي الصيني الذي ستختاره لكي يُخبر كويك – كويك. سوف يشعر بخوفٍ أقلّ من رؤيته لرجلٍ أبيضَ هاربٍ من السجن. دعني أخرج إلى الطريق، ليس هناك أيّ حارس، وإذا ما حصل وأن ظهر أحدهم، لن يجد حضوري غير مألوف. سوف أخبره بأنني جئتُ أضع علامات على الخشب الوردي من أجل مشروع الخشب المسمّى «سيمفوريان» في كايين. ثق بي.

– إذاً، خذ بندقيتك، لأنّه سيكون من الغريب رؤية رجلٍ أعزلٍ في الدَّغَل.

– هذا صحيح.

انتصب جان ثابتاً على الطريق، وعليّ أن أُطلِق صفيراً خفيفاً عندما يُعجبني الصيني الذي يظهر.

ظهر عجوزٌ صينيٌّ نحيل يحمل على كتفه جذع شجرة موز، وهو بالتأكيد ملفوف نخلٍ كرنبيٍّ لذيذٍ يُؤكَل، وقال بلهجة محلية:

– بونجو، مونشيه.

صفّرتُ لأنّ هذا العجوز المهذّب، الذي ألقى التحية أوّلاً على جان، أعجبني.

فبادره جان بلهجة محلية ولغة فرنسية ركيكة:

– بونجو، شين. توقّف، «أنا يتحدّث معك».

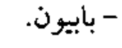
– «ماذا يُريد، موشيه؟».

ثمّ توقّف.

ظلّا يتكلّمان مع بعضهما قرابة خمس دقائق. لم أسمع حديثهما. مرّ صينيان يحملان أيّلاً ضخماً موضوعاً على عصا، معلّقاً من عراقيبه، ويتدلّى رأسه الذي يلامس الأرض. انسلّا من دون أن يُلقيا التحيّة على الرجل الزنجي، ولكن قالا بضع كلماتٍ بلغتهما الصينية لابن بلدهما الذي أجاب بكلمتين أو ثلاث كلمات.

أدخل جان الرجل العجوز إلى الدَّغَل. ووصلا إليّ. وحينما اقتربا منّي، مدّ لي يده، وسألني:

- هل أنت فروفرو (هارب)؟
- نعم.
- من أين؟
- من جزيرة الشيطان.
قال ضاحكاً، وهو ينظر إليّ بعينيه الأسيويتين.
- حسناً. حسناً. وما اسمك؟
- بابيون.



قال بلغة فرنسية ركيكة:
- أنا، «لا يعرف».
- أنا، صديق شانغ، جانغ فوكيان، شقيق كويك - كويك.
- آه! حسناً.
وصافحني مرّة أخرى، ثمّ سألني، ودائماً بلغةٍ فرنسية ركيكة:
- «ماذا أنت يُريد؟».
- أن تُخبر كويك - كويك بأنني هنا وأنتظره.
- غير ممكن.
- لماذا؟
أجاب بلغةٍ ركيكة:
- «كويك - كويك يسرق ستين بطّة قائد المعسكر. قائد يُريد يقتل كويك - كويك. كويك - كويك يهرب».
- منذ متى؟
- منذ شهرين.
- غادر عبر البحر؟
- لا أدري. «أنا يذهب ويتكلّم صيني آخر هو صديق حميم كويك - كويك. هو يُقرر. أنت لا يتحرّك من هنا. أنا يعود هذه الليلة».
- في أيّ ساعة؟
- لا أدري. «ولكن أنا يعود ويجلب طعام من أجلك، سجائر، أنت لا

يشعل نار هنا. أنا يُصفِّر لحن أغنية (لامادلون). عندما أنت يسمع، أنت يخرج على الطريق. مفهوم؟».

- مفهوم.

وانصرف. سألتُ جان:

- وما رأيك أنت في ذلك يا جان؟

- لا شيء نخسره لأنّه إذا أردت، سوف نعود على أعقابنا إلى كورو وسوف أؤمّن لك زورقاً، ومؤناً وشراعاً لكي تركب البحر.

- جان، سأذهب بعيداً جدّاً، ومن المستحيل أن أغادر بمفردي. شكراً على عرضك. في أسوأ الحالات، ربّما أوافق عليه.

وكان الصيني قد أعطانا قطعة كبيرة من ملفوف النخل الكرنبي، فأكلناها. إنّها طازجة ولذيذة مع مذاق ظاهر يشبه مذاق البندق.

سيسهر جان، وأنا أثق به. دهنتُ بعصير التبغ وجهي ويديّ لأن البعوض بدأ يهاجم.

أيقظني جان:

- بابيون، اسمع صفير لحن «لامادلون».

- كم الساعة؟

- الوقت ليس متأخّراً، ربّما الساعة التاسعة.

خرجنا إلى الطريق، وكان الظلام دامساً. اقترب الرجل الذي كان يصفّر، فأجبتُ على صفيره. اقترب أكثر وأصبحنا قريبين جدّاً من بعضنا، بحيثُ أصبحتُ أشعر بوجوده، ولكنني لم أره. من خلال مواصلة الصفير، كلٌّ منّا بدوره، وصلنا إلى بعضنا. وصل ثلاثة رجال، تناوبوا على مصافحتي. وقد أوشك القمر على أن يطلع.

قال أحدهم بلغة فرنسية ممتازة:

- فلنجلس على قارعة الطريق. إذا ما جلسنا في الظلّ، لن يتمكّن أحدٌ من أن يرانا.

جاء جان وانضمّ إلينا.

قال مثقّف العصابة:

- تناول الطعام أوّلاً، وسوف تتكلّم بعد ذلك.

تناولنا، جان وأنا، حساء خضارٍ ساخناً جدّاً. وقد أشاع ذلك الدفء في أجسادنا، وقرّرنا أن نحتفظ بما تبقّى من طعام لوقتٍ لاحقٍ. شربنا شاياً ساخناً محلّى بالسكر بنكهة النعناع، وكان لذيذاً.

- هل أنت صديق شانغ الحميم؟

- نعم، لقد طلب مني أن آتي بحثاً عن كويك - كويك لكي أهرب معه. وقد سبق لي أن هربتُ قبل الآن ذات مرّة إلى مكانٍ بعيدٍ جدّاً، ووصلتُ إلى كولومبيا. أنا بحّارٌ ماهر، ولهذا السبب أراد شانغ أن آخذ شقيقه معي. لديه ثقة بي.

- ممتاز. ما هي الوشوم التي يحملها شانغ على جسده؟

- تنينٌ على صدره، وثلاث نقاط على يده اليسرى. وقد أخبرني بأنّ هذه النقاط الثلاث هي علامة على أنّه كان أحد زعماء تمرّد بولو كوندور. وكان أقرب أصدقائه هو زعيمٌ آخر للتمرّد ويُدعى فان هيو. وذراعه مبتورة.

قال المثقّف:

- هذا أنا. وأنت، أنت بالتأكيد صديق شانغ، وبالتالي صديقنا. اسمع جيّداً: كويك - كويك لم يستطع بعد أن يركب البحر لأنّه لا يُجيد قيادة مركبٍ. ثمّ أنّه وحيد، وهو في الدَّغَل، على بعد قرابة عشرة كيلومترات من هنا، يصنع الفحم من الحطب. يبيع بعض الأصدقاء الفحم ويُسلّمونه المال. وحينما يمتلك الكثير من الأموال، سوف يشتري قارباً ويبحث عن شخصٍ ما لكي يهرب معه عبر البحر. ولا يوجد أيّ خطرٍ عليه في المكان الذي يتواجد فيه. لا أحد يستطيع الوصول إلى ما يشبه الجزيرة التي يتواجد فيها لأنّها محاطة بطميٍّ متحرّك. وسوف يُسقِط الطين أيّ رجلٍ يجازف بخوضه دون أن يكون على دراية بالمكان. سوف آتي عند بزوغ الشمس لكي أرافقك إلى كويك - كويك. تعال معنا.

سلكنا قارعة الطريق، لأنّ القمر قد طلع وأضاء المكان بما فيه الكفاية

لكي يرى المرء لمسافة خمسين متراً حينما وصلنا إلى جسرٍ خشبي، قال لي:

- انزل إلى تحت الجسر. سوف تنام هنا، وسوف آتي في طلبك غداً صباحاً.

تصافحنا وغادروا. ساروا دون أن يختبئوا. وإذا ما بوغتوا بالحرّاس، سوف يزعمون بأنّهم ذهبوا لزيارة فخاخٍ نصبوها في الدَّغَل أثناء النهار. قال لي جان بلغته الفرنسية الركيكة:

- بابيون، «أنت لا ينام هنا. أنت ينام في الدَّغَل، وأنا ينام هنا». حينما يأتي، سوف أناديك.

- وهو كذلك.

عدتُ إلى الدَّغَل ونمتُ سعيداً بعد أن دخّنتُ بعض السجائر، وبطني مليءُ بالحساء اللذيذ.

جاء فان هيو إلى الموعد قبل بزوغ الشمس. ولكسب الوقت، سنمشي على الطريق إلى أن تطلع الشمس. مشينا بسرعة خلال أكثر من أربعين دقيقة. فجأةً أشرقت الشمس، وسمعنا من بعيد ضجيج عربةٍ تتقدّم على السكّة الحديدية، فدخلنا تحت الغطاء النباتي.

- وداعاً، يا جان، شكراً لك وأتمنّى لك حظّاً سعيداً. ليباركك الربّ، أنت وعائلتك.

ألححتُ عليه لكي يقبل بتلقي خمسمئة فرنكٍ. شرح لي، في حال فشلتُ من جهة كويك - كويك، كيف أقترب من قريته وألتفّ عليها وأصل إلى الدرب الضيّق الذي قابلته عليه. إنّه مرغمٌ على أن يمرّ فيه مرّتين في الأسبوع. صافحتُ هذا الزنجي الغوياني النبيل، وانطلق على الطريق.

قال فان هيو وهو يلج إلى الدَّغَل:

- هيّا بنا.

سار دون تردّد وتقدّمنا بسرعة لأنّ الدَّغَل ليس منيعاً على الدخول من جانب الناس. تجنّب أن يقطع بسيفه القاطع الأغصان أو العرائش التي تضايقه، واكتفى بإزاحتها عن طريقه.

كويك – كويك

في غضون أقلّ من ثلاث ساعات، وقفنا أمام مستنقعٍ طيني. وجدنا كمية من زنابق الماء المزهرة وأوراق خضراء كبيرة ملتصقة بالطمي. سرنا على حافة مستنقع الطمي.

حذّرني فان هيو الذي رآني أتعثّر:

- كن حذراً لكي لا تنزلق، وإلّا سوف تختفي من دون أن يكون هناك أملٌ في انتشالك.

- هيّا، سأتبعك، وسوف أكون أكثر حذراً وانتباهاً.

ظهرت أمامنا جزيرة صغيرة على مسافةٍ تقارب خمسمئة مترٍ. رأينا دخاناً يتصاعد من وسط الجزيرة الصغيرة جدّاً. لا بدّ أن يكون هناك صنّاع الفحم في الجزيرة. لمحتُ تمساحاً أمريكياً استوائياً وسط مستنقع الطمي، كانت حواف عينيه تبرزان منه. تُرى على ماذا يمكن لهذا التمساح أن يتغذّى في هذا الطمي؟

بعد أن مشينا لأكثر من كيلومترٍ واحدٍ على طول ضفّة هذه البركة المليئة بالطمي، توقّف فان هيو وبدأ يغنّي باللغة الصينية بأعلى صوته. اقترب رجلٌ من ضفّة الجزيرة، وهو رجلٌ قصير القامة ويرتدي سروالاً قصيراً فقط. تخاطب الصينيان فيما بينهما. طال حديثهما وبدأ صبري ينفد، عندما توقّفا عن الحديث أخيراً. ثمّ قال لي فان هيو:

- لا تأتِ إلى هنا.

سرتُ في إثره وعدنا أدراجنا.

كلّ شيء على ما يُرام، هذا أحد أصدقاء كويك – كويك. كويك – كويك ذاهبٌ إلى الصيد، وسوف لن يتأخّر في المجيء، يجب أن ننتظره هنا ريثما يعود.

جلسنا في المكان، وفي غضون أقلّ من ساعة، وصل كويك – كويك. إنّه رجلٌ قصير القامة، جافّ العود، أناميّ أصفر، له أسنان متصبّغة جدّاً، تكاد تكون سوداء لامعة، وعينان توحيان بالذكاء والصدق.

- أنت صديق أخي شانغ؟
- نعم.
- هذا جيّد. يمكنك أن تُغادر، يا فان هيو.
قال فان هيو:
- شكراً.
- هاك، خذ أنثى الحجل هذه التي اصطدتها.
- لا، شكراً لك.
ثمّ صافحني وانصرف.
أخذني كويك - كويك خلف خنزيرٍ كان يسير أمامه. وكان يتبعه ويسير في إثره حرفياً.
- انتبه جيّداً وكن حذراً، يا بابيون. أدنى خطوة خاطئة، أو أيّ هفوة منك، سوف تغور في الطمي في الحال. وفي حال وقوع حادثٍ كهذا، لا يمكن لأحدنا أن يُنجد الآخر، لأنّه لا يختفي أحدنا وإنّما كلانا. الطريق الذي علينا أن نعبره ليس هو نفسه على الدوام، لأنّه يتحرّك، ولكن الخنزير يجد على الدوام معبراً نسلكه. حدث مرّة واحدة أن اضطررتُ أن أنتظر يومين حتى استطعتُ عبوره.
وبالفعل، شمّ الخنزير الأسود أمامه وسار سريعاً فوق الطمي. خاطبه الصيني بلغته، واندهشتُ حينما رأيتُ هذا الحيوان الصغير يطيعه مثل كلبٍ. راقبه كويك - كويك وأنا تتّسع حدقتا عينيّ، مذهولاً. عبر الخنزير إلى الجانب الآخر دون أن ينغرس في الطمي لأكثر من بضعة سنتيمترات. وسريعاً خاض صديقي الجديد بدوره في الطمي وهو يقول لي:
- ضع قدميك في مكان آثار قدميّ. يجب أن نمشي بسرعة كبيرة لأنّ الحفر التي يتركها الخنزير خلفه تختفي مباشرةً.
عبرنا دون صعوبةٍ. ولم يصل الطمي قط أعلى من مستوى ربلتي ساقيّ، وذلك فقط عند خطّ النهاية.
رسم الخنزير قوسين طويلين، الأمر الذي أرغمنا على أن نسير

على هذه القشرة الصلبة لأكثر من مئتي مترٍ. كان العرق يتصبّب من كلّ أنحاء جسمي. لا يمكنني القول بأنني كنتُ فقط خائفاً، لأنني كنتُ في الحقيقة مذعوراً.

خلال الجزء الأوّل من المسافة، تساءلتُ إن كان القدر يشاء أن أموت بالطريقة نفسها التي مات بها سيلفان. تراءى لي مشهد موته من جديد. كان المسكين، في لحظاته الأخيرة، صاحياً تماماً، رأيتُ جسده، ولكنّ وجهه بدا حاملاً لملامح وجهي. أيّ شعور تركه هذا العبور في داخلي! لن أنسى صديقي قريباً.

- أعطِني يدك.

وساعدني كويك - كويك، هذا الرجل القصير والنحيل من جلدٍ وعظم، في تسلّق الضفّة.

- حسناً، يا صاحبي، لن يأتي صائدو الرجال إلى هذا المكان بحثاً عنّا.

- آه! ولذلك، كن هادئاً ومطمئناً!

توغلنا داخل الجزيرة الصغيرة. تسلّلت رائحة غازٍ كربونيٍّ بقوّة إلى حلقي، فسعلت. إنّها الرائحة الناجمة عن دخان مفحمتين تحترقان. لن أتعرّض لهجمات البعوض هنا. تحت الرياح، وسط الدخان، وكان هناك ملاذ هو عبارة عن كوخٍ سقفه من ورق الشجر وكذلك جدرانه من حصائر منسوجة من ورق الشجر. في الكوخ بابٌ يقف أمامه الرجل الهندوصيني القصير الذي رأيته قبل كويك - كويك.

- صباح الخير، يا موشيه.

- تحدّث معه باللغة الفرنسية، لا باللّهجة المحلية، إنّه أحد أصدقاء أخي.

تفحّصني الرجل ذو الملامح الصينية، القصير والنحيل، من قمّة رأسي حتى أخمص قدميّ. بدا راضياً عن معاينته لي، فمدّ يده إليّ مبتسماً بفمٍ أدرد.

- ادخل، واجلس.

وجدتُ المطبخ الوحيد والفريد في الكوخ نظيفاً، ورأيتُ شيئاً ما يغلي

على النار في قدرٍ كبير. لم يكن هناك سوى سرير واحد مصنوعٍ من أغصان الشجر، يرتفع عن الأرض لمترٍ واحدٍ على الأقلّ.

- ساعدني في إعداد مكانٍ لكي ينام فيه هذه الليلة.

- حسناً، يا كويك - كويك.

في غضون أقلّ من نصف ساعة، جُهِّز سريري الصغير. وضع الصينيان المائدة وتناولنا حساءً لذيذاً، ثمّ أرزّاً أبيضَ مع لحمٍ بالبصل.

الرجل، صديق كويك - كويك، هو بائع فحم الحطب. لا يقيم في الجزيرة، ولهذا السبب مع حلول الليل، وجدنا أنفسنا وحيدين، كويك - كويك وأنا.

- نعم، لقد سرقت جميع بطّات قائد المعسكر ولهذا السبب أنا هاربٌ الآن.

كان وجهانا يُناران للحظات بألسنة اللَّهب المتصاعدة من النار الخافتة، ونحن نجلس قبالة بعضنا. تفحّصنا ملامح بعضنا، ونحن نتكلّم، حاول كلٌّ منا أن يعرف الآخر ويفهمه.

لم يكن وجه كويك - كويك أصفرَ تقريباً، لأنّ الشمس أحالت صفاره الطبيعي إلى اللون البرونزي. وعيناه المغوليتان جدّاً، السوداوان البرّاقتان، تنظران إلى الأمام تماماً حينما يتكلّم. ويُدخّن سيجاراً طويلاً يصنعه بنفسه من ورق التبغ الأسود.

واصلتُ تدخين السجائر التي لففتها من ورق الأرزّ الذي جلبه لي الرجل الأكتع.

- وبالتالي هربت لأنّ قائد المعسكر، صاحب البطّات، أراد أن يقتلني، قبل ثلاثة أشهر من الآن. المصيبة تكمن في أنني خسرتُ اللعبة، ليس فقط ثمن البطّات ولكن أيضاً ثمن الفحم الذي أنتجته المفحَمتان.

- أين تلعب؟

- في الدَّغَل. كلّ ليلة، هناك لعبة بين صينيي معسكر إينيني والمُفرَج عنهم الذين يأتون من قرية كاسكاد.

- هل قرّرت أن ترحل عبر البحر؟

- لا أطلبُ سوى هذا وعندما كنتُ أبيع فحم الحطب، فكّرت في أن أشتري قارباً، وأجد رجلاً يُجيد قيادته ويرغب في أن يرحل معي. ولكن في غضون ثلاثة أسابيع، من خلال بيع الفحم، سوف نستطيع شراء زورقٍ وركوب البحر طالما أنّك تُجيد قيادته.

- لدي المال، يا كويك - كويك. لا ينبغي علينا أن ننتظر بيع الفحم لكي نشتري القارب.

- إذاً، الأمر على ما يُرام. هناك قاربٌ كبير وفي حالة جيّدة يُباع مقابل ألف وخمسمئة فرنكٍ. صاحبه رجلٌ زنجي، يقطع الحطب، ويُريد بيعه.

- حسناً، هل رأيته؟

- نعم.

- ولكنني أُريد أن أراه بنفسي.

- غداً سأذهب لرؤية شوكولا، كما أسمّيه. تحدّث لي عن رحلة هروبك، يا بابيون. كنتُ أعتقد أنّه من المستحيل الهروب من جزيرة الشيطان. لماذا لم يهرب شقيقي شانغ معك؟

رويتُ له حكاية هروبي، والموجة ليزيت، وموت سيلفان.

- أفهم أنّ شانغ لم يشأ أن يغادر معك. كان ذلك بالفعل محفوفاً بالخطر. أنت رجلٌ محظوظٌ للغاية، ولهذا استطعت أن تصل إلى هنا حيّاً. أنا سعيدٌ بذلك.

منذ أكثر من ثلاث ساعات وأنا وكويك - كويك نتحادث. نمنا في وقتٍ مبكّر، لأنّه يريد أن يذهب مع طلوع الشمس لمقابلة شوكولا.

نمنا بعد أن وضعنا غصناً ضخماً فوق النار لتبقى مشتعلة طيلة الليل. جعلني الدخان أسعل وأخذني من حلقي، ولكن كانت له أيضاً فائدة: لم تكن هناك بعوضة واحدة.

متمدّداً فوق سريري المتواضع، ومغطّى بغطاءٍ جيّد، ومرتاحاً بالدفء، أغمضتُ عينيّ، ولكنني لم أستطع أن أنام. فقد كنتُ منفعلاً جدّاً. نعم،

عملية الفرار تسير على ما يُرام، وإذا كان القارب مناسباً، سوف أركب البحر قبل ثمانية أيام. كويك - كويك قصير القامة ونحيل، ولكن لا بدّ أنّه يمتلك قوّة غير عادية ومقاومةً لكلّ محنة. إنّه بالتأكيد صادق وأمين مع أصدقائه، ولكن لا بدّ أنّه أيضاً قاسٍ جدّاً مع أعدائه. من الصعب أن تقرأ شيئاً على وجه الأسيوي، فهو لا يعبّر عن أيّ شيء، ومع ذلك، تشهد عيناه لصالحه.

نمتُ وحلمتُ ببحرٍ مليءٍ بالشمس، ويجتاز قاربي بفرحِ الأمواج، في الطريق نحو الحرية.

- أتريد قهوة أم شاياً؟
- ماذا تشرب؟
- شاياً.
- أعطني شاياً.

كانت الشمس قد أشرقت للتوّ، والنارُ مشتعلة منذ البارحة، والماء يغلي في طنجرةٍ. أطلق ديكٌ صياحه البهيج. لم تكن هناك صيحات طيورٍ من حولنا، ومن المؤكّد أنّ دخان المفاحم يطردها من الأنحاء. كان الخنزير الأسود ينام على سرير كويك - كويك. ولا بدّ أنّه خنزيرٌ كسول لأنّه لا يزال نائماً. تقمّرت فطائرٌ مصنوعة من طحين الأرزّ على الجمر. بعد أن قدّم لي الشاي المحلّى بالسكر، قطع صاحبي فطيرةً إلى نصفين، ودهنها بالزبدة النباتية وقدّمها لي. أفرطنا في تناول طعام الغداء. فقد تناولتُ ثلاث فطائر مقمّرة جيّداً.

- سأغادر، رافقني. إذا ما صرخ أحدهم أو صفّر، لا تردّ عليه. لا خطر عليك أبداً، لا أحد يستطيع المجيء إلى هنا. ولكن إذا أظهرتَ نفسكَ على حافة مستنقع الطمي، يُمكن أن تُقتَل بطلقة بندقية.

استيقظ الخنزير على صياح صاحبه، فأكل وشرِب ثمّ خرج، فتبعناه. ذهب مباشرةً إلى الطمي. ونزل بعيداً بما فيه الكفاية عن المكان الذي وصلنا إليه البارحة. بعد أن سار قرابة عشرة أمتار، عاد. لم يعجبه الممرّ، وبعد ثلاث

محاولات، نجح أخيراً في العبور. وعبر كويك - كويك مباشرةً ودون خشية المسافة إلى الأرض الصلبة.

لن يعود كويك - كويك إلّا عند حلول المساء، ولذلك، تناولتُ لوحدي الحساء الذي كان قد وضعه على النار. بعد أن جمعتُ ثماني بيضات من قنّ الدجاج، أعددتُ طبقاً صغيراً من العجّة من ثلاث بيضات مع الزبدة النباتية. غيّرت الريح اتجاهها وتوجّه الدخان المتصاعد من المفحمتين المقابلتين للكوخ نحو الشاطئ. هطل المطر في فترة ما بعد الظهيرة، فأويتُ إلى سريري وتمدّدتُ فيه، ولم أنزعج من الغاز الكربوني.

قمتُ في الصباح بجولةٍ في الجزيرة. وجدتُ في وسطها تقريباً فسحة كبيرة مفتوحة. ومن خلال الأشجار الساقطة على الأرض والحطب المقطوع أدركتُ أنّ كويك - كويك يستخرج الحطب من هذا المكان لصناعة الفحم. كما رأيتُ حفرةً كبيرة محفورة في الصلصال الأبيض والتي بكلّ تأكيد يأخذ منها كويك - كويك ما يلزم من التراب لتغطية الحطب لكي يحترق من دون لهب. كانت الدجاجات ينقرن في الفسحة، وانسلّ جرذٌ كبير من بين قدميّ، ووجدتُ على بعد بضعة أمتارٍ أفعى ميّتة يبلغ طولها نحو مترين. وليس هناك أدنى شكّ في أنّ الجرذ هو الذي قتلها للتوّ.

كان كلّ هذا النهار الذي أمضيتهُ وحيداً في الجزيرة الصغيرة عبارة عن سلسلة متتالية من الاكتشافات. على سبيل المثال، وجدتُ أسرةً من آكلي النمل مكوّنة من الأم وثلاثة صغار. ورأيتُ منملةً كبيرة في حالة ثوران من حولهم. كما رأيتُ حوالي اثني عشر قرداً صغيراً جدّاً يقفزون من شجرةٍ إلى أخرى في تلك الفسحة. لدى وصولي، صرخ صغار القرود صراخاً تنفطر له القلوب.

عاد كويك - كويك في المساء. قال لي:

- لم أرَ شوكولا، ولا القارب. لا بدّ أنّه قد ذهب لجلب المؤن الغذائية من كاسكاد، القرية الصغيرة التي يوجد فيها بيته. هل أكلتَ جيّداً؟

- نعم.

- هل تُريد تناول المزيد من الطعام؟

- كلا.

- لقد جلبتُ لك علبتي دخان رمادي، وهو من النوع الرديء والرخيص الذي يشتريه الجنود، ولكن لم يكن هناك سواه.

- شكراً لك، الأمران سيّان. حينما ينصرف شوكولا، كم من الوقت يبقى في القرية؟

- يومان أو ثلاثة أيام، ولكنني سوف أذهب مع ذلك يوم غد وكلّ يوم، لأنني لا أعلم متى غادر إلى القرية.

في اليوم التالي، هطلت أمطار غزيرة وعاصفة. وهذا لم يمنع كويك - كويك من المغادرة وهو عارٍ تماماً، يحمل ثيابه تحت ذراعه، مغلّفة بنسيجٍ مشمّع. لم أرافقه. قال لي: «لا داعي لأن تبلّل نفسك تحت المطر».

توقّف المطر عن الهطول، وأعلمتني الشمس بأنّ الساعة تتراوح بين العاشرة والحادية عشرة صباحاً. كانت إحدى المفحمتين، المفحمة الثانية، قد انهارت تحت انهمار المطر. اقتربتُ لأرى حجم الأضرار. لم يستطع المطر الغزير أن يُطفئ تماماً الحطب المشتعل. كان الدخان لا يزال يتصاعد من الكتلة المشوّهة. فجأةً، فركتُ عينيّ قبل أن أنظر مرّة أخرى لشدّة اندهاشي وذهولي بما رأيته: خمسة أحذية تبرز من المفحمة. ولاحظتُ في الحال بأنّ هذه الأحذية الموضوعة رأسياً على كعوبها كانت لكلٍّ منها قدمٌ وساقٌ في نهايته. وبالتالي، هناك ثلاثة رجال يحترقون في المفحمة. لا أحتاج إلى أن أصف لكم ردّة فعلي: إنّ اكتشاف شيءٍ كهذا يجعل رعشة بردٍ صغيرة تسري في الظهر. انحنيتُ ودفعتُ بقدمي القليل من فحم الحطب المحترق جزئياً، فاكتشفتُ القدم السادسة.

لقد تصرّف كويك - كويك بقسوة بالغة وبلا رادع، وحوّل الرجال الذين قتلهم إلى رمادٍ بالجملة. لقد تأثّرتُ للغاية بحيث ابتعدتُ في البداية من المفحمة، وذهبتُ إلى الفسحة لأتعرّض لأشعة الشمس، لأنني كنتُ بحاجة إلى الحرارة. نعم، في هذا الطقس الحارّ والخانق، شعرتُ فجأةً بالبرد وأحسستُ بالحاجة إلى شعاعٍ من الشمس الاستوائية.

حينما تقرأون هذه الكلمات، سوف تعتقدون بأنّ ما حدث لي غير منطقي، وأنّه كان عليّ بالأحرى أن أتصبّب عرقاً بعد اكتشافٍ كهذا لا أن أشعر بالبرد. ولكن، كلا؛ ارتعشتُ من البرد، متجمّداً معنوياً وجسدياً. وبعد ذلك بوقتٍ طويل، أكثر من ساعة، بدأت قطرات العرق تسيل على جبيني، لأنّه كلّما فكّرت، كلّما قلتُ في نفسي بأنّه بعدما أخبرته بأنني أمتلك الكثير من المال في ماسورتي، إنّها لمعجزة أنني لا أزال على قيد الحياة. تُرى ألا يحتفظ بي لكي يضعني في أساس مفحمة ثالثة؟

أتذكّر أنّ شقيقه شانغ قد روى لي بأنّه قد حُكِم عليه بتهمة ممارسة القرصنة والقتل على متن سفينةٍ. حينما كانوا يُهاجمون سفينةً لكي ينهبوها، كانوا يقتلون كلّ العائلة، وطبعاً يتذرّعون بأسبابٍ سياسية. إنّهم بالتالي رجالٌ مدرّبون في الأصل على عمليات القتل الجماعي. من جهة أخرى، أنا سجينٌ هنا، وأجدُ نفسي في موقفٍ حرجٍ للغاية.

جلستُ أستعرض الخيارات في ذهني. إذا قتلتُ كويك - كويك على الجزيرة الصغيرة ووضعته بدوره في المفحمة، دون أن يرى أحدٌ أو يعلم بذلك، لن يطيعني الخنزير، بل أنّ هذا الخنزير الصغير الأليف لا يتكلّم الفرنسية. وبالتالي، ليست هناك طريقة لخروجي من الجزيرة الصغيرة. إذا هاجمت الصيني واحتجزته تحت التهديد بالسلاح، سوف يطيعني، ولكن سيكون عليّ حينئذٍ، بعد أن أرغمه على إخراجي من الجزيرة الصغيرة، أن أقتله على الأرض الصلبة. إذا ألقيتُ به في مستنقع الطمي، سوف يختفي، ولكن لا بدّ أنّ هناك سبباً جعله يحرق الرجال ولا يرميهم في مستنقع الطمي، وهو أسهل عليه من الحرق. أنا لا أبالي بالحرّاس، ولكن إذا اكتشف أصدقاؤه الصينيون بأنني قد قتلته، سوف يتحوّلون إلى صائدي رجال، ومن خلال معرفتهم بالدَّغَل، لن يكون من الهيّن أن أجابههم في أدغالهم.

ليس لدى كويك - كويك سوى بندقية ذات سبطانة واحدة يتمّ تلقيمها من الأعلى. وهو لا يتركها من يده أبداً، حتى حينما يعدّ الحساء. ينام معها ويحملها معه حتى حينما يبتعد عن الكوخ للذهاب إلى المرحاض. عليّ

أن أحتفظ بسكيني مفتوحاً على الدوام، ولكن أحتاج إلى أن أنام. ولكنني، اخترته ليكون شريكي في عملية الهروب!

لم أتناول شيئاً طيلة النهار، ولم أكن قد حسمتُ أمري، عندما سمعتُ منْ يغنّي. إنّه كويك – كويك وقد عاد. مختبئاً خلف أغصان الشجر، رأيته قادماً، وهو يحمل على رأسه حزمةً متوازنة، وحينما اقترب كثيراً من الضفة، ظهرتُ من مخبئي. اقترب منّي مبتسماً، وأعطاني الطرد المغلّف بكيس طحينٍ، وصعد إلى جانبي وتوجّه سريعاً نحو الكوخ، فلحقتُ به.

– هناك خبرٌ سارّ، يا بابيون. لقد عاد شوكولا، ولا يزال القارب بحوزته. يقول بأنّ قاربه يستطيع أن يحمل ثقلاً يزيد وزنه عن خمسمئة كيلوغرام دون أن يغرق. ما تحمله الآن، هو عبارة عن أكياس طحين لصناعة شراعٍ وزاويّ. هذا هو الطرد الأوّل. وسوف نجلب الطرود الأخرى غداً، لأنك سوف تأتي معي لترى إن كان المركب يناسبك.

شرح لي كويك – كويك كلّ هذا دون أن يلتفت إلى الوراء وينظر إليّ. كنّا نسير خلف بعضنا في رتلٍ، يتقدّمنا الخنزير، ثمّ هو ومن ثَمّ أنا. فكّرتُ سريعاً بأنّه لا يبدو عليه قد خطّط لوضعي في المفحمة طالما أنّ عليه أن يرافقني غداً لكي أرى القارب وطالما أنّه قد بدأ بصرف المال على مستلزمات الهروب، حتى أنّه قد اشترى بعض أكياس الطحين.

– بالمناسبة، لقد انهارت إحدى المفاحم. ولا شكّ أنّ ذلك بسبب المطر. لقد هطل المطر غزيراً جدّاً بحيث لم أتفاجئ بانهيار المفحمة.

لم يذهب حتى لرؤية المفحمة ودخل مباشرةً إلى الكوخ. لم أعد أعرف ماذا أقول، ولا أيّ قرارٍ أتّخذ. أن أتظاهر بأنني لم أرَ شيئاً، هو تصرّفٌ غير مقبول، إذ سيبدو غريباً بأنّه طيلة النهار لم أقترب من المفحمة التي لا تبتعد عن الكوخِ سوى خمسة وعشرين متراً.

– هل تركت النار تنطفئ؟

– نعم، لم أنتبه إلى ذلك.

– ولكنّك لم تأكل شيئاً، أليس كذلك؟

- كلا، لم أشعر بالجوع.
- هل أنت مريض؟
- كلا.
- إذاً، لماذا لم تتناول الحساء؟
- كويك - كويك، اجلس، لديّ ما أحدّثك عنه.
- دعني أوقِدُ النار.
- كلا، أُريدُ أن أتكلّم معك في الحال، بينما لا يزال الوقتُ نهاراً.
- ما الأمر؟
- الأمر هو أنّ المفحمة عندما انهارت كشفت عن ثلاثة رجال قمتَ بحرقهم داخلها. أعطني تفسيراً لما قمتَ به.
- آه! لهذا رأيتُك في حالة غريبة!
ودون أن يبدو عليه أيّ تأثّر، نظر إليّ مباشرةً في وجهي، وقال:
- بعد هذا الاكتشاف، لم تكن مرتاحاً، وأنا أفهمك، فهذا أمرٌ طبيعي. بل وأنا محظوظٌ لأنّك لم تطعنني بخنجرك في ظهري. اسمع، يا بابيون، هؤلاء الرجال الثلاثة، كانوا صائدي رجال. والحال أنني منذ أسبوع، أو بالأحرى منذ عشرة أيام، كنتُ قد بعتُ كميّة كبيرة من الفحم لشوكولا. والصيني الذي قابلتَه ساعدني في إخراج الأكياس من الجزيرة. هذه حكاية معقّدة: سحبنا باستخدام حبلٍ يزيد طوله على مئتي مترٍ سلسلة من الأكياس التي انزلقت على وجه الطمي. باختصار، من هنا وحتى جدول صغيرٍ للمياه حيث زورق شوكولا، تركنا الكثير من الآثار خلفنا. فقد سقطت بعض قطع الفحم من أكياس في حالةٍ سيئة. وحينئذٍ بدأ أوّل صائدي الرجال بالتجوال. ومن خلال صيحات البهائم، عرفتُ أنّ هناك شخصاً ما في الدَّغَل. رأيتُ الرجل دون أن يكتشفني. لم يكن من الصعب عليّ أن أعبر إلى الضفة المقابلة، وأن ألتفّ عليه بنصف دائرة وأباغته من الخلف. وقد مات حتى من دون أن يعرف من قتله. ولأنني كنتُ قد لاحظتُ أنّ الطمي يلفظ الجثث إلى الخارج، بعد أن تغوص فيه لبضعة أيام ثمّ تظهر إلى السطح، جلبتُه إلى هنا ووضعته في المفحمة.

- وماذا عن الإثنين الآخرين؟

- كان ذلك قبل ثلاثة أيام من وصولك إلى هنا. كان الظلام دامساً جدّاً في الليل والصمت مطبقاً، وهذا شيءٌ نادرٌ في الدَّغَل. حام هذان الرجلان حول المستنقع منذ هبوط الليل. يسعل أحدهما في نوباتٍ، من وقتٍ لآخر، حينما يذهب الدخان نحوهما، وبسبب هذا السعال انتبهتُ إلى وجودهما في المكان. عند شروق الشمس، غامرتُ في عبور مستنقع الطمي إلى الطرف المعاكس للمكان الذي حدّدت مصدر السعال منه. ولكي لا أُطيل عليك الحديث، نحرتُ صائد الرجال الأوّل، دون أن يستطيع حتى أن يُطلق صرخةً. أمّا بالنسبة إلى الآخر، المسلّح ببندقية صيد، فقد ارتكب خطأً أن كشف نفسه، فقد كان قلقاً جدّاً وهو يتقصّى دغل الجزيرة الصغيرة لكي يرى ما الذي يحدث هناك. أطلقتُ عليه رصاصةً من بندقيّتي، ولأنّه لم يمت، غرستُ سكيني في قلبه. هذه هي، يا بابيون، حكاية الرجال الثلاثة الذين اكتشفتهم في المفحمة. كانوا عربيين وفرنسي واحد. لم يكن من السهل أن أعبر مستنقع الطمي حاملاً أحدهم على كتفي. اضطررتُ لأن أقوم برحلتين، لأنّهم كانوا ثقيلي الوزن. وفي النهاية، استطعتُ أن أضعهم في المفحَمة.

- هل هذا ما حدث بالضبط؟

- نعم، يا بابيون، أُقسِمُ لك على ذلك.

- لماذا لم تضعهم في مستنقع الطمي؟

- كما قلتُ لك، الطمي يُعيدُ الجثث ويلفظها من جوفه. في بعض الأحيان، تسقط فيه غزلان ضخمة، وبعد أسبوعٍ تصعد جثثها إلى السطح. وتنثر رائحة عفنة إلى أن تأتي الطيور من آكلي الجيف وتلتهمها. والعملية تستغرق وقتاً طويلاً، وتُثير صيحاتها وحركة تحليقها الفضول والانتباه. بابيون، وأنت معي، أقسم لك على أنّه لن يحدث لك أيّ شيء تخشاه. تفضّل، وخذ البندقية واتركها معك إن شئت ذلك.

استبدّت بي رغبةٌ جامحة في أن أوافق على أخذ السلاح، ولكنني سيطرتُ على نفسي، وقلت له بأكثر ما يمكن من التصرّف الطبيعي:

- كلا، يا كويك - كويك. إذا كنتُ هنا، فذلك لأنني أشعر بأنني مع صديق، وفي أمان. غداً، سيكون عليك أن تُعيد حرق جثث صائدي الرجال، لأنّك لا تعلم ما الذي قد يحدث هنا بعد أن نغادر. لا أُريد أن أُتهم بقتل ثلاثة أشخاص، حتى ولو كان ذلك غيابيّاً.

- نعم، سوف أُعيد حرق جثثهم مرّة أخرى غداً. ولكن اهدأ وكن مطمئناً، لن يضع أحدٌ قدمه على هذه الجزيرة أبداً. من المستحيل أن يمرّ أحدٌ دون أن يغوص في الطمي ويختفي.

- وحتى مع طوفٍ من المطاط؟

- لم أفكّر في ذلك.

- إذا ما قاد أحدهم الدرك إلى هذا المكان وإذا ما وضعوا في أذهانهم بأن يأتوا إلى الجزيرة، صدّقني أنّهم سيمرّون إذا ما استخدموا طوفاً مطاطيّاً، ولهذا السبب علينا أن نغادر بأسرع ما يمكن.

- حسناً. غداً سنعيد إشعال المفحمة التي لم تنطفئ أصلاً على نحوٍ تامّ. لن يكون علينا سوى أن نعدّ مدخنتين للتهوية.

- عمت مساءً، كويك - كويك.

- طابت ليلتك، يا بابيون. وأُكرّر لك، نم جيّداً، ويمكنك أن تثق بي.

تدثّرتُ بغطاءٍ حتى ذقني، فاستمتعتُ بالدفء الذي أمدّني به. أشعلتُ سيجارةً، وبعد ذلك بأقلّ من عشر دقائق، بدأ كويك - كويك يشخر. وكان خنزيره إلى جانبه يتنفّس بقوّة. لم تعد للنار ألسنة من اللّهب، ولكنّ جذع الشجرة المليء بالجمر يتّقد ويحمرّ حينما يتسرّب النسيم إلى داخل الكوخ، فيمنح سكينةً وصفاءً. تذوّقتُ طعم هذه الراحة ونمتُ وفي ذهني فكرةٌ راسخة: إمّا سأستيقظ غداً، فيسير كلّ شيء على ما يُرام بشكلٍ دائم بين كويك - كويك وبيني، وإمّا أنّ الرجل الصيني ممثّلٌ أكثر براعةً من ساشا غيتراي لكي يستطيع إخفاء نواياه ويروي لي حكايات خيالية، فلن أعود أرى الشمس، لأنني أعرف الكثير عنه، ويمكن لهذا أن يُضايقه.

أيقظني المختصّ في عمليات القتل المتسلسل وفي يده فنجانُ قهوة،

كما لو أنّ شيئاً لم يحدث، متمنّياً لي صباحاً سعيداً مع ابتسامة ودّية على نحوٍ رائع. بزغت الشمس.

- هاك، اشرب قهوتك، وتناول فطيرةً، إنّها بالزبدة النباتية.

بعد أن أكلت وشربت، اغتسلتُ في الخارج، آخذاً الماء من برميلٍ مليءٍ دائماً.

- هل تُريد أن تساعدني، يا بابيون؟

ودون أسأله في ماذا، قلت:

- نعم.

سحب الجثث نصف المحروقة من أقدامها. وقد لاحظتُ دون أن أتفوّه بشيء أنّ بطون الرجال الثلاثة كانت مفتوحة: لا بدّ أنّ الصيني الودود قد بحث في أحشائهم ليعرف إن كانوا يحملون مواسير المال. هل كانوا بالفعل صائدي رجال؟ لماذا لا يكونون صائدي فراشات أو طرائد؟ تُرى هل قتلهم لكي يدافع عن نفسه أم لكي يسرقهم؟ باختصار، لقد فكّرتُ كثيراً في هذه الأمور. لقد وضِعوا في حفرة في المفحمة، وتمّت تغطيتهم جيّداً بالحطب والصلصال. فتحنا مدخنتين للتهوية، وأقلعت المفحمة للقيام بوظيفتها: صنع فحم الحطب وتحويل الجثث الثلاث إلى رماد.

- هيّا بنا، يا بابيون.

وجد الخنزير الصغير ممرّاً في وقتٍ قصير. سرنا في إثره ونحن نكاد نلامس ذيله، وعبرنا مستنقع الطمي. عانيتُ من قلقٍ لا يُطاق في اللحظة التي جازفتُ في السير فوقه. لقد ترك غوص سيلفان في داخلي شعوراً قويّاً للغاية بأنني لا أستطيع أن أغامر في خوض هذا المستنقع بهدوء. وأخيراً، ومع قطراتٍ من العرق البارد، سرتُ خلف كويك - كويك. وقد وضعتُ كلّ قدمٍ من قدميّ في مكان قدمه بالضبط. في كلّ الأحوال، ثمّة أمرٌ واحد: إذا مرّ، سوف أمرّ أنا أيضاً.

بعد أن مشينا لأكثر من ساعتين، قادتنا أقدامنا إلى المكان الذي يقطع

فيه شوكولا الحطب. لم نقابل أحداً في الدَّغَل، وبالتالي ليس هناك أبداً ما يجعلنا نختبئ.

- صباح الخير، موشيه.

- صباح الخير، كويك - كويك.

- هل أنت بخير؟

- نعم، بخير.

- أرِ المركب لصديقي.

وجدتُ القارب قوياً جدّاً، إنّه نوعٌ من القوارب المعدّة للنقل. إنّه ثقيلٌ جدّاً، ولكنّه قويّ. غرستُ سكيني في كلّ بقعةٍ منه، فلم يلج في أيّ مكانٍ منه أكثر من نصف سنتيمتر. ووجدتُ الأرضية أيضاً سليمة. كان الخشب الذي صُنِع منه القارب من الدرجة الأولى.

- بكم ستبيعه؟

- بألفين وخمسمئة فرنكٍ.

- سأدفع لك فيه ألفين.

- اتّفقنا.

- هذا المركب ليس لديه وتد. سوف أدفع لك خمسمئة فرنكٍ إضافي، ولكن يجب أن تضع له وتداً، ودفّة قيادة، وصارياً. يكون الوتد من الخشب الخالص، وكذلك دفّة القيادة. أمّا الصاري، فيكون بطول ثلاثة أمتار من الخشب الخفيف والمرن. متى ستنهي لي هذه الإضافات؟

- خلال ثمانية أيام.

- ها هي ورقتان نقديتان من فئة ألف فرنكٍ وواحدة من فئة خمسمئة فرنكٍ. سوف أقطع كلّ واحدة منها إلى قطعتين، وسوف أعطيكَ النصف الآخر من كلّ ورقة. احتفظ بالأنصاف الثلاثة للأوراق النقدية لديك. اتّفقنا؟

- اتّفقنا.

- أريدُ برمنغنات، وبرميلَ ماء، وسجائرَ، وأعوادَ ثقاب، ومؤناً غذائية لأربعة رجال تكفي لمدّة شهر: طحين وزيت وبن وسكّر. وهذه المؤن

سوف أدفع لك قيمتها بشكلٍ منفصل. وسوف تسلّمني كلّ شيء، على ضفّة نهر كورو.

– موشيه، لا أستطيع أن أرافقكم إلى مصبّ النهر.

– لم أطلب منك ذلك. أنا أقول لك أن تُسلّمني القارب على ضفّة النهر وليس في هذا الخليج الصغير.

– ها هي أكياس الطحين، وحبل، وإبر، وخيط للشراع.

عُدنا، كويك – كويك وأنا، إلى مخبئنا. قبل حلول الليل، وصلنا دون مشكلات. أثناء العودة، حمل الخنزير على كتفيه، لأنّه كان متعباً.

أنا وحيدٌ اليوم أيضاً، وكنتُ أخيط الشراع عندما سمعتُ صيحاتٍ. مختبئاً في الدَّغَل، اقتربتُ من مستنقع الطمي ونظرتُ إلى الضفة الأخرى: كان كويك – كويك يتناقش مع الصيني المثقّف ويومئ بيديه. فهمتُ أنّه يُريد الانتقال إلى الجزيرة الصغيرة وأنّ كويك – كويك لا يُريد ذلك. يحمل كلٌّ منهما في يده سيفاً قاطعاً. وكان الأكتع هو الأكثر تهوّراً من بينهما. تمنّيتُ ألّا يقتل كويك – كويك! قررتُ أن أظهر نفسي للعيان. صفّرت، فالتفتا نحوي.

– ماذا يحدث، يا كويك – كويك؟

صرخ الرجل الآخر:

– أُريد أن أتحدّث إليك، يا بابيون. وكويك – كويك لا يُريد أن يدعني أمرّ.

بعد عشر دقائق أخرى من النقاش باللغة الصينية، سبقهما الخنزير، ووصل الاثنان معاً إلى الجزيرة الصغيرة. جالساً في الكوخ، وفي يد كلّ منهما كوبٌ من الشاي، انتظرتُ أن يقرّرا التحدّث.

قال كويك – كويك:

– هذا هو الموضوع. إنّه يُريد بأيّ ثمنٍ أن يرحل معنا في رحلة الهروب. وأنا أشرح له بأنّه ليس لي شأنٌ في هذه المسألة، وأنّك أنت الذي دفعت المصاريف وتقود كلّ شيء، وهو لا يُريد أن يصدّقني.

قال الرجل الآخر:

- بابيون، كويك - كويك مرغمٌ على أن يأخذني معه.
- لماذا؟
- إنّه هو من بتر ذراعي، قبل عامين، في معركة من أجل مسألة تتعلّق بالقمار. وقد جعلني أُقسمُ على ألّا أقتله. وقد أقسمتُ على ذلك ولكن بشرط: عليه أن يُطعمني مدى الحياة، على الأقلّ طالما أنني أحتاج إلى ذلك. والحال إذا ما رحل، لن أعود أراه في حياتي. ولهذا السبب، إمّا أن يدعك تُغادر بمفردك أو يأخذني معه.
- هذا أمرٌ غريب! اسمع، أنا موافقٌ على أن أصحبك. القارب جيّد وكبير، سوف نرحل بعددٍ أكبر. إذا وافق كويك - كويك، سوف أصحبك معنا.
قال الرجل الأكتع:
- شكراً لك.
- وأنت ما رأيك، يا كويك - كويك؟
- أنا موافق، إذا أردتَ ذلك.
- هناك شيءٌ مهمّ. هل يمكنك الخروج من المعسكر دون أن يتمّ اعتبارك متوارياً عن الأنظار وساعياً إلى الفرار، وتصل إلى النهر قبل حلول الظلام؟
- نعم ليس هناك أيّ عائق. أستطيع الخروج منذ الساعة الثالثة من بعد الظهيرة، وفي غضون أقلّ من ساعتين أكون على ضفّة النهر.
- في الليل، هل ستعثر على المكان، يا كويك - كويك، لكي نحمل صديقك دون أن نضيّع وقتاً؟
- نعم، دون أدنى شكّ.
- تعال بعد الآن بأسبوع لكي تعرف يوم الرحيل.
غادر الرجل الأكتع الجزيرة فرحاً بعد أن صافحني بحرارة. وقد لمحتهما عندما افترقا على الضفة الأخرى. تصافحا باليد قبل أن يفترقا. كلّ شيء على ما يُرام. حينما عاد كويك - كويك من جديد إلى الكوخ، تابعت:
- لقد عقدتَ عقداً غريباً مع عدوك: الموافقة على إطعامه طيلة حياتك، هذا شيء غير عادي. لماذا بترت ذراعه؟

- في شجارٍ بسبب القمار.

- كان من الأفضل لو أنّك قتلته.

- كلا، لأنّه صديقٌ وفي جدّاً. في المحكمة العسكرية التي مثلتُ أمامها بسبب هذه الجريمة، دافع عنّي دفاعاً مستميتاً، قائلاً بأنّه هو من هاجمني وأنني تصرّفتُ في حالة دفاعٍ مشروع. تمّ قبول الاتفاق طواعية من جانبي، وعليّ أن ألتزم به بمنتهى الدقّة. الشيء الوحيد هو أنني لم أكن أجرؤ على أن أخبرك بذلك لأنّك أنت من تدفع نفقات رحلة الهروب.

- لا بأس، يا كويك - كويك، فلنكفّ عن الحديث في هذا الأمر. الأمر يعود إليك أنت، بعد أن تصبح حرّاً، إن شاء اللّه، أن تفعل ما يبدو لك مناسباً.

- سوف ألتزم بوعدي.

- ما الذي تنوي أن تفعله، إذا حدث ذات يوم وأصبحت حرّاً.

- أن أفتتح مطعماً. أنا طبّاخٌ ماهر وهو مختصّ في «شاو مين»، وهو نوعٌ من المعكرونة الصينية.

هذه الحادثة جعلتني في مزاجٍ جيّد، وكانت هذه الحكاية طريفة ومضحكة جدّاً بحيث لم أستطع أنْ أمنع نفسي عن السخرية من كويك - كويك وإغاظته.

أوفى شوكولا بوعده: فبعد خمسة أيام، كان كلّ شيء جاهزاً. تحت وابلٍ من المطر، ذهبنا لرؤية المركب. لم يكن هناك مجال للكلام، فقد كانت الدفّة والعمود الرئيسي قد ركّبا أحسن تركيب وبموادّ فائقة الجودة. كان المركب في انتظارنا في منعطفٍ نهري، محمّلاً ببرميل الماء والمؤن الغذائية. وبقي علينا إشعار الرجل الأكتع بموعد الرحيل. وقد تكفّل شوكولا بالذهاب إلى المعسكر وإخباره بذلك. وتجنّباً لخطر الاقتراب من الضفّة لاستقباله، سوف يصحبه بنفسه مباشرةً إلى مخبأ المركب.

توجد على مخرج نهر كورو منارتان لتحديد الموقع. إذا ما أمطرت، سيمكننا أن نخرج دون مخاطر إلى وسط النهر، دون أن نرفع الأشرعة،

بالطبع لكي لا يتمّ اكتشافنا. أعطانا شوكولا صباغاً أسودَ وفرشاةً. سوف نكتب على الشراع حرفK بحجمٍ كبير مع الرقم 21. هذه العلامة K21 هو الرقم التسلسلي لقارب صيدٍ يخرج في بعض الأحيان إلى الصيد أثناء الليل. وفي حال رآنا أحدٌ ننشر الشراع أثناء الخروج إلى البحر، سوف يعتبروننا مركب الصيد المرقّم.

سيكون موعد الانطلاق مساء الغد في الساعة السابعة، أي بعد ساعة من هبوط الليل. أكّد كويك - كويك على أنّه سيجد لي الطريق وأنّه متأكّدٌ من أنّه سيقودني مباشرةً إلى المخبأ الذي ينتظرنا المركب فيه. وسوف نغادر الجزيرة في الساعة الخامسة، لكي يكون أمامنا ساعة من المشي في وضح النهار.

عدنا إلى الكوخ بفرح وسرور. حمل كويك - كويك، دون أن يلتفت إلى الوراء لأنني كنتُ أسير خلفه، الخنزير الصغير على كتفه، ولم يكفّ عن الكلام. قال:

- أخيراً، سوف أغادر السجن. وبفضلك وبفضل أخي شانغ، سوف أصبح حرّاً. ربّما أستطيع يوماً ما، بعد أن يغادر الفرنسيون الهند الصينية، أن أعود إلى بلدي.

باختصار، لديه ثقة بي، وحينما رآني معجباً بالقارب، كاد أن يطير فرحاً مثل عصفور. نمتُ ليلتي الأخيرة في الجزيرة الصغيرة، وأنا أتمنى أن تكون ليلتي الأخيرة على أراضي غويانا.

إذا ما خرجتُ من النهر، وركبتُ البحر، فهذا يعني بكلّ تأكيد أنني قد نلتُ حريتي. الخطر الوحيد الذي يهدّدنا هو غرق المركب، لأنّه منذ اندلاع الحرب، لم تتمّ إعادة هاربي أيّ بلدٍ إلى بلدانهم. من أجل هذا على الأقلّ، خدمتنا الحرب في شيءٍ ما. صحيحٌ أنّه إذا ما تمّ إلقاء القبض علينا وإعادتنا، سوف يُحكَم علينا بالموت، ولكن هذا إذا ما تمّ توقيفنا. فكّرتُ في سيلفان: كان يجب أن يكون هنا، معي في هذا الفرار، بالقرب مني، لو أنّه لم يرتكب ذلك الخطأ من جرّاء عدم التزامه الحذر. أغمضتُ عيني وأنا أكتب في

ذهني هذه البرقية: «السيّد المحامي العام براديل - أخيراً، وعلى نحوٍ قاطع، انتصرتُ على طريق العفن الذي ألقيتَ بي عليه. لقد احتجتُ إلى تسع سنوات لأحقّق هذا النصر».

كانت الشمس قد ارتقت في السماء كثيراً حينما أيقظني نويك - كويك. قدّم لي شاياً وفطائرَ. رأيتُ العلب متناثرة في كلّ مكان. ولاحظتُ وجود قفصين مصنوعين من أغصان الشجر.

- ماذا تُريد أن تفعل بهذين القفصين؟

- سوف أضع فيهما الدجاج لنأكل لحمها في الطريق.

- أنت مجنون، يا كويك - كويك! لن نأخذ معنا الدجاج.

- بلى، أُريد أن آخذها.

- هل أنت مريض؟ إذا ما خرجنا بسبب المدّ المنخفض في الصباح وصرخت الدجاج والديوك وصاحت على النهر، هل تُدرك حجم الخطر؟

قال كويك - كويك بلغة فرنسية ركيكة:

- «أنا لا يرمي الدجاج».

- اطبخها واحفظها في الدهون والزيت. سوف تُحفَظ جيّداً وسوف نأكل لحمها خلال الأيام الثلاثة الأولى.

وأخيراً اقتنع كويك - كويك، فراح يجلب الدجاج، ولكن صرخات الدجاجات الأربع الأولى التي أمسك بها يبدو أنّها قد أنذرت الأخريات، فلم يستطع أن يُمسِك بدجاجة أخرى، إذ إنّها اختبأت جميعاً في الدَّغَل. إنّه لغز البهائم التي تستشعر الخطر، ولكنني لا أعرف كيف.

الرجل اللطيف

عبرنا مستنقع الطمي، محمّلين كبغلين، ونحن نسير خلف الخنزير. وقد توسّل إليّ لكي نأخذ الخنزير معنا.

- هل تعدني بأنّ لا يصرخ هذا الحيوان؟

- أقسم لك على أنّه لن يفعل، فهو يسكت حينما آمره بذلك. حتى حينما

طاردنا لمرّتين أو ثلاث نمرٌ كان يلتف لكي يُفاجئنا، لم يصرخ الخنزير. مع أنّ وبر كلّ جسمه كان منتصباً من شدّة الخوف.

مقتنعاً بحسن نيّة كويك - كويك، وافقتُ على أن نأخذ معنا خنزيره العزيز. وصلنا إلى المخبأ مع هبوط الليل، ووجدنا شوكولا موجوداً في المكان مع الرجل الأكتع. أتاح لي مصباحان كهربائيان أن أتفحّص كلّ شيء. تبيّن أنّه لم يكن ينقصنا أيّ شيء: كانت حلقات الشراع ممرّرة في الصاري، والزاويّ، ومركّبة في مكانها الصحيح، وكان الشراع جاهزاً لكي يُرفَع. قام كويك - كويك مرّتين أو ثلاث مرّات بالمناورة التي حددتها له. وقد عرف سريعاً ما الذي أنتظره منه. دفعتُ المال للرجل الزنجي الذي عاملنا بمنتهى الصدق والنزاهة. لقد كان ساذجاً إلى درجة أنّه جلب معه الورق اللاصق وأنصاف الأوراق النقدية. وطلب مني أن أُلصقها له. لم يفكّر للحظة واحدة بأنني أستطيع أن أستردّ منه الأوراق النقدية. الناس الذين ليست لديهما أفكار سيّئة حيال الآخرين، يكونون كذلك لأنّهم هم أنفسهم طيّبون وأخيار. كان شوكولا رجلاً شجاعاً وشريفاً. بعد أن رأى كيف تتمّ معاملة السجناء المحكومين بالأشغال الشاقّة، لم يندم قطّ على مساعدة ثلاثة منهم على الفرار من هذا الجحيم.

- وداعاً، يا شوكولا. أتمنى حظّاً سعيداً لك ولأسرتك.

- شكراً جزيلاً.

الدفتر الحادي عشر
وداع السجن

هروب الصينيين

كنتُ آخر من يصعد إلى المركب، ودفع شوكولا المركب، فتقدّم نحو النهر. لم تكن لدينا مجاديف، ولكن كان لدينا لوحان خشبيان مناسبان، فجدّف كويك - كويك بأحدهما في المقدّمة، في حين جدّفتُ بالآخر. وخلال أقلّ من ساعتين وصلنا إلى النهر.

ظلّ المطر يهطل منذ ساعة، فاستخدمتُ كيس طحينٍ مصبوغاً كواقٍ من المطر، وكذلك فعل كلٌّ من كويك - كويك وزميلنا الأكتع.

كان جريان النهر سريعاً ومياهه مليئة بالدوّامات. وعلى الرغم من شدّة التيار، في غضون أقلّ من ساعة، أصبحنا وسط مجرى المياه. وبمساعدة المدّ المنخفض، عبرنا بعد ثلاث ساعات بين المنارتين. عرفتُ أنّ البحر قريب لأنّ المنارتين كانتا في أقصى حدّ المصبّ. نشرنا الشراع الرئيسي والزاويّ في الهواء، وخرجنا من نهر كورو دون أيّ متاعب. انقضّت الريح علينا جانبياً بشدّة بحيث اضطررتُ لأن أدعها تمرّ من فوق الشراع. دخلنا إلى البحر بسرعةٍ شديدة، وعبرنا كالسهم المدخل إلى مياهه وابتعدنا سريعاً عن الشاطئ. أمامنا، وعلى بعد أربعين كيلومتراً، كانت منارة جزيرة رويال ترشدنا إلى الطريق.

قبل ثلاثة عشر يوماً، كنتُ موجوداً خلف هذه المنارة، في جزيرة

الشيطان. هذا الخروج الليلي إلى البحر، هذا الافتراق السريع عن البرّ الرئيسي لم يلقَ ترحيباً عاصفاً وفرحاً عارماً من جانب رفيقي الصينيين. لم يكن لابْنَي السماء هذين مثلنا الأسلوب نفسه في إظهار مشاعرهما.

ما إنْ أصبحنا في البحر، قال كويك - كويك فقط، وبصوتٍ طبيعي:

- لقد خرجنا بطريقة ممتازة.

أضاف الأكتع:

- نعم لقد دخلنا إلى البحر دون أيّ صعوبة.

- أنا ظمآن، يا كويك، أعطني القليل من شراب الروم.

بعد أنّ قدّماه لي، شربا بدورهما جرعة جيّدة من الروم. كنتُ قد غادرتُ من دون بوصلة، ولكن خلال رحلتي الأولى في الهروب، تعلّمتُ سلوك الاتجاهات حسب الشمس والقمر والنجوم والريح. وبالتالي وجّهتُ دون تردّدٍ على النجم القطبي، وانطلقتُ نحو أعالي البحر. أحسن المركب أداءً؛ فصعد الموج برشاقة ولم يلتفّ تقريباً. ولأنّ الريح كانت عاتية، بحلول الصباح، كنّا قد ابتعدنا كثيراً عن الشاطئ وعن جزر الخلاص. ولو لم يكن في ذلك مجازفةٌ كبيرة، لاقتربتُ من جزيرة الشيطان لكي أتأمّلها جيّداً، وأنا أمرُّ بقربها براحتي من عرض البحر.

لقد واجهنا، خلال ستة أيام، طقساً مضطرباً، ولكن من دون أمطارٍ ولا عواصف. دفعتنا الرياح القويّة بسرعة كبيرة نحو الغرب. كان كويك - كويك وهيو رفيقين رائعين، إذ لم يشتكيا أبداً، لا من الطقس العاصف، ولا من الشمس الحارقة في النهار، ولا من البرد في الليل. لكن كان هناك مأخذٌ وحيد عليهما، إذ لم يشأ أيّ منهما أن يلمس مقبض الدفّة ويتولّى أمر المركب لبضع ساعات لكي أستطيع أن أنام. كانا يتناولان الطعام من ثلاث إلى أربع مرّات في اليوم. وقد قضيا على كلّ الدجاج والديوك.

البارحة، قلتُ لكويك ممازحاً:

- متى سنأكل الخنزير؟

وقد أظهر انزعاجاً حقيقياً من مزحتي هذه، وقال:

- هذا الحيوان صديقي، وقبل أن تقتله لكي تأكل لحمه، يجب أن تقتلني أنا.

انشغل رفيقاي بالقرب منّي وهما لا يدخّنان لكي أستطيع أن أُدخّن كلّما أردتُ ذلك. أعدّا لي الشاي الساخن على الدوام، وفعلا كلّ شيء من دون أن أطلب منهما أيّ شيء.

ها قد مضت سبعة أيامٍ على انطلاقنا، ولم أعد أحتمل التعب والإرهاق. كانت الشمس تضرب بحرارة لاهبة إلى درجة أنّ حتى صاحباي الصينيان احترقا بلهيبها وأصبحا مثل السلطعون. قرّرتُ أن أنام، فربطتُ مقبض الدفّة وتركتُ الشراع مرفوعاً قليلاً. وبالتالي سيسير القارب كما تدفعه الرياح. غططتُ في نومٍ عميق قرابة أربع ساعات.

استيقظتُ بفعل هزّة قويّة جعلتني أقفز من مكاني. حينما غسلتُ وجهي بالماء، تفاجأتُ عندما تبيّن لي أنّ كويك قد حلق ذقني أثناء نومي دون أن أشعر بأيّ شيء، وكذلك دهن وجهي بالزيت بعناية فائقة.

منذ البارحة مساءً، أصبحتُ أميل باتجاه الجنوب الغربي لأنني اعتقدتُ بأنني قد صعدتُ كثيراً باتجاه الشمال. كان لهذا المركب الثقيل ميزة إيجابية وهي أنّه، علاوة على كونه يصمد في البحر، لا ينحرف بسهولة. ولهذا السبب أفترض أننا بالغنا في التوجّه نحو الشمال، لأنني حسبتُ مقدار الانحراف، فتبيّن لي بأنّه ربّما يكاد يكون معدوماً. عجباً، ها هو منطادٌ مسيّر في الجوّ! وهذه أوّل مرّة في حياتي أرى منطاداً مثله. لم يبدُ أنّه قادمٌ نحونا وكان بعيداً جدّاً عنّا بحيث لم نستطع أن نقدّر حجمه.

منحته الشمس المنعكسة على معدنه الألمنيومي تلوينات فضّية ولمّاعة جدّاً بحيث لم نستطع التحديق فيه بالعينين. غيّر مسار سيره، كما لو أنّه يتوجّه نحونا. وبالفعل، رأيناه يزداد حجماً، وفي غضون أقلّ من عشرين دقيقة، أصبح فوقنا. وقد ذُهِلَ كويك وصاحبنا الأكتع كثيراً لرؤية هذه الآلة بحيث لم يكفّا عن الثرثرة باللغة الصينية.

- تكلّما بالفرنسية، بحقّ السماء! لكي أفهم ما تقولانه.

قال كويك:
- منطاد مستطيل إنكليزي.
- كلّا، هذا ليس منطاداً مستطيلاً تماماً، بل هو منطادٌ مسيّر.

أصبحنا نرى تفاصيل الآلة الضخمة تماماً الآن وقد أصبحت منخفضة جدّاً وتحوم فوقنا في دوائر ضيّقة. خرجت أعلامٌ من المنطاد وأعطت إشارات. ولأننا لم نفهم شيئاً من تلك الإشارات، لم نستطع الردّ عليها. ألحّ المنطاد وهو يمرّ على نحو أقربٍ فوق رؤوسنا بحيث أصبحنا نرى أناساً داخل قمرة القيادة. ثمّ انصرفوا بخطٍّ مستقيم نحو اليابسة. بعد أقلّ من ساعة، وصلت طائرة قامت بعدّة مناورات فوقنا.

هاج البحر وأصبحت الريح أشدّ قوّةً على نحوٍ مفاجئ، وبات الأفق صافياً من كلّ الجوانب، وانعدم خطر هطول المطر.

قال الأكتع:
- انظر.
- إلى أين؟
- هناك، هذه النقطة باتجاه المكان الذي من المفترض أن يكون الأرض. هذه النقطة السوداء هي سفينة.
- كيف تعرف ذلك؟
- أفترض ذلك، بل وأقول لك بأنّه قد يكون طرّاداً سريعاً.
- لماذا؟
- لأنّها لا تصدر دخاناً.

وبالفعل بعد انقضاء ساعة، رأينا بوضوحٍ شديد سفينة حربية رمادية اللون بدت أنّها تتّجه مباشرةً نحونا. ازداد حجم السفينة، وهذا يعني أنّها تتقدّم بسرعةٍ مذهلة، ورأسها مصوّبٌ نحونا، إلى درجة أنني خشيتُ من أن تُلامسنا عن كثب. سيكون ذلك خطيراً لأنّ البحر هائج ويمكن لأثرها المعاكس للموج أن يُغرقنا.

كان طوربيداً، استطعنا أن نقرأ عليه اسم «تاربون» حينما انعطف

في نصف دائرة، وبدا بكامل طوله. رفرف العلم الإنكليزي على مقدّمة هذا الطرّاد بعد أن أكمل انعطافته نصف الدائرية، وأقبل نحونا ببطء، من الخلف. أخذ مساره بحذر بمحاذاتنا، وبسرعة زورقنا نفسها. رأينا قسماً كبيراً من أفراد طاقمه يقفون على متنه، وهم يرتدون الزي الأزرق البحري الإنكليزي. وقف ضابطٌ يرتدي زيّاً أبيض اللون في ممرّ الطوربيد وفي فمه جهازٌ مكبّرٌ للصوت، وصرخ باللغة الإنكليزية:

- توقّفوا. يا أنتم، توقّفوا!

قلتُ:

- أنزل الأشرعة، يا كويك!

وفي غضون أقلّ من دقيقتين، تمّ إنزال الشراع الرئيسي والشراع الأمامي والزاويّ. بعد أن أصبح قاربنا بلا شراع، كاد أن يتوقّف عن التقدّم، وحدها الأمواج ظلّت تسحبنا في طريقها. علمتُ أنني لا أستطيع أن أمكث هكذا لوقتٍ طويل دون أن أتعرّض للخطر، فقاربٌ بلا قوة دفعٍ خاصّة أو محرّك أو قوّة رياح، لا يخضع لدفّة القيادة. ويصبح الوضع خطيراً للغاية حينما تكون الأمواج عالية. استخدمتُ يديّ كمكبّرٍ للصوت، وصرخت:

- هل تتحدّث الفرنسية، أيّها القبطان؟

فأمسك ضابطٌ آخر بمكبّر الصوت، وقال:

- نعم، أيّها القبطان، أنا أفهم الفرنسية.

- ماذا تُريدون منّا؟

- أن نحمل قاربكم على متن طوربيدنا.

- كلا، هذا أمرٌ في غاية الخطورة، لا أُريد أن تحطّموا قاربي.

- نحن سفينة حربية تُراقب البحر، عليكم أن تطيعوا أوامرنا.

- لا أبالي بهذا، لأننا لسنا مقاتلين ولا نخوض حرباً.

- ألستم من الناجين من ركاب سفينة متحطّمة؟

- كلا، نحن هاربون من (بان)[1] فرنسي.

1- Bange: تُستخدَم هذه الكلمة في اللغة الفرنسية بمعنى سجن الأشغال الشاقة – المترجم.

- أيّ بان، وماذا تعني كلمة بان؟

- سجنٌ للأشغال الشاقّ، إصلاحية. (كونفيكت) باللغة الإنكليزية. الأشغال الشاقّة.

- آه! نعم، نعم، لقد فهمت. أنتم قادمون من كايين؟

- نعم، من كايين.

- وإلى أين تذهبون؟

- إلى هندوراس البريطانية.

- هذا غير ممكن. عليكم أن تتّجهوا إلى الجنوب الغربي وتذهبوا إلى جورج تاون. أطيعوا، فهذا أمر.

أجبتُ بمفردة إنكليزية:

- حسناً.

طلبتُ من كويك أن يرفع الأشرعة وسلكنا الاتجاه الذي دلّنا عليه الطوربيد.

سمعنا صوت هدير محرّكٍ خلفنا، فرأينا قارباً انفصل عن الطوربيد ولحق بنا سريعاً. رأينا بحّاراً يحمل بندقيةٍ ويقف على مقدّمة القارب. أقبل القارب من الجانب الأيمن، وكاد أن يلامسنا من دون أن يتوقّف أو يطلب منّا التوقّف. وبقفزةٍ واحدة، قفز البحّار إلى قاربنا. واصل قاربهم طريقه وانضمّ إلى الطرّاد.

قال البحار باللغة الإنكليزية:

- طاب نهاركم.

تقدّم نحوي، وجلس إلى جانبي، ثمّ وضع يده على مقود الدفّة وأداره نحو الجنوب أكثر مما كنتُ قد فعلت. تخلّيتُ له عن مسؤولية القيادة، مراقباً طريقته في فعل ذلك. وجدتهُ بارعاً في المناورة، وليس هناك أدنى شكّ في ذلك. رغم كلّ شيء، بقيتُ في مكاني، ونحن لا نعلم أبداً ماذا يُريد.

- سجائر؟

وأخرج ثلاث علب من السجائر الإنكليزية وأعطى لكلّ منّا علبة.
قال كويك:
- يا إلهي، لقد أعطوه علب السجائر في اللحظة التي نزل فيها إلينا، فليس من الممكن أن يجول ومعه ثلاث علب سجائر.
ضحكتُ من تفكير كويك، ثمّ انشغلتُ بالبحّار الإنكليزي الذي يجيد قيادة دفّة القارب أفضل منّي. أُتيح لي الوقت الكافي للتفكير. وقلتُ في نفسي أنّ الهروب في هذه المرّة قد نجح إلى الأبد، وأنا الآن رجلٌ حرٌّ، حرّ. صعدت حرارةٌ إلى حلقي، حتى اعتقدتُ أنّ دموعاً تتلألأ في عيني. نعم هذا صحيح، أنا حرٌّ بشكلٍ نهائي، طالما أنّه منذ اندلاع الحرب لم يُرجع أيّ بلدٍ الهاربين من السجون إلى بلدانهم.
قبل أن تنتهي الحرب، سوف يكون لديّ متّسعٌ من الوقت لكي أردّ لنفسي الاعتبار والاعتراف في أيّ بلدٍ أستقرّ فيه. والعقبة الوحيدة التي تعترض سبيلي هي أنّني مع استمرار الحرب، قد لا أستطيع أن أختار البلد الذي أودّ الاستقرار والبقاء فيه. وهذا ليس مهمّاً، فأيّاً كان البلد الذي سأعيش فيه، سوف أنال في وقت قصير احترام وثقة الناس والسلطات من خلال طريقة حياتي التي ينبغي لها أن تكون، وسوف تكون، نظيفة لا تشوبها شائبة، بل ومثالية.
كان الإحساس بالأمن من جراء الانتصار في النهاية على طريق العفن عارماً بحيث لم أفكّر بأيّ شيءٍ آخر. وأخيراً، لقد ظفرتَ، يا بابيون! بعد مضي تسعة أعوام، ها قد انتصرت نصراً نهائياً لا رجعة فيه. شكراً لك، يا إلهي، ربّما كان بوسعك أن تفعل ذلك قبل الآن، ولكن دروبك غامضة، ولا أشتكي منك، فبفضل مساعدتك ما زلت شابّاً، وسليماً وحرّاً.
وبينما كنتُ أفكّر في الطريق الذي قطعته خلال الأعوام التسعة هذه في سجن الأشغال الشاقّة، بالإضافة إلى السنتين اللتين أمضيتهما في فرنسا من قبل، أي ما مجموعه أحد عشر عاماً، تبعتُ بأنظاري حركة ذراع البحار وهو يُشير ويقول لي: «الأرض».

في الساعة الرابعة من بعد الظهيرة، بعد أن تجاوزنا منارةً مطفأة، دخلنا إلى نهرٍ كبير يُدعى نهر ديميرارا. ظهر الزورق من جديد، فسلّمني البحّار مقود الدفّة وأخذ مكانه في مقدّمة القارب. تلقى في الهواء حبلاً ضخماً ربطه بالمقعد الأمامي. وأنزل بنفسه الأشرعة، وخضنا بهدوء، يجرّنا الزورق، لما يقارب عشرين كيلومتراً هذا النهر الأصفر، ويسير في إثرنا الطوربيد على بعد مئتي مترٍ عنّا. بعد انعطافةٍ، لاحت لنا مدينة كبيرة، فصرخ البحّار الإنكليزي: «إنّها جورج تاون».

في الواقع، لقد دخلنا إلى عاصمة غويانا الإنكليزية بهدوء، يجرّنا الزورق الإنكليزي. كان هناك الكثير من سفن الشحن المحمّلة، وزوارق وسفن حربية. ومدافع منصوبة على أبراج على ضفّة النهر، وترسانة كاملة، على الوحدات البحرية كما على الأرض.

إنّها الحرب. وعلى الرغم من انقضاء عامين على اندلاع الحرب، إلّا أنني لم أكن قد شعرتُ بها. جورج تاون، عاصمة غويانا الإنكليزية، والميناء المهمّ على نهر ديميرارا، تقع في طريق الحرب مئة بالمئة. بدا لي شعوراً غريباً أن أرى مدينة مدجّجة بالسلاح. بالكاد رسونا على رصيفٍ عسكري، حتى صعدنا إلى الرصيف، يحمل كويك خنزيره، ويُمسك هيو بكيسٍ صغيرٍ بيده، في حين لم أكن أحمل معي أيّ شيء. لم يكن هناك أيّ مدنيّ على هذا الرصيف المخصّص للقوات البحرية.

وحدهم البحّارة والعسكريون يجوبون الرصيف. جاء ضابطٌ، فتعرّفتُ عليه. إنّه الضابط الذي تحدّث إليّ باللغة الفرنسية على متن الطوربيد. مدّ لي يده بلطف وقال لي:

- هل أنت بصحّة جيّدة؟

- نعم، أيّها القبطان.

- ممتاز. ومع ذلك سيكون عليكم الذهاب إلى المستوصف، حيث ستعطى لكم العديد من اللقاحات. لك ولصديقيك أيضاً.

الدفتر الثاني عشر
جورج تاون

الحياة في جورج تاون

في فترة ما بعد الظهيرة، وبعد أن تلقينا مختلف أنواع اللقاحات، تمّ نقلنا إلى مركز شرطة المدينة، وهي أشبه بمفوضية شرطة ضخمة يدخل إليها ويخرج منها المئات من رجال الشرطة دون توقّف. إنّ مفوّض شرطة جورج تاون، السلطة الأولى للشرطة المسؤولة عن أمن وسلامة هذا الميناء المهمّ، هو الذي استقبلنا مباشرةً في مكتبه. ومن حوله، يتحلّق ضبّاطٌ إنكليز يرتدون الزيّ الكاكي، لا تشوبهم شائبة بسراويلهم القصيرة وجواربهم البيضاء. أشار علينا الكولونيل أن نجلس أمامه، وقال لنا بلغة فرنسية فصحى:

- من أين كنتم تأتون، حينما تمّ اكتشافكم في البحر؟
- من سجن الأشغال الشاقّة في غويانا الفرنسية.
- من فضلكم أخبروني عن النقاط المحدّدة بدقّة التي هربتم منها.
- أنا هربتُ من جزيرة الشيطان. والآخران من معسكرٍ شبه سياسي في إينيني، بالقرب من كورو، في غويانا الفرنسية.
- ما هو حكمك؟
- السجن المؤبّد.
- الدافع: القتل.

- وما سبب حكم الصينيين؟
- القتل أيضاً.
- ومدّة الحكم؟
- السجن المؤبّد.
- ما هي مهنتك؟
- كهربائي.
- والآخران؟
- طبّاخان.
- هل تؤيّدون ديغول أم بيتان؟
- نحن لا نعرف أيّ شيء عن هذا الأمر. نحن رجالٌ سجناء يسعون إلى العودة إلى ممارسة حياتهم بحرية وباستقامة.
- سوف نعطيكم زنزانة ستكون مفتوحةً طيلة النهار، وفي الليل. سوف نمنحكم حريتكم بعد أن نتحقّق من أقوالكم. إذا كنتم قد قلتم الحقيقة، ليس هناك ما تخشونه. أرجو أن تفهموا بأننا في حالة حرب وأنّه علينا أن نتّخذ من الاحتياطات أكثر ممّا كنّا نفعل في الحالة الطبيعية.

باختصار، بعد ثمانية أيام أُطلق سراحنا وأصبحنا طلقاء. استفدنا من هذه الأيام الثمانية التي أمضيناها في مركز الشرطة لكي نتزوّد بألبسة لائقة ومحتشمة. وقد وجدنا أنفسنا، صديقاي الصينيان وأنا، بثياب أنيقة ومناسبة في الشارع في الساعة التاسعة صباحاً، مزوّدين ببطاقات هوية تحمل صورنا الشخصية.

كانت معظم بيوت المدينة التي يبلغ عدد سكانها ربع مليون نسمة من الخشب ومبنية حسب الطراز الإنكليزي: حيث يكون الطابق الأرضي من الإسمنت، بينما يكون ما تبقّى من الخشب. وتعجّ الشوارع والجادات بأناسٍ من كلّ الأعراق: البيض والسُمر والزنوج والهندوس، عمّال، وحمّالون صينيون وهنود، وبحّارة إنكليز وأمريكيون، ومن الشمال الأوروبي. شعرنا بشيءٍ من النشوة والثمالة بوجودنا وسط هذا الحشد

المتعدّد الألوان. انتابنا فرحٌ غامرٌ وفاض في قلوبنا بحيث لا بدّ وأنّه قد ظهر على وجوهنا، حتى على وجوه الصينيين، لأنّ الكثير من الأشخاص كانوا ينظرون إلينا ويبتسمون لنا بمودّة ولطف.

قال كويك:

- إلى أين نذهب؟

- لديّ عنوانٌ تقريبي. لقد أعطاني شرطيٌّ عنوان شخصين فرنسيين في حي بينيتانس ريفرز.

بعد أن أخذنا المعلومات المطلوبة، تبيّن لنا أنّه حيّ يعيش فيه حصرياً هندوس. ذهبتُ إلى شرطيّ يرتدي بزّة بيضاء ناصعة. أطلعته على العنوان. وقبل أن يُجيب، طلب منّا بطاقات الهويّة خاصّتنا. فأعطيته بطاقتي بافتخار. «ممتاز، شكراً». فتجشّم عناء مساعدتنا ووضعنا في قطارٍ كهربائي بعد أن تحدّث مع السائق. خرجنا من مركز المدينة، وبعد عشرين دقيقة، أنزلَنا السائق. لا بدّ أن يكون هذا هو الحيّ. في الشارع، بدأنا نسأل. قال لنا شابّ باللغة الإنكليزية: «الرجلان الفرنسيان؟»، ثمّ أشار لنا بأن نتبعه. قادنا في خطّ مستقيم إلى بيت صغير وواطئ. ما كدتُ أن أقترب، حتى خرج ثلاثة رجال من المنزل مع حركات ترحابٍ. سألني أحدهم:

- كيف وصلتَ إلى هنا، يا بابي؟

قال أكبرهم سنّاً، ذو الشعر الأبيض بالكامل:

- هذا غير ممكن! ادخل. هذا بيتي. هل الصينيان معك؟

- نعم.

- تفضّلوا بالدخول، على الرحب والسعة.

هذا العجوز المحكوم بالأشغال الشاقة يُدعى غيتو أوغست، ويُنادى عليه اختصاراً غيتو، وهو رجلٌ نقي من مرسيليا، وقد صعد إلى قافلتي نفسها على متن لامارتينير في عام 1933، قبل تسعة أعوام. وبعد محاولة فرار فاشلة، تمّ إعفاؤه من عقوبته الرئيسية وقد فرّ كسجينٍ مُفرَج عنه قبل ثلاثة أعوام، حسب ما أخبرني. أمّا الآخران، فأحدهما يُدعى بوتي لويس،

وهو رجلٌ ينحدر من مدينة آرل، والآخر من مدينة تولون، ويُدعى جولو. وهما أيضاً غادرا بعد أن أمضيا فترة عقوبتهما، ولكن كان عليهما أن يبقيا في غويانا الفرنسية ليقضيا عدد السنوات نفسها التي كانا قد حُكِما بها، وهي عشر وخمسة عشرة سنة (وهذا العقاب الثاني يُدعى دبلجة).

كانت في البيت أربع غرف: حُجرتان ومطبخ - قاعة طعام - ومشغل. كانوا يصنعون أحذية من صمغ شجر البلاطة، وهو نوعٌ من المطّاط الطبيعي يتمّ جمعه من الدَّغَل ويمكن، باستخدام الماء الساخن، الاشتغال عليه وتكييفه وتشكيله بشكلٍ ممتاز. وعيبه الوحيد هو أنّه يذوب إذا ما تعرّض للشمس كثيراً، لأنّ هذا المطّاط ليس مفلكناً[1]. وتتمّ معالجة هذه المادة اللدنة بإضافة رقائق من القماش بين طبقات صمغ شجر البلاطة.

استقبلنا غيتو بحفاوة مذهلة، بقلب رجلٍ جعلته المعاناة سامياً، ورتّب لنا غرفة لكي نقيم فيها نحن الثلاثة، واستضافنا في بيته بلا تردّد. لم يكن هناك سوى مشكلة واحدة، وهي مشكلة خنزير كويك، لكن كويك زعم بأنّه لن يلوّث المنزل، وأنّ هذا مؤكّد، وأنّ الخنزير سوف يذهب لقضاء حاجاته لوحده في الخارج.

قال غيتو: «حسناً، سوف نرى، في الوقت الراهن، دعه معك».

أعددنا لأنفسنا ثلاثة أسرّة على الأرض بشكلٍ مؤقّت باستخدام أغطية عسكرية قديمة.

جلستُ أمام الباب، ونحن الستة ندخّن بعض السجائر، رويتُ لصاحبي غيتو كلّ مغامراتي خلال تسعة أعوام. أصغى إليّ هو وصديقاه بكلّ جوارحهم وعاشوا بتركيزٍ شديد مغامراتي، لأنّهم أحسّوا بها في تجربتهم الخاصّة. عرف اثنان منهم سيلفان وبكيا بحرقة لموته الرهيب. مرّ من أمامنا ذهاباً وإياباً الكثير من الناس من كلّ الأعراق. ومن وقتٍ لآخَر، كان يدخل أحدهم ليشتري حذاءً أو مكنسةً، لأنّ غيتو وصديقيه

1- الفلكنة: هي عملية كيميائية تهدف إلى تحويل المطاط إلى مواد ذات درجة تحمل أكبر - المترجم.

كانوا يصنعون المكانس أيضاً ليكسبوا قوت معيشتهم. علمتُ منهم أنّ بين السجناء والمنفيين، هناك ما يُقارب ثلاثين فارّاً في جورج تاون. يلتقون في الليل في حانةٍ في وسط المدينة، حيث يشربون معاً شراب الروم أو البيرة. روى لي جولو أنّهم يعملون جميعاً لكي يؤمّنوا احتياجاتهم وأنّ معظمهم يتصرّفون بطريقة سليمة.

بينما كنّا نتبرّد ونستنشق الهواء في الظلّ، أمام باب المنزل الصغير، مرّ صينيٌّ استوقفه كويك واستجوبه. دون أن يقول لي أيّ شيء، انصرف كويك معه وكذلك فعل الصيني الأكتع. لا بدّ أنّهما لن يذهبا بعيداً، لأنّ الخنزير لحق بهما. بعد ساعتين، عاد كويك مع أنثى حمار تجرّ عربة صغيرة. فخوراً بنفسه للغاية ومبتهجاً، أوقف كويك الأتان الصغيرة التي تكلّم معها باللغة الصينية، وبدت الأتان تفهم هذه اللغة. كان في العربة ثلاثة أسرّة حديدية قابلة للفكّ والتركيب وثلاث حشايا ووسائد وثلاث حقائب. كانت الحقيبة التي قدّمها لي مليئة بالقمصان والسراويل الداخلية وقمصان داخلية، بالإضافة إلى زوجين من الأحذية وأربطة عنق، وسواها.

- أين وجدت كلّ هذا، يا كويك؟

- إنّ أبناء بلدي هم الذين قدّموها لي. سنذهب غداً لزيارتهم، هل تُريد أن تأتي معنا؟

- أجل.

انتظرنا أن يغادر كويك مع الأتان والعربة، ولكن هيهات. فكّ الأتان عن العربة وربطها في فناء الدار.

- لقد أهدوني أيضاً العربة والأتان. وقالوا لي بأنني أستطيع بهذا أن أكسب قوت معيشتي بسهولة. وغداً في الصباح، سيأتي أحد أبناء بلدي لكي يعلّمني طريقة العمل على العربة.

قال غيتو:

- لقد تصرّف الصينيون سريعاً.

وافق غيتو على أن تبقى العربة والأتان على نحوٍ مؤقّت في فناء الدار.

لقد سار كلّ شيء على ما يُرام في يومنا الأوّل من حريّتنا. في المساء، تحلّقنا نحن الستّة حول طاولة العمل، وتناولنا حساءً لذيذاً أعدّه جولو من الخضار، وطبقاً شهيّاً من السباغيتي.

قال غيتو:

- كلٌّ منا سيقوم بدوره في جلي الأواني وتنظيف البيت.

كانت هذه الوجبة المشتركة رمزاً لأوّل جماعة صغيرة مليئة بالدفء. وكان هذا الإحساس بمعرفة الذات المسنود بأولى الخطوات في الحياة الحرّة مريحاً جدّاً. كنّا، كويك والأكتع وأنا، بالفعل نشعر بسعادة غامرة. لدينا الآن سقفٌ يأوينا، وسريرٌ يضمّنا، وأصدقاء كرماء وجدوا رغم فقرهم النبل في أن يساعدونا. ما الذي نطلبه أفضل من هذا الذي نحن فيه؟

سألني غيتو:

- ما الذي تودّ أن تفعله هذه الليلة، يا بابيون؟ هل ترغب في أن ننزل إلى مركز المدينة ونذهب إلى تلك الحانة التي يرتادها جميع الهاربين؟

- بل أفضّل أن أبقى هنا هذه الليلة. انزل أنت إذا كنت راغباً في ذلك، لا تقلق بشأني.

- نعم، سأنزل لأنّه عليّ أن أرى شخصاً هناك.

- أنا سوف أبقى مع كويك والأكتع.

ارتدى بوتي لويس وغيتو ثيابهما وربطتي عنقهما وذهبا إلى مركز المدينة. وحده جولو بقي ليُنهي بعضاً من أزواج الأحذية. قمنا أنا ورفاقي بجولة في الشوارع المجاورة لكي نتعرّف على الحي. علمنا أنّ جميع السكان هنا من الهندوس. وهناك عددٌ قليلٌ جدّاً من الزنوج، في حين يكاد يكون وجود البيض معدوماً، مع بعض المطاعم الصينية النادرة.

بينيتانس ريفرز هو اسم هذا الحي، وهو عبارة عن ركن خاصّ بالهند أو جاوا. الفتيات والنساء الشابّات في روعة الجمال، والرجال المسنّون يرتدون أثواباً بيضاء طويلة. ويمشي الكثيرون منهم حفاة. إنّه حي فقير، ولكن الجميع يرتدون ثياباً نظيفة. والإضاءة في الشوارع شحيحة،

والحانات التي يشربون ويأكلون فيه مليئة بالناس، والموسيقى الهندوسية تغزو كلّ مكان.

أوقفني زنجيٌ ذو بشرة داكنة ومصقولة ويرتدي ثياباً بيضاء وربطة عنق، وقال لي:

- أأنت فرنسي، يا سيّد؟

- نعم.

- إنّه من دواعي سروري أن ألتقي مواطناً من بلدي. هل تقبل دعوتي إلى شرب كأسٍ من الشراب؟

- نعم إن شئت ذلك، ولكنني مع هذين الصديقين.

- لا بأس في هذا، هل يتكلّمان الفرنسية؟

- نعم.

ها نحن الأربعة نجلس إلى طاولة مطلّة على رصيف حانةٍ. يتحدّث هذا المارتينيكي لغة فرنسية أفضل فصاحةً من التي نتحدّث بها. نصحنا بأن نأخذ حذرنا من الزنوج الإنكليز لأنهم، حسب ما قال، جميعاً كذّابون. قال: «إنّهم ليسوا مثلنا، نحن الفرنسيين: نحن نحترم كلمتنا ووعدنا، أمّا هم فليسوا كذلك».

ابتسمتُ في داخلي عندما رأيتُ هذا الزنجي من تمبكتو يقول: «نحن الفرنسيون»، ثمّ ارتبكتُ بالفعل. فكّرتُ أنّ هذا السيّد هو فرنسيٌّ تماماً، فرنسيٌّ قُحٌّ أكثر مني لأنّه يُعلن عن هويته بحماسةٍ وإيمان. وهو قادر على أن يضحّي بحياته في سبيل فرنسا، أمّا أنا، فلستُ مستعدّاً لذلك. إذاً، هو فرنسيّ أكثر منّي. ولذلك سرتُ مع التيار، وقلتُ له:

- إنّه من دواعي سروري أن ألتقي أحد مواطنيّ وأن أتحدّث لغتي، لأنني أتحدّث اللغة الإنكليزية بشكلٍ سيّئ جدّاً.

- أنا أيضاً. أنا أتحدّث بطلاقة وبطريقة نحوية اللغة الإنكليزية. إذا كان بوسعي أن أكون مفيداً لك، فأنا تحت تصرّفك. هل أنت في جورج تاون منذ زمنٍ طويل؟

- ثمانية أيام، لا أكثر.
- من أين أتيت؟
- من غويانا الفرنسية.
- هذا غير ممكن، هل أنت هاربٌ من السجن أم حارسٌ لسجن الأشغال الشاقّة وتريد الالتحاق بالجنرال ديغول؟
- كلا، أنا هاربٌ من السجن.
- وصديقاك؟
- هاربان أيضاً.
- يا سيّد هنري، لا أُريد أن أعرف ماضيك، حان الآن وقت مساعدة فرنسا والتكفير عن خطئك. أنا مع ديغول، وأنتظر الإبحار إلى إنكلترا. تعال لمقابلتي غداً في نادي مارتينر كلوب، وهذا هو عنوانه. سوف أكون سعيداً لو أنّك تنضمّ إلينا.
- ما اسمك؟
- هومير.
- يا سيّد هومير، لا أستطيع أن أقرّر في الحال، عليّ أوّلاً أن أستعلم عن عائلتي، وأيضاً، قبل أن أتّخذ قراراً بهذه الخطورة، أن أحلّله. عليّ أن أحلّل بهدوء، فكما ترى يا سيّد هومير، لقد عذّبتني فرنسا كثيراً وآلمتني، وقد عاملتني بطريقة غير إنسانية.

حاول الرجل المارتينيكي، بحرارة وحماسة مثيرتين للإعجاب، أن يقنعني بكلّ جدّية. لقد كان بالفعل من المؤثّر الإصغاء إلى حجج هذا الرجل لصالح بلدنا فرنسا الجريحة.

عدنا إلى البيت في وقتٍ متأخّرٍ جدّاً، وأوينا إلى أسرّتنا. فكّرتُ في كلّ ما قاله لي هذا الفرنسي العظيم. وعليّ أن أفكّر بجدّية في مقترحه. ففي النهاية، رجال الشرطة والقضاة وإدارة السجن الإصلاحي ليسوا فرنسا. وشعرتُ تماماً في داخلي بأنني لم أكفّ عن حبّها. والأنكى أنّ الألمان يحتلون كلّ فرنسا! يا إلهي، كم يتعذب أهلي الآن ويا له من عار لكلّ الفرنسيين!

حينما استيقظت، كان كويك قد اختفى مع الأكتع والأتان والعربة والخنزير.

سألني غيتو وصحبه:

- إذاً، يا صاحبي، هل نمت جيّداً؟

- نعم، شكراً لكم.

- هل تُريد قهوةً سوداء بالحليب أم شاياً؟ أتريد قهوةً مع شرائح من الخبز المدهون بالزبدة؟

- شكراً لكم.

تناولتُ ما قدِّم لي وأنا أنظر إليهم يعملون.

أعدّ جولو كتلة من صمغ شجرة البَلاطة حسب الحاجة، وأضاف قطعاً صلبة إلى الماء الساخن الذي خلطه مع الكتلة الليّنة.

أعدّ بوتي لويس قطع القماش، وصنع غيتو الحذاء.

سألتُ:

- هل تنتجون الكثير من هذه الأحذية؟

- كلا. نحن نعمل لنكسب عشرين دولاراً في اليوم. ندفع بخمسة دولارات الإيجار ونشتري بها الطعام. وتبقى خمسة دولارات لكلٍّ منّا كمصروف جيب ونشتري بها الثياب ونغتسل.

- هل تبيعونها كلّها؟

- كلا، نحتاج في بعض الأحيان إلى أن يبيع أحدنا الأحذية والمكانس في شوارع جورج تاون. والبيع سيراً على القدمين تحت الشمس قاس جدّاً.

- إذا ما لزم الأمر، سوف أفعل ذلك بكلّ سرور. لا أُريد أن أكون متطفّلاً هنا. عليّ أن أساهم أيضاً في تأمين الطعام.

- هذا جيّد، يا بابي.

تنزّهتُ طيلة النهار في الحيّ الهندوسي في جورج تاون. رأيتُ إعلاناً سينمائياً ضخماً، واستبدّت بي رغبة جامحة في أن أرى وأسمع للمرّة الأولى في حياتي فيلماً سينمائياً ناطقاً وبالألوان. سوف أطلب من غيتو

أن يُرافقني هذا المساء. سرتُ في شوارع حي بينيتانس ريفرز طيلة النهار. أعجبتني دماثة أخلاق هؤلاء الناس أيّما إعجاب. لقد اتّسموا بميزتين: كانوا نظيفين ومهذّبين جدّاً. أحسستُ أنّ هذا النهار الذي أمضيته وحيداً في شوارع هذا الحي من جورج تاون بالنسبة لي أكثر عظمةً من يوم وصولي إلى ترينيداد قبل تسعة أعوام.

في ترينيداد، وسط كلّ هذه الأحاسيس المذهلة المتولّدة من الاختلاط بحشود الناس، طرحتُ على نفسي باستمرار هذا السؤال: ذات يوم، بعد أسبوعين، وكحدّ أقصى ثلاثة أسابيع، سيكون عليّ أن أرحل عبر البحر. تُرى أيّ بلد سيقبل بي؟ هل ستكون هناك دولة تمنحني حقّ اللجوء إليها؟ هنا، الأمر مختلف. فأنا حرٌّ بشكلٍ نهائي، بل ويمكنني، إن أردتُ ذلك، أن أذهب إلى إنكلترا وأتطوّع في القوّات الفرنسية الحرّة. ما الذي عليّ القيام به؟ إذا ما قررتُ الذهاب مع ديغول، ألن يُقال بأنني ذهبتُ إلى هناك لأنني لم أعرف إلى أين ألجأ؟ وسط أناسٍ سليمين، ألن يعاملوني كسجينٍ محكومٍ بالأشغال الشاقّة لم يجد ملاذاً آخر ولهذا السبب هو بينهم؟ يُقال إنّ فرنسا منقسمة إلى قسمين، بين بيتان وديغول. كيف لم يعرف مارشالٌ فرنسي أين يكمن شرف ومصلحة فرنسا؟ إذا ما انضممتُ ذات يوم إلى القوات الحرّة، ألن أضطرّ فيما بعد إلى إطلاق النار على فرنسيين آخرين؟

هنا، سيكون الأمر صعباً، وصعباً للغاية أن أحقّق لنفسي وضعاً مقبولاً. إنّ غيتو وجولو وبوتي لويس ليسوا أغبياء ويعملون لقاء خمسة دولارات في اليوم. أحتاج في البداية إلى أن أتعلّم العيش في حرية. منذ عام 1931 – ونحن الآن في عام 1942 – أنا سجين. لا يمكنني، في اليوم الأوّل لحريّتي، أن أحلّ كلّ هذه المجاهيل في المعادلة. بل لا أعرف المشكلات الأولى التي تفرض نفسها على رجلٍ لكي يصنع لنفسه حفرةً في الحياة. لم يسبق لي أبداً أن عملتُ بيديّ. فأنا مجرّد كهربائي صغير، وأيّ عامل كهربائي يعرف أكثر مني في الكهرباء. عليّ أن أعد نفسي بشيءٍ وحيد: عليّ أن أعيش باستقامة، على الأقلّ وفق أخلاقٍ تخصّني.

بلغت الساعة الرابعة من بعد الظهر عندما عدتُ إلى البيت. سألني غيتو:

– إذاً يا بابي، أهو جميلٌ أن يتذوّق المرءُ طعم الحرية ويستنشق أولى نسماتها؟ هل تنزّهت جيّداً؟

– نعم، يا غيتو، لقد جلتُ مراراً وتكراراً في شوارع هذا الحي الكبير.

– هل رأيت صديقيك الصينيين؟

– كلا.

– إنّهما في الباحة. إنّ صديقيك الصينيين ماهران. لقد كسبا أربعين دولاراً ويريدان بأيّ ثمن أن آخذ منها عشرين دولاراً. وبالطبع رفضتُ ذلك. اذهب وقابلهما.

وجدتُ كويك منهمكاً في قطع كرنبٍ من أجل خنزيره. بينما يغسل الأكتع الحمار الذي تركه يفعل ذلك، مرحاً.

– هل أنت بخير، يا بابيون؟

– نعم، وأنتما؟

– نحن سعداء جدّاً، لقد كسبنا أربعين دولاراً.

– ماذا فعلتما؟

– لقد خرجنا في الساعة الثالثة صباحاً إلى الريف برفقة أحد أبناء بلدنا لكي يدلّنا. جلب معه مئتي دولارٍ، اشترينا بها بعض الطماطم والخسّ والباذنجان وكلّ أنواع الخضار الطازجة. كما اشترينا عدّة دجاجات وبعض البيض وكمية من حليب الماعز. ثمّ ذهبنا إلى السوق القريب من ميناء المدينة وبعنا كلّ شيء إلى أهل البلد أوّلاً، وهو جزءٌ قليل، ومن ثَمّ للبحّارة الأمريكيين. وقد سُرّوا جداً بالأسعار إلى درجة أنّه لا ينبغي أن أُدخل غداً إلى السوق: لقد طلبوا منّا أن ننتظرهم أمام بوابة الميناء. سوف يشترون منّي كلّ شيء. تفضّل، ها هي النقود. ما زلتَ أنت المعلّم الذي ينبغي أن يحتفظ بالمال.

– أنت تعرف جيّداً، يا كويك، أنني أمتلك المال وأنني لستُ بحاجة إلى هذه النقود.

- احتفظ بالمال وإلّا لن نعود نعمل.

- اسمع، يعيش الفرنسيون بحوالي خمسة دولارات. ونحن سنأخذ خمسة دولارات لكلّ منّا ونعطي خمسة دولارات أخرى للمنزل هنا من أجل شراء الطعام. وسوف نوفّر الباقي لكي نعيد إلى أبناء بلدك مبلغ مئتي دولارٍ الذي أقرضوك إياه.

- اتّفقنا.

- سأذهب معكم غداً.

- كلا، ابقَ نائماً. وإذا أردت، انضمّ إلينا لاحقاً في الساعة السابعة صباحاً، أمام بوابة الميناء الضخمة.

- حسناً.

كان الجميع سعداء. أوّلاً نحن، لكوننا عرفنا بأننا سنستطيع أن نكسب قوت معيشتنا ولن نكون عبئاً على كاهل أصدقائنا. ومن ثَمّ، غيتو وصديقاه الآخران الذين، رغم طيبة قلوبهم، لا بدّ أنّهم تساءلوا عن الوقت المطلوب لكي نتمكّن من أن نتدبّر عيشنا دون الاعتماد عليهم.

- للاحتفال بهذا النجاح الباهر لصديقيك، يا بابيون، سوف نشرب لترين من شراب الباستيس.

انصرف جولو وعاد بالشراب الكحولي الأبيض، المصنوع من قصب السكّر، وبعض المأكولات. وبعد ساعة، شربنا الباستيس كما يُشرَب في مرسيليا. لعبت الخمرة في رؤوسنا، فارتفعت أصواتنا وعلت ضحكات الفرح بالحياة أكثر قوّة مما كانت عليه بالعادة. وحينما سمع بعض الجيران الهندوسيين أنّ في منزل الفرنسيين حفلةً، جاؤوا بعفوية ودعوا أنفسهم بأنفسهم إلى الحفلة، وكانوا ثلاثة رجال وفتاتين. جلبوا معهم شقفاً مشوية من لحم الدجاج والخنزير متبّلة بالبهارات والفلفل الحارّ. كانت الفتاتان على جمالٍ قلّ مثيله. ترتديان ثياباً بيضاء بالكامل وحافيتي القدمين، وتضعان خلخالاً من الفضّة في الكاحل الأيسر. قال لي غيتو:

- احذر. إنّهما فتاتان حقّاً. لا تطلق العنان لنفسك إلى حدّ قول كلامٍ

جريءٍ للغاية لأنّ لباسهما الشفّاف يشفّ عن النهود. بالنسبة لهنّ، هذا أمرٌ عاديّ. بالنسبة لي، لا مشكلة، لأنني عجوز. ولكن جولو وبوتي لويس حاولا في بداية قدومنا إلى هنا، وأخفقا. فقد أحجمتا عن المجيء لوقتٍ طويل. كانت هاتان الهندوسيتان رائعتي الجمال. تمنحهما نقطةٌ موشومة في وسط الجبين هيئة غريبة. تحدّثتا إلينا بلطف وعذوبة، ومن خلال الكلمات الإنكليزية القليلة التي أعرفها، فهمت إنّهما ترحّبان بنا في جورج تاون.

هذه الليلة، ذهبنا، غيتو وأنا، إلى مركز المدينة. كما لو أنّها حضارة أخرى، مختلفة تماماً عن الحضارة التي نعيشها. تعجّ هذه المدينة بالناس من بيضٍ وزنوجٍ وهندوسٍ وصينيين، ومن جنودٍ وبحّارة بالزيّ العسكري، وعددٍ من البحّارة المدنيين. فيها عددٌ كبير من الحانات والمطاعم والملاهي التي تُنير الشوارع بأضوائها الصاخبة كما لو أنّها في وضح النهار.

بعد السهرة التي شاهدتُ فيها، للمرّة الأولى في حياتي، عرضاً لفيلم بالألوان وناطقٍ، وبينما كنتُ لا أزال مذهولاً بهذه التجربة الجديدة، تبعتُ غيتو الذي جرّني إلى حانة ضخمة. كان أكثر من عشرين فرنسيّاً يحتلون ركناً في القاعة، شرابهم كوكتيلات الكوبا ليبرا المعدّة من الكحول والكوكا كولا.

كلّ هؤلاء الرجال هم من الهاربين، المحكومين بالأشغال الشاقّة. رحل بعضهم بعد أن تمّ إطلاق سراحهم، وكانوا قد أنهوا مدّة عقوبتهم، ووجب عليهم أن يُنهوا مدّة «الدبلجة» وهم طلقاء. ولأنّهم يتضوّرون جوعاً، من دون عمل، ولأنّ السكان الرسميين في غويانا ينظرون إليهم نظرة سيئة، فقد آثروا أن يرحلوا نحو بلدٍ يعتقدون بأنّهم سيعيشون فيه حياةً أفضل. ولكنّ الأمر صعب، كما رووا لي.

- أنا أعمل في قطع الحطب في الدَّغَل لقاء دولارين وخمسين سنتاً في اليوم لدى جون فرناندس. وأنزل كلّ شهر إلى مدينة جورج تاون وأقضي فيها ثمانية أيام. أنا يائس.

– وأنت؟

– أنا أعمل في جمع مجموعات من الفراشات. أذهب إلى اصطيادها في الدَّغَل وعندما تصبح لديّ كميّة من الفراشات المتنوّعة، أرتّبها في علبةٍ غطاؤها من الزجاج ومن ثَمّ أبيع المجموعة.

وآخرون يعملون كعمّال في الميناء. الجميع يعملون، ولكنّهم يكسبون كفاف عيشهم فقط. قالوا لي: «إنّها حياةٌ صعبة، ولكننا أحرارٌ. ما أحلى الحرية!».

جاءنا هذا المساء منفيٌّ يُدعى فوسارد. دفع حساب المشروبات عن الجميع. كان على متن سفينة كندية، محمّلة بخام البوكسيت، وقد أُغرِقَت عند مخرج نهر ديميرارا. وقد نجا فوسارد وحصل على أموال لتعويضه لكونه تعرّض للغرق. غرق معظم طاقم السفينة، في حين حالفه الحظّ واستطاع أن يُبحِرَ على متن قارب نجاة ويصل إلى برّ الأمان. روى لنا أنّ الغوّاصة الألمانية صعدت إلى سطح الماء وخاطبهم أحدهم من على متنها، وسألهم عن عدد السفن الراسية في الميناء في انتظار أن تخرج منه محمّلة بخام البوكسيت. وعندما أجابوه بأنّهم لا يعلمون شيئاً، راح الرجل الذي يستجوبهم يضحك، قائلاً: «البارحة، كنتُ في السينما الفلانية في جورج تاون. انظروا إلى نصف بطاقة الدخول». ثم فتح سترته وخاطبهم: «هذه البزّة من جورج تاون». صاح المشكّكون بهذه الحبكة استهجاناً، ولكنّ فوسارد أصرّ على كلامه، وهذا صحيحٌ بكلّ تأكيد. حتى أنّ الغوّاصة الألمانية أنذرتهم بأنّ السفينة الفلانية سوف تأتي لاستقبالهم. وبالفعل، أُنقِذوا مِن السفينة المحدّدة.

روى كلٌّ من الحاضرين حكايته. كنتُ جالساً مع غيتو إلى جانب رجلٍ عجوزٍ باريسي من ليه هال. قال لنا العجوز الفرنسي أنّ بوتّي لويس من شارع لومبارد.

– عزيزي بابيون، كنتُ قد وجدتُ حيلة لكي أعيش من دون أن أعمل أيّ شيء. حينما كان يظهر في الجريدة اسم رجلٍ فرنسي في زاوية «مات

في سبيل الملك أو الملكة»، لا أعرف تماماً، كنتُ أذهبُ إلى نحّاتٍ على الرخام لينحت لي صورة شاهدة قبرٍ رُسِمَ عليها اسم السفينة وتاريخ غرقها واسم الرجل الفرنسي. وبعد ذلك، أدور على البيوت الفاخرة للإنكليز وأقول لهم بأنّه عليهم أن يساهموا في شراء شاهدة قبرٍ للفرنسي الذي مات في سبيل إنكلترا لكي يكون في المقبرة ذكرى منه. وقد استمرّ هذا حتى الأسبوع الماضي حيث جاء رجلٌ بريتاني تافه، كان قد أُعلِنَ عن موته في حادثة إغراق سفينة، وظهر حيّاً يُرزَق، بل والأنكى من ذلك في صحّة جيّدة. وقد زار بعض السيّدات الكريمات اللواتي كنتُ قد طلبتُ منهنّ بالذات خمسة دولارات من أجل قبر هذا الميّت الذي صرخ في كلّ مكان بأنّه حيٌّ يُرزَق وبأنّه لم يسبق لي في حياتي أن اشتريتُ قبراً من نحّات الرخام. والآن ما عليّ سوى أن أجد وسيلة أخرى للعيش، لأنني في هذا العمر، لم يعد باستطاعتي أن أعمل.

لعبت خمرة كوكتيل الكوبا ليبرا برؤوسهم، فأصبح كلٌّ منهم، مقتنعين بأننا نفهم فقط اللغة الفرنسية، يُخرج من داخله، بصوتٍ عالٍ، الحكايات الأكثر غرابةً. قال آخر:

– أنا أصنع دمى من صمغ شجر البَلاطة، ومقابض الدراجات الهوائية. ولسوء الحظّ، حينما تنسى الفتيات الصغيرات الدمى تحت أشعة الشمس في حديقة منزلهنّ، تذوب أو تتشوّه. وأتعرّض لفضيحة حينما أنسى أنني كنتُ قد بعتُ في الشارع الفلاني. منذ شهرٍ، لم أعد أستطيع المرور أثناء النهار في نصف أحياء جورج تاون. والأمر نفسه يحدث بالنسبة إلى الدرّاجات الهوائية. فمنْ يتركها تحت أشعّة الشمس، حينما يعود ويمسك بمقابض الدرّاجة تلتصق يديه بالمقابض المصنوعة من صمغ شجر البَلاطة، التي بعتُها له.

قال آخر:

– أمّا أنا، فأصنع سياطاً لها مقابض من صمغ شجر البَلاطة أيضاً. كنتُ أقول للبحارة بأنني ناجٍ من معركة المرسى الكبير وبأنّهم مرغمون على أن

يشتروا هذه السياط لأنّ الذنب ليس ذنبهم في أنني لا أزال حيّاً. كان ثمانية بحّارة من أصل عشرة يشترون مني.

هذه الساحة العصرية للأعاجيب تسلّيني، وفي الوقت نفسه تجعلني أرى على أرضٍ الواقع أنّه ليس من السهل تأمين لقمة العيش.

أمسك رجلٌ بمذياع الحانة: سمعنا نداءً من ديغول. أصغى الجميع إلى هذا الصوت الفرنسي الذي يشجّع، من لندن، الفرنسيين في المستعمرات وأقاليم ما وراء البحار. كان نداء ديغول مثيراً للشفقة، ولم يفتح أحدٌ على الإطلاق فمه. على حين غرّة، نهض أحد المحكومين بالأشغال الشاقة الذي أفرط في شرب كوكتيل الكوبا ليبرا وقال:

- سُحقاً، يا رفاق! هذا حقّاً ليس سيّئاً! على حين غرّة، تعلّمتُ اللغة الإنكليزية، فقد فهمتُ كلّ ما قاله تشرشل!

انفجر الجميع ضاحكين، ولم يُكلّف أحدٌ نفسه عناء ثنيه عن خطئه الناجم عن ثمالته.

نعم، عليّ أن أبذل أولى محاولاتي لكي أكسب لقمة عيشي، ولأنني رأيتُ ذلك من خلال الآخرين، لن يكون ذلك بالأمر السهل. لم أكن مشغول البال البتّة. فمنذ عام 1930 ولغاية 1942، فقدتُ تماماً المسؤولية وحسن التصرّف لكي أُدير شؤوني دون الحاجة إلى أحد. فأنا شخصٌ سجين لوقتٍ طويلٍ جدّاً، دون أن يتطلّب منّي الانشغال بالطعام والسكن والكساء؛ رجلٌ أُديرت شؤون وأمور حياته من جانب الآخرين، واعتاد ألّا يفعل شيئاً بنفسه وأن ينفّذ تلقائياً الأوامر الأكثر تنوّعاً دون مناقشتها؛ هذا الرجل الذي وجد نفسه في غضون بضعة أسابيع وعلى حين غرّة في مدينة كبيرة، والذي عليه أن يتعلّم من جديد السير على الأرصفة دون أن يصطدم بأحد، وأن يعبر شارعاً دون أن يعرّض نفسه للدهس، وأن يجد من الطبيعي أن يُقدّم له ما يشربه وما يأكله بناءً على الأوامر، هذا الرجل عليه أن يتعلّم من جديد كيف يعيش. على سبيل المثال، هناك ردود فعل غير متوقّعة. وسط كلّ هؤلاء المحكومين بالأشغال الشاقّة، أو المُفرَج

عنهم، أو المنفيين الطُلقاء، الذين يخلطون بلغتهم الفرنسية كلمات من اللغة الإنكليزية أو الإسبانية، أصغي بكلّ جوارحي إلى حكاياتهم، وعلى حين غرّة، وفي هذا الركن من الحانة الإنكليزية، راودتني الرغبة في الذهاب إلى المراحيض. حسناً، ربّما يكون هذا أمراً لا يمكن تخيّله، ولكنني لجزءٍ من الثانية بحثتُ عن المراقب الذي عليّ أن أستأذنه في الذهاب إلى المرحاض. كانت فكرة خاطفة ولكنّها غريبة عندما أتحقّق منها: يا بابيون، الآن ليس لديك أيّ شخصٍ تطلب منه الإذن إذا ما أردت أن تتبوّل أو تفعل أيّ شيءٍ آخر.

في السينما أيضاً، في اللحظة التي كانت العاملة تبحث لنا عن مكانٍ لتُجلسنا فيه، لمعت في ذهني الرغبة في أن أقول لها: «أرجوكِ، لا تتعذّبي من أجلي، فما أنا إلّا محكومٌ مسكينٌ لا يستحقّ أيّ اهتمام». وأنا أمشي في الشارع، استدرتُ لعدّة مرّات في المسافة من السينما إلى الحانة. التفت إليّ غيتو الذي انتبه إلى هذا الميل لديّ، وقال لي:

– لماذا تلتفتُ كثيراً لكي تنظر إلى الوراء؟ هل تنظر لترى إن كان الحارس يتبعك؟ لا يوجد حرّاسٌ هنا، عزيزي بابي. لقد تركتهم في سجون الأشغال الشاقّة.

في اللغة المجازية للسجناء، يُقال بأنّه ينبغي على المرء أن يتجرّد من ثياب المحكومين بالأشغال الشاقّة. والأمر يتجاوز هذا، لأنّ ثياب السجين ليست سوى رمز. وبالتالي، ليس على المرء أن يتعرّى من ثياب السجين فحسب، بل عليه أن يقتلع من روحه وعقله الرقم التسلسلي المخزي المحفور بالنار على السجين.

دخلت دورية من رجال الشرطة الإنكليز السود إلى الحانة. ساروا من طاولة إلى أخرى وهم يطلبون من الرواد بطاقات الهوية. ولمّا وصلوا إلى ركننا، نظر رئيس الدورية بتركيزٍ وانتباه إلى جميع الوجوه. ووجد بينها وجهاً لم يعرفه من قبل، إنّه وجهي أنا. قال لي:

– بطاقتك الشخصية، لو سمحت، يا سيّد.

أعطيتُها له، فألقى عليّ نظرة وأعادها إليّ، ثمّ أضاف:
- اعذرني، لم أكن أعرفك. أهلاً وسهلاً بك في جورج تاون.
وانسحب من المكان. أضاف بول السافوائي بعد ذهابه:
- هؤلاء الإنكليز رائعون. الغرباء الوحيدون الذين يثقون بهم ثقة مطلقة هم السجناء المحكومون بالأشغال الشاقّة الفارّون. إذا استطعت أن تُثبت للسلطات الإنكليزية أنّك هاربٌ من سجن الأشغال الشاقّة، هذا يعني أنّك نلت حرّيتك في الحال.
وبالرغم من أنّنا عدنا متأخّرين إلى البيت الصغير، في الساعة السابعة صباحاً، كنتُ أمام بوابة الميناء الرئيسية. بعد أقلّ من نصف ساعة، وصل كويك والأكتع مع العربة المليئة بالخضار الطازجة، المقطوفة في الصباح، والبيض وبعض الدجاج. كانا لوحدهما، فسألتهما عن ابن بلدهما الذي من المفترض أن يرافقهما لكي يعلّمهما طريقة العمل، فأجاب كويك:
- لقد شرح لنا ذلك البارحة، وهذا يكفي. الآن لم نعد في حاجةٍ إلى أحد.
- هل عدت من بعيد لجلب كلّ هذا؟
- نعم، لأكثر من ساعتين ونصف. خرجنا في الساعة الثالثة صباحاً وقد وصلنا الآن.
وكما لو أنّه هنا منذ عشرين سنة، وجد كويك الشاي الساخن ومن ثَمّ الفطائر. جلسنا على الرصيف بالقرب من العربة، وشربنا وأكلنا، منتظرين الزبائن.
- هل تعتقد أنّ الأمريكيين الذين جاؤوا البارحة سوف يأتون اليوم أيضاً؟
- أتمنى ذلك، ولكن إذا لم يأتوا، سوف نبيع لآخرين.
- والأسعار؟ كيف ستتصرّف؟
- أنا لا أقول لهم: كم ثمن هذه. بل أقول لهم: كم تدفع؟
- ولكنّك لا تُجيد التحدّث باللغة الإنكليزية.

- هذا صحيح، ولكنني أجيد تحريك أصابعي ويديّ، وهذا أمرٌ سهل.
قال لي كويك:
- أوّلاً، أنت تتحدّث بما فيه الكفاية لكي تبيع وتشتري.
- نعم، ولكنني أُريد أوّلاً أن أراك تفعل ذلك بنفسك.
لم يطل الوقت كثيراً، فقد جاءت سيارة جيب ضخمة تُدعى كوماند - كار. نزل منها السائق وضابط صف وبحّاران. صعد ضابط الصف إلى العربة وتفحّص كلّ ما فيها من خس وباذنجان، إلخ. فتّش كلّ حزمة، وجسّ بيده الدجاج. ثمّ سأل:
- بكم تبيع كلّ هذا؟
وبدأت المساومة.
كان البحّار الإنكليزي يتكلّم من أنفه. ولم أفهم شيئاً مما قاله، في حين رطّن كويك باللغة الصينية والفرنسية. ولمّا رأيتُ أنّهما لا يستطيعان أن يفهما على بعضهما، ناديتُ كويك وأخذته جانباً.
- بكم اشتريت كلّ الحمل؟
نبش جيوبه ووجد سبعة عشر دولاراً. ثمّ قال لي:
- مئة وثلاثة وثمانون دولاراً
- وكم يعرض عليك؟
- أعتقد أنّه يعرض مئتين وعشرة دولارات، وهذا قليل.
تقدّمتُ نحو الضابط، فسألني إن كنتُ أُجيد الإنكليزية، فأجبته بأنني أتكلّمها قليلاً. قلتُ له:
- تكلّم ببطء.
- حسناً.
- كم تدفع؟ كلا، لا يمكن أن نبيع بمئتين وعشرة دولارات. مئتان وأربعون دولاراً.
لم يقبل بهذا السعر.
تظاهر بأنّه يغادر ثمّ عاد، ثمّ غادر من جديد، وصعد إلى سيارته

الجيب، ولكنني أحسستُ أنّه يقوم بتمثيلية. في اللحظة التي نزل فيها من العربة، وصلت الجارتان الجميلتان الهندوسيتان، وهما نصف منقّبتين. لا بدّ أنّهما راقبتا المشهد، فتظاهرتا بعدم معرفتنا. صعدت واحدة منهما إلى العربة وتفحّصت البضاعة، وتوجّهت نحونا وسألت:

- بكم تبيعون كلّ البضاعة؟

أجبتها:

- بمئتين وأربعين دولاراً.

وقالت: «حسناً، لقد اتّفقنا».

ولكن الأمريكي أخرج مئتين وأربعين دولاراً وأعطاها لكويك قائلاً للفتاتين الهندوسيتين بأنّهم قد اشتروا البضاعة. لم تبارح جارتاي المكان ونظرتا إلى الأمريكيين وهم يُفرغون حمولة العربة ومن ثَمّ يُحمّلونها في سيارتهم كوماند - كار. في اللحظة الأخيرة، أخذ أحد البحارة الخنزير معتقداً أنّه جزء من الصفقة المُبرَمة. ولم يشأ كويك بالطبع أن يأخذوا الخنزير منه. بدأ حديثٌ لم ننجح فيه بشرح أنّ الخنزير ليس ضمن الصفقة.

حاولتُ أن أُفهِم الهندوسيتين ولكن كان ذلك صعباً. هما أيضاً لم تفهما. لم يشأ البحّارة الأمريكيون التخلّي عن الخنزير ولم يشأ كويك أن يُعيد النقود، وأوشك الخلاف على أن يتحوّل إلى شجارٍ. أخذ الأكتع خشبةً من العربة حينما مرّت سيارة جيب للشرطة العسكرية الأمريكية. صفّر ضابط الصف، فاقتربت سيارة الشرطة العسكرية. طلبتُ من كويك أن يردّ النقود لهم، ولكنه لم يشأ أن يأخذ بكلامي. تسمّر كويك أمام سيارتهم، ومنعهم من الانصراف. تجمّعت جمهرةٌ من الفضوليين حول المشهد الصاخب. الشرطة الأمريكية اعتبرت الأمريكيين على حقّ، وفي الواقع هم أيضاً لم يفهموا شيئاً من رطانتنا اللغوية. اعتقدوا بصدق أننا أردنا أن نغشّ البحّارة.

لم أعد أعرف كيف أتصرّف عندما تذكّرت أنّ لدي رقم هاتف نادي (مارينر كلوب) مع اسم الرجل المارتينيكي. أعطيتُ الرقم لضابط الشرطة

وأنا أقول: «مُترجم». قادني إلى جهاز هاتف. اتّصلتُ وحالفني الحظّ في إيجاد صديقي الديغولي. طلبتُ منه أن يشرح للشرطة أنّ الخنزير ليس جزءاً من صفقة البيع، وأنّه مدجّن ويُعتَبَر بمثابة الكلب بالنسبة إلى كويك وأننا قد نسينا أن نُخبر رجال الشرطة بأنّه ليس ضمن عملية البيع. وبعد ذلك مرّرتُ سمّاعة الهاتف إلى الشرطي. كانت ثلاث دقائق كافية لكي يفهم كلّ شيء. فأخذ بنفسه الخنزير وأعاده إلى كويك الذي أخذه بسرور بين ذراعيه ووضعه سريعاً في العربة. انتهى الحادث على خير وضحك الأمريكيون مثل الأطفال. انصرف الجميع، وانتهى كلّ شيء على ما يُرام.

في المساء، شكرنا في البيت الفتاتين الهندوسيتين اللتين ضحكتا كثيراً من هذه الحكاية.

ها قد مرّت ثلاثة أشهرٍ على وجودنا في جورج تاون. نُقيم الآن في نصف منزل أصدقائنا الهندوس. نُقيم في غرفتين مضاءتين وفسيحتين، بالإضافة إلى غرفة طعامٍ ومطبخٍ صغير فيه موقد حطبٍ، وفناءٍ واسع فيه ركنٌ مسقوف بالصفيح كحظيرةٍ لإيواء الأتان والعربة. سأنام لوحدي في سريرٍ كبير اشتريته مستعملاً مع حشية جيّدة. وفي الغرفة المجاورة، ينام كلّ واحدٍ من صديقي الصينيين في سريره الخاصّ. كما كانت لدينا طاولة وستة كراسيّ، بالإضافة إلى أربعة مقاعد بلا مساند. وفي المطبخ كلّ الأواني الضرورية لطهي الطعام. بعد أن شكرنا غيتو وصديقيه على حسن ضيافتهم، امتلكنا بيتنا، حسب تعبير كويك.

أمام نافذة غرفة الطعام المطلّة على الشارع، وضعَت أريكة مصنوعة من القصب، هديّة من الفتاتين الهندوسيتين! وعلى طاولة غرفة الطعام، بعض الزهور الطازجة التي جلبها كويك ووضعها في أصيصٍ زجاجي.

هذا الإحساس بامتلاك أول بيتٍ لي، المتواضع ولكن النظيف، هذا البيت المضاء والنقي الذي يضمني، وأوّل ثمرة لثلاثة أشهر من العمل الجماعي، منحني هذا الإحساس الثقة بنفسي وبالمستقبل.

غداً هو يوم الأحد، لا سوق للبيع والشراء، وبالتالي نحن أحرار طيلة

النهار. ولذلك قررنا نحن الثلاثة أن ندعو إلى وجبة طعامٍ في بيتنا غيتو وصديقيه وكذلك الفتاتين الهندوسيتين وأشقاءهما. وسيكون ضيف الشرف الرجل الصيني الذي ساعد كويك والأكتع، الرجل الذي أهداهما الأتان والعربة، والذي أقرضنا مئتي دولارٍ لكي نبدأ بها تجارتنا الأولى. وسوف يجد في طبقه مبلغ مئتي دولار مع كلمة شكرٍ من جانبنا مكتوبة باللغة الصينية.

بعد الخنزير الذي يحبّه حبّاً جمّاً، أنا من أحظى بكلّ صداقة ومودّة كويك. وهو يعتني بي ويوليني اهتماماً متواصلاً: كنتُ الأفضل ثياباً من بين ثلاثتنا، ويأتي غالباً وقد جلب لي قميصاً أو ربطة عنق أو سروالاً. ويشتري كلّ ذلك على نفقته الخاصّة. لم يكن كويك يدخّن، ويكاد لا يشرب الخمر، ولكن عيبه الوحيد هو القمار. لا يحلم سوى بشيءٍ وحيد: أن يكون لديه ما يكفي من المدّخرات لكي يذهب إلى نادي الصينيين لكي يلعب القمار.

لكي نبيع بضائعنا التي نشتريها في الصباح، لم نواجه أي صعوبة جدّية. فقد كنتُ أجيد التحدّث باللغة الإنكليزية بما يكفي للبيع والشراء. كنا نكسب كلّ يوم ما بين خمسة وعشرين وخمسة وثلاثين دولاراً نتقاسمها بيننا نحن الثلاثة. كان المبلغ قليلاً، ولكننا كنا راضين جدّاً لأننا وجدنا بسرعة وسيلة لكسب رزقنا. لم أذهب دائماً معهما للشراء مع أنني كنتُ أحصل على البضائع بأسعار أفضل من أسعارهما، ولكن الآن، أنا منْ أبيع دائماً. كان الكثير من البحارة الأمريكيين والإنكليز الذين ينزلون من البحر على اليابسة لكي يشتروا لسفينتهم، يعرفوني. نتناقش بلطف في أسعار البيع دون أن نحتدّ في المساومة. كان هناك رجلٌ طويل القامة يعمل في ندوة الضبّاط الأمريكية، وهو إيطاليٌّ - أمريكي يُخاطبني دائماً باللغة الإيطالية. يُسعده أن أتكلّم معه بلغته ولا يُساومني في الأسعار إلّا لكي يتسلّى. وفي النهاية، يشتري منّي البضائع بالسعر نفسه الذي طلبته في بداية حديثنا.

منذ الساعة الثامنة والنصف وحتى الساعة التاسعة صباحاً، نكون في البيت. ينام الأكتع وكويك بعد أن نتناول نحن الثلاثة وجبة خفيفة. أمّا أنا، فأذهب للقاء غيتو أو يزورني جيراني في بيتي. ليس هناك الكثير من أعمال التدبير المنزلي: هناك التكنيس والغسيل وترتيب الأسرّة والحفاظ على نظافة البيت، وتقوم الفتاتان الهندوسيتان بكلّ هذا على أفضل وجه، لقاء مبلغ لا يُذكر، لقاء دولارين في اليوم.
إنني أقدّر كلّ التقدير أن يكون المرء حرّاً دون أن يقلق بشأن المستقبل.

أسرتي الهندوسية

إنّ وسيلة المواصلات الأكثر استخداماً في هذه المدينة هي الدرّاجة الهوائية. ولذلك اشتريتُ درّاجة هوائية لأذهب بها إلى أيّ مكان كان من دون مشكلات. ولأنّ المدينة تقوم على أرضٍ منبسطة وكذلك أطرافها، يمكن للمرء أن يقطع مسافات طويلة على الدرّاجة الهوائية. والدرّاجة مزوّدة بحمّالتي أمتعة متينتين جدّاً، إحداهما مثبّتة في الأمام والأخرى في الخلف. وبالتالي، بوسعي، مثلي مثل الكثير من السكان الأصليين، أن أحمل بسهولة شخصين على متن دراجتي.

كنّا في الأسبوع نخرج على الأقلّ مرّتين في نزهةٍ لساعةٍ أو ساعتين مع صديقتيّ الهندوسيتين. كانتا تطيران فرحاً، وبدأتُ أُدركُ أنّ واحدة منهما، الأصغر سنّاً، على وشك أن تقع في حبّي.

والدها الذي لم يسبق لي أن رأيته جاء البارحة. كان يقيم ليس بعيداً عن بيتي، ولكنه لم يسبق له أبداً أن جاء للقائي ولم أكن أعرف سوى أشقائها. كان رجلاً طويل القامة وله لحية طويلة جدّاً بيضاء مثل الثلج، والشيب قد غزا أيضاً شعره الذي يكشف عن جبينٍ يشعّ ذكاءً ونبلاً. لم يكن يتحدّث سوى اللغة الهندية، فتترجم ابنته بيننا. دعاني لزيارته ولقائه في بيته. أفهمني من خلال الأميرة الصغيرة، مثلما كنتُ أُلقّب ابنته، أنّ بيته ليس بعيداً إذا ما استخدمتُ الدرّاجة الهوائية. وعدتُه بأن أزوره في وقتٍ قريب.

بعد أن تناول بعض قطع الحلوى وشرب الشاي، انصرف وقد لاحظتُ أنّه قد تفحّص أدقّ تفاصيل المنزل. وقد فرحت الأميرة الصغيرة فرحاً عارماً لرؤيتها والدها راضياً عن زيارته وعنّا.

عمري الآن ست وثلاثون سنة، وأنا في صحّة جيّدة، وأشعر أنني لا أزال شاباً، ولحسن الحظ، يعتبرني الجميع أنني شابٌّ: يقول لي كلّ أصدقائي بأنّ عمري لا يتجاوز ثلاثين عاماً. والحال أنّ هذه الفتاة الصغيرة تبلغ التاسعة عشرة من عمرها وتحظى بجمال عرقها، وهي هادئة ومليئة بالقدرية في طريقة تفكيرها. سيكون بالنسبة لي هديّة من السماء أن أُحبّ هذه الفتاة الرائعة وتحبّني.

حينما نخرج نحن الثلاثة، تصعد هي على الدوام على الحمّالة الأمامية للدرّاجة، وهي تعلم تماماً أنّه حينما تجلس جيّداً منتصبة الجذع وحينما أضغط على دوّاسات الدرّاجة أميل رأسي قليلاً، أكون قريباً جدّاً من وجهها. وإذا أرجعت رأسها إلى الوراء، أرى كلّ جمال نهديها تحت القميص الشفّاف الذي يكشف عنهما تماماً. تلمع عيناها الواسعتان السوداوان بكلّ وميضهما أثناء هذا الاقتراب الذي يكاد يكون لمساً ومداعبة، وينفتح فمها الأحمر الداكن فوق بشرتها السمراء مع رغبة في أن أُقبّلها. تُزيّن أسنانٌ رائعة وذات جمالٍ أخّاذ هذا الفم الجذّاب والرائع. لها طريقة مذهلة في لفظ بعض الكلمات وذلك بإظهار رأس لسانها الوردي في فمها نصف المفتوح، والذي سيجعل أقدس القديسين الذين علّمونا الديانة الكاثوليكية فاجراً.

علينا أن نذهب هذا المساء إلى السينما لوحدنا، لأنّ أختها تعاني من الصداع على ما يبدو، وأعتقد أنّ أختها قد تظاهرت بأنّها تعاني من الصداع لكي تمنحنا الفرصة لنكون معاً لوحدنا. كانت ترتدي ثوباً من النسيج الموصلّي الرقيق أبيض اللون، ينزل حتى كاحليها اللذين يبدوان عاريين أثناء سيرها وهما محاطين بثلاث حلقات من الفضّة. وتنتعل صندلاً تمرّ أربطته المذهّبة حول إبهام قدمها. وهذا يجعل قدميها في غاية الأناقة.

وقد رصّعت منخرها الأيمن بصدفة ذهبية صغيرة جدّاً. وكان وشاحها من النسيج الموصلّي الشفّاف على رأسها قصيراً وينزل خفيفاً حتى ينزل إلى أسفل كتفيها، يُبقيه شريطٌ ذهبيّ مشدوداً حول رأسها. وتتدلى من الشريط في وسط جبينها ثلاثة خيوط مزخرفة بأحجارٍ من ألوانٍ مختلفة، وهي زخرفة جميلة بالطبع حينما تتأرجح، تكشف عن الوشم الجميل جدّاً على جبينها.

سُرّ كل أهل البيت الهندوسي وبيتي، أي كويك والأكتع، وارتسمت الفرحة على وجوههم برؤيتنا نغادر معاً فرحين وسعداء. بدا الجميع أنّهم يعرفون أننا سنعود من السينما خطيبين.

جالسةً بارتياح على وسادة حمّالة درّاجتي الهوائية، سِرنا معاً نحو مركز المدينة. وعلى متن الدرّاجة، وفي جزءٍ من جادة شحيحة الإنارة، قامت الفتاة الرائعة بنفسها بلثم فمي بقبلة خاطفة وخفيفة. فوجئتُ للغاية بأن تُبادر هي إلى تقبيلي إلى درجة كدتُ أن أسقط من على الدرّاجة.

جلسنا متشابكي الأيدي في آخر القاعة، وأخذت أخاطبها بلغة أصابعي وهي تُجيب بالمثل. كان لقاءنا الثنائي الغرامي الأوّل في صالة السينما هذه، التي عُرِض فيها فيلمٌ لمّا نشاهده، صامتاً تماماً. كانت أصابعها وأظافرها الطويلة والمُقلّمة بعناية والمصبوغة بأناقة، ولمسات راحة يديها الضاغطة تُغنّي وتوصل إليّ كلّ حبّها ورغبتها في أن تكون لي بلغة أكثر بلاغة مما لو تكلّمت. أمالت رأسها على كتفي، الأمر الذي أتاح لي أن أقبّل وجهها النقي للغاية.

وقد تحوّل هذا الحبّ الخجول جدّاً والذي استغرق وقتاً طويلاً لكي يزدهر إلى شغفٍ تامّ. شرحتُ لها، قبل أن تصبح حبيبتي، بأنني لا أستطيع أن أتزوّجها، لأنني كنتُ قد تزوّجتُ في فرنسا. وبالكاد أغاظها ذلك يوماً واحداً فقط. ذات ليلة، بقيتُ في بيتي، وقالت لي بأنّها تفضّل أن أذهب للعيش معها في بيت والدها، وذلك من أجل أشقّائها، وبعض جيرانها وجاراتها الهندوسيين. وافقتُ وأقمتُ في منزل والدها الذي يعيش وحيداً مع فتاةٍ هندوسية، على

صلة قرابة بعيدة به، والتي تخدمه وتقوم بكلّ أعماله المنزلية. وبيته ليس بعيداً جدّاً عن البيت الذي يقيم فيه كويك، إذ تبلغ المسافة بينهما قرابة خمسمئة مترٍ. ولذلك يأتي صديقاي كلّ يوم لزيارتي في المساء ويمضيان ساعة كاملة معنا. وكانا في غالب الأحيان يتناولان الطعام في المنزل.

واصلنا عملنا في بيع الخضار في الميناء. أخرج في الساعة السادسة والنصف من البيت، ترافقني غالباً حبيبتي الهندوسية. كنّا نأخذ معنا ترمساً كبيراً للشاي ومرطباناً من المربّى وخبزاً محمّصاً في كيسٍ لكي نتشارك مع كويك والأكتع شرب الشاي. كانت حبيبتي الهندوسية تعدّ بنفسها هذا الفطور وتحرص أشدّ الحرص على هذا الطقس: تناول الأشخاص الأربعة وجبة النهار الأولى معاً. في كيسها كلّ ما يلزَم: شرشف صغير حوافه مطرّزة بقماشٍ مخرّم تضعه بطريقة احتفالية على الرصيف الذي تكنّسه بفرشاة، والأكواب الخزفية الأربعة مع أطباقها، فنجلس على الرصيف بكلّ جدّية ونتناول الفطور معاً.

من المضحك أن نكون على رصيفٍ لكي نشرب الشاي كما لو أننا في صالة، لكنّها وجدت ذلك طبيعياً، وكويك أيضاً. لم يباليا في الواقع بالمارة ووجدا أنّه من الطبيعي التصرّف بهذه الطريقة. لم أرغب في أن أزعجها وهي مسرورة جدّاً بخدمتنا وبمدّ المربّى على الخبز المحمّص الذي لو رفضتُ تناوله لسبّبتُ لها الألم.

حدث في يوم السبت المنصرم أمرٌ أعطاني مفتاح سرٍّ. ها قد مرّ شهران على علاقتنا وهي في غالب الأحيان تودع لديّ كميّات صغيرة من الذهب. وهي دائماً عبارة عن قطع من مجوهرات مكسورة: نصف خاتم ذهبي، فردة قرط، قطعة من سلسال، ربع أو نصف ميدالية أو قطعة نقدية ذهبية. ولأنني لم أكن أحتاج إليها لتأمين معيشتي، على الرغم من أنّها قالت لي بأن أبيعها، احتفظتُ بها في علبة. وقد أصبح لديّ ما يقارب أربعمئة غرام منها. حينما سألتها عن مصدر هذا الذهب، سحبتني وقبّلتني وضحكت، ولكنها لم تعطني أيّ تفسير.

وفي يوم السبت، حوالي الساعة العاشرة صباحاً، طلبت منّي حبيبتي الهندوسية أن أنقل والدها بدراجتي الهوائية إلى مكانٍ لم أكن أعرفه. قالت لي: «سوف يدلّك أبي على الطريق، أمّا أنا فسأبقى في المنزل لكي أكوي الثياب». اعتقدتُ متشوّقاً أنّ الرجل العجوز يريد أن يقوم بزيارةٍ إلى مكانٍ بعيد، ووافقتُ عن طيب خاطر أن أصحبه إلى هناك.

جلس على الحمّالة الأمامية للدراجة دون أن يتكلّم، لأنّه لا يجيد التحدّث سوى باللغة الهندية، وسلكتُ الاتجاهات التي أشار إليها بذراعه. كان المكان بعيداً، فمنذ ساعة تقريباً وأنا أقود الدرّاجة. وصلنا إلى حيٍّ ثري على شاطئ البحر. لم يكن هناك في الحيّ سوى فيلات جميلة. بإشارة من «حماي» توقّفت وراقبت. أخرج حجرة مستديرة بيضاء اللون من تحت سترته وجثا على أوّل درج لبيتٍ. كان يغنّي وهو يدحرج الحجرة على الدرج. مرّت بضع دقائق، خرجت سيّدة ترتدي زيّ الهندوس من الفيلا، واقتربت منه وسلّمته شيئاً دون أن تنطق بكلمة واحدة.

ومن بيتٍ إلى آخر، كرّر المشهد نفسه، حتى الساعة الرابعة من بعد الظهر. استمرّت هذه الحكاية وقتاً طويلاً ولم أستطع أن أفهم ما الذي يجري. أمام الفيلا الأخيرة، جاءه رجلٌ يرتدي ثياباً بيضاء. أمسك بيده وأنهضه ووضع ذراعه تحت ذراعه وقاده إلى داخل منزله. ظلّ في داخل المنزل لأكثر من ربع ساعة، ثمّ خرج برفقة الرجل نفسه الذي، قبل أن يودّعه، قبّل جبينه أو بالأحرى شعره الأبيض. سلكنا طريق العودة إلى البيت، وبذلت أقصى جهدي في قيادة الدرّاجة لكي نصل بسرعة، لأنّ الساعة كانت تتجاوز الرابعة والنصف من بعد الظهر.

وصلنا، لحسن الحظ، إلى بيتنا قبل حلول الليل. هبّت حبيبتي الهندوسية الحسناء ايندارا لملاقاة والدها أوّلاً، ومن ثَمّ وثبت عليّ ومرّرت يديها حول عنقي وانهالت عليّ بالقبل وهي تسحبني نحو الحمّام لكي أستحمّ. كانت ثيابٌ داخلية نظيفة وطرية تنتظرني، فخرجتُ من الحمام بعد أن اغتسلت وحلقت ذقني، فتغيّرت حالتي، وارتديتُ ثيابي

وجلستُ إلى المائدة. سكبت لي الطعام بنفسها، كما اعتادت أن تفعل ذلك دائماً. أردتُ أن أسألها، ولكنّها لفّت ودارت وماطلت، متظاهرةً بأنّها مشغولة، لكي تتهرّب لأطول وقتٍ ممكن من الأسئلة. وكنتُ أتحرّق شوقاً لأعرف تفسيراً لما قام به والدها، ولكنني أعرف أنّه لا يجوز إرغام هندوسيٍّ أو صيني على قول شيءٍ ما. هناك دائماً وقتٌ ينبغي احترامه قبل طرح الأسئلة. وبالتالي، يتحدّثون من تلقاء أنفسهم، لأنّهم يخمّنون ويعرفون أنّك تنتظر منهم الإفشاء عن شيءٍ ما، وإذا ما عرفوا أنّك جديرٌ، يفعلون ذلك. وهذا هو ما حصل بالفعل مع ايندارا.

بعد أن مارسنا الحبّ مطوّلاً في السرير، وعندما شبعت من ممارسة الجنس، وضعت في تجويف إبطي خدّها الذي كان لا يزال حامياً، وتكلّمت معي دون أن تنظر إليّ. قالت:

– أريدك أن تعلم، يا حبيبي، حينما يذهب أبي لإحضار الذهب، لا يرتكب إثماً، بل على العكس من ذلك تماماً. إنّه يستحضر الأرواح لكي تحمي البيت الذي يدحرج عليه حجره. ولكي يشكروه على ذلك، يقدّمون له قطعة من الذهب. وهذا تقليدٌ قديمٌ جدّاً في بلدنا جاوا.

هذا ما روته لي أميرتي. ولكن ذات يوم، ساومتني إحدى صديقاتها على صفقة. في ذلك الصباح، لم تكن لا هي ولا الصديقان الصينيان قد وصلوا. وحينئذٍ، روت لي الفتاة الحسناء، من جاوا، شيئاً مختلفاً:

– لماذا تعمل ما دمتَ تعيش مع ابنة الساحر؟ ألا تخجل من نفسها بأن توقظكَ في وقتٍ مبكّرٍ جدّاً حتى عندما يهطل المطر؟ بالذهب الذي يكسبه والدها، يمكنك أن تعيش من دون عملٍ. إنّها لا تجيد حبّك لأنّها توقظك باكراً جدّاً.

– وماذا يفعل والدها؟ اشرحي لي، فأنا لا أعرف شيئاً.

– والدها ساحرٌ من جاوا. إذا أراد، سيجلب الموت لك ولعائلتك. الطريقة الوحيدة للإفلات من التعويذة التي يعدّها لك بحجره السحري هو أن تعطيه ما يكفي من الذهب لكي يدحرج حجره بالاتجاه المعاكس

للاتجاه الذي يجلب الموت. فينهي مفعول كلّ التعاويذ، ويستحضر على العكس من ذلك الصحّة والحياة لك ولذويك الذين يعيشون في البيت.

– هذا يختلف عمّا روته لي ايندارا.

وعاهدتُ نفسي على أن أُجري تحقيقاً لأرى أيّ الفتاتين تقول الحقيقة.

بعد ذلك ببضعة أيام، كنتُ مع «حماي» ذي اللحية الطويلة البيضاء على ضفّة جدول ماء يعبر من وسط حي بينيتانس ريفرز ويصبّ في نهر ديميرارا. كشفت لي ملامح الصيادين الأمر بوضوح. إذ كان كلٌّ منهم يقدّم له سمكةً ويبتعد بأسرع ما يمكن من ضفّة النهر. فهمتُ المسألة، ولم تعد هناك حاجة لأسأل أيّ شيءٍ آخر من أحدٍ.

بالنسبة إليّ، لا يُضايقني حماي الساحر في شيء. لا يخاطبني إلّا باللغة الهندية ويفترض أنني أفهم عليه قليلاً. لم أستطع أبداً فهم ما يُريد قوله. ولهذا الأمر جانبه الإيجابي: لم يكن بوسعنا ألّا نكون متّفقين. ورغم كلّ شيء، وجد لي عملاً: رسمتُ وشوماً على جبين كلّ الفتيات اللواتي تتراوح أعمارهنّ بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة. في بعض الأحيان كان يكشف لي نهودهنّ وكنتُ أوشم عليها أوراق أو بتلات أزهارٍ باللون الأخضر والوردي والأزرق، تاركاً الحلمة كمدقة زهرةٍ. كانت الفتيات الجريئات، لأنّ عملية الوشم كانت مؤلمة جدّاً، يدعنني أوشم باللون الأصفر الكناري الدائرة السوداء من حول الحلمة، بل وكانت بعضهنّ، ولكن نادراً، يطلبن منّي أن أوشم حلمة النهد باللون الأصفر.

وضع أمام المنزل لوحة إعلانية مكتوبٌ عليها، باللغة الهندية، على ما يبدو العبارات التالية: «فنان وشوم – أسعار معتدلة – نتيجة مضمونة». وكان هذا العمل يدرّ دخلاً جيّداً، ولذلك كنتُ راضياً في أمرين: الاستمتاع برؤية النهود الجميلة للفتيات الجاويّات وكسب المال.

وجد كويك بالقرب من الميناء مطعماً للبيع. نقل إليّ بفخر الخبر واقترح أن نشتريه. السعر معقول، وهو ثمانمئة دولار. ومن خلال بيع

ذهب الساحر، بالإضافة إلى مدّخراتنا، يمكننا شراء المطعم. ذهبتُ لرؤيته، فوجدتُه في شارعٍ ضيّقٍ، ولكنّه قريبٌ جدّاً من الميناء.

كان المطعم يعجّ بالزّبائن في كلّ الأوقات. فيه صالة كبيرة مبلّطة ببلاطات باللونين الأبيض والأسود، فيها ثماني طاولات إلى الجانب الأيمن، وثماني في الجانب الأيمن، وفي الوسط طاولة مستديرة، يمكن عرض المقبّلات والفاكهة عليها. كان المطبخ كبيراً، واسعاً ومضاءً على نحوٍ جيّد، فيه فرنان وموقدان كبيران.

مطعم وفراشات

أنجزنا الصفقة. باعت ايندارا بنفسها كلّ الذهب الذي كنّا نملكه. وقد ذُهِل الأب في الحقيقة من كوني لم أكن قد مسستُ أبداً الذهب الذي كان يُعطيه لابنته من أجلنا كلينا. قال:

- لقد أعطيته لكما لكي تستفيدا منه. إنّه لكما أنتما الاثنان، وليس المطلوب منكما أن تسألاني إن كنتما تستطيعان التصرّف به. افعلا ما تشاءان.

لم يكن سيئاً جدّاً أن يكون هذا «حمي الساحر». أمّا هي، فهي صنفٌ مختلف، كعشيقة وكزوجة وكصديقة. لم نتعرّض أبداً لخطر التشاجر، لأنّها كانت تُطيعني دائماً في كلّ ما أقول. وتنزعج فقط بعض الشيء عندما أرسم الوشوم على نهود بنات بلدها.

إذاً، ها أنا صاحب مطعم فيكتوري في شارع ووتر ستريت، في قلب ميناء مدينة جورج تاون. كُلِّف كويك بالطبخ، وقد أعجبه ذلك، لأنّ هذه هي مهنته. وسيقوم الأكتع بتبضّع المواد اللازمة للمطعم وتحضير الوجبة الصينية الشهيرة «جاو ماين» وهي نوع من السباغيتي الصينية. وتُحضّر بالطريقة التالية: يتم مزج زهرة الطحين ودعكها بكمية من صفار البيض. من دون ماء، يتمّ الدعك بشدّة ولوقتٍ طويل. فيصبح العجين قاسياً جدّاً على العجن إلى درجة أنّه يدعكه من خلال الدوس عليه، وفخذه على

عصا مصقولة جيّداً ومثبّتة في وسط الطاولة. بينما يلفّ فخذاً أخرى على العصا، ممسكاً بها بيده الوحيدة، ويدور قافزاً على قدمٍ واحدة حول الطاولة، وهو يدعك ويعجن بهذه الطريقة العجين الذي يغدو، بعد عجنه بهذه القوّة، عجيناً خفيفاً ولذيذاً. في النهاية، يُضيف إليه القليل من الزبدة مذاقاً لذيذاً.

هذا المطعم، الذي أعلن إفلاسه قبل أن نشتريه، سرعان ما نال شهرة كبيرة. بمساعدة امرأة هندوسية شابّة وجميلة جدّاً، تُدعى دايا، قدّمت ايندارا الطعام للعديد من الزبائن الذين ارتادوا مطعمنا لكي يتذوّقوا الطبخ الصيني. جاء كلّ المحكومين بالأشغال الشاقّة الهاربين، ومن معه المال يدفع ثمن وجباته، أمّا الآخرون فيأكلون مجّاناً. يقول كويك: «إنّ إطعام الجائع يجلب السعادة».

كانت هناك مثلبة وحيدة: جاذبية النادلتين ومنهما ايندارا. كانتا تعرضان نهودهما العارية تحت القماش الشفّاف لثوبيهما. وعلاوة على ذلك، يصل شقّ ثوبهما من الكاحل إلى الورك، وفي بعض حركاتهما كان الثوب يكشف كلّ ساقيهما وفخذيهما إلى أعلى منطقة فيهما. وكان البحارة الأمريكيون والإنكليز والسويديون والكنديون والنروجيون يتناولون الطعام في بعض الأحيان مرّتين ليستمتعوا بالمشهد. وكان أصدقائي يُطلقون على مطعمي تسمية مطعم المتلصصين. أمّا أنا، فكنتُ أمثّل المعلّم. بالنسبة للجميع، كنتُ أنا «المعلّم». لم يكن هناك صندوق المحاسبة، بل كان النُدّل يجلبون لي النقود التي أضعها في جيبي، وأُعيد الباقي إذا لزم ذلك.

يفتح المطعم أبوابه في الساعة الثامنة مساءً وحتى الساعة الخامسة أو السادسة صباحاً. وغنيٌّ عن القول إنّ جميع عاهرات الحيّ اللواتي أمضين ليلة سعيدة كنّ يأتين عند الساعة الثالثة صباحاً ليتناولن مع قوادٍ أو زبونٍ دجاجةً بالكاري أو طبقاً من سلطة بذور الفاصولياء. كانوا يشربون أيضاً البيرة، وخاصّة الإنكليزية، والويسكي، والروم المحلّي المصنوع من

قصب السكّر، اللذيذ جدّاً، مع الصودا أو الكوكا كولا. ولأنّ المطعم بات مكان موعد الفرنسيين الهاربين من السجن، أصبحتُ الملاذ والمستشار والحَكَم والمؤتمن على أسرار كلّ مستعمرة المحكومين بالأشغال الشاقّة والسجناء المنفيين.

من جهة أخرى، جلب لي هذا الأمر بعض المتاعب في بعض الأحيان. شرح لي أحد هواة جمع الفراشات طريقته للصيد في الدَّغَل. قال بأنّه يقصّ كرتونة على شكل فراشة ثمّ يلصق فوقها جناحي فراشة من نوع الفراشات نفسه التي يريد اصطيادها، ويثبّت هذه الكرتونة على طرف عصا طولها متر. أثناء الصيد، يُمسك العصا بيده اليمنى ويقوم بحركات بطريقة تبدو معها أنّ الفراشة الزائفة تطير. ويأخذ مكانه في الدَّغَل دائماً في الفسحات التي تدخل إليها أشعة الشمس. وهو يعرف أوقات فقس بيوض كلّ نوع من أنواع الفراشات. هناك أنواع من الفراشات لا تعيش سوى ثماني وأربعين ساعة. وبالتالي، حينما تُلقي الشمس بأشعّتها على هذه الفسحة، تهرع الفراشات التي فقست لتوّها إلى هذا الضوء، وهي تسعى إلى أن تمارس الحبّ بأسرع ما يُمكن. وحينما ترى الطُّعم، تهرع من بعيد جدّاً إليه. وإذا كانت الفراشة الزائفة ذكراً، يأتي ذكرٌ ليصارعه، فيصطاده سريعاً باليد اليسرى التي يمسك بها الشبكة الصغيرة.

لحافظة الفراشات عنقٌ يُسدّ، الأمر الذي يجعل الصياد قادراً على مواصلة التقاط الفراشات دون أن يخشى أن تهرب الفراشات الأخرى الموجودة في الحافظة.

وإذا كانت الفراشة الزائفة مصنوعة من جناحي فراشة أنثى، يأتي الذكور للقحها، والنتيجة تكون واحدة.

أجمل الفراشات هي فراشات الليل، ولكن لكونها تصطدم غالباً بالموانع، من الصعب اصطياد واحدة منها يكون جناحاها سليمين. كلّها تقريباً تكون ممزّقة الجناحين. ومن أجل اصطياد هذه الفراشات الليلية، يصعد إلى أعالي شجرة كبيرة ويصنع إطاراً من شرشفٍ أبيض يُنير

خلفه بمصباحٍ زيتي. فتأتي الفراشات الليلية الكبيرة البالغة خمسة عشر إلى عشرين سنتيمتراً من طرف أحد جناحيها إلى طرف الآخر وتلتصق بالشرشف الأبيض. لا يبقى عليه سوى أن يخنقها من خلال الضغط بسرعة وقوّة على قفصها الصدري دون سحقها. يجب ألّا تتخبّط على الشرشف، وإلّا ستتلف أجنحتها، فتقلّ قيمتها.

كانت لدي على الدوام خزانة زجاجية تضمّ مجموعات صغيرة من الفراشات والذباب والثعابين الصغيرة والخفافيش الاستوائية. كان الطلب أكثر من العرض، ولذلك كانت الأسعار مرتفعة. حدّد لي زبونٌ أمريكي فراشةً جناحاها الخلفيان بلونٍ أزرقَ رصاصي وجناحاها العلويان بلونٍ أزرقٍ كاشف، وعرض عليّ خمسمئة دولار إذا ما وجدتُ فراشةً من هذا الجنس والتي تكون خنثى.

حينما تحدّثتُ عن ذلك مع الصياد، أخبرني أنّه كان يتوفّر على واحدة من هذه الفراشات، جميلة جدّاً، والتي دُفِعَ له بها خمسون دولاراً، وأنّه عرِف بعد ذلك، من أحد هواة جمع الفراشات الجادّين، أنّ فراشة من هذه الفصيلة تُساوي قرابة ألفي دولار. قال لي الصيّاد:

- إنّ هذا الأمريكي يُريد أن يغشّك، يا بابيون. إنّه يعتبرك غبيّاً. حتى إذا كانت هذه الفراشة تساوي ألفاً وخمسمئة دولارٍ، سوف يستفيد أيضاً الكثير من جهلك.

- أنت على حق، إنّه رجلٌ سافل. وماذا لو خدعناه نحن؟

- كيف ذلك؟

- سيكون علينا أن نثبّت على فراشة أنثى، على سبيل المثال، جناحي فراشة ذكر أو العكس. الأمر الصعب هو كيف سنثبّت الجناحين دون أن ينكشف ذلك.

بعد الكثير من المحاولات الخائبة، نجحنا في أن نثبّت تماماً، دون أن يبدو ذلك، جناحي ذكرٍ على أنثى نموذجية رائعة: أدخلنا الحواف في شقٍّ ناعمٍ ثمّ ألصقناها بحليب شجرة البَلاطة. وهذا يصمد جيّداً إلى درجة أننا

نستطيع أن نرفعه بالجناحين الملصقين. ووضعنا الفراشة تحت زجاجةٍ مع فراشاتٍ أخرى ضمن أيّ مجموعةٍ ثمنها عشرون دولاراً، كما لو أنني لم أرَ ذلك. لم يفشل ذلك. ما إنْ لاحظها الزبون الأمريكي حتى تجاسر على القدوم وفي يده ورقة نقدية من فئة عشرين دولاراً لكي يشتري مني المجموعة. أخبرته بأنّ المجموعة محجوزة، وأنّ رجلاً سويدياً طلب مني علبة وأنّ هذه له.

في غضون يومين، أمسك الأمريكي على الأقل عشر مرات العلبة بيديه. وفي النهاية، عندما لم يعد يصمد، ناداني:

- سأشتري الفراشة التي في الوسط بعشرين دولاراً، وأنت احتفظ بالباقي.

- وما الشيء الاستثنائي في هذه الفراشة؟

وأخذتُ أعاين الفراشة، ثمّ صرخت: «يا للهول، إنّها فراشة خنثى!».

قال الأمريكي:

- ماذا تقول؟ نعم، هذا صحيح. في البداية، لم أكن متأكّداً. إنّها لا تُرى جيّداً عبر الزجاج. هلا سمحت لي؟

عاين الفراشة من جميع النواحي وقال:

- كم تُريدُ ثمناً لها؟

- ألم تقل لي ذات يومٍ إنّ فراشةً من هذه الفصيلة نادرة تساوي خمسمئة دولار؟

- لقد كرّرتُ ذلك على مسامع العديد من صيّادي الفراشات، لا أُريد أن أستغلّ جهل الصياد الذي يلتقط هكذا فراشة.

- إذاً، لا أبيعها بأقلّ من خمسمئة دولار.

- اشتريتها، احتفظ بها لي. تفضّل، ها هي ستون دولاراً التي معي عربوناً لها. أعطني إيصالاً، وغداً سأجلب لك باقي المبلغ. ولكن أخرجها من هذه العلبة.

- ممتاز، سوف أحتفظ بها في مكانٍ آخر. ها هو إيصالك.

وفي اللحظة التي فتحتُ فيها المطعم في اليوم التالي، حضر سليل لينكولن. عاين مرّة أخرى الفراشة، وهذه المرّة باستخدام عدسة مكبّرة صغيرة. انتابني خوفٌ رهيب حينما قلب الفراشة. دفع لي ما تبقّى في ذمّته من المبلغ، ووضع الفراشة في علبةٍ كان قد جلبها معه، وطلب منّي إيصالاً آخر، ثمّ انصرف.

وبعد مضي شهرين، وجدتُ نفسي مطوّقاً برجال الشرطة. ولمّا وصلتُ إلى المفوّضية، شرح لي مفوّض الشرطة باللغة الفرنسية بأنّه تمّ توقيفي لاتّهامي من رجل أمريكي بالاحتيال. قال لي المفوّض:

- إنّ الموضوع يتعلّق بفراشة ألصقتَ لها أجنحة، وبعتها بفضل هذا الخداع بخمسمئة دولار.

حضر كويك وايندارا بعد ساعتين إلى مفوّضية الشرطة ومعهما محام يتحدّث الفرنسية بطلاقة. شرحتُ له بأنني لا أعرف شيئاً عن الفراشات، فلا أنا صيادٌ لها ولا جامع. أنا أبيع عُلب المجموعات لكي أُقدِّم خدمةً للصيادين الذين هم زبائني، وأنّ الرجل الأمريكي هو الذي عرض خمسمئة دولار، ولستُ أنا الذي طلبتها منه، ثمّ لو كانت الفراشة أصلية، لكانت قيمتها حوالي ألفي دولار.

وبعد يومين، تمّ تحويلي إلى القضاء ومثلتُ أمام المحكمة. قام المحامي بدور المترجم لي أيضاً. كرّرتُ فرضيتي التي شرحتها في مفوّضية الشرطة. ودعماً لفرضيتي، كان مع المحامي لائحة بأسعار الفراشات تُظهر أنّ سعر هذه الفصيلة من الفراشات يفوق ألف وخمسمئة دولار. فدفع الرجل الأمريكي نفقات الدعوى وأُلزِمَ بدفع أتعاب المحامي وهي أكثر من مئتي دولار.

بحضور جميع السجناء الفارّين والهندوس، احتفلنا بإطلاق سراحي مع مشروب باستيس المنزلي. كانت عائلة ايندارا كلّها قد حضرت إلى المحكمة، وهم جميعاً فخورون بوجود رجلٍ خارق في العائلة بعد نيل البراءة. لأنّهم لم يكونوا مغفّلين، وكانوا يشكّون تماماً بأنني أنا منْ ألصقتُ أجنحة الفراشة.

قُضي الأمر واضطررنا لبيع المطعم، وكان يجب لهذا أن يحدث. كانت ايندارا ودايا جميلتين جداً، وكان خروجهما في استعراضٍ لمفاتن جسديهما، دون الذهاب بعيداً أبداً، يثير هياج هؤلاء البحارة الممتلئين بالدم الحامي أكثر ممّا لو كانتا عاريتين تماماً. وقد لاحظتُ أنّه كلّما كانتا تضعان نهديهما العاريين اللذين يشفّ عنهما الثوب الرقيق تحت أنف البحّارة أكثر، كلّما كانتا تحصلان على إكرامية أكثر. ولو أنّهما مالتا على الطاولة بطريقة عادية، لما نجحتا أبداً في تحصيل الحساب أو المبلغ الصحيح. بعد هذا الاستعراض الجسدي المحسوب بدقّة، كانت عينا البحّار تجحظان لكي تريا على نحوٍ أفضل، فتنتصبان وتقولان له: «وأين إكراميتي؟» فيغدو هؤلاء الرجال المساكين في غاية السخاء ولا يعود يعرف هؤلاء العشّاق المتيَّمون الذين لم ينالوا مرادهم أبداً ماذا يفعلون.

حدث ذات يوم ما كنتُ أتوقّعه. لم يكتفِ رجلٌ طويل القامة أصهب ووجه مليءٌ بالنمش بالنظر إلى الفخذ العاري: فعند الظهور الخاطف للسروال الداخلي، مدّ يده، وبأصابعه العنيفة، أمسك حبيبتي الجاوية وحصرها كما لو أنّها بين فكّي كمّاشة. ولأنّها كانت تحمل في يدها إناءً زجاجياً مليئاً بالماء، حطّمته سريعاً على رأس الرجل الأصهب. وتحت تأثير الضربة، نزع هذا الأخير بيده سروالها الداخلي وخرّ على الأرض. هرعتُ لكي أرفعه عن الأرض، عندما ظنّ أصدقاؤه أنني ذاهبٌ لضربه، وقبل أن أنبس ببنت شفةٍ، تلقّيتُ لكمة قويّة على عيني مباشرةً. تُرى هل يمكن أن يكون البحّار الملاكم قد أراد بالفعل أن يدافع عن صديقه، أم أنّه أراد أن يوجّه صفعة لزوج الحسناء الهندوسية المسؤول عن عدم قدرته في الوصول إليها هي؟ اللّه أعلم! على أيّ حال، تلقت عيني هذه الضربة مباشرةً. وقد راهن سريعاً على انتصاره، فقد اتّخذ وضعية الاستعداد للملاكمة أمامي، وصرخ باللغة الإنكليزية: «هيّا إلى الملاكمة، هيّا إلى الملاكمة، يا رجل!» ركلته في

أعضائه التناسلية وأتبعتُ ذلك بنطحةٍ من رأسي على طريقة بابيون، انطرح الملاكم أرضاً بطوله.

أصبحت المشاجرة جماعية. فقد هبّ الصيني الأكتع لنجدتي من المطبخ وصار يوزّع الضربات يميناً ويساراً بالعصا التي يُعدّ بها السباغيتي الخاصّة. وصل كويك ومعه مذراةٌ طويلة بسنّين وراح يغرزها في المهاجمين. واستخدم أزعرٌ باريسي متقاعد من الحفلات الراقصة في شارع (لاب) كرسياً كهراوة. ولأنّها وجدت نفسها عاجزة بسبب فقدانها لسروالها الداخلي، انسحبت ايندارا من المشاجرة.

وكانت حصيلة المشاجرة إصابة خمسة أمريكيين بجراح خطيرة في الرأس، وحمل آخرون ثقوب مذراة كويك في أنحاء متفرّقة من أجسادهم. سال الدم في كلّ مكان. وقف شرطيٌّ أسود البشرة من أصول برازافيلية في باب المطعم لكي لا يخرج أحد. وكان ذلك لحسن حظّنا، لأنّه وصلت سيارة جيب تابعة للشرطة العسكرية. ترجّل رجال الشرطة العسكرية، بمشدّات السيقان البيضاء اللون، ورفعوا هراواتهم، وأرادوا أن يدخلوا عنوةً إلى المطعم، وحينما رأوا البحّارة غارقين في الدماء، نووا بكلّ تأكيد أن ينتقموا لهم. دفعهم الشرطي الأسود ثمّ وضع ذراعه وعصاه في عرض الباب وقال باللغة الإنكليزية: «شرطة صاحبة الجلالة».

وفقط عندما وصل رجال الشرطة الإنكليز، تمّ إخراجنا وإصعادنا إلى شاحنة الحجز، وتمّ اقتيادنا إلى مفوّضية الشرطة. باستثنائي أنا، الذي أُصبتُ في عيني، لم يكن أحدٌ منّا قد أُصيب بجراح، الأمر الذي جعلهم يرفضون تصديق روايتنا في الدفاع المشروع عن أنفسنا.

بعد مضي ثمانية أيام، وفي المحكمة، وافق رئيس المحكمة على فرضيتنا وأطلق سراحنا، باستثناء كويك الذي حُكِم عليه بالسجن لثلاثة أشهر بسبب الطعنات والجراح التي تسبّب بها بمذراته. كان من الصعوبة بمكان تفسير العديد من الثقوب المزدوجة التي كان كويك قد وزّعها بصورة مفرطة في كلّ أنحاء جسد البحّارة.

ولأنّه حدثت، في أعقاب هذه المشاجرة، ست مشاجرات أخرى في غضون أقلّ من خمسة عشر يوماً، أحسسنا بأنّه لم يعد بوسعنا الصمود والاستمرار. فقد قرّر البحّارة بألّا يعتبروا هذه الحكاية قد انتهت، ولأنّ الزبائن الذين ارتادوا المطعم كانوا دائماً من ذوي وجوه جديدة، لم يكن بوسعنا أن نعرف إن كانوا من أصدقاء أعدائنا أم لا.

وبالتالي، بعنا المطعم، وإن لم يكن بالثمن الذي دفعنا به. ففي الحقيقة، رغم الشهرة التي نالها، لم يكن هناك الكثير من الزبائن الذين رغبوا في شرائه.

- ماذا سنفعل، أيّها الأكتع؟

- بانتظار أن يخرج كويك من السجن، سنرتاح. لا يمكننا أن نستأنف عملنا مع العربة والأتان، لأننا بعناهما، وراح معهما الزبائن. من الأفضل ألّا نفعل شيئاً، ونرتاح الآن، وسوف نرى لاحقاً ما الذي سنفعله.

خرج كويك من السجن. أخبرنا بأنّه قد عومِلَ معاملةً حسنة. روى لنا، قائلاً: «الأمر الوحيد الذي كان يُنغص عليّ هو وجودي بالقرب من شخصين محكومين بالموت». والحال أنّ الإنكليز لديهم عادة قذرة: لقد أخبروا محكوماً بالإعدام، قبل خمسة وأربعين يوماً من تنفيذ الحكم، بأنّه سوف يُعلّق على المشنقة في اليوم الفلاني والساعة الفلانية، وأنّ الملكة رفضت العفو عنهم. وروى لنا كويك أنّه منذ ذلك اليوم، ظلّ المحكومان يصرخان في بعضهما كلّ يوم، يقول الأوّل: «لقد نقص يومٌ آخر، يا جوني، ولم يبق سوى كذا يوم!»، فلا يكفّ الآخر عن شتم شريكه طيلة فترة الصباح. عدا هذا، كان كويك مرتاحاً ويحظى بالتقدير.

كوخ الخيزران

نزل باسكال فوسكو من مناجم البوكسيت. إنّه أحد الرجال الذين كانوا قد حاولوا القيام بهجوم مسلّح على مكتب البريد في مرسيليا. أُعدِم شريكه بالمقصلة. كان باسكال الأفضل من بيننا جميعاً. فهو ميكانيكي

ماهر، ولكنّه لا يكسب سوى أربعة دولارات في اليوم، ويجد بهذا المبلغ على الدوام الطريقة في إطعام سجينٍ أو سجينين من المحكومين بالأشغال الشاقّة ممن يعانون من ضائقة مالية.

كان هذا المنجم الأرضي للألمنيوم متقدّماً جدّاً في الدَّغَل. وقد تشكّلت قرية صغيرة من حول المعسكر، يعيش فيها العمال والمهندسون. في الميناء، يتمّ دون توقّف تحميل خام المعدن في العديد من سفن الشحن. لمعت في ذهني فكرة: لماذا لا نذهب ونفتتح ملهى في هذه البلدة التائهة وسط الدَّغَل. لا بدّ أنّ الناس تشعر بالضجر والملل في الليل.

قال لي فوسكو:

- بالفعل ليس هناك لا ملهى للتسلية، ولا أيّ شيء آخر.

بعد مضي عدّة أيام، أبحرنا، ايندارا وكويك والأكتع وأنا، على متن قاربٍ وبعد رحلةٍ استغرقت يومين وصلنا عبر النهر إلى منجم «ماكينزي».

وجدنا معسكر المهندسين ورؤساء الأقسام والعمال الأخصائيين صافياً ونظيفاً، فيه بيوتٌ صغيرة مريحة، وجميعها مزوّدة بشبكات معدنية ناعمة للحماية من البعوض. أمّا القرية نفسها فكانت مثيرة للاشمئزاز، إذ لم يكن فيها أيّ بيت من القرميد أو الحجر أو الإسمنت، وإنّما جميعها أكواخٌ مبنية من الطين والخيزران، وأسقفها من أوراق شجر الموز البري أو، بالنسبة للأكثر حداثة، من ألواح التوتياء. تعجّ فيها أربعة مطاعم وحانات شنيعة بالزبائن، ويتقاتل البحارة من أجل الحصول على زجاجة بيرة ساخنة. ولم تكن لدى أيّ من أصحاب هذه المطاعم والحانات ثلّاجة.

كان باسكال على حقّ، إذ هناك بالفعل ما يمكن فعله في هذه البلدة. ففي النهاية، أنا سجينٌ فارّ، وهذه مغامرة، ولا أستطيع أن أعيش بشكلٍ طبيعي مثل رفاقي. ولا يهمني أن أعمل فقط لكي أكسب ما يكفيني لمعيشتي. ولأنّ الشوارع تمتلئ بالطين حينما تهطل الأمطار، اخترتُ أن أبتعد عن مركز القرية قليلاً وأستقرّ في مكانٍ أكثر ارتفاعاً. وبذلك أكون متأكّداً من أنّ المياه لن تفيض لا داخل، ولا حول المنشأة التي أنوي تشييدها.

في غضون عشرة أيام، بمساعدة النجّارين السود الذين يعملون في المنجم، بنينا صالة مستطيلة الشكل طولها عشرون متراً وعرضها ثمانية أمتار. ووضعنا فيها ثلاثين طاولة تسع كلّ واحدة منها لأربعة أشخاص، مما يُتيح لمئة وعشرين شخصاً الجلوس في القاعة براحة. وأعددنا منصة مسرح لتقدّم الفنّانات عروضهنّ عليها، وباراً بعرض القاعة مع اثني عشر مقعداً عالياً بلا مساند. وبجانب الملهى، بنينا بيتاً يضمّ ثماني غرف، يستطيع ستة عشر شخصاً أن يعيشوا فيه بارتياح.

حينما نزلتُ إلى مدينة جورج تاون لكي أشتري المواد من كراسيّ وطاولات وسواها، وظّفت أربع فتيات سوداوات رائعات الجمال لكي يقمن بخدمة الزبائن. وقد قرّرت دايا التي كانت تعمل لدينا في المطعم سابقاً أن تأتي معنا. وسوف تعزف فتاة هندية البيانو القديم الذي استأجرته. بقي علينا أن نؤمّن فتيات الاستعراض. وبعد جهدٍ جهيد والكثير من الثرثرة واللغو، نجحتُ في إقناع فتاتين جاويتين، وواحدة برتغالية، وأخرى صينية، بالإضافة إلى فتاتين سمراوين أن يهجرن مهنة الدعارة ويعملن فنّانات تعرّي على المسرح. وسوف نستخدم ستارة حمراء قديمة اشتريتها من مخزن للبضائع المستعملة في فتح وإغلاق منصّة العرض.

عدتُ مع كامل فريقي في رحلةٍ خاصّة نظّمها لي صياد صيني في زورقه. قدّم لي متجرٌ لبيع الكحوليات كلّ المشروبات التي يمكن تخيّلها بالدَّين. وقد وثق بي صاحب المتجر، وسوف أدفع له كلّ ثلاثين يوماً ما أبيعه، حسب الجرد. وسوف يزوّدني باستمرار بما يلزمني من مشروبات. وسوف يبثّ جهاز تسجيلٍ قديم وأسطوانات مستعمَلة الموسيقى حينما تتوقّف عازفة البيانو عن العزف. وسوف تكون «خزانة الملابس» لـ «فنانات» ملهاي في المستقبل مكوّنة من فساتين من كلّ نوع وتنانير قصيرة وجواربٍ سوداء وملوّنة وجوارب طويلة موصولة بالسراويل الداخلية وحمّالات صدر في حالةٍ ممتازة والتي اخترتها بألوان فاقعة من متجر رجلٍ هندوسي كان قد جمعها من بقايا مسرحٍ متنقّل.

اشترى كويك المواد الخشبية الضرورية ومستلزمات المنامة؛ واشترت ايندارا الكؤوس وكلّ ما يلزم للبار؛ أمّا أنا، فقد اشتريتُ المشروبات الكحولية، وانشغلتُ بالمسألة الفنية. ولاستعجال إنجاز كلّ هذا خلال أسبوع، كان لا بدّ من بذل جهود جبّارة. وفي النهاية، أُنجِزَ الأمر وأصبح كلّ الفريق وكلّ المواد الضرورية على أتمّ الجاهزية، وانطلقت سفينتنا.

بعد يومين، وصلنا إلى البلدة. وقد أحدثت الفتيات العشر ثورةً حقيقية في هذه البلدة التائهة وسط الدَّغَل. صعد كلٌّ منّا محمّلاً بطردٍ إلى ملهى «كوخ الخيزران»، وهو الاسم الذي أطلقناه على علبتنا الليلية. بدأت التدريبات، ولم يكن من السهل أن أعلّم «فناناتي» الوقوف عاريات على المسرح. أوّلاً، لأنني كنتُ أتحدّث اللغة الإنكليزية بشكلٍ سيِّئ للغاية، وأنّ شروحاتي غير مفهومة؛ ومن ثَمّ، كنّ قد اعتدن طيلة حياتهنّ أن ينزعن ثيابهنّ بسرعة لكي يصرفن الزبون بأسرع وقت ممكن. في حين أنّ كلّ شيءٍ الآن على العكس تماماً: كلّما تعرّين على نحوٍ أبطأ، كلّما كان المشهد أكثر إثارةً جنسياً. وتستخدم كلّ فتاة تكتيكاً مختلفاً. وهذه الطريقة للتصرف يجب عليها أن تتناغم مع الثياب.

الماركيزة ذات المشدّ الوردي والفستان المنفوخ، والسروال الطويل الأبيض المخرّم تتعرّى ببطء، مختفية بحاجزٍ أمام مرآة كبيرة، يستطيع الحضور الإعجاب شيئاً فشيئاً بكلّ بقعة من جسدها تكشف عنها في تلك المرآة.

ثمّ، هناك رابيد، وهي فتاة ذات بطنٍ ضامر وناعم، سمراء بلون القهوة بالحليب الكاشفة جدّاً، وهي نموذجٌ رائعٌ للدم الهجين، وبالتأكيد نتيجة لزواجٍ بين رجلٍ أبيض وامرأة سوداء كاشفة. تُظهر بشرتها التي بلون حبّة البن المحمّصة حديثاً كلّ مفاتنها المتناسقة. ينساب شعرها الطويل أسود اللون متموّجاً على نحوٍ طبيعي على كتفيها المستديرين بهبةٍ إلهية. ونهداها ممتلئان وبارزان نحو الأعلى على الرغم من ثقلهما، ويدفعان حلمتين رائعتين لونهما بالكاد أكثر غمقاً من لون بقية النهد. هذه هي

رابيد. تُفتَح كلّ قطع ثيابها بوساطة سحّابات. وتظهر على المسرح مرتدية سروال كاوبوي، معتمرة قبّعة واسعة جدّاً على رأسها، وبلوزةً بيضاء ينتهي كمّاها بأشرطة من الجلد. وعلى وقع موسيقى عسكرية، تظهر على المسرح، وتنزع حذائها وهي تُطيّر كلّ فردةٍ منها في جهة. ينزل السروال إلى طرف ساقيها ثمّ يسقط حتى قدميها فجأةً، وينفتح المشدّ إلى قطعتين بوساطة سحّاب على طول كلّ ذراعٍ من ذراعيها.

بالنسبة إلى الجمهور، تكون الصدمة عنيفة لأنّ النهدين العاريين يبرزان كما لو أنّهما في غضبٍ لحبسهما لوقتٍ طويل. بعد أن يتعرّى جذعها وفخذاها، تضع يديها على وركيها وتُباعد بين ساقيها، وتنظر إلى الجمهور محدّقة في وجوههم، تنزع القبّعة وترميها إلى أقرب طاولةٍ من المسرح.

لا تقوم رابيد بسلوكيات أو حركات حشمةٍ وحياءٍ لتنزع سروالها الداخلي. تقوم في اللحظة نفسها بفكّ أزرار طرفي القطعة الصغيرة وتنتزعها بعنف بدل التخلّي عنها بهدوء. وبعد أن تصبح عاريةً تماماً، يظهر فرجها المشعر، وفي اللحظة ذاتها، تمرّر لها فتاةٌ أخرى مروحة كبيرة من الريش الأبيض، فتفتحها تماماً وتتستّر بها.

امتلأ ملهى كوخ الخيزران عن آخره في يوم الافتتاح. وحضرت هيئة أركان المنجم بأكملها. انتهت الليلة بالرقص، وكانت الشمس قد بزغت حينما غادر آخر الزبائن. حقّقنا نجاحاً باهراً، ما كنّا لنحلم بأفضل منه. تحمّلنا الكثير من النفقات، ولكن الأسعار المرتفعة عوّضت ذلك، وأعتقد بصدق أنّ هذا الملهى في قلب الدَّغَل، سوف يحظى، في بعض الليالي، بعددٍ من الزبائن يفوق سعة المكان.

فاقت الخدمة قدرة نادلاتي الأربع السوداوات. فهنّ أيضاً بتنانيرهنّ القصيرة جدّاً ومشدّاتهنّ المفتوحة كثيراً، الكاشفة عن أجسادهنّ، ومناديلهنّ الحمراء فوق رؤوسهنّ، كنّ يثرنّ الزبائن مثل راقصات التعرّي. أشرفت كلّ من ايندارا ودايا على قسمٍ من الصالة. أمّا في البار، فقام الأكتع

وكويك بمهمّة إرسال الطلبيات إلى القاعة. أمّا أنا، فأتواجد في كلّ مكان، أُصحّح أيّ خطأ يقع، أو أهبّ لمساعدة من يحتاج إلى مساعدة.

عندما بقي المعلّم والنادلات والفنانات لوحدهم في القاعة، قال كويك:

- هذا هو النجاح المؤكّد.

تناولنا الطعام معاً كأسرة واحدة، من معلّم وعاملين، وقد أنهكنا التعب، ولكن أسعدتنا النتيجة. ذهبنا جميعاً إلى النوم.

جاء كويك يوقظني:

- ايه، يا بابيون، ألا تُريد أن تستيقظ؟

- كم الساعة؟

- الساعة السادسة مساءً. وقد ساعدتنا أميرتك. لقد استيقظت منذ ساعتين. كلّ شيء أصبح مرتّباً وجاهزاً لكي نستأنف العمل هذه الليلة.

جاءت ايندارا مع إبريق ماءٍ ساخن، فحلقتُ ذقني واستحممت، ثمّ خرجت منتعشاً ونشيطاً، أطوّق خصرها، ودخلنا معاً إلى ملهى كوخ الخيزران حيث تمّ استقبالي بسيلٍ من الأسئلة:

- هل كان الأمر على ما يُرام، يا معلّم؟

- هل أحسنتُ التعرّي؟ أين كان يكمن الخطأ برأيك؟

- هل غنّيتُ بطريقة صحيحة؟ حقّاً إنّ الجمهور سهل الإرضاء لحسن الحظّ.

هذا الفريق الجديد كان لطيفاً ومحبوباً بالفعل. هؤلاء العاهرات اللواتي تحوّلن إلى فنانات أدّين عملهنّ بجدّية وبدا أنّهن سعيدات بترك مهنتهنّ الأولى. سار عملنا على أفضل ما يكون. واجهتنا صعوبة واحدة فقط: قلّة عدد النساء مقارنةً بالعدد الكبير للرجال الذين يأتون بمفردهم. يرغب جميع الزبائن في أن تكون برفقتهم فتاةٌ، وخاصّة فنّانة، إن لم يكن طيلة الليل، فلأطول وقت. أثار هذا الأمر الغيرة بين الرجال. ومن وقتٍ لآخر، عندما يتصادف وجود امرأتين معاً على الطاولة نفسها، تحدث احتجاجات من الزبائن.

ازداد الطلب على الفتيات الصغيرات السوداوات أيضاً، أوّلاً لأنّهنّ جميلات، ومن ثَمّ لأنّه في هذا الدَّغَل لا توجد نساء. اضطرت دايا لتنتقل في بعض الأحيان إلى خلف البار لكي تقدّم الطلبات للزبائن ولكي تتحدّث مع الجميع. وكان عشرون رجلاً تقريباً يستمتعون بحضور الفتاة الهندوسية ذات الجمال النادر بالفعل.

ولكي أتجنّب حالات الغيرة بين الزبائن ومطالباتهم بوجود فتاة على طاولتهم، أنشأتُ نظاماً للقرعة. فبعد كلّ وصلة تعرّي، كان دولابٌ كبير مرقّم من الرقم (1) وحتى الرقم (32)، وذلك بمعدّل رقم لكلّ طاولة ورقمين للبار، يدور لكي يقرّر إلى أيّ طاولة يجب أن تذهب الفتاة. وللمشاركة في القرعة على الدولاب، على الزبون أن يأخذ بطاقة تُعادل قيمتها قيمة زجاجة ويسكي أو شامبانيا.

اعتقدتُ أنّ لهذه الفكرة فائدتين: فهي تتجنّب أوّلاً أي مطالبة من الزبائن بفتاةٍ. ثمّ يستمتع الفائز في السحب بالفتاة لمدّة ساعة تقضيها على طاولته مقابل ثمن الزجاجة التي تُقدّم له بالطريقة التالية: في اللحظة التي تختبئ فيها الفنّانة، العارية تماماً، خلف المروحة الواسعة، يتمّ تدوير الدولاب. حينما يظهر الرقم الفائز، تصعد الفتاة على لوحٍ كبيرٍ من الخشب المدهون باللون الفضي، ويرفع أربعة رجال أشدّاء كلّ شيء ويحملونه إلى الطاولة الفائزة، صاحبة الحظّ السعيد. وتفتح الفتاة بنفسها زجاجة الشامبانيا، وتحتسي كوباً منها نخب الجالسين إلى الطاولة، وهي لا تزال عارية تماماً، ثمّ تستأذن منهم وتعود بعد خمس دقائق وتجلس إلى الطاولة وهي مرتدية ثيابها.

خلال ستة أشهر، جرى كلّ شيء على أفضل ما يُرام، ولكن بعد انقضاء موسم الأمطار، جاء زبائنٌ جدد. إنّهم من الباحثين عن الذهب والألماس والذين يُنقّبون بكلّ حرّية في هذا الدَّغَل الثريّ بالطمي. إنّ البحث عن الذهب والألماس بطرائق عفا عليها الزمن أمرٌ في غاية الصعوبة. وفي أحيانٍ كثيرة يقتل المنقّبون عن المعادن الثمينة بعضهم بعضاً أو يسرقون من بعضهم. ولذلك فإنّ الجميع مسلّحون، وحينما يحصلون على جُريبٍ صغير

من الذهب أو حفنة من الألماس، لا يُقاومون الرغبة في صرفها بجنون. تنال الفتيات على كلّ زجاجة مشروب نسبة كبيرة من قيمتها، ولذلك سرعان ما تقوم الفتاة، وهي تعانق الزبون، بسكب الشامبانيا أو الويسكي في سطل الثلج لكي تفرغ الزجاجة بشكلٍ أسرع. وينتبه بعض الزبائن، على الرغم من الكحول الذي تجرّعوه، إلى تلك الحيلة وتكون ردود أفعالهم قاسية جدّاً بحيث اضطررتُ لأن أثبّت الطاولات والكراسيّ بالأرض.

بوجود هؤلاء الزبائن الجدد، حدث ما كان يجب أن يحدث. كنّا نسميها «زهرة القرفة». في الواقع، لبشرتها لون القرفة. هذه الصبيّة الجديدة التي انتشلتها من القاع السحيق لمدينة جورج تاون، جنّنت بالمعنى الحرفي للكلمة الزبائن بطريقتها في التعرّي.

حينما يحين دورها لتقدّم وصلتها في التعرّي، نضع أريكة ملبّسة بقماشٍ أبيضَ من الساتان على المسرح، ولم تكن تتعرّى فحسب، بل ما إنْ تصبح عاريةً تمّاماً، كانت تتمدّد على الأريكة وتداعب نفسها بنفسها. كانت أصابعها الطويلة المشيقة والنحيلة تنزلق على كلّ جسدها العاري وهي تلعب بجسدها من قمّة رأسها إلى أخمص قدميها. لا يفلتُ أيّ جزء من جسدها من مداعباتها وملامساتها. ولا داعي لإخباركم بردّ فعل رجال الأدغال الأفظاظ هؤلاء المترعين بالكحول.

ولأنّها جذّابة جدّاً، فرضت على اللاعبين الراغبين في سحب القرعة عليها أن يشتروا زجاجتين من الشامبانيا لا زجاجة واحدة مثل الفتيات الأخريات. راهن أحد المنقبّين عن المعادن الثمينة، والذي له لحية سوداء كثيفة جدّاً، عدّة مرّات على حظّه من أجل الظفر بزهرة القرفة، ولكن لم يحالفه الحظّ وراحت جميع محاولاته عبثاً. وحينما مرّت حبيبتي الهندوسية لكي تبيع أرقام وصلة التعرّي الأخيرة لزهرة القرفة، لم يجد الرجل سبيلاً آخر سوى أن يشتري الأرقام الثلاثين الخاصّة بالقاعة. وبالتالي، لم يبقَ سوى الرقمين المخصّصين للبار.

متأكّداً من الفوز بعد أن دفع ثمن زجاجات الشامبانيا الستين، انتظر

صاحبي الملتحي واثقاً من نفسه تعرّي زهرة القرنفل وسحب قرعة الدولاب. كانت زهرة القرفة في غاية الإثارة بسبب كلّ ما شربته في تلك الليلة. بلغت الساعة الرابعة صباحاً، عندما بدأت عرضها الأخير. وبمساعدة الكحول، أصبحت مثيرة جنسياً أكثر من أيّ وقتٍ مضى وحركاتها أيضاً أكثر جرأةً من العادة. تصاعد رنين تدوير الدولاب الذي سوف يُعطي بمؤشره العظمي الصغير الرقم الفائز.

سال لعاب الرجل الملتحي شهوةً بعد أن رأى العرض المثير للصبيّة ذات لون القرفة. انتظر وكلّه ثقة بأنّها ستُحمَل إليه عارية على طبقٍ من فضّة، مغطّاة بالمروحة الشهيرة المصنوعة من الريش، وبين فخذيها الرائعَين زجاجتا الشامبانيا. كارثة! لقد خسر الرجل الذي اشترى ثلاثين رقماً. فقد فاز الرقم (31)، أي الرقم المخصّص للبار. في البداية لم يستوعب سوى نصف ما جرى ولم يتحقّق تماماً من الموضوع إلّا حينما رُفعت الفنّانة ووضِعَت على البار. وهنا جنّ جنون الرجل الأبله، فقلب الطاولة التي أمامه وبثلاث قفزات وصل إلى البار. لم يستغرق إخراج مسدّسه وإطلاق ثلاث طلقات على الفتاة ثلاث ثواني.

ماتت زهرة القرفة بين ذراعي. أخذتها بعد أن أسقطتُ ذاك الحيوان أرضاً بصعقة من العصا الكهربائية الخاصّة بالشرطة الأمريكية والتي أحملها معي على الدوام. وبسبب تعثّري بنادلة وصينيتها، الأمر الذي أخّر تدخّلي، حظي ذاك البلطجي بالفرصة لكي يرتكب هذه الفعلة الجنونية. وفي المحصلة، أغلقت الشرطة ملهى (كوخ الخيزران)، وعدنا إلى مدينة جورج تاون.

ها قد عدنا من جديد للإقامة في بيتنا. لم تغيّر ايندارا، كهندوسية قدرية حقيقية، من طباعها. بالنسبة لها، ليس هناك أي أهمية لهذا الخراب الذي حلّ بنا. سوف نقوم بعملٍ جديد، وهذا كلّ شيء. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الرجلين الصينيين. لم يتغيّر شيء في فريقنا المنسجم. ولم يُلقَ عليّ أيّ لوم على فكرتي في إجراء قرعة اليانصيب على الفتيات، مع أنّ هذه الفكرة هي التي أدّت إلى تحطّمنا. فمع المدخّرات التي بحوزتنا، بعد

أن سدّدنا كلّ ديوننا بدقّة، ودفعنا مبلغاً من المال لوالدة زهرة القرفة، لن نلقى أيّ مصاعب. ذهبنا كلّ مساء إلى الحانة التي يجتمع فيها من كانوا محكومين بالأشغال الشاقّة. أمضينا سهرات ساحرة، ولكنّ مدينة جورج تاون، بسبب قيود الحرب، بدأت تتعبني.

علاوة على ذلك، لم تكن أميرتي غيورة أبداً، وأحظى دائماً بكلّ حريّتي. الآن، لم تعد تفارقني للحظة وترافقني كظلّي وتبقى لساعات جالسة بجانبي، أيّاً كان المكان الذي أتواجد فيه.

تعقّدت احتمالات القيام بتجارةٍ في جورج تاون. ولذلك، راودتني، ذات يوم جميل، الرغبة في الرحيل عن غويانا الإنكليزية واللجوء إلى بلدٍ آخر. ليس هناك أيّ خطر يهدّدني، إنّها الحرب وسوف لن يُعيدنا أيّ بلد، وهذا على الأقلّ ما أفترضه.

الهروب من جورج تاون

وافق غيتو على مغادرة جورج تاون. فهو الآخر يعتقد أنّه يجب أن تكون هناك بلدان أخرى أفضل وأسهل للعيش من غويانا الإنكليزية. فبدأنا بالتحضير لعملية فرار جديدة. في الواقع، الخروج من غويانا الإنكليزية جريمة خطيرة جدّاً. فنحن في زمن الحرب، ولا أحد منّا يمتلك جواز سفرٍ.

يتواجد شابار الذي هرب من كايين بعد أن تمّ رفع الاحتجاز عنه هنا منذ ثلاثة أشهر. ويعمل يومياً لقاء دولارٍ ونصف في صناعة البوظة في متجرٍ للحلويات الصينية. وهو أيضاً يرغب في الرحيل عن جورج تاون. وكان سجينٌ محكومٌ بالأشغال الشاقة من ديجون، يُدعى ديبلانك، ورجلٌ من بوردو أيضاً مرشّحين للفرار معنا. في حين آثر كويك والصيني الأكتع البقاء، فهما يجدان نفسيهما مرتاحين هنا.

وبما أنّ مَخرَج نهر ديميرارا مراقبٌ مراقبةً شديدة ويقع تحت نيران مرابض الأسلحة الرشّاشة وقاذفات الطوربيد والمدافع، قرّرنا أن نستنسخ

نموذجاً طبق الأصل عن قارب صيد مسجّل في جورج تاون، وأن نخرج من النهر به متظاهرين بأننا نخرج بقارب الصيد المسجّل. عاتبتُ نفسي على جحودي حيال ايندارا وعدم مبادلتها كما ينبغي الحبّ الكليّ الذي وهبتني إياه. ولكن ليس بوسعي فعل أيّ شيء، فهي تلتصق بي كثيراً إلى درجة إثارة أعصابي، إنّها الآن توتّرني وتجعلني عصبياً. إنّ النساء البسيطات النقيّات اللواتي لا يتحفّظن في رغباتهنّ لا ينتظرن أن يقوم الذي يحبهنّ بالطلب منهنّ وإقناعهنّ من أجل ممارسة الحب. هذه الفتاة الهندوسية تتصرّف تماماً مثل الأختين الهنديتين في قبيلة غواجيرا اللتين تزوّجتُهما. لثلاثتهنّ السلوك نفسه في التعامل مع ممارسة الجنس، ففي اللحظة التي تراود فيها أحاسيسهنّ الرغبة في الانتشاء، يبذلن أنفسهنّ، وإذا امتنعتُ عن تلبية رغبتهنّ، يصبح ردّ فعلهنّ خطيراً جدّاً. ينمو ألمٌ حقيقي وعنيد في أعماقهنّ وهذا يغضبني لأنني لا أُريد أن أسبّب الألم لأميرتي ايندارا، مثلما سبّبته للشقيقتين الهنديتين أو الهندوسيتين، ولذلك عليّ أن أُرغم نفسي على أن أدعها تستمتع بين ذراعي قدر المستطاع.

شاهدتُ البارحة الشيء الأجمل الذي يمكن للمرء أن يراه من وجهة النظر الإيمائية لكي يعبّر عمّا يحسّ به. في غويانا الإنكليزية، هناك نوعٌ من العبودية المعاصرة. يأتي الناس من جاوا لكي يعملوا في زراعة القطن أو قصب السكّر أو الكاكاو بموجب عقود عمل مدّتها خمسة وعشرة أعوام. يكون الزوج والزوجة مرغمين على الخروج إلى العمل كلّ يوم، إلا إذا كانا مريضين. ولكن إذا لم يقرّ الطبيب بمرضهما، يضطران إلى أن يعملا، عقاباً على ذلك، لمدّة شهرٍ إضافي بعد انتهاء مدّة العقد. وتُضاف إليه أشهرٌ أخرى من العمل الإضافي عقاباً على جنحٍ صغيرة أخرى. وبما أنّهم جميعاً يلعبون القمار، يستدينون من المزرعة، ولكي يدفعوا للدائنين، يوقّعون عقداً إضافياً لمدّة سنة أو عدّة سنوات، وذلك لكي يحصلوا على قرضٍ.

ومن الناحية العملية، لا يتخلّصون من هذا العبء أبداً. بالنسبة إليهم،

إنهم على استعدادٍ لأن يقامروا حتى على زوجاتهم ويلتزموا بتعهّداتهم، هناك شيءٌ وحيد مقدّس، وهو أولادهم. ويفعلون كلّ ما بوسعهم لكي يحافظوا على أولادهم أحراراً. إنّهم يتغلّبون على أكبر المصاعب وأقسى أنواع الحرمان، ولكنّه من النادر جدّاً أن يوقّع أحد أولادهم عقداً مع المزرعة.

إذاً، اليوم هو يوم زواج فتاةٍ هندوسية. يرتدي الجميع ثياباً طويلة: ترتدي النساء أثواباً بيضاء، ويرتدي الرجال أيضاً جلابيب بيضاء تصل إلى القدمين. وتنتشر أزهار البرتقال بكثرة في كلّ مكان. بعد عدّة مراسم دينية، يجري المشهد في اللحظة التي يأخذ فيها العريس عروسته. يصطفّ المدعوون على يمين ويسار الباب، الرجال في طرف والنساء في طرفٍ آخر. يجلس الأب والأم في عتبة الباب المفتوح. يُعانق العريس والعروس العائلة ويمرّان بين صفّي المدعوين اللذين يمتدّان لبضعة أمتار. وعلى حين غرّة، تفلت العروس من بين ذراعي عريسها وتركض نحو أمّها. تحجب الأم عينيها بيدٍ وباليد الأخرى، تُعيدها إلى زوجها.

فيمدّ هذا الأخير ذراعيه ويناديها، فتقوم بحركاتٍ تعبّر من خلالها بأنّها حائرة لا تدري ماذا تفعل. فقد أنجبتها أمّها ومنحتها الحياة، وقد أرت الحضور إيمائياً شيئاً صغيراً يخرج من بطن أمّها. ثمّ أعطتها أمّها ثديها. تُرى هل ستنسى كلّ هذا الشيء لكي تلحق برجلٍ تحبّه؟ ربّما، وقالت له بلغة الحركات: ولكن لا تستعجل، وانتظر قليلاً، ودعني أتأمّل لبعض الوقت هذين الوالدين الطيّبين جدّاً، اللذين كانا، حتى لحظة اللقاء بك، السبب الوحيد لحياتي.

وحينئذٍ، قام هو أيضاً بإيماءات لكي يُفهِمَها بأنّ الحياة تتطلّب منها أيضاً أن تكون زوجةً وأمّاً. يجري كلّ هذا المشهد على أنغام أغاني الفتيات والصبيان الذين يردّون عليهنّ بالغناء. في النهاية، بعد أن تفلت مرّة أخرى من بين ذراعي زوجها، وبعد أن تعانق والديها، تقوم هي بنفسها ببضع خطوات راكضةً، وتقفز إلى بين ذراعي زوجها الذي يأخذها سريعاً إلى العربة المزيّنة بالزهور والتي تنتظرهما.

جرى الإعداد لعملية الهروب بدقّة وتأنٍ. لقد تمّ تجهيز قاربٍ واسعٍ وطويل، مزوّدٍ بشراعٍ مناسب، وزاويّ ودفة قيادة بجودة فائقة مع اتّخاذ كلّ التدابير الاحتراسية لكي لا تنتبه الشرطة إلى ذلك.

أخفينا في نهر بينيتانس ريفر الصغير الذي يصبّ في نهر ديميرارا الكبير قارب الهروب قُبالة حيّنا. وكنّا قد صبغناه ورقّمناه على نحوٍ مطابقٍ تماماً لقارب الصيد الخاصّ بالصينيين المسجّل في جورج تاون. وعندما يُضاء بأنوار المنارات، وحده الطاقم سيكون مختلفاً. ولكي يتمّ التمويه جيّداً، لن يكون بوسعنا أن نكون واقفين، لأنّ صينيي السفينة التي نسخنا منها سفينتنا قاماتهم قصيرة وأجسامهم نحيلة، في حين أنّ قاماتنا طويلة وأجسامنا قويّة.

جرى كلّ شيء دون مشكلات، وخرجنا متعجرفين من نهر ديميرارا لكي نُبحر. على الرغم من فرحة الخروج وتجنّب خطر انكشاف أمرنا، كان شيءٌ واحدٌ يمنعني من الاستمتاع بهذا النجاح استمتاعاً كاملاً. وهو كوني رحلتُ مثل لصٍّ دون أن أُعلم أميرتي الهندوسية برحيلي. لم أكن راضياً عن نفسي، فهي بنفسها ووالدها وعرقها لم يفعلوا حيالي سوى الخير، وأنا قابلتُ ذلك بسوء الجزاء. لا أسعى إلى إيجاد الذرائع لتبرير سلوكي، وأرى أنّ ما فعلته فيه شيءٌ من قلّة الذوق ولستُ راضياً عن نفسي أبداً. تركتُ بشكلٍ ظاهرٍ للعيان ستمئة دولارٍ على الطاولة، ولكن المال لا يُعوِّض هذه الأشياء التي تلقّيتها منهم.

كان علينا أن نسير لثماني وأربعين ساعة باتجاه الشمال. استعدتُ فكرتي القديمة، وأردتُ الذهاب إلى هندوراس البريطانية. ولذلك، كان يلزمنا لتحقيق ذلك أن نسير لأكثر من يومين في أعالي البحر.

تكوّنت رحلة الفرار من خمسة رجال: غيتو وشابار وباريير ورجلٌ من بوردو يُدعى ديبلانك، ورجلٌ من ديجون وأنا، بابيون، القبطان المسؤول عن الإبحار.

ما كدنا نسير ثلاثين ساعة في البحر، حتى داهمتنا عاصفة رهيبة، متبوعةً

بنوعٍ من الإعصار، بزوبعة. لمع البرق وقصف الرعد وهطلت أمطار غزيرة وتصاعدت أمواج عاتية ومتلاطمة غير منتظمة، وهبّت رياحُ إعصارٍ دوّمت فوق سطح البحر، وقد حملتنا كلّ هذه العوامل الجوّية الهائجة دون أن نستطيع مقاومتها في قفزة مجنونة ومثيرة فوق بحرٍ لم يسبق لي أن رأيتُه ولا حتى تخيّلته. للمرّة الأولى، في تجربتي، دارت الرياح مغيّرة اتجاهها، إلى درجة أنّ الرياح التي تهبّ من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي قد زالت تماماً وأنّ العاصفة قد دفعتنا باتجاهٍ معاكسٍ تماماً. ولو أنّ هذه العاصفة استمرّت ثمانية أيام، لعدنا إلى سجن الأشغال الشاقّة.

وفي الواقع، علمتُ لاحقاً في ترينيداد أنّ هذا الإعصار قد ذُكِرَ مِن السيّد آغوستيني، القنصل الفرنسي. فقد اقتلع الإعصار أكثر من ستة آلاف شجرة جوز الهند من مزرعته. نشر الإعصار الشبيه ببرّامة كالمنشار أشجار جوز الهند على ارتفاع قامة رجل. واقتلع منازلَ وجعلها تتطاير في الهواء بعيدةً جدّاً، ساقطةً على الأرض أو في البحر. لقد فقدنا كلّ شيء: المؤن الغذائية والأمتعة وكذلك براميل الماء. وانكسر الصاري على ارتفاع أقلّ من مترين، ولم يعد هناك شراعٌ، والأخطر من ذلك، تحطّمت دفّة القيادة. وأنقذ شابار بأعجوبة مجدافاً صغيراً، وبوساطة هذه المجرفة الصغيرة حاولتُ قيادة المركب. والذي زاد الطين بلّة هو أننا تعرّينا جميعاً لنصنع من ثيابنا نوعاً من الشراع. وقد استخدمنا في ذلك كلّ شيء من سترات وسراويل وقمصان. بقينا نحن الخمسة نرتدي سراويلنا الداخلية فقط. هذا الشراع المصنوع من ثيابنا والذي خيط ببكرة صغيرة لسلكٍ معدني، كانت معنا في القارب، سمح لنا أن نُبحر بوساطة الصاري المقطوع لقاربنا.

استعادت الرياح التي تهبّ من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي مساراتها واستفدتُ من ذلك لأحاول التقدّم نحو الجنوب مباشرة لكي أصل إلى أيّ أرضٍ كانت، حتى ولو كانت غويانا الإنكليزية. وسنرّحب بالحكم الذي ينتظرنا هناك. وقد تصرّف جميع رفاقي بجدارة أثناء وبعد ما

لن أسمّيه عاصفة، لأنّ هذا الوصف غير وافٍ، وإنّما هذه الكارثة الطبيعية، هذا الطوفان، أو بالأحرى هذه الزوبعة العظيمة. وفقط بعد مضي ستة أيام، اثنان منها هادئان، رأينا اليابسة. لم نستطع، بهذا الشراع الذي تمسّكت به الرياح رغم ثقوبه، أن نبحر تماماً كما أردنا. والمجداف الصغير أيضاً لم يكن كافياً لكي نوجّه المركب بحزم وعلى نحوٍ مؤكّد. ولأننا كنّا جميعاً عراة، غطّت حروقٌ ناجمة عن أشعّة الشمس كلّ جسمنا، الأمر الذي قلّل من قوّتنا على مصارعة البحر. لم يكن بيننا من لم يُسلَخ جلد أنفه الملتهب. واحمرّت شفاهنا وأقدامنا ومناطق ما بين فخذينا وأفخاذنا أيضاً والتهبت تماماً. اشتدّ علينا العطش وعذّبنا إلى درجة أنّ ديبلانك وشابار وصل بهما الأمر إلى أن يشربا من مياه البحر المالحة. وقد فاقم ذلك من عذابهما. وعلى الرغم من العطش والجوع اللذين انتابانا، كان هناك أمرٌ إيجابي: لم يشتكِ أحد، لم يشتكِ أيّ منّا على الإطلاق. كما لم يعطِ أيّ واحدٍ منّا نصيحة للآخر. فالذي أراد أن يشرب الماء المالح، والذي رشّ على نفسه ماء البحر زاعماً أنّ هذا يبرّده، أدرك من تلقائه أنّ الماء المالح يعمّق جراحه ويحرقه أكثر بتبخّرها.

بقيت عيناي وحدي مفتوحتين تماماً وسليمتين، في حين كانت عيون كلّ رفاقي مليئة بالقيح وملتصقة باستمرار. كان لا بدّ من غسل عيوننا مهما كلّف الثمن، ورغم الألم، لأنّه يجب أن نفتح أعيننا لنرى بها بوضوح. داهمت شمسٌ لاهبة حروقنا بشدّة، كادت أن تكون عصيّة على المقاومة. قال ديبلانك، الذي شارف على الجنون، أنّه سيلقي بنفسه في الماء.

مرّت قرابة ساعة منذ بدا لي أنني رأيتُ البرّ في الأفق. وبالطبع، توجّهتُ نحوه مباشرةً دون أن أقول أيّ شيء لأنني لم أكن متأكّداً تماماً. وصلت أسرابٌ من الطيور وحلّقت من حولنا، وهذا يعني أنني لم أكن مخطئاً. نبّهت أصواتها رفاقي المستلقين في قعر المركب، ويحمون وجوههم من لهيب الشمس بأذرعهم، وقد خبّلتهم الشمس وأنهكهم التعب.

نهض غيتو، وبعد أن شطف فمه ليستطيع أن يصدر صوتاً، قال لي:

– هل ترى الأرض، يا بابي؟

– نعم.

– في غضون كم من الوقت تعتقد أنّنا سنستطيع الوصول إليها؟

– خمس أو سبع ساعات. اسمعوا، يا أصدقائي، أنا لم يعد بوسعي الاستمرار. فعلاوة على الحروق نفسها التي تعانون منها، لقد انسلخ ردفاي من جرّاء الاحتكاك بخشبة مقعدي وبسبب الماء المالح. الرياح ليست قويّة جدّاً، ولذلك لا نتقدّم إلّا ببطء، وتعاني ذراعاي باستمرار من تشنّجات عضلية، وكذلك يداي اللتان تعبتا من الشدّ منذ زمنٍ طويلٍ جدّاً على المجداف الذي أستخدمُه كدفّة قيادة. هل تُريدون الموافقة على اقتراحٍ؟ ما رأيكم أن ننزع الشراع ونمدّه على المركب مثل سقفٍ لكي نحتمي به من الشمس ريثما يحلّ الليل؟ سوف يسير القارب منحرفاً من تلقائه نحو اليابسة. يجب أن نفعل هذا، إلّا إذا أراد أحدكم أن يأخذ مكاني على الدفّة.

– لا، لا، يا بابي. دعونا نفعل هذا وننام جميعاً في ظلّ الشراع.

لقد اتّخذتُ هذا القرار تحت أشعة الشمس في حوالي الساعة الواحدة من بعد منتصف الظهيرة. وبارتياحٍ حيواني، تمدّدتُ في قعر القارب، وأخيراً في الظلّ. تنازل الرفاق لي عن أفضل مكان في مقدّمة القارب لكي أستطيع تلقّي الهواء من الخارج. وظلّ الصديق المكلّف بالمناوبة جالساً ولكن محتمياً بظلّ الشراع. وسرعان ما غرق الجميع، بما فيهم رجل المناوبة، في سباتٍ عميق. مرهقين من التعب ومستمتعين بهذا الظلّ الذي أتاح لنا أخيراً أن نتخلّص من هذه الشمس الحارقة، غطّ الجميع في نومٍ عميق.

أيقظ صوت صفّارة الجميع على حين غرّة. أزحتُ الشراع، كان الظلام مخيّماً في الخارج. تُرى كم تكون الساعة؟ عندما جلستُ في مكاني، خلف دفّة القيادة، داعبت نسمة باردة كلّ جسمي البائس المسلوخ، وعلى الفور شعرتُ بالبرد. ويا له من إحساسٍ بالارتياح حينما لا تعود تشعر بألم الحروق!

رفعنا الشراع. وبعد أن نظّفتُ عينيّ بماء البحر - لحسن الحظ كانت واحدة فقط من عينيّ تحرقني ومصابة بالتقيّح - رأيتُ الأرض بوضوح شديد على يميني وعلى يساري. أين نحن؟ إلى أيّ منهما سأتّجه؟ سمعنا مرّة أخرى صوت الصفارة، فأدركت أنّ الإشارة قادمة من البرّ الذي على يميني. - ماذا يريدون أن يقولوا لنا بحقّ الجحيم؟

قال شابار:

- أين نحن باعتقادك يا بابيون؟

- بصراحة لا أدري. إذا لم تكن هذه الأرض معزولة وكانت خليجاً، ربّما نحن في نهاية رأس غويانا الإنكليزية، وهو الجزء الذي يصل حتى نهر أورينوكو (نهر فنزويلا الكبير الذي يشكّل حدوداً). ولكن إذا كانت أرض اليمين مقطوعة بمساحة كبيرة من أرض اليسار، فإنّ شبه الجزيرة هذه هي جزيرة ترينيداد. على اليسار، ستكون فنزويلا، وبالتالي سنكون في خليج باريا.

منحتني ذكرياتي عن الخرائط البحرية التي أُتيحت لي فرصة دراستها هذا الخيار. فإذا كانت ترينيداد على اليمين وفنزويلا على اليسار، فأيّ منهما سوف نختار؟ هذا القرار يضع مصيرنا على المحكّ. ومع هذه الرياح الباردة والمواتية، لن يكون صعباً علينا أن نتوجّه نحو الساحل. في الوقت الراهن، نحن لا نذهب لا إلى هذه ولا إلى تلك. في ترينيداد، هناك الإنكليز، أي الحكومة نفسها الموجودة في غويانا الإنكليزية.

قال غيتو:

- نحن متأكّدون من أننا سوف نُعامل بالحُسنى.

- نعم، ولكن أيّ قرار سوف يتّخذون بشأن مغادرتنا في زمن الحرب أرضهم من دون إذنٍ وبشكلٍ سرّي؟

- وماذا بشأن فنزويلا؟

قال ديبلانك:

- لا ندري كيف ستسير الأمور. في عهد الرئيس غوميز، كان السجناء

المحكومون بالأشغال الشاقّة مرغمين على العمل في شقّ الطرقات في ظروفٍ في غاية القسوة، ثمّ تتمّ إعادة الكاينيين، كما يُسمى المحكومون بالأشغال الشاقّة هناك، إلى فرنسا.

- نعم، ولكن الأمر الآن مختلف عمّا كان عليه آنذاك، فنحن في حالة حرب.

- هم ليسوا في حالة حرب، إنّهم محايدون، كما سمعت في جورج تاون.

- هل أنت متأكّد من ذلك؟

- نعم، هذا مؤكّد.

- إذاً، هذا خطرٌ بالنسبة لنا.

لاحت لنا أضواءٌ على أرض اليمين، وكذلك على أرض اليسار. مرّة أخرى، سمعنا صوت الصفّارة، التي دوّت هذه المرّة ثلاث مرّات متتالية. وصلتنا إشارات ضوئية من الساحل الأيمن. كان القمر قد هلّ للتو، بعيداً منّا، ولكن على مسار سيرنا. وأمامنا مباشرةً، لاحت صخرتان كبيرتان مدبّبتان وسوداوان تبرزان عالياً في البحر. ربّما يكون هذا هو سبب الصفّارة الإنذار: إنّهم يحذّروننا من أننا نقترب من الخطر.

- انظر، هناك علامات طافية على سطح الماء! كانت متسلسلة على شكل خرزات سبّحةٍ. لماذا لا ننتظر طلوع النهار متعلّقين بواحدة منها؟ أنزل الشراع، يا شابار.

فكّ شابار في غضون ثوانٍ تلك المزق من السراويل والقمصان التي سمّيتها بعجرفةٍ الشراع. كبحتُ تقدّم القارب بمجرفتي التي أستخدمها مجدافاً، وتوجّهتُ بمقدّمته نحو واحدة من تلك «العلامات الطافية» التي كانت، لحسن الحظ، مربوطةً جيّداً بوساطة قطعة طويلة من حبلٍ بحلقةٍ بحيث لم تستطع العاصفة أن تقتلعها. لقد نجح الأمر، فقد تعلّقنا ولكن ليس بالعلامة الطافية مباشرةً لأنّه لم يكن فيها ما يمكن أن نربط به القارب، وإنّما بالحبل المعدني الذي كان يوصلها بعلامة طافية أخرى.

لقد وجدنا أنفسنا نرسو جيّداً بهذا الحبل المعدني الذي يرسم بلا شكّ حدود قناةٍ ملاحية. ومن دون أن ننشغل بأصوات الصفارة التي ظلّت تنبعث من الساحل الأيمن، نمنا جميعاً في قاع القارب، متغطّين بالشراع لكي نحمي أنفسنا من الريح. سرت حرارة لطيفة في جسدي المرتعش من الريح وبرودة الليل، وكنتُ بالتأكيد أحد أوائل الذين غطّوا في نومٍ عميق.

حينما استيقظت، وجدتُ جوّ النهار صافياً وواضحاً، والشمس على وشك الخروج من سريرها، والبحر هائجاً بعض الشيء، ودلّ لون مياهه الزرقاء المائلة للخضرة على أنّ قاعه مرجاني.

- ماذا نفعل؟ هل قرّرنا النزول إلى البرّ؟ أنا أتضوّر جوعاً وعطشاً.

كانت هذه هي المرّة الأولى التي يشتكي فيها أحدٌ منذ بدء أيام الصوم هذه، والتي كنّا اليوم في اليوم السابع منها بالضبط.

- نحن قريبون جدّاً من اليابسة بحيث ليس هناك خطأ كبير نرتكبه.

كان شابار هو من يقول هذا الكلام.

جالساً في مكاني، رأيتُ بوضوح، بعيداً أمامي، حرف الأرض، خلف الصخرتين الهائلتين البارزتين في البحر. إذاً، إلى اليمين تقع ترينيداد، وإلى اليسار فنزويلا. نحن في خليج باريا دون أدنى شكّ وإذا كانت المياه زرقاء وليست مائلة إلى الاصفرار بفعل رواسب نهر أورينوكو، فهذا لأننا في مجرى الممرّ الملاحي الذي يمرّ بين البلدين ومن ثَمّ يتّجه نحو عرض البحر.

- ماذا نفعل؟ لكم أن تصوّتوا على ذلك، فمن الخطير جدّاً أن أتّخذ القرار بمفردي. إلى اليمين، جزيرة ترينيداد الإنكليزية؛ وإلى اليسار، فنزويلا. إلى أين تريدون الذهاب؟ نظراً لظروف قاربنا وحالتنا الجسدية، علينا أن نذهب إلى البرّ بأسرع ما يمكن. هناك سجينان مُفرَج عنهما بيننا، وهما غيتو وكوربيير. أمّا نحن الثلاثة، شابار وديبلانك وأنا، فنحن الأكثر عرضةً للخطر. وعلينا نحن أن نتّخذ القرار. ماذا تقولون؟

- الأكثر حكمةً هو أن نذهب إلى ترينيداد. في فنزويلا، ينتظرنا المجهول.

قال ديبلانك:

- لا حاجة إلى اتّخاذ قرارٍ، هذا القارب المقبل هو الذي سيتّخذ القرار نيابةً عنّا.

وفي الواقع، أقبل زورقٌ نحونا بسرعة. ها قد وصل، وتوقّف على بعد خمسين متراً من قاربنا. أمسك رجلٌ بجهازٍ مكبّرٍ للصوت. لمحتُ علماً لم يكن العلم الإنكليزي. علمٌ ممتلئٌ بالنجوم، جميلٌ جدّاً، علمٌ لم أكن قد رأيتهُ في حياتي. لا بدّ أن يكون فنزويلياً. وفيما بعد، سوف يغدو هذا العلم «علمي»، علم وطني الجديد، بالنسبة لي، الرمز الأكثر تأثيراً من الناحية العاطفية، الرمز الذي أحسُّ، كأيّ رجلٍ طبيعي، أنّه يجمع في قطعةٍ من القماش الخصال الأكثر نبلاً لشعبٍ عظيم، هو شعبي.

- Quien son vosotros (من أنتم)؟

- نحن فرنسيون.

- Estan locos (هل أنتم مجانين)؟

- لماذا؟

- Porque son amarados a minas (لأنكم تربطون أنفسكم بألغام بحرية).

- وهل لهذا السبب لا تقتربون منّا؟

- نعم. فكّوا أنفسكم بسرعة.

- تمّ الأمر.

في غضون ثلاث ثوانٍ، فكّ شابار الحبل. كنّا قد ربطنا أنفسنا بسلسلة من الألغام البحرية العائمة، لا أكثر ولا أقلّ. شرح لي قائد الزورق الذي رسونا بجانبه بأننا لم ننفجر بأعجوبة. دون أن يصعدوا إلى متن السفينة، قدّم لنا أفراد الطاقم قهوةً وحليباً ساخناً محلّى بالسكر وسجائر.

قال لنا القائد:

- اذهبوا إلى فنزويلا، وسوف تُعاملون فيها معاملة حسنة، أؤكّد لكم ذلك. نحن لا نستطيع أن نسحب قاربكم إلى البرّ لأننا ذاهبون في مهمّة

عاجلة لجلب رجلٍ أُصيب بجراحٍ خطيرة في منارة باريماس. ولكن لا تحاولوا الصعود إلى ترينيداد، لأنّه هناك احتمال بنسبة تسعين بالمئة أن تصطدموا بلغمٍ بحري، وحينها...

بعد «Adios, buena suerte» (إلى اللقاء، حظّاً سعيداً)، أقلع الزورق منصرفاً. ترك لنا لترين من الحليب. أصلحنا الشراع. وفي الساعة العاشرة صباحاً، وبينما أوشكت معدتي على أن تتقطّع بفضل القهوة والحليب، وفي فمي سيجارة، نزلتُ دون أيّ تدبير احترازي على الرمل الناعم لشاطئٍ كان حوالي خمسون شخصاً يتجمّعون فيه وينتظرون رؤية القادمين على متن هذا القارب الغريب ذي الصاري المقطوع والشراع المصنوع من قمصانٍ وسراويل وسترات.

الدفتر الثالث عشر

فنزويلا

صيّادو إيرابا

اكتشفتُ عالماً، أناساً، حضارةً مجهولة تماماً بالنسبة لي. هذه الدقائق الأولى على الأرض الفنزويلية مثيرة للغاية إلى درجة أنّها بحاجة إلى موهبة تفوق معرفتي الشحيحة ليتم شرحها والتعبير عنها وتصوير جوّ الترحيب الحارّ والحفاوة التي لقيناها من لدن هذا الشعب الكريم. يرتدي معظم الرجال، البيض، والسود، والغالبية من ذوي البشرة الكاشفة التي لوحّتها الشمس، يرتدون سراويلَ مرفوعة حتى الركبتين.

قال الرجال:

– يا للرجال المساكين، في أيّ حالة مزرية أنتم!

قرية الصيّادين التي وصلنا إليها تُدعى إيرابا، وهي بلدة في ولاية فنزويلية تُدعى سوكري. النساء الشابّات، وكلّهنّ جميلات، قصيرات القامة غالباً ولكنهنّ في غاية الرشاقة، والنساء الأكثر نضجاً مثل كلّ المسنّات يتحوّلن جميعاً دون استثناء إلى ممرّضات أو راهبات أو أمّهات يقمن بالرعاية.

جمعونا تحت سقيفة منزلٍ علّقوا فيها خمس أراجيح نومٍ من الصوف ووضعوا فيها طاولةً وكراسيّ، دهنوا أجسامنا بزبدة جوز الهند من رأسنا وحتى قدمينا. لم ينسوا بقعة محروقة بالشمس من أجسامنا. كنّا نكاد

نموت من الجوع والتعب، وقد تسبّب صيامنا الطويل جدّاً عن الطعام نوعاً من الجفاف، وقد أدرك أهل الساحل هؤلاء بأننا بحاجةٍ إلى أن ننام، ولكن أيضاً أن نأكل بكميات قليلة.

تلقّى كلٌّ منّا، وهو مستلقٍ في أرجوحة النوم خاصّته والنعاس يغالبه، لقيماتٍ من يد واحدة من ممرّضاتنا المرتجلات. لقد كنتُ متعباً للغاية، وقواي خائرة تمّاماً في اللحظة التي مدّدني فيها أحدهم في أرجوحة النوم، وقد تمّ دهن جراحي الملتهبة بزبدة جوز الهند، إلى درجة أنني ذبتُ بالمعنى الحرفي للكلمة، وأنا أنام وآكل وأشرب دون أن أعي ما الذي يحدث.

لم تتقبّل معدتي الفارغة الملاعق الأولى من الحلوى الشبيهة بحلوى تابيوكا التي في بلدنا. والواقع، لم أكن وحدي أعاني من هذه المشكلة، فقد استفرغنا جميعاً لعدّة مرّات بعض أو كلّ الطعام الذي دسّته هؤلاء النسوة في أفواهنا.

يعيش سكّان هذه القرية في فقرٍ مدقع، ومع ذلك ساهم كلّ واحدٍ منهم، دون استثناء، في مساعدتنا. بعد مضي ثلاثة أيام، وبفضل عناية أبناء هذه القرية، وبفضل شبابنا، استطعنا أن نقف على أقدامنا ونتجاوز حالتنا المزرية. أمضينا ساعات طويلة، رفاقي وأنا، في الحديث مع هؤلاء الناس، جالسين تحت السقيفة المبنية من أوراق شجر جوز الهند والتي تمنحنا ظلّاً وارفاً. لم يكونوا على ما يكفي من الثراء ليؤمنوا لنا جميعاً الكسوة دفعة واحدة. تشكّلت مجموعات صغيرة لتتكفّل بأمرنا. فقد اهتمّت لجنة بأمر غيتو، وأخرى بأمر ديبلانك، إلخ. وقد اهتمّ بأمري ما يقارب عشرة أشخاص.

في الأيام الأولى لوصولنا، ارتدينا أيّ شيءٍ مستعمل ومهترئ ولكن في غاية النظافة. الآن، يشترون لنا قميصاً جديداً، وسروالاً، وحزاماً، وزوجاً من الأحذية، كلّما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. من بين النساء اللواتي اهتممنا بأمري، فتياتٌ صغيرات جدّاً، من نموذج هندي ولكن

ممزوج بالدم الإسباني أو البرتغالي. إحداهنّ تُدعى تيبيزاي، والأخرى نينيتا. اشترتا لي قميصاً وسروالاً وزوجاً من النعال يُسمى «أسبارغات». وهو نعلٌ جلدي دون كعب، ولكي يغطي القدمين له نسيجٌ مجدول. وهو يغطي فقط مشط القدم في حين تبقى الأصابع عارية ويغطّي القماش الكعبين.

قال أحدهم:

- لا حاجة لأن نسألكم من أين أتيتم. فبسبب الوشوم الموجودة على أجسادكم نعلم أنكم سجناء هاربون من السجن الفرنسي للأشغال الشاقّة.

أدهشني هذا الكلام أكثر. عجباً! كيف يجد هؤلاء الناس البسطاء بأنّه من الطبيعي أن يهبّوا لنجدتنا ويقدّموا لنا يد المساعدة، على الرغم من أنّهم يعلمون أننا رجالٌ محكومون بسبب جرائم خطيرة، وهاربون من سجنٍ يعرفون عنه من خلال الكتب أو المقالات بأنّه في غاية القسوة؟ حتى حينما يقدّم المرء الكساء لأحدهم وهو ثريٌّ وميسور، ويقدّم الطعام لغريبٍ جائعٍ وهو لا ينقصه لا هو ولا أسرته شيءٌ في بيته، هذا دليلٌ على طيبته وكرمه. ولكن أن يعمد هؤلاء الناس إلى قطع قطعة من فطيرة مصنوعة من دقيق الذرة أو المنيهوت، خبزوها بأنفسهم في فرنٍ، إلى نصفين، في الوقت الذي ليس لديهم منها ما يكفيهم هم أنفسهم، وأن يتقاسموا الوجبة الخفيفة التي بالكاد تسدّ رمقهم مع غريبٍ، وعلاوة على ذلك هاربٍ من العدالة، فلعمري هذا كرمٌ رائع لا يضاهيه كرم.

هذا الصباح، يلتزم الجميع، رجالاً ونساءً، الصمت بوجوم. يبدو عليهم الضيق والقلق. ما الذي يحدث؟ تيبيزاي ونينيتا إلى جانبي. استطعتُ أن أحلق ذقني للمرّة الأولى منذ خمسة عشر يوماً. مرّت ثمانية أيام ونحن بين هؤلاء الناس الذين يحملون قلوبهم بين أكفّهم. تشكّل ما يشبه طبقة جلدية رقيقة جدّاً فوق حروقي، فاستطعتُ أن أجازف بحلق ذقني. بسبب لحيتي، لم تكن لدى النساء سوى فكرة غامضة عن عمري. كنّ منبهرات، وقد قلن لي ذلك بسذاجة، بأنهنّ وجدنني شابّاً. وعلى الرغم من أنني

كنتُ في الخامسة والثلاثين من عمري، بيد أنني كنتُ أبدو في الثامنة والعشرين أو الثلاثين. نعم لقد كان كلّ هؤلاء الرجال والنساء المضيافين قلقين من أجلنا، وقد شعرتُ بذلك.

- ما الذي قد يحدث؟ أخبريني يا تيبيزاي، ما الذي يحصل؟

- ننتظر وصول سلطات غويريا، وهي قرية مجاورة لقرية إيرابا. هنا في قريتنا، لا يوجد مفوّض شرطة، ولا نعرف كيف علِمَت الشرطة بوجودكم هنا، وهي ستحضر إلى القرية.

أقبلت نحوي امرأة زنجية طويلة القامة وجميلة برفقة رجلٍ شابّ عاري الصدر، يرتدي سروالاً أبيض اللون، وملفوفاً من الأسفل حتى الركبتين. كان جسمه الرياضي متناسقاً على نحوٍ جيّد. سألتني نيغريتا (الزنجية) - هذه طريقة مرحة لمناداة النساء ذات البشرة السمراء الداكنة، وهي رائجة جدّاً في فنزويلا حيث ليس هناك على الإطلاق تمييزٌ عرقي أو ديني:

- Señor Enriquez (السيّد هنري)، الشرطة ستحضر. لا أدري إن كانت بمجيئها تريدُ خيراً بكم أم شرّاً. هل تُريدون الذهاب للاختباء في الجبل لبعض الوقت؟ يستطيع أخي أن يقودكم إلى بيتٍ صغير لا يمكن لأحدٍ أن يأتي للعثور عليكم. من بيننا، تيبيزاي ونينيتا وأنا، سوف نحمل إليكم كلّ يوم طعاماً ونخبركم بالأحداث.

لفرط تأثري، أردتُ أن أقبّل يد هذه الفتاة النبيلة، ولكنّها سحبت يدها، وقبّلتني على خدّي بلطف ونقاء سريرة.

وصل فرسانٌ بسرعة كبيرة، يحملون جميعاً مناجل خاصّة بقطع قصب السكّر والتي تتدلّى كسيوفٍ من الخاصرة اليسرى، ويتمنطقون حزاماً عريضاً مليئاً بالطلقات ومسدّساً ضخماً في قرابٍ على الخاصرة اليمنى. ترجّلوا عن صهوات جيادهم. تقدّم نحونا رجلٌ له سحنة منغولية وعيناه غائرتان كعيون الهنود، وبشرته مسمرّة، طويل القامة ورفيع العود، في الأربعينيات من عمره، ويعتمر قبّعة من قشّ الأرزّ عريضة، وخاطبنا، قائلاً:

- صباح الخير. أنا «المفوّض»، مدير الشرطة.

- صباح الخير، سيّدي.

- يا أنتم، لماذا لم تخبرونا بأنّ هناك خمسة كايينيين هاربين من السجن، قد لجأوا إلى هنا؟ لقد قيل لي بأنّهم هنا منذ ثمانية أيام. أجيبوني.

- هذا لأننا كنّا ننتظر أن يصبحوا قادرين على المشي وأن تُشفى حروقهم.

- لقد جئنا نبحث عنهم لنقتادهم إلى غويريا. من المفروض أن تأتي شاحنة بعد قليل لتنقلهم.

- أتشربون قهوة؟

- نعم، شكراً.

جلس الجميع على شكل حلقة وأخذوا يشربون القهوة. نظرتُ إلى مدير الشرطة ورجاله. لم يبدوا أنّهم أشرار. أعطوني الانطباع بأنّهم ينفّذون أوامر سلطات عليا دون أن يكونوا موافقين عليها.

- هل هربتم من جزيرة الشيطان؟

- كلا، نحن قادمون من مدينة جورج تاون، من غويانا الإنكليزية.

- لماذا لم تبقوا في تلك المدينة؟

- لأنّ كسب لقمة العيش صعبٌ هناك.

أضاف مدير الشرطة، مبتسماً:

- وهل اعتقدتم أنّكم ستكونون أفضل حالاً هنا ممّا كنتم عليه عند الإنكليز؟

- نعم، لأننا لاتينيون مثلكم.

تقدّمت مجموعة من سبعة أو ثمانية رجال من حلقتنا، وعلى رأسهم رجلٌ خمسيني، شعره أبيض، وطوله يزيد عن متر وخمسة وسبعين سنتيمتراً، وبشرته بلون الشوكولا الفاتحة جدّاً. وكانت عيناه الواسعتان السوداوان تشعّان بذكاءٍ وقوّة روحية لا مثيل لهما. كانت يده اليمنى موضوعة على مقبض منجلٍ يتدلّى من خاصرته على طول فخذه.

- حضرة المدير، ماذا ستفعلون بهؤلاء الرجال؟

- سوف أقتادهم إلى سجن غويريا.

- لماذا لا تدعونهم يعيشون معنا بين أسرنا؟ كلّ واحد منّا سوف يستقبل واحداً منهم.

- هذا غير ممكن. لأنّ هذا قرار المحافظ.

- ولكنّهم لم يرتكبوا أيّ جريمة على الأراضي الفنزويلية.

- أنا أعرف ذلك. رغم كلّ شيء هؤلاء رجال في غاية الخطورة، لأنّه حتى يكونوا محكومين في سجن الأشغال الشاقّة الفرنسية، لا بدّ أنّهم قد ارتكبوا جرائم خطيرة. علاوة على ذلك، إنّهم هاربون دون بطاقات هوية، وشرطة بلادهم سوف تطالب بهم بكلّ تأكيد حينما تعلم أنّهم في فنزويلا.

- نُريد أن نحتفظ بهم عندنا.

- هذا غير ممكن. إنّه قرار المحافظ.

- كلّ شيء ممكن. ماذا يعرف المحافظ عن رجالٍ بؤساء؟ إنّ الرجل لا يضيع أبداً. رغم كلّ ما قد يرتكبه رجل، في لحظةٍ معيّنة من حياته هناك على الدوام فرصة لإصلاحه وجعله رجلاً صالحاً ونافعاً للمجتمع. أليس كذلك، أنتم الآخرون؟

قال الرجال والنساء بصوتٍ واحد:

- نعم. دعوهم لنا، وسوف نساعدهم لكي يعيدوا بناء حياتهم من جديد. في غضون ثمانية أيام، عرفناهم جيّداً، وهم بالتأكيد أناسٌ لطفاء وطيّبون.

قال مدير الشرطة:

- لقد سجنهم أناسٌ أكثر تحضّراً منّا في زنازين انفرادية لكي لا يتسبّبوا بمزيدٍ من الأذى.

سألتُ:

- ما الذي تسمّيه حضارة، يا حضرة المدير؟ هل تعتقد بأنّه لأننا

نمتلك مصاعد وطائرات وقطاراً يسير تحت الأرض، فهذا يدلّ على أنّ الفرنسيين أكثر تحضّراً من هؤلاء الناس الذين استقبلونا وعالجونا واعتنوا بنا؟ اعلم أنّ برأيي المتواضع هناك حضارة إنسانية أكثر وسموّ روحيّ أكثر وإدراكٌ أكثر في كلّ فردٍ من هذه الجماعة التي تعيش ببساطة وسط الطبيعة محرومةً من كلّ منافع الحضارة الميكانيكية. ولكن، إذا كانوا لا يحظون بمنجزات التقدّم، فإنّهم يمتلكون الإحساس بالمحبّة المسيحية أرفع بكثير من كلّ المتحضّرين المزعومين في العالم. وأنا أفضّل أمّياً من هذه القرية الصغيرة على مجازٍ في الآداب من السوربون في باريس، إذا كان على هذا الأخير أن يملك ذات يوم روح المدّعي العام الذي أدانني وحكم عليّ. فالأوّل هو دائماً إنسان، أمّا الآخر فقد نسي أنّه إنسان.

– أنا أفهمك. ولكنني مع ذلك لستُ سوى أداة تنفيذ. ها قد وصلت الشاحنة. أرجوكم أن تساعدوني بتصرّفكم لكي تسير الأمور من دون حوادث.

عانقت كلّ مجموعة من النساء الرجل الذي اهتممن به. بكت تيبيزاي ونينيتا ونيغريتا بحرقة وهنّ يعانقنني. صافحنا كلّ رجلٍ من رجال القرية، معبّرين بذلك عن مدى تألّمهم لرؤيتنا ونحن نغادر إلى السجن.

– إلى اللقاء، يا أهل إيرابا، يا ذوي الأصل النبيل بأرفع درجات النبل حتى تمتلكوا جرأة مواجهة ومعاتبة سلطات بلادكم لكي تدافعوا عن رجالٍ مساكين لم تعرفوهم سوى بالأمس. الخبز الذي أكلته عندكم، هذا الخبز الذي امتلكتم قوّة أن تنتزعوه من أفواهكم لكي تقدّموه لي، هذا الخبز الذي هو رمز الإخاء الإنساني كان بالنسبة لي المثل الأسمى للعصور الغابرة: «لا تقتل، أحسن إلى الذين يتألّمون وإنْ اضطررت لحرمان نفسك في سبيل ذلك. ساعد دائماً من هو أتعس منك». وإذا ما أصبحتُ حرّاً فيما بعد، ذات يوم، كلّما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً، سوف أساعد الآخرين كما علّمني فعل ذلك أوّل من التقيتُ بهم من رجال فنزويلا.

وسوف ألتقي بآخرين كثر فيما بعد.

سجن إلدورادو

بعد مضي ساعتين، وصلنا إلى قرية كبيرة، وهي عبارة عن ميناء بحري يطمح لأن يكون مدينة، إنّها قرية «غويريا». وقد سلّمنا المفوّض (ما نسميه مدير الشرطة في بلدنا) بنفسه إلى قائد شرطة البلاد. في هذه المفوّضية، عوملنا معاملة إيجابية إلى حدٍّ ما، ولكن تمّ إخضاعنا لاستجوابٍ، ولم يشأ المحقّق المتغطرس أن يقبل على الإطلاق بأننا قادمون من غويانا الإنكليزية التي كنّا أحراراً فيها. وعلاوة على ذلك، حينما طلب أن نشرح سبب وصولنا إلى فنزويلا في هذه الحالة المزرية وخائري القوى بعد رحلة قصيرة جدّاً من مدينة جورج تاون إلى خليج باريا، وقال بأننا نسخر منه عندما نسرد له حكاية الإعصار.

قال لي:

- لقد سقطت شجرتا موز ضخمتان من جذورهما في هذا الإعصار، وغرقت سفينة شحن محمّلة بخام البوكسيت مع كامل طاقمها، وأنتم نجوتم بقاربٍ طوله خمسة أمتار ومفتوح وسط الأحوال الجويّة السيّئة للغاية؟ منْ عساه أن يصدّق هذه الحكاية؟ ولا حتى الرجل الخرف الذي يتسوّل الصدقات في السوق سوف يصدّقكم. أنتم تكذبون، هناك أمرٌ مريب في ما تروونه.

- خذوا المعلومات من مدينة جورج تاون.

- لا أُريد أن يسخر الإنكليز منّي.

أرسل هذا المحقّق الأمين، الأبله والعنيد والشكّاك والدعيّ، تقريراً، لكنني لا أعرف ما هو مضمونه ولا إلى منْ أرسله. علي أيّ حال، أوقظنا ذات صباحٍ في الساعة الخامسة، مقيّدين بالسلاسل ومتّجهين على متن شاحنة نحو مصيرٍ مجهول.

كان ميناء غويريا في خليج باريا، مثلما سبق وذكرت، قبالة ترينيداد. كما أنّ للميناء ميزة الاستفادة من مصبّ نهرٍ عظيم يكاد أن يضاهي الأمازون في عظمته، وهو نهر أورينوكو.

مقيّدين بالسلاسل في الشاحنة التي صعدنا إليها نحن الخمسة بالإضافة لعشرة رجال شرطة، سرنا نحو مدينة سيوداد بوليفار، العاصمة المهمّة لولاية بوليفار. كانت الرحلة عبر الطرق الترابية الوعرة متعبة للغاية. كنّا، سجناء ورجال شرطة، نهتزّ ونرتجّ مثل أكياس الجوز في صندوق الشاحنة التي كانت تتأرجح طوال الوقت على نحوٍ أسوأ من مزلجة، في رحلةٍ منهكةٍ دامت خمسة أيام. كنّا نام في الليل في الشاحنة، ونستيقظ في الصباح لنستأنف سيرنا الجنوني نحو جهةٍ مجهولة.

أنهينا هذه الرحلة المنهكة أخيراً على بعد أكثر من ألف كيلومترٍ، في غابة بِكرٍ يشقّها طريقٌ ترابي يمتدّ من سيوداد بوليفار إلى إلدورادو. كان الجنود والسجناء في حالةٍ سيّئة للغاية حينما وصلنا إلى قرية إلدورادو.

ولكن ما هي إلدورادو؟ لقد كانت في البداية أمل الفاتحين الأسبان الذين، حينما رأوا الهنود القادمين من هذه المنطقة يملكون ذهباً، اعتقدوا جازمين بأنّ فيها جبلاً من الذهب أو على الأقلّ، نصف الجبل من الذهب والنصف الآخر من التراب. إجمالاً، كانت إلدورادو في البداية قرية على ضفاف نهرٍ مليءٍ بالأسماك الضارية المفترسة والأسماك الآكلة للحوم والتي تلتهم في غضون دقائق رجلاً أو حيواناً، والأسماك الكهربية التي تُسمّى الرعّاد والتي، من خلال الدوران حول فريستها، سواءً كان إنساناً أو حيواناً، تكهربها بسرعة ومن ثَمّ تلتهم الضحية من خلال تفتيتها. في وسط النهر، هناك جزيرة، وعلى هذه الجزيرة، هناك معسكر تجميعٍ حقيقي، إنّه السجن الفنزويلي.

هذا المعسكر للأشغال الشاقّة هو الشيء الأكثر قسوة الذي رأيته في حياتي، وكذلك الأكثر توحّشاً ولاإنسانية بسبب الضربات التي يتلقّاها السجناء. إنّه عبارة عن مربّع طول كلّ ضلعٍ منه مئة وخمسين متراً، في الهواء الطلق، محاطٍ بالأسلاك الشائكة. ينام قرابة أربعمئة شخصٍ في الخارج، معرّضين لسوء الأحوال الجويّة، لأنّه ليس هناك سوى بعض صفائح التوتياء لكي يلجأ إليها السجناء من حول المعسكر.

دون أن ينتظروا منّا كلمةً واحدة لشرح موقفنا، ودون تبريرٍ لهذا القرار، زجّوا بنا في سجن إلدورادو للأشغال الشاقّة في الساعة الثالثة بعد الظهر، في حين كنّا قد وصلنا ونحن نوشك على الهلاك من شدّة التعب الذي نال منّا في هذه الرحلة المضنية، مكبّلين بالسلاسل في تلك الشاحنة. في الساعة الثالثة والنصف، دون أن يأخذوا أسماءنا أو يُسجّلوها، نودي علينا وسُلّمت لاثنين منّا مجرفةٌ وسُلِّم لثلاثة آخرين معولٌ. محاطين بخمسة جنود، يحملون في أياديهم بنادقَ وسياطاً، يقودهم عرّيفٌ، أُرغمنا تحت طائلة تعرّضنا للضرب على الذهاب إلى موقع العمل. وسرعان ما أدركنا أنّ هذه الحركة هي عبارة عن نوع من إظهار القوّة أرادت حراسة هذا السجن الإصلاحي أن تقوم به. أدركنا أنّه سيكون الأمر في غاية الخطورة إن لم نذعن للأوامر في هذه اللحظة. ولذلك سنرى لاحقاً ما الذي يمكننا فعله.

لمّا وصلنا إلى الموقع الذي يعمل فيه السجناء، كلّفونا بشقّ خندقٍ على جانب الطريق الذي يفتحونه في قلب الغابة البِكر. أطعنا الأوامر دون أن نتفوّه بكلمة واحدة وعملنا كلٌّ حسب طاقته دون أن نرفع رؤوسنا. لكنّ هذا لم يمنعنا عن سماع الشتائم وأصوات الضربات التي كان السجناء يتلقّونها دون توقّف. لم يتلقّ أيّ منّا سوطاً واحداً. هذه الجولة من العمل، وقد وصلنا بالكاد، كانت مخصّصة لكي يجعلونا نرى كيف تتمّ معاملة السجناء.

كان ذلك في أحد أيام السبت. بعد الانتهاء من العمل، ونحن غارقون في العرق والتراب، زجّوا بنا في ذلك المعسكر للسجناء، ودائماً دون أي إجراءات رسمية.

- الكاييـنيون الخمسة، من هنا.

كان العريف «presso» (ناظر السجن المُختار من بين السجناء) هو الذي يتكلّم. إنّه رجلٌ خلاسي طوله يصل إلى مترٍ وتسعين سنتيمتراً، يحمل سوطاً في يده. كان هذا الوحش المقرف مكلّفاً بضبط النظام داخل المعسكر فقط.

حدّدوا لنا المكان الذي علينا أن نضع أراجيح النوم فيه، بالقرب من مدخل المعسكر، في الهواء الطلق. ولكن، كان في ذلك المكان سقفٌ من ألواح الصفيح، الأمر الذي جعلنا على الأقلّ محميين من المطر والشمس.

كان أغلب السجناء كولومبيين والبقية من الفنزويليين. لا يُمكن لأيّ من معسكرات التأديب في سجنٍ أن يُقارن برعب معسكر العمل هذا. كان لحمارٍ أن يموت من هول المعاملة السيّئة التي يتلقّاها من هؤلاء الرجال. ومع ذلك، كان جميع السجناء تقريباً يصمدون، لأنّه هناك شيءٌ مهمّ: الطعام وافرٌ ودسمٌ وشهيّ.

شكّلنا مجلساً حربيّاً مصغراً. وقرّرنا أنّه إذا تعرّض أحدنا للضرب على يد جنديٍّ، فإنّ أفضل ما نفعله هو أن نتوقّف عن العمل ونفترش الأرض ممدّدين، وألا ننهض أيّاً كانت المعاملة التي تُفرَضُ علينا. وحينها سوف يأتي بالتأكيد قائدٌ يمكننا أن نسأله كيف ولماذا نحن في هذا السجن للأشغال الشاقّة دون أن نرتكب أيّ جريمة؟ قال غيتو وباريير وهما من المُفرَج عنهم بأنّهما سيطالبان بإعادتهما إلى فرنسا. ومن ثَمّ قرّرنا أن نطلب مقابلة رئيس المعسكر الأبله، وقرّرنا أن أتحدّث أنا معه. كان يُلقّب بلقب نيغرو بلانكو (الزنجي الأبيض). اتّفقنا على أن يذهب غيتو ليحضره. وصل ذاك الجلّاد ولا يزال السوط في يده. أحطنا به نحن الخمسة، فسألنا:

– ماذا تُريدون منّي؟

أنا من تكلّمتُ، قائلاً:

– نُريد أن نقول لك قولاً واحداً: نحن لن نرتكب أيّ خطأ ضدّ الأنظمة والقوانين، وبذلك لن يكون لديك أيّ باعث لكي تضرب أيّ واحدٍ منّا. ولكن بما أننا لاحظنا أنّك تضرب أيّاً كان، وفي بعض الأحيان من دون سبب، دعوناك إلى هنا لنقول لك بأنّه في اليوم الذي تضرب فيه أحدنا، سنقتلك، هل فهمت جيّداً؟

قال نيغرو بلانكو:

- نعم.
- سنقول لك رأياً أخيراً.
قال بصوتٍ مخنوق:
- ما هو؟
- إذا كان لهذا الكلام الذي قلته لك للتوّ أن يُعاد أمام أحدٍ، فليكن ذلك أمام ضابطٍ، لا أمام جندي.
- مفهوم.
ثمّ انصرف.
جرى هذا المشهد يوم الأحد، وهو اليوم الذي لا يذهب فيه السجناء إلى العمل. وصل عسكريٌّ على كتفه رتبٌ، وسألني؟
- ما اسمك؟
- بابيون.
- أأنت زعيم الكايينيين؟
- نحن خمسة، وجميعنا زعماء.
- لماذا إذاً أنت الذي تكلّمت لتعبّر عن رأيك أمام الناظر؟
- لأنني أنا منْ يتكلّم اللغة الإسبانية على نحوٍ أفضل من رفاقي.
كان نقيبٌ من الحرس الوطني هو منْ يتحدّث معي. وقد أخبرني بأنّه ليس قائد الحرس. هناك قائدان أعلى رتبة منه، ولكنّهما ليسا حاضرين في المعسكر. ومنذ وصولنا إلى المعسكر، هو من يقوده. وسوف يصل القائدان يوم الثلاثاء.
- لقد هدّدتَ باسمك وباسم رفاقك بقتل الناظر إذا ما ضرب أحداً منكم. هل هذا صحيح؟
- نعم، والتهديد جدّيٌّ جدّاً. والآن، سوف أخبرك بأنني أضفتُ بأننا لن نعطي أيّ باعثٍ يبرّر عقوبة جسدية. أنت تعرف، أيّها النقيب، بأنّه لم تُصدر أيّ محكمة حكماً علينا لأننا لم نرتكب أيّ جريمة في فنزويلا.
- لا أدري. لقد وصلتم إلى المعسكر دون أيّ أوراق رسمية، وفقط

مع ملاحظة من المدير الموجود في القرية، يقول فيها: «افرضوا على هؤلاء الرجال العمل مباشرةً حال وصولهم».

- حسناً، أيّها النقيب، كن منصفاً تماماً، بما أنّك عسكري، وأخبر جنودك، ريثما يأتي قادتك، بأن يعاملوننا معاملة مختلفة عن السجناء الآخرين. وأنا أؤكّد لك مرّة أخرى بأننا لسنا ولا يمكن أن نكون محكومين، لأننا لم نرتكب أيّ جريمة في فنزويلا.

- هذا جيّد، وسوف أُعطي أوامري في هذا الصدد. أتمنى ألّا تكونوا قد خدعتموني.

تسنّى لي أن أدرس سلوك السجناء طيلة فترة ما بعد الظهيرة في أوّل يوم أحدٍ هذا. وأوّل شيءٍ أدهشني هو أنّ الجميع كانوا يتمتّعون بصحّة جسدية جيّدة. والأمر الثاني الذي أثار دهشتي هو أنّ الضربات التي يتلقونها كانت مسألة يومية معتادة بحيث أنّهم تعلّموا تحمّلها إلى درجة أنّه حتى في يوم الاستراحة، أي يوم الأحد، حيث كان بوسعهم أن يتجنّبوها بسهولة من خلال التصرّف بطريقة حسنة، كانوا يتلقون تلك الضربات، كما لو أنّهم يجدون متعة ساديّة في اللعب بالنار، فلا يكفّون عن القيام بأشياء ممنوعة، من قبيل اللعب بالنرد، مضاجعة حدثٍ في المراحيض، سرقة رفيق، توجيه كلمات بذيئة وإباحية للنساء اللواتي يأتين من القرية لجلب حلويات أو سجائر للسجناء. كانت النسوة يقمن ببعض المبادلات التجارية أيضاً. فكنّ يأخذن بعض السلال المجدولة من أغصان الشجر أو قطعةً منحوتة مقابل بعض النقود أو علب سجائر. وجد بعض السجناء وسيلة لانتزاع ما تقدّمه المرأة عبر الأسلاك الشائكة والانطلاق جرياً دون أن يعطوها الشيء المقابل، لكي يختفوا بعد ذلك وسط السجناء الآخرين. وفي النتيجة، تُطبّق العقوبات الجسدية بكثيرٍ من الإجحاف ولأيّ سببٍ كان، وقد بات جلدهم مدبوغاً بالمعنى الحرفي بفعل السياط، إلى درجة أنّ الرعب يسود في المعسكر دون أيّ فائدة لا للمجتمع ولا للنظام العامّ والذي لا يصحّح أيّ شيء في هذه المآسي.

كان سجن سان جوزيف الانفرادي، بصمته، أكثر رعباً بكثير من هذا المعسكر. الخوف هنا مؤقّت، والتكلّم في الليل وخارج ساعات العمل وأيام الأحد مسموح، وكذلك الطعام هنا دسمٌ ووفير، كلّ هذا يجعل المحكوم قادراً على أن يقضي حكمه على نحوٍ ممتاز، والذي لا يتجاوز في أيّ حالة خمسة أعوام.

أمضينا يوم الأحد في التدخين وشرب القهوة ونحن نتحدّث فيما بيننا. اقترب منّا بعض السجناء الكولومبيين، فأبعدناهم بلطف، ولكن بحزم. ينبغي أن نعتبر أنفسنا سجناء مختلفين، وإلّا سينتهي أمرنا.

في اليوم التالي، أي يوم الإثنين، في الساعة السادسة، بعد أن أفرطنا في تناول طعام الفطور، سرنا إلى العمل مع الآخرين. وها هي طريقة الشروع بالعمل: يتقابل صفّان من الرجال، وجهاً لوجه، في الصفّ الأوّل خمسون سجيناً، وفي الآخر خمسون جنديّاً. كلّ جندي مقابل سجينٍ. وبين الصفّين، هناك خمسون أداةً للعمل وهي عبارة عن معاول ومجارف وفؤوس. يراقب كلّ صفّ من الرجال الصفّ الآخر، ويكون رتل السجناء قلقاً، ورتل الجنود متوتّراً وساديّاً.

يصرخ الرقيب: «فلان، معول!».

يسارع السجين البائس، وفي اللحظة التي يلتقط فيها المعول ليلقي به على كتفه وينطلق جرياً إلى العمل، يصرخ الرقيب: «الرقم»، الأمر الذي يعادل: «الجندي، واحد، اثنان، إلخ.»، فيركض الجندي خلف الرجل المسكين ويجلده بسوطه. يتكرّر هذا المشهد الفظيع مرّتين في اليوم. على المسار من المعسكر إلى موقع العمل، نشعر إنّهم حرّاسُ حميرٍ يعنّفون ويشتمون حميرهم وهم يركضون خلفهم.

لقد تجمّد الدم في عروقنا من الخوف ونحن ننتظر دورنا. ولحسن الحظّ، عاملونا بطريقة مختلفة.

– الكايينيون الخمسة، من هنا! أنتم الأكثر شباباً، خذوا هذه المعاول وأنتما العجوزان، خذا هاتين المجرفتين.

سلكنا الطريق، دون أن نركض ولكن بخطوات الصيادين، يراقبنا أربعة جنود وعريف، وذهبنا إلى موقع العمل المشترك. كان هذا اليوم أطول وأكثر إثارةً للتشاؤم من اليوم الأوّل. كان رجالٌ مستهدفون على نحوٍ خاصّ، خارت قواهم، يصرخون مثل المجانين ويتسوّلون وهم جثاةٌ على ركبهم بأن يكفّوا عن ضربهم. في فترة الظهيرة، ينبغي على السجناء أن يجهّزوا من عدّة أكداس من الحطب سيّئ الاحتراق كدساً واحداً كبيراً. ويجب على سجناء آخرين أن يقوموا بتنظيف المخلّفات من خلف المجموعة الأولى. ولذلك، يجب فقط الإبقاء على كومةٍ كبيرة من الجمر في وسط المعسكر من ثمانين إلى مئة حزمةٍ من الحطب المحروق. ينهال كلّ جندي ضرباً بالسوط على السجين المكلّف بمتابعته لكي يلتقط المخلّفات ويحملها جرياً إلى وسط المعسكر. فيتسبّب هذا السباق الشيطاني عند بعض السجناء بنوبة جنون حقيقية، ويلتقطون في استعجالهم بعض الأغصان من قارعة الطريق حيث لا يزال هناك بعض الجمر. يسير السجناء، محروقي الأيدي، وهم يُجلدون بوحشية، حفاةً على الجمر أو على غصنٍ مرميٍّ على الأرض ولا يزال الدخان يتصاعد منه، ويستمر هذا المشهد الفانتازي لثلاث ساعات. لم يُطلَب من أيّ واحدٍ منّا أن يُشارك في تنظيف هذا الحقل الذي قُطِعَت أشجاره حديثاً. وكان ذلك لحسن حظّنا، لأننا كنّا قد قرّرنا فيما بيننا، بجمل قصيرة، ودون أن نرفع رؤوسنا كثيراً، ونحن نواصل الحفر بالمعول، أن نهجم على الجنود الخمسة بحيث يتكفّل كلّ واحدٍ منّا بأحدهم، بما فيهم العرفاء، وأن نجرّدهم من سلاحهم ونطلق النار على هؤلاء الوحوش.

اليوم، الثلاثاء، لم نخرج إلى العمل. تمّ استدعاؤنا إلى مكتب القائدين في الحرس الوطني. استغرب هذان العسكريان كثيراً من وجودنا في سجن إلدورادو دون أن تكون هناك وثائق تُثبت أنّ محكمةً قد أرسلتنا إليه. على أيّ حال، وعدانا بأن يطلبا غداً إيضاحات من مدير المكتب الجنائي.

لم يستغرق الأمر طويلاً. لا بدّ أنّ هذين القائدين الرفيعين من حرس

السجن الإصلاحي صارمان جدّاً، بل يمكننا القول: إنّهما قمعيان للغاية، ولكنّها مستقيمان، لأنّهما طالبا بأن يأتي مدير المعسكر بنفسه ليقدّم لنا الإيضاحات.

ها هو أمامنا الآن، برفقة صهره الروسي وضابطين من الحرس الوطني.

- أيّها الفرنسيون، أنا مدير معسكر إلدورادو. لقد رغبتم في التحدّث إليّ. ماذا تُريدون؟

- أوّلاً، أيّ محكمة أدانتنا من دون علمنا لكي نخضع لعقوبةٍ في هذا المعسكر للأشغال الشاقّة؟ بكم حُكمنا وبأيّ جريمة؟ لقد وصلنا عبر البحر إلى إيرابا، إلى فنزويلا. لم نرتكب أيّ جريمة. إذاً، ما الذي نفعله هنا؟ وكيف تُرغموننا على العمل؟

- أوّلاً، نحن في حالة حرب. وبالتالي، علينا أن نعرف منْ أنتم بالضبط.

- ممتاز، ولكن هذا لا يبرّر زجّنا في سجنكم للأشغال الشاقّة.

- أنتم هاربون من العدالة الفرنسية، ولذلك علينا أن نعرف إن كنتم ملاحقين من جانبها.

- أنا أقبل بهذا، ولكنني أُصرّ أيضاً على سؤالي: لماذا تتمّ معاملتنا كما لو أننا خاضعون لحكم ينبغي علينا قضاؤه؟

- في الوقت الراهن أنتم هنا بموجب قانون «المتشردين والأشرار» في حالة إيداع، في انتظار تقديم الوثاق والمستندات بشأنكم.

كان هذا النقاش سيدوم لوقتٍ طويل لو لم يحسم أحد الضابطين بنفسه كلّ شيء من خلال إبداء رأيه، حينما قال:

- حضرة المدير، لا يمكننا بصراحة أن نعامل هؤلاء الرجال مثل السجناء الآخرين. ولذلك أقترح أنّ نجد وسيلةً لتوظيفهم في عملٍ آخر غير العمل في شقّ الطريق، ريثما تصبح كاراكاس على علمٍ بهذه الحالة الخاصّة.

- إنّهم رجالٌ خطرون، فقد هدّدوا بقتل ناظر السجناء إن قام بضربهم. هل هذا صحيح؟

– لم نهدّده فحسب، سيّدي المدير، بل أنّ أيّ شخصٍ آخر يتسلّى بضرب أحدنا، سوف نقتله.

– وماذا إن كان جنديّاً؟

– الشيء نفسه. لم نفعل أيّ شيء حتى نخضع لنظام كهذا. ربّما تكون قوانيننا وأنظمتنا التأديبية أكثر رعباً ولاإنسانيّة من قوانينكم وأنظمتكم، ولكن أن نُضرب كالبهائم، فهذا ما لن نقبل به.

التفت المدير نحو الضابطين بهيئة المنتصر، وقال لهما: «ها قد رأيتما أنّ هؤلاء الرجال خطرون!»

تردّد قائد الحرس، الأكبر سنّاً، لثانيةٍ أو ثانيتين، ثمّ، وسط دهشة الجميع، ختم بالقول:

– هؤلاء الفارّون الفرنسيون على حق. لا شيء في فنزويلا يبرّر أن يكونوا مرغمين على الخضوع لعقوبة ولقوانين هذا المعسكر. أنا أعطيهم الحقّ في هذا الاعتراض. كما أنّ هناك أمرين آخرين، يا حضرة المدير: إما أن تجدوا لهم عملاً بمعزل عن السجناء، وإمّا لن يخرجوا إلى العمل. ولكن إن ظلّوا مع جميع السجناء، سوف يتعرّضون للضرب ذات يوم من جانب أحد الجنود.

– سوف ننظر في هذا الأمر. في الوقت الحالي، دعهم في المعسكر. سوف أخبرك في الغدّ ما الذي علينا فعله.

وانسحب المدير برفقة صهره.

شكرتُ الضابطين. قدّما لنا بعض السجائر ووعدانا بأنّهما سوف يقرأان في التقرير الصباحي ملاحظةً للضباط والجنود سيبلّغانهم بأنّه لا ينبغي لهم تحت أيّ ذريعة أن يضربونا.

ها قد مرّت ثمانية أيام على وجودنا هنا. لم نعد نذهب إلى العمل. حدث يوم أمس الأحد شيءٌ فظيع. لقد أجرى الكولومبيون قرعةً ليعرفوا من الذي عليه أن يقتل العريف نيغرو بلانكو. وقد رست القرعة على رجلٍ ثلاثيني. قاموا بتزويده بملعقة معدنية تمّ شحذ مقبضها على الإسمنت

على شكل رمح حادّ جدّاً وقاطعٍ من الحدّين. والتزم الرجل بشجاعة بوعده لأصدقائه. وقد سدّد ثلاث طعنات في صدر نيغرو بلانكو بالقرب من قلبه. نُقِل العريف إلى المستشفى على نحوٍ عاجل، ورُبِط القاتل إلى عمودٍ في وسط المعسكر. بحث الجنود مثل مجانين في كلّ مكانٍ عن أسلحةٍ أخرى. انهالت الضربات من كلّ حدبٍ وصوب. وسط غضبهم الجنوني، ضربني أحدهم بسوطه على فخذي لأنني لم أنزع سروالي بما يكفي من السرعة، فأمسك بارير بكرسيٍّ ورفعه فوق رأس الجندي. سدّد له جنديٌّ آخر طعنة بحربة البندقية اخترقت ذراعه، عندما أسقطتُ في اللحظة ذاتها الحارس الذي ضربني بركلةٍ من قدمه على بطني. كنتُ قد التقطتُ البندقية من الأرض، عندما جاء أمرٌ بصوتٍ قويّ ووصل إلى المجموعة:

- توقّفوا جميعاً! لا تمسّوا الفرنسيين! أيّها الفرنسي، اترك البندقية!

كان النقيب فلوريس الذي استقبلنا في اليوم الأوّل هو الذي جاء يصرخ، وأعطى هذا الأمر.

جاء تدخّله في اللحظة نفسها التي كنتُ فيها على وشك أن أطلق النار على مجموعة الجنود. من دون تدخّله هذا، ربّما كنتُ سأقتل منهم جندياً أو اثنين، ولكن بالتأكيد كنّا سندفع حياتنا، التي أضعناها بحماقة في آخر فنزويلا، في آخر العالم، في هذا السجن الذي ليس لنا أيّ شيء نفعله فيه.

بفضل التدخّل الحيوي للنقيب، انسحب الجنود من مجموعتنا وراحوا إلى مكان آخر لإشباع نهمهم في التنكيل بالسجناء. وحينها، شاهدنا أنذل وأحقر ما يمكن تصوّره.

أوسِع «الرجل المسكين» المربوط في وسط المعسكر ضرباً مبرّحاً دون توقّف من جانب ثلاثة رجال في آنٍ واحد، وهم العريف وجنديان. وقد استمرّ ذلك التعذيب من الساعة الخامسة عصراً وحتى الساعة السادسة من صباح اليوم التالي، عند طلوع الشمس. إنّ قتل رجلٍ فقط بالضرب على جسده يستغرق وقتاً طويلاً! كانت الوقفات القصيرة جدّاً

عن هذا التنكيل لسؤاله عن شركائه في قتل الجندي، ومنْ الذي أعطاه الملعقة المعدنية، ومن الذي شحذها. لكن هذا الرجل لم يشِ بأحدٍ، حتى مع وعودهم بأنّهم سيتوقّفون عن تعذيبه إذا ما تكلّم وكشف شركاءه. وقد فقد وعيه مرّات كثيرة، فكانوا ينعشونه بصبّ دلاءٍ من الماء عليه. بلغ الأمر ذروته في الساعة الرابعة صباحاً. لمّا رأوا بأنّ جسده لم يعد يُظهر أيّ ردّ فعلٍ تحت الضربات، حتى من خلال التقلّصات، توقّف الجلّادون عن الضرب.

سأل أحد الضباط:

- هل مات؟

- لا ندري.

- فكّوه وضعوه على أطرافه الأربعة.

الآن، قام أربعة رجال بوضعه على أطرافه الأربعة بشكلٍ أو آخر. وعندئذٍ، وجّه أحد الجلادين ضربةً بالسوط تماماً على مفرق ردفيه وقد راح رأس السوط بكلّ تأكيد إلى الأمام أكثر ليصل إلى أعضائه التناسلية. هذه الضربة البارعة من جلّادٍ محترفٍ انتزعت أخيراً من «الرجل المسكين» صرخة ألمٍ.

قال الضابط:

- تابعوا جلده، لم يمت بعد.

ظلّ يُجلَد حتى بزوغ الشمس. كان من شأن هذا الضرب بالعصي، الجدير بالقرون الوسطى، أن يقتل حصاناً، ولكنّه لم ينجح في القضاء على «الرجل المسكين» وانتزاع روحه. بعد أن تركوه لساعة واحدة دون أن يضربوه، وبعد صب العديد من دلاء الماء عليه، استطاع، بمساعدة الجنود، أن يقوى على النهوض. واستطاع أن يقف على قدميه لبرهةٍ، لوحده.

وصل الممرّض وفي يده كوبٌ.

أمر ضابطٌ:

- اشرب هذه الشَرْبة، ستُحسّن حالك.

تردّد «الرجل المسكين»، ثمّ شرب الشَرْبة في جرعة واحدة. وبعد مضي دقيقة واحدة، خرّ صريعاً على الأرض، إلى الأبد. وبينما كان يحتضر، خرجت من فمه جملة واحدة: «أيّها الغبي، لقد سمّموك».

لا داعي لأن أخبركم بأنّ لا أحد من بين السجناء، بما فيهم نحن، كان ينوي أن يحرّك ساكناً. لقد دبّ الذعر في الجميع دون استثناء. وكانت هذه المرّة الثانية في حياتي التي رغبتُ فيها أن أموت. خلال بضع دقائق، أغرتني البندقية التي كان يمسك بها بإهمال جنديٌّ ليس بعيداً عنّي. والذي ردعني عن محاولة الاستيلاء عليها هو فكرة أنني قد أُقتَلُ قبل أن يتسنّى لي الوقت للمناورة وإطلاق الرصاص على مجموعة الجنود.

بعد مضي شهرٍ واحدٍ، عاد نيغرو بلانكو وأصبح الجلاد المرعب في المعسكر، أكثر من أيّ وقتٍ مضى. ورغم ذلك، كتب له القدر أن يموت في إلدورادو. أوقفه جنديٌّ مناوب عندما مرّ بالقرب منه ذات ليلة:

أمره الجندي:

- اركع جاثياً.

أذعن نيغرو بلانكو لأوامره.

- صل صلاتك، فأنت ميّت.

تركه يُصلّي صلاة قصيرة ثمّ أطلق عليه ثلاث رصاصات من بندقيته. قال بعض السجناء أنّ الجندي قتله، ممتعضاً من رؤية هذا الجلّاد يضرب مثل وحشٍ هؤلاء السجناء المساكين. بينما روى آخرون أنّ نيغرو بلانكو كان قد وشى بهذا الجندي لدى رؤسائه، قائلاً بأنّه كان قد عرفه في كاراكاس وأنّه كان لصّاً قبل أن يلتحق بالخدمة العسكرية. ولا بدّ أنّه قد دُفِن ليس بعيداً عن مكان دفن«الرجل المسكين» الذي كان لصّاً بالتأكيد، ولكنّه رجلٌ على شجاعة وقيمٍ قلّ نظيرها.

حالت كلّ هذه الأحداث دون اتّخاذ قرارٍ بشأننا. وبالإضافة إلى ذلك، ظلّ بقية السجناء لمدّة خمسة عشر يوماً دون الذهاب إلى العمل. تلقّى باريير عناية ممتازة من طبيبٍ في القرية للشفاء من طعنة الحربة التي تلقّاها.

بتنا الآن نحظى بالاحترام في التعامل. غادر شابار يوم أمس ليعمل طبّاخاً لدى مدير القرية. وقد أُطلِق سراح غيتو وباريير، لأنّ المعلومات بشأننا قد وصلت من فرنسا. ولأنّه تبيّن من هذه المعلومات بأنّهما كانا قد أنهيا مدّة عقوبتهما، أُطلِقَ سراحهما. أمّا أنا، فقد كنتُ قد أعطيتُ لهم اسماً إيطالياً، فعاد اسمي الحقيقي وبصماتي وحكمي بالسجن المؤبد؛ وكذلك الأمر بالنسبة إلى ديبلانك، البالغ خمسة وعشرين عاماً وشابار أيضاً. أبلغنا المدير، بكلّ فخر، الخبر الذي تلقّاه من فرنسا، فقال: «بسبب حقيقة أنّكم لم ترتكبوا أيّ فعلٍ سيّئ في فنزويلا، سوف نحتفظ بكم لبعض الوقت، ومن ثمّ سوف نُطلِق سراحكم. ولكن لتحقيق هذا الأمر، عليكم أن تعملوا وتحسنوا التصرّف والسلوك، فأنتم في مرحلة المراقبة».

أثناء التحدّث معي، اشتكى الضابطان من صعوبة الحصول على خضار طازجة في القرية. كان في القرية حقلٌ زراعيّ، ولكن ليس للخضار. تزرع القرية الأرزّ والذرة والفاصولياء السوداء فقط. عرضتُ عليهما أن أقوم بزراعة بستان خضراوات إن قدّموا لي البذور. واتّفقنا على ذلك.

الفائدة الأولى من هذا المشروع: سوف نخرج، ديبلانك وأنا، من المعسكر، ولأنّه وصل سجينان منفيان تمّ توقيفهما في سيوداد بوليفار، فقد انضمّا إلينا. كان أحدهما من باريس، ويُدعى توتو، والآخر من كورسيكا. وقد بنوا لنا نحن الأربعة كوخين من الخشب وأوراق شجر النخيل. أقمنا ديبلانك وأنا في أحدهما؛ وأقام في الآخر زميلانا في البستان.

صنعنا، توتو وأنا، طاولات عالية وضِعتْ قوائمها في علب مليئة بالنفط لكي لا يلتهم النمل البذور التي وضعناها فوقها. وحصلنا سريعاً على شتلات جيّدة للطماطم والباذنجان والبطيخ والفاصولياء الخضراء. ثمّ بدأنا بنقلها إلى ألواح، لأنّ الشتلات الصغيرة أصبحت الآن قويّة بما

فيها الكفاية لكي تقاوم النمل. ومن أجل زراعة شتلات الطماطم، حفرنا حفرة حول كلّ شتلة لكي نسقيها غالباً بالماء. وهذا سيجعل تربتها رطبة باستمرار ويمنع الفطريات، المنتشرة بكثرة في هذه الأرض البكر، من الوصول إلى شتلاتنا.

قال لي توتو:

- مهلاً، ما هذا؟ انظر إلى هذه الحصاة كم تلمع.

- اغسلها، يا صاحبي.

وقدّمها لي. إنّها قطعة كريستال كبيرة بحجم حبّة حمص. بعد أن غُسِلَت، أصبحت أشدّ بريقاً من الجهة التي انكسرت قطعة منها، لأنّها كانت مغلّفة بقشرة رملية صلبة.

- ألا تكون هذه ماسةً؟

- اخرس، يا توتو. هذا ليس وقت الثرثرة، أجل إنّها ماسة. ألا ترى أنّه قد يكون لنا الحظّ في العثور على منجمٍ للألماس؟ فلننتظر هذا المساء وخبّئ هذه القطعة.

في المساء، كنتُ أعطي دروساً في الرياضيات لعريفٍ (هو الآن برتبة عقيد) كان يعدّ نفسه لمسابقة لكي يصبح ضابطاً. هذا الرجل الذي يتّسم بنبلٍ واستقامةٍ لا يتغيران (برهن لي على ذلك خلال أكثر من خمسة وعشرين عاماً من الصداقة)، يُدعى الآن العقيد فرانسيسكو بولانيو أوتريرا. سألته:

- فرانسيسكو، ما هذه؟ أهي قطعة كريستال من الصخر؟

بعد أن تفحّصها بدقّة، قال:

- كلا. هذه ماسة. خبّئها جيّداً ولا تدع أحداً يراها. أين عثرت عليها؟

- تحت شتلات الطماطم في بستاني.

- هذا أمرٌ غريب. ألا يمكن أن تكون قد جلبتها عندما كنت ترفع الماء من النهر؟ ألم تجرف دلوك وتأخذ القليل من الرمل مع الماء؟

- بلى، لقد حصل هذا.

- إذاً، هذا ما حصل بالتأكيد. لقد استخرجت ماستك من النهر، من ريو كاروني. يمكنك أن تبحث، ولكن انتبه جيّداً لترى إن كنت قد جلبت ماسات أخرى مع الرمل، لأنّه لا يعثر المرء أبداً على ماسةٍ وحيدة، لا بدّ أنّ هناك ماسات أخرى معها.

شرع توتو بالعمل.

لم يكن قد سبق له أن عمل بحياته بهذا المقدار، إلى درجة أنّ رفاقنا الذين لم نخبرهم بأيّ شيء عن قصّة الألماس، كانوا يقولون:

- كفّ عن العمل، يا توتو، سوف تُهلك من جرّاء رفع دلاء الماء من النهر. وما يُزيد الطين بلّة هو أنك تجلب معه رملاً!

ويردّ توتو:

- هذا لكي تصبح التربة أخفّ، يا صاحبي. من خلال خلط التربة بالرمل، يرشح منها الماء على نحوٍ أفضل.

وواصل توتو زقّ دلاء الماء دون توقّف، غير آبه بمزاحنا جميعاً. في منتصف ظهيرة أحد الأيام، خلال رحلةٍ، انكشف أمره أمامنا نحن الجالسين في الظلّ. برزت من بين الرمل المسكوب ماسةٌ كبيرة حجمها ضعف حجم حبّة حمص. انكسر غلافها مرّة أخرى، وإلّا لما رأيناها. وقد فشل في التقاطها بسرعة.

قال ديبلانك:

- مهلاً، أليست هذه ماسة؟ لقد قال لي بعض الجنود بأنّه يوجد في النهر ألماسٌ وذهب.

قال توتو وقد سُرّ بأن فسّر أخيراً سبب عمله الكثير:

- ولهذا السبب أزقّ الكثير من الماء. وها أنّكم ترون بأنني لستُ بالحماقة التي تتصوّرونها!

باختصار، في غضون ستة أشهر، ولإنهاء حكاية الألماس، كان توتو يمتلك من سبعة إلى ثمانية قراريط من الألماس. أمّا أنا، فقد امتلكتُ اثني

عشر قيراطاً بالإضافة إلى ثلاثين حجراً ثميناً صغيراً، الأمر الذي حوّلها إلى الفئة «التجارية»، باللَّهجة العامية للعاملين في قطّاع المناجم. ولكن، عثرتُ في أحد الأيام على ماسةٍ تزن أكثر من ستة قراريط والتي أعطت، بعد أن شُذِّبَت فيما بعد في كاراكاس، ما يُقارب أربعة قراريط. ما زلت أحتفظ بها وأحملها في إصبعي ليلاً ونهاراً. وقد حصل ديبلانك وأنتارتاغليا أيضاً على بعض الأحجار الثمينة. كنتُ لا أزال أحتفظ بماسورة السجن فوضعتُ الماسات فيها. أمّا رفاقي، فقد صنعوا من أطراف قرون الثيران نوعاً من المواسير واحتفظوا بكنوزهم الصغيرة فيها.

لم يكن أحدٌ يعرف شيئاً باستثناء العريف فرانسيسكو بولانيو الذي سيصبح عقيداً في المستقبل. نمت شتلات الطماطم والخضراوات الأخرى. دفع لنا الضباط بأمانة ثمن الخضار التي نقلناها كلّ يوم إلى مطعم الضباط.

حظينا بحرية نسبية. كنا نعمل دون أيّ حراسة وننام في كوخينا. ولم نذهب قط إلى المعسكر. نلقى الاحترام ونُعامل معاملة حسنة. وبالطبع، كنّا نلحّ، كلّما استطعنا، على المدير لكي يُطلق سراحنا وننال حريتنا. وفي كلّ مرّة، يردّ علينا، قائلاً: «عمّا قريب»، ولكن ها قد مضت ثمانية أشهرٍ على وجودنا هنا، ولم يحصل أيّ شيء. فبدأتُ أتحدّث عن الهروب. لم يشأ توتو أن يعرف أيّ شيء عن ذلك. وكذلك كان موقف الآخرين. ولكي أدرس النهر، اشتريتُ خيطاً وصنّارة لصيد السمك. وبذلك أصبحتُ أبيع السمك، وعلى نحوٍ خاصّ، أسماك الكاريب الشهيرة، وهي أسماك لاحمة يصل وزن الواحدة منها كيلوغراماً واحداً وأسنانها حادّة كأسماك القرش ومرعبة مثلها.

شهد اليوم بلبلة. لقد هرب غاستون دورانتون، المدعو توردي (الملويّ)، حاملاً معه سبعين ألف بوليفارٍ من صندوق المدير. ولهذا السجين المحكوم بالأشغال الشاقة حكاية طريفة.

حينما كان طفلاً، كان في سجن الأحداث في جزيرة أوليرون، ويعمل

إسكافياً في ورشة السجن. وفي أحد الأيام، تمزّق السَيْر الجلدي الذي يأخذ الحذاء فوق الركبة ويمرّ تحت أسفل القدم. فأُصيب بخلع في الوركين. ولأنّه لم تتمّ معالجته بالشكل السليم، انجبر وركه جزئياً. وظلّ كلّ مرحلة صباه وجزءاً من حياته كرجل ملويّاً، متواركاً. وكانت رؤيته وهو يمشي مؤلمة: لم يكن هذا الصبيّ النحيل والمائل يستطيع التقدّم إلّا وهو يجرّ تلك الساق التي لا تطاوعه. انتقل إلى سجن الأشغال الشاقّة في الخامسة والعشرين من عمره. ولم يكن هناك ما هو مثيرٌ للعجب سوى أنّه بعد تمرينات طويلة في سجن الأحداث، خرج منه لصّاً.

يناديه الجميع توردي (الملويّ)، بحيث تقريباً لا أحد يعرف اسمه الحقيقي غاستون دورانتون. كان بالفعل ملويّاً (توردي)، ويُدعى الملوي (توردي). ولكن على الرغم من الخلع الوركي، هرب من السجن ووصل إلى فنزويلا. كان ذلك في عهد الدكتاتور غوميز. والقليل من السجناء المحكومين بالأشغال الشاقّة نجوا عرضاً من قمعه، بعض الاستثناءات النادرة، ومن بينهم على نحوٍ خاصّ الدكتور بوغرات، لأنّه أنقذ كلّ سكان جزيرة «مرغريتا» الغنية باللؤلؤ، التي تفشّى فيها وباء الحمّى الصفراء.

كان توردي قد أوقِفَ من جانب جهاز «ساغرادا»، أي (المقدّس)، وهو جهاز الشرطة الخاصّ بالرئيس الفنزويلي غوميز، ومن ثَمّ أُرسِل إلى العمل في شقّ طرقات فنزويلا. كان السجناء الفرنسيون والفنزويليون مقيّدين بسلاسل حديدية فيها كرات معدنية حُفِر عليها رسم زهرة طولون. وحينما يعترض الرجال على تقييدهم، يُقال لهم: «ولكن هذه السلاسل، وهذه الأغلال، وهذه الكرات كلّها تأتي من بلدكم! انظروا إلى زهرة الزنبق». باختصار، فرّ توردي من المعسكر سارقاً المكان الذي كان يعمل فيه في شقّ الطريق. ولمّا أُلقي القبض عليه مجدّداً بعد بضعة أيام، أُعيد إلى هذا السجن المتنقّل. وأمام جميع السجناء، تمّ طرحه أرضاً على بطنه، عارياً تماماً، وحُكِمَ عليه بمئة جلدة من السوط.

كان من النادر جدّاً أن يقاوم رجلٌ لأكثر من أربع وعشرين جلدة.

كان من حظّ الرجل أن يكون نحيلاً، لأنّه حينما يُطرح أرضاً على بطنه لا يمكن للضربات أن تصل إلى كبده، وهو العضو الذي ينفجر إذا ما تعرّض للضرب. وكانت العادة المتّبعة، بعد هذا الجلد بالسوط حيث تتحوّل الإليتين إلى لحم مفروم، وضع الملح على الجروح وترك الرجل عرضةً للشمس. وكانت تتمّ تغطية رأسه ببعض أوراق الشجر والغراس لأنّهم يوافقون على أن يموت الرجل بضربات السياط، ولكن ليس بضربة شمس.

خرج توردي حيّاً من هذا التعذيب القروسطي، وعندما نهض للمرّة الأولى، كانت المفاجأة مدويّة، إذ لم يعد يعاني من الخلع الوركي. كانت الضربات قد كسرت له اللحام السيّئ الذي كان قد تمّ بطريقة خاطئة، وأعاد وركه إلى مكانه الصحيح. صرخ الجنود والسجناء بالمعجزة التي حصلت، ولم يفهم أحدٌ ما جرى. في هذا البلد المؤمن بالخرافات، يعتقد الناس أنّ اللّه هو الذي أراد أن يكافئه على مقاومة التعذيب بجدارة. ومنذ ذلك اليوم، نُزعت عنه السلاسل والكرات. أصبح محمياً ومحصّناً وصار موزّعاً للماء على عمال السخرة. وسريعاً ما نما جسمانياً، ولأنّه كان يأكل كثيراً، أصبح فتى طويل القامة وذا جسمٍ رياضيّ.

علِمت فرنسا أنّ السجناء يعملون في شقّ الطرق في فنزويلا. ولأنّها اعتقدت أنّ هذه الطاقات سوف تُستخدَم على نحوٍ أفضل في غويانا الفرنسية، أوفدت الجنرال فرانشيه ديسبيري في مهمّة لكي يطلب من الدكتاتور، السعيد بهذه الأيدي العاملة المجانية، أن يُسلّم هؤلاء الرجال إلى فرنسا.

وافق غوميز على الطلب، وجاءت سفينة إلى ميناء بويرتو كابيلو لكي تعيدهم إلى فرنسا. وفي تلك الأثناء، حدثت مواقف مضحكة رهيبة، لأنّه كان هناك رجالٌ جاؤوا من ورشات أخرى لشقّ الطرق ولا يعرفون ما حدث مع توردي.

– هيه! يا مارسيل، كيف حالك؟

- منْ أنت؟

- أنا توردي الملويّ.

وكان جميع من يسألهم يردّون وهم يرون هذا الجسور الطويل والوسيم، وهو ينتصب على ساقين سليمتين ومستقيمتين:

- أنت تمزح، لا تسخر منّا!

لم يكفّ توردي، الذي كان شابّاً ومرحاً، طيلة الرحلة عن طرح الأسئلة على جميع من كان يعرفهم. وكان الجميع، بالطبع، لا يصدّقون أنّ توردي قد تخلّص من الخلع الوركي وعاد طبيعياً. في طريق العودة إلى السجن، عرفت هذه الحكاية من فمه شخصياً، ومن أفواه الآخرين، في جزيرة رويال.

ولمّا فرّ من جديد في عام 1943، فشل في إلدورادو. وبما أنّه كان يعيش في فنزويلا، وبالتأكيد دون أن يقول بأنّه لا يزال سجيناً، استخدموه في الحال كطبّاخٍ بدل شابار الذي أصبح بستانياً. كان في القرية لدى المدير، وبالتالي في الضفّة الأخرى من النهر.

كان في مكتب المدير صندوقٌ معدني يحتوي على أموال القرية. فسرق يومذاك سبعين ألف بوليفارٍ، المبلغ الذي يساوي آنذاك قرابة عشرين ألف دولارٍ. ومن هنا كانت الجلبة في بستاننا: إذ حضر المدير وصهر المدير والقائدان الرفيعان في الحرس. أراد المدير أن يُعيدنا إلى المعسكر، الأمر الذي رفضه الضابطان اللذان دافعا عنّا بقدر ما دافعا عن تزويدهما بالخضراوات. وقد نجحا أخيراً في إقناع المدير بأنّه ليس لدينا أي معلومة نقدّمها له؛ وأنّه لو كنّا على علمٍ بما كان يدبّره لغادرنا معه، ولكن هدفنا نحن هو أن ننال حريتنا في فنزويلا وليس في غويانا الإنكليزية، المنطقة الوحيدة التي يمكنه أن يتوجّه إليها. وبدلالة الطيور الآكلة للجيف، تمّ العثور على توردي ميّتاً على بعد أكثر من سبعين كيلومتراً وسط الدَّغَل، قريباً جدّاً من الحدود الإنكليزية.

كانت الرواية الأولى، والأسهل، هي أنّه قد قُتِلَ على أيدي هنودٍ. وبعد ذلك بمدّة، تمّ توقيف رجلٍ في سيوداد بوليفار. كان يصرّف أوراق نقدية من فئة خمسمئة بوليفار، جديدة تماماً. كان البنك الذي حوّلها إلى مدير بلدة إلدورادو يمتلك الأرقام التسلسلية لهذه الأوراق النقدية ورأى أنّها مسروقة. اعترف الرجل ووشى برجلين آخرين لم يتمّ توقيفهما أبداً. هذه هي حياة ونهاية صديقي غاستون دورانتون، الملقّب باسم توردي.

كلّف بعض الضباط، سرّاً، بعض السجناء بالبحث والتنقيب عن الذهب والألماس في نهر كاروني. وكانت النتائج إيجابية، دون اكتشافات مذهلة، ولكنّها كافية لتشجيع وتحفيز المنقبين والباحثين. في القسم السفلي من بستاني، يعمل رجلان طيلة النهار باستخدام قبّعة تُدعى «باتيه»، وهي قبّعة صينية مقلوبة رأسها إلى الأسفل وحوافها إلى الأعلى، يملآنها بالتراب ويغسلانه. ولأنّ الماسة أثقل وزناً من التراب وكلّ ما فيه، تبقى في قعر «القبّعة». وقد مات أحد السجناء، كان قد سرق «سيّده»، وأدّت هذه الفضيحة الصغيرة إلى توقّف هذا «المنجم» السريّ.

كان في المعسكر رجلٌ كلّ جذعه موشوم. وعلى عنقه عبارة مكتوبة: «تبّاً للحلّاق». ذراعه اليمنى مشلولة. ويدلّ فمه الملويّ ولسانه الضخم المدلّى والمليء باللعاب غالباً بوضوح على أنّه كان قد أُصيب بفالج. أين؟ لا ندري، لأنّه كان هنا قبل مجيئنا. من أين أتى؟ ما هو مؤكّد هو أنّه سجينٌ أو منفيٌّ هاربٌ من السجن. صدره موشومٌ بعبارة: «بات داف». وهذه العبارة بالإضافة إلى عبارة «تبّاً للحلّاق» الموشومة على قفا رقبته، تُقرّان بما لا يدع مجالاً للشكّ بأنّه محكومٌ بالأشغال الشاقة.

يطلق عليه الحرّاس والسجناء اسم بيكولينو. ويلقى معاملةً حسنة، ويتلقّى الطعام والسجائر على نحوٍ منتظم ثلاث مرّات في اليوم. تشعّ عيناه الزرقاوان حيوية ونظرته لم تكن حزينة على الدوام. حينما ينظر إلى شخصٍ يحبّه، تلمع حدقتاه بالفرح. يفهم كلّ ما يُقال له، ولكنه لا يستطيع لا أن يتكلّم ولا أن يكتب: فذراعه اليمنى المشلولة لا تسمح له

بذلك، ويده اليسرى ينقصها الإبهام وإصبعان آخران. كان هذا الحطام المتبقّي من رجل يظلّ لساعات ملتصقاً بالأسلاك الشائكة، ريثما أمرّ مع الخضراوات، لأنّه هذا هو الطريق الذي أسلكه لكي أذهب إلى مطاعم الضبّاط. فكنتُ، كلّ صباح، حينما أنقل خضاري، أتوقّف لكي أتحدّث إلى بيكولينو. مستنداً على الأسلاك الشائكة، ينظر إليّ بعينيه الجميلتين المليئتين بالحياة في جسدٍ على أعتاب الموت. ألقي على مسامعه كلمات لطيفة، فيومئ لي برأسه أو رموشه بأنّه قد فهم كلّ حديثي. يشعّ وجهه المسكين المشلول لبرهةٍ، وتلمع عيناه راغباً في أن يعبّر لي عن الكثير من الأشياء. كنتُ أجلب له على الدوام بعض الوجبات الخفيفة: سلطة طماطم أو خس أو خيار محضّرة كلّها بصلصة الخلّ أو بطيخة صغيرة، أو سمكة مشوية على الفحم. لم يكن جائعاً، لأنّ الطعام وفيرٌ في السجن الفنزويلي، ولكن كان هذا يغيّر في الوجبة الرسمية. وكنتُ أُكمل هداياي له على الدوام ببعض السجائر. غدت هذه الزيارة القصيرة إلى بيكولينو عادة ثابتة، إلى درجة أنّ الجنود والسجناء أصبحوا ينادونه ابن بابيون.

الحرية

ثمّة أمرٌ غير عادي، فالفنزويليون يأسرون شغاف القلب إلى درجة أنّني قرّرتُ أن أثق بهم، وألّا أحاول الفرار من المعسكر. قبلتُ بوضعي غير الطبيعي كسجين على أمل أن يأتي يوم وأصبحَ جزءاً من شعبهم. وهذا يبدو متناقضاً. فمن جهة، الطريقة التي يتعاملون بها بوحشية مع السجناء لا تشجّعني على العيش في مجتمعهم، ولكنني أُدرك من جهة أخرى أنّهم يجدون العقوبات الجسدية أمراً طبيعياً، لدى السجناء كما لدى الجنود. فإذا ما ارتكب جنديٌّ خطأً، يُحكم عليه أيضاً بالعديد من الجلدات. وبعد مضي عدّة أيام، ترى أنّ هذا الجندي نفسه يتكلّم مع العريف أو الرقيب أو الضابط الذي جلده، كما لو أنّ شيئاً لم يكن.

كان هذا النظام البربري قد نُقِلَ إليهم من جانب الدكتاتور غوميز الذي

قادهم بهذه الطريقة لسنوات طويلة. وقد ظلّت هذه العادة مستمرّة إلى درجة أنّ مفوّضاً يُعاقب السكان الذين يعيشون تحت سلطته القضائية بهذه الطريقة، بعدّة جلدات بالسوط.

وبسبب ثورةٍ اندلعت، وجدتُ نفسي بين ليلة وضحاها أصبح حرّاً. فقد حدث انقلابٌ، نصف مدني ونصف عسكري في البلاد، وأسقط رئيس الجمهورية عن كرسيه، وهو الجنرال أنغاريتا ميدينا، أحد كبار الليبراليين الذين عرفتهم فنزويلا. وقد كان طيّباً للغاية وديمقراطياً جدّاً بحيث لم يعرف أو لم يشأ أن يُقاوم المحاولة الانقلابية. وقد رفض على ما يبدو على نحوٍ قاطع أن يتسبّب في إراقة الدماء بين الفنزويليين في سبيل التمسّك بمنصبه. ومن المؤكّد أنّ هذا الديمقراطي العظيم لم يكن على علمٍ بما كان يجري في إلدورادو.

على أيّ حال، بعد مضي شهرٍ واحدٍ على الثورة، تغيّر جميع الضبّاط. وفُتِحَ تحقيقٌ حول موت «الرجل المسكين» باستخدام «الشَربة». وقد اختفى المدير وصهره ليحلّ محلّهما دبلوماسيٌّ سابق ومحامٍ.

– نعم، يا بابيون، سأُطلق سراحك غداً، ولكن أريدُ أن تأخذ معك هذا المسكين بيكولينو الذي تهتمّ بأمره. ليست لديه بطاقة هويّة، وسأستخرجها له. أمّا بالنسبة لك، فها هي بطاقة هويّة مطابقة تماماً لاسمك الحقيقي. والشروط هي التالية: عليك أن تعيش في بلدة صغيرة لمدّة عامٍ واحدٍ قبل أن تستطيع الإقامة في مدينة كبيرة. سوف تكون نوعاً من الحرّية من دون مراقبة، ولكن سوف يمكننا أن نراك تعيش ونعرف الطريقة التي تدافع بها عن نفسك في الحياة. وفي نهاية عامٍ واحدٍ، إذا ما منحك مفوّض البلدة، وهذا ما أعتقده، شهادة حسن سلوكٍ، حينئذٍ سوف يضع هو بنفسه حدّاً للإقامة الجبرية التي تخضع لها. أعتقد أنّ كاراكاس سوف تكون المدينة المثالية بالنسبة لك. على أيّ حال، سيكون مسموحاً لك أن تعيش بطريقة شرعية في البلاد. ولن يعود ماضيك مهمّاً بالنسبة لنا. ويحين دورك لكي تُبرهن على أنّك جديرٌ بأن نمنحك الفرصة لكي تكون من جديد رجلاً

يحظى بالاحترام. وآمل أن تصبح قبل مرور خمسة أعوامٍ مواطناً مثلي من خلال تجنيسٍ سوف يمنحك وطناً جديداً. في رعاية اللّه وحفظه! شكراً لك على رغبتك في الاعتناء بهذا الحطام بيكولينو. لا يمكنني أن أُطلِق سراحه إلا إذا أمضى لي أحدهم على تعهّدٍ بأنّه سيتكفّل به. وكلّنا أمل أن يكون الشفاء من نصيبه في أحد المشافي.

في الساعة السابعة من صباح الغد، سيكون عليّ، برفقة بيكولينو، أن أخرج إلى الحرية الحقيقية. سرت حرارةٌ في جسدي، فقد انتصرتُ أخيراً انتصاراً إلى الأبد على «طريق العفن». نحن الآن في شهر أغسطس/ آب من عام 1944. منذ ثلاثة عشر عاماً وأنا أنتظر هذا اليوم.

انسحبتُ إلى كوخي في البستان. واعتذرتُ لرفاقي وأخبرتهم بأنني في حاجةٍ إلى أن أبقى لوحدي. كان التأثر والانفعال أكبر وأجمل من أن أعبّر عنهما أمام شهودٍ. قلبتُ مراراً وتكراراً بطاقة الهوية خاصتي التي سلّمني إياها المدير فرحاً بها: كانت صورتي الشخصية ملصقة في زاويتها اليسرى، وفي الأعلى منها الرقم 1728629، وتاريخ إصدارها هو 3 يوليو / تموز 1944. وفي منتصفها تماماً، دوّنت كنيتي؛ وفي الأعلى منها اسمي الأوّل. وفي الخلف، تاريخ ميلادي: 16 نوفمبر / تشرين الثاني 1906. كانت البطاقة الشخصية نظامية تماماً، حتى أنّها موقّعة من مدير السجلّ المدني وممهورة بختمه. وفي خانة الوضع في فنزويلا، كُتبت كلمة: «مُقيم». وهذه الكلمة رائعة: «مُقيم»، وهذا يعني أنني مقيمٌ في فنزويلا. كان قلبي يخفق خفقاناً سريعاً. أردتُ أن أركع على ركبتي وأصلّي وأشكر اللّه. أنت لا تعرف أن تُصلّي وأنت لست معمّداً، فلأيّ ربٍّ سوف تتوجّه طالما أنّك لا تنتمي إلى أيّ دينٍ محدّد؟ إلى الربّ الطيّب للكاثوليك؟ لربّ البروتستانت؟ لربّ اليهود؟ لربّ المسلمين؟ أيّ ربّ سأختار لكي أتلو له صلاتي التي سأضطرّ لأن أخترعها من كلّ المقتطفات بما أنني لا أعرف أيّ صلاةٍ كاملةً. ولكن لماذا أحاول أن أعرف اليوم إلى أيّ إلهٍ عليّ أن أتوجّه؟ ألم أفكّر دائماً، عندما كنتُ أدعوه في حياتي، أو حتى عندما

كنتُ أشتمه، بإله الطفل يسوع في سلّته وحوله الحمار والثور؟ أيكون هذا لأنني ما زلتُ أحتفظُ في عقلي الباطن بالحقد على راهبات كولومبيا؟ إذاً، لماذا لا أفكّر فقط بالفريد، بأسقف كوراساو الرائع، المونسنيور إيرينيه دو بروين، وأبعد من ذلك أيضاً بالقسّ الطيّب الذي زارني في سجن التوقيف؟

سوف أكون بدءاً من الغد حرّاً، حرّاً تماماً. وبعد خمسة أعوام، سوف أكتسب الجنسية الفنزويلية، لأنني متأكدٌ من أنني لن أرتكب أيّ خطأ على هذه الأرض التي منحتني الملجأ ووثقت بي. علي أن أكون في الحياة شريفاً أكثر بمرّتين من الجميع.

في الواقع، إذا كنتُ بريئاً من جريمة القتل التي بتهمتها أرسلني النائب العام ورجال الشرطة واثنا عشر محلّفاً إلى سجن الأشغال الشاقّة، فما كان لذلك أن يحدث لولا أنني كنتُ لصّاً. ولأنني كنتُ بالفعل مغامراً، استطاعوا بسهولة أن ينسجوا حول شخصيتي هذا الخليط من الأكاذيب. لم يكن فتح خزائن الآخرين مهنة مستحسنة، والمجتمع له الحقّ وعليه الواجب في الدفاع عن نفسه. وإذا كنتُ قد رُميتُ في طريق العفن، فذلك لأنني كنتُ، وعلي أن أعترف بذلك بصراحة، مرشّحاً دائماً لأن أُرسَل إليه ذات يوم. أمّا ألّا تكون هذه العقوبة لائقة بشعب كشعب فرنسا، وأن يكون من واجب المجتمع أن يدافع عن نفسه لا أن ينتقم بهذه الدرجة من الخسّة، فكلّ هذا أمرٌ آخر. لا يُمكن لكلّ ماضيي أن يُزال بضربة من ممسحة، وإنّما عليّ أن أُعيد تأهيل نفسي بنفسي، في عيني أنا أوّلاً، ومن ثَمّ في عيون الآخرين. إذاً، اشكر هذا الربّ الطيّب للكاثوليك، يا بابيون، وعاهده على شيءٍ مهمٍّ جدّاً.

- إلهي، اغفر لي إذا كنتُ لا أعرف كيف أصلّي، ولكن انظر إلى داخلي وسوف تقرأ أنني لا أملك ما يكفي من الكلمات لأعبّر لك عن امتناني لأنك قدتني إلى هنا. كان الكفاح قاسياً ومريراً. إنّ تجاوز المحنة التي فرضها عليّ البشر لم يكن سهلاً، وبكلّ تأكيد إذا كنتُ قد استطعتُ أن

أتجاوز كلّ العراقيل وأواصل العيش بصحّة جيّدة حتى هذا اليوم المبارك، فذلك لأنّك كنت تبسط يدك فوقي لكي تعينني. ما الذي بوسعي أن أفعله لكي أُبرهن على أنني ممتنٌّ بصدقٍ وإخلاص لكلّ أفضالك؟

- اصرف النظر عن انتقامك.

هل سمعتُ أم أنني توهّمتُ أنني سمعتُ هذه الجملة؟ لا أدري، ولكنها جاءت بقسوة شديدة لتصفعني على خدّي بحيثُ اعترفتُ بأنني قد سمعتها بالفعل.

- أوه كلّا! إلّا هذا! لا تطلب منّي هذا! لقد ألحق بي هؤلاء الرجال الكثير من الألم والعذاب. كيف تُريد منّي أن أغفر لرجال الشرطة الفاسدين القذرين، ولشاهد الزور بولين؟ وأن أتخلّى عن اقتلاع لسان المدّعي العام غير الإنساني؟ هذا غير ممكن. أنت تطلب منّي الكثير. كلا، وكلا، وكلا! يؤسفني أن أُغضبك، ولكن مهما كان الثمن، لن أتخلّى عن انتقامي.

خرجتُ لأنني كنتُ أخاف أن أضعف، وأنا لا أُريد أن أتنازل. سرتُ بضع خطوات في بستاني. وجدتُ أنّ توتو يرتّب سيقان الفاصولياء المتسلّقة لكي تلتفّ حول الأعواد. اقترب أصدقائي الثلاثة منّي، توتو، الباريسي المليء بالأمل في حظائر حي لاب الخاصّ بالمومسات، وأنتارتاغليا، النشّال الذي ولِدَ في كورسيكا، ولكنه أمضى سنوات طويلة في تجريد الباريسيين من حافظات نقودهم، وديبلانك، ابن مدينة ديجون الفرنسية، قاتل قوّادٍ مثله. نظروا إليّ ووجوههم مليئة بالفرح لرؤيتي حرّاً، أخيراً. وسيحين دورهم عمّا قريب، دون أدنى شكّ.

- ألم تجلب من القرية زجاجة نبيذ أو روم للاحتفال برحيلك؟

- اعذروني، لقد كنتُ منفعلاً للغاية بحيث لم أفكّر حتى مجرّد تفكير بذلك. سامحوني على هذا النسيان.

- ولكن كلا، يا بابي، ليس لنا أن نسامحك، سوف أعدّ قهوة لذيذة للجميع.

- أنت سعيد، يا بابي، لأنّك أخيراً أصبحت حرّاً بشكلٍ نهائي بعد سنواتٍ طويلة من الكفاح. نحن سعداء من أجلك.

- سوف يحين دوركم عمّا قريب، أتمنى ذلك.

قال توتو:

- هذا مؤكّد، فقد أخبرني النقيب بأنّه كلّ خمسة عشر يوماً، سوف يُطلق سراح أحدنا. ماذا ستفعل بعد أن أصبحت حرّاً؟

تردّدتُ لثانية أو ثانيتين، ورغم خشيتي من أن أكون مضحكاً بعض الشيء أمام هذا السجين المنفي والمحكومين بالأشغال الشاقة، أجبتُ بشجاعة:

- ما سأفعله؟ حسناً، الأمر ليس معقّداً: سوف أبدأ بالعمل وسأكون نزيهاً على الدوام. في هذا البلد الذي منحني الثقة، سوف أشعر بالعار إن ارتكبتُ جريمةً.

وبدل إجابة ساخرة، بقيتُ مندهشاً، لأنّ الثلاثة اعترفوا في الوقت نفسه. فقال توتو:

- أنا أيضاً، قرّرتُ أن أعيش حياتي باستقامة ونزاهة. أنت على حقّ، يا بابيون، سوف يكون الأمر صعباً، ولكن هذا يستحقّ العناء، وهؤلاء الفنزويليون يستحقون أن نكنّ لهم الاحترام والتقدير.

لم أُصدّق ما سمعته أذناي. توتو، البلطجي الذي سطا على خزائن الباستيل، لديه أفكارٌ كهذه؟ إنّه لأمرٌ مثيرٌ للحيرة! وأنتارتاغليا الذي عاش طيلة حياته وهو ينبش جيوب الآخرين، يتصرّف هكذا؟ هذا مذهل. وديبلانك، القوّاد المحترف، ليس من بين مشاريعه فكرة العثور على امرأة واستغلالها؟ هذا أكثر إثارةً للدهشة. انفجر الجميع في نوبة ضحكٍ مجلجلة.

- آه! هذه على سبيل المثال تساوي ذهباً، فإذا ما عدتَ غداً إلى مونتمارتر، في ساحة بلانش ورويت هذا الكلام، لن يصدّقك أحدٌ!

- أجل، إنّ رجال وسطنا الإجرامي سوف يُصدّقون، يا صاحبي. الذين

لن يرغبوا في تصديقنا، هم البُلهاء. إنّ الأغلبية الساحقة من الفرنسيين لا يؤمنون بأنّ رجلاً له ماضينا يستطيع أن يصبح رجلاً صالحاً في أيّ حالٍ من الأحوال. هذا هو الفرق بين الشعب الفنزويلي وشعبنا. لقد رويتُ لكم قضية رجلٍ من إيرابا، الصياد المسكين الذي شرح لقائد الشرطة بأنّ الرجل لا يضيع أبداً وأنّه يجب منحه فرصة لكي يصبح بمساعدة المجتمع رجلاً صالحاً وشريفاً. هؤلاء الصيادون الذين يكادون أن يكونوا أميين في خليج باريا، في نهاية العالم، تائهين في المصبّ الشاسع لنهر أورينوكو، لديهم فلسفة إنسانية يفتقر إليها الكثيرون من مواطنينا. في بلدنا الكثير من التقدّم الميكانيكي، وحياةٌ محمومة ومضطربة، ومجتمع ليس له سوى مثالٍ واحد وهو المزيد من الاختراعات الميكانيكية الجديدة، وحياة أكثر يسراً وأفضل. إنّ التنعّم باكتشافات العلم أشبه بأن يلعق المرء قطعة من المثلّجات الأمر الذي يجعله أكثر تعطّشاً لرفاهية أفضل والكفاح المتواصل من أجل بلوغها. كلّ هذا يقتل الروح والرحمة والتفاهم والنبل. لا يكون للمرء متّسعٌ من الوقت للاهتمام بالآخرين، فما بالكم بالاهتمام بالمدانين من جانب العدالة. وحتى سلطات هذه البلاد مختلفة عن سلطات بلادنا، لأنّها أيضاً مسؤولة عن السلامة العامّة. رغمّ كلّ شيء، يجازفون بأن يواجهوا مصاعب جسيمة، ولكن لا بدّ أنّهم يعتقدون بأنّ الأمر يستحقّ عناء المجازفة قليلاً في سبيل إنقاذ إنسانٍ. وهذا هو الأمر الرائع عندهم.

حصلتُ على بزّة رسمية جميلة لونها أزرقُ بحري، قدّمها لي تلميذي، الذي يحمل اليوم رتبة عقيد. لقد غادر إلى مدرسة الضبّاط منذ شهرٍ واحدٍ بعد أن قُبِل فيها من بين الثلاثة الأوائل في المسابقة. وقد سعدتُ لكوني قد ساهمتُ بعض الشيء في نجاحه من خلال الدروس التي أعطيتها له. قبل أن يغادر، أهداني ثياباً جديدة تقريباً وناسبتني على نحوٍ ممتاز. وسوف أخرج مرتدياً ثياباً لائقة بفضله هو، فرانسيسكو بولانيو، العريف في الحرس الوطني، المتزوّج وربّ الأسرة.

هذا الضابط الرفيع، والذي يحمل رتبة عقيد في الحرس الوطني، شرّفني على مدى ستة وعشرين عاماً بصداقته النبيلة والراسخة التي لم تتزعزع. إنّه يجسّد بالفعل قيم الاستقامة والنبالة وأرقى المشاعر التي يمكن لرجلٍ أن يتّسم بها. على الرغم من موقعه الرفيع في التراتبية العسكرية، لم يكفّ أبداً عن إظهار صداقته المخلصة والوفية لي، ولم يوفّر جهداً في سبيل مساعدتي في أيّ شيء كان. إنني مدينٌ بالكثير للعقيد فرانسيسكو بولانيو أوتريرا.

نعم، سوف أفعل المستحيل لكي أكون وأبقى شريفاً ونزيهاً. المثلبة الوحيدة التي أعاني منها هي أنني لم يسبق لي أن عملت، فأنا لا أجيد القيام بأيّ شيء. وسيكون عليّ أن أقوم بأيّ عملٍ كان لكي أكسب لقمة عيشي. لن يكون هذا بالأمر السهل، ولكنني على ثقة بأنني سأنجح فيه. سأكون بدءاً من يوم غد رجلاً طبيعياً مثل الآخرين. لقد خسرت المباراة، أيّها المدّعي العام: *لقد خرجتُ نهائياً من طريق العفن.*

تقلّبتُ مراراً وتكراراً في أرجوحة نومي، وسط التوتّر العصبي لليلة الأخيرة في محنتي الطويلة كسجين. نهضتُ من فراشي وسرتُ عبر بستاني الذي أحسنتُ الاعتناء به خلال هذه الأشهر المنصرمة. أنار القمر بضوئه المكان كما لو أنّه في وضح النهار، وكانت مياه النهر تجري بلا صخبٍ نحو المصبّ. ولم تكن هناك زقزقة للعصافير، فقد كانت نائمةً في أعشاشها. رأيتُ السماء صافية ومليئة بالنجوم، ولكن القمر كان ساطعاً جدّاً بحيث كان عليّ أن أُدير ظهري له لكي أرى النجوم. يمتدّ أمامي الدَّغَل الذي يخترقه نور القمر فقط في البقعة التي بُنيت عليها قرية إلدورادو. أشاع هذا الهدوء العميق للطبيعة الراحة في داخلي. وخمد توتّري تدريجيّاً ووهبني صفاء اللحظة الهدوء الذي كنتُ في حاجةٍ إليه.

نجحتُ في أن أتخيّل على نحوٍ ممتاز المكان الذي سوف أنزلُ فيه غداً من القارب، لأضع قدمي على أرض سيمون بوليفار، الرجل الذي حرّر هذه البلاد من نير الاستعمار الإسباني والذي أورث أبناءه المشاعر

الإنسانية والتفاهم والتي جعلتني أستطيع، وبفضلهم، أن أبدأ من جديد حياتي الطبيعية.

أنا الآن في السابعة والثلاثين من عمري، وما زلتُ شابّاً. وحالتي الجسدية ممتازة. لم أمرض قطّ مرضاً جدّياً، وأعتقد أنني أستطيع القول بأنّ توازني الذهني طبيعيٌّ تماماً. لم يترك طريق العفن آثاراً مشينة في داخلي. وهذا، على ما أعتقد، لأنّه على الأرجح لم أنتمِ إليه أبداً على نحوٍ حقيقي.

لن يكون عليّ، خلال الأسابيع الأولى من حريتي، أن أجد وسيلة لكسب لقمة عيشي فقط، بل سيكون عليّ أيضاً أن أتدبّر معيشة المسكين بيكولينو. وهذه مسؤولية جسيمة أخذتها على عاتقي. ومع ذلك، ورغم أنّه سيكون عبئاً ثقيلاً على كاهلي، سوف أفي بالوعد الذي قطعته على نفسي للمدير وسوف لن أدع هذا المسكين البائس لوحده إلّا بعد أن أتمكّن من إيداعه بين أيدٍ ماهرةٍ في أحد المشافي.

تُرى هل عليّ أن أُخبِرَ أبي بأنّه قد تمّ إطلاق سراحي وأصبحتُ حرّاً؟ إنّه لا يعرف عني شيئاً منذ سنوات عديدة. تُرى أين هو الآن؟ الأخبار الوحيدة التي حصل عليها عن قضيّتي هي زيارات مديريّة الدرك بمناسبة محاولات فراري من السجن. كلا، لا ينبغي أن أستعجل في هذا الأمر. ليس لي الحقّ في أن أنكأ جرحاً ربّما تكون السنوات الماضية قد تكفّلت بجعله يندمل. سوف أكتب إليه عندما أصبح في حال جيّدة، عندما أحظى بوضعٍ مستقرٍّ، بلا مشكلات، حيث سيكون بوسعي أن أقول له: «أبي العزيز، ابنك حرٌّ الآن، وقد أصبح رجلاً صالحاً وشريفاً. وإنّه يعيش بهذه الطريقة أو تلك. لم يعد عليك أن تخفض رأسك بشأنه، ولهذا أكتب إليك وأحبّك وأُجلّكَ إلى الأبد».

إنّها الحرب، منْ يدري إذا كان الألمان يستقرون في قريتي الصغيرة؟ وأرديش ليست جزءاً مهمّاً جدّاً من فرنسا. لا ينبغي للاحتلال أن يكون كاملاً فيها. ما الذي سوف يذهبون بحثاً عنه هناك غير الكستناء؟ نعم،

فقط حينما أصبح أحسن حالاً وجديراً بالقيام بذلك، سوف أكتب له، أو بالأحرى سوف أحاول أن أكتب لوطني.

إلى أين سأذهب الآن؟ سوف أحدّد لنفسي الإقامة بالقرب من مناجم الذهب لقرية تُدعى لوكالاو. وسوف أعيش هناك خلال السنة التي طلبوا منّي أن أقضيها في بلدة صغيرة. ما الذي سأفعله هناك؟ اللّه أعلم! قلتُ لنفسي: «لا تبدأ بطرح المشكلات لنفسك مسبقاً». هل ستضطرّ لأن تحفر الأرض لكي تكسب خبزك؟ المهم أن تعمل. ولكن عليّ أوّلاً أن أتعلم كيف أعيش حرّاً. لن يكون الأمر هيّناً. منذ ثلاثة عشر عاماً، باستثناء تلك الأشهر المعدودات في مدينة جورج تاون، لم أضطرّ إلى الاهتمام بكسب قوتي. ومع ذلك، فقد أبليتُ بلاءً لا بأس به في جورج تاون. المغامرة مستمرّة، وعليّ أن أبتكر سبلاً لكي أعيش، دون أن أُلحق الأذى بأحد، بالطبع. سوف أرى جيّداً. إذاً، سأنطلق غداً إلى قرية لوكالاو.

إنّها الساعة السابعة صباحاً. أشرقت شمسٌ استوائية جميلة في سماءٍ زرقاء صافية وخالية من الغيوم، وزقزقت العصافير فرحةً بالحياة، وتجمّع أصدقائي أمام بوابة بستاننا، وبينهم بيكولينو، مرتدياً ثياباً مدنية بالكامل ونظيفة، وحليق الذقن. تنفّس الجميع، من طبيعة وحيوانات وبشر، الفرح واحتفلوا بإطلاق سراحي. حضر مع مجموعة أصدقائي ضابطٌ برتبة نقيب أيضاً، وسوف يرافقنا حتى قرية إلدورادو.

قال توتو:

- فلنتعانق، ثمّ انصرف. هذا أفضل للجميع.

- وداعاً، أصدقائي الأعزّاء، حينما تمرّون في قرية لوكالوا، زوروني. إذا كان لي بيتٌ، سيكون بيتكم.

- وداعاً، يا بابيون، حظّاً سعيداً!

وصلنا سريعاً إلى رصيف التحميل وصعدنا إلى القارب. مشى بيكولينو على نحوٍ ممتاز. كان مشلولاً فقط من أعلى حوضه، أمّا ساقاه، فكانتا سليمتين. وعبرنا النهر في غضون أقلّ من خمس عشرة دقيقة.

– هيّا بنا، ها هي الأوراق الثبوتية لبيكولينو. حظّاً سعيداً أيّها الفرنسيان. أنتما حرّان منذ هذه اللحظة. وداعاً!

ليس هناك ما هو أصعب من التخلّي عن السلاسل التي يجرّها المرء منذ ثلاثة عشر عاماً. يقولون لك: «أنت حرٌّ منذ هذه اللحظة»، ثمّ يُديرون لك ظهورهم، متخلّين بذلك عن مراقبتك. وهذا كلّ ما في الأمر. تسلّقنا سريعاً الطريق المفروش بالحصى الصاعد من النهر. لم يكن معنا سوى حقيبة صغيرة جدّاً فيها ثلاثة قمصان وسروال احتياطي. كنتُ أرتدي البزّة الزرقاء البحرية، وقميصاً أبيض اللون وربطة عنق زرقاء متناسبة مع البزّة.

ولكننا كنا نعرف أنّ إعادة بناء الحياة ليست بسهولة إعادة تركيب زرّ مقطوع. وإذا كنتُ اليوم، بعد مرور خمس وعشرين سنة، متزوّجاً بفتاة وسعيداً في كاراكاس ومواطناً فنزويلياً، فقد حدث كلّ هذا عبر الكثير من المغامرات الأخرى، من نجاحات وإخفاقات، ولكن كرجلٍ حرّ ومواطنٍ شريف. ربّما سوف أروي هذه المغامرات يوماً ما، وكذلك الكثير من الحكايات الأقلّ أهمية التي لم أجد لها مكاناً هنا.

الفراشة أو الأدب الشفوي

بقلم: جان فرانسوا ريفيل

لو وجب عليّ أن أسمّي كاتباً من الماضي يذكّرني بهنري شارير، لما تردَّدتُ للحظة واحدة: كنتُ سأسمّي غريغوار دو تور. المقاربة تفرض نفسها على ذهني بقوّة لا تُقاوَم. اقرأوا على سبيل المثال هذا المقطع من كتاب (تاريخ الفرنجة) لأسقف مدينة تور العظيم:

«النزاع الذي نشب بين سكان مدينة تور والذي كان قد انتهى، كما ذكرنا أعلاه، عاد بغضبٍ جديد. كان سيشير، بعد مقتل والدي كرامنسيند، قد ارتبط بعلاقة صداقة عظيمة مع هذا الأخير، وكانا يتبادلان المحبّة والمودّة بحيث يتناولان غالباً طعامهما معاً وينامان في السرير نفسه؛ والحال أنّ كرامنسيند أعدّ ذات يومٍ عشاءً في السهرة ودعا سيشير إلى مائدته. ولمّا جاء هذا الأخير، جلس الاثنان إلى الوليمة. ثمّ، وبما أنّ سيشير الثمل بالنبيذ ذمّ كثيراً كرامنسيند، ويُزعَم أنّه قال له في النهاية: «أنت مدينٌ لي بأفضالٍ كبيرة، يا أخي العزيز جدّاً، بقتل والديك؛ فبفضل الديّة التي تلقيتها، فاض الذهب والفضّة في بيتك، وكنت ستُجرّد من كلّ شيء وتعيش في فقرٍ مدقِعٍ لولا هذا التعويض». ولمّا سمع كرامنسيند هذا، تلقّى بمرارة كبيرة أقوال سيشير، وقال في أعماقه: «إذا لم أنتقم لموت والديّ، لن أعود أستحقّ حمل لقب رجل، وإنّما أن أُدعى امرأة ضعيفة». وفي الحال، بعد أن أطفأ الإضاءة، قطع رأس سيشير بمنشارٍ.

فأطلق هذا الأخير صرخة خافتة في نهاية حياته، ثمّ سقط ومات. تفرّق العبيد الذين كانوا قد جاؤوا معه.

علّق كرامنسيند الجثّة المجرّدة من ثيابها على غصنِ شجيرةٍ، وامتطى حصانه وذهب إلى الملك...»[1].

ارجعوا الآن إلى الصفحتين 33 و34 من رواية (الفراشة)، بدءاً من «عارياً تماماً وسط البرد القارس» وحتى «الأمر الذي منعني من الإحساس بالضربات». نلمس في هذين النصّين قاع السرد نفسه، السرد في حالته المحضة، حيث كلّ شيء ليس إلّا سرداً. الأفعال والأفكار والأقوال، الموسومة بطابع المباغتة نفسه، أو بالأحرى بمزيج غريب من الاجترار والمباغتة، هي ليست ولا يمكن لها أن تكون سوى أحداثٍ. النيّة هنا هي دائماً حقيقة وواقع. التفكير أو الإتيان بحركة لهما الثقل الملموس نفسه الذي يغزو الفرد بأكمله. الكائن البشري هو ما يخطر فجأة على باله، ما يقوله لرفيقٍ أو ما ينفّذه، وهو، في كلّ لحظة، ليس سوى هذا. ولذلك، لم تكن هناك تباينات الشدّة في عالم (الفراشة). وكما هو الحال عند غريغوار دو تور، فإنّ التوجّه إلى شخصٍ أو قتله أو إنقاذه تبرز كصورة تنبثق بعد صورة أخرى في السينما: إنّ الصورة التي تُظهر أزهاراً يداعبها النسيم لا تشغل مكاناً أقلّ على الشاشة من الصورة التي تُظهر زلزالاً. وإذ يكافح الجميع في كلّ لحظة في سبيل حياتهم، ليس هناك ما يستطيع المرء المقامرة به سوى الكلّ، وكلّ الإشارات الخارجية تُفسّر وتُقاس في منظور الكلّ هذا. كما أنّ هؤلاء البشر يتأرجحون دائماً، وفي آنٍ واحدٍ، بين التحسّب والاندفاع، المكر والعنف، النسيان والتذكّر. إن أحد بطلي حكاية غريغوار قد نسي أنّ الآخر كان قد قتل والديه. ولكن حين استعاد هذا التفصيل، قتل ضيفه. وسوف نلاحظ السرعة وحضور الذهن اللذين أطفأ معهما الضوء، الشبيهة بسرعة بابيون التي صبّ بها قدر الماء المغلي

1- ترجمة روبيرت لاتونش. ربّما كان من الممكن أن تُترجَم بعض العبارات بلغة شعبية سوف أتكلّم عنها لاحقاً بشأن لغة (الفراشة)، على سبيل المثال «Crapulatus a vino».

على حارسه. إنّ هكذا تطرّف في ردود الأفعال يؤدّي إلى إيقاع تتحوّل فيه الأوضاع رأساً على عقب في كلّ صفحةٍ تقريباً، سواء بفعل أحد الفاعلين، أو بمشيئة القدر، لأنّه لا يمكن أن يكون هناك، في هذا الرهان الأبدي، أحداث طارئة ثانوية. إن تزاوج التنظيم والمصادفة، هنا أيضاً، حميميٌّ مثل اقتران الرغبة الجامحة في العيش بخفّة مذهلة في فن إثارة الخطر أو الانتقام.

في هذا النمط من السرد، لا يحتاج الكاتب إلى أن يسأل نفسه لماذا يكتب. لا معنى لهذا السؤال بالنسبة إليه. أو بالأحرى يبدو الجواب بديهياً. إنّ العنف الذي عاش به ما يرويه لا يدع مكاناً لأيّ شكٍّ في ذهنه بالنسبة للأهمية التي ينبغي إعارتها له (وهذه قناعة من دونها لا يكون راوياً حقيقياً)، وبما أنّه، من ناحية أخرى، لا يستطيع أن يفكّر بشيءٍ آخر، يقوم بإسعاد الجميع، بمن فيهم هو نفسه، من خلال الانسياق خلف السرد. هذا الاستسلام للسرد، هو النجاح الجوهري، الموهبة الأوّلية التي وحده الآخر يدركها، والتي لا تُكتَسَب.

هذا النجاح لا يمكن له أن يظهر اليوم إلّا في عملٍ لم يولَد من عملٍ آخر، أُريد أن أقول في أدبٍ رفيع. (في الواقع ليس هناك تأثيرٌ أدبي لألبيرتين سارازان على شاريير، ليس لها تأثير سوى على قراره في الكتابة). لا يوجد اليوم كاتبٌ واعٍ، حازمٌ بثقافته، يستطيع التغلّب على التناقضات الجمالية للسرد الخطّي. لم تعد الرواية سرداً، وعلاوة على ذلك، ترفض التصنيف الروائي كنوع.

يجري التساؤل في عصرنا، إلى حدّ الوسواس، عن ماهية الأدب، عن ماهية اللغة، عن ماهية الكتابة، وعن ماهية الكلام. هذه الأسئلة أكثر راديكالية من الأسئلة التي كانت تُطرح حول الفنون الشعرية في الماضي. لا يتمّ الاكتفاء، كما كان الحال سابقاً، بتقييم مشروعية هذا المضمون أو ذاك للعمل الأدبي، ولا صلاحية هذا الشكل أو ذاك. منذ زمنٍ طويل، أصبحت كلّ المضامين مشروعة، ولذلك فقد اختفت كلّها، نظراً لعدم

وجود محظورات. ليس هناك أيّ شيء محظور – أقصد من وجهة نظر جمالية – وبالتالي، لم يبقَ سوى الشكل. لم يكن بالإمكان السير في هذا الاتجاه بطريقة مختلفة. وهنا، على العكس تماماً، كلّ شيء ممنوع، لم يعد هناك سوى ممنوعات. الأدب ليس رسماً ولا موسيقى. فالشكل، الذي حظي بالأفضلية، يفترض في الأدب بالضبط وجود وافتراض محتوى ينبغي تحييده. هدف الكتابة من الآن فصاعداً هو الكتابة، وهدف الأدب هو البحث عن الأدب. أو بالأحرى ينبغي ألّا يكون له هدف حتى – هذا التعبير الذي يوحي بسياقٍ خارج عنه. لقد بات العمل الأدبي حشواً، ولكنّه حشوٌ غير قابلٍ للصياغة بما أنّه ليس هناك أيّ شيء ينبغي تكراره. مخدّراً بالتوالد العذري، يقول الأدب القولَ ويتساءل كيف يمكن لهذا أن يكون ممكناً. ليس الأمر مصادفةً أن تجعل العديد من «الروايات» في هذه السنوات الأخيرة خاصّة «موضوعها» الكاتب في مواجهة مع الكتابة، وتعطي لنفسها، كحبكة، راهنية النصّ الذي يتشكّل، والذي ليس له سبب للوجود سوى القول بأنّه موجود، الأمر الذي يسمح له بالوجود. ولكن العودة الطوعية إلى السرد أيضاً غير مفهومة.

يبدو إذاً أنّ النص الذي يكون، في آنٍ واحدٍ، سرديّاً وليس وثائقياً، موضوعيّاً وشعرياً، منسوجاً من الذاكرة أو من الخيال (لأنّه في هذه الحالة الفرق غير مهمّ) لا يستطيع أن يعود إلى الظهور من الآن فصاعداً إلّا بطريقةٍ متقطّعة، وعلى فترات متباعدة، في بعض الكتب الاستثنائية التي لا يمكن التنبؤ بها، وخارج التاريخ، وغير قادرة على أن تحفّز أو توفّر، دون شكّ، قوّة الاستحضار البصري والوقائعي، ولا تزييفه على مستوى اللغة، التي تتمتّع بنوع من الإعفاء الذي يسمح بتحدّي المدارس والاتجاهات الأدبية – ودونَ معرفة ذلك بكلّ تأكيد. وممّا لا شكّ فيه، لا نجد في هذه الحالة الكتابة إلّا لعدم امتلاكها أبداً، أو اللغة لامتلاكها دائماً. لأنّ الأمر يتعلّق هنا في الواقع باللغة، أعني اللغة الشفوية، وليست الكتابة. في رواية (الفراشة)، الكتابة هي بديلٌ عن الكلام، هي ليست تجاوزاً له أو تحويلاً

فيه كما هي الحال في الأدب المتحذلق. القوة السردية عند شاريير تندرج في الأدب الشفوي، الذي لا يصبح أدباً إلّا من خلال ضرورة «تدوين» السرد لكي لا يضيع. ولكنّ الإيقاع العميق للمفهوم وللتعبير هو إيقاع الفعل وهذا هو ما يجب أن نسعى إلى إيجاده أثناء قراءة الرواية، تماماً مثلما نقرأ مدوّنة موسيقية، ليس لها هدفٌ بذاته، وإنّما وسيلة لإعادة تشكيل وتحقيق المادة الموسيقية برمّتها. في الحقيقة، لم ينتبْني قط إحساسٌ مبهرٌ كهذا بالفرق بين اللغة الفرنسية المكتوبة والفرنسية المحكية إلّا من خلال قراءة رواية (الفراشة). يتعلّق الأمر بالفعل بلغتين مختلفتين. لا من حيث استخدام اللغة العاميّة أو مفردات مألوفة بل من حيث التباينات الجوهرية في التراكيب، والصيغ، والشحنة الانفعالية للكلمات. إن إعادة تشكيل الصياغات الأدبية للغة المحكية، عند سيلين على سبيل المثال، تعاني بالتحديد من افتقارها إلى سمة العفوية والتلقائية. ومن جانبٍ آخر، من النادر جدّاً أن تتمكّن اللغة الفرنسية المحكية، من دون تلاعب وتحايل، من الوصول إلى عملٍ أدبيٍّ ناجزٍ. أمام صفحة الكتابة، تعتقد العبقرية الشعبية بشكلٍ عامّ أنّها مرغمة على استدعاء بعض النتف التي تعرفها من اللغة الفرنسية الأدبية. فتخسر على الجانبين. (وهذه يُطلق عليها بخبث اسم «الروايات العصامية»). ولتجاوز هذا الحاجز المخيف – الثقافة المكتوبة – دون إدراكٍ لذلك، ومن خلال الاحتفاظ بعموم مصادره السردية، مثلما كان يتحدّث المرء، لا بدّ من هذه البراءة الماكرة التي كانت للرسّام دوانيه روسو، والتي امتلكتها رواية (الفراشة) الخالدة «الراوي الذي يجلس تحت شجرة البطم».

المحتويات

من دون شكّ، ما كان لهذا الكتاب أن يظهر لو لم يسمع رجلٌ في الستّين من عمره، في يوليو / تموز من عام ١٩٦٧، في صحف كاراكاس، بعد عامٍ من الزلزال الذي دمّر المدينة، الناسَ يتحدّثون عن ألبيرتين سارازان. كانت هذه الجوهرة السوداء النابضة بالألق والفرح والشجاعة قد ماتت حديثاً. وهي التي اشتهرت في العالم أجمع بنشرها، خلال أكثر من عامٍ بقليل، ثلاثة كتب تروي في اثنين منها حكاية هروبها من السجون وإعادتها إليها.

هذا الرجل يُدعى هنري شاريير، وكان يعود من بعيد. يعود بالتحديد من سجن كايين للأشغال الشاقّة، الذي كان قد «صعد» إليه في عام ١٩٣٣، خارجاً على القانون نعم، ومُداناً، ولكن بتهمة جريمة قتل لم يرتكبها، ومحكوماً بالسجن المؤبّد، أي حتى لحظة وفاته. هنري شاريير، الذي كان يُدعى بابيون - سابقاً - في الوسط الإجرامي، وُلِد فرنسياً في كنف عائلة من المعلّمين في بلدة آرديش، ولكنّه أصبح فيما بعد فنزويلياً، لأنّ الشعب الفنزويلي فضّل أسلوبه في حبّ الحياة على سجلّه الجنائي ولأنّ ثلاثة عشر عاماً من الفرار والكفاح من أجل النجاة من جحيم سجن الأشغال الشاقّة كفيلة بأن ترسم مستقبلاً لا ماضياً.



إذاً، في يوليو / تموز ١٩٦٧، ذهب شاريير إلى المكتبة الفرنسية في كاراكاس واشترى رواية «الكاحل». كان يوجد على شريط الكتاب رقمٌ: ١٢٣٠٠٠. قرأ الرقم وقال في نفسه، بكلّ بساطة: «هذا جميل، ولكن إذا كانت الفتاة، بعظمها المكسور، المتنقّلة من مخبأ إلى آخر، قد باعت مئة وثلاثة وعشرين ألف كتابٍ، فأنا، بفضل سنواتي الثلاثين من المغامرات، سأبيع ثلاثة أضعافها».

إنّه استنتاجٌ منطقي ولكن لا يعود المرء خطيراً، منذ نجاح ألبيرتين من بين آخرين، وهو يَملأُ طاولات الناشرين بعشرات المخطوطات من دون أمل. لأنّ المغامرة والبؤس والظلم مهما بلغت شدّتها لا تصنع بالضرورة كتاباً. بل ينبغي أن يجيد المرء كتابتها، أي أن يمتلك هذه الموهبة التي تجعل القارئ يرى ويشعر ويعيش، في داخله، كلّ ما رآه وشعر به وعاشه مَنْ كتب العمل.

وهاهُنا، كان لشاريير حظٌّ كبير. فهو لم يفكّر لمرّة واحدة أن يكتب سطراً واحداً عن مغامراته: إنّه رجل أفعالٍ وحياةٍ ودفءٍ، وفي عينِه الماكرة عاصفةٌ عاتية، وذو صوتٍ جنوبيّ دافئ وخشن بعض الشيء والذي يمكننا الإصغاء إليه لساعات طويلة لأنّه يروي مثل أيّ شخصٍ، أي مثل كلّ الرواة العظام.




9 789933 617141